

هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ

وعلى القرآن العظيم
الفهم الحيوي للقرآن



بقلم الباحثة

مكيّة قاسم البعيراني

بمبنى بالدراسات القرآنية

المجلد الثالث

من الجزء (٢١، ١٦) من القرآن الكريم

من سورة مريم (١٩) إلى نهاية سورة لقمان (٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْعَلِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ
الأحد / ٢٠١١

وَسِيحَةُ الْقُرْآنِ الْعَلِيِّ

الفردوس المحيوي للقرآن



من الجزء (١٦-٢١) من القرآن الكريم

المجلد الثالث

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

يعنى بالدراسات القرآنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْعَلِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأَنْفَال/ ٢٩

وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ

الْفَهْمُ الْحَيَوِيُّ لِلْقُرْآنِ (ج ٣)

قال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف/ ١٠٨

قال تعالى : ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِبَةٌ ﴾ الحاقة/ ١٢

فَهْمُ الْقُرْآنِ الْمَلِيسَةِ

الفهم الحيوي للقرآن

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ الإسراء/ ٩

عن النبي (ص) : (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُتَوِّرِ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر ٢٤٥٤ .

يُتَوِّرُ : يَتَدَبَّرُ ، يَتَعَمَّقُ ، يَبْحَثُ

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

يُعْنَى بِالذَّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

المجلد الثالث

من الجزء (١٦-٢١) من القرآن الكريم

من سورة مريم (١٩) إلى نهاية سورة لقمان (٣١)

السيرة الذاتية المختصرة للكتاب (هوية الكتاب)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

-العنوان (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّر) بمعنى : كما أنّ القرآن ميسر نصّاً لكلّ الناس بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/ ٣٢ ، فالمطلوب والمرغوب أن يكون تفسيراً ميسراً لكلّ الناس أيضاً ، ميسراً في معناه ومبناه ، وعميقاً في مغزاه وواسعاً في دلالاته ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟! أي متذكّر ، ومعنى الميسر غير معنى المختصر ، أي تفهّم معنى الآية الكريمة بشكل عام والتركيز على المهم وبأسلوب حيوي سهل الفهم ، وبلا تطويل ممل ولا اختصار غير مستوف ، إنّه الفهم الحيوي للقرآن يبعث الحيوية والحياة في النفوس والذي يشرح الصدور ويطمئن القلوب ، الذي يعتمد خير الكلام ما قلّ ودلّ ولا يمل ولا يتعد عن القصد قال تعالى ﴿هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام/١٥٥.

-المؤلف : الباحث مكي قاسم البغدادي (يعنى بالدراسات القرآنية) .

- المجلد الثالث : يحتوي من الجزء ١٦ - ٢١ من أجزاء القرآن الكريم.

من سورة مريم (١٩) إلى نهاية سورة لقمان (٣١)

-عدد الصفحات المجلد الثالث: (٧٧١)

-قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم

-الإخراج الفني : المهندس أحمد كاظم العامري

-سنة الطبع ٢٠٢٠ - الطبعة الأولى -

الناشر : بساتين المعرفة



طباعة - نشر - توزيع / كتب : تراثية ، علمية ، دينية

العراق - بغداد - شارع المتنبي

سوق السراجين قرب مكتبة دار الكتب العلمية

mob: 07902278551

eimal: basatenmaraf@yahoo.com



ISBN: 9 78-9922 20-734-6 : الرقم الدولي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣١٠٩ لسنة ٢٠١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



قال تعالى :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَوَسِعَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف/ ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ

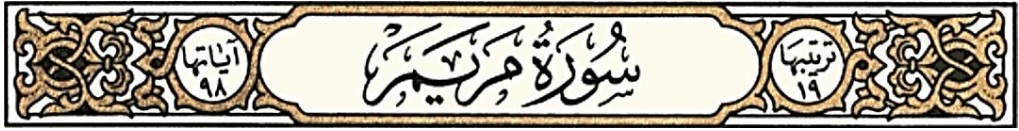
الحمد لله وصلوات ربنا وسلامه على سيدنا محمد وآله الطاهرين
الحمد لله الذي منّ علينا إتمام هذا المجلد من (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبِينِ) تدقيقاً لغوياً، وجدناه
يستند على منهج سليم في التدبر الجميل للنص القرآني قال تعالى (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ)
النساء/٨٢، فكان منهج البحث يعتمد كيف نعي النص؟ وكيف نتفاعل معه؟، ويكون
الكتاب متوازناً، لا هو مختصر لا يستوفي المعنى، ولا هو مطول فيكون للخواص والنخب،
وأما كان مبسّراً بموضوعية واعتدال، ويعتمد المنهج الحيوي المعاصر، الذي تستمتع
النفوس بقراءته، ويستند الأسلوب الأدبي الجذاب، الذي يشوّق النفس بمتابعته، والذي
قاعدته الدلالة القرآنية والعقلية والنقلية والواقعية التي لا تتعارض مع نصوص القرآن، مستعيناً
في شرح معنى الآية الكريمة بآيات قرآنية أخرى تفتح آفاق النص وإحباطه، ليكون أفضل
وسيلة لفهم القرآن، أن يفسر القرآن بعضه بعضاً، مستعيناً بأحاديث النبي وآله (ع)
الصحيحة التي لا تتعارض مع آيات القرآن. ويعتمد (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبِينِ) على ما يلي:
١- المنهج العالمي للقرآن (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، ٢- المنهج الحيوي،
والأسلوب الأدبي المشوّق، الذي يوحد ولا يفرّق، ٣- يعتمد الأحاديث الصحيحة، ٤-
يعتمد البحث على التيسير والتعميق بلا تبسيط ولا اختصار، فكان مبسّراً شفافاً سهل الفهم
بعيداً عن التعقيد، ومبسّراً بطريقة فنية فريدة بعيداً عن التسطّيح. فيكون (القرآن ميزان
دقيق: فمن وقى، استوفى).

اللهم اجعلنا ممن يتذكّر فتنفعه الذكرى، ومن يستمع القول فيتبع أحسنه

وآخر دعوانا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

أستاذ اللغة العربية

ضياء الجادري



من مقاصد السورة

مكية، غرضها التوحيد، تنزيه الله تعالى عن كل نقص، تثبيت عقيدة الإيمان بيوم القيامة، وبوجود الله، بيان منهج المهتدين والضالين، عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء كزكريا وولده يحيى، وقصة مريم العذراء وميلاد عيسى، من أم بلا أب، وقصة إبراهيم مع أبيه، ثم ذكرت بالثناء على إسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ونوح، والهدف من ذلك إثبات وحدة الرسالة السماوية في منهج الله على أساس التوحيد الخالص، سميت (سورة مريم) تخليداً لتلك المعجزة الخارقة أن يلد عيسى (ع) بلا أب، وتكلم في المهد وهو طفل حديث الولادة! وختمت السورة بتنزيه الله عن الولد والشريك، وردّ ضلالات المشركين، عدد آياتها ٩٨، رقمها ١٩ الجزء السادس عشر (فضلها) : عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ أَدَمَّنَ قِرَاءَةَ سُورَةِ مَرْيَمَ (ع) لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُصِيبَ مَا يُغْنِيهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ) مجمع البيان ٣ ص ٥٠٠

ملاحظة : (هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿كَيْص﴾

تقرأ (كاف هاء ياء عين صاد) حروف مقطعة للتنبية على إعجاز القرآن، حيث القرآن مؤلف من نفس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الاتيان بمثله أو بعضه، فهم لا يقدرّون على فصاحته وبلاغته وعمق علومه، لأنه (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) النساء/١٦٦، وقيل: إنّ أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى الإصغاء إليه والتدبّر في معانيه ومبانيه.

٢ - ﴿ذِكْرُ مَرْحَمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا﴾

بدأ سبحانه السورة بقصة زكريا ويحيى والرحمة وقوامها، وبدأت بدعاء زكريا لربه في خشوع وطلب رحمته سبحانه وكيف رحمه. كقوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأعام/٥٤) (عَبْدَهُ زَكْرِيَّا) ووصفه الله بالعبودية (عَبْدَهُ) للدلالة على شموّ مقامه وعلو رتبته. عن النبي (ص) (تَعَرَّضُوا لِرَحْمَةِ اللَّهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ) تنبيه الخواطر ص ٣٦٠ . في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنْ أُصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ! على قدر العبودية تكون المنزلة ويكون القرب ويكون رضا الله تعالى.

٣ - ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ) إذ دعا الله سبحانه بينه وبين ربه (نِدَاءً حَفِيًّا) دعاءً في السر حيث لا يسمعه أحد، والدعاء الخاص الحفي للملهورف أقرب للإخلاص والإجابة، وأبعد عن الرياء وأكثر استحباباً عن النبي (ص) (حَيَّرَ الدُّعَاءَ الْحَفِيَّ، وخير الرزق ما يكفي) مجمع البيان ٤٥٩/٦ .

٤ - ﴿قَالَ رَبِّ ابْنِي وَهَنْ الْعَظْمِ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾

دعاء في ضراعة واسترحام يكشف عما يتقل كاهله، يشكو إلى ربه (وَهْنُ الْعَظْمِ) أي ضعفه وحين يضعفُ العظم يكون الجسم كله قد ضَعُفَ، لأن العظم أصلب ما في البدن فضعف العظم إشارة إلى ضَعْفِ البدن (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) والتعبير القرآني استعارة بلاغية، فهو يصوّر ويشبّه الحالة الواقعية بطريقة حسية، تُحَرِّك الضمائر وتؤثر في المشاعر والأحاسيس، أي وانتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم، وجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، ووهن العظم واشتعال الرأس شيئاً كناية عن الشيخوخة ومعاناتها (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) خائباً ومحروماً. المعنى : معترفاً بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه في الشدة والرخاء فضلاً منه ورحمة، إذا دعاه فلم يشق مع دعائه لربه وهو في فتوته وقوته، فما أحوجه الآن في هرمه أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه. فائدة : (قَالَ رَبِّ) بلا واسطة ولا وسيلة حتى ولا حرف النداء (يا) لأنه محذوف، وهكذا يريدنا الله تعالى أن ندعوه مباشرة بلا واسطة، وتعلق به في كل أمر وفي كل حين بلا وسيلة، ومن ذكر الله في الرخاء ذكره الله وقت الشدة كقوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر / ٦٠، وإن ربه ليسمع ويرى حاله في غير دعاء، ولكن بالدعاء ربط علاقة ودّية بين المخلوق المحتاج الضعيف وخالقه القوي الكريم، فيكون الدعاء سلاح المؤمن، وقربان كل تقى، والدعاء: يدفع البلاء، ويرد القضاء، ويُنزل الشفاء. عن الإمام الباقر (ع) (لا تحقروا صغيراً من حوائجكم، فإن أحب المؤمنين إلى الله أسألهم) البحار ٣٤٦/٩٣.

٥ - ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾

المَوَالِيَ : أقارب الرجل عمومته من جهة الأب. المعنى : (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ) بني العم والعشيرة ومن يتولون أموري (من ورائي) أي وإني خشيت من بعد موتي أن يضيّعوا الدين، ولا يُحسنوا وراثته العلم وأمانة الرسالة والنبوة، ويسيوؤوا إلى الناس ويفسدوا عليهم دينهم وديناهم، إذ لا وارث لي غيرهم، وهو يعرفهم غير صالحين لتحمل المسؤولية الرسالية، وغير مؤهلين للقيام على ذلك التراث الضخم، وهو دعوته التي يقوم عليها (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) عقيماً لا تلد (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) فارزقني من خالص فضلك فوق الأسباب (ولياً) ولداً صالحاً من صلي يتولاني ويحسن وراثتي ويحمل أمانة النبوة من آبائه وأجداده، ويخلفني فيما أترك.

٦ - ﴿مِرْيَتِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

(بِرَّثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) أجداده مادياً ومعنوياً، يرثني العلم والرسالة والنبوة والمال كقوله ﴿وَأَوْزَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ غافر/٥٣ أي وراثته العلم وقوله ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ النمل/١٦ وراثته السلطة والملك والمال والنبوة، والآل: هم الخاصة المقربة الذين يؤول إليهم أمره (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) واجعله رب مرضياً عندك في علمه وعمله وحسن تعامله مع الناس جميعاً، في غرر الحكم (مَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ حَسَّنَ مَعَشْرَهُ) والخُلُقُ مرآة الدين عن النبي (ص) (الإِسْلَامُ حُسْنُ الخُلُقِ) كثر العمال خبر ٥٢١٥، فائدة: ١- قدّم زكريا في دعائه على طلب الولد ثلاث مقدمات، أولاً كونه ضعيفاً، وأن الله ماردّ دعاءه أبداً، وكون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين، وبعد ذلك صرّح بسؤال الولد مما يزيد تأكيد الدعاء، ٢-(رَضِيًّا) مقام الرضا المتبادل بين الخالق والمخلوق، رضا الله عن الإنسان ورضا الإنسان عن الله تعالى كقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ البينة / ٨ وهذه من أعلى المقامات وهو الفوز العظيم.

٧ - ﴿يَا مَرْكَرَبًا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾

أتت الاستجابة بسرعة للرعاية والحماية والهداية، فالربُّ سبحانه ينادي عبده من الملاء الأعلى (يَا زَكَرِيَّا) ويعجّل له البشرى (إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ) الغلام: ولد ذكر، أي ويغمره بالعطف والرضا فيختار له اسم الغلام الذي بشره به قبل أن يحيى وكأنه جاء تشريفاً له (اسْمُهُ يَحْيَى) وهو اسم مميز غير مسبوق (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) لم يُسمَّ باسم يحيى أحد قبله، سمّاه الله تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه أو يراد (سَمِيًّا) المثل والشبيه في الفضل والكمال والجلال، لم نجعل له من قبله أحداً مثيلاً له، له خصائص مميزة شخصية نموذجية آتاه الله الحكم صبيّاً وقوله ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ آل عمران / ٣٩ أي يحصر نفسه ويحبسها عن الشهوات. ويعيش حياة العزوبية كعيسى بن مريم (ع)، وهذه مرتبة عالية من الزهد والحصر استثناء عن القاعدة، حيث القاعدة التزويج ضمن قانون الزوجية العام كقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات / ٤٩، فيكون حصر النفس هو الاستثناء غير الملزم على الآخرين، لأنه بيان تسامي النفس النموذجي عن مطالبها الجسدية ولذاتها الذاتية. فائدة: (سَمِيًّا) إنها تسمية الله الخاصة له (يَحْيَى) لها دلالتها العميقة، فلا بد أن يتحقق معنى الاسم في مسماه، ويظهر في مضمون حياته، وينطبق عليه في حياه ومماته، فإنه يحيى نبياً عزيزاً، وسيموت مجاهداً شجاعاً مكرماً شهيداً في سبيل الله، من أجل نصرة حكم الله كقوله ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران / ١٦٩، ليضلّ حياً مكرماً كما سماه الله (يحيى).

٨ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي بَعُوثٌ غُلَامٌ وَكَأَنِّي كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

إنه يعيش الواقع ويواجهه معه وعد الله والثقة به سبحانه، ولكنه يريد أن يعرف (أَنِّي) أي أين وكيف يكون تحقيقه؟ كيف يكون له غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب، ليس هذا

استبعاداً بل تعظيماً لقدرة الله (وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا) وكانت امرأتي كبيرة السن عاقر لم تلد في شبابه فكيف تلد وهي الآن عجوز لا يرجى معه أمل وهو شيخ كبير هرم (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) وقد بلغت في الشيخوخة سن اليأس الذي لا أمل له في الولد. فائدة ١- (عِتِيًّا) وهو كناية عن بطلان شهوة النكاح نتيجة كبر السن، قيل: كان له من العمر تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون .

٩ - ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾

قال الوحي لزكريا وهكذا الأمر الحقيقي أخلقه من شيخين كبيرين (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) وخلقه وإيجاده سهل هيّن يسير عليّ، فسبحانه يخلق الشيء من لا شيء كقوله ﴿ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ التغابن/٧ فالأشياء لديه سواء لا يحتاج وجودها إلا إلى كلمة (كُن) فيكون (فَمَا يَشَاءُ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) كما خلقتك من العدم ولم تكن شيئاً مذكوراً، فأنا قادر على خلق يحيى منكما، وليس في الخلق هيّن وصعب على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير والجليل والحقير واحدة لأنه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج / ١٦ وإنما هو (هَيِّنٌ) في اعتبار الناس (لتقريب المعنى إلى أذهاننا) والله تعالى هو الذي جعل العاقر لا تلد وجعل الشيخ العقيم لا ينسل، وهو الذي يُغيّر هذا النظام بقدرته التي لا حدود لها، فيعيد إليه وإلى زوجه القوة التي بها يمكن أن ينشئ منها الولد ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ الأحزاب/ ٣٧ .

١٠ - ﴿فَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

قال رب اجعل لي آية) علامة تدل على حمل امرأتي ليطمئن قلبي (قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) قال علامتك أن لا تقدر أن تكلم الناس ثلاثة أيام بلياليها دون إرادتك (سَوِيًّا) وأنت سوي سليم الصّحة ومن دون علة ومرض، وقادر على ذكر الله ومناجاته، بمعنى : حسب لسانه من دون خرس مع الناس، وكان يكلم قومه بالإشارة، ولكنه ينطق مع الله إذا سبّحه ومجّده وعبده، فائدة: تأمل قدرة طلاقة الله: شاء الله لزكريا الولد بغير أسباب، وهنا منع الكلام عنه مع وجود الأسباب! كقوله ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج / ١٦، وإرادته حكمة ومصلحة.

١١ - ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

أشرف على قومه من مصلاه، وسمي المحراب محراباً لأنه مكان التوجّه لله سبحانه في صلواته، فيكون في حرب مع الشيطان بكيدة ووساوسه التي تمنع فكر الإنسان من التركيز (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) فأوحى: بطريقة وحي الإشارة، فأشار إلى قومه أن صلّوا (وَسَبِّحُوا) ونزّهوا ربكم واذكروه (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) في أوائل النهار وأواخره، على هذه النعمة الكبيرة التي منّ الله بها عليّ وعليكم وزادت في قوة إيمانكم وبقينكم ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣، فائدة:

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمُ) الوحي: إعلام من الله للرسول بأية طريقة ممكنة: بالإلهام أو بالكلام أو بالملائكة أو بالإشارة أو بالمنام .. راجع الوحي في كتاب الله ثمانية أوجه، سورة النحل/٦٨.

١٢ - ﴿يَا حَيُّ خُذْ كِتَابَ بَقْوَةِ وَأَيْتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبياً فلما وصل إلى الرشد مبكراً، أمره الله أن يأخذ الكتاب أي التوراة ويعمل مافيها (بِقْوَةٍ) بجد واجتهاد وعلم وعمل وعقل ووعي، وبحرص وإرادة، وينهض بالأمانة عن الإمام الصادق(ع) (وَمَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوَّيْتُ عَلَيْهِ النَّبِيَّةَ) البحار ٧٠ / ٢٠٥ وذلك في حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه كقوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ البقرة / ٦٣، (والقوة) دلالة على العزيمة والعلم ومضاعفة القدرة وعدم التراخي والكسل والفشل والملل، وهذا يدفع الى حفظ الدين والالتزام بمنهجه، فلا بد من الصلابة والثبات على الاستقامة في جميع الأحوال والأشكال، وعدم التقلب والتغيير والتحوّل والتذبذب وأزدواج الشخصية، فعندما أخذ كتاب الله (بِقُوَّةٍ) أي بإخلاص وعلم في حفظه ونشره، وهو في زمن الطفولة فأصبح قانوناً عاماً للبشرية، واعتماد القوة من معاني الحزم والعزم والجزم، في غرر الحكم (من الحزم صحّة العزم، من الحزم قوّة العزم) وفيه أيضاً (من قلّ حزمه ضَعُفَ عزمه، ولا خير في عزم بلا حزم) (وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) عندما تفاعل وتعامل مع التوراة (بِقُوَّةٍ) بجد واجتهاد تأهل لأن يعطيه الله (الحُكْمَ) أي الحكمة والعلم والفهم والرشد ورجاحة العقل والذكاء والفتنة، ومؤهلات القيادة والسيادة، ما لا يوجد في غيره منذ الصغر أي أعطيناه الفهم لكتاب الله (التوراة) (صَبِيًّا) في حال صباه، ووقفه الدين ومعرفة فلسفة الحياة قبل بلوغ سن الرجال، ثلاثة أوتوا النبوة في صغرهم، النبي سليمان وعيسى ويحيى (ع)، ثلاثة أيضاً أوتوا الإمامة في صغرهم الإمام الجواد والهادي والمهدي(ع). عن الرضا(ع): (إِنَّ الصَّبِيَّانَ قَالُوا لِيَحْيَى أَذْهَبَ بِنَا لِنَلْعَبَ؟ فَقَالَ مَا لِلْعَبِّ حُلُقُنَا) مجمع البيان ٦ / ٤٦٧، عن النبي(ص): (وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) أعطي الفهم والوعي والعبادة وهو ابن سبع سنين، فكان مميزاً في اسمه، نموذجياً في مسماه، وفي قوله وفي فعله وميلاده ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة / ٢٦٩ وإنما سميت النبوة حكماً لأن الله تعالى أحكم عقله وتممه في صباه وأوحى إليه.

١٣ - ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَمَرَكَاتٍ وَكَانَ تَقِيًّا﴾

(وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا) فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعطفاً عليه من الله بتولي أمره (وَزَكَاةً) طهارة ونماء وصفاء نفس وتهذيب عادات وطبائع، وتركية له من السلبيات وتطهير ذاتي له من الصفات المذمومة، فكانت تربيته النموذجية التخلي عن السلبيات ثم التحلي بالايجابيات، وهذه من مقدمات العصمة، في غرر الحكم (لَا حِكْمَةَ إِلَّا بِعِصْمَةٍ) (وَكَانَ تَقِيًّا) وقى نفسه من المعاصي، وطهر نفسه من الذنوب، وتورّع عن المحارم والعيوب (والتقوى) قمة الأخلاق وسيرة الأنبياء

وصفات الصلحاء، في غرر الحكم (بالتَّقْوَى قَرِنَتْ الْعِصْمَةُ) فائدة ١ - ومنحناه من عندنا صفات تكاملية نموذجية مميزة بدون توسط الأسباب الطبيعية العادية، منها (وَحَنَانًا) وعطفًا وانجذاباً وحباً وقرباً إلهياً خاصاً غير مألوف بينه وبين ربه، وبينه وبين الناس رحمة بالناس، حتى يخلصهم من خيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة، وزكيناها بحسن الثناء عليه وطهرناه بالعفة والنزاهة والهيبة وسلامة القلب، وهذبناه بالطباع الطيبة والعادات الجاذبة الحميدة، وكان ينمو نموّاً روحياً عرفانياً سامياً على هذا الحنان والرحمة والشفافية، في غرر الحكم (دُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَاهَا إِلَّا دُؤُوبُ التَّهْدِيبِ وَالْمِجَاهَدَاتِ) (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا) والحنان اشفاق وهبة لَدُنِّيَّة ربابية لا يتكلفه ولا يتعلمه وإنما هو مطبوع عليه ومطبوع به، والحنان صفة رحيمة ضرورية للنبي المكلف برعاية القلوب وهداية النفوس كقوله تعالى يصف نبيه مُحَمَّدًا (ص) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ آل عمران/ ١٥٩ وقوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة / ١٢٨، فهناك رافة الله بيحي وحبٌ يحيي الله، وكذلك عطف الناس ومحبتهم ليحي ومحبة يحي للناس، كل ذلك شعاع من الحنان اللدني الخاص المتألق النموذجي المميز الإلهي.

١٤ - ﴿وَبَرًّا بِالذِّهْنِ وَكَدِيمًا كُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

بر الوالدين ضد العقوق، وجعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما طالباً مرضاتهما، ولم يكن (جَبَّارًا) متكبراً، بل طبيعته التواضع (عَصِيًّا) ولا عاصياً لربه، ولم يكن (جَبَّارًا) متعالياً على الناس كقوله ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء/ ٢١٥ وقوله ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران / ١٥٩ بل كان رؤوفاً رحيماً بهم ناصحاً متواضعاً لهم يتحمل أذاهم وجهلهم، ويعين ضعفاءهم ويهدي المسترشدين منهم، في غرر الحكم (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) عن الإمام علي (ع) (المؤمن: نَفْسُهُ مِنْهُ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ) فائدة: ١ - من مقومات العيش بسلام، والموت بسلام، والبعث بسلام، أهمها : التقوى وبر الوالدين واجتناب المعاصي وعدم والطغيان .

١٥ - ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) تحية مباركة ليحي من ربه ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ يس / ٥٨ وسلام وأمان عليه مما يؤذيه فهو في رعاية الله وعنايته وأمنه وأمانه مما يكرهه وفي كل المواطن، أي سلام وأمان منذ ولادته إلى يوم قيامته، وأهمها سلام (يَوْمَ وُلِدَ) حيث أنتقل من العدم إلى الوجود، وسلام (يَوْمَ يَمُوتُ) وهو ثاني عالم يدخله وهو عالم البرزخ عالم تحرر الروح من قيود الجسد المادي، ويعيش فيه في روضة من رياض الجنة لأنه سيموت شهيداً، والشهادة أفضل أنواع الموت، فهي تعطيه حياة مميزة موصولة بالحياة الآخرة (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) وسلام (وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) وهو ثالث عالم يدخله وهو عالم يوم القيامة للحساب والجزاء، فيعيش فيه الحياة الحقيقية النموذجية بلا تعب، إنها

ثلاثة أيام أعلام أساسية فيصليّة في حياة كل إنسان مؤمن وغير مؤمن، من الرّشاد الاستعداد ليوم المعاد، عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ: مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ فائدة: ١-
جاء السلام والأمان في أهم المواطن التي يكون فيها الإنسان في غاية الضعف والحاجة والوحشة والافتقار إلى رحمة الله، فهو سبحانه حيّاه وأمنه ورعاه وحماه وهداه في ثلاث أيام صعبة في حياة الإنسان (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) يوسف / ٢٢ - ٢ (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) هذا السلام كناية عن أن يحيى مرضي عند الله في دنياه وآخرته، لأن صفاته النموذجية التي حصّنته وحصّنها، أدّت به إلى منزلته السامية، وهكذا تكون النتائج كالمقدمات .

١٦ - ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

واذكر يا محمد في هذا الكتاب قصة مريم وولادتها عيسى من دون أب بطريقة إعجازية، وصلاحها ليقنتدي بها الناس (إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) حين (انتبذت) انفردت واعتزلت أهلها في مكان شرقي بيت المقدس أو شرقي دار أهلها للتفرغ لعبادة الله، لذلك يصلي النصارى إلى المشرق، متى أوحشك الله من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به سبحانه !.

١٧ - ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾

فاستترت عن أعين الناس واعتكفت بوضع حجاب ساتر بينها وبينهم في مكان مستقل، فخلّصت بنفسها لتشف روحها أكثر ويطمئن قلبها إلى انفرادها وخلوتها مع ربها للقرى منه سبحانه (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) فأرسلنا إليها جبرائيل (ع) (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) وقد تمثل إليها بصورة رجل تام الجمال سوي فائق في الحسن، فخافت منه وذعرت لهذه المفاجأة، إنسان غريب يقتحم عليها اعتكافها من غير استئذان وهي بنت عذراء في عزلتها !.

١٨ - ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾

فلما رآته فزعّت وخشيت أن يهّمّ بها بسوء، فقالت إني (أَعُوذُ) ألتجئ واعتصم (بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ) وأنا في حفظ الله تعالى، فاخرج من عندي إن (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) تخاف الله، ولا تتعرض لي بسوء في هذا المكان الخالي، خوْفته من الله لأنها لا تملك وسيلة لردعه في مقامها هذا سوى التخويف من الله تعالى .

١٩ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾

هدأ جبرائيل من خوفها، اطمئني لا يقع مني شر ولا يصدر مني ما تخافي منه، ولكني (رَسُولُ رَبِّكِ) أنا ملاك لا إنسان، وقدّيس لا شيطان، بعثني إليك (لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا) لأمنحك ولداً ذكراً (زَكِيًّا) طاهراً خالصاً من العيوب والنواقص، ومعصوماً عن الخطأ والذنوب نامياً على الخير. وقد

أضاف الهبة إلى نفسه (لَأَهْبَ لَكَ) لأنها جرت المعجزة الخارقة على يده، بأن نفخ في جيبها بأمر الله تعالى .

٢٠ - ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِبَعِيًّا﴾

الاستفهام للتعجب من هذا، وهي لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلة وهو يستغل طبيعتها ويصارعها بما يחדش سمع الفتاة العفيفة النظيفة الخجول، قالت كيف يكون لي غلام؟ (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِبَعِيًّا) بعياً : فاجرة، ولست بذات زوج ولا أقدم على الخيانة والفجور والسفاح فكل شيء دونه حتى الموت، ومن أحصنت فرجها لا تحمل، ومن اعتمدت العفة لا تزني، وَالْعَفَافُ زَيْنَةُ الْأَشْرَافِ .

٢١ - ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

قال جبريل (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) كذلك الأمر حكم ربك بمجيء الغلام منك، وإن لم يكن لك زوج، وقوله سبحانه الفصل العدل لا يمتنع عليه فعل ما يريده ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ الروح / ١٦ وكلما يريده خاضع للحكمة وهو هَيِّنٌ سهل عليه كقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم / ٢٧ (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا) نخلقه بنفخ الروح من غير أب لنجعله (آيَةً) علامة اعجازية خارقة للناس على كمال قدرتنا، وآية أبدية مؤثرة يرددها الزمن في كل جيل كقوله ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الأنسان / ٣١، (وَرَحْمَةً مِنَّا) بالعباد ليهتدوا بهداه وإرشاداته ولأسباب أخرى بعضها أعظم من أن يحيط به فهم أو يفهمها لفظ (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) محتوماً أي وكان هذا الأمر قد قضاه الله في سابق علمه ومضى به حكمه فهو أمر لا يتغير ولا يتبدل كقوله ﴿وَكَانَ أَمْرًا لِلَّهِ مَفْعُولًا﴾ النساء / ٤٧ عن الإمام الباقر (ع) (تَنَاوَلَ جِبْرِيْلُ جِيبَ مُدْرَعَتِهَا (ثَوْبُهَا) فَنَفَخَ فِيهِ نَفْحَةً، فَكَمَلَ الْوَلَدُ فِي الرَّجْمِ مِنْ سَاعَتِهِ، كَمَا يَكْمُلُ الْوَلَدُ الطَّبِيعِيُّ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، فَخَرَجَتْ وَهِيَ حَامِلٌ مُثْقَلٌ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا خَالَتُهَا فَأَنْكَرَتْهَا، وَمَضَتْ مَرِيْمٌ عَلَى وَجْهِهَا مُسْتَحِيَّةٌ مِنْ خَالَتِهَا وَمِنْ زَكْرِيَّا) نور الثقلين ٣/٣٢٨، فائدة: ١- (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) كقوله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ الأنفال / ٤٢، وان الله يجري القضاء على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، لا على ما ترتضيه النفس البشرية، عن النبي (ص) (مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدْرِ، هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ). وروي (لَوْ إِطْلَعْتُمْ عَلَى الْعَيْبِ لَرَضِيْتُمْ بِالْوَاقِعِ) !

٢٢ - ﴿فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَذَتْ فِي مَكَانٍ قَصِيًّا﴾

إنها حملت بالجنين عيسى (ع) في بطنها (فَاتَّبَذَتْ فِيهِ) فاعتزلت مكاناً بعيداً عن أهلها وعن الناس حياء منهم، وَالْحَيَاءُ مِنَ الدِّينِ، خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج، وهي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية!، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ مَرِيْمَ حَمَلَتْ بِعِيْسَى تِسْعَ سَاعَاتٍ، كُلَّ سَاعَةٍ

شَهْرُ) جمع البيان ٦ / ٤٧٦، فائدة: ١- نلاحظ السياق القرآني يُصَوِّرُ المشاهد بمرحلة سريعة اعجازية خارقة غير مألوفة وغير معروفة وبلا فواصل زمنية، لتدل على حدث سيحدث مؤثر بالغ الأهمية في حركة السنن التاريخية، من قوله (لَأَهْبَ لَكَ غُلَامًا) وقوله (فَحَمَلَتْهُ) وقوله (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ) وقوله (فَنَادَاهَا) ... وغيرها، وفيه دلالة واضحة على أن يد القدرة هي التي أرادت، وهي التي تدبّر الأمر كقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ وقوله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف / ٢١ . لتكون عنصر الإرادة الإلهية، وأداة القدرة الربانية المختارة.

٢٣ - ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾

فأجأها (المخاض) ألم الطلق وشدة الولادة إلى (جذع النخلة) ما يشعر بأن ساق النخلة اليابسة ليس لها سعف لتستند إليها وتضع حملها، وهي وحيدة فريدة تعاني من آلام جسدية ونفسية، وتعاني من حيرة العذراء الباكر في أول ولادتها، ولاعلم لها بشيء ولامعين لها في شيء غير الله تعالى هو وليها ومولاها، فلما وضعته قالت استحياء من الناس أن يتهموها، فعاشت حالة من الاضطراب النفسي، في كيفية مواجهة الأهل والناس، فأثقل عليها هذا الاضطراب حتى (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا) قالت ياليتني مت قبل هذا الأمر الغريب وكنت (نسيًّا) شيئاً لاقيمة له ولا يعرف ولا يذكر الذي من شأنه أن ينسى، (منسيًّا) لا يذكره أحد، عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة زاهدة تصبح عاهرة زانية! عن الإمام الصادق (ع) (يَا لَيْتَنِي مِتُّ.. (لَأَنَّهَا لَمْ تَرِ فِي قَوْمِهَا رَشِيدًا ذَا فِرَاسَةٍ يُزَيِّرُهَا مِنْ الشُّوْءِ) جمع البيان ٦ / ٧٧؛ وفيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة الكبيرة، وهي كلمة تقال يُنْقَسُ بها المهموم عن كربه وما عليه بأس ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً بإيمانه . وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة وإنما الخير فيما أختاره الله لها كقوله ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان / ١٧ (يَا لَيْتَنِي مِتُّ) تمنى الموت المنهي عنه هو ما كان فيه اعتراض على قدرة الله تعالى . عن النبي (ص) (لا يتمنى أحدكم الموت إلاّ من يثق بعمله) كنز العمال خبر ٤٢١٥٣

٢٤ - ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

تعهدتها ربها سبحانه فوقها وسائل الرعاية الخاصة والحماية المميزة، والطعام المناسب والماء. (فَنَادَاهَا) المنادي عيسى لأمه وهو من معجزته كولاته وإحيائه الموتى، (فَنَادَاهَا) عيسى حين وضعته (أَلَا تَحْزَنِي) أي لا تحزني يا أمه تسلية لها لما حلّ بها من الحزن والغم، فلا مصيبة على المرأة المتنسكة العذراء أشدّ من أن تُتهم في عرضها، فالعفة والحياء من الفطرة، وكانت أمه مريم خائفة جوعى عطشى (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) قد جعل ربك لك (سريًّا) جدولاً من عين ماء عذب

يجري أمامك تشربين منه وتطهرين . عن الإمام الباقر (ع) (ضَرَبَ عَيْسَى بِرَجْلَيْهِ الْأَرْضَ فَظَهَرَ عَيْنَ مَاءٍ يَجْرِي) مجمع البيان ٦ / ٤٧٧، ويأتي معنى (سَرِيًّا) أيضاً أي سيداً وقائداً وقُدوة حسنة على قومه بالنبوة وحمله صفات الرسالة السماوية. فائدة: في حالة الألم والخوف تقع المفاجأة الكبرى، طفل ولد اللحظة بإعجاز يناديه ليطمئن قلب أمه، ويصلها برحمتها ويرشدها إلى طعامها وشرابها ويدها على حُجَّتِها وبرهانها (أَلَا تَحْزَنِينَ) .

٢٥ - ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾

(وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ) حرّكي جذع النخلة اليابسة الذي لا يستطيع هزّه الرجلُ القوي، وكان الله سبحانه قادراً على أن ينزل لها طعاماً دون هزّ الجذع، وإنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين طلب الأسباب، والاعتماد على الله المسبب، فالإنسان مطالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً. عن الإمام الصادق (ع) (أَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْرِيَ الْأَشْيَاءُ إِلَّا بِأَسْبَابٍ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكافي ١٨٣/١ (تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا) تحضّر وتورق وتثمر النخلة وتُسْقِطُ عليك رطباً ناضجاً طرياً! وهو أفضل دواء وغذاء تتناوله الحامل والنفساء.

فائدة: ١- المنادي لأمه عيسى الطفل المعجزة، وقيل لم يكن الفصل فصل رطب وتمر، وأن حمل النخلة اليابسة معجزة، والطفل يتكلم معجزة، وعين الماء معجزة، وذلك ليسكن قلقها ويطمئن قلبها، ولتعلم أن ذلك كرامة ورفعة من الله لها ولولدها، (وَهَزِي إِلَيْكَ) لم يسقط سبحانه الرطب على مريم تلقائياً بلا سعي، بل أمرها بالحركة والأخذ بهز الجذع، والجذع لا يهتز، بمعنى عليها إتخاذ الأسباب الممكنة واللازمة كقوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف / ٨٣ - ٨٤ للتنبه على أن الله . يجعل الرزق على قدر السعي والوعي والعمل والخبرة والتجربة ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم / ٣٩-٤٠. عن الإمام الحسن العسكري (ع) (لَا يَشْعَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ، عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٧٨ / ٣٨٤، وهكذا عمل موسى (ع) مع الحجر والبحر ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَيْنًا﴾ البقرة / ٦٠ وقوله ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء / ٦٣، لم تكن هزة الجذع هي التي أسقطت الرطب، ولم تكن العصا هي التي فجرت الحجر وفلقت البحر، وإنما كانت السبب في ذلك والله عزوجل هو المسبب (بمعنى) على قدر تهيئة المقدمات تكون النتائج، وعلى قدر الأسباب تكون المسببات، والأسباب بيد الإنسان، والمسببات بيد الله تعالى، فتعمل المسببات الإلهية على ضوء تهيئة الأسباب والعلم بها، التي يعملها ويقدمها الإنسان تكريماً له.

٢٦ - ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَعَيْنَا نَرْزِقْنِ مِنْ أَلْبَسَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾

لا يزال المنادي عيسى الطفل لأمه، (فَكَلِمِي) من الرطب الجني (وَاشْرِي) من الماء العذب السري الجاري (وَقَرِي عَيْنًا) طيب نفساً، واطمئني قلباً وكوبي مرتاحة البال وشرحة الصدر، سعيدة النفس بهذا المولود المبارك، ولتكنْ دمعة السرور والفرح والبشارة بارزةً في عينيك (فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا) فإن رأيت أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا) صمتاً، فقولي له بالإشارة والزمي السكوت ولا تكلمي أحداً (وَرُبَّ سَكُوتٍ بِلَاغَةٍ) فأنا أكفيك جواب سؤلهم (فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) فلن أكلم أحداً من الناس ليكفيها ولدها الرضيع ذلك فتكون معجزة ظاهرة وآية باهرة، ومن أشد الأمور على المرأة الصالحة العذراء البكر أن تُتَهَمَ في عرضها، وخاصة إذا كانت تهمه لا سبيل لها إلى دفعها، وكانت الحجة للخصم عليها! لذلك تكفّل الله الدفاع عنها بانطاق الطفل عيسى في المهد بطريقة إعجازية خارقة، وتلك حجة لا يدفعها دافع . فائدة: ١ - (صَوْمًا) أي صمتاً أو صياماً عن الطعام والكلام حتى الماء، وقد نهي النبي (ص) عن صوم الصمت، في غرر الحكم (صَمْتُ يَكْسُوكَ الْكِرَامَةُ، حَيْثُ مِنْ قَوْلِ يَكْسِبُكَ النَّدَامَةُ) فيكون السكوت في وقته المناسب، ومكانه المناسب، مع الحالة المناسبة، مع الناس المناسبين، يكون هذا الصمتُ فيه السلامة والوقار وفيه الشفاء والدواء، خير من الكلام في غير موضعه المناسب، يكسبك الندامة والملامة والعار . كقوله ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق / ١٨ في غرر الحكم (إِذَا تَكَلَّمْتَ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْكَ، وَإِذَا أَمْسَكَتَهَا مَلَكَتَهَا) .

٢٧ - ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمًا تَخِلهُ قَالُوا يَا مَرْحَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾

حملت مريم وليدها إلى أهلها في مشهد مثير ودهشة تعلق وجوه الأهل، أنهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء تحمل طفلاً، وفي نفسها تحمل العزة والكرامة والشرف والرفعة والثقة بالنفس، والثقة بربها، وعلى يدها روح الله ورحمته المهداة، وكل بريء هو في ثقته وشجاعته كمریم، وإن تراكت عليها الافتراءات والتُّهم الباطلة (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) فَرِيًّا: منكرًا فظيعاً مستنكرًا .

٢٨ - ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾

يا شبيهة هارون (وهو رجل من عبّاد بني إسرائيل المجتهدين الصالحين كانت مريم تُشبهه به في اجتهادها وتقواها، وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهرًا طويلاً) ما كان أبوك (امْرَأَ سَوْءٍ) رجلاً فاجراً (وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا) زانية، فكيف صدر هذا الفعل منك، وأنت طاهرة من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة!؟ .

٢٩ - ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) لم تجبهم بكلمة وأشارت إلى عيسى الطفل الرضيع ليكلموه ويسألوه، وهي تتشهد به على عفتها وبراءتها وهو أصدق الشاهدين (قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) قالوا

متعجبين كيف نكلم طفلاً رضيعاً حديث الولادة لا يزال في المهد؟! ولكن الذي في المهد كلّمهم قبل أن يكلموه!.

٣٠ - ﴿قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ أَنَا نَبِيٌّ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

كان كلام الطفل خارقة إعجازية عجيبة، وبهذا الكلام الإعجازي حلّ المشكلة المستعصية التي حيرت أهل العقول وأدهشت النفوس، المعنى: (قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ) قال أنا عبد الله خلقتني بقدرته من دون أب، وقدّم ذكر العبودية لله ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية من النصارى، وهكذا كانت الخارقة العجيبة مرة ثانية، فقطعت نزاع القوم، وحلّ الرضيع المشكلة التي حيرت الألباب، وأدهشت النفوس (أَنَا نَبِيٌّ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) قضى ربي أن يؤتيني الأنجيل ويجعلني نبياً، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه، فإن ما حكم به الله أزلاً لا بد أن يتحقق، فائدة: ١- (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) سيجعلني في المستقبل نبياً، فهو مشروع نبي، بدليل أن الإنجيل لم ينزل عليه وهو في المهد، وفي هذا براءة لأمه لأن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام / ١٢٤ سؤال: كيف يكون الرضيع حجة على الناس وقدوة لهم، وهو غير مكلف وغير مسؤول عن أقواله وأفعاله، فهل يكون مسؤولاً عن تبليغ رسالة الله إلى عباده؟ الجواب: ذكر في الإنجيل أن عيسى بعث رسولاً في سن الثلاثين، وأما تكلم في المهد لتبرئة أمه من تهمة الزنا ورجع الطفل لا يتكلم بكبكية الأطفال! ٢- (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) يعلن (ع) عبوديته لله تعالى فليس هو ابنه وليس هو إلهاً وليس هو ثالث ثلاثة، وأما الله الذي خلقه إله واحد لا إله إلا هو، وهذا هو التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسل والرسالات السماوية. كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء / ٢٥. في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ)

٣١ - ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

(وَجَعَلَنِي) وسيجعلني

(مُبَارَكًا) ذو بركة وخير كثير، والبركة: نماء الخير وتنوعه وثبوته، وما يفيض الله عليه من الخيرات كقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ) ص/ ٢٩ (مُبَارَكًا) أي نافعاً للناس هادياً لهم بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان الفالح، (أَيْنَ مَا كُنْتُ) هادياً ومعلماً لهم أنواع الخير في أي مكان أكون فيه، معلماً في الأقوال والأفعال إلى سبيل الرشاد في أي مكان كنت، وقد جعل هذه الصفات النموذجية المميزة كأنها حدثت له فعلاً وهي لم تحصل بعد! وكل من ينفع الناس بحسب قدرته وكفاءته ومكانته ودوام بركته وخيره فهو مبارك بقدره، وكل من يضار بواحد من الناس فهو شؤم ورجس بقدره (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) وأوصاني بالمحافظة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والعناية بهما مدة حياتي، والصلاة تطهير للنفوس، والزكاة تطهير للأموال، ودائماً يقرن القرآن الكريم الصلاة بالزكاة، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ، وَلَا زَكَاةَ لِمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ)

البحار / ٨٤ ص ٢٥٢، والصلاة والزكاة من الأمور المشتركة بين الأديان السماوية، (والصلاة) هي أشرف العبادات البدنية (والزكاة) هي أفضل العبادات المالية. فائدة: الزكاة: مفهوم واسع الدلالة، هناك (زكاة مادية) بقدر معين (وزكاة معنوية) بحسب الجاه والموقع (وزكاة ظاهرية) أن تضع نظام اجتماعي في التكافل العام بين الناس (وزكاة باطنية) أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتكره لأخيك ما تكرهه لنفسك، في غرر الحكم (لكل شيء زكاة) في غرر الحكم (زكاة الجمال العفأف، وزكاة الصحة السعي في طاعة الله) وهكذا...

٣٢ - ﴿وَبِرًّا بِالَّذِي أَوَّلَدْنِي كَمَا بَخِلْتُ شَقِيًّا﴾

(وَبِرًّا بِالَّذِي) كأنه يقول للقوم: إياكم أن تظنوا بأمي سوءاً، فإنها معصومة من الزلل ومسددة في القول والعمل، فلا تعصي الله الذي يشقى بسببه الإنسان، وجعلني براً محسناً رؤوفاً حنوناً بوالدي أوددي شكرها واحترم مقامها، وأحسن المعاملة معها فيما قاسته بسببي، وفي هذا رمز إلى نفي الريبة عنها (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) ولم يجعلني (جباراً) متكبراً على أحد ولا مستكبراً عن عبادة الله، ولا (شقيًّا) بعقوب والدي وعدم البر بها، والشقي: هو الذي يهين أسباب الشقاء والبلاء والعناء لنفسه من دون علم، عن الإمام الصادق (ع) (إنه عدّ (عقوق الوالدين) من كبائر العفوق، لأن الله جعل العاق جباراً شقيًّا، ثم ذكر الآية) نور الثقلين ٣ / ٣٣٥ .

٣٣ - ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

والسلام من الله عليّ (على عيسى (ع)) يوم ولدت فلا يمسنى مكروه في الدنيا، ويوم أموت لأنهم أرادوا قتله وصلبه فرفعه الله إليه، وألقى شبهه على شخص آخر!، ويوم أبعث حياً يوم القيامة فأحيا في جوار رحمة ربي ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر / ٥٥ فلا يقدر أحد على ضربي في هذه المواطن الثلاثة التي هي أشق ما تكون على العباد، وهذا ما نطق به المسيح (ع) وهو طفل رضيع في المهدي. فائدة: ١- إذن لعيسى (ع) حياة محددة ذات أمد وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والأمان والسلامة والاطمئنان في أيام ثلاثة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، ٢- عن ابن عباس (ما تكلم عيسى بعد الآيات التي تكلم بها حتى بلغ مبلغ الصبيان) جمع البيان ٦ / ٤٨١، حياة البرزخ: عالم متوسط بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، والبرزخ: حياة الروح والجسد معاً. عن الإمام الصادق (ع) (البرزخ القبر، وهو الثواب والعقاب (والحساب) بين الدنيا والآخرة) البحار ٦ / ٢١٨ .

٣٤ - ٣٥ - ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَدِّ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿

هذه هي كلمة الحق الثابت والحقيقة (قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) في عيسى يشكون ويختلفون ويجادلون فيه، فوقعوا بالإفراط والتفريط، فلا هو جبار ومحتال وساحر وابن زنى كما قالت اليهود،

ولا هو ابن الله وشريكه في الخلق كما قال النصارى، بل هو نبي مرسل يبلغ رسالات ربه، وعبد مؤيد ورسول مسدد من عباده الصالحين ٣٥ - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) ما كان من شأن الله وما يصلح له ولا يستقيم بمقام الإلهية، (أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) تنزيهاً له عن ذلك، فهو الغني بذاته والمغني لغيره، فالولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة، والله باقي لا يخشى فناء، قادر لا يحتاج معيناً (إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) والله نور، والتور عالم معنوي غير حسي فلا يقتضى المجانسة مع أحد، ولا يحتاج إلى ملاءمة وتآلف وتكافؤ مع غيره كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى / ١١ وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص / ٤ ثم ذكر علّة هذا التنزيه، إذا أراد شيئاً وحتمه فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، بمجرد إرادته بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا تأمل أي أنّ إرادة الله في شيء هي نفس وجوده بلا فاصلة زمنية ولا تدريج كقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التکویر / ٢٩ (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) كقوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ آل عمران / ٥٩ .

٣٦ - ﴿وَلَنْ اللَّهُ لَمِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهدي أن أخبرهم أن الله ربه وربهم، خالقه وخالقهم ومدبر أمرهم جميعاً (فَاعْبُدُوهُ) هو وحده الذي يستحق العبادة والطاعة (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) هذا هو دين الله المستقيم والقويم الذي لا اعوجاج فيه المؤدي إلى النجاة كقوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ الشورى / ٥٢ - ٥٣ ، صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ : طريق واضح بذاته موضح لغيره لا يضل سالكه، ليقطع الحجة على من غالى وتمادى، وفي الاستقامة السلامة والكرامة بلا أية ملامة ولا ندامة. فائدة: الصراط المستقيم: الذي يوصلك لخير الدنيا والآخرة من أقرب طريق، وبأقل مجهود وبأقل التكاليف وبأحسن أداء وأفضل خاتمة، في نهج البلاغة خطبة / ٨٧ (مَنْ نَظَرَ بِعَقْلِهِ، وَاسْتَبَصَرَ بِقَلْبِهِ، رُشِدَ وَهَدِيَ إِلَىٰ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ) .

٣٧ - ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

الأحزاب : الجماعات، فاختلفت فرق النصارى إلى طوائف من بينهم من قال إنّ عيسى هو الله، ومنهم من قال هو ابن الله وقال آخرون هو ثالث ثلاثة (الله والابن وروح القدس) وقال المؤمنون قول الله تعالى وهو الأصح : هو عبد الله ورسوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ويل : كلمة وعيد معناها الشدة والعذاب، أي ويل لهؤلاء الذين غالوا وتمادوا من ذلك المشهد الرهيب، في يوم عظيم بأهواله يشهده ويراه الجميع، بهذا التنكير للتفخيم والتهويل كقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ النساء / ١٧١ فإن أنواع الشهود يشهدون كالأيدي والأرجل والألسن تشهد على أصحابها، وقد أجلّ الله عقابهم إلى هذا اليوم العظيم بذاته، والعظيم على غيره، والعظيم في قراراته وبيّناته، والأمر بالخواتيم .

٣٨ - ﴿أَسْمِعْ هَهُنَّ وَابْصُرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّ لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

يَحْتَبِرُ اللَّهُ سبحانه عن حال الكافرين والمجرمين يوم القيامة (أَسْمِعْ هَهُنَّ وَابْصُرْ) فما أقوى سمعهم وأحد بصرهم يوم يجيئون إلينا للحساب، وفيه تعجب من حالهم، أي لا أحد أسمع منهم وأبصر للحق آنذاك فيرون الأمور على حقيقتها ولكن بعد فوات الأوان فلم ينتفعوا بها كقوله ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدًا﴾ ق / ٢٢، وكانوا في الدنيا الصم البكم العمي عن سماع الحق ورؤيته لا يهتدون إليه بسبب ظلمهم كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/١٤ (لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ولكن من غالى وتمادى فهو من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ فهم في هذه الدنيا في حيرة الضلالة وظلمات الجهالة وفي بعدٍ عن الحق وغفلة عن الحقيقة بشكل واضح وصریح، رغم أنهم أصحاب عقل واع في أمور دنياهم! كقوله ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا﴾ مريم / ٧٥ : فائدة : فما أعجب حالهم، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة، وهم أسمع شيء وأبصر شيء، يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي! كقوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ النمل / ٨٠ .

٣٩ - ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(يَوْمَ الْحَسْرَةِ) يوم القيامة، أحد أسماء يوم القيامة. يوم تشدد الحسرات بعد الحسرات، حتى كأن اليوم مخصص للحسرة الكبيرة والندم الشديد الذي لا يمكن تداركه، فتكون الحسرة هي الغالبة على وجوههم والبارزة على سيمائهم، (وَأَنْذِرْهُمْ) هذا اليوم يوم القيامة لكل من غالى وتمادى عن سبيل الله، في يوم لا تنفع فيه الحسرات، يوم يتحسّر ويندم المسيء على إساءته، والمحسن على قلة إحسانه كقوله ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ الزمر / ٥٦ (إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إذا قضى الأمر وفرغ من الحساب وأدخل قوم الجنة وقوم النار، وتحتم عليهم الهلاك الدائم، ولكنهم كانوا في دار الدنيا في غفلة عن الحق والحقيقة (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وغفلتهم عن الموت وما بعده، وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم، موصول بالغفلة البعيدة عن الحواس والانتباه التي هم فيها غارقون ولا يستيقضون، في غرر الحكم (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحس) كقوله ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يونس / ٤٥، عن النبي (ص) (شُرُّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧ / ١١٥ . فائدة: الفرق بين الحسرة والندم: الحسرة: الندم الشديد الفائت لا يمكن تداركه، أما الندم: فيكون حزنًا على شيء فاتك لكن يمكن تداركه.

٤٠ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَيِّتَ وَالْمَيِّتَ يُرْجَعُونَ﴾

نُورٌ : نملك. أنذرهم في ذلك اليوم الحاسم الذي لا شك فيه، فكل ما على الأرض ومن عليها من البشرية والكنوز والمواقع والجاه .. ملك عائد إلى الله، عودة الملك للمالك، كقوله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿الحديد / ١٠﴾ والميراث كله إلى الوارث الوحيد (وَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ) فيحاسبكم على ما قدمتم، ويكون الجزاء من نفس العمل، فلماذا الخلاف والتنازع من أجل هذه المتع الزائلة، التي لذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة؟ فائدة: ١ - (وَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ) الرجوع إلى الله للعوام بالقهر لتعلقهم بالدنيا، ورجوع الخواص من الناس إلى الله بالرعاية والحماية والتكريم لتعلقهم بالله عزوجل كقوله ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ إبراهيم / ٥١، من الرِّشَاد الاستعداد ليوم المعاد.

٤١ - ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

(وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ) في القرآن قصة إبراهيم خليل الرحمن (ع) (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) صديقاً؛ كثير الصدق، ملازماً له مبالغاً فيه، وأيضاً تطلق على من يكثر التصديق بالحق، فلا يكذب به أبداً، فلا يختلف قوله عن فعله، وفعله ترجمان قوله، فهو (ع) رجل مقاوم للفساد يعادل أمة يجمع بين الصدق والتصديق والنبوة، وجاء بالإسلام الحنيف وبالتوحيد الخالص وبالمنهج المستقيم الذي يُطْمِئِنُّ القلوبَ ويشرح النفوس. كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ الحديد/١٩، عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يَكْتُبَهُ اللَّهُ صَدِيقًا) الكافي/٢/١٠٥.

٤٢ - ﴿إِذْ قَالَ لَيْسَ بِأَبْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾

ناداه متلطفاً بخطابه إلى أبيه يحاول أن يهديه إلى منهج الله المستقيم، الذي هداه الله تعالى إليه وعلمه إياه، وهو يتحجب إلى أبيه (يبدأ معه من حيث يحب أبيه، حتى ينتهي إلى حيث يحب هو) وهذه قاعدة مهمة في أسلوب الحوار الناجح، (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ) (لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) ولا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً؟! فائدة: ١ - النهي عن المنكر لا يُجَدُّ بعمر معين، وإن كمال الأفراد لا يرتبط بأعمارهم دائماً، فرما يكون صغير السن كبير العقل. قوي الذكاء سريع البديهة ٢ - قدّم الموعظة على سبيل الاستفهام، لإظهار من ذلك أدب الدعوة، فلا يظهر له أنه أعلم منه!

٤٣ - ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾

كرر النصح بلطف (يَا أَبَتِ) ولم يصف أباه بالجهل في عبادته الأصنام، وإنما ترقق وتلطّف وجعل نفسه رفيق لأبيه وصديق له في السير لقربه منه نسباً من باب فتح قناة التأثير عليه، عن النبي (ص) (إِنَّ الرَّفِيقَ لَمْ يُوضِعْ فِي شَيْءٍ إِلَّا رَآهُ، وَلَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠، (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ) بالله بطريق الوحي (مَا لَمْ يَأْتِكَ) فلا تستنكف عن التعلّم مني لصغر سني بالقياس إلى سنّك، وأنظر إلى القول الشديد، عن النبي (ص) (لا تنظر إلى مَنْ قال، ولكن انظر إلى ما قال) كثر العمال خير ٤٢٢١٨ كقوله ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة / ٨٣، وفي غرر الحكم (أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا رَأَاهُ حُسْنُ النَّظَامِ، وَفَهْمُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ) (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) إقبل نصيحتي

وأطعني أُرشدك إلى طريق مستقيم بأيسر الطرق وأقصر وقت، طريق الهداية والنجاة من المهالك لا تظل بعده أبداً، وهو دين الله القِيم، دين الحياة والقِيم والمبادئ والأخلاق. فائدة: ١- يا أبتِ لا تستصغر سني وإنما أنظر إلى راحة عقلي واستقامة فكري وصلاح أعمالي، فَإِنَّ سَاعَةَ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَنَةِ عَمَلٍ، عن الإمام الصادق (ع) (تَفَكَّرْ سَاعَةَ خَيْرٍ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَوْلَى الْأَلْبَابِ) (العدد / ١٩، البحار ٧١ / ٣٢٧) فليس كل صغير جاهل، ولا كل كبير عالم وخبير! لذلك من الخطأ المثل المعروف (أَكْبَرَ مِنْكَ يَوْمَ أَعْقَلُ مِنْكَ بِسَنَةٍ!) ومن الطبيعي أن يرجع الجاهل إلى العالم بغض النظر إلى عمره، والرجوع إلى أهل الاختصاص في كل علم وفن بغض النظر إلى أعمارهم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء / ٧ .

٤٤ - ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾

عبادة الشيطان : طاعته والاستجابة لوساوسه فيصبح عبداً للشيطان كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مجد / ٢٥ أي يا أبتِ لا تطع وساوس الشيطان فإنه يأمر بك بكل سوء ومنها عبادة الأصنام، وإنما عبر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً فقد عبده، وعلى هذا فكل من عصى الله في شيء فقد عبد الشيطان . عن النبي (ص) (مَنْ أَصْعَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِ إبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إبْلِيسَ) (البحار ٧٢ / ٢٦٤) (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) وهذا بيان السبب في النهي عن طاعته، لأنه عاصٍ ومعاند مستكبرٍ ومن أطاعه صار مثله عاصياً ومستكبراً، ثم انه عدو لدود للإنسان وحقود عليه ولا يأمره ولا يغيره إلا بما فيه معصية الله، والحرمان من رحمة الله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ياسين / ٦٠ .

٤٥ - ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾

وإيراد (يا أبتِ) في كل خطاب دليل على الرفق به والرغبة من انقاذه من الضلال بكل إجلال، وإرشاده إلى الهداية والاستقامة، وتحذيره من سوء العاقبة، المعنى : (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) أخاف أن تموت على كفرك، عن النبي (ص) (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٤٢٧٢٢، يَمَسُّكَ: فيحلك بك عذاب الله الأليم، وتكون لعبادتك (لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) قريباً وناصراً ومؤيداً، وقريباً له بالخلود في النيران وبئس القرين فتكون (لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) موالياً للشيطان موكولاً إليه أمرك، فقد أوكلت نفسك الى عدوٍ لئيم خبيث ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان / ٢٩

فائدة: ١- (يا أبتِ) لم يكن والده الحقيقي وإنما المجازي، وإنما كان جده لأنه لأن آباء النبي (ع) كلهم كانوا مسلمين إلى آدم، ولم يكن فيهم مشرك يعبد غير الله تعالى لقوله (ص) (وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ

يَنْقُلُنِي مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ) والكافر لا يوصف بالطهارة لقوله ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ التوبة / ٢٨، نور الثقلين ٣ / ٣٣٨، ٢- (يَا أَبَتِ) اني أخاف أن يأخذك من عذاب الله وخذلانه لك وانقطاع رحمته عنك، فلا يبقى لتولي أمرك إلا الشيطان، فتكون ولياً له وهو مولاك وموجهك. كقوله ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ الكهف/ ٥٠. ٣- في غرر الحكم (النصيح من أخلاق الكرام) في غرر الحكم (ما أخلص المودَّة من لم يَنْصَحْ) وقيل: النصيح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً.

٤٦ - ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا﴾

قال له آزر، أراغب: أعرض يا إبراهيم عن عبادة آلهتي الأصنام وكراره لها ومنصرف عنها؟ استفهام فيه معنى التعجب والإنكار، وكأنما يريد أن يقول له من يُعرض عن عبادة الأوثان لا عقل له! ثم يفاجئه بتهديد ووعيد ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لئن لم تترك شتم آلهتي وعيبيهم وتترك الدعوة الى التوحيد لأرجمك بالحجارة حتى القتل! وهو القتل صبراً والموت الانتقامي المؤلم المهين البطيء، وهو من أسوأ أنواع القتل!، فأغرب عن وجهي، أو (لأرجمَنَّكَ) باللسان يعني أشتمك وألعنك ومنه الرحيم ﴿وَاهْجُرُنِي مَلِيًّا﴾ أو تعيب نفسك عن عيني، (مَلِيًّا): زمناً طويلاً أي دهنماً طويلاً قبل أن يصيبك مني عقوبة مؤلمة، استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة، فائدة: ١- بهذه الجهالة العنيفة تلقى آزر دعوة التوحيد، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذي هدَّبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان، ٢- وهكذا أَلَفَ المنكر فأصبح عنده معروفاً، والمعروف منكراً، وهكذا عندما تنقلب المقاييس الصحيحة، وتختل الموازين الشريفة فتكون النصر للباطل والفجور، والحرب على الحق والطهارة كقوله ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ النمل / ٥٦، ٣- (آلهتي) من يرفض الله الإله الواحد الحق، فسوف يقبل الآلهة المتعددة فتجعله في ضلال بعيد كقوله ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ﴾ يونس / ٣٢ في غرر الحكم (لَا يَتْرِكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّاهُوَ أَضْرَّ مِنْهُ). روي إنَّ الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها (يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَنِي فَاحْدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَحْدِمِيهِ)! روح البيان ٣/ ٧٣.

٤٧ - ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

قال إبراهيم مجيباً عن التهديد والوعيد ومودعاً أباه (سَلَامٌ عَلَيْكَ) أنت في سلام مني ولا أقول لك بعد ما يؤذيك لمقام الأبوة كقوله ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ القصص / ٥٥ (سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي) بعيداً عنك ليكون عن ظهر الغيب فهو أرجى للقبول عند الله، وسأسال الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) كثير الحفاوة والاعتناء واللطف بي، وعودتي ربي سبحانه على

فضله وإحسانه فيجيب دعائي، فإني أعطيت الله كلما أملك، فأعطاني كلما أريد، وفوق ما أريد، فائدة: ١- لم يغضب إبراهيم الحليم لتفريع أبيه له وانذاره بالموت ولم يفقد عطفه وأدبه مع أبيه، وقابل السيئة بالحسنة (سَلَامٌ عَلَيْكَ) فلا جدال، ولا أذى بعد اليوم. كقوله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ المؤمنون / ٩٦ .

٤٨ - ﴿وَأَعْتَرِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَنَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

(وَأَعْتَرِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان يؤذيانك، فأعتزلك أنت وقومك وأعتزل ماتدعون من دون الله بالمهاجرة من الآلهة الحجرية والبشرية وارتحل عن دياركم، وأهاجر عنها في الله وأزهد في الدنيا لوجه الله كقوله ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الممتلئ / ١٠ (وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَنَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) وأعبد ربي وأدعوه وحده مخلصاً له الدين (عَسَىٰ): للرجاء، وراجياً بسبب إخلاصي العبادة له إلا يجعلني شقياً خائباً مثلكم في دعاء أهتكم، في غرر الحكم (الْمُصِيبَةُ بِالَّذِينَ أَعْظَمَ الْمَصَائِبِ) في غرر الحكم (صُنْ دِينَكَ بِدُنْيَاكَ تَرَجُّهُمَا، وَلَا تَصُنْ دُنْيَاكَ بِدِينِكَ فَتَحْسِرْهُمَا) روي: (مَاتَرَكَ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ لَا اسْتِصْلَاحَ دِينَهُ إِلَّا عَوَضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ) .

٤٩ - ٥٠ - ﴿فَلَمَّا اغْتَرَبْتُمْ وَمَا يَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَأَلْجَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾

(فَلَمَّا اغْتَرَبْتُمْ وَمَا يَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ولما هاجر إبراهيم من بابل إلى أرض الشام واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيرٌ منهم وتزوج بسارة و (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) فأنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار بل وأحفاد الأحفاد (وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) أقرَّ الله بهما عينه في حياته بالنبوة، ومن هنا كُني إبراهيم الخليل أبو الأنبياء ٥٠- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أعطينا إبراهيم إسحاق ويعقوب نعم الدنيا والآخرة، وأعطيناهم الحكمة والصلاح والمال والولد والعلم وحسن العمل والإمامة والتأييد بروح القدس (من رَحْمَتِنَا) تذكر الرحمة هنا لأنها السمة البارزة في جو السورة، ولأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره وتؤنسه في وحدته وعزلته ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وجعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس على مر الزمان، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الصفات المرضية، ويصلون على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، كما يصلون على محمد وآل محمد كقوله ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ الشعراء / ٨٤، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يُهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الأنبياء / ٧٣ . عن الإمام علي (ع) (لِسَانُ الصِّدْقِ لِلْمَرْءِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي النَّاسِ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ يَأْكُلُهُ وَيُورِثُهُ) نور الثقلين ٣ / ٣٣٩ .

٥١ - ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

واذكر يا محمد لقومك في القرآن الكريم خبر موسى الكليم (إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا) الْمُخْلِصُ : المختار والمصطفى أي أخلصه الله من النقائص وجعله في مقام الأولياء، أي أخلصه الله لنفسه بعدما أَخْلَصَ نفسه لله، فلا نصيب لغير الله في قلبه ولا في نفسه ولا في عمله ولا في قوله، وهو أعلى مقامات العبودية، واصطفاه من بين الخلق وجعله كليماً له، وهكذا انقطع الإمام الحسين (ع) في دعائه في يوم عرفة (إِلَهِي أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَإِجْزِنِي بِمِنَّكَ حَتَّى أُقْبَلَ عَلَيْكَ) (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) من الرسل الكبار من أولي العزم والأنبياء الأطهار، فجمع الله له الرسول والنيبي، والفرق بينهما، الرسول : صاحب رسالة وشريعة عن طريق الوحي، ليلبغها إلى الناس مبشراً ونذيراً، والنيبي : ينبي عن الله عن طريق الوحي ويلبغ قومه عنه وليس معه كتاب سماوي، ويعمل بكتاب الرسول الذي قبله، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، فالرسول أوسع مهمة من النبي، وأعلى مكانة ومقاماً لذلك قدم الرسول . فائدة: ١- لا تكون العبودية كاملة إلا من المخلصين لقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البينة / ٥ في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ! عن النبي (ص) (مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ) الدر المنثور ٢ / ٢٣٧، قال الحواريون : ياروح الله أخبرنا عن المُخْلِصِ لله؟ (قَالَ الَّذِي يَعْمَلُ لِلَّهِ لَا يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ النَّاسُ) المصدر السابق، ٢ - المُخْلِصُ: هو الذي يُهْدَبُ غرائره من العيوب وطبائعه من النواقص، والذي يتبع منهج الله بصدق يوصله إلى منزلة الإخلاص، في غرر الحكم (الإِخْلَاصُ عِبَادَةُ الْمُقَرَّبِينَ) .

٥٢ - ٥٣ - ﴿وَأَدَاتِيهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وناديننا موسى من الجانب الأيمن من جبل الطور أو من يمين موسى، حين كلمناه هناك مباشرة من وراء الحجاب بلا واسطة (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) أدنيناه إلينا مناجياً لنا دنواً معنوياً تشريفياً، للدلالة على قرب المكانة والمنزلة والكرامة لا قرب المكان، وخاطبناه مباشرة وبلا واسطة، نعمة فضيلة لم ينلها غيره ٥٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ووهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعوته كقوله ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾ طه/ ٢٩- ٣٠ جعلناه له عضداً وناصرأ ومعيناً . وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنوات. في نهج البلاغة خطبة ١٨٢ (الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا، بِأَلْجَوَارِحِ وَلَا أَدْوَاتِ، وَلَا تُنْطِقُ وَلَا لَهَوَاتِ) (ولا شَفَّةً) كقوله (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء/ ١٦٤ .

٥٤ - ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (وَأذْكُرْ) يا مُجَدِّ (فِي الْكِتَابِ) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ خبر جدك (إِسْمَاعِيلَ) الذيح ابن ابراهيم، وهو أبو العرب وخصه بالذكر اعتناءً بشأنه وليكون قدوة لغيره (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) حافظاً له بطبعه،

وأيضاً كان وفياً لدينه وللإنسانية جمعاء دون أي مقابل إلا مرضاة الله تعالى، وصدق الوعد صفة كل نبي وكل إنسان صالح، فلا بد أن هذه الصفة كانت مميزة وبارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والاعتناء بها بشكل خاص تشریفاً وإكراماً، وإنه (ع) عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانهِ غيره من الأنبياء، فمن صدقه ووفائه وصبره تسليم نفسه للذبح طوعاً لا كرهاً فلذلك أثنى الله عليه (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) جمع الله له بين الرسالة والنبوة والوحي، كان أخوه إسحاق وصف بالنبوة فقط ووصف إسماعيل (رَسُولًا نَبِيًّا) ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين مُحَمَّد (ص).

فائدة: ١ - (صَادِقُ الْوَعْدِ) كان وفياً بطبعه، يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل، ولا يخالف فعله قوله، ومن أجل هذا كان رسولاً نبياً وعند ربه مرضياً، كقوله (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) المزمّل/٨، في غرر الحكم (الْوَعْدُ أَحَدُ الرَّقِيصِ، إِجْزَاءُ الْوَعْدِ أَحَدُ الْعَتَقِينَ)!

٥٥ - ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) وبعد أن أكمل نفسه اشتغل بتكميل أهله وأقرب الناس إليه وأُمَّتِهِ، فهو يحب للناس ما يحب لنفسه، أي كان يحث أهله ويشجعهم على طاعة الله، ويحث زوجته وخاصته من عترته وعشيرته وقومه، لأن الأقربين أولى بالمعروف، وأولى بالتكميل وأفضل بالاستجابة كقوله (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) الشعراء/٢١٤ وخصص الصلاة والزكاة وهما من أركان العقيدة، والصلة الوثيقة بين العبد وربّه وبينه وبين مجتمعه، فإن علاقة الصلاة بالزكاة كعلاقة الأقوال بالأفعال، وعلاقة العبادات بالمعاملات، وعلاقة الحقيقة بالمدّعيات، عن الإمام الصادق (ع) (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ، وَلَا زَكَاةَ لِمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ) البحار ٢٥٢/٨٤ (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) نال رضى الله عز وجل، وهذا غاية المدح لأن المرضي عند ربه هو الفائز في كل طاعته في جميع أقواله وأفعاله وأحواله بأعلى الدرجات، لأنها كانت كلها طاعات وقربات ليس فيها نقائص، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة / ٧٢، ورضوان الله أكبر من الجنة ونعيمها، وعلى قدر الرضوان ينال النعيم والمقامات والمكافأة والمفاجأة، لأن الرضوان الغاية التي يسعى نحوها المخلصون، كقوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) المائدة/١١٩، في غرر الحكم (عَلَامَةُ رِضَا اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ، رِضَاهُ بِمَا قَضَى بِهِ سُبْحَانَهُ لَهُ وَعَلَيْهِ).

٥٦ - ٥٧ - ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَمَرَقَعَتَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

(واذكر) يا مُحَمَّد (في الْكِتَابِ) في القرآن الكريم خبر إدريس إنه عاش الصدق في أعماق نفسه وفي جميع أحواله، وهو جد نوح (ع) وأول مرسل بعد آدم، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، واشتهر بإدريس لكثرة اشتغاله بالدرس و(صِدِّيقًا نَبِيًّا) كثير الصدق، فعاش الصدق في جميع مشاعره وبالغ في الصدق في سرّه وعلايته في أقواله وأفعاله، وصدق بالحق والحقيقة فلم يخرج من الصدق إلا

ويعود إليه، فعاش الصدق مع نفسه ومع ربه ومع الناس، مع شدة معاناته في أجواء جاهلية جهلاء متخلفة، حتى أصبح (صِدِّيقًا نَبِيًّا) ولم يكن رسولاً، في ظروف موضوعية تقتضي ذلك، ٥٧ - ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ رفعة معنوية وحسبية، فأعلى قدره ورفع ذكره وعاش القربى عند الله تعالى كقوله لنبيه مُحَمَّد (ص) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ الانشراح / ٤، ومن يعتمد الصدق في جميع أحواله فلا يقترب من الكذب أبداً حتى يكتبه الله عنده صديقاً، وهكذا (الصِّدْقُ) زينة الحديث وصلاح الأمور، وانشراح الصدور واطمئنان القلوب، وبركة في الحياة وتطور في المجتمع وسعادة للفرد وللأمة، ورفعة في المنزلة وهيبة في الشخصية. عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ الصَّادِقَ أَوَّلُ مَنْ يُصَدِّقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَتُصَدِّقُهُ نَفْسُهُ تَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ) الكافي ١٠٤/٢. عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يَكْتُبَهُ اللَّهُ صِدِّيقًا) الكافي ١٠٥/٢.

٥٨ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلَتَا نُوْحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

هؤلاء النبيون الذين قصصناهم عليك أيها الرسول هم الذين (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) بسائر النعم الدينية والدينيوية، وبالقرب منه سبحانه وعظيم المنزلة لديه، عندما أعطوا الله أعز ما يملكون، فأعطاهم الله كل ما يريدون وفوق ما يريدون، فأذاقهم الله حلاوة قربه ووجهه وجمال جذبه وعزه، وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس هؤلاء قدوة حسنة وقيادة صالحة في الأمة كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام / ٩٠. عن النبي (ص) (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) روح البيان ١٧١/٦ ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أبي البشر الأول ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أبي البشر الثاني كإبراهيم (وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ) كإسماعيل وإسحاق ويعقوب (وإسرائيل) وهو يعقوب ومن ذريته موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، ويفيد أن ولد البنت من الذرية (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) ومن اخترنا وهدينا واصطفينا لرسالتنا ووحينا من الصديقين والشهداء والصالحين من غير النبيين، الذين سلكوا طريقتهن المثلى، فكانوا على نهجهم في الموت والحياة وفي الخشوع والخضوع كقوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأحقاف / ١٣.

في نهج البلاغة خطبة ٨٧ (مَنْ نَظَرَ بِعَقْلِهِ وَاسْتَبَصَرَ بِقَلْبِهِ رُشِدًا وَهُدِيَّ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) فهم أتقياء شديدا الحساسية والتعلق بالله تعالى، إذا سمعوا كلام الله والأدلة على كرمه وفضله (خَرُّوا) هبطوا وخضعوا لله سجداً استكانة له وتذلاً، انهم لم تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من سمو الروح وشفافية النفس، ومن لذة الخشوع وجمال الخضوع لذكر الله جلّ في علاه، في غور الحكم (الذِكْرُ لَذَّةٌ الْمُحِبِّينَ) (وَبُكِيًّا) فتفيض عيونهم

بالدموع ويخرون على الأرض ساجدين باكين من خشية الله حبا له، ومن شفافية النفس، وهذا كناية عن كمال الانقطاع إلى الله. في الصحيفة السجادية دعاء/ ١١ (يا مَنْ ذَكَرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شَكَرُهُ فَوْزٌ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعَتْهُ نَجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ) كَقَوْلِهِ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ المائدة / ٨٣، والله تعالى يخاطب العقل ويخاطب كذلك كل ذرة في مشاعرك ليحرك أحاسيسك، فتختر الأعضاء ساجدة وتدمع العيون وتتشعر الجلود وتلين القلوب بمقدار تفاعل مع خطاب الله تعالى، هؤلاء وإن كانوا قليلي العدد، ولكنهم كثير الصفات المميزة الجاذبة الجميلة. فائدة: ١- في الآية دلالة على أن لـ (آيَاتِ الرَّحْمَنِ) تأثيراً في القلوب وتزكية للنفوس وتحريكاً للمشاعر، عن الإمام الرضا (ع) (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق / ١٩) البحار ٨٥ / ١٦٢، قال (آيَاتِ الرَّحْمَنِ) ولم يقل (آيات الله) لأنها تحمل منهجاً وتكليفاً تربوياً لتزكية النفس على أساس رحمة الرحمان، فهي منهج تربوي متوازن لسعادتك في الدنيا والآخرة .

٥٩ - ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ) جاء بعد هؤلاء الأتقياء قوم سوء أشرار أصحاب حب الدنيا بعيدون عن الله (أضاعوا) ماورثوه منهم من منهج الإيمان من (الصلاة) بتركها أو تأخيرها أو الاستهانة بها (واتبعوا الشهوات) واللذات وتجسيد الذات (حدعتهم الدنيا بغرورها وأنفسهم بخيانتها) فما أشد المفارقة وما أبعَد الشبه بين أولئك وهؤلاء، إن هؤلاء الطالحين خالفوا سيرة آبائهم الصالحين، (فسوف يلقون غيًّا) شراً وعذاباً في الدنيا والآخرة، جزاءً على غيهم وضلالهم وتعديهم لحدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق / ١ فائدة: ١- عن الإمام علي (ع) (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْبَقِيَّةُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح نهج البلاغة ٩١/٢ ٢- وهكذا يقال في المسلمين ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ آل عمران / ١٤٤، وفي الحديث (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء) كنز العمال خبر ١١٩٢، (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب متاهات) تبعثوهم الميزان ٣ / ٣٧٩ وعنه (ص) (يكون في أمي من يقتل على العصب ويرثني في الحكم ويضيق الصلوات ويتبع الشهوات) ٣- روي: (أوحى الله إلى داود (ع): يَا دَاوُدُ حَذِرْ وَأَنْذِرْ أَصْحَابَكَ أَكُلِ الشَّهْوَاتِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ الْمُعَلَّقَةَ بِشَهْوَاتِ الدُّنْيَا عُقُوبَهَا عَنِّي مَحْجُوبَةٌ، وَإِنَّ أَهْوَانَ مَا أَصْنَعُ بِالْعَبْدِ مِنْ عِبِيدِي إِذَا آتَرَ شَهْوَةً مِنْ شَهْوَاتِهِ (المحرمة) أَنْ أَحْرِفَهُ طَاعَتِي) .

٦٠ - ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَطْلُمُونَ فِيهَا﴾

شروط التوبة: (إِلَّا مَنْ تَابَ) إِلَّا مَنْ نَدِمَ عَلَى مَا مَضَى (وَأَمَّنَ) فِي مُسْتَقْبَلِ عَمْرِهِ (وَعَمِلَ صَالِحًا) قَامَ بِالْوَجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَاتِ. ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بَابَ التَّوْبَةِ عَلَى مُصْرَاعِيَةٍ لَلَّذِي فِيهِ رَائِحَةُ الْأَمَلِ وَالرَّحْمَةِ وَاللَّطْفِ وَالْإِنَابَةِ، الَّتِي تَنْشِئُ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيَتَحَقَّقَ مَدْلُولُهَا الصَّادِقُ، فَهُوَ بَابُ الْخَيْرِ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَاسْتَقَامَ وَأَدَّى الْفَرَائِضَ، وَصَدَّقَ مَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ رَبِّهِ وَمَعَ النَّاسِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْكَالِ ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُهُمْ رَحْمَتُهُ الْمُدْهَشَةُ وَيَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ عَنِ النَّبِيِّ (ص) (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ) ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَلَا يَنْقُصُونَ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ (ص) (لَا يَزِينِي الزَّانِي حِينَ يَزِينِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ.. وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدَ) كُنز العمال خير ١٣١١ .

٦١ - ٦٣ - ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَاءُونَ وَغَيْرُهُمْ فِيهَا بِكْرٌ وَعَشْيًا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾

(جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ) جَنَّاتٍ إِقَامَةٌ دَائِمَةٌ فِي النِّعَمِ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا رَبُّهُمْ فَآمَنُوا بِهَا وَعَمِلُوا لَهَا وَهُمْ غَائِبُونَ عَنْهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِهَا (بِالْغَيْبِ) قَبْلَ أَنْ يَرَوْهَا تَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ بِالْغَيْبِ هُنَا أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ، وَأَنْتَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، الْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنْهُمْ وَغَابُوا عَنْهُ كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الْآيَةُ / ٩٤ رَاجِعَ شَرْحَ الْآيَةِ فِي (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُسَيَّرِ)، فَائِدَةٌ: قَوْلُهُ (وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ) هُنَاكَ عَيْبٌ غَابَ عَنْكَ، وَعَيْبٌ غَبَّتْ عَنْهُ، فَالَّذِي غَابَ عَنْكَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ وَهُوَ مَعَكَ، أَمَا الَّذِي غَبَّتْ عَنْهُ بِالْوُجُودِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى كَقَوْلِهِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الْحَدِيدُ / ٤ . عَنِ النَّبِيِّ (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كُنز العمال خير ٦٦، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ وَلَا تَرَى وَلَكِنْ تَعْلَمُ وَتُؤْمِنُ كَقَوْلِهِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق / ١٦٦ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مَوَاهِبُ الرَّحْمَنِ ٣٠٠/٧ عَالَمُ الْغَيْبِ: يَقَابِلُهُ عَالَمُ الشَّهَادَةِ، وَهُوَ عَالَمُ الْحَوَاسِ وَالْمَادَةِ وَمَشْهُودٌ بِالْبَصَرِ وَمَحْدُودٌ بِمَحْدُودِ الْمَادَةِ، أَمَا الْعَيْبُ: عَالَمٌ وَاسِعٌ غَيْرٌ مُحْسُوسٌ وَغَيْرٌ مَشْهُودٌ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ، لِأَنَّهُ عَالَمٌ غَيْرٌ مُقَيَّدٌ بِمَحْدُودِ الْمَادَةِ، وَالْقُرْآنُ أَخْبَرَنَا بِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا نَعْلَمُ بِالْغَيْبِ بِوَسْطَةِ الْبَصِيرَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْعَقْلِ الْمَفْكُرِّ، فَتَكُونُ الْبَصِيرَةُ أَقْوَى مِنَ الْبَصَرِ، وَيَكُونُ الْعِلْمُ أَقْوَى مِنَ الْمَادَةِ، وَالْعَقْلُ (الْقَلْبُ) هُوَ إِمَامُ الْحَوَاسِ وَقَائِدُهَا، فِي غَرْرِ الْحِكْمِ (لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِينًا) فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حِكْمَةٌ ٢٥٠:

(عَرَفْتُ اللَّهَ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ) وَنَقَضَ الْهَمَمَ (لِمَا هَمَمْتَ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمَّتِي، وَعَزَمْتَ فَخَالَفَ الْقَضَاءَ عَزَمِي، فَعَلِمْتَ أَنَّ الْمَدْبِرَ غَيْرِي) الْبَحَارُ ٣ ص ٤٣، مِثَالٌ: نَحْنُ نُؤْمِنُ (بِاللَّهِ) وَلَمْ تَرَهُ عَيْونَنَا، لِأَنَّهُ نُورٌ غَيْرٌ مُحْسُوسٌ كَقَوْلِهِ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الْأَنْعَامُ / ١٠٣

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ولكن أدركته قلوبنا وآمنت بوجوده عقولنا بنعمة إيماننا، فعرفنا الخالق بعظمة خلقه، وأدركنا وجوده بعقولنا قبل حواسنا، وهكذا نؤمن، كقوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن/١١ (وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) إن وعد الله تعالى بالجنة (مَأْتِيًا) آتياً وحاصلاً بالحق ولا يتخلف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ آل عمران/٩ - ٦٢ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا)

لا يسمعون في تلك الجنات (لَغْوًا) كلاماً فارغاً تافهاً لا فائدة فيه ولا ضجّة ولا جدال مذموم كما في الدنيا، كقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) المؤمنون/٣، وترك اللغو: تركه ما لا يعنيه، عن النبي (ص) (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) البحار/٧١/٢٧٧ ولكن يسمعون (سَلَامًا) من الله والملائكة وأهل الجنة بعضهم على بعض، سلاماً على وجه التحية والاحترام والإكرام، (سَلَامًا) السلام: تحية أهل الجنة وتحية الملائكة، السلام: اسم جامع لكل خير الذي فيه السلامة والاستقامة والكرامة، ويعيشون بسلام وأمان واطمئنان بلا منغصات ولا معاناة ولا آفات (سَلَامًا) وطلب إلينا أن ندعو في الصلاة بالأمان والسلام ونقول (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، إن لهذا السلام وتكريره في كل صلاة له دلالة تربوية، بأن الله لم يخلق العالم ولم يرسل الرسل والرسالات، إلا لغاية بالغة الأهمية وهي الطمأنينة والسلام في النفوس، والسلام بين الناس. والسلام من أسماء الله الحسنى، ومن معاني السلام في الجنة من السلامة والتهديب والتركية والتعليم، أي أن الله طهرهم من كل العيوب والنواقص كقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ الأعراف / ٣٤ (وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) ولهم رزقهم الموفور المنتوع المبارك الدائم يأتيهم (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) صباحاً ومساءً لا ينقطع عنهم، والمراد دوام الرزق يكون حاضراً لهم بلا تعب ولا جهد وفي أوقات الحاجة إليه، والمواعيد المرغوب فيها مع توفيرها وإباحتها، وإنه لا ليل ولا نهار في الجنة ولا بكرة ولا عشيّاً، وإنما يؤتون أرزاقهم مما يشتهون متى يشاءون، ونعيم الجنة مائدة شهية متنوعة مفتوحة غير ممنوعة، كقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿الرزم/٣٤ عن ابن عباس (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا تَشَابَهُ الْأَسْمَاءِ) المراغي/٣٠/١٣٥.

فائدة: ١- عن الإمام الصادق (ع) (إنه شكا إليه رجل ما يلقي من الأوجاع والتخم فقال : تغدّ وتعش ولا تأكل بينهما شيئاً، فإن فيه فسادَ البدنِ أما سمعت قوله ﴿وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تفسير النور/٥/٢٧١، ٢ - (لَغْوًا) لا يدخل الجنة حاسد وحاقد وكاذب ومخادع وغيرها ٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) هذه الجنة الكريمة نورثها من عبادنا المتقين الذين يراعون الحق ويخافون الله في جميع سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم، وفي السرّ والعلانية وعلى أي

حال تتفاوت منازل الجنة بتفاوت مقادير الناس، وتكون الجنة ميراث المتقين وغاية المؤمنين كقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ الحجرات/ ١٣ (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) وكلمة (نورث) تشعر بأن الجنة ملك المتقين كملك الميراث الذي هو أقوى تملك، أما وراثة النسب فلا تجدي فقد ورث قوم نسب أولئك النبيين ولكنهم أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات المحرمة فلم ينفعهم وراثة النسب ﴿فَسَوْفَ يُلْقُونَ عَمِيًّا﴾ مريم / ٥٩ عن النبي (ص) (مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مِنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَرِثُ مَنْزِلَ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يَرِثُ مَنْزِلَ الْكَافِرِ مِنَ الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ (أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الأعراف/ ٤٣) نور الثقلين ٢ ص ٣١ كمصدق .

٦٤ - ﴿وَمَا تَسْتَكْبِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

هذا كلام جبريل لرسول الله (ص) حين استبطأ عنه فترة من الزمن فاستوحشت نفسه (ص)، واشتافت للاتصال الحبيب بالحبيب القريب، والمعنى : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) ما نتزل من الملأ الأعلى إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه (لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) له ما أمامنا من الأمور الحاضرة المكشوفة علينا المشهودة لنا (وَمَا خَلْفَنَا) من الأمور الماضية والغائبة عنا المستورة علينا (وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) فهو سبحانه المدبر لنا ماضي أمورنا وحاضرها ومستقبلها وهو ولي أمرنا، فلا يحدث شيء في الكون إلا عن إرادته ومشئته ولا يخفى عليه خافية كقوله ﴿وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يونس / ٦١ ما يعزب: ما يغيب، فلا نفعل شيئاً إلا بإذنه (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) وما كان ربك ينسى أو يعقل شيئاً في ملكه فينساك يا محمد، بل كل أفعاله عن علم وحكمة ومصلحة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود / ٥٦، عن أبي الدرداء قال (مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ فَأَقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) المراعي ١٦ / ٧١، كقوله ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ المجادلة / ٦ .

٦٥ - ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

فهو عز وجل ربّ ومدبرّ السماوات والأرض وما بينهما من العوالم والكائنات فلا ربوبية غيره (فَاعْبُدْهُ) وحده لا شريك له، فهو سبحانه يستحق العباداة والطاعة (وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) واصبر وصابر واثبت على تكاليف عبادته، وفي هذا أمر من الله سبحانه لنبيه الكريم أن يمضي في مهمة التبليغ برضا، لأنها من أعظم العبادات والطاعات، وأن يصبر على ما يلاقيه من الأذى في سبيل الله من أجل أن يصل إلى غايته، كقوله (فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) يوسف/ ١٨، عن السيد المسيح (ع) (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) البحار ٨٢/ ١٣٧ والصبر كل منا على الآخر كقوله ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ النور / ٢٢، فلا ترد الخطأ بالخطأ

فتكون مثل الخاطئ كقوله ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت / ٣٤ (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟) شبيهاً ونظيراً؟ هل تعلم له مثيلاً أو شريكاً له في اسمه يسمى الله غير ربك (الله) تعالى حتى تنتقل إلى عبادة غيره؟ فالله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، وقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) الإخلاص/٤، في جميع صفاته الكمالية والجمالية والجلالية ومن كان كذلك وجبت عبادته وطاعته.

فائدة: ١- (وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) العبادة الطاعة والارتقاء الروحي ارتقاء إلى أفق المثول بين يدي الله تعالى، الثبات في هذا المرتقى العالي لصالحنا لا لصالحه سبحانه، أعبد الله واحشد نفسك وعبء طاعتك وكن على استعداد للقاء مع المحبوب، والتلقي الروحي الاخذ من ذلك الأفق العلوي النبيل، إنها مشقة ولكن معها لذة لا يعرفها إلا من ذاقها، ولكن حلاوة هذه اللذة المعنوية لا تنال إلا بتلك المشقة وإلا بالتجرد الخالص لها، فتغلب لذة الطاعة على عناء المشقة فتشعر بقيمتها، فهي لا تفشي سرها ولا تمنح عطرها ولا تستدوق حلاوتها ولا تستطعم لذتها إلا لمن يتجرد ويخلص لها، ويفتح منافذ حسه ومشاعره وقلبه جميعاً كقوله ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر/٩٩ **والعبادة في الاسلام (وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)** مفهوم واسع الدلالة، العبادة: ظاهرها أنيق دقيق جذاب، وباطنها عميق رقيق مناسب، العبادة: ليست مجرد الشعائر الظاهرية، إنما العبادة: كل نشاط وكل حركة مفيدة وكل نية صادقة، وكل عمل صالح للناس وكل اتجاه سليم لله فيه رضا (بلسان الحال أو بلسان المقال) و (العبادة ميزان دقيق: فَمَنْ وَفَّى، اسْتَوْفَى) إنه منهج حياة كامل لغذاء الروح وانتعاش النفس، يعيش الإنسان وفقه فيرتفع في نشاطه كله الى أفق العبادة السام الطاهر المؤثر اللذيذ، إنه لمنهج سليم يحتاج إلى التزام قويم، وإلى صبر ومعاناة وتحمل وثبات، وعلى قدر العبودية تكون العبادة لله وتكون الرحمة ويكون الفيض ويكون اطمئنان القلب ويكون رضا الله، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبُودِيَّةِ أَهْلٌ لِلْعَتَقِ) وَمِنْ قَصَرَ عَنِ أُصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ!.

٦٦- ٦٧ - ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِنذًا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (٦٦) أَوْلَا يَذُكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَاهُ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا
يتعجب الكافر ويستبعد إعادته حياً بعد موته، واللام (لسوف) الاستفهام للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه الجهل في فلسفة الحياة والإيجاد وغفلة الإنسان عن نشأته الأولى أين كان؟ وكيف كان؟ وكيف صار؟ إنه لم يكن شيئاً ثم كان، والبعث والنشور أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر وتفكر. **٦٧- (أَوْلَا يَذُكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَاهُ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا) (أَوْلَا يَذُكُرُ الْإِنْسَانُ)** ويتدبر في فلسفة وجوده ونشأته الأولى، وقد جهزه الله بالإدراك والعقل المفكر (أَنَا خَلَقْتَاهُ) من العدم؟ أليس الذي أوجده بقادر على أن يعيده؟ والإعادة أهون من الإيجاد، والذي

خلقه من العدم ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ المرسلات / ٢٠، قادر على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟ كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم / ٢٧، المعاد: دعوة للتدبر والتذكّر والبحث العلمي الاستدلالي بلطف خطاب وأبلغ تعبير، كقوله (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء/ ١٠٤. **فائدة:**

١- فالقدرة على النشأة الأولى تشهد بالقدرة على النشأة الثانية، ومن أنكر هذه واعترف بتلك فقد ناقض نفسه، لأنه أثبت الشيء من جهة واحدة ونفى الجهة الثانية، والجهتان متعلقتان ببعضهما، وإذا لم تكن هناك إعادة إلى النشأة الأخرى فلا قيمة ولا حكمة ولا فلسفة للنشأة الأولى، وكلها عبث في عبث والله سبحانه منزه عن العبث! وتبقى الحياة لغزاً مبهماً لولا أن تحلها فلسفة المعاد إلى يوم القيامة كقوله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ القيامة / ٣٦ وقوله ﴿أَيَنْ مَّا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة/١٤٨، عن الإمام السجاد (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ آمَنَ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَىٰ كَيْفَ لَا يُؤْمِنُ بِالنَّشْأَةِ الْأُخْرَى؟) البحار ٤٢/٧، يريد الله أن تؤمن بالتجربة العلمية القطعية كما ماننا بالتجربة الحسيّة القطعية، فمن الرّشاد الاستعداد ليوم المعاد (أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَوَمَّ يَكُ شَيْئًا) الآية في منتهى البلاغة، لو اجتمع الخلق على إيراد حجة في البعث والنشور على هذا الاختصار البليغ ما قدروا، كقوله (أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ق/١٥، في نهج البلاغة خطبة ١٥٧ (احذروا يوماً تُفحصُ فيه الأعمال، ويكثرُ فيه الزلزال، تشييبُ فيه الأطفال) ! عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩.

٦٨ - ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ فَهُمْ أَلسِيَّاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾

مشهد مثير من أهوال يوم القيامة، أي يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله وفيه تكريم للنبي (ص)، (فَوَيْلٌ) يا محمد (لَنُحْضِرَنَّهُمْ) لنحشرن هؤلاء المكذبين بالبعث مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم وكانوا يتولونهم، وبينهما صلة التابع والمتبوع والقائد والمقود، والشيطان: كل ما يعبد من دون الله من الجن والإنس والخرافات والانحرافات، كقوله (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/٣٦، وقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُفَصِّرُونَ) الأعراف/٢٠٢ (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا) جثياً: باركين على ركبهم دلالة على الذل والانكسار التي لا يقوى معها على القيام. أو متراكمين بعضهم على بعض، بمعنى: يخرجون من القبور على أسوأ حال ثم لنحضرهم حول جهنم لإذاقتهم العذاب المنتاسب مع جنائيتهم (جِثِيًا) باركين على ركبهم من الذلة وسوء الحال، وقبل دخول جهنم ينظرون إليها وتنظر إليهم وهم جماعات كقوله (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) الهمزة ٦-٧، الاطلاع على الأفئدة، له دلالات بعيدة، وكأن جهنم كائن حي خبير يميّز القلوب عن الأشكال، وتعرف أصحابها بدقة

وتبحث عنهم وترصدهم (جثياً) بمعنى: متراكمون بعضهم على بعض، كما تتراكم الأقباض! وهم مدهوشون من شدة الهول فيزدادون حسرات ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ النبا/٢١ فائدة: ١- إنها صورة حسية رهيبية حيّة حاسمة، إن هذه الجموع التي لا يحصيها عدّ محشورة للحساب، في هيئة مذلة لا يطيقون القيام على أرجلهم نتيجة معاناة وحسرات وأثات خانقة في داخلهم، أكبر من أن تحصيها الكلمات وتصفها العبارات كقوله ﴿مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ الذاريات/٤٥، إنه مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، وتكون عقوبتهم على قدر جنائيتهم .

٦٩ - ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ) لناخذن بقوة وبشدة من كل (شيعَةٍ) فرقة وجماعة ارتبطت بمذهب فكري معين، معنى شيعَة: جماعة متعاونة على أمر محدد أو التابعة لعقيدة أو مبدأ معين يتناصرون عليه، كقوله (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون/٥٣ (أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) العتو: قمة التكبر والتفرد والعصيان والطغيان، منهم من بالغ في عصيان الله وأشدّ تمرداً وطغياناً، ومنهم رؤساء الفسق وقادة الضلال وأكابر المجرمين، الذين يصدّون عن سبيل الله، فنبداً بحسبهم، وهم في ساحة المحشر الكبرى المكشوفة ليراها كل الناس، وكأن هناك (فليم) شريط مُسجّل على كاميرة خفيّة، مُصوّر مُجسّم لكل حياتهم السريّة والعلنية، وهذا الشريط له ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنيّة!! ليلقى في جهنم الأعتى فالأعتى، وهو أكثرهم إجراماً، ويأخذ كل واحد منهم مكانه اللائق المناسب من عذاب الحريق، في غرر الحكم (المرء حيث يضع نفسه) (والذي لا يتّعظ بالماضين كان عبرة للباقيين)، مثله حديث القرآن عن فرعون كقوله ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ هود/٩٨، فهو قائدهم إلى جهنم كما كان قائدهم إلى الضلال في الدنيا .

٧٠ - ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا) بمن هم أحق بها وأهلها (بها صليًّا) بدخول النار والاصطلاء بحريقها، ونحن أعلم بمن يستحق تضعيف العذاب فنبداً بهم ولا يشتهه علينا. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف / ٤٩ في غرر الحكم (النار غاية المُفْرَطِينَ) وإنّ المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب وهم في أمن وأمان واطمئنان. كقوله ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ الأنبياء /١٠٣، والأمن في مواقف الفرع الأكبر له قيمته الكبرى.

٧١ - ٧٢ - ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا

جثياً﴾

وَأَرَادُهَا: من الورد، هو الحضور والاقتراب منها والاشراف عليها، ويكون معناها في القرآن الكريم بحسب موقعها من سياق الآية، فتأتي بمعنى الرؤية والمشاهدة لأنّ المؤمنين عن النار مبعدون عقلاً

ونقلًا كقوله ﴿وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ النحل / ٨٩ وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ الأنبياء/١٠١-١٠٢ ولأن عذاب المؤمن المطيع يتنافى مع عدل الله ورحمته ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران / ١٨٥، عن النبي (ص) (جز يامؤمن فإن نورك قد أطفأ هبي)! روح البيان ٥/٣٥٠، مجمع البيان ٦/٥٠٦ المعنى: ما من أحد إلا ويرى النار عياناً سواء أكان صالحاً أم طالحاً، فهم يريدونها فيدنون منها ويمرون عليها، فالطالح يراها ويدخلها جاثياً على ركبته، والصالح يراها ويتجاوزها ويتخلص منها حامداً لله على نعمة النجاة (كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) كان ذلك الورود قضاءً لازماً حاسماً لا يمكن أن يتغير. ٧٢- (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا) ثم نخلص من جهنم ورهبتها المتقين (وَمَنْ أَتَقَىٰ اللَّهَ وَقَاهُ) فيتزحزحوا عنها وينجون منها كقوله ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ الإنسان/ ١١ (وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) ونذر: وتترك الظالمين الذين اعتدوا على الناس، في جهنم جاثين على ركبهم باركين أدلاء مهانين، أو متراكمين بعضهم على بعض، كما تتراكم الأنقاض! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف / ٤٩ (وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته. فائدة: معنى الورود: الوصول إليها والقرب منها والإشراف عليها لا الدخول فيها كقوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص/ ٢٣ وقوله ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ يوسف/ ١٩، واردة: الذي يرد الماء ويطلبه ويحيط به علماً، ثم إن الاستقامة على دين الله نجاة وفوز في الدنيا والآخرة، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) الأحقاف/ ١٣-١٤، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ) لقمان/ ٨، في غرر الحكم (لا يفوز بالجنة إلا من حسنت سريرته، وخلصت نيتته) سئل النبي (ص) عن الآية فقال (فوالذي نفسي بيده هي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدتها) مجمع البيان ٦/٥٠٦، جاء في الخبر (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُطْلِعَهُ عَلَى النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، لِيَعْلَمَ تَمَامَ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَيَزِدَّ فَرْحًا بِالْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا، وَلَا يُدْخِلُ أَحَدًا النَّارَ حَتَّىٰ يُطْلِعَهُ عَلَى الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ لِيَكُونَ ذَلِكَ زِيَادَةً عُقُوبَةً لَهُ حَسْرَةً عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا) المصدر السابق. (وَارِدُهَا) : تأتي وَرَدَ بمعنى اقترب، أي ورد الماء ووصل إليه وشرب منه كقوله ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ﴾ هود / ٩٨ أي أدخلهم النار مع الداخلين ولكن تكون للمؤمنين نجاة وبرداً وسلاماً، كما حدث مع إبراهيم (ع) ويترك فيها الكافرين لتكون لهم حسرة، وللمؤمنين نعمة، كقوله (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ) الأنبياء/ ٨٨.

٧٣ - ﴿وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا﴾

وإذا قرئت على المشركين (آياتنا بَيِّنَاتٍ) آيات القرآن الواضحات الإعجاز وبيّنات المعاني لا تدع ريباً لمرتاب.

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) نَدِيًّا: مجلساً. المعنى: قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين مستهزئين أي الفريقين نحن أم أنتم (خير مقاماً) أحسن مسكناً وأطيب عيشاً (وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) وأكرم مجلساً وأجمل منتدى يُكثر رواه ورجاله، قالوا ذلك عندما عجزوا عن مواجهة الدلائل القرآنية، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا كقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الأحقاف / ١١ وهكذا فتن الله بعضهم ببعض، الغني مفتون بالفقير، والفقير مفتون بالغني، وكذلك يفتن الصحيح بالمرضى.. إلخ كقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف/٧ والخلاصة : إنَّ الجبارة الأشرار يجاهون دعوة الله والحق بقولهم لمن سمع لها وأطاع، نحن نعيش في رفاهية المال والجاه وحسن الحال، وأنتم تعيشون فقراء مساكين، فكيف تزعمون أنكم المحقون ونحن المبتلون؟ ومن قبل قال فرعون عن موسى ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ الزخرف/٥٣، معتبراً الحق بالغنى، والباطل بالفقر!، في نصح البلاغة حكم ٤٥٢ (الْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى) وهذه العقلية المادية التي ترى الأشكال دون المضامين إنهم محجوبون عن القيم العليا كقوله ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم/٧ ويجهلون الحقيقة الكبرى، فردَّ الله عليهم بقوله :

٧٤ - ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكَ مَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ مَّا أَحْسَنَ أَثَانًا وَرِثِيًّا﴾

قرن: أمة تعيش في زمن واحد، أثاناً: متاع البيت وأدواته الضرورية والكمالية، وريثياً: منظرًا جميلاً وهيبة، وروية لأشياء خلابة، للدلالة على الثراء والترف، المعنى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا) قبل هؤلاء الجهلة من أمة هم أحسن أمتعة وفرشاً وأجمل منظرًا وأعظم هيبة، فهل استطاعت أموالهم ومجالسهم وملابسهم الفاخرة وترفهم وصورهم الجميلة أن تمنع عذابنا عنهم؟ وإذا كانت هذه الرفاهية دليلاً على منزلتهم عندنا فلماذا أصابهم هذا المصير المشؤوم؟! فلا يغتر هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع، فهو ابتلاء ومحاسب عليه كقوله (ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) النكاثر/٨ كقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إبراهيم/٢٨

٧٥ - ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا مَرَّأُوا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾

الإمداد : الإمهال، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المترفين الزاعمين أنهم على حق، المفتونين بزينة الحياة الدنيا والمخدوعين بما على أنها أهم شيء عندهم، قل لهم أنهم في فترة إمهال وإملاء وإمداد واستدراج، كقوله (فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) الأنعام/٤٤، في نصح البلاغة حكم ١١٦ (مَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ) أي الإمهال والإمداد، فإنه مضاعفة الخزي له من حيث لا يعلم، والله لقد ستر حتى

كَأَنَّهُ عَفَرَ، وَأَنَّهُ أَمْهَلٌ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلٌ، وَأَنَّهُ أُنْذِرٌ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْدَرٌ! الْمَعْنَى: (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ) مَنْعَمَساً بِهَا وَمَسْتَقَرّاً عَلَيْهَا وَمَتَّحِناً فِيهَا، وَلَنْ يَرْجِعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ وَعِنَادِهِ وَلَنْ يَسْتَمِعَ لِنَصِيحِ نَاصِحٍ وَإِذَنْ (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) فَلْيَمَهَلْهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ إِمِهَالاً وَلْيَدْعُهُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي رَضَاهَا لِنَفْسِهِ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وَيَتْرَكُهُ فِي طَغْيَانِهِ وَفَسَادِهِ وَضَلَالِهِ حَتَّى يَنْقُضَ أَجْلَهُ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ النمل/٤، يَعْْمَهُونَ : يَتَخَبَّطُونَ وَيَتَحَيَّرُونَ نَتِيجَةً عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَهَذِهِ عَقُوبَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهِيَ غَايَةٌ فِي التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِأَنَّهُ اسْتَدْرَاجٌ كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢، وَقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيهِمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّيهِمْ لِيُزِيدُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران / ١٧٨، فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حُكْمٌ ٢٥ (يَا بَنِي آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاخْذِرْهُ) إِنَّ هَذَا الَّذِي تَفْتَخِرُونَ بِهِ مِنَ السَّعَةِ فِي الْعَيْشِ وَالرَّفَاهِيَةِ هُوَ ابْتِلَاءٌ بِالنِّعْمَةِ يَمْتَحِنُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ أَمْدًا غَيْرَ قَاصِرٍ، فَإِنْ شَكَرُوا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالثَّوَابِ وَحَسَنَ الْمَآبِ، وَإِنْ أَزْدَادُوا كُفْرًا وَطَغْيَانًا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَذِيقُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَوْ يَعْذِيبُهُمُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يَجْلِبُ بِهِمْ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ.

(إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ) إِنَّمَا الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا بِأَيِّ نَوْعٍ مُتَنَاسِبٍ مَعَ جُرْمَتِهِمْ، وَإِنَّمَا عَذَابُ الْآخِرَةِ هُوَ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ (فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا) وَعِنْدَهَا يَعْلَمُونَ أَيَّ الْفَرِيقَيْنِ أَسْوَأَ حَالًا (وَأَضْعَفُ جُنْدًا) وَأَقْلُّ نَاصِرًا وَمَعِينًا وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، الْمُؤْمِنِينَ الْفُقَرَاءَ أَوْ الْكَافِرِينَ الْأَغْنِيَاءَ؟! وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حُكْمٌ ٤٥٢ (الغنى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى) وَفِيهِ أَيْضًا حُكْمٌ ٣٨٧ (مَا خَيْرٌ بِحَجْرِ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِبَشَرٍ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ) إِنْ الْغِنَى لَيْسَ مَقْيَاسًا لِلْفَضْلِ، وَالْفَقْرُ لَيْسَ مِيزَانًا لِلْهَوَانِ، وَإِنَّمَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ هُوَ الْمِيزَانُ وَالْمَقْيَاسُ كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ العنكبوت / ٥، وَأَفْضَلُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حُكْمٌ ٨١ (قِيَمَةٌ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهَا) فِي غَرْرِ الْحُكْمِ (رُبَّ عَيٍّْ أَدْلُ مِنْ الْفَقِيرِ، رُبَّ فَقِيرٍ أَعَزُّ مِنْ الْعَيِّْ) .

٧٦ - ﴿وَيَزِدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾

الهداية: دلالة على الخير وبيان طريقه، وطلب المعونة والتوفيق من الله للوصول إليه، المعنى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) وَيَزِيدُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْتَدِينَ هِدَايَةً عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَبَصِيرَةً عَلَى بَصِيرَتِهِمْ، بِأَسَالِيبٍ شَتَّى مِنْهَا: بَأَن يَعْرِفُهُمْ بِحَقِيقَةِ أَنْفُسِهِمْ وَمَوَاقِعِ الْخَطَا وَالصَّوَابِ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَحْسَنِ السَّبِيلِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء / ٩، لِأَنَّ (الهداية) دَرَجَاتٌ تَزِيدُ

وتنقص، تقوى وتضعف، وتصح وتقرض، وتجري على قاعدة المسببات على ضوء حركة أسبابها، فالأسباب بيد الإنسان والمسببات بيد الله، وتجري المسببات على أساس توفير الأسباب، فمن أخذ بأسباب الخير والهداية أخذ الله بيده وشمله بعنايته، ومن أخذ بأسباب الشر والضلاله يعامله الله تعالى بما اختار لنفسه. (والإناء ينضح بما فيه). الهداية نوعين: هداية بالمواهب، وهداية بالمكاسب، فالتى تتعلق بالمواهب فمن هبة الله وهي مقدرة كقوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ^{الرعد / ٨}، والتي تتعلق بالمكاسب، فمن كسب العبد وقدرته وكفاءته ومقدار جهده كقوله ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ^{نجد / ١٧}، (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مراداً: مرجعاً وعاقبة، وجاء التعبير القرآني في سورة الكهف / ٤٦ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾، الباقيات الصالحات: على إطلاق معناها، هي الطاعات التي تبقى آثارها وتستمر منافعها، وهي الأعمال الصالحة النافعة الخالصة التي تبقى محفوظة منافعها عند الله وعند الناس، وتستعقب جميل الشكر وعظيم الأجر، ويبقى خيرها ونفعها للناس عامة على الدوام كقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ^{البينة / ٧}، في غرر الحكم (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) لا للهِتافات الشكلية، لا لتقديم المصالح الشخصية أو الحزبية أو العشائرية... وغيرها على المصلحة العامة.

المعنى : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) أي أنواع الخيرات التي يبقى ثوابها لأهلها (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ) خير عند الله وعند الناس وخير لأنفسهم (ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً) لأنها أحسن عاقبة ومنزلة والتي منها العلم المفيد، والعمل النافع، والولد الصالح، وذكر الله غنيمة باقية كقوله ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ^{العنكبوت/٥٥} أنها من النعم الباقية المؤثرة الدائم نفعها ولا ينقطع ثوابها كقوله ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ^{النحل / ٩٦}، خير من مقامات هؤلاء المشركين وترفعهم في مجالسهم، وخير من ما لهم وجاههم التي بها يفخرون على أهل الإيمان في الدنيا، فهي إلى زوال، ولذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة. فائدة: عن النبي (ص) (سَبْعَةُ أَسْبَابٍ يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ ثَوَابُهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ: رَجُلٌ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ حَفَرَ بَيْتًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ كَتَبَ مِصْحَفًا (أَيَّ أَلْفٍ كِتَابًا نَافِعًا) أَوْ وَرَّثَ عِلْمًا، أَوْ حَلَفَ وَلَدًا صَالِحًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٢ .

٧٧ - ٨٠ - ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاؤْتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَكَتَ مِمَّا يَقُولُ وَمِنْدَلُهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَسَرَّهُ مَا يُقُولُ وَيُتَيْنَا فَرْدًا﴾

الاستفهام للتعجب، أي تعجب يا محمد من قصة هذا الكافر الطاغوي المعاند الذي جحد بآيات الله وزعم مستهزئاً (وَقَالَ لَاؤْتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين كما أعطاه في الدنيا كقوله ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^{يونس / ١٢} وقد ردَّ الله سبحانه هذا الزعم

بقوله ٧٨ - (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) الاستفهام إنكاري، من أين جاءه هذا العلم؟ هل عنده مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عَلَامُ الْغُيُوبِ؟ (أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) أم أعطاه الله عهداً ووعداً ووكالة بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين؟ في الحديث: (مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ بِفَرَائِضِهَا وَبِي وَفَتْحِهَا اتَّخَذَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا) (الميزان ١١٤/١٤) (مَنْ أَدْخَلَ عَلَيَّ مُؤْمِنٍ سُرُورًا فَقَدْ اتَّخَذَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا، وَ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا جَاءَ مِنَ الْأَمْنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) البحار ٤٣/٧٤ - ٧٩ - (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) رَدٌّ عليه، ولفظة (كَلَّا) للردع والزجر، أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك الكذبة الشنيعة، لقد حفظنا عليه ونسجل أقواله وثبتتها في صحيفة أعماله وترتب على أثرها الجزاء (سَنَكْتُبُ) الكتابة تعني الحفظ بكافة أشكال الدلالة، فيكون تسجيل خفي بشريط مجسم ذي ثلاثة أبعاد، صورة وصوت ونية (وَمَثَدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالأموال والأولاد والعناد وجزاء إمداد كفره وافتراءه ٨٠ - (وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) نرثه: نسترجع ما أعطينا بموته، أي ونرثه ونأخذ منه أخذ الوارث ما يرثه أو يصبح ميراثاً لغيره لا يمسك بيده شيئاً منه يوم القيامة، و ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) وحيداً فريداً كما خلقناه أول مرة، لا مال معه ولا ولد، ولا نصير له ولا سند! كقوله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام / ٩٤ ثم يستعرض السياق ظواهر الكفر وألوان الشرك:

٨١ - ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾

آلهة: على إطلاق معناها، فكل ما عُبدَ (من دُونِ اللَّهِ) فهو إله، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)! وعن النبي (ص) (ذُنْيَاكَ مَا يَشَعَلُكَ عَنْ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦ والعبادة هنا تعني الطاعة والولاء، من أصنام حجرية أو بشرية أو فكرية أو مالية، العز: القدرة والقوة والمواقع المادية والمعنوية، المعنى: وهذه عقوبة من أتخذ من (من دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) ليعتروا بهم ويتقربوا لهم (وَمَنْ اعْتَزَرَ بِعِزِّ اللَّهِ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثُوبَ الذُّلِّ) ولو بعد حين، أنهم لما لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بمنهج الله، بل والوا واعتمدوا على أعداء الله ويتخذونهم آلهة (بلسان الحال أم بلسان المقال) يطلبون عندهم العزة والنصرة والغلبة من الملائكة أو الجن أو القديسين من الإنس أو جبابرة الملوك أو المال والجاه والنساء يعتمدون عليهم، يستلذون بهم ويتقوون (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) شفعاء وأعاوناً وأنصاراً فينالوا العزة والرفعة منهم، كانوا يرون الملك والجاه والثراء قداسة سماوية، فلا يأتيهم الشر ويكونوا في مأمن منه، وينالوا الخير والرفعة والثروة والهيبة كقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر / ٨، أما الحقيقة فخلافاً ذلك كقوله ﴿أَيَّبَتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ النساء / ١٣٩ عن الإمام

الصادق (ع) (مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ، وَعَتَى بِلَا مَالٍ، وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ، فَلْيَنْتَقِلْ عَن دَلِّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ) البحار ٧٨/١٩٢، في غرر الحكم (مَنْ اعْتَزَّ بِعَبْرِ اللَّهِ أَهْلَكَهُ الْعِزُّ)!.
 ٨٢ - ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

(كَلَّا) فليس الأمر كما يظن هؤلاء أبدأ، إنهم توهّموا، عندما أعرضوا عن الله تعالى وأطاعوا أعداءه من شياطين الجن والإنس، وسلّطهم الله عليهم، كقوله ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف / ٣٦ فبئس القرين وقوله ﴿وَإِحْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْعِجْيِ ثُمَّ لَا يُفَصِّرُونَ﴾ الاعراف/٢٠٢ فجعلت الشياطين تدفعهم إلى المعاصي وتغريهم بالمنكرات (وَمَنْ اعْتَزَّ بِعَبْرِ اللَّهِ ذَلَّ) (سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) بل ستكفر الالهة وتتبرأ بعبادة وخضوع هؤلاء المشركين (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أعداء لهم وأعوانا على عذابهم ويشهدون عليهم ويكونون عليهم ضداً وخصماء أشداء، ولو كانوا لهم عزّاً لثبتوا على ذلك كقوله ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ القصص/٦٣ عن الإمام الصادق (ع) (لَيْسَ الْعِبَادَةُ هِيَ السُّجُودُ وَلَا الرُّكُوعُ، وَإِنَّمَا هِيَ طَاعَةُ الرَّجَالِ، مَنْ أَطَاعَ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عَدَّاهُ)! نور الثقلين ٣/٣٥٧.

٨٣ - ﴿الَّذِينَ تَرَأَوْنَ أَهْلًا لِمَكَانٍ مُّبِينٍ يُرْسِلْنَا إِلَيْهِمْ طَائِفًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ أَسْمَاءُ يُضَاهَى اسْمَاءَ آبَائِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

تَوَزَّهْمُ أزا: الأز والهز والاستفزاز: شدة الإزعاج النفسي، بمعنى: تَهَرَّهْمُ هزاً شديداً عنيفاً معنوياً، وتغريهم إغراءً، وتطغى عليهم طغياناً، وتحتهم على المعاصي حثاً وتدفعهم دفعاً، فهم مسلطون عليهم فيقبلون مفاهيمهم وقناعاتهم! المعنى: (أَلَمْ تَرَ) يا محمد (كدليل على ما ذكرنا) أنا تركنا الشياطين ولم نردعهم بالقهر والجبر، فجاؤوا على الكافرين ابتلاءً لهم بسبب كفرهم وعنادهم تدفعهم للفساد دفعاً، وتثير شهواتهم إثارة، وترين لهم المنكرات، وتغريهم بأنواع المعاصي، وتتحكم في حركاتهم وسكناتهم؟ ويُقَبِّحُونَ لهم الحق ويعتبرون منهج الله رجعي وهم تقدميون! فيشربون حبّ الفساد في قلوبهم! ويدافعون عن الباطل وأهله، ويحاربون الحق وأهله. فيكونون في موقع ذليل، فالشياطين يخططون لهم بالوساوس، وهم أدوات التنفيذ بالاتباع الأعمى، ولا يتدخل الله تعالى لأنه القى الحجة التامة عليهم، وبين لهم طريق الخير من الشر، ومنحهم القدرة التامة على الفعل والترك، ونهاهم عن المنكر وأمرهم بالمعروف وترك لهم الخيار تكريماً لهم، وبعدها الجزاء والحساب والكتاب كقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠، وقوله (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) الكهف/٢٩، وقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فصلت/٤٠، وقوله (وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس/٧-٨، وبعد هذا الاختيار تركهم وشأنهم وما يختارون لأنفسهم كقوله (وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الأنعام/١١٠، يعمهون: يتخبّطون ثم يصادقهم الشيطان فينقلب عندهم المقاييس الصحيحة كقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا) فاطر/٨، وقوله

﴿ثُمَّ لَا تَبِينُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾
الأعراف/١٧ فلا يأتي الشيطان من فوق لأنه مرتبط بعز الإلوهية من الأعلى، ولا يأتي من الأسفل عند
دَلَّ العبودية في السجود لله تعالى كقوله ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^{العلق / ١٩} فائدة: عن الإمام علي(ع)
(عَنْ قَلِيلٍ يَتَّبِعُ التَّابِعَ مِنَ الْمَتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ (يَتَفَرَّقُونَ) بِالْبَعْضَاءِ، وَيَتَلَاعُونَ
عِنْدَ اللَّقَاءِ).

٨٤ - ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾

فإن كانوا هم وأهنتهم راجعين إلينا غير خارجين عن سيطرتنا، إذاً (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ) لا يضيق
صدرك بهم، فإنهم مهملون إلى أجل قريب، وكل شيء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود، والتعبير
القرآني البليغ يثير المشاعر ويصوّر دقّة الحساب تصويراً محسوساً يثير الانتباه والرهبّة ! (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا) كلّ شيء معدود، فإنه لم يبق لهم إلا أيام محدودة وأنفاس معدودة، وكلما طالت أعمارهم
كثرت ذنوبهم وازداد عذابهم. أي نعدّها عليهم عدداً وكل معدود ينتهي، فإننا نعدُّ أنفاسهم في
الدنيا، ثم يصيرون إلى عذاب شديد، كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^{الرعد/٣٨}، في نهج البلاغة
حكم ٧٤ (نَفْسُ الْمَرْءِ حُطَّاءُ إِلَى أَجَلِهِ) وعند الله تعالى يكون الحساب وفصل الخطاب.

قال الشاعر أحمد شوقي: دقائق قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثواني، إن الذي يحس أن
رئيسه في الأرض يتتبع أعماله ويحصى عليه فساده وزلاته يخاف ويضطرب، ويعيش القلق والأرق
فكيف بالله المنتقم الجبار؟! فالويل لمن يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتتبعها ليحاسبه
الحساب العسير! كقوله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾^{المجادلة/٦}،
وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ عن الإمام
علي(ع) (كلُّ معدودٍ متنقِّصٌ، وكلُّ متوقِّعٍ آتٍ) نور الثقلين ٣ / ٣٥٨ .

٨٥ - ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾

إنه مشهد مهيب مُشَوِّقٌ من مشاهد يوم القيامة، وهو مقابل المشهد الرهيب المُظلم السابق، فأما
المؤمنون المتقون (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) فقادمون (إلى الرَّحْمَنِ) على رحمة الرحمن في دار كرامته ركبانياً
معززين مكرّمين (وفداً) على هيئة وفد عزيز كريم مهيب، والوفد من معاني التشريف يفدون على
الله تعالى مستبشرين، مع الكرامة وحسن الاستقبال، كما يفد الوفود على الملوك على هيئة خاصة
واستعداد خاص، وفي هذا دلالة أنهم لا يردون النار أي لا يدخلون فيها، في قوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا
وَارِدُهَا﴾^{مريم / ٧١}

٨٦ - ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾

إنه مشهد مثير يقابل مشهد حشر المتقين، ورداً : عطاشى، أي ونسوق المجرمين في ذلة مشاة إلى
جهنم، كقوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾^{نجد / ٢٧} (ورداً)

عطاشى كما تساق البهائم إلى الماء! فينهلون من الجحيم والعذاب الأليم، كقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣ في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَصْعُقُ نَفْسَهُ!) (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عَيْرَةً لِلنَّاسِ) عن النبي (ص) (إِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ يُدْفَنُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ كَرِيماً أَكْرَمَ صَاحِبَهُ، وَإِنْ كَانَ لَقِيماً أَلَمَهُ) روح البيان ٧/٤٤٤.

٨٧ - ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

فليس كل من يهوى الإنسان شفاعته يشفع له، ولا يملك أحد القدرة على الشفاعة والوساطة لأحد لإسقاط الجزاء والعقاب (إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) إِلَّا: الاستثناء منقطع، لكن مَنْ تحلّى بالإيمان والعمل الصالح فهو عهد له عند الله يستوفيه بالجزاء الأوفى، كالأنبياء والأوصياء والأولياء والشهداء والعلماء والفضلاء، فإنه يحق لهم الشفاعة بإذن الله كقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة / ٢٥٥ وعن النبي (ص) ﴿إِنْ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي غَدًا وَأُوجِبَكُمْ عَلَيَّ شَفَاعَةً : أَصْدَقَكُمْ لِسَانًا وَأَدَاكُمْ لِلْأَمَانَةِ وَأُحْسَنُكُمْ خُلُقًا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَ النَّاسِ﴾ البحار ٦٩ / ٣٨١، الْعَهْدُ: هو مقام الإحسان إلى الناس، وهي منزلة الأبرار عند الله فتؤدّي الطاعات الواجبة والمستحبة والعبادات والمعاملات بإخلاص كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت/٦٩، وقوله (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) الإسراء/٣٤، فائدة: ١- أحسن شفيع لدى الله تعالى الحسنات وفعل الخيرات، ويكون هذا الشفيع الذاتي الأصيل شاهداً ومدافعاً بالقدر الممكن للمشفوع له بأية طاعة منه تُرضي الله عز وجل، في غرر الحكم (شَافِعَ الخُلُقِ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ وَلُزُومُ الصِّدْقِ) عن النبي (ص) (إِنَّ الْحَافِظَةَ عَلَى الْعَهْدِ هِيَ الْحَافِظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْحَمْسِ) الميزان ١٤ ص ١١٤، كمصداق للآية .

٨٨ - ٨٩ - ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾

إِنَّ معاني الألفاظ وإيقاع العبارات لهذه الآيات والتي بعدها، لها تأثيرها على حركة المشاعر الإنسانية، ليشارك حركة المشهد المثير، وتصوير الكلام اللامسؤول في أهم موضوع في العقيدة التوحيدية الذي يمس بقداسة الذات العلية القدسية، والسياق القرآني يصوّر حركة ردود الفعل لهذه المقولة الخطيرة التي يتزلزل لها الكون والكائنات لخطورتها وضررها، المعنى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) قال مشركوا العرب الملائكة بنات الله! وقالت النصراني عيسى ابن الله! وقال اليهود عزيز ابن الله!

٨٩ - ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ لَقَدْ أَتَيْتُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ بِقَوْلٍ (إِدًّا) مِنْكَرًا بِشَعًا فَظِيحًا تَنَاهَى فِي

القبح والفضاعة والشناعة..، يغضب الله ويهتّر له كل ساكن، ويرتج كل مستقر ويغضب الكون كله لله الواحد القهار! وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته التوحيدية، وتهز القاعدة التي آمن بها وقام عليها واطمأن إليها. إن إلهاً يتخذ ولداً لأعجز من أن يقوم على أمر نفسه، فكيف

بتقدير الكون وتدبير الكائنات؟. كقوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾
الكهف / ٥، وهكذا الذي لا يعرف قدره يتعدّد طوره.

٩٠ - ٩٢ - ﴿كَأَدُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطَرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي
لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَسْخَدَ وَكَدًّا﴾

لسنا نحن فقط الذين ننكر هذا الأمر بعدم تنزيه الله عما لا يليق به، بل الجمادات غير العاقلة وغير المكلفة أيضاً! إنه مشهد انقلابي ضخم يصوّر هذه الانتفاضة الكونية الشاملة للكلمة النابية غير المسؤولة، بمعنى : تكاد السموات (يَتَفَطَّرُنَّ) يتشققن من هول هذا القول الفظيع (وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) وتنشق الأرض، تحسف وتترزل، والجبال تسقط وتنهار وتفتت، لمجرد النطق بهذا الافتراء الشنيع!، هذه كلمة منكرة قبيحة مملوءة جهل وغباء، فهي كلمة مستنكرة بذاتها ومستنكرة لغيرها، تشترك فيها بالاستنكار السموات والأرض والجبال وكلها ترتجف وتترزل وتضطرب، لماذا لم تنفطر بالفعل؟ لأن الله يمسكها كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ فاطر / ٤١ - ٩١ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا﴾ إن الله سبحانه بيّن هذا السبب لغضبه عندما قالوا ذلك ٩٢ - ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَكَدًّا﴾ وما يليق بالله تعالى اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي المجانسة والمقاربة بين الزوجين ويكون عن حاجة، والله منزّه عن التشبيه والنظير والحاجة وليس له جسم ولا صورة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى / ١١ وقوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور / ٣٥ والله غني عن المعين والنصير لأنه غني بذاته فلا يحتاج كما يحتاج المخلوق إلى ولد كقوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ المؤمنون / ٩١ في غرر الحكم (مَنْ وَحَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُشَبَّهْ بِالْخَلْقِ) في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) .

٩٣ - ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

في وسط الانتفاضة، الانتفاضة الانقلابية الكونية الكبرى، يصدر البيان القرآني الواقعي التربوي المسؤول الذي يقول: ما من مخلوق في العالم العلوي ولا السفلي إلا وهو عبد من عبيد الله، دليل خاضع بين يديه يرتزق من رزقه، منقاد مطيع له بالفعل والقوة كما يفعل العبيد، فالله يملكه مالا يملكه العبد لنفسه، لأنه الخالق لكل شيء والمدبر لأمره، وليس له من الوجود إلا ما آتاه الله تعالى، والعبودية لله عزّ وجلّ زينة الإنسان، على قدر العبودية تكون الرحمة، وما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار لله، لأن ملازمة العبودية تورث الكرامة والحرية والاستقامة، وإظهار الافتقار لله يورث دوام الالتجاء والتضرّع، ومن كان فقيراً لله كان غنياً قوياً في نفسه كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فاطر / ١٥ في غرر الحكم (حَيْرُ الْغَنِيِّ غَنَى النَّفْسِ)

فائدة ١- في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلَ لِعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنْ شَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ!.

٩٤ - ٩٥ - ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ) ضمير (أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ) يعود إلى من في السماوات والأرض، وضمير (آتِيهِ) يعود إلى الله تعالى، لقد علم الله عددهم وأحاط علمه الدقيق بهم (وَعَدَّهُمْ عَدًّا) بأشخاصهم وأجالتهم وأفعالهم وأقوالهم، بل وعدَّ أنفاسهم واحداً واحداً كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر / ٤٩ فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد من الأولين والآخرين، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، إنها قدرة خارقة فوق أن تُقاس، وفوق أن تدركها العقول والحواس، ٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) وكل فرد يأتي بنفسه مختاراً يوم القيامة، وحيداً فريداً بلا مال ولا ناصر ولا معين ولا ولد ولا عشيرة، ولا يملك أمر نفسه كثيراً ولا قليلاً وقد تقطعت به الأسباب، فلا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد، حتى مشاعر الجماعة، إن الإنسان مدني بطبعه يتجرد منها، فإذا هو وحيد فريد أمام الواحد القهار كقوله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام/ ٩٤ كما خرج من بطن أمه مفرداً أعزلاً حافياً عارياً وليس معه إلا نفسه مجردة مفردة، فتلقون ربكم فرادى لا جماعة كما خلقكم أول مرة أفراداً، إنه خرج أول مرة كان غير مسؤول، وحين يعاد إلى الله يكون مسؤولاً عن كل شيء كقوله (وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُوَلُونَ) الصفات/ ٢٤ ويظهر بذلك حقيقة عبوديته لله فيشهد بذلك الجميع، وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبنة الحاسمة فإذا بالود السامي من الرحمان الرحيم يغمر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله :

٩٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبنة، فيكون المؤمنون في ظلال ندية محمّية وظروف ودّية سامية، في إجماع إيمانية متألّقة، ودّاً : مودّة ومحبة في القلوب، ورابطة قوة مشاعر في النفوس، المعنى: لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين العاملين، حين يأتي الناس يوم القيامة ولا شيء معهم، وسيأتي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومعهم ما يقربهم إلى الله ويدنيهم من رحمته وينزلهم منازل مودّته وألطافه، (وَسَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) رابطة محبة ووشائج مودة وجاذبية مهيوبة شفاقة خفية في قلوب الصالحين، من أهل السماوات والأرضين وفي الدنيا والآخرة، ومن غير أن يكونوا السبب في خلق هذا الود النموذجي الخاص كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة / ١٦٥، وفي غرر الحكم (إِذَا أكرمَ اللهُ عَبْدًا أَشْعَلَهُ بِمَحَبَّتِهِ) سبب النزول : (إن رسول الله (ص) قال لعلي (قُلْ أَللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا وَاجْعَلْ لِي فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ وُدًّا فَتَنَزَّلَتْ الْآيَةُ) نور الثقلين / ٣

فائدة: ١- وهكذا القرآن الكريم يكشف عن سنة إنسانية جارية دائمة تقول (إنه بمقدار الإيمان والعمل الصالح سيحصل الود من الرحمن بقدره، وكلما ازداد الإيمان والعمل الصالح سيزداد مقابلة حجم الود الخاص من الرحمن بقدره، وكلما قلّ الإيمان والعمل الصالح سيقبل حجم الود من الرحمن بقدره، وكلما انعدم الإيمان والعمل الصالح فلا ود ولا محبة ولا هيبة من الرحمن له، عن الإمام الصادق (ع) (الإيمانُ عملٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضُهُ) البحار ٦٩ ص ٢٣، ويتبين أن المودّة نسبة وتناسب، وموازين ومعايير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩، ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، فيزقه مودتهم بمقدار إقبال قلوبهم، وقد خصهم الله بالمودّة إكراماً، كما قذف الرعب في قلوب إعدائهم إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانتهم، عن النبي (ص) (جِبَلْتُ الْقُلُوبَ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبَغُضِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا) البحار ١٤٠/٧٧، وقلب المؤمن دليله، فهو الذي يكشف ودّ القوب وتنافرها. في غرر الحكم (أَقْرَبُ الْقُرْبِ، مَوَدَّاتُ الْقُلُوبِ) وفيه أيضاً (الْمَوَدَّةُ أَحَدُ الْقَرَابَاتَيْنِ). إنَّ الله تجلّى لخلقه بعجائب مخلوقاته، فمن طلب الله طلبه، ومن سعى إلى الله قرّبه، ومن بحث عن الله وجده، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥، ومن وصل إلى الله أدخله في حصنه الحصين الأمين المنيع كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، وقوله (وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩.

٩٧ - ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ) أي سهّلنا يا محمد هذا القرآن وطوّعناه لك حفظاً وحَملاً واستنطاقاً، وكذلك فإنه مُيسّرٌ لغيرك أيضاً كقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر / ١٧ يسرناه بلغتك (بِلِسَانِكَ) العربي لتقرأه على الناس ليسهل عليك وعليهم معرفته وفهم معانيه وحفظه وتدبره والاستدلال به، ليحصل المقصود منه والانتفاع به كقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام / ١٥٥، وقوله (سُنْفُرُوكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعلى/٦-٧، عن النبي (ص) (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كنز العمال خير ٢٤٥٤ وفي ذلك بيان لفضل القرآن الكريم (لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ) ويكون بشيراً لمن آمن واستقام واتقى (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) لُدًّا: خصماء أعداء أشداء رُعاء أصحاب هوى، لا يقبلون حقاً ولا يجيدون عن باطل، أي وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال بالباطل، فيكون نذيراً لمن جحد وطغى وبغى واعتدى، وبشيراً لمن آمن واستقام واتقى. كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) فصلت/٤٤ فائدة: ١- في الحديث الشريف: (لَأَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدِّ الْخُصِمِ) روح البيان ٥ / ٣٦٠ كقوله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال / ٤٢ .

٩٨ - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) من أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، وكانوا أشدّ منهم

خصومة للرسول وأكثر قوة وأموالاً وأولاداً وأعواناً وأنصاراً لهم (وكم) للتكثير، (قرن) : أهل كل عصر (هَلْ نُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ) هل ترى أو تشعر منهم أحداً؟ أو أحداً من نسلهم؟ (أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا) صوتاً خفيفاً خافتاً أو همساً والمعنى : إنَّ الله أهلكهم عن آخرهم وخلت منهم الديار وتطهرت منهم الأرض، ولا تجد لهم أثراً، فكما أهلكنا أولئك نكحك هؤلاء. كقوله ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ آل عمران / ٤٤، كقوله (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) الحج/٤٥، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين (وَالَّذِي لَا يَتَعَبُطُ بِالْمَاضِينَ يَكُونُ عِبْرَةً لِّلْبَاقِينَ) في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بَعِيْرِهِ) كقوله ﴿ فَاَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ الحشر / ٢، في غرر الحكم (الإِعْتِبَارُ يُنْمِرُ الْعِصْمَةَ).

وآخر دعوانا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

وفي الختام نقول : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ الجاثية / ٢٩

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرُ) لسورة مريم، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل فله الحمد والمنه، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٥/٨/٢٠١٧م الموافق، ٢٣/رمضان/١٤٣٨هـ، في بغداد، الكاظمية، داعين الله عزوجل أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إن ربي سميع مجيب الدعاء

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

مكية، غرضها تركيز أصول الدين الأساسية المشتركة لكل رسالات السماء (التوحيد، والنبوة، والمعاد) فيها قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية بتفصيل، مع موقف مناجاة موسى ربه وتكليفه بالرسالة، وموقف موسى والسحرة وكيفية رعاية الله لموسى (ع) وإهلاك فرعون وحكومته، ولحظة خاطفة لقصة آدم وكيف رحم الله آدم بعد خطيئته؟، وبعض مشاهد يوم القيامة في عبارات يرتجف بها الكون والكائنات وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً كقوله ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ طه/١٠٨، والسورة الكريمة تقوي شخصية الرسول (ص) وإرادته حتى لا يتأثر بما يلاقي من كيد وتكذيب وعناد، وأن يواصل وظيفته الأساسية في تبليغ الناس الرسالة، وختمت السورة ببعض التوجيهات المهمة في العبادات والصبر والاستقامة وعدم الافتتان في الدنيا، وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله، وسميت (سورة طه) لأن طه اسم من أسماء النبي، وتسلية لفوائده الشريف (ص) لهذا ابتدأت السورة بملاطفة النبي (ص) (طه

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى). عدد آياتها ١٣٥، رقمها ٢٠، الجزء السادس عشر (فضلها):
عن الإمام الصادق(ع): (لَا تَدْعُوا قِرَاءَةَ سُورَةِ (طه) فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهَا، وَيُحِبُّ مَنْ قَرَأَهَا وَأَدَمَنَّ
قِرَاءَتُهَا، وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ) نور الثقلين ٣ ص ٣٦٧
ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿طه﴾

(طه): تُقرأ طاء، هاء أو (طه)، قيل إنها اسم من أسماء النبي(ص) مثل يس وأحمد .، ومثل حروف التهجي (ألم)، وهي أيضاً من الحروف المقطعة للتنبية إلى إعجاز القرآن، حيث القرآن مؤلف من نفس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها الناس، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه أو بسورة قصيرة منه، فهم لا يقدرّون على فصاحته وبلاغته وعمق علومه لأنه (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) النساء/١٦٦، وقيل: إنّ أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى الإصغاء إليه والتدبّر في معانيه ومبانيه. أنظر أول سورة البقرة، عن الإمام الصادق(ع): ((طه) قَسَمَ بِطَهَارَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَهَدَايَتِهِمْ) ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب/٣٣، وَأَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ هُمْ (أَهْلُ طه)

٢ - ٣ - ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾

سبب النزول: بعد نزول الوحي والقرآن على رسول الله(ص) كان يكثر من العبادة والصلاة من قيام، حتى أجهد نفسه وتورّمت قدماه، فنزلت الآية تدعوه أن لا يُحمّل نفسه فوق طاقتها. المعنى: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) لتعب وثرهق، فلا يؤدي إلى عنائك، وما أنزلناه لتشقى بتلاوته وتعمل فوق طاقتك ويصعب عليك، ويكون الشقاء عند تبليغ القرآن لطغاة قريش المستكبرين الذين سخروا منه وآذوه، وهو(ص) يشقى نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم، فما أنزلناه عليك لتشقى نفسك معهم، وإنما أنزلناه لتبلغهم البلاغ الواضح، وتلقي الحجة عليهم، وإنما أنزلناه رحمة وهداية وسعادة، فالقرآن مُيسّر للذكر لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة / ٢٨٦ وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة / ١٨٥ ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/٧٨، في الحديث (إِذَا اجْتَمَعَ أَمْرَانِ فَأَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَيَسَرُهُمَا) التفسير المبين ص ٤٤٤، يَسْرُوا وَلَا تُعْسِرُوا، بَشِّرُوا وَلَا تَنْفِرُوا، حَبِّبُوا وَلَا تَكْرِهُوا، عن النبي(ص) (بُعِثْتُ بِالشَّرِيعَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ) بحار الأنوار ٢٢ / ٢٦٣ (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) مع الناس حين لا يؤمنون به، فلست مكلفاً أن تحملهم على الإيمان بالإلحاح والإلحاح كقوله

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ فاطر/٨ عن النبي (ص) (ما أذي أحدٌ مثل ما أذيتُ في الله) كنز العمال خبر ٥٨١٨.

٣- (إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَى) الخشية: خوف من مقام الله، خوف الهيبة والمحبة لا الرهبة و الرعبة! مع تعظيم وخضوع كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن/٤٦، خوف الله زينة العارفين وصفات المتقين، وهو عنوان الصالحين، لكن أنزلناه لتذكرك به وتعظ من كانت له فطرة سليمة، يخشى الله بها في السرِّ والعلانية، ولمن يطلب الخير والهداية، لأن القرآن هدى ورحمة ونور ودستور حياة للإنسان المؤمن في كل زمان ومكان، وعند توصيل هذه المهمة والرسالة (وَالْهَيْمَةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهْمَةِ) تنتهي وظيفة الرسول (ص) كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران / ١٢٨ فلا يكلف فتح مغاليق القلوب والسيطرة على النفوس، وإنما وظيفته وجميع الرسل، إلقاء حجة الله على الناس بوضوح، كقوله ﴿رُسُلًا مُّبْتَلِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء / ١٦٥ وقوله ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الغاشية / ٢١- ٢٢، وإنما حَصَّ (لِمَنْ يَخْشَى) لمن يتأثر بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة / ١٨٥، لأنهم أكثر تفاعلاً وانتفاعاً بالقرآن، وغيرهم كأنهم لا وجود لهم لعدم انتفاعهم بالقرآن الهادي. كقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦.

٤- ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا﴾

فا الذي أنزل هذا القرآن تنزيلاً، من الملاء الأعلى، وهو خالق الأرض ومبدع الكون من العدم إلى الوجود، ورافع السماوات الواسعة العالية بلا عمد ترونها، كقوله (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) الشعراء/١٩٢-١٩٥ والكون كتاب الله الناطق بلسان الحال، والقرآن كتاب الله الناطق بلسان المقال، وكل منهما دليل على صانعها وهما لخير الناس وسعادتهم، ووصف السماوات بالعلوى دليل على عظمة من اخترعها وأتقن نظامها الدوار في أفلاكها، فلا يوجد مثلها وفي علوها من غير صنع الله تعالى ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل / ٨٨، وقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) النحل/١٧، وقابل تنزيل القرآن العظيم بعظمة الأرض والسماوات العلى، ليقرن العظمة العلمية للقرآن بالعظمة الحسية للكون والكائنات، حتى يقترن العالم العلمي بالعالم الحسي، ويقترن العالم المادي بالعالم المعنوي، كما يقترن عالم الروح بالجسد وعالم الغيب بالشهادة، وعالم الدنيا بالآخرة، وعالم الآمال بعالم الأعمال، حتى يتحقق نظام التوازن العام في الحياة كقوله ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الحجر/١٩.

٥- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾

(الرَّحْمَنُ) مبالغة من الرحمة، وهو الموصوف بصفات الكمال والجمال والجلال (عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وهو الذي استوى على عرشه وملكه، استواءً كاملاً من الذرة وما دونها، والذرة وما فوقها، وكل شيء خاضع لحكمته تعالى، (اسْتَوَى) وهو كناية مجازية عن الاستيلاء والسيطرة والتمكّن والتدبير وحسن التقدير للأمور التي خلقها، وحسن الإدارة والسيطرة مع الهيمنة والاستعلاء لإصلاح شؤون الكون والكائنات في العالم، استواءً شاملاً دقيقاً يليق بجلاله من غير تجسيم، لا يشاركه أحد في ملكه وحكمه (فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) والعرش: كناية عن الملك العظيم والعلم الإلهي الواسع، ومقام تدبير عالم الوجود بحكمته سبحانه أحسن تدبير. لأنهم في حاجة إلى قيوميته تعالى، لذلك كانت المعجزات الخارقات دليلاً على هذه القيومية. كقوله (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) طه/١١١.

٦ - ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

الثَّرَى: الأرض . أي الله سبحانه ملك ما في الوجود كله، لأنه خالق الوجود الواسع الضخم، وَهَذَا الْوُجُودُ أَكْبَرُ مَنْ ظَاهِرِهِ الْمَشْهُودِ، السماوات السبع وما فيها من منظومات فلكية كلها تتحرك وفق نظام مقدر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرد / ٨ والأرضون أيضاً وما بينهما من عجائب المخلوقات، وغرائب الكائنات وبدائع الأنظمة والقوانين، وله ماتحت (الثَّرَى) التراب وطبقاته من أنواع المعادن والكنوز والنفط والغاز. إلخ، فهو سبحانه خالق كل شيء ومدبره ومقدره، وهو مالكة وتحت تصرفه ومهيمن عليه مهما كان مستوراً، كقوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الطلاق/١٢.

٧ - ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

(وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ) ترفع صوتك وتعلن ما تريده بذكره تعالى ودعائه، فإن الله تعالى غني عن جهدك أو تسرّه في نفسك وتكتمه فالله سبحانه (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ كالوسوسة والهاجس، وهو حديث النفس دون أن تتفوّه به والخاطر الذي يخطر ببالك ثم نسيته كقوله ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق/١٦، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ (وَأَخْفَى) بل ويعلم الله سبحانه أخفى من ذلك وهو ما كان خافياً حتى على نفسك، لأن كل غيب عند الله شهادة وحضور، وكل سرّ عنده علانية، كقوله (أَخْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المجادلة/٦، والغرض من الآية طمأنينة النبي (ص) بأن ربه معه يسمعه ويراه، كقوله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور / ٤٨، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند ولا مدد، والقلب المؤمن حين يستشعر قرب الله منه وعلمه بسرّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم فلا يستوحش من العزلة من المجتمع الجاهلي الفاسد كقوله ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ﴾

أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ الملك/١٣ عن الإمام الصادق (ع) في الآية ((السِّرُّ) مَا أَحْفَيْتُهُ فِي نَفْسِكَ (وَأَخْفَى) مَا خَطَرَ بِبَالِكَ ثُمَّ أَنْسَيْتَهُ) كمصداق للآية. عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كثر العمال خير ٦٦ كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤.

٨- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

(الله) ربكم الذي رباكم (لا إله إلا هو) وحده لا شريك له المتفرد بالوحدانية، والتوحيد قمة العقيدة، وأساس الإسلام، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) ربُّ يُعْبَدُ بِحَقِّ وَلَا مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، وبدونه الضياع، والضلال البعيد (لَهُ الْأَسْمَاءُ) ذو الأسماء (الحُسْنَى) الحسنى في لفظها ومعناها ومدلولها وتأثيرها، وكل أسماء الله حسنى، وتُعبّر عن أجَلِّ المعاني وأكمل الصفات (فادعوه بها) فهناك أسماء حسنة، هي أسماء الخلق، أما أسماء الله الحسنى هي التي بلغت قمة الكمال. ومن حسننها أنها ليست اسم علم وإنما اسم صفة، ومن حسننها أنها دالة على صفات الله تعالى وصفاته عين ذاته، ومن حسننها أنها أمر الله العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إلى الله سبحانه، يحبها ويحب من يحبها ويحب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها، ويتعبّد لله ويتقرّب بها إليه عزوجل كقوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف/١٨٠. وأسماء الله كثيرة، منها خاصة بالله تعالى مثل (الرحمن) ومنها أسماء مشتركة بين الخالق والمخلوق مثل (الرحيم). وكل اسم له معناه وخصوصياته فيكون الدعاء به حسب مورد حاجة الإنسان، مثل (يارزاق) لكثرة الرزق (يامتعال) للعزة (يافتاح) للنصر وهكذا، وأسماء الله ليست محدّدة ب(٩٩) إسماء، حيث ورد في دعاء الجوشن الكبير ألف اسم من أسماء الله الحسنى (فَادْعُوهُ بِهَا) والله تعالى مطلق بكماله وجماله وجلاله، فلا حدود لأسمائه وصفاته. عن الإمام علي (ع) (بِصُنْعِ اللَّهِ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُمُولِ يَعْتَقِدُ مَعْرِفَتَهُ، وَبِالْفِطْرَةِ تُثَبَّتْ حُجَّتُهُ، وَبِآيَاتِهِ احْتَجَّ عَلَى خَلْقِهِ) التوحيد ص ٣٥.

٩- ﴿وَهَلْ أَنَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾

الاستفهام لتقرير أمر مهم غرّضه التشويق لما يُلقى إليه، أي هل بلغك يا مُجّد خبر رسولنا موسى وقصته التي تكشف عن سنة الله في الرسل والرسالات، وكيف يرعى الله تعالى المختارين لحمل دعوته؟ فائدة: ١- من أسباب تكرير قصة موسى (ع): أكثر السور والآيات التي تحدّثت عن موسى نزلت في مكة، حيث كان المسلمون قلةً مستضعفةً يلاقون ألوان الإيذاء من المشركين، كما كان بنو إسرائيل يعانون من ظلم فرعون وطغيانه، فانتصر موسى على فرعون كذلك سينتصر المسلمون على المشركين إذا صبروا وأطاعوا الله واتقوه كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦، وقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، عن النبي (ص) (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَدَّو النَّعْلِ

بِالنَّعْلِ، وَالْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى لَا يُحْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُحْطِئُكُمْ سُنَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ: عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَشْبَهَ الْأُمَمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي الطَّبَائِعِ وَالصِّفَاتِ وَالْعِنَادِ تَتَّبِعُونَ عَمَلَهُمْ (حَتَّى لَوْ أَنَّ مَنْ أَوْلَيْكَ دَخَلَ حَجَرَ ضَبِّ (سُبُلِ الْمَتَاهَاتِ) لَدَخَلْتُمُوهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَالَانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مِثْلُهُ) الميزان ٣/ ٣٧٩، عن الدر المنثور وأخراجه الحاكم وصحیح الترمذی

١٠ - ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِبَقْسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾
حين رأى ناراً فقال لامرأته أقيمي مكانك فإني (آنست) أبصرت ناراً (لعلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِبَقْسٍ) (بِقَبْسٍ) بشعلة من النار تستدفنون بها (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) أو أجد هادياً يدلني على الطريق الصحيح. فائدة: ١- استأذن موسى من عمه ابي زوجته شعيب، فخرج موسى من مدين قاصداً مصر ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه، وفي ليلة مظلمة ضلَّ الطريق وبينما هو حائر في أمره، رأى ناراً من بعد فاستبشر وقال لأهله ربما يأتي الفرج والنور من قلب الضيق والظلام. وقال الإمام علي(ع) (كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو، فَإِنَّ مُوسَى بِنَ عِمْرَانَ خَرَجَ يَفْتَبِسُ لِأَهْلِهِ نَارًا فَكَلَّمَهُ اللَّهُ وَرَجَعَ نَبِيًّا وَلَقَّبَ كَلِيمُ اللَّهِ) كَقَوْلِهِ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ النساء/ ١٦٤.

التفسير المبين ص ٤٠٦ .

١١ - ١٢ - ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى، إني أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾
(فَلَمَّا آتَاهَا) رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها تتوقد وتتألاً ضياءً مُشِعاً، أَخَذَا نَفَاداً في المشاعر! فإذا هي نور عظيم أبهى من نور الشمس، وسمع تسييح الملائكة فألقيت عليه السكينة واطمأن قلبه، ثم ناداه الله تعالى باسمه يا موسى ١٢ - (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) إني أَنَا ربك ومريك الذي أَكَلِمْتُكَ وَأنتَ بمحضر مني فلتزم بأداب اللقاء رعاية للأخلاق، واخلع نعليك احتراماً للبقعة المقدسة، وأقبل (إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى) فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى، في طور سيناء لكونه موطن القرب والحضور والمكاملة، حيث تجلَّى فيه النور الإلهي فرأى موسى نوراً وسمع صوتاً يكلمه، في أجواء ملؤها الخشوع والدهشة والمفاجأة والإعجاب، فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه ولا كيفيته ولا صورته... ونحن لا نسأل عن كيفيته فإنها وراء مدارك الإنسان وتصوراتها!، ونبقى نعيش مع إيجاءات النص ودلالاته، فائدة: ١- (اخلع نعليك) لذلك كانت الصلاة والطواف حول الكعبة تؤديان حفاة للدلالة على التواضع والخضوع والامتثال. قال (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) يتحدث الله عن ذاته المقدسة بضمير المفرد، وحينما يتحدث عن فعله يتحدث بصيغة الجمع لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتى كقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر / ٩، وجاء الخطاب بلفظ الربوبية لإيناس موسى. كقوله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ النساء / ١٦٤ وفي نهج البلاغة خطبة

١٨٢ (الذي كلم موسى تكليماً، وأراه من آياته عظيماً، بلا جوارح (بلا أعضاء) ولا نطق ولا لهوات)

١٣ - ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾

(وَأَنَا) اصطفتيك للنبوّة والرسالة من بين الناس (فَاسْتَمِعْ) إذأ بكل وعيك (لِمَا يُوحَى) لما أوحيه إليك وأصغ إليه. فائدة: ١- ولا يختار الله تعالى لدينه ووحيه إلا صفوة أمناء مختارين مؤهلين لهذه المهمة كقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام / ١٢٤، ٢ - الوحي: إعلام بخفاء، ومن عظمته سبحانه أنه لا يقاس بالناس ولا تدركه العقول ولا الحواس، ولا يلتقي بالخلق لقاءً مباشراً كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الشورى/ ٥١ .

١٤ - ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

أول ما يستقبل الرسول من أمر ربه أن يعرف ربه ويعرف صفاته وعظمته ثم يعبده كما أمره (إِنِّي أَنَا اللَّهُ) أنا ربك وخالقك ومربيك، فإذا هذا المخلوق المحدود الضعيف يلتقي بالخالق القادر القوي الذي لا تدركه الأبصار، لقاءً نموذجياً مميزاً فريداً له دلالاته البعيدة، (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) ليس هناك إله غيري (فَاعْبُدْنِي) كن عبداً وعبداً لي دون غيري، ومن كان عبداً لله كان حُرّاً! فعلى قدر العبودية تكون العبادة لله تعالى، فإن الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردوني بالعبادة والتوحيد، من مناجاة الإمام علي (ع) (إِلَهِي كَفَّانِي فَحُرّاً أَنْ تَكُونَ لِي رَبّاً، وَكَفَّانِي عِزّاً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا، أَنْتَ كَمَا أَحْبَبْتُ، فَاجْعَلْنِي كَمَا تُحِبُّ) (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) وأقم الصلاة بشرطها وشروطها خاشعاً لذكري لا يشوبها رياء ولا اتباع ولا انتماء ولا ولاء لغيري، خصّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلية في جملة العبادات لعظم شأنها واحتوائها على الذكر كقوله ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت / ٥٥؛ وشغل القلب واللسان والجوارح بطاعة منتظمة دورية دائمة يرضاها الله تعالى، فأنها تزكّي النفس وتهذب عاداتها، والصلاة عمود الدين وبها تنزل الرحمة، وهي قربان كل تقي، وهي منهاج الأنبياء، وحصن من الشيطان، وصلة معنوية بين العبد وربّه ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ النساء / ١٠٣، عن الإمام علي (ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى!) البحار ٢٦٤/٤٨، عن النبي (ص) (عَنْ اللَّهِ تَعَالَى (فِي الْآيَةِ) مَنْ جَاءَنِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةٍ أَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) دَخَلَ فِي حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي!) (وَشَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) بِشَرْطِهَا وَشُرُوطِهَا، وَالْإِسْتِقَامَةَ عَلَى مَنِهْجِ اللَّهِ مَنْ شُرُوطِهَا، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (لَا تَزَالُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) تَنْفَعُ مَنْ قَالَهَا، وَتَرَدُّ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَالنَّقْمَةَ مَا لَمْ يَسْتَحْفُوا بِحَقِّهَا (وَمَعْنَى ذَلِكَ) قَالَ: يَظْهَرُ الْعَمَلُ

بمعاصي الله فلا يُنكر ولا يُغَيِّرُ) الترغيب والترهيب / ٣ / ٢٣١ .

١٥ - ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْنِفَهَا لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) إِنَّ جَاءَ وَقْتَهَا، فَكُلَّ آتٍ قَرِيبٍ، آتِيَةٌ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) حَقِيقَةٌ قَادِمَةٌ مَتَيْقِنَةٌ الْوَقُوعِ وَحَقٌّ حَاصِلٌ لَا بَدَّ مِنْهُ فَلَا تَنْسَاهُ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (وَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) رُوحُ الْبَيَانِ ٢٢/٣، وَالسَّاعَةُ غَيْبٌ مِنْ غِيُوبِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانُ بِهَا إِيْمَانٌ غَيْبٌ وَبَصِيرَةٌ لَا إِيْمَانُ شَهَادَةٌ وَمَعَايِنَةٌ، وَرُؤْيَا السَّاعَةِ بِالْبَصِيرَةِ أَقْوَى مِنْ رُؤْيَيْهَا بِالْبَصْرِ كَقَوْلِهِ (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الْأَنْعَامُ/١٠٣، فِي غُرْرِ الْحِكْمِ (لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا أَزْدَدْتُ يَقِينًا) عَنِ النَّبِيِّ (ص) (أَفْضَلُ الْإِيْمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كُنَزُ الْعَمَالِ خَبْرٌ ٦٦، كَقَوْلِهِ (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الْحَدِيدُ/٤، وَمِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ تَقُولُ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْسَتْ هِيَ كُلُّ الْحَقِيقَةِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ وِرَاءَهَا حَيَاةٌ أُخْرَى أَوْسَعُ مِنْهَا، يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْعَدْلُ الْمَطْلُوبُ وَالْإِنْصَافُ الْمَرْغُوبُ تَحْقِيقُهُ لِلْإِنْسَانِ (الْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) فَتَكُونُ الدُّنْيَا مَزْرَعَةَ الْآخِرَةِ، وَهِيَ مَمْرٌ لِمَقَرٍّ، فَهِيَ دَارُ امْتِحَانٍ وَاخْتِبَارٍ، (أَكَادُ أُخْفِيهَا) وَأَنَا أَبَالِغُ فِي إِخْفَائِهَا وَسِتْرِهَا، وَكَانَ سِتْرُهَا لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّعْظِيمِ لِحِكْمَةِ وَمَصْلَحَةِ، أَيُّ أُرِيدُ إِخْفَاءَ وَقْتِهَا عَنِ الْخَلْقِ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، لِيَعْمَلُوا لَهَا عَمَلَهَا الْمُنَاسِبَ كَقَوْلِهِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ الْأَعْرَافُ / ١٨٧.

فِي غُرْرِ الْحِكْمِ (لِلْمُتَّقِي: هُدًى فِي رَشَادٍ، وَتَحْرِجٌ عَنِ فَسَادٍ، وَحِرْصٌ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) لِثَلَاثٍ تَكُونُ الْعِبَادَةُ مَشْوِيَّةً بِطَمَعِ الْجَنَّةِ وَخَوْفِ النَّارِ، بَلْ تَكُونُ خَالِصَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَصْدَقُ الْعَمَلِ مَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ لَا طَمَعًا فِي جَنَّةٍ وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارٍ كَقَوْلِهِ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزُّمَرُ/٣، وَأَيْضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا وَلَا تَمِيْزًا لِلْمَطِيْعِ عَنِ الْعَاصِي، وَالظَّالِمِ عَنِ الْمَظْلُومِ، فَتَكُونُ الْعِبَادَةُ لِعَوَا لَا أَثَرَ لَهَا وَتَكُونُ الْحَيَاةُ عَبَثًا لَا قِيَمَةَ فِيهَا! وَمِثْلُ تِلْكَ الْفَائِدَةِ أَخْفَى اللَّهُ وَقْتُ الْمَوْتِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى (لِنُجْرَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) لِتَنَالُ كُلَّ نَفْسٍ جِزَاءَ مَا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الطُّورُ / ١٦ فَائِدَةٌ: ١- (أَكَادُ أُخْفِيهَا) الْمَجْهُولُ عِنَصْرٌ أَسَاسِيٌّ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ وَفِي تَكْوِينِهِمُ النَّفْسِي، فَلَا بَدَّ مِنْ مَجْهُولٍ حَقِيقِيٍّ فِي حَيَاتِهِمْ يَتَطَّلَعُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مَكْشُوفًا لَهُمْ لَوَقَفَ نَشَاطَتُهُمْ، فَوِرَاءَ الْمَجْهُولِ كَعَالَمِ الْغَيْبِ يَرُونَ آيَاتِ اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي الْآفَاقِ بِصُورَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، فِي غُرْرِ الْحِكْمِ (تَكَادُ ضَمَائِرُ الْقُلُوبِ تَطَّلُعُ عَلَى سَرَائِرِ الْغُيُوبِ) ٢- شَرِيعَةُ مُوسَى تَقُومُ عَلَى أَصُولٍ ثَلَاثَةٍ (التَّوْحِيدِ) (أَنْبِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) وَالْأَصْلُ الثَّانِي (النَّبُوَّةُ) (الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ) (فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) الْأَصْلُ الثَّلَاثُ (الْبَعْثُ وَالنَّشُورُ) (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...) وَهَذِهِ خِصَائِلٌ مُشْتَرَكَةٌ مَهْمَةٌ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، إِنَّ الْبَدَايَةَ مِنَ اللَّهِ وَإِلَيْهِ تَكُونُ النِّهَايَةَ كَقَوْلِهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الْأَعْرَافُ/٢٩ وَقَوْلِهِ (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الْبَقَرَةُ/١٤٨.

١٦ - ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾

فلا يصرفنك يا موسى أو (أيها المؤمنون) عن التأهب للساعة والعمل لها والتصديق بها، فإن الذي يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ، والذي لا يستعدُّ لمصيره الأبدي، فإنه لا يستعدُّ لحياته السعيدة مع لقاء الله كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦ (مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا) يكفر بها ولم يعمل لها (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) مال مع هوى نفسه وأقبل على اللذائذ والشهوات (المحرمة) ولم يحسب حساباً لآخرته (فَتَرْدَى) من الردى وهو الهلاك، أي فتهلك كما يهلكون، وهكذا عدم الإيمان بالآخرة يدفعك إلى اتباع الهوى، وإن اتبعت الهوى، يُنشئ التكذيب بالساعة، ومن اتبعت الهوى فقد هوى وعمى وسقط ولو بعد حين ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦ في غرر الحكم (مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ) فلا بد من الإيمان بحقيقة الحياة الآخرة، لأن فيها يتحقق الكمال المقدر للإنسان والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب .

فائدة: ١- يا أيها الناس لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة (بَلْسَانَ الْحَالِ قَبْلَ لِسَانِ الْمَقَالِ) ولو كان ظاهرهم يسر ويعر ولكن باطنهم يصر، فيعملوا لدنياهم الفانية وينسوا آخرتهم الباقية (وَالْحَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنِ إِصْلَاحِ آخِرَتِهِ)، والذي يحسر آخرته، فإنه يحسر نفسه، كقوله (الَّذِينَ حَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام/١٢، عن السيد المسيح (ع) (مَاذَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ لَوْ رَحَّ الْعَالَمُ كُلَّهُ، وَحَسِرَ نَفْسَهُ)؟! كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف / ١٠٣، في غرر الحكم (من أفنى عمره في غير ما ينبغي فقد أضاع مَطْلَبَهُ).

١٧ - ١٨ - ﴿وَمَا تَلَكَ بِعَيْنِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ الاستفهام للتقرير والتأكيد والإيقاظ والتنبيه لأمر مهم، المعنى : يسأل الله موسى أن يخبره عما في يده وهو أعلم به من موسى، إذن هناك سر عظيم يكمن فيها، وهو تحوُّل العصا اليابسة إلى حية، وهذا هو سر الإعجاز! ١٨- (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) اعتمد عليها في المشي والوقوف (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي) (وَأَهُشُّ) وأضرب أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها غنمي وأنظم سيرها في المرعى (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) ولي فيها (مَآرِبُ) حاجات أخرى كالدفء عن نفسي أمام الأعداء وأمام الحيوانات المؤذية، وقد أدرك موسى أن ليس عن ما هيتهما يسأل فهي واضحة وإنما عن وظيفتها معه، كان يكفي أن يقول هي عصاي، فأراد موسى أن يزيد في الجواب ليطول اللقاء ويلتذ بالخطاب ويأنس بمقام القرب والحب والجذب، ويطمئن القلب وينشرح الصدر، بهذه الفرصة النموذجية الذهبية الفريدة، لقاء المحدود الفاني بالمطلق الباقي!.

١٩ - ٢١ - ﴿قَالَ أَفَهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾

إنها مرحلة تدريب وتهذيب لموسى لمواجهة طغيان فرعون، إطرح هذه العصا اليابسة في الأرض ٢٠ - (فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) فلما رماها صارت في الحال بطريقة إعجازية ثعباناً ذكراً خيفاً يسعى بسرعة وبحقّة، وبحركة مثيرة هادفة، ثعباناً يتلصص الصخر والشجر الموجود أمامه، فلما رآه يتلصص كل شيء خافه ونفر منه وولى هارباً، وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية عند رؤية الأهوال والمخاوف، وسرعان ما يسيطر عليه الأنبياء والصالحون، لأنهم يعرفون أن الله لا يأمر إلاّ بالخير ولا ينهى إلاّ عن الشر، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الخارقة، حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون، لأنه يكون قد تَدَرَّبَ وَتَعَوَّدَ وَاسْتَعَدَّ للجهاد ٢١ - ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ قال له ربه خذها يا موسى وهي على تلك الحال ولا تخف منها، والخوف غير الجبن، الخوف حالة إنسانية معتدلة، والجبن حالة متخلفة مَرَضِيَّة، والخوف هو الحذر من الشر، والجبن حالة ذليلة تنافي الشجاعة (سُنْعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) (سِيرَتُهَا) حالها، وما أن وضع موسى يده على الحيّة (الثعبان) حتى عادت عصاه يابسة نحيفة كما كانت! فإن العصا التي لا روح لها يهبها الروح ثم يسلبها منها لتصبح عصا مرة أخرى، وهكذا الله تعالى يميت الإنسان الحي ثم يعيده إلى صورته الأولى! وهذه هي من مصاديق فلسفة المعاد، وفلسفة إعادة الحياة بعد الموت.

٢٢ - ٢٣ - ﴿وَاضْمُرْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿ أدخل يدك اليمنى تحت أبطك الأيسر ثم أخرجها مضيئة كضوء الشمس والقمر (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) عاهة ومرض وعيب (آيَةً أُخْرَى) وهذه معجزة ثانية غير العصا، وقد شهدها موسى بنفسه وتحت بصره وقد اطمأن بما قلبه للنهوض بالمهمة الكبرى (وَأَهْمَمْتُ عَلَى قَدْرِ الْمُهَمَّةِ)، عن الإمام الصادق (ع) (مَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النَّبِيَّةُ) البحار ٧٠ / ٢٠٥، ٢٣ - (لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) لنريك رأي العين بعض آياتنا العظيمة التي يعجز الخلق عن الأتيان بمثلها . فائدة: ١ - من كرامات اليد، روي إنّ نبينا محمد (ص) نبع الماء من بين أصابعه في غزوة تبوك حتى شرب منه، ورمى التراب في وجوه الأعداء فانهزموا، وسبّح الحصى في يده!. كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨.

٢٤ - ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾

فلا يهولنك أمر فرعون وإن طغى، مادمت مندوباً من قبل الله داعياً باسمه سبحانه، إنك أشدّ منه قوة (بتأييدنا لك) وأعزّ سلطاناً. (طَغَى) تجاوز الحد في الظلم والعدوان على حقوق الناس، أي إذهب إلى فرعون الطاغية المتكبر المتجبر الذي تجاوز الحدود وتعدى الأصول، حتى ادّعى الربوبية واستعبد بني إسرائيل، وذبح الأطفال وبطش بطشاً الأشرار، وأن موسى ليعرف من هو

فرعون فقد رُيِّ في قَصْرِهِ وشهد طغيانه وجبروته، وشاهد ما لاقاه قومه من عذاب أليم على يده، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كثر العمال خبر ٤٣٥٨٨، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنْ لَهُ عَلَى الْآخِرِ فَضْلًا فَهُوَ مِنْ الْمُسْتَكْبِرِينَ) الكافي ١٢٨ / ٨ .

٢٥ - ٢٦ - ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾

قال رب وَسِّعْ لِي صَدْرِي وطمئن قلبي بأمتثال أمرك ونوره بالإيمان والإيقان ولا يجد حرجاً منه، واجعلني مؤهلاً لتحمل أعباء الرسالة على أكمل صورة، حتى لا أضجر ولا أخاف وأغتم، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم وسياستهم، عن الإمام علي (ع) (آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ) البحار ٣٥٧ / ٧٥، وكقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّمُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران / ١٥٩ في غرر الحكم (من حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ)، ٢٦ - (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) وسهّل عليّ القيام بما كلفني من أعباء الرسالة وتبليغ الدعوة والدخول على الطاغية فرعون وحسن محاورته وإلقاء الحجة القاطعة عليه ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام / ١٤٩. فإن الموقف خطير والأمر عظيم فيسهل الأمر بعونك لي، فإني أستعين بك يارب فأعني فإني لاحول ولا قوة لي إلا بك يا أرحم الراحمين .

فائدة: ١- طلب أن يشرح صدره، وانشرح الصدر يُحَوَّلُ مشقة التكليف إلى متعة، والجهاد إلى لذة، أما تيسير الله لعباده هو ضمان النجاح بأيسر الطرق وأفضل الأساليب.

٢٧ - ٢٨ - ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾

حلّ هذه اللكنة الحاصلة في لساني (يَقْفَهُوا قَوْلِي) حتى يفهموا كلامي، كان (ع) في لسانه ثقل يعيق كلامه الفصيح كقوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الزخرف / ٥٢، وَالْمَرْءُ بِأَصْعَرِيهِ: قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ. تُشْعِرُ الْآيَةَ بَأَنَّ فَصَاحَةَ اللِّسَانِ وَبِلَاغَةَ الْبَيَانِ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ) التَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةُ ٥٢٧ / ٣ . فائدة: ١ - (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْقَى هَذِهِ الْعُقْدَةَ فِي لِسَانِهِ (عَلَى مَا يَبْدُو) لِأَنَّهُ بَاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يُوْدِيَ رِسَالَتَهُ مَعَ وُجُودِهَا! وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ بَلِيغَةٌ بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ أَكْثَرَ مِنَ الْكَلَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ أَصْحَابَ اللِّسَانِ الطَّوِيلِ بِلَا عَمَلٍ جَلِيلٍ كَقَوْلِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة / ٢٠٤، فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَسْبِقُ اللِّسَانَ وَالْكَلامَ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ تَرْجَمَانِ الْقَوْلِ، وَالْقَوْلُ تَرْجَمَانِ الْعَمَلِ، وَلَا يَنَاقِضُ الْقَوْلُ مَعَ الْعَمَلِ كَقَوْلِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف ٢-٣ في غرر الحكم (الْعِلْمُ بَعِيرُ الْعَمَلِ وَبَالٍ، الْعَمَلُ بَعِيرُ الْعِلْمِ ضَالٌّ). ٢ - قال (عُقْدَةٌ مِنْ لِسَانِي) ولم يقل (عُقْدَةٌ لِسَانِي) وإنما يطلب أن يعالج له العقدة الجزئية من لسانه ليقوم بالمسؤولية، يتوقع موسى أنه

بمعالجة هذه العقدة (اللكنة) في لسانه سوف تعينه على إنجاح حوار مع فرعون الطاغية، وكان حساب الله أبلغ ودرسه للناس أعمق، فقد استجاب لطلباته كلها.

كقوله ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَا مُوسَى﴾ طه / ٣٦، ولكن بقيت هذه العقدة الجزئية، كما في سورة الزخرف / ٥٢، وكأن الله سبحانه يريد أن يبين من خلالها أن العمل سيتم بنجاح، وإلقاء حخته البالغة على فرعون، مع وجود هذه العقدة! فأعطاه الهمة العالية على قدر المهمة، ليبين أن العمل هو الأساس أولاً والقول يكون من خلال العمل. فكان عمله أبلغ من قوله، وموقفه أعمق من كلامه، كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر / ١٠، في غرر الحكم (إِنَّكُمْ إِلَىٰ إِعْرَابِ الْأَعْمَالِ أَخْرُجُ مِنْكُمْ، إِلَىٰ إِعْرَابِ الْأَقْوَالِ). والتوفيق على قدر النية، في غرر الحكم (عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ الْعَطِيَّةُ) عن الإمام الصادق (ع) (مَا ضَعْفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ) من لا يحضره الفقيه ٤/ ٢٨٦.

٢٩ - ٣٢ - ﴿وَجَعَلْ لِي وَرِيسًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَمْرِي (٣١) وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي ﴿
وزيراً: معيناً من الأزر أي القوة، يقال أزره أي قواه وأعانه. المعنى: اجعل لي معيناً يساعدي ويكون من أهلي وهو ٣٠- (هَارُونَ أَخِي) من أمي وأبي ليكون سنداً لي، وكان هارون أكبر منه وأفصح وألين. عن النبي (ص) (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِمَلِكٍ خَيْرًا، فَيَضِلُّهُ وَزِيْرًا صَالِحًا، إِنَّ نَسِيَّ ذَكَرَهُ وَإِنَّ نَوَىٰ خَيْرًا أَعَانَهُ وَإِنْ أَرَادَ شَرًّا كَفَّهُ) روح البيان ٥ / ٣٨٠، ٣١- (اشْدُدْ بِهِ أَمْرِي) أقو به ظهري وأمري وأحكم به قوتي ومهمتي ٣٢- (وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي) واجعله شريكاً في تبليغ الرسالة حتى نتعاون على أدائها. وفيه إشارة: إلى أن صحبة الأخيار الأكفاء والتعاون معهم أمر مطلوب لذاته ولغيره، ومرغوب للأنبياء والأصفياء والأولياء، وهكذا اتخذ موسى (ع) اثني عشر نقيباً، واتخذ عيسى (ع) الحوارين أنصاراً، واتخذ محمد (ص) وزيراً بقوله (عليّ مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) التفسير النور ٥ / ٣١٤، ولا ينبغي أن يكون المرء مستبدّاً برأيه مغوراً بقوته. في نهج البلاغة حكم ١٦١ (مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ).

٣٣- ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٤- ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٥- ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِتَابِعِيًّا﴾
التسبيح له معنى عام منه: تنزيه وتعظيم وتقديس وعبادة وذكر وشكر، كقوله ﴿وَمَنْحُنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ البقرة / ٣٠. ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ ق / ٤٠، ﴿لَوْلَا نُسَبِّحُونَ﴾ القلم / ٢٨ أي هلاً تعبدونه وتشكرونه ومعنى (نُسَبِّحُكَ) نقدّسك ونرفعك إلى مقام الإلهية اللائقة بك. فيورث التسبيح لذة في نفسه واطمئنان في قلبه وحبّ لربه، وكلما ازداد الذكر ارتفعت الحُجب، وعرفت فلسفة الحياة وَحَقِيقَةُ الْوُجُودِ عَلَىٰ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ظَاهِرِهِ الْمَشْهُودِ، (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا) كي ننزهك عن الشركاء تنزيهاً كثيراً وتاماً، ونزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال عن نبي الله

سليمان (لَتَسْبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْبَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى، خَيْرٌ مِمَّا أُوتِيَ آل دَاوُدَ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ وَالتَّسْبِيحَةُ تَبْقَى!) روح البيان ٤٩٣/٦ (وَنَذَكُرُكَ كَثِيرًا) بالدعاء والثناء عليك بين الناس، ونذكرك ذكراً كثيراً معلناً أينما حضرنا ونذكر نعماءك علينا في غرر الحكم (الدُّكْرُ: حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَتُوْرُ الْعُقُولِ، وَجَلَاءُ الصُّدُورِ، وَصَلَاحُ النَّفُوسِ) (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا وحاجاتنا.

فائدة: ١- الأمر الجليل والخطير يحتاج إلى التسييح الكثير والإتصال والدعاء (والتَّلْقِي) الكثير من السميع الخبير كقوله ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ الفرقان / ٧٧ - ٢ - لقد أطال موسى سؤاله وبسط حاجته، وربّه يسمع له ولا يرد سؤاله ولا يبطل عليه الإجابة الكاملة :

٣٦ - ٣٧ - ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَقَدْ مَتَّعْنَاكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾

لقد أعطاك ربك كل ما طلبت وقضيت حاجتك، ثم ذكره تعالى بالمنن العظام عليه ٣٧ - (وَلَقَدْ مَنَّنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) ولقد أنعمنا عليك يا موسى بمنة أخرى غير هذه المنة، والمنة بمعنى الإنعام بلا مقابل، وقد كانت نعم الله سبحانه كثيرة على موسى ومتتابعة كقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل / ٥٣، منها ما يأتي في الآيات الأتية :

٣٨ - ٣٩ - ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُنثَىٰ مَا يُوْحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوُّهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَكُتُوبٌ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

أَوْحَيْنَا: بالإلهام أو بالنام كقوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ راجع أنواع الوحي ثمانية أوجه في كتاب الله في النحل/ ٦٨ وقوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ المائدة / ١١١، أي واذكر حين ألهمنا أمك فجعلنا في قلبها عزيمة صادقة وهديناها للتي هي أقوم، وعرفناها أفضل الطرق لخلاصك من الطاغية فرعون وأنت طفل حديث الولادة، وقد فسّر الوحي بقوله ٣٩ - (أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) ألهمناها وصبرناها على هذه المجازفة الغريبة، أن ألقِ هذا الطفل (في التَّابُوتِ) في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل بلا تباطؤ، وعبر القرآن عن النهر بالبحر (اليم) لأن معنى البحر هو الماء الكثير، الذي ينطبق معناه على نهر النيل العريض، إشارة إلى أن الخطر المطل عليها من أعوان فرعون كان داهماً قريباً، وأنها إذا لم تُعَجَّلْ بهذا العمل أخذ وليدها منها، ولهذا عطف قذفه في اليم على قذفه في التابوت بحرف الفاء (فَاقْذِفِيهِ) حيث يفيد التعقيب المباشر دون فاصل زمني بين الأمرين، (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ) يلقى موج النهر على شاطئه، وكأن الأمواج لديها أوامر أن تدخله أمام قصر فرعون! ويأخذه فرعون عدوه وعدوي، والصندوق لا يغرق ولا يصيبه مكروه، (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) أحبه الله وحببته إلى خلقه، بمعنى زرعت محبتك في قلوب من رآك عند عدوي وعدوك، فإن فرعون لا يملك من أمره

شيئاً كقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال / ٢٤ إلا أن يأخذه ويربيه ويجعله ابناً له، فما أعظم قدرة الله التي لا يعجزها شيء! ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ يوسف / ١٠٠.
 (وَلِئُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي) على مرأى مني وتحت عيني منذ زمان، ولتتم تربيتك وحضانتك برعايتي وعنايتي وبحفظي فإني معك أراقب حالك لأجل أن يُحسِنَ إليك بإرجاعك إلى أمك، وجعل تربيتك في حجرها. روي: إن جوارى آسيا امرأة فرعون خرجن للاغتسال فوجدن الصندوق صحبته معهن، وما أن فتحت آسيا ورأت الطفل حتى ألقى الله محبته في قلبها وطلبت من فرعون إبقائه، وكانت مستشارته بشؤون النساء وزوجته ومحترمة عنده، وهي امرأة مؤمنة سالحة فاستجاب لها فأبقاه فرعون، وترى في قصره فهو بحراسة الله وأمنه.

فائدة: ١ - (وَلِئُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي) إنه تصوير قرآني عالي المضامين، إنها رقة لطيفة ودقة عميقة، يلقيه التعبير القرآني البليغ، وكأنها بشرى يأملها، ونعمة يرقبها، وهداية يتأملها، إنها منزلة كرامة مميزة ودرجة رعاية خاصة نموذجية، كما يعرى الرجل الشيء بمراقبة عينية دلالة على عنايته به كقوله ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ طه / ٤١. إنها المنزلة السامية التي تؤهله للدخول في حصن الله الحصين الأمين المنيع، الحصن المملوء بالمفاجأة والمخبأة، وهكذا التقوى حصن المؤمن، وأمنع حصون الدين، في غرر الحكم (التقوى: حصنٌ حصينٌ لمن لجأ إليه)

٤٠ - ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ قَقْلًا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَعَجَبْنَاكَ مِنَ الْعَمَةِ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَبَلَغْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾

لا يزال السياق القرآني يبين فضل الله على موسى منذ ولادته، ليعده إعداداً قيادياً تكاملياً لمواجهة فرعون الطاغية! وهكذا يريدنا الله تعالى أن نعدّ النفس والقائد والأمة الصالحة كقوله ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ آل عمران / ١٠٤ المعنى: حين تمشي أختك. وتتبع أترك وتستقصي خبرك، فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المرضعات: هل أدلكم على من يرضعه؟ وروي: لما التقطه آل فرعون جعل الله من تديبه أن لا يقبل ثدي امرأة كقوله ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ القصص / ١٢ فحار فرعون وبذل الجهد في طلب مرضعة له، فذهبت أخته إلى قصر فرعون وقالت أنا أدلكم على من يرضعه (فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) رددناك إلى أمك لكي (تَقَرَّ عَيْنُهَا) تُسَرَّ بلقائك وتطمئن بسلامتك ونجاتك ولكي لا تحزن على فراقك، وإذا أراد الله شيئاً هيئاً أسبابه، (وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَعَجَبْنَاكَ مِنَ الْعَمَةِ) وقتلت القبطي الكافر حين أصبحت شاباً وكان قتله خطأً، فنجيناك من غم القتل، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته.

(وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) واختبرناك اختباراً، ابتليناك بابتلاءات متعددة وبمحن متنوعة، ثم نجيناك منها فوجدناك صابراً ذاكراً شاكراً أهلاً للنبوة والقيادة وحمل الرسالة، وخلصت للاصطفاء وتحمل

المسؤولية الربانية يقال: (في المَحْنِ مَنَحَ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ حَبْرَاتٌ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَبَاءَةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَاتٍ نَهَايَاتُهَا الْكِرَامَاتُ) كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران / ١٨٦ وعن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا)! البحار ٣٧٤/٧٨، (فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينٍ) فمكثت وأقمت سنين عديده عند عمك نبي الله شعيب في أرض مدين ترعى غنمه، وقد أمتها عشراً ينهل من علمه (ع) وَيَعِدُّهُ لِلْقِيَادَةِ، ومنزلة السيادة (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) جئت على موعد مقدر ووقت معين الذي قدرته لجيئك، لحمل مسؤولية الرسالة وتلقي الوحي وثقل النبوة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد / ٨، وأيضاً وقد جئت (عَلَى قَدَرٍ) على مقدار ماحصلته من العلوم النافعة والتجارب المفيدة والخبرات الكثيرة عند شعيب النبي (وَقِيمَةَ كُلِّ أَمْرٍ بِمِقْدَارِ خَبْرَتِهِ وَبِقَدْرِ تَجْرِبَتِهِ) ولولا توفيق الله في تدبير أمرك لما تهيأ لك شيء من ذلك. كَقَوْلِهِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة / ٢١٠، شوقه الله إلى الرجوع إلى وطنه ورؤية أمه وأهله.

٤١ - ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

الآية ذات بلاغة فنيّة قرآنية عالية المضامين، للإعداد التربوي المتكامل للقدوة والقيادة النموذجية الخاصة، إنها تتجاوز حدود معاني الكلمات، وتفوق دقة التعابير، إنها باختصار (رعاية الله المباشرة) وحمايته القريبة الخاصة له (ع)، (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) أي واستخلصتك لنفسي، واخترتك لوحبي واصطفيتك لرسالتي وبكلامي وجعلتك من خواصي، (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، وفي إضافة موسى إلى نفس الله سبحانه، غاية التشريف والتكريم، وتعني قد جعله الله تعالى من خواصه وواسطة بينه وبين خلقه، في تبليغ الدين لقومه وهدايتهم إلى توحيد الله، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس) ومنهج الله الذي به صلاح البشر في دنياهم وآخرتهم. فائدة: ١- جعل الله تعالى موسى (ع) خالصاً مستخلصاً لي ورسالتي ودعوتي ومؤهللاً لهذه المهمة، القيادة الربانية، ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، وإنما أنت للمهمة الصعبة التي صنعتك على عيني لتؤديها، إنها صعوبة حوار فرعون، صعوبة نفسية في قيادة بني إسرائيل، فما لك في نفسك شيء وما لأهلك منك شيء وما لأحد فيك شيء فأصبحت كلك لله عز وجل، كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة/١٦٥، عن الإمام الصادق (ع) (لَا يُحْضِرُ رَجُلٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَالِدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِنْ النَّاسِ كُلُّهُمْ) البحار ٧٠ ص ٢٤، (وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ) ومن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله عليه فمن معه؟ فامض لما اصطنتك له، ٢- يجب إعداد النفس وتأهيلها للاختصاص المناسب معها أولاً ثم إعداد المجتمع، ٣- عن الإمام الباقر (ع) (مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظًا فَإِنَّ مَوَاعِظَ النَّاسِ لَنْ تُعَيِّيَ عَنْهُ شَيْئًا) البحار ١٧٣/٧٨

٤٢ - ﴿ اذْهَبْ أَنْتِ وَأُخُوكَ يَا نَبِيَّ وَلَا تَنبِأ فِي ذِكْرِي ﴾

خاطبَ موسى أولاً ولحق به أخوه مزودين (بِأَيَاتِي) بالمعجزات الخارقة الدالة على نبوتكما وأهمها العصا واليد البيضاء (وَلَا تَنبِأ فِي ذِكْرِي) تنبياً: من التواني والفتور (فِي ذِكْرِي) لأن دائماً على بالكما ولا تغفلا عن ذكري وتذكري، أي ولا تضعفا وتقصراً في الدعوة إلى الله سبحانه، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، فإن ذكر الله سنلكما وسلاحكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد وسند مديد، والذكر لذة المحبين وأنس المتقين ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/٤٥ . عن النبي (ص) (من أحب شيئاً أكثر من ذكره) كقوله (فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) البقرة/١٥٢ .

٤٣ - ٤٤ - ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِذِكْرٍ أَوْ يَخْشَى ﴾

(إِنَّهُ طَغَى) وبغا وعتا وتجبر واعتدى وتجاوز الحد في الظلم في الأرواح والأبدان، وفي الفكر والسلوك وفي البلاد والعباد وأكثر فيهما الفساد وقد ادعى الربوبية (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) النزعات / ٢٤، وادعى والإلوهية فقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص/٣٨

٤٤ - ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ﴾ فقولا لفرعون قولاً لطيفاً رقيقاً شفافاً ناعماً بلا مدهانة، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، والقول اللين يوقظ القلب ويحرك المشاعر (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) بيان الغرض من بعثتهما وهو رجاء تذكُّره ويقظة قلبه لنور الهداية وقبول الحجج وإيمانه بها (أَوْ يَخْشَى) أو على الأقل يخاف العقاب الذي فيه المحبابة والمفاجآت فيجيبكم إلى بعض ما تسألانه، والخشية من مقدمات قبول الحججة (وَالْحَذَرُ يَقِيكَ الضَّرْرُ) . عن الإمام الكاظم (ع) في الآية (وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يَخْشَى إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَايَةِ الْبَأْسِ (العَدَابِ)) الميزان / ١٤ / ١٦١ .

وهكذا يعلمنا رب السماء أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، بالرفق واللين لا بالقسوة والغلظة والشدة حتى مع فرعون، أما النتائج فلست مسؤلاً عنها، كقوله ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل / ١٢٥ عن النبي (ص) (تَخَلَّفُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ) وقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران / ١٥٩، وعن النبي (ص) (إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يُوضِعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠ .

٤٥ - ٤٦ - ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِذِكْرٍ كَرِيمٍ (٤٥) قَالَا لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَمْرِي﴾

قالا ربنا إننا نخاف إن دعوانا إلى الإيمان (أَنْ يَفْرَطَ عَلَيْنَا) أن يُعجل علينا بالعقوبة قبل إظهار الحججة ولا نصل إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة أو أن (يَطْغَى) يتجاوز الحد في الإساءة إلينا وقتلنا أو التنكيل بقومنا، فهل لك أن تفضل علينا بما نأمن معه من طغيانه ؟ ٤٦ - ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ قال لا تخافا من سطوته انني معكما في الحفظ منه، وأنا لكما في

النصر عليه أنه الله تعالى (الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام / ٦١، وأنا أسمع جوابه لكما وأرى مايفعل بكما وكفى بالله حافظاً ونصيراً ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يوسف/ ٦٤ (وَمَنْ تُوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ) .

٤٧ - ﴿ فَآتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ﴾

فأتياه فقولا إنا رسولا من عند ربك أرسلنا إليك مبلغين، وتخصيص الذكر بلفظ (رَبِّكَ) للذي يقول ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ النازعات/ ٢٤ لإعلامه أنه عبد مملوك لله تعالى، ليشعر منذ اللحظة الأولى في اللقاء أن هناك إلهاً هو ربه وخالقه وهو رب الناس جميعاً، لم يقلوا (ربنا) وقالوا (رَبِّكَ) ليثيروا عواطف فرعون تجاه مفهوم الرب، وانه لا يصح من أي أحد ادعاء الربوبية فهي مختصة بالله رب العالمين، وكان فرعون يدعي الربوبية وليس الخالقية، وهو نفسه كان يدعي الإيمان بألهة كقوله ﴿ وَيَذُرُّكَ وَأَهْتَكِ ﴾ الأعراف / ١٢٧ (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ) أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بالأعمال الشاقة، وفي هذه الحدود كانت رسالتهم إلى فرعون لإنقاذ بني إسرائيل من ذلة الاستبداد والاستعباد، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها، وبنوا إسرائيل: هم البقية الباقية من يوسف وإخوانه لما جاءوا مصر أيام العزيز (قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ) قد جئناك بمعجزة خارقة من ربك الله على صدقنا (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى) والسلامة من عذاب الله لمن اتبع هدى الله والتحية لمن استقام على نهجه تعالى، وفيه ترغيب وتحبيب لعله يتلقى السلام بأمان ويتبع الهدى بسلام . فائدة: ١- لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب، وإنما نهاية للكلام، وقصد به السلام الخاص أي السلامة والكرامة لمن تبع دين الله، وفيه ترغيب واستجابة لعله يتلقى السلام ويتبع الهدى .

٤٨ - ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾
وإنا قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا (أَنَّ الْعَذَابَ) أليم (عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ) أنبياء الله (وَتَوَلَّى) وأعرض عن دين الله وآياته، وهذا العذاب واقع في الدنيا والآخرة، وهذا دورها منذرين بعد أن أديا دورها مبشرين بقوله ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ الجن / ١٧ .

٤٩ - ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾
قال فرعون ومن هذا الرب الذي تدعوني إليه ياموسى ؟ فإني لا أعرفه ؟ فمن الذي بعثك ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ القصص/ ٣٨، لم يقل (من ربي) وإنما قال (فَمَنْ رَبُّكُمْ) إضافة الرب إلى موسى وهارون هذا يدل على طغيانه واستكباره وعتوه، ويسأل موجهاً الكلام إلى موسى لأنه هو الأصل في الرسالة وهو الذي دعاه، وهارون وزيره ومعاونه .

٥٠ - ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ نُمِّهِدَى ﴾

أنه كلام ظاهره أنيق وباطنه عميق، وله دلالات واسعة تلخص الرسالة التي جاء بها موسى وهارون من ربهما بهذا الإيجاز البلاغي الدقيق!، قال ربنا الذي أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه كقوله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ﴾ السجدة ٧ / وهو الذي خلق فرعون وكل الخلائق من الذرة الصغيرة إلى الحجرات الكبيرة إلى كل شيء، وأودع في كل مخلوق ما يحفظ كيانه وبقائه وَيَسَّرَهُ إلى حاجته والغاية التي حُلِقَ من أجلها، وأعطاه كل ما يحتاجه من حاجات مادية ومعنوية ثم هداه هداية تكوينية وتشريعية، فهو سبحانه واهب الوجود لكل موجود، والآية جواب في غاية البلاغة والبيان لاختصاره وسعة دلالاته، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع. فائدة: ١- عن الإمام علي(ع) (أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَّا خَلَقَ اللَّهُ كَيْفَ حَلَقَهُ؟ وَأَتَقَنَ تَرْكِيْبَهُ وَخَلَقَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَسَوَّى لَهُ الْعِظْمَ وَالْبَشَرَ) الكاشف/٥/٢٢٢، ٢- (ثُمَّ هُدَى) (ثم) هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي حُلِقَ لها، ليس هناك افتراق زمني بين خلق مخلوق وخلق وظيفته، وإنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته. فهل يرجع لك يا فرعون أنظمة هذه المخلوقات وخلقتها؟ وهل أنت دبّرت أنظمتها وحياتها؟ وهذا دليل على أن كل مخلوق (صَغُرَ أَوْ كَبُرَ) هو عالم بذاته في تقدير الله سبحانه وتصويره له وقيامه على نظامه وتحريك أمره كقوله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء/٤٤، فما من مخلوق إلا وقد هُدي إلى معرفته تعالى بقدر عقله وصفاء روحه وسلامة قلبه. عن النبي(ص) (اعْمَلُوا فِكُلِّ مُيسَّرٍ لِمَا حُلِقَ لَهُ) روح البيان/٦/١٣٦! وقد اصطدم فرعون لبلاغة هذا الجواب المفحم، والبرهان يقطع الجدال، فأدار الحديث إلى وجه آخر :

٥١ - ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾

قال ما حال مَنْ هلك من (الْقُرُونِ الْأُولَى) الأمم الماضية من الناس؟ أين ذهبت ومن كان رها وما يكون شأنها وقد هلكت وهم يعبدون الأصنام ولم يعبدوا الله؟ لم يبعثوا ولم يحاسبوا إن كان ما تقول حقاً؟

٥٢ - ﴿ قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّهِ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

قال موسى كل أحوال الأمم الماضية وكل أعمالها فهي في علم الله مكتوبة في اللوح المحفوظ وكأنه شريط مسجل مجسّم ذو ثلاثة أبعاد: بالصورة والصوت والنيّة كقوله ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ سبأ / ٢١ (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) لا يضل: لا تختلط عليه المعلومات، لا يخطأ ربي ولا يغفل ولا يغيب عن علمه شيء منها، كقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

الرد/٣٣، فعلمه سبحانه ليس كعلم المخلوقين الذي يعتره النقص والنسيان. وبهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان الخافي عن العيان إلى ربه عالم الغيب والشهادة . ثم شرع موسى يبين له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال :

٥٣ - ٥٤ - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَنْزُوجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ ﴾

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا) فراشاً ممهداً صالحاً لحياتكم تستقرون فيها كما يستقر الطفل في المهد رحمةً بكم، وتتمكنون من العمل عليها بأنواع الأبنية والصناعات وأنواع الزراعة (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) وسهّل لكم فيها طرقاً مادية ومعنوية تسلكونها لقضاء مصالحكم في السفر والحضر، فأين أنت يا فرعون من خلق ذرة فما دونها؟ وهناك طرق جبلية وطرق بحرية وبرية وجوية وهي من مظاهر تدبير الله لنظام الكون والكائنات (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وأنزل الله لكم من السحاب ماءً عذباً هو أساس الحياة (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَنْزُوجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى) أزواجاً: أصنافاً وأنواعاً، فأخرج بذلك الماء (كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء/٣٠ كأنواع النباتات المختلفة الطعم والشكل واللون والمنافع والرائحة والحجم، وفي الماء نعم كثيرة وخيرات وبركات بحيث لا تحصى منفعه، وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات (أزواجاً) كسائر الأحياء ضمن (قانون الزوجية العام) والنباتات في الغالب يحمل خلايا التذكير وخلايا التأنيث كما هو الحال في الإنسان والحيوان.

٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الحشائش التي أخرجها الله وهذا تذكير بالنعم، والذي لا يشكر النعم لا يشكر المنعم، والذي لا يشكر الناس لا يشكر الله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ) لذوي العقول المستقيمة الواعية، والأفكار السليمة المميزة، الذين ينتهون عن الفساد ويتورعون عن الحرام ولا يتقربون إلى القبائح، ويستنكرون الجرائم المخلة بجمرة الإنسان، فإذا نمت هذه العقول عن السلبيات فسوف تدعو إلى الإيجابيات، المعنى: ما من عقل مستقيم يتفكر هذا النظام العجيب لا بد أن يدلّه هذا النظام على المنظم له وهو الخالق المدبر ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه / ٥٠، وسميَّ العقل (نُهْي) لأنه ينهى صاحبه عن اتباع الباطل والخطأ والفساد والهوى، ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص / ٢٦، وخصَّ الله (أُولِي النَّهْيِ) بذلك لأنهم المنتفعون بما الناظرون إليها نظر تفكر واعتبار ولأنهم وحدهم يدركون الحقائق إذا كانوا مجردين من الأهواء والأغراض الخاصة. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢، في غرر الحكم (الاعتبار يُفيد الرِّشَادَ) وأما من عداهم لا ينظرون إلى الحياة نظر تفكر واعتبار بل حظهم منها حظ البهائم همها أعلافها. عن النبي(ص) (أَنْ خِيَارَكُمْ أَوْلُوا النَّهْيِ.. أَوْلُوا الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ وَالْأَخْلَاقَ الرَّزِيئَةَ وَصَلَّةَ

الْأَرْحَامِ الْبَرِّ بِالْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ، وَالْمَتَعَاهِدُونَ لِلْقُرَّاءِ وَالْيَتَامَى وَالْجِيرَانَ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ وَيُفْسُونَ السَّلَامَ فِي الْعَالَمِ وَيُصَلُّونَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ غَافِلُونَ) نور الثقلين ٣ / ٣٨٢، وسمي العقل نهي، كما سمي العقل حجر كقوله ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ الفجر/٥، لأن العقل يحجر ويمنع ويصد عن كل منكر ومكروه، وسمي (العقل) تباً ليشير إلى حقائق الأشياء وفلسفتها وعمقها لا إلى شكلها وقشورها، ولتكون أبعد نظراً في فهم الأشياء كقوله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران / ٧، والعقل: من العقال أي الضبط، لتعقل غرائزك وتحكمها على قدر مهمتها، وتهذب هوى نفسك. والعقل: يهدي إلى الله، في غور الحكم (من لم يهدب نفسه لم ينتفع بالعقل) عن الإمام الصادق (ع) (الْعُقْلُ مَا عِيدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَكَتْسِبَتْ بِهِ الْجَنَانُ) الكافي ١/ص ١١ والعقل: الذي لا يتدلك على الله هو عقل مقصر وقاصر، في نهج البلاغة حكم ٢١١ (كَمْ مَنْ عَقِلَ أَسِيرٍ، نَحَتْ هَوَىَّ أَمِيرٍ)!.
٥٥ - ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

من الأرض خلقناكم أيها الناس الخلق الأول في آدم من تراب، والخلق الثاني من التناسل وهي في الأصل من الطعام والشراب وهما من الأرض، وقد حلل العلماء طينة الأرض وجدوها (١٦) عنصراً هي نفسها عناصر تكوين الإنسان (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) وإليها تعودون بعد مماتكم حيث تتحلل أجسادكم فتصيرون تراباً (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) ومن الأرض نخرجكم أحياء مرة أخرى، بعودة الروح للجسد، للبعث والنشور والجزاء والحساب، وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية الذي يتسامى إلى مقام الربوبية وليس له في الربوبية شيء، فلا يستحق الإلهوية والعبادة إلا من له الربوبية أولاً والإلهوية ثانياً، ثم هو ينسى أنه من هذه الأرض وإليها، وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها كقوله ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف / ٢٥، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِمِ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكًا فَأَخَذَ مِنَ التُّرْبَةِ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا فَمَاتَهَا (خَلَطَهَا) فِي النُّطْفَةِ (الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا) فَلَا يَزَالُ قَلْبُهُ يَجُنُّ إِلَيْهَا حَتَّى يُدْفَنَ فِيهَا!) نور الثقلين ٣ / ٣٨٤، فمرجع كل إنسان إلى تربته، عن النبي (ص) (كَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ، كَمَا تَسْتَيْقِضُونَ تَبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٠.

٥٦ - ﴿وَلَقَدْ أَمَرْنَا آيَاتِنَا كَلِمَاتٍ فَكَذَّبَ بِأَبِي﴾

ولقد أمرنا فرعون آياتنا التسعة البيّنات ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ﴾ الاسراء / ١٠١ ذات المعجزات الخارقة كلها التي تتناسب معه في ظروف مختلفة، وتهديه إلى الإيمان، فكذب بها مع وضوحها، لفرط طغيانه وكفره وعتوه ولقسوة قلبه فلم تنفعه، لأنها اصطدمت للحقائق بالمنافع الخاصة والمصالح الدنيوية ففضّل المنافع على الحقائق، عن الإمام علي (ع) (فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيُصْمُّ وَيُكْمِّ وَيُذِلُّ الرِّقَابَ!) البحار ٧٣ ص ٧٥، ولا يختص هذا الاستكبار بفرعون موسى ولا بنمرود

إبراهيم بل يشتمل صفة من طغي واستكبر في كل زمان ومكان كقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾، أن رآه استغنى ﴿العلق ٦ - ٧﴾ (فَكَذَّبَ وَأَبَى) كذب بها مع شدة وضوحها وزعم أنها سحر، ومن أشكل المشكلات النقاش في الواضحات والبديهيات (وَأَبَى) امتنع عن الإذعان، واستكبر على الإيمان لشدة استكباره وطغيانه! كقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/١٤ فائدة: (آيَاتِنَا كُلَّهَا) الآيات المحسوسة والآيات المعقولة، وإذا اجتمعت المعاجز الحسيّة والمعاجز العقلية تمثل الآيات كلها .

٥٧ - ﴿قَالَ أَجِئْتُنَا تُخْرِجُنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِك يَا مُوسَى﴾

يشير السياق القرآني بأن فرعون كان خائفاً من موسى أن يغلبه على ملكه، فلما شعر بالعجز عن مجابهة الحجة بالحجة لجأ إلى الاحتيال بإلقاء التهم والافتراء بأنه ساحر، واستخدم السحر لهدف سياسي لاستيلاء موسى على ملك مصر وإخراج الاقباط منها، وقلب الحقائق هذا هو شأن الحكام المستكبرين في كل مكان وزمان، حيث يصفون الأحرار بالعملاء، والمخلصين بالفوضيين .

٥٨ - ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِثْلَهُ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾

فأقسم، لنعارضنك بسحر مثل الذي جئت به وزيادة ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا) عيّن لنا وقت للاجتماع لتحصل المباراة (لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ) لا نخلف ذلك الوعد لانحن ولا أنت (مَكَانًا سَوِيًّا) في مستوى من الأرض في مكان مسطح مستوي الأطراف لا انخفاض فيه ولا ارتفاع، ومفتوح مكشوف يشرف عليه الجميع. فائدة: السحر يقلب الحقيقة، وهو حركة سريعة فنيّة تخدع عين المشاهد كقوله ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ الأعراف/١١٦، لأنه كذب وتمويه وخداع وحيلة، كقوله ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الشعراء/٤٥ .

٥٩ - ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْسِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾

قال موسى موعدكم يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم يتزينون فيه، ويجمعون أهل مصر وقت الضحى للنظر فيما سيحدث، واختار موسى يوم العيد لأنه عطلة يكثر فيه الحشود والشهود، واختار وقت الضحى من يوم العيد لأنه أجمع للناس وأكثر وضوحاً، ليظهر حق موسى من باطل فرعون على رؤوس الأشهاد، ويدل هذا على كامل ثقته وتمام يقينه وبأن الله تعالى معه وناصره كقوله ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ آل عمران / ١٦٠ .

٦٠ - ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾

(فَتَوَلَّى) وانصرف فرعون يعدّ العدة (فَجَمَعَ كَيْدَهُ) الكيد: التدبير الخفي للخصم، وهو كل وسائل التضليل والخداع ومنها السحرة وآلاتهم ووسائلهم المشعوذة، ثم أتى الموعد وحضر المكان مع أتباعه، عن ابن عباس (كَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَاحِرًا مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ مِنْهُمْ حِبَالٌ وَعِصِيٌّ)! الرازي

٦١ - ﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴾

قال موسى للسحرة واعظاً ومحذراً قبل النزال (وَيْلَكُمْ) كلمة زجر وفيها تهديد ووعيد (لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا) لا تختلقوا على الله الكذب بادعاء أن الآلهة والأرباب شفعاء عند الله، (فَيُسْحِتْكُمْ) فيستأصلكم (بِعَذَابٍ) شامل ويهلككم، لا تموهوا على أعين الناس فتظهروا الأوهام في ثوب الحقائق، وتنسبوا معجزاتي إلى السحر وتجعلوا سحركم إلى الحق، (وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ) وقد خسر وهلك (مَنْ افْتَرَىٰ) من كذب على الله، ولما سمع السحرة منه هذه المقالة المنزلّة، هالهم ذلك ووقعت في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره. فائدة: وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة، الصادرة عن عقيدة مخلصه وفي وقتها المناسب، كالكذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدراتهم .

٦٢ - ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴾

(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم، ماهذا التحذير بقول ساحر فترددوا في المواجهة، فدب التنازع في معسكر فرعون بشأن موسى!، فإن الكلام الصادق إذا خرج من القلب السليم أثر في القلوب الصاغية وهذا دليل أن فيهم استعداد للخير، وأخفوا ذلك عن فرعون وموسى والناس (وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ) أخذوا يتناجون سرّاً، تأثر بعضهم من موعظة موسى وعارض الآخر حتى تغلب رأي الضلال ليستمروا في المباراة وطمعاً بالجازرة.

٦٣ - ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴾

قالوا بعد التشاور: ما هذان إلا ساحران يتستران بالدين (يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ) بسحرهما (مِنْ أَرْضِكُمْ) العزيرة (وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُثَلَىٰ) ويقضيا على دينكم الأفضل وعلى حضارتكم الفرعونية العريقة ويقضيان على عاداتكم وتقاليديكم المتبعة، وهذا الاتباع الأعمى لا يقبله أي مخلص لوطنه ودينه، فمصير وطنكم وأمتكم في تلکم المواجهة، إن موسى وأخاه اثنان والسحرة كثيرون ويدعمهم فرعون وماله وجنده، ولكن رب موسى وهارون كان معهما يسمع ويرى، وهو الذي يدير المباراة كلها. كقوله (هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) الحج/٧٨.

٦٤ - ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَصَفُوا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ ﴾

من أجل وطنكم وأمتكم اتركوا التردد والاختلاف، ونظّموا خطّكم واتفقوا عليها (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) وأحكموا مكرهم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وكونوا يداً واحدة ضدهما وبندل كل جهد لنفوز عليهما (ثُمَّ اتُّوَصَفُوا) إلى الميدان (صَفَاً) مصطفين، وألقوا ما في أيديكم مجتمعين مرة واحدة لتبهروا الأبصار، ليكون أهيب في صدور الناظرين وأنظّم لأمركم (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ) وقد فاز

اليوم من علا وَعَلَبَ على خصمه وتكون الرفعة والمكانة والهدايا الجزيلة مع التكريم من فرعون لنا من دونهما .

٦٥ - ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾

يصور المشهد هنا حالة التماسك وإظهار التحدي المنظم، خيروا موسى أيهم يبدأ بالجولة والمباراة ويبادر بالنزال، وهذا منهم حسن أدب معه وتواضع له، خيروه ثقة منهم بالنصر على موسى، لأنهم كانوا يعتقدون أن أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان .

٦٦ - ﴿ قَالَ بَلِ الْقَوْمُ إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى ﴾

قال لهم موسى بل ابدؤوا أنتم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر حينما يبطل سحرهم ويظهر الله سلطانه كقوله ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ الأنبياء / ١٨ (فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى) فألقوا فإذا تلك الحبال والعصي التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنها - من عظمة السحر - أنها حيات حقيقية تتحرك وتسعى على بطونها، حتى إن موسى تفاجأ بها وفرع منها واضطرب من شدة ما كان عندهم من الفتية والبراعة في السحر كقوله ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ الأعراف / ١١٦، ولا يدخل الخوف في نفس موسى إلا لأمر جليل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى .

فائدة: إنَّ السحر محرم في الإسلام، ومن الذنوب الكبيرة، لأن فيه ضلال وإضلال وتحريف الحقائق، وكان الساحر يؤول إلى الكفر، وتغيص العيش، واضطراب النفس كقوله ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء / ٢١٣ .

٦٧ - ٦٨ - ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ (٦٧) ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾

فَأَوْجَسَ : موسى خوفاً خفيفاً يسري في نفسه يُنسيه لحظة أنه مع الله الأقوى، خوفاً من أن ينخدع الناس بهذا السحر الظاهر المموه للعين الخادع للبصر، ويلتبس الأمر على الناس ولم يستجيبوا للحق، وكان الخوف في نفس موسى بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً فوق ما يتوقعه، ولكنه لم يتحول الخوف الطبيعي المؤقت إلى حالة جبانة ذليلة بل تحوّل إلى مواجهة وتحدي ٦٨ - ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ لقد جاءت مدد السماء فربطت على قلب موسى وثبتت قدمه، قلنا يا موسى لا تخف مما دخل في نفسك من أوهام، ولا تخف أن يلتبس الحق على الناس، فإنك أنت الغالب المنتصر الحق، لأن الله معك وهم المبطلون الخائبون الخاسرون مع طاغية جبار .

٦٩ - ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفٌ مِمَّا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾

تَلْقَفُ : تبتلع، تعطيك الصور القرآنية الحركية لقطعة سريعة حاسمة تشبه لمح البصر، تقلب المعادلة رأساً على عقب! لما ألقى عصاه وحصلت المفاجأة الكبرى التي قلبت السحر على الساحر، صارت عصاه حيّة وطافت حول الصفوف حتى رآها الناس كلهم، ثم قصدت الحبال والعصي الكثيرة فابتلعها بقوة وسرعة كلها على كثرتها ثم عادت عصا يابسة نحيفة كما كانت لم تتغير ولم تتبدل! وظهر الحق وزهق الباطل! (إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) إِنَّ الَّذِي اخْتَرَعُوهُ وَافْتَعَلُوهُ هُوَ مَنْ بَابِ الشُّعُودَةِ وَالْحِيلَةِ وَسِحْرِ الْبَصْرِ وَخِدَاعِ الْعَيُونِ (إِنَّمَا صَنَعُوا) والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير وبيان التزوير والتمويه الفتي (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) لا يسعد الساحر حيث كان، ولا يفوز بمطلوبه وحيلته لأنه كاذب مضلل، ولا يعتمد على حقيقة ولا يستند على الحق، والحق يدمغه فإذا هو زاهق كقوله ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/٨١.

٧٠ - ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾

فلما رأى السحرة ذلك وهم أهل الخبرة ب فنون السحر، تيقنوا أنه رسول الله ولم يتمالكوا أنفسهم وقد أدهشتهم هيبه القدرة الإلهية فخرّوا دون إرادتهم لله سجداً وقالوا آمنا برب هارون وموسى، فوقع الحق والمعجزة، وبطل السحر والشعوذة. قبل لحظات كان السحرة أحرص الناس على الفوز لصالح فرعون، وبعدها سجدوا للآية الكبرى ولقدرة الله!، ولم يهابوا جبروت فرعون وبطشه. ويشهد فرعون الهزيمة المنكرة بنفسه، والتي حشد لها كل مكره وكيده، وهكذا يجيء تدبير الله فوق كل تدبير كقوله ﴿يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال / ٣٠، وقوله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) يوسف/٢١ (وَيُدَبِّرُ الْأُمُورَ وَالْقَضَاءُ يُضْحَكُ!) وهكذا عندما يدخل الإيمان في قلب الإنسان يقلب اتجاهه رأساً على عقب، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كنز العمال خير ٦٦، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ ولكن أتى للطغاة أن يدركوا كيف تتقلب القلوب، وغفلوا أن الله هو مقلب القلوب، وأنها حين تتصل به سبحانه تستمد منه الرحمة ولا يكون لأحد عليها سلطان! كقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال / ٢٤.

لو عَلِمَ الْكُفَّارُ (الملوك) ما للإيمان من لذة، لحاربونا عليها بالسيوف!

٧١ - ﴿قَالَ آمَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكَ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَمَا الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأْمُرْ جُنُودَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَبَّيْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾

خاف فرعون أن يكون هذا المهرجان سبب لإيمان الناس بالله ورسوله، فألقى غضبه على السحرة والشبهة في النبي ورسالته، والتهمة التي تدب السحرة إنهم آمنوا بموسى قبل إذن فرعون وإجازته، فكأن الإيمان بالله عمل من أعمال السيادة التي في يد الحاكم، فهو أشبه بأملاك الدولة التي

تحتاج إلى إذن خاص لتملكها والانتفاع بها!، فقد خيّل لفرعون أنه يملك من الناس كل شيء حتى قناعاتهم الخاصة وخفقات قلوبهم! تحليل الموقف: لقد جمعهم لينصروه، فإذا بهم يخذلونهم ويؤمنون بإله غيره ويعلمونها صريحة فصيحة! قال فرعون لقد صدقتم له من غير إذني، إنها حالة مبالغة الطغيان إنه بلغ من استكباره فلا يسمح أن تتحرر العقول والأرواح بعد أن سيطر على الأجسام واستعبدها بالقهر والقوة، فإن الطغيان حالة تخلف يصد عن النهوض الحضاري في البلاد والعباد، فهو يقتل الطاقات ويشتت الكفاءات فلا بد أن تتمحور نحو شخص الطاغية، فإن استعباد الأجسام حالة خسيصة فكيف إذا استعبدت العقول والأفكار والأرواح والقناعات؟ فيعيش الإنسان الذل والتبعية (النَّاسُ خَوْفُهُمْ مِنَ الذُّلِّ أَوْقَعَهُمْ فِي الذُّلِّ) وَسَاعَةً ذُلٌّ لَا تَعَادِلُ الْعُمَرَ كُلَّهُ! عندئذ يصبح العيش لا يطاق، وتكون الحياة الخائفة موتاً بطيئاً ذليلاً، ويكون الموت الشجاع في سبيل الله وإعلاء كلمته ونصرة الحق والحقوق، وفي سبيل الاستقلال والحرية العقائدية، هو الحياة الحقيقية على جناح شرف الشهادة في سبيل الله، فإن لم تكن الحياة كما تريد، فليكن الموت كما تريد! كقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك / ٢٠، وَقَدَّمَ الموت على الحياة، وجعله النص القرآني خلقاً كخلق الحياة! فقد تحصل على قمة الحياة وشرفها وبقائها، عن طريق طلب الموت المقاوم العزيز على جناح كرامة وشرف الشهادة في سبيل الله.

(وَرَبِّ حَيَاةٍ سَبَبَهَا طَلَبُ الْمَوْتِ، وَمَوْتٌ سَبَبُهُ طَلَبُ الْحَيَاةِ) كقوله ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ هُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الحديد / ١٩ عن النبي (ص) (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ ص ٨، فإذا كان تهديد فرعون يؤدي إلى العذاب الجسدي المؤقت، فإن الاستسلام لطغيانه وفساده والركون إلى استكباره يؤدي إلى العذاب الروحي والمعنوي الطويل والبطيء وعبر الأجيال وتسوء عاقبته لأنه ذل أبدي مهين، عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ)! البحار ١٠٠ ص ٩٣، فيكون العذاب الروحي أشد وأنكى من العذاب الجسدي (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) إِنَّ مُوسَى رَئِيسَكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ! أراد أن يُلِيسَ الأمر على الناس ويقلب عليهم الحقيقة حتى لا يؤمنوا بموسى كإيمان السحرة (فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ) بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ) لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شر قتلة (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) ولتعلمن أيها السحرة من هو أشد منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم رب موسى الذي صدقتم به، كقوله (وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) البروج / ٨، عن النبي (ص) (مَنْ أَقْرَبَ بِالذُّلِّ طَائِعًا فَلَيْسَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ) البحار ٧٧ / ١٦٢ .

٧٢ - ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَالَّذِي فَطَرَ بَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ لَنَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

(قَالُوا) لفرعون رغم كل تهديداتك فلن (نُؤْتِرَكَ) نفضلك ونختارك على ماجاءنا من الآيات اليقينية النافذة في مشاعرنا، الدالة على صدق موسى، والتي تعجز عنها قوى البشر، ولن نفضلك على الله العلي القدير ولو كان في ذلك هلاكنا، لأننا عشنا في الضلالات والأباطيل وعرفنا تفاهتها والآن شاهدنا البينات والدلالات اليقينية وعرفنا حقيقتها الغالية وعلينا أن نستذوق لذتها، في نوح البلاغة خطبة ١٥٧ (بِالْيَقِينِ تُدْرِكُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى)١، أنها لمسة الإيمان في القلوب المفتوحة على معرفة الحق والحقيقة، إنها حلاوة معنوية لا يستذوقها إلا مَنْ عاشها ويعرف حقيقتها بنفسه، إنه منطلق (الإيمان) الذي يخالط المشاعر ويربي النفوس ويطمئن القلوب ويصير العقول ويجعل من الإنسان الضعيف قوة هائلة تتحدى الجبابرة، عن الإمام الصادق (ع) (أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَشَدُّ مِنْ زُبُرِ الْحَدِيدِ، إِنَّ زُبُرَ الْحَدِيدِ إِذَا دَخَلَ النَّارَ تَغَيَّرَ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَوْ قُتِلَ ثُمَّ نُشِرَ ثُمَّ قُتِلَ لَمْ يَتَغَيَّرْ قَلْبُهُ)! بحار الأنوار ٦٧/٣٠٤، عن الإمام الباقر (ع) (الْمُؤْمِنُ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ، الْجَبَلُ يَسْتَقْلُ (يُسْتَقْلُ) مِنْهُ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَسْتَقْلُ (لَا يُسْتَقْلُ) مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ) الكافي ١٢/٢٤١، عن النبي (ص) (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرَجَالًا الْإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي) مجمع البيان ٣/١٤٤ عندما يعيش الإنسان الباطل وغفلته وفساده ثم ينكشف له الحق الساطع وسعاده، فإنه تذوق مرارة الباطل وردائه فتراه لا يفرط بلذة الحق وسعاده مهما كلف ذلك من ثمن، ولو كان الثمن حياته العزيزة، فإن لذة الحق تفوق مرارة الباطل، في غور الحكم (المعلوب بالحق غالب، والغالب بالشر معلوب)٢، عن الإمام الباقر (ع) (أَصْبَرَ نَفْسَكَ عَلَى الْحَقِّ فَإِنَّهُ مِنْ مَنَعَ شَيْئًا فِي حَقِّ أَعْطَى فِي الْبَاطِلِ مَثْلَيْهِ)! تحف العقول ص ٢١٦، وهكذا تنتصر العقيدة المحقة بمواقف أبنائها المخلصين لها، ومحال أن تبقى عقيدة معطاءة مؤثرة إذا لم تجد لها أنصاراً ومضحين من أجل سلامتها حتى روي (مَا بُنِيَ مَسْجِدٌ إِلَّا بِدِمَاءِ الشُّهَدَاءِ!).

فإن للهدى والردى طريقتين مختلفين، فإن انكشف بالدليل خساسة الردى فسوف يتبين بالضرورة نفاسة الهدى!، وأفضل طريق لتأسيس قواعد الهدى واليقين في النفس ما نفيت عنها عوامل الشك والهوى كقوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) البقرة/٢٥٦ (وَمَا انْتَشَرَ الْهُدَى إِلَّا مِنْ حَيْثُ انْتَشَرَ الضَّلَالُ!) وهكذا ينتشر ظلام الليل بعد انتشار ضياء النهار، وهذا حال السحرة الذين ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم خاضعين بعد ساعة للشكر والسجود لله تعالى، فما أعظم الفرق بينهما، قيل (مَنْ آثَرَ اللَّهَ عَلَى الْأَشْيَاءِ هَانَ عَلَيْهِ مَا لَقِيَ فِي ذَاتِ اللَّهِ!) للتوسعة في الموضوع راجع موسوعة الشهادة (الشهادة تأصيل لاستئصال) للمؤلف مكي قاسم البغدادي.

(وَالَّذِي فَطَرَنَا)

خلقنا من العدم، أقسموا بالله الخالق بعدم الرجوع عما آمنوا به (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ) فاصنع ما أنت صانع فلن نبالي ولن نخاف مادما على الحق (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا، حلوة كانت أم مرة وهي فانية، ورجبتنا في نعيم الآخرة هي الباقية، فأنت يافرعون تظن أنك متصرف في النفوس والإرادات كما أنك متصرف بالأجساد المادية الفانية؟، فما أهون الحياة الدنيا علينا وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشى قلب يحشع الله ويرجو حماه وهداه، ويأمل في الحياة الخالدة، والحياة مع الله هي الحياة، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس) كقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) البقرة/١٦٥، عن النبي (ص) (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) روح البيان/٣/٤٠٤ فائدة: وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان القوي، أنه مشهد نموذجي مميز انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهودة، بعد انتصارها في عالم الفكر والعقيدة، أنه نعمة الإيمان الذي يجب على لغز الحياة، ويتعرف على فلسفة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود!، لقد تولت يد القدرة الإلهية إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان، ليس في موقف موسى (ع) فحسب وإنما في جميع المواقف التي تستند على قاعدة الإيمان، حين كان بنو اسرائيل يؤدون ضريبة الذل وهو يُقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فأما حين استعلن الإيمان واستعدوا لاحتمال المواجهة والتضحية والتعذيب، وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بنعمة الإيمان في وجه فرعون الطاغية دون تخرج وتلجلج، فعند ذلك تدخلت يد القدرة الإلهية في إدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب. كما قالت ملكة سبأ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل / ٤٤. وقوله (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) الأحزاب/٦، وقوله (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) آل عمران/٣١.

وقوله (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الفتح/٧.

٧٣ - ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا) الذي ربانا وأحسن إلينا طول عمرنا ونحن نعصيه ليستر علينا آثامنا ويغفر ذنوبنا (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) وما أكرهتنا عليه من تعلم السحر لنضل الناس ونخدعهم (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) والله خير منك ثواباً للمطيع وأبقى عقاباً للعاصي، وأيضاً والله خير قسمة وجزاءً وأبقى مغنماً وعطاءً إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى، وفي الآية دلالة واضحة على أن السحر لا واقع له وأنه تمويه وشعوذة وتضليل في الحقائق كقوله ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ﴾ الأعراف/١١٦. فائدة: الإيمان بالله نعمة النعم، وقمة القمم، عن النبي (ص) (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَنْبَتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْبَتُ الْمَاءُ الْبَقْلَةَ) روح البيان/٣/١٢٤، ومن دعاء الإمام الصادق

(ع) اللهم واشغل قلبي بعظيم شأنك، وأرسل محبتك إليه حتى ألقاك وأوداجي تشخب دماً
البحار ٩٧/٣٣٤.

٧٤ - ﴿إِنَّهُ مَنْ بَاتَ مَبْرُماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾

وأهلم السحرة الذين آمنوا برهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي، أي من يلق ربه يوم
القيامة وهو مؤغل في الإجرام منهمك بالكفر والمعاصي من دون توبة فإن نار جهنم مأواه (لا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) لا يموت فيها فينتهي عذابه ولا يحيا حياة طيبة، فيبقى مُعَذَّباً بين الحياة
والموت! كقوله ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ
كَافِرٍ﴾ فاطر / ٣٦. فائدة: (مُجْرماً) أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، ويقال اللحم المجرم أي
المفصول عن العظم، كذلك المجرم فهو منفصل عن صفات الإنسانية والأخلاق البشرية، في
غررالحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِيهِ النَّاسُ مَخَافَةً شَرِّهِ) وهذا الإجرام جزاؤه جهنم، فهي مأواه المناسب
ومكانه اللائق .

٧٥ - ٧٦ - ﴿وَمَنْ بَاتَ مَوْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾

وَمَنْ يَلِقُ رَبَّهُ مُؤمِناً مُوحِداً، قد عمل الطاعات وترك الملهيات المحرّمات، وجاء ربه بقلب سليم
(فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ) فلهم المنازل الرفيعة عند الله، وهكذا تكون النتائج كالمقدمات،
والجزاء من نفس العمل، ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب عن الإمام علي(ع) (إِنَّهُ لَيْسَ
لِلْأَنْفُسِكُمْ ثَمَرٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَتَّبِعُوهَا إِلَّا بِهَا) البحار ٧٨/ص ١٣ - ٧٦ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ) جنات إقامة واستقرار، تجري من تحت مساكنها وأشجارها الأنهار المطردة بأنواع
الأشربة، وتعبير (مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) يوحي بصورة مجسّمة غريبة غير مألوفة، أن الماء ذاتي فيها
ونابع منها، وليس جارياً إليك من مكان آخر، ونسب الجريان إلى النهر لا إلى الماء للمبالغة في
فَنِيَّةِ الجريان ومتعة النفس فيها! (خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) لا يخرجون من نعيم الجنة
أبداً وذلك ثواب (مَنْ تَزَكَّى)، من تطهّر من دنس الكفر والمعاصي والعيوب، وعاش بالإيمان
والقلب السليم فأصبح أهلاً أن ينزل منازل الطاهرين كقوله ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾ النمل / ١٩، في غررالحكم : (لن يفوزَ في الجنة إلا الساعي لها) فائدة: (مَنْ تَزَكَّى) تطهّر
من المعاصي أولاً، ثم نَمَى نفسه وارتقى فيها إلى الدرجات العلى، وكلما ازداد قربه من ربه،
ازدادت فيوضات الله عليه، فتكون الطهارة سابقة على التنمية لأن التخلية من المفسد مقدمة
على التحلية بالمصالح والمنافع كقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكْرِينَ﴾
هود/ ١١٤ عن الإمام الباقر(ع) (ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد

الحسنات) البحار ٧١ / ٢٤٢ . عن النبي (ص) (مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ) كنز العمال خبر ٧٠٠.

٧٧ - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾
 أسْرٍ : سِرَّ لَيْلًا، بعد أن تمادى فرعون في طغيانه وأبى أن يرسل معه بني اسرائيل، وصمم على قتل موسى المعنى: ولقد أوحينا إلى موسى أن (أسر) سر ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر، وقف موسى ببني اسرائيل وكان البحر أمامهم وفرعون وراءهم، حيث قالوا (إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) الشعراء/٦١ فقال لهم (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) الشعراء / ٦٢ (فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) فأوحى الله إليه أن أضرب بعصاك بحر سُوف بين مصر وسيناء فإنه ينفلق قسمين، ليصبح لهم طريقاً (يَبَسًا) يابساً تحت الماء يعمرون عليه بين جبلين من ماء! كقوله ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ الشعراء / ٦٣ أي انفلق البحر بإذن الله بإعجاز وأرسل الله ريح جافة على أرض البحر حتى صار قعره يابساً كوجه الأرض بسرعة!، (لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى) لا تخاف (دَرَكَاً) لحاقاً من فرعون وجنوده ولا تخشى الغرق في البحر ولن ينالك ما تحشاه، فأنتم في أمن وآمان، فائدة: قال في هذه الآية (طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) ولم يذكر انفلاق البحر، بينما قال في الشعراء/٦٣ (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) وهنا ذكر انفلاق البحر ولم يذكر أرض البحر اليابسة، فعلياً بمجموع تلك اللقطات المهمة في السُّور القرآنية تتكامل أهداف القصة، وهذا من أسباب تكرير قصة موسى في القرآن، وهنا يمتد مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي المعنوي بالنصر الواقعي الحسي.

٧٨ - ﴿فَأَتَيْنَاهُمُ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾
 فَغَشِيَهُمْ: غَطَّاهُمْ وغمرهم، فلم يبقَ من بني اسرائيل أحدٌ بمصر، فغضب فرعون غضباً شديداً، فجمع جنده وخرج في طلبهم عند طلوع الشمس، ولحق بهم فرعون وجنوده، ولما وصل آخر اسرائيل إلى الجانب الثاني من البحر ودخل آخر جندي في البحر من جنود فرعون، انطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً كما سلم موسى وقومه جميعاً، فأصابهم من البحر ما أصابهم، وغشاهم من الأهوال ما غشاهم، وغمرهم ماء البحر بطريقة فضيعة لا توصف ولا يعلم حقيقتها إلا الله، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق. فائدة: ١- قوله (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) نلاحظ فرعون يحث السير بجنوده طلباً للحاق بموسى، ثم يصل البحر ويركب الطريق اليابس الذي ركبه موسى وقومه منذ قليل!! وقد أعماه الغيظ وحب الانتقام من موسى(ع)، من أن يقف على رأس هذا الطريق اليبس قليلاً ويتفكر ويسأل نفسه : كيف انفلق البحر؟ وأقام هذا الطريق في داخل البحر؟ وبأي يد أقيم؟ إنها ظاهرة إعجازية خارقة بين يدي موسى (ع) وتوثرت في النفوس، ولكنه أعمى البصيرة لقد أعمى الجحود قلبه فلم يلتفت إلى هذا الإعجاز المهول،

والسبب لأنه ملاً قلبه بالانتقام والغضب، فطغت قسوة قلبه على عظمة المشهد الاعجازي وغطى عليه، عن النبي (ص) (شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ٧٧ / ١١٤، كقوله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج / ٤٦ ٢ - يصوّر القرآن حالتهم بكلمة (عَشِيَهُمْ) فيها إبهام لمجريات الحدث للدلالة على فظاعته، وأنه فوق أن تصفه الكلمات، وأكبر واقعه المشهود من التعبير البليغ!.

٧٩ - ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى﴾

وصرف فرعون قومه عن الهدى والعدل والحق، وما هداهم إلى طريق النجاة والرشد، وهذا تكذيب لقول فرعون ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر/ ٢٩ فأوردهم موارد الغي والضلال ثم أوردهم موارد الحزن وتنغيص العيش، والخسران والحرمان ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/ ١٠٣ في غرر الحكم (ضَلَّ مَنْ اهْتَدَى بِعَيْرِ هُدَى اللَّهِ) وقوله (يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ) هود/ ٩٨.

٨٠ - ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰةَ وَالسَّلْوَى﴾

يا بني إسرائيل تذكروا على الدوام نعمتنا عليكم وارعوها حق رعايتها، ولا تفسدوها بالتنكّر لها أو نسيانها، فإن شكر النعمة شكر المنعم، فقد أنجيناكم من فرعون الطاغية بطريقة إعجازية، وخلصناكم من عدوكم الذي كان يذيقكم سوء العذاب (وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) وواعدناكم جانب جبل طور سيناء الأيمن حيث سمع سبعون من أعيانكم كلام الله للموسى، وشاهدوا تجلّي الله للجبل، وشاهدوا استلام موسى ألواح التوراة الهادية لكم إلى سبيل النجاة فهي دستور حياتكم، وإنما نسبت المواعدة إليهم لأنهم شاهدوا كل فقرات اللقاء مع الله تعالى فتعود منفعتها إليهم، إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودينهاهم (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰةَ وَالسَّلْوَى) وفوق هذه النعم نزلنا عليكم في صحراء التيه (الْمَنَّ) ذات الطعام الحلو وطائر (السَّلْوَى) السّمين اللّذيذ وهما وجبة صحية لذيذة متكاملة، وفي هذا الترتيب للنعم ضرورة تربوية حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة نجاتهم من فرعون، ثم بالنعم الدينية والدينيوية، مظهراً لعناية الله بهم في الصحراء الجرداء وغيرها.

كقوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى / ١١ ﴿وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/ ٥٣

٨١ - ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا مَرَرْتُمْ بِهِ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾

كلوا من الحلال الطيب اللّذيذ الذي أنعمتُ به عليكم، الأمر بالأكل هنا للإباحة والتذكير بالنعمة التي تستحق شكر المنعم، وليس فرضاً (وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي) لا تحملكنم

سعة النعم والعافية والرفاهية على العصيان، ويحذركم من الطغيان والسرف والبطر والبطنة والغفلة عن الواجبات الدينية، والأخلاقية وعدم الشكر لله، ويسميه طغياناً ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: تجاوز الحدود المألوفة والمعروفة، وحدودك في مقومات حياتك من حلال، فلا تتعدَّ حياتك إلى الحرام، فلا تبني جسمك من حرام، فإن الحرام لذاته قصيرة وتبعاته طويلة كقوله ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤ عن الإمام الرضا (ع) ﴿كُلَّمَا أَحَدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ مَالَمَ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، أَحَدَثَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ﴾ البحار ٣٤٣/٧٣، وهم قريبو العهد بمرارة الطغيان!، ﴿فِيحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فتنزل عليكم عقوبي الرادعة ﴿وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ غَضَبِي: عقوبي، ومن تنزل عليه عقوبي على إطلاقها، العقوبة العاجلة أو الآجلة، أو المادية أو المعنوية كالطرد من رحمة الله، ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ فهو ينساق إلى منحدر خطير وميرير في الدنيا والآخرة كقوله ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةً﴾ القارعة / ٩، فقد شقي وهلك ولو بعد حين، فلا تتخذوا النعم أداة للعتو والفساد لأنها بدافع الهوى، وكل من اتبع الهوى فقد هوى وسقط إلى الأسفل بالانحدار السريع وهم لا يشعرون، وهذا يقابل الطغيان والتعالي! إنه تحذير وإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا، كي لا تبترهم النعمة فيفسدوا ويخسروا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ العنكبوت / ١١، فإن الله يمهل حتى كأنه يهمل، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

فائدة: ١- ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ كيف يهوى ويسقط؟ لأن أساس القوة في حياة الإنسان هو ما يتصل بقوة الله والتوكل عليه في غرر الحكم ﴿أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ﴾ فإذا انفصل عن الله تعالى وكلَّه الله إلى نفسه وهواه، وإذا غضب الله عليه فيخرجه عن رحمته ورعايته، ويخرج عن الصراط المستقيم ومواقف الثبات والاعتدال ويدخل في دائرة الاهتزاز والاضطراب والتقلب والتلون والتذبذب، فتتهوى به إلى الندم والحمران والخسران، كقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْدُومًا﴾ الإسراء / ٢٢، ٢ - وقد يكون المظلوم إذا قوي وانتصر على ظالمه طغى طغياناً وزيادة كقوله ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ العلق ٦-٧، أي رأى نفسه غنياً ومستغنياً بقوته وقدرته عن الله تعالى وعن الآخرين .

٨٢ - ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾

وإلى جانب التحذير والإنذار فتح باب التوبة الصادقة، وأن الله تعالى تسبق رحمته غضبه، فهو لا يعجل بالنقمة على من طغى وبغى، بل يمهل ويؤجل عسى أن يتوب وينوب ويؤوب إلى الله والمعنى: وإني (لَغَفَّارٌ) مبالغة الرحمة والمغفرة، وكثير المغفرة لمن تاب من الشرك والمعاصي وتحلَّص من العيوب، والمبالغة في الغفران لأمرين: في نفس الذنب وفي تكراره لتستمر التوبة (وَآمَنَ) وحسن إيمانه وعمله الصالح وحُلُّقه بين الناس ثم (اهْتَدَى) للتي هي أقوم، أي استقام على الهدى والإيمان والعمل الصالح في أمور دنياه وآخرته، وبقي ثابتاً على ذلك بصدق حتى الوفاة، كقوله

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأحقاف/١٣، فائدة: ١-
في الآية ترغيب لمن استغرق في العصيان ويريد المخرج منه بالتوبة وعدم اليأس، وليست التوبة كلمة تقال، وإنما هي عزيمة في القلب، وندم في النفس، وإحساس بالخطأ، واستغفار لله، والله تعالى يقبل التوبة عن عباده (وَإِنِّي لَعَفَّارٌ) بشروط أربعة كما في هذه الآية: (لِمَنْ تَابَ) ندم على ما كان واستغفر الله بصدق (وَأَمَنَ) الإيمان بالحق ونصرة الحقوق في كل الأحوال (وَعَمِلَ صَالِحًا) فيكون بعنوانه العام ترجمان الإيمان (ثُمَّ اهْتَدَى) التي هي أقوم، ولها معنى عام، الاهتداء الاستمرار على الإيمان والعمل الصالح والاستقامة إلى نهاية العمر، وجعل الهداية في آخر الآية لأنها الأساس التي تعتمد عليها التوبة والإيمان والعمل الصالح. في الحديث (الْمُسْتَغْفِرُ بِاللِّسَانِ الْمُصْرِ عَلَى الذَّنْبِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ) روح البيان ٥ / ١٢٠، وَبِنَفْسِهِ! عن الإمام الباقر (ع) (ثُمَّ اهْتَدَى) إلى ولايتنا أهل البيت (ع) جمع البيان ٧ / ٤٦ (كمصداق).

٨٣ - ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾

بعد هلاك فرعون أمر الله سبحانه موسى أن يسير هو وبنو إسرائيل (النقباء السبعون) إلى جبل الطور، فأسرع موسى بعجلة وتقدمه عليهم وقلبه مُتَلَهِّفٌ إلى مناجاة ربه ومشتاق إلى قربه سبحانه وليأتي بالتوراة، واستخلف على قومه أخاه هارون وأمرهم أن يلحقوا به وهم السبعون المختارون لميقات ربه، ولذا سأل سبحانه موسى لماذا سبق قومه (وهو أعلم بذلك) ليخبره عما أحدثوا من بعده من عبادة العجل!

٨٤ - ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾

يدل ظاهر الكلام على أنه المفروض أن يأتي موسى إلى الطور ومعه جماعة من قومه، فأتى وحده فسأله ربه وجاء الجواب أنهم هؤلاء من ورائي لاحقون بي بلا تأخير (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) وسبقتهم إليك يا إلهي حرصاً على قربك وحباً لمنجاتك وزيادة في مرضاتك في امتثال أمرك والوفاء بعهدك كقوله ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ المؤمنون/٦١

٨٥ - ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

فَتَنًا: امتحنا قومك ليظهروا على حقيقتهم، يقال: فتنت الذهب بالنار إذا اختبرته، ووجه الاختبار هنا أن الله سبحانه، نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل بلسان هارون، أي صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل، بمعنى أنه تعالى خلّى بينهم وبين أنفسهم، وقعت هذه الفتنة لهم بعد خروج موسى بعشرين يوماً عن الإمام الصادق (ع) (وَاللَّهُ لَمُتَحَصِّنٌ، وَاللَّهُ لَتَمِيزٌ، وَاللَّهُ لَتُعْرِبِلُنَّ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْأَنْدَرُ) البحار/٥/٢١٦ (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) أضلَّهُمْ: حرفهم، السَّامِرِيُّ: رجل منافق دجال فطن من دهاة بني إسرائيل من قبيلة السامرة، وأمرهم الشيطان

عبادة العجل بلسان السامري الساحر المنافق، فعصوا الرحمان وأطاعوا الشيطان وأيدوا السامري المحتال الذي زين لهم الباطل بصورة الحق، ظهروا بذلك على حقيقتهم من النفاق وضعف الإيمان والاستعداد التام للكفر والانجذاب للجحود، وهم رأوا المعاجز الكبرى بأعينهم! وفي ذلك دلالة على أنهم مستغرقون في جفاف الروح، وقسوة القلب، وغلظة الطباع!. عن الإمام علي (ع) (إن لكل قوم سامرياً)! نور الثقلين ٣/٣٩٢، السامري: رمز الضلالة، وعنوان النذالة، عن النبي (ص) (إن لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم) المحجة البيضاء ٧/٣٢٧.

٨٦ - ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لَكُمْ رِبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾

رجع موسى من ميقات ربه إلى بني إسرائيل بعدما استوفى أربعين ليلة وأخذ التوراة، ولكن رجع لهم (غَضْبَانَ أَسِفًا) في غضب وأسف، أي في حزن على ما صنع قومه من عبادة العجل (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا) ألم يعدكم ربكم بصدق بإنزال التوراة فيها حكم الله وهدى ونور، فهي دستور حياتكم ومنهج سعادتكم؟ وأن يعطيكم الأرض المقدسة تحكموها ويخصكم بنعمه العظيمة في ظل منهج التوحيد، والاستفهام للتوبيخ (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ) استفهام إنكاري، هل طال عليكم (العهد) الزمن وهي مدة غياب موسى عن قومه، حتى نسيتم العهد، أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه بالكفر بعد الإيمان، ولعبادة العجل بعد الله المنقذ لهم، وكأنما يتعمد ذلك تعمداً ويقصد إليه قصداً، (فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي)؟ انقلبتم عن دين الله بعد أن وعدتموني بالثبات عليه، وفي هذا إشارة إلى أنهم يؤمنون بالظاهر مادام موسى معهم، فإن غاب انقلبوا على أعقابهم، وحرّفوا الدين بحسب أهوائهم!.

٨٧ - ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكِ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

بِمَلَكِنَا : باختيارنا (لم نملك أمرنا) أي قالوا ما أخلقنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين، وهكذا يلقي المجرم المحتال تبعة فساده على القضاء والقدر أو يُحمّل به الآخرين، (وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا) أي حملنا (أوزاراً) آثاماً ثقلاً وأحمالاً (مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ) حلي النساء الفرعونيات التي استعاروها للعرس أو للعيد وحملوها معهم، فهم يشيرون إليها وهم قذفوها ويدعون أنهم تخلّصوا منها، لأنها حرام فأخذها السامري فصاغ منها عجلاً، (فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) كذلك فعل السامري، ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار، فصنع عجلاً (للفتنة والتفرقة) من ذهب بطريقة خاصة إذا مر عليه الريح أحدث صوتاً وخواراً، عجلاً لآحياة فيه ولاروح فهو هيكَل جسد، فعندما رأوا عجلاً من ذهب له صوت حتى نسوا

رحم الله تعالى الذي أنعم عليهم كثيراً والذي أنقذهم من الذل! ومن علامات اللّيم أن يقابل إحسان المحسن بالإساءة! في غرر الحكم (اللّيمُ إِذَا بَلَغَ فَوْقَ مِقْدَارِهِ تَنَكَّرَتْ أَحْوَالُهُ).

٨٨ - ٨٩ - ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيًّا (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة (عِجْلًا جَسَدًا) هيكلًا بلا روح (تمثال) يستقبل الريح فيحدث صغيراً (لَهُ خُورًا) له صوت يشبه صوت العجل وهو ولد البقرة (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيًّا) فقالوا هذا العجل إلهكم وقد نزل إليكم وهو إله موسى (وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيًّا) موسى إلهه هنا، أي غفل عنه وذهب يطلبه في الطور، فعكفوا عليه يعبدونه! فقد استعجل السامري تشوقهم وميلهم إلى الصنمية والوثنية وأنها متأصلة في نفوسهم، فهم ما أن أنجاهم الله من فرعون قالوا ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف / ١٣٨، (فَنَسِيًّا) نسي السامري خميرة الإيمان في نفسه، ونسى أن هذا العمل الإجرامي خروج عن الإيمان إلى الكفر، ونسى أن الله أحسن إليهم جميعاً، فلا تقابل الإحسان بالإساءة كقوله ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال / ٥٥، في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ سَعَىٰ بِالْإِحْوَانِ وَنَسِيَ الْإِحْسَانَ) وارتد السامري بعد إيمانه وأضل قومه، ٨٩ - (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أفلا يعلمون إن العجل الذي صنعوه صنماً وزعموا أنه إلههم بلا روح ولا يرد لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً؟ والاستفهام للتوبيخ كقوله ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ آل عمران / ١٦٧، فائدة: ولكل أمة سامري بقدرها، فلتكن على حذر! في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمُكَ!) وعنه (ص) (ذُنْيَاكَ مَا يَشَعَلُكَ عَنِ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦.

٩٠ - ﴿ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ قال لهم هارون ناصحاً ومدكراً من قبل رجوع موسى إليهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسْبِطٍ﴾ الغاشية / ٢٢ (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) يا قوم إنما ابْتَلَيْتُمْ بهذا العجل وأظلمتم به، وهو امتحان امتحنكم الله به بضلال السامري وغشته لكم (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن، الذي خلقكم وخلق كل شيء فافتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) بترك عبادة العجل. فائدة: ١- إنهم لم يكتفوا بالإعراض عن نداء العقل ودوافع الفطرة السليمة، بل أعرضوا عن نداء نبيهم هارون تأكيداً لتوبيخهم، في غرر الحكم (مَنْ إِسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَقَعَ فِي الْحِيَانَةِ)

٩١ - ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

أَصْرُوا عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَل وَقَالُوا لَهَارُونَ (لَنْ نَبْرَحَ) لَنْ نَزَالَ وَسَنْظَل (عَاكِفِينَ) مَقِيمِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَل حَتَّى يَعُودَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَنَرَى رَأْيَهُ فَلَعَلَّهُ يَسْجُدُ مَعَنَا لِلْعَجَلِ وَيَعْبُدُهُ! فَاعْتَرَلَهُمْ هَارُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (فِي تَقْلُبِ الْأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ، وَالْأَيَّامِ تُوضِحُ لَكَ السَّرَائِرَ الْكَامِنَةَ) البحار ٧٧/٢٨٦.

٩٢ - ٩٣ - ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾

فِي الْكَلَامِ حَذَفَ، أَي فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنْ مِيقَاتِ رَبِّهِ وَوَجَدَهُمْ مَقِيمِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ، امْتَلَأَ غَضَبًا لِلَّهِ تَعَالَى وَقَالَ لَهُ (مَا مَنَعَكَ) أَي شَيْءٌ مَنَعَكَ حِينَ رَأَيْتَهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ، ٩٣ - (أَلَا تَتَّبِعُنِي) فِي الْغَضَبِ لِلَّهِ وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ مَعَ الشَّدَةِ وَالْغَلْظَةِ وَالزُّجْرِ لَهُمْ عَنِ ذَلِكَ الضَّلَالِ وَالْإِنْحِرَافِ؟ (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) أَخَالَفْتَنِي وَتَرَكْتَ أَمْرِي وَوَصِيَّتِي؟ عِنْدَمَا قُلْتَ لَكَ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف/١٤٢، وَجَذَبَهُ مِنْ لِحِيَّتِهِ وَرَأْسِهِ فِي إِنْفِعَالٍ وَثُورَةٍ :

٩٤ - ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَمْ تَرَاقِبُ قَوْلِي﴾

فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ هَارُونَ وَلَمْ يَبَالِغْ وَيَشْدُدْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، نَسَبَهُ مُوسَى إِلَى عَصِيَانِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ!! فَتَرَفَّقَ هَارُونَ فِي خُطَابِ مُوسَى اسْتِعْطَافًا لَهُ وَتَهْدِئَةً لِعُضْبِهِ وَتَرْقِيقًا لِقَلْبِهِ إِذَا أَضَافَهُ إِلَى الْأُمَّ (الَّتِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا) مَعَ كَوْنِهِ أَخَاهُ وَشَقِيقَهُ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ، أَرَادَ هَارُونَ أَنْ يَحْرِكَ فِي نَفْسِهِ عَاطِفَةَ الرَّحْمِ الَّتِي تَوْثِرُ فِي مَشَاعِرِهِ، وَيَعْرُضُ لَهُ وَجْهَةً نَظَرَهُ فِي صُورَةِ الطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ وَأَنَّهُ خَشِيَ إِنْ هُوَ عَالَجَ الْأَمْرَ بِالْعُنْفِ أَنْ يَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَتَنَازِعِينَ مَتَكَارِهِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ الْعَجَلِ وَبَعْضُهُمْ مَعَ هَارُونَ، (أَي) يَا أَخِي لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) إِنِّي خَفْتُ إِنْ زَجَرْتَهُمْ بِالْقُوَّةِ أَنْ يَقَعَ قِتَالٌ وَحَرْبٌ أَهْلِيَّةٌ وَسُقُوطٌ قَتْلِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، فَتَلَوْنِي عَلَى ذَلِكَ وَتَقُولُ لِي لَقَدْ أَشْعَلْتَ الْفِتْنَةَ بَيْنَهُمْ (وَلَمْ تَرَاقِبْ قَوْلِي) لَمْ تَنْظُرْ أَمْرِي وَلَمْ تَنْقُذْ وَصِيَّتِي فِيهِمْ فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلُ شَيْئًا حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، لِتَتَدَارَكَ الْأَمْرَ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ كَانَ فِيمَا فَعَلْتَ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (كَانَ هَارُونُ هَائِبًا لِأَخِيهِ) مُطِيعًا لَهُ هَائِبًا: مِنْ الْهَيْبَةِ وَالْإِحْتِرَامِ، وَنَجَّدَ هَارُونَ أَهْدَأَ أَعْصَابًا وَأَمْلَكَ لِانْفِعَالِهِ مِنْ مُوسَى، وَلَكِنْ لَيْسَ أَمَامَ مُوسَى إِلَّا الْحَزْمُ وَالْحِسْمُ، فِي غَرْرِ الْحَكْمِ (مَنْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ اسْتَظْهَرَ، مِنْ أَضَاعِ الْحَزْمِ تَهَوَّرَ)

٩٥ - ٩٦ - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

أَتَجَّهُ مُوسَى إِلَى رَأْسِ الْفِتْنَةِ الْمُحْتَالَ السَّامِرِيِّ وَمُصَدِّرِ الْإِنْحِرَافِ وَالنَّفَاقِ، لِيُخْجِدَ الْفِتْنَةَ مِنْ أُسَاسِهَا (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) قَالَ لَهُ فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ، وَمَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَيْهِ؟ ٩٦ - (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) قَالَ السَّامِرِيُّ وَهُوَ يُحَاوِلُ مُخَادَعَةَ مُوسَى وَيُبْرِئُ نَفْسَهُ مِنْ فَعْلَتِهِ النِّكَرَاءِ، رَأَيْتُ مَا لَمْ يَرَ غَيْرِي، وَعَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمْ غَيْرِي! (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ

فَنَبَذْتُهَا) قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل أي فرس الحياة، (فَنَبَذْتُهَا) فطرحتها على الحلي فتحولت عجلاً فكان له حوار (صوت)! (وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي) وكذلك زينت لي نفسي مالم يسبح بصورة حسنة كقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/٨ .

فائدة: ١- (مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) إن السامري يفترى الكذب في قوله، وأنه ما بصّر بشيء، ولا قبض شيئاً من أثر الرسول وإنه إدعى محتالاً أنه رأى جبريل على فرس يرغب جيش فرعون في الدخول إلى الطريق اليابس في البحر، وإنما أراد التهزّب من تبعة ما حدث وهو يريد زرع فتنة بينهم، ويحتال على موسى، ويربك الأمر عليه، وأن السامري مشرك منافق، وهو الذي أفسد عقيدة بني إسرائيل في عبادة العجل، وهكذا السامري ظاهرة عامة توجد في كل زمان ومكان، الذين يزرعون العراقيل في عجلة منهج التوحيد والتقدم الحضاري للشعوب، ليكون الإنسان المؤمن منهم على حذر، عن الإمام علي (ع) (إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ سَامِرِيًّا) نور الثقلين ٣ / ٣٩٢ .

٩٧ - ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

لا مِساسَ : لا مخالطة ولا ملامسة ولا اندماج اجتماعي، قال موسى للسامري عقوبتك في الدنيا أن تكون منبوذاً محذوراً منه معزولاً مكروهاً من كل الناس، لا مخالطة ولا مكاملة ولا مواكلة ولا أي علاقة معه من أحد!، لا يبيع لأحد ولا يشتري من أحد، فهو كالوحش في الصحراء، المطرود من رحمة الله والمنفي من رحمة الناس، لا يمسك أحد لا بخير ولا بسوء، ولا تمس أحداً، وهكذا يرتدع الأشرار بعقوبات شديدة وسريعة رادعة، وتكون العقوبة على قدر الجناية، فهي عقوبة العزلة عن الناس (كالسجن الانفرادي) وهي إحدى العقوبات النفسية في ديانة موسى (ع). وأما جزاؤه في الآخرة بقوله (وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ) وإنّ لك موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلف (وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا) انظر إلى هذا العجل من الذهب الذي أقمت (عَاكِفًا) مواظباً ملازماً على عبادته (لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) لنحرقه بالنار ثم لنصيرته رماداً ونرميه في البحر (لَنَنْسِفَنَّهُ) ولنذروه في الهواء ذرواً كذرات الغبار على مرأى من الذين عبدوه! فلم يبق له أثر، وهذه نهاية كل ماكر ومنافق ومخادع وغادر، ضال ومضل، فائدة:

١- وهكذا بالقصاص تصان الحياة، وتحفظ الحقوق، وتستقيم الأمور كقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة/١٧٩، في نهج البلاغة حكم ٣١٤ (رَدَّ الْحَجْرُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكَ، فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ الشَّرَّ إِلَّا الشَّرَّ) عن الإمام علي (ع) (إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُودَةً، وَأَحْيَى بَدْعَةً مَتْرُوكَةً) شرح النهج ٩/٢٦١ .

٩٨ - ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

أعلن موسى حقيقة العقيدة السماوية وأساس جميع الأديان (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ) تعتمد التوحيد هو وحدة الإله الحق، ولا معبود ولا رب سواه، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) وسعت رحمته كل شيء، المستحق للعبادة والطاعة وكل شيء فقير إليه (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماوات، وما من شيء إلا يعبد به ويسبح بحمده، كل كائن بقدره وحسبه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الاسراء ٤٤] وقوله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ غافر / ٧، سبقت رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا، وسبق عذابه نعمته كقوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف / ١٥٦].

٩٩ - ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾

كما قصصنا عليك (يا محمد) قصة موسى، كذلك نقص عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث والأمم كقوله ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ آل عمران / ٦٢ تبصرة لك وعبرة للناس لمن يتذكر أو يخشى، وفي الوقت نفسه تدل على صدق نبوتك لأنها من أنباء الغيب كقوله ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود / ١٢٠] (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) وقد أعطيناك من عندنا مباشرة قرآناً فيه ذكر كل ما يحتاجه الناس للهداية والاستقامة في الحياة الدنيا والآخرة، وقيل: الكتب السماوية نزلت بالمعنى ثم صاغها الأنبياء بتعبيرهم الخاص الصحيح المسدّد، أما (القرآن) فهو الكتاب الوحيد الذي نزل بلفظه ومعناه من ربه مباشرة للرسول الكريم (ص) كقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام / ١٥٥] وقوله ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى / ٦-٧] وسمي القرآن ذكراً: لأن فيه ذكر الله ويذكر بالله واليوم الآخر لمن يتذكر ويعتبر، ويذكر بمنهج الله، وسنن الله وقوانين الله، فهو عبرة لمن يعتبر، وفيه أخبار الأنبياء وأحكام الله وشريعة الله وفيها منهج الآخرة. وفيه تبيان لكل شيء، وما فرط الله فيه من شيء، كقوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [ص / ٤٢]، والقرآن دستور الحياة يعلم فلسفتها لكل الناس، وصلاح حالهم واطمئنان قلوبهم في دينهم ودنياهم، فهو الصراط المستقيم ويهدي للتي هي أقوم، وحقيقة الذكر: أوله إيمان، وأوسطه إيقان، وآخره عرفان، وكل مرحلة مرتبة! كقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء / ٧] كقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر / ٩]، في غرر الحكم (الذِّكْرُ لِدَّةُ الْمُحِبِّينَ، الذِّكْرُ: حَيَاةُ الْقُلُوبِ)

١٠٠ - ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ) من انصرف إلى غيره ولم يقبل عليه بمعنى: من أعرض عن هذا القرآن الكريم إعراضاً بالتلميح أو التصريح، بالقول وبالفعل، أو بالفعل دون القول، وترك العمل بموجبه أو التهاون بأوامره ونواهيه أو عدم تعلّم معانيه الواجبة والضرورية وعدم العمل بها، أو لم يؤمن به، ولم يتبع مافيها فقد أعرض عنه، كقوله (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)

الفرقان/٣٠ لأنه يحيا بغير نور ويسعى بغير هدى من الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور/٤٠)، في غرر الحكم: (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى؟)، (فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا) حملاً ثقيلاً فضيلاً من الإثم لا يمكن تصوّره، وذنباً عظيماً يتقله في الحساب، ويثقله في العقاب، ويثقله في الحياة، ويثقله في العذاب النفسي فلا يمكن تصوّره، وتسمية الإثم (وزراً) تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (الجن/١٧) وقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ طه / ١٢٤، الضنك: الضيق الشديد المعنوي والقلق النفسي والأرق الليلي وتنغيص العيش، عن النبي(ص) (مَا أَمَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ) عن ابن عباس (مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ فَهُوَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ) الدرر المنثور/١٦٧/٠

١٠١ - ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾

خالدين في عذاب ذلك الوزر الثقيل وهو الخلود في النار، لأن العذاب هو نفس الأعمال الضالة تنقلب عذاباً على أصحابها بحسب صغرها وكبرها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق / ١) (وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) وَسَاءَ : قبح، أي وبئس ما حملوا على أنفسهم من المآثم بسبب إعراضهم عن القرآن الكريم وهم ذاهبون إلى الله تعالى للحساب، شبّه الوزر بالحمل لثقله! وهو حمل يسوء حامله يوم القيامة ويصب عليهم البلاء صباً! لأنه ثقل جامع لمساوئ العيوب، من الجهل، والجهل المركب، وآتباع الهوى، وقسوة القلب، والحتم والأخلاق الذميمة . . . إلخ. عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الْخَيْرَ ثَقُلَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ ثِقَلِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ خِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كثر الدقائق ٤٤٨/٣.

١٠٢ - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) كناية عن بعث ما في القبور، وهو مشهد غريب من مشاهد يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الطغين/٦)، أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى والثانية (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) نحشر (أهل الكبائر) أبدانهم زرقاء من شدة الخوف كالموتورم، ووجوههم سوداء من الخزي، وفي هذا التشوّه لخلقهم لما هم فيه من الشدائد والأهوال، وهذا تعبير رهيب عن خزيهم وسوء حالهم تغير ألوانهم آنذاك . سئل ابن عباس قوله (يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) وأخرى يحشرون غمياً قال : إنّ يوم القيامة فيه حالات، يكونون في حال زرقاً من هول المطلع، وفي حال عمياً في حال الإعراض عن أحكام الله... وهكذا (وروي) تكون وجوههم زرقاء أو أبدانهم زرقاء غريبة مشوهة من سوء أحوالهم! والزرققة: لها دلالة حسية من انحباس الدم وتجمده

في جسم الإنسان الخائف المرتعب! وهكذا يبنى الإنسان مستقبله بنفسه، في غرر الحكم (المرء حيث يضع نفسه) فائدة: وخص (المُجْرِمِينَ) بالذكر لأن المجرم انفصل بأعماله الإجرامية الظالمة عن الصفات البشرية، فكان غريباً بطباعه وسوء أعماله عنهم، فظاهره بشر وأعماله يتطير منها الشر! كقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) السجدة/٢٢.

١٠٣ - ﴿يَخَافُونَ بِهِمْ إِنَّ لِبَيْتِهِمْ لِعَشْرًا﴾

يَتَخَافُونَ : يتهامسون بينهم، أي خفتوا أصواتهم وخفضوها وتحذثوا سرّاً، المعنى : من صفات المجرمين أهل الكباير يوم القيامة لشدة ما يعانون من الأهوال وسوء الحال وشدة الخوف، يذهلون عن مدة مكثهم في الحياة الدنيا، يقول بعضهم لبعض بصوت خافت قبل الحشر (إِنْ لِبَيْتِهِمْ إِلَّا عَشْرًا) مالبثنا إلا عشر ليالٍ أو عشر ساعات أو عشر لحظات ! استقصروا مدة لبثهم فيها لشدة ذهولهم، وهكذا يمر عمر الإنسان كمرّ السحاب، فهو أشبه بيوم طلعت شمس ثم غرّبت كقوله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ آل عمران/١٨٥ وقوله ﴿إِنْ لِبَيْتِهِمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ طه / ١٠٤ وقوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ الأحقاف/٣٥

١٠٤ - ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لِبَيْتِهِمْ إِلَّا يَوْمًا﴾

نحن أعلم بما يتهامسون بينهم في السرّ (إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) إذ يقول أوفرهم عقلاً وفهماً وأصوبهم رأياً وأعدلهم قولاً (إِنْ لِبَيْتِهِمْ إِلَّا يَوْمًا) ما لبثتم إلا يوماً واحداً في الدنيا أو في عالم البرزخ إذا قوبلت بيوم القيامة (وَلَا عَيْشُ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) كقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الروم/٥٥، في نهج البلاغة حكم ٢٩ (إِذَا كُنْتُ فِي إِذْبَارٍ، وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمَلْتَقَى!).

١٠٥ - ١٠٧ - ﴿وَسَأَلْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾

سئل رسول الله (ص) عن الجبال الضخمة الهائلة في يوم القيامة ما حالها ؟ (فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) فقل يفتتها ربي تفتيتاً شديداً كالرمل ويطيّرها في الهواء، حقاً إنه مشهد مزلزل رهيب وغريب، في تغيير نظام العالم كله، ويكون نظام آخر في عالم آخر، قوله ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ إبراهيم / ٤٨، ١٠٦ - (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) فيتركها (قَاعًا) أرضاً مستوية ملساء جرداء خالية لانبات فيها ولا بناء، الصفصف : الأرض المستوية، ١٠٧ - (لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) العوج : الانخفاض، الأمت : الارتفاع اليسير، أرض منبسطة، أي لا ترى فيها انخفاضاً يستتر فيه الإنسان عن الأعين، ولا ارتفاعاً يسيراً يختفي خلفه. والسؤال عن الجبال لأنها

مظهر للعظمة والثبات والتوازن لحركة الأرض، عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ: مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩.

١٠٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾

(الدَّاعِيَ) المنادي، كالمؤذن الذي يدعو الناس للصلاة، فمنهم من يجب الدعوة ومنهم من يُعرض، أما منادي الآخرة فلكل يستجيب فلم يمتنع عنه أحد. في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس داعي الله (إسرافيل) الذي يدعوهم إلى أرض المحشر يأتيونه سراعاً صامتين مستسلمين (لا عِوَجَ لَهُ) دونما انحراف عن خط السير أو توقف أو إعراض أو استنكاف أو تثبُّط أو تساهل، من غير سهو لأحد أو نسيان لأحد أو مسامحة مع أحد (وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ) وخضعت الأصوات أي خضع أصحابها، وسكنت النفوس وذلت الخلائق لهيبة الرحمن وعظمتته جلّ في علاه، الحاكم العادل الذي ﴿لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ (فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا) فلا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع، وعن الإمام الباقر(ع) في قوله (وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ). إذا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حُفَاةً عُرَاةً فَيُوقِفُونَ فِي الْمَحْشَرِ حَتَّى يَعْرِفُوا عَرَقًا شَدِيدًا وَتَسْتَدُّ أَنْفُسُهُمْ فَيَمْكُثُونَ فِي ذَلِكَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ عَامًا، وَذَكَرَ الْآيَةَ! نور العقليين ٣ / ٣٩٤، فائدة: نلاحظ قوله (يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ) إنّ هناك تنسيقاً لمشهد القلوب والأجسام في حركتها، مع مشهد الجبال في تسويتها مع الأرض، مما يدل أن هناك علاقة مباشرة بين حركة السنن الإنسانية وحركة السنن الكونية. فمن نَسَقَ بينهما، وانتظم معهما فقد فاز بامتياز!.

١٠٩ - ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

في ذلك اليوم الرهيب الحاسم في يوم المحشر، لا تنفع شفاعة أحد في غيره (إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) باستثناء شفاعة (مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ) في أن يشفع، ورضي قوله وعمله وشفاعته من الأنبياء والأوصياء والأولياء والشهداء والصالحين . في نهج البلاغة : (لا شفيع أنجح من التوبة) في غرر الحكم (شَافِعُ الخَلْقِ العَمَلُ بِالْحَقِّ وَالرُّؤْمُ الصِّدْقِ) كقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة/٢٥٥ لما نفي أن تنفع الشفاعة بغير إذنه علل ذلك بقوله :

١١٠ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

الضمير يرجع إلى الذين يتبعون الداعي في الآية (١٠٨) المعنى : يعلم الله سبحانه جميع أحوال عباده أجمعين وأقوالهم وأفعالهم، ويعلم كل شيء عن المجرمين فهو (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي حالهم ومصيرهم في موقف الجزاء، ويعلم ما تقدمهم من الأحوال، ويعلم (مَا خَلْفَهُمْ) أي حالهم في الدنيا قبل الموت وبعده، ويعلم ما بعدهم مما يستقبلون، أي يعلم ما تقدم وما تأخر، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) بينما هم لا تحيط علومهم بمعلوماته ولا بذاته إلا ما يعلمهم الله سبحانه ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة / ١٥١، وقوله (وَلا

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) البقرة/٢٥٥، وفيه إشارة: إلى العجز عن معرفة ذات الله عزوجل، فَلَا تُفَكِّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَتَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، فإنها تدلکم على الله تبارک وتعالی . عن الإمام علي(ع) (يُصْنَعُ اللَّهُ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ يَعْتَقِدُ مَعْرِفَتَهُ، وَبِالْفِطْرَةِ تَنْبُتُ حُجَّتُهُ، وَبِآيَاتِهِ احْتَجَّ عَلَى خَلْقِهِ) التوحيد ص ٣٥، من سعى إلى الله قربه، ومن بحث عن الله وجدته، عن الإمام علي(ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥.

١١١ - ﴿وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

عَنْتَ: خضعت وذلت وانقادت واستسلمت، الْوُجُوهُ: وجوه أصحابها وقلوبهم ونفوسهم، الْقَيُّومُ: القائم بالتمام والكمال والجلال والجمال، لكل ما خلق، والقائم بذاته المقوم لغيره، ولا يغفل ولا يذهل عن تدبير أمور الكون والكائنات، ومجازاة كل نفس بما كسبت، المعنى: (وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) واستسلمت الخلائق كلها لجبارها الحي القيوم الباقي، الذي لا يموت وبه الحياة ومنه حياة كل حي، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم، الذي به قيام كل شيء احتياجاً واضطراً، وهو القائم بإتمام كل شيء ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل / ٨٨ فلا يستطيع أي مخلوق رداً لحكمه، وخص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة، فهو مرآة الإنسان وصورته المميزة، لأن آثار الذل والسرور تظهر عليها، والوجوه تتصل مباشرة بالمشاعر وترتبط بالضمائر والأحاسيس، وكان الوجوه القاعدة المركزية التي تصب فيها ويظهر عليها قرارات العقول وخلجات النفوس كقوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) الأنعام/٧٩، إسلام الوجه لله تعالى يعني توجه القلب إليه، وتعلق الروح به، لذلك معرفة سيماء الوجوه وانعكاساتها بحاجة إلى علم الفراسة، كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) الحجر/٧٥، أي المتفرسون، عن النبي (ص) (إِخْذُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ! فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) كنز العمال خبر ٣٠٧٣١ (وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) وقد (خَابَ) وفقد الأمل حُرِمَ الثواب وخسر النعيم من وصل إلى ساحة المحشر للحساب (مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) الظلم: عنوان واسع الدلالة، قال الراغب في المفردات: وكل من يتجاوز الحق فهو ظالم.

فائدة: الظلم ثلاثة:

- ١- ظلم بين الإنسان وبين ربه الله تعالى كقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الأنعام/٢١.
- ٢- ظلم بينه وبين الناس كقوله ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ الشورى/٤٢.
- ٣- ظلم بينه وبين نفسه كقوله ﴿مِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فاطر/٣٢، وأعظم الظلم مع الله أن تشرك به، لأن المشرك يأخذ حق الله تعالى في كل شيء ويعطيه لغيره، ويغطي على فضله فلا مغفرة له، فهو يُصَغِّرُ حق الله، ويضَيِّعُ حقه سبحانه، ويكَبِّرُ حق الغير ويدعو إليه، فعمله عمل العَدُو! وهو مشرك بالله، الشرك الخفي والجلي ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣ كافر برسله ورسالاته أو

تارك لأمره مُنْعَمِسٌ في معاصيه، وأن أخسر الناس غداً مَنْ ظلم الناس واعتدى على حقوقهم وكرامتهم وحرمتهم، ومن ظلم نفسه فقد ظلم الناس، عن الإمام علي(ع) (بَيِّنَ الزَادَ إِلَى الْمَعَادِ، الْعُدْوَانَ عَلَى الْعِبَادِ)، والرابع عند الله من عمل لخير الناس وصلاحهم وتقدمهم لوجه الله وحب الخير والإنسانية كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ^{البينة/٧} (وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) خَابَ: خَسَرَ وفي الحديث (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ عند الله هو ظُلْمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٥ / ٣٠٩، في غرر الحكم (أَخْسَرْتُمْ أَظْلَمْتُمْ) وفيه أيضاً (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَمَنْ ظَلَمَ كُرِهَتْ أَيَّامُهُ) وَتَنَعَّصَ عَيْشُهُ وتزول نعمته وله تبعات مهلكات، والظلم أم الرذائل ويُجْرَبُ النفوس، ويُقَسِّي القلوب، فهو خسارة الدنيا والآخرة، في غرر الحكم : (مَنْ أَفْحَشِ الظُّلْمَ ظَلَمَ الْكِرَامَ)!

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

(وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ) صالح الأعمال على إطلاق معنى الصالحات والنافعات للناس، كل حسب قدرته وطاقته وخبرته وتجربته، بشرط الإيمان (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) بربه ورسله ورسالاته، فإنه في أمن وأمان من أهوال هذا اليوم الرهيب الحاسم (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) فلا يخاف من الحساب (ظُلْمًا) بأن يحمل عليه زيادة سيئاته وسيئات غيره (وَلَا هَضْمًا) ولا بخساً ولا يخاف أن ينقصه حسناته وثوابها كقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ^{الأنعام/١٦٤}، بل سيجد الجزاء العادل الحسن لما عمل، ويوفى أجره كاملاً ويضاعفه له ﴿وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ^{الكهف/٤٩} الظلم : اعتداء على الفرد أو على المجتمع، بأي شكل من الأشكال، والهضم : البخس والنقص كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ^{للحل/٩٧}، وقوله (إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ^{الزمر/١٠}، فائدة: فإذا كان العمل الصالح النافع للناس من غير المؤمن، فإنه لا يعمل لله وإنما يعمل للدنيا، فيأخذ أجره فيها ذكراً حسناً، وشهرةً وتحليداً للذكراه ويمدحه الناس، عن الإمام الصادق (ع) قال الله تعالى (أنا خير شريك، من أشرك في عمله لن أقبله إلا ما كان لي خالصاً) تفسير نور الثقلين ٣/٣١٧ كقوله (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) ^{الكهف/١١٠} وقوله (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) ^{الليل/١٩-٢٠}.

١١٣ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

(وَكَذَٰلِكَ) عطف على الآية ٩٩ (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) أي كما أنزلنا ما ذكر من الوعيد والوعد وأحوال يوم القيامة وأهوالها المعنى: (وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) كذلك أنزلنا القرآن الكريم منهج حياة للإنسان، ودستور حضاري نموذجي متقدم، بأسلوب بلاغي عربي مبين

وفصيح ومُيسَّر، عالي المضامين، ليتفهّمه العرب الذين نزل عليهم، ويتدبّره الناس كافة كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ سيا / ٢٨، ويستقيموا على هداه ويقفوا على إعجازه ويسعدوا بالعمل بمحتواه، فإنه يهديهم للتي هي أقوم في دنياهم وآخرتهم (أَنْزَلْنَاهُ) الإنزال من مكان عالٍ، أي تعالوا واعلّوا وخذوا منه حكيم من الأعلى لا من أهل الأرض (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) وَصَرَّفْنَا: وَضَحْنَا بأساليب مختلفة، وذكّرنا وكزّرنا وخوّفنا في القرآن بذكر أنواع المشاهد من الوعيد والتهديد، وكذلك كررنا الأساليب لاختلاف الأمزجة لعلّها تعي النص القرآني وتتأثر به وتستقيم، كقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ الإسراء/٤١.

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) لعله يتحرك في مشاعرهم، ويحيي في نفوس الناس شعور التقوى كقوله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/ ١٩٧.

(مَنْ أَتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ) (أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا) أو يحدث لهم القرآن (ذِكْرًا) علماً نافعاً وموعظة حسنة تمنعهم من معاداة الحق وتبعدهم عن الضلال والمعاصي والفساد (أو) يتولّد لهم تذكراً وإحساساً ذاتياً وإحياء مشاعر وضمائر، من شأنه أن يبعدهم عن الضلال، فيستذوقوا الإيمان وتصلح نفوسهم التقوى، وهذا هو (الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ) الذي هو أفضل حصانة وخير صيانة، فيكون الورع كالحصن الحصين الأمين المنيع الحافظ وخير قرين، في غرر الحكم (سَبَبُ صَلَاحِ النَّفْسِ الْوَرَعُ) وإذا أذنبوا يتوبوا بسرعة، أما الذين لا يحرّك مشاعرهم القرآن، فهم القاسية قلوبهم من كثرة ذنوبهم، وهم الخاسرون ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الزمر/ ١٥٠.

فائدة: ١- سؤال: لماذا نزل القرآن بلغة العرب وهو ذكّر للعالمين؟ الجواب: أي لغة وسيلة تفاهم، نحن نؤمن بالتوراة والانجيل ولغتهما غير العربية، لأن اللغة وسيلة والمعاني هي الغاية، فاللغة هي المتغيّر والمعاني هي الثابتة، كما أن القوميات متغيرة كتغير اللغات، أما المعاني فهي المقصود من الانتفاع منها بين جميع الناس، فالمعاني لا قومية لها ولا جنسية وبأية لغة كانت. وإذا لم يرسل الله النبي بلغة قومه فبأية لغة يخاطبهم؟ كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم / ٤ في غرر الحكم (لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ، وَانظُرْ إِلَى مَا قَالَ).

١١٤ - ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (فَتَعَالَى اللَّهُ) تفاعل من علو، وتسامي من رفعة، فتعالى بذاته، وتعالى بصفاته، وتعالى بأفعاله، ويعلّو غيره.

وليست مرتبة شريفة إلاّ والله الحق تعالى في أعلى الدرجات منها وأرفعها، أي جلّ الله وعلا وتقدّس (فَتَعَالَى اللَّهُ) علا قدره ارتفاعاً لا يوصل إليه، تعالَى ذاتاً وصفاتاً، كلمة تعالَى وتبارك لا تقال إلاّ لله، ومثلها (سبحان الله) التعالَى في البشر ممقوت، أما تعالَى الله سبحانه فهو لمصلحة

الخلق (الْمَلِكُ الْحَقُّ) الملك الثابت الذي لا يتغيَّر ﴿وَالِي اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة/٢١٠ الذي قهر سلطانه كل جبار متكبر، وارتفع الله بذاته وصفاته عن مماثلة مخلوقاته ومشابقتها، وعن كل مالا يليق بقدسه وهو (الْمَلِكُ الْحَقُّ) الذي تخضع له الوجوه، المالك لكل شيء ملكاً مطلقاً يتصرف في ملكه بالحق والعدل والحكمة والمصلحة (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وَحْيُهُ : إلقاءه وقراءته، إذا أقرأ عليك جبريل القرآن الكريم يا محمد، فلا تتعجل بالقراءة معه، خوفاً أن يفوتك شيء منه كقوله ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ القيامة/١٦ (مَنْ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) يُقْضَى: يتم وينتهي جبريل وحيه كاملاً، بل استمع إليه واصغ واصبر حتى يفرغ من تلاوته، وحينئذٍ تقرأه أنت ولا تحشى النسيان لأنك تحفظه ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ الأعلى / ٦ وقد تكفل الله بحفظ القرآن كقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر / ٦ وقوله ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ الواقعة / ٧٨ مكنون: محفوظ وقوله ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت / ٤٩، فليس بعد القرآن من حقيقة، وليس بعد الله من نهاية.

كقوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ النجم / ٤٢ (وَلَا تَعْجَلْ) (لا) هنا نافية وليست ناهية، أي لا تنسى أبداً، نحن نعلم أن عندك علماً مجملاً بما سيوحى إليك، لكن لا تكتف به واطمح المزيد واطلب من الله علماً جديداً مفيداً بالصبر عليه والإصغاء إليه واستماع باقي الوحي، (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) عِلْمًا: فهماً لإدراك الحقائق وهي غير متناهية، عن النبي(ص) (إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ يُنْفَعُ مَعَ الْعِلْمِ، وَإِنَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَهْلِ) روح البيان ٥ / ٤٣٣، أي سل الله عز وجل وادعه أن يزيدك علماً مع علمك فإن العلم لا حدود له، والعلم تقوم عليه حركة الحياة وتطورها، حتى العبادات تقوم على أساس العلم، كقوله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/٧٦ وعلى قدر العلم تكون العبادة وتنضج الحياة، يقول النبي(ص) (إِذَا أَتَىٰ عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَرْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقْرَبُنِي إِلَى اللَّهِ فَلَا بَارَكَ اللَّهُ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِهِ) نور الثقلين ٣ / ٣٩٨، وَسُئِلَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ (ع) مَنْ أَعْلَمُ النَّاسَ؟ (قَالَ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَىٰ عِلْمِهِ) المصدر السابق وعن النبي(ص) (فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ فَضْلِ الْعِبَادَةِ) المصدر السابق . في غرر الحكم (الْعِلْمُ بَعْزُ الْعَمَلِ وَبَالٍ، أَلْعَمَلُ بَعْزُ عِلْمٍ ضَلَالٍ) وعن النبي(ص) (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع) سنن النسائي ٨ / ٢٥٥ .

١١٥ - ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسْيِهِ وَكَمْ نَجِدُهُ عَزْمًا﴾

وأقسم (لَقَدْ عَهِدْنَا) لقد وصينا آدم أن لا يأكل من الشجرة المنهي عنها (فَنَسِيَ) وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) فترك الوصية عن سهو وبراءة وخطأ غير مُتَعَمِّد، ونسي أمرنا وغفل عنه (فَنَسِيَ) ما أخبره الله به من عداوة إبليس ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ طه / ١١٧ (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) وحزماً وتصميماً وثباتاً ولا قوة إرادة صلبة! عما نهيناه عنه، ولم نجد له القدرة التي يقرر بها أمر

ربه، ويجزي بها وساوس الشيطان الرجيم، وهي تجربة جديدة، بدون خبرة ولا علم، عن الإمام الصادق (ع) (سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ يَنْسَى (فَنَسِيَ)) وفي التعبير عن مخالفة أمر ربه وأكله الشجرة بالنسيان، إشارة إلى لطف الله به ورحمته التي أحاطت به، وكذلك من أخطأ ونسي من ولد آدم لم يصرّ على الخطأ، فالتمس له عذراً وسامحه، لا تردّ الخطأ بالخطأ كقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود / ١١٤ في الحديث: (رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه وما لا يطيقون، وما لا يعلمون وما اضطروا عليه) الكاشف/٦/١٩٢، عن الإمام علي (ع) (عَشْرَةٌ يُورَثَنَّ النَّسِيَانُ: كَثْرَةُ الهمِّ وَالْبَوْلُ فِي المَاءِ الرَّائِدِ وَأَكْلُ التُّفَاحِ الحَامِضِ وَأَكْلُ الكَرْبِزَةِ وَقِرَاءَةُ أَلْوَابِ القُبُورِ وَالنَّظَرُ إِلَى المِصْلُوبِ...) روح البيان/٥/٤٣٤.

١١٦ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله على كثير ممن خلق . بمعنى : واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم وسجود للأمر الإلهي، فامتثلوا الأمر (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى) رفض السجود وعصى أمر ربه، وهذا يبيّن عداوة إبليس لبني آدم، وتكررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر واجتناب النواهي والإستقامة على منهج الله تعالى وأيضاً، تكررت القصص القرآنية، في كل مرة تأتي بلقطات جديدة مهمة لم تُذكر سابقاً، وعند اجتماع هذه اللقطات جميعاً تعطيك القصة كاملة، وتلمّح إلى أسرار سننها، فائدة : إن الله عندما خلق آدم جسداً من طين لم يأمر الملائكة بالسجود له (سجود تحية) ولكن بعد أن نفخ الله فيه من روحه عندئذ قال (اسْجُدُوا لِآدَمَ)، وفي ذلك دلالة : إن قيمة الإنسان وكرامته بروحه قبل جسده، والجسد مجرد وعاء الروح إذن: علينا العناية بالروح، وهذا يحصل بطاعة الله تعالى، الذي أساسه الإيمان والعلم والعمل الصالح، وهي قرة العين واطمئنان القلب وانسراح الصدر كقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد / ٢٨ .

١١٧ - ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَكُنْزُوكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾

نبهنا آدم وَحَدَرْنَا فَقُلْنَا لَهُ إِنَّ إِبْلِيسَ شَدِيدُ العِدَاوَةِ وَالكَرَاهِيَةِ لَكَ وَلزَوْجَتِكَ حَوَاءَ (فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) فَتَشْقَى: فتتعب وجاء بصيغة المفرد، أي لا تطيعاه بوساوسه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان وتتعبان بمسؤولية الحياة الدنيا، إن استمع لوسوسة الشيطان، والخطاب لآدم لأنه قوام على حواء كقوله ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ النساء/٣٤، وإنما اقتصر على شقائه لعدم وجود علاقة بين شقائه وشقائها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام/١٦٤ وإنّ آدم هو الذي يحمل العبء الأكبر في مواجهة الحياة، فائدة: ١- (فَتَشْقَى) فالشقاء والعناء والبلاء بالتعب والسعي، لتحصيل مطالب الدنيا الكثيرة وطلب الرزق الحلال كقوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ البلد / ٤ في مكابدة ومعاناة وقلق وحيرة ومرض وبلاء وألم

وفقدان وتجاوز الحدود واتباع الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء...، وأنت ها هنا في عيش هنيء وحماية من كل بلاء وعناء وشقاء، ويحصل الشقاء من أمر منهي عنه، فيكون البعد عن الله تعالى كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾ الجن/١٧ وقوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء / ٢١٣ .

١١٨ - ١١٩ - ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾

إِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا يَعْرَى جَسَدَكَ أَبَدًا ١١٩ - (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها (وَلَا تَصْحَى) لا يصيبك حرّ الشمس، وهذه وغيرها من الحاجات الضرورية والكمالية تمثل متاعب الإنسان في السعي لتحصيلها، والمراد (وَلَا تَصْحَى) ليس في الجنة أثر من حرارة الشمس حتى تحتاج إلى مسكن يقيه من الحر والبرد، لأن ظلال الجنة ظل ممدود وظليل دائم بلا شمس ولا غيرها مما يسبب الحرارة، فائدة:

١- في الآية دلالة إنَّ في الجنة لا جوع ولا عطش بمعنى: لا تعوّط ولا بول ولا عري ولا شيطان في جنّة الآخرة، أما جنّة آدم التي كان فيها الشيطان فهي جنّة في الدنيا وليست جنّة الآخرة، وليس في الجنة حرّ ولا برد ولا مرض ولا هرم ولا نوم ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار، ولا انجاب ولا تكليف ولا حساب ولا عمل ولا لغو ولا كذب ولا كراهية ولا ضعف ولا خطأ ولا لؤم ولا خبث ولا شر... وبمخالصة: في الجنة الإيجابيات الدائمة بعيداً عن كل السلبيات، لأن الجنة غاية الصالحين، والنار غاية المفرطين. بمعنى: أن أجساد العباد الصالحين في الجنة غير أجسادهم في الدنيا (كذلك أجساد أهل النار) حيث أجساد الدنيا للفناء وأجساد الآخرة للبقاء، فيبقى الشكل والصورة والسيما، ويتغير التركيب الداخلي بما يتناسب مع الخلود، ٢- قرن بين الجوع والعري أولاً، لأن في الجوع ذل الباطن، وفي العري ذل الظاهر، وبين حرّ الباطن وهو العطش، وحرّ الظاهر وهو الضحى ثانياً، وهما علامتان على الفقر .

١٢٠ - ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَابِلَى﴾

الوسوسة : الصوت الخفي المحرّض نحو السوء، الذي يجرك الهوى ويدفع النفس الأمارة بالسوء بطريقة خادعة، ظاهرها يغرّ ويسرّ، وباطنها يضر، المعنى: فألقى الشيطان العدو الشرير نصيحته وخديعته إلى آدم بصيغة الحق المتلبس بالباطل، والصحيح الممزوج بالخطأ، والعسل المخلوط بالسّم! وهذا يستدعي عدم الغفلة من وساوس الشيطان اللعين دائماً (لا تغفل فليس بمغفول عنك) (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَابِلَى) قال يا آدم هل أرشدك إلى شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت، وملكت ملكاً لا يفنى، كان آدم صفحة بيضاء لا يملك تجربة، وليس له خبرة، ولم يعرف خطورة عدوّه الشيطان، وهو يحمل الضعف البشري في حبّ

البقاء في النعيم والرغبة في الملك والجاه، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان الماكر، فنسي العهد، وأقدم على المخطور، وعرض نفسه للخطر كقوله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يس/٦٠-٦١ .

١٢١ - ﴿فَأَكَلْتُمَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ مَرَّةً فَغَوَى﴾

أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاها الله عنها، بإغراء الشيطان وطاعته ومخالفة أمر ربهما (فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا) فتساقط عنهما لباس الجنة فظهرت لهما عورتهمما وكانت مستورة عن أعينهما (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) طَفِقًا : بادرا وأخذًا (يَخْصِفَانِ) يجمعان ويلزقان عليهما من ورق أشجار الجنة ويغطيان بهما عورتهمما ليتسترا حياءً وخجلاً وهما زوجان، وهكذا تفعل الفطرة السليمة، وكفى عن العورة بالسوء لأنها تسوء الإنسان ويستحي عند انكشافها أمام الناس، وأنهما مواضع العفة والحشمة والشرف في جسديهما، وهي بداية تحريك الدوافع الجنسية في كياهما، ولم يقل (فبدت سواتهما) وإنما قال (فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا) مما يبين أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت عندما تجاوزا معاً حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

الطلاق / ١٠

والشجرة المنهي عنها تمثل عنوان المعصية، والذي يرتكب المعصية فسوف تزداد شهوته على عفته، وهواه على هداه، فيستجيب لوسوسة الشيطان ويؤيد هواه ونفسه الأمارة بالسوء ! كقوله (يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا) الأعراف/٢٧ ينزع عنهما لباس الحياء والخجل بعد أن يخلع عنهما اللباس المادي الظاهر الساتر، (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) فَغَوَى : فأنحرف وضلّ ولم يصب الحقيقة، الغي خلاف الرشده والهدى، حيث اغترب آدم بقول عدوه، وضلّ عن مطلوبه الذي هو البقاء في الجنة، المعنى: (وَعَصَى) وخالف آدم أمر ربه عن سهو وبراءة وعصى نصيحته من غير تعمّد، ونسي تحذيره من عداوة الشيطان عن غفلة، وارتكب خلاف الأولى، وتعدّى حدوده فظلم نفسه وخاب سعيه، وقد وصفه بالعصيان والغواية (مع صغر زلته وتبرير خطيئته) وذلك تعظيم لها وزجر عنها ونهي شديد لأولاده من أمثالها، عندما عصى استدرك واستغفر وندم واعتذر، ولا يذكر هذا هنا لتبقى رحمة الله وحدها تسيطر على الجو كقوله (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ) طه/١٢٢ .

فائدة: ١- المعصية فعل مُحَرَّم عن قصد، والزلّة ليست بمعصية لأنها صدرت عن هفوة وغفلة وشبهة، فإطلاق اسم المعصية على الزلة مجازاً لأنه زلّ عن الأفضل، والعصيان إن كان عمداً يسمى ذنباً، وإن كان خطأ يسمى زلّة كقوله ﴿فَأَرْزَلْنَاهَا الشَّيْطَانَ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ البقرة / ٢٦، إنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة كان نهيّاً اختيارياً إرشادياً وليس تكليفاً عبادياً إجبارياً، ٢ - هذا يدل أن اللقمة الحرام سبب لذهاب العفة والحياء وظهور القبائح . (فَأَكَلَا... فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا) هناك علاقة بين المعصية وانكشاف العورة والخجل، فتكون المعصية سبباً

لكشف العورة المعنوية والحسبية، وحرمان الإنسان من سعادته (وَعَصَى... فَعَوَى) كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء / ٢١٣ ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن / ١٧، والعذاب هنا العذاب النفسي، وجفاف الروح، وقسوة القلب. (العورة) : سواة الإنسان وأصلها من العار لما يلحق في ظهورها من العار أي المذمة، لذلك سمي النساء عورة، وسميت العورة سواة لأنها تسوء الإنسان ويستحي عند انكشافها أمام الناس، وسمي مكان قضاء حاجة الإنسان (بالحلاء) لأنه يحتلي بنفسه لإخراج ما يؤذيه، فالمرأة التي تبرز عورتها في الملابس الضيقة أي هناك خلل في تركيبها النفسية والفكرية. وتخالف حياءها وتلوث فطرتها التي فطر الله الناس عليها.

١٢٢ - ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَاتَبَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾

ثُمَّ اجْتَبَاهُ: ثم اصطفاه ربه فقربه إليه ورباه وأدناه (فَقَاتَبَ عَلَيْهِ) وَقَبِلَ تَوْبَتَهُ واختاره للرسالة (وَهَدَى) وهداه إلى التوبة النصوح وفتح له ذكره وشكره، والتمسك بأسباب الطاعة، في غرر الحكم (أَكْرِمَ نَفْسِكَ مَا أَعَانَتْكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ) وهداه إلى ذكره وَقَبِلَ الكلمات الخاصة التي تلقاها منه كقوله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف / ٢٣

١٢٣ - ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

قال الله لآدم وحواء (اهْبِطًا مِنْهَا) هبوطاً معنوياً، هبوط الدرجة والمكانة، وليس هبوطاً مادياً وجسدياً، أي إنزلا من جنة الدنيا التي فيها الرعاية والكرامة الخاصة، إلى الأرض التي فيها السعي والكد والجهد وفيها الشيطان والهوى (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) بعض ذريتكما لبعض عدو، بسبب التحاسد والتباغض وتضارب المصالح، والكسب وطلب الرزق والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات والقدرات والاختصاصات وبدافع الهوى والشيطان (اهْبِطًا) إنزلا وأنتما عدو لإبليس اللعين، وإبليس عدوكما وعدو ذريتكما (فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُم مِّنِّي هُدًى) فإن جاءكم من جهتي الرسل والرسالات والشرائع لهدايتكم، وهدى الله سبحانه أن تعمل لآخرتك ودينك، وتكف عن الناس أذاك كقوله ﴿مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران / ١٠١، (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي ورسالاتي وكتبي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، فائدة: ١ - عن النبي (ص) (مَنْ اتَّبَعَ كِتَابَ اللَّهِ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى (وعصمه) مِنْ الضلالَةِ فِي الدُّنْيَا، وَوَقَّاهُ سُوءَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) المراعي / ١٦، ١٦١، ٢ - وفي آية أخرى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة / ٣٨، الشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة نفسية وهموم حسبية، إنها شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه وتبعات تلحقه ولو بعد حين، وما يضل الإنسان عن هدى الله

إلاً ويتخبط في القلق والحيرة والأرق، ومن اتبع هدى الله فهو الهدى، وهو في نجاة من الضلال والشقاء في الأرض، كقوله (إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) البقرة/١٢٠، عن ابن عباس (أَجَارَ اللَّهُ تَابِعَ الْقُرْآنَ مَنْ أُنْ يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا أَوْ يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ)) المصدر السابق .

١٢٤ - ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَخُسْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

الضنك : الضيق النفسي والقلق والأرق ومعاناة الكآبة، فلا طمأنينة ولا انشراح ل صدره لأن حياته مقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ويستوي في ذلك الرجال والنساء والأغنياء والفقراء، بل صدره ضيق حرج لضلاله! وإن تنعم ظاهره بالثراء ولبس ماشاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فهو في حيرة وشك وتردد فهذا من ضنك المعيشة المعنوي. **المعنى**: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي) ومن توجه إلى الحياة المادية البعيدة عن منهج الله تعالى، هي الحياة البعيدة عن الحق والعدل والقرآن والهدى والاستقامة (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) معيشة ضيقة نفسية في مضمونها وإن اتسع مظهرها، فظاهر حياته تعتر وتسر وتمر وباطنها يضر! فهي ضيقة ضائعة حتى ولو رأى نفسه، ورآه الناس في مجبوحة ورفاهية العيش وسعته لأن الأمور بخواتيمها، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ!، فهو يسعى لتحقيق رغباته الدنيوية التي لا حدود لها، فكلما حقق أمنية أراد غيرها، وهكذا ينتهي عمره وهو في دوامة من الهموم والغموم من الآلام والأمراض أو الفقر أو خيبة سعي أو فراق حبيب، فهو في سعي متواصل نحو التكاثر كقوله ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ التكاثر/١-٢، كقوله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة/٥٥، عن الإمام علي(ع) (مَا قَالَ النَّاسُ طُوبَى لَشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ حَبَّأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سُوءٍ)! **روي**: (الْقُلُوبُ اللَّاهِيَةُ هِيَ الَّتِي أَعْرَضَتْ عَن حُبِّ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ حُبَّ غَيْرِهِ)

فائدة: ١- (مَعِيشَةٌ ضَنْكاً) الحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ليست حياة سعيدة نامية زاكية وإنما هي حياة عكرة منغصة تُهدر فيها الحياة!، حياة عناء وبلاء وشحناء وبغضاء، حياة مهما يكن فيها من سعة ومتاع ورفاه، إنه الضنك والانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان بذكره ومحماه، ضنك الحرص والحذر، الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل مايفوت، ولا يستقر القلب إلا في رحاب الله تعالى عن الإمام الصادق (ع) (الْقَلْبُ حَرَمُ اللَّهِ، فَلَا تَسْكُنُ حَرَمَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ) البحار ٧٠ص ٢٥٠ وبطمأنينة القلب ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد / ٢٨ فتضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه سبحانه شقاء وعناء ومضاعفة بلاء، لأنه يفصل عن النظام الكوني العام، فكل الكائنات تنتظم في تسييح الله في وحدة واحدة موحدة متحدة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الاسراء / ٤٤ . الذي يُعرض عن ذكر الله وطاعته فإنه يخرج عن النظام

العام للكون والكائنات، التي كلها خاضعة لأمر الله، وهو يشد عنها ويقبل أن يكون مع الشواذ، كالشيطان الرجيم وهواه ونفسه الأثارة بالسوء فيعيش الضنك.

كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣.

ومن مصاديق الإعراض عن ذكر الله : ترك الصلاة والصيام والحج والزكاة وعدم الولاء والوفاء لأهل بيت النبوة (ع) وكافة العبادات (وَحَشْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (أَعْمَى): العمى الحسي، أي فوق عذاب الضنك نحشره للحساب يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة مع الإهانة والعذاب المهين كقوله ﴿وَحَشْرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الإسراء / ٩٧، حتى يكون الجزاء من جنس العمل، عن الإمام علي(ع) (مَنْ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَعْرِفْهُ فِي الآخِرَةِ) فهو أعمى، لأنه في الحياة الدنيا لم ير إلا ذاته ومنافعه الشخصية، وشّر الناس من عاش لذاته، ومن عاش لذاته عاش لذاته، وأخسر الناس من عاش للذاته، عن النبي(ص) (مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ) الكافي ٢ / ١٦٣، عن النبي(ص) (مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى فَيَقُولُ يَا رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى...)) وسائل الشيعة ٦ / ١٨٤.

١٢٥ - ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾

قال رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً؟ لأنه لم ير إلا ذاته ومنافعه الشخصية، وأعرض عن الحكيم والمواعظ وهجر القرآن والسنة الشريفة، لقد أسرف في انفاق بصره في الدنيا في الأماكن التي نهى الله عنها، وحذر من خطورتها ولم يراع حكم الله، ولم يبصر من آياته شيئاً، فلا شك إنه كان أعمى البصيرة كقوله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج / ٤٦، فيحشر يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة، في مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، وقد يحشر في مشهد آخر بصيراً ليرى جهنم وأهوالها .

١٢٦ - ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَمَا نَسَىٰ الْيَوْمُ نَسِيًّا﴾

قال الله تعالى له لقد أتتك آياتنا واضحة جلية (فَنَسِيَتْهَا) فتعاميت عنها وتركتها (وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ نَسِيَ) وكذلك تترك اليوم في العمى والعذاب المتناسب مع عملك القبيح ! وتعتبر كأنك منسي، وتكون العقوبة على قدر الجناية، ومن ضاق عليه الرحمن، فيسعه الشيطان، وليس المراد هنا نسيان الأعمى كلمات القرآن وآياته اللفظية، بل المراد عدم العمل بموجبها وهجرانها، فيكون الجزاء من جنس العمل، فمن ساء عمله في الدنيا ساء مصيره في الآخرة، فمن أعرض عن آيات الله ومنهجه المستقيم (فَنَسِيَتْهَا) أو تناسيتها وأغفلتها كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينسك من رحمته سبحانه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة / ٦٧ من رحمته ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر/ ١٩.

١٢٧ - ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾

إنه تناسق في التعبير القرآني، والتصوير يحرك الضمير، الإسراف: معنى عام، مجاوزة الحد من كل فعل يفعله الإنسان، واشتهر الإسراف في الانفاق، ويتعمم في كل طغيان كالانغماس في الشهوات والتمرد على الحق والاعتداء على حقوق الناس، والتحريف بالدين بالفتاوى والآراء المبتدعة الفاسدة، وهكذا مَنْ أعرض عن ذكر ربه فقد أسرف، وفقد التوازن والاعتدال في الفكر والسلوك مع ربه ومع نفسه ومع الناس. في غرر الحكم (وَيْحُ الْمُسْرِفِ مَا أَبْعَدَهُ عَنِ إِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَاسْتِدْرَاكِ أَمْرِهِ)، المعنى: (وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ) ومثل ذلك الجراء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله (نُجْزِي) نعاقب من أسرف على نفسه بالانهماك في الشهوات، ولم يصدق بكلام ربه وآياته البينات، فنجعل له معيشة نفسية ضنكاً، أو إنه يؤمن بدين الله بالقول ولكنه لا يلتزم بالعمل (وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) ولعذاب جهنم أشد من عذاب الدنيا، لأن عذابها أدم وأشد وأشمل وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي. عن النبي (ص) (أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ) .

١٢٨ - ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَسْتُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَأُولِي الْأُولِي اللَّهُ﴾
الهمزة للإنكار والتوبيخ، أفلم (يَهْدِ لَهُمْ) يتبين لهؤلاء الكفار الذين كذبوك - يا مُحَمَّد - كم أهلكنا قبلهم (مِنَ الْقُرُونِ) من الأمم الماضية التي كذبت رسلهم وهم الآن (يَمشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ) يمرون ولا يرون مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم لظلمهم وهم في أمن، أفلا يتعظون؟ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ) النَّهْيُ: العقول السليمة التي تنهى عن الخطأ والحرام والباطل والهوى، والناهية عن الفحشاء والمنكر والسوء والأنا، والجهل والتجاهل والغفلة والتغافل والتعامي، أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة (لآيَاتٍ) لدلالات واضحة الهداية وعبراً وعظات (لأُولِي النَّهْيِ) لذوي النفوس الأبية المنفتحة على الواقع، ولأصحاب العقول الراجحة، والدين القويم الذي ينهاهم عن الضلال، ويؤتبهم عقلهم السليم من اعتراف كل مايضربهم. و(الَّذِي لَا يَعْتَرِ بِالْمَاضِينَ كَانَ عِبْرَةً لِّلْبَاقِينَ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِتَجَارِبِ غَيْرِهِ، وَمَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقَلَّ الْمُعْتَبِرِينَ)، عن النبي (ص) (أَغْفَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَّعَظْ بِتَغْيِيرِ الدُّنْيَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ) البحار ٧٧/١١٢.

١٢٩ - ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرِجَالِنَا وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾
(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) قضاء سبق (مِنَ رَبِّكَ) بتأخر العذاب إلى يوم القيامة لحكمة عليا (وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) معطوف على كلمة لولا، أي لولا الكلمة، ولولا الأجل المقدر لأعمارهم أمهلهم إليه (لَكَانَ لِرِجَالِنَا) لازماً لا يتأخر عنهم، لكان عذابهم لازماً لهم في الحال، بمجرد الإسراف في الفساد والكفر حلَّ بهم كما حلَّ الهلاك في الأمم الماضية، وإذا تقرر أن يعاقب جميع المجرمين فوراً، فسوف لا يبقى أحد حياً على وجه الأرض كقوله ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^{الحل/٦١} (أو المعنى) : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ) ولولا

قضاء الله بأن يؤجل عقاب الكفار إلى الآخرة، باستثناء الكفار الذين يبعث إليهم رسولاً، فإن الله يقضي بينهم بالقسط في الدنيا قبل الآخرة وهم لا يظلمون.

١٣٠ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

وإذا كان من قضاء الله أن يؤخر عذابهم ولا يعاجلهم بالانتقام السريع على ما يقولون، وهم مهملين لا مهملين (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) فما عليك إلا أن تصبر راضياً بقضاء ربك وصابراً على ما يؤذونك به كقوله ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ فاطر / ٨ (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وصلِّ لربك بالحمد له وسبحه وعظمه في كل الأوقات، ونزهه من كل نقص ومن كل شرك واعبده حقَّ عبادته، وتوكل عليه وتوَرَّع عن محارمه وتوجَّه إليه وحده (فَمَنْ تَوَجَّهَ إِلَىٰ وَجْهِ وَاحِدٍ يَكْفِيهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا) عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) البحار ١٥١/٢١، (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) يعني صلاة الفجر (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) يعني صلاتي الظهر والعصر (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ) آناء : ساعات، بمعنى بعض ساعاته، أي صلاتي المغرب والعشاء مع صلاة الليل بالقدر الممكن (فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) يعني صلاة الظهر، والصلوات المستحبة والأدعية، أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره، بمعنى أن تكون بارتباط دائم في كل حال مع الله عزوجل، الآية إشارة إلى الصلوات الخمس : والمقصود المداومة على ذكر الله وطاعته على مدار اليوم حتى لا تغفل عن وساوس الشيطان، وقد ربط التسبيح بالزمان المناسب، ليعلمنا أن هناك علاقة موضوعية متوافقة بين حركة السنن الإنسانية مع حركة السنن الكونية، وبهذا التناسق يحصل اطمئنان القلب وانسراح الصدر.

(لَعَلَّكَ تَرْضَى) لعلك تعطى ما يرضيك من النصر وإعزاز الدين في الدنيا، والشفاعة والجنة في درجاتها الرفيعة، كل من أرضى الله في الدنيا أرضاه الله في الآخرة كقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ المجادلة / ٢٢ قال (لَعَلَّكَ تَرْضَى) ولم يقل (لعلَّ الله يرضى) ويحصل لك هذا الرضا، حين تحقق رضا الله فيرضيك الله تعالى كقوله ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة/ ٧٢ فإن إدامة ذكر الله بالتسبيح والتحميد يورث الرضا على إطلاقه، الرضا بقضاء الله، وتنال ما عند الله تعالى ما ترضى به نفسك ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى/ ٥، فائدة: ١- ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/ ٤٥ ذِكْرُ اللَّهِ: حياة النفوس وشفاء القلوب، ونور العقول وجلاء الصدور، فهو يرفع الدرجات ويُنفي الغفلات ويقضي الحاجات ويطرد الشيطان ويهدِّب الهوى والأنا والطبائع والعادات كقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد / ٢٨ .

١٣١ - ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُ بَازِعًا مِنْهُمْ نَهْمًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَقَدْ تَجَهَّدَ فِيهِ وَمِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ : مدُّ العينين كناية تشبيهية جميلة، واستعارة فنيّة بلاغية عن حياة الرفاهية في دنيا الكفار، العينُ لا تُمدُّ كحديقة، والعينُ لا تخرج من مكانها، وإنما الذي يُمدُّ هو عملها في النظر، وتركيز البصر، ودقة الرؤية، وعمق الدلالة، نهي يُراد به النصيحة والإرشاد، لا تحزن ولا تهتم ولا تطيل النظر رغبة واستحساناً،

أَزْوَاجاً : أشكلاً وأشبهاً وأصنافاً من الكفار (أي) اتجه إلى ربك وحده بالعبادة، لا تهتم ولا تطيل النظر برغبة (إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم) أصنافاً من الكفار، أو أزواجاً من النساء والرجال، فالمرأة كالرجل مبتلاة بنعم الله ومحاسبة عليها، من نعيم الدنيا ولما ترى من غناها وثروتهم سواءً أكانوا مشركين أو يهوداً أو نصارى وغيرهم (زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) زينة الحياة الدنيا من المال والجمال وحسن الحال والجاه والسلطان، إنها نِعْمٌ تطلع كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة، والزهرة سريعة الذبول، التعبير القرآني البليغ يُحرِّك مشاعر المؤمنين، فيُشَبِّهه بكناية مجازية ذات دلالة بعيدة ومفيدة، أن كلَّ زينة الحياة الدنيا ومتاعها، التي لذاتها قصيرة ومسؤولياتها كبيرة وتبعاتها طويلة، فإنها زينة مؤقتة كزينة الزهرة الجميلة المُعْطَرَّة، المؤقتة ثم يذهب جمالها وتذبل وتموت! وهذه النعم المؤقتة زائلة. (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) لنبتليهم ونختبرهم ونستدرجهم بهذا النعيم الخادع حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم، ليظهروا على حقيقتهم وتنكشف معادتهم ويجازيهم الله على سوء أعمالهم كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ وقوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك / ٢ (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وثواب الله وكرمه وعطاؤه لك خير من هذا النعيم الفاني وأدوم كقوله ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين / ٢٦ . عن الإمام الصادق (ع) (يَعِيشُ النَّاسُ بِإِحْسَانِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُونَ بِأَعْمَارِهِمْ، وَيَمُوتُونَ بِدُنُوبِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَمُوتُونَ بِأَجَالِهِمْ) البحار ٥/١٤٠.

فائدة: ١- الخطاب للرسول(ص) والمراد به أمته، ٢- (وَرِزْقُ رَبِّكَ) المادي والمعنوي، من العلم والقرآن ونيعم الآخرة والخلق العظيم وما قسمه الله لك من منزلة ومواهب، (خَيْرٌ) مما متّعهم به في الدنيا، فإنه رزق للنعمة لا للفتنة (وَأَبْقَى)، رزق طيب باقٍ لا يذبل ولا ينقطع ولا يخذ ولا يفتن، ٣- عن الإمام علي(ع) (لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحٌ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شُرْبَةَ مَاءٍ) جمع البيان ٧ / ٧١، وعن الإمام الصادق(ع) (إِيَّاكَ وَأَنْ تَطْمَحَ نَفْسُكَ إِلَى مِنْ فَوْقَكَ ثُمَّ دِكْرُ الْآيَةِ) الكافي ٨ / ١٤٨، المعنى : أن تعمل بالمكن الحلال مع الطموح الدائم نحو الأحسن، ضمن حدود القدرة والاستطاعة كقوله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ..﴾ الحجر/٨٨ - ٤ (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) يصور القرآن بتعبيره المجازي البليغ، وكأنه يقول: لا يأخذك الشكل الحسي الظاهر الذي يسرّ ويعرّ ويمرّ عن المضمون الباطن الذي يضّرّ، ولا يأخذك حُسْنُ الحالِ عَنِ الحائِثَةِ الجيدة والمَالِ، فإن العين تَمُدُّ نظرها وبصَرِّها ووعيتها مع دعم بصيرتها، فلا تشغل بالك بترفهم لأنه زهرة الدنيا التي سرعان ما

تفنى، ومحاسب عليها. وكقوله ﴿ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر / ٨ - قوله (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)

كقوله (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدُنُّ وَاعِيَةً) الحاقة/١٢، أي تحفظها أذن حافظة، يقظة، مدركة، وظيفة الأذن حاسة وأداة للسمع، وهي لا تعي، وليست وظيفتها أن تعي، والذي يعي هو (العقل) ما تسمعه الأذن، والعقل لا يعي إذا لم يصغ، إذن: هناك علاقة بين (الأذن، والعقل، والوعي، والاصغاء) فعبر القرآن عن العقل بالوعي، وعبر عن الوعي بالاصغاء لما يسمع، إنها دعوة قرآنية لتكامل عمل الأذن، والعين، واللسان، مع ضوابط العقل والقلب. وإنها تحذير ونذير أن لا تتجمد حواسنا الرئيسة في زوايا الحسّ المحدودة المادية، بعيدة عن فاعلية العقل والفكر والقلب!

١٣٢ - ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ مِزَانًا نَحْنُ نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ وَالْمَاءِ الْتَوْبَىٰ﴾

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ) كما أمرناك بالصلاة، فأمر أنت أهل بيتك وأسرتك خاصة أمتك الإسلامية عامة بالصلاة، واصبر أنت على أدائها وحافظ على أوقات فضيلتها مع خشوعها وآدابها، وأقمها بشرطها وشروطها، والصبر على إقامة الصلاة ولا تفضل عليها أي عمل من أعمالك (فَقُلْ لِلْعَمَلِ عِنْدِي صَلَاةٌ، وَلَا تَقُلْ لِلصَّلَاةِ عِنْدِي عَمَلٌ!) فالصلاة: هي الصورة المثلى الحية لذكر الله، وهي صلة معنوية بين الإنسان وربه، وهي وسيلة قربى إلى الله تعالى، ومنهج الأنبياء وعنوان الصالحين، وتنبه من الغفلة، وحصن من مكر الشيطان، عن الإمام علي(ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) البحار ٨٤ / ٢٦٤ والصلاة من أول واجبات الإنسان المسلم أن يُحَوَّلَ بيته إلى بيت مسلم وأن يوجّه أهله إلى أداء الفريضة، التي تطهر نفوسهم وتصلهم بالله تعالى وتبعدهم عن الهوى والشيطان والغفلة (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) أمرٌ بالمداومة والمحافظة عليها كقوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة/٢٣٨ والاصطبار: مبالغة الصبر ومضاعفته، لتهذيب طبائع النفس، والمحافظة على إقامة الصلوة في كل الأوقات في الشدة والرخاء، وتحمل أنواع المعاناة تحت ظروف البلاء والعسر، والثبات على الاستقامة، والاستعانة بالصلاة في تحمل هموم الحياة كما كان يقول النبي(ص) (أَرْخْنَا بِهَا يَا بِلَالٍ) أي قم وأدّن ونقيم الصلاة ونستعين بالله بالصلاة من أية معاناة، لتحقيق آثارها التهذيبية في النفس، ثم على أرض الواقع كقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت / ٤٥، وعن النبي(ص) (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) البحار ٨٢/١٩٨.

وهذه التزكية للنفس وتهذيبها في حاجة إلى اصطبار كقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة / ٢٤ لأن الصلاة ليست مجرد حركات وكلمات خالية

من معانٍ وروح ومضمون ومدلول سام، والامتناع عن الفحشاء والمنكر يحتاج إلى إرادة وعلم وجهد وتربية ومحاربة الهوى والشهوات المحرمة (لا نسألك رزقاً) لست مسؤولاً عن رزق أحد لا نكلفك مالاً، بل نكلفك عملاً نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، (نحن نرزقك) ونرزق عيالك.

والمعنى: لا تظن أن الصلاة تمنعك عن العمل من أجل الرزق، فأنت لا ترزق نفسك حتى مع العمل بل (نحن نرزقك) الكثير بالعمل اليسير، وذكر الرزق بعد الأمر بالصلاة للدلالة إلى إن الصلاة المفروضة لا تتعارض مع الرزق، لأنها لا تستغرق سوى دقائق معدودات، ولها مردودات أخلاقية تربوية إيجابية كثيرة، (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) والعاقبة الحميدة لأهل التقوى، أي لمن اتقى معاصي الله في السر والعلانية ﴿وَاللَّهُ وَبِئْسَ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية / ١٩ (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ). **فائدة: ١-** (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) إسناد العاقبة إلى التقوى لا إلى الأعمال الصالحة، إشارة إلى أن الأعمال الصالحة هي وسائل شريفة إلى غاية صالحة، والغاية هي (التقوى) وهي ثمرة الإيمان والأعمال الصالحة وهي وصية الله سبحانه لعباده، كقوله (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) النساء/ ١٣١، في غرر الحكم (التقوى: مُنْتَهَى رِضَا اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَاجَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ) وقرنت التقوى بالورع، في غرر الحكم (الْوَرَعُ أَسَاسُ التَّقْوَى).

١٣٣ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا يَا مَعْزِبَةَ اللَّهِ أَلَمَّا لَمْ يَأْتِنَا مِنْ رَبِّهِ أَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَاتٌ مِمَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾

قال المشركون (لولا) هلاً يأتينا بمعجزة خارقة تدل على صدقه غير هذا القرآن؟ (أولم تأتهم بيئته ما في الصحف الأولى) الاستفهام للتوبيخ والإنكار، أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد(ص) فهو بيئته البينات ومعجزة المعجزات، وقمة القمم، ونعمة النعم، المحتوي على أخبار الأمم الماضية، والقرآن الكريم هو أم الآيات، وأنفع المعجزات، وكنز السماء لأهل الأرض، وخلاصة رسالات الأنبياء، فالعلم القرآني أجل العلوم وأعلها في الحياة الدنيا، فبه تنال السعادة الأبدية، ولا حاجة إلى معجزة بعده، لأن فيه من العقائد والأحكام والأخلاق والعلوم والقصص وكشف عن سنن وقوانين الحياة، كقوله (بَيِّنَاتٌ لِكُلِّ شَيْءٍ) النحل/ ٨٩، وفيه (وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ) يوسف/ ١١١ و(مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) الأنعام/ ٣٨ عن النبي (ص) (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوْلِيَيْنِ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر ٢٤٥٤، يُتَوَرَّ: يَتَعَمَّقُ، يَتَدَبَّرُ، وفي القرآن خلاصة (ما في الصحف الأولى) أي ما في الكتب المتقدمة السماوية وزيادة متكاملة، فإن القرآن مهيمن عليها كقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/ ٤٨ وقوله ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً﴾ فصلت/ ٤٤.

١٣٤ - ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ لَكُنَّا مِنْكُمْ بَعْدَ مِمَّا نَقُولُ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا قَدْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ لَقَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَحْنُ الْمُحْسِنِينَ﴾

لو أن الله سبحانه عاقب المكذبين في الدنيا قبل أن يرسل إليهم رسولاً وينزل عليهم قرآناً (لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً) لقالوا يوم القيامة ياربنا (لولا) أرسلت إلينا رسولاً حتى تؤمن به

وتتبعه. (فَتَنَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى) فنتمسك بآياتك قبل أن نذل بالعذاب (وَنُخْزَى) أي ونفتضح على رؤوس الأشهاد في الدار الآخرة. فائدة: قطع الله تعالى كل عذر يتعللون به بما أراهم من آياته في أنفسهم وفي الآفاق وفي الكتب وعلى السنة الرسل، ومع ذلك جحدوا وعاندوا كقوله (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) الشعراء/٢٠١، وقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ غافر/ ٨٥

١٣٥ - ﴿قُلْ كُلُّ مَرْصَدٍ فَتَرْصُؤًا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾

(كُلُّ مُتَرَبِّصٍ) قل لهم يا محمد قطعاً للجدال، كل المؤمنين والكافرين (مُتَرَبِّصٍ) منتظر دوائر الزمان ومكر الأيام، وكل ما هو آتٍ قريب، ولمن يكون النصر والفلاح وما يؤول إليه الأمر في النهاية (فَتَرْصُؤًا) أمر تهديد، أي فانتظروا العاقبة والنتيجة، والمفاجأة والمُخْبِأة، فمهلاً مهلاً لا تطش جهلاً (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) وبهذه الجملة القاطعة العميقة المعنى ينتهي نزاع القوم العنوديين.

أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الحق (الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) والطريق المستقيم، ومن هو الحق الرابع غداً، نحن أم أنتم كقوله ﴿قُلْ انتظروا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ الأنعام / ١٥٨ (وَمَنْ اهْتَدَى) فستعلمون مَنْ اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد، ومن بقي على الضلال وطريق الفساد، ولكن ستعلمون الحقيقة بعد فوات الأوان وتندمون ولكن لا ينفعهم الندم كقوله ﴿فَتَضْحَكُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات/٦، عن النبي(ص) (شَرُّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧ / ١١٥ .

وآخر دعوانا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الحاشية / ٢٠

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّر) لسورة طه، بقدرتي لا بقدرها، بحمد الله تعالى، وبالحمد تَتِمُّ الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات، بجهد متواصل، في ٢٣/١٠/٢٠١٧ المصادف ١٢/ذي الحجة/١٤٣٨هـ، في الكاظمية، العراق ، داعين الله تعالى أن يُعيننا لتكملة ما تبقى من السور القرآنية الكريمة ، إنَّ ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

مكية، تعالج موضوع العقيدة، والقيامة وأهوالها، ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة وعن الحساب والجزاء، وقد شغلتهم مغريات الحياة الدنيا، وتحدثت عن المكذبيين حتى إذا فاجأهم العذاب رفعوا أصواتهم بالاستغاثة، وتناولات دلائل القدرة في الآفاق والأنفس، وأن

السنن الكونية لها علاقة بالسنن الإنسانية، وتحدثت عن قصة إبراهيم (ع) وفيها العبر والمواظ، وتحدثت عن عدة أنبياء بإيجاز مع بيان الشدائد التي تعرّضوا لها، وسميت (سورة الأنبياء) لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من قصص الأنبياء الكرام في استعراض سريع، رقمها ٢١، عدد آياتها ١١٢، الجزء السابع عشر. **فضلها** : عن النبي (ص) (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ حَاسِبَهُ اللَّهُ حِسَابًا يَسِيرًا وَصَافَحَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ). تفسير نور الثقلين ٣ ص ٤١٢

ملاحظة : هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

مطلع السورة قوّي يحرّك النفوس ويهزّ الغافلين هزّاً، أي قرب ودنا وقت حساب عموم الناس على ضوء أعمالهم وآجالهم، وقد أخذت الغفلة الجميع، وقلة التحفّظ والتيقّظ، وصف الحساب بالقرب (اقترب) لأنه (كل مقدر كائن، وكل كائن آت، وكل آت قريب، وكل قريب كاد أن يكون كقولهم ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وقوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ العارح ٦-٧، عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٣/ ٢٢، وهي القيامة الفردية الخاصة في البرزخ بعد الموت مباشرة، فيكون القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وهو أول عدل الآخرة، وهناك قيامة جماعية عامة كبرى وهي الموعودة، عن الإمام علي (ع) (مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَإِنَّهُ يَسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا، وَيَقْطَعُ الْمِسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا) في نهج البلاغة، وفيه أيضاً حكم ٧٤ (نَفْسُ الْمَرْءِ حُطَّاهُ إِلَى أَجَلِهِ) (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وهم في غفلة عما يراد بهم، في غفلة عميقة، والغفلة تؤدي إلى الإعراض عن الله تعالى وهم مستغرقون في متاع الدنيا وشهواتها، كأنهم للدنيا خلقوا ولتمتع بها ولدوا، وهم غافلون عن ذلك اليوم الحاسم الرهيب، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل: (النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ، وَرُحَى الْمَيِّتَةِ تَطْحَنُ) (لَا تَعْقَلُ فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنْكَ) في غرر الحكم (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحس)، وغلبة الضلالة كقوله ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف / ٢٠٥، ويبقى (المعاد إلى يوم القيامة) هو الحقيقة المتألّمة الثابتة في نفوس المؤمنين الصالحين في جميع الأديان السماوية، وإن غفل عنها الناس، فإن الغفلة لا تغير من الحقيقة شيئاً، كقوله (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) ق/ ٢٢.

في غرر الحكم (ويل لمن غلبت عليه الغفلة فنسى الرحلة ولم يستعد) في المهلة إلى لقاء الله. والغافلون لا يحميهم منهج الله ولا يعفو عنهم، كما أن القانون الوضعي لا يحمي المغفلين عنه، في غرر الحكم (لِلْمُتَّقِي: هُدًى فِي رَشَادٍ، وَتُخْرِجُ عَنْ فَسَادٍ، وَحِرْصٌ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) من الخطأ الكبير أن

تتعامل مع القضايا الكبرى بجهل، ومع الحقيقة بغفلة، فالمعاد هو الموقف الفصل الذي لا هزل فيه، ولكنهم لا يشعرون خطورتها! وهكذا شأن من أخذته بطنه على فكره، وفضل شهوته على عقلانيته، فقد عرض نفسه للحرمان والخذلان، وعانى مرارة الخسران، ولو بعد حين كقوله ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٢، فائدة: ١- تشير الآية إلى أن الحساب والجزاء حقيقة لا ريب فيها ولا بد منها، وهي التي تعطي للحياة معناها ومغزاها، ٢- (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) أي الحساب هو الذي يتحرك ويقترّب من الناس (وَكُلٌّ آتٍ قَرِيبٌ) ولكنهم مستغرقون في العفلة عن الحساب، ولم يقل (اقْتَرَبَ النَّاسُ إِلَى حِسَابِهِمْ) فهنا يكون الناس هم الذين يقترّبون من الحساب بالاستعداد له، ٣- (اقْتَرَبَ) يعبر بالماضي ليدل على أن ذلك أمر لازم التحقق كقوله ﴿آتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الحل/١، ويعلمنا ذلك أن نعالج الأخطاء ونمهد الطريق إلى الله تعالى، كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، وقوله (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ) الروم/٤٤، عن الإمام علي(ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) تنبيه الخواطر ص ٤٦١، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (مِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الرَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ).

٢ - ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(مُحَدَّثٍ) : جديد، أي فيّة طرح الأساليب الحوارية العلمية الحديثة المحركة للمشاعر، من شأن هؤلاء الغافلين، تطرق أسماعهم دعوات موقظة (ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ) من القرآن أو الهداية العلمية المتنوعة والمتابعة والمجددة والمعاصرة والحديثة الناهضة للنفوس والمحركة للمشاعر، (مُحَدَّثٍ) التجديد في الحياة وفي الرؤى، وفي الأساليب والحجج والبراهين والعادات والتقاليد، تجيئهم من كل جانب، وتطلع عليهم من كل أفق ليؤمنوا بحقيقة المعاد، ومع هذا فهم على ما هم عليه مستغرقون في غفلة وهو ولعب وعبث.

والذكر المحدث: هو ما يتنزّل عن آيات الله في القرآن أو في الأنفس وفي الآفاق ذات الدلالات، حالاً بعد حال ويتجدد زمناً بعد زمن، وهؤلاء المشركون عصاة غافلون ساذجون ساهون (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يَلْعَبُونَ : أي غير قاصدين الجد واللامبالين، أي كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل، فهم يستقبلون الحق بالتكذيب، والنصيحة بالسخرية، والتحذير من العواقب بالاستخفاف، لأنهم أعداء التطور والحداثة والتجديد والمعاصرة وإن كان هذا التجديد هو الأفضل والأكمل، وأنصار الجمود والجحود والتكسّس وألفة عادات الآباء والأجداد، وإن كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون كقوله ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا هَوًى وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأنعام / ٧٠ في غرر الحكم (مَنْ كَرُمَتْ نَفْسُهُ قَلَّ شَقَافُهُ وَخِلَافُهُ!) عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِحْتَجَّ

عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَمَا عَرَّفَهُمْ) الكافي ١/١٦٣ كقوله (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِيزَانٌ دَقِيقٌ: فَمَنْ وَفَى، إِسْتَوْفَى) فائدة: ١- (الذكر المحدث): الإنجيل ذكر جديد (محدث) بالنسبة للتوراة، والقرآن ذكر جديد (محدث) بالنسبة للتوراة والإنجيل، وسور القرآن وآياته ذكر جديد (محدث) أتى بعضها بعد بعض، والتطورات العلمية المتنوعة ذكر جديد (محدث) وحديث معاصر (محدث) كلها حجة على تعليم الله للإنسان ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة / ١٥١ ومع هذه الطرق العديدة المحدثّة والمعاصرة والجديدة لا يؤثر الإيمان فيهم لأن قلوبهم قاسية مقفلة!

(مُحَدَّثِ) الحداثة والمعاصرة والتجديد في المنظور القرآني: تصوّر الآية أساليب النجاح الفنيّة المرنة في البلاغ الرسالي ليكون هو الهدف الرئيس الذي ينبغي الوصول إليه، وأولها الانفتاح على الآخر والقدرة على التأثير به واستيعابه، وامتصاص نقاط الاختلاف معه، وكأنه غنيمة ثمينة لا بد من التوافق معها، لذلك ينبغي علينا تبني ثقافة التجديد والحداثة، والاعتماد على أساليب التغيير التربوية المعاصرة، والتعلّم طرح الدلائل العلمية والبراهين القطعية (المحدثة) المحركة للمشاعر والناهضة للنفوس، مع الثبات على العقائد والأحكام والأصول الأساسية، فنعيش المرونة في التعامل والثبات على المبادئ والأخلاق، لذلك طرح القرآن قاعدة (الحداثة) وتجديد الأساليب الفنيّة باستمرار مع تجدد الأيام، لأنها مطلوبة لذاتها، ومطلوبة لغيرها، لشيء أهم منها، وهي التي تكسر الحواجز النفسية وتكشف الحقائق وتقرب النفوس وتوحد الصفوف.

٣ - ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) ذم وزجر للاهية قلوبهم بمتع الدنيا، وللساهية نفوسهم عن كلام الله، غافلة عن تدبّر معناه، ولاهية عن فهم فلسفة الحياة، ولاغية عما يُراد منها، ومعرضة عن الخاتمة وسوء العاقبة، في غرر الحكم (مكروة تُحمد عاقبته، خيرٌ من محبوبٍ تُدُمُّ مَعَبَّتُهُ خاتمته)) والقلب اللاهية: هو المشغول بأحوال الدنيا والغافل عن أحوال العقبي، وليس بمغفول عنه (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) الآية ٢.

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) قَدَّمَ اللعب على اللّهُو، تبيهاً على أنهم أنما قَدِمُوا على اللعب لإعراضهم عن الحق، فاللعب هو السخرية واللامبالاة والاستهزاء نتيجة اللّهُو الذي هو الغفلة عن الحق، والذهول عن التفكير، (وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) التجاوى: التجاوى والتشاور بالسرّ، أي وأخفى الذين ظلموا تحدثهم مع بعضهم حول كيفية مواجهة النبي(ص) والتصدي له ولدعوته الرسالية، وأخذوا يتآمرون عليه خفية، ويحكون الافتراءات والتهم بالسر لصد الناس عنه وعن القرآن، فقد كانوا يخططون لمواجهة النبي ثقافياً وإعلامياً وهي (الحرب الناعمة، الباردة) فقال قائل منهم (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ) من هو مُجَّد حتى يُستمع له ويُطاع؟ لا يختلف عنكم بشيء إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فلو كان يأتيه الوحي كما يدعي لأتاكم أيضاً لأنكم بشر مثله؟ ثم إن

ما يأتيكم به ليس آية ومعجزة من الله كما يزعم، بل هو سحر تعجزون عن مثله (أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) أفقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ فكيف تنقادون لمحمد وفيكم عيون، وأنتم تبصرون؟ فائدة: ١- (وَأَسْرُوا النَّجْوَى) الحديث السري أو الشورى المركزية الخاصة، عن الإمام علي(ع) (اسْتَعِينُوا عَلَيَّ نَجَاحَ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ) شرح النهج ١ / ٣١٦، (مَنْ شَاوَرَ أَصْحَابَ الْعُقُولِ شَارَكَهُمْ عُقُولَهُمْ) ٢- فهم على موت قلوبهم وقسوتها لم يكونوا يملكون أنفسهم أن تتأثر بالقرآن، فكانوا يقاومون تأثيره على تحريك القلوب كقوله ﴿إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الفرقان / ٤٢ ٣- إنها صورة للنفوس الفارغة التي لاتعرف الجدة، فتلهو في أخطر المواقف وأقدسها، ولاتفكر بالمصير والعواقب إنها روح مريضة، ونفوس حمقاء بلهاء! في غرر الحكم (مَنْ اشْتَغَلَ فِي غَيْرِ الْمُهَيَّمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) في الحديث (كُلُّ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمُكَ)!.
٤ - ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قال لهم (ص) ما من نجوى (الأحاديث السرية) أو العلنية في أي مكان وزمان إلا وهو مطلع عليها سبحانه وهو الذي يعلم كل (الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ولا تخفى عليه خافية في كل مكان وزمان (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (السَّمِيعُ) بأقوالكم (الْعَلِيمُ) بأحوالكم، وما من مؤامرة في الخفاء إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها. فائدة: قال (رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ) ولم يقل (رَبِّي يَعْلَمُ السِّرَ) لأن القول يعم السر والجهر على السواء، لا تفاوت فيه بالجلء والخفاء، كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/ ٤ .

٥ - ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ اقْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾ (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) جمع ضغث وهي الحزمة الصغيرة من النباتات المختلفة، شبهت بها الأحلام المختلطة كقوله تعالى في قصة أيوب ﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ ص / ٤٤، حاروا كيف يصفون هذا القرآن وقال آخر: بل أن ما يقوله مُجْدٌ تخاليط (أباطيل) أحلام غير منظمة رآها في المنام فاشتبه عليه الأمر وظنها نبوة فأمره أهون من السحر (بَلْ اقْتَرَاهُ) وقال ثالث: القرآن ليس أحلاماً ولم يشتبه عليه الأمر، بل اختلقه من تلقاء نفسه وافتراه كذباً على الله عامداً وقال رابع: (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) وما أتى به شعر يُخَيَّلُ للسامع أنه كلام رائع، وحكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون قلقون لا يستقرون على شيء (فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ) فإن لم يكن كذلك فليأتنا بمعجزة خارقة محسوسة، كناقية صالح وعصا موسى كما أرسل الأنبياء الأولون حتى نؤمن به، وهذا القول يناقض عقيدتهم لأن الوثنيين ينكرون النبوة أصلاً، وفي ذلك دلالة على تحبطهم وحيرتهم في مواجهة النبي(ص)، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهَدْيُ مَنْ يَعْلِبُهُ الْهَوَى ؟).

٦ - ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَا مَا أَنهَمُ يَوْمُنُونَ﴾

ما صدق قبلُ مشركي مكة أهل قرية من القرى، الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات والمعاجز ومع اتيانها كذبوا فاستحقوا البلاء والهلاك (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) الاستفهام إنكاري، أفيصدق هؤلاء بالآيات لو رأوها؟ كلا، أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال، وطباع هؤلاء كطباع أسلافهم في الاستكبار والعناد، ولكن الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون (سبب النزول) قال أهل مكة للنبي(ص) إن كان ماتقول حقاً ونؤمن بك فحوّل لنا جبل الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال إن شئت كان الذي سألوك قومك وحققناه لهم ولكنه إن لم يؤمنوا لم ينظروا (لم يمهلوا بالعذاب) وإن شئت استأنيت بقومك، قال بل أستأني بقومي أي أستمهلهم وأصبر عليهم، فأنزل الله الآية . والآية وإن نزلت في الكفار والمشركين ولكنها تعم أكثر مدّعي الإسلام في زماننا، فهم شابهوهم في أعمالهم وأفكارهم .

٧ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا جواب لقول المنافقين (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ) الآية ٣، المعنى : لم نرسل قبلك يا محمد إلا رجلاً من البشر لا من الملائكة، ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق ولا يعاشرون الناس، لما كانت هناك علاقة ومجانسة وملائمة بينهم وبين الناس، ولم يكن رسولهم غير بشرٍ ورسول الله كلهم كانوا بشر، فإذا لم يكونوا بشرًا فلم يكونوا مصدر اقتداء، لأنه من جنس غير جنسهم، بينما حياة الرسل قيادة صالحة وقودة حسنة لغيرهم يألفون ويؤلفون كقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب / ٢١ وإن لم يعلموا هذه الحقيقة (فاسألوا أهل الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فاسألوا يا أهل الكتاب وحملة الرسالة من العلماء بالتوراة والانجيل، هل كان الرسل الذين جاءوهم بشرًا أم ملائكة؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك.

فائدة: ١- (أَهْلَ الذِّكْرِ): أهل العلم والاختصاص والوعي وغير محددین بأهل الكتاب (الذِّكْرِ) يطلق على الكتب السماوية، و(أَهْلَ الذِّكْرِ) المحيطون بفقهاء الشريعة والعاملين بكتب الله السماوية والحاملين رسالاته بأمانته، والآية تبين قانوناً عقلياً حركياً عاماً في الرجوع لأية مسألة إلى أهل الاختصاص، وهكذا يرجع المريض الى الطبيب، الجاهل إلى العالم العامل المختص صاحب الخبرة والتجربة في كل شأن من شؤون الحياة (قيمة كل امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته) . عن النبي(ص) (لَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ عِلْمِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) تفسير النور ٥ / ٣٩٥، عن أئمة الهدى(ع) (أَهْلَ الذِّكْرِ) رسول الله(ص) وأهل بيته المسؤولون، تشير الآية إلى أنه تعالى يظهر في كل أمة رجالاً علماء أكفأ مخلصين وهم امتداد الأنبياء يخصهم بوحى الإلهام، ويؤهلهم للقيادة والسيادة كما أظهر النقباء لموسى(ع) والحواريون لعيسى، والأئمة

الهداة لبينا مُحَمَّدٌ (ص)، عن الإمام علي (ع) لما نزلت الآية قال: (نَحْنُ أَهْلُ الدِّكْرِ) كمصداق للآية، ولا يعني الحصر، أهل الذكر: يعني أهل القرآن وحملة الإسلام، كقوله ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرد / ٧ وقوله تعالى ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف / ١٨١ (السُّؤَالُ مِفْتَاحُ الْعِلْمِ) (حُسْنُ السُّؤَالِ مِنْ حُسْنِ الْعَقْلِ) وبهذه الآية استدلل فقهاء الإسلام في جواز تقليد المجتهدين العلماء العاملين، خلفاء الرسل وورثة الأنبياء، كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل / ٤٣ في غرر الحكم (مَنْ أَحْسَنَ السُّؤَالِ عَلِمَ، مَنْ عَلِمَ أَحْسَنَ السُّؤَالِ).

٨ - ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَآ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾

وما جعلنا الأنبياء أجساداً يتحركون لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة، بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ويفرحون ويحزنون وينامون ويموتون . . لا يمتازون عنهم إلا بالتبليغ عن الله بواسطة الوحي، وأنهم أكمل البشر وقدوتهم (وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) لم يخلدوا في الدنيا، فائدة: ١- إنما كان الأنبياء من جنس البشر لأنهم مبعوثون لهم، فتكون الألفة لهم أقرب والتأثر بهم أحسن، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس كقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب / ٢١، كان النبي (ص) خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدى لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياته، وإذا كان الأنبياء من غير البشر فيحصل التنافر والتباغض معهم ويؤدي بالتالي إلى فشل في المهمة الرسالية كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الكهف / ١١٠، عن النبي (ص) (خَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ مَأْلُقُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُؤْلَفُ وَلَا يَأْلَفُ) البحار ٧٥/٢٦٥.

٩ - ﴿نُذِرْ صَفْوَتَهُمُ الْوَعْدَ فَآجِبْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾

ثم أنجزنا لهم ما وعدناهم من النصر (فَآجِبْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ) من المؤمنين ومن آمن معهم من القتل والعذاب (وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) والمتجاوزين للحدود، المعاندين المصيرين على الكفر والفساد والشرك (وَالَّذِي لَا تَلِيقُ بِهِ الْهُدَايَةُ، تَلِيقُ بِهِ الْغَوَايَةُ) .

١٠ - ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

اللام للقسمة، أي والله (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ) أيها الناس (كِتَاباً) عظيماً مجيداً وهو القرآن الكريم لا يماثله كتاب (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) دستور حياتكم ومنهج سعادتكم، وشرفكم وعزكم وخيركم ومجدكم ووعيككم اللائق بكم، وفيه من العلوم المتنوعة ما ترفع من شأنكم ومكانتكم، فهو أفضل منهج إلهي حضاري عالي المضامين يهدي للتي هي أقوم، قابل للتطبيق والرقي في المجتمع البشري إن تمسكتكم به، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أفلا تملكون عقولاً لتؤمنوا به، أفلا تتدبرون القرآن، أفلا تتفكرون بهذه النعمة

فتؤمنون بما جاءكم به مُحَمَّدٌ (ص)؟ (كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) لم يكن العرب قبل مُحَمَّدٍ (ص) والقرآن شيئاً مذكوراً بارزاً مميزاً، وبعدهما أصبحوا مشهورين تذكرهم الأمم وترفع من شأنهم، أفلا تتدبرون ما كنتم عليه من الإهمال، وما صرتم به من الشهرة والهيبة والحضارة بفضل مُحَمَّدٍ (ص) ورسالته العالمية، كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧، لقد حثَّ وَرَعَّبَ القرآن على التدبُّر في آياته بقوله (أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟) (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) في علومه؟ فمن لم يتدبر فكأنه لا عقل له كقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ في غرر الحكم (فَكُرِّ سَاعَةً قَصِيرَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ طَوِيلَةٍ)!

فائدة: معجزة القرآن معجزة مفتوحة التأثير للأجيال، فهو معجزة خارقة تتفجَّر منها المعاجز، وليست كالحوارق المادية المؤقتة التي تنقضي في جيل واحد ضمن نبي واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل. لقد جعل القرآن أصحابه قادة وسادة عندما اعتمدهم، وصاروا أذلاء عندما تركوه فتركهم العزُّ. كقوله ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِّلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْفِقُونَ﴾ الجاثية / ٢٠ وقوله (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ) الأنعام/١٥٥، عن النبي (ص) (القرآن: غنى، لا غنى دونه، ولا فقر بعده) البحار ٩٢ص ١٩ العزيز بغير الله ذليل، فهو داخل تحت قدرة غيره كقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ النساء / ١٣٩ في غرر الحكم (مَنْ عَتَرَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَهْلَكَهُ الْعِزُّ).

١١ - ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

(وَكَمْ) للتكثير قَصَمْنَا : القصم أشد حركات القطع والكسر الذي لا جبر فيه، وجرسها اللفظي يصوِّر معناها وجذرها اللغوي يلقي ظلَّ الشدة والعنف والتحطيم والهلاك على القرى التي كانت ظالمة، أي وكم (قَصَمْنَا) أهلنا من أهل القرى (كانت ظالمة) لنفسها ولغيرها بالإسراف والفساد والكفر وغرهم الحياة الدنيا، فتجاوزوا الحدود والأصول فاستحقوا الهلاك بذنوبهم (وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) وخلقنا أمة أخرى بعدهم ولم يكونوا أمثالهم . ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران / ١٤٠، وهكذا يرث الله الأرض ومن عليها ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف / ١٢٨ في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) في نهج البلاغة خطبة ٣٢ (اتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ).

١٢ - ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ قُتِلْتُمْ إِذَا هُمْ مِنْهَا يُرْسِلُونَ﴾

هذا تصوير واقعي لحال الظالمين (فَلَمَّا أَحْسَبُوا) فلما رأوا (بِأَسْنًا) عذابنا وشعروا به وشاهدوه بحاسة البصر وتيقنوا نزوله (إِذَا هُمْ مِنْهَا يُرْسِلُونَ) إذا هم يهربون منهزمين خائفين إلى كل جهة، محاولين النجاة مسرعين، وهم لا يعلمون أنهم في قبضة الله تعالى، وإذا جاء القدر عمى البصر،

ولكن أين المفر والله الطالب والمعاقب، فهم هاربون منه إليه ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ التكويد/٢٦، في غرر الحكم : (إِذَا خِفتُ الخَالِقُ فَرَزتُ إِلَيْهِ، إِذَا خِفتُ المَخْلُوقُ فَرَزتُ مِنْهُ) (يُدِيرُ المَدِيرُونَ وَالْقَضَاءُ يَصْحَكُ)!.
 ١٣ - ﴿لَا تَرْكُضُوا وَامْرُجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَسَكَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾

ف قيل لهم توبيخاً واستهزاءً إلى أين هاربون (لا تَرْكُضُوا) لا تفرّوا من قربتكم (وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ) وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وترفكم المريح الذي أبطركم وأطغاكم، واعمى قلوبكم (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/٤٦، عن النبي (ص) (شَرَّ العَمَى عَمَى القَلْبِ) البحار/٧٧/١١٤ (وَمَسَاكِينُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) ترجعون إلى مساكينكم الفاخرة وترف الحياة وبهجتها التي كنتم إليها تركنون وكانكم خالدون، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله ﴿ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النِّعَمِ﴾ التكاثر / ٨ (تُسْأَلُونَ) كيف حصلتم على هذا النعيم، وكيف أنفقتموه؟ (لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) وفي هذه الأجواء الرهيبة الحاسمة انتهى وقت السؤال والجواب، إنما هو الاستهزاء والتوبيخ بهؤلاء ! هذا جزاء من ترك الرشد، ولم يعد إلى العقل، وضلّ عن القصد الصحيح كقولهِ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ الأنعام / ٤٤، وهكذا (مَنْ لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) وهكذا الدنيا ظاهرها يسرٌ ويعرٌّ ويمرٌ ولكن باطنها يضرّ، عن الإمام علي(ع) (يصف الدنيا) (من أبصر فيها بصيرته، ومن أبصر إليها أعمته) شرح النهج ٦ / ٢٣٨، لأن الدنيا لم تُخلَقْ لذاتها ولا للذاتِها وإنما خُلِقَتْ لغيرها، خُلِقَتْ للآخرة، خلقت لعالم أفضل منها! عالم الجزاء والبقاء، فتكون الدنيا مزرعة الآخرة فائدة : البقاء الصحيح : إن بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فناءك الذي لا يبقى، لبقاءك الذي لا يفنى!.

١٤ - ﴿تَالْوَالِيَا وَيَلَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

(يَا وَيَلَنَا) كلمة جزع وتَحَسُّرٌ وندم وتَحَوُّفٌ من الهلاك، المعنى : نادوا بالويل والثبور (إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم، بعنادهم وإصرارهم على الفساد ويأسهم من الخلاص بالهروب. عند ذلك يستفيقون فيندمون في وقت لا ينفعهم الندم لقد فات أوانه، فيتحسرون ولكن الحسرات لا ترجع ما قد فات كقولهِ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ الزمر / ٥٦ عن النبي(ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا)! روح البيان ٢ / ١٣٢، (كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا). في غرر الحكم (المَرءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ)

١٥ - ﴿فَمَا نَزَلَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾

فما زالت تلك الكلمات التي قالوها ويكررونها ويرددونها هي (دَعْوَاهُمْ) أي الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم والضلال والخسران والحرمان، وأن الله عادل فيما أحلّ بهم، كقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) الكهف/٥٧، وقوله (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) النحل/١١٨ (حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِئِينَ) حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم (خَامِئِينَ) موتى كالزروع المحصود، ياله من حصيد آدمي! لا يُقَي ولا يذر! حصيد لا حركة فيه ولا حياة، ما أغنى عنهم ترفهم ولا جاههم ولا أموالهم ولا أولادهم، بل تَنَكَّر لهم كُلُّ شَيْءٍ، وخسروا كل شيء، وتلك عاقبة المجرمين (فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبِحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأُخْسِرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟!).

١٦ - ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا) مجرد اللعب والتسلية واللهو، لَاعِبِينَ: أي عبثاً وباطلاً، وإنما خلقناهما وفق الحكمة، وبالحق وللحق ونصرة الحق، وقد أهلكنا تلك القرى بالحق، دلالة على قدرتنا و وحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق، وبالنظام على المنظم، وإتقان الصنع على الصانع المدير المقدر الحكيم العليم، وخلقنا الكون لحكمة بالغة فهل من متدكّر؟ لا لعباً ولا هواً، نظمه بالحق لا جزافاً ولا هوى، وخلق كل شيء لحكم بالغة، للدلالة على جلال ذاته وجمال صفاته وكمال مصنوعاته، كقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل / ٨٨، وهذه الحكم تحقق الجزاء وإقامة العدل وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ﴿وَلْيُحْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية/٢٢ ليجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه كقوله ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ المائدة/٤٨ ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، ولو لم يكن هناك جزاء لكان كل ما خلق لعباً كقوله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون / ١١٥ قيل (إِنَّ الْحَيَاةَ لُعَزُّ مُبْتَهَمٌ لَا يَخْلُهُ شَيْءٌ، لَوْلَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعِبَادَتِهِ) كقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/٥٦، في الحديث القدسي: (يَا ابْنَ آدَمَ: خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، فَلَا تَنْشَغِلْ بِمَا هَوْلَكَ عَمَّنْ أَنْتَ لَه) حواطر الشعراوي ٢ / ١١٢٩ . في الحديث القدسي (لَا تَسْعُنِي لَا أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَإِنَّمَا يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ) مواهب الرحمن ٩/٢١٥، وفيه أيضاً (خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْبِحُوا عَلَيَّ لَا لِأَرْبِحَ عَلَيْهِمْ) روح البيان ٦/١١٢، وفيه أيضاً (كُنْتُ كَثِيراً خَفِيّاً فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرِفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أَعْرِفَ) روح البيان ٦ / ١١٢ .

١٧ - ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا آتِخْدَانَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا) اللّهُو : أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه، للتسلية وقضاء الوقت، وتعالى الله عن ذلك لأنه ينافي كماله المطلق، (لَا تَتَّخِذْنَاهُ) فالله سبحانه لم يرد أن

يَتَّخِذُ لَهْوًا، فلم يكن هناك لهو، لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه، إنما يكون هناك جدّ وحقّ وهدف جليل، فيغلب الحقّ الأصيل الثابت، على تصوّرات الباطل العارض (إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) لم نرد اللهو ابتداءً نوجه إليه إرادتنا أصلاً، فهو منافٍ للحكمة فلم نفعله، والله تعالى ينهى عن اللهو، والمؤمن لا يلهو ولا يلغو ويألف الجد، كقوله (قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ) الجمعة/١١ في غرر الحكم (مَنْ كَثُرَ هَوَاهُ قَلَّ عَقْلُهُ) فإذا كانت هذه صفات المخلوق فكيف تكون صفات الخالق؟! **المعنى** : لأننا لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به (وَهُوَ فَرَضُ الْمُحَالِ) لاتخذناه من ذاتنا ولم نحتاج في ذلك إلى المخلوقات المحتاجة لنا، إن كنا فاعلين ذلك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لأن الهدف من اللعب التسلية، واللهو رفع حاجة من الحاجات أو إكمال نقيصة من النقائص النفسية، وذلك محال على الله تعالى، والجدُّ مطلبنا واللهو واللعب من شأن اللاعين لامن شأن رب العالمين، لذلك لم يخلقنا الله سدى من دون هدى، كقوله ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ القيامة/٣٦، وقوله (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ) آل عمران/١٩١، بل ألقى علينا الحجة الكاملة، ثم يحاسبنا على ما صدر منا ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام/١٤٩ في غرر الحكم (مَا خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ شَيْئًا عَبَثًا فَيَلْهُو، مَا تَرَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْرًا سُدًى فَيَلْعُو).

١٨ - ﴿كُلُّ نَقْدِفٍ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَكُلُّ أُوَيْلٍ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

نَقْدِفٌ : الرمي بشدّة، **يَدْمَغُهُ** : يقمعه ويقهره ويبطله **يُقَال** : دمغه أي أصاب دماغه، أي أصابه في أهم الأعضاء ومركزها وسيدها والمتحكّم فيها فيشلّ حركته ويُلغى وجوده، **زَاهِقٌ** : مضمحل هالك.

المعنى : (بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) والتعبير يرسم هذه السُّنة الحركية المستمرة في صورة حِسِّيَّة حَيَّةٍ مؤثّرة متحركة، فنحن لم نخلق العالم لعباً، بل سُنتنا الدائمة أن نطارد الباطل، وأن نرمي بالحق بسرعة وقوة ليسقط على الباطل المنتفش فيقهره، ويسيطر عليه، فإذا هو زائل عن مكانه وفاقد تأثيره، فإن كان للباطل حجة وعقيدة فحجة الحق تبطلها، وإن كان للباطل مهلة وجولة فإن للحق حجة ودولة، لأنه يعلو ولا يُعلَى عليه، لأنه قويّ بذاته مقوِّي لغيره كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيثُهَا عِبَادِيَ الصَّاحِحُونَ﴾ الأنبياء / ١٠٥، فالحق أصيل ثابت في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل دخيل متطقل طارئ لا أصالة فيه ولا ثبات، مع نظام الكون والكائنات ولا سلطان له، يطارده الله تعالى فيرمي عليه بقوة الحق فيزيحه عن هذه الحياة، والحق أقوى نصير وأحسن ظهير، والحق بصيغته الثابتة العامة يمتلك في طبيعته وسائل القوة والقدرة، والباطل بصيغته العامة، يمتلك أيضاً في طبيعته (عكس ذلك) من وسائل الضعف والتقهقر، كقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) الإسراء/٨١، ولكن عندما ترى أن الباطل هو

الذي يسيطر على الحق على طول الساحة البشرية، فإن ذلك يعني أن الممثلين عن الحق وهم أهله، قد تحلّفوا وتفترقوا عن دورهم وأخروا الحق وتأثيره وشوّهوا سمعته وصورته باسم الحق!، وشعاراته الجميلة الأخاذة، وكانت أفعالهم تخالف شعاراتهم، فهم تستروا بعناوين براقعة خداعة، وأفسدوا في البلاد والعباد كقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) البقرة/٢٠٤ فلم يعد الحق يؤثر في الفرد والمجتمع، وفقد الحق دوره المطلوب!! وأخذ الباطل يسير بحريته وينتفش ويتوسّع من دون منازع يدفعه ويدمغه، والحق له القدرة الذاتية على دحض الباطل كيفما كان، بشرط أن يتحرك الحق وأهله بحظّة محكمة وبأساليب حقة واعية مؤثرة مدروسة، فإن الله يؤيده على إزهاق الباطل وإزاحتها من حلبة الصراع، لأن الحق يمتلك مقومات القوة والبقاء والحجة والقدرة ضد قوة الباطل وقدرته، وقد يظهر الباطل متغصراً كأنه غالب، ويبدو الحق منزوياً كأنه مغلوب، ولكن الحقيقة، في غرر الحكم (الغالب بالشرِّ مغلوبٌ، والمغلوب بالحقِّ غالبٌ) والحق : الثابت المؤثر لا يزول ولا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتحوّل، والحياة قامت على الحق، فهو الغاية الكبرى التي يريد القرآن تقريرها كقوله (فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّيَّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، في غرر الحكم (أصبر على مرارة الحق، وإياك أن تتخذ حلاوة الباطل).

كقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج / ٦٢، وإذا كان هذا شأننا، فكيف نترككم بلا حجة وهداية، كأننا خلقناكم لنلهو بكم ونلعب معكم (ولكم الويل مما تصفون) وهذا تهديد شديد لمن يصف الله سبحانه بغير صفته التي وصف نفسه بها، والويل: والهلاك لكل من وصف الخلق والخالق باللعب واللهو، والويل: لمن وصف الإسلام بلا علم، ووعظ الناس بلا فهم، وأفتى بلا حجة، وفسر القرآن برأيه! فائدة: وصف القرآن الحق الأصيل الثابت، والباطل العارض غير الثابت، بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة كقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ إبراهيم / ٢٤ - ٢٦ .

١٩ - ٢٠ - ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسْحَرُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

وله جلّ وعلا جميع المخلوقات لا يحصيها إلا الله فهو مالكا وخالقا ومصورها ورازقها والمقدّر لحياتها كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ فعليهم أن يعبدوه، فلا يجوز أن يُشرك في عبادته أحداً، ولماذا يصفون الله تعالى باللهو والولد؟ وفي قبضته كل شيء، وإليه مصير كل شيء،

ويحاسب على كل شيء، إنه حب الدنيا رأس كل خطيئة، ودافع إلى كل رذيلة، (وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) (وَمَنْ عِنْدَهُ) المراد بالعندية، عندية الشرف والرفعة، لا عندية المكان، فشبّه قرب المنزلة بقرب المكان، كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، فكما ثبت قلبهم على الحق، فثبت منزلتهم، لأنهم ما نطقوا في الدنيا إلا بالصدق، وما فعلوا أو تركوا إلا بالحق، فكافأهم الله بالحق. (وَمَنْ عِنْدَهُ) أي ومن له وجهة ومكانة عند الله ملكاً كان أو بشراً، لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ورحم الحق كما يستكبر هؤلاء المشركون، بل يخضعون لعظمته ويسبحون بحمده ويقدمون له (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) مَنْ حَسَرَ يَعْنِي ضَعُفَ، أي لا يتكاسلون ولا يتماهلون ولا يقصرون ولا يتعبون ولا يملّون ولا يكلّون ولا يتراخون في تسيبته على طريقة (أَنفُسُهُمْ تَسِيحٌ وَنَوْمُهُمْ عِبَادَةٌ) بل يستأنسون بعبادته ويطمئنون بذكره ويستلذون بطاعته.

٢٠- (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) لا يتراخون، هم في عبادة دائمة وقرى مستمرة وحب لا ينقطع (لَا يَفْتُرُونَ) لا يسأمون لا يضعفون لا يملّون عن طاعة الله عز وجل في القول والعمل، في الشكل والمضمون وفي كل الأحوال، فهم مستغرقون في العبادة على سعة معناها من غير انقطاع، لأنها عندهم سعادة كقوله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم / ٦ في غرر الحكم (السَّعِيدُ مَنْ أَخْلَصَ الطَّاعَةَ) فليس في أوقاتهم فراغ، ولا في عقيدتهم شك، ولا في طاعتهم فتور وتقلب وتلون، التسيب أحد أبرز مفاهيم العبادة، التسيب لهؤلاء المصطفين (النخبة) المختارين حياة وانتعاش واطمئنان وسعادة، وحاجة ضرورية كالنفس لكم حاجة ضرورية لا يشغلهم عنه شاغل!، فمن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً، ومن كان الله خائفاً كان الله عارفاً عابداً، لأن العبادة على قدر العلم، فالعلماء بالله تعالى هم أكثر الناس خشية لله ومعرفة به وقرباً منه وحباً له كقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/٢٨، وكلمة (يَخْشَى) توحى بأن العلم الخالص من كل شائبة يؤدي حتماً إلى معرفة الله وخشيته، خشية هيبة ومحبة لا خشية زهبة ورغبة.

في غرر الحكم (اِكْتَسَبُوا الْعِلْمَ يَكْسِبُكُمُ الْحَيَاةُ) فائدة: (الحياة عبادة) البشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة عن حب ورغبة، طاعة بلا تكلف ولا إرهاق، دون أن ينقطعوا للتسيب والتعبد كالملائكة، فالإسلام يعد كل حركة صالحة نافعة وكل نفس عبادة! إذا توجه بها صاحبها إلى رضا الله، ونفع الناس وتطورهم وكف الأذى عنهم، ولو كانت متاعاً ذاتياً بطبيات الحياة! عن الإمام الصادق (ع) (الْعِبَادَةُ: حُسْنُ النَّبِيَّةِ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي يُطَاعُ اللَّهُ مِنْهَا) الكافي ٢ / ٨٣، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَايِطِ الْعِبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَّرَ عَنْ أَصُولِ الْعِبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ، في نهج البلاغة الخطبة الأولى يصف الإمام علي (ع) الملائكة (مُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ وَلَا يَعْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلَا فِتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَلَا عَقْلَةُ النَّسِيَانِ) .

٢١ - ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾

(أَمْ) منقطعة بمعنى بل، والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة لهم لا قيمة لها من مكوّنات هذه الأرض (هُمْ يُنْشِرُونَ) قادرين على إحياء الموتى كما يحييها الله؟ كلا، فكيف جعلوها لله نداً، وعبدوها معه؟ ومن أخصّ خصائص الإله وصفاته أن يوجد الحياة والأحياء ويميتهم وينشر الموتى للحساب، وآلهة المشركين أضعف وأحقر من أن تخلق خلية مجهرية حيّة واحدة، وفاقد الشيء لا يعطيه.

٢٢ - ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

ضمير فيهما للسموات والأرض (إِلَّا) بمعنى غير، أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لفسدتا، واختلّ النظام العام للكون والكائنات، وإن الآلهة لا تخلو إما أن يكون كلهم متساوياً في الألوهية أو بعضهم كامل وبعضهم ناقص، وإما أن يكون كلهم ناقص يحتاج بعضهم إلى بعض، وأما كمالية بعضهم وناقصية بعضهم فهو يقتضي استغناء الكامل عن الناقص، وإذا تساوى في الإلوهية لتغلب القوي على الضعيف، فلا بد أن يكون الإله الذي يستحق العبادة موصوفاً بالكمال والجمال والجلال والقدرة المطلقة بلا منازع، وهذه لا تكون إلا لإله واحد لا يشاركه أحد فيها، أما الناقصون فلا يصلحون للإلهية، لأنهم محتاجون إلى مكمل، إذن: الواحد مستغن عما سواه، وهو الله الأحد الفرد الصمد الغني عما سواه لا شريك له كقوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ المؤمنون/٩١، لحدث بين الآلهة تحارب وتغالب كما هو الشأن في الملوك والرؤساء، لأنهم يكونون مختلفين في الذات والصفات والحقائق والقدرات، ويحصل من هذا الاختلاف في الذات، في التدبير والتقدير، وإدارة الكون والكائنات، فتعارض التدايير والإرادات ويفسد كل شيء، في حين أنهم يرون نظام الكون واحداً دقيقاً منسجم الأجزاء متناسق منظم متقن الصنع ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان في مدينة واحدة، ولا رئيسان في دائرة واحدة؟ (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) عَمَّا يَصِفُونَ: عما يلحدون ويفترون، أي هم يصفونه بأن له شركاء، كلا، تنزه الله الواحد الأحد.

كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١.

(رَبِّ الْعَرْشِ) كناية عن الملك العظيم، أي خالق العرش العظيم وهو رمز الملك والسيطرة الكاملة ومصدر التدبير والتقدير، وتعالى الله عما يصفه الجاهلون، فائدة: ١- تصوّر أن يكون لإنسان عقلان ماذا يكون حاله؟ ولو كان له قلبان يفسد أحدهما عمل الآخر كقوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب/٤؛ ولو كان لبدن نفسان، ولو كان للسماء شمسان، وللكون صانعان لفسدتا، كقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) النحل/١٧ وهكذا في الجماعات

البشرية لا بد لها من قائد واحد رائد سائد، ٢ - (التوحيد العقلي) : استدل الله سبحانه على وحدانيته بالدليل الكوني المستمد من نظام الوجود، الكون قائم على القانون الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً وينسق بين الأجزاء والحركات، وهذا القانون من صنع إرادة واحدة لرب واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات، ولتعددت القوانين والأنظمة تبعاً لها، فالإرادة مظهر الذات المريدة، والقانون مظهر الإرادة النافذة، وانعدمت الوحدة التي تنسق النظام الكوني كله، واحتل توحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق، بينما نلاحظ حقيقة هذا التناسق الملحوظ المنظم الذي لا ينكره أشد الملحدين، لأنه واقع محسوس وحجة واضحة، عن الإمام علي (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ فِيهِ) مواهب الرحمن ٧/٣٠٠، في غرر الحكم (لَوْ كُشِفَ الْعِطَاءُ مَا إِرْدَدْتُ يَقِيناً).

٢٣ - ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

لا يحق لأحد أن يسأله عم يفعل الله سبحانه، لأنه رب كل شيء ومالكه، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، لأنه حكيم، فأفعاله كلها جارية على الحكمة والمصلحة، ومن ذا الذي يسأله؟! ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام / ٦١ (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) والناس يُسْأَلُونَ عن أعمالهم، لأنهم عبيد مملوكون محاسبون، ولأنهم يفعلون الحق والباطل والصح والخطأ. كقوله ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصفات / ٢٤ وقوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ الإسراء / ٣٦ وعن النبي (ص) (أَلَا كَلَّكُمْ رَاعٍ وَكَلَّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) صحيح مسلم ٣/١٤٥٩

٢٤ - ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلُوبًا بُرْهَانًا كَمَا اتَّخَذُوا مِنْ قَبْلِهِ قُلُوبًا لَا يَتْلُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

ذكر هذا الإنكار في الآية ٢١، وكرره استعظماً للشرك ومبالغة في التوبيخ، أي بعد الدليل الكوني المتقدم المستمد من طبيعة الوجود وواقعه، يسألهم عن الدليل النقلي والعقلي والعلمي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك، (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣، فإن الدعوة التي لا دليل عليها لا تُسمع، ولا يجوز عقلاً أن يُركن إليها (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) حجتكم، وهنا دعوة إلى حكم العقل والإيمان بالدليل العلمي القطعي كقوله ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ المؤمنون / ١١٧، أي أتتوني بالحجة والبرهان، على ما تعتقدون، والبيّنة على من ادعى، والبرهان يقطع الخصام، فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه (هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي) والذي استند إليه في طلب الدليل أن الكتب السماوية النازلة من عند الله سبحانه لا توافقكم على ما ادعيتم بل تخالفكم فيه، كلها تؤكد على توحيد الله تعالى ووجوب عبادته، فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة ولا برهان، ولو كان له شريك لأنت

رساله وكتبه تترى، ولأخبر عن شريكه، أو (هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ) هذا القرآن الذي معي فيه تبيان كل شيء، ويهدي للتي هي أقوم، وفيه (وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي) أي أخبار كتب الأمم السابقة، وليس في القرآن ولا في الكتب السماوية أن مع الله إلهاً آخر، (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) وهذا توييح على جهلهم، بل أكثر المشركين لا يعرفون التوحيد الخالص، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) (فَهُمْ مُعْرِضُونَ) عن التأمل في دلائل الإيمان منصرفون عن الحق، بعيدون عن التوحيد فهم لا يميزون الحق من الباطل، فليسوا من أهل التمييز، وليسوا من الذين يتبعون الدليل والبرهان، وهم ليسوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهكذا مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضاق صدره، وتعددت سبله، وتنغص عيشه، وقلقت نفسه، وساءت عاقبته كقوله ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس/٣٢ وقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ وقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) الإسراء/٢٢.

٢٥ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل (إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) إلا أوحينا إليه لا رب ولا معبود بحق إلا الله (فَاعْبُدُونِ) فاعبدوني وحدي ولا تشركوا معي أحداً، كقوله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) محمد/١٩، وهكذا كان التوحيد القاعدة الرئيسة للعقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس لا تبديل فيها ولا تحويل كقوله ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف / ٥٩ فصار (توحيد الله) هدف جميع الرسالات، فهو حياة النفس، واطمئنان القلب واستقامة العقيدة، وعزيمة الإيمان ومرضاة الرحمان، ومدخرة للشيطان إذأ : لا مجال للشرك في الإلوهية ولا في العبادة ولا في الفكر ولا في السلوك، لقوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الرَّحْمَنُ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ، سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال: (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٩٧.

٢٦ - ٢٧ - ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ بَلًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يُعْمَلُونَ﴾

ولداً : يعني الملائكة الذين ادعى مشركوا العرب أنهم بنات الله، وعزير الذي ادعى اليهود انه ابن الله، والمسيح الذي ادعى مشركوا النصارى انه ابن الله، أنهم أولئك جميعهم عباد الله مكرمون عنده (سُبْحَانَهُ) تنزه الله وتقديس عما يقول الظالمون، لأنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ فهو كما وصف نفسه لا كما يصفه العباد (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) هم عباد مقربون مبدلون محلصون أكرمهم الله واصطفاهم فهم محترمون عنده في منازل عالية، وهم في غاية الطاعة والخضوع ويقرون لله بالربوبية، ٢٧ - (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يُعْمَلُونَ) لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربه، ولا يريدون إلا ما أَرَادَهُ سُبْحَانَهُ وتعالى، ولا يتقدمون بين يديه بشيء كقوله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ التحريم / ٦ ولهذا أصبحوا عباداً مكرمين ذوي منزلة عند الله وهم عزيز والمسيح والملائكة، وينفذون كل الأوامر ولا يناقشونه ولا يخالفونه في شيء، لحبهم الله تعالى وأنسهم به وبطاعته وقربهم منه واطمئنانهم لحكمه وعدله، ومن كان بهذه الصفة لا يمكن أن يوصف بأنه ابن الله .

٢٨ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

وذلك لأنه تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) ما قضى من عملهم وما هم فيه الآن (وَمَا خَلْفَهُمْ) وما كانوا عليه بالأمس، وما هم عاملون في المستقبل للدلالة على أن علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية (وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ) الله أن يشفع له، وهم ممن ارتضى الله أعمالهم ومقاصدهم ودينهم، ولكن بدر منهم بعض الفلتات والهفوات، وهم أهل الإيمان كقوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الزمر/ ٤٤؛ (وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ) مُشْفِقُونَ: خائفون، والإشفاق خوف ممزوج بالحببة والإجلال، أي وهم من خوف الله ومهابته وقداسته ورهبته خائفون حذرون، لأنهم يعرفون مقام الله وعظمته، ويخافون من جلاله وهيبته ومن التقصير في عبادته، ومن ترك الأولى، عن النبي (ص) (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) البحار ١٨٠/٧٧، كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن / ٤٦، وخوف الله من هيبة لا من رهبة، خوف الله ليس كخوف الإنسان، إنه خوف وإشفاق ممزوجان بالاحترام والتكريم والتعظيم، لأنه خوف ناتج عن حبّ وقرب وجذب، فائدة: الفرق بين الخوف والخشية والإشفاق والوجل: (الخوف) زينة العارفين وجلباب المؤمنين، وهو توقع المكروه عن طريق الظن أو العلم، وبضاد الخوف الأمن (الخشية) خوف مع علم وتعظيم والتزام، خشية هيبية وحبّ لا رهبة ورعب (والخشية) لها في الغالب جانب قلبي أما (الإشفاق) فله جانب عملي (الإشفاق) خوف ممزوج بحببة واحترام وإجلال، وعلامته الطاعة الدائمة والاستقامة اللازمة كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ المؤمنون / ٥٧ (الوجل) الخوف مع قلق واضطراب كقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ المؤمنون / ٦٠ عن النبي (ص) (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ١٣٣/٧٧ .

٢٩ - ﴿وَمَنْ يَلْمِهُمْ إِيَّايَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ نَجْرِي بِهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ﴾

هؤلاء العباد المكرمون لو ادّعى أحدهم (جداً وجهلاً وهذا لم يحدث) إنه إله من دون الله أو شريك له فجزاؤه عذاب الحريق (كَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ) هذا الجزاء الشديد والعذاب الأليم، نجري به كل من ظلم وتعدّى حدود الله، كائناً من كان، ولا فرق عندئذٍ بينهم وبين المشركين . أي ظلم أعظم من إدعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله، مشاركته الله في خصائص الإلهية والربوبية؟! كقوله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق / ١٠ .

٣٠ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا مَرْتَبًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾
يكشف القرآن حقيقة علمية كونية ثابتة لا تتغير ولا تتطور مع تطوّر العلوم الحديثة، ولم يطرحها على أنها
نظرية علمية غير ثابتة، والنظرية تحتمل الصواب والخطأ، رتقاً: ملتصقتين، ففتقناهما: فصلناها
المعنى: استفهام توبيخ لمن ادّعى مع الله آلهة مادية أو معنوية، أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن
السموات والأرض كانتا (رتقاً) ملتصقتين ملتصقتين، وتشكلان جميعاً كتلة مادية واحدة عظيمة
(ففتقناهما) ففصل الله بينهما، ورفع السماء وقدرها منازل وجعل فيها عوالم، وأقرّ الأرض كما هي
وجعل فيها أنواع المخلوقات، وهياً لها مقومات الحياة، كقوله ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾
النازعات / ٣٠ وفصل الله بينهما بالهواء، وجعل في السماء كواكب ونجوماً، أولم يعلموا أنه سبحانه
الذي يفعل هذه الأنظمة ولا يقدر عليها غيره، فهو الإله المستحق للعبادة والطاعة دون غيره،
كقوله (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الرعد/ ١٦
فائدة: ١- وهذا من المعجزات العلمية أعلنها القرآن منذ ١٤ قرناً، فإن العلم الحديث كان يعتقد
بنظرية الانفجار الكبير، والآن يقرر هذه الحقيقة منذ أمد قريب، ٢- سئل الإمام الباقر (ع) في
الآية فقال: كانت السماء رتقاً لا تنزل القطر، وكانت الأرض رتقاً لا تخرج النبات، ففتق (فصل)
السماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات. وكان بينهما الظلام) كثر الدقائق ٦ / ٣٧٧، ومعنى ذلك كان
الليل قبل النهار، وفتق من الأرض ست أرضين معها، فتلك السبع أرضين بعضهن تحت بعض،
ومن السماء سبع سماوات فتق منها معها، فتلك سبع سماوات بعضهن فوق بعض، كقوله (اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) الطلاق/ ١٢، وهناك بحوث علمية متنوعة في ذلك.
(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) وجعلنا الماء أصل كل الأحياء العاقلة وغير العاقلة، وسبباً
للحياة واستمرارها، فلا حياة ولا عيش بدونه كل كائن حي، سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً،
وهذا يدل أن الماء أول ما خلق الله كقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ النور/ ٤٥ قال (كُلُّ شَيْءٍ
حَيٍّ) ولم يقل (كُلُّ شَيْءٍ حَيًّا) أي كل شيء من المخلوقات له حياة، وأحد تكويناته الماء حتى
الجماد، لذلك يُسبِّح لله على طريقته. (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) أفلا يصدقون بقدرة الله؟ أفلا يصدقون
القرآن الذي أخبر بهذه الحقائق؟ أليس ذلك دليلاً ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج/ ٦٢، وقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/ ١١، وأنه محيي
الموتى للحساب والجزاء، وقد كان هذا وحده كافياً في الإيمان بالقرآن وبالإسلام، كقوله ﴿وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ هود/ ٧، والمراد بعرشه ملكه،
وهو كل الكون والكائنات. ٣- (أُولَمْ يَرَ) الرؤية في القرآن استعمالاً متنوعة، أولم يعلم الإنسان
علم اليقين، (أولم ير) بعين قلبه وتفكير عقله وتأمل بصيرته مع تركيز بصره، فيعلم الحقيقة عن
طريق الحسن المطابق للعلم، وعن طريق البصر المطابق للبصيرة.

٣١ - ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ مَرَوِّسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

الرواسي : الجبال الثابتة، تميد بكم : تميل وتضطرب، المعنى : يقرر القرآن حقيقة علمية مهمة تقول: وجعلنا جبلاً كثيرة أو سلسلة جبال مختلفة الارتفاع والأحجام والأشكال، في أماكن خاصة ثابتة تمنع حركة الأرض من الاضطراب والاختلال، من أجل أن تتوازن حركة الأرض كقوله ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الحجر / ١٩ (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) فِجَاجًا : جمع فج، وهو الطريق بين جبلين، والسبل : الطرق الواسعة المعنى: وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا الناس إلى مقاصدهم في الأسفار وغيرها، وجعلنا فيها طرقاً من بلد إلى بلد، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل أو سلسلة جبال حدوداً بين البلاد، وتكون فجوة يسلك الناس فيها من هنا إلى هناك. وهذا أيضاً من الإعجاز العلمي في القرآن، عن الإمام علي (ع) (الْقُرْآنُ جَدِيدٌ لَا تَبْلَى جَدَّتُهُ!)، (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) من عجائب الخلق إلى عظمة الخالق المدبر والمنظم والمقدر لكل شيء ﴿وَوَخَّلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان / ٢، وفي هذا التدبير دلالة على أن للجبال ارتباطاً بحصول الزلازل والبراكين فائدة : كما جعل الله الجبال لتوازن حركة الأرض، كذلك جعل الأنبياء والأوصياء والأئمة والعلماء والصالحين لهداية الناس واطمئنان قلوبهم، والعمل على استقامتهم وتوازن فكرهم وحياتهم وسلوكهم كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد / ٧ وقوله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف / ١٨١

٣٢ - ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا) كالسقف للأرض (مَحْفُوظًا) من الوقوع والسقوط وبلا أعمدة ترونها، ولا يحفظ إلا الشيء النفيس بذاته والنفيس لغيره! ومحفوظاً من الاختلال لأنه محكم الصنع، فكل كوكب يدور في فلكه ولا يتعداه بفعل الجاذبية. وجعلنا الغلاف الجوي في السماء سقفاً يحفظ الأرض من الشهب والنيازك، ويحفظها بطبقة الأوزون العازلة، ومن نفوذ الأشعة المؤذية للبشر، وأيضاً السماء سقف محفوظ من الشياطين التي تسترق السمع كقوله ﴿وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ الحجر / ١٧ وقوله ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الحج / ٦٥ (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) ولكن أكثر الناس معرضون منصرفون عن الآيات الدالة على وجود الصانع القدير الحكيم، ولا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من اتقان الصنع وعجائب الخلق وتنظيم الكون والكائنات، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وهم منصرفون إلى أهوائهم وملذاتهم المؤقتة وغافلون عما يُراد منهم ! وفي إضافة الآيات إلى السماء، إشارة إلى عظمة هذا العالم العلوي، وعجائب خلقه مايبهر العقول، عن النبي (ص) (مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا بِالنَّبِيِّ لِمَلِكِ اللَّهِ إِلَّا كَخَلْقَةِ مُلَقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ) بحار الأنوار ٨ ص ٥٠٥

٣٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

الليل والنهار ظاهرتان كونيتان، والشمس والقمر جرمان كبيران في السماء، وكل واحد له نظام يدور حوله، وبلا محور مركزي له، كقوله ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس/٤٠، لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض وبالحياة كلها، والتأمل في توالي الليل والنهار وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تخضع للاختلال ولو مرة واحدة جدير بأن يهدي القلب إلى الخالق المدبّر القدير. فائدة: ١ - (حركة الليل والنهار وسنة التداخل بين الأشياء)، فكما يتداخل الليل والنهار كذلك يتداخل كل شيء في الحياة، ويخضع إلى قانون التداخل، كتداخل القوة والضعف، والصحة والمرض والشدة والرخاء، والفقر والغنى والعزة والذلة، والحياة والموت والنوم واليقظة، والعسر واليسر كقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الأنشراح / ٥ - ٦ فلا قوة باستمرار ولا ضعف باستمرار، ولا عزة على الدوام ولا ذلة على الدوام، وهكذا كل شيء لا يبقى على حاله بشكل دائم (وَدَوَائِمُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ) كقوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن / ٢٩

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يدور على قدر معين، ويتحرك بحركة انسيابية منظمة مدبرة مقدرة تلائمه، وهذا النظام المدهش يهدي القلب إلى الخالق المنظم المدبّر المقدر كقوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ السجدة / ٧، ٢ - والتعبير عن حركة الليل والنهار (بالخلق) إشارة إلى ما لهما من وجود ذاتي غير عارض، وأن وجودهما مقصود لذاته، شأنهما في هذا شأن الإنسان المكلف المطلوب منه عمل رسالة صالحة يؤديها في الحياة، فهي وإن بدت لنا أنها غير عاقلة، فإن نظامها الذي تجري عليه ليدل على أنها تتحرك بتوجيه قوة عاقلة حكيمة قادرة. أما حين لا تتراد هذه المخلوقات لذاتها وإنما تُراد آثارها، فيجيب التعبير القرآني البليغ بلفظ (جعل) لا (خلق) كقوله ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ الأنعام / ٩٦، ٣ - ثم يربط السياق القرآني بين السنن الكونية ونظام الليل والنهار، وعلاقتها بالسنن البشرية في حياتها ومماتها ومصيرها، لإلفات الأنظار إلى هذه الرابطة الحقيقية المهمة البالغة الأهمية فقال :

٣٤ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾

كل مخلوق حادث ناشيء، وكل حادث حي فإن، وكل ماله بدء له نهاية، إذا كان الرسول (ص) يموت فهل هم يخلدون؟ وإذا كانوا هم لا يخلدون فما بالهم لا يعملون عملاً صالحاً يكون رصيدهم بعد الموت؟! في غرر الحكم (خير العلم ما أصلحت به رشادك، وشره ما أفسدت به معادك) (أَفَئِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ) فهل إذا متَّ يا مُجَّد سيخلدون بعدك في هذه الحياة؟ لا، لن يكون لهم

ذلك، بل كل مخلوق إلى الفناء كقوله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ الزمر / ٢٠، وإن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله نصرته دينه، وهكذا نحفظ دينك القيم، ولا يخرج من سلطان الله أحد، ومرجع الجميع إليه وحسابهم عليه، فما بالهم لا يستعدون للموت ولما بعد الموت من حياة أخرى خالدة، ونحن ذاهبون إليها سواء آمننا بها أو لم نؤمن كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الانشقاق/٦، من وصية الإمام علي لابنه الحسن (ع) (إِنَّكَ حُلِفْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ، وَلِلْحَيَاةِ لَا لِلْمَوْتِ) شرح النهج ١٦/٨٩ فائدة: ١- وإن كان في قدرة الله على تخليده فيبقى حياً حين من الدهر، كما بقي الخضر(ع) حياً في عهد النبي (ص) وهو صاحب موسى (ع) في قصته المعروفة في سورة الكهف/٦٥، عن النبي(ص) (الْمَوْتُ رَيْحَانَةُ الْمُؤْمِنِ) البحار ٨٢ / ١٦٨، وعنه(ص) (تُحَفُّهُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ) المصدر السابق وعنه(ص) (الْمَوْتُ عَنِيْمَةٌ!) كنز العمال خير ٤٤٤٤، وأكرم أنواع الموت (قَتْلُ) الشهادة في سبيل الله، من أجل إحقاق الحق ونصرة الحقوق وإبطال الباطل، وعنه(ص) (أَشْرَفَ الْمَوْتُ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ ص ٨، وأشرف أنواع الشهادة ما كان الشهيد المقتول في سبيل الله من النفيس، وكان القاتل من الخسيس .

٣٥ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسُوا أَلْبَابَهُمْ﴾

(الْمَوْتُ) هذا هو القانون العادل الذي يحكم الحياة، هذه هي السنة الجارية المقدّرة التي ليس لها استثناء في غرر الحكم (الْمَوْتُ أَوَّلُ عَدْلِ الْآخِرَةِ)، فما أجدر الأحياء أن يتعرفوا على هذا الحق القاهر لأهله، وأن يحسبوا حساب هذا المذاق الذي لا بد منه، كل نفوس الخلائق على الاطلاق لا بد لها أن تشرب من كأس الموت الحق المتوازن وتستذوقه، وإن طال بالانسان العمر المديد، ولكن الموت نهاية كل حي، وهو النقلة إلى العالم الآخر، والموت للجسد وليس للروح، والموت هو القانون الذي تُفهم بواسطته الحياة، لأن الحياة لا تُفهم لوحدها إلا عن طريق صديقها الموت، لأن الحياة والموت صديقان وليسا ضدّين (مَا أَقْرَبَ الْحَيَاةُ مِنَ الْمَوْتِ) فمن أحبّ الحياة وكره الموت فقد أحبّ أحد الصديقين الحميمين وكره الآخر! فيعيش أنصاف الحياة!، كما أنه لا يمكن أن نحبّ النهار ونكره الليل، لأن الليل والنهار صديقان وليسا ضدّين، فأحدهما يُكمل دور الآخر، كذلك الحياة والموت والروح والجسد، والدنيا والآخرة، والأمل والعمل، أحدهما يُكمل دور الآخر.

فائدة: ١- (ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) إنّ للموت طعماً خاصاً تجده كل نفس حين تفارق جسدها، يسمى (سكرات الموت، مقدّمات الموت) فتكون الأجساد فانية والنفوس (الأرواح) هي الباقية، وهذا الطعم والاستذواق يختلف بين نفس ونفس، فالنفس المؤمنة تستسيغ طعمه وتستذوق حلاوته، لما ترى فيه من خلاص لها من هذا القيد الثقيل، الذي هو جسمها المادي الترابي الذي أمسك بها عن الانطلاق إلى عالمها العلوي الشفاف النظيف كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ

رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٧-٢٨﴾، إما النفس الضالة الفاسدة فإنها تستذوق الموت بكرهية ومرارة وعذاب ظاهري أو باطني (معنوي) فيكون القبر إما روضة من رياض الجنة للمؤمن أو حفرة من حفر النيران للفاسق كقوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾، عن النبي محمد (ص) (يُبَعَثُ كُلَّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خبر ٤٢٧٢٢، وعنه (ص) (من مات فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٣ / ٢٢ (وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً نَبَلُوكُمْ : نختبركم والخطاب لجميع الناس كقوله ﴿لِنَبَلُوهُمْ أَيْهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف / ٧٠ .

والبلاء سنة حياتية ضرورية مستمرة، تكشف معادن الناس وتظهر حقائقهم، سواء أكان البلاء بالشر أو بالخير أي بالمكروه أو بالمحسوب، كل إنسان يبتلى ويمتحن ويفتن بالشدة والرخاء، بالغنى والفقير بالعزة والذلّة، والصحة والمرض والحلال والحرام والطاعة والمعصية... وفي نتائج الامتحان يُعرف الناجح من الفاشل، والأصيل من الدخيل، والتقي من الدّعي كقوله ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران / ١٥٤، و(في الأمتحان يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ)، ونبلوكم بما تكرهون وما تحبون، ليظهر صبركم على ما تكرهون وشكركم فيما تحبون. فائدة: ١- أصل الشر: غلبة الهوى على النفس. أصل الخير: غلبة التقوى على النفس (فتنة) ابتلاء، أي نفتنكم كما يُفتن الذهب بالنار إذا أريد تصفيته عما يخالطه من الغش، لنرى أتصبرون في الشدائد وتشكرون في الرخاء؟

وقدم الابتلاء بالشر على الخير أي قدم الابتلاء بالمكروه على المحبوب، الأكثر والأشمل بين الناس، عن الإمام علي (ع) في الآية: (فالخير: الصحة والغنى، والشر: المرض و الفقر) وهذا من مصاديق الآية، وعنه (ع) (مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ وَمَ لَمْ يَعْلَمْ إِنَّهُ قَدْ مُكِّرَ بِهِ فَهُوَ مَخْدُوعٌ عَنْ عَقْلِهِ) المراغي ٣٠/١٧ مستدرج في نعمته، لأن معنى الاستدراج: نعم من الله متوالية من دون تقدير النعم، وعدم شكر المنعم، يقال: فِي الْمَحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خِبْرَاتٌ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَبَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَاتٌ نَهَائِيَةٌ الْكِرَامَاتِ، عن الإمام الحسن العسكري (ع): (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا)! البحار ٧٨ / ٣٧٤، (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وإلينا مرجعكم لا إلى غيرنا، فجازيكم بأعمالكم كقوله ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ إبراهيم / ٥١، والدار الآخرة هي المقام الدائم (ولا عيش إلا عيش الآخرة) في غرر الحكم (مَا بِالْكُمِّ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا وَتُدْرِكُونَهُ، وَلَا يُجْزِنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ)؟! في غرر الحكم (لِلْمُتَّقِي: هُدًى فِي رَشَادٍ، وَتَخْرُجُ عَنْ فَسَادٍ، وَحَرَصٌ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) كقوله (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء / ١٠٤، عن النبي (ص) (إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه) كثر العمال خبر ٣٠٧٦٢.

٢- والابتلاء بنعم الرخاء والغنى أشد من الابتلاء في الفقر والشدة، كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف والفقر والمكروه...، ولكن قليلين الذين يصبرون على الابتلاء بالرخاء والصحة والمحبو، والإغراء بالمناصب والرغائب والثراء! (والبلاءُ على قَدْرِ الطِّبَاعِ).

عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّمَا يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا عَلَى قَدْرِ دِينِهِ) البحار ٦٧/٢١٠، عن النبي (ص) (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلِلْأَمْثَلِ) روح البيان ٦/١٢٩، لماذا كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه؟ لأنه كلما زيد في إيمانه زيد في وعيه وزيد في مسؤولياته وتعليمه.

٣٦ - ﴿وَإِذَا مَرَأَتُكَ الَّتِي الَّتِي كَفَرُوا إِنَّ يَخَذُونَكَ إِلَّا هُنَّ أَمْهَاتُ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾

يقول الذين كفروا بعضهم لبعض في سخرية واستغراب (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) استفهام للتعجب والإنكار، أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسقِّه عقائدكم ويخالف العرف الاجتماعي الجاهلي العام، وهكذا كل مصلح مجدد له خصوم وأعداء من الجهلاء المغلقين المنتفعين ولو كانوا بلباس العلم ووجاهة الدين كقوله ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الملك ٢٢/ (وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ) هم كفروا بالله وآمنوا بالأحجار فدعاهم النبي (ص) إلى الإيمان بالله وحده ونبذ الأحجار فسخروا منه! وهو العجب وهي الغرابة. وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم فقلب عندهم المقاييس الصحيحة، واحتلت عندهم المعايير الإنسانية، وهكذا عندما يألف الإنسان المنكر ويعتاد عليه لمدة طويلة، فيرى المعروف هو الانحراف والمنكر والتخلف! (وبالعكس) كما ألفت قوم لوط الشذوذ الجنسي البغيض، فاعتبروا نبيهم الذي نهاهم عن ذلك العمل القبيح هو الغريب والعجيب! كقوله ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾ النمل ٥٦. عن النبي (ص) (كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟! وسائل الشيعة ١١/٣٩٧).

٣٧ - ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْمِرِكُمْ أَيَّتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾

العجلة : طلب الشيء قبل أوانه، وصف القرآن الإنسان أي الجنس البشري، وَصَوَّرَهُ لِفِرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل، كما يُقال للرجل الذكي (نار تشتعل) ويُقال لمن يكثر منه الكرم، فلان خُلِقَ من كرم كقوله ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ الروم ٥٤، فيكون من شأنه العجلة وحبها كقوله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الاسراء ١١، فهو عجول بالطبع والفطرة، ولو صحَّ هذا على الجميع لما وُجِدَ إنسان ذو رويّة وأناة وهدوء، ولكان كل إنسان عجولاً في جميع أقواله وأفعاله بلا استثناء! (والصحيح) أن ما بالذات والطبيعة النفسية لا يكون موضوعاً لأمر إلهي أو نهي،

وعليه إنَّ نعتَ الإنسان ووصفه بالعجول والكفور واليؤوس ونحوه هو تفسير لسلكه، قبل تهذيب الدين له، في بعض مواقف، وليس تحديداً لطبيعته وهويته وتكوينه. فائدة: ١- الفرق بين العجلة والسرعة: إنَّ العَجَلَةَ: تقديم الشيء قبل أوانه، أما السرعة فهي الإتيان بالشيء بلا تأخير في أول أوقاته، والسرعة إلى الخير تأتي بعقلانية منظمة متوازنة فهي محمودة كقوله ﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ آل عمران/ ١١٤ والعجلة مذمومة لأنها غير عقلانية وفيها تهور وتصاحبها المخاطر، حتى اشتهر (إنَّ الْعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ، والتَّائِي مِنَ الرَّحْمَانِ) (في الْعَجَلَةِ الدَّائِمَةِ وَفِي التَّائِي السَّلَامَةِ)، إذن العجلة صفة سلبية طارئة قابلة للتهذيب كقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس/ ٩ لأنه أوتي المقدرة التي تستطيع بها تركها وكف النفس عنها، ٢- (التوازن في الأمور) في فتح البلاغة كتاب ٥٣ (إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا أَوْ التَّقَسُّطُ (التَّأَخُّرُ) فِيهَا عِنْدَ امْتِكَانِهَا أَوْ اللَّجَاجَةُ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ أَوْ الْوَهْنُ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ!) (سَأْرِبُكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ) هو الجواب على ما يستعجل به المشركون من عذاب الله، وهو تهديد للمشركين فلا تتعجلوا عذابي وتمهلوا واصبروا حتى يأتي وعد الله في وقته المناسب في الدنيا قبل الآخرة، سؤال: إذا كان الإنسان عجولاً بطبيعته فلماذا ينهى الله تعالى عن العجلة؟ كأنه يقول إنَّ الحافز الذي حفركم للعجلة قابل للتهذيب والتغيير والتدريب وكف النفس عنها، لذلك أصبح تهذيب العادة السيئة من أفضل العبادات، في غرر الحكم (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُرُوءُ التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهَدَاتِ)، ٣- (سَأْرِبُكُمْ آيَاتِي) سأريكم صفات كمالِي في مظاهر الآفاق الكونية ومرآة السنن الأنفسية بالتربية والتركية والتعليم (فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ) في طلب هذا المقام من أنفسكم كقوله ﴿سُنِّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت / ٥٣ .

٣٨ - ﴿يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

ويقول المشركون للنبي (ص) ولمن معه من المؤمنين على سبيل الاستبعاد والاستغراب والاستهزاء، متى يجيئنا هذا العذاب الذي تعدوننا به (إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فيما تقولون؟ فائدة: ١- ومن أكبر الغباء التعامل مع القضايا المصيرية الكبرى بالحماقة والسفاهة والنكران واللامبالاة، فعليك أن تجعل نسبة معينة من الصحة وتبقى تبحث عن الحقيقة، وتحمي نفسك بهذه النسبة المقدرة من الصواب، فلا تُبطل جميع الاحتمالات المتوقعة. ٢- من سعى إلى الله قربة، ومن بحث عن الله وجده، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥ .

٣٩ - ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّكْرَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾

لو عرف الكافرون فضاة العذاب حين (لا يَكْفُونُ) لا ينجعون، لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد والعذاب، وهم أضعف من

أن يستطيعوا تحمُّلُهُ، وكم من مُستعجِلٍ أمراً لو أتاه لضاق به، وتمنى أنه لم يأت! وجواب (لو) محذوف لأنه أبلغ في الوعيد، وتقديره: ولكن جهلهم هو الذي هوّن العذاب عندهم (وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ) ولا ينصرهم أحد من أتباعهم بمنعه عنهم، ولا ناصر لهم من عذاب الله، في غرر الحكم (ويلٌ لمن غلبت عليه الغفلة ففسى الرحلة، ولم يستعد) في المهلة المقدّرة من عمره.

فائدة: ١- وإنما خصّ الوجوه والظهور، لأن مسّ العذاب لهما أعظم وأشدّ موقعاً، فالوجه أشرف الأعضاء وأكرمها للدلالة على إهانتهم، والظهور للدلالة أن العذاب يأتيهم من كل مكان .

٤٠ - ﴿كُلُّ نَافِلَةٍ بِغَنَةِ فِتْنَتِهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

وهذه المباغطة جزاء الاستعجال للعذاب فلقد كانوا يقولون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يونس/٤، فكان الرد هو هذه البغته، أي بل تأتيهم الساعة ونار جهنم بعذابها (بِعْتَةٍ) فجأة (فَتَبَهَّتْهُمْ) فتغلبهم وتدعهم وتحيرهم، لما فيها من العذاب الصاعق الذي داهمهم بلا مقدمات، من حيث لا يشعرون ولا يدرون من أين، وفي أين، وإلى أين يأتي (فَيَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ)! (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) فلا يقدرّون على صرفها عنهم (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) ولا هم يُمهّلون ويؤخّرون لتوبة واعتذار، وإنما لم يُعلم الله عباده وقت الساعة، لأن المرء يكون مع جهله بها أشدّ حذراً، وأقرب إلى الاستعداد لها واستدراك أمره، في غرر الحكم (مَنْ أَفْنَى عُمُرُهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ، فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ) وخسِرَ منقلبه.

٤١ - ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

تسليية لرسول الله (ص) عن استهزاء المشركين به، فهو ليس وحده من بين رسل الله الذي وقف قومه منه هذا الموقف اللئيم، بل أن كثيراً من رسل الله تحمّلوا معاناة كثيرة وبلايا متكررة من أقوامهم، وخرّكوا الأشقياء والسفهاء عليهم، كقوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) الفرقان/٣١ (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) حلّ وأحاط ونزل بالساحرين من الرسل العذاب والبلاء الشديد الذي كانت الرسل تخوفهم به، وإنه سينزل بالمستهزئين جزاء سخريتهم، عذاباً وبلاءً وتكون عاقبتهم وخيمة، وسيكون لك النصر عليهم كقوله ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الأنعام/٣٤، إنّها سنن الله يداولها بين الناس (فَالَّذِي لَا يَتَعَطَّىٰ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ، وَأَخْسَرُ النَّاسُ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ)، في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ). فائدة: استهزاء الفجّار بالأبرار سنة قديمة: بروز المجرمين في طريق الأنبياء والمصلحين أمر طبيعي، لأن دعوة الحق لمعالجة تيار الفساد، فساد في القلوب، وفساد في النظم، وفساد في الأوضاع العامة، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، ويدعمون الفساد والمفسدين ويستغلونهم، وإن حياتهم ومشاريعهم لا تتفق إلاّ مع

الفساد، وشهواتهم لا تنتفس إلا في أجواء موبوءة، فطبيعي أن يجاربوا الأنبياء والمصلحين دفاعاً عن وجودهم الموبوء المعدي الخطير، فإن بعض الحشرات تختنق برائحة الأزهار الجميلة العبقية، ولا تستطيع الحياة إلا في القاذورات الموبوءة!! ولكن لا بد أن تنتصر دعوة الحق في نهاية الجولة، لأنها تسير في أجواء نقية، تسير مع خط الحياة، مع خط الفطرة السليمة، وتتجه إلى الأفق الكريم الجليل الذي تتصل فيه بالله تعالى!.

٤٢ - ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾

يَكْلُوْكُمْ: يحفظكم ويرعاكم ويجرسكم المعنى: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين من يحفظكم من بأس الرحمن، الذي يستحقون نزوله بالليل والنهار، ويحفظكم من آفات الزمان وتقلبات الأيام، ومن المخبات والمفاجآت، كقوله (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوْنَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) الرعد/١١، وَمَنْ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ وَانْتِقَامَهُ إِنْ أَرَادَ إِزَالَهُ بِكُمْ؟ وهو سؤال تأنيب وإنكار وتقريع كيلا يغتروا بما نالهم من نعم الله (مَنْ يَكْلُوْكُمْ) من يجرسكم، أي إن الله هو الحارس على كل نفس، الحافظ لها بالليل والنهار، وصفته هي الرحمة الكبرى وليس من دونه راع ولا حام كقوله ﴿إِنْ كُنَّ نَفْسٌ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ الطلاق/٤، (ذَكَرِ رَبَّهُمْ) وذكر الرب من التربية، إشارة إلى أنهم خاضعون لرعايته وتربيته، وهم لا يحسون بهذه الرعاية فهم في غاية الجهل والغباء والضلال، كقوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ) الرعد/٦ (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه، لا يتفكرون ولا يعتبرون أنه الحافظ لهم، بل ولم يحظر الله ببالهم، ومن نسي الله أنساه مصلحة نفسه، فائدة: ١- (مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) والتعبير عن حراسة الله للإنسان بالكلاءة الدالة: على إن الإنسان مهما ملك من جاه وقوة وسلطان، فهو كائن ضعيف عاجز ومحتاج إلى قوة ترعاه وتحرسه وتمده بأسباب الحياة والبقاء إنها رحمة الرحمن (مَنْ الرَّحْمَنِ) لتذكرك إلى سعة رحمته لعباده جميعهم مؤمنهم وكافرهم، فإنه هو المخلص والحافظ والمنجي من المخبات والمزحلقات والمفاجآت فلا ينجو منها إلا بحفظ الله، كقوله (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) يوسف/٦٤، جاء في الدعاء (إِللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ) كقوله عن مؤمن آل فرعون ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾

غافر/٤٥

٤٣ - ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْتَهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾

أهلؤاء مستعجلي عذابنا آلهة تحميهم من عذابنا وتمنعهم منا؟ كلا ليس لهم ذلك لأن آلهتهم (لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ) فكيف ينصرون غيرهم أو عابديهم؟ (وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) يُصْحَبُونَ: يُجَارُونَ وَيُحْفَظُونَ وَيُمنَعُونَ من عذابنا، أي لا يمنعهم منا أحد، فلا يصحبون من الله بعون أو سكينه نفسية أو نصر.

كقوله ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ العدد/ ١١ .

٤٤ - ﴿كُلُّ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

وبين الله تعالى السبب في تفضله عليهم مع سوء أعمالهم فقال: إن الذي غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال والفساد (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) أنهم متعمهم الله في الحياة الدنيا وأغدق عليهم بأنواع النعم، وأمددهم بالعديد من المتاع فظنوا أنهم ذو قيمة كبيرة، وأنهم على حق وأن الله أحبهم فأكرمهم، فبقوا على هذا الضلال والفساد والوهم وعمى البصيرة (حتى طال عليهم العمر) لسنوات طويلة حتى قست قلوبهم، وطالت أعمارهم وهم في غفلة عما يُراد منهم، كقوله (تمتعهم قليلاً ثم تضطربهم إلى عذاب عظيم) لقمان/٢٤، وقوله (فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) الأنعام/٤٤، في غرر الحكم (احذروا العفلة فأما من فساد الحس) ولا تعقل فليس بمعقول عنك، فاغترتوا بهذه النعم، وهذا هو البلاء بالترف، ولم يعرفوا مواضع شكره سبحانه (وبالشكر تدوم النعم، والمعاصي تزيد النعم) فأملهم الله ولم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترتوا بالإمهال وطغوا وبغوا ونسوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧ وهو لهم بالمرصاد، وانه يستدرجهم إلى سوء العاقبة من حيث لا يشعرون كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ في غرر الحكم (إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدراج لك) (أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننفصها من أطرافها) (من الآيات المتشابهة) إنه تصوير مجسم متحرك بعيد الدلالة، ظاهره أنيق وباطنه عميق، لتقريب الصورة لسُنن الله في خلقه (أفلا يرون) الرؤية البصرية الحسية، والرؤية العلمية المعنوية الواقعية واسعة الآفاق، فسوف يشعرون أن الله سبحانه هو الذي يدير المعركة بين صراعات الحق والباطل. إنه إلفات نظر المشركين إلى أنه سبحانه القوي القهار يُذل الجبابرة ويُرغم أنوف المتكبرين، فإذا هم في لباس الذلة بعد العزة، وفي دار الهوان والضعف بعد الكرامة والقوة، وفي ضنك العيش وضيق النفوس وكآبتها بعد النعمة والرفاهية، هذه سنة الله في هذه الدنيا كقوله (واتخذوا من دون الله آلهة ليكفونوا هم عزاً، كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكفونون عليهم ضيلاً) مريم/٨١-٨٢ وعن النبي (ص) (من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله) البحار ٤/١٣٩ فلا شيء فيها يبقى على حال واحدة (ودوام الحال من المحال) بل كل شيء إلى زوال سريع أو زوال بطيء.

كقوله ﴿بِمَحْوِ اللَّهِ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ العدد/ ٣٩ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ

النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن/٢٩ .

(نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) فالنقص لأطراف الأرض هو النقص في النعم من مال ومتاع وبنين، ونقص من قوة وصحة ومن جاه وسلطان، ونقص من حياة وموت للأفراد والمجتمعات، ونقص من النهضات والتطورات والحضارات، وأيضاً (نَقْصُهَا) كناية عن انقراض أمة بعد أمة، وموت جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الأعراف / ٣٤، وتغيّر الأحوال دولة بعد دولة من حال إلى حال، وتفتت حضارة بعد حضارة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء / ١٠٥، وقد أشار القرآن (مِنْ أَطْرَافِهَا) من أطراف الأرض أي جوانب منها، وهي الجوانب التي تمثل سلب النعم، الذين طال عليهم العهد، وقظوا السنين الطويلة وهم في تلك الرفاهية التي أنستهم ذكر الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة / ٦٧ من رحمته، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ الحشر/ ١٩ (أَفْهَمُ الْغَالِيُونَ) وهذه النعم التي عندهم هي إلى زوال وترحل عنهم وتفلت من أيديهم، فأهم لا يستطيعون دفع بلاء الله إذا نزل بهم فهم مغلوبون وخاسئون، عن الإمام الصادق (ع) (نَقْصُهَا) نقصانها ذهاب علمائها وأهلها) جمع البيان ٩٤/٧، وقدوتها وقادتها، كأحد مصاديق النقصان .

٤٥ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

قل يا محمد هؤلاء الجاحدين الساخرين أهزؤون بي وبالقرآن؟ وما أتيتكم بشيء من عندي، وإنه لقول فصل وما هو باهزل من العلي القدير، ومهمتي (أُنذِرُكُمْ) أحذركم وأخوفكم (بِالْوَحْيِ) بوحى من الله لا ريب فيه، إنكم ستعودون إلى الله، عودة لا بد منها، ولا شك فيها، عودة لتصفية الحسابات، كقوله (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الأنعام/ ٩٤ وأنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب لا من تلقاء نفسي، والله أعلم بي وبكم كقوله ﴿لَيْتَآ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء / ١٦٥ (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وجمود مشاعركم، وقسوة قلوبكم وعناد طبعكم، أصبحتم كالصم الذين لا يسمعون كلام الله، والإنذار من الجزاء فلا يتعضون ولا ينزجرون، وكيف تسمعون التحذير والإنذار وفي آذانكم (الصُّمُّ) الطرش عن سماع الهدى، ولكنها تسمع نداء الهوى والشيطان، جهاز السمع عندهم صالح للسمع، فالنقص فيكم وليس بالرسالة والمرسل والرسول، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهَوَى)؟ فائدة: شَبِّهُوا بالصِّمِّ وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا آيات الله لا تعيها آذانهم كقوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنفال / ٢٣ لأن آذانهم أصممتها حجب الذنوب والغرور والغفلة، فلا تسمع الحق ولا تصغ له ولا تتأثر به، كقوله (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطففين/ ١٤ .

٤٦ - ﴿وَلَكِنَّ مَسْئَلَهُمْ فَتْحَةَ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

(وَلَيْنَ مَسْتَهُمْ) ملامسة خفيفة فيها رائحة العذاب، قبل أن يستذوقوا العذاب نَفْحَةً : الشيء الضئيل من العقوبة (وَلَيْنَ مَسْتَهُمْ نَفْحَةً) ولئن أصابهم لدعة خفيفة ومسحة طفيفة، مما أُنذروا به (مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ) ولو كان سيرا لذلوا وخضعوا مضطربين (لَيَقُولَنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) ليقولون ويعترفون أنا كنا مجرمين، فالويل والهلاك لأنفسنا بتكدينا رسل الله، فهو الإقرار بعد فوات الأوان كقوله (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام/١٢ عن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاثُوا إِنْتَبَهُوا) روح البيان ٢ / ١٣٢، إنهم يتغافلون عن أهم الأشياء في مصيرهم الأبدي، والذي يتغافل عن الأهم فإنه لا يميّز بين الأهم والمهم، عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ)! تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ .

٤٧ - ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾
 الْقِسْطُ: العدل، الْمَوَازِينُ: ليس المراد منها الموازين المادية المعروفة التي تزن الأشياء المادية مقابل عيار مادي معيّن، وإنما المقصود الموازين المعنوية التي توزن أعمال الناس، وأعمال الناس لها ميزان عادل دقيق معنوي خاص، وهو ميزان القرآن الكريم وأحكام شريعة الله ودينه القيم، المعنى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) وتُقيّم الموازين العادلة الدقيقة المنصفة، التي توزن بها الأعمال كلها حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها بأقوالها وأفعالها، مع نياتها في يوم القيامة (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) فلا ينقص محسن من إحسانه وثوابه، ولا يُزاد مسيء على إساءته وعقابه (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) مِثْقَالُ : الوزن في غاية القلّة، حبة الخردل: مثل في غاية الصغر وخفّة في الميزان، أي: وإن كان العمل الذي عملته زنة حبة من خردل جئنا بها وأحضرناها للحساب، وكأنه هناك كاميرة خفية ولها شريط مُسجّل مُجسّم ذو أبعاد ثلاثة بالصورة والصوت والنية، وفيه دلالة أنّ حساب القيامة دقيق جداً يفوق حدّ التصوّر، (وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) عادّين حافظين عالمين، كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها، لا نشبهه بشيء ولا يفوتنا شيء مهما بلغ العدد فنحن في دقة من الحساب.

فائدة ١- كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الانفطار ١٠-١٢ عن الإمام علي (ع) (أَنَّ عَلَيْكُمْ حَفَاطُ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِكُمْ لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةٌ لَيْلٍ دَاجٍ...) في نهج البلاغة، ٢- ان الله سبحانه يقيس أعمال العباد بأمره ونهيه، فمن جاءت أفعاله على وفق أمر الله، وتركه على وفق نهي الله تعالى (بالقدر الممكن) على أساس الورع عن محارم الله، فهو ممن ثقلت موازينه وحسنت عاقبته، وإلا فهو من الذين خفّت موازينه وساءت عاقبته، ٣- جمع (الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ) إشارة إلى أن لكل إنسان ميزاناً توزن به أعماله على كثرتها وتنوعها بميزان الإخلاص، فلا ينتظر غيره حتى يفرغ من حسابه ووزن أعماله، بل إن الإنسان الواحد له موازين

كثيرة بعضها لسيئاته وبعضها لحسناته، ولكل عمل من أعماله السيئة والحسنة ميزان ومعيار خاص كقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ القارعة / ٦ - ٩، ٤ - (وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) إشارة إلى عدل الله في الحكم، وإلى ضبطه لأعمال الناس كلها، ومحاسبتهم عليها جميعهم دون استثناء، فلا يقع في حساب الله خطأ ولو كان مثقال حبة من خردل كقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ التين/٨، فسبحان من وسع كل شيء رحمةً وعلماً.

٥- وليعود المعرضون إلى منهج الله قبل أن يحقّ النذير، ويحل الندم في وقت لا ينفع الندم، كقوله ﴿فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ الكهف/١٠٥، ٦- وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة بأعمال كل إنسان في الدنيا، وترتبط الموازين بسنن الكون الدقيقة، وبسنن الدعوات والرسالات وطباع الحياة والناس، وتلتقي كلها متناسقة موحّدة، وتتركز في يد الإرادة القادرة الواحدة التي تقضي بالحق وتحاسب بالعدل، كقوله ﴿وَيَقُولُونَ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٩، أما المشركون والكافرون والمنافقون كقوله ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ الكهف/١٠٥، ٧- ومن المصاديق العملية على (المَوَازِينِ الْقِسْطِ) هي الموازين المعنوية، وهم الأنبياء والأوصياء والأئمة من أهل بيت النبي (ص) عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الْحَيْرَ ثَقُلَ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَدَرِ ثِقَلُهُ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَدَرِ خِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ) البحار ٧١ / ٢١٥ (المَوَازِينِ الْقِسْطِ): هي موازين العدل والانصاف، كقوله ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الأعراف / ٨

٤٨ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾

(وَلَقَدْ) الواو واو القسم، أي قسماً لقد أعطينا موسى وهارون التوراة كما أنزلها على موسى (ع) قبل التحريف (الْفُرْقَانَ) وكل كتاب سماوي (فُرْقَانٌ) لأنه يفرق ويميز بين الحق والباطل والهدى والضلال، والصحيح والخطأ، فيحصل معها نوراً في القلوب المؤمنة، وعلماً في العقول المنفتحة، واستقامة في السلوك العام قولاً وعملاً ليهتدوا إلى سعادة الدنيا والآخرة، والتوراة (ضِيَاءً) بيد ظلام الجهل والكفر والتخلف، ونوراً يهتدي به إلى الحق والفرقان يجعل لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ووعيه، وتنزل عليكم الفيوضات والإشراقات التي تسعف المؤمن عندما يقع في مأزق كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال/٢٩ (وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ) والتوراة ذكر لمن طلب التقوى، فهي تذكّر بالله واليوم الآخر وتبين حلاله وحرامه ووسائل الهداية، لما اشتملت عليه من الحكم والمواعظ والتوراة (وكل الكتب السماوية) تنبيه الغافلين كقوله ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف / ٢٠٥، ولو تراكمت الغفلات تَكُونُ رَانَ القلوب الذي يحجب الرؤية ويُعَمِّي

البصيرة، والذكر هو الذي يجلي ران القلوب، وما يعلق عليها، كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤، وإنما خَصَّصَ المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره وقد عبّر الله سبحانه عن القرآن بالفرقان أيضاً، كقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان / ١ ثم ذكر أوصاف المتقين فقال :

٤٩ - ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

الحشية: خوف مع تعظيم وخضوع، إنه خوف هيبه ورغبة لا خوف رهبة ورعبة، المعنى: إن المتقين تستشعر قلوبهم خشية ربهم وهيبته ومقامه الكريم كقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر / ٢٨ فكلما تكشفت لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ومنه مهابة وإجلالاً. (بِالْغَيْبِ) وهو في عالم غير مرئي لهم، وغائب عن حواسهم، لأنهم عرفوا ربهم المعرفة اليقينية العلمية بالدليل والبرهان، أن لهم رباً عظيماً قادراً قريباً منهم رحيماً بهم، يجازي على الأعمال فهم يخشونه ويخافون مقامه وقربه وهيبته، وإن لم يروه بمشاهد الأعيان الحسيّة وإنما يروه بحقائق الإيمان المعنوية الغيبية مع العلم والحجة والبيان، بحيث لو كشف لهم الغطاء والحجب لم يزدادوا يقيناً، في غرر الحكم (لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا إِزْدَدْتُ يَاقِينًا)! لأنهم عبدوا الله لا خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته وإنما رأوه أهلاً للعبادة فعبدوه، إنها منزلة علمية تكاملية جمالية سامية نموذجية مميزة. كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كنز العمال خبر ٦٦،

كقوله ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ق / ٣٣ (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) خائفون حذرون راجون من الله الرحمة، أي وهم من أهوال يوم القيامة وشدائدها وسائر أحوالها خائفون وجلون، وهم على استعداد لها بالاستقامة والانضباط على منهج الله، فائدة: ١- (بِالْغَيْبِ) من علامات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، ويخشون ربهم في سرائرهم والخلوة مع أنفسهم، والذين يخشون ربهم في السر والغيب أولى وأفضل من الذين يخشون ربهم في العلانية كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن / ٤٦، عن النبي (ص) (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) البحار ٧٧ / ١٨٠، في غرر الحكم (الْخَوْفُ مِنْ جِلْبَابِ الْعَارِفِينَ)، من دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِلَهِي: كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْ كُونْ لِعَبْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونُ هُوَ الْمُظْهِرُ لَكَ؟ مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَخْتِجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيْبًا وَحَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيْبًا!، إِلَهِي: مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟! لَقَدْ حَآبَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ حَسِرَ مَنْ بَعَى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً، كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ؟ وَكَيْفَ

يُطَلَّبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ، إلهي: كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَعِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ؟) ٢- (السَّاعَةِ) سُمِّيت السَّاعَةُ بيوم القيامة لسرعة حسابه كقولهِ ﴿هُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾ الأنعام / ٦٢.

٣- (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) سؤال: كيف نؤمن بالله ولم نره ؟

كيف يخشون ربهم بالغيب ولم يشاهدوه؟ الجواب: عالم الغيب والمعنى (العالم المعنوي) أضخم من عالم الشهادة والحضور والمادة (العالم المادي)، وأيضاً العالم غير المرئي (العالم المعنوي) أكبر وأوسع وأفخم وأكثر تأثيراً من العالم المرئي (المادي) العالم الآخر، العالم الروحي المعنوي غير الحسي، عالم لطيف خفيف علوي شفاف نفاذ، عالم يليق بالملا الأعلى، أما عالم الجسد المادي الحسي، فهو عالم ثقيل كثيف سفلي أرضي تراي تأخذه جاذبية الأرض، عند الموت تأكله الديدان، فيكون هذا الجسد مثل السجن لهذه الروح العليا! أمثلة (في عالم النفس) كقولهِ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/ ٢٠-٢١ نحن نؤمن بالعقل والفكر ولم نرها، ونؤمن بالنفس (الروح) ولم نرها، ونؤمن بعمل الكبد ولم نره، ونؤمن بالحب والبغض ولم نرها، ونؤمن بالنظام والعلم وبالحق والحقوق والخير والصحة والعزة والقوة.. ولم نرها.. وهكذا، أمثلة (في عالم الآفاق) نؤمن بعالم الذبذبات ولم نراها، ونؤمن بالموجات الصوتية والذبذبات المختلفة، والإشعاعات المتنوعة ولم نرها، وعمل الجهاز اللاسلكي، وعمل الموبايل ولم نر كيفيته، ونؤمن بالهواء وأنواعه وأقسام الغازات فيه كالأكسجين، وثاني أكسيد الكربون وغيرها ولم نرها، ونؤمن بالكهرباء وفوائده ولم نره، ونؤمن بسرعة الضوء الهائلة ولم نرها وهكذا.

وقال العلم الحديث: إن الذي يجهله الإنسان أكثر من الذي يعلمه، وقد عَرَفَ الإنسان عن نفسه وعن الكون والكائنات شيئاً قليلاً، وغابت عنه أشياء كثيرة! في غور الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، عَجِبْتُ لِمَنْ يَجْهَلُ نَفْسَهُ كَيْفَ يَعْرِفُ رَبَّهُ!)، وهكذا الإنسان يخدعه بصره ولكنه لم تخدعه بصيرته (عقله، وقلبه) فيرى انكسار العصي في الماء وهي غير ذلك، ويرى القرص الملوّن في دورانه وكأنه لون واحد، ويرى أذرع المروحة السقفية المتعددة الأذرع، يراها في أثناء الدوران كأنها ذراع واحد.. وهكذا، ونؤمن أن هناك أناساً على ساحة الكرة الأرضية الواسعة ولم نرهم، كقولهِ ﴿سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت / ٥٣ إِنَّهُ وَعَدُّ اللَّهُ الصَّادِقَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَطَّلِعَهُمْ عَلَىٰ أَشْيَاءَ مَهْمَةٌ مِنْ خَفَايَا هَذَا الْكَوْنِ، وَمِنْ خَفَايَا أَنْفُسِهِمْ عَلَى السَّوَاءِ، بالتدرج الزمني، وهكذا يكتشف العلم الحديث أشياء وخفايا مهمة بين حين وآخر تبين أنه الحق بهذا الدين، وهذا الكتاب (القرآن) وهذا المنهج الإسلامي القيم كقولهِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء / ٨٧.

٥٠ - ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

الذكر: القرآن، وسمي القرآن ذكراً لأنه يذكر بالله تعالى من يتذكر ويجذبك إلى منهجه، مُبَارَكٌ: كثير البركات، دائم العطاء والنفع والخير والرعاية لكل الناس لأنه ﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾ البقرة / ١٨٥ يعطيك إرشاداته فوق ما تتوقع منه، فيه من العجائب والكنوز والأسرار بالتلميح أو بالتصريح مالا تنتهي، وخيره يتجاوز عصره إلى كل العصور، فيعطي كل يوم سرّاً جديداً من أسرار نصوص القرآن، كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) فصلت/٤٤ في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْعَيْ وَالضَّلَالُ) أفضّل هذا الدستور الهادي العظيم يتوجّه إليه إنكاراً!! والإشارة إليه (بهذا) الذي يدل على قرب المشار إليه، قربه من الأفهام وتناثر به النفوس، ويُسر تناوله والانتفاع به والاهتداء بهديه، المعنى : وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى مُحَمَّدٍ (ص) (ذِكْرٌ) لمن يتذكر به لأهم الأمور، وموعظة لمن اتّعظ بها (مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ)، وهو كثير النفع والخير لمن اتبع أوامره وانتهى عن نواهيه (أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) الاستفهام للتوبيخ. أفأنتم يامعشر العرب منكمون لبركاته وخيراته وقد وضحت حجته وقامت دلالته ؟ وتحتجون عليه ولا تصدقون أنه من عند الله ؟ وأنتم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام وبلاغته ولطائفه ما لا يدركه غيركم، فهذا ما لا يقبله عقل راجح ولا فكر رصين، وإن أنكر الجاحدون حقه ودوره، وأعانهم على ذلك المسلمون باهملهم أمره وهجرانهم دوره كقوله ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ الفرقان / ٣٠ ولا يضرون إلا أنفسهم، لأن الله جعل عزتنا في القرآن، ودُنَّا في تركه، فإنه (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ يَصُرُّهُ الشَّيْطَانُ) روي : (ما تَرَكَ أَحَدٌ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ لَا سِتْصِلَاحَ دِينُهُ إِلَّا عَوَضَهُ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ). عن النبي (ص) (ويل لمن طلب الدنيا بالدين) كثر العمال خير ٢٩٠٩١.

٥١ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾

الرشد: النضوج والاتزان والهداية، والرشد خلاف الغي، والرشد: السير نحو التكامل الإنساني، وإصابة الواقع ووعي الظروف المحيطة به، والاهتداء إلى وجوه الصلاح والاستقامة في الدين والدنيا والرشد له اتجاهان: رِشْدُ الْبُنْيَةِ وهو سن البلوغ، وُرُشْدُ الْمَعْنَى أي رِشْدُ فِكْرِي يرتقي فيه العقل بالتفكير والنضوج، وحسن التصرف، ويكتمل الذهن حين يختار ما هو أفضل بين عدة بدائل، ومن الرِشْد ما سمّاه القرآن الأشدّ كقوله ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الأحقاف / ١٥ والأشدّ: هو التسامي في الرشد، فمن لم يرشد وينضج حتى الأربعين فيقلّ الأمل فيه. وهناك مصطلحات معاصرة يقولون (الرشد السياسي) (ترشيد الاستهلاك) هذا ترشيد دينوي عام، أما ترشيد الأنبياء هو ترشيد التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، والحياة والموت، والروح والجسد،

والأمل والعمل، هو ترشيد القلب وتسامي الروح ووعي العقل. المعنى: ولقد أعطينا إبراهيم أبو الأنبياء الحجج القطعية والمؤهلات والوسائل المناسبة التي توصله إلى الرشد، وأول الرشد الهداية والمعرفة والعلم والذكاء والفطنة منذ الصغر، ومعرفته فلسفة الحياة، وكماله بالنبوة والوحي منذ الكبر (مِنْ قَبْلُ) من قبل موسى وهارون ووقفناه للحق، والاستدلال إلى توحيد الله منذ صغره وقبل بلوغه، فانتعشت نفسه بحياة التوحيد، وسهّلنا له سبيل الرشاد، وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام، لما له من إدراك مصيب وقلب سليم، فصار يأبى بطبيعته قبول الرجس والخبث، فتظهر علامات الرشد عنده في مواجهة الخرافات والانحرافات والانتكاسات والغلو المنتشرة في الأمة، بأساليب مؤثرة وليست مُنقّرة.

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) عالين أنه أهل لحمل الفضائل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات فاعطاه النبوة واختاره للرسالة كقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام / ١٢٤، ثم أعطاه وشرّفه بالإمامة بعد النبوة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ البقرة / ١٢٤ ومنزلة الإمامة من النبوة، غير منزلة إمامة أهل البيت (ع) بلا نبوة (فَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ إِمَامًا، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ إِمَامٍ نَبِيًّا) فائدة: ١ - إمامة إبراهيم (ع) للناس ليكون قدوة وأسوة لهم في أمور الدين والدنيا وفي الأقوال والأفعال، ومنزلة الإمامة بعد النبوة هي هداية خاصة لمنزلة نموذجية رفيعة مميزة، والهداية الخاصة هي الإيصال إلى المطلوب والمرغوب، وهي أعلى منزلة من الهداية العامة بمعنى (رؤية الطريق الصحيح) عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ (ع) عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءَ قَالَ (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)) البقرة/١٢٤، البحار ١٢ ص ١٠٢.

٥٢ - ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَتَمَّرْتُمْ عَلَيْهَا عَاكِفُونَ﴾

عَاكِفُونَ: مقيمون ملازمون لها مقبلون عليها باستمرار، وتقربون لها القربان، وتقدرونها وتدفعون عنها، فهو عكوف معنوي لا زماني، المعنى: هذا بيان للرشد والهداية والوعي الذي آتاه الله لإبراهيم منذ صغره، هي ثورة على الجهل العام ومقاومة للخرافة والصنميّة السائدة في المجتمع، (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ) آزر وهو عمه أو جدّه لأمه، (وَقَوْمِهِ) المشركين وهو مستنكر عليهم، مستغرب من أفعالهم (أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) وفي قوله (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ) تحقير لها وتصغير لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها! قال لهم (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ) ولم يقل (إنها آلهة)، ثم يستخفّ بتعلّقهم بها، وهو فرد أعزل وهم أمة ضالة مضلة!، كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣، عن الإمام الباقر (ع): (الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ خَدَّهُمَا خَدَلَهُ اللَّهُ) وسائل الشيعة ١١ / ٣٩٨، فائدة: الصنميّة حالة مادية ومعنوية، لها دلالات

واسعة، هو كل ما يُعَدُّ الإنسان عن الله، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمُكَ) هناك أفكار متخلّفة صنيمة، وعقائد وقناعات منحرفة صنيمة، وعادات وتقاليد صنيمة تُعَبَّدُ وتطاع من دون الله، عن النبي (ص) (ذُنْيَاكَ مَا يَشَعَلُكَ عَنِ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦ عن الإمام علي (ع) (إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ سَامِرِيًّا) نور الثقلين ٣/٣٩٢، وهو رمز الضلالة، وعنوان الشرك، ومركز الانحراف في عصر موسى (ع)، وفي كل زمان ومكان.

٥٣ - ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾

هذا هو كل ما عندهم، وهو جواب الجاهل الذي يُعْطَلُّ عقله ولا يفكر ولا يتبع الأحسن، إنه جواب يدل على التحجّر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الخرافية والسخيفة، إنا اقتدينا بأبائنا بلا تدبر ولا تأمل، وليس لنا برهان على صحة ما نفعل، إنه الاتباع الأعمى، والسير مع الهوى، والعقل الجمعي، والتيار الاجتماعي العام، الذي يخالف الهدى والفترة والاستقامة كقوله ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ البقرة / ١٦٦ إنه اتباع للواقع الفاسد الصني المألوف بلا تبديل ولا تحويل ولا تغيير نحو الأحسن، ولا إصلاح للعيوب ولا مبادرة نحو الأفضل، ودائماً الذي لا يفكر يقوده الذين يفكرون، ويكون ضحية من ضحاياهم، ويكون جسراً يعبرون عليه، إذًا : المقولة الشعبية (حَشْرٌ مَعَ النَّاسِ عَيْدٌ!) مقولة خاطئة خطيرة، وكذلك مقولة (أَكْبَرُ مِنْكَ يَوْمٌ، أَعْقَلُ مِنْكَ بِسَنَةٍ) مقولة خاطئة، في غرر الحكم (المرءُ يُوزَنُ بقوله، وَيُقَوَّمُ بفعله) وفيه أيضاً (الْعِلْمُ بِعَيْبِ الْعَمَلِ وَبِإِلٍ، أَلْعَمَلُ بِعَيْبِ عِلْمِ ضَلَالٍ).

٥٤ - ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَىٰ وَآبَاءُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

قال لقد كنتم جميعاً ضالين، تتبعون ضالين، لعدم استناد عبادتكم إلى دليل علمي. ولكن القيم والمبادئ والعقائد الصحيحة لا تنبع من تقاليد الآباء وتقديسهم بلا علم وتدبر، وأما تنبع من تقويم الواقع وإصلاح الخطأ والتحرر من الفساد ولو كان شائعاً، والثبات على الصحيح ولو كان في موقف فرد كقوله ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ المائدة / ١٠٠ في نهج البلاغة (لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ مَائِدَةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ وَجَوَعَهَا طَوِيلٌ) خطبة ٢٠١ فائدة: ١- وفي هذا دلالة : إِنَّ الْبَاطِلَ لَا يَصِيرُ حَقًّا بِكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ وَمُؤَيِّدِيهِ، فَالكَثْرَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْمَقْيَاسُ، وَالْقُرْآنُ يَذِمُّ الْكَثْرَةَ، كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الأنعام / ١١٦، ولكن المقياس هو الله عزوجل والاستقامة على نهجه، واتباع رسوله ورسالته الصحيحة التي لا تتعارض مع القرآن الكريم. ٢- وقد نهي القرآن عن اتباع الآباء اتباعاً أعمى فقال ﴿وَلَا تُنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ النساء/ ٢٢ وقوله ﴿أَتَذْهَبَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هود/ ٦٢ وغيرهما.

٥٥ - ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِبِينَ﴾

أأنت جاد فيما تقول أم لاعب ؟ أقولك حق أم مزاح ؟ استعظموا إنكاره عليهم وعلى ضلال آبائهم، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً، لأنهم لم يسمعوا من ينتقدهم ويسقه عقائدهم، وطلبوا منه الدليل على صدق ما يقول تعجباً:

٥٦ - ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

إنها كلمة المطمئن لإيمانه، العارف برسالته، الواثق بربه، قال لهم بل جئتمكم بالحق والجِد لا اللعب، إن الذي يستحق العبادة من أنشأ السماوات والأرض الذي (فَطَرَهُنَّ) خلقهن وأبدعهن من العدم بنظام محكم، لا هذه الأصنام المصنوعة وليست الصانعة، كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١ (وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) المحققين المؤكدين، إنه ليس الشاهد الوحيد على هذه الحقيقة، وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة، كالشاهد الصادق الذي يكون قوله الفصل في إحقاق الحق، إنه واثق فيما يقول ولا يشك فيه شيئاً، إنه دال على وجود الله سبحانه بصنعه، وإن كان لا تراه العيون ولكن آثاره في الحياة تدل عليه، كقوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣.

قال الشاعر: وكل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد، فائدة: (مِنَ الشَّاهِدِينَ) من العالمين به، وليس المراد حقيقة الشهادة والحضور، لأنه لا شهادة من المدعي، بل استعيرت الشهادة لتحقيق الدعوى الرسالية بالحجة والبرهان، أي لست من اللاعبين في دعواي .

٥٧ - ﴿وَاللَّهُ لَاكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِيرِينَ﴾

وأقسم بالله (لَا كِيدَنَّ) الكيد هو التخطيط السري، لأمكرن بآهنتكم، ولأدبرن تديبراً سريعاً لتكسير أصنامكم بعد منصرفكم عنها، إلى عيدكم المعروف، قال ذلك في نفسه أو نادى بها أحد ثقافته فسمعها فحفظها، إنه تحدي الفرد للواقع الفاسد كله، إنه موقف حق في مجتمع جاهلي جائر، إنها الحنيفة المقاومة للجاهلية، المائلة عن كل فساد والمعارضة له والثابتة على الإسلام مع تحمّل كافة المعاناة وردود الأفعال! كقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النساء/١٢٥، عن النبي (ص) (لا حاجة لله فيمن ليس في ماله وبدنه نصيب)

٥٨ - ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

جُذَاذًا : حطاماً، كسّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً إلا الصنم الكبير الذي كان في نظرهم عظيماً، وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم وخرج (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) لعلهم يرجعون إلى الصنم الكبير الرئيس فيسألونه عن كسر الأصنام، وهو حاضر فلم يدافع عن

صغار الآلهة، وهو لا ينطق فيعلمون أنهم في جهل وضلال بعيد وتقوم الحجة عليهم، أو لعل الناس يرجعون إلى إبراهيم فيبين لهم بطلان إلهوية أصنامهم .

٥٩ - ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فعل بها، قالوا على جهة الاستغراب والإنكار والتوبيخ (مَنْ) للاستفهام: إن من حطّم هذه الآلهة ؟ (لَمِنَ الظَّالِمِينَ) لشديد الظلم، عظيم الجرم لنا جميعاً، لجراته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير في نظرهم، وشديد الظلم لنفسه بتعرضها لعقوبة القتل، كان الأجدر أن يتساءلوا لماذا لم تدافع الآلهة عن نفسها ؟ لماذا لا تعاقب المعتدي عليها قبل أن يفعل بها ؟ لماذا لم يسخرها منها على الأقل ؟ وهكذا عندما يألف الإنسان المنكر فيصبح معروفاً، ويصبح المعروف منكراً ! فتكون الخرافة المألوفة قد عطّلت عقولهم عن التفكير، لأن التقليد الأعمى قد أغلق أفكارهم عن التأمل، عن النبي (ص) (لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ أَنْ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا، وَأَنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تَحْسَنُوا، وَإِنْ آسَأَوْا أَنْ لَا تَظْلَمُوا) الترغيب والترهيب ٣/٤١٠.

٦٠ - ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾

(قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ) بالذم ويسبهم ويعيبهم يسمى إبراهيم الشاب، وقد يكون عمره (١٦ عاماً) فلعله هو الذي حطّم الآلهة ! إذ لا يتجرأ على هذا الفعل إلا المتجرئ على ذلك القول، فائدة: ١- (فَتًى) إن إبراهيم(ع) كان شاباً في أول العمر حينما آتاه الله رشده فقام بتحطيم الأصنام! فقام بثورة إنقلابية في العادات الاجتماعية والتقاليد الصنمى الجاهلية، قبل الثورة على تحطيم الأوثان الحجرية! إنه صغير السن ولكنه كبير العقل، جميل المواقف، وكان عقله أكبر من عمره، وكانت مواقفه تسبق أمته، والإنسان يجيا بمواقفه البطولية أكثر مما يجيا بعمره، لذلك صار أسوة حسنة.

٦١ - ﴿ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

قال الرئيس نمrod الطاغية وأعضاء حكومته، الذين هزّهم هذا الحدث الغريب (فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ) أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه وقصدوا التشهير به، والغرض أن تكون محاكمته علنية أمام الناس كلهم، ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) بما قاله فيكون ذلك حجة عليه، ولعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يُصنع به.

٦٢ - ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

فلما تجمع الناس، وتشكّلت المحكمة، وبدأ التحقيق، قالوا : هل أنت الذي حطّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟ وهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة، وهي مهشّمة، أتوا بإبراهيم أمام جميع الناس، وهي

كانت أمنية إبراهيم ليواجه الناس وجهاً لوجه، ليقيم عليهم الحجة القطعية، بأنهم في ضلال مبين حين وجَّهوا إليه هذا السؤال، فائدة: ١- كانت إرادة إبراهيم (ع) وهو فرد أعزل تحمّل إرادة أمة مقاومة محقّة لقوله ﴿أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ النحل / ١٢٠. وكانت إرادة الأمة الضالة فاقدة لأية إرادة، لفقدانها لأية حجة وفارغة من أي دليل علمي، لذلك لم تؤمن بمعجزة النار الباردة الخارقة للمألوف والمعروف.

٦٣ - ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

فأجابهم ساخراً من عقولهم : بل كسرها كبيرهم هذا فهو يكرههم لأنهم ينافسونه في الإلوهية! وقد انتهب غيابكم عن المعبد، وراح يحطم الآلهة بكل قسوة! وقد كانوا يصرخون ويحاولون الهرب ولكن دون فائدة! حيث لم يسمعهم سامع ولم ينقذهم منقذ! والدليل على ذلك كون الفأس أداة الجريمة لا تزال بيده ! فإذا أردتم التأكد من كلامي (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) فاسألوهم عن كسرها ليخبروكم به إن كانوا ممن ينطق على زعمكم أنهم آلهة تنفع وتضر، فكانت حجة إبراهيم قوية الدلالة شديدة الوقع والتأثير في نفوسهم، وكأنما ألقمهم حجراً وهزهم هزاً وردّهم إلى التدبّر والتفكّر والتأمل، والبرهان يقطع الجدل والخصام، عن الإمام الصادق (ع) (مختصر) (إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَكَبِيرُهُمْ فَعَلَ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقُوا فَلَمْ يَفْعَلْ كَبِيرُهُمْ شَيْئاً، فَمَا نَطَقُوا وَمَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ) ميزان الحكمة ٨ / ٣٥٧، وهذا فيه معنى التورية، وهي غير الكذب . والتورية : يفهمها السامع بشيء ويقصد المتكلم بشيء آخر كقوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف / ٨١

٦٤ - ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾

إنها يقظة ضمير سريعة بعد نوم طويل وسبات عميق في ضلال بعيد، وهذه اليقظة في الضمير بسبب سياسة الصدمة والهزّة، من أهم أهداف الأنبياء (ع) فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا وتأملوا وتدبّروا بدقة بقلوبهم، فلاموا أنفسهم وتنبّهوا أنهم على ضلال، وتساءلوا كيف نعبد أحجاراً لا تدفع السوء عن نفسها، فكيف تدفع السوء عن غيرها ؟ وكيف تستحق أن تُعبّد من دون الله ؟! ثم بيّن ملامتهم لأنفسهم ومجتمعهم (فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) فقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون لأنفسهم، لأنكم ضالون لأنفسكم ومضلون لغيركم، وتتحركون بجهل وغرور، وليس إبراهيم (ع) الظالم، ولكن سرعان ما عادوا إلى الخرافة التي ألفوها فعمرت عقولهم ونفوسهم كقوله ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الروم / ٢٩ في نهج البلاغة : (أَهْوَى شَرِيكَ الْعَمَى) كتاب / ٣١، فائدة: البلاغ المتكرّر والمتنوّع يوقظ النفوس الصنميّة، وكانت ظاهرة خير أن يحصل عندهم اهتزاز فكري، في قناعاتهم، وأن يشعروا ما في أنفسهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ووهم، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة، فيتدبّروا ذلك الفكر الصنمي المتحجّر

السَّخِيفِ الَّذِي يَأْخُذُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَذَلِكَ الظلم الذي فيه غارقون! وهكذا الطَّرِيقُ المِتَكَرِّرُ يُفَكُّ عُنُقَ الفِكرِ المِتَحَجَّرِ .

٦٥ - ﴿نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ﴾

نُكِسُوا : قُلبوا، أي انقلبت عندهم الموازين الصحيحة، فانقلبوا من الازدعان إلى المكابرة والطغيان، فانقلبوا وتراجعوا من الاعتراف بالحق إلى دعم الباطل المألوف والإصرار على الخطأ، وهذا هو الخذلان والخسران، كانت الأولى رجعة إلى النفوس ويقضة للهدى كقوله ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وكانت الثانية ﴿نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ نكسة على الرؤوس وخذلان للعقول كقوله ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آهْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الفرقان / ٤٢؛ وهبوط في التفكير والتقدير كما يقول التعبير القرآني المصوّر العجيب للموقف، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الهَوَى؟)، (لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ) وعادوا إلى الجدال، لقد علمت يا إبراهيم إنّ هذه الإصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها؟! وهذا إقرار منهم بعجز آلهتهم، فائدة: ١- تشير الآية إلى أن لكل إنسان عقلاً لو رجع إليه وتفكر في حاله لعلم أنه على صلاح أم فساد عن الإمام الصادق(ع) (العقل: ما عُبدَ به الرَّحْمَنُ واكتسبت به الجنان) الكافي ١/ص ١١ وفي غرر الحكم (العَاقِلُ مَنْ تَوَرَّعَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَتَنَزَّهَ عَنِ العُيُوبِ) وهذه فوائد محاسبة النفس كل يوم، ٢ - قال (يَبْتَغُونَ) ولم يقل (يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال يعتمد السمع والعقل أيضاً، لأنَّ عدمَ نطقهم أبلغ وأكثر تأثيراً من صدمتهم بعدم الجواب. وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوجههم:

٦٦ - ﴿قَالَ اقْتَبِدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾

(قَالَ) ليدعم دعوته الحقّة وهو فرد أعزل، دون أن ينشغل بالدفاع عن نفسه أمام الطاغية النمرود وقومه المشركين، المعنى : قال إبراهيم(ع) مستنكراً لأفعالهم، أنه ليس كل من قدر على الضر والنفع استحق العبادّة، وإنما يستحقّها من قدر على خلق الحياة والممات، وأعطى أنواع النعم، وقدر على الثواب والعقاب، ومن توجه إلى الله بوجه واحد كفاه الوجوه كلها، ومن تحمّل همّاً واحداً لله كفاه الله الهموم كلّها ! فكيف بكم وأنتم تعبدون أحجار لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم، بل تضركم لأنكم تعيشون معها الوهم إنها تنفعكم، وأنها تقربكم إلى الله زلفى! كقوله (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَكِنَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يونس/٣٩، لذلك أجابهم إبراهيم(ع) بضيق وشدة على غير عادته وهو الصبور الحليم، لأنَّ السَخْفَ والحماقة هنا يتجاوز صبر الحليم فقال :

٦٧ - ﴿أَفِ لَكُمْ : كَلِمَةٌ تَضَجَّرُ، وَمَعْنَاهَا قَبْحاً لَكُمْ وبراءة منكم ولمعبوداتكم، التي اتخذتموها للعبادة من دون الله (أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟) أفلا تتدبرون أنكم على خطأ وضلال وقبح كبير، بعيد عن العقل السليم

والتفكير الصحيح، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال خير ٤٣٥٨٨، وفي مجتمع طاغ باغ.

٦٨ - ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

لما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب، أخذتهم العزة بالإثم، كما تأخذ الطغاة دائماً، فيلجؤون إلى القوة الغاشمة والبطش والتنكيل فقالوا (حَرِّقُوهُ) مبالغة الحرق، احرقوا إبراهيم بالنار وَحَوَّلُوهُ رَمَاداً، انتقاماً لأهنتكم ونصرة لها، فيألفها من آلهة موهومة ينصرها عبادها! (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) إِنْ كُنْتُمْ حَقّاً فاعلين على نصرة آهنتكم غير خاذلين لها .

٦٩ - ﴿فَلَمَّا يَأْتُنَا بُرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ نصر الله تعالى وجعل كلمته هي العليا، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار بطريقة إعجازية خارقة عن المألوف والمعروف ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج / ٤٠، المعنى: كيف لم تحرق النار إبراهيم؟ فالذي قال للنار كوني حارقة، هو الذي قال لها كوني برداً وسلاماً! ولكلمة (كُونِي) تصنع كل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس ٨٢ / (فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) إِنَّ الَّذِي جَعَلَ لِلنَّارِ خَاصِيَةَ الْحَرِّقِ هُوَ نَفْسُهُ الْقَادِرُ الْعَلِيمُ الَّذِي أَفْقَدَ قَدْرَتَهَا عَلَى الْحَرِّقِ، فَاصْبَحَتْ نَاراً ذَاتَ وَهْجٍ وَلَكِنهَا بَارِدَةٌ لَا تَحْرَقُ!

فائدة: ١- لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض و أضرموها ناراً، فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر إذا مرَّ من فوقها يحترق من شدة لهيبها، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاء إليه جبريل فقال ألك حاجة؟ إما إليك فلا، فلما طرحوه دعا الله منقطعاً إليه، وقال رب إني أنصرك فانصري، وقال (حَسْبِيَ مِنْ سؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي!) فقال الله تعالى (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) ولو لم يقل الله (وَسَلَامًا) لأذى إبراهيم بردها! ومعه جبريل وهما يتحدّثان في روضة خضراء!

٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨ وهنا يكشف القرآن عن قانون عام هو الدفاع عن المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧ فيربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم على طريق الهداية، ويمدهم بالصبر ويؤدهم بالحكمة في التصرف في المواقف الصعبة، إنها إمدادٌ من الله وأداة من أدوات الدفاع، وكم من كربات تحيط بأشخاص وجماعات من شأنها أن تكون القاضية، وإن هي إلا لفنة صغيرة فإذا هي تمر ويكون الخلاص منها، وهكذا يشعر كل مؤمن بأن الله تعالى معه وناصره وله الفضل العظيم عليه كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كنز العمال خير ٦٦٦، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

الحديد/٤، وعنه (ص) (أُتِيَ بِإِبْرَاهِيمَ يَوْمَ النَّارِ إِلَى النَّارِ فَلَمَّا أَبْصَرَهَا قَالَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) كنز العمال خبر ٣٢٢٨٨ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب / ٤٣ .

٣ - سؤال : كيف بردت النار وهي محرقة بالطبع؟

الجواب: إنَّ القوانين العقلية الرياضية هي التي يجب إطرادها، ويستحيل نقضها مثل المربع والمثلث له ثلاثة أضلاع، إما القوانين الطبيعية فنقضها وتخلّفها ممكن عقلاً، يمتنع عادة، مثل الحديد يمتد بالحرارة، فإن العقل لا يرى أي تناقض في أن يوجد الحرارة ولا يتمدد الحديد، وأن لا تؤدي النار إلى الإحراق، ولا شيء أدلّ على ذلك من أن العلم بالقضايا الطبيعية مصدره الحس والتجربة، أما القضايا الرياضية فمصدره العلم بها والفطرة وبديهة العقل، **والخلاصة:** إن إرادة الله تعالى أرادت حماية إبراهيم وكان ما أراد، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر (وَاللَّهُ يَخْتُكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد / ٤١، وكل المخلوقات مسخرة بأمر الله وهي من جنود الله ﴿وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح / ٤ **وقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾** الدثر / ٣١، فكما أمر الله العنكبوت فنسجت بيتها على باب غار ثور في الوقت المناسب والمكان المناسب لحماية الرسول (ص)، كذلك أمر الله النار أن تتخلى عن خاصية الحرق لحماية إبراهيم (ع) وكما عطلّ الله قانون السيولة في الماء عندما انفلق البحر لموسى (ع).... وهكذا بقية المعاجز الخارقة .

٧٠ - ﴿وَأْمُرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

أوقدوا النار ليحرقوه بها، فتحوّلت النار من معجزاته الخارقة، والدليل القاطع على صدقه وأنه نبي مرسل، وأيضاً الدليل على كذب قومه وضلالهم (فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) وهكذا على وجه الإطلاق والمبالغة في الخسران، فكانوا أخسر الناس حيث كادوا لنبي بعثه الله لانقاذهم من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة، فردّ الله كيدهم بالخيبة والخذلان والخسران **كقوله ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾** الكهف/ ١٠٣ **وقوله ﴿أَفَأَمَّنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** الأعراف/ ٩٩، **فائدة: ١-** الجهاد لنصرة الحق والحقوق فيه الخير الكثير، وإن كان فيه من صعوبات ومعاناة وتضحيات فهي هيئة في سبيل الله، فلنجاهد كما جاهد إبراهيم (ع) وأمامنا (إِخْدَى الْحُسَيْنِينَ) التوبة / ٥٢ **إِنَّمَا النَّصْرُ وَإِنَّمَا الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكِلَاهُمَا عَزٌّ وَشَرَفٌ، ٢-** والشيء الغريب أن القوم الذين شاهدوا المعجزة الخارقة الغريبة، بسلامة إبراهيم من الحرق لم تُدهشهم هذه المعجزة ولم يؤمنوا! وهذا مما يدل على أن الذي لا يؤمن لو جئته بكل المعاجز الخارقة لا يؤمن، بينما المؤمن (بالعكس) يؤمن بالدليل الواحد القطعي بسرعة، **كقوله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**

٧١ - ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجر من العراق (بابل) إلى فلسطين، التي بارك الله فيها الخير (البركة المادية والمعنوية)، وهي معروفة بالأرض الخصبة، وكثرة الأنبياء وكانت مهبط الوحي ومبعث الرسل من نسل إبراهيم، وقيل: الأرض المباركة بيت المقدس (المسجد الأقصى) فهو أول القبلتين وثاني الحرمين عن النبي (ص) (الهِجْرَةُ هِجْرَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَنْقَطِعَ الْهَجْرَةُ مَا تُقْبِلَتْ التَّوْبَةُ) كنز العمال خير ٤٦٢٦٢ .

٧٢ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾

(وَوَهَبْنَا) وأعطينا إبراهيم إسحاق (بعدهما سأل ربه الولد) بقوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الصافات/ ١٠٠. وأعطيناه كذلك الحفيد يعقوب (نَافِلَةً) أي عطية ومنحة زيادة على ما سأل وفضلاً من غير سؤال مبالغة في الإكرام (وَوَهَبْنَا) يشير التعبير إلى إن الأولاد من مواهب الله تعالى لا من مكاسب العبد (وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) يشير التعبير إلى أن الصلاح مع النفس ومع الله ومع الناس من المواهب أيضاً، وحقيقة الصلاح الاستقامة على منهج الله في كل الأحوال لتفاعله مع الفيض الإلهي. (وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) صَالِحِينَ: أهل اللياقة بنعم الله، ومتهمين للكرامة الإلهية وللنبوة، وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناهم من أهل الخير والصلاح. فهم صالحون مظهراً وجوهراً وقولاً وفعلاً، كما هم صالحون في أنفسهم وعقيدتهم ومع الناس. فائدة: ١- ترك إبراهيم وطنه في العراق وأهله وقومه فعوّضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه، وعوّضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب وأهلاً خيراً من أهله، وعوض من ذريته أمة كثيرة العدد فصاروا قوماً خيراً من قومه، وجعل من نسله أئمة يهدون إلى الخير، ٢- عن الإمام الرضا (ع) (أَكْرَمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَنْ جَعَلَ الْإِمَامَةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَأَهْلِ الصَّفْوَةِ وَالطَّهَارَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ وَقَالَ: فَلَمْ تَزَلْ فِي ذُرِّيَّتِهِ يَرِثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ حَتَّى وَرَثَهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ (ص)) الميزان ٣٠٨/١٤، كقوله ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ آل عمران/ ٦٨.

٧٣ - ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾

الإمامة: تعني القيادة الشرعية المسؤولة العامة الشاملة في المجتمع، الصالحة لنفسها والمصلحة لغيرها، لكل الجوانب المادية والمعنوية، الدنية والدينية والأخروية والظاهرية والباطنية. المعنى: (وجعلناهم) أي أهلناهم فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة، وقيادة ورؤساء ورسول لغيرهم، يرشدون الناس إلى دين الله والحق والاستقامة مع الناس بأمر الله، فتكون الإمامة قمة السير في طريق التكامل الإنساني، والإمام الحق: هو الذي يبدأ بنفسه، ويكون القدوة الحسنة والمثل الأعلى بفعله قبل قوله، يكون فعله من خلال قوله، ولا يختلف فعله عن قوله، ومفهوم الإمامة امتداد للنبوة،

بمؤهلات خاصة، والإمامة القدوة المميزة والأسوة النموذجية الحسنة، الأمانة على حمل الرسالة وحفظها والدفاع عنها ورفع الشكوك والشبهات التي تكون عليها، فهي توحد الكلمة، على أساس كلمة التوحيد، وفي ذلك نظام المسلمين ووحدتهم وعزّ المؤمنين وقوتهم وصلاح الدّين والدنيا، كقوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، عن النبي (ص) في الآية (يدعى كلّ قوم بإمام زمانهم، وكتاب الله وسنة نبيهم) البحار ص ١٠، (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) وتنحصر مهمته (بالهداية) والإرشاد إلى طاعة الله سبحانه التي تشير إليها كلمة (بِأَمْرِنَا) وجعلناهم أئمة بعد ما كانوا أنبياءً ورسلاً يوحي إليهم، وجعلناهم (ضمن مؤهلات خاصة) يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك، وحدد الله تعالى هذه الطاعة.

بقوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) وحي توفيق وتسديد وإلهام، والمراد بالخيرات عمومها وهو كل ما ينفع الناس من قول أو رأي أو نصيحة أو استشارة أو عمل أو اختصاص علمي، ليجمعوا بين أنواع العلم النافع، والعمل الحضاري الناهض المفيد الذي يعمل على تقدّم الفرد والمجتمع بنهضة حضارية سريعة، ويأمروا الناس بفعلها وأن يتركوا المحرمات (وَأَقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) وأمرناهم بطريق الوحي والإلهام بإقامة الصلاة بشرطها وشروطها، والمحافظة عليها وإعطاء الزكاة. وإنما خصّهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، وهما ركنان أساسيان عند الأديان السماوية كلها، عن الإمام الصادق (ع) (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ، وَلَا زَكَاةَ لِمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ) البحار ٢٥٢/٨٤ (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا.

والعبادة مفهوم عام واسع الدلالة، يشمل كل شيء فيه طاعة الله ونفع للناس بحسن نية لله (وَكَانُوا لَنَا) وكانوا يدل على الماضي المستمر، بمعنى يكون الباقون على هذا النهج العبادي، أنهم ضمن مؤهلات خاصة حتى قبل مقام النبوة والإمامة فأكرمهم الله بمقام خاص، فائدة: ١- عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ الْأئِمَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِمَامَانِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ) قوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) لَا بِأَمْرِ النَّاسِ، يُقَدِّمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ قَبْلَ أَمْرِهِمْ، وَحُكْمُ اللَّهِ قَبْلَ حُكْمِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ الفصص / ٤١ يُقَدِّمُونَ أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَمْرِ اللَّهِ، وَحُكْمَهُمْ قَبْلَ حُكْمِ اللَّهِ، وَيَأْخُذُونَ بِأَهْوَائِهِمْ خِلَافَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ) الأمل ١٠ / ١٨٣، ونعوذ بالله أن نتعدّد حدود الله، ٢- قوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً) يشير التعبير إلى أن الإمامة من مواهب الله لقوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ) الآية / ٧٢ أن يكون الإمام هادياً بأمر الله لا بالطبع والهوى، وأن منزلة الإمامة من النبوة، غير منزلة الإمامة بدون نبوة، وكل له مقامه ومنزلته المتفاوتة كقوله ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء/٢١.

وهذا يشير إلى أن الإمامة المختارة هي رعاية شؤون الناس، وهذا معنى السياسة، فالإمامة لا تبتعد عن السياسة، والدين لا ينفصل عن السياسة، والإسلام عبادته سياسة، وسياسته عبادة، ومن قاد نفسه أدرك السياسة، في غرر الحكم (مَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ) (خَيْرُ الْأَمْرَاءِ مَنْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ أَمِيرًا) .

٧٤ - ﴿وَلَوْطًا أَنْبِئَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجْبَانًا مِنَ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ﴾

وأعطينا لوطاً (حُكْمًا) من الحكمة، أي النبوة والعقل الرشيد والفهم السديد والعلم المفيد، والخُلُق الحضاري المرن، وأتيناها أيضاً الحكم الفاصل القاطع في النزاع والخلاف بين الناس، وتأتي المواهب والمعجز بما يتناسب مع حاجة النبي في نجاح دعوته (وَبَجْبَانًا مِنَ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) وخلصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الخبائث القذرة والشذوذ الجنسي، من لواط قذر وسحاق خبيث بلا حياء وخجل وتَحَجُّج، وكانوا يعملونها علاناً دون تستر!، وكانت العلاقات في ما بينهم مبنية على الفحش والضراط والغمز واللّمز.. إلخ حتى كرهوا المعروف وألفوا المنكر، واعتادوا قطع الطريق عن الناس وإرهابهم وسلبهم وغير ذلك كقوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت / ٢٨ (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ) كانوا أشراراً (فَاسِقِينَ) منهمكين في الكفر والفساد، خارجين عن فطرة الله وعن طاعة الله، وعن حقيقة الإنسان السوي، وعن أصول العبودية لله تعالى، فجعل الله عالي القرية سافلها! كما قلبوا نظام فطرتهم، وانقلبت عندهم الموازين البشرية والمعايير العقلية الصحيحة فكانت عاليها سافلها. فائدة: ١- قال (وَبَجْبَانًا مِنَ الْقُرْيَةِ) ولم يقل (من أهل القرية) إشارة إلى هؤلاء أنهم انتشر فيهم هذا الوباء الخبيث القذر حتى شملهم أجمعين، وقال (الْخَبَائِثُ) بصيغة الجمع، لأنهم كانوا يعملون أنواع الخبائث، وجاء بعد (قَوْمَ سُوءٍ) بـ(فَاسِقِينَ) إي أنهم كانوا منحرفين فاسدين خُلُقِيًّا سيئين خارجين عن كل المقاييس البشرية! نعوذ بالله من الخبثاء والخبث والخبائث ٢ - تشير الآية إلى أن النجاة من جليس السوء من المواهب والفضائل، والافتتان معه من الخذلان والخسران والحرمان، ٣- الفرق بين (حُكْمًا وَعِلْمًا) الحكم : يعني الحكمة، وهي وضع الشيء في موضعه، والعلم : أن تبحث وتحقق وتعرف فكرياً حقيقة الشيء، أما الحكم : فسلوك وعمل وتطبيق لما تعلم، فاجتمعت عنده النظرية والتطبيق، والقول والعمل .

٧٥ - ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) وشملناه بنعمتنا وفضلنا وولايتنا وحمایتنا (إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) المتزمين بطاعة الله ونفع الناس، فكان صلاحه مقدّمة لنيل الرحمة والفوز بالنجاة . في بيئة موبوءة قدرة، والرحمة مأوى وملاذ وحصن حصين منيع أمين يدخل الله فيه من يشاء من عباده ممن هو مؤهل لها، فإذا

هو في أمن وأمان وسلامة واطمئنان. كقوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الحاشية / ٣٠، ومما يلفت النظر: قال سليمان (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩، نلاحظ تارة يكون الدخول برحمة من الله في حصن عبادك الصالحين، وتارة يكون الدخول في حصن الرحمة بفضل من الله لأنه من الصالحين، كما في هذه الآية، وكأما هذا الدخول المختار بدرجة امتياز لا يدخله إلا عباد الله الصالحون، وكأنهم في حفظ الله في مكان أمين جميل يتمناه حتى الأنبياء كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧.

٧٦ - ﴿وَوَحَا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾

وهي إشارة للتذكّر لا تفصيل فيها لإثبات استجابة الله لنوح(ع) حين دعا على قومه الكافرين (مِنْ قَبْلِ) إبراهيم ولوط، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه وطغوا وبغوا عليه بقوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح / ٢٦ (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - (مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) من الطوفان الغريب والغرق الرهيب، الذي كان انتقاماً وكرماً مرعباً وغمماً شديداً، يكاد يأخذ بالأنفاس وتضيق به الصدور وترهق الأرواح! وأيضاً المراد بالكرب ما تحمّله في سبيل دعوته لله تعالى من أنواع المعاناة والمشقة .

٧٧ - ﴿وَصَرَّاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاعْرَفْنَاهُ أَجْمَعِينَ﴾

ونصرناه عليهم، نجيناه من القوم الذين سخرؤا منه وكذبوا رسالته (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) كانوا أهل شر ويتطايروا منهم الضر! فطهرنا البلاد منهم ولم يُبق منهم أحداً، وكذلك يفعل ربك بالجرمين كقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة/٢٢ فائدة: ١- (قَوْمَ سُوءٍ) على إطلاق معناه، يسيئون في جميع تصرفاتهم فيعصون الله ويرتكبون القبائح عمداً وإصراراً، وَيَتَصَدَّدُونَ لِلأذى بينهم ويتواصلون جيلاً بعد جيل بمخالفة فضائل نوح، ورفع راية العصيان في وجهه، ٢- يعذب الله بالماء والهواء كما يعذب بالنار! فهم غرقوا في الرذيلة فأغرقهم الله بالطوفان، فتكون العقوبة على قدر الجناية ومن جنس العمل.

٧٨ - ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

(مُحْكَمَةً دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) واذكر قصة داوود وسليمان حين (يَحْكُمَانِ) يتشاوران ويتحاوران في شأن (الْحَرْثِ) الزرع (إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) (إِذْ نَفَسَتْ) انتشرت، أي وقت تفرقت فيه غنم القوم وانتشرت ليلاً ترعى بلا راع على حين غفلة، فأفسدت الزرع والمزرعة، فرفع الأمر إلى داود لأنه الملك الحاكم (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) حاضرين، كنا مطلعين على حكم كل منهما، نرى ونسمع ونسندهما على وجه الصواب فيه.

فائدة: ١- حَكَمَ داود بالغنم لصاحب الزرع كتعويض لخسارته، لأن قيمة الزرع التالف كانت تعادل قيمة الغنم، واقترح سليمان (وكان صغيراً) قال لأبيه الأرفق بالرجلين أن يتم التعويض بصورة تدريجية، وهو أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، ويودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا أعاد البستان إلى حالته الأولى يُرد إلى صاحبه، كما تُرد الأغنام أيضاً إلى صاحبها، فقال داود القضاء ما قضيت، وأمضى حكم سليمان لأنه أرفق وأدق وأحكم، وذلك لبيان مكانة سليمان، وأن داود لم يتمسك بحكمه وإنما أخذ بالأصلح، ولم يراع الفارق في العمر والخبرة والتجربة والمنزلة بين الأب وابنه، وإنما راعى الأحسن، والأحسن يتبع الأحسن، وهذا يبين أن الفصل في الخصومات بين الناس أمر خطير يحتاج إلى مؤهلاتٍ خاصة، وعلمٍ واسع، واختصاص وتجربة وبصيرة واستشارة ومشاورة، وخبرة نافذة، ونفس تجرّدت عن الهوى

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص / ٢٦٠ .

٧٩ - ﴿فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾
 (فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) داود وسليمان (ع) وهما نبيان لكل منهما مكانته، وقد أعطاهما الله (حُكْمًا وَعِلْمًا) ومع ذلك اختلف قولهما في حكم الأولى في هذه القضية! وإنما هي سُنَّة عامة متحركة لا تخصُّ الشخص وإنما تخصُّ الحالة أي علمنا وأهلنا سليمان الحكم الصحيح في القضية، ومميزناه بفهم أثاره الله إياه وهو في أول العمر كقوله في يحيى ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ص / ١٢٠ (وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) وكلاً من داود وسليمان أعطيناه ﴿الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ ص / ٢٠ للدلالة على العلم والدراية مع النبوة والعصمة عن الخطأ، حيث شهد الله سبحانه لكل منهما أنه محق ومصيب في حكمه (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) يعرض السياق ما اختص به كلاً منهما، فيبدأ بالوالد أي جعلنا الجبال والطير تسبح لله تعالى مع داود إذا بدأ بالتسبيح، وذلك لطيب صوته وعدوبة نغمه وتفاعله بتلاوة الزبور، فكان إذا تلا الزبور تقف الطير في الهواء فتسبح معه وترد عليه الجبال والطير وكل الوجود، بالتسبيح لله تعالى (بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ) كقوله ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ النور / ٤١، كل بحسب قدره ومقداره وكيفيته، للدلالة على الخضوع والخشوع لله كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الاسراء / ٤٤، لذلك جاء الترغيب في قراءة القرآن بصوت حسن، فإنه يجب القرآن إلى النفوس، والصوت غير الحسن ينقرها عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ دَاوُدَ حَرَجَ يَفْقَرُ الرَّبُّوَ وَكَانَ إِذَا قَرَأَ الرَّبُّوَ لَا يَبْقَى جَبَلٌ وَلَا حَجْرٌ وَلَا طَائِرٌ إِلَّا جَاوِبُهُ!) نور الفقلين ٣ / ٤٤٤، وإنما قدّم ذكر الجبال على الطير، لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأقرب للإعجاز، لأن الجبال جمادات وقوله ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا

الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿الحشر / ٢١﴾ (وَكُنَّا فَاعِلِينَ) وكنا قادرين على فعل ذلك له ولأمثاله في كل زمان ومكان، كقوله (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) يوسف/ ٢٢. فائدة:

١- أنها سُنَّةٌ لا تخص الفرد المسيح، وإنما تخصُّ الحالة والصفة الخاضعة لله من كل الكائنات، فإن المؤمنين الخاشعين المستغرقين في العبادة والتسبيح والتحميد، يحصل لهم كبشر حالة تسامي الروح وأنس النفس وانسراح القلب، والتلذذ بالقرب من الله والحب له والجذب إليه، مما يجعل العالم كله حولهم مُسَبِّحًا معهم، وكأن العوالم كلها تنطق معهم، بِلِسَانِ الْحَالِ أَفْصَحَ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ، فإذا تعلق القلب السليم الخاشع بربه، فإنه يحس بالوجود كله خاضع لله تعالى، فتتلاقى ضمائر الخاشعين مع حقائق الكون الكثيرة المسبحة لله، فتحس الروح اندماج نظامها الفردي الخاص، مع نظام الكون والكائنات العام، فيكونون جميعاً في وحدة واحدة موحدة متحدة، فكل ما حول الخاشع مندمج معه معنوياً، وهو مندمج روحياً مع النظام العام للكون وجميع الكائنات!، لا يدرك هذه الحالة الروحية المتسامية إلا أهل العرفان، لأنها لذة تفوق الوصف! في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِلَهِي أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَإِجْزِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ) وهذا الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في أدعيته الربانية التربوية عالية المضامين، في صحيفته السجادية، يُحَلِّقُ فِي آفَاقِ الرُّوحِ فَيَشْتَرِكُ فِي تَسْبِيحِهِ مَعَ تَسْبِيحِ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ (نموذج) مِنْ مُنَاجَاةِ الدَّاكِرِينَ (إِلَهِي) (فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرِكَ، وَلَا تَسْكُنُ النَّفُوسُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَاكَ، أَنْتَ الْمُسَبِّحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَالْمَوْجُودُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَالْمُعَظَّمُ فِي كُلِّ جَنَانٍ (قَلْبٍ) وَاسْتَعْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَعِيرٍ ذَكَرَكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بَعِيرٍ أَنْسَكَ، وَمِنْ كُلِّ سُورٍ بَعِيرٍ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بَعِيرٍ طَاعَتِكَ)

فائدة: ١- قال (سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ) ولم يقل (سخرنا لداود) فالجبل والطيور هنا مسخرة معه للتسبيح والتمجيد المشترك، وليست مسخرة له في كل أمر، إنها حالة معنوية عالية المضامين تفوق الوصف بالعبارات، إنها لذة لا يستدوقها إلا من يعيشها!، ٢ - يشير حكمهما بالترغيب بالاجتهاد، إلى فتح باب الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي في كل الأمور، من القرآن والسنة الصحيحة التي تتعارض مع القرآن الكريم عن النبي (ص) وعن الأئمة الأوصياء (ع) (إذا جاءكم حديث عَنَّا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه) التهذيب / ٧

٢٧٥، كنز الدقائق ٢/ ٤٠٧

٨٠ - ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَ كُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

(وَعَلَّمْنَاهُ) علم الوحي، وعلم التجربة والخبرة يلهمه الله إياه لبُوسٍ : الدروع التي تلبس، وفي مجمع البيان للطبرسي اللبُوس : كل نوع من أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة والدفاعية والهجومية،

واللبوس أبلغ وأحكم من اللباس، المعنى : (وَعَلَّمْنَاهُ) كيف يصنع لكم الدروع التي تُلبَس، لأن الله الآن له الحديد (لِتُحَصِّنَكُمْ) لتحميكم من وقع السلاح والحروب وتأثيرها فيكم، وكانت الدروع القديمة صفائح ثقيلة على المقاتلين، فجعلها داود(ع) حلقة متداخلة خفيفة سهلة الحركة فطورها عما كانت عليه، فهو أول من حلّقها وحدّدها (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) استفهام يراد به الأمر، أي اشكروا الله على هذه النعمة وعلى كل نعمة، فالذي يشكر النعمة هو الذي يقدرها، ويعرف قدر منعمها، لذلك صار الشكر زينة الغنى، وعصمة من الفتنة، وأمان من حلول النقمة، في نهج البلاغة حكم ٣٣٠ (أَقَلُّ مَا يَلْزُمُكُمْ لِلَّهِ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) فائدة: ١- روي (إنّ لقمان كان يجلس مع داود ويرى ما يصنع، ولم يعرف الهدف منها، ويهم أن يسأل عنها لأنه لم يرها قبل ذلك، فبسكت فلما فرغ داود من الدرع قام وألبسه عليه، وقال نِعْمَ الرِّدَاءُ هَذَا لِلْحَرْبِ) ففهم لقمان وقال عندها : إنّ من الصّمتِ لحكمة وقليل فاعله، في الحديث (إنّ الله خلّق كلّ صنّاعٍ وصنّعه) روح البيان ٥ / ٥٠٨، عن النبي (ص) (اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ) روح البيان ٦/١٣٦ (وكان الأنبياء(ع) يحترفون بالحرف المتنوعة ويكتسبون المكاسب، فكان منهم رعاة غنم، ونجارون، وختياطون..). ولما ذكر الله تعالى ماخصّ به نبيّه داود(ع) ذكر ماخصّ به ابنه سليمان فقال :

٨١ - ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِي وَإِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾

ورث الله سليمان من داود ملكه ومواهبه وزاده أمرين : سخرنا (لسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً) شديدة الهبوب، تارة للدلالة إلى قوة الانطلاق وسرعة الريح بقوة عاصفة، مع رقة المسير ودقة النسيم وأمان الحركة، وريح رُخَاءٍ ناعمة وهادئة تارة أخرى كقوله ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ص / ٣٦ فجمع الله تعالى لهذه الريح صفة السرعة وصفة الراحة والأمان، وكأنها مواصلات نقل داخلية متطورة مؤمنة في مملكته من العراق إلى فلسطين وإلى أي مكان . (تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ) تسير هذه الريح بأمر سليمان وإرادته، بعد أن سخرها الله له إلى أرض الشام المباركة وفلسطين وبيت المقدس (الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) بركة مادية ومعنوية بإرسال الأنبياء فيها، والأرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والمياه والثمار وكان فيها مسكنه ومقر ملكه، وأن هذه الريح لا تتجاوز حدود أرض الشام وبيت المقدس، (وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) وكُنَّا عَالِمِينَ بجميع الأمور، فما أعطيناه تلك المكانة الفريدة إلا لما نعلمه منه من الحكمة والمصلحة، وهكذا كل شيء نعطيه لحكمه ومصلحة، وكذلك كل شيء نمنعه لحكمة ومصلحة أيضاً.

فائدة: ١- كان يخرج سليمان إلى مجلسه فتعكف عليه الطير (تظلل) ويقوم له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، ويجتمع معه جنوده ثم تحمله الريح حيث أراد! كقوله ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها

شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ ﴿١٢﴾ أي تقطع الريح من المسافة بسرعة ما يقطعه السائر على دابته في شهر، وكذلك رواحها أي رجوعها آخر النهار .

٨٢ - ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُعِضُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

وسخرنا لسليمان بعض الشياطين من الجن لا كلهم، (يُعِضُّونَ لَهُ) في أعماق البحار ويستخرجون منها الجواهر واللؤلؤ والمرجان كقوله ﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ص / ٣٧، (وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ) ويعملون أعمالاً شاقة أخرى كبناء المدن الحديثة والقصور المشيدة الشاهقة، والأمور التي يعجز عنها البشر كقوله ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَتَائِلٍ وَجِحَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ ص/١٣ (وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) نحفظهم عن الخروج عن أمره وطاعته وعدم التمرد عليه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام / ٦١، فكلُّ في قبضته وتحت سلطته وهيبته، لا يجسر أحد أن يدنوا منه دون إذن، وهكذا النظام العادل أساس الملك، والملك بحاجة إلى علم وحلم وحزم واستثمار كفاءات، وبالقوانين الدقيقة والشاملة والحازمة ديمومة الحكم، كقوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ البقرة/٦٣، في غرر الحكم (حُسْنُ السِّيَاسَةِ قَوَامُ الرِّعْيَةِ) فائدة: ١- قال سليمان (ع) (جَرَّبْنَا الْعَيْشَ لَيْبُهُ وَشَدِيدُهُ فَوَجَدْنَاهُ يَكْفِي مِنْهُ أَدْنَاهُ) (قَلِيلٌ يَكْفِي حَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِي) ٢ - عن الإمام علي (ع) (لَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا أَوْ إِلَى الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الَّذِي سُجِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ التُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الرُّلْفَةِ) تفسير الكاشف / ٥ ، ٢٩٣ ، ٣ - كان سليمان حاكماً على الإنس والجن معاً (بإذن ربه) وله جنود منهم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل/١٧ في غرر الحكم (أعقل الملوك من سأس نفسه للرعية بما يسقط عنه حجتها، وسأس الرعية بما تثبت به حجته) .

٨٣ - ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

أَيُّوبَ : اسم عبري بمعنى آيب أي راجع إلى الله والتائب إليه، لقد ابتلى الله داود وسليمان بالسرء والرخاء والرفاهية، والآن جاء الابتلاء بالضرء والحنة كقوله ﴿تَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء / ٣٥ . المعنى: ذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربه بتضرع وخشوع، لما طال أمد المحنة عليه قائلاً رب (أَيُّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ) أي نالني البلاء والعناء والشقاء والشدة ولم يقل (تراكم وتفاقم الضر علي) كيلا يشعر شكواه بالضرر!، لم يصرح (ع) بطلب تغيير حاله ورفع البلاء عنه، ولم يقترح شيئاً على ربه تأدباً منه، وتعظيماً لربه الكريم، وقد ابتلاه الله فذهب ماله، وكان له مال كثير، ومات أولاده، وابتلى في بدنه بمرض شديد سنوات طويلة فصبر، فمر عليه وجهاء قومه فقالوا ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم!، وهو المعصوم بذاته والمعصوم بالوحي، ومبلغ رسالته إلى الناس، فعند ذلك دعا ربه وشكا حاله ولم يشك لأحد، في غرر الحكم (أَجْعَلْ شُكُوكَ إِلَى مَنْ يَقْدَرُ عَلَى غِنَاكَ)

واختصر الطلب فكشف عنه ضُرُّهُ (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والله تعالى أرحم من كل رحيم ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف / ١٥٦، أظهر كامل إفتقاره إلى الله تعالى، لم يقل (أرحمني) وأما قال (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) قدم رحمته التي وسعت كل شيء، على طلب الرحمة، لطفاً في السؤال، وحفظاً للأدب في الخطاب، لذلك قال الله في حقه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

ص/٤٤

فائدة: ١- لم يُصْرَحْ بالدعاء واختصر الكلام، ولكن وصف نفسه بالضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح من طلب (وَرَبِّ تَلْمِيحٍ أَبْلَغُ مِنْ تَصْرِيحٍ)، ٢- عن النبي (ص) (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ) الكافي ٢/٢٥٢، ٣- إِنْ فِي الْمَحْنِ مَنَحًا مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَبْرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَاتٌ نَهَايَاتُهَا الْكِرَامَاتُ! عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَفِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار ٧٨ / ٢٧٤، ٤- روي: مكث في البلاء تسع سنين حتى قال الله له ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا

مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ص / ٢، فيه شفاؤك وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم! ٥ - وهناك كلام عن شدة مرض أيوب، وأن الناس طردوه من المدينة فهو من الإسرائيليات الموضوعة، لأن من شروط النبوة ألا يكون في النبي من الأمراض ما يُنْقِرُ الناس منه، لأنه يتعارض مع وظيفته في تبليغ رسالته وهداية الناس كقوله ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل / ٣٥ .

٨٤ - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (فَاسْتَجَبْنَا) دعاءه وتضرعه وردّ عليه عافيته، وأزلنا ما أصابه (مِنْ ضُرِّ) وبلاء وعناء وأذى أصاب روحه وجسمه وماله وأهله، وكشف بلواه، وأعادته إلى أحسن مما كان عليه! لأنه صبر على بلاء الله صبر الأحرار، وثبت على الإيمان ثبوت النبي المختار، كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ مَعَالِي الْأُمُورِ) (وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) وأعطيناه في الدنيا مثل أهله عدداً مع زيادة عليهم، فولد له من الأولاد ضعف ما كان، وأخلف عليه أكثر مما ذهب من ماله (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ) أي آتيناه ما ذكر رحمة منا لأيوب، لأنه المثل الأعلى للصبر الجميل والإيمان والأسوة الحسنة بالاعتداء في الشدائد . (وَذَكَرَى) أي تذكرة (لِلْعَابِدِينَ) وعبرة للمخلصين، ليصبروا كما صبر، فيثابوا كما أتيب في الدنيا والآخرة، خصّ (العابدين) بالذكر إشارة إلى أن الله مع الصابرين المحتسبين المخلصين لله تعالى في أقوالهم وأفعالهم. وليعلموا أن الله يبتلي أوليائه امتحاناً لهم ثم يؤتيهم أجرهم ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف / ٥٦ وقوله ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ الزمر/١٠

فائدة: ١- يتلى الصالحون بما يتلون به، وهم على وعدٍ من الله تعالى بأن وراء الضيق فرجاً، وبعد المرض صحة، وبعد الضعف قوة كقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الإسراع / ٥-٦ لا يمكن أن يستمر العسر بلا يسر معه، كما لا يمكن أن يستمر اليسر بلا عسر يرافقه، وهكذا تعرف قيمة النعم بأضدادها، والشكر لله في جميع الأحوال، كقوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان/١٧، ٢ - في الدعاء عن النبي(ص) (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ) .

٨٥ - ٨٦ - ﴿وَاسْتَعِذْ بِرِسْوَةِ الْكُفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخُلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هؤلاء الرسل الكرام الذين صبروا على ما ابتلاهم الله به، فانقطعوا إليه بالدعاء والقربى فنالوا رضاه وجنته ونعيمه. أما (إِسْمَاعِيلُ) فصبر على الانقياد للذبح وغير ذلك، وقد أكرمه الله فكان من صلبه خاتم النبيين، وأما (إِدْرِيسُ) علمه الله غزل الصوف والخياطة، وأول من استخدم النجوم لمعرفة اتجاه الطرق، وأول من خطَّ بالقلم، فهو في موضع الاحترام والتكريم، وأما (ذَا الْكُفْلِ) فهو نبي مرسل لم يذكره القرآن إلا في هذا الموضع وهو أحد أبناء أيوب(ع) وهو يحفظ العهد ويكفل الضعيف واليتيم ويدافع عن المظلوم والمحروم . و الْكُفْلِ : الحظ والنصيب، كلهم دعوا الناس إلى توحيد الله، في بيئات مشركة وفي أجواء جاهلية متخلفة. (كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) كل الأنبياء وهؤلاء منهم من أهل الإحسان والصبر الجميل، جاهدوا في الله وأدوا رسالتهم وألقوا الحججة على الناس، وصبروا على ما نالهم من الأذى.

٨٦ - (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي اخترناهم للنبوة أو أدخلناهم في الرحمة وكأن الرحمة لها حصن حصين أمين منيع فدخلوا فيه بأمان بعون الله تعالى، فصاروا عند مليك مقتدر، وهذا هو المقصود في ذكرهم في هذا السياق (إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) كقوله ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (الإنسان / ٣١) عن الإمام علي(ع) (إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا) البحار ٧٨ ص١٣ فائدة: ١- الصبر والتقوى يمهدان الدخول في حصن الرحمة الإلهية، واكتساب منازل الصالحين، وهذه من صفات الأنبياء(ع) كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل

عمران/ ١٨٦ .

٨٧ - ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ النون : الحوت، وَذَا النُّونِ : صاحب الحوت التي ابتلعت النبي يونس بن متى، مُغَاصِبًا : غضبان من قومه لتماديهم في العناد والفساد والطغيان في الكفر، لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ : لن نضيق عليه في أمر غضبه وظن لن نعاقبه بأية عقوبة بتركه قومه قبل أن يأذن الله له . قصة يونس ذا النون(ع) : بعثه الله إلى قرية مشركة في الموصل(العراق) فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وعصوه وتمادوا في

كفرهم (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) تدل على المفاعلة والمشاركة في الغضب، استعجل الغضب على قومه عندما ظهروا له ما يضيّق صدره ويثير غضبه ويدعو إلى القطيعة، فَتَوَعَّدَهُمْ ان لم يؤمنوا ويتوبوا ينزل بهم العذاب، وأتى الموعد ولم ينزل العذاب، فخاف أن يُكذِّبُوهُ ويتجرّأوا عليه، فخرج من بينهم مُغَاضِبًا! لا غاضباً لأن قومه شاركوه في الغضب وكانوا سبب غضبه، كما هاجر النبي (ص) من مكة ولم يهجرها، فأهل مكة هم الذين ألاجوه إلى الهجرة وكانوا سبب لها، إلا أنه كان من الأولى به أن يصبر صبراً جميلاً ويصابر ويتحمّل قومه لإصلاح نفوسهم واستجابة قلوبهم، ولا يتركهم بأول بادرة إعراض عنه، فيتخلّى عن مسؤوليته فيهم، إنّ طريق الدعوة إلى الله (طريق ذات الشوكة) ليس هيئناً ولا ليئناً، واستجابة النفوس لهذه الدعوات ليست يسيرة، فهناك مستنقع من الجاهلية يجثم على القلوب، ولا بد من إزالة هذا الفساد بالتدرّج المدروس، وأن الدعاة إلى الله أداة في يد القدرة العليا وعناصر إرادته سبحانه، وفي قصة يونس (ع) لدرس بالغ الأهمية للدعاة إلى الله ينبغي أن يتأملوه ويتدبروه .

كقوله ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ القلم / ٤٨، فلم يصبر الصبر الكافي المطلوب (كما صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف / ٣٥ فأخرجه الله منهم، فخرج من قومه مغاضباً لهم، وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وقرب نزول العذاب عليهم، تَضَرَّعُوا إلى الله تعالى وقرّقوا بين الأمهات وأولادها، فرفع الله عنهم العذاب كقوله ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ يونس / ٩٨، وهو لم يعلم بتوبتهم ورفع البلاء عنهم، أما يونس فذهب مهاجراً مزعوجاً وحسب أنه أدّى رسالته، ووصل إلى الباب المسدود، فركب مع قوم في سفينة فلما وصلوا وسط البحر أشرفوا على الغرق، بسبب حوت كبيرة هزّت سفينتهم! فاقترعوا على رجل منهم يلقونه في البحر، يتخففون منه لنجاة الجميع واشغال الحوت به، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه فأعادوها مرتين فوقعت عليه كل مرة كقوله ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ الصافات/١٤١ المُدْحَضِينَ : المغلوبين، ثم قام يونس وألقى بنفسه في البحر، فأرسل الله له حوتاً فالتقمته!! وجعل الله بطن الحوت سجناً له ولم يجعله طعاماً لها! (فَطَنٌّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) فَطَنٌ : فحسب، يُقال : قَدَرْتَ عليه الشيء أي ضيقته (نَقْدِرُ) من القدر والمقدار والتقدير لا من القدرة كقوله ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ الطلاق / ٧ أي ضيّق فأخطأ في التقدير وترك الأولى.

المعنى :

فَطَنٌ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ أمره ولم نحاسبه ولم نعاقبه، على ترك مسؤوليته الرسالية تجاه قومه، من دون رخصة من ربه، وكان الأولى منه أن يبقى بينهم إلى أن يأذن الله له، والإنسان الغاضب يلتبس عليه

عقله، فيفقد التصرف الموزون! عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ لَمْ يَمْلِكْ غَضَبُهُ لَمْ يَمْلِكْ عَقْلُهُ) البحار ٧٧ / ٣٨١، من كمال قوة نبينا(ص) إنه كان يغضب ولكنه يسيطر على غضبه، ولا يقول في الرضى والغضب إلا الحق! (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ) فنادى ربه مكسوراً نادماً مستغيثاً داعياً وهو في بطن الحوت كقوله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الصافات/١٤٣ - ١٤٤ وجمعت (الظُّلُمَاتِ) لكثافتها الشديدة، لأنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ) أنزهك تنزيهاً لاثقاً بك من أن يعجزك شيء، سبحانه لا إله غيرك ولا رب سواك ولا معبود غيرك، ونزهتك يارب عن كل نقص وظلم وكل ما لا يليق بك، وقد كنت من الظالمين لنفسي المتسرعين في قراري، وأنت لم تظلمني، وأنا الآن من التائبين النادمين، فاكشف عني المحنة، وإنك قادرٌ على ما تشاء ولا يعجزك شيء (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) لنفسي والظالمين لقومي بالمبادرة السريعة بالهجرة وترك قومي دون أمر من الله وأنت التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩ فائدة: سأل معاوية ابن عباس قال: يظن نبي الله يونس أن لَنْ يَقْدِرَ اللَّهُ عَلَيْهِ؟ فقال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة.

٨٨ - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) دعاه لتضرعه واستغاثته (وَجِئْنَاهُ مِنَ الغَمِّ) من الضيق والكره أثناء حبسه في بطن الحوت، بأن قَدَفَهُ إلى ساحل النجاة بعد مدة قضاها في بطنها! عندما صدق بتوبته وندم على تسرعه في هجرته (وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) وهنا يكشف القرآن عن قانون عام ومستمر: إنه كما نجينا يونس من تلك المحنة الشديدة كذلك ننجي المؤمنين الصادقين، الذين يعتذرون لربهم عن الذنب، وعند الشدائد والمكائد والأهوال، إذا استغاثوا بنا طالبين رحمتنا وعوننا. فائدة: ١- من شروط الدعاء المستجاب: الانقطاع الكامل إلى الله، والبدء بالتسبيح والتحميد والتوحيد الخالص، ثم الاستغفار والندم على الذنب والاعتراف بالخطأ وطلب العفو والتضرع ثم طلب الحاجة، والدعاء سلاح المؤمن، ويدفع البلاء وَيَرُدُّ الْقَضَاءَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر / ٦٠ عن الإمام الصادق (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ يَفْرَعُ مِنْ أَرْبَعِ كَيْفَ لَا يَفْرَعُ إِلَى أَرْبَعِ. إِلَى قَوْلِهِ (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ أَعْتَمَّ كَيْفَ لَا يَفْرَعُ إِلَى قَوْلِهِ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ بِعَقْبِهَا ثم ذكر الآية .

٨٩ - ﴿وَمَكَرَ بِآدَمَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

واذكر يا محمد خبر رسولنا (رَكَرَبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ) حين دعا ربه متضرعاً إليه مع الإخلاص والإنيابة قائلاً (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا) رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث يرثني في علمي وعلمي والأنبياء، ويرثني في أموالي فينفقها في سبيل الله، روي: كان عمره مائة وزوجته تسعة وتسعين!

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) وأنت يارب خير من يبقى بعد كل من يموت، وأنت الوارث لكل شيء، ولا يشاركك أحد، وهذا مدح لله تعالى بالبقاء. فائدة: ١- عن الإمام الصادق (ع) من أراد الولد يدعو الله وهو ساجد ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ آل عمران / ٣٨ (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) وهو يريد من ذرية، من يُحَسِّنُ الخِلافةَ بعده، فيرثه من أهله وولده ويواصل رسالته ودعوته، كقوله (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) النمل/١٦.

٩٠ - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

فأجبنا دعاءه بسرعة ورزقناه ولداً صالحاً، بدون قانون الأسباب، وهبنا له بطريقة إعجازية على شيخوخته ولداً اسمه (يحيى) اسماً على مسمى، فهو يحيى باسمه ويحيى بفعله، ويحيى بذاته ويحيى غيره، حتى مات شهيداً سعيداً مُقاوماً للباطل! لتتحقق له الحياة وتستمر من أول عمره حتى بعد الموت كقوله ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الحديد / ١٩ (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) وجعلناها شابةً ولؤداً بعد ما كانت عجوزاً عاقراً، وكانت سيئة الخلق طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق والخلق، جميلة الكلام! (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) إنما استجبنا دعاء زكريا وزوجته، لأنهم كانوا صالحين سباقين في طاعة الله محبين لها، ومبادرين بلا تأخير في فعل الخيرات للناس، وعمل الصالحات النافعات لأمة تعالى على سعة معناها، فسارعنا في استجابة دعائه، وكل إنسان يعمل الخيرات بقدره وبحسب قدرته، الآية تحث على تبني عنصر المبادرة الفريدة، والطريقة المخترعة الناجحة والسريعة، للدلالة على التسابق عما هو مألوف ومعروف في الواقع الاجتماعي كقوله ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/٢٦، فأبادر بكل جديد ومفيد ونافع للناس! ومرضي عند الله، والابتعاد عن التقليد الأعمى والاتباع المألوف الساذج، (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) رغبةً: في ثوابه ورحمته، ورهبةً: خوفاً من عقابه ونقمته كقوله ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر/٩ في غرر الحكم (خَيْرُ الْأَعْمَالِ، اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ) (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) متفاعلين خاضعين عابدين الله، يخافونه في السرِّ والعلانية، متواضعين له وللناس، لا متكبرين ولا متجبرين.

فائدة: ١ - لعل المراد في (الرغبة) في الطاعة والرضوان لا في الثواب (والرهبة) من المعصية والغضب الإلهي لا من العقاب، لارتفاع مقام الأنبياء (ع). عن الإمام علي (ع) (إِلَهِي مَا عَبْدْتُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ وَلَكِنَّ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ)

٢ - قال (لَنَا خَاشِعِينَ) ولم يقل (خاشعين لنا) فتقديم (لَنَا) يدل على الحصر، بمعنى إن أولياء الله لا يحنون رؤوسهم للطواغيت خشوعاً لله وتعظيماً له كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾

القصص ٨٦ / الظهير: المعين، بمعنى: لا تعين أعداء الله ولا تهادن الفاسدين ولا تساوم المجرمين ولا تسكت عنهم، فإن الساكت عن الحق يدعم الباطل ويخذل الحق، فهو شيطان أخرس! عن النبي (ص) (أَمَّا عَلَامَةُ الْخَاشِعِ فَأَرْبَعَةٌ: مُرَاقِبَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، رُكُوبُ الْجَمِيلِ، وَالتَّفَكُّرُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْمَنَاجَاةُ لِلَّهِ). ٣- (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) وهذه أيضاً ليست صفة خاصة بذكريا، وإنما هي قانون عام لكل مؤمن مؤهل لحمل هذه الصفات النموذجية، ربّما تشير الآية (أصحاب العقم) فإن يدعوا الله (رَغَبًا وَرَهَبًا) فإن الله يرزقهم ذرية إن كانت في صالحهم! فعليهم أولاً أن يرضوا بالعقم كقوله ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ الشورى / ٥٠، على أن العقم ابتلاء وقضاء، ولا يدفع القضاء إلا الدعاء، وبعد ذلك يرضى بقضاء الله تعالى، فإن الله يجري الأمور على ما يقضيه، لا على ما ترتضيه! .

٩١ - ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ مَرْوَحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

واذكر يا محمد مريم ابنة عمران العذراء العفيفة الطاهرة، وجاء ذكرها ضمن موكب الأنبياء (ع) لأنها مصطفاة منتقاة من دون النساء في زمانها، (الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) صانته من كل مباشرة، التي حفظت نفسها عن كل عيب، ومن كل الرجال في الحلال والحرام (رداً لما أتهمها به اليهود) وحصنت فرجها من كل فساد وترفعت عن كل مكروه، وتسامت عن المألوف والمعروف من كل خطأ، والإحصان يطلق عادةً على الزواج لأنه يُحصن ويمنع من الوقوع في الفاحشة، (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) النفخ هنا عام لا يحدد موضعه، الروح : مخلوق عظيم مقرب إلى الله فنسبه الله إلى نفسه تشريفاً له، نحو عبادنا، جندنا. المعنى: أمرنا جبريل فنفخ في فتحة قميصها فدخلت النفخة إلى جوفها، فخلقنا المسيح في رحمها بطريقة إعجازية خارقة، فعاش مدعوماً بالإعجاز ورفع الله إليه بإعجاز! (وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) وجعلناها وابنها الذي ولدته من غير أب، آيةً متفردة نموذجية فذة مميّزة وأعجوبة واحدة لا تتكرر في تاريخ البشرية جمعاء، وتدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس فائدة: ١- وكفى لمريم فخراً أن يدخل ذكرها مع ذكر الأنبياء (ع) وليست منهم، ٢ - (آيَةً لِلْعَالَمِينَ) إنّ الملائكة كانت تأتيها برزقها (طعامها) لم يصنع بيد البشر! كما خاطبها ذكريا ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ هَذَا قَالَتُ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ آل عمران / ٣٧ قال (آيَةً لِلْعَالَمِينَ) ولم يقل (آيتين) لأن مريم وابنها حقيقة إعجازية واحدة موحدة متحدة أحدهما لها علاقة بالأخرى.

٩٢ - ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

أُمَّتُكُمْ: دينكم ديناً واحداً وهو الإسلام، بمعنى التسليم والخضوع والاستسلام لمنهج الله، فكل الأنبياء جاؤوا بالإسلام العام كقوله ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ الحج/٧٨، والنبي محمد (ص) جاء بالإسلام الخاص المتكامل بذاته المكمل لغيره، الأمة : القوم الذين

تجمعهم لغة واحدة وتاريخ واحد والنوع الإنساني الواحد، ثم كثر استعمالها في الدين الواحد، وأمة مُجَدِّد يجمعها (الإسلام) حال كونها مجتمعة غير متفرقة كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ^{١٩} عمران / وقوله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ^{١٢} الشورى / المعنى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) الخطاب للمسلمين كافة دون استثناء، إنها أمة الأنبياء جميعاً أمة واحدة وهي أمتكم، تدين بعقيدة واحدة وفق سنة واحدة واستقامة واحدة، برغم اختلاف الزمان والمكان، أمة واحدة في الأرض ورب واحد في السماء، وبلغ جميع الأنبياء أقوامهم عقيدة التوحيد الخالص والصلاة الخالصة لوجه الله عبادةً، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس) كما شجعوا على فعل الخيرات والحسنات وترك الشر والسيئات شريعة، فلا سبب لتعدد الأديان وتفرق الطوائف واختلاف المذاهب إلا الجهل والجهل المركب، ولا سبب للخروج عن قواعد الدين الواحد الأصيل، والأمة الواحدة المشتركة بوحدة الإنسانية، وبوحدة العقيدة التوحيدية المشتركة إلا المنافع الشخصية الدنيوية! ودين الله واحد موحد متّحد لكل الأنبياء، ودين الله لا يتجزأ ولا يتعدّد ولا يجوز الاختلاف فيه.

كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ^{١٥٩} الأنعام / وقوله (وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) الأنفال/٤٦.

وإنما يكون التفاوت بين الناس بمقدار الجهد الذي يبذله الإنسان فمنهم من يبذل لإعلاء إنسانيته وصفاء عقيدته وسلامة قلبه وطهارة نفسه ورفعها عن مستوى جاذبية الأرض، والتسامي بهذه النفس إلى جاذبية السماء، فالجسد وشهوته يسحب الإنسان إلى تراب الأرض، والروح والفكر والعقل يسحب الإنسان إلى عالم السماء والقيم والعلوم والمبادئ والأخلاق، (فَكُلَّمَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ، وَكُلَّمَا صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ كَبُرَ الْعَقْلُ) في غرر الحكم (إذا كَمَلَ الْعَقْلُ، نَقَصَتْ الشَّهْوَةُ) فيكون الإنسان بين جاذبيتين، جاذبية تسحبه إلى الأسفل وتجعله الأسفل، وجاذبية تسحبه إلى الأعلى وتجعله الأعلى، في غرر الحكم (العقلُ صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيهما غلب كانت في حيزه) ثم إن الله تعالى جعل لهذه الأمة الواحدة نظاماً واحداً هو الانقياد لله وحده لا يقبل غيره، ونظام التدبير الواحد والمنهج الواحد لا يقوم إلا بمدبر واحد وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة التي تحكم هذا الكون والكائنات بقدرة واحدة، وبذلك ترتبط السنن الإنسانية بالسنن الكونية بعلاقة مشتركة واحدة، كقوله (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) الأنعام/١٥٣.

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) وأنا خالقكم ومدبر أمركم ولا رب سواي، فاعبدوني وأخلصوا العبادة لي، ولا تشركوا في عبادتي أحداً، فإن الإخلاص عبادة المقربين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ^٣ الزمر / كقوله

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ المؤمنون / ٥٢، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبَادَةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْعِبَادَةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ!، وعلى قدر العبودية تكون المنزلة وتكون الرحمة ويكون رضا الله. فائدة: الآية تشير إلى أنه لا يجوز لأحد أن يتكلم باسم الإسلام إلا أن يكون عالماً به، مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه سبحانه، عن النبي (ص) (مَنْ إِزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْ هُدًى، لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) تنبيه الخواطر ص ٢٧٥، وغاية الفضائل العلم كقوله ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة / ١١ عن النبي (ص) (إِنَّ دِينَ اللَّهِ

تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه) كنز العمال خير ٢٨٨٨٦

٩٣ - ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾

ماذا كان حال الناس إزاء الأمر بالاستمرار على أساس الأمة الواحدة؟ (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ): تفرقت قلوبهم وتفرقت قلوبهم وتفرقت قلوبهم وتفرقت قلوبهم، وأصبحوا لكل أمة قائداً وإماماً، وكأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها، وكثرت بينهم الخلافات والانحرافات والنزاعات والصراعات، المعنى: أمرهم الله تعالى أن يكونوا جميعاً على عقيدة واحدة موحدة متحدة على التوحيد، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس) تفرقت قلوبهم إلى أديان، واختلفوا إلى طوائف، وتوزعوا إلى مذاهب وأحزاب، وهكذا اختلفوا على أساس الهوى والأنا والاتباع الأعمى، تفرقت قلوبهم وتنافرت أرواحهم كقوله ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ المؤمنون / ٥٣ فصار منهم الجاحدون ومنهم المشركون ومنهم الضالون، أخذ كل منهم شيئاً وترك شيئاً وآمنوا ببعض وكفروا ببعض كقوله ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ البقرة / ٨٥ كقوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ الحجر / ٩١، حتى اتباع الأنبياء من اليهود والنصارى والمسلمين يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض! وفي هذا تهديد ووعد على تفرقتهم عن الحق والتوحيد، وتمكن عدوهم منهم، وغزاهم في عقر دارهم بالحرب الناعمة الإعلامية فذلوا كقوله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ آل عمران / ١١٧ (كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) كل مذهب أو حزب أو دين منهم راجع إلى الله ومحاسب على ما كسب في كل صغيرة وكبيرة من خير أو شر، فعلينا أن نعود إلى الله في وحدة الصف وتوحيد الكلمة، وتجمعنا كلمة التوحيد، قبل فوات الأوان، كقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ آل عمران / ١٠٥ عن النبي (ص) (مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِاطِلَافٍ عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا

ما شاء الله! شرح النهج ١٨١/٥

٩٤ - ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَكْفُرْ بِإِسْمِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾

مَنْ يَعْمَلُ شَيْئاً مِنَ الطَّاعَاتِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، (فَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ) الصالحات عنوان عام لكل عمل نافع مادّي أو معنوي، أي ويعمل من المنجزات وانتاج الطاقات واستثمار الكفاءات والاختصاصات للتقدم الحضاري والأخلاقي في البلاد والعباد (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ويعمل على أسس الإيمان بالله والعمل على رضاه بالسلوك المستقيم (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) فلا تضييع لسعيه ولا بحس لحقوقه، ولا حرمان لثواب أعماله، ولا نسيان لكل دقائق وتفصيل منجزاته، والكفران في اللغة العربية هو البطلان: ومجرد الإحسان وستر النعمة وإنكار المنعم، وهو ضد الشكر وتقدير النعمة، بمعنى: لا يضيع شيء من منجزات سعيه ويجازى عليها بكل جزئياتها (وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) نكتب أعماله كلها في صحيفة أعماله، بواسطة ملائكتنا فلا يضيع من حقه مثقال ذرة كقوله ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الكهف/٣٠.

فائدة: ١- علاقة الإيمان بالعمل الصالح علاقة عضوية قوية متصلة غير منفصلة، كعلاقة الأقوال بالأعمال، والعبادات بالمعاملات، والحقائق بالمدعيات، وعلاقة الدين بالأخلاق، والنظرية بالتطبيق، والإيمان بلا عمل صالح نافع، إيمان ناقص، والعمل الصالح بلا إيمان كالبنيان بلا أساس، لأنه ضال عن سبيل الله، فلا وزن له عند الله، وإن كان له وزن عند الناس!، فينفع صاحبه في الدنيا بأسلوب من أساليب النفع، وقد ينفعه في الآخرة بتخفيف العذاب والحساب عنه، إذا كان صادق النية في نفع الناس. والعمل الطيب الصالح الذي لا يصدر عن إيمان، إنما هو مصادفة عابرة مرتبطة بمصلحة خاصة ضمن هدف مقسوم، ولكنه غير مرتبط بمنهج رباني مرسوم، وما هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأساس الذي هو الإيمان بالله والسعي لرضاه! ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ الليل/١٩-٢٠، وقوله (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) هود/١١٥.

٢- (يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ) ولم يقل (يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ) إذا لم توقفوا القيام بكل أعمال الخير، فاعملوا بما يمكنكم القيام به (من) بعضية، من بعض الصالحات، وكل حسب قدرته واستطاعته، ٣- (فَلَا كُفْرَانَ) علينا نحن أيضاً ألا نتجاهل مواهب الناس ونصادر اختصاصاتهم وكفاءاتهم وأعمالهم الحسنة لأنها بحس لحقوقهم كقوله ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ هود / ٨٥ - ٤- (لِسَعْيِهِ) ولم يقل (لجهده) لأن السعي بذل الطاقة اللازمة والجهد المطلوب في التحرك، مع الوعي والخبرة والتجربة والقصد والعلم بلا تراخي، بينما (الجهد) التحرك المتعب ولكن غير الواعي وغير القاصد، ٥- (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) إن الإيمان هو قاعد الحياة المطمئنة، وهو الصلة الحقيقية المباشرة بين الإنسان وربّه ونظام الكون كله، والحياة الدنيا لغز مُبْهَم لا يمكن تفسيره وفهمه لولا (الإيمان) كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

٩٥ - ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلُكُنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

(وَحَرَامٌ) وممتنع ولا يمكن أن يكون! على أية أمة (أَهْلُكُنَاهَا) ماتت واستحقت الهلاك وجاء أجلها المحتوم أن يرجعوا إلى الدنيا إنه قانون عام، ليحصلوا على ما فقدوه من نعمة الحياة مع الإيمان ويتداركوا أمرهم بالأعمال الصالحة (أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) إلى التوبة والاستقامة، ألم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون كقوله ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ الدخان / ٥٦ وقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام / ٢٨ ولكنهم يرجعون إلى الله عزوجل للحساب. والتعبير عن الامتناع بلفظ (حَرَامٌ) تأكيد لهذا الامتناع، وجعل عودتهم إلى الدنيا من المحرّمات والممنوعات بذاتها. سؤال : إنّ القرى التي هلكت بعذاب الاستتصال هل تُعذّب مرة ثانية؟
الجواب: سيعودون جميعاً للقيامة الكبرى حتماً لينالوا الجزاء الأخير المناسب معهم كقوله ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يونس / ٥٢ .

٩٦ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْتُمَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُم مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾

(من الآيات المتشابهة) ربّما يكون (يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) قبيلتان من الناس لتأجيج نار الفتنة والإرهاب والدمار والفساد في الأرض، فتكون لهما دولة كبيرة تسيطر بسلاحها الفتاك المدّمّر على الأرض، فتهلك الحرث والنسل وتأخذهم العزة بالإثم، وربّما كانت إشارة إلى أمة الصين، أكبر أمة في العالم التي تعيش شبه عزلة عن العالم ولم تحض حرب، والتي ملكت السلاح النووي، أن تغزوا العالم كله وتحاول السيطرة عليه، وتقدم ذكرهم أيضاً في الكهف/ ٩٤ بقوله ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) حَدَبٍ : مرتفع من الأرض، يَنْسِلُونَ : يسرعون أي يَنْفُذُونَ بين كل الناس في العالم بسرعة، المعنى : وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض، ومن كل مكان وناحية يجيئون مسرعين كأنهم جراد منتشر لكثرتهم، ويفسدون في الأرض ويعملون أنواع الخراب فيها، وهو من علامات قرب ظهور الإمام المهدي المنتظر، الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلِئَتْ ظلماً لأنه يسبق يوم القيامة (فَتُحْتِ)

ويكون فتح سد يأجوج ومأجوج من علامات ظهوره(ع)، وبعدها تقوم القيامة كما في الآية التالية (٩٧) وعلامة لنهاية العالم، وهذا تحذير من الله للناس كافة ألا يغفلوا عما يُراد منهم من طاعة الله تعالى، عن الإمام علي (ع) (عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَائْتِهِ)! البحار ٧٠ص ٩٥، وألاً يقيموا على الكفر والمعاصي ويستدركوا أمرهم، وقد قرب انفتاح القدرات والإمكانات ليأجوج ومأجوج بما لديهم من أسباب متطورة كثيرة يستطيعون من خلالها أن يقهروا الناس ولا قدرة لهم على قتلهم!، وهكذا مرّ في التاريخ أن التتر والمغول حطّموا العروش، وهلكوا الحرث والنسل وحرقوا

المكتبات والآثار العلمية كقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إبراهيم/٢٨ وقانا الله شرَّ الأشرار وشرَّ المُجَارِ وشرَّ طوارق اللَّيْلِ والنَّهَارِ .

٩٧ - ﴿وَاقْرَبِ الْوَعْدَ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (وَاقْتَرَبِ الْوَعْدَ الْحَقُّ) دنا الموعد الصدق وقت القيامة ويقع فجأة (وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ) كقوله ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ الأعراف/١٨٧، وإذا كان الموت في إقبال والعمر في إدبار فسرعان الملتقى، جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة، فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها، ويختل نظام هذا العالم البشري، فتموج الأمم بعضها في بعض بتفكيك روابطها (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (فَإِذَا) فجائية، فالقيامة تفاجئنا فإذا شأن الكافرين أن أبصارهم (شَاخِصَةٌ) أي جامدة بارزة مفتوحة لا تطرف من شدة الخوف والحيرة والفرع من أهوال يوم القيامة كقوله ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ إبراهيم/٤٢، (يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) ويقولون (يَا وَيْلَنَا) أي ياحسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة، وساهين عن هذا المصير المشؤوم واليوم الرهيب ولم نتفكر فيه (بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) كلاً لم نكن في غفلة، حيث ذكرنا الرسل ونبهتنا الآيات وسمعنا بهذا الوعد كثيراً، ولكن الحقيقة (بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) لأنفسنا بعدم الإيمان وتكذيب يوم المعاد، ولا تنشأ الغفلة عن يوم القيامة إلا عن ظلم الإنسان لنفسه، كقوله ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق / ٢٢ (فَلَا تَعْقِلْ فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنَّا) في غرر الحكم (احذروا العفلة فإنها من فساد الحس) وضلال النفوس، ونسيان الآخرة، عن الرسول (ص) (الْحَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ)! تنبيه الخواطر ص ٣٥٩

٩٨ - ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

الحصب: الحطب وكل ما يوقد به، ما يرمى به في نار جهنم (وقودها) المعنى: يصور القرآن المشهد المثير من مشاهد يوم القيامة، وكأنما هم في هذه اللحظة في ساحة المحشر، المعنى: (إِنَّكُمْ) أيها المشركون وما تعبدونه من آلهة حجرية أو بشرية أو عقائد صنمية فاسدة، مادية أو معنوية (حَصْبٌ) وقود جهنم، يلقون فيها بلا رفق ولا أناة، كما يُلقى بالحجارة في حفرة بلا وزن ولا قيمة ولا رفق ولا احترام، عندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) أنتم داخلوها مع آلهتكم وأصنامكم، لا كالورود بمعنى الاقتراب منها والإشراف عليها كقوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ مريم / ٧١، ويأتي معنى الورود بحسب موقعها من الجملة.

وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في جهنم، لزيادة غمهم وحسرتهم برويتهم الآلهة التي عبدوها وأطاعوها معهم في عذاب جهنم كقوله ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ البقرة/٢٤ وعلاقة الناس بالحجارة لأن قيمتهم كالحجارة!، وهكذا تكون النتائج مثل المقدمات، ويكون الجزاء

من نفس العمل، ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، وفي الحديث (المرء مع من أحب) كثر العمال خير ٢٤٦٨٤، وعنه (ص) (مَنْ أَصْعَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِذَا كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ!) البحار ٢٦٤/٧٢ (وَمَنْ أَطَاعَ ظَالِمًا فَقَدْ عَبَدَهُ!) عن النبي (ص) (ذُنْيَاكَ مَا يَشْعَلُكَ عَنِ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦، فائدة: ١- سؤال: وأية جدوى من حرق الأصنام وهي لا تحس ولا تشعر؟ الجواب: إنها وقود لعبدها والاستهزاء بها، ٢- سؤال: بعض النصارى يعبدون عيسى هل هم (حَصَبُ جَهَنَّمَ)؟ الجواب: (وَمَا تَعْبُدُونَ) (ما) لغير العاقل فلا تشمل عيسى (ع) وأيضاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ في الآية ١٠١ وعيسى (ع) ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهو من المبعدين عن النار، أما الذين يعبدون عيسى هم في حكم المشركين كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

يوسف/١٠٦

٩٩ - ١٠٠ - ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ وهو برهان وجداني، لو كانت هذه (آلهة) الأصنام الحجرية والبشرية، أو الأصنام المتعددة المعاني والألوان والأشكال من عبادة المال والنساء والجاه والسلطة والعقار أو العقائد الصنمية المغالية .. إلخ التي اتخذوها آلهة يعبدوها من دون الله، لو كانت آلهة حقاً (مَا وَرَدُوهَا) مادخلوا جهنم (وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) العابدون والمعبودون كلهم في جهنم مخلدون، ١٠٠ - (هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) اقتصر التعبير القرآني على الزفير دون الشهيق، فليس فيها هواء للشهيق، وأما هو بيان سوء حالهم في صراخ وعويل وشدة تنفيسهم في النار عند إحراقها لهم (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) ما يسمعهم ولا ينجيهم لأنهم في شغل شاغل بالأمهم وأوجاعهم وسوء مصيرهم فهم لا يجابون ولا أحد يسمعهم، وإنما يسمعون صوت الملائكة الذين يعذبونهم ويسمعون ما يسوؤهم كما كانوا لا يسمعون كلمة الحق في الدنيا، ويسمعون إلى الناس، وهكذا الجزاء من جنس العمل، في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيره) وَأَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ .

١٠١ - ١٠٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿﴾

لما ذكر الله تعالى أهل النار عطف عليهم حال أهل الجنة، الحُسْنَى: الصفة الحسنى، الذين يتبعون الأحسن، والأحسن هو الذي يتبع الأحسن في كل شيء، كقوله ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ الإسراء/٧ أي أهلناهم باستحقاقهم بمساعدتنا للعناية والهداية والرعاية والحماية والتوفيق للطاعة وإخلاص العمل لله، وهي السعادة الروحية واطمئنان القلوب، وهم المؤمنون الصادقون، أولئك لا يدخلون النار ولا يقربونها، لأنهم عملوا للفوز والنجاة . المعنى :

وصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا) مِنَ اللَّهِ (الْحَسَنَى)، لَأَنَّ إِيمَانَهُم بِاللَّهِ وَتَوْفِيقَهُم لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ النَّافِعَةِ لِلنَّاسِ، كَانَتْ فِي عِلْمِ اللَّهِ بِهِمْ وَإِرَادَتِهِ فِيهِمْ مَطَابِقَةً لِحَقِيقَتِهِمْ، وَلِوَاقِعِهِمْ الْعَمَلِيَّ الْمَكْشُوفَ وَكَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمَكْرَمِينَ (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَسَنَى، هُمْ مَبْعَدُونَ عَنْ جَهَنَّمَ، وَلَا يَقْرَبُونَ مِنْ حَرِّهَا وَلَا يَنَالُونَ رَهْبَتَهَا وَلَا يَصِلُهُمْ شِدَّتُهَا، وَهُمْ الَّذِينَ أَهْلَلُوا أَنْفُسَهُمْ لَطَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَابْتَعَدُوا عَنْ جَهَنَّمَ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةَ وَبِهَدَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ، ١٠٢ - (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) الْحَسِيسُ : مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَصَوَّرُ كَلِمَتَهَا وَعَمَقَ مَغْزَاهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى دَقَّةِ مَعْنَاهَا، وَالْحَسِيسُ: الصَّوْتُ الَّذِي يُحْسُ مِنْ حَرِيقِهَا بِالْأَجْسَادِ، أَي لَا يَسْمَعُونَ صَوْتًا لَهْبِيهَا وَلَا يُحْسُ مِنْ حَرَكَتِهَا وَحَرِّهَا شَيْئًا، فَهَمَّ تَوَقَّوْا حَرَّهَا فِي الدُّنْيَا فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَسِيسِهَا وَصَوْتِهَا وَرَهْبَتِهَا وَتُحْبَّاتِهَا وَمُفْجَاجَاتِهَا فِي الْآخِرَةِ (وَهُمْ فِي مَا اسْتَهْتُمْ أَنْفُسَهُمْ خَالِدُونَ) وَهُمْ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ دَائِمُونَ بِحَسَبِ مَا اسْتَهْتُمْ أَنْفُسَهُمْ بِأَقْوَانِ مَنْعَمُونَ (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) كَقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السَّجْدَةُ/١٧ فَهَمَّ يَعِيشُونَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ دَائِمٍ، فَكَمَا ثَبَتُوا عَلَى مَنَهِجِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَثْرَةِ الْمَعَانَاةِ، ثَبَتَهُمُ اللَّهُ ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إِبْرَاهِيمَ / ٢٧ .

١٠٣ - ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ : الْخَوْفُ الْأَعْظَمُ، الْمَزْلُزْلُ لِلْأَبْدَانِ، وَهُوَ أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَرَعَ الْآخِرَةَ وَرَهْبَتَهُ عَلَى مَرَاتِبٍ : مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ إِلَى وَحْشَةِ الْقَبْرِ وَظَلْمَتِهِ، ثُمَّ الْخُرُوجُ مِنَ الْقُبُورِ لِلْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، ثُمَّ إِلَى الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى.

الْمَعْنَى: (لَا يَخْزِيهِمْ) لَا يَصِيبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ وَالْعَرْضِ لِلْحِسَابِ، لِأَنَّهُمْ فِي مَأْمَنِ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ فَرْعٍ وَخَوْفٍ، لِأَنَّهُ مَنْ خَافَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا آمَنَهُ اللَّهُ مِنَ (الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ) فِي الْآخِرَةِ وَعَلَى قَدْرِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ الْأَمَانُ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ النَّمْلُ / ٨٧ عَنْ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) (مُسْكِينُ ابْنِ آدَمَ لَوْ خَافَ مِنَ النَّارِ كَمَا يَخَافُ مِنَ الْفَقْرِ لِأَمْنِهِمَا جَمِيعًا، وَلَوْ خَافَ اللَّهُ فِي الْبَاطِنِ كَمَا يَخَافُ خَلْقَهُ فِي الظَّاهِرِ لَسَعِدَ فِي الدَّارَيْنِ) تَبْيِيهِ الْخَوَاطِرُ ص ٣٥٣، (وَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) تَسْتَقْبِلُهُمْ مَلَائِكَةُ التَّشْرِيفَاتِ بِالْحِفَاوَةِ وَالتَّهْنِئَةِ وَالتَّكْرِيمِ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَهْنِئُوهُمْ بِيَوْمِ الْكِرَامَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الرَّومُ / ٦٠ فَأَبْشُرُوا بِالْفَوْزِ وَالسَّرُورِ، وَتَصَاحِبُهُمْ بِالترْحِيبِ وَالْحِفَاوَةِ، لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ وَهُمْ فِي أَجْوَاءِ رَهْبِيَّةٍ وَمَلِيعَةِ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ!! إِنَّهُ اطمئنن للنفوس في وقت الرهبة له قيمة كبرى!.

فائدة: ١ - قَدَّمَ (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ) وَأَحْرَجَ (وَتَتَلَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ) لِأَنَّ دَفْعَ الْمَفْسُدَةِ أَهَمُّ مِنْ جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ، وَالتَّخْلِيَّةُ قَبْلَ التَّحْلِيَّةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَةِ كَقَوْلِهِ ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ البقرة / ٢٥٦ قَدَّمَ التَّخْلِيَّةَ مِنْ كُلِّ طَاغُوتٍ لِتَحْصُلِ التَّحْلِيَّةِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَتَصِلُ إِلَى الْمَهْدَفِ السَّامِيِّ الْاسْتِمْسَاكِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى! كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود / ١١٤، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، يُفْرَعُ النَّاسُ وَلَا يُفْرَعُونَ) وَعِنْدَهُ (ص) (حَمْسٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ أَمِنْ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ إِذَا أُعْطِيَ شَيْئًا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا أذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ قَالَ إِنْ أَلَى اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَأَلَ رَبَّهُ، وَإِذَا حَافَ شَيْئًا لَجَأَ إِلَى رَبِّهِ).

١٠٤ - ﴿يَوْمَ تُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا النَّاسَ فَاعْلَمِينَ﴾

نَطْوِي: مِنْ طَيِّ الشَّيْءِ وَلَفَهُ كَمَا يُلْفُ الْبَسَاطُ وَيُطْوَى، إِنَّهُ تَشْبِيهُ جَمِيلٌ يَحْرِّكُ الْمَشَاعِرَ وَيُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، السِّجْلُ: الصَّحِيفَةُ، الْكِتَابُ: مَا يَكْتُبُ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ كَلِمَاتٍ، وَقَدْ قَضِيَ الْأَمْرُ وَانْتَهَى الْعَرْضُ وَطَوَى الْكُونَ الَّذِي كَانَ يَأْلَفُهُ الْإِنْسَانُ، فَإِذَا عَالِمٌ جَدِيدٌ وَنِظَامٌ جَدِيدٌ وَكُونَ جَدِيدٌ كَقَوْلِهِ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ إبراهيم/٤٨: الْمَعْنَى: يَصَوِّرُ الْقُرْآنُ مَشْهَدَ الْقِيَامَةِ الرَّهيبِ الْعَجِيبِ بِبِلَاغَةٍ عَالِيَةٍ، فَالسَّمَاءُ تَطْوَى عَلَى ضَخَامَتِهَا كَمَا يُطْوَى السِّجْلُ بِأَوْرَاقِهِ بِمَا كُتِبَ فِيهِ، فَالسَّمَاءُ تُطْوَى بِعَوَالِمِهَا كُلِّهَا مِنْ كَوَاكِبٍ وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِحَيْثُ يَصِيرُ كُلُّ كَوْكَبٍ أَشْبَهَ بِالْكَلِمَةِ أَوْ الْحَرْفِ فِي

الصَّحِيفَةِ! كَقَوْلِهِ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الزمر / ٦٧.

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) فَتُرْجَعُ الْخَلْقُ لِلْحِسَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، شَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ النُّشْأَةَ الثَّانِيَةَ بِالنُّشْأَةِ الْأُولَى، وَأَنَّهُ كَمَا تَحَقَّقَتِ الْأُولَى فَتَسْتَحَقُّ الثَّانِيَةَ، لِعِلَاقَةِ الْأُولَى بِالثَّانِيَةِ، وَالثَّانِيَةَ بِالْأُولَى كَقَوْلِهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف / ٢٩ وَفِي الْحَدِيثِ: (إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُقُفَةً عُرَاةً عَزْلًا (غَيْرَ مَحْتَوِينَ) كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)). نَوْرُ التَّفْهِيمِ ٢ / ١٨، نَرْجِعُ الْأَشْيَاءَ وَنَخْلُقُهَا بَعْدَ فَنَائِهَا، كَمَا خَلَقْنَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا وَهَذِهِ فِلْسُفَةُ الْمَعَادِ كَقَوْلِهِ ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ التغابن / ٧، (وَعَدَا عَلَيْنَا) وَعَدَا مُؤَكَّدًا لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَحَوَّلُ، نَقَلْتَهُ رُسُلْنَا لِلْعَالَمِينَ وَلَا يَتَغَيَّرُ (إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) لِأَنَّهُ لَزِمَ عَلَيْنَا الْوَفَاءَ بِهِ وَانْجَازَهُ، وَنَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ بَيْسَرًا وَسَهُولَةً، وَسَتُنَّا الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ لِأَنَّ قُدْرَتَنَا عَلَى الْخَلْقِ مِنَ الْعَدَمِ كَقُدْرَتِنَا عَلَى إِرْجَاعِ السَّمَاوَاتِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ خَلْقِهَا فَقَدْ نَحَوْلُهَا دَخَانًا، ثُمَّ نَبْعَثُ الْخَلْقَ لِلْحَيَاةِ كَمَا بَدَأْنَا، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ (مَنْ سَعَى لِدَارٍ إِقَامَتِهِ، حَلَّصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُّهُ)

فائدة: ١ - (أَوَّلَ خَلْقٍ) وفي تنكير (خَلْقٍ) يفيد العموم بمعنى: إنَّ كل مخلوق له خلق ونظام خاص به، وأنَّ له من علم الله وقدرته وحكمته، ونصيبه المقدَّر له في الشكل والصورة والمضمون والحجم والوظيفة والأجل ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر / ٤٩ وقوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ الأنعام / ٣٨، فسوف نعيده للحشر والحساب، كما كان أول مرة بشكله وصورته وسيمائه فلو رأيتَه لَقَلَّتَ هذا فلان! فأجسام الناس في الآخرة غير أجسامهم في الدنيا، فهم متشابهون في الأشكال مختلفون في الخصائص والمكونات، فأجسام الدنيا للفناء وأجسام الآخرة للبقاء، (وَخَيْرُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْآخِرَةِ) عن ابن عباس (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا بَمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا تَشَابَهُ الْأَسْمَاءِ) المراعي ٣٠ / ١٣٥، في غرر الحكم: (لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ عَلَى أُخْرَاهُ) ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ العنكبوت / ٦٤ الْحَيَوَانُ: من مبالغة الحياة ومضاعفتها، حياة تتفجَّر فيها الحياة ومنها الحياة! لما فيها من الحيوية والنماء والعطاء والامتلاء، والحياة الحقيقية المنعشة الدائمة المرفَّهة المنعمَّة السَّعيدة، حياة بلا سلبيات ولا منغصات ولا آفات .

١٠٥ - ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا) أي سجلنا حقيقة بالغة الأهمية في حركة السنن التاريخية، وإن كانت في الظاهر عسيرة التحقق، ولكن في باطنها لا بد أن تتحقق في ظروفها الموضوعية المناسبة، بل ضرورة أن تتحقق، المعنى: قد أنزلنا ما قضينا من مشيئتنا وأثبتناه في زبور داود (ع) (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) من بعد إثباته في تورا موسى (ع) لبيان سنة الله الثابتة في وراثة أرض الدنيا إلى حكم الصالحين، فعليهم العمل المناسب لتحقيق النتيجة المأمولة، وقيل: الزَّبُورُ: الكتب التي أنزلت على الأنبياء كقوله ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبُورِ﴾ القمر / ٥٢، إما أن يكون كتاب داود (ع) ويكون (الذِّكْرِ) صحف إبراهيم وتورا موسى التي سبقت الزبور، وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب من كتب الأنبياء، وخلاصتها (القرآن الكريم) كتاب الله الجامع لكل ما هو أهم في الكتب السماوية الأصيلة، فيكون معنى الزبور قطعة من الكتاب الأصيل الأم الجامع الذي ذكر وهو (اللوح المحفوظ) الذي يمثل المنهج الحركي الكلي، لكل الكائنات، والمرجع الكامل و(بنك) معلومات واسعة لكل قوانين الله في الوجود (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) إن الحكم والسلطان في الأرض وإن كان الآن بأيدي الطغاة الفجرة، فإن الله تعالى سينقله من أيديهم إلى أيدي الطيبين الصالحين الأخيار (وَدَوَامُ الْحَالِ مِنْ الْمُحَالِ)! ويحكمها عبادي الصالحون ليقيموا عليها مجتمعاً صالحاً مستقيماً يجب الخير وطاعة الله ويكره الشر ومعصية الله، بعد أن ذاقوا مرارة حكم الظالمين، فالآن يُجَبُّوا أن يتطلَّعوا إلى حكم الصالحين كقوله ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج / ٤١ .

وقوله (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) يونس/١٤ وانها سنّة حتميّة لا بد أن تتحقق في هذا العالم، بطروف موضوعية مناسبة وبأسباب ربّانية ملائمة ! وعندها يعم الأمن والعدل وغلبة الحق في أنحاء الكرة الأرضية، وينعم بخيراتها وبركاتها الناس جميعهم، فمن الواجب على المؤمنين أن يحققوا مستلزمات الإيمان الأساسية وهو العمل الصالح المتنوع النافع للعباد والبلاد، والنهوض بتبعات الخلافة والاستخلاف ليتحقق وعد الله وتجري سنته، عن النبي(ص) (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ ظُلْمًا وَجَوْرًا)؛ نورالثقلين ٣ / ٤٦٤ والمراد بميراثهم الأرض (يَرِثُهَا عِبَادِي) : إنهم هم الذين ينتفعون بحياتهم في الأرض، ويتزود المؤمنون فيها الزاد الطيب النافع في دنياهم وآخرتهم، وهو الذي يستحق أن يسمى ميراثاً! وصلاح الأمة الاسلامية يقوم على أربعة أسس :

١ - أن يكون قادتها علماء صالحين مُفكِّرين، وساستها حكماء عادلين حريصين على نهضتها.
٢ - أن يكون لها جيش منظم عقائدي يدافع عنها بإخلاص ولديه من العدة الكافية والعدد الوافي.

٣ - أن تعمل الأمة الاكتفاء الذاتي لحاجاتها وعدم الاعتماد على الاستيراد.

٤ - استثمار جميع الطاقات في العباد لخدمة البلاد، بحيث تنافس الأمة أمثالها في الأمم الأخرى أو تفوقها . كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ۖ هُمْ فِي النَّورِ ٥٥﴾ وقوله ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف/١٢٨، عن الإمام الباقر(ع) (هُمُ أَصْحَابُ الْمَهْدِيِّ (ع) فِي آخِرِ الزَّمَانِ) .

١٠٦ - ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾

إنّ هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والوعد الصادق والسنة المؤكدة (أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون) ولو بعد حين (لبلاغاً) لبياناً واضحاً وكاشفاً، وحجة قاطعة كافية، لقوم (عابدين) خاضعين مستقيمين متذللين لله عزوجل المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان والهوى، والذين يتلقفون أمر الله لينفذوه ويضحوا من أجله، وهم المتعظون بالعبء، والمتنفعون بالنذر فبلغوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة، على قدر العلم تكون العبادة، وعلى قدر العبودية تكون الرحمة، ويسميه (عابدين) لأن العابد خاشع القلب طائع واع يقض متهيء لتلقي والنهوض بالمسؤولية، والعبادة على قدر العلم، والعلم شجرة طيبة نافعة للناس، ثمّتها العمل الطيب النافع، وهذه التربية القرآنية النموذجية تؤهلهم لقيادة الأمة الإسلامية، والاستخلاف في

الأرض، كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) مُحَّد/٧، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبَادِيَّةِ أَهْلٌ لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْعِبَادِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ!!

١٠٧ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) يَا مُحَمَّدَ (إِلَّا رَحْمَةً) ونعمة وبركة وهداية وخيراً دائماً (لِلْعَالَمِينَ) للناس أجمعين، في جميع أنحاء العالم، وتسبب لهم سعادة الدنيا والآخرة، بأخلاقك وسيرتك وشريعتك وتعاليم رسالتك وأهدافها السامية السهلة السَّمْحَة، التي فيها نظام حياتهم الذي يرفعهم إلى درجات الكمال الإنساني كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سبأ/٢٨ وما يهندي ويتفاعل إلا أولئك المتهينون المستعدون، وإن كانت الرحمة مائدة مفتوحة للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، عن النبي (ص) (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ) المرافي ١٧ / ٧٨ .

وقيل له: ادع على المشركين فقال: إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً، وقال النبي (ص) (إِنَّ أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي بِجَالِسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَأَشَدُّكُمْ تَوَاضُعًا) البحار ٧١ / ٣٨٥، فائدة: ١- لم يقل (رحمة للمؤمنين) وإنما قال (رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) نلاحظ إنَّ الله المرسل (رَبُّ الْعَالَمِينَ) والرسول المصطفى (رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) والرسالة (القرآن) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ التكوير/٢٧، فصار المرسل والرسول والرسالة كلها عالمية، فلماذا نحن نعيش حدود المذهبية، وعقولنا الطائفية؟ كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام/١٥٩، فعلينا أن نستوعب القرآن عالمياً نعيشه عالمياً ثم نبلغه للناس عالمياً!

فمن الخطأ الكبير أن نتعامل مع المنهج القرآني العالمي الممدود بخطاب مذهبي محدود!! والمنهج القرآني العالمي متطور بذاته باستمرار ومطور لغيره، ونحن بحاجة إلى أدوات تطوير وتوصيل القرآن العالمي للناس كافة بصورة مشوّقة، ومن أهم أدوات التبليغ القرآني العالمي، الدمج العلمي الفني بين الأصالة القرآنية العالمية الثابتة، مع أساليب الحداثة والمعاصرة المتغيرة (وأعني بالحداثة المعاصرة) فنية الطرح وجمالية الأسلوب، وعمق الفكرة ودقة الحجة وشمولية الفائدة، بحيث يكون أسلوب البحث وتأثيره يتقدم على مادة البحث وأهميته. ٢- إنَّ الله رحم الخلق بالرسول مُحَمَّد (ص) لأنه جاءهم بدستور النجاة وبالسعادة الكبرى (القرآن الكريم، وسنته الشريفة) وحلَّصهم من الجاهلية الظلماء وهداهم للتي هي أقوم، حتى الكفار رحمهم الله فأمهلمهم مع فسادهم ولم يستأصلهم بالهلاك كما هلك الأمم السابقة، فكان نبينا (ص) رحمةً للعالمين، كقوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّعْفُورٌ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ) الرعد/٦.

٣ - الهدى الذي جاء به سيد المرسلين (ص) هدى عالمي ممدود وليس له حدود، كقوله (هُدًى لِّلنَّاسِ) البقرة/١٨٥ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف/١٥٨ وقوله (أَرْسَلْنَاكَ)

يفهم منه أن الرحمة كانت منذ إرساله برسالة سماوية اسلامية عالمية قِيَمَةٌ تنقذ الإنسان (كل إنسان) من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة، وتُعرِّفُ فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، وتقود البشرية كلها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة، إنّ البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى فهم واستذواق هذه (الرحمة العالمية) المهداة، وهي تعيش في معاناة نفسية كثيرة، وجفاف روحي وقسوة قلوب وضلال بعيد، وجحيم الحروب ومتاهات العالم المادي، لذلك يريد الله تعالى أن تسود الرسالة الربانية العالمية وتقود العالم جميعاً العربي والأعجمي، والفقير والغني والأسود والأبيض والرجال والنساء، والقلوب والقوالب، ومن جميع الملل والأديان فتتوحد بدين الإسلام **كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾** آل عمران/١٩ حتى تكونَ وراثته الأرض كلها للصالحين التابعين لهذه الرحمة العالمية، وهذه مسؤولية عالمية لا بد أن يسعى كل مؤمن لتحقيقها . فمن قَبْلِ هذه الرحمة فاز وسَعِدَ في الدنيا والآخرة، ومن أَعْرَضَ عن هذه الرحمة فإنه يتبع هواه فيضله عن سبيل الله، ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين **كقوله تعالى وهو يصف القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾** فصلت/٤٤ .

١٠٨ - ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

(إِنَّمَا) دالة على الحصر، بمعنى (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) ربي كما أوحى لجميع الأنبياء السابقين، بخلاصة رسالتهم السماوية هي (التوحيد) وهو أساس لكل الرسالات وينبع من الرحمة للعالمين، أي قل إنما أوحى إليّ ربي، أن إلهكم المستحق للعبادة (إِلَهُ وَاحِدٌ) أحد فرد صمد متفرد وهو المقصود وحده بالحاجات و(التوحيد) مفتاح الرحمة ويدفع النعمة وهو مفتاح الهدى ويغلق باب الهوى والعمى، كقوله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) محمد/١٩، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) فلا تصلح العبادة إلا لله جلّ في علاه، فانقادوا لأمره واذعنوا لطاعته وابتعدوا عن معصيته فتسلّكوا سبيل النجاة وتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة، في غرر الحكم (فِي الْإِنْفِرَادِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ كُنُوزُ الْأَرْبَاحِ) (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) من التسليم والقناعة.

أي مستسلمون موقنون بدين التوحيد، أنها دعوة كريمة للناس جميعاً للاستجابة للإسلام دين الله القيم، دين حياة القلوب وسعادتها، الرسالة السهلة السمحة، والإسلام رسالة المستقبل وهو الأمل وهو الطموح، وهو يعلو لا يُعلى عليه كقوله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/٣٣، الاستفهام ومعناه الأمر، أي فأسلموا وجوهكم لله واستسلموا لأمره واخضعوا لإرادته وأنقادوا لحكمه، كقوله (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) الحجر/٩٩، واتركوا ما أنتم عليه من عادات جاهلية خاطئة وتقاليد باطلة، فإنها تقودكم إلى الخسران والحرمان والخذلان، فائدة : فمن ضاق عليه الإسلام فالضلال عليه أضيّق، فهذا الإسلام العام بمعنى التسليم لمنهج الله عزوجل، وهذا

الإسلام جاء به جميع الأنبياء (ع) كقوله على لسان نوح (ع) ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس/٧٢

وقوله عن إبراهيم (ع) ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ الحج / ٧٨، وهناك الإسلام الخاص الذي جاء به خاتم المرسلين محمد (ص) وهو بالإضافة إلى معناه التسليم لمنهج الله، هو النطق والاعتراف بالشهادتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ومن معاني الإسلام الحركي، في نهج البلاغة خطبة ١٦٧ (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ) وهذا الإسلام الخاص خلاصة رسالات جميع الأنبياء (ع) ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران / ١٩ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران / ٨٥ في نهج البلاغة خطبة ١٩٨ (إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي إِصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَاصْطَفَاهُ خَيْرَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى حَبْنِهِ وَأَدَّلَ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلِ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ).

١٠٩ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾

تَوَلَّوْا : أعرضوا ولم يسلموا، آذَنْتُكُمْ : أعلمتكم وأنذرتكم وحثرتكم، عَلَى سَوَاءٍ : يستوي الجميع نحن وأنتم في هذا الإنذار، ولم أخص أحداً دون أحد، المعنى : بعد أن لزمتمهم الحجة بالتبليغ وأعرضوا ولم يسلموا، أمر الله نبيه المصطفى (ص) أن يقول لهم : لقد أديت ما عليّ وبلغتكم جميعاً رسالات ربي، وأنذرتكم جميعاً ولم يبق لأحد منكم عذر يتعلل به كقوله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال / ٤٢ في نهج البلاغة خطبة ١٦٩ (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ، وَأَمَرَ قَائِمًا، لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ) (وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ) أنا على يقين من عذابكم بوعده غير مكذوب لإصراركم على الشرك والكفر والضلال (وَإِنْ أَذْرِي) ولكن لا أدري متى يكون ذلك وكيف؟ وسواء أكان قريباً أم بعيداً فإن له أجلاً ووقتاً محدداً لا يتجاوزه، فانتظروا أي معكم من المنتظرين! كقوله (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) الكهف/٥٩ (وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَقَدْ أَهْمَلَ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلًا، وَلَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ غَفْرًا، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرَ)!! كقوله ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يونس/٤

١١٠ - ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

والله يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء (وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) ويعلم الظواهر وما في الضمائر، ويعلم السرّ وأخفى، وسيجازي كلاً بعمله . فأمركم كله مكشوف له سبحانه كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ وقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣ وحين يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخفيته، فهو الذي يحدد زمان عذابكم ونوعه وكيفيته، وإذا أحر

عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله تعالى كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف / ١٨٢

١١١ - ﴿وَلَنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

وما أدري لعلّ هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم (فِتْنَةٌ لَكُمْ) امتحان لكم واختبار وزيادة في استدراجكم ليشدد عليكم العذاب، لنرى كيف تعملون ليظهر كلاً منكم على حقيقته، فيتوب الطيب ويتمرد الخبيث، كقوله ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ الأنفال / ٣٧ (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) ولعلّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمن معين بقي من أعماركم كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد / ٣٨، وفي غرر الحكم (مَنْ رَاقَبَ أَجَلَهُ، إِعْتَمَمَ مَهْلَهُ) ثم يأتيكم عذاب الله المقسوم وفق أجلكم المحتوم كقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيهِمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّيهِمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَهُمْ عَدَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران / ١٧٨، وهذا الإبهام في الآية من أساليب الدعوة بالحكمة، لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم المعاند. فائدة: لما سلّم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية، قام الحسن فقال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا الأمر تركته لمعاوية إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم (ثم ذكر الآية) فاستغفر الله ونزل، عن النبي (ص) (ذُنُوبًا مَا يَشْعَلُكَ عَنْ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦.

١١٢ - ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

احْكُم بِالْحَقِّ: أقضي بالعدل، قال الرسول (ص) بعد ما رأى إعراض قومه الشديد وعنادهم المديد، (قَالَ رَبِّ) انصر الحق وأهله وأخذل الباطل وأعوانه، لا يحكم الله إلا بالحق، وأما يسأل ربه أن يظهر الحق وينصر أهله على من كفر به وحاربه، وافصل بيننا بالحق، ويستعينه على كيدهم وتكذبيهم، وهو وحده سبحانه المستعان في كل شيء، كان النبي (ص) إذا شهد قتالاً قال (رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ) أي افصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق للجميع. فائدة: كان الأنبياء يقولون ﴿رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ الأعراف / ٨٩، ويقولون (وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وربُّنا كثير الرحمة لا يخيب سائله، أستعين بالله أن يُحَصِّنِي بالصبر (عَلَى مَا تَصِفُونَ) على ما تقولون من الكفر والكذب على الله وكتبه ورسله، عن السيد عيسى المسيح (ع) (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) البحار ١٣٧/٨٢ ليبقى الرسول رحمة للعالمين، ويعينه على ما يصفون.

وآخر دعوانا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

وفي الختام نقول : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ الخاتمة / ٢٠

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبَسَّر) لسورة الأنبياء، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل، فله الحمد والمنة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتُدفع النقمات، بتاريخ ٢٩/١٢/٢٠١٧م، الموافق ٢٣/صفر/١٤٣٨هـ، مع تصحيحها عدة مرات، في بغداد، الكاظمية، داعين الله عزوجل أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إن ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة :

مدنية، تتناول جوانب التشريع والأحكام، ويغلب عليها جو السور المكية، فمواضيعها الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء ومشاهد يوم القيامة، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال والأمر بالجهاد في سبيل الله، وهي من خصائص السور المدنية، حتى قيل عنها أنها من السور المشتركة بين المدني والمكي، وفي السورة أحكام الحج والهدي، ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف وخيف ترتحف له القلوب، وهو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، وأعطت السورة البراهين على البعث والجزاء، ويكون الأبرار في نعيم، والفجار في جحيم، وسميت (سُورَةُ الْحَجِّ) لأن إبراهيم نادى ربه (وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) الآية ٢٧، حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ووصل إلى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأجابوا النداء واستضافهم الله، ضيوفاً كراماً لبيته، رقمها ٢٢، عدد آياتها ٧٨، الجزء السابع عشر. فضلها: عن النبي (ص) (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ أُعْطِيَ مِنْ الْأَجْرِ كَحَجَّةٍ حَجَّهَا وَعُمْرَةٍ اعْتَمَرَهَا بَعْدَ مَنْ حَجَّ وَأَعْتَمَرَ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا بَقِيَ!) نور الثقلين ص ٤٦٩ ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كُنْتُمْ لِرَبِّكُم مِّنْ لَّا تَذَكَّرُونَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

توجيه الخطاب القرآني لكل الناس بكل ألوأهم وأصنافهم أن (اتَّقُوا رَبَّكُمْ) الذي رباكم، التقوى: اتقاء المعاصي كما أتقي المخاطر والتمسك بالطاعات والالتزام بالواجبات، وتعطي معنى الورع عن محارم الله، والتقوى دعوة جميع الأنبياء، وهي سبيل النجاة في الدنيا والآخرة كقوله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات/١٣، في غرر الحكم (التَّقْوَى: مُنْتَهَى رِضَا اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَاجَتُهُ

مِنْ خَلْقِهِ) **المعنى:** مشهد قرآني حقيقي مثير و عنيف ومخيف ترتجف لهوله القلوب، إنه خطاب لجميع البشر وحجة عليهم (اتَّقُوا رَبَّكُمْ) أي خافوا عذاب الله وتذكروا أهوال يوم القيامة، بالالتزام بتقوى ربكم وطاعته وامتنال أوامره واجتناب نواهيه. **كقوله** ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ^{الطلاق / ٢-٣}، عن الإمام الصادق (ع) (يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَرَسُ الْمُتَّقِينَ) ^{البحار ٢٨٨/٧٠}، وَمِحْنَةُ الْجَاهِلِينَ (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ^{تعليل للأمر بالتقوى أي إنك تنجو من هذه الزلزلة الشديدة ببركات التقوى (فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ) أي إن الزلزال الشديد الذي يكون من علامات الساعة وإرهاصات يوم القيامة، أمر عظيم تصوره وشديد تحمله، فهو أكبر من أن يتصوره الإنسان وأعظم من أن تصفه الكلمات!! لأنه (شَيْءٌ عَظِيمٌ) بمقاييس الله تعالى، فلك أن تتصور فظاعته! والزلزلة: الهزة الشديدة، وهي إرهاصات وعلامات لتغيير نظام الكون والكائنات جميعها، ليقف الخلق بين يدي خالق الكون والكائنات في ذلك اليوم الرهيب الحاسم للحساب، ولا ينفذ في ذلك اليوم إلا من تزود بالتقوى، فَهِيَ حِصْنٌ حَصِينٌ أَمِينٌ مَنِيْعٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهَا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ^{البقرة / ١٩٧}، وإذا كانت الزلزلة وحدها لا تحدث، فما بالك بما يحدث في ذلك اليوم من الحساب على الأعمال لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء!، **كقوله** (أَقَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) ^{الرعد/ ٣٣}، **فائدة: يوم القيامة:** كائن مُقَدَّرٌ وَمُدَبَّرٌ لا بد منه، وبدونه اللغو واللَّهْو، كل مُقَدَّرٌ كائن، وكل كائن آتٍ، وكل آتٍ قريب، وكل قريب كاد أن يكون **كقوله** ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ^{النازعات/ ٤٦}، في غرر الحكم (لِلْمُتَّقِي: هُدًى فِي رَشَادٍ، وَتَحْرُجُ عَنْ فُسَادٍ، وَحِرْصٌ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) .}

٢ - ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَدَاهُلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَامًا وَمِمَّا هُمْ بِسُكَامٍ وَلِكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

إنه تصوير قرآني مُتَحَرِّكٌ لمشهد مؤثر حاسم ورهيب من مقدمات مشاهد يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^{المطففين/ ٦} (يَوْمَ تَرَوْنَهَا) في ذلك اليوم العصيب الذي تشهدون فيه تلك الزلزلة الشديدة وترون هولها ورهبتها ومطلعها، تَدَاهُلُ: تُدْهَشُ وترتقب وترتبك بشدة، وتغيب عن الرشد، وتفقد التوازن من رهبة الخوف وشدته، **المعنى:** (تَدَاهُلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) رضيعها أعز شيء لديها فكيف بذهولها عن سواها؟، (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا) وتسقط كل ذات حمل لجنينها الذي في بطنها قبل تمامه رعباً وفزعاً، وهو تصوير حسبي حي دقيق، لهول الساعة وشدتها حيث لا مريض ولا حامل يومذاك.

كقوله ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ عبس ٣٤-٣٦، أي لو كان هنالك مرضع لذهلت أو حامل لوضعت، حيث لا يملك أحد مع هذا البلاء شيئاً من نفسه لنفسه كقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ الانفطار / ١٩ فهي تنظر ولا ترى وتتحرك ولا تعي بل تضطرب نفوس الخلق كافة. (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى) تراهم كأنهم سكارى يَتَرْتَحُونَ تَرْتَحِ السكران من هول ما يدرکہم من الخوف والفرع! فيحدث لديهم تغييراً في العُدَدِ والخلايا المسؤولة عن التوازن (وَمَا هُمْ بِسُكَارَى) وما هم على الحقيقة بسكارى فيضطربون إضطراب السكران الفاقد للوعي، انه تشبيه يحرک المشاعر ويحيي الضمائر! (وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) والسبب في ذلك هي أهوال الساعة وشدائد المعاد إلى يوم القيامة، أطارت عقولهم وسَلَبَتْ أفكارهم، فهم مشفقون وخائفون من سوء المصير، ومن عذاب الله الشديد والمديد، وهم بعد لم يستذوقوا العذاب! كقوله ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ الزمل / ١٧.

وقوله ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ الأنسان / ٧ فائدة: (فلسفة يوم القيامة) الدنيا لا تناقض الآخرة ولا تعارضها، بل الدنيا مكمله للآخرة، وحلقة من حلقاتها ولا انفصال بينهما، وهي ممر لمقر، وهي مزرعة الآخرة، وهما حياتان متلازمتان، فالخير في الدنيا خير في الآخرة، والشر في الدنيا شر في الآخرة على فاعله، والفرق بين الحياتين، هو تركيز الحياة وديموميتها، وجمالية خصائصها وكيفيةها، فالحياة في الدنيا، دنيا الحياة، والحياة في الآخرة، عليا الحياة!، لذلك صارت الآخرة خير من الدنيا، لأن حياة الآخرة أرقى بالفعل والقوة من الحياة الدنيا، وأرقى في العمر وفي الامتداد، وفي الوسائل والغايات، وأسمى بالمفاجأة والمكافأة، وفي الحاجات والمستويات ... وفي كل شي (لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) في غرر الحكم (ليس لأحد من دُنْيَاهُ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ عَلَىٰ آخِرَاهُ).

٣ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾

ومع حقيقة هذا القول المزلزل المروع، أن هناك من لا يبالي به فيتناول ويجادل ويجاور ويناقش في (في الله بغير علم)، الآية ذات دلالة عامة، في كل من يجادل في الله وفي صفاته وأفعاله ورسله ورسالاته وفي دين الله بالجهل، وبث الشكوك والشبهات، ويتكلم بلا دليل ولا برهان. كقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ لقمان / ٢٠، والنقاش والجدال والحوار الحقيقي النافع لا يكون ناضجاً إلا بين عالمين، إن يُريداً وفاقاً واتفاقاً يُوفِّقُ الله بينهما، عن الإمام علي(ع) (حَاصِمْتُ الْعَالَمِ فَحَصَمْتُهُ، وَحَاصِمْتُ الْجَاهِلِ فَحَصَمْتَنِي) وباليته كان جدالاً عن علم وحجة، إنه جدال مذموم ناشيء من اتباع الهوى والأنا والشيطان المرید، الفاسد المفسد الضال المضل، فهو لا يتبع علماً ولا يسأل عن معرفة وإنما (وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) مَرِيدٍ : خبيث قاصد للفساد والتعالي والعناد، ويطيع ويتعاون مع كل باغ وطاق و متمرد على حرمت الله، متفنن في الإجرام، متطور في اختراع الفساد من الإنس والجن، فهو يعرقل منهج الله أن لا يصل إلى الأفراد وإلى المجتمعات، بكل الأساليب في الحرب الإعلامية الناعمة الباردة التي تعتمد التشكيك

في الدين وفي الإيمان، بخطط جهنمية مدروسة، والذي يصدّ عن سبيل الله ويساهم في عرقله مسيرة الحق وحقوق الناس. (مريد) العاري عن الخير من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق فيها، فائدة: ١- كل من أخفى حقيقته بالشعوذة والرياء ليضل الناس عن طريق الهدى، ويتظاهر بالصلاح فهو شيطان الإنس والجن، والمريد: الذي بلغ الغاية من الفساد والعناد ويتعمّد الضلال، الذي التقى هواه مع ما يريده الشيطان.

فأصبح شيطان الجن يخطط له وشيطان الإنس ينفذ ما يخطط له من حيث لا يشعر، فهو ضحية من ضحاياه! كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف / ١٠٣، ٢ - ينهى القرآن عن الجدال المذموم، ولكنه يشجّع على الجدال الممدوح الخاضع لقواعد العلم والحجة والبرهان كقوله ﴿وَجَادِثُهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل/١٢٥ والذي يجادل بالأحسن هو الأحسن، ومن الأسلوب الأحسن أن (تبدأ معه من حيث يجب، حتّى تنتهي إلى حيث تحب!) بمعنى: تحب الحق لتصل إليه من أول الطريق، وفي أقصر الوسائل وأقلّ التكاليف.

٤ - ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

(كُتِبَ عَلَيْهِ) الضمير يعود إلى وصف هذا الشيطان المريد، حكم الله وقضى (أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ) من أتبع هذا الشيطان المريد واتّخذه ولياً ومرشداً وناصراً وقائداً ومعيناً (فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) فإن الشيطان يغويه ويغيره ويحوّله من الحق إلى الباطل، ومن الصلاح إلى الفساد ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة من حيث لا يشعر كقوله (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) الصفات / ٢٣ عن الإمام الصادق (ع) (أدنى ما يخرج الإنسان من الإيمان، أن يؤاخي الرّجل على دينه، فيحصى عليه عثراته وزلاته ليعتقه بها يوماً ما) البحار ٧٥ ص ٤٨، في غرر الحكم (المؤمن من وقى دينه بديناه، والفاجر من وقى دينه بدينه) عن النبي (ص) (وَيْلٌ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ) كنز العمال خير ٢٩٠٩١، السّعير: النار المتوهجة التي لا تحمد، فائدة: ١- كل من أتبع الضالّ المضلّ واقتدى به، تحت أي عنوان جميل براق سواء أكان من العلماء أو الأحزاب أو العشائر أو أفراد أو جماعات ... إلخ فإنه يقوده إلى ما هو عليه من الضلال وسوء الحال، وفي الآخرة سوء المصير وعذاب الحريق. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة/٥١

٢- قيل (مَنْ زَانُوا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ظَلَمُوهُ، وَمَنْ زَانُوا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ أَنْصَفُوهُ!) عن الإمام علي (ع) (إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ، فَأَعْرِفُ الْحَقَّ تَعْرِفُ أَهْلَهُ، وَأَعْرِفُ الْبَاطِلَ تَعْرِفُ أَهْلَهُ) أمالي المفيد ص ٣، وعن الإمام الصادق (ع) (وَمَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) بحار الأنوار/٢/١٠٥، ومن دخل في أمر

بجهل تصرّف بجهل، وخرج منه بجهل، وضيّع عمره بجهل! وحشره الله يوم القيامة مع الجهلاء، ٣ - وعبر بـ (وَيَهْدِيهِ) على سبيل التَهَكُّم، فيسمي التعبير اتباع الشيطان وقيادته له إلى عذاب السعير (هداية) فيا ليتها كانت هداية إلى خير لكنها هداية إلى الضلال البعيد المهلك المبيد، وبالتالي هي هداية على سبيل العبرة والموعظة، فَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ هِدَايَةُ الرَّحْمَنِ تَضُرُّهُ غَوَايَةُ الشَّيْطَانِ، عن الإمام علي (ع) (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْبَقِيَّةُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح النهج ٢ / ٩١، فهداية الرحمن إلى سعادة الدنيا والآخرة كقوله ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ البقرة/١٢٠، وهداية الشيطان إلى عذاب الدنيا والآخرة كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء / ٢١٣ .

وفي غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَعْزِيهِ الْهُوَى؟) ٤ - (كُتِبَ عَلَيْهِ) لا تعني أن هناك جبراً، وإنما المقدمات تقود إلى هذه النتائج.

٥ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْتَى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَكَمْ مِنَ الْأَمْرُضِ حَامِدَةٌ إِذَا مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ نَرَفٍ يَهِيحُ﴾

هذه الآية البليغة ترسم مسيرة الإنسان كاملة، وتصوّر حياته من أولها إلى آخرها بعبارات وجيزة مؤثرة، ظاهرها أنيق دقيق جذاب، وباطنها عميق رقيق منساب، لتتعلّم إنّ الذي يعرف كيف ينتهي يعرف كيف يبدأ! والذي يجهل كيف ينتهي يجهل كيف يبدأ! تشرح الآية قضية البعث شرحاً محسوساً مؤثراً واضحاً عاماً يأخذ بالألباب المعنى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) الخطاب لكافة الناس (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) في شك (مِنَ الْبَعْثِ) والنشور وإعادة الحياة بعد الموت والرجوع إلى الله، فليتدبروا إلى أول خلقكم وكيف نشأت الحياة فيكم ليزول شككم؟! وتعلموا أن القادر على الخلق أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثاني مرة كقوله ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الإسراء / ٥١. ثم ذكر سبحانه من أطوار الخلق أموراً سبعة:

١ - (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) إذ خلق الله الإنسان من المني المتولد في الأغذية التي تنتهي إلى النباتات، وهو يتولّد من الأرض والماء ٢ - (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) من مني مكّون من الدم المتولّد من الغذاء المنتهي إلى التراب كقوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ المرسلات/٢٠ ٣ - (ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) ثم من دم جامد، وما بين الماء والدم من اختلافات في الشكل والمضمون والخواص والوظيفة ٤ - (ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) ثم من قطعة صغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ، مصوّرة وغير مصوّرة (مُخَلَّقَةٍ) التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين. (وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) لم يكتمل خلقها كقوله ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا﴾ نوح / ١٤ .

وبهذا التفاوت في مراحل الخلق يتفاضل الناس في صُوَرِهِمْ وأشكالهم وجمالهم ولونهم وطولهم وقصرهم.. عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا، جَمَعَ كُلَّ صُوْرَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ إِلَى آدَمَ، ثُمَّ خَلَقَهُ عَلَى صُوْرَةِ إِحْدَاهُمَا، فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ هَذَا لَا يَشْبَهُنِي وَلَا يَشْبَهُ شَيْءَ مِنْ آبَائِي) نور الثقلين ٣١١/١ وهو قوله (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) آل عمران/٦، بحيث يكون شخصية مفردة لها خصائصها ومميزاتها الفريدة، وصفاتها الخاصة النموذجية، فليس لها مثل ولا شبهة لا في شكله ولا في صوته ولا في صورته ولا في سيمائه ولا في ملكائته. (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) خلقناكم في أحسن تقويم، لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر في أعقد تركيب، من تراب أولاً ثم نطفة ثانياً ولا تناسب بين التراب والماء، وقدّر أن يجعل النطفة علقة وبينهما اختلاف كبير، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظماً، قادر على إعادة ما بدأه بسهولة، وإعادة الخلق أيسر عقلاً من نشأة الخلق (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ) ونبقي ما نشاء من الأجنة في أرحام الأمهات، من أردنا أن نبقيه فيها حتى يتكامل خلقه (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى زمن معين وهو وقت الوضع والولادة أدناه ستة أشهر، وأقصاه تسعة أشهر.

٥ - (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ٦ - (ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) ثم يعمركم ويُسَّهل تربيبتكم حتى تبلغوا (أَشُدَّكُمْ) غاية نموكم، ونضوج عقولكم وكمال قوتكم ورشدكم، ٧ - (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى) ومنكم من يموت في ريعان شبابه وقبل الشيخوخة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ) ومنكم من يبقى حتى يبلغ (أَرْدَلِ الْعُمُرِ) واسمه ترجمان لمسماه، هو مرحلة انتكاسة القوى والقدرات، وهو الهرم والشيخوخة وضعف القوة والعقل والذاكرة والخرف، فيصير كالطفل ضعيف البنية قليل الفهم، ولا علاج يجدي ولا دواء يُعني، فيكون الإنسان المعمر مثل حال الثمرة في الشجرة، إذا أخذت الثمرة نصيبها من النضوج، فيضعف علاقة الثمرة بالشجرة ويقل صلتها بها بالتدريج، فيكون مصير الثمرة الناضجة إما أن تسقط إلى الأرض وتذبل، وإما ان تُقْتطف وتُأكل، وهكذا تنتهي علاقة الثمرة بالشجرة بمدة معينة، كما تنتهي علاقة الإنسان بالقوة والقدرة كلما مرَّ به العمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر / ٤٩، أَرْدَلِ الْعُمُرِ: يكون بحسب بُنية الإنسان وطريقة عيشه وطبائعه، واختلاف البلدان ونقاوتها، فهو مفهوم نسبي ليس له عمر معين ولا محدد، والعياذ بالله من حالة أَرْدَلِ الْعُمُرِ! (لَكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) ليعود إلى ماكان عليه في زمن الطفولة فينسى ما علمه ويعجز عما قدر عليه.

كقوله ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس / ٦٨، ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث والنشور بحال خلق النبات أيضاً فقال (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) هذه الحجة الثانية على

إمكانية البعث من القبور أي ترى أيها الإنسان الأرض (هَامِدَةً) يابسة ميتة لا نبات فيها (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ) فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة من السماء (اهْتَزَّتْ) تحركت بالنبات (وَرَبَّتْ) نمت الروح في كيانها وَحَيَّتْ بعد موتها .

(وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) بَهِيج : حسن جميل الصورة مما يبهج النفس ويسرّها، أي وأخرجت الأرض من كل (زَوْجٍ) صنف (بَهِيجٍ) من النباتات مايسر الناظرين ببهائه وجماله، واختلاف الأشجار والثمار والروائح والألوان مع اختلاف المقادير والتدابير والمنافع، كقوله (وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْمَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ) الرعد/٤، وهذا دليل آخر على إحياء الموتى، فإنبات النبات يشابه إنبات الرِّجْمِ و (الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةُ)

فائدة: ١- (أَرَادِلِ الْعُمْرِ) تعبير يثير الانتباه، وهو العمر مابعد الشيخوخة، وهي أرذل مرحلة وأسوؤها من حياة الإنسان، حيث تأخذ منه الحياة كل يوم شيئاً مما كانت قد أعطته، وهكذا بُيِّت الحياة على الأخذ والعطاء، وعلى القوة والضعف، وعلى العزة والذلة، والعسر واليسر، والحياة والموت كقوله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الأنعام/٩٥، ٢- (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) الآية تؤكد قانون الزوجية العام كقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات / ٤٩، ثبَّت القرآن ظاهرة الزوجية في الأحياء والأشياء، والتعبير القرآني البليغ يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية، وهذه الحقيقة أكدها القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، والعلم الحديث عرف مؤخراً هذه الحقيقة الكبرى، كقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يس / ٣٦، وقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١، بعد أن قرَّر سبحانه هذين البرهانين على البعث والنشور، رتب عليهما النتيجة الحتمية لذلك :

٦ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ذلك المذكور من خلق الإنسان قبل ميلاده وبعثه بعد مماته، والأرض اليابسة كيف إذا ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج / ٥، لتعلموا أن الله هو المقدر لهذا النظام والمدبّر له بالحق، وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد (بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) الثابت الذي لا شك فيه، القائم بذاته والمقوم لغيره، وكون الله حقاً مطلقاً يتحقق به كل شيء حق، وكل أنظمة الحياة التي خلقها بالحق أيضاً، ولهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق عبثاً بدون هدف حق، وهو الرّبّ الذي يستحق العبادة، وعبادته وحده هي الحق، وأية عبادة لغيره بشكل مباشر أو غير مباشر فهي باطلة كقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج/٦٢

(وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى) لتعلموا أن الذي قدر على خلق هذه الأشياء المنظمة بالحق، لا يتعذر عليه أن يحيي الموتى بعد فنائهم كما أحيا الأرض الميتة بالنباتات (وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وإنَّ فاعل ذلك قادرٌ على فعل كل شيء، وإيجاد كل شيء ومن ذلك إعادة أجسام البشر بعد موتها للحساب والجزاء، فهذا البعث والنشور تقتضيه حكمة الخلق وتدبير الخالق وفلسفة الوجود كقوله ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف / ٥٤، والحياة بلا بعث ونشور لا قيمة لها لأنها تعتمد الباطل والعبث، والله سبحانه منزّه عن الباطل والعبث، كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨، عن النبي(ص) (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩. في نوح البلاغة حكم ١٢٦ (عَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ، وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ)

٧ - ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

ولتعلموا أن الساعة التي وعدكم أن يبعث فيها الموتى من قبورهم (آتِيَةٌ) قادمة لا محالة باعتبار (إِذَا كَانَ الْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ وَالْعُمَرُ فِي إِذْبَارٍ فَسُرْعَانَ الْمُتَّقَى) عن النبي(ص) (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خير ٤٢١٢٣، وعنه (ص) (وَيَبْعَثُ كُلَّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خير ٤٢٢٢، وإنَّ البعث حق ثابت متحقق لا شك فيه، والمعاد حقيقة كبرى ساطعة تكشف عن فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) وإليه النشور، ولتوقنوا بأن الله حينئذٍ يحيي الأموات ويُعيدهم أحياء بالمعادِ الجِسْمَانِي، بعدما صاروا رميمًا ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب والجزاء، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب كقوله ﴿وَلْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية/٢٢، فائدة: ١- وهكذا تلتقي سُنن الخلق والإعادة، وسُنن الروح والجسد، وسُنن الحياة والموت، والبعث والنشور، وسُنن الحساب والجزاء، وتشهد كلها بوجود الخالق المدبّر القادر القاهر كقوله ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج/١٦ عن النبي(ص) (خَلَقْتُمْ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْقِنَاءِ) حق اليقين ٢ / ٥٥، وخلقتم للأخرة لا للدنيا، وللحياة لا للموت وعنه(ص) (كَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تَبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ٢٦٠/١٥ - ٢٠ - (حقيقة الآخرة) أصبحت حقيقة الآخرة الموضوع الرئيس في القرآن، لمحاولة تثبيتها في أذهان الناس كافة، وتثبيتها في القلوب والمشاعر والضمائر، وما يعكس عنها من تهذيب لذات الإنسان وعلمه وفكره وأخلاقه، لتجعله يعيش حالة التوازن والاعتدال في جميع أحواله وأقواله وأفعاله، وهذا المنهج التربوي الدقيق يقوده إلى سُلّم التكامل، وبذلك يكرم الإنسان نفسه، ويعرف حدوده ويقف عندها، ويكون سيد هذا الكون في الدنيا، وكذلك ينال في الآخرة المنازل والدرجات المتناسبة مع عَمَلِهِ. كقوله (وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) الإسراء/٢١.

٨ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

يَصَوِّرُ التعبير القرآني صنف (مِنَ النَّاسِ) من يخاصم ويصّر على أن يجادل في كل أمر، ولا سيما في منهج الله، وجاء الفعل (يُجَادِلُ) في المضارع المستمر، بمعنى كثير الجدل وبكل شيء، يجادل ولكنه (يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ويخاصم بلا فهم ولا برهان معه ولا دليل علمي (وَلَا هُدًى) من الله أفاضه عليه لرجاحة عقله وإعجابه بنفسه، ولا حجة قطعية (وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)، ولا وحي من الله من قرآن كريم وسنة صحيحة، بل يجادل بلا عقل صحيح ولا نقل صريح ثابت، بل يقول عن جهل ليكون صاحب رأي نابع من هوى، عن الإمام علي (ع) (كُو سَكَتَ الْجَاهِلُ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ)! البحار ٧٨ ص ٨١، عن النبي (ص) (مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ مَا يَفْسُدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ) البحار ٢٠٨/١، ومن مصاديق ذلك : الرؤساء المرؤوسون، والمتبوعون مع الاتباع، وكرر هذا كما في الآية (٣) على وجه التوبيخ والاستنكار والنهي. فائدة: ١- قال المادونيون : لا طريق إلى العلم والمعرفة إلاّ الحس والتجربة، وقال المثاليون : الطريق إلى المعرفة العقل وكفى، أما (القرآن الكريم) فقد قرر بوضوح أن مصادر المعرفة ثلاثة ١- التجربة والخبرة، ٢- العقل، الذي يبيّن لك الرشد من الغي ٣- الوحي (النقل الصحيح) لأن الله بكل شيء عليم ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة / ١٥١ وهذه الآية جمعت المصادر الثلاثة : فالعلم إشارة إلى التجربة والخبرة (وَقِيمَةُ كُلِّ امْرئٍ عَلَى قَدْرِ تَجَرُّبَتِهِ وَمَقْدَارِ خِبْرَتِهِ) والهدى إلى العقل الرشيد المفكر، كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) ق/ ٣٧، يعني عقل، والعقل مسكنة القلب، في نهج البلاغة خطبة ٢٣٩ في صفة آل محمد (ع) (عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةً وَرِعَايَةً، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةٍ) والكتاب المنير وهو الوحي، تفسير المبين ص ٤٣٤ بشيء من التصرف. ٢- والجدال في الواضحات والبداهيات من أشكال المشكلات، فكيف إذا كان جدالاً بغير علم ولا هداية ولا دليل، ولا يستند على حق ولا يصل إلى يقين؟.

٣- هناك جدال مذموم منهى عنه ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ غافر / ٤، وهناك جدل ممدوح ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل / ١٢٥، الجدال المؤثر والحوار النافع، الذي يجمع ولا يفرق، ويبشّر ولا ينقّر ويجب ولا يكره، وبالحوار تنضج الأفكار ويتعلم الشطّار، في غرر الحكم (مَنْ شَاوَرَ ذَوِي الْعُقُولِ، اسْتَضَاءَ بِأَنْوَارِ الْعُقُولِ) ونحن بحاجة أن نتعلم فن الحوار الناجح والذي منه (أن تبدأ معه من حيث يجب، وانتهى معه من حيث تحب).

٩ - ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِيُفِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَيُدْفِقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
إنها صورة متقلبة متشاكسة لهذا الصنف المجادل المذموم من الناس (ثَانِي عَطْفِهِ) : لَوَى جانبه أو رقبته كناية عن التكبر والغرور، لأن الكلام لا يعجبه، صورة فيها الكبر والعجرفة والأنفة والإعراض عن الحق وكراهية أهله، المعنى : ومن الناس من يجادل وهو متعجرف لا و عنقه عن الهدى،

ومعرض عما يُدعى إليه من الحق مستكبر عن قبوله، فهو يُعَوِّضُ عن كراهيته للحق بالكبر والأنفة والعجرفة والتعالي على الناس، كقول لقمان لابنه ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لقمان/١٨ (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ليصدَّ الناس عن الحق ويحرفهم عن دين الله وشرعه، فهو لا يكتفي بضلال نفسه وإنما يَحْمَلُ غيره على الضلال، وعامة الناس على دين ملوكهم، وهذا الضال المضل المتكبر لا بد أن يُقَمَّعَ، (لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) له عقوبة في الحياة الدنيا هو الهوان والضعف والذل وكراهية الناس له بظهور بطلان ادِّعَاءِته، فيكون الخزي مقابل كبريائه، (وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع حيث عذاب النار المحرقة (وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ) .

١٠ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(ذَلِكَ) الخزي في الدنيا والعذاب الذي تلقاه في الآخرة (بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ) من صنع يده وبدافع شهوات نفسه، ولسوء تصرفه، لأنه عَطَّلَ عقله واتبع هواه وأعرض عن الحق، وكأنما هو اللحظة يلقي التفرغ، وبسبب ما اقترفه من الكفر والكبر والضلال والإضلال! وهكذا (يَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ، وَالتَّنَائِجِ عَلَى قَدْرِ الْمُقَدَّمَاتِ) في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ) وأن الله عادل يأمر بالعدل لا يظلم أحداً من خلقه بغير جرم قد فعله، وينهى عن الظلم، بل يعامل كلًّا منهم بما يستحقه بعمله دون زيادة أو نقصان، ويعطيه ما يسأله بلسان حاله قبل لسان مقاله، فائدة: ١- روي: يقول الله تعالى (إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَحَرَمْتُهُ عَلَى عِبَادِي فَلَا يُظْلَمُونَ) المراغي ١٠ ص ١٦، (وَمَا هَلَكْتَ الْأُمَّمُ الْمَاضِيَةُ إِلَّا بِطُولِ الْجِدَالِ وَكَثْرَةِ الْقَيْلِ وَالْقَالِ) عن أرسطو (مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ أَحَبَّ النَّاسُ ذَلَّتُهُ) .

٢ - (قَدَّمْتَ يَدَاكَ) وإسناد المعاصي إلى يديه، لما أن اكتساب المعاصي غالباً ما تكون بالأيدي، أو كناية عن ممارسة الذنب بنفسه وبتعمد وبكامل إرادته، من باب الالتفات لتأكيد الوعيد كقوله ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل / ١١٨، ٣ - (بِظُلَامٍ) صيغة مبالغة من عدم الظلم، وكأنه يقول أن الظلم القليل من الرب العادل يُعَدُّ ظلماً كبيراً، تعالى الله عن الظلم كله كبيره وصغيره كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ النساء / ٤٠ .

١١ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

يصور القرآن نموذجاً آخر (وَمِنَ النَّاسِ) وهو موجود في كل زمان ومكان، ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الريح والخسارة، ويظنها صفقة في سوق التجارة، (مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) يعبد الله على جهل ومصالحة وطرف من الإسلام، وشك من الدين لا ثبات له فيه، وهو في حالة قلق واضطراب

وعذاب نفسي فهو يتقلب بين الإيمان والكفر، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحسَّ بالنصر قرَّ وإن أحسَّ بالهزيمة فرَّ. وصف الدِّين من صفات الأجسام المادية كناية تصويرية تقريبية للأذهان واستعارة تمثيلية، المعنى: وهناك صنف من الناس (والناس أجناس) من يعبد الله على جانب وطرف من الدِّين هو طرف لجلب المتاع الدنيوي، فلم يستذوق حلاوة الإيمان، فهو يتخذ الدِّين سلماً للدنيا، والدين عنده على سطح حياته وهامش معيشته وليس في متنها ومضمونها، لا في قلب الدين ووسطه وعمقه، فتكون نفسه قلقة مضطربة! وهذا مثل واقعي للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن علم وإيمان وثقة وبيان ويقين واطمئنان كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾ الجن / ١٧ وقوله ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ﴾ النساء / ١٤٣ وأيضاً ينطبق على المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه كقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ طه / ١٢٤ (فإن أصابه خير أطمأن به) فإن ناله خير في حياته من صحة ورخاء ومال وولد وحسن حال، استبشر بهذا الدِّين وفرح به وأقام عليه، فعبد الله على طرف من الدين، فعبد الله لمصلحة ولم يعبد الله ما يستحق من عباده ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الأنعام / ٩١ ، في غرر الحكم (ثبات الدِّين بقوة اليقين).

كقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقَعَدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا﴾ الإسراء / ٢٢، في غرر الحكم (زبَّ مُتَنَسِّكٍ لا دِينَ لَهُ) (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) فتنة: ابتلاء ومحنة، وإن ناله شيء من المكروه وبلاء في جسمه وأهله وشدة وضيق في معيشته لم يقابل الخير بالشر، وإنما سمى الشر (فتنة) أي اختبار وقد ينجح في الاختبار فلا يكون شراً في حقه، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (ما من بليّة إلا والله فيها نعمة تُحِيطُ بِهَا)! البحار / ٧٨ / ٣٧٤ (انقلب على وجهه) تشاءم من الدِّين وارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر! (خسر الدنيا والآخرة) ضيع نفعهما وفائدتهما، فإنه خسر في الدنيا الكرامة والسلامة والاستقامة في وقوعه في المحنة، وخسر في الآخرة الثواب الدائم وحلّ به العقاب اللازم بنفاقه وحبوط عمله كقوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ الفرقان / ٢٣ (ذلك هو الخسران المبين) هذا هو الخسران الواضح والخذلان المضاعف المملوء حسرة الذي لا خسران مثله كقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام / ١٠٤ .

في غرر الحكم (المُصِيبَةُ بِالَّذِينَ أَعْظَمَ الْمَصَائِبِ)، (سبب النزول) نزلت الآية في بعض الأعراب الذين أسلموا عن جهل، فإذا صادف لأحدهم ما يعجبه من مال وولد وحسن حال قال هذا دين حسن، وإلا تشاءم وارتدَّ عن الإسلام. فائدة: ١- عن الإمام الحسين بن علي (ع) (الناس عبيد الدنيا والدِّين لِعَقْبِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَ مَادَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا حُصِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيانُونَ!) تحف العقول ص ١٧٦، في غرر الحكم (لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما

هُوَ أَضْرَّ مِنْهُ!) وفيه أيضاً (مَنْ جَعَلَ مُلْكُهُ حَادِمًا دِينَهُ إِنْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، مَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمَلِكِهِ طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ!)، عن النبي (ص) (وَيَا لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ) كثر العمال خبر ٢٩٠٩١، ٢ - (عَلَى حَرْفٍ) تصوير قرآني بلاغي فني متحرك لحالة نفسية قلقية، يتظاهر للناس أنه يعبد الله ولكنه متأرجح بين الشيطان والرحمن، قابل للسقوط عند أي اهتزاز عند الدفعة الأولى، ثم يحسر كل شيء! عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ عَرَفَ دِينَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي أَمْرِ يَجْهَلُ خَرَجَ مِنْهُ يَجْهَلُ) البحار ١٠٣/٢، روي (مَنْ زَانُوا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ظَلَمُوهُ، وَمَنْ زَانُوا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ أَنْصَفُوهُ).

١٢ - ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ) (مِنْ دُونِ اللَّهِ) عنوان عام يشمل كل الضلالات، وكل ما عدا الله هو دون الله، أي يدعو صنماً على طريقة أهل الجاهلية الأولى، والصنم معنى عام أي يدعو شخصاً أو جهة أو عشيرة أو حزباً أو مصلحة أو مالاً أو نساء.. إلخ، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ!)، على طريقة الجاهلية الحديثة وفي كل زمان ومكان، جاهلية من نوع خاص أي يدعو (مِنْ دُونِ اللَّهِ) مخلوقات لا تضره ولا تنفعه كي تنقذه مما هو فيه من المحنة! بل إنها تضر لأنها توهمه أنها تنفعه على المدى البعيد (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) ذلك هو الانحراف الكبير وهو أقصى درجات الضلال، شبه حالهم بحال من أبعده في التيه ضالاً عن الطريق، في نهج البلاغة خطبة ١٥٤ (العامل بغير علم كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الصَّوَابِ)!

١٣ - ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَسِّ الْمَوْلَى وَلِبَسِّ الْعَشِيرِ﴾

ومن مصاديق (لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) أنه يدعو ويتعلق بالأصنام الحجرية والبشرية وأصنام فكرية، (وكل شيء يتوجه الإنسان لعبادته والتعلق به (بعيداً عن الله) وتصبح قناعاته حجرية ثابتة فهي أصنام تُعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ) عن النبي (ص) (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلٌ، وَعِجْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ) المحجة البيضاء ٣٢٨/٧ وأيضاً يتعلق بالشيطان، ويُتَسَّقُ الشَّيْطَانَ مَعَهُ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ أَيُّ سِنْدٍ وَجَاهٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانُ.. وغيرها هذا كله (ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) يقيناً، فيكون ضَرَّهُ في الدنيا بالخزي والذل والجهل وخيبة الأمل وسوء العاقبة، أسرع من نفعه وخيره الذي يتوقعه على المدى القريب، عن النبي (ص) (مَنْ دَعَى لِظُلْمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ فِي أَرْضِهِ!) البحار ٣٣٤/٧٥ وعنه (ص) (الرَّاضِي بِالظُّلْمِ كَقَاعِلِهِ) تفسير الكاشف ٣٢/٥، ومن مصاديقه الشفاعة له يوم القيامة! في الآية السابقة قال (مَا لَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ) فهو يعيش الوهم على أنه ينفعه ولا يضره، والحقيقة أنه يضره ولا ينفعه، وقال

هنا (ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) هناك نفع قليل وقريب ولكن الضرُّ أكثر وأقرب وأشمل منه، لأن درة المفسدة مقدّم على جلبِ المصلحة كقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود / ١١٤، عن الإمام الباقر(ع) (ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات) البحار ٢٤٢/٧١.

والآية سبقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ويدعوها ويتعلق بها من دون الله، ويوم القيامة واصفاً هذه المخلوقات التي كان متعلقاً بها ويدعوها بأنها (لَيْسَ الْمَوْلى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ)

لساء هذا (الْمَوْلى) الناصر، ولبئس وقبح هذا (الْعَشِيرُ) الصاحب المعاشر، والقريب والصديق والعزيز الذي تعاشره وتصادقه وتندمج معه، ذلك الذي ينشأ عنه الخسران والخذلان، يتساوى في ذلك (الْمَوْلى وَالْعَشِيرُ) من أنواع الأصنام (الْمَوْلى وَالْعَشِيرُ) شعار عام متحرّك، من بني آدم ممن يتخذهم بعض الناس آلهة، أو أشباه آلهة في كل وقت ولا سيما في الجاهلية الحديثة! فائدة: ١- الالتجاء إلى غير الله مَضَلَّة، لأنه صنم يُعبد من دون الله، إذًا: مفهوم الصنم ليس هو فقط الحجر، وإنما العقيدة المنحرفة، أو الفكر الفاسد أو المال الحرام أو الجاه أو الكرسي.. إلخ وكل شيء يُعبد ويُطاع (من دُونِ اللَّهِ) مادي أو معنوي فهو صنم! إذ لا يملك أحدٌ مع الله من الأمر شيئاً كقوله ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة/٢١٠ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران/١٥٤، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)! أما موضوع ابتغاء الوسيلة إلى الله في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة / ٣٥ (راجع تفسيرها) في كتابنا (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرِ) فالموضوع طلب الوسيلة الصالحة التي تقرب إلى الله تعالى، وليس عبادة من دون الله، كقوله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) محمد/١٩، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) وإنما عبادة الله تعالى وحده دون سواه، في روضات الأنبياء والأولياء والأئمة(ع) فهم وسائل إلى الله لذلك كانت (الْوَسِيلَةَ)

في آية الوسيلة مشروطة بثلاث وسائل ١- الخطاب للذين آمنوا ٢- طلب من المؤمنين أن يتقوا الله زيادة على إيمانهم ٣- أن يبتغوا إلى الله وحده الوسيلة، فصارت الوسيلة في قوله (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) مشروطة بالإيمان والتقوى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ) أي إلى الله الوسيلة. حتى لا تخرج الوسيلة عن كونها وسيلة، ولا تتحول إلى هدف!، فتبقى الوسيلة واسطة شريفة إلى الله تعالى وحده، ويبقى الله تعالى هو الهدف الكبير والغاية السامية الكبرى في كل الأحوال والأشكال، وليس بعد الله من هدف، وليس دون الله من غاية، كما جاء في الدعاء (حَسْبِيَ اللَّهُ وَكْفَى، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ مَنْتَهَى، وَأَنَّ لِلَّهِ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى، وَإِلَى اللَّهِ الْمُنْتَهَى).

١٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

إنها الصورة المشرقة المتألقة المقابلة للصورة الضبابية المشوشة المتقلبة لحال الكفار والذين يعبدون الله على حرف، إن الله سبحانه يتفضّل على المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال، بحيث لا يبقى

الإيمان من دون عمل صالح (وبالعكس) وتنطبق الأقوال مع الأفعال، وتنطبق حُسن العبادات مع حُسن المعاملات، عن النبي (ص) (الإسلام حُسْنُ الخُلُق) كثر العمال خير ٥٢١٥، ويكافئهم لقاء إحسانهم بدخول جنات النعيم الدائم لا جنات الدنيا، جنات تجري من تحت أشجارها ومساكنها أنواع الأثمار الجميلة لكل منها طعمه ولونه، جزاء على ما قاموا به من جليل الأعمال النافعة للناس وترضي الله، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) ولا يفعل ما يريد غيره، إرادة الله تعالى حكيمة عليمة مدبرة مقدره تضع الأمور مواضعها الصحيحة، والله تعالى يريد إكرام الناس بمقدار إكرامهم لأنفسهم، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، في غرر الحكم (مَنْ كَرَمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يُهِنَّهَا بِالْمَعْصِيَةِ)!

١٥ - ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾

تصوير قرآني دقيق، لمشهد متحرك مجسّم له أبعاد تهاديبية واسعة، يصوّر غيظ النفس وقلقها، وردود الأفعال لذلك الغيظ والقلق، الغيظ: أشد الغضب، مصحوب بحزن وحسرة، والآية ذات دلالة عامة وليست خاصة بالنبي الكريم (ص) المعنى: (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أي لا يمكن أن تظنّ وبمّر بخاطرك، أن الله لن ينصر محمّداً، إنّ نصره ودينه حقيقة ثابتة ولو كره الكافرون، في ظروف مناسبة، فلا تعيش الوهم، والسياق القرآني يُجسّم هذه الحالة القلقة المزعجة المزلزلة المضطربة، التي يبلغ فيها الضيق النفسي أقصاه، عندما ينزل بها الضّر وهي على غير اتصال بالله، والذي يبأس في الضر من عون الله، ويفقد كل رجاء بالفرج وكل نافذة مضيئة، فيزيد هذا كله من وقع الكرب وشدة المعاناة وكابوس البلاء عليه. المعنى: (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ) كَيْدُهُ: صنعه ومحاولته وحيلته، ووسيلته للنجاة، الاستفهام إنكاري، الصورة كناية واستعارة تقريبية قائمة على التمثيل والتخيل والتصوّر: هو أن يمدّ الإنسان سبباً أي حبلاً ووسيلة إلى السماء (إلى الأعلى) وأن يتخذ من هذا الحبل سلماً (ووسيلة) يصعد به إلى أعلى ويرقى إلى منازل سيادية نافذة، فإن فعلَ هذا ولم يتحقق شيئاً مما يريد، فليقطع هذا الحبل (والوسيلة) ثم لينظر هل ينفعه كيده؟ هل يستفيد من هذه المحاولة؟، إنه ليس من وسيلة مناسبة إلى استعجال ما يريد إلاّ بمثل هذا الحبل الممدود المحدود القاصر، وأما وقد قطع الحبل والأمل فإنه سيهوى إلى الأرض

كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ آل عمران / ١٢٠.

وقوله ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ آل عمران / ١١٣.

بمعنى : فالذي يؤمن بالله كمن مدَّ حبلاً بينه وبين ربه، كقوله (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا) البقرة/٢٥٦ وأمسك بالسبب الصحيح الذي يستطيع به أن ينال من الله ما وعده من عزة ونصرة في الدنيا، وخير ونعيم في الآخرة . فإذا شك هذا المؤمن في أن ينال من الله ما وعده، وهو ممسك بهذا السبب الذي بينه وبين ربه، في غرر الحكم (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) فليقطع هذا السبب فسوف يسقط على التراب ويلتصق بجاذبية الأرض، ثم يفقد بعد ذلك السبب والدافع الذي يرفعه إلى تحقيق آماله وطموحاته الكبيرة. إنّ (الإيمان بالله) هو السبب الأساس الذي ينال به الإنسان القرب من ربه والتعرض لفضله وإحسانه كقوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن / ١١ عن الإمام الجواد(ع) (الَّتِيقَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى تَمُنُّ لِكُلِّ عَالٍ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ عَالٍ) البحار ٧٨ / ٣٦٤، فإذا قطع هذا السبب الرئيس فقد قطع كل سبب يدينه من الله، ويفتح له مغاليق السعادة والرضوان . عن الإمام علي(ع) (إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنَّكَ إِنْ جَزَعْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ) البحار ٧١ ص ٩٢، أي مأثوم!

فائدة: ١- المعنى باختصار: من نزلت به مشكلة وضاق عليه مخرجها، وسعى جهده للخلاص منها مستعيناً بالله عليها وعلى كل ما أهمه ، فإن وجد المخرج بأي سبب يتخذه ويبحث عنه للخلاص فهذا هو المطلوب، وإلا فوّض الأمر إلى الله صاحب الأمر، وترقب الفرص المناسبة فإن الأمور متعلقة بأوقاتها كقوله ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام / ٦٧ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد / ٣٨ في نهج البلاغة حكم ١١٨ (إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ). سبب النزول : إنّ قوماً من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين، استبطأوا ما وعد الله رسوله من النصر، فنزلت هذه الآية تلومهم على التسرع وعدم الصبر، وطلبهم سرعة الأمور قبل أوانها، في نهج البلاغة كتاب ٥٣ (التوازن في مطالب الإنسان) قوله (إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا أَوْ التَّسْفُطُ (التَّأَخُّرُ) فِيهَا عِنْدَ امْكَانِهَا أَوْ اللَّجَاجَةُ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرْتُ أَوْ الْوَهْنُ (الضُّعْفُ) عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ)! عن الإمام علي (ع) (إِنَّ لِلتَّكْبَاتِ غَايَاتٍ لَا يَبْدُ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهَا، فَإِذَا حَكَمَ عَلَى أَحَدِكُمْ بِهَا فَلْيَتَطَأْطَأْ لَهَا، وَيَصْبِرْ حَتَّى تَجُوزَ (وتمر) فَإِنَّ أَعْمَالَ الْحِيلَةِ فِيهَا عِنْدَ إِقْبَالِهَا زَائِدٌ فِي مَكْرُوهِهَا) البحار ٧١ ص ٩٥.

١٦ - ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾

بَيِّنَاتٍ : واضحات، تؤكد الآية الكريمة بحجة قاطعة أن طريق النجاة هو الإيمان بالله والاستقامة على منهجه الذي أساسه القرآن الكريم وهو جبل النجاة المعنى: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا) أي أنزلنا القرآن الكريم من مكان عالٍ مقدس، فالقرآن عالٍ في مكانه، وعالٍ بأهدافه، وعالٍ بوسائله، وعالٍ بذاته، وعالٍ لغيره، فيه البيان الواضح لحالات الهدى والضلال، فيهدي الله بهذا القرآن للتي هي أقوم من يتفاعل معه ويفتح له قلبه كقوله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائد / ١٦، في الحديث (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ) ومن طلب الفساد والضلال فإنه يجد

السَّبِيلَ إِلَيْهِمَا عِنْدَ الْمَفْسِدِينَ وَالْمُضِلِّينَ أَي: وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِيُؤَفِّقَ بِهِ إِلَى الْحَقِّ مِنْ يَسْتَذُوقُ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَمَنْ يَرِدُ الْهَدَايَةَ فَاللَّهُ يَرِشُدُهُ إِلَيْهَا وَيَهْدِيهِ سَبِيلَ السَّلَامِ بِأَمَانٍ. (وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَرِيدُ الْهَدَايَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا وَمَنْ هُوَ مُؤَهَّلٌ لَهَا وَمَنْ هُوَ مُسْتَعِدٌّ لِلسَّيْرِ فِي طَرِيقِهَا ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ البقرة / ١٢٠، فَتَكُونُ الْهَدَايَةُ مِنَ اللَّهِ مَقْدَرَةً بِقَدْرِ الْإِسْتِعْدَادِ مِنَ الْبَشَرِ، وَعَلَى قَدْرِ الْإِسْتِعْدَادِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاهِيرِيِّ تَكُونُ الْهَدَايَةُ مِنَ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى/٣، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَرِيدُ تَشْهِيئًا وَعَبَثًا، وَإِنَّمَا يُعْطِي الْهَدَايَةَ لِمَنْ يَعْلَمُ مِنْهُ صَدَقَ النِّيَّةُ فِي طَلِبِهَا كَقَوْلِهِ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس/٩ وَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ النجم / ٣٠، فِي نَجْحِ الْبَلَاغَةِ/خُطْبَةٌ ٢٠١ (لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ).

١٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

تَتَحَدَّثُ الْآيَةُ عَنِ الْفِرْقِ الْمَخْتَلِفَةِ فِي الْإِعْتِقَادِ، فَأَمْرًا إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة/٢١٠ الْمَعْنَى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) إِنْ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَرِسَالَتَهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ (ص) وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ (ع) (وَالَّذِينَ هَادُوا) الْيَهُودَ الَّذِينَ قَالُوا عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْكَاهِنُ الَّذِي أَعَادَ كِتَابَةَ التَّوْرَةِ لِلْيَهُودِ بَعْدَ أَنْ حَرَفَهَا بِحَتِّ نَصْرٍ مَلِكِ بَابِلَ (وَالصَّابِئِينَ) قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ (ع) يَعْبُدُونَ النُّجُومَ وَيَعْتَقِدُونَ بِتَأْتِيرِهَا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَهُمْ كِتَابٌ يَنْسِبُونَهُ إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا (ع) وَهُمْ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، (وَالنَّصَارَى) الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى مَلَةِ عَيْسَى الَّذِينَ قَالُوا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (وَالْمَجُوسَ) الَّذِينَ يَعْبُدُونَ النَّارَ وَقِيلَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، يَقُولُونَ الْخَيْرَ مِنَ النُّورِ وَالشَّرَّ مِنَ الظُّلَامِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ بِزُرَادِ شَتِّ، وَقَدْ فَقدُوا كِتَابَهُمُ الْمُقَدَّسَ بِاسْتِيلَاءِ الْإِسْكَانْدَرِ الْمَقْدُونِيِّ عَلَى فَارِسَ، (وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَكُلٌّ مِنْ عِبَادُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فِي الْحَدِيثِ (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)! (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إِنْ اللَّهُ يَقْضِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ، وَبَيْنَ الْفِرْقِ الْخَمْسَةِ الضَّالَّةِ، وَيَجَازِي كَلًّا بِمَا يَفْعَلُ وَيَضَعُهُ فِي الْمَوْضِعِ اللَّائِقِ بِهِ، فَيَبْيِضُ وَجْهَ الْحَقِّ وَيَسْوَدُّ وَجْهَ الْمَبْطَلِ، (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) شَهِيدٌ: حَاضِرٌ وَمَطَّلَعٌ، عَالِمٌ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ وَالْمَخْلُوقَاتِ وَمُرَاقِبٌ لَهَا وَشَهِيدٌ عَلَيْهَا، وَلَا شَيْءَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ يَغِيبُ عَنْهُ فِي عِلَانِيَتِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة / ٦٩ وَالْبَقَرَةُ / ٦٢ .

١٨ - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

معنى السجود : التذلل والتواضع والخضوع والانقياد والتسليم لله وحده، لا يجوز السجود لغير الله، وكل الكون والكائنات العاقلة وغير العاقلة منقادة لأمر الله، وكل الخلائق خاضعة لتدبير الله وتقديره، والسجود نوعان: ١- السجود العام لله تعالى، ويسمى السجود التكويني أي سجود منظم وخضوع مدبر منذ النشأة والتكوين، لكل المخلوقات الحيّة وغير الحيّة، الصغيرة والكبيرة، الأليفة والوحشية، وكل مخلوق يسجد لله ويخضع بطريقته الخاصة، وكذلك كل مخلوق يُسَبِّحُ ويحمّد ويصلي لله بأسلوبه الخاص ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء/٤٤، وقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) النور/٤١، ٢- السجود الخاص، ويسمى السجود التشريعي والخضوع الاختياري لإظهار معنى العبودية الخالصة، وهو سجود التذلل والتسليم والخشوع المختار لله تعالى حباً لا كراهية، وهو خاص بالإنسان المؤمن وبه يستحق الثواب، عن الإمام الصادق (ع) (السُّجُودُ مُنْتَهَى الْعِبَادَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ) البحار ١٦٤/٨٥ وعن الإمام الرضا (ع) (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ عَزَاجِلَ وَهُوَ سَاجِدٌ وَذَلِكَ قَوْلُهُ) (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) العلق/١٩) البحار ١٦٤/٨٥

المعنى: (أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم أيها المخاطب (أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)، أن الله يسجد ويخضع لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، والملائكة في السماوات والإنس والجن وسائر المخلوقات المعروفة وغير المعروفة على الأرض (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ) الدَّوَابُّ : كل ما يدب أي يمشي على الأرض، وهذه الأجرام السماوية العظمية وسائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سبحانه، سجود انقياد لنظامه وخضوع لتدبيره، ليؤدي كل مخلوق نظامه المخلوق لأجله وهو ميسر له، وَخَصَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ بالذكر لأنها عبّدت من دون الله، فبيّن أنها تسجد لله تعالى سجوداً تكوينياً مقدراً.

والغرض من الآية: بيان عظمة الله وانقياد كل العوالم وفق نظامه وتدبيره (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) أي ويسجد له كثير من الناس المؤمنين، سجود طاعة وعبادة، يسجدون سجوداً تشريعياً اختيارياً بوضع الجبهة على الأرض، تمثيلاً للسجود والتذلل التكويني الاختياري والاضطراري وإظهاراً لمعنى العبودية. (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستكباره وعصيانه عن السجود الاختياري، ومن لم يسجد لله اختياراً فسوف يسجد للشيطان اضطراراً! وعن الإمام الصادق (ع): (مَنْ مَنَعَ حَقًّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْفَقَ فِي بَاطِلٍ مِثْلِيهِ) وسائل الشيعة ٦/ص ٢٥، (وَمَنْ يَهِنُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) ومن يهينه الله فيكتب له الشقاء لسوء نفسه، وضلال أفكاره وفساد أعماله وكرهيته للاستقامة (فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) لا يكرمه أحد ولا يسعده ولا يهديه إلى منهج الله وهكذا (مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) فلا يقدر أحد دفع الهوان والضلال عنه، فلا رافع لمن وَضَعَ ولا واضع لمن رَفَعَ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات / ١٣، (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) من

إكرام الصالح وإهانة الطالح كقوله ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء / ٢٣، إنَّ هذا الصنف الضال الشقي لفي عزلة عن نظام هذا الوجود بل وفي معارضة وحرب ناعمة معه وصد عن سبيل الله، إنهم أشبه بجماعة من الخارجين على نظام المجتمع العام، فالمجتمع كله يعارضهم! .

١٩ - ٢٠ - ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

إنه مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، في صورة حيّة واقعية متحركة كأنه معروض للعيان، هذان فريقان محتصمان فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وهذا حصر للمختلفين على كثرة أديانهم في فئتين محقة (المؤمنة) ومبطللة (الكافرة)، (اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) اختلفوا وتنازعا وتجادلوا من أجل الله ودينه فمن هو الحق؟ فالمؤمنين يريدون إعلاء دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) مشهد عنيف وتصوير مخيف يهزُّ النفوس هزًّا، قُطِعَتْ: خيطة وفصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسامهم ومقاساتهم المناسبة، ليلبسوها عند دخولهم النار يحرقون فيها، وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب! إحكاماً للعذاب المحيط بهم، وكأن العذاب يلبسوه كما يلبسون الثياب! وذكر (قُطِعَتْ) بالماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) يصب على رؤوسهم (الْحَمِيمُ) الماء الحار المغلي يشوي الوجوه ٢٠ - (يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) يُصْهِرُ: يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء كما تذوب جلودهم، حتى يبلغ الذوبان قدميه وهو الصهر الشامل ثم يعاد كما كان!، فائدة: ١- كان تأثير الحميم (الماء المغلي) في الباطن كتأثيره في الظاهر، ويشد العذاب ويتجاوز الطاقة البشرية، كما تجاوزوا حدود الله واستهتروا في حق الله عن عمد وإصرار! ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق / ١ ، في غرر الحكم (فوالله لقد سترت، حتى كأنه غفر) التفسير المبين ص ١٦٩، وأنه أمهل حتى كأنه أهمل، وأنذر حتى كأنه أعذر! كقوله (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/ ٩٩.

٢١ - ٢٢ - ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

إنه مشهد عنيف مخيف يهزُّ النفوس ويحرك المشاعر، ولهم (مَقَامِعٌ) مطارق وسياط من حديد يُضربون بها الضرب الأليم مع الذلّة والانكسار، فيهتَمون بالخروج والهروب، ولكن يهربون منها وإليها!! ٢٢ - (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) كلما أراد أهل النار الخروج من عذابها من شدة ألمها وغمها وهبتها، ردوا إلى أماكنهم وأعيدوا إلى عذابهم ضرباً بتلك المطارق (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ويسمعون التأنيب ويقال لهم احتقاراً ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم

به تكذبون، أين المفر من حكم الله عزوجل ومشيمته فيهم؟ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال / ٤٢، وهكذا تَكُونُ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ، وَيَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

٢٣ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَكُلُوفًا وَيَلْبَسُونَ فِيهَا حَرِيرًا﴾

لما ذكر الله تعالى حال أهل النار ذكر في الجانب الآخر حال أهل الجنة، عن الإمام علي (ع) (دُخُولُ الْجَنَّةِ رَخِيسٌ، وَدُخُولُ النَّارِ غَالٍ) البحار ٧٨ ص ٩٠، المعنى: إن الله يدخل المؤمنين الذين يقولون ويعملون صالحاً، ويكون عملهم على ضوء قولهم وليس هناك اختلاف بين أقوالهم وأفعالهم الصالحة النافعة، وعبادتهم ومعاملاتهم، ودعواهم وحقيقتهم، فهم على استقامة دائمة في السر والعلانية، في جميع الأحوال ومختلف الأشكال!، وهذا المستوى النبيل دليل الكرامة والأمانة والصلاح لذلك يكافئهم الله تعالى في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار المطردة بأنواع الأشربة .

(يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) تُلبسُهُم الملائكة في الجنة من الأساور الذهبية الخلاصة الجميلة الأخاذة للمشاعر كحلية وزينة مرصعة باللآلئ يتزينون بها (وَأُلُوفًا) ويحلون بالؤلؤ إكراماً وإعظاماً من الله لهم (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) ولباسهم في الجنة الحرير والديباج الخالص، ولكنه أرفع وأرقى مما في الدنيا بكثير، فكان الحرير لباساً محرمًا عليهم في الدنيا، أما في الآخرة فكان الحرير إجلالاً وإكراماً لهم، وهكذا يكون التكريم للرجال والنساء على السواء، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات على إطلاق معناها، وبأية نسبة من نسبتها كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة / ١٧ لأنه مقام تشريف وليس تكليفاً. فائدة: حُلِّي الآخرة تتجدد كل يوم فتراه على صياغة جديدة وجاذبية متجددة نفاذة في الأحاسيس، وشكل جديد غير الذي كان عليه كقوله ﴿وَأَنْتَ بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ البقرة / ٢٥، متشابهة في الشكل واللون ويختلف في المكونات والخصائص!.

٢٤ - ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾

أهم كما طاب وحسن ظاهريهم، طاب وحسن كذلك باطنيهم، فلا ينطقون لغواً ولا يسمعون لغواً، وَهُدُوا : أرشدوا، من الهداية أي هداهم الله وألهمهم للتي هي أقوم من أقوالهم الطيبة الحكيمة، وهو يزنون الكلام المناسب، للإنسان المناسب، في مكانه المناسب، في زمانه المناسب كقوله (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) مريم/ ٧٦، في غرر الحكم (بِالْهُدَى يَكْتُمُ الْاِسْتِصْبَارُ) (إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) الذي يثير حيوية النفس ويضاعف الحياة ويكبر العقل ويزيد الفكر ويحسن المنطق، وأرشدهم الله تعالى أيضاً إلى أحكم الأقوال وأصوبها وأفضلها وأنفعها ففيها العقل، فبالعقل يستفيدون وبالمنطق

يفيدون كقولهِ ﴿إِيَّاهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر/١٠، وطيب القول هو القول السديد الرشيد المفيد ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الأحزاب/٧، السديد : القول المصيب البليغ المحكم وهو قول الحق والصدق، وليس في الجنة لغو القول ولا كذب ولا مخادعة ولا قول خبيث وباطل وفاشل، وهذه من النعم المعنوية البالغة الأهمية بالإضافة إلى أنواع النعم المادية (وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) صراط الله، وأرشدوا إلى الطريق الحميد بذاته، الحمد لغيره، والسليم في الاجتماع والاعتقاد وحسن المعاشرة، وهو الإيمان (بالإسلام) الذي فيه السلام والأمان وينتهي بهم إلى حسن النظام، ويضم الخاص والعام، ويوصلهم إلى حُسْنِ الْعَاقِبَةِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣، ويجعلهم يحمدون الله حمداً دائماً دائماً يتناسب مع فضله عليهم وهدايتهم لهذا الصراط المستقيم، الذي فيه الاستقامة والسلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، حيث طمأنينة القلب برضا ربه عنهم ورضاهم عن ربه .

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ المائدة / ١١٩، والهداية إلى الطيب من القول، والهداية إلى صراط الحميد، والعلاقة المتبادلة الطردية بينهما، نعمة فائقة تذكر في مشهد النعم المادي والمعنوي، نعمة الطمأنينة والتوفيق والسرور وسعادة الروح وانسراح الصدور.

٢٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِحَادٍ يظلم نذقه من عذاب أليم﴾

يَصُدُّونَ: يمنعون، وجاءت بالفعل المضارع المستمر، يعني يستخدمون الأساليب المختلفة ليطفئوا نور الله، كالحرب الإعلامية الباردة الناعمة والتشكيك والتضييق والترغيب والترهيب على الدوام، المعنى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) وجحدوا برسالة الإسلام، وأنكروا نبوة محمد (ص) (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، بأساليب شيطانية متعددة، ويعرقلون طريقهم إلى حج بيت الله الحرام، كذلك أن يحذف خبر إن، فلا يذكرهم ما لهم وما جزاؤهم ؟ كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم، ويقرر أمرهم ومصيرهم !، (الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ) الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه (الْعَاكِفِ) المقيم في مكة (وَالْبَادِ) المسافر الذي يأتيه من خارج البلاد (غير المقيم) ويرحل، فهم (سَوَاءً) فلا ميزة لأحدهما عن الآخر، ويتساوى فيه عباد الله فلا يملكهم أحد إلا خالقهم، (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِحَادٍ يظلم) الإلحاد: يُقال ألحد في دين الله - حاد عنه وإعرض وعدل، والإلحاد: له معنى عام، هو الإنحراف بكل أنواعه عن حد الاعتدال وعن الحق والعدل بتعمد إلى الباطل والفساد.

والظلم: له دلالة عامة أيضاً، وهو القصد والعمد في الاعتداء العام والخاص بغير حق والمعنى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ) سوءاً أو ميلاً عن صراط الله، ومن يرتكب شيئاً من المعاصي والذنوب الصغيرة

والكبيرة في المسجد الحرام، عن قصد وعمد فحسبه جهنم وبئس القرار، التعبير (وَمَنْ يُرِدْ) يَتَوَعَّدَ على مجرد الإرادة زيادة في التحذير ومبالغة في التوكيد، وذلك من دقائق التعبير القرآني البلاغي الدقيق! فما بال من يريد الاعتداء ويفعل ما يريد؟! (نُدْفَةُ مَنْ عَدَابِ أَلِيمٍ) وعبر عن (عذاب أليم) بالاستذواق، أي يتحسُّه كل البدن بكافة مشاعره وأحاسيسه، لظلمه وصدّه عن سبيل الله، لأنهم يريدون انحراف الناس عن الحق، وأيضاً في المسجد الحرام تضاعف السيئات كما تضاعف الحسنات. عن الإمام الصادق (ع) في الآية (مَنْ عَبَدَ فِيهِ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَوْ تُؤَلِّي فِيهِ غَيْرَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهَوَ مُلْحَدٌ بِظُلْمٍ وَيَذِيْقُهُ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) الكافي ١ / ٣٣٧، وعنه (ع) (كُلُّ ظَلَمٍ إِلْحَادٌ سِوَاهُ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أَمْ ظَلَمَ غَيْرَهُ)، وَضَرَبَ الْحَادِمَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ مِنْ ذَلِكَ الْإِلْحَادِ) نور الثقلين ٣ / ٤٨٣، عن الإمام الصادق (ع) (الْكِبْرُ أَدْنَى الْإِلْحَادِ) البحار ٧٣ / ١٩٠، وكل عدول عن الاستقامة فهو إلحاد! ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق ١ / ٠.

فائدة:

١- الإلحاد نوعان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهنُ عِزَّهُ وَيُبْطِلُهُ (المفردات/ للراغب الأصفهاني) وقرن الإلحاد بالظلم وَقَدَّمَهُ عليه، مما يدل أن الإلحاد يؤدي إلى الظلم، وأن الظلم يؤدي إلى الإلحاد، لأن أحدهما يصب في الآخر، فيكون كل إلحاد ظلماً، وكل ظلمٍ إلحاداً، وهو الصورة العملية للكفر، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) النمل/٤، وقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤ وقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مجاهد/٢٥٠ - ٢- كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فصلت/٤٠، يُلْحِدُونَ: يطعنون في القرآن ويكذبون به ويقولون ما يجهلون وما يشتهون كقوله (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يونس/٣٩ (لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا) يبدأ بتهديد مبطن خفي ولكنه مخيف ورهيب ويدعو الى الحذر، فهم مكشوفون مرصودون مأخوذون بما يلحدون، فمن هذا الإلحاد بظلم يعدُّون القرآن افتراءً وكذباً، ويلغون فيه لتختل تلاوته وسمعته فلا يسمعه أحد، أو يُفسِّرونه من تلقاء أنفسهم بما يوافق أمرجتهم ويؤلونه ابتغاء الفتنة وتفريق الناس، فكل ذلك (بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) في آيات الله بوضعها في غير موضعها، ويتلاعبون بالقرآن برأيهم، أولئك (لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا) بأشخاصهم وأقوالهم وأفعالهم وتأثيراتهم السلبية ويحاسبهم عليها أشدَّ الحساب، عن النبي (ص) (أدنى الكفر (والإلحاد بظلم) أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه، ويريد أن يفضحه بها أولئك لا حِلاَقَ لهم) البحار ٧٨ ص ٢٧٦. الخلاق: النصيب.

٢٦ - ﴿وَادِّبْنَا يَا بَرَاهِمَةَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

بَوَّأْنَا: هَيَّأْنَا أَوْ بَيَّنَّا، وَاذْكَرَ يَأْمُرُ (وَإِذْ بَوَّأْنَا) حِينَ أَرْشَدْنَا وَعَزَّفْنَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَأَهْلَمْنَاهُ وَهَيَّأْنَا وَحَدَدْنَا لَهُ مَكَانَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَجَعَلْنَاهُ (مَبَاءَةً) لَهُ وَيَعُودُ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَتَعَلَّقُ بِهِ كَمَا يَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى بَيْتِهِ لِأَنَّهُ فِيهِ مَقُومَاتُ حَيَاتِهِ، يَعُودُ إِلَى مَكَانِ الْبَيْتِ لِيَعِيدَ بِنَاءَهُ بَعْدَ أَنْ تَهَدَّمَ بِطُوفَانِ نُوحٍ وَخَفِي مَعَالِمُهُ كَقَوْلِهِ (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا) الْبَقْرَةَ/١٢٥، مَثَابَةٌ: مَرْجِعًا تَهْفُو لَهُ الْقُلُوبُ (فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) إِبْرَاهِيمَ/٣٧ وَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ﴾ آلِ عِمْرَانَ/١٩ (أَنَّ لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا) أَمْرُنَاهُ بِنَاءَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ عَلَى أَسَاسِ التَّوْحِيدِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْوَاحِدِ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) عِبَادَةٌ خَالِصَةٌ لِّوَجْهِهِ الْكَرِيمِ لَا شَرِكَ فِيهَا لِلَّهِ أَبَدًا (وَوَطَّئِرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (وَوَطَّئِرْ بَيْتِي) وَتَزْهَهُ مِنْ كُلِّ قَذَارَةٍ مَادِيَةٍ وَمَعْنَوِيَةٍ وَبِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَكُلُّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الدَّنَسِ وَالرَّجَسِ وَالتَّجَسُّسِ الَّتِي تَفْسِدُ الْعِبَادَةَ وَتَبْطُلُهَا، وَتَطْهِيهِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ اللَّاعِيَةِ الْمُرْتَفِعَةِ الَّتِي تَشْوِشُ عَلَى الْمُصَلِّينَ صَلَاتَهُمْ، وَتَطْهِيهِهِ (لِلطَّائِفِينَ) حَوْلَهُ الَّذِينَ أَنْشَأَ الْبَيْتَ لَهُمْ، الَّذِينَ لَا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَتَوَجَّهُونَ بِالْعِبَادَةِ إِلَى سِوَاهُ (الْقَائِمِينَ) فِي الصَّلَاةِ، وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ أَعْظَمُهَا (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) وَهُوَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِمَا لِأَحْمَا أَظْهَرَ أَعْمَالُهَا، وَيَكُونُ السُّجُودُ مَعْلَمًا مِنْ مَعَالِمِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَدَّهَا دُونَ غَيْرِهَا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالصَّلَاةُ أَهْمُ وَسِيلَةٍ لِلقُرْبَى مِنَ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ بِهِ، فَهِيَ قُرْبَانٌ كُلُّ تَقِيٍّ، وَسِلَاحٌ الْمُؤْمِنِ، وَعَمُودُ الدِّينِ، وَمَنْهَاجُ الْأَنْبِيَاءِ، وَعُنْوَانُ الصَّالِحِينَ، وَفِيهَا أَطْمَئِنَّا الْقُلُوبُ، وَانْشَرَحَ الصُّدُورُ، كَقَوْلِهِ (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) النَّسَاءُ/١٠٣.

٢٧ - ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكَّرْ مَرَجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾
وَأَذِّنْ:

أَعْلَمُ وَنَادِي فِي النَّاسِ دَاعِيًا لَهُمْ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْفَرِيضَةَ الْوَاجِبَةَ، وَمِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ يَارَبُّ: وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟ قَالَ أَدِّنْ وَعَلَيَّ الْإِبْلَاجُ!، فَصَعِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى الْجَبَلِ وَصَاحَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَكُمْ بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ لِيَشْبِيَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيَجِيرَكُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَأَبْلَغَ اللَّهُ نِدَاءَهُ وَوَصَلَ أَسْمَاعَ جَمِيعِ النَّاسِ عَبْرَ الْأَجْيَالِ!، وَأَجَابَهُ مَنْ كَانَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ وَهُمْ فِي عَالَمِ الدَّرِّ: (وَقَالُوا لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ) وَإِنْ جَمِيعُ الَّذِينَ يَشَارِكُونَ فِي مَرَامِ الْحَجِّ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَحَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، هُمْ مِنَ الَّذِينَ لَبَّوْا دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ (ع) وَكَانَتْ دَعْوَةٌ إِلَى ضِيَاةِ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آلِ عِمْرَانَ/٩٧، وَالْحَجُّ: بِمَعْنَى الْقَصْدِ فِي آدَاءِ فَرِيضَةٍ مَنَاسِكِ الْحَجِّ (يَأْتُونَكَ رِجَالًا) يَأْتِي إِلَيْكَ النَّاسُ بِدَافِعِ رَبَائِي طَوْعِي مَعْنَوِي (رِجَالًا) مَشَاءَةً عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَرُكُوبًا (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ) الضَّامِرُ: النَّحِيفُ الَّذِي اتَّعَبَهُ السَّفَرُ فَظَمَرَ مِنَ الْجَهْدِ

والجوع من فرس وناقة وغير ذلك مما يركب، وكل زمان له وسيلة ركوب، والسفرة إلى الحج متعبة ولكنها شيقية وممتعة، ويغلب لذتها على تعبها!، ومنافعها على نفقاتها، ومن أراد السفر فعليه أن يُقَدِّمَ مقدماته المناسبة مع كل زمان ومكان ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ التوبة / ٤٦ (يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) يأتين للحج من كل طريق ومكان بعيد أيضاً. فائدة: ١- إنَّ وعد الله تحقَّق وما زال يتحقَّق منذ دعوة إبراهيم إلى هذا اليوم، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إليه، يقصدونه من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله إلى ضيافة بيته الحرام التي أذن بها منذ آلاف الأعوام كقوله ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم / ٣٧، والحج : تزكية النفوس، وتهذيب الطباع وتسكين القلوب، وانشرح الصدور، ثم بيَّن السبب لفريضة الحج وفلسفتها.

٢٨ - ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾

الحج موسم تربوي خاص لتزكية النفوس، ومؤتمر عالمي عام وفريضة ضرورية، فهو مشهد مُصَغَّرٌ تمهيدي ليوم الحشر والنشر! وكأنه ولادة ثانية للحاج والمعتمر بحياة جديدة ومعنويات عالية، إنه موسم عبادة وتجارة، ومؤتمر اجتماع عام لإقامة الأحكام، وتعارف وتآلف وتعاون، وهو الفريضة الحركية التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، والمعنويات والماديات، والروح والجسد، وفي موسم الحج سوق تجارية رائجة تجبي إليها أنواع السلع والصناعات والثمرات، وسوق عالمية وتعارف بين المسلمين من كل أنحاء العالم، وتقام في كل عام لتكون كلمتهم واحدة، هي كلمة الحق، وإلهم واحد وهو الله عزوجل، ودينهم القيم واحد، ينبغي أن يتعاونوا على زيادة رقي مجتمعاتهم ونهضتها، والتطلع على معاناتهم والعمل على التخلص منها، لتكون المجتمعات مجتمعاً واحداً وموَّحداً، وتشارك به القوة والعدَّة ولا تقوى عليه أية قوة جبارة طاغية، وللحج منافع أخروية كثيرة لها وجوه التقرب إلى رضا الله بكل ما يرضيه بقول أو فعل. عن الإمام الباقر (ع) (الحجَّ تسكينُ القلوب) البحار ١٨٣/٧٨.

المعنى: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) وإنما ذكر (مَنَافِعَ) بصيغة الجمع والنكرة للدلالة على العموم والتنوع (فلم يقل منفعة)، وإنها ذات منافع دينية وتربوية ودينية لا توجد في غيرها من العبادات. (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) ويذكروا اسم الله في التلبية حين الإحرام وبعده، وفي أيام التشريق (يوم النحر) وهو يوم عيد الأضحى العاشر من ذي الحجة وثلاثة أيام بعده ويستحب الإكثار من التلبية (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ)، (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) أي يذكروا اسم الله عند ذبح أنعامهم، خلافاً للمشركين من عدم أكل الذبيحة التي كانوا يذبحونها باسم آلهتهم، وسبب هذا الذكر لتزكية الذبائح وتطهيراً للنفوس (فَكُلُوا مِنْهَا) من لحوم الأضاحي، والأمر هنا للرخصة والإباحة دون الوجوب (وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ) واطعموا أمر بإطعام (الْبَائِسَ) الذي أصابه بؤس وشدة

وضرَّ وجوع وحاجة، وظهر في شكله ونفسه وفي ثيابه ووجهه فهو شديد الفقر (الْفَقِيرِ) المحتاج غير الموسع، الذي قد يملك قوت سنته، وهو أحسن حالاً من البائس والمسكين، والفقر مفهوم نسبي يتفاوت بين بلد وآخر، بحسب ظروف كل بلد! (والمسكين) المحتاج الضعيف الحال والمال، الذي لا يملك قوت سنته ويسأل الناس الحاجة، فصار (وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) هو الهدف من ذبح الضحية، بالإضافة إلى جريان الدم للفداء ودفع البلاء، وهذا جزء من المساهمة في حلِّ مشكلة الفقر في العالم الإسلامي. في نهج البلاغة حكم ٤٥٢ (الغنى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ).

٢٩ - ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ : ليزيلوا أوساخهم، والنفت : الوسخ، المعنى : بعد أن يحلَّ الحاج من إحرامه يخلق ويقلم أظفاره ويزيل وسخه ويغتسل ويتطيب (وَلِيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ) إن كانوا قد نذروا شيئاً من أعمال البر وأوجبه على أنفسهم (وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ) طواف الإفاضة، العتيق : القديم، وسمي به لأنه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران / ٩٦ ويستحب الإكثار من الطواف حول البيت والصلاة فيه، أو ليطَّوَّفُوا طواف النساء وهي نهاية مناسك الحج، ويسمى عند بعض الفقهاء (طواف أوداع) .

٣٠ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

حُرْمَاتِ اللَّهِ : أحكامه ومنهجه وما لا يحل هتكه، المعنى : (ذَلِكَ) الأمر من مناسك الحج (وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ) ومَنْ يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين، فيفعل الواجبات وبالمستطاع من المستحبات، ويجتنب المعاصي والمحرمات، فقد عظمه وعظّم حرّماته وشعائره، (فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) ذلك التعظيم والالتزام بمنهج الله تعالى، خير له ثواباً ويرفع من شأن المطيع درجات عند الله (فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فهو خير على كل صعيد، خير في عالم الضمير والمشاعر، وخير في عالم الحياة والواقع، والحياة التي تُرعى فيها حرّمات الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من كل اعتداء، ويستندون نعمته الأمان الاجتماعي والاطمئنان القلبي، (وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) أحللنا لكم جميع الأنعام من البقر والأغنام والمعز إلا ما استثناه كتاب الله، كالميتة والمخنقة وما ذُبح لغير الله وغير ذلك، راجع المائة/٣ (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان والأصنام كما تجتنب الأنجاس.

فهي بذاتها نجس ولغيرها نجس، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها، في الحديث (كُلِّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)! والاجتناب: كلمة بليغة جامعة مانعة، لا تدل على الامتناع فقط، وإنما تدل على النهي والردع لمجرد الاقتراب من كل ذنب وعيب ومن كل نقص وخلل، فهي

أبلغ من النهي والتحريم المباشر، وأوسع من (حُرمت عليكم) (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) الزُّورِ : الباطل بأنواعه على سعة معناه، فهو مفتاح لكل شرٍّ، وابتعدوا وانتركوا شهادة الزور، ويعم الحكم كل محرّم، ويشمل الكذب والغيبة والنميمة والشتم والفحش والغناء، وكل كلمة نابية تغضب الله سبحانه، وأيضاً الأقوال الفارغة الملهية الضارة والتافهة، كقوله (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا) المجادلة/٢، عن النبي(ص) (عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ بِالشَّرْكِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ) نور الثقلين ٤٩٦/٣، وعنه(ص) (إِنَّ أَبْعَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ الزُّورَ) البهارة ٣١٠/١٠٤، وقول الزور، سمي زوراً لأن الصدور السليمة تزور به وتضيق بحمله، ولا تتسع له إلا الصدور المريضة، المنساقعة مع هواها، لذلك قرن (الزور) بالأوثان لشناعته لأنه يعادل الشرك بالله، وكأما في الإثم سواء! بل إن الشرك هو ثمرة فاسدة من ثمار الزور، واجتنبوا قول الكذب والفرية على الله وعلى الناس كقولهم في آلهتهم الحجرية ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الزمر/٣ في الحديث: (الزور) قولاً وفعلاً (إِنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ) بحار الأنوار ٤٧ / ٢١٦ .

٣١ - ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴾

حُنَفَاءَ : واحدهم حنيف، وهو المائل لله عمن سواه وهو الموحد لله، وهو المائل عن كل دين منحرف ومقاوم كل شيء فاسد على كثرته، والخاضع إلى دين الله الواحد الحق الأصيل المستقيم الخالي من كل شرك، ولو كان في مجتمع جاهلي يعتمد الشرك!. المعنى : (حُنَفَاءَ لِلَّهِ) المائلين إلى الحق مُسَلِّمِينَ لِلَّهِ (من تسليم العبد لربه) خاضعين لنهجه، القائمين بالحق المقاومين للباطل، وهم المخلصون لله الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر / ٣ في جميع الأحوال، ولو كانوا في أحوال الجاهلية الحديثة، غير مشركين به سبحانه أحداً لا في العقيدة ولا في قول ولا عمل ولا في دعاء ولا في غير ذلك، (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) هذا مثل (والأمثال تُضْرَبُ لِلْإِعْتِبَارِ) إنها صورة توضيحية وكناية تشبيهية لعاقبة الشرك، لمن تجرأ على معصية الله في الشرك أو في ارتكاب الكبائر التي هي بحكم الشرك، كالأذى والاعتداء والإساءة إلى الناس، وأنه في شركه وضلاله وهلاكه تماماً كمن (خَرَّ) أي سقط من السماء سقوطاً اعتبارياً معنوياً من أعلى درجات الإنسانية والهداية والاستقامة السامية الشاهقة إلى هاوية الضلال والحيرة والضياع البعيد، فتقطعه الطيور الكاسرة وتمزقه إرباً فإنه بهذا السقوط يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد الخالص، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأهوام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. (تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) أو عصفت

به الريح العاتية حتى هوت به (في مَكَانٍ سَحِيقٍ) بعيد، أي ترمي به في بعض المهالك البعيدة ليتناثر جسمه قطعاً صغيرة مشوهة، من هول ما هو فيه من الضلال والضياح البعيد والحيرة الخانقة. كقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧

فائدة: ١- عن الإمام الباقر (ع) (الحنيفية: هي الفِطْرَةُ (السَّليمةُ) الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، فطَرَهُمْ عَلَى المعرفة) نور الثقلين ٣ / ٤٩٦، ٢- أَعْلَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَدَّ مِنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنْ الْحَقِّ، كَبَعْدَ مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَذَهَبَتْ بِهِ الطَّيْرُ تَأْكُلُهُ، أَوْ هَوَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ مَوْحَشٍ، وَفِي الْحَدِيثِ (أَنَّ أَحْوَفَ مَا أَحَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ وَهُوَ الرِّيَاءُ) شرح النهج ٢ / ١٧٩.

ما هو خَطْرُ الشِّرْكِ؟

لأن الشِّرْكَ آفةُ الدِّينِ، وفساد التَّوْحِيدِ، وخراب العقيدة، وضرر على وحدة الأديان السماوية، ويجبط العمل، ويخدع الأمل، لذلك قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣، وقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الزمر/٦٥، وكان الشرك ظلم عظيم، لأنه يُصَغِّرُ عظمة الخالق ويخس حقه، ويلغي دوره ويُبْسِي ذكره، ويُعْظِمُ دور المخلوق المحدود، ويغالي فيه، ويدعو إليه، ويعطيه صفات الله عز وجل كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦ سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال: (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي ٢/٣٩٧، عن النبي (ص) (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَجَلٌ (طريقة للشِّرْكِ) وعجل هذه الأمة الدينار والدَّهْرُ) المحجة البيضاء ٧/٣٢٨. ٣- (حُنْفَاءُ لِلَّهِ) : الحنيف : مصطلح قرآني علمي إيماني حركي مقاوم للباطل معارض للفساد العام، مؤثر في النفوس عالي المضامين، والحنيفية تدعو إلى الاستقامة في الدين والثبات عليه في كل الأحوال، ولو كان في مجتمع جاهلي متخلف!، فهو يحمل إرادة أمة معارضة للفساد ومقاومة للضلال كقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ النحل/١٢٠ فقد أسلم لأمر الله فلم ينافق ولم يتذبذب ولم يتقلَّب ولم يتسامح في شيء في دينه، ويصبر ويتحمل كل المعاناة حتى يخلص دينه لله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ (في الإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَالِصُ)

والحنيف: الذي لا يوجد لديه ميل للشرك بأنواعه الجلي والخفي، ويبقى ثابتاً على الإسلام في كل أقواله وأفعاله ولو بقي لوحده! كما يقول الإمام علي (ع) (مَا أَبْقَى لِي الْحَقُّ مِنْ صَدِيقٍ) والحنيف: الذي تحرى وبحث ودرس طريق الحق بعلم وإيمان فسلكه بصدق وتعامل به وثبت عليه، وترك أنواع الضلال وقاوم الانحراف حوله حتى لو كان تياراً مغرياً كقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النساء / ١٢٥، في نهج البلاغة (لَا تَسْتَوْحِشُوا طَرِيقَ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ) خطبة ٢٠١، ٤- إنها صورة قرآنية تربوية حركية مقاومة عالية المضامين واسعة الدلالة،

فتكون السماء هي الإسلام، والطير هي الشهوات المحرمة، والريح هي وساوس الشيطان والشرك ودوافع الهوى، فأبي ضياع بعد هذا التيه الخانق؟.

٣٢ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

(ذَلِكَ) الأمر الذي قلنا في تعظيم (حرمات الله) الآية ٣٠ ويتناول الآن تعظيم (شَعَائِرِ اللَّهِ) الشَعَائِرُ: جمع شعيرة، وهي العلامات البارزة التي عيّنها الله لطاعته وامثال أوامره عن علم وإيمان، وشعائر الله: معنى حركي عام واسع الدلالة، يشمل كل ما يستجيش مشاعر الإنسان، وهي كل أحكام الإسلام والالتزام بفرائضه وعلومه وآدابه وحرماته وعباداته وشرائعه وحدوده.. كلها مترادفات أو متقاربات تحرك المشاعر والأحاسيس، تحيي الضمائر وتقرب إلى الله عز وجل، وتبعد عن الهوى والشيطان، وتشمل الشعائر كل الأعمال الدينية العامة التي تذكّر الإنسان بالله تعالى كالصفا والمروة كقوله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البقرة/١٥٨، المعنى: (ذَلِكَ) ماوضحه الله لكم من الأحكام الإسلامية والأمثال (وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) منهج الدين الصحيح على سعة معناه والشعائر: كل مشروع صالح للأمة ويُرضي الله، وَيَصَبُّ فِي نَحْضَةِ الْبِلَادِ وَتَطَوَّرَ الْعِبَادَ عِلْمِيًّا وَدِينِيًّا، والتي منها تأسيس المدارس والجامعات في التعليم العالي وإنتاج البحوث العلمية المتنوعة، وإعداد الاختصاصات المتنوعة والكفاءات المتعددة واستثمار الطاقات، وإقامة المؤتمرات وإنشاء الجمعيات والندوات والمحاضرات العلمية والقرآنية.. وغيرها، ومن الشعائر أعمال الحج والأضاحي والهدي (فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) فإن تعظيمها وإحياء ذكرها من أعمال المتقين لله المقربين له سبحانه.

فائدة:

١- شعائر الله: من الله وإلى الله ومع الله، وتنبع من التقوى، وتعمل على أساس التقوى، وتعود حصيلتها إلى التقوى، أي تبدأ بالتقوى وتستمر بالتقوى وتنتهي بالتقوى (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ يُقَاهُ) والتقوى: من الإلتقاء والحذر من سخط الله والتورّع عن محارمه، كما أتقى النار وأحذر من المخاطر، وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب، وتظهر على السلوك وتنعكس على الأقوال، والقلب هو محل نظر الله إليك، ومحل قياس تعظيمك لشعائر الله، فالحج ليس من تقوى الجوارح والأعضاء، ولكن مناسكه وشعائره كلها (مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) لا تقوى القلوب، تقوى المضامين لا تقوى الأشكال، تقوى الأعمال لا تقوى الأقوال ولقلقة اللسان، عن الإمام الصادق (ع) (القلب (حَرَمُ اللَّهِ) فلا تسكن (حَرَمُ اللَّهِ) غير الله) البحار ٧٠ ص ٢٥، عن النبي (ص) (التَّقْوَى هَا هُنَا) وأشار إلى صدره: تفسير القرطبي ٧ / ٤٤٨ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن / ١٦ عن الإمام علي (ع) (إِنَّ التَّقْوَى أَفْضَلُ كَنْزٍ وَأَحْرَزُ حِرْزٍ وَأَعَزُّ عِزٍّ، فِيهِ نُجَاةٌ كُلِّ هَارِبٍ وَدَرْكٌ كُلِّ طَالِبٍ وَظَفِيرٌ كُلِّ غَالِبٍ) البحار ٧٧ / ٣٧٤، حيث إن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره وجميع فرائض

الدين لتصل بالإنسان إلى هدف (التقوى) كقوله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة / ١٨٧، في غرر الحكم (التَّقْوَى: مُنْتَهَى رِضَا اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَاجَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ) ٢- (شَعَائِرُ اللَّهِ) فُرِنتِ الشَّعِيرَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهَا تُوَصَّلُ إِلَيْهِ فَهِيَ مِنْهُ وَإِلَيْهِ! وَقَرْنَتْ الشَّعِيرَةَ أَيْضاً (مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) وَمِنْ دَوَاعِ الْإِيمَانِ الْأَصِيلِ الَّتِي تُوَصَّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ، وَسُمِّيَتْ (شَعَائِرَ) لِأَنَّهَا تُشْعِرُ الْإِنْسَانَ أَي تُعَلِّمُهُ بِشَيْءٍ مَهْمٌ لِيَكُونَ عَلَامَةً دَالَّةً عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَالطَّوْفِ وَالسَّعْيِ وَالرَّمِي وَالذَّبْحِ وَالصَّلَاةِ وَجَمِيعِ الْعِبَادَاتِ، وَالإِتْرَامِ بِأَدَابِ الْعِلَاقَاتِ الْعَامَةِ، وَمِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَالتَّفْوِيضُ وَالتَّسْلِيمُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهَا مِنَ الشَّعَائِرِ الْمَعْنَوِيَّةِ الرَّوْحِيَّةِ الْخَاصَّةِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَهَكَذَا يَرِيّ الْإِسْلَامُ أبنَاءَهُ عَلَى مَنْطِقِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ وَمَشَاعِرِ الْقَلْبِ الرَّحِيمِ الشَّفَافِ مَعاً، فَيَتَوَازَنُ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ وَتَتَعَادَلُ مَتَلْبَلَاتُ الرُّوحِ مَعَ الْجَسَدِ، وَالدُّنْيَا مَعَ الْآخِرَةِ، وَالْحَيَاةُ مَعَ الْمَوْتِ، وَالْأَمَلُ مَعَ الْعَمَلِ، فَيَتَوَازَنُ مِيزَانُ الْإِنْسَانِ وَيَسْتَقِيمُ فِكْرُهُ وَسُلُوكُهُ، وَيَتَأَخَى عَقْلُهُ مَعَ قَلْبِهِ وَقَوْلُهُ مَعَ فِعْلِهِ، وَعَاطِفَتُهُ مَعَ مَشَاعِرِهِ وَضَمَائِرِهِ، فَيَكُونُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ خَلْقاً وَخُلُقاً وَعَقِيدَةً وَمَنْطِقاً وَعِلْماً وَسُلُوكاً. كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف / ١٣ عن الإمام علي (ع) (إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا التَّمَاسِ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرَدِّ المَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ المَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَنُقَامَ المَعْطَلَةَ مِنْ حُدُودِكَ) شرح نهج البلاغة ٢٦١/٨

٣٣ - ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

(لَكُمْ) أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْأَنْعَامِ الْمَهْيَأَةِ لِلذَّبْحِ فِي الْحَجِّ (شَعِيرَةُ الْأَضْحَايِ) (مَنَافِعُ) مِنْ صَوْفِهَا وَلَبْنِهَا وَلَحْمِهَا وَرُكُوبِ ظَهُورِهَا (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) إِلَى وَقْتِ ذَبْحِهَا (ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) مَحِلُّهَا: الْمِحْلُ الَّذِي يُحْلُ فِيهِ نَحْرُ الْأَضْحَايِ، هُوَ الْحَرَمُ فِي الْعِمْرَةِ الْمَفْرَدَةِ وَفِي مَنَى وَمَكَّةَ فِي الْحَجِّ، وَخَصَّ (الْبَيْتَ الْعَتِيقِ) بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْحَرَمِ كقوله ﴿هَذَا بِأَلْبَعِ الكَعْبَةِ﴾ المائدة / ٩٥.

٣٤ - ﴿وَكَلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا مَرَرْتُمْ بِهِمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهَيْكَلُ الْوَاحِدُ فَالَّذِينَ اسْلَمُوا وَبَشَّرَ الْمُخْبِتِينَ﴾

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ، وَلِكُلِّ أَهْلِ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، وَتَسْتَمِرُّ الْمَنَاسِكُ إِلَى الْأُمَّمِ الْأَحْقَاقِ (جَعَلْنَا مَنَسَكًا) (التَّنَسُّكُ) الْقَوَاعِدُ وَالْأَسْسُ وَالطَّرِيقَةُ الثَّابِتَةُ لِدِينِ اللَّهِ فِي كُلِّ رِسَالَةٍ السَّمَاءِ، أَمَا الْفَرَعِيَّاتُ فَلِكُلِّ مَجْتَمَعٍ مَا يَنَاسِبُهُ مِنْ طَاعَاتٍ وَعِبَادَاتٍ، مَنَسَكًا: قَرِيبَانًا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ، عِبَادَةً مِنْ تَقَرُّبِ الْقَرَابِينِ وَالْأَضْحَايِ، وَذَبْحًا يَذْبَحُونَهُ وَدَمًا يَرِيقُونَهُ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ لِلَّهِ تَعَالَى دُونَ سِوَاهِ، عَلَى سُنَّةِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَهَكَذَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نِكَاحًا أَي طَرِيقَةً فِي التَّزْوِيجِ فِي الْمَرَاسِيمِ وَالْإِحْتِفَالِ وَعَقْدِ الزَّوْاجِ (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْتُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) يَذْكُرُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ كقوله ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت / ٤٥، وَذَكَرَ اللَّهُ لَذَّةَ الْمُحْبِبِينَ، وَشَرَفَ الذَّاكِرِينَ، وَنَجَاةَ الْمُطِيعِينَ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الذَّبِيحَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا

خالصة لله وحده، نقول عند الذبح (بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ) (بِسْمِ اللَّهِ) أزهق روحها والله أَبَاحَهَا لي (وَاللَّهُ أَكْبَرُ) من أن يقاس بشيء، وأكبر من أن تدركه العقول والحواس. وليشكروه على ما أنعم بها عليهم، وإضافة البهيمة إلى الأنعام تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام حصراً، أي الإبل (البعران) والبقر والغنم والماعز، أما البهائم من غير الأنعام كالخيل والبغال والحمير فلا يجوز ذبحها في مورد القربان، (فَإِلهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فإلهكم وإله من قبلكم ومن بعدكم إله واحد لا شريك له، وأصول العقيدة السماوية في التوحيد والنبوة والمعاد واحدة، وإن تعدد الأنبياء وتنوعت الشرائع السابقة، فهناك اختلاف في أحكامها الفرعية وليست الأساسية (فَلَهُ أَسْلِمُوا)

ليس هو إسلام الإجماع والإكراه، وإنما هو إسلام التسليم والعلم والتعظيم والاطمئنان، فما الإسلام إلا دينُ الله القيم، كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران / ١٩ فأخلصوا لله العبادة واستسلموا لحكمه وانقادوا لطاعته قولاً وعملاً وظاهراً وباطناً وطوعاً لا كرهاً، ولا تتقربوا في قرايبكم إلى غيره ولا تذكروا على ذبائحكم إلا اسمه سبحانه كقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الأنعام / ١٢١، (وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ) وَيَشِرُّ: من البشارة والبشرى والخبر السار قبل مجيء زمنه، الْمُخْبِتِينَ: من الإخبات وهو على نوعين: إخبات مع الله وإخبات مع الناس، و الْمُخْبِتِينَ: المطيعين الخاضعين لله الواثقين برهم ودينهم المتواضعين لله مع الناس (وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ) المدعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة والمغفرة، المطمئنة قلوبهم بذكره، وكل هذا يُبنى على العلم، وكل العبادات تؤدى على قدر العلم، ثم وصف الله تعالى المخبتين بأربع صفات فقال :

٣٥ - ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَّبِعِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُتَّقُونَ﴾ وَجِلَتْ من الوجل : وهو استشعار الخوف من الله بقدر قوة الإيمان تعظيماً ومهابة، المعنى : (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ) خافت قلوبهم هيبَةً ورغبة وعظمة وإجلالاً وليس رهبة لمقام الله ولا رعبة في نفوسهم كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن / ٤٦، فعلى قدر الذكر يكون الوجل، ويكون الخوف عند الذكر على حسب تجلي الحق للقلب، فكأنهم بين يديه واقفون ولجلاله مشاهدون، في غرر الحكم (الذِّكْرُ لَدَّةُ الْمُجِبِّينَ) لا مكان للشيطان في القلب التقى النقي، لأنه في شغل شاغل بذكر الله والخوف من عذابه والرجاء لثوابه، ومن اشتغل بذكر الله طيب الله ذكره وشرح صدره وطرد الشيطان عنه ولم يكن من الغافلين كقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

الرعد / ٢٨

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) من النوائب والحن في السراء والضراء، فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم، ويصبرون على سائر المكاره (فَإِنَّ فِي الْمِحْنِ مَنَحًا مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٍ وَخَبْرَاتٍ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَاتٌ نَهَايَاتُهَا الْكِرَامَاتُ) كقوله ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان / ١٧، في غرر الحكم (الْمُصِيبَةُ بِالَّذِينَ

أَعْظَمَ الْمَصَائِبِ) وعن الصادق (ع) (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَفِيهِ مَشِيئَةٌ وَقَضَاءٌ وَابْتِلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤ (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) الذين يُوَدُّوْنَهَا بِشَرْطِهَا وَشُرُوطِهَا فِي خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ وَتَدَبُّرٍ، وَفِي أَوْقَاتٍ فَضِيلَتِهَا مِنْ دُونَ تَأْخِيرٍ، فَهِيَ قَرِيبَانِ كُلِّ تَقِيٍّ، وَقَدَّمَ الْإِيمَانَ وَالصَّبْرَ عَلَى الصَّلَاةِ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ عَلَى قَدْرِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالصَّبْرِ كَقَوْلِهِ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ البقرة / ٤٥ (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وَيُنْفِقُونَ بَعْضَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ الْمَالِي فِي وَجْهِ الْبَرِّ الْمُنْتَوَعَةِ، وَيُنْفِقُونَ بِمَعْنَاهِ الْعَامِ الْمَادِي وَالْمَعْنَوِي، يُنْفِقُونَ مِنْ عُلُومِهِمْ وَجَاهِهِمْ وَنِصَائِحِهِمْ وَخَبْرَاتِهِمْ وَقَدْرَاتِهِمْ.. وَكُلُّهُ يُنْفِقُ بِقَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ (كُلُّهُ يُنْفِقُ مِمَّا عِنْدَهُ) وَهَكَذَا تَقْرُنُ الصَّلَاةَ بِالزَّكَاةِ، كَمَا يَقْرُنُ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، وَالْمَدْعِيَّاتِ بِالْمُضَادِّقِ، وَالْعِبَادَاتِ بِالْمُعَامَلَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ / ٣٩ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حَكْمَ ١٣٨ (مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَّ بِالْعَطِيَّةِ)

فائدة: ١- هذه الصفات التكاملية إذا اجتمعت في إنسان تسامت به إلى أعلى الصفات، وترفعه إلى أرقى الدرجات عند الله وعند الناس، فتتكشف له الأسرار، ويرى العجائب، ويعرف الحقائق، ويُستق مع الأقدار!.

٣٦ - ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وَالْبُدْنَ : الإبل السمينة والأبقار البدينة، سُمِّيت بُدْنًا لِضَخَامَةِ بَدْنِهَا، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ يَكُونُ الْإِنْفَاقَ مِنْ طَيِّبِ نَفْسٍ، وَمِنْ أَفْضَلِ مَا تَمْلِكُ، بِلَا مَنٍّ وَلَا أَدَى، كَقَوْلِهِ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) آل عمران/ ٩٢ (جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) مِنْ دِينِ اللَّهِ، لِأَنَّهَا أَفْضَلُ مَا يُهْدَى، وَيُخَصُّ الْبُدْنَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ الْهَدْيِ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تَنْفِقُوا بِسَخَاءٍ فِي تَدْعِيمِ وَتَكْرِيمِ وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ، شَعَائِرِ اللَّهِ : عِلَامَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى دِينِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، أَيَّ جَعَلَ ذَبْحَهَا الشَّرْعِيَّ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ (لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ) لَكُمْ فِيهَا نَفْعٌ فِي الدُّنْيَا كَالرُّكُوبِ وَاللَّبَنِ، وَفِي الْآخِرَةِ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَبْحِهَا لِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ) الصَّوَافٍ : قَائِمَاتٌ قَدْ صَفَفْنَ وَقِيدْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ، أَيَّ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى الْبُدَنِ حِينَ ذَبَحَهَا وَقُولُوا (بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ) اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا : كِنَايَةٌ عَنْ سَقُوطِهَا عَلَى جَنْبِهَا وَإِزْهَاقِ رُوحِهَا بَعْدَ نَحْرِهَا وَلَمْ يَبْقَ لَهَا حَرَكَةٌ، فَكُلُوا مِنْهَا أَنْتُمْ فِيهِ مَبَاحَةٌ لَكُمْ، وَأَطِعُوا عَلَى الْوَجُوبِ، (الْقَانِعَ) أَيَّ الْفَقِيرَ الْقَانِعَ بَرِزْقِهِ الْمُتَعَفِّفَ عَنِ السُّؤَالِ وَالتَّسْوُلِ، الرَّاضِي بِمَا عِنْدَهُ، وَبِمَا يُعْطَى مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ (وَالْمُعْتَرَّ) الْفَقِيرَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ بِالسُّؤَالِ لِتَعْطِيَةِ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ لَحْمِهَا وَلَا يَقْنَعُ بِمَا أَعْطَيْتَهُ (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا) (كَذَلِكَ) هَكَذَا ذَلَّلْنَا الْبُدْنَ لَكُمْ وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً مَعَ ضَخَامَتِهَا وَقُوَّتِهَا (لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ) لكي تشكروا الله على نعمه وحسن تدبيره وتقديره، واشكروا الله أيضاً بهذا البذل والعطاء من لحومها. فهي نعمة إذا كانت حية ونعمة بعد ذبحها والاستفادة منها. **فائدة** : كما جعل الله البُدن من شعائر الله، وهي الحيوان السمين الصحيح، وليس الهزيل، كذلك ينبغي أن تكون (شعائر الله العامة) من عقد المجالس الثقافية العلمية المتنوعة الواعية وغيرها من صلاة الجمعة والجماعة، على أحسن أدائها وعطائها ونواياها، بحيث تبدأ من التقوى، وتعمل بالتقوى، وينتهي بتقوى القلوب، وتهذيب النفوس، ومكارم الأخلاق. كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣.

٣٧ - ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾

(لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا) لن يصل إلى الله تعالى شيءٌ من لحومها ولادماؤها، لأنه الغني عن كل شيء وإليه يفتقر كل شيء، (وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) ولكن يصل إليه ويستفيد منه أهل تقوى القلوب واستقامة النفوس وتركيتها من الفقراء والمتعفين، بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه سبحانه، برفع حاجة الفقير قدر الإمكان، كما يريد الوالد من ولده أن يكون ناجحاً في حياته، في الحديث (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنَّ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) تفسير المراغي ١٧ / ١١٥، وفي الحديث (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتَفْعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَفْعَ فِي يَدِ السَّائِلِ) التفسير المبين ص ٤٣٨، وهنا تأكيد على إخلاص النية، والله سبحانه هو المالك والرزاق ولكن يريد من عبده أن يكون كريماً، (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) كرره لتأكيد نعمه أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقاداً لرغبتكم (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ) (اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَوْلَانَا..)، أي لتعرفوا عظمته سبحانه في قدرته وتدبيره وتقديره وتشريعه، ولتعرفوا فضله في هدايته لكم من الضلال إلى نور الهداية والاستقامة (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) وبشِّر يا مُجِدِّ المحسنين بذاتهم بحسن عبادتهم وحسن أقوالهم وأفعالهم، والمحسنين لغيرهم فيكون شرهم مأموناً وخيرهم مأمولاً، الذين يأتون بالأعمال الحسنة على إطلاق معناها، كل إنسان بحسب قدرته ومن موقعه، وعلى أحسن وجه ولا يكتفون بالقدر الواجب منها، وبالأخص من ترك شيئاً جديداً وعملاً مفيداً وعلماً ينفع الإنسانية جمعاء على الدوام كقوله ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مريم / ٧٦، عن النبي (ص) (إِذَا مَاتَ الْمَرْءُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَصَدَقَةٌ جَارِيَةٌ) كنز العمال خبر ٤٣٦٥٥.

٣٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

يُدْفَعُ : يحمي ويؤيد ويسدّد ويدفع عن عباده الصالحين شرّ الأشرار وكيد الفجار وشر طوارق الليل والنهار، ويدفع عنهم كل مكروه - بسبب إيمانهم - ويدفع عنهم وساوس الشيطان، ويجعلهم

في يقظة من شرور أنفسهم الأمانة بالسوء، ومن سيئات أعمالهم كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا سَأَلَهُمْ طَائِفًا مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/٢٠١، في غرر الحكم (التقوى): حِصْنٌ حَصِينٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ) ويكون دفاع الله عن المؤمنين الصادقين، وحمائته وتسديده لهم بأية صورة من الصور اللازمة، مادية أو معنوية، مباشرة أو غير مباشرة كقوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الأحزاب/٩، فيخضع هذا الدفاع الإلهي للنسبة والتناسب، ويختلف من حالة إلى أخرى، ومن كيفية إلى أخرى، كما دفع الله عن النبي (ص) بقوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال/١٧ وقوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ الضحى/٧ وكما دفع الله عن رسوله (ص) في غار الثور بتسخير الحماسة في عيشها، والعنكبوت في نسج بيتها كقوله ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح/٤، وكما دفع الله تعالى عن مؤمن آل فرعون بقوله ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ غافر/٤٥، وكما يدافع الله عن الذين آمنوا بقوله ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الحج/٤١ وقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٩ وقوله ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ النور/٥٥ وغيرها، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا فيقهم السيئات .

﴿وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ غافر/٩، ويدافع عنهم عندما يؤهلهم لوراثة الأرض، ويدافع عنهم أيضاً عندما يعدهم للاستخلاف في الأرض ... وهكذا، ثم نصر المؤمنين الشامل في النهاية كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧، بتوفير فرص ملائمة وأسباب مناسبة للنصر، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم، قال (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) بمقدار ما يدافعون عن دين الله وينصرونه كقوله ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ الحج/٤٠، المعنى: لا يختص الدفاع الإلهي عن المؤمنين بزمان الرسول (ص) وأما يكشف القرآن عن سنة عامة تشمل دفاع الله عن جميع المؤمنين الصادقين في كل زمان ومكان كسنة مستمرة فاعلة، بالأساليب التي تحفظ لهم دينهم وديناهم وآخرتهم، لذلك جاءت (يُدَافِعُ) بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، والله يدافع عن المؤمنين المخلصين وليس مدعي الإيمان!! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْسِبُ الدَّفَاعَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ (حَقًّا وَحَقِيقَةً) إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا يَنْسِبُ الْأُمُورَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْإِنْسَانِ وَالْحَيَاةِ إِلَى ذَاتِهِ سَبْحَانَهُ كَقَوْلِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فاطر/٨ .

وأما الأمر متعلق ضمن قاعدة الأسباب والمسببات، فالأسباب من المؤمنين والمسببات من الله على ضوء تهيئة الأسباب فيكون الدفاع له مدلول عام، عبر توفير الفرص الملائمة للنصر، وتهيئة الأسباب المناسبة للظفر، وعبر إثارة مشاعر القوة والقدرة في نفوسهم (الهبة على قدر المهمة) وعبر إمدادهم بالصبر المناسب على احتمال المكروه، والفراسة الواعية من التخلص من البلايا والحن والشدائد، وهذا أشبه بالدروع للمؤمنين وحماية ورعاية لهم، وأداة مؤثرة من أدوات الدفاع، وليس

معنى ذلك أن الله قد التزم على نفسه نصر المؤمنين في جميع الأحوال، بحيث يصبح أمراً حتمياً، بل معنى ذلك عنايته بهم واهتمامه بأمرهم، بحيث يلطف بهم لطفاً خفياً لا يلفظه مع غيرهم، وهو تعبير عن حب الله لهم حباً عملياً بالرعاية والهدية والحماية والإمداد لهم مقابل الرضا لسياسة الكافرين وحكم الظالمين، وفساد المفسدين **كقوله** ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ البقرة / ٧١ وقوله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ اللقصص / ١٧٠

وقوله ﴿إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر / ٥١، (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) خَوَّانٍ : كثير الخيانة لدينه وضميره ووطنه وامته وصديقه، فالأعداء خانوا أمانة الله وهي رسالته ومنهجه، وخانوا حق الله وحق الناس وأخروا المجتمع بإشاعة الفساد فيه، وكفروا وجحدوا أنعم الله، بل ويريدون إطفاء نوره **كقوله** ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة / ٣٢، **كفور**: يجحد المعروف وإحسان الناس ويسيء لمن نصح له. في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ وَلَا يُرَاعِي الْحُرْمَةَ)، والله يبغض كل خائن وكفور وجاحد ومتهتك **كقوله** ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة / ١٧٤، في غرر الحكم (رُبَّ مُتَنَسِّكٍ لَا دِينَ لَهُ) في نهج البلاغة كتاب ٢٦ (إِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعُ الْعِشِّ عِشُّ الْأُمَّةِ)

فائدة:

١- دفاع الله عن المؤمنين ليس له حدود ولا قيود وليس له شكل معين، يدافع الله عن المؤمنين الصادقين فيهديهم للتي هي أقوم، ويفتح عليهم بصيرتهم فيرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كثر العمال خبر ٦٦، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، ويدافع الله عن المؤمنين عندما يريهم ما يجب أن يعملوه، فيرون العجائب، ويعرفون الحقائق، وتتكشف لهم الأسرار، وينسقون مع الأقدار، ويدافع عنهم عندما يحملهم مسؤولية تبليغ الرسالة، ويختارهم ويؤهلهم ويسددهم لها، ويكونوا أوفياء سابقون بالخيرات بإذن الله، ومنهم من يصطفيهم الله من بين عباده ليجعل كتابه في صدور الذين أوتوا العلم وقوله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) فاطر/٣٢، ولا سيما إذا كانوا في ميدان المعركة مع الكافرين، وهذا يعني أن المؤمن المستسلم لعدوه والمداهن لهم، لا يكون في ميدان المعركة، ومن ثم فلا يكون من حق الله الدفاع عنه، لأنه لا معركة قائمة بينه وبين عدوه الذي هو نفسه عدو الله **كقوله** ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ النساء/١٣٩، فيكون دفاع الله عن المؤمنين بقدر إيمانهم وعدائهم للكافرين، ويكون نصر الله لهم بقدر نصرهم لله تعالى، ويكون تأييد الله لهم بقدر استعدادهم النفسي وإعدادهم للقوة اللازمة والقدرة الممكنة. **كقوله** ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة / ٢٥١ وقوله

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/٦٠، وتناول سيد قطب (في ظلال القرآن) الآية الكريمة بشيء من التفصيل المشوق فراجع ج ٥ ص ٦٠٠ دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٧ سنة ١٩٧١.

٣٩ - ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

هذه أول آية نزلت في الإذن في القتال دفاعاً عن النفس والدين والعرض والمال والوطن، بعد الهجرة إلى المدينة، بعدما هُيَّ عنه في أكثر من سبعين آية (أُذِنَ) معناها رُخِّصَ للمؤمنين أن يقاتلوا المشركين لظلمهم واعتدائهم، فقد كانوا يؤذون أصحاب النبي (ص) أذىً شديداً، فيأتون إليه بين مضروب ومجروح ويتظلمون إليه فيقول لهم النبي (ص) صبراً صبراً جميلاً فيأني لم أؤذن بالقتال، وعن الإمام علي (ع) (لَا يَتَحَمَّلُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ وَالْبَصْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْأَمْرِ) حتى هاجروا إلى المدينة وأنزل الله هذه الآية، فقد تحمَّل النبي وأصحابه ألواناً من الأذى دون أن يقاوموا، لأن المقاومة كانت آنذاك أشبه بعملية انتحارية خاسرة، لضعف المسلمين وقوة المشركين، وبعد الهجرة إلى المدينة أصبح المسلمون أهل قوة رادعة، لذلك جاءهم الإذن بالقتال ووعدهم الله بالنصر، (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) وإن الله تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال، ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر المجاهدين والمضحيين والمستشهادين في سبيله، كقوله ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ محمد/٤، وقد فعل فنصرهم وأعزهم، لأنهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة فيها نصرة عقيدة التوحيد وإعلاء كلمة الله عزوجل وهداية الناس . كقوله ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة/١٩٤ .

٤٠ - ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا دُفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

بالغ المشركون في إيذاء المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة والمدينة، وبذلك أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فهو الظلم وأشد الظلم ظلم الضعيف المستضعف، لا لشيء (إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا إيمانهم بالله وحده لا شريك له، وهي أصدق كلمة أن تقال، إنه البغي والاعتداء والظلم عليهم (رَبُّنَا اللَّهُ) هذه الكلمة أشدّ وقعاً من الصاعقة على قلوب الجبابرة الطغاة، لأنها تضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات، ولا تُبقي فضلاً لأحد إلا بما يقدمه من عمل صالح ينتفع به الفرد والمجتمع مبني على أساس الإيمان، كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣، في نهج البلاغة حكم ٨١ (قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ) وليس قيمة كل امرئ ما يملكه، ولو وقف الأمر على مجرد النطق بكلمة التوحيد لهان عليهم سماعها بل واستسلموا ونطقوا بها، ولكن وراءها منهجاً إسلامياً تربوياً دقيقاً، وإعادة بناء المجتمع من

جديد، وراءها الحكم بالعدالة والمساواة بين الناس، وهذا أعدى أعدائها! (وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) (إنها فلسفة التدافع) في القرآن، في سياسة (التدافع) توازن حركة الحياة، وتثبيت موازين الكرامات، وإعزاز القدرات البشرية.

بمعنى: إِنَّ اللَّهَ إِنْ لَمْ يَدْفَعْ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ عِبْرَ الزَّمَانِ بِشَكْلِ مَبَاشِرٍ وَغَيْرِ مَبَاشِرٍ، وَيَدْفَعُ بَعْضَ النَّاسِ بِبَعْضِهِمْ، وَيَدْفَعُ بِقَوْمٍ عَنِ قَوْمٍ وَيَكْفُ شُرُورَ بَعْضِ النَّاسِ عَنِ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيَقْدَرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَأَهْلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ كَقَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة / ٢٥١، ومن سياسة الدفع والتدافع أن يكيد الظالمين بالظالمين، ويكون الظالم سيف مسلول ينتقم الله به ثم ينتقم منه كقوله ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ الأنعام/١٢٩، عن النبي(ص) (مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٧٥٩٣ (هَدِمْتُمْ صَوَامِعَ) معابد الرهبان للنصارى، وحرّم الله الرهبانية وهي العُلُوُّ في تحمّل العبادة، والانعزال عن الناس كقوله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد/٢٧ (وَبِيعَ)

كنائس النصارى (وَصَلَوَاتٍ) الكنيس، معابد اليهود (وَمَسَاجِدُ) المسلمين (يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) هي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله (وَالهَدْمُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْأَعْيَادِ!)، لا يحميها إلا قدرة الدفع، وفلسفة القوة وإعداد القدرة المقاومة، فكما أذفع عن الجسم آفات الأمراض بأخذ الدواء المناسب، وتقوية مناعته، كذلك يجب أن أذفع عن بلدي وأصونه وأحميه من جميع ما يؤذيه ويهدده، فلا بد من إعداد قوة تحميه وأسلحة حديثة متطورة تردع الأعداء، وتدفع عنه المخاطر، وهذه فلسفة وسياسة وإدارة التدافع في القرآن، والخلاصة: ولولا ما شرعه الله من قتال المعتدين، وتأسيس (القوة الرادعة) من جيش قوي عقائدي، وشرطة وأمن ومخابرات وقوى (كومندوس) فيدائية، مقاومة ومُضحّية.. وغيرها، وكل مصادر القوة الحديثة التي يحشها الأعداء، لنصرة منهج الله، إلا لسيطر أهل الشرك والإلحاد على مواضع العبادة كلها وهدمها! على قداستها لا يحميها إلا (دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ويعتدون على أهلها، عن الإمام علي(ع) (لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ أَمِيرٍ فَاجِرٍ تَأَمَّنَ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤَخِّدُ للضعيفِ مِنَ الْقَوِيِّ) البحار ٧٥ / ٣٥٨، أما حكم الفاجر فهو للاختبار والاستدراج، عندئذ يكون المؤمن على حذر. وقد انتقل السياق القرآني من الأقل إلى الأكثر حتى وصل إلى تحريب (المساجد) وتدنيستها ومحوها من الوجود! (يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) تعظيماً لها وتشريفاً لأن المسلمين يُصلّون فيها الفرائض الخمس، والمعابد الأخرى يصلون فيها بالأُسبوع مرة واحدة .

﴿وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ﴾ (الواو) واو القسم إنه قانون عام لحفظ الحياة، ولحماية الحق ولصيانة الحقوق، أنه قانون متبادل بنصرة متبادلة ومتوازنة، أي وأقسم لينصرنَّ الله من ينصر دينه ويجعل كلمة الله هي العليا، فبمقدار ما تنصر الله ينصرك الله بقدره كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم / ٤٧، وهذا وعد الله الوثيق المؤكد أن يأتيك بوسائل النصر من حيث لا تحتسب ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الكهف / ٢١، وهذا ترغيب في الجهاد لنصرة الحق وأهله كقوله ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بقره / ٧، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف الله نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وهو قويٌّ على نصرهم، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب كقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن يَرْسِلُوا فِي الْمَجَادِلِ﴾ المجادلة/ ٢١ المستفاد من الآية أن حكم الجهاد كان موجوداً في الشرائع السابقة، وهو قائم ومستمر إلى يوم القيامة، كقوله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ الصافات/ ١٧١- ١٧٣ .

٤١ - ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا وَصِدْقًا الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ ﴿وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ﴾ الآية ٤٠، هؤلاء هم جنود الله الذين لا تُسَلِّطُ عليهم الأضواء، وعناصر قدرته المبتوثة، وأدوات إرادته المدخرة كقوله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) المدثر/ ٣١، هؤلاء النخب النموذجيون المميزون لا يخلو منهم زمان ومكان كقوله (وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/ ١٨١، وقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/ ٧، وقوله (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر/ ٢٤، هؤلاء هم الذين يحققون وعد الله الصادق (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) الرعد/ ٣١، ولكن الله قضى أن تكون حرية الإنسان ضمن حدود مشيئة الله وإرادته سبحانه، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرته وحكمته عز وجل، المعنى: (الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ) حين يمكن الله لهم في الأرض ويحقق لهم النصر ويثبت لهم الحكم والسلطة والقوة في ظروف موضوعية مناسبة، سعوا لتأسيس مجتمعاً صالحاً قوياً مستقيماً في فكره وأقواله وأعماله، فلا يملكهم الحكم، وإنما هم يملكون الحكم، ويملكون التخلي عنه، في نصح البلاغة خطبة ١٩٣ (عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَعَّرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) فمن علاماتهم المميزة أنهم (أَقَامُوا الصَّلَاةَ) بكمالها وجلالها وفي أوقات فضيلتها فأثرت في مشاعرهم وسلوكهم، وعبدوا الله عبادة عن علم ووعي تزيد ارتباطهم بالله وصلتهم به (وَأَتَوُا الزَّكَاةَ) على سعة معناها باعتبار (لكل شيء زكاة) في غرر الحكم (زَكَاةُ الْقُدْرَةِ الْإِنْصَافِ) وزكاة الظفر الإحسان للناس والعفو عنهم، فأدوا حقَّ الله في عبادته، وأدوا حقَّ الناس في تقديم خدماتهم وقضاء حوائجهم المادية والمعنوية، والسعي في نهضة بلادهم نهضة حضارية متطورة سريعة، وعبر الله سبحانه عن العبادة

البدنية بالصلاة، وبالعبادة المالية بالزكاة، فجمع بين العبادات والمعاملات والأخلاق (أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) بِالْمَعْرُوفِ: ما تعارف على حسنه العقل السليم، وبما استحسنته الشرع وَشَجَّعَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ .

(وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) ما أنكره وعارضه العقل السليم، وما استقبحه الشرع ونهى عنه وعاقب عليه، فيصلحون بالأمر بالمعروف من سلوك الناس ويقىمون لهم طرقهم مستقيمة، ويحقون الحق ويبتلون بالباطل ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران / ١١٠، قِيلَ لِمَلِكٍ زَالَ مُلْكُهُ، ما الذي أزال ملكك؟ قال أضعت حق الله والناس فضاع ملكي، عن الإمام الباقر (ع) (الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خُلُقَانِ مِنَ خُلُقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ وَمَنْ خَدَّهُمَا خَدَلَهُ اللَّهُ) وسائل الشيعة ١١ / ٣٩٨، هؤلاء هم الذين ينصرون الله، والله ناصرهم (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) والله بعد ذلك يُصَرِّفُ الْأُمُورَ كيف يشاء فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تُهْمَلُ التكاليف وتتغير التوايا وينحرف السلوك. كقوله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف/١٢٨ وقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ﴾ آل عمران / ٢٦، وفي الحديث (عَدَلُ سَاعَةِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً) روح البيان ٤١/٦، فائدة: ١- (عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ثمرتها الطيبة، إشارة إلى نفاذ قدرة الله لتبلغ الغاية التي قدرها الله وهي نصر المؤمنين الصادقين وإعزازهم وتأيدهم وتوفيقهم، ونصر الله له سببه وله تكاليفه وظروفه وشروطه، فلا يُعْطَى مجاناً وجزافاً بلا مؤهلات، ولا يبقى النصر لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه. ومن مصاديق الآية (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) عن الإمام الباقر (ع) (إنها بحق الإمام المهدي وأصحابه) نور الثقلين ٥٠١/٣ (الَّذِي يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا) كثر العمال خبر ٣٨٦٧٦، كقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرْتُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥.

٤٢ - ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَشُعُوبٌ

وإن يكذبوك أهل مكة يا محمد فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه، وإن جاء بالبينات والمعجزات الخارقات، فقد كان قبلك أنبياء كُذِّبُوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقصد بهم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور / ٤٨ وهي تسليية للرسول (ص) ووعيد للمشركين، كقوله (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) الكهف/٥٩.

٤٣ - ٤٤ - ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب أهل مدينة مدين (وَكُذِّبَ مُوسَى) أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره؟ (فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) فَأَمَلَيْتُ، فأمهلت، الكافرين وأخرت عقوبتهم ليؤدِّوا تمام امتحانهم ولأتم الحججة عليهم، فأغرقتهم بنعمتي كقوله ﴿وَلَا

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ حَيِّرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴿١٧٨﴾ آل عمران/١٧٨ وقوله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التوبة/٥٥، فلما لم يرجعوا لعقولهم ولم يعودوا لرشدهم بعد إنذارهم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر بالعذاب والعقاب، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَهْلَ حَتَّى كَانَتْ أَهْمَلُ، وَلَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَانَتْ عَفْرًا، وَأَنَّهُ أُنْذِرَ حَتَّى كَانَتْ أَعْدَرًا! (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) استفهام تقريرى للتعجب، أي فكيف كان إنكاري عليهم إنكاراً بعنف، بتغيير نعمهم نقماً، وحياتهم هلاكاً، وبالكثررة قلة، وبالعمارة خراباً؟ وهو كناية عن شدة الأخذ وأليم العقوبة! و(تَكُونُ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ). فائدة: ١- تشير الآية إلى أن على العاقل أن لا يتعجل الشيء قبل أوانه كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد/٣٨).

٤٥ - ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيُقْضَىٰ عَلَيْهَا قَوْلًا وَعِصْيًا وَأَن يُدْرِكَهَا الْيَوْمَ الضُّلْمَ﴾ (الأنبياء/٢٥) (فَكَأَيِّنْ) أي فكَمْ من قرية أهلكتنا أهلها بالعذاب الشامل وهي كثيرة كما تدل عليها كلمة (كَأَيِّنْ) ويعرض القرآن مصارعها في مشهد متحرك وتصوير مؤثر في المشاعر، (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) لنفسها بالكفر وظلمة لغيرها بالاعتداء (فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) فالقرية (خَاوِيَةٌ) خالية من أهلها مهجورة خربة قد تهدمت حيطانها وسقطت (عُرُوشِهَا) أي سقوفها (وَيَسِّرَ اللَّهُ) عامرة بالماء العذب ولكنها متروكة لا يستفيد منها أحد! معطلة عن أداء مهمتها! (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) فخم مرتفع البنيان ذو أسس قوية ثابتة ليصان من حوادث الزمان، هلك سكانه وتُرك بنيانه من غير أهل يسكنونه، فهو قصر جميل ظاهره، ولكنه موحش تنفر منه النفوس، كل أهل تلك القرى الظالمة أهلكوا بذنوبهم وصاروا عبرة لمن يعتبر ومثالاً لمن يفكر ويعقل، فهم عمروا دور الدنيا المؤقتة، وخربوا دور الآخرة الدائمة! عن أهل البيت (ع) (وَيَسِّرَ اللَّهُ) وكم من عالم لا يُرجع إليه، ولا يُنتفع بعلمه! وعن الإمام الكاظم (ع) (وَيَسِّرَ اللَّهُ) كناية بلاغية مُتحرّكة عامة عن الإمام الصامت الكاتم لعلمه (المُقَصِّرُ فِي وَاجِبِهِ) (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) الإمام الناطق، الذي يؤدي وظيفته الرسالية في حُسن تبليغها للناس، عن النبي (ص) (مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ ثُمَّ لَا يَحِدِّثُ بِهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنُزُ الْكَنْزَ فَلَا يَنْفِقُ مِنْهُ) (الترغيب والترهيب ١ / ١٢٢)، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) البقرة/١٥٩، عن النبي (ص) (إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي، فَلْيُظْهِرِ الْعَالَمَ عِلْمَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ) الكافي/١/٥٤.

٤٦ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

دعا الله عباده إلى السير السياحي في الأرض، سواء أكان السفر للرزق أو للترفيه فبيني على الهدفية. والسفر فيها ليس سفر هو ولغو وإنما سفر هادف مملوء بالموعظة والحكمة والتفكير والعبرة،

لينظروا كيف تنهض الحضارات وكيف تموت؟ وكيف تعيش الأمم وكيف تحيا سعيدة؟ وكيف تَضَلُّ وتنحرف وتعاني من الكآبة والأمراض النفسية؟ كقوله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الأعراف/٣٤ الأجل الجماعي أجل الشعوب، أجل الدول والحضارات ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر/٥، فيرونها ويتحسّسوا بها، فتوحى لهم بالعبر وتنطق لهم بلسان الواقع البليغ الذي يحرك المشاعر ويوسع الآفاق، لذلك جاء الاستفهام إنكارياً عن آثار هذه المشاهد من البئر المعطلة والقصر المشيد في نفوس المشركين (فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) فتدرك ما وراء هذه الآثار من سنة الله التي لا تتخلف ولا تبدل (أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهذمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة؟! فإنهم يرون ولا يدركون، ويسمعون ولا يعتبرون، لقد عطّلوا حواسهم، فهم صُمُّ بُكْمٍ عُمِّيٍّ لا يعقلون (وَمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِالْمَاضِيَيْنِ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِينَ!) (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ)، (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) إن أبصارهم وإن كانت سالمة لا عمى بها فقد أصابهم عمى القلوب، وهو عمى البصائر الذي هو أشد ضرراً من عمى العيون! لقد أصابهم العمه كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَاهُمْ لَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ النمل/٤، العمة: التحير والاضطراب النفسي، عن الرسول(ص) (شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ٧٧ / ١١٤، وما عمّت القلوب إلا لكثرة الذنوب، كقوله ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الاسراء / ٧٢ .

فائدة: ١- عن مجاهد (لكل إنسان أربع أعين: عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ لِذُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ لِآخِرَتِهِ، فَإِنْ عَمِيَتْ عَيْنَا رَأْسَهُ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَا قَلْبِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ عَمَاهُ شَيْئًا، وَإِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَا رَأْسَهُ وَعَمِيَتْ عَيْنَا قَلْبِهِ فَلَمْ يَنْفَعَهُ نَظَرُهُ شَيْئًا!) روح البيان ٦ / ٤٤، عن النبي(ص) (إذا أراد الله بعبده خيراً فتح عينيه قلبه، فيشاهد بها ما كان غائباً عنه) نور العقول ٣ / ٥٠٨، ٢ - (الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) زيادة في التوكيد في تأثير القلوب في الصدور! وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤، وذلك لكلا ينصرف مفهوم القلوب التي في الصدور إلى العقول التي في الرؤوس، وقد وصف القلوب هنا بأنها تعقل وتدرك، فَكَانَ تَحْدِيدَ مَكَانِهَا أَمْرًا لَازِمًا حَتَّى يَتَقَرَّرَ أَنَّهَا مَقْصُودَةٌ بِذَاتِهَا وَلَيْسَتْ الْعُقُولُ، عَنِ النَّبِيِّ(ص) (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةً (قَطْعَةً لَحْمٍ) إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) الخصال خير ١٠٩، في غرر الحكم (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلخَيْرِ) وللحدث وللحياة.

روي: للقلب ستة أحوال: (حياة وموت) (وصحة وسقم) (ويقضة ونوم) فحياته الهدى، ونومه الضلالة، وصحته الصفاء(الحلال)، وعلته الحرام، ويقضته الذكر، ونومه العفلة! سُمِّيَ القلب قلباً لسرعة تقلبه، وكثرة تحسّسه وتأثره، ودقة تنبؤته، وسعة فراسته كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ

كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿٣٧/ق﴾، ومفهوم القلب في القرآن الكريم ظاهره أنيق دقيق جذّاب، وباطنه عميق رقيق منساب، وكأن دور القلب يقوم بدور العقل، فيكون القلب إمام العقل وقائده ومُوجِّهه! عن الإمام الباقر (ع) (العقلُ مسكَنَةُ القلب) البحار ٩٨/١، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ مَنْزِلَةَ الْقَلْبِ مِنْ الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ الْإِمَامِ مِنَ النَّاسِ) البحار ٧٠ ص ٥٣، وأكثر خطاب القرآن للقلب وليس للعقل! في نهج البلاغة كتاب ٣١ (أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَتَوَزَّهْ بِالْحِكْمَةِ) في غرر الحكم (قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله، فمن طَهَّرَ قلبه نظر إليه) وفيه أيضاً (تكاد ضمائر القلوب تطلع على سرائر الغيوب) .

٤٧ - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾

استعجال العذاب طبيعة الجاهلين، ودأب الظالمين في كل حين، يرون مصارع الظالمين ويقروون أخبارهم ويعلمون مصائرهم، فإذا هم يسلكون طريقهم المنحرف غير ناظرين إلى سوء العاقبة!، فإذا ذكروا بما نال أسلافهم استبعدوا أن يُصيبيهم ما أصابهم كقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ البقرة/٢٠٦، ثم يطغى بهم الغرور إذا أمهلهم الله على سبيل الاختبار، فإذا هم يسخرون ممن يخوفهم من ذلك المصير، وإذا هم من السخرية والاستهزاء من الحقيقة الكبرى، يستعجلون ما يوعدون بالعذاب! وهكذا (يَعْمَلُ الْجَاهِلُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَعْمَلُ الْعَدُوُّ بِعَدُوِّهِ)! (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) فهو آتٍ في مواعده المقرر الذي قدره الله وفق حكمته، واستعجال الناس به لا يُعجِّله، كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله كقوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر / ٥، وتقدير الزمن في حساب الله يختلف تماماً عن حساب البشر (وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) وهو تأكيد لوقوع وعد الله وأنهم قد استبطؤوا وقوعه، فإن الله سبحانه تقديراً غير تقديرهم وحساباً غير حسابهم، وأنه سبحانه لا يقيس الزمن بمقياس الناس المحدود، وإنما يدبر الوجود كله في زمن مطلق وبقدرة مطلقة ليس لها حدود كقوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ المعارج / ٧، إنه كناية تشبيهية عن اختلاف المقادير والتدابير بين الخالق والمخلوق، فإن مقدار ألف سنة عند خَلْقِهِ كيوم واحد عنده تعالى بالنسبة إلى حلمه على العاصين، فَلِمَ إِذَا يَسْتَبْعِدُونَهُ وَيَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ؟ وهو تعالى حلِيمٌ ذو أناة لا يعجل، ما يستعجلونه بالعذاب (أو) ويوم واحد من أيام الآخرة أشد عليكم من عذاب ألف سنة من سنِّي الدنيا (أو) يستوي عند الله اليوم الواحد والألف سنة، فلا يخاف الفوت حتى يعجل لهم العذاب كقوله ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ النحل / ٦١ .

فائدة: ١- عن النبي (ص) (فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَعْيَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْصَفُ يَوْمٌ وَهُوَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ وَتَلَا الْآيَةَ) كثر العمال خير ١٦٥٨٠، وروي: (أَخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

سَلِيمَانَ لَمَّا أَوْتِيَ فِي الدُّنْيَا) البحار ٧٢ ص ٥٢، وعنه (ص) (الدُّنْيَا كُلُّهَا سَبْعَةٌ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَتَلَا
الآيَةَ) وفي المثل (أَيَّامُ الشُّرُورِ قِصَارٌ وَأَيَّامُ الِهِمُومِ طَوَالٌ) جمع البيان ٧ / ١٧٢، كَقَوْلِهِ تَعَالَى

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ النازعات / ٤٦ .

٤٨ - ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَهَا أَخَذَتْهَا وَالِي الْمَصِيرِ﴾

أعاد سبحانه لتوكيد الإنذار، تقدم في هذه السورة / الآية ٤٥ المعنى : (كَأَيُّن) للكثرة، أي وكثير من أهل قرية (أَمَلَيْتُهَا) أحرقت إهلاكهم وأمهلتهم (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) مستحقة للعذاب بكفرها، مع استمرارهم على الظلم فاعتروا بذلك التأخير ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/ ٩٩ وصاروا عبرة لمن يعتبر (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ)! (ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَالِي الْمَصِيرِ) ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإلى الله مصير كل شيء، وإليه ترجع الأمور. كَقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَثَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا مَثَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران / ١٧٨ في نصح البلاغة حكم ١١٦ (مَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ) الْإِمْلَاءُ : الإمهال، فائدة: ١- وَاللَّهُ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ عَفْرٌ، وَأَنَّهُ أَمْهَلَ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلٌ، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرَ! في نصح البلاغة حكم ٢٥ (يَا إِبْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرُهُ) فإنه استدراج إلى الهلاك من حيث لا يشعرون كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف / ١٨٢ أما أمة محمد فهي أمة قد أمهلها الله كرامة لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ الْخَاتَمِ (ص) كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الأنفال/ ٣٣ .

٤٩ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُفْرٌ مِثْلُكُمْ﴾

هذه هي مهمة الأنبياء (ع) التبليغ الواضح عن الله بلا غموض، وتخويف وإنذار من أعرض وانحرف بما معه من الأدلة القاطعة والمعجز الخارقة والآيات الناطقة كَقَوْلِهِ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال / ٤٢ وقوله ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/ ١٦٥، وذكرت الآية الانذار دون التبشير، لأن الآية في مورد الإنذار للمعاندين، وترسم الآية التالية صورة مشوقة للبشرى.

٥٠ - ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة النافعة، ودائماً القرآن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح بأية نسبة كانا، ويؤكد على الكيفية قبل الكمية، وعلى الاستمرار دون الانقطاع، وعلى المضمون دون الشكل، والذي يجمع بين الإيمان والعمل الصالح يستدعي أن يجمع بين مطالب القول والعمل، وبين مطالب الروح والجسد، ومطالب الدنيا والآخرة، والحياة والموت،

والأمل والعمل ... هؤلاء المستقيمون المتوازنون النَّافِعُونَ (هُمْ مَغْفِرَةٌ) لسيئاتهم وثواب لحسانتهم (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وصف الرزق بالكريم، ذو المحاسن الكبيرة والفوائد الكثيرة والمنازل المميزة، وسلوكوا طريق النجاة ونالوا الفوز في جنات النعيم المقيم المادي والمعنوي يفوق وصف الواصفين كقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف / ٧٠. وهكذا (الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)!. وهكذا يصنع الإنسان مستقبلة الدنيوي والأخروي بنفسه.

٥١ - ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

مُعَاجِزِينَ : مغالين مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم، مشاكسين معاكسين لقضاء الله، أي كونهم يعاجزون الأنبياء وأولياءهم أي : يمانعونهم ويشاكسونهم ليصيروا إلى العجز عن أمر الله، فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله (أو) أنهم ظانين أنهم يعجزوننا فلا نعلم منهم دقائق الأمور ولا نقدر عليهم، المعنى: (وَالَّذِينَ سَعَوْا) بذلوا أقصى جهدهم وطاقتهم وأسرعوا واجتهدوا بقصد وعمد، في رد آياتنا وحججنا ورسالتنا بالظعن فيها والافتراء عليها وتعطيل تأثيرها وأثرها (مُعَاجِزِينَ) أي مشاكسين معاكسين وكانوا يعتقدون أنّ لهم القدرة على مغالبة إرادتنا القاهرة، وعجزها عن إحصاء كل شيء ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١ كقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فصلت / ٢٦ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) أولئك يليق بهم جحيم جهنم (وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ) وهكذا يتحدّى الجاهل قدرة الله القاهرة بقدرته التافهة وبمصيره المخدول!.

٥٢ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

(من الآيات المتشابهة) إن الله بحكمته البالغة يختبر عباده جميعاً ولا سيما الرسل والأنبياء (ع) وأن الله ما أرسل قبل محمد (ص) (مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى) : حدّث نفسه ما يهواه ويتمناه، ويحبّ ويرغب أن ينشر دينه ومنهجه، من تبليغ رسالته على أحسن وجه وإقبال الناس عليه ونجاحه في دعوته، ولكن لا يتركه الشيطان وما أحبّ، (المعنى والله العالم) : (وَمَا أَرْسَلْنَا) رسولاً ولا نبياً إلا وحدّث نفسه في تبليغ الرسالة (وَالْهِمَّةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهْمَةِ) وتمنى لأتمته الهداية والإيمان، هذا التمني نابع من طبيعتهم البشرية (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) إلا ألقى الشيطان (من الجن أو الإنس من أصحاب الأطماع والامتيازات والمصالح والأغراض السيئة) الوسواس والعقبات والشبهات في طريقه، بتزيين الكفر لقومه وقبول الشرك في نفوسهم مخالفة لأمر الرسول والرسالة، أو أدخل في تلاوته ما يهونهم أنه من جملة الوحي ليفسد أمره ويخرب صفاءه! أو أي أسلوب من أساليب العرقة كقوله ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ هُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣، وهذا معنى إلقاء

الشیطان فی أمانة الرسول والنبي أي الرسول بيني والشیطان يحاول أن يهدم ويجرب بوساوسه، فيفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي ويطل سعيه، والنبي معصوم من كيد الشيطان ولكنه بشر له أماني وطموحات وآمال يسعى لتحقيقها، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيه، فيخلخل أمانيه ويعرقل موازين الدعوة! وكأن الآية تسلية للرسول(ص) تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك، فهذه سنة المرسلين قبلك (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْفِي الشَّيْطَانَ) (فَيَنْسَخُ) المراد بالنسخ هو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام، أي يزيل ويُفشل ويُطل الله ما يلقيه الشيطان وحزبه من اختلاق الأكاذيب وادعاء الأباطيل والأوهام، وأيضاً ينسخ الله المؤامرات والخطط وعقبات الشيطان وأعوانه الجهنمية التي ألقاها في طريق الدعوة الإسلامية، ويقضي على الانحرافات والخرافات التي علقَت ببعض النفوس وذلك بألسنة الصادقين وأيدي المجاهدين، ولو بعد حين من الزمان كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ^{الرعد/٧} (ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) يثبتها ويقرّها فلا تقبل الرد، ويؤكددها ويظهرها فتصير مُحكّمة لا ينكرها أحد، بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإلقاء الحجة الرسالية على الناس وإظهار الحق جلياً كقوله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يوسف/١١٠.

(أو) (فَيَنْسَخُ اللَّهُ) أن يُقيّض ويؤهل للدين مَنْ يدافع عنه ويحميه ويدفع الشبهات عنه، ثم يجعل الله آياته مُحكّمة فاعلة مثبتة مؤثرة في حجتها على الناس ولا تقبل الرد كقوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ يوسف/١٠٨ (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) واللّه (عَلِيمٌ) جامع لكل العلوم، وعليم بكيد الشيطان اللّيم وسوء تدييره، واللّه (حَكِيمٌ) يضع الأشياء في مواضعها. وحكيم بمعالجة كيد الشيطان كقوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة/٣٢.

فائدة: ١- (أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ) هذا الإلقاء من الشيطان محاولة إضلال وإلقاء بالون اختبار غير مستقر ولا مستمر وإنما هو عارض وفاشل ويزول (وللعوارض أحكام) كقوله ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء/٧٦ - ٢ لا يقدر الشيطان على إضلال الأنبياء ولكنه يحاول أن يوسوس (في أُمْنِيَّتِهِ) في أهدافه وأساليب تبليغه، كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ محمد/٢٥، ٣ - عليكم أن لاتتعجلوا انتصار الحق على الباطل قبل أوانه وكماله كقوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ الباء / ٢٩، فإن للحق ولادة طبيعية في ظروفها الموضوعية المناسبة (ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) (ثُمَّ) تدل على التراخي الزمني الذي يعطي معنى طول المدة (بمعنى) حتى إعداد العدة والعدد اللازمين، وتجهيز القوة والقدرة الكافيتين، وانتهاز الفرصة المناسبة بحكمة بالغة، ٤ - الفرق بين الرسول والنبي: كل مَنْ نزل عليه الوحي من الله سبحانه يسمى (نبياً) ويسمى (رسولاً) إذا كان

لديه رسالة سماوية فهو رسول، ولا يسمى رسولاً حتى يؤمر بتبليغ رسالته إلى الناس، والني ما يُنبئ به ويعرف واجبه عن طريق الوحي أو الإلهام، وكلاهما يدعمهما الله بالعصمة عن الخطأ، والني لا ينزل عليه كتاب بل يعمل بشريعة من سبقه من الرسل، وعليه فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

٥٣ - ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) ليجعل تلك الشبهات والضلالات والمغالاة والتقلبات والوساوس المنحرفة التي يلقيها الشيطان (فِتْنَةً) عامة، واختباراً وامتحاناً لطائفتين من الناس ظلموا أنفسهم عن إصرار وعمد ولا يبالي الله بهم ١- (لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شك ونفاق وضعف وانحراف وغلو وفساد وعدم إيمان واضح وتصديق جازم فتؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان أترّ فيهم الريب والشك وأصلتهم الشبهات، فصار فتنة لهم وهم المنافقون أو اللصوص الذين يعيشون مع السلب والنهب والغش والخداع ٢- (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) واختباراً للذين قست قلوبهم من كثرة ذنوبهم، فلا تلين قلوبهم لذكر الله ولا تقبل الحق، لأنها قلوب غليظة الطبع لا تؤثر فيهم كل دعوة خير، ولكن يؤثر فيهم ما يلقيه الشيطان في نفوسهم، وجعلوه حجة لهم على باطلهم، كقوله (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) غافر/٥، ليزدادوا ضلالاً وشاقوا الله ورسوله، لهذا قال (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) وعبر عن هاتين الطائفتين المذكورتين بالظالمين لأنفسهم ولغيرهم لأنهم (لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) لفي عداوة وكرهية وخلافات شديدة لله ورسوله وإنهم لفي ضلال بعيد، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها، في معاداة الفضائل ومناصرة الرذائل ولكراهيتهم للحق وحبهم للباطل، ووصف الشقاق بلفظ (بَعِيدٍ) لأنه في غاية الضلال والبعد عن السداد والرشاد فيصعب إصلاحه.

فائدة: ١- تشير الآية إلى أن الذي يُسوّق الدعايات الكاذبة وينشر الإشاعات المغرضة هو ما يلقيه الشيطان لهم، هم المرتزقة والمنافقون والهمج الرعاع الذين ينعمون مع كل ناعق.. كقوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) التوبة/١١٥، وهكذا يكون لكل مجتمع رمزاً للضلال ومحرضاً للشرك والباطل، عن الإمام علي (ع) (إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ سَامِرِيًّا)! نور الثقلين ٣/٣٩٢، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهَوَ صَنَمُكَ)!

٥٤ - ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

الطائفة الثالثة: هم أهل العلم ورجاحة العقل بدين الله الذين حملوا القرآن واستنطقوه، وأهل الإيمان والنزاهة والكفاءة، الذين يتحققون من فلسفة النسخ الشيطاني والإحكام الإلهي، في قوله (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) ويميزون ما يلقي الشيطان من البدع

والضلالات والمغالطات والشبهات والانحرافات، ليعلموا الحقيقة لها غايات وأهداف نبيلة عديدة، لأن الله منحهم من مؤهلات العلم والفطنة والوعي ما به يعرفون الحق من الباطل، والحقيقة من المدّعات والشبهات، والرشد من الغي فيفرقون بين الأمرين: الحق المستقر الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي يلقيه الشيطان والذي ينسخه الله، وعلى كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم يتلي ببعض البلايا ليظهر بذلك حقائق النفوس ومعادنها الطيبة والخبيثة كقوله ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الأنفال / ٣٧ وقوله ﴿لِنَبِّئُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف/ ٧ ﴿فَبِؤْمُنُوا بِهِ﴾ ويصدّقوا ويعملوا به بسبب ذلك العلم الهادي الكاشف المستند على الدليل والبرهان، ويزداد إيمانهم عند دفع الشبهات ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فتخشع وتطمئن قلوبهم وتخضع وتتواضع وتُسَلِّم لحكمته سبحانه لأنها واعية زاكية، وهذا من هدايته سبحانه إياهم بخلاف مَنْ في قلبه مرضٌ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسبب إيمانهم ووعيهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو علمهم بالحق الهادي الثابت الواضح الذي لا ضلال فيه ولا عوج والعمل على ضوئه كقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إبراهيم/ ٢٧، ومنقذهم من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة كقوله ﴿يُهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس / ٩ فيثبتون على دين الإسلام وعلى الإيمان ويستندون حلاوته ولا ينحرفون عنه مهما تكن المضايقات عليهم والمعاناة! ولا تزيدهم أقاويل المفترين إلا إيماناً وتسليماً لله وكتبه ورسوله. كقوله ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ المدثر/ ٣١، وقوله ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/ ١٧-١٨ .

٥٥ - ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

مِرَّةً: شك، وأبى الطغاة والعناة إلا المرية والشك والارتباب في القرآن وحكمه، ومن الحق أهله، والشك ثمرة الجهل، وسيظل هناك أناس يعادون الدين ويشككون فيه، في غرر الحكم (من يتردد يزداد شكاً) ثم يظهر الله الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون في ظروف مناسبة كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/ ٣٣ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى تقوم القيامة فجأة بأهوالها عليهم، عن النبي (ص) ﴿مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ﴾ روح البيان ٣ / ٢٢، وهم في غفلة معرضون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا تُقبل من الذين ظلموا معذرتهم ولا تنفع ندامتهم ولا هم ينظرون (بمهلون)، ومن هنا سُمِّيَ (يَوْمٍ عَقِيمٍ) اليوم الذي لا يلد غيره ولا يأتي بشيء بعده، هو اليوم الثابت الحاسم الذي لا تقلب فيه، وهو يوم القيامة، يوم يُفقد العمل وينتهي الأمل، يوم الحسرة والندامة، يوم المصير المحتوم والعذاب المشؤوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

الإنفطار / ١٩، عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ: مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٢٥٩.

٥٦ - ﴿الْمَلِكُ يُمَدِّدُ إِلَيْكَ حُكْمَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

الملك يوم القيامة لله وحده، لا شريك له في ملكه ولا منازع له في أمره وحكمه في الدنيا والآخرة ولا أنصار له ولا مستشار، وفي الدنيا جعل الله ملوكاً من باطن ملكه، أما في الآخرة فالملك لله وحده (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) يفصل بين عباده بالعدل والحق ولا قاضي سواه ولا حاكم غيره ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف / ٢٦ لأن الحكم من فروع الملك، فإذا لم يكن لإحد يومئذ نصيب في الملك لم يكن له نصيب في الحكم ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد / ٤١، (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال على سعة معانها، هم الفائزون لهم النعيم المقيم في جنات الخلد، فائدة: ١- يجمع القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح، بأية نسبة بينهما وبأية كيفية وكمية، والذي يجمع بينهما كأنما يجمع بين القول والعمل، والحقيقة والادعاء، والعبادات والمعاملات . . إلخ كقوله ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ﴾ الروم / ٤٤ .

٥٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله ورسالاته فصدر الحكم عليهم (فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) مُهِينٌ: مخزٍ، يهينهم ويدلهم مع التحقير في دار الجحيم بعد عزتهم وسلطانهم في الدنيا، فالإهانة هي المناسبة لهم، ليكون العذاب من جنس العمل.

٥٨ - ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَبِرًا يَرَوْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَحْشَىٰ وَكُنَّ الرَّزَاقِينَ﴾

الهجرة في سبيل الله: تجرد من كل ما تحفو له النفس كقوله ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج / ٤٠، والهجرة ذو معنى واسع كقوله (وَالرُّجْزُ فَاهْجُرْ) المدثر / ٥، يشمل من ترك الأهل والأوطان لجهاد أهل البغي أو طلب الرزق الحلال أو للتفقه في الدين أو للبحوث العلمية الحديثة أو للدراسات التخصصية النافعة، أو شرد من دياره بالعنف والبغي أو هاجر بسبب جهاده لإعلاء كلمة الحق وأخذ الحقوق المسلوبة (وسبيل الله) بمعنى سبيل الناس لقضاء حوائجهم وتحسين حالهم بما يرضي الله تعالى، فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله سبحانه مستعدين لكل مصير كقوله ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَبِصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ التوبة / ٥٢، (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) ثم قتلوا وفازوا بالشهادة ونالوا منزلة شهداء في الجهاد الكريم. (أَوْ مَاتُوا) على فراشهم بانقضاء آجالهم في ديار هجرتهم أو في الطريق كقوله ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ النساء / ١٠٠، وإنما قيد الهجرة بكونها في سبيل الله، لأن المثوبة إنما تترتب على صالح العمل للناس، وإنما يكون العمل صالحاً نافعاً عند الله بخلوص النية فيه وكونه في سبيله لا في سبيل غيره من دنيا يصيبها كقوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ الليل / ١٩-٢٠، (لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا)

فتكفل الله لهم بالعبود الكرم عما فقدوه، ليعطيهم الله (رِزْقاً حَسَنًا) كما يعطي الشهداء من الأجر، نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) وإن الله تعالى خير من أعطى وكفى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر / ٣٦ فهو خير من يرزق لمن يعمل ويسعى بعلم في سبيل الرزق، وانه تعالى يرزق بغير حساب، فإذا أعطى أدهش، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (لَا يَشْعَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨، عن النبي (ص) (المَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَتَوَقِّئُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعِيرٌ قَتِلَ هُمَا فِي الْأَجْرِ شَرِيكَانِ) المراغي ١٧/١٣٣ أما مقدار الثواب بقدر خلوص النية.

٥٩ - ﴿يُدْخِلُهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

(رِضْوَانُهُ) الرضا، تكريم النفس بشيء تجد فيه متعة ولا تتطلع أكثر من ذلك. (يُدْخِلُهُمْ) مكاناً يرضونه ويحبونه وهو الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ الكهف / ١٠٨ كما خرجوا مخرجاً يرضي الله، فتعهد لهم الله بأن يدخلهم (مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ) في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما لا ينالهم فيها مكروه ولا أذى كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة / ١٧، وقوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ) المجادلة/ ٢٢ (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) (لَعَلِيمٌ) بما يرضيهم فيعده لهم (حَلِيمٌ) لا يعاجل بالعقوبة لمن يستحقها، لعله يرجع إليه نادماً بالتوبة. كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة/ ٢٢٢

٦٠ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ تُبَغِّ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

(ذَلِكَ) إشارة إلى المرضي عنه في هجرته (مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ) ومن جازى الظالم بمثل ظلمه دفاعاً عن نفسه، تردّ الاعتداء بمثله حتى لا يتفاقم الغضب في نفسك، وإنما سُميت المجازاة عقاباً لأنها تأتي بعد الفعل (تُبَغِّ عَلَيْهِ) ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً بغير حق لأنه أبي أن يقرّ للظلم وانها (لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ) على من طغى واعتدى وبغى نصراً تكوينياً وتشريعياً، نصراً مؤكداً لدلالة لام التوكيد ونون التوكيد عليه، ومعنى هذا أن من رضي بالذل والهوان يدعه الله ومارضي لنفسه كقوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل/ ١٢٦ عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قِيلَ وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَنْعَرِضُ لِمَا لَا يُطِيقُ فَيَذُلُّهَا) تنبيه الخواطر ص ٢٨٤، وعن الإمام الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨، عن النبي (ص) (مَنْ أَقْرَبَ بِالذُّلِّ طَائِعاً فَلَيْسَ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ) البحار ٧٧/١٦٢، (إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) مبالغ في العفو والغفران للمتصر كقوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ النور/ ٢٢ فائدة: ١- تندد الآية بالبغي والعدوان، وتحت الآية على العفو والصفح والغفران، كما تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده، كقوله ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/ ٨٥ فإن الله تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر (فَتَشَبَّهُ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ) فاعفُ وأصفح عن

المسيء عند الظفر به فإنَّ العَفْوَ محبوبٌ عند الله، في حالة العفو الذي يَنفَع ولا يضر، فهناك عفو نافع وعفو ضار، هذا إذا كان الاعتداء على حقِّ خاص أما الحق العام فلا عفو عنه. كقوله ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ الاسراء / ٣٣

٢ - سبب النزول:

نزلت الآية في قوم من مشركي مكة لقو قوماً من المسلمين لليتين بقيتا من محرم، فقالوا: إن أصحاب مُجَّد لا يقاتلون في هذا الشهر، فحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم!، ٣ - أن العقاب وإيصال المكروه إلى الناس مبغوض ومكروه في نظام الحياة العامة، غير أن الله سبحانه يحو ما فيه من البغض والكرهية ويستتر على أثره السيء، إذا كان عقاباً من مظلوم لظالمه الباغي عليه بمثل ما بُغِيَ عليه، فيجيز له ذلك، في غر الحكم (إِخْلَطَ التَّبَدُّةَ بِرَفِقٍ، وَارْفَقَ مَا كَانَ أَرْفِقُ أَوْفَقَ) عن الإمام علي (ع) (إِذَا كَانَ الرَّفْقُ حَرْقًا كَانَ الْحَرْقُ (الْعِلْظَةُ) رِفْقًا، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً) شرح نهج البلاغة ٩٧/١٦ بمعنى: إذا كان الرفق حرقاً للعادة، فلا يحقق أغراضه، ويعتبره المعتدي ضعفاً عندئذ يكون الحرق (القوة) والشدة والغلظة محل الرفق كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة/٧٣ .

٦١ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

قرر الله سبحانه نصره للمؤمنين وأكده في هذه الآية، يُوَلِّجُ : يدخل (ذَلِكَ) النصر التكويني والتشريعي المؤكد للمجني عليه، ذلك بأن الله قادر على تحريك سنة الولوج والتداخل بمعنى: (سنة التداخل العام) أن يدخل بعض الأمور ببعض، وجار على سنته الثابتة في المداولة المستمرة بين المتداخلات، كما يُدخل الصحة في المرض، ويدخل القوة في الضعف، والعزة في الذلة، والحياة في الموت، والروح بالجسد، والأمل في العمل، والخير في الشر، والأقوال في الأفعال، والعبادات في المعاملات، والعسر في اليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الانشراح / ٥-٦ . فكما (يُوَلِّجُ) يدخل الأشياء المتضادة بعضها ببعض كذلك (يُوَلِّجُ) يُدخل ساعات الليل في ساعات النهار فيقصر النهار في مدخل الشتاء، ويدخل ساعات النهار في ساعات الليل فيقصر الليل عند مطلع الصيف، وينشأ من ذلك التداخل المنظم وولوج الأشياء المتعارضة ببعضها الفصول الأربعة للسنة بخصائصها المفيدة وآثارها المباركة، (أو) يكون التداخل المنظم بين ظلام الليل بالتدرج في ضياء النهار عند المغيب، ويدخل ضياء النهار بالتدرج المنظم في ظلام الليل عند الشروق بحركة منظمّة ومدبّرة ومقدّرة بشكل عجيب تعادل بسببه حرارة الأرض، وبهذه القدرة التي تفعل ذلك انتصر مُجَّد والذين آمنوا معه على الذين بغوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وأذوهم أشدّ

الأذى (وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (سَمِيعٌ) لأقوال عباده (بَصِيرٌ) بأحوالهم لا يغيب عنه شيء من أحوال المعتدي والمعتدى عليه، ويطبق عليهما سننه الثابتة في نصرة المظلوم على الباغي.

فائدة:

ربط القرآن بين الآية ٦٠ والآية ٦١، ربط بين السنن الإنسانية الدقيقة والسنن الكونية العميقة، لوجود علاقة منظمة وطيدة بينهما، فربط بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي، وبين ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، وولوج الأشياء بعضها ببعض، فينتشر الهدى من حيث انتشر الضلال، في دقة عجيبة منمّمة، لا خلل فيها، وفي نظام حركي عجيب لا يتخلف، يمرّ عليها الناس الغافلين كما يمرون على دلائل القدرة الإلهية في الآفاق وفي

الأنفس وهم لا يشعرون!، كقوله ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف/٢٠٥

٦٢ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

(ذَلِكَ) النصر بالحق وتلك سنة التداخل بين الأشياء تتحقق بالحق، كما في الآية ٦١ (بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) الحق: هو الشيء الثابت الذي لا يتغيّر أبداً، لأنه كامل بذاته مكمل لغيره، وكل ما سوى الله عزوجل يتغيّر (دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ) وكل ما يتحقق في هذا الوجود من حق فهو بمشيئته سبحانه، وبالحق يتحقق كل حق، والحياة قامت على الحق، فهو سبحانه قادر على أن يتصرّف في تكوين الأشياء بالحق، وأن يحكم لها أو عليها بما شاء بالحق، فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون، والحق هو الثابت في نفسه المثبت لغيره، والواجب بذاته لذاته ولا يزول، والحق هو الذي لا يجري عليه التغيير والتطوير ولا يتبدّل ولا يتحوّل كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ لأنه قمة القمم، ونعمة النعم، وذمة الذمم، والحياة قامت على الحق: كقوله (أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) الزخرف/٧٨. عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا تَرَكَ الْحَقُّ عَزِيزًا إِلَّا ذَلًّا، وَلَا أَخَذَ بِهِ دَلِيلًا إِلَّا عَزًّا) البحار ٧٢/٢٣٢.

عن النبي (ص) (ما أنفق مؤمن نفقة هي أحبّ إلى الله عز وجل من قول الحق في الرضا والغضب) البحار ٧١/٣٥٨، في غرر الحكم (الْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، وَالْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ)، وكل مادون الله باطل ويختل ويتغيّر ويتخلف ولا يستقيم، وإن كان وصف الله تعالى بالإله الخالق المالك والقادر هو وصف بالحق والواقع، حق لا يشوبه باطل، وأنه لاحق غيره إلا ما حققه الله الحق، وارتبط بهذا الحق عن الإمام الجواد (ع) (الثَّقَّةُ بِاللَّهِ تَمُنُّ لِكُلِّ غَالٍ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ عَالٍ) البحار ٧٨ / ٣٦٤ (وَأَنَّ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) وكل ما يركن إليه جاهل ظالم باغ طاغ من دون الله هو الباطل، الذي يبطل ويزول ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/٨١ لأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فلا يقدر على شيء إلا بإذن الله الحق (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الْعَلِيُّ) الذي يعلو ولا يعلوه شيء وكل

خلقه دونه (الْكَبِيرُ) في أسمائه وصفاته، ذو العظمة والكبرياء فلا شيء أعلى منه ولا أكبر وكل خلقه صغير، فالله سبحانه في ذاته أعلى ممن سواه، وفي سلطانه أكبر مما عداه، فَعَلَّوْهُ تَعَالَى يعلو ولا يُعلَى عليه، وكل من ادعى الكبر له الهوان والمذلة، لأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله الحق، كقوله (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعراف/١٨٨، **فائدة: ١-** لم يقل (الله حق) وإنما قال (الله هُوَ الْحَقُّ) الله هو أصل الحق ومنبعه وحقيقته، ومنه يصدر كل حق، وكل من أعرض عنه سبحانه فقد أعرض عن الحق واتجه إلى الباطل بمقدار إعراضه عن الحق!، **والحق:** هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها في هذا الوجود، على أنه أكبر من ظاهره المشهود (الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) والحق واضح بذاته موضح لغيره، فهو واضح لأنه لا يلتبس به الباطل، عن الإمام الباقر(ع) (أَصْبَرَ نَفْسَكَ عَلَى الْحَقِّ فَإِنَّهُ مَنْ مَنَعَ شَيْئًا فِي حَقِّ أَعْطَى فِي الْبَاطِلِ مَثَلِيهِ!) تحف العقول ص ٢١٦، **والحق:** لا يُجْزَأُ ولا يتعدد، والحق وحدة واحدة موحدة متحدة كقوله (فَمَادَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الصَّلَالُ فَأَلَى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢. ومن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيّق، (وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ!) عن الإمام علي(ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) تفسير النور / ١٥٥، ٢ - والآية تعليل كافٍ لانتصار الحق وهزيمة الباطل، والله أعلى من الطغاة وأكبر من الجبارين، وأن للحق دولة مستقلة وللباطل جولة ومهلة وإن طالت في منظور الإنسان المحدود، ولكنها قصيرة في منظور عالم الخلود والزمن اللامحدود كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِي

الصَّاحُونَ﴾ الأنبياء / ١٠٥

٦٣ - ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

استفهام تقريرى (أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم أيها السامع أن الذي يُعَلِّمُكَ اللهُ به أوثق مما تهديك إليه عينيك! أن الله بقدرته أنزل من السحاب ماء عذباً كثير الخير والبركة، الماء هو الحياة ويهب الحياة، ولا قيمة للوجود من دون الماء أي من دون الحياة! كقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الأنبياء/٣٠ (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً) فأصبحت الأرض منتعشة بأنواع النباتات بعد أن كانت يابسة ضمن سنن إلهية كونية (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) لطيف: بأرزاق عباده، اللطف: هو دقة تناول للأشياء، ويدخل في الأشياء برحمة ورفق. (خَبِيرٌ) بأحوالهم. **فائدة: ١-** والغرض من الآية بيان قدرة الله على البعث والنشور، وإعادة الحياة للبشر بعد موتهم لعلاقة السنن الكونية بالسنن الإنسانية، والله تعالى هو الذي نَظَّمَهَا وَقَدَّرَهَا حين أبدع هذا الوجود.

٦٤ - ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

جميع ما في الكون ملكه تعالى خلقاً وتنظيماً وتديباً وتقديراً، والكل محتاج إلى تديبِهِ وِاتِقَانِهِ، جاء في الدعاء (يَا مَنْ يُسْتَعْنَى بِهِ وَلَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ) (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) وَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنْ

كل الأشياء ومغني لغيره، وكل الأشياء محتاجة إليه، وغناه تعالى ذاتي واسع الغنى لا نسبي، وأنه لو احتاج إلى شيء لم يكن إلهاً، وهو (الْحَمِيدُ) المحمود في كل أوان، والمشكور في كل لسان، والمعبود في كل زمان، والموجود في كل أوان، والمعظم في كل جَنَان (قلب) للدلالة على الحمد والثناء العام لجميع أفعاله، والنفع يعود إلى الخلق جميعاً (يَا مَنْ لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهِ سِوَاهُ).

٦٥ - ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ سَحْرَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

مثال آخر على عموم قدرة الله وكمال تديبه وجمال تقديره عزوجل، أي (أَلَمْ تَرَ) أيها العاقل في كل مكان وزمان (والخطاب لكل ذي نظر وعقل) أن الله سَخَّرَ لعباده كلهم جميع ما يحتاجون إليه، لحفظ الحياة واستمرارها، من النباتات والحيوانات والأشجار والثمار والأثمار والمعادن. . إلخ (وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) وسخر (الْفَلَكَ) السفن العظيمة لتطفوا فوق سطح البحر (والمنقلة بالأحمال والرجال لمصالحكم) بقدرة الله وإرادته وتيسيره وتسخييره (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ويمنع السماء من وقوعها على الأرض وخروجها عن مسارها إلا بإرادته، كما يمسك الطير بجناحيه، ولا تصطدم حركة الأرض ببقية دوران الكواكب الكثيرة والكبيرة، إذ جعل لكل منها مداراً خاصاً بها لا يسبق أحدهم الآخر كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ فاطر/٤١ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء/٣٣ والإنسان غافل عن يد الله ونعمته التي يتقلب فيها بالليل والنهار (فَلَا تَعْقُلُ فَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ) في غرر الحكم (إِحذروا الْعُقَلَةَ فَإِنهَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ!) (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ) وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا الله على نعمائه، وليتسنى لهم البحث العلمي والاستدلال بالآيات والبيّنات بالمخلوقات على وجود الله، وعلى حقيقة القيامة واليوم الآخر، عن الإمام علي (ع) (الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته) شرح النهج ٧/١٨١، في غرر الحكم (عجبت لغفلة ذوي الألباب عن حُسن الارتداد، والاستعداد للمعاد) الارتداد: من الريادة الناجحة والسيادة الصالحة، والقيادة الكفوءة.

٦٦ - ﴿هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾

وهو الله تعالى الذي أنعم عليكم بأنواع النعم الظاهرة والباطنة (أَحْيَاكُمْ) وجعلكم أجساماً حيّة بعد أن كنتم تراباً لا قيمة له كقوله (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا) الإنسان/١ (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) حين انقضاء آجالكم، (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) يمنحكم حياة جديدة بالبعث والنشور إلى عالم آخر يتم فيه الحساب والجزاء، ويكون الجزاء من نفس عملكم، ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وذلك الجزاء من أعظم نعم الله على

الإنسان، (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) لوجود، إِنَّ طبيعة الإنسان الفاقد للدين هو الفاقد للإحساس لكثرة النعم التي تستحق شكر المنعم، وكلما يفقد الإحساس بالشكر يبالغ في الكفر والجحود لنعم الله ومنعمها، وهكذا الإنسان الذي يفقد نعمة الدين فإنه يفقد الرؤية الصحيحة للحياة، باعتبار الدين هو الحياة ويعطي فلسفتها، ويفقد التوازن في القول والعمل ثم يحالفه الخسران في عاقبته! ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام / ١٢ كقوله ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾ عبس/١٧، يُصَوِّرُ الْقُرْآنُ حالة الإنسان الجاحد المتكبر المعاند، بصورة مجسمة مُكَبَّرَةٍ عجيبة غريبة محرّكة للمشاعر وموقظة للضمائر، صورة الذي لا يعرف قَدْرَ نفسه فيتعدّد طوره ويتمرّد على فضل مولاه، صورة حقيقية متحرّكة لهذا الجاحد ولكنها صورة مأساوية سوداء قائمة معتمة، وسوف يهلكه الله ويعذبّه بكثرة ذنوبه، فهو لا يفقه معنى الحياة، ويعمل باتجاه معاكس لحركة الحياة، فهو ضررٌ على الحياة، لذلك فلا يستحق أن يبقى حيّاً ويكون عِبرة للأحياء، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (مِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الرَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ).

في غرر الحكم (المصيبة بالدين أعظم المصائب) عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ مِنْ غَفَلٍ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، إذن: الدين ضرورة ملحة في حياة الإنسان، بواسطة ترسم لك خارطة الطريق، فائدة: ١- إذا كانت بداية الإنسان ونهايته بيد الله، كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، فعليه أن يعرف حدّه فيقف عنده، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارِ إِقَامَتِهِ، حَلَصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُهُ) في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَهُ وَمَنْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) وفيه أيضاً (رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ). ٢- الحياة الأولى معجزة وسرها اللطيف ما يزال يُحَارُّ العقل البشري في تصوّر كنه الحياة وجوهرها، فعجز العلم الحديث على خلق خلية حيّة صغيرة مجهرية واحدة، والموت ليس ضد الحياة وإنما صديق الحياة، كالليل والنهار ليس أحدهما ضد الآخر وإنما متمم أحدهما لدور الآخر! كقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/٣، في غرر الحكم (الموت أول عدل الآخرة) عن النبي (ص) (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خير ٤٢١٢٣، وعنه (ص) (يَبْعَثُ الْمَرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خير ٤٢٧٢٢.

٦٧ - ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَايِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأَذْعُ إِلَىٰ مَرْبِكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾

المنسك : الشريعة والمنهاج على عمومه، وطريقة العبادة ومطلق الاعتقادات والعبادات.
المعنى : لكل نبي من الأنبياء ولكل أمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً مستقيماً خاصاً بهم، يتناسب مع أحوالهم وزمانهم وظروفهم رحمة بعباده، فالشرائع والأخلاق والآداب تختلف في الفروع المناسبة للزمان والمكان والبيئة، أما العقائد والأصول كالتوحيد والنبوة والمعاد، فهي ثابتة واحدة في كل الأديان السماوية، كقوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَا﴾

المائدة / ٤٨ ، (هُم نَاسِكُوهُ) فاعلوه وملتزمون بذلك الشرع، وعبادة يتعبدون بها ولا يتعدّاهم إلى غيرهم (فَلَا يَنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ). لا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك لأن الله وحده يملك حق التشريع، فهو الذي يضعه وهو الذي يرفعه، فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان وقوله ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف/٩

وهو نهي يراد به النفي أي لا ينبغي منازعة النبي(ص) لأن الحق قد ظهر بحيث لا يفضل النزاع فيه، فقد بدّل الله مناسك السابقين بما هو أحسن منه في حق الأجيال اللاحقة، لتقدمهم في الرقي الفكري واستعدادهم للوصول لما هو أفضل، فلا تنشغل بجدل المجادلين بعد اليأس من إيمانهم كقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النساء / ١٢٥ ، (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ) وادع الناس كافة إلى عبادة ربك وإلى دينه القيم الحنيف، وشريعته السهلة السمحة (إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ) فإنك على طريق حضاري ومنهج تقدمي واضح مستقيم لا شبهة فيه ولا خلل ولا اعوجاج، وهو موصول إلى جنات النعيم، إذن: فلا تهتم بإعراض من أعرض ونزاع من نازع كقوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ﴾ الشورى/٥٢-٥٣ .

فائدة: ١- شريعة محمد(ص) هي (الأمر) هي الشرع كله، فإنه لا أمر ولا شرع بعد هذا، وهذا هو بلاغة (الأمر) وسره وغايته، وفاعليته في قوله (فَلَا يَنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ) ٢- (مَنْسَكًا) إن لكل أمة منهاجاً وطريقة في الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد، هذا المنهج الخاص خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات وهي سنن ثابتة دقيقة ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨ فأمة موسى منسكها التوراة إلى عيسى(ع)، وأمة عيسى منسكها الانجيل، إلى محمد(ص) وأمة محمد(ص) منسكها القرآن إلى يوم القيامة، لأن لكل زمان مايتناسب معه من شرائع، وقرآن محمد قيمة الرسالات السماوية، وكنز السماء لأهل الأرض، ودستور الإنسان في العالم ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوثر/٢٧، عن النبي (ص) (إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَيْدُهُ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ) ووصف الهدى بالاستقامة (لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ) لأن هداية الله هي الإستقامة، وهناك هداية مختلفة النسب والمقادير كقوله ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى / ٣ .

٦٨ - ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

(وَإِنْ جَادَلُوكَ) وإن خصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم اختصاراً، فلا حاجة لإضاعة الوقت والجهد معكم، وقل: (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) سراً وعلانية، ويعلم بكل مجادلتهم ومؤامراتهم الباطلة، ويعلم بما تستحقون عليها من الجزاء، وفيه تمهيد إلى إرجاعهم إلى أنفسهم ليحاسبوها بحدوء، لأن الذي لم يكن من نفسه واعظ، لا تنفعه المواعظ ولم يكن له من الله حافظ،

وهذا برهان يقطع الجدل وإنصاف مسكت للخصم المشاغب، وفيه وعيد وتهديد ولكن برفق وارتزان. **الجدل والجدال**: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبل أي أحكمت فتله، فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخصم .

٦٩ - ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) الله يقضي بالحق، ويفصل بالحق بين المؤمنين وغير المؤمنين (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ويبيِّن الحق من المبطل وفيما اختلفتم به من أمر الدين، ويجازي كلاً بما يستحق كقوله ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ (الرعد/٤١) والله الحكم العادل الذي لا يجادل فيه أحد فإنه يحكم بعلم كامل. كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، فائدة: قال (يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) ولم يقل (يحكم بيننا وبينكم) كما يفترض المعنى، وكأنه يقول اتركهم، فسوف يختلفون هم فيما بينهم، ولن يضلَّ الخلاف معك!.

٧٠ - ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

الاستفهام تقريرى، أي لقد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض، لا يخفى عليه خافية مما ظهر أو بطن (إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ) إن ذلك كله مكتوب عنده في (اللوح المحفوظ) فلا يزول، فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، كقوله ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (الروح/٢٢)، لا يغيب عنه مثقال ذرة (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) إحاطة علمه بكل الكائنات سهل عليه يسير لديه، إذ لا عسير إمام قدرة الله، لا يحتاج إلى إحصاء المعلومات بأدوات كتابة بل يتم بقوله (كُنْ فَيَكُونُ)، عن ابن عباس (وهذا تصوير كنائي تشبيهي عن إحاطة علم الله) كقوله (أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨، (قال الله للقلم قبل أن يخلق الخلق، اكتب علمي في خلقي، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة ثم ذكر الآية) كقوله ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ القمر/٥٣ وقوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يس / ١٢ والمراد به تهديد الجاحد المعاند بأن كل ما يضمّر ويقول ويفعل هو عليه مسجّل وسيؤاخذ به لا محالة.

٧١ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾

السلطان: الحجة والدليل والبرهان بمعنى: ويعبد هؤلاء المشركون (مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ) بجواز عبادته (سُلْطَانًا) حجة وبرهاناً من السماء في كتاب قطعي واضح (وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ) ويعبدون من دون الله ما ليس لهم بجواز عبادته، ولا صحتها دليل من العلم ولا حجة من العقل أو النقل، بل ظنون واحتمالات وأوهام وعادات وأعراف وتقاليد كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء / ٢١٣ وقوله ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ النجم / ٢٣ وإمّا هي عبادة جهلاء صمّاء دافعها التقليد الأعمى، والاتباع الساذج للأعراف والعادات الاجتماعية الفاسدة كقوله ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿ المائدة / ١٠٤ ، (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) ينصرهم وينقذهم من عذاب الله يوم القيامة، فائدة: (وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ) رجوع الجاهل للعالم كرجوع المريض للطبيب بديهية عقلية، وهذه دعوة لعلم الاجتهاد والتخصّص بعلوم الدين والحياة، واستنباط الأحكام المستجدة من حكم الله في كتابه وسنة نبيه الصحيحة، مع مؤهلات علمية مبنية على الكفاءة والنزاهة. من دون أن يستأكل بعلمه، ولا يتاجر بدينه، عن النبي (ص) (وَيَلْ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالذِّينِ) كثر العمال خير ٢٩٠٩١ .

٧٢ - ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتَنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ الْكَاذِبِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾

وإذا تليت على المشركين المعاندين آيات القرآن الساطعة البينات الواضحات، أي وما فيها من الحجج القاطعة الواضحة الدالة على وحدانية الله، وهذه (آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) أثقل شيء على أسماعهم وتزعج مزاجهم واستكبارهم وتأخذهم العزة بالأثم (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَأَلْبَاطِلُ عَلَيْهِ أَضِيقُ، وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهِدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ)، (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) ظهرت على وجوه الذين كفروا (الْمُنْكَرَ) الإنكار والكراهية والعبوس والنفور (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتَنَا) هم من شدة بغضهم للمؤمنين التالين للقرآن.

يكادون (يَسْطُونَ) يبطشون بهم من شدة الغيظ والكراهية بالضرب الشديد المؤذي إلى الضرر، والكلام البذيء وعرض العضلات لأنهم يتلون عليهم القرآن، إنهم بلغوا من الجهالة والضلالة البعديتين حدًّا خطيرًا لا تنفع معهم لغة الكلام، ولا يعرفون أصول الحوار العلمي، بل يلجأون إلى البطش عندما تعوزهم الحجة. ويخذلهم الدليل. وذلك شأن الطغاة دائماً يغلب طغيانهم على توازن عقولهم فلا يعرفون إلا لغة العنف الغليظ القاسي! (قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ) قُلْ لَهُمْ هَلْ أَخْبَرَكُمْ بِمَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ تَخْوِيفِكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَطْشِكُمْ بِهِمْ؟ إنه أمر بسيط بالنسبة لما ينتظركم، إنه نار جهنم وعداها الأليم (وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ) وعداها الله للمكذبين بآياته وبئس الموضع الذي يصيرون إليه، وهكذا من ضاق عليه القرآن فالشيطان عليه أضيق! إذ صعب عليكم الاستماع إلى الحق. فإن نار جهنم عليكم أشد وأوجع ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الفرقان/٦٦، (وَعَدَّهَا) الوعد: يكون بالخير، واستعملت هنا على سبيل الاستهزاء والتقليل من شأنهم كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الانشقاق/٢٤ . كقوله (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَمَّتْ فَلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الزمر/٤٥ .

٧٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

الأمثال تضرب للعبرة، لأنها موجزة وبلغية ومفيدة ولها دلالات بعيدة، الخطاب لكل الناس والمثل العام فيه دليل حسّي واقعي مجسّم مثير، على نفي صفة الإلوهية عن كل ما يُعبد (مَنْ دُونِ اللَّهِ)

سواء أكان صنماً مادياً أو صنماً معنوياً أو فكراً، (فَاسْتَمِعُوا لَهُ) انصتوا واصغوا، أي سماع دراية ووعاية ورعاية وانتباه، فتدبروا وتفهموا واعقلوا ما يقال لكم، عن الإمام الهادي (ع) (على قدر العقل تكون العبادة) تحف العقول ص ٣٥٨ (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) كل من تدعون (مِنْ دُونِ اللَّهِ) على سعة معناها، من آلهة مدعاة ومن أشخاص وقيم وأفكار صنمية، وأوضاع تستنصرون بها من دون الله وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهَوَّ صَنَمُكَ!) كلهم (لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ!) ولو تعاونوا جميعاً على خلق هذا الذباب الصغير أو ذبابة واحدة تافهة لتراجعوا خاسئين، وفي كل زمان ومكان، والذباب أضعف ما يستضعفه الناس من المخلوقات، فكيف يليق بالإنسان العاقل جعل آلهة تُعبد وتُطاع من دون الله؟! ولا يمكن لهم خلق خلية حية واحدة مجهرية كقوله ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الأعراف/١٩١، وخلق الذبابة الواحدة مستحيل كخلق البعير والفيل، فاختر الأسلوب القرآني البلاغي الذباب الصغير الحقيق، لأن العجز عن خلقه يلقي في الحسّ ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز من خلق البعير والفيل.

كقوله ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ النحل/١٧

وقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١ (وَإِنْ يَسْأَلِبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، ولا يستطيع أحد أن يعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومها لأنها تتحلل بسرعة، سواء أكانت الآلهة أصناماً حجرية أو أشخاصاً بشرية، وكم من عزيز يسلبه الذباب عِزَّهُ من الناس فلا يملكون رده، وخصّ الذباب بالذكر لمهانتة وكثرتة وقذارته وحقارته وصلافته، ويحمل أخطر الأمراض ويسلب أعلى الجوارح، ولو قال (وَإِنْ يَسْأَلِبُهُمُ السَّبَاعُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، والسباع لا تسلب شيئاً أعظم وأكثر مما يسلبه الذباب! ولكنه الأسلوب القرآني البلاغي الفني العجيب المحرّك للمشاعر والمثير للانتباه بمعناه (ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) أي عجز (الطَّالِبِ) وهو الآلهة المعبودة من دون الله، أن تستنقذ وتسترجع من (الْمَطْلُوبِ) وهو الذباب ماسلبها إياه.

وقيل: وإن نزلت الآية بخصوص السبب ولكن أريد لها عموم المعنى، أي ضعف القاصد والمقصود أي ضعف (القاصد) الإنسان من قهر الذباب والخلاص منه، وضعف (المقصود) الذباب من قهر الإنسان وازعاجه، أي تبادل الضعف والعجز بين القاصد الطالب وبين المقصود المطلوب، وهذا معنى خلق الله الذباب لينذل به الجبابرة! أي كيف تعبدون الجبابرة التي تذلم ذبابة صغيرة تافهة؟!، وآفة راحة الإنسان الذباب، وهي التي تكسر كبريائه وطغيانه فائدة: ١- فَمَنْ يَسْتَطِيعُ

أن يخلق ذبابة على تفاهتها؟، وإذا سلبتك الذبابة الحقيمة حياتك بمرض فتاك تنقله إليك، فمن يستطيع أن يرد لك حياتك؟، كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١، وقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) النحل/١٧، ٢- عن النبي (ص) قال الله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة!) التفسير المراغي ١٧/١٤٥.

٣- كيف تعبدون من دون الله وتشركون معي ما لا قدرة له على خلق ذبابة تافهة؟ وإن أخذ منه الذباب شيئاً لم يقدر أن ينتصر لنفسه منه، بينما الخالق المالك لكل الكائنات، المحيي والمميت لكل شيء هو الذي يهب النعم وهو الذي يستردّها، وهو الذي يستحق العبادة فاعبدوه ولا تشركوا في عبادته أحداً كقوله ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَسْتَبِيعُونَ هُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الأعراف / ١٩١ - ١٩٢ ما الدافع لجعل مخلوقٍ ضعيف تهزمه الذبابة وتذله البعوضة حاكماً عليكم، حلالاً لمشاكلكم؟!، ٤- سأل هارون الرشيد الإمام الكاظم (ع) لماذا خلق الله الذباب؟! قال ليذلل به الجبابرة! (كمصداق) كقوله ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ النحل / ٦٦. في غرر الحكم (الاعتبار يُفيد العِصمة).

٧٤ - ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى عَنِ عِرْسِهِ﴾

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) حَقَّ تَقْدِيرِهِ، وما عرفوه حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وما عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وما أنزلوه حَقَّ مَنزِلَتِهِ، وما عبده حَقَّ عِبَادَتِهِ التي يستحقها، حيث عصوا أوامره وأعرضوا عن منهجه، حتى تركوا عبادته وعبدوا وأطاعوا من يعجز عن خلق الذبابة الواحدة، ويعجز عن مقاومتها وعنادها والانتصار عليها! (ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) الحج/٧٣، وبعد فهل من عجبٍ إذا ترك الناس أهل العلم والهداية والبصائر واتبعوا أعور الدجال؟! إن أردت أن تُقدّر الله تعالى حَقَّ قدره، فإنك تُقدّره على مستوى عقلك كقوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور/٣٥، وقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣، في دعاء النبي (ص) (سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) وفي الدعاء (بِكَ عَرَفْتُكَ، وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْتَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَكَّلَنِي إِلَيْهِ فَأَكْرَمَنِي وَلَمْ يَكِلْنِي إِلَى النَّاسِ فَيُهَيِّئُونِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَحَبَّبَ إِلَيَّ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِّي) من دعاء أبي حمزة الثمالي/في شهر رمضان المبارك (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) إِنَّ اللَّهَ (لَقَوِيٌّ) وقوته فوق كل قوة لا يعرض له ضعف (عَزِيزٌ) لا تعتربه ذلة وعزته فوق كل عزة، ولا عزة لعزیز مع عزته، قادر لا يعجزه شيء، غالب غير مغلوب، فكيف يجعلون القوي العزيز الغالب بمنزلة العاجز الضعيف المغلوب؟! كقوله ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ النساء /

١٣٩، عن الإمام علي (ع) (كُلُّ عَزِيزٍ دَاخِلٌ تَحْتَ الْمُدْرَةِ فَدَلِيلٌ!) تحف العقول ص ١٥٣.

٧٥ - ﴿اللَّهُ يَضْطَرِّي مِنَ الْمَلَائِكَةِ سُؤلاً وَمِنِ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

يَصْطَفِي : الله يختار نخبة من كثير، فيأخذ الصفوة النزيهة والكفوءة والمؤهلة والخلاصة المهمة، الله عزوجل يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الرسالة إلى أنبيائه، كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، ويختار رسلاً من البشر أمناء علماء عاملين مؤهلين للوحي، لتبليغ شرائع الدين لعباده التي فيها سعادتهم في أنفسهم ودنياهم وآخرتهم، ليكونوا أسوة حسنة للناس كقوله ﴿أُوَلِّيكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ الأنعام/٩٠، ويصطفى رمضان من الزمان، والكعبة من المكان (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) إنه تعالى (سَمِيعٌ) لأقوال عباده (بَصِيرٌ) بهم، فيعلم من هو مؤهل ليبلغ هذه الرسالة بأمانة للناس ليلقي الحجة عليهم.

٧٦ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

هذا إعلام عام بأن الله لا تخفى عليه خافية، ويعلم حاضر ومستقبل وأحوال كل شيء ويعلم ماضيها كقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ق/١٦ المعنى: وقيل هذه الإحاطة العلمية راجعة إلى من يصطفاهم الله، يعلم سبحانه (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) ما بين أيدي الرسل وحاضرهم ومستقبلهم من الأحداث (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الأحداث وتاريخهم الماضي، (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي الله تعالى مراقب للطريق الذي يسلكه الوحي، فيما بينه وبين الرسل وفيما بينه وبين الناس، وفيه دلالة على عصمة الرسل وقدرتهم على التبليغ الرسالي، وأنهم أهل لكرامته سبحانه وتبليغ رسالته كقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

الأنعام / ١٤٢

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) إلى الله وحده تُرد جميع أمور العباد فيجازيهم عليها إن خيراً وإن شراً، فهو الحكم الأخير وله السيطرة والتدبير والتقدير، وكل شيء مملوك لذاته تعالى فلا استقلال لأي شيء ولا خفاء له من الله تعالى. كقوله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾ هود/١٢٣.

٧٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

في هذه الآية الكريمة والتي بعدها يجمع القرآن المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة في خطه العام، متى استقامت على النهج المستقيم، الخطاب لكل المؤمنين في كل زمان ومكان، أي فليس الإيمان بالله مجرد كلمة ينطق بها اللسان، وإنما الإيمان قول وعمل، عن الإمام الصادق (ع) (الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل) البحار ٦٩ ص ٢٣، فلا قيمة لإيمانكم الذي يبني على المظاهر والأقوال والمدعيات، وإنما بحاجة هذا الإيمان إلى مصاديق عملية واضحة تدل على صدقه، في غرر الحكم (يُسْتَدَلُّ عَلَى دَيْنِ الرَّجُلِ بِحُسْنِ تَقْوَاهُ وَصِدْقِ وَرَعِهِ) فلا بد أن تتوفر فيكم (مع ظاهر الإيمان) ثلاثة أوصاف مهمة (١) أن يقيموا الصلاة لله وحده خاشعين وإليها أشار (ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) وإنما عبّر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما من أركان الصلاة وأبرز وأشرف حركاتها، فالركوع

والسجود ليسا مجرد حركتين بلا عبرة وأما هما شكل يدل على المضمون، الذي فيه خضوع القلب وخشوع النفس، فيظل المصلي بين يدي الله خاشعاً ليصل إلى حبه وقربه وجذبه سبحانه. في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِهْيَ أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ) الصفة (٢) أن تطيعوا الله في أمره ونهيهِ وهذا هو المراد (وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره، وهنا أطلق معنى العبادة لسعة معناها، فكل نشاطات الإنسان يمكن أن تتحول إلى عبادات متى تعلق القلب بالله تعالى، حتى لذائذه بلفتة صغيرة وبنية صادقة تصبح عبادات، وينال بها الحسنات إذا نوى بها أن يتقوى على طاعته تعالى، حيث لا عبادة من غير طاعة، والعبادة على قدر العلم.

والصفة (٣) (وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ) على عموم معناه ولكل الناس، وهو ما ينفع البشر ويرضي الله، ومن أفضل الخير تزكية النفس، وإغاثة الملهوف وإصلاح ذات البين وصلة الرحم ومكارم الأخلاق، والتعاون على الصالح العام لعمل نهضة حضارية متقدمة، ولا يكن غيركم أحق بالخير منكم، فإن الخير ذخيرة باقية وثمرة زاكية، لأن من فعل الخير ابتعد عن الشر، في غرر الحكم (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ آذَى النَّاسَ) (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) لَعَلَّ: أداة للترجي، ففي هذه الأعمال الصالحة أسباب النجاح والصلاح والفلاح، والنجاة من كل سوء للفرد والمجتمع، وفي الدنيا والآخرة. كقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾
 الرد/٢٩ فائدة: سؤال: لماذا يعرض الناس عن دين الله وطلب الله سهل يسير، ونتائجه نافعة في الدنيا والآخرة؟ الجواب: كقوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار ١٠٥/٢.

٧٨ - ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

الجهاد في الله: استنفاذ الوسع واستنفاذ الطاقة بمجهود وجد وقصد ووعي في مجاهدة العدو الخارجي الظاهر، وإخلاص النية لتكون كلمة الحق ونصرة الحقوق هي العليا، ومجاهدة وساوس الشيطان، ومجاهدة النفس والهوى (وهو العدو الباطن الخفي) ومجاهدة النفس أعظمها وهو الجهاد الأكبر!! في الله: في سبيله، وفي نصرة دينه والدفاع عن البلاد والعباد، والتعبير القرآني البلاغي الحركي جامع وشامل ودقيق وعميق، المعنى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله (حَقَّ جِهَادِهِ) حق الجهاد بنية صادقة خالصة لله تعالى.

باستفراغ الوسع والطاقة جهاداً خالصاً لنصرة العلم والإيمان والقيم والمبادئ والأخلاق ولا تخشون في الله لومة لائم، وأيضاً جاهدوا (في الله) في سبيل الله بمخالفة الأهواء وتركية النفس وتهذيب العادات، فإن أفضل العبادة تهذيب العادة السيئة كقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت / ٦٩، كقوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ آل عمران / ١٠٢، في الحديث (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) روح البيان ٦ / ٦٤، (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) هو سبحانه اختاركم من بين الأمم وحملكم أمانة دينه القيم وخصكم بأكرم رسول وأفضل كتاب سماوي وأكمل شريعة (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) حرج : ضيق، أي وما جعل عليكم في الدين الذي آمنتم به ضيقاً لا مخرج لكم منه، وما شرع لكم حكماً فيه عسر ومشقة على أحد من عباده، لأنه يلاحظ فيه فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها وملحوظ فيه تلبيته لتلك الفطرة، وأن الحكم الواحد يختلف تبعاً لطاقة

الفرد وظروفه، في الحديث (إِذَا اجْتَمَعَ أَمْرَانِ فَأَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَيْسَرُهُمَا) التفسير المبين ص ٤٤٤ . كقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة/١٨٥ وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن/١٦ ولم يكلفكم ما لا تطيقونه كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة/٢٨٦ (مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) الملة : الدين، إبراهيم أبو الأنبياء، والأب الروحي لأهل الأديان لا تفاهم على نبوته وتعظيمه، ودين إبراهيم (الحنيف) دين التوحيد الخالص، السهل السمح المرن المستقيم الذي لا يوجد فيه انحراف ولا تقلب ولا هوى ولا شرك ولا حرج، إنه دين الفطرة السليمة ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم/٣٠، (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (هُوَ) الله عزوجل وإبراهيم أيضاً الذي سماكم المسلمين (من قبل) نزول القرآن يعني في الكتب السماوية السابقة المعروفة، كما قال نوح(ع) قبل إبراهيم وهو شيخ الأنبياء ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس/٧٢ . (وَفِي هَذَا) القرآن سماكم مسلمين أيضاً، بمعنى إن الله سبحانه سمى الأمة البشرية الموحدة كلها بكافة أطرافها ورسلاها ورسالاتها بالمسلمين، حتى عهد إليها بالوصاية والشهادة على البشرية!

كقوله:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ البقرة/١٢٨ والإسلام : إسلام الوجه وتسليم القلب لله وحده بلا شريك والالتزام بمنهجه، فكانت جميع أجيال الأنبياء هي الأمة المسلمة الواحدة ذات منهج واحد على التوحيد والاستقامة، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ، الدِّكْرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ) وهذا المنهج التوحيدي هو المعتمد على تتابع الأجيال والرسول والرسالات، حتى انتهى أمر الإسلام الخاتم إلى أمة محمد(ص) وعهد إليها بالوصاية على البشرية، فاتصل ماضي البشرية بحاضرها بمستقبلها، بمنهج توحيدى مشترك.

إِذَا هُنَاكَ الْإِسْلَامُ الْعَامُ لِكُلِّ الرَّسْلِ وَالرَّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، هُوَ إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِمَنْهَجِ اللَّهِ التَّوْحِيدِيِّ
 ضَمَّنَ خَطَّ الْإِسْلَامِ الْعَامِ، وَهُنَاكَ الْإِسْلَامُ الْخَاصُّ هُوَ إِسْلَامُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى (ص) الْإِسْلَامُ الْكَامِلُ
 الْخَاتَمُ الْمَفْصَلُ فِيهِ ﴿تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُوْسُفُ/١١١ وَقَوْلُهُ ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النَّحْلُ/٨٩ وَفِي
 الْإِسْلَامِ الْعَامِ قَوْلُ سَلِيمَانَ ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ النَّحْلُ/٣١ وَهَذَا قَوْلُ يُوْسُفَ (ع) ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
 وَأَلْحَفْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يُوْسُفُ/١٠١ وَقَوْلُ مُوسَى (ع) لِقَوْمِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
 مُسْلِمِينَ﴾ يُونُسُ/٨٤ .

وَهَكَذَا الْإِسْلَامُ دِينُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آلِ عِمْرَانَ/١٩ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ
 غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ آلِ عِمْرَانَ/٨٥ ﴿وَرَضِيتُ لِكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ الْمَائِدَةُ/٣، وَسَمَّى اللَّهُ
 أُمَّةَ مُحَمَّدٍ (ص) بِالْمُسْلِمِينَ، (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (شَهِيدًا
 عَلَيْكُمْ) الشَّهِيدُ هُوَ الشَّاهِدُ وَالْحَاضِرُ وَالْمَطَّلَعُ عَلَى أَمْرٍ وَحَدَّثٍ وَمَوْقِفٍ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ مَا شَهِدَهُ
 بِنَفْسِهِ بِكَامِلِ الصِّدْقِ وَتَسْمَى (الشَّهَادَةُ الْعِلْمِيَّةُ)

إِنَّمَا جَعَلَكُمْ مُسْلِمِينَ مَلْتَمِزِينَ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى تَكُونُوا (أُمَّةً وَسَطًا) مُعْتَدِلِينَ
 مُسْتَقِيمِينَ نُمُودَجِيئِينَ مُتَوَازِنِينَ وَقُدُوةً حَسَنَةً مِنْ بَيْنِ الْأُمَّمِ الْمُنْتَرِفَةِ وَالْمُنْحَرِفَةِ كَقَوْلِهِ ﴿وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الْبَقَرَةُ/١٤٣،
 لِيَكُونَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ (ص) قُدُوةً حَسَنَةً لَكُمْ وَشَهِيدًا عَلَى أَعْمَالِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَكُمْ مَا
 أَرْسَلَ بِهِ إِلَيْكُمْ (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وَتَكُونُوا أَنْتُمْ قُدُوةً لِلنَّاسِ وَشُهَدَاءَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ!
 وَهَذَا مِنْ أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ أَمَانَةٌ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا أَوْلُو الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْعِزْمِ وَالْحِزْمِ مِنَ النَّاسِ، بِأَنَّ
 الرَّسُلَ كَافَّةً قَدْ بَلَغُوهُمْ مَا أَرْسَلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
 اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النَّسَاءُ/١٦٥، فَبَلَغَ مُحَمَّدٌ (ص) رِسَالَاتِ رَبِّهِ وَبَلَغَهَا مِنْ بَعْدِهِ أَهْلُ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ
 الصَّادِقِينَ، وَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّةَ التَّبْلِيغِ الرَّسَالِيِّ مِنْ بَعْدِهِمْ (أَهْلُ الذِّكْرِ، الْعُلَمَاءُ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ) كَقَوْلِهِ
 ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النَّحْلُ/٤٣ وَقَوْلُهُ ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
 يَعْدِلُونَ﴾ الْأَعْرَافُ/١٨١ .

فَمَنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ التَّبْلِيغِ، وَمَنْهُمْ مَنْ تَجَاهَلَ وَتَحَاذَلَ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَالْعِلْمَ وَخَانَ نَفْسَهُ وَأُمَّتَهُ وَدِينَهُ
 وَالنَّاسَ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ
 مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ) فَاطِرُ/٣٢، وَقَوْلُهُ ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
 أَمَانَاتِكُمْ﴾ الْأَنْفَالُ/٢٧، وَقَوْلُهُ (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
 لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) الْبَقَرَةُ/١٥٩، فِي نَجْحِ الْبِلَاغَةِ (إِنَّ أَعْظَمَ
 الْحَيَانَةَ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغَيْشِ غَيْشُ الْأُمَّةِ) كِتَابُ ٢٦ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَصِيَّةً وَقَوَامَةً وَقُدُوةً
 حَسَنَةً لِلبَشَرِيَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا طَالَمَا اسْتَمْسَكَتْ بِإِسْلَامِهَا الْحَنِيفِ، حَتَّى إِذَا انْحَرَفَتْ عَنْهُ وَتَحَلَّتْ عَنْ

تكليفه، ردّها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة، وتبقى هكذا حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها الله له.

سئل الإمام الصادق (ع) عن أَدْنَى مَا يُخْرِجُ بِهِ الرَّجُلُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ (أَنْ يَرَى الرَّأْيَ بِخِلَافِ الْحَقِّ فَيُؤَيِّدَهُ عَلَيْهِ) ثم تلا قوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) المائدة/٥ (والذي يكفر بالإيمان الذي لا يعمل بما أمر الله به ولا يرضى به) وسائل الشيعة ٢٧ ص ٦٠، وهذا الأمر لإعادة مؤهلات الأمة يقتضي الاستعداد له فيأمرها بإقامة الصلاة (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ) فأقيموا الصلاة بشكلها ومضمونها، وبشرطها وشروطها خاشعين، حتى تتحقق حكمتها وأثرها في الشعور والسلوك ومكارم الأخلاق كقوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت/٤٥، لأن الصلاة عمود الدين وقربان المؤمنين ولذّة الصالحين .

عن الإمام علي(ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ دَقِيقٌ) فَمَنْ وَفَّى، اسْتَوْفَى) البحار ٨٤ / ٢٦٤ (وَآتُوا الزَّكَاةَ) لمستحقيها، والزكاة تطهير لنفوسكم، وصلة الأمة الإسلامية بعضها ببعض ليكفل بعضهم بعضاً (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ) والاعتصام بالله الاستعانة به في جميع أموركم، والتمسك بمنهج الله والالتزام به والاستقامة عليه في جميع الأحوال والأشكال مع الصبر وتحمل المعاناة، وخاصة في مواجهة أعدائكم كقوله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران / ١٠١ في غرر الحكم (أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) ثم علل الاعتصام به بقوله (هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى) مَوْلَاكُمْ: ناصركم ومتولي أموركم ولا تنقطعوا عنه في أية حال، إنّ من تولا وتوكل عليه سبحانه كفاه كل ما أهّمه (وَنِعْمَ النَّصِيرُ) وإذا نصر أحداً أعلاه على كل من خاصمه، وينصر دينه وأهله بالحق، فلا ناصر سواه ولا ولي غيره. بهذه العُدّة المباركة تملك الأمة المسلمة (المؤمنة) أن تنهض بتكاليف الوصاية والشهادة على البشرية التي اختارها الله.

فائدة:

١- الرسول الشاهد (ص) هو الرسول الأسوة الحسنة، والأمة الشاهدة ينبغي أن تكون الأمة القدوة الحسنة، وهذه صفات نموذجية سامية، وهذا شرف عظيم!، ٢ - عن النبي(ص) (لَا تُقْبَلُ الصَّلَاةُ إِلَّا بِالزَّكَاةِ) مجمع البيان ٧ / ١٨٥، ٣ - أي مسلم لا يرى بعمله وعلمه وقدره في الناس أنه لا يصلح في مكان القدوة والأسوة والقيادة، فعليه أن يعرف حَدَّهُ فَيَقِفَ عِنْدَهُ، ويضع نفسه في مكانها المناسب، ولا يعطيها مكاناً لا يتناسب معها في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَمَ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) فهو ليس من المؤهلين للشهادة على الناس يوم القيامة! كقوله (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) الإسراء/ ٨٠، عن النبي(ص) (لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ) الترغيب والترهيب ٣ / ٥٢٧، إنّ قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يخلق بها تطوراً وتقدماً مادياً ومعنوياً وأخلاقياً إلى

الكمال الإنساني المميز والنموذجي! ولا يكتفي بأن يقودها إلى اللذائذ والمتاع المادي وحده كما تُقاد الأنعام!.

وَأَخِرُ دَعْوَانَا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجمالية / ٢٠

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة الحج، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل، فله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتُدفع النقمات، بتاريخ ٢٠١٨/٢/٥م، الموافق ٢/ربيع الأول/١٤٣٩هـ مع تصحيحها عدة مرات، في بغداد، الكاظمية، داعين الله عزوجل أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إنَّ ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة :

مكية، سميت بهذا الاسم (المؤمنون) تخليداً لهم وشهادة بمآثرهم وفضائلهم المميّزة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى كقوله ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المؤمنون / ١١، تعالج أصول الدين، وعرضت لقصص بعض الأنبياء فذكرت قصة نوح وهود وموسى ومريم وعيسى، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور، وهو المحور الذي تدور عليه السورة وينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلاّ الإيمان والعمل الصالح، وعرضت السورة دلائل القدرة الإلهية على التوحيد في خلق هذا الكون المُنظَّم العجيب في عالم الإنسان والحيوان والنبات، وختمت السورة عن يوم القيامة، وسجلت محاوره بين الملك الجبار وأهل النار.. وغيرها، رقمها ٢٣، عدد آياتها ١١٨، الجزء الثامن عشر (فضلها) : عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّمَ اللَّهُ لَهُ بِالسَّعَادَةِ، إِذَا كَانَ يَدْمَنُ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَكَانَ مَنزَلُهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مَعَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ) نور الثقلين ٣ ص ٥٢٧ .

ملاحظة : هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حكم الله سبحانه بالفلاح والفوز لمن كان جامعاً لخصال سبع من خصال الخير والجمال والكمال، والترغيب في صفاتهم، ليزن الإنسان المؤمن نفسه على هذه الآيات المباركات، ليعرف ما معه وما ينبغي أن يكون ليحمل صفات التكامل الجليلة النموذجية، ولا تقتصر صفات المؤمن في حدود هذه الخصال الجميلة، وأما ذكرها ليبيّن أن المؤمنين ملتزمون بالخط، ويتابعون المنهج

بالكامل ولا يتساحون فيه، فيكون دستورهم القرآن، وحُلُقهم القرآن، ويعتمدون السنة الشريفة الصحيحة التي لا تتعارض مع القرآن.

١ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

الفلاح : النجاح والصلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب والفوز بالمرغوب بحسن العاقبة وبرضوان الله، وفلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة، والفلاح دنيوي وأخروي، الفلاح الدنيوي هو البقاء في الصحة والعافية الجسمية والعقلية والعلم والعمل الصالح والغنى والعز، مع اطمئنان القلب بحسن العاقبة.. والفلاح الأخروي بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل وسعادة بلا منغصات وصدق بلا نفاق وإيمان بلا ضلال، إنه الوعد الصادق والقرار الأكيد بنجاح المؤمنين العاملين بمنهج الله وفلاحهم وصلاحهم في الدنيا وفي الآخرة كقوله ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ آل عمران / ١٤٨ والفلاح حسٌ يتحسسه المؤمن واستذواق يستذوقه بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته، والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين، تسرُّ الناظرين من المفاجأة والمخباة، و﴿قَدْ﴾ للتأكيد والتحقيق، فكأنه يقول لقد تحقق فوزهم ونجاحهم بسبب صدق الإيمان والعمل الصالح، وعد الله لا يخلف الله وعده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء/ ٨٧، وقرار الله لا يملك أحد رده، إنه بشارة معجلة لهؤلاء المؤمنين المطمئنة قلوبهم بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/ ٢٨ فائدة : ﴿أَفْلَحَ﴾ بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الدخول في الفلاح، وكلمة ﴿قَدْ﴾ لإفادة ثبوت ما كان متوقع ثبوته من قبل .

٢ - ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

خَاشِعُونَ: خاضعون متفاعلون متذللون لله تعالى يشعرون بهيبته وجلال مقامه في جميع جوارحهم وجوانحهم خاشعون بروحهم وجسدهم، عن النبي (ص) (الْخُشُوعُ زِينَةُ الصَّلَاةِ) البحار ٧٧ / ١٣١ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه / ١٤ مقبلون على الصلاة بقلب مطمئن وعقل واعٍ ونفس راضية، وتسكن حركاته ويقل التفاته متأدياً خاضعاً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتننفي بذلك وساوس الشيطان والأفكار الدنيوية فلا يحصل عنده شرود الذهن، فيكون الخشوع على قدر الإيمان والعلم، ويكون الخشوع من إقامة الصلاة وجزء أصيل فيها، والخشوع روح الصلاة وهو المطلوب حصوله من المصلي الذي تنهى صلاته عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة التي لا خشوع فيها هي الصلاة التي لا حضور للقلب فيها، فإن الصلاة تعطي مفعولها وفوائدها بقدر ما يعقل القلب منها ويتفاعل معها عن الإمام علي(ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) البحار ٨٤ / ٢٦٤ ، في غرر الحكم (مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ

جَوَارِحُهُ) ونلاحظ أثر الصلاة العظيم في حياة المصلي الخاشع إيقاظ مشاعر الخير في نفسه والرحمة للآخرين كقوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الاسراء / ١٠٩، عن الإمام الصادق (ع) (الخشوع غصّ البصر في الصلاة) البحار ٨١ / ٢٦٤، فالخشوع يزيد وينقص فهو نسب ودرجات، في نهج البلاغة خطبة ١٩٣ (عَظَّمَ الْخَائِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَعَّرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) أما الصلاة بلا خشوع فهي حركات بلا روح ولا تأثير، والصلاة بلا خشوع يسقط التكليف ولكنها لا تحقق الغرض في تركية النفس وتهذيب طبائعها، فإذا قام المكلف إلى الصلاة فإن الله يقبل عليه بمقدار ما أقبل المصلي على الله تعالى، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح والأعضاء!.

فائدة: ١- عن النبي (ص) (مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي التَّصْفَ وَالثَّلَثَ وَالرُّبْعَ حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرُ!) البحار ٨٤ / ٢٤١، والصلاة بلا خشوع كالشجرة بلا ثمر، والصلاة قربان كل تقي وهي تنزل الرحمة، ومنهاج الأنبياء، وخير العمل، وعمود الدين ٢ - قوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت / ٤٥، عن النبي (ص) (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِغِ الصَّلَاةَ، وَطَاعَةَ الصَّلَاةِ أَنْ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) البحار ٨٢ / ١٩٨، وعنه (ص) (ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقِلَ) الرازي ٢٣ / ٧٧ .

٣ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

اللَّغْوُ: مفهوم عام يشمل كل باطل، وكل كلام فارغ لا قيمة فيه وَيُرَدُّ بلا رَوِيَّة ولا تفكّر، ولكل قول أو عمل أو تفكير ولغو الاهتمام في القضايا الصغيرة، أو اللغو لضياع الوقت أو الحديث التافه أو شتم أو كذب أو هزل فارغ . . إلخ لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، وحقه أن يُلغى ويزول، ويدخل في اللغو الغناء والملاهي والكلام الفاحش، عن الإمام علي (ع) (كُلُّ كَلَامٍ لَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَعْوٌ) نور الثقلين ٣/ ٥٢٩ : مُعْرِضُونَ : مُتَرْفِعُونَ عن كل ما لا يعينهم، وهي حالة أصيلة وليست طارئة، واللغو مباح ولكنّه لا يقرب إليه أصحاب الاهتمامات الكبيرة، وينشغلون بالقضايا الأهم وبمكارم الأخلاق، لأن فيه تفاهةً وضياعٍ وقتٍ ويصب في الباطل ويحصل منه الضرر، لأن كل شيء عمله لا ينفعك فإنه يضرك! ومعنى الإعراض عن اللغو، عدم الرضا عنه والدخول فيه والاستماع إليه.

في غرر الحكم (مَنْ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ الْمُهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْم) في غرر الحكم (مَنْ شَعَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يُحِبُّ، ضَيَّعَ مِنْ أَمْرِهِ مَا يُحِبُّ) وهنا يظهر أن وصف المؤمنين بالإعراض عن اللغو لأن لهم ما يشغلهم عنه بصالح الأعمال، للدلالة على علو همتهم وكرامة نفوسهم وسعة آفاقهم. وهذا لا ينفي أن المؤمن يروّح عن نفسه ويتمتع بنعم الحياة ويسافر ويترقّه ولكن هذا شيء آخر غير اللغو وهدر الوقت والفراغ. كقوله ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ الفرقان/ ٧٢ وقوله ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا

عَنْهُ ﴿الْقِصَصُ / ٥٥ وَقَوْلُهُ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيُنٍ﴾ العاشية / ١١ فائدة: (مَا نَفَعْلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُجَدِّدُ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَغِنَا يُجَدِّدُ مَا نَكُونُ).

٤ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكَاتِ فَاعِلُونَ﴾

الزكاة : تطهير ونماء وعطاء، وهي فريضة واجبة بل من أهم الفرائض كقوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة/١٠٣ وهي ثالث صفة من صفات فلاح المؤمنين الحقيقيين، والزكاة ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل نفقتها العامة الواجبة والمستحبة، المادية والمعنوية، السرية والعلنية، وتعطى الزكاة لمستحقيها. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الأعلى/١٤ **معنى الزكاة** : ليست مجرد ما يعطيه المسلم على تسعة أشياء هي الغلاة الأربع والأنعام الثلاث والنقدين، وإنما تشمل الزكاة بمعناها العام الشامل، في غرر الحكم (لكل شيء زكاة) مثل (زكاة الجمال العفاف، زكاة العلم التعليم، زكاة القدرة الإنصاف، زكاة المال إنفاقه، زكاة الجاه قضاء حوائج الناس، زكاة العقل احتمال الجهال..). وهكذا جاء في غرر الحكم، فهناك زكاة مالية أن يخرج الغني زكاة ماله، وهناك زكاة معنوية، عملية، حركية وهي الاستقامة الفكرية والنفسية والسلوكية، تكون جميع أفعال الإنسان في صراط الله المستقيم، والتي تطهر النفس وتزكيها وتبعدها عن الذنوب والآثام، **فاعِلُونَ** : مؤدُون. ولكن (**فاعِلُونَ**) أوسع من (معطون، مؤدُون) إذ توحى بالإنفاق المستمر والمتنوع، وأنه سلوك وطبيعة وسجية لا حالة طارئة ومؤقتة. والزكاة طهارة القلب والمال والأعمال، طهارة للقلب من الشح واستعلاء على حُبِّ الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان فهو يخوف الناس بالفقر كقوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ البقرة/٢٦٨، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء كقوله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ/٣٩، وهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، ووقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال. والزكاة تعميق للحس الإنساني من أجل أن يرتبط المؤمن عضواً بجماعة الآخرين، من موقع الواجب في إعطاء الزكاة، وليس من موقع التفضل، وهذا ينطلق من قاعدة التكافل الاجتماعي العام.

فائدة:

- ١- وردت كلمة (زكاة) في القرآن ٣٢ مرة، وكلمة (بركة) ٣٢ مرة، وكان الزكاة تساوي البركة.
- ٢- عن الإمام الصادق (ع) (لَوْ أَدَّى النَّاسُ زَكَاتَهُمْ لَمَا بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَقِيرٌ) تفسير النور ٧٤/٦،
- ٣- إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَرْكُوبُونَ لِأَنفُسِهِمْ مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي تَزَكُو النَّفُوسَ وَتَطْهَرُ بِتَرْكِهَا وَتَجْنِبُهَا، فَأَحْسِنُوا مَعَ اللَّهِ بِخُشُوعِ الصَّلَاةِ، وَأَحْسِنُوا مَعَ النَّاسِ بِإِدَاءِ الزَّكَاةِ، وَهَكَذَا تَجْتَمِعُ الْعِبَادَاتُ وَالْمَعَامَلَاتُ، وَتَشْتَرِكُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ، وَالْمَدْعِيَاتُ وَالْحَقَائِقُ .

٥ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

الفرج : عورة الرجل والمرأة وهو كناية عن الجهاز التناسلي لهما، **حفظه** : تعففه عن الحرام وعدم الابتذال، **وحفظ الفرج** : أي صيانتها وحمايتها من الإثم و الفساد، وهذا يؤدي إلى طهارة الروح وعفة النفس، وعفة البيت والمجتمع، وحفظه هو عدم الإفراط في إشباع الشهوة، والاعتدال فيها والالتزام بالمنافذ الشرعية لها، وتجنب الحالات الشاذة. **المعنى**: هذا الوصف الرابع للمؤمنين، **والفرج** : يسمى السوء، وهو مايسوء ذكره من الرجال والنساء، ويسمى أيضاً الفرج عورة لأن إظهاره بتعمد من العار! أي صانوا فروجهم عن الحرام، من الزنا واللواط وكشف العورات، ولزموا بها جانب العفة والطهارة والحلال فإن العفة أفضل عبادة وأحسن عادة، في غرر الحكم (دليل غير الرجل عفته) ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس.. إلخ **كقوله** ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَى﴾ الإسراء / ٣٢ عن النبي(ص) (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدَ كَسْرِ الْعَمَلِ خبر ١٣١١، والزنا من أكبر الكبائر، لأنه يسقط الغيرة ويحث على الفساد ويدعو إلى الانحلال والإباحية وتفكك الأسرة والمجتمع، ويتلى بالأمراض النفسية والكآبة. في نهج البلاغة حُكم ٣٠٥ (مَا زَنَى غَيُورٌ قَطًّا). والجماعة التي تهبط إلى الشهوات المحرمة التي ظاهرها يعزّ ويسرّ وباطنها يضمر، جماعة قادرة هابطة ضررها أقرب من نفعها، وشهواتها أكبر من عقلها لأن (إِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ، وَإِذَا كَبُرَتْ الشَّهْوَةُ صَعُرَ الْعَقْلُ) في غرر الحكم (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ) إن كبائر الذنوب آفة الآفات، لا أمن فيها للبيت ولا حرمة فيها للأسرة ولا حماية فيها للمجتمع.

٦ - ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرِ مُسْلِمِينَ﴾

إنهم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) أي إمائهم المملوكات بالحلال، ولا يوجد في زماننا إماء والحمد لله (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُسْلِمِينَ) فإنهم غير مؤاخذين وغير معاتبين من الزواج منهن، فلا مدح فيه ولا مذمة .

٧ - ﴿فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

تحذير من تجاوز هذه الحدود والانطلاق إلى ما وراءها، هو عدوان عليها وعلى حدود الله تعالى! ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق / ١ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩ (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) المتعدون والمتجاوزون من الحلال إلى الحرام، والعدوان الإخلال بالعدالة، فإن ذلك دخول في عالم الحيوان واعتداء على كرامة الإنسان وخلافته في الأرض وتجاوز حدود الله، وأنه يقع في المحرمات والبغاء والدعارة والفساد والاعتداء على الأعراس

التي لم يستحلها بنكاح شرعي، وهنا ترتبك أنظمة المجتمع وتختل موازينه النفسية. عن الإمام الصادق (ع) (مختصر) نعى الله تعالى في كتابه عن الاستمناء وذكر (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ . .) وهذا أحد مصاديق التجاوز، عن الإمام علي (ع) (أَبْعُدْ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ اللَّهِ إِذَا كَانَ هَمُّهُ فَرْجُهُ وَبَطْنُهُ) نور الثقلين ٣ / ٥٣٠. وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ كَانَتْ قِيَمَتُهُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُمَا!، فائدة: الآية بيان فساد كل استغلال للشهوة الجنسية في غير موردتها الصحيح، مثل استثارة الشهوة بالنظر إلى الأجنبية، والصور الخليعة والأفلام الجنسية الإباحية وقصص الغرام. . .

٨ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾

هذا هو الوصف الخامس والسادس (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ) والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة لأهلها كائناً من كان، محسناً أم مسيئاً أفراداً أم جماعات (وَعَهْدِهِمْ) وإذا عاهدوا أو كتبوا عقداً من غير معصية، أوفوا بما عاهدوا عليه، سواء أكان مع الله أو مع الناس أو مع الأشخاص أو مع الدول، إذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين، عن النبي (ص) (مِنْ عِلْمَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ) الترغيب والترهيب ٤ ص ٩، رَاعُونَ : حافظون مؤدّون الأمانة والعهد على عموم معناهما، فهذا يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، عبادات ومعاملات، كحفظ الأسرار بين الأصدقاء وحفظ المواعيد والقيام بها، ويدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قولٍ أو فعل واعتقاد، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات المادية والمعنوية، وأهم تلك الأمانات وأولها أمانة (الفِطْرَةِ) التي فطر الله الناس عليها، يجب المحافظة على سلامتها، وأمانة العمل الذي يعمل به الإنسان، والأمانة أَعْمُ مِنَ الْعَهْدِ، وكلُّ عَهْدٍ أمانة، وكلُّ أمانةٍ عَهْدٌ، وحفظ الأمانة صفة دائمة للمؤمنين وليست صفة طارئة، وما تستقيم حياة البشرية إلا أن تودّى فيها الأمانات وترعى فيها العهود، فائدة: عن الإمام الصادق (ع) (لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ أَعْتَادَهُ، فَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِذَلِكَ، وَلَكِنْ أَنْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ) الكافي ٢ / ١٠٥. قيل: جوارحك كلها أماناتٌ عندك: فأمانة العين الغض عن المحارم والنظر الهادف بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث وإحضارها مجالس العلم، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان ومداومة الذكر. . . وهكذا جميع ما أوجهه الله على عبده أمانة على العبد القيام بها وحفظها كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ النساء / ٥٨. وشدّد الإسلام على خيانة الأمانة وخلف الوعد والعهد لآثارها السيئة في المجتمع كقوله تعالى ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الفتح / ١٠. عن النبي (ص) (لا دين لمن لا عهد له، لا إيمان لمن لا أمانة له) البحار ٧٢ / ١٩٨ .

٩ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

هذا هو الوصف السابع في أداء الصلاة والمحافظة على أوقات فضيلتها، معنى (الصلاة) صلة ما بين قلب العبد وهيبه الرب، فبمقدار الصلّة تكون الصلاة، وبمقدار الانفصال عن الخلق يكون الاتصال بالخالق، والذي لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على حُسْنِ الصلّة ما بينه وبين الناس، محافظة دائمة مبعثها صدق الضمير، وهم يواظبون على إقامة الصلوات الخمس في أوقات فضيلتها ويحافظون على شروطها واستمرارها كقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء / ١٠٣ فإن من أفضل الأعمال الصلاة على وقتها، بلا كسل ولا ملل ولا خلل، وتقام ضمن شروطها الشرعية دون أي نقصان في أفعالها وأقوالها، وقد افتتح الله سبحانه صفات فلاح المؤمنين بالصلاة واختتمها بالصلاة، لأهمية دور الصلاة وعظيم مكائنها التربوية في تزكية النفس والمجتمع، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والقربى لله، وأهم رابطة بين الخالق والمخلوق، فهي عمود الدين وقربان المؤمنين، وذكر صفة الخشوع في الصلاة أولاً وذكر صفة المحافظة عليها في المرة الثانية، وقدم السياق القرآني الخشية والخشوع في الصلاة على المحافظة عليها، لأن بالخشوع تحقق الصلاة أهدافها وديمومتها، والصلاة بلا خشوع صلاة بلا تفاعل، كالشجرة بلا ثمر أو حركات بلا روح، كقوله (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) البقرة / ٤٥، والصلاة صلة ما بين القلب والرب، فالذي يحافظ ما بينه وبين الله تعالى، فإنه يحافظ ما بينه وبين الناس، محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير.

١٠ - ١١ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

الإرث : حقٌ لغيرك أن أوانه لك من غير عقدٍ ولا هبة، أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم (الْوَارِثُونَ) الجديرون بوراثه جنة النعيم ١١- (الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ) الذين يرتون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة وهي أعلى مراتبها، في الحديث (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) المراعي ١٦ ص ٢٦ (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَالًا﴾ الكهف / ١٠٨، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مُنْعَصَاة ولا معاناة. فائدة: ١- (يَرْتُونَ) نيل المؤمنين للجنة دون تعب مثلما يحصل الوارث الإرث دون تعب، صحيح منازل الجنة على قدر الأعمال الصالحة النابعة من إيمان صادق، إلا أن منزلة الفردوس مكافأة أكثر من الاستحقاق، أما أهل الجنة الآخرين في منازل أخرى، وأين ميراث الدنيا الزائل، من ميراث الآخرة ونعيمها الدائم؟ (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ) وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين، وليس بعد هذه الغاية السامية من غاية، تمتد إليها عين أو خيال، (الْفِرْدَوْسَ) أعلى مراتب القرب فيرتها الذين كانوا من أهل الله أصحاب القلوب السليمة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء / ٨٩ وهذه الصفات وغيرها تتفاعل لتنتج

شخصية صالحة نافعة على مستوى الأفراد والمجتمع، وعلى مستوى الأقوال والأفعال، ثم ذكر الله تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال :

١٢ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

سَلَالَةٍ : خلاصة ما يستخرج من الشيء، ذكر الله في هذه الآيات أطوار الإنسان وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، ورسم له خارطة حياته واضحة كاملة لا شك فيها ولا ريب، المعنى: اللام في (وَلَقَدْ) جواب قسم أي والله لقد بدأنا خلق جنس الإنسان (آدم) من خلاصة استخرجت من الطين وهو صفوة الماء والتراب، ليتدبر الإنسان في صنع الله، والتأمل في هذا الانتقال المتسلسل المنظم، والذي يبدأ من التراب ويعيش على التراب، يرجع إلى التراب أصله الأول، ويبعث من التراب . فائدة : لقد أثبت العلم الحديث إنَّ عناصرَ تكوين الإنسان هي نفسها عناصر التربة وهي ستة عشر عنصراً .

١٣ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾

ثم بدلنا خلقه فجعلنا ذرية آدم (نُطْفَةً) من مني يمخى من أصلاب الرجال (في قَرَارٍ مَكِينٍ) في مستقر متمكن هو الرحم (مَكِينٍ) حصين أمين آمن للمرأة، لتمكنه من حفظ النطفة من أي فساد، والمحمي من التأثير باهتزازات الجسم وصداماته كقوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ المرسلات/٢١، وقوله (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا) الإنسان/٢ .

١٤ - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

ثم صيرنا هذه النطفة (الماء الدافق) بالتدبير والتربية المقدرة إلى (علقَةٌ) وهي الدم الجامد يشبه العلقه، حيث تمتزج خلية الذكر المنوية ببويضة الأنثى وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر تتغذى بدم الأم، (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها قدر ما يمضغه الإنسان، (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا) صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون حاملة للبدن أي تتبدل الخلايا المضغة إلى خلايا عظمية ثم تكسى بالعضلات (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) سترنا تلك العظام باللحم والعضلات وجعلناه كالكسوة لها (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح، بعد أربعة أشهر في ظلمات ثلاثة كقوله ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ الزمر / ٦ فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم وأعقد تركيب، ليزر بذات وصفات وخواص مغايرة لما سبق، مما يدل أن كرامة الإنسان بروحه قبل جسده (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فتعالى الله في قدرته وتسامته حكيمته فهو أحسن الصانعين صنعاً في شكله

ومضمونه، في بدايته ونهايته كقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨، إن جنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، إلا أن جنين الحيوان يقف عند الغريزة ولا يفكر نحو الأفضل، وجنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر ويمشي في طريق التقدم والطموح والارتقاء نحو حياة أفضل، كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ﴾ الحج/٥٠.

فائدة: ١- (فَكَسُونَا الْعِظَامَ حَمًا) كشف القرآن حقيقة علمية في تكوين الجنين لم تُعرف بدقة إلا ما كشفه علم الأجنة التشريحي، ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام تتكون أولاً في الجنين ثم خلايا اللحم، لذلك قدّم العظام على اللحم، فسبحان الخبير القدير الذي يُحسن التدبير والتقدير، ٢ - (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) وليس هناك من يخلق سوى الله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الرعد / ١٦، فأحسن هنا ليست للتفضيل وإنما هي وصف للحسن المطلق، قمة التكامل في خلق الله كقوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين / ٤، وقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) السجدة/٧، أما الخلق المنسوب إلى عيسى (ع) ﴿وَإِذْ نَخَلُّ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ المائدة/١١٠، فهو خلق بإذن من الخالق لعظمة إفاضة الحياة إلى الخلق بطريقة إعجازية لا ثبات صدق نبوته (ع)، ٣ - في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ الْخَلْقَ عَرَفَ الْخَالِقَ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) في غرر الحكم (يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ).

١٥ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَكَايِمُونَ﴾

ثم إنكم (أيها الناس) بعد تلك النشأة ومهلة الحياة لصائرون إلى الموت، كقوله (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) آل عمران/١٨٥، فكما خلقناكم أطواراً في بطون أمهاتكم، فإن الموت أحد أطواركم وتقلباتكم وليس نهاية الأطوار، والموت أيضاً حلقة مهمة مرسومة بالحق من الحلقات المقدرّة من تلك السلسلة المدبّرة، المتصلة بعضها ببعض بتنظيم عالي الدقة، منذ بداية النشأة الأولى للخلق حتى نهاية عمره ومهلته في الحياة. فليس الموت ضد الحياة وإنما الموت صديق الحياة، فمن أحب الحياة كره الموت فإنه يعيش أنصاف الحياة، لأن الموت والحياة بينهما تنسيق وتعدد أدوار ووحدة هدف، فهما في تعاون مستمر كما يتعاون الليل والنهار، وليس الليل ضد النهار وإنما بينهما تنسيق وتعدد أدوار وحدة هدف، وليس النهار أفضل من الليل، كذلك ليست الحياة أفضل من الموت، وعن طريق الموت تعرف أهمية الحياة، كذلك عن طريق الليل تعرف أهمية النهار، ولولا الموت لصاقت الحياة بأهلها، والموت المخلص في أوقات الشدة، وهو راحة المؤمنين وأنس الصالحين لأنه نُقْلَةٌ إلى عالم الخلود، عن النبي (ص) (المَوْتُ رَحْمَانَةٌ الْمُؤْمِنِ) البحار/٨٢/١٦٨، وعنه (ص) (تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ) البحار / ٨٢ / ١٧١ عن الإمام علي (ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا،

وَأَعْمَلْ لِأَخْرَجَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ عَدَاً) تنبيه الخطوط ص ٤٦١، لذلك أصبح الموت حقاً وبالحق ومن الحق وإلى الحق، لأنكم خلقتهم بالحق للبقاء لا للفناء، للآخرة لا للدنيا. والناس ذاهلون عن هذا الموت الحق غافلون عنه، عن النبي(ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا إِنْتَبَهُوا) روح البيان ١٣٢/٢، (لَا تَعْفَلُوا فَلَيْسَ بِمَعْفُولٍ عَنْكُمْ) في غرر الحكم (احذروا العفلة فإنها من فسادِ الحسن) فقد قدر الله للإنسان أجلاً معيناً لا يتعداه كقوله ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ المنافقون/ ١١ في غرر الحكم (الموت أول عدل الآخرة) عن النبي(ص) (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كثر العمال خير ٤٢١٢٣، عن الامام الصادق(ع) (لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقِيناً لَا شَكَّ فِيهِ، أَشْبَهُ بِشَكِّ لَا يَقِينٍ فِيهِ مِنْ أَمُوتٍ) من لا يحضره الفقيه ١ / ١٢٤ فكل واحد منا يعلم الموت ولكن يبعده عن نفسه ولا يفكر فيه، ولا يستعد له وينساه أو يتناساه ! فائدة: البقاء الصحيح: إن بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى!.

١٦ - ﴿نُذِرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُونَ﴾

(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُونَ) من قبوركم للحساب والجزاء، والبعث آخر مرحلة ونهاية الرحلة في مسيرة الإنسان، حيث يظل بعدها خالداً لا يموت إما في النعيم أو في الجحيم، في غرر الحكم (مَنْ أُيْقِنَ بِالْحَازِرَةِ لَمْ يُؤَثِّرْ غَيْرَ الْحُسْنَى) ويكون الجزاء من جنس العمل، عن النبي(ص) (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٤٢٧٢٢ إذ يوفى كل عامل جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فائدة: ١- إن تلك النفخة من روح الله، قد جعلت لها غاية سامية أكبر من غاية الجسد المادي الثقيل الدنيوي، ونهاية باقية غير نهاية اللحم والدم القريبة من التراب، وجعلت هذه النفخة الروحية كاملاً وجمالها لا يتم في هذه الأرض المحدودة، إنما يتم في الحياة الأخرى الباقية، فالتموت برزخ (عالم وسط) بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، لذلك جاءت (ثُمَّ) علامة على وجود فاصل زمني وهو البرزخ بين الموت والقيامة، ويكون القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، عن النبي(ص) (مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٤٢٧٢١، ثم يكون البعث والنشور والجزاء وبعده تبدأ الحياة الكاملة للمؤمنين المبررة من الآثام والنقائص الأرضية، المملوءة بالمفاجأة والمخبات، ٢- يوم القيامة كائن مدبر ومقدر لا بد منه، وبه تعرف فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، وكل مقدر كائن، وكل كائن آت، وكل آت قريب، وكل قريب كاد أن يكون ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ النازعات / ٤٦ ولا يزال يبين القرآن الأدلة الساطعة على وجود الله فقال :

١٧ - ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾

ينتقل السياق القرآني من دلائل الإيمان في الأنفس إلى دلائل الإيمان في الآفاق كقوله ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت / ٥٣، وهذه النقلة من

الأطوار النشأة الإنسانية إلى بدائع الأنظمة الكونية، تكشف لنا العلاقة بين السنن الإنسانية والسنن الكونية (وَلَقَدْ) وأقسم أننا خلقنا فوقكم سبع (طَرَائِقَ) جمع طريقة وهي السبيل المطروقة، وتعني سماوات سبعة طوابق بعضها فوق بعض، خلقها الله بتقدير وتدبير وحفظها ورعاها بحكمة وقدرة منظمة ملحوظة، وزينها بالنجوم والشمس والقمر، ومنها تمبط الملائكة وتعرج كقوله تعالى ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج / ٤، (وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) وما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظهم ونراقبهم وندبر أمرهم باستمرار. عن النبي (ص) (مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْفَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاقَةٍ) التفسير المبين ص ٤٤٦، كقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الطلاق / ١٢

فائدة : (غَافِلِينَ) فكما خلقنا المخلوقات فَعَلْمُنَا مُحِيطُ بِهَا، فلا نَعْفَلُ ولا نَسْهَوُ ولا نَنْسَى ولا نخلق خلقاً فنضيقه، ولا نغفل عن السماء أن تقع على الأرض، ولا ننسى دابة إلا سبقنا إليها رزقها إلى أجلها، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين خلقه وعلمه كقوله تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك / ١٤، والله سبحانه لا تعتربه الغفلة كما يغفل الإنسان، والغفلة من قلة التيقظ والتنبه والتحفّظ، وينهى الله عن الغفلة كقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف / ٢٠٥.

١٨ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾

وأنزلنا من السحاب الماء العذب (بِقَدَرٍ) الحاجة والمصلحة، لا كثيراً فيفسد وتغرق الأرض والزرع ولا قليلاً فلا يكفي للإنسان والحيوان والأشجار والثمار ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد / ٨ (فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ) جعلناه مخزوناً محفوظاً ثابتاً مستقراً في الأرض وفي الجبال والسهول لتنتفعوا به وقت الحاجة (وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ) وعيد وتهديد أي نحن قادرون على إزالته من الأرض فتهلكون ولا تبقى حياة على الأرض (أو) لو شئنا لجعلناه إذا نزل الماء يغور في أعماق الأرض إلى مدى لا تستطيعون الوصول إليه، ولكن الله بلطفه سبحانه ورحمته يسكنه في الأرض على شكل بحيرات تحت الأرض ويسلكه ينابيع، فيها أنهار وآبار وعيون، فتسقى المزروعات وتشرب منه جميع الكائنات الحية، كقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ الملك / ٣٠ فائدة: ١- الماء أعلى شيء في هذه الحياة لأنه هو الحياة ويهب الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء / ٣٠.

١٩ - ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

فأخرجنا لكم بذلك الماء العذب (جَنَّاتٍ) حدائق وبساتين فيها (نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ) وغيرها (لَكُمْ) فيها فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والأشجار والثمار تتفكهون بها، فإنها ذات

بهجة وجمال للعيون وتشرح النفوس وتنقي الهواء وإطعام الدواب ويستفيدون من الأخشاب والاستشفاء بأنواع الأعشاب، (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً بأنواع الأرزاق التي فيها معاشكم، فائدة: (نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) وإنما خصَّهما بالذكر لكثرة منافعهما، كذكر الخاص مع العام، فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الإدام ومقام الفواكه رطباً ويابساً، وهما أكثر فواكه العرب. وأينما وجد الضرر والخطر والخراب فإن ذلك من صنع الإنسان ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الروم/٤١

٢٠ - ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصِنَعٌ لِلْكَالِينِ﴾

ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تنبت حول جبل طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى (ع) وهو الجبل ذو الخير والبركة والجمال، والمراد هنا البقعة التي كانت تعرف ببلاد الشام حيث تكثر فيها زراعة هذه الأشجار المباركة، (تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ) أي فيها زيت الزيتون ذو منافع كثيرة (وَصِنَعٌ لِلْكَالِينِ) الصنع: الإدام لأنه يُصنع الخبز به أي يُغمَّس فيه ويؤكل، في الحديث (كُلُوا الزَّيْتِ وَأَدِينُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) مجمع البيان ١٩٦/٧، وإنما خصَّ شجرة الزيتون لعظيم منافعها وتعدد فوائدها، ومن فوائد زيت الزيتون : إنتاج الطاقة وبناء الجسم القوي ويخفف من الكلسترول في الدم، وصديق حميم للكبد ويزيل أمراض الكلية ويحميها ويقوي الأعصاب ويحفظ سلامة الجسم.. وغيرها .

٢١ - ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

وينتقل السياق القرآني من عالم النبات إلى عالم الحيوان، وإن لكم (أيها الناس) فيما خلق لكم ربكم (في الأنعام) وهي (الإبل) (البعير) والبقرة والجاموس والماعز والغنم) وغير الأنعام (لِعِبْرَةٍ) لعظة بالغة تعتبرون بها بمجرد التفكير، وإنها لدلالة يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حنون رؤوف بهم، (نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا) وإنها جميعاً مسخرة للإنسان، نسقيكم من ألبانها ذات المنافع الكثيرة، الذي يخرج من بطونها من بين فرثٍ ودم، فلا يأخذ من لون الدم أو ريح الفرث شيئاً، وهو فضلات الطعام التي تبقى في الكرش بعد الهضم، مع العلم أنه يجري بينهما، ففي ذلك شاهد من شواهد قدرة الله وإحكام تدبيره ودقة تقديره، كقوله ﴿نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾ الحل / ٦٦ (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ) تشربون من ألبانها وتلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وتركبون ظهورها وتحملون عليها بضاعتكم. وغير ذلك (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) وتأكلون لحومها. فائدة : آيات الله وعجائب خلقه صغیرها وكبیرها مبثوثة في جميع الآفاق وفي أنفسكم، وفي كل حي وغير حي، عاقل وغير عاقل.. فيها براهين على عظمة الله ودلائل وجوده سبحانه، عن الإمام علي (ع) (ما أكثر العبرَ وأقلَّ

المعتبرين) البحار ٧٨ ص ٦٩، وخير الناس من يتعظ ويعظ كقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت / ٥٣ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر / ٢ عن غرر الحكم (من جهل قلَّ عِتْبَارُهُ) عن الإمام علي (ع) (بِضْعِ اللَّهِ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ، وَبِالْعُقُولِ يَعْتَقِدُ مَعْرِفَتَهُ ، وَبِالْفِكْرَةِ تَثْبُتْ حُجَّتُهُ ، وَبِآيَاتِهِ احْتَجَّ عَلَىٰ خَلْقِهِ) نهج السعادة ٣ ص ٤٥ .

٢٢ - ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

وتحملون بضاعتكم على الإبل (البعران) في البر كما تحملون على (الْفُلْكِ) السفن في البحر، فإن الإبل سفائن البر كما أن البواخر سفائن البحر، بوصفهما مسخرين بنظام الله الكوني، وهو سبحانه الذي يستحق الشكر والعبادة والطاعة، وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيه.

٢٣ - ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه، وهم يعرفونه بفصاحته وبلاغته وكفأته ونزاهته، داعياً لهم التَّوَجُّهَ الى الله وتوحيده، ومحرراً من الشرك وضرره والشيطان وخطره، وهو أول أولي العزم من الرسل صاحب كتاب وشريعة، كقوله (سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات/٧٩، وهذه تذكرة للرسول (ص) ليتأسى به في صبره مع جهل قومه (فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) اعبدوا الله وحده فليس لكم رب سواه، ولا إله غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاءً لرحمته وخوفاً من سخطه، ورفض اتخاذ كل أنواع الآلهة شريكة مع الله في عبادته، كعبادة الملائكة والشياطين الجن أو الإنس والهوى بدعوى اتباعهم وألوهيتهم و (بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ) فتكون كأصنام تُعبد من دون الله! وهذا شرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان / ١٣ .

(أَفَلَا تَتَّقُونَ) الاستفهام إنكاري، أفلا تحافون عقوبته المؤلمة سبحانه بعبادتكم غيره وتأكلون من رزقه؟ وفيه زجر وتهديد كقوله ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام / ١٢ .

٢٤ - ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَسْمُومًا يَهْدِي فِي آبَاتِنَا الْأُولَىٰ﴾

(فَقَالَ الْمَلَأُ) وجهاء قومه وقادتهم ورؤساؤهم الذين يملأون القلوب هيبه، والعيون جمالاً وزينة ومن ذوي الرأي المطاع، الممعنون في الكفر والفساد، من دون أن يفكروا في أنفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم، وقالوا للناس بحجة مريضة وسفاهة عمياء، (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجل من البشر (يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) ويصير أفضلكم، ويطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة، لتكونوا له أتباعاً فلا تتخذوا بكلامه الجدِّاب، كقوله (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ أَهْبَاتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) الفرقان/٤٢، وأعجب بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر، وأثبتوا الربوبية لحجر! من دون أن يتفكروا ويتأملوا

فيختاروا الأصح لهم، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملائكة ولم يكن بشراً ليكونوا وسطاء بيننا وبينه (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى) ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية ليست دعوته إلا بدعة وأحدوثة كاذبة، وهم يكذبون ويغالطون أنفسهم، لأن آدم ثَبَّتَ حجة الله على الناس كقوله تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ **فائدة:** خاف المتزفون على مناصبهم ومكاسبهم فاطلقوا الإشاعات الكاذبة، وأثاروا حوله الشبهات الباطلة وعرقلوا مسيرة الدعوة الرسالية. وهم غفلوا أن حكمة الله تقتضي أن يكون الرسول من جنس البشر، لأن الملائكة عالم غير عالمنا لا يمكن مخالطتهم ومعاشرتهم، ويحصل هذا المستوى الهابط من الناس في كل مكان وزمان عندما يُعْطَى (الاتباع الأعمى) على حركة الفكر وحرية القلب، فلا يتدبرون الحقيقة وينكرونها بسهولة، عن الإمام علي (ع) (النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا) البحار ٧٨ ص ١٤ .

٢٥ - ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَصُرُوهَا حِينَ﴾

ما هو إلا رجل (به جنّة) به جنون، لأنه يدّعي ما لا يقبله العقل السليم، اتّهموه بالجنون افتراءً وكذباً لأنهم يعلمون أن نوحاً بليغاً خطيباً خلوقاً ولكنه بهذه الكفاءة مريباً ومعلماً (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) فَتَرَبَّصُوا : فانتظروا، واصبروا عليه (حَتَّى حِينٍ) مدة حتى يموت فنستريح منه ومن دعوته! أو يعود إلى دينكم من تلقاء نفسه، فلا تعتنوا بكلامه العقلاني، (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعِلْمُ، فَالْجَهْلُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ) كقوله ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هود / ٣٦ **فائدة: ١-** توضح الآية حقيقة ثابتة : إن الأمة إذا شعرت بأهمية البحث عن القيادة الرشيدة والسديدة، والالتفاف حولها وتأييدها ودعمها لتخرجها من ظلمات الجهل إلى نور العلم، هو من العوامل الحضارية التي تنهض المجتمع وتقدمه سريعاً، وإذا جاءت هذه القيادة المترقبة ثم عارضوها وحاربوها، هو دليل على شدة تخلف الأمة وتدهورها النفسي والأخلاقي والحضاري ومعاناتها الكثيرة، ولم يجد له إلا التوجه إلى ربه وحده يشكو إليه معاناته، والشكوى لغير الله مذلة .

٢٦ - ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ﴾

قال نوح بعدما يتس من إيماهم ولمدة طويلة من الدعوة وبأساليب متنوعة، استعان بالله تعالى وطلب منه المساعدة وقال: رَبِّ (انصُرْنِي) انصر دعوتي ورسالتي على كفرهم وعنادهم، كقوله ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ القمر / ١٠ في غرر الحكم (الْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ، الْعَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ) تكذيب قوم نوح لم يُعد أنه فُشِلَ في دعوته، لأنه أدّى رسالته ببلاغ في مابين متعدد الأساليب، وبقي دور الأمة ومقدار تلقّيها للهداية والاستقامة وقبولها للبلاغ المبين، فإذا رفضت الأمة الدعوة فهي تتحمل مسؤولية الرفض والإعراض، والله سبحانه أمهل حتى كأنه أهمل، ولقد

سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْدَرَ! كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف / ١٨٢ والتوكل على الله والدعاء إليه من أعظم الوسائل في مواجهة التهم والمعاناة . في غرر الحكم (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ) وعلى قدر الثقة بالله يكون التوكل عليه. فائدة: ١- كما كانت سفينة نوح سفينة نجاة، كذلك كل نعمة من نعم الله الكثيرة التي في أيدي الناس هي سفن نجاة ! وكل إنسان من موقعه ومنصبه وهو كفؤ ووزيه ويخدم الناس ومطيع لله ويطرف عن جاهلية قومه فهو في سفينة النجاة، عن النبي (ص) (مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مِنْ رَبِّهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ) كثر العمال خير ٣٤١٦٩، ٢ - قال (انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي) ولم يقل (انصربي عليهم) لأنه طلب من الله أن يجعل انتصار الإيمان على الكفر، وليس من أجل انتصار شخصي، فمسؤولية الأنبياء هي عمل نقلة للإنسان من حالة (تجسيد الذات) وحب الأنا إلى حالة (تهديب الذات) وتركية النفس، كقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا﴾ الشمس / ٠٩

٢٧ - ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحَاطَبِينَ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) في شدته (أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ) السفينة بيده، (بِأَعْيُنِنَا) بمراى منا وتحت نظرنا وتسديدنا وتأيدنا وبحفظنا ورعايتنا (وَوْحَيْنَا) ومؤيداً بأمرنا وتعليمنا وإلهامنا الغيبي كيف تصنع، لأن البشرية لم تعرف صناعة السفن قبل ذلك (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) بإنزال العذاب (وَفَارَ التَّنُّورُ) التَّنُّورُ : الفرن أو الموقد، أو وجه الأرض، يُقال فَارَ : نبع، وخرج الماء من محل النار! وهو من عجيب الأمر في ذاته ثم من وجه الأرض ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ القمر / ١٢ .

جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه وبداية الطوفان، وهو عملية تطهير شاملة لكل ما على وجه الأرض، (فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ) فأدخل فيها من كل صنفٍ من المخلوقات زوجين ذكراً و أنثى وهما بذور الحياة، لئلا ينقطع نسل ذلك المخلوق وبذلك يحفظ الكائنات، ويحفظ قانون الزوجية العام في نظام الحياة كقوله تعالى ﴿وَمَنْ كُفِرَ شَيْءٌ حَلَفْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات / ٤٩ (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) واحمل (أَهْلَكَ) أيضاً خاصتك وأسرتك والمؤمنين بك إلا من سبق وكتب القضاء المحتوم بإغراقه وهو ابنه وزوجته (وَأَهْلَكَ) وتأتي بمعنى الهلاك للمكذبين برسالة الله باستثناء من سبق القضاء عليه. (وَلَا تُحَاطَبِينَ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) ولا تسألني الشفاعة والنجاة للظالمين عند مشاهد هلاكهم، فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق.

فائدة: ١- شاء الله أن يصنع نوح السفينة بيده لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، والمدد لا يأتي للقاعدين المسترخين، ٢ - (وَلَا تُجَادِلْنِي) صدر الأمر الأخير لنوح ألا

يجادل في أمر أحد الهالكين، فسُنَّةُ الله لا تحابي ولا تداري ولا تراعي مَنْ لا يستحق الرعاية ولو كان قريباً وصديقاً ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد / ٤١، ٣ - وهنا نشأت البشرية من جديد بعد الطوفان، ٤ - تكرير قصص الأنبياء (ع) في القرآن يدل على كشف حقيقة مهمة مستمرة أن الصراع قائم ودائم بين الحق والباطل، الحق الثابت المنصور بنصرة الله، والباطل المخذول بخذلان الله له، وإن كان للباطل جولة ومهلة وإن طالت بسبب تحلف أهل الحق، ولكن للحق دولة مستقلة مؤثرة موعودة ولو بعد حين.

٢٨ - ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

اسْتَوَيْتَ: استقررت من الاستقرار، المعنى: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ) فإذا علوت على السفينة (أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ) من أهلك والمؤمنين والمؤمنات واستقررت بك الحال عليها (فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فقل داعياً الحمد لله على تخليصه إياكم من الغرق ومن الكافرين المفسدين الظالمين لأنفسهم ولغيرهم. وإنما قال (فَقُلِ) ولم يقل (فَقَالُوا) لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً وقائداً منقذاً، فخطابه كان خطاباً لهم. فائدة: ينبغي أن نقول الحمد لله على كل نعمة، عن ابن عباس (كان في السفينة ثمانون إنساناً نوح وامرأته غير التي غرقت وثلاثة بنين سام وحام وياث وثلاثة نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً، وكل الخلائق من نسل من كان في السفينة) تشير الآية إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو كان عدواً، ولا يجوز الشماتة بالناس ولا الفرح بمصائبهم، وكان الحمد على النجاة، وهكذا الحمد لله على كل حال،

والذي يشكر الناس يشكر الله وقال ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الكهف / ٣٩ .

٢٩ - ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبْرُكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾

مُنزَلاً: مكاناً أو إنزالاً. المعنى: حين تخرج من السفينة قل رب أنزلي إنزالاً مباركاً في مكان ذي خيرٍ كثيرٍ وثابت، يحفظني من كل سوء وشر ومن معي (وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) لأوليائك والحافظين لعبادك والمكرمين بأحسن المنازل . وجاء سياق الآية على هيئة دعاء عام إلى الله تعالى ليكون عوناً في تدبير أمورنا، وليكون درساً بالغ الأهمية بضرورة الارتباط بالله بالدعاء في كل الأحوال، وأيضاً علّم الله رسوله محمد (ص) دعاء بالغ الأهمية كقوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ الإسراء / ٨٠ (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبْرُكاً) المبارك: الذي يعطي فوق ما يتصوّر من حجم الخيرات الكثيرة . استجاب الله دعاءه بقوله ﴿أَهْبِطُ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هود / ٤٨ .

فائدة: ١- انتقل السفينة من مكان إلى مكان آخر، وهذا يعني أن بعض الأمكنة أفضل من بعض ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ الأعراف / ٥٨، ٢- عن

قتادة (عَلَّمَكُمُ اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا حِينَ رَكِبَ السَّفِينَةَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ تُجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾ هود / ٤١ وحين ركوب وسائط النقل قل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ الزخرف / ١٣ وحين النزول من مكان وفي مكان وإلى مكان ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ٣- وفي الآية إشارة إلى أن المؤمن ينبغي له أن يطلب منزلاً مباركاً في بنائه ومكانه وسعته وبيارك الله له فيه في دينه ودنياه، وعن النبي (ص) (يَا عَلِيُّ إِذَا نَزَلْتَ مَنْزِلًا فَقُلْ اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، تُرْزِقُ خَيْرَهُ وَتَدْفَعُ عَنْكَ شَرَّهُ) كنز الدقائق ٦ / ٦٠٥، ٤- (خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) و (خَيْرُ الْوَارِثِينَ) الانبياء / ٨٩ و (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون / ١٤ و (خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) آل عمران / ٥٤، وهذا ليس للتفضيل، وإنما هو وصف للتكامل وليس للتفاضل وقمة في الأداء، وجمال في التعامل والعطاء، عن الإمام علي (ع) (رحم الله امرأً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين) .

٣٠ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

إنّ فيما جرى على أمة نوح (لآيَاتٍ) لدلائل ومواعظ وعبر يستدل بها أولو الأبصار والألباب (وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) ابتلينا قوم نوح، وإن كنا لممتحنين جميع البشر في كل زمان ومكان، وإن كانت الآية بخصوص السبب في النزول ولكن أريد لها عموم المعنى في الدلالة. جعل الله تعالى الابتلاء والاختبار والامتحان أمراً لازماً وسنة مؤكدة ثابتة عامة، يؤخذ به عباده جميعاً حتى ينكشف حالهم وتظهر حقيقتهم ﴿حَتَّى يُمَيِّزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران / ١٧٩، ويأخذ كل منهم مكانه في هذا الابتلاء، فإرسال الرسل إلى الناس ودعوتهم إلى الإيمان بالله والالتزام بمنهجه هو ابتلاء، لأنه سوف ينكشف منه عن مؤمنين وغير مؤمنين، وناجين وضالين ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران / ١٥٤ والابتلاء أشكال وألوان، وكل إنسان ومجتمع يبتلى على قدره ومقداره.

و(الْإِبْتِلَاءُ عَلَى قَدَرِ الطَّبَاعِ) !!، ابتلاء للصبر وابتلاء للشكر وابتلاء للأجر، وابتلاء للصحة وابتلاء للمرض، وابتلاء للفقر وابتلاء للغنى والرفاهية، وابتلاء للتربية والتعليم والتوجيه وابتلاء للتأديب وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم، وكلها كشف لمعادن الناس، والابتلاء إما محو ذنوب وإما رفع درجة، وفي كل الأحوال هو زيادة عبرة وخبرة، في غرر الحكم (الْإِعْتِبَارُ يُفِيدُ الْعِصْمَةَ). كقوله ﴿نَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الانبياء / ٣٥ عن الإمام الصادق (ع) (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَاللَّهِ فِيهِ مَشِيَّةٌ وَقَضَاءٌ وَإِبْتِلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤، في نهج البلاغة خطبة ١٠٣ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَادَكُمُ (عَصَمَكُمُ) مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَعْدِبْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ).

٣١ - ﴿نَدَّأَسْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَرَاخِرِينَ﴾

قُرْآنًا : جماعة (أمة) تعيش في عصر واحد. المعنى : ثم أوجدنا من بعد هلاك قوم نوح (قُرْآنًا) قومًا آخرين يخلفوهم وهم عاد قوم هود، وهكذا يتقلب دولاب الحياة فتكون بين (أَرْحَامٌ تَدْفَعُ وَفُجُورٌ تَبْلُغُ)، جيل يستقبل الحياة وجيل يودعها ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران / ١٤٠. والذي لا يَعتَبِرُ بالماضين كَانَ عِبْرَةً للباقيين، وَأَحْسَرَ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً للنَّاسِ، في هُج البلاغة خطبة ٨٦ (السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) .

٣٢ - ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

(فَأَرْسَلْنَا) إلى قوم عاد (رَسُولًا مِنْهُمْ) من عشيرتهم هو هود(ع) يعرفون نسبه وحسبه وكفائه وقدراته ونزاهته وصدقه ليكون أسرع لانقيادهم (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) اعبدوا الله وحده وهو التوحيد الخالص النظري والعملي، ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم رب سواه، فأصول الدين عقائد حقه ثابتة لا تتغير في جميع الأديان السماوية . (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تتقون عذابه والالتزام بطاعته، أفلا تخافون نقمته إن كفرتم؟ أفلا تترتبون بالتقوى فإنها زينة الصالحين، وهكذا جميع الأنبياء(ع) يدعون إلى توحيد الله وترك كل أنواع الشرك، فهم ضمن الخط العام للإسلام، هو إسلام الوجه لله والتسليم لمنهج الله، وجاء النبي(ص) بالإسلام الخاص المتكامل بذاته والمكتمل لغيره، الذي اصطفاه الله لنفسه كقوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران / ١٩، فائدة : (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أساس كل دِين سماوي أصيل (توحيد الله) و معنى التوحيد : هو الله المنفرد الواحد الأحد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص / ١ - ٤، والله له صفات كثيرة، وصفاته عين ذاته كقوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الحشر / ٢٤، والله خالق كل شيء كقوله ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ النحل / ١٧، والله عز وجل نور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور / ٣٥، والله تعالى النور الواحد الذي لا يتجزأ ولا يتعدّد ولا يتكاثر ولا يتركّب، ولا يتبدّل ولا يتحوّل ولا يتغيّر ولا يتطوّر، فهو الكامل بذاته المكتمل لغيره، وهو جميل يحبّ الجمال ويخلق الجمال، وهو أكبر من أن يُقاس وأكبر من أن تدركه العقول والحواس، والله تعالى ليس بجسم مادي محدود، وليس له صفات مادية مجسّمة.

كقوله ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الأنعام / ١٠٣، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، والله تعالى لا يحتاج ولا يفتقر، فهو غني بذاته مغني لغيره، وليس له زمان ولا مكان، ولا يتحد في شيء، ولا يتحد فيه شيء، ولا يحلّ بشيء ولا يحلّ فيه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى / ١١، آثار التوحيد: التسليم لأمر الله، وتفويض الأمور لله، والأطمئنان بذكر الله، والتوحيد النظري والعملي، أما التوحيد النظري:

توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد أفعال الله، وتوحيد حكمه وقضائه، والتوحيد العملي: أن لا يشرك في عبادته أحداً، فيكون توحيد العبادة وتوحيد الاستعانة، وتوحيد الاعتدال بين الخوف والرجاء، وتوحيد الحب وتوحيد الكراهية، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس) عن النبي (ص) (أفضل الأعمال الحب في الله، والبغض في الله تعالى) كتر العمال خير ٢٤٦٣٨، والتوحيد النفسي: هو الاستئناس بعبادة الله ودعائه كقوله تعالى ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الشعراء/٦٢ وإذا كان الله جلَّ في علاه يحمل هذه الصفات من الكمال والجمال والجلال، فهو يستحق العبادة لوحده كقوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ الأنعام/١٠٢ .

٣٣ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ) زعماء القوم الذين يملؤون العيون هيبةً وجاهاً وهم الكفرة المكذبون بالعالم الآخر، ولا يصدقون بالبعث والنشور والجزاء (وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وسعنا عليهم نعم الحياة حتى بطروا وأسرفوا وبغوا وطغوا بالأموال والأنصار والمناصب وانغمسوا في شهوات الدنيا المحرمة، هؤلاء قالوا للناس باستهانة واستحقار (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) قالوا لأتباعهم مضللين لهم، ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم لا يتميز عنكم بشيء (يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) فهو يأكل ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم، فهم يرون أنه ليس للإنسان أزيد مما للحيوان فلا فضيلة إلا الأكل والشرب والمتع الحيوانية، ولو أكل أفضل الطعام وشرب أشهى الشراب ولبس أحسن اللباس، لكان له الأفضلية على من سواه، وهو منطلق أهل الدنيا أصحاب النظرة المادية في كل زمان ومكان، الذين لا يدركون فلسفة الحياة، كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الفرقان/٧ فائدة: ١- (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) الترف يفسد الفطرة ويقسّي القلب ويعطل أجهزة الاستقبال ويعلظ المشاعر ويسد النوافذ ويُبعد الرحمة والشفافية ويفقد العقل والتدبّر، ومن هنا يحذّر الإسلام من الترف والمترفين فهم يستعينون بنعم الله على معاصيه والكفر به، فالترف يدفع إلى العصيان والطغيان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ العلق / ٦ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء / ١٦ في الحديث (إذا رأيتم الله يبعث عليكم بالنعمة وأنتم تبعثون له بالمعاصي فإن ذلك استدراج)! البحار ٧٣ / ٣٨٣، ٢- عن الإمام علي (ع) (إِنَّ الَّذِي دَفَعَهُمْ إِلَى قَوْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ هُوَ الْحَسَدُ) البحار ج ٣٢ / ٩٧، ٣- (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ) فهو بشر ولا بُد أن يكون بشراً حتى تألفوه وبألفكم، ولكنه ليس مثلكم في علمه ووعيه وعمله وروحانيته وإيمانه وأخلاقه كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الكهف / ١١٠، لِأَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ .

٣٤ - ﴿وَلَيْنُ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ لَأَخْسَرُنَّكُمْ إِن كُمْ إِذَّا الْخَاسِرُونَ﴾

ولئن أطعتم بشراً مثلكم فهو يقيّد حريّتكم ويحرمكم متع الدنيا وملذّاتها فتكونوا خاسرين! بينما الحقيقة إنّ الكافرين هم الخاسرون، وهنا عكسوا الآية وشوّهوا الحقيقة وسّموا المؤمنين هم الخاسرون. وهكذا الترف يقلب المقاييس الصحيحة وتغيّر المعايير العقلانية، فيكون المترف كالسكران، في غرر الحكم (اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ سَكْرَةِ الْغَيْ (التَّرف) فَإِنَّ لَهُ سَكْرَةً بَعِيدَةً الْإِفَاقَةَ)

٣٥ - ٣٦ - ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿

استفهام على وجه الاستبعاد والاستهزاء، أي أيعدكم بالحياة الآخرة بعد الموت والجزاء والحساب بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية؟ (أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ) أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم، وكرر (أَنْكُمْ) تأكيداً لأنه لما طال الكلام حسن التكرير للتوكيد (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) بعيد بعيد ومن المحال ما يعدكم ليوم البعث والنشور والحساب والجزاء، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً، وهكذا يدور دولاّب الحياة عَلَيْهِمْ وَهَمَّ بِلَا هَدَفٍ وَلَا غَايَةٍ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَخَلَقَ الْأَكْوَانَ، وهذا هو منطق الجهال الذين لا يرون إلا ما تحسّه حواسهم كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ص/٢٧ قالوا هذا الإنكار للمعاد وهم غفلوا عن إيمانهم بوجود الله وعظمته، وان الذي أوجد الإنسان من لا شيء قادر على إرجاعه أينما كان، وأن إعادة الشيء أهون وأيسر من إيجادها، من الناحية العقلية، ومن العجيب أن يتعامل الجاهل مع القضايا المصيرية الكبرى باللامبالاة، كالطفل الذي يتعامل مع الجوهرة الثمينة على أنها حجر لا قيمة له!! (الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)

٣٧ - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَاقِينَ﴾

لا حياة أخرى إلا هذه الحياة الدنيا، ومن مات فقد فات (نَمُوتُ وَنَحْيَا) إنهم يشاهدون ولادة جيل وموت جيل، أما أن يبعث الموتى من قبورهم ذلك ما لم يروه، فإن عدم الرؤيا لا تدل على عدم الوجود، وإن الإيمان بالبعث متصل بالإيمان بالله، فإذا لم يكن إيمان بالله تعالى لم يكن أمر البعث ممكن التصوّر (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) بعد الموت، وإنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك. فائدة : هؤلاء الماديون لا يؤمنون بعالم الغيب، ولا يدركون حكمة الحياة الأخرى الكبرى، ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة، هذه الغاية البعيدة الكبرى لا تتحقق بكما لها في هذه الأرض، فالخير لا يلقي جزاءه الكامل في الحياة الدنيا والشر كذلك، وإنما يستكملان هذا الجزاء هناك في حياة أخرى باقية فينقسم الناس إلى شقي وسعيد. عن الإمام زين

العابدين(ع) (العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٧ ص ٤٢،
عن النبي(ص) (يَمُوتُ الرَّجُلُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَيُحْشَرُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) تنبيه الخواطر ص ٣٧١
فإن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الله المحيي هو المميت، وأن المغني هو المعيد، إنهم أخطؤوا
عندما قاسوا قدرة الله الخالق المصوّر القادر القاهر، بقدرتهم المحدود، وأيضاً أن الذي أحيا الأرض
بعد موتها، هو الذي يُحيي البشرية بعد موتها، إنه على كُلِّ شيءٍ قدير. الإيمان باليوم الآخر
يصوغ الإنسان صياغة نموذجية مميزة، فتجعلهُ يعيش التوازن العام بين مطالب روحه وجسده،
وحياته وموته، ودنياه و آخرته، وأمله وعمله، وهذا التوازن العام تفتقده كل الأنظمة الكافرة بالله
واليوم الآخر، في غرر الحكم (حَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادُكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادُكَ).

٣٨ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

(إِنْ هُوَ) ما هو (إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى) يختلق الكذب على الله، ويتفنن في ابتداع الكذب عليه
سبحانه، في جميع ادعاءاته التي قالها من كونه رسول وعنده رسالة من الله تعالى وهناك حقيقة
المعاد، ولا يعرفون الله إلا في هذه اللحظة ولهذا الغرض من اتهام الرسول(ص)، (وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ) ولسنا له بمصدقين، وأخيب الناس سعيًا من يُسيء ويكذب في قوله وفعله ويتجاوز
حدوده، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً.

٣٩ - ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ﴾

لم يجد الرسول إلا أن يطلب النصرة من ربه كما طلب النصرة ذاتها من قبله نوح، وعندئذ وقعت
الاستجابة بعد أن استوفى القوم أجلهم، ولم يعد فيهم خير يرجى، وبعد أن يغس من إيمانهم، ولم
يؤثر فيهم، وفقد تجاوبهم معه، وقد سلك في دعوته الأساليب الفنية بالدعوة المؤثرة وألقى الحجة
الكافية بوضوح، فكانت النتيجة التكذيب وإصرارهم على الكفر، فدعا ربه الغلبة عليهم،
والانتقام لي منهم، فأجاب ربه لما فيه المصلحة فكان النصر له، والخذلان والخسران والندم لهم، في
وقت لا ينفع الندم.

٤٠ - ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾

قال الله عن قريب من الزمان وأقسم سيصبحون ويكونون نادمين على كفرهم وعنادهم وقت
الصبح .

٤١ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدَ اللَّغْوِ الظَّالِمِينَ﴾

الصَّيْحَةُ : صوت هائل مرعب مزلزل يؤدي إلى الموت، أي فأخذتهم صيحة العذاب المدمر
(بِالْحَقِّ) عدلاً من الله لا ظلماً بما كسبت أيديهم، في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) ﴿وَلَا
يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف / ٤٩، (فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً) فجعلناهم هلكى كالغناء والفقاعات، صاح

بهم جبريل صيحة رهيبة فصاروا لشِدَّتِهَا هلكى وغيثاء كغثاء السيل. **والغثاء** : الشيء التافه الحقيق من النبات الذي لا قيمة له ولا ينتفع منه بشيء، شبههم بالغثاء وهو يحمل السيل من زيد معه حشائش وأعشاب يابسة مبعثرة لا خير فيها ولا قيمة لها ولا رابطة بينها، **(فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** فبعداً لهم من رحمة الله، وهلاكاً ودماراً لهم بكفرهم وظلمهم، وهكذا الذي يتعد عن الله فيبعده الله عن فضله ورحمته، فيتعد عما ينفعه في الحياة وفي العلاقات وفي عالم الواقع وفي عالم الضمير فتموت مشاعره فيكون أخسر الناس. **﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**

النحل / ٣٣ **فائدة** : هؤلاء لما تخلوا عن كرامتهم التي كرمهم الله بها، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا، وقطعوا الصلة بالملا الأعلى، فلم يبق فيهم ما يستحق التكريم فإذا هم غثاء كغثاء السيل، وهذا من فرائد البلاغة القرآنية! وأن ينزل بهم في الآخرة من البعد عن النعيم والتكريم أعظم مما حلَّ بهم من العقاب في الدنيا، في نوح البلاغة خطبة ٨٦ **(السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ)** عن النبي (ص) **(مختصر)** **(يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى فُصْعَتِهَا، قَالُوا أَمِنْ قَلَّةٍ؟ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ عَدْوِكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، وَالْوَهْنُ : هُوَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ)** سنن أبي داود خير ٤٢٩٧.

٤٢ - **﴿نُورًا نَشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ فُرُوقًا أُخْرَيْنَ﴾**

فُرُونًا : أئماً. **أَنشَأْنَا** : خلقنا، ثم أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء المعاندين أئماً وخلائق آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط، وأقوام معروفة وغير معروفة. هكذا في إجمال يلخص تاريخ الدعوة ويقرر سنة الله الجارية، كل أمة تستوفي أجلها وتمضي للحساب. **فائدة** : **(فُرُونًا)** القرن من عمر الزمن مائة عام، ومن عمر الإنسانية جيل من أجيالهم، ويُقدَّر عمر الجيل بثلاث وثلاثين سنة .

٤٣ - **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾**

أَجَلَهَا : عمرها ومدة بقاءها وتأثيرها، كل ما عدا الله سبحانه له أجل مكتوب ومحدود، وأمد معين معدود، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، وهو أجل محتوم ومحسوم فما تملك أمة قبل أجلها وما يتأخر هلاكها بعده، أي ومنه هلاك الأمم وانقراضها، ولكل شيء ميقات محدود يقف عنده ولا يتعداه **كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** الرد / ٣٨ **﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾** الأنعام/٦٧، فكما أن لكل فرد وقتاً لميلاده وأجلاً محدوداً وموقوتاً لموته، كذلك الأمم لها وقت لميلادها ونشوتها وأجل محدود وموقوت تنهض فيه، وهكذا تتوالى الحضارات وتأخذ حظها من الرقي الرفاهية، ثم يغفلون عن أسباب رقيهم ووسائل تقدّمهم حضارتهم وتمرص وتهرم وتُموت فيه وتُحِلُّ محلّها أئمة أقوى منها، وهكذا تنشأ الحضارات وتموت، وهكذا يتبين أن لحركة التاريخ سننه وقوانينه الثابتة ونظامه المحكم الدقيق. **كقوله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾**

يونس / ٤٩ / **فائدة:** الأجل نوعان : محتوم ومخروم (مشروط) فالأجل المحتوم بانتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم أو جماعة أو أمة ما، والأجل المخروم (المشروط) قابل للتغيير بحسب تغير الظروف كقوله ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأنعام / ٢٠ .

٤٤ - ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَجَلًا يُبْعَدُونَ﴾
يُؤْمِنُونَ

تتراً: متتابعين متوالين للدلالة على الكثرة.

المعنى: ثم بعثنا الرسل متتالين يتبع بعضهم بعضاً، لأن الله سبحانه جعل لكل أمة رسولاً لتبليغ الرسالة ولإلقاء الحجة عليهم كقوله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء / ١٦٥ ، (كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من المكذبين المعاندين، سواء كذبوه أو قتلوه لا لشيء إلا لأنه جاءهم بحقيقة كبيرة لا تهواها أنفسهم العمياء الصمماء كقوله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج / ٨ ، (فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا) يمضي واحد ويأتي غيره من الرسل (أو) ألقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَجَلًا يُبْعَدُونَ) أخباراً تروى وأحاديث تُذكر، فجعلناهم وحضاراتهم عبرة لمن يعتبر وخبراً يتناقله الناس جيلاً بعد جيل تعجباً وموعظة، وهي أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهي حيث يمحو العين ويعفو الأثر ولا يبقى إلا الخبر العجب الذي فيه العبرة! (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ)، (فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) فبعداً عن رحمة الله أي فهلاكاً ودماراً ولعنا لقوم ضرر على هذا الوجود، لأنهم لا يصدّقون الله ورسله ورسالاته، ولا يعرفون الحق ولا يعملون به .

فائدة: ١- في الآية دلالة على أن عدم الإيمان والالتزام بمقتضياته سبب للهلاك والعذاب في جهنم، كما أن التصديق والاستقامة مدار للنجاة والتنعم في الجنان، ٢ - عن الإمام علي (ع) (مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ جَلًّا، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ ذَلًّا) روح البيان ٦ / ٨٥، ذَلٌّ: تواضع، يعني عرفان الرب يعطي جلاله وهيبته في معناه، وعرفان النفس يعطي ذلّة وتهذيب في النفس لمعرفة الرب، فبمقدار التهذيب والتركية لنفسه يعرف ربه بنفس المقدار من التركية لنفسه، في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) والعكس صحيح. ٣ - من الأسباب الموجبة لهذا التكذيب أن الأنبياء والرسل يخاطبون الجماهير عامة، ويحاولون إقناعهم برسالتهم بلغة العقل والقيم والحجة، مع الصبر والخلق، وقد تستفيد النخبة المختارة منها من ذوي العقل والعلم والتميز، أما السواد والجماهير العامة فلا تفهم (في الغالب) إلا لغة الترهيب والترغيب، أو لغة المحاكاة والمجارات والتبسيط، أو لغة الاتباع الأعمى كقوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف / ٢٢ .

٤٥ - ﴿ثُمَّ أَمْرًا سَلَّمْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

ثم أرسلناهما (بِآيَاتِنَا) ومعجزاتنا الواضحات الملمفة للنظر، وهي تسع آيات مثل العصا واليد البيضاء والجراد والطوفان وَالْقُمَّل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات، (وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) وحجة مقنعة ومعجزة واضحة ملزمة للخصم ومظهرة للحق، أي وعززناه بسلطة غيبية إلهية واضحة منعت فرعون من قتله، ودعمناه بأدلة منطقية وبراهين قطعية واضحة تتسلط على العقول وتؤثر في النفوس تمنع من الاعتداء عليه، فإن في قصة موسى أحداثاً وصحبته معجزات باهرات قاهرات تكاد تكون مثلاً فريداً بين قصص الأنبياء التي سبقتها، فائدة: والفرق بين (آيَاتِنَا) (وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) إن الآيات تعني أنواع المعجزات الخارقات الباهرات الحسية و(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) المنطق المعنوي النفسي القوي، والبرهان المؤثر الغيبي القطعي، فتكون المعجزات والآيات الحسيّة المحركة الظاهرة، تُتِم عمل المؤثرات الغيبية الفاعلة، فتكون كالسلطان المبين المؤثر على النفوس بشكل واضح، فأحدهما يُتِم عمل الآخر ويدعمه كقوله تعالى ﴿لَاذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ النمل / ٢١، بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: بحجة واضحة، في غرر الحكم (تكاد ضَمَائِرُ الثُّلُوبِ تَطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِ الْغُيُوبِ)

٤٦ - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾

أرسلناهما إلى فرعون الطاغية وقادة قومه وحكومته المتكبرين، فالناس تبع لزعمائهم بشكل أعمى من دون تدبر أنهم في الحق أو في الباطل، والناس على دين ملوكهم، عن الإمام الحسين (ع) (أَلْتَأَسُّ عَيْدُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ لَعِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحْوِطُونَهُ مَا دَرَّتْ مُعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مَحْضُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ) تحف العقول ص ١٧٦ (فَاسْتَكْبَرُوا) لذلك قابلوا الآيات الاعجازية بالاستكبار والأنفة والتعالي عن الإيمان بالله والخضوع إلى طاعته (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) متكبرين متمردين على الإيمان، وكانوا قوماً قاهرين لغيرهم بالظلم والعدوان، ويستعدون بني إسرائيل بالقوة القاهرة والإجرام، وهذا الاستكبار يولد الغرور والطمع، والاستبداد وقسوة القلب، فلا يقبل الخضوع للحقيقة، فرأوا من فرعون إلهاً وأهم حاشية إله!! عن الإمام علي (ع) (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَفِيدُ بِهِ الْهُدَىٰ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ!) البحار ٧٧ / ٢٩٣، فائدة: الفرق بين (فَاسْتَكْبَرُوا) و(كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أي فاستكبروا على رسالة موسى (ع) وطمعوا، فيرون أنفسهم أكبر من غيرهم (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) يُشَكِّلُ الْغُرُورُ وَالِاسْتِعْلَاءُ طَبِيعَتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ، وَبِنَاءِهِمُ الْفِكْرِي وَالثَّقَافِي فَهْمٌ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وَطَاغِينَ وَبَاغِينَ وَمَتَجَاوِزِينَ الْحُدُودَ، لِذَلِكَ تَكَبَّرُوا عَلَى اللَّهِ وَحَارَبُوا رَسُولَهُ وَرَسُولَهُ، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) (مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلَّا لِدَلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ) البحار ٧٣ / ٢٢٥ .

٤٧ - ﴿فَقَالُوا أَتُومِنُ بَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾

فقالوا أنصدق لرجلين مثلنا وتبعهما لا ميزة لهما علينا بل نحن نمتاز عليهما؟ (وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) منقادون خاضعون لنا كالخدم والعبيد؟ ويجب أن يقوموا هما أيضاً بعبادتنا كما قال فرعون لموسى كقوله تعالى ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء / ٢٩ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ أما آيات الله ومعجزاته التي معها لا إيقاع له ولا تأثير في مثل تلك القلوب القاسية الغارقة بحب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة، لأن الطغاة وأهل الدنيا ينظرون إلى المكانة الاجتماعية والجاه والمنصب للأفراد بدلاً من مراعاة المنطق واحترام المعجزة الخارقة، وهكذا تشابهت قلوبهم مع كفار قريش حين قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف / ٣١ فائدة: (عَابِدُونَ) وسمى الانقياد لهم عبادة، لأن من يخضع لإنسان ويطيع أمره كأنه عبده، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ أَطَاعَ رَجُلًا فِي مَعْصِيَةٍ فَقَدْ عَبَدَهُ) الكافي ٢ / ٣٩٨ .

٤٨ - ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾

فالسنة الإلهية تقتضي بتطهير الأرض من المكذبين الفاسدين بين حين وآخر، فأهلكناهم غرقاً في البحر الأحمر، عن الإمام علي (ع) (حُبُّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيَصُمُّ وَيُبْكِمُ وَيُذِلُّ الرَّقَابُ) البحار ٧٣ ص ٧٥ .

٤٩ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

ولقد أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملائه ليهتدي بها بنو إسرائيل، وقد تفرغ موسى لتربيتهم والرعاية العقائدية والأخلاقية لهم .

٥٠ - ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

وجعلنا قصة مريم وأبنها عيسى (آيَةً) معجزةً عظيمة تدل على كمال قدرة الله تعالى، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته أمه من غير أب، وتكلم في المهد صبيّاً، وأجرى الله على يديه المعجزات الخارقات للعادة، (وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ) الربوة: المكان المرتفع المستوي الواسع من الأرض، منخفض عن الجبل، وهي أحسن تربة صالحة للزراعة والسكن، المعنى: وجعل الله منزلهما ومأواهما إلى مكان آمن مرتفع من أرض بيت المقدس أو بلاد الشام (دمشق) أو مصر (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) القرار: المستقر، كل أرض مستوية مبسوطة، والمعين: الماء العذب الظاهر الجاري والصافي على وجه الأرض، لأجل الثمار والماء يستقر في الربوة لساكنيها، مع الرعاية والحماية والهداية والأمن والأمان والاطمئنان، فائدة: أشار إلى عيسى (ع) بقوله (ابْنُ مَرْيَمَ) هو ابن أمه مريم وليس ابن إله كما يدّعي النصارى، ولا ابن زنا كما يفترى اليهود كقوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ آل عمران / ٥٩ .

٥١ - ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) يخاطب الله الرسل جميعاً خطاباً مباشراً وكأنما هم مجتمعون الآن في صعيد واحد في خطاب واحد، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة المسؤولية الرسالية المهمة ووحدة الأهداف التي تربط بينهم جميعاً (كُلُوا) فالأكل من مقتضيات الحياة البشرية العامة، أما الأكل (مِنَ الطَّيِّبَاتِ) اللذيذة خاصة هو الحلال الخالص، فهو الذي يرفع البشرية ويزكيها ويصلها بالمأى الأعلى، (وَاعْمَلُوا صَالِحاً) فالعمل من مقتضيات البشرية كلها، أما العمل الصالح (النافع) فهو الذي يميز الصالحين المختارين النخبة، فيجعل لعملهم ضابطاً وهدفاً وغاية موصولة بالمأى الأعلى، الطَّيِّبَاتِ: ما يستطاب ويستلذ من المآكل المباحة ومن الفواكه، وكل حلال فهو طيب طاهر مفيد، ويقبله كل حرام فهو خبيث مضر، وهذا الأمر وإن كان موجهاً إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا أيها المسلمون في جميع الأقطار كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي ما لا يعصى الله فيه (والصافي) ما لا يتنسى الله فيه (والقوام) ما يقوي النفس ويقوم الجسم ويحفظ العقل كقوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف / ٣٢، عن النبي (ص) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) جمع البيان ٢٠٧ / ٧، وقدم أكل الطيبات على العمل الصالح للدلالة أن العمل الصالح لا يتقبل إلا إذا سبق بأكل الحلال الطيب، من المال الحلال الطيب، وبنية صادقة طيبة، فإن من كان في جوفه لقمة من حرام لا تقبل عبادته حتى يستغفر ويتوب، وأيضاً فإن ثمرة الأكل الطيب الحلال هو الأعمال الصالحة النافعة، (وَاعْمَلُوا صَالِحاً)

تقربوا إلى الله ورضاه بالأعمال الصالحة النافعة على إطلاق معناها وكميتها وكيفيةها، وكلما تعمم النفع ازداد الأجر، وارتفعت المنزلة، وكل ما فيه خير للناس فهو عمل صالح، وكل ما فيه شر وضرر على الناس فهو فساد في الأرض كقوله ﴿إِنِّي يَضْعَدُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر / ١٠، (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) إني بأعمالكم خبير عليم لا يخفى علي شيء منها وأنا مجازيكم بجميعها. فائدة: ١- إذا كان هذا مع الرسل فما ظن كل الناس بأنفسهم، ٢- في الحديث (كُلُوا الطَّعَامَ لِلْقُوَّةِ لَا لِلشَّهْوَةِ) (كُلِّ الطَّعَامَ لِيَحْمِلَكَ لَا لِتَحْمِلَهُ) ٣- والشكر لله بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة والفرد والمجتمع، ٤- نقول لمن يُجْرَم على نفسه الطيبات بعنوان الزهد أو التقشف أو الرهبانية، بأن التقوى والعمل الصالح والزهد في الحرام لا في الحلال كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ التحريم / ١ كقوله تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ الحديد / ٢٧ في نهج البلاغة حكم ١١٣-١١٤ (لَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبُهَةِ) (وَلَا زُهِدَ كَالرُّهْدِ فِي الْحَرَامِ). ٥ -

ليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته، وإنما المطلوب أن يرتقي بالبشرية إلى سلم تكاملها الإنساني الذي أراده الله لها، وجعل الأنبياء قدوة وسادة وقادة لهذا الأفق. والله هو الذي يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) هناك علاقة ما بين (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) و(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) نوع الغذاء له أثر في نفس الإنسان وعقله وسلوكه، وأكل الحرام يجفف منابع الروح ويقسي القلب ويئسي الله ويُنْعِصُ العيش ويُكْرَهُ الأيام، كقوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤ وقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ طه / ١٢٤ الضنك: الضيق النفسي ومعناه الكآبة، في غرر الحكم (إِذَا رَغَبْتَ فِي الْمَكَارِمِ فَاجْتَنِبِ الْمَحَارِمِ)، وعن الإمام الصادق (ع) في قوله (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) هي (الرِّزْقُ الْحَالِلُ) عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ عِبَادَةَ مَنْ فِي جَوْفِهِ لُقْمَةٌ مِنْ حَرَامٍ) تفسير المراغي ١٨ / ٣٠.

٥٢ - ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

(الأمة) هي الجماعة من الناس يجمعها مقصد واحد، فالأمة المسلمة يجمعها مقصد واحد هو الإسلام، فإذا اختلف المقصد كانت أمة غير مسلمة! وإن دينكم يا معشر الأنبياء جميعاً دين واحد وملة واحدة موحدة متحدة على التوحيد، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) وهو دين الإسلام، بمعناه العام وهو التسليم لأمر الله تعالى ووحدانية الله وعدم الشرك به سبحانه، واختلاف الشرائع والأحكام وفروع الدين بحسب اختلاف الأزمان والأجيال والأحوال، لا يسمى اختلافاً، لأن أصول الدين وأهدافه واحدة بين كل الأديان. فلما يتباغض الناس ويتفرقون شيعاً وفرقاً فطائفة تنسب إلى موسى وثانية إلى عيسى وثالثة إلى محمد (ص) والله تعالى رب واحد للجميع ودينهم واحد وهو الإسلام، والهدف واحد وهو رضا الله عز وجل، وبينهم تعدد أدوار ووحدة هدف، وهذا الهدف المشترك النبيل دعوة إلى وحدة الأخوة الإنسانية، وإزالة الحواجز النفسية التي تعزل المجتمعات الإنسانية بعضها عن بعض، عن الإمام علي (ع) (النَّاسُ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ) في الحديث (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) وقوله ﴿وَإِنَّا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ﴾ الأنبياء / ٥٢.

(وَإِنَّا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) وأنا ربكم ومربيكم وخالقكم ليس لكم رب سواي، لا شريك لي (فَاتَّقُونِ) فاطيعوني وخافوا عذابي وعقابي كقوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران / ٣٠ ولا تتفرقوا في ديني ولا عن عبادتي كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام / ١٥٩، وإذا كان الله تعالى هو الرب فتجب عبادته وشكره وطاعته فيما أمر من أحكام والاجتناب عما نهى عنه، ويعود سبب التفرق إلى أنانية البشر والحسد والحقد والهوى والشيطان، وليس هناك حرصاً على حفظ دين الله الواحد الموحد المتحد، ودين الله غير قابل للتجزئة

والتعدّد، فيجب القضاء على ما يثير التفرقة ليعيش الناس أمةً إنسانيةً واحدةً، كما أن الله ربُّهم واحد وإن كان سعيهم لشتى، **كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾** البقرة/١٤٨
فائدة: ١- (الأمة) تأتي في القرآن بمعنى الجماعة غالباً **كَقَوْلِهِ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾** الأعراف / ٣٨ أي دخلت جماعة، وندر ورودها بمعنى الملة (الدين) **كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾** الزخرف/٢٣ **عَلَىٰ أُمَّةٍ** : أي على ملة، ومنها بمعنى الحين وهو نادر **كَقَوْلِهِ ﴿وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾** يوسف / ٤٠ أي بعد حين من الوقت، وتقدم في الأنبياء/٩٢،
٢- (أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ) مُوَحَّدَةٌ مَتَّحِدَةٌ بالقوة، فعليهم أن يكونوا أمةً واحدةً مُوَحَّدَةٌ مَتَّحِدَةٌ بالفعل والتأثير، عندئذٍ تتلاشى آماذ الزمان وأبعاد المكان أمام وحدة الهدف النبيل التي جاء به جميع الرسل، ووحدة الطبيعة التي تميزهم ووحدة الخالق الذي أرسلهم، ووحدة الغاية التي تجمعهم، وإن اختلفوا في الوسائل والأساليب ولكن تجمعهم (كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وتوحيدُ الكَلِمَةِ) .

٥٣ - ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

فَتَقَطَّعُوا: أي قُطِّعُوا ومزَّقُوا (أَمْرَهُمْ) أمر دينهم وآخرتهم، (زُبُرًا) : فرقا وأحزاباً وجماعات، المعنى: فلم يمتثلوا لأمر الله رغم تلك الوصايا الإلهية بوحدة الكلمة في أمر الدين! فمزقوا الدين الواحد الذي لا يُجْزَأ ولا يُمَزَّق! فتفرقت الأمم في أمر دينهم فرقا عديدة وأدياناً مختلفة، هذا يهودي وهذا نصراني وهذا مجوسي .. إلخ وتفرقوا إلى جماعات متباغظة وأحزاب مختلفة ومذاهب متناحرة، حتى مزَّقوا وحدة الدين القيم مزقا بينهم وقطعوه قطعاً في أيديهم، ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده فمضى فرحاً لا يفكر في شيء، ولا يلتفت إلى خطورة هذا التمزق وسوء عاقبته، أنه أخذ القليل وفاته الكثير، وأغلق عقله عن كل جديد ومفيد، ولولا التحريف لكان الناس أمة واحدة في أديانهم ومذاهبهم، فصار الناس ضحّية التحريف والمحرّفين، بعدما أمروا بالاجتماع والتوحد وترك الاختلاف، فمن أين جاء الاختلاف والتشتت والتباغض؟ إنّه بسبب الجهل والشيطان والمصالح الخاصة وعدم الحرص على وحدة الدين القيم ووحدة المسلمين وعزّتهم!! (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) معجبون مسرورون، وأصبح كل فريق معجباً بنفسه راضياً برأيه فرحاً بما عنده لا يفكر في شيء، ويلغي الرأي الآخر! معتقداً (واهماً) أنه الحق والحق الرابع الذي لا يبدل عنه وغيره المبطل الخاسر، فهو الفرقة الناجية والباقي في النار **كَقَوْلِهِ ﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** الأنعام / ٤٣ فأخذتهم العزة بالأثم، والحق وحدة واحدة موحّدة متّحدة لا يقبل التجزئة **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالِ﴾** يونس/٣٢، (وَالْخِلَافُ يُهَدِّمُ الرَّأْيَ الصَّائِبَ) عن الإمام علي(ع) (لَوْ سَكَتَ الْجَاهِلُ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ) البحار ٧٨ / ص ٨١ وعنه(ع) (مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا حُبْنُ السَّرَائِرِ وَسُوءُ الضَّمَائِرِ) شرح النهج ٧/٢٤٦.

فائدة: قال (فَنَقَطُوا) ولم يقل (فَقَطَعُوا) أي أنهم هم الذين تقطعوا بتعمد وساهموا في تمزق وحدة الدين، لا أن الأمر هو الذي نَقَطَعَ نفسه كقوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ آل عمران / ١٩، أنهم بهذا الخلاف في ما بينهم قد أوقعوا الضرر بدينهم وبأنفسهم وبأمتهم على تعاقب الأجيال، فكان الصراع والقتال بينهم. لقد مضى الرسل (ع) أمة واحدة، ذات كلمة واحدة وعبادة واحدة رغم اختلاف الزمان والمكان! فإذا الناس من بعدهم أمم متنازعة وأحزاب متصارعة!! ويخرج التعبير القرآني الفريد المبدع ويبيّن هذا التنازع البغيض، في صورة حسبيّة عنيفة مؤثرة مكروهة يجب التوقّي منه! كقوله ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال / ٤٦ وقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران / ١٠٥ عن النبي (ص) (لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ) كنز العمال خير ٨٩٥ .

٥٤ - ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

فَذَرَهُمْ: تركهم، غَمَرَهُمْ: جهلهم وغبائهم العميق، وضلالهم الغامر البعيد، وأصل الغمرة الماء الكثير الغائر في أعماق الأرض، المعنى: شبه بإستعارة بلاغية فنية، وكناية تشبيهية جميلة فيربط العامل النفسي بالعامل الحسبي، شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة ويستترها، وجعله مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها بالغرق فيها، والغفلة عن التطلّع لما هو أحسن، وهم لا يشعرون أنهم في حذر وضرر وإلى خطر، المعنى: فترك يا محمد هؤلاء المشركين والغارقين في الحيرة والضلالة والجهالة، اتركهم (في غَمَرِهِمْ) في مستنقع ضلالهم وفسادهم وغفلتهم وسكرتهم (حتى حِينٍ) حتى يبعثهم العذاب الموعود فجأة، وهذه تسلية لرسول الله (ص) ووعيد للمشركين كقوله ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام / ١١٠ يَعْمَهُونَ: يتخبطون يتحيرون، وهكذا (الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةَ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَالَّذِي لَا يَهْدِيهِ الرَّحْمَنُ يَفْتَرِسُهُ الشَّيْطَانُ، وَيَجْدَعُهُ هَوَاهُ)، والهوى إله يُعبد من دون الله كقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الفرقان / ٣٤

٥٥ - ٥٦ - ﴿يُخْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ كُلِّ لَا يَشْعُرُونَ﴾

الهمزة لإنكار الواقع المتخلف واستقباحه، (أَيُخْسِبُونَ) أيظن هؤلاء الكفار المغرورون الغارقون في الضلالة، أن الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد إكراماً وإحساناً منا إليهم أو حبنا لهم في مدة المهلة لأعمارهم؟ كلا ليس الأمر كما يظنون، وإنما ٥٦ - (نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ) الإسراع: تعجيل ما ينبغي الإسراع فيه، لنفتنهم ونمتحنهم فيما نمدهم به، وهو استدراج لهم كقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف / ١٨٢ واستمرار إلى زيادة الإثم كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبَلِّسُونَ ﴿٤٤﴾ الْأَنْعَامِ / ٤٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ حَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران / ١٧٨ .

ولهذا قال (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) بهذا الابتلاء الناعم البطيء، والامتحان الشفاف المسترحي، بل لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر، أهو استدراج أم مسارعة في الخيرات، إنهم أشباه البهائم كقوله ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان / ٤٤ فائدة: ١- الآية رد على المشركين المترفين الذين يظنون أن أموالهم وأولادهم وترفهم دليل رضا الله عنهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ سبأ / ٣٥، وفي الحديث (إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا لِمَنْ يُوْحِبُ وَلِمَنْ لَا يُوْحِبُ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ يُوْحِبُ) تفسير المراغي ١٨ / ٣٢، ٢- البلاء في الغنى أشد من البلاء في الفقر كقوله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ طه / ١٣١ في غرر الحكم (اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ سَكْرَةِ الْعَنَىٰ فَإِنَّ لَهُ سَكْرَةً بَعِيدَةَ الْإِفَاقَةِ)، ٣ - هناك اختلاف بين مقاييس الناس ومقاييس الله، فعلينا أن نتميز بينهما بدقة في جميع أحوال حياتنا، عن الإمام علي(ع) (لَوْ كَانَ عِنْدِي حَرْفٌ بَاقٍ وَذَهَبٌ فَانٍ، لَفَضَّلْتُ الْحَرْفَ الْبَاقِيَ عَلَى الدَّهَبِ الْفَانِي) .

٥٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ بِهِمْ مُشْفِقُونَ﴾

وهنا يبين من صفات المؤمنين: ١ - أَنَّهُمْ مُشْفِقُونَ: خائفون من هيبه ربه في غرر الحكم (الْحَوْفُ حِلْبَابُ الْعَارِفِينَ) وزينة المؤمنين، وعنوان الصالحين، خوف الله بقدر العلم وصدق الإيمان كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُخَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر / ٢٨ عن النبي(ص) (مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفٌ، كَانَ مِنْ اللَّهِ أَحْوَفَ) البحار ٧٠ / ٣٩٣ لما أشار إلى الأحزاب المتفرقة والطوائف المتناحرة التي تعيش الجهل والجهل المركب والضلال الأعمى، ذكر هنا العارفين بالله المهتمدين بهدى دينهم الصحيح، بأنهم لا يؤثر عليهم، الواقع المتخلف المتفرق الجاهلي الفاسد الضاغط، مع شدة المعاناة التي يعانون منها، فتراهم متدينين ورعين لا يقربون إلى الحرام ويسارعون في الخيرات، ويجتهدون في الأعمال الصالحة النافعة للفرد وللمجتمع، ويتهمون أنفسهم بالتقصير في العبادة مع التزامهم بطاعة الله ورضاه، ويخافون من الهفوات والزلات والعفلات . فائدة : الفرق بين الحشية والاشفاق، الحشية: خوف مع علم وتعظيم والتزام، والحشية : خوف هيبه ورغبة وحب، لا خوف رهبة ورعب، والاشفاق: عناية حذرة، وطاعة دائمة ومحافة مزوجة بمحبة واحترام واجلال، عن النبي(ص) (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ٧٧ / ١٣٣ كقوله ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن / ٤٦، عن النبي(ص) (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةُ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) في غرر الحكم (إِذَا خِفْتَ الْخَالِقَ فَرَزْتَ إِلَيْهِ، إِذَا خِفْتَ الْمَخْلُوقَ فَرَزْتَ مِنْهُ) .

٥٨ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

٢ - من صفات المؤمنين : الآيات : الدلائل على وجود الله وعظمته ونبوة أنبيائه وصدق كتبه ورسله (يُؤْمِنُونَ)، ويؤمنون بآيات ربهم القرآنية والآفاقية والأنفسية ويصدقون بها ولا يشكّون فيها، ولا يكذبونها بقول وفعل بحيث يكون القول مصداق للفعل، والفعل عنوان للقول ولا يتعارض الفعل عن القول، ولا يختلف القول عن العمل، عن النبي(ص) (الإيمان: معرفة بالقلب، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ) كنز العمال خبر ٣ .

٥٩ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾

٣ - من صفات المؤمنين : (لا يُشْرِكُونَ) لا يراؤون ولا يُدَلِّسُونَ ولا يراوغون، لا يُشْرِكُونَ: لا في العقيدة ولا في العمل ولا في الدعاء، لا شركاً جلياً ولا خفياً ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر / ٦٥، في نهج البلاغة الرسالة ٣١ (لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، لرأيت آثار ملكه وسلطانه) والشرك الجلي الواضح أن تتخذ مع الله معبوداً تعبدته وتطيعه ويكون نداً لله، والشرك الخفي كالرياء والهوى وتحريم الحلال وتحليل الحرام، وعبادة المال، أي نفي الشرك كله بكل ألوانه وإخلاص العبادة لله طلباً لرضوانه، وجاء (لا يُشْرِكُونَ) بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والمداومة على التوحيد، وفيه معنى الإخلاص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر / ٣ في غرر الحكم (الإخلاص غاية الدين) فائدة : قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف / ١٠٦ وهو الشرك الخفي أن تطيع الشيطان والهوى وحبب الأنا وحبب الشهرة . . وغيرها فيشرك من حيث لا يعلم لتعلق القلب بغير الله، من دعاء النبي(ص) (اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ) كنز العمال خبر ٨٨٤٩، سئل الإمام الصادق(ع) عن أدنى الشرك فقال (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي ٢/٣٩٧ .

٦٠ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

٤ - من صفات المؤمنين: وَجِلَةٌ: خائفة، المعنى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) على سعة معناه، الذين يعطون العطاء المادي المعنوي من زكاة وصدقة وحقوق شرعية وغيرها في سبيل الله، ويؤتون الودائع والأمانات ويوقون الديون، ويقضون حاجة الناس من موقع مهم وجاه وسلطة، ويتقربون لله بأنواع القربات من أفعال الخير والبر للفرد وللمجتمع، الأفعال الكبيرة الباقية أو الصغيرة المؤقتة، وكل إنسان بقدره ومقداره (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) تستشعر الخوف، وهم يخافون أن لا يتقبل الله منهم أعمالهم، نلاحظ من صفات المؤمنين، إن المؤمن جمع إحساناً وشفقةً، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناءً خادعاً، في غرر الحكم (المنافق لنفسه مُدَاهِنٌ، وَعَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ) (أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أنهم متيقنون إلى ربهم راجعون فيحاسبهم على ما أضمروا وما أظهروا وما أخفوا وما أعلنوا،

(وَحَوْفُهُمْ) أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الطاعة والأعمال الصالحة وهو في نظرهم قليل، وهذا تنبيه على العناية بالخاتمة وحسن العاقبة. في الحديث (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ) فائدة: ١- (يُؤْتُونَ) جاءت بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار في فعل الخير وليس موقف طارئ وينتهي، ٢- الآية تدعو إلى الاعتدال بين الخوف والرجاء كقوله تعالى ﴿يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر / ٩ عن الإمام الصادق (ع) (أَرْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَا يَجُرُّكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَخَفِ اللَّهَ خَوْفًا لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ) البحار ٣٨٤/٧٠ .

٦١ - ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾

أولئك المتصفون بتلك الصفات التكاملية الجميلة الجليلة، هم الذين (يُسَارِعُونَ) يسابقون في الطاعات لنيل القربات، والحصول أعلى الدرجات دون غيرهم، وفيه مبالغة في التسابق وحافز على المنافسة (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) قادرون عليها، وظافرون بنيلها، وهم الجديرون بها والسابقون إليها والمتسابقون من أجلها فينالونها في الطليعة بهذه اليقظة وبهذه الطاعة، إنهم سبقوا الناس في أعمال ترضي الله في الدنيا من أجل هذا يسبقونهم إلى الجنة في الآخرة كقوله ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ آل عمران / ١٤٨، فائدة: السعادة الحقيقية ليست كما يتصورها المتزفون والمغرورون بالحياة الدنيا حيث المال والبنون، وإنما هي حقيقتها في إنجاز الأعمال الصالحة الباقية منافعها قريبة إلى الله كما يفعل المؤمنون، كقوله تعالى ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ الصافات/ ٦١ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/ ٢٦ وبهذا الخير فليتسابق المتسابقون كقوله تعالى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ الكهف / ٤٦، في غرر الحكم (ذُرُوءُ الْعَالِيَاتِ لَا يِنَالُهَا إِلَّا ذُووُ التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) وفيه أيضاً (من السعادة التوفيق لصلاح الأعمال) والسعيد بمقدار ما ينفع ويقدر ما يعطي.

٦٢ - ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَكَلِمَاتُكِ بَالِحَةٌ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

الوسع : ما يتسع على الإنسان فعله ولا يضيق عليه، لا نكلف أحداً من العباد (كل العباد) ما لا يطيق تفضلاً منا ولطفاً. أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين، إشارة إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم، وأن جميع التكاليف والأحكام الشرعية في حدود طاقة الإنسان، مع أنس النفس واطمئنان القلب كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق/ ٧ وقوله ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/ ٧٨ وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن / ١٦، لأن تكليف ما لا يطاق ظلم، والله سبحانه نهي عن الظلم ويعاقب عليه ولا يفعله (وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ) أي بالصدق الثابت المطابق للواقع، وعندنا صحائف أعمال العباد التي سَطَّرَ فيها ما عملوا من خير أو شر ويجزي الله عليها كقوله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿ الجانية / ٢٩ وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ الكهف / ٤٩ وهي محفوظة جميعها على شكل شريط متحرك مُجَسَّم ذي ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) من أعمالهم شيئاً بنقص ثواب أو زيادة عقاب، والله خير وأسرع الحاسبين عن النبي(ص) (حَسْبُنَا خُلُقُكَ يُخَفِّفُ اللَّهُ حِسَابَكَ) البحار ٧١ / ٣٨٣ .

٦٣ - ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَكَهَذَا أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾

غَمْرَةٌ : كناية بلاغية واستعارة تشبيهية مؤثرة عالية الدلالة عن جهل وضلال وغفلة شديدة تغمرهم كما يغمر أحدهم نفسه في الماء فيغويه، المعنى : لم تكن أجسامهم في غمرة (بَلْ قُلُوبُهُمْ) بل قلوب الكفرة المجرمين (فِي غَمْرَةٍ) في غطاء وانغماس وغفلة شديدة تغمرهم وتغطيهم، وعمى عن هذا القرآن الحكيم الذي يهدي إلى الحق فهم في عقدة معقدة، ويُعانون من صعوبات كثيرة، فالمشكلة أشدّ والبلاء أعظم والعلاج أصعب كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصفه / زَاغُوا : انحرفوا، وقد أخذ القلب هذه الأهمية لأنه مصدر حياة الجسد، عن الإمام الصادق(ع) (إِنَّ مَنزِلَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْجَسَدِ بِمَنزِلَةِ الْإِمَامِ مِنَ النَّاسِ) البحار ٧٠ / ص ٥٣ وهم في بُعد عن صفات المؤمنين المذكورة سابقاً من الآيات ٥٧ - ٦١ لأنهم مندفعون في طريق آخر غير النهج الذي جاء به القرآن (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصُرُّهُ الْبَاطِلُ) عن النبي(ص) (النَّاسُ نِيَّامٌ إِذَا مَاثُوا انْتَبَهُوا) روح البيان ١٣٢/٢ .

(وَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) ولهم أعمال وصفات وعادات خبيثة وفسادة وشريعة كثيرة غير ماهم عليه من الكفر والإشراك، كتحرير الكلام عن مواضعه والافتراء والاعتداء على الأبرياء، والغمز واللمز والقول الفاحش وحب الاستعلاء والحسد والحقد . وغيرها. في غرر الحكم (مَنْ اشْتَغَلَ فِي غَيْرِ الْمُهَيَّمِ ضَيَّعَ الْأَهْم) إنهم مستوى سافل فلم يدركوا ولم يتحسسوا هذا المستوى الرفيع الذي تحدثت به الآيات (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) عليها يُصَرُّون وفيها يتمادون وعلى ضررها يعتادون، ولا يقبلون من واعظ ولا يستفيدون من عبرة وموعظة، فائدة: (بَلْ قُلُوبُهُمْ) وخصت القلوب لأنها موطن المشاعر والتأثير في الإنسان، ومستقر المعتقدات والقناعات الصالحة أو الفاسدة. عن الإمام الباقر(ع) (العقلُ مَسْكَنُهُ الْقَلْبُ) البحار ٩٨/١، عن النبي(ص) (إِذَا طَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ طَابَ جَسَدُهُ، وَإِذَا حَبَّتْ الْقَلْبُ حَبَّتْ الْجَسَدُ) الخصال خبر ١١٠، عن الإمام الصادق(ع) (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَلَهُ أُذُنَانِ عَلَى أَحَدِهِمَا مَلَكٌ مُرْشِدٌ، وَعَلَى الْأُخْرَى شَيْطَانٌ مُفْتَنٌ، هَذَا يَأْمُرُهُ وَهَذَا يَنْزُرُهُ: الشَّيْطَانُ يَأْمُرُهُ بِالْمَعَاصِي، وَالْمَلَكُ يَنْزُرُهُ عَنْهَا كَقَوْلِهِ (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق/١٧-١٨) البحار ٧٠ص ٣٣، قيل: (مَا نَفَعَلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُحَدِّدُ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِنَا يُحَدِّدُ مَا نَكُونُ) .

٦٤ - ٦٥ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾

مشهد مثير حاسم من مشاهد يوم القيامة، يَصَوِّرُ انتباه المترفين عبدة الذات واتباع اللذات، على كارثة العذاب المفاجئة المباغتة وكأنما هو واقع اللحظة وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن في رسم مشاهد القيامة وكأنها واقع مشهود فاعل مؤثر حي، (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) أَخَذْنَا: الاستيلاء بعنف وشدّة كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمِّ شَدِيدٌ﴾ هود / ١٠٢، أي (أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) أغنياءهم وكبراءهم وأثرياءهم المسرفين، في غرر الحكم (وَالْغِنَى يُطْغِي، وَالسَّرْفُ يُعْمِي وَيُصِمُّ)، أخذناهم في هذه الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما، (بِالْعَذَابِ) العاجل كالجوع أو القتل أو الأسر، والعذاب النفسي والقلق المزلل والأرق المحطّم للاعصاب (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) يصرخون، إذا هم فجأة يصيحون كالوحوش ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة، وعن ابن عباس: ابتلاهم بالجوع الذي عذبوا به سبع سنين ٦٥- (لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ) لا يستغيثون اليوم من العذاب وهو يوم القيامة (إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ) لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة كقوله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف / ٩٩ .
فائدة:

١- (يَجْأَرُونَ) الجوار: صوت الوحوش الجائعة، صوت عالٍ مؤلم يبعث على التشاؤم، حاصل بلا اختيار عند شدة الألم، ثم استعملت كناية عن كل الآهات والصعقات غير الاختيارية النابعة من ضيق النفس وألمها المر، واستعملت هذه الكلمة في أسوأ المعاني وأقبح الصفات وأشدّ الحالات في القرآن الكريم، وتكون العقوبة على قدر الجناية، هؤلاء اعتادوا على الترف والسرف والرفاهية والاستهتار في الغنى، ولم تحصل لهم المكاره ولم يفكروا في المصير، فإذا ذاقوا العذاب وجدوا مسّه وأحسُّوا ألمه وشدّته لأنه أصابهم في الصميم، وهو أمر خالف ما اعتادوا عليه!، ٢ - (أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) يذم القرآن دائماً الترف والمترفين وهم عقبات في وجه الرسالات السماوية، والترف يجعلهم أشد الناس انغماساً في المذات والشهوات المحزّمة وحبّ الذات، ومبالغة في الذهول عن المصير واستغراقاً في المتاع والانحراف كقوله ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هود/ ١١٦ في غرر الحكم (اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ سَكْرَةِ الْغِنَى (وَعَمَةِ التَّرَفِ) فَإِنَّ لَهُ سَكْرَةَ بَعِيدَةَ الْإِفَاقَةِ) .

٦٦ - ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ﴾

كأنه قيل ما السبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال (تجأرون ولا تنصرون)؟ لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم (فكنتم على أعقابكم تنكبون) الأعراف : جمع عقب وهو مؤخر القدم، فكنتم تنفرون وتسخرون وتعرضون عن سماع آيات القرآن فضلاً عن تصديقها والعمل بها،

وكنتم كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق وعمائهم عن الهداية بالرجوع إلى الخلف بعكس دولاب الحياة المطمئنة، كأن ما يتلى عليهم خطر يحدرونه! فائدة (تَنْكِصُونَ) النكوص: النكص: الإدبار (أي) السير بالشكل المعاكس والرجوع إلى الوراء، والنكوص على الأعقاب تأكيد للمعنى، وهو كناية بلاغية تشبيهية عن شخص رأى شيئاً أو سمع كلاماً مخيفاً مقززاً فأصابه الذهول، فهرب منه بشكل معاكس، وهذا توبيخ لهم! ورجع إلى ما كان عليه نافرماً مما يسمع ويرى، كقوله (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) الفرقان/٤٢.

٦٧ - ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾

(مُسْتَكْبِرِينَ) الاستكبار: إعجاب المرء بنفسه فيراها أكبر من قدرها، وهو أعظم من غيره، وأشدُّ التكبر على الله بالإعراض عن رسله ورسالاته، والكبرياء لله وحده كقوله تعالى ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجاثية / ٢٧، ضمير (به) يعود للقرآن وللحق، سَامِرًا: من السمر وهو الجلوس بالليل للحديث في عبث وهو ولغو في القرآن والطعن فيه وبالرسول (ص)، فهم تعاملوا مع القضايا الكبرى المصيرية بسخرية، كما يتعامل الأطفال مع الجواهر على أنها حصي!!، تَهْجُرُونَ: من الهجر في الكلام وهو الهذيان أو الفحش في المنطق، وهو ما يتسبب غالباً في الهجر والفرق، إنه سوء أدب مع الله ومع رسوله ومع القرآن، المعنى: استكبرتم على الحقيقة، وتمردتم على الحق، وكذبتم القرآن العظيم، وتجعلون الطعن عليه موضوع أحاديثكم في سهراتكم الليلية التافهة التي تهجرون فيها وتهذرون، في سمركم وهوكم بالسوء والباطل وتُسَمُّونَ القرآن سحرًا وشعراً، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (من الفساد إضاعة الزاد، ومفسده المعاد) وها هو القرآن الكريم يرسم مشهد حسابهم وهم يجأرون ويصيحون بشدة طالبين الغوث، وكأنما واقع اللحظة بصورة حركية حسية حيّة، مؤثرة في المشاعر، ومحركة للضمائر، وهذا المشهد المثير يعمل صدمة في الوجدان ويزلزل الكيان البشري، مجرد التأمل فيه في تصوير الحال والمآل.

٦٨ - ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَهُمْ بَاتِ آبَاءَهُمْ هَذَا وَلَئِنْ﴾

استفهام للإنكار وقطع لأعدارهم، ماذا دهى هؤلاء؟ في عدم تدبر القرآن؟ وهذا توبيخ لهم، (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أي في هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من فصاحة وبلاغة وإعجاز، وعلوم وأحكام لصالح الإنسان، وما فيه من النور والهداية التي لها الجاذبية الدافعة إلى كل خير وفضيلة، وهم أمة بلاغة وفصاحة، والتدبُّر: التفكّر في دبر الأمور وعمق المعاني ودقة المباني وإيجاعات النص، وما أنزل الله تعالى على نبي من أنبيائه كتاباً أجمع منه وأكمل عقيدة وأجلّ شريعة وأجمل خُلق وأدب كريم وأنه الحق من ربهم، وهو الكتاب السماوي الخاتم، الجامع المانع الكامل بذاته

المكمل لغيره، فعليكم التصديق به والعمل على ضوئه؟ كقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص/٢٩ .

عن النبي (ص) (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كمن العمال خير ٢٤٥٤ يُتَوَرَّ: يتدبر ويتعمق (أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) والاستفهام إنكاري أيضاً، أم جاءهم مُجَدِّد (ص) من فكرة النبوة وإنزال الكتب من عنده سبحانه بشيء مبتدع غير معروف لم يأت مثله في آباءهم السابقين، فمن قبل الرسول مُجَدِّد (ص) نزلت الكتب السماوية وبعثت الأنبياء ولهم أمم وأتباع، إنها سنة قديمة لا يمكن إنكارها. كقوله ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف / ٩ وليسوا بدعاً من الأمم، فائدة: (التدبر في القرآن يفتح القلوب، وعدم التدبر ناتج من إغلاق القلوب وإقفالها) كقوله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ص/٢٤ لا يملك من يتدبر القرآن الكريم أن يبقى معرضاً عنه، ففيه من الجمال والكمال والجلال والتأثير الأخاذ للمشاعر، النفاذ في الضمائر، وفيه من التناسق والجازبية والتربية السامية، وفيه غذاء القلب وزاد الروح وانسراح الصدر وفيه تبيان لكل شيء، وتفصيل كل شيء، وما فَرَطَ اللهُ فيه من شيء، فيه كل العناصر التي تُحَرِّك الفطرة وتنعشها وتحميها وتليها، (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) إذن : فهذا سرُّ إعراضهم عن القرآن لأنهم لم يتدبروه ويتأملوا فيه ولم يتفاعلوا معه؟! وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَالشَّيْطَانُ عَلَيْهِ أَضِيقَ !.

٦٩ - ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ مُكْرِمُونَ﴾

تويخ آخر لهم أي : (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) مُجَدِّداً (ص) بالأمانة والصدق وعظيم الخلق، ولقبوه قبل الرسالة بالصادق الأمين، فهم يعرفون (رَسُولَهُمْ) حق المعرفة قبل بعثته بحسبه ونسبه وأخلاقه النموذجية كقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/٤ وكان (ص) حُلُمُهُ القرآن، وكان يقول (ص) (أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسِنَ تَأْدِيبِي) نور الثقلين ٥ / ٣٩٥، ومع هذه القمة في صفاته (ص) لم يأخذ أدباً من مؤدب، ولا تربية من مرب، ولم يقرأ ولم يكتب، وجاءهم بكتاب نموذجي يهدي للتي هي أقوم، فكيف ينكرون رسالته؟ وكيف لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم؟ والاستفهام للإنكار أيضاً، فلا وجه لإنكارهم له (ص) وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَأَلْبَاطُ عَلَيْهِ أَضِيقُ، عن الإمام الصادق (ع) (إن الله عزوجل أدب نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال (وإنك لعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ثم فَوَّضَ إليه أمر النَّاسِ والأُمَّةِ ليسوس عباده) نور الثقلين ٥ / ٣٨٩، في غرر الحكم (سياسة النفس أفضل سياسة).

٧٠ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

(أَمْ يَقُولُونَ) إِنَّ مُجَدِّداً (بِهِ جِنَّةٌ) به جنون مع علمهم أنه (ص) أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأحسنهم سلوكاً، وأما قالوا ذلك لِيُنْفِرُوا النَّاسَ عَنْهُ. وهذا أبشع الظلم، في غرر الحكم (مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ، ظُلْمُ الْكِرَامِ)، وهذا تويخ آخر وتعجيب من تفننهم في العناد وتلوغهم في الكفر والجحود

(بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ) (بَلْ) للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا، بل جاءهم مُخَدَّ بالحق المستقيم الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه وهو (الإسلام) (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) كارهون للحق من حيث هو حق، أي حق كان لا لهذا الحق فقط، فهم يكرهون كل حق وعدل وصدق، ومع وضوح الدعوة فإن أكثر المشركين يكرهون الحق لأن قلوبهم قاسية مملوءة من الانحراف والشكوك، لأن الحق يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، ويغير أهواءهم المتأصلة الفاسدة التي بها يعتزون، لقد جاءهم مُخَدَّ (ص) بالحق، في غرر الحكم (وَالْحَقُّ أَقْوَى ظَهِيرٌ وَأَفْضَلُ نَصِيرٌ) وجاءهم بالعدل والإنصاف والمساواة بين الناس في جميع الحقوق والواجبات، وفي غرر الحكم (حَيَّرَ النَّاسَ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ).

ولا امتياز لإنسان على إنسان إلا بما يقدمه من خيرات وخدمات للفرد والمجتمع كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣، ومن هنا جاء الحقد والكراهية والحسد، لأن الحق الذي جاءهم به وهو (الإسلام) ولم يوافق أهواءهم وأمزجتهم كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ نجاد / ٢٥، فائدة: ١- (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) وقد نسب الكراهية لأكثرهم للحق لأن منهم من لم يؤمن لقله فهم وعدم فطنة لا لكراهية الحق، ٢- والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الوجود ويطمئن القلب وتجري السنن في الكون والكائنات، ٣- والحق : هو الأمر المحكم الثابت، المؤثر بذاته والمؤثر على غيره، دقيق الحجة قوي البرهان، الذي يعتمد الصدق والعدل لا اختلاف فيه ولا تناقض، والحق لا يتجزأ فهو وحدة واحدة مُوَحَّدَةٌ مُتَّحِدَةٌ ويكون بعده الضلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يونس/٣٢ تعرضون، عن الإمام علي(ع) (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ) شرح النهج/٢/٩١١

٧١ - ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾

الحق هو الله تعالى كقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج/٦٢، الحق يدعو إلى المصالح والمحاسن، والحق هو المصدر الأول للأديان والقوانين والشرائع لسعادة الناس، والحق هو الثابت الذي لا يزول ولا يتزلزل ولا يتغير ولا يتحوّل ولا يتبدّل، والحياة قامت على الحق ولا بد له أن ينتصر في نهاية الجولة! (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ) ولو نزلت الأديان على ما يشتهون، وشرّعت القوانين كما يهون، لعمّت الفوضى وساد الضلال وهلك الحرث والنسل، واحتكروا خيرات الكون لأنفسهم وأولادهم وأقربائهم، والحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة ومتقلبة ولا حدود لها، وبالحق الواحد المحكم المؤثر الثابت، يدبر الله سبحانه الكون كله فلا ينحرف قانونه لهوى عارض، ولا تتخلف سننه لرغبة طارئة، ولو خضع نظام الكون

للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد نظامه كله، ولفسد الناس معه ولفسدت القيم والمبادئ والأخلاق، إذاً : بناء الكون ونظامه المادي واتجاهه إلى غايته السامية في حاجة إلى ثبات وإحكام وانتظام ونهج مستقيم مرسوم لا يتخلف ولا يجحد، وجعل الله سبحانه الإسلام الدين الذي يرضاه لعباده وبه تحيا وتسعد البشرية وتستقيم وتكترم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^{١٦٧} عمران / ١٩، وجعل الإسلام ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^{١٦٨} الروم / ٣٠. ونظامه وأحكامه وشرائعه جزءاً من القانون الكوني ونظامه الدقيق العام، بحيث يتناسق النظام الكوني مع النظام الإسلامي، وتتناسق السنن الكونية مع السنن الإنسانية، في وَحْدَةٍ وَاحِدَةٍ مُوَحَّدَةٍ مَتَّحِدَةٍ، وبذلك لا يخضع الحق الذي يدبّر النظام العام للأهواء والرغبات والشهوات، ولو تحكمت الأهواء ودخلت على الحق كقوة عاملة مؤثرة في الوجود لحصل الخلل والفسل على نظام الوجود كله.

(لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) أي يختل النظام الدقيق العام، وقد شاهدنا ما فعل ويفعل الطغاة المتحكمون والجرمون من البغي والاعتداءات وأنواع الفساد والتخريب والتدمير للبلاد والعباد، وتشجيع السلب والنهب ما يفوق التصور (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ) لم يتبع الحق أهواء هؤلاء المشركين ولم يجتهم الرسول بما تشتهي أنفسهم، بل جاءهم بالحق المحكم (والقرآن الحكيم) الذي فيه ذكروهم وسعادتهم ورفع قدرهم وعلوا إنسانيتهم، لو أنهم اتبعوه واستقاموا عليه (فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) فأعرضوا عن دستورهم ومنهج سعادتهم وهو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَدِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^{١٦٩} الزخرف / ٤٤، وجعلوه وراء ظهورهم ومصدر للسخرية والاستهزاء والتشكيك كقوله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^{١٧٠} الفرقان / ٣٠ إنهم هجروا العمل بالقرآن فهجروا سعادتهم وكرامتهم ومصدر عزتهم، وتسلب عليهم شرار الناس وذاقوا الأمرين استضعافاً وهواناً وتحلفاً، وقد تضاعل ذكروهم فأصبحوا لا قيمة لهم في المعادلة السياسية الدولية والمحلية، ولن يقوم لهذه الأمة ذكر وعزة وهيبة إلا يوم ترجع إلى مصدر عزتها وسعادتها الالتزام بـ(الإسلام) وأعاد لفظ (ذِكْرِهِمْ) تعظيماً للقرآن الكريم.

فائدة: إن الله أمر بمخالفة النفس الأمارة بالسوء كقوله ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^{١٧١} يوسف / ٥٣ وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^{١٧٢} الشمس / ٩ - ١٠، في غرر الحكم (سياسة النفس أفضل سياسة) وفيه أيضاً (صَلَّاحُ النَّفْسِ مُجَاهَدَةُ الْهَوَى) وسمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه إلى مستنقع السيئات، كقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^{١٧٣} الفرقان / ٤٣ والهوى : بمعنى أن تشتهي النفس كل ما ليس لها بحق، ودافعها الرغبات واللذات والشهوات أو التقاليد والطبائع والأمزجة الخاصة، بلا ضوابط من دين وعقل وحلال وحرام.

٧٢ - ﴿أَمْ سَأَلْتَهُم خَرْجًا فَأَخْرَجَ مِنْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

خَرْجًا : أجراً ومالاً وجزاءً وهو يقابل الدخل، **والخراج** : في الأصل ما يخرج من الأرض من ثمرات، والشيء الذي يستخرج من المال ومنه الخراج، إلا أن الخرج ذو معنى أوسع من الخراج، **المعنى** : (أَمْ سَأَلْتَهُمْ خَرْجًا) يا محمد أي أجراً على تبليغ الرسالة والهداية والتعليم، فلأجل ذلك لا يؤمنون؟!، وفي هذا تشنيع عليهم لعدم الإيمان، فمحمد لا يطلب منهم أجراً ولا مالاً ولا جزاءً ولا شكوراً، فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ (فَخَرَجَ مِنْكَ خَيْرٌ) رزق الله وعطاؤه خير لك يا محمد من أجرهم في الدنيا والآخرة، بل تحتسب ذلك عند الله وعليه وحده أجرك وثوابك، نلاحظ إضافة الخراج إلى الربوبية التي تفيد الرعاية والعناية والتربية، فهو الذي يعطيك ويكفيك، (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) والله تعالى أفضل من أعطى ورزق لأنه يعطي لا حاجة، وغيره يعطي لحاجة، بل احتسب كل معاناتك عند الله تعالى لا عندهم، وعليه وحده أجرك وثوابك وتكريمك وقد كفاك أمر دنياك وآخرتك، يوم يتصل قلب المؤمن بالله فإنه يتصل بالفيض الذي لا ينضب وبالنور الذي لا ينقطع، ويتضاءل هذا الكون كله أمام عظمة هذا الاتصال المهيوب المحبوب المرغوب في استقامة لا تحيد.

في الحديث القدسي (لَا تَسْعُنِي لَا أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ!) مواهب الرحمن ٩ / ٢١٥، **فائدة** : ما من نبي دعا إلى الله إلا قال (إِنْ أُجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) فأثبت الأجر على الدعوة إلى الله، ولكن اختار أن يأخذه من الله لا من المخلوق **كقوله** ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الشورى/٢٣ عن النبي (ص) (تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ وَلَا تَسْتَكْبِرُوا بِهِ) تنبيه الخواطر ص ٣٦٠، **وعنه** (ص) (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا يَعْطَلُ الْآخِرَةَ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) كنز العمال خير ٢٩٠٦٧، **وعنه** (ص) (مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ فَهُوَ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ) والمستَهْزِئُ بِنَفْسِهِ !.

٧٣ - ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : طريق واضح بذاته موضح لغيره، طريق لا عوج فيه ولا تقلب ولا تلون ولا يضل سالكه، وهو أقرب الطرق إلى رضوان الله، وهو إيصال سالكيه إلى الغاية المقصودة بأفضل الأساليب وأقل التكاليف وأسهلها. **المعنى** : الحقيقة أنهم ليسوا بمؤمنين بك، لأنك تدعو المشركين إلى الإسلام ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم / ٣٠ الذي تشهد العقول السليمة باستقامته وبقيمته العليا وقيمومته الكبرى، وبعده عن الضلال والهوى والاعوجاج والانحراف، إنهم إذا ساروا على نهجه أمنوا الزلل والخلل وسلكوا طريق العلى، في غرر الحكم (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُووُ التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) لأنه يصلهم بالنظام المتألق الذي يحكم فطرتهم ويصلهم في تناسق من

نظام الوجود وإلى خالق الوجود كله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، صِرَاطِ اللَّهِ ﴿الشورى/٥٢-٥٣﴾ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿آل عمران / ١٠١﴾ ، في نهج البلاغة خطبة ١٦ (الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ مُضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ (المُسْتَقِيمَةُ) عَلَيْهَا باقِي الْكِتَابِ وَأَثَارَ النَّبُوَّةِ وَمِنْهَا مَنَعَدِ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرَ الْعَاقِبَةِ) عن الإمام الحسن العسكري(ع) (الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطَانِ: صِرَاطٌ فِي الدُّنْيَا وَصِرَاطٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مَا قَصَرَ عَنِ الْعُلُوِّ وَارْتَفَعَ عَنِ التَّقْصِيرِ وَاسْتَقَامَ فَلَمْ يَعْدِلْ (فَلَمْ يَمَلْ) إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْآخِرُ فَهُوَ طَرِيقُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِي هُوَ مُسْتَقِيمٌ) البحار ٢٤ ص ٩، وفي الاستقامة السلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، ومن مصاديق الاستقامة، نهج الإمام علي(ع) والقرآن وسنة نبينا محمد(ص) الصحيحة، في نهج البلاغة ٨٧ (مَنْ نَظَرَ بِعَقْلِهِ، وَاسْتَبَصَرَ بِقَلْبِهِ، رُشِدَ وَهُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

٧٤ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ﴾

لَنَّاَكِبُونَ : منحرفون ومائلون عن طريق الرشاد، وزائغون عن الهداية وجائرون في التعامل وسائرون في متاهات مضلّة لا يُرجى لهم النجاة في نهاية حياتهم، يرحمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق، المعنى: والذين لا يُصَلِّقُونَ بالنشأة الآخرة، ولا يعترفون بالحياة بعد الموت ولا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجزاء، أنهم عن الدين القيم والطريق المستقيم والمنهج القويم (لَنَّاَكِبُونَ) معرضون ومنحرفون، مع الحاجة له ونصب الأدلة الكثيرة عليه!، والذي ينحرف عن الحق يقترب من الباطل بنفس نسبة انحرافه عن الحق كقوله ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (التقصص/٥٠)، فليست الآخرة إلا حلقة أساسية من سلسلة حلقات النظام الدقيق المنظم الشامل الذي ارتضاه الله لتدبير هذا الوجود، كقوله تعالى ﴿وَفَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (الزمر / ٢٦)، في غرر الحكم (الدُّنْيَا بِالِاتِّفَاقِ، وَالْآخِرَةُ بِالِاسْتِحْقَاقِ) في الحديث (من عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون) نور الثقلين ٣ / ٥٤٨ .

٧٥ - ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ اللَّجْوِ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

ولو رحمنا المشركين الذين كذبوك وعاندوك (وَكَشَفْنَا) ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحط وجوع وشدة بمكة سبع سنين وكشفنا عنهم هذا البلاء والعناء (لَللَّجْوِ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) لاستمروا وتمادوا في (طُعْيَانِهِمْ) واستكبارهم وتجاوزهم الحدود وتخطبهم في الضلال، (يَعْمَهُونَ) يتحيرون ويتخبطون حيارى، فلا تنفعهم رحمة وموعظة ولا ينفعهم تخويف بعذاب ونقمة. المعنى : بعد هجرة النبي(ص) من مكة إلى المدينة فراراً من جور المشركين، أخذ أهل مكة بالنقمة والجفاف

والمعاناة الشديدة حتى أكلوا وَبَرَ البعير مع الدم، أي لو رحم الله تعالى أهل مكة وكشف عنهم ما بهم من معاناة من بأساء وضرءاء، لتمادوا في الضلال والفساد ولم ينتفعوا بالبلاء والشقاء والعناء ودروسه، ولم ينتفعوا بالرخاء والرفاه والرحمة والخير ودروسه! إنها صفات القاسية قلوبهم والجافة نفوسهم والغافلين عن الله والمكذّبين بالآخرة، إنهم بلغوا في التمرد والعناد في الكفر حدّاً لا يُرجى معه صلاح لهم كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام / ٢٨ - فائدة: ١- (العمى) عمى العين (والعمه) عمى البصيرة وضلال العقل، وهو التردد في الأمر والأشد في الحيرة والقلق، كمن يضل عن الطريق ولا دراية له بالطريق، وعمه القلوب أشدّ بكثير من عمى العيون، وآثاره خطيرة ومميرة، ٢ - **يختلف الطغيان باختلاف الأفراد** : طغيان العلماء في العلم ويظهر عن طريق التفاخر والمباهاة، طغيان الأغنياء في المال ويظهر عن طريق بخلهم، وطغيان الصالحين في عمل الخير ويظهر عن طريق الرياء والسمعة والشهرة، وطغيان أهل الأهواء يتمثل في اتباعهم للشهوات وحب الذات والأنا.

٧٦ - ﴿وَقَدْ أَخَذْنَا لَهُمُ بِالْمِصَابِ وَالشَّدَائِدِ وَالْقَحْطِ وَالْجُوعِ وَضِيقِ الرِّزْقِ وَالْقَتْلِ بِالسِّيفِ، لِلتَّنْبِيهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ خَطَرِ قَادِمٍ (وَقَدْ أَعْدَرَ مَنْ أَنْذَرَ) وَمَعَ ذَلِكَ (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) مَا خَضَعُوا لِلَّهِ وَلَا تَوَاضَعُوا لَجَلَالِهِ مَعَ مَسِيهِمْ لِلضَّرْرِ.

ولقد ابتليناهم بالمصائب والشدائد والقحط والجوع وضيق الرزق والقتل بالسيف، للتنبيه والتحذير من خطر قادم (وقد أعدر من أنذر) ومع ذلك (فما استكانوا لربهم) ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله مع مسيهم للضرر.

(وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) ولا يتوجهون إلى الله بالدعاء والخلص، أي وما دعوا ربه وما تضرعوا إليه لكشف البلاء، بل استمروا على العتو والعناد والاستكبار لشدة جبروتهم! وقسوة قلوبهم، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم دعاؤهم كقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام / ٤٣، وهكذا تفعل القلوب القاسية بأهلها (وما قست قلوبهم إلا لكثرته ذنوبهم) كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤، أنهم أصحاب المشاعر الغليظة والعادات الخشنة والطباع الخبيثة التي لا تفقه لغة الكلام، لأنها نشأت على الحرام، وعاشت مع الحرام، وأكلت الحرام، فائدة: القلب متى اتصل بالله تعالى بتضرع رقّ ولانّ واستيقظ وتذكر، وكانت هذه الشفافية الرقيقة الحساسة المتصلة بالله هي الحارس الواقي من أضرار الغفلة والزلل، واستفاد من المحنة وانتفع بالبلاء، وأما حين يعمه في ضلاله ويستغرق في فساده فهو ميؤوس منه ومتروك لعذاب الآخرة كقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ الكهف / ٨٧ وقوله (فَتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) عبس / ١٧.

٧٧ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبَابًا دَاْعًا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾

وقد حذرهم الله تعالى من هذا العذاب الشديد، وتقدم إليهم بالوعيد الأكيد، ولكن هانت عليهم أنفسهم فأوردوها مورد الهلكة والهوان، عن الإمام الهادي (ع) (وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا

تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨، المعنى : (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ) وهو باب النقمة والهلاك، (إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) متحIRON آيسون من كل خير ومن كل نجاة، وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم وسكنت حركاتهم وخمدت مشاعرهم من الأهوال (والإبلاس) هو الحزن الذي يصيب الإنسان بعد وقوع حادثة شديدة ومريرة ويعقبه حيرة وحسرة ويأس شديد. كقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الروم / ١٢ في غرر الحكم (مَنْ لَمْ يَهْدَبْ نَفْسَهُ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ). ثم ذكروهم الله تعالى بنعمه الحسنية ذات الدلائل على قدرة الله ووحدانيته.

٧٨ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

ولو تدبّر الإنسان خلقه وصورته وهيئته، والذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم وأعقد تركيب، وكرمه أفضل تكريم فعليه أن يكرم نفسه، ليكون سيّد المخلوقات وخليفة الله على أرضه، فزوده بالحواس الظاهرة والباطنة والجوارح ووهبه من الطاقات والإمكانات والمدارك ليجد الله في كل شئ لأنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأنعام / ١٠٢ وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، عن الإمام علي (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ فِيهِ) مواهب الرحمن ٧/٣٠٠، ولاهتدى إلى الله سبحانه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد الأحد، فما أحدٌ غيرُ الله بقادر على إبداع هذه الحلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير. وأعظم هذه النعم وأكرمها (السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) والفؤاد وهو القلب الذي هو إمام (العقل)، عن الإمام الباقر (ع) (العقلُ مسكْنُهُ أَلْقَبُ) البحار ١/٤٨٨، فهذه الجوارح والحواس المؤثرة هي التي تجعل الإنسان إنساناً مكرماً إذا انتفع بها ووجهها الوجهة الصالحة، أولاً: قَدَمَ السَّمْعِ عَلَى الْبَصْرِ، لأن حاسة السمع تسبق حاسة البصر في عملها منذ مولد الطفل، والسمع تسمع في كل الجهات بينما البصر ترى من جهة واحدة، وتأخّر ذكر (الفؤاد) في السياق القرآني لأن دور العقل يتأخر عند الطفل، ويعمل الفؤاد عن طريق السمع والأبصار فهما وسيلتا عمله لذلك قدمهما في الذكر .

عن الإمام الصادق (ع) :

(الْقَلْبُ حَرَمُ اللَّهِ، فَلَا تَسْكُنُ حَرَمَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ) البحار ٧٠ ص ٢٥، وقد يزيغ وينخدع البصر كما في ظاهر انكسار الأشياء في الماء ولكن لا ينخدع السمع كقوله ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ ٤٢/ق، ونرى الوليد يتأخّر انفتاح عينيه بينما سمعه يعمل وهو في بطن أمه، ومن لا يسمع لا يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق، وإذا ذهب البصر قويت البصيرة، والقرآن يأتي (القلوب والأبصار) بصيغة الجمع ويأتي السمع بصيغة المفرد دائماً، والسبب: تستعمل السمع اسم جمع بمعنى المصدر، والمصدر يدل على الكثير والقليل فلا حاجة إلى جمعه، ثانياً : قَدَمَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ عَلَى الْفُؤَادِ وهو العقل أو القلب الذي هو مصدر الحواس وإمام العقل، لأنه لا

يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواس الإنسان كلها، وتؤدي وظائفها وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ، ومن هنا يبدأ الإدراك والتمييز. إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعدُّ كشفًا معجزاً في عالم البشر فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان؟! وفي ذلك توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا هذه النعم في مصارفها الصحيحة فهم بمنزلة عادمها، ومعطلها كقوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأحقاف / ٢٦ (قليلًا ما تشكرون) وهو خطاب للناس عامة، و (ما) لتأكيد القلة أي لا تشكرون، ولو شكرًا قليلًا مع كثرة إفضاله وإنعامه عليكم؟

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ سبأ / ١٣ والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة وتمجيد بصفاته ثم عبادته وحده، وأكثر الناس في غفلة عن تقدير وشكر هذه النعم، والآية تطالب العباد بالشكر على هذه النعم ﴿وَبِالشُّكْرِ تَدْرُومُ النَّعْمَ﴾ كقوله ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل / ٤٠ وقوله ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ غافر / ٦١، في غرر الحكم (الشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى، وَعِصْمَةٌ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَأَمَانٌ مِنْ حُلُولِ النَّقْمَةِ) وفيه أيضاً (أَقْلُ مَا يَجِبُ لِلْمَنْعَمِ أَنْ لَا يُعْصِيَ بِنِعْمَتِهِ) وشكر هذه النعم استعمالها في طاعة المنعم وعبوديته الخالصة، فشكر السمع حفظه عن استماع المنهيات وشكر البصر حفظه عن النظر إلى المحرمات وشكر القلب تصفيته من كل الأخلاق الذميمة ومن حب الدنيا، وأن لا يجعل فيه غير الله عزوجل، فلا يشهد غير الله ولا يجب إلا الله ولا يستمع إلا ما يرضاه الله كقوله ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الصافات / ٨٤، سئل الإمام الصادق (ع): في قوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/ ٣٦، قال (ع): (يُسْأَلُ السَّمْعُ عَمَّا سَمِعَ وَالْبَصَرُ عَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ وَالْفُؤَادُ عَمَّا عَقَدَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٧.

٧٩ - ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

والله جلّ جلاله هو الذي (ذَرَأَكُمْ) خلقكم وبتكم ونشركم (في الأرض) بطريق التناسل لتعمرها كلها ومن عليها كقوله تعالى ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود / ٦١ (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) وإليه وحده تجمعون في الآخرة بعد الموت للجزاء والحساب، فكما نشرناكم في الأرض لحكمة، كذلك نجمعكم لحكمة، وأينما تكونوا في الأرض فأنتم تحت قبضتنا ومرجعكم إلينا، كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/ ٦٠، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤. فالوجود نعمة لأنه خير من العدم، والحشر بعد الموت نعمة أخرى لأنه حياة جديدة خالدة لا موت بعدها، ووضع كل نفس في مكانها المناسب، فيحاسبكم على ما أحدثتم في هذه الخلافة على الأرض من خير وشر وهذه نعمة أخرى في يوم حاسم لا حاكم سواه سبحانه كقوله تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف / ٢٦، فلستم بمخلوقين عبثاً ولا متروكين سدى، إنما هي الحكمة

والمصلحة والتدبير والتقدير ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ ^{الرعد/٤١} فائدة: يربط القرآن الكريم دائماً بين مقدمة الإنسان ومؤخرته، وبين حياته وموته وبين روحه وجسده وبين دنياه وآخرته وبين أمله وعمله وأجله، لتتعلّم هذه القاعدة (الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ) لعلاقة المقدمة بالمؤخرة، وعلاقة الدنيا بالآخرة لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وهي ممر لمقر، وهكذا كقولهِ ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ^{غافر / ٣٩}، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارٍ إِقَامَتِهِ، حَلَصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُّهُ).

٨٠ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾

الحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ومع كل كائن حي عاقل وغير عاقل، وليس إلا الله يملك الموت والحياة من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء، فالبشر أعجز من بث الحياة في خلية مجهرية واحدة، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلباً حقيقياً عن حي من الأحياء، فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرّها ويملك أن يهبها ويستردها، والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحي من حياته على وجه الحقيقة. وإنما الله هو الذي يحيي ويميت وحده دون سواه، والإنسان يُهيء السبب إلى الموت، والله هو المسبب الرئيس له، قال (يُحْيِي وَيُمِيتُ) ولم يقل (أحيي وأمات) وإنما جاء (يحيي ويميت) على لفظ الفعل المضارع المستمر، ليدل على أن الإحياء والإماتة عادته المستمرة، وقدرته الفاعلة وسنته الدائمة ونظامه المقدر. (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي تعاقبهما، واختلاف الليل والنهار كاختلاف الموت والحياة، والليل والنهار سنة كونية كسنة الموت والحياة، وهذه في النفوس والأجساد، وتلك في الكون والأفلاك، وكما يسلب الحياة من الحي فيموت الجسد، كذلك هو سبحانه يسلب ضوء النهار من الأرض فيعم الظلام وتسكن الكائنات، نلاحظ تكون حياة ويكون ضياء، ونلاحظ يكون الظلام ويكون (النوم) الموت المؤقت، وله تعاقب الليل والنهار في حركة مقدرة منتظمة ومدبرة وعلى ضوئها تتغير حركة الأرض، ويؤدي إلى نشوء الأيام والأسابيع والشهور والسنين إلى أن ينقضي الأجل المكتوب للدينا.

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) في خصائصهما وفي الطول والقصر، اختلافاً منظماً باختلاف الفصول الأربعة للسنة، بحسب بقاع الأرض المختلفة مما يؤدي تعدد المشارق والمغرب، ومما يلفت النظر جعل السياق القرآني الموت والحياة إلى جانب اختلاف الليل والنهار لأنها سنة متشابهة مما يدل أن السنن الكونية لها علاقة بالسنن الإنسانية، وإن كان بينهما تعدد أدوار ولكن يشتركان بوحدة هدف سامية، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) تنبيهه إلى ضرورة إعمال العقول وتحريك التفكير في أسرار الكون والكائنات، وفي نهج البلاغة حكم ٢١١ (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى

أمير) وبالعقل تدرك الأمور ومُمَيَّزٌ بَيْنَ خَيْرِ الشَّرَّيْنِ، وأهْوَنَ الضَّرَرَيْنِ، عن الإمام الصادق (ع) (العقل : مَا عُبدَ بِهِ الرَّحْمَنُ، وَاكْتَسِبَتْ بِهِ الْجِنَانُ) البحار ١ / ١١٦ أفلئس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً، قادر على إعادة الخلق بعد الفناء للجزاء انتهاءً؟ فائدة: ١- في غرر الحكم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَأَعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا) عن النبي (ص) (اغتنم خمساً قبل خمس: فَبَادِرْ بِاسْتِثْمَارِ شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصَحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَفُؤُوتِكَ قَبْلَ ضَعْفِكَ) كنز العمال خير ٤٣٤٩٠، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ.

٢ - الذي يدبر أمر الحياة هو الذي يدبر أمر الموت ضمن مقادير مقدرة وأنظمة مدبرة وخاضعة للحكمة والمصلحة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرد ٨/ كذلك تعاقب الليل والنهار، وكل شيء في الحياة على أسس منظمة ومقادير مقدرة، فهي كلما تتأمل فيها تشعر بعظمة مبدعها، وكلما تبتعد عن التفكير والتدبر تبقى ترى كل شيء مخلوق بلا معنى، والحياة عبث وُخلقت سدى! كقوله تعالى ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ الحج ١٢ / في الحديث (تَفَكَّرْ سَاعَةً حَيَّرَ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ) ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرد ١٩ / البحار ٧١ / ٣٢٧، والتفكر حياة النفوس، وتنمية العقول، واكتشاف الأسرار، ومعرفة السنن، ولعل تفكر لقطعة تأمل علمية بدقة يعادل عمر الإنسان كله! ٨١ - ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا وَلَوْ نَ﴾

لم يكف هؤلاء هذه الدلائل المنظمة، أن تصغر مداركهم عن إدراك حكمة الله وقدرته على البعث، فإذا هم يسخرون مما يُوعَدُونَ من البعث والجزاء. (بَلْ) للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر، ولا يعتبرون بكل آيات الله، فتقليد الآباء والأجداد على باطلهم بلا تدبر منعهم من اتباع الحق، وإنما اتبعوا التقليد الأعمى دون برهان ولا بيان، والذي لا يفكر يقوده الذين يفكرون، ويكون ضحية من ضحاياهم، أنهم كانوا في ضلال مبين، لذلك شجّع القرآن على التفكير ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة ٢١٩ لأن حُسن التفكير حياة القلوب، وجلاء العقول، ويفيد الحكمة ويعصم من الزلل، ويهدي ويسدد في القول والعمل، ويهدي للتي هي أقوم .

٨٢ - ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْسُوتُونَ﴾

قالوا كيف نعود إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى، بعد أن نصير تراباً؟ فهم يستبعدون حصول البعث والمعاد إلى العالم الآخر، ولو أنهم نظروا إلى الليل والنهار مثلاً، لعرفوا أن النهار ينسخه الليل، وأيضاً الليل ينسخه النهار كقوله ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ النور ٤٤ / فدخول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل يكشف عن سُنَّةِ إلهية إنسانية متصلة بسُنَّةِ إلهية كونية، تبين كما يتداخل الليل بالنهار كذلك يتداخل الموت مع الحياة

بطريقة منظمة بالغة الدقة، كما تتداخل الأشياء بعضها البعض الآخر بمقادير مقدرة ومدبرة، كتداخل الشدة مع الرخاء، والعزة مع الذلة، والروح مع الجسد، والقوة مع الضعف، والنوم مع اليقظة، والأمل مع العمل، والعسر مع اليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح / ٥ - ٦، فهناك إذاً عسر يتخلله يسر، فلا عسر مستمر ولا يسر مستمر، وإنما عسر يتحرك مع يسر ويتداخل معه، كما يتداخل الليل والنهار والحياة والموت، فلا حياة مستمرة ولا موت مستمر، وإنما تتحرك الحياة مع الموت وتتداخل معه، فالموت دورة من دورات الوجود الإنساني، ومن أحب الحياة وكره الموت فيعيش أنصاف الحياة، لأنه أحب أحد الصديقين المتعاونين وكره الآخر، فلولا الموت لما امتدَّت الحياة بأهلها، فإن الموت ليس ضد الحياة وإنما صديق الحياة وبينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، فلا قيمة للحياة من دون صديقها الموت (وبالعكس) لذلك إذا لم تكن الحياة كما تريد فليكن الموت كما تريد، عن الإمام علي (ع) (أَطْلُبُوا الْمَوْتَ تُوَهَّبْ لَكُمْ الْحَيَاةَ)! موسوعة الشهادة ١ / ٢٨٧، فمن عدالة الله في حكمه تستلزم أن يتبع هذا العالم الدنيوي المغمور بالظلم، عالم آخر متسامٍ يعتمد الحق والجزاء والعدل والإحسان.

فائدة: ١- إنهم أنكروا البعث والنشور لاستبعاد ذلك بحسب عقولهم، وأنهم ما رأوا أحداً مات ثم عاد ثانية إلى الحياة ليخبرهم عما رأى، كم هو الفارق بين تفكير الجاهل المحدود وتفكير العالم واستدلالاته الرصينة، ألم يعلموا أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت وأن المحي هو المعيد، كقوله (أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ق/١٥، عن النبي (ص) (الْحَاسِرُ: مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، عن الإمام زين العابدين (ع) (العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٧ ص ٤٢، يرجعنا القرآن إلى السبب الجذري لعدم إيمان هؤلاء، وهو الكفر بالآخرة والذي سببه التشكيك والجهل والكفر بقدرة الله القاهرة، وقياس قدرة الإنسان المحدودة بقدرة الله اللامحدودة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ

عِبَادِهِ﴾ الأنعام / ٦١ .

٨٣ - ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ لَنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾

لقد سمعنا هذا من قبلك يا محمد وكذلك سمع به آباؤنا، ولكن لم يظهر له أثر في عالم الواقع، حيث يقولون من الذي مات ثم رجع وأخبر؟ (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أساطير: أكاذيب وخرافات اختلقها القدماء وسطروها في كتبهم وآمنوا بها، ولو كان هذا حقاً لوقع، فهذا كلام لا صحة له! **فائدة:** وفيه إشارة إلى أن الناس أغلبهم أهل جهل وتقليد أعمى من المتقدمين والمتأخرين، إلا من هداه الله بنور الإيمان والعلم والبحث والتأمل والتحقيق، وتبقى حقيقة البعث والنشور لها موعد خاص لا يتقدم ولا يتأخر تلبية لطلب جيل من أجيال الناس. وتبقى حقيقة

المعاد هي الحقيقة الكبرى التي لا بد أن تتحقق بكل تأكيد لأنها هي التي تعطي للحياة قيمتها ومعناها وفلسفتها، سواء آمن الناس بها أو أنكروها، ومن آمن بها استعد لها، ومن أنكروها اصطدم بعذابها فيندم، وأشد الندامة في يوم القيامة. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم / ٢٧، قيل: الحياة لغزٌ مبهم لا يفهم معناه لولا (الإيمان) بالله واليوم الآخر، (يوم القيامة ميزانٌ دقيق: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى).

٨٤ - ٨٥ - ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

احتج الله سبحانه على شبهات المشركين لإثبات المعاد بثلاثة براهين بثلاث آيات، (قُلْ) يا محمدُ جواباً لهم عما قالوه في إنكار المعاد: (لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا) من المخلوقات؟ ومن مالِكها ورازقها والمتصرف فيها بالإيجاد والافناء؟ (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك، وفيه استهانة بهم وإظهار لجهلهم، فائدة: دلت هذه الآيات وما بعدها على جواز جدال الكفار بالتي هي أحسن وإقامة الحجة العلمية عليهم، ونبّهت أن من ابتدأ بالخلق والإيجاد هو المستحق للإلوهية والعبادة، كقوله (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) الزمر/٦٢.

٨٥ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) معبراً عن الفطرة السليمة، الله خالقها وموجدتها ومدبرها ولا بد لهم من الاعتراف بهذه الحقيقة (والإعتراف بالشيء إعتراف بلوازمه) أي أن الاعتراف بقدرة الله هي اعتراف بالمعاد لأنه من قدرة الله اللامحدودة، (قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أفلا تفهمون وتعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته خلقاً جديداً بعد فناءه، لأن المالك له أن يتصرف بملكه حيث يريد، والمعاد إلى يوم القيامة حق يريده الله عزوجل ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف / ٢٩، وبالإيمان بالمعاد نعرف فلسفة الحياة! في غرر الحكم (حَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادُكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادُكَ).

٨٦ - ٨٧ - ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

فهو سؤال وجداني عن الربوبية المدبرة للسموات السبع طباقاً بما فيها من عوالم هائلة ومنظومات شمسية وكواكب وأقمار، العرش: الملك الخالص لا ينازعه فيه أحد، وهو رمز للاستعلاء وكناية تشبيهية تقريبية عن السلطان والسيطرة على الوجود كقوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ البقرة / ٢٥٥، فمن هو (رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)؟ ٨٧ - ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش ولا يتقون رب السموات السبع (قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تخافون من غضبه وعذابه كقوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران / ٣٠ فتوحدونه وتتركون عبادة غيره، وهي أنواع العبادات الضالة. فائدة: (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) الآية ٨٥ وقدم التذكّر على التقوى، لأنهم بالتذكّر يصلون إلى التقوى والعلم والمعرفة، وبعد أن عرفوه سبحانه علموا أنه يجب

عليهم إتقاء مخالفته (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) وَمَنْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَكُلَّ الْكَائِنَاتِ طَوْعَ أَمْرِهِ يَهْوَنُ عَلَيْهِ إِعَادَةُ مَنْ مَاتَ، كَقَوْلِهِ (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨.

٨٨ - ٨٩ - ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾

الْمَلَكُوتُ: أعظم الملك وخفايا التدبير، من صفات المبالغة، والإنسان إذا أخلص مع الله وطاعته فسوف يفيض الله عليه من بَحَلِيَّاتِ الْمَلَكُوتِ فيوضات خاصة مباشرة مميزة، روي: (عُضُوا أَبْصَارَكُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ: تَرَوْنَ الْعَجَائِبَ، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَائِقَ، وَتَنكشِفُ لَكُمْ الْأَسْرَارَ، وَتُنسِفُونَ مَعَ الْأَقْدَارِ) فِي الْمُنَاجَاتِ الشَّعْبَانِيَّةِ (إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجُبَ الثُّورِ، فَتَصِلَ إِلَى مَعْدَنِ الْعِظْمَةِ وَتَصِيرُ أَرْوَاحَنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ) البحار ٩٤ ص ٩٩ **كَقَوْلِهِ تَعَالَى** ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الأنعام / ٧٥ وهكذا العلم اللَّدُنِّيَّ **كَقَوْلِهِ تَعَالَى** ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف / ٦٥ أي (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) الملك الواسع التام؟ ومن يده خزائن كل شيء؟ خلقاً وإيجاداً في الدنيا والآخرة، ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتنظيم والتدبير والتقدير؟ وكل شيء خاضع لله تعالى ومفتقر إليه حتى أنفسنا ملك لله وليست لنا، كقوله (أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر/١٥ وتعبير (بِيَدِهِ) كناية مجازية تشبيهية للدلالة عن القدرة والإحاطة، (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) يُجِيرُ: يغيث يحفظ ويحمي وينقذ، أي وهو يحمي من استجار به والتجأ إليه (وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) وَلَا يغيث وَلَا يعين وَلَا يحمي أحد منه أحداً، وَلَا يمنع منه إذا أراد أحداً بسوء، لأنه ليس في العوالم كلها وما هو خارج من قبضته كقوله ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾

الفتح/١١٠

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أجيبي أن كنتم تعلمون وتدركون؟ ٨٩ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) الملك كله والتدبير لله تعالى (قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) قل لهم فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده سبحانه؟ فأنتم بعبادة الأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية والقناعات الصنمية قد سحرت عقولهم كأنما غابت عن رشدها، واعتراها الذهول فتصورت الأشياء على غير ما هي عليها. (تُسْحَرُونَ) السحر هنا كناية مستعارة ملفتة للنظر، وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط والتخبُّط، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبُّط والتخليط، وقد ثبت بالتجربة أنَّ تكرير الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير الحق حقاً، وتتوهم صدق ما يقال وإن كان

باطلاً (قيل : كَذَّبَ كَذَّبَ كَذَّبَ حَتَّى يُصَدِّقَكَ النَّاسُ) ويخدعون عقولهم في دينهم وديناهم، وآمنوا بالترهات والخرافات والأباطيل. فائدة: ورتب السياق القرآني هذه التوبيخات الثلاثة بالتدرج (أفلا تذكرون)؟ تنبيه بلطف (أفلا تتقون)؟ بتعبير شديد ومخيف، ثم قال ثالثاً (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) بتعبير أشد وأكثر تخويفاً وتعنيفاً وفيه تهديد خطير، أي قل فكيف يلبس عليكم الحق فتتخيلونه سحراً أو شعراً، وأني أسحركم بالقرآن المعجز رغم هذا الاعتراف بقدرة الله تعالى؟! كقوله (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ) الأنعام/١٥٥.

فائدة: (حقيقة الآخرة) تأكيد القرآن على يوم القيامة لترسخ هذه الحقيقة التربوية في نفس الإنسان كقوله تعالى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى / ١٧، فهي حقيقة مؤثرة في مشاعره فتصوغه صياغة جميلة من جديد، فتجعله ينسج كل حياته وعبادته ومعاملاته على ضوئها، حتى يفهم الحياة الدنيا بشكل صحيح، وحتى يعرف قدره ولم يتعدَّ طوره، ويعيش الاستقامة في أقواله وأفعاله، ويعيش التوازن والاعتدال بين مطالب روحه مع جسده، وديناه مع آخرته، وأمله مع عمله، وحياته مع موته، وبذلك يتعد عن النفاق والتقلب والتلون والتذبذب والتغير، ويعرف كيف ينتهي، فيعرف كيف يبدأ، في غرر الحكم (لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ عَلَىٰ آخِرَاهُ)

٩٠ - ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

بل جئناهم (بالحق) بالقرآن الحكيم (وبالرسول) الصادق الأمين، صاحب الخلق العظيم، (وبالرسالة) السهلة السمحة القيّمة، وكلها تعتمد على الحق وتنطلق منه وتدعوا إليه وتدافع عنه والذي فيه سعادة البشر، وقد بينا هذا الحق وأوضحناه بالحجة البالغة والأدلة القاطعة، حتى أصبح واضحاً كنور الشمس ليله كنهاره، ولكنهم أصروا على كذبهم وباطلهم، (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) بدعوى الإيمان والاعتراف بالله، عن الإمام الصادق (ع) (الإيمان عمَلٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضُهُ) البحار ٦٩ ص ٢٣، ولا إيمان بلا عمل صالح، مع العلم أنه لا أثر ولا شيء على أرض الواقع يدل على الإيمان في أعمالهم، عن النبي (ص) (لَا يَقْبَلُ إِيمَانٌ بِلَا عَمَلٍ، وَلَا عَمَلٌ بِلَا إِيمَانٍ) كنز العمال خير ١ ص ٦٨، في الآية دلالة واضحة على أن مَنْ يدّعي الإيمان بالله ويصُرُّ على معصيته فهو منافق، يكذب على الله وعلى الناس في دعواه. في غرر الحكم (بِالْكَذِبِ يَتَزَيَّنُ أَهْلَ النَّفَاقِ).

٩١ - ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَدٍّ وَكَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمْلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾

تتوالى الأدلة القرآنية العقلية على تثبيت التوحيد، القاعدة الأساسية لكل الرسالات السماوية، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس، والدُّكْرُ حياة القلوب) لأن التوحيد يفتح الآفاق ويكشف لك فلسفة الحياة لتعرف أسرار الوجود، فتري العجائب، فتتسَّق مع الأقدار، فمن سعى إلى الله قرّبه إليه ودله عليه، ومن بحث عن الله تعالى وجده واطمان إليه، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ

اللَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥، نبه الله تعالى بالدليل العقلي على امتناع إلهين، ما اتخذ الله ولداً مطلقاً وليس له شريك كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١٠، وقوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور / ٣٥ ، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وإلا لكان هو متولداً عن غيره بالتناسل المعروف أو كتولد النبات من الحبوب والبذور، بينما الحقيقة ﴿كُلُّ لَهٌ فَانْتُونُ﴾ البقرة / ١١٦ كل الكائنات لله عابدون منقادون (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ) ليس معه من يشاركه في الإلوهية والربوبية (إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ) ولو كان معه سبحانه إله لا نفرده كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر (وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) وَلَتَكْبَرُ وطلب بعضهم قهر بعض ومغالته كحال ملوك الدنيا، والمشاهد أن الكون منتظم متناسق كقوله ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ الملك/٣، وقوله (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨ (المعنى العام): لو كان للكون خالقان، لا ختص كل واحد بجزء من الكون له حدوده ونظامه وخصائصه المتميزة عن الجزء الآخر، مع أن نظام الكون واحد وخصائصه واحدة، فخالقه إذن واحد، ولو تعدد الخالق لا استدعى ذلك أن يكون كل واحد غالباً ومغلوباً، وقاهراً ومقهوراً في آن واحد، ومن صفات الإله أن يكون هو الأعلى دائماً على كل شيء، وإلا لم يكن إلهاً، بالإضافة إلى التنافس والتناحر بين الآلهة على السيطرة والسلطان والتوسعة في سلطانه، عن الإمام علي (ع) (كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ) شرح النهج ٢٣٧/٧، (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) تنزه الله وتقدس وتعالى عما يصفه به الظالمون الجاهلون من الولد والشريك. فائدة : إنَّ الجسد الإنساني لا يقوم عليه إلا سلطان واحد، وهو القلب كقوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب / ٤، ولو أنه كان هناك قلبان في جسد واحد لا ختل نظام الجسد كله، والكون هو جسد كبير يحكمه نظام قدير، ويقوم عليه سلطان خبير كقوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء / ٢٢ وقوله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَا بَتَّعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُفُوتُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء / ٤٢-٤٣، في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِلَهِي أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَيْكَ، إِلَهِي كَيْفَ تَخْفَىٰ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ)

٩٢ - ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

ثم وصف الله تعالى نفسه بصفات الكمال والجمال والجلال فقال (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الْغَيْبِ: عالم كبير واسع الدلالة، وهو ما لم يكن، أو كان ما هو كائن وموجود ولكنه غائب ومخفي عن عالم الخلق، وَالشَّهَادَةِ: أيضاً عالم كبير مشهود، ماقد كان وحضر وتشاهده العيون وأمكنهم العلم به، المعنى : (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أي عالم السر والعلانية، والظاهر والباطن،

والأرواح والأجساد، يتساوى علم الله بالغيب وما هو باطن ومخفي، مع علمه بالشهود والحضور، وهو الله تعالى العالم بما غاب عن الأنظار وبما تدركه الأبصار، ولا تخفى عليه خافية في شؤون الكون والكائنات، فهو سبحانه موجود في كل مكان **كقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾** الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، أنه سبحانه وتعالى عالم بما كان أمس وما يكون الآن وما سيكون، ومن كانت هذه صفته لم يكن له شريك. وهو سبحانه المحيط بكل شيء وليس هناك أحد يحيط بعلم الله، كقوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) البقرة/٢٥٥، فهو المتفرد في علمه وقدرته (فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تقدس وتنزه الله عن إشراكهم في صفته وقدرته وألوهيته وفي دعائه .

كقوله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الجن ٢٦ / ٢٧
 عن الإمام علي(ع) (كُلُّ غَيْبٍ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ ، وَكُلُّ سِرٍّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ) التفسير المبين ص ٤٥٤ ، فائدة:
 ١- أنه سبحانه (عالم الغيب والشهادة) عالم بما كان وبما سيكون وبما لم يكن أن لو كان كيف يكون، فهو الأعلى والأقدر من كل شيء في صفته، ومن كان بهذه الصفة التي فوق الأوصاف لا يكون له شريك، كقوله (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الرعد/١٦ ، ٢- (الغيب) ما غاب عن الحسِّ وهو قسمان: قسم لا دليل عليه كقوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام / ٥٩ ، وقسم له دليل: كالإيمان بالله وبالرسل والرسالات والجزاء والحساب، عن النبي(ص) (الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) كنز العمال خبر ٣٠٧٣١ ، وهناك غيب غاب عنك، وغيب غبت عنه : فالذي غاب عنك عالم الأرواح وهو معك، أما الذي غبت عنه بالوجود وهو الله تعالى، فهو قريب منك وأنت لا تشعر كقوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق / ١٦ ، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ .

٩٣ - ٩٤ - ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرْبِنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

إِنَّمَا تُرْبِنِي : إن أرْبِنِي، وفي هذا الالتفات يدعو الله سبحانه نبيه(ص) أن يطلب إلى ربه ألا يكون بمشهد بئس لهؤلاء المشركين حين يحلّ بهم بأس الله، أي قل يا رب إن كان ولا بد من أن تربني ما تعدهم من العذاب في الدنيا فلا تعدّهم وأنا فيهم (أو) قل رب إن عاقبتهم فلا تهلكني بما تهلكتهم به، لأن العقوبة العامة تعم عند نزولها العاصي وغيره، ونجني من عذابك بلطفك كقوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال / ٢٥ ، عن النبي(ص) (وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ) تفسير المراغي ١٨ ص ٥٣ .

٩٤- (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فلا تعذبني معهم، وكرر (رَبِّ) مبالغة في الدعاء والتضرع والترحم، أي رب فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بملاكهم، كما هلك موسى كليم الله (ع) وأخوه هارون في التيه مع بني إسرائيل، وكما استشهد الإمام الحسين (ع) على يد شرار الناس!، وهكذا إذا حانت السنن التاريخية وقت تنفيذها فإنها تأخذ الأخضر واليابس، كالفيضان يكتسح الجميع وعند الله عاقبة الأمور! **كقوله** ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/٢٣ والنبي محمد (ص) حبيب الله فهو أجل مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين، ولكنه أمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله وحفظاً من طوارق الليل والنهار، فهو زيادة في الوقاية والحماية والرعاية، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ وهذا يدل على أن البلاء ربما يعم أهل الولاء في الدنيا ولكن في نجاة منه في الآخرة، وإن للحق سبحانه أن يفعل ما يريد، ولو عذب البر لم يكن ذلك منه ظلماً على ضوء حركة السنن التاريخية.

كقوله ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الأعراف / ١٥٥، في نهج البلاغة خطبة ١٩٥ (في صفة الله سبحانه) (لَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُلْهِمُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ!) وفي خطبة ١٨٦ (يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَةٍ!) **كقوله** ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة / ٩٨، وأن يظلوا دائماً في يقظة وأن يلوذوا دائماً في دعائه وحمائته سبحانه، وهذا يكشف لنا عن الارتباط بين الأسباب والمسببات، وأن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب اللازمة والممكنة لكل أمر يريد **كقوله** ﴿إِنَّا مَكْنَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤-٨٥، في غرر الحكم (لكلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) .

٩٥ - ﴿وَأَنَا عَلَىٰ أَنْ نُرِكَ مَا نَعِدُهُمْ قَادِرُونَ﴾

أندز النبي (ص) قريشاً بالعذاب على تكذيبه وإنكار نبوته، فضحكوا وسخروا فقال الله سبحانه لنبية لا تحزن نحن قادرون على أن نريك العذاب قريباً الذي وعدناهم به باستحقاقهم وبما كسبت أيديهم، ولكن نؤخره لحكمة لإلقاء الحجة الكاملة عليهم، أو يكون من أصلابهم مؤمنين، ونمهلهم لمصلحة توجب ذلك لعلهم يرجعون إلى الله بالتوبة **كقوله** ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَهَلَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر / ٤ - ٥ **وقوله** ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الأنفال / ٣٣ .

٩٦ - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ) ادفع بالطريقة التي فيها أحسن الأساليب لدفع تصرفاتهم الماكرة وأقوالهم السيئة التي تأتيك، فإن الرد الأحسن من الإنسان الأحسن، فإن لم تستطع فبالإحسان

الجزئي، فإن لم تستطع فبالصفح العزيز عنهم، حين نزول هذه السورة المكية كان منهج الدعوة دفع السيئة بالتي هي أحسن، والصبر الجميل حتى يأتي أمر الله، إذن : يختلف الدفاع بالأحسن تبعاً لحال المسيء وطبيعته وظروفه، فإن أغراه الإحسان بالمزيد من الإساءة والعدوان، فتركه أفضل وأحسن، في نهج البلاغة حكم ٢٥٩ (الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْعَدْرِ عَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْعَدْرُ بِأَهْلِ الْعَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ) وإن كان الإحسان علاجاً لداء المسيء وسبباً لندمه وتوبته، كان هو الأفضل والأكمل. **معنى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ)** قد يكون استعمال القوة لردع المعتدي دفاعاً بالأحسن، وذلك إذا كان المعتدى عليه يملك القوة الرادعة، وكان السكوت عن المسيء يغيره بالإساءة والعدوان ويعتبره ضعف وفقر، عن النبي(ص) (إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يُوضَعْ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠، في غرر الحكم (إِخْلَطِ الشَّدَّةَ بِرُفْقٍ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَوْفَقَ) عن الإمام علي(ع) (إِذَا كَانَ الرَّفْقُ حَرْقًا (أي إساءة للرفق) كَانَ الْحَرْقُ (الْعِلَاطَةُ) رِفْقًا، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً) البحار ٧٥ ص ٥١، كقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) التوبة/٧٣، وقد يكون السكوت عن المعتدي والصبر على أذاه والصفح عنه دفاعاً بالأحسن، إذا أدى الاغضاء والصفح عنه إلى ندمه وتوبته من إساءته **كقوله ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾** الحجر / ٨٥، أو كان المعتدى عليه عاجزاً عن الردع، فإن مقاومة الإساءة - في حالة الضعف - تحدث تمادي المعتدي في اعتدائه وفرعته عليه . ومن أجل هذا صبر الرسول مُخَدِّ(ص) على أذى قومه، وهو في مكة لعجزه عن الردع، ثم أذب المعتدين بعد هجرته إلى المدينة لأنه كان يملك القوة الرادعة (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) نحن أعلم بما يحالهم وبما يكون منهم من التكذيب لك والاستهزاء بك وسنجانهم عليه، ونحن أعلم بما يصفوننا به مما لا يليق بساحة قدسنا من الشريك والولد، ومع ذلك التجاوز لا ترد السيئة إلا بالأحسن والأفضل، وهذا خير سبيل لا يقاط العاصين وتنبه الغافلين.

فائدة: ١- هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، **٢-** ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنه أَدْعَى لجلب المسيء إلى الحق وأقرب إلى ندمه وأسفه وتوبته، ويتصف العافي عن الناس والصفح عنهم بصفة الإحسان ويقهر بذلك عدوه الشيطان وفيه ثواب من الله تعالى **كقوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** الشورى / ٤٠ **وقوله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُو حَظِّ عَظِيمٍ﴾** فصلت / ٣٤ - ٣٥، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَ نَبِيَّهُ فَأَحْسَنَ أَدَبَهُ، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُ الْأَدَبَ قَالَ (وَإِنَّكَ لَعَلَى حُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم/٤، ثم فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ وَالْأُمَّةِ لِيَسُوسَ عِبَادَهُ) نور الثقلين ٣٨٩/٥.

٩٧ - ٩٨ - ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ: نزغات ووساوس الشيطان الفنيّة المتنوّعة المغرية الخادعة، وهي أشد أنواع الوسوسة. **المعنى:** نقل بتوجّه وابتهاج ربّ (أَعُوذُ) أعتصم وأحتمي بك وألجأ إليك في كل حين من (هَمَزَاتِ) تدخلات الشياطين وإغواءاتهم المغرية على الباطل والمعاصي من الجن والإنس، واحتمي بك يارب من الشر الذي يصيبني بسبب همزات الشياطين ووساوسهم، وهذه استعاذة عامة بالله من مادة الشر كله وأصله وأهله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان الرجيم ومن كل حيله ومسه وإغوائه، **كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** الأعراف / ٢٠٠، **فائدة: ١-** إذا كان النبي (ص) وهو حبيب الله وفي حماه، يطلب الغوث والحماية من الله من هذا العدو اللدود الراصد الخبيث، فأولى بالناس أن يستكثروا من طلب الغوث والالتجاء والاعتصام بالله من الشيطان الرجيم، انهم مع عدو دائم لئيم مخادع متربص بهم ينتظر غفلتهم ليضلهم إلى ما فيه السوء في دنياهم وآخرتهم، وإن كان هذا السوء ظاهره يغرّ ويسرّ ولكن باطنه يضرّ ولو بعد حين، **كقوله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** الحجر/٤٢، **عن النبي (ص) (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ)** وعنه (ص) (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ) روح

البيان ١٠٤ / ٦

٩٨ - (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ) وَأَعُوذُ بِكَ: وأعتصم وأحتمي بك يارب (أَنْ يَحْضُرُونَ) مجرد حضور، أي أن يقربوا مني فيجعلوني من الغافلين عن الله، وأن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي أو يتآمروا عليّ في أموري وعبادتي ومعاملاتي، أو يحوموا حولي لإضلالي في جميع أحوالي وأشكال حاجاتي وعبادتي ومعاملاتي، ليعيدوني عن طاعتك، أو حين إقامة الصلاة أو عند تلاوة القرآن أو عند الموت، لأنه جاء بعدها ذكر الموت، وكرر (أَعُوذُ) للمبالغة بالارتباط بالله وزيادة الرعاية بشأن الاستعاذة والاعتصام بالله، **عن النبي (ص) (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلْبَةِ الدِّينِ، وَغَلْبَةِ العَدُوِّ، وَشِمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)**. الاستعاذة بالله في الآية من مجرد حضور الشياطين وفرهم، فكيف من همزاتهم ووسوساتهم؟! فعلينا أن ندعو الله ألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً **كقوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾** الأعراف / ٢٠١.

٩٩ - ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾

كثيراً من الناس لا يحذرون الشيطان ولا يستعيدون بالله منه، فيفسد عليهم دينهم ويغرقون بالذنوب ثم يظنون هكذا في غفلتهم (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) **كقوله ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾** التكاثر / ١ - ٢، وانكشف عن عينيه غطاء الحقيقة ما بعد الموت عند انتهاء

الأجل وحين الاحتضار ظهرت له أحوال الآخرة، ورأى ما قدم من منكرات ندم على ما فات كقوله تعالى ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق/٢٢ عن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا)! روح البيان ٢ / ١٣٢، ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إلى دنيائي دار التكليف، فيقول أحدهم (رَبِّ ارْجِعُونِ) على لفظ الجمع لتعظيم الحالة الرهيبة التي اصطدم بها، باعتبار أنهم سألو الله ثم استغاثوا بالملائكة وطلبوا العودة إلى دار الدنيا ليكونوا مؤمنين صالحين كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام / ٢٨ ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ على سبيل الفرض، وقوله (وَحَرَامٌ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِكُنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) الأنبياء/٩٥، وجاء السياق القرآني المؤثر وكأنما المشهد معروض للحظة للأناظر. عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ) ثم ذكر الآية، البحار ٩٦ ص ٢١.

فائدة: هناك روايات واردة في الرجعة مخالفة لظاهر هذه الآية وغيرها كقوله ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ الدخان/٥٦ في نهج البلاغة الخطبة ١٠٧ (حَيْثُ لَا إِقَالَةَ وَلَا رَجْعَةَ) وفي خطبة ١٨٨ (فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ).

١٠٠ - ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

(لَعَلِّي) ترجياً للنجاة بما يشرف عليه من عذاب، بمعنى: لكي أعمل صالحاً فيما ضيَّعت من عمري في ترك الإيمان والأعمال الصالحة وعدم الإنفاق في سبيل الله، ولم أقدم الخدمات اللازمة للناس مع قدرتي على تقديمها (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) (كَلَّا) كلمة ردع وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا سواء أكانوا صالحين أم طالحين، فإن طلبه للرجعة كلام لسان لا فائدة فيه ولا جدوى منه، وقد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون .

لأن كلامه في الرجعة ناتج من حسرة وشدة ندامة لا قيمة لها، وهو أيضاً غير صادق ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام / ٢٨، أنها كلمة تقال في لحظة الضيق وليس لها في القلب من رصيد. (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) وَمِنْ وَرَائِهِمْ: من أمامهم، بَرْزَخُ: الفاصل بين شيئين، والحاجز ما بين الدنيا والآخرة، وما بين الموت والبعث في القبور، أي وأمامهم وبين أيديهم حاجز يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا وهو عالم البرزخ (عالم القبر) يلبثون فيه إلى يوم القيامة الكبرى كقوله تعالى ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ إبراهيم / ١٦ أما القيامة الصغرى الخاصة تكون في عالم البرزخ وعبر عنها النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٣/٢٢، وعنه (ص) (يبعث كل عبد على ما مات عليه) كنز العمال خبر ٤٢٧٢٢، عن الإمام زين العابدين (ع) (في الآية، هُوَ الْقَبْرُ، أَنَّهُ لِرُوضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٍ مِنْ حُفْرِ النَّارِ) نور الثقلين ٣/٥٥٣، فيكونون في البرزخ فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة بين بين إلى يوم القيامة الكبرى، حيث يزول عالم البرزخ وينتقل

الناس جميعاً إلى العالم الآخر، حيث الحشر والنشور والحساب والجزاء والثواب والعقاب، ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب! والمعاد هو الحقيقة الكبرى الأساسية الثابتة التي تعتمد عليها جميع الأديان السماوية، فهي إذن ضرورة حياتية لأنه بواسطتها تفهم فلسفة الحياة، حيث لا حياة حقيقية إلا في دين الله القيم الأصيل، لأن الدين القيم حياة النفس، والحياة بلا دين الله القيم اجترار الحياة، حياة بلا علة وهدفية سامية أسعى من أجلها، حياة لا يملؤها الرحمن فيملؤها الشيطان، ومن لا ينفعه الرحمن يضُرُّه الشيطان، كقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨ وقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْأَلْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧، في غرر الحكم (الموت أول عدل الآخرة) .

١٠١ - ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

النفخ في الصور كناية عن قيام القيامة الكبرى، ونفخ في الأجساد لإعادة أرواحها، وهي النفخة الثانية نفخة البعث والنشور لكل الموتى للحساب، أي فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ) فلا قرابة ولا تعاطف ولا نسب ينفعهم يوم القيامة، لزوال التراحم والترابط بين الناس من شدة الهول والحيرة والدهشة والذهول، كقوله ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ عيس/٣٤ - ٣٧ (وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه ولا يتعارفون لاشتغال كل واحد بنفسه ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ العلاج / ١٠، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ الطور / ٢٥، لأن يوم القيامة حشرٌ طويل وفيه مواقف مختلفة ومشاهد متنوعة، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها لا ينطقون، وهنا يتسألون عند القرار في الجنة أو النار، فائدة: ١- عن النبي (ص) (كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ إِلَّا حَسْبِي وَنَسْبِي) مجمع البيان ٧ / ٢٢٦ عن الإمام السجاد (ع) (خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَأَحْسَنَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ سَيِّدًا قَرَشِيًّا ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ، وَقَالَ وَاللَّهِ لَا يَنْفَعُكَ عَدَا إِلَّا تَقْدِمَةٌ تُقَدِّمُهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ) كنز الدقائق ٦ / ٦٥٠، وعن النبي (ص) (ثَلَاثَةٌ مُوَاطِنٍ تُذْهَلُ فِيهَا كُلُّ نَفْسٍ حِينَ يُرْمَى إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابَتُهُ، وَعِنْدَ الْمَوَازِينِ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ) الرازي ٢٣ / ١٢٢، كقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ الانفطار / ١٩ .

١٠٢ - ١٠٣ - ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَلَحُّونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾

في يوم القيامة توضع الموازين الدقيقة العادلة لحساب أعمال الناس، ويرى كل ميزانه وما يوزن فيه، فتلك الأعمال الصالحة هي التي يقام لها وزن، ويكون لها في الميزان ثقل، ويصوّر القرآن عملية

الوزن بميزان الأعمال في سرعة ودقة مُتناهية، ويُجسّم المعاني في صورة حسّية حيّة ومشاهد حركيّة مؤثّرة. (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بوحدة، وهنا يصوّر القرآن تجسيم المشهد، وإظهار المعاني في صورة حركيّة مؤثّرة في المشاعر، ثقل الموازين بصدق الإيمان أولاً والأعمال الصالحة النّافعة للناس، ومن كان له عقائد صحيحة ثابتة وأخلاق حسنة، فإن لها وزن ثقيل عند الله وهو الوزن المعنوي (الدقيق) إذن : الموازين وسيلة قياس عالية الدقة. وأقوى الدلائل على صدق المؤمن أنه كان خيره مأمولاً وشرّه مأموناً في غرر الحكم (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ)، فإن ذلك رجحان في الميزان لزيادة ثقل حسناته على سيئاته (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فهم السعداء الذين فازوا بما عملوا ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران / ١٨٥ فهم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب، والحائزون لكل مرغوب. أما الأعمال السيئة فلا وزن لها لأن هذا الميزان الإلهي ميزان معنوي عالي الدقة، ميزان صدق وحق وعدل، لا يوضع فيه إلا ما كان حقاً وعدلاً وإحساناً كقوله ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ الكهف / ١٠٥ .

١٠٣- (وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ) من كفر بالله أو ضلّ عن سبيله أو آمن به ولم يؤدّ حق الله وأعرض عنه واعتدى على حقوق الناس، وكان ضرّه أقرب من نفعه، في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ كَانَ ضَرّاً عَلَى النَّاسِ) وكثرت سيئاته وازدادت على حسناته، (فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) فهم الأشقياء الرّعناء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وإلقائها في التهلكة، والعذاب الأليم بتدنيسها في مستنقع الكفر والمعاصي والفساد وتوافه الأمور، فما الفائدة أن أربح كل شيء، وأخسر أهم شيء، وهي نفسي؟! ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام / ١٢، (في جهنّم خالدون) في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً كقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر / ٣٨ وعن النبي (ص) (الْحَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، وفي غرر الحكم (مَنْ أَفْنَى عُمُرُهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ) فائدة: ١- كل الأعمال في الدنيا لها معيار وتقدير، فهناك ميزان ومعيار لكل عمل من الأعمال للدلالة على دقة الحكم وتفصيل الحساب، لذلك جاءت (مَوَازِينُهُ) بالجمع لتعدد الموازين المعنوية والمعايير النموذجية المميزة، أي أن لكل عمل ميزان خاص، للصلاة ميزان، وللحج ميزان، للمال ميزان...، ثم تجمع موازينه. ٢- المراد بالموازين هنا أحكام الله وشريعته، فمن جاءت أفعاله وفق أمر الله، وتروكه على وفق نهيه تعالى فهو بمنّ ثقلت موازينهم، وإلا فهو من الذين خفّت موازينهم ﴿وَوَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء / ٤٧، عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الْحَيْرَ ثَقُلَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ ثِقَلِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ حِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كنز الدقائق ٤٤٨/٣ .

١٠٤ - ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُحُونِ﴾

مشهد مثير من مشاهد أهل النار، تَلْفَحُ : تحرق (وُجُوهُهُمُ النَّارُ) بشدة حرّها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء وأدقّها وأكثرها تحسس، وأعظم ما يصاب منها ويحافظ عليها، وهو الصورة الخاصة المميزة عن بقية الوجوه، فبيان سوء حالها أكثر تأثيراً وأزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، (وَهُمْ فِيهَا كَالْحُحُونِ) كَالْحُحُونِ: عابسون مكشرون في غموم وهموم وآلام، قد تقلّصت شفاههم وتنكشف عن أسنانهم لشدة الحرق فيكونون كرأس الخروف المشوي! في مشهد حسّي مؤدٍّ ومؤلم ومؤثّر، يصوّر القرآن شديد مايلقونه كأنه حدث الآن ! وتكون العقوبة على قدر الجناية .

١٠٥ - ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

ما الذي أدى بكم إلى هذا المصير المؤلم؟ يقال لهم توبيخاً (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ) تقرأ عليكم باستمرار، قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت عنكم الشبه ولم يبق لكم حجة كقوله ﴿لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء / ١٦٥ (فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها وتصرون على التكذيب، بينما أصبح الإيمان بها من البديهيّات، والجدال في البديهيّات من أشكال المشكالات، وأصبح الإيمان بالمعاد من أهم الحقائق، والذي ينكر الحقائق لا يلغي وجودها، وتبقى الحقيقة ناصعة وإن أنكرها الجاهلون! والله سُبْحَانَهُ لَقَدْ أَمْهَلَ حَتَّى كَانَهُ أَهْمَلًا، وَلَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَانَهُ عَفْرًا، وَلَقَدْ أَنْذَرَ حَتَّى كَانَهُ أَعْدَرًا! فهذا جزاؤكم، فدوقوا عذاب الخزي بما كنتم بآيات الله تكذبون، لقد مرّ عليهم العذاب الحسّي والجسدي (على فضاعته) فإذا هم بالعذاب النفسي أفضع، والعذاب المعنوي أشد، حيث التائب والملامة والندامة والخزي الذي يصاحبه باستمرار. فائدة: نلاحظ أنّ فعلي (تُتلى) و(تُكذِّبُونَ) مضارعان بمعنى استمرار تلاوة القرآن عليهم، وكذلك هم يواصلون التكذيب (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ يَصْرُهُ الشَّيْطَانُ) .

١٠٦ - ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

شِقْوَتُنَا: شقاوتنا وكبرياؤنا وسوء حالنا وهي نقيض السعادة، وهي الأعمال السيئة المؤدية إلى الشقاء والعناء وسوء العاقبة، المعنى : قالوا : ربنا استولت علينا (شِقْوَتُنَا) أهواؤنا وشهواتنا وغلب علينا جهلنا وطيشنا وعنادنا (وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) ونحن نعتزف بأننا كنّا قوماً ضالين لأنفسنا ولغيرنا لإعراضنا عن الحق، اعتراف تتجلى فيه شدة المرارة والحسرة ولكنه بعد فوات الأوان،

وهكذا يقود الهوى إلى الشقاء والعناء كقوله ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان / ٤٣، والهوى: إله يُعبَدُ من دون الله لذلك صار الهوى شريك العمى، لأنه يهوي بصاحبه إلى سوء العاقبة من حيث لا يعلم. لماذا لم تغلب عليكم العظات والبراهين البيّنات، وإنما تغلبت عليكم الشهوات وحبّ الذات واللذات! والإناء ينضح بما فيه، وكل ينفق مما عنده (وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) كقوله ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك/١٠-١١ فائدة: ١- (شِفْوَتُنَا) سُمِّي اللذات الحرمة والأهواء (شِفْوَةٌ) لأنهما تؤديان إليها ولو بعد حين! لأن الحرّمتين تؤدي إلى الشقاء، والشقاء يؤدي إلى الحرّمتين، في جدلية متبادلة ومتعادلة. كقوله ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم/٤١، وقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧، وقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْتُومًا) الإسراء/٢٢، في غرر الحكم (أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِهِ).

١٠٧ - ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾

ربنا أخرجنا من النار ورددنا إلى الدنيا لنعمل صالحاً (فَإِنْ عُدْنَا) فَإِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بَعْدَ ذَلِكَ (فَإِنَّا ظَالِمُونَ) نكون قد تجاوزنا الحدود الحمراء الخطيرة في الظلم والعدوان، فلا نستحق الرحمة، وهذا آخر ما يتكلمون به، فائدة: ١- طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت! ولا رجعة إلى الدنيا، وهم كاذبون في وعدهم كقوله تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ الأنعام/٢٨، ولم يُبَيِّحِ اللَّهُ لَهُمْ حِجَّةَ بَلٍ قَطَعَ أَعْذَارَهُمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَوَابًا لِسُؤَالِهِمْ، وَهُمْ يَزْجُرُونَ زَجْرًا عَنِيفًا قَاسِيًا. ٢- رَبَّنَا خَضْنَا تَجْرِبَةً فَاشَلَّةَ، وَأَنْهَيْنَا عَمْرُنَا فِي مَا لَا يَنْفَعُنَا، فَدَعْنَا يَارَبَّنَا نَعِيدُ التَّجْرِبَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً بِخَبْرَةٍ جَدِيدَةٍ، وَهِيَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، فَلَوْ كَانَ لِلإِنْسَانِ نَفْسَانِ، نَفْسٌ تَجْرِبُ الْحَدِيثَ، وَنَفْسٌ تَرَى النَّتَائِجَ، وَلَكِنْ لِلإِنْسَانِ نَفْسٌ ثَمِينَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِنْ خَسَرَهَا خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام / ١٢، فما الفائدة: أَنْ أُرْبِحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟!.

١٠٨ - ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾

اخْسُوا: كلمة بليغة للردع العنيف، أي اسكتوا صاغرين سكوت ذلة وهوان، وهي كلمة تستعمل في زجر الكلاب وطردها، ففيها إهانة وإبعاد عن رحمة الله. المعنى: قال الله تعالى لهم: اخسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهانين، وامكثوا في نار جهنم سافلين صاغرين فلا رجعة لكم إلى الدنيا، فانكم تستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين، فإني لستم في مقام سؤال ولا تعودوا لمثل هذا السؤال، (اخْسُوا) أعظم قول يسمعه المجرمون في التوبيخ والقمع والذل واليأس من كل خير، وهذا الكلام الغليظ من ربِّ رحيم أشدَّ عليهم وأبلغ في نكابتهم من عذاب

الجحيم (وَلَا تُكَلِّمُونَ) ولا تكلموني بأي كلام فلا أقبل منكم أي قول كقوله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق / ١، في غرر الحكم (أعظم البلاء انقطاع الرجاء).

١٠٩ - ١١٠ - ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿

ثم بيّن السبب لما أخذهم الله به من عذاب أليم (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي) المؤمنين الصالحين (يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا) ربنا صدقنا بكلماتك وبمنهجك المستقيم (فَاغْفِرْ لَنَا) تجاوز عن ذنوبنا الماضية (وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وارحمنا بالهداية والتوفيق للعمل الصالح، وأن نقدم ما ينفع الناس ويقدمهم وينهض بهم حضارياً وأنت أرحم الراحمين، وكان هذا دعاؤهم في الدنيا، تكشف الآية عن حالة المؤمنين الصالحين أنهم يدعون ربهم وهم بين الخوف والرجاء، مثل بلال وخباب وصهيب وغيرهم من فقراء الصحابة، كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون منهم، ١١٠ - (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي) سِخْرِيًّا : هزواً. فسخرتم منهم وبيماهم واستهزأتم بهم وبصلاحهم (حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي) حتى نسيتم بتشاكلهم بهم واستهزأتم عنهم عن طاعتي وعبادتي (وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) تهزؤون في الدنيا وهي من الذنوب الكبيرة، لم يكن جرمهم أنهم كفروا واقتصروا على أنفسهم بالكفر وهو جرم عظيم، وإنما بلغ بهم السفه والوقاحة أن يسخروا من آمنوا واستقاموا وأحسنوا وجعلوا منهم مادة للضحك واللغو، والاستهزاء، فإن بحس الناس أشياءهم يؤدي إلى الفساد في الأرض! كقوله ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الشعراء / ١٨٣.

في غرر الحكم (وقرأوا أنفسكم عن الفكاهات، ومضاحك الحكايات، ومحال الترهات) فائدة: ١- (حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي) إشارة إلى أن اشتغال هؤلاء المشركين بالسخرية من المؤمنين قد ألهاهم عن ذكر الله وصرفهم عن التدبر في القرآن الكريم، فأمنوا العقاب فأساؤوا الأدب، وتعدوا الحدود وهذه من صفات الحمقى، إنهم شغلوا بغيرهم عن إصلاح أنفسهم كما أن نسيانهم لذكر الله يحثهم على الاستهزاء بالمؤمنين، فكل من الأمرين يمد الآخر فهي جرأة بعد جرأة، وهذا شأن كل من ينشغل بأمور الناس ويجعلها همّه وشغله الشاغل، وإنه ينسى تربية نفسه ويجرمها من كل خير. في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (طَوْبِي لِمَنْ شَغَلَتْهُ عَيْنُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ) في غرر الحكم (مَنْ أَبْصَرَ زَلَّتْهُ صَعْرَتْ عِنْدَهُ زَلَّةٌ غَيْرُهُ)، ٢- ومن طبيعة الذي يسخر بالضعفاء من الناس يكون ذليلاً مع من فوقه ومستكبراً مع من دونه! وهذه من حماقة وسوء السريرة نتيجة ذلة في نفسه، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (وِظْلَمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ) ٣- كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ (المطففين/ ٢٩-٣٠، ٤- هناك اختلاف كبير في معنى

(سُخْرِيًّا) و(سِخْرِيًّا)، أي معنى (سُخْرِيًّا) من التسخير للقدرات واستثمار للكفاءات نحو الخير والتقدم كقوله ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ الزخرف/٣٢، أما (سِخْرِيًّا) من السِخْرِ والسُخْرِيَّة والاستهزاء الذي يشتم الطاقات ويقتل الكفاءات ويؤخر ويدل الفرد والمجتمع (فَاتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيًّا).

١١١ - ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ الْفَائِرُونَ﴾

إني جزيتهم وكافأتهم بسبب صبرهم على أذاكم واستمرارهم بذكر الله وطاعته، ثباتهم في إقامة العدل وإحقاق الحق أحسن الجزاء، كقوله (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فصلت/٣٥، وقوله (وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦، ويكون الجزاء من جنس العمل، والصبر هو تهذيب النفس عن هواها، فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك المستضعفين الذين كنتم تسخرون منهم؟ فأنعم الله عليهم بالرضا وانتقم من أعدائهم (أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِرُونَ) والراجحون بالنعيم المقيم وبالسلامة والكرامة، وهكذا (الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ) وبالعكس (الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)! لذلك الدين الإسلامي حدد نهاية الإنسان، كما وعرفه بدايته لعلاقة النهاية بالبداية، حتى يتحرك الإنسان من بداية عمره إلى نهايته بطريق الاستقامة، فإن فيها السلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الاحقاف/١٣، في نوح البلاغة خطبة ٨٧ (مَنْ نَظَرَ بِعَفْلِهِ، وَاسْتَبَصَرَ بِقَلْبِهِ، رُشِدَ وَهَدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

١١٢ - ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَمْرِ عَدَدَ سِنِينَ﴾

بعد ذلك الرد القاسي والحسرة العظمى والإهانة المؤلمة لهؤلاء المستهزئين بالمؤمنين، بدأ استجوابهم من جديد من الله تعالى أو الملك المأمور بالسؤال لهؤلاء، في مشهد مؤثر حاسم من مشاهد يوم القيامة (قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ) وأن الله يعلم كم لبثوا ومكثوا في الدنيا التي شغلتكم عن الآخرة، وهل يُقارن العمر المحدود بالعمر الممدود اللامحدود؟! ولكنه سؤال لاستصغار أمر الدنيا الذي كل متاعها قليل، واستقصار عمرهم فيها، وتوبيخ لهم على جحودهم، وقد باعوا بحياتهم الدنيا المؤقتة حياة الآخرة المنعممة الخالدة، وإنهم يحسبون اليوم بقصر تلك الحياة الدنيا وضآلتها، وإنهم لياتسون وضيّقوا الصدور اليوم، (عَدَدَ سِنِينَ) لا يعينهم حساب السنين وعدتها، وهناك مفارقة بعيدة بين حسابهم في الدنيا لحياتهم وعمرهم وكم قضوا فيها من سنين، وبين الحساب الكريم الخالد الباقي في الآخرة. إن مهلة العمر ليست شيئاً بعد أن طويت صفحاتها وعليك تبعاتها كقوله ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ التوبة / ٣٨ فما قيمة الحساب المحدود

بالمطلق، من وصية الإمام علي لابنه الحسن (ع) (إِنَّكَ خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ، وَلِلْحَيَاةِ لَا لِلْمَوْتِ) شرح النهج ٨٩/١٦ ولهذا كان جوابهم .

١١٣ - ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾

قالوا بفشل وخيبة (لَبِئْسَ) أي مكثنا في الدنيا يوماً أو جزءاً من يوم. فقد كانت مهلة قصيرة الأجل سريعة الزوال، لَدَاتِهَا قَصِيرَةٌ وَتَبَعَاتِهَا طَوِيلَةٌ!، وهكذا يمضي عمر الإنسان، إنه مهما طال وامتدَّ فهو كالسراب لأنه مضي وانقضى، وإذا نظر إليه في منظور الدنيا كان شيئاً قليلاً تافهاً، فكيف إذا نظر الناس إلى حياتهم الدنيا وهم في يوم القيامة كقوله ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ الأحقاف/٣٥ (فَاسْأَلِ الْعَادِينَ) فارجع إلى أهل الاختصاص، واسأل الحاسبين العارفين المتمكنين من العد، يكشف عن سوء حالتهم وأنهم في ذهول لا يدرون معه من أمرهم شيئاً. أي فاسأل الملائكة الحفظة الذين يحصون أعمار الناس وأعمالهم وأنفاسهم ويحسبونها بدقة، لأن عمر الإنسان أنفاس معدودة، وهو يمرّ مرّ السحاب! كقوله تعالى ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس/٦٨ في غرر الحكم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا) (الدُّنْيَا سَاعَةٌ، فَاجْعَلْهَا طَاعَةً، وَالنَّفْسَ طَمَاعَةً، فَعَوِّدْهَا الْقِنَاعَةَ).

١١٤ - ﴿قَالَ لَنْ لَبِئْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ويجيئهم الجواب الذي تاه عن عقولهم وضلّ عن إدراكهم، أي (قَالَ لَنْ لَبِئْسَ) قال الله تعالى لهم فما أقمتم حقاً في الدنيا (إِلَّا قَلِيلًا) مهما طالّت المدة والمهلة؟ فقد انقضت ومضت ومرّت مرّ السحاب، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا بالقياس إلى خلود الآخرة (لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) لو كان لكم علم وفهم وإيمان ووعي لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها القليل الزائل الذي نهايته الموت ثم تبعثون للحساب، ولو آمنتم بحقيقة المعاد لبادرتم للاستعداد اللازم له، والخاسر مَنْ عَقَلَ عَنْهُ، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارِ إِقَامَتِهِ، حَلَصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُهُ). فائدة: ١- كل أمد ينقطع وينتهي بالزوال فهو قليل مهما طال كقوله ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ النساء/٧٧ ٢- الناس على قسمين في أعمارهم، فَرُبَّ عُمَرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ وخيراته، وَرُبَّ عُمَرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ وخيراته فالإنسان يجيا بمواقفه الصالحة أكثر مما يجيا بعمره، ويجيا بالإحسان أكثر مما يجيا بالأجل ٣- عن الإمام علي(ع) (تَقِيَّةُ عُمَرِ الْمَرْءِ مَا لَهَا تَمَنُّ، يُدْرِكُ بِهِ مِنْهَا مَا فَاتَ وَيُجِئِي مَا مَاتَ) البحار ٦ / ١٣٨، وعن النبي(ص) (مَا مِنْ سَاعَةٍ تَأْتِي عَلَى الْعَبْدِ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) روح البيان ٦ / ١١٠، كقوله تعالى ﴿مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ فاطر / ١١، في نهج البلاغة حكم ٢٩ (إِذَا كُنْتُ فِي إِدْبَارِ

وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمَلْتَقَى) فِي غُرْرِ الْحِكْمِ (لَوْ اُعْتَبِرْتَ بِمَا أَضَعْتَ مِنْ مَاضِي عُمْرِكَ لَحَفِظْتَ مَا بَقِيَ).

١١٥ - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري، والآية دقيقة المبني عميقة المعنى واسعة الدلالة (أَفَحَسِبْتُمْ)، أفضنتم أيها الناس (أَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) تلهياً وسدى ولعباً وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمتعون بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم ولا ننهاكم ولا نثيبكم ولا نعاقبكم؟ هل يمكن أن نخلقكم بلا حكمة ولا معنى وبلا هدف سام ولا غاية نبيلة؟! حتى تعيشوا كما يعيش البهائم!، العبث: هو الفعل الفوضوي الذي لا غاية منه ولا فائدة فيه، والعبث: لا يقبله الإنسان العاقل لنفسه، فيجب أن لا يقبله لربه الحكيم أيضاً، فنهاية الحياة الدنيا بالموت، معناه هناك غاية أعظم من الدنيا إنها غاية لقاء الله للجزاء كقوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ لأعراف/٢٩، فالذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ! والقرآن رسم لنا طريق الحياة بوضوح من البداية حتى النهاية كقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/٢، عن الإمام الحسين (ع) (أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبْدُوهُ، فَإِذَا عَبْدُوهُ اسْتَعْتَبُوا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ) البحار ٣١٢/٥، والدنيا لم تُخلق لذاتها وإنما خلقت لغيرها، لدار أهم منها وهي الدار الآخرة، الدنيا ممر لمقر، فصارت (الدُّنْيَا مَرْزَعَةُ الْآخِرَةِ) (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وأنكم لا تعودون إلينا للجزاء ﴿وَأَلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة / ٢١٠ كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الانشقاق / ٥٦

بل خلقناكم لتهذبكم ونعلمكم ولتكونوا خلفاء الله في أرضه، ولترتقوا إلى عالم آخر أرقى مما أنتم فيه، فإن العالم الآخر يسمى الدار العليا، والعالم المادي يسمى الدار الدنيا فإنها أدنى ما خلقه الله، والدار الآخرة أفضل ما خلق الله، ولا حياة إلا حياة الآخرة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٍ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت/٦٤، سميت الحياة الآخرة هي (الْحَيَوَانُ) لشدة ما فيها من الحيوية والنعيم والامتلاء (وَالْحَيَوَانُ) مبالغة حياة ومضاعفتها فهي حياة حقيقية إيجابية دائمة متألفة مرفهة سعيدة، حياة تتفجر منها الحياة، حياة بلا سلبيات ولا منغصات ولا صعوبات.

فائدة: ١- إن الله لم يخلق الخلق عبثاً بل لحكم وأهداف سامية منها (العبادة) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/٥٦ (ونيل رحمة الله) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود/١١٩، ٢- الحياة الدنيا بدون الآخرة عبث ولغو ولغو ولغو لا يفهم معناها ومغزاها، ولو لم يبعث الإنسان بعد الموت للحساب، ولم يُميز الخبيث من الطيب، ولم يجز كلاً بما يستحق من

جزاء لكان خلق الإنسان عبثاً، والله مُنَزَّهٌ عن العبث، كقوله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ القيامة / ٣٦، سُدًى : أي يهمل ولا يكلف ولا يمتحن ولا يحاسب، فإن الله تعالى خلق الأشياء لا ينتفع بها لنفسه، وهو سبحانه غني حميد لا يلحقه منفعة، فلا بد من أن يكون خلق الخلق لينفعهم ويثيبهم لذاتهم، في الحديث القدسي عن الله تعالى (خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْبُحُوا عَلَيَّ لَا لِأَرْبِحَ عَلَيْهِمْ) روح البيان ٦ / ١١٢، وقال أيضاً (خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي) وقال (لَا تَسْعَى لَأَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسْعَى قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ) مواهب الرحمن ٩ / ٢١٥، وقال (كُنْتُ كَنْزاً خَفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ) روح البيان ٦ / ١١٢، ٣ - حكمة البعث من حكمة الخلق، محسوب حسابها ومقدر وقوعها ومدبر غايتها، وما البعث إلا حلقة متصلة في سلسلة النشأة تبلغ بها كمالها وجمالها وجلالها ويتم فيها تمامها، ولا يغفل عن هذه الحقيقة الكبرى إلا المحجوبون عنها المنعمسون في المحرمات، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى، في غرر الحكم (مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ، فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ) ٤ - هل من المعقول من هذا الإنسان خليفة الله على أرضه أن يجيء إلى الدنيا ليقضي عمره فيها، بعدد من السنين ويأكل مقداراً من الطعام ويلبس لباساً وينام وينهض، ثم يعمل ويموت ويفنى وينتهي كل شيء فهذا هو العبث! والله منزّه عن العبث واللّهو، في غرر الحكم (أَهْجِرُ اللَّهُوَ فَإِنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ عَبَثًا، وَلَنْ تُتْرَكَ سُدًى فَتَلْعُو) ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الأنعام / ١٢ حيث لا يستقيم في عدله سبحانه أن يفلت المسيء المجرم المعتدي من العقاب، ويُجرم المحسن المؤمن الصالح من الثواب، ويموت الظالم والمظلوم بلا حساب، فلا بد من حياة أخرى لها نظام آخر يحصل فيها الجزاء كقوله تعالى ﴿مُّمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم / ٤١ يكون فيها الإنسان المناسب في مكانه المناسب، والحكم فيها هو الله تعالى بالحق ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ التين / ٨، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (مِنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الرَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ) في غرر الحكم (مَنْ صَدَّقَ بِالْمُجَازَاةِ لَمْ يُؤْتَرَ غَيْرَ الْحُسْنَى) وفيه أيضاً (لِلْمُتَّقِي: هُدًى فِي رَشَادٍ، وَخُرُوجٌ عَنِ فَسَادٍ، وَحِرْصٌ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ).

٤ - حقيقة يوم القيامة:

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْمَخْلُوقَاتِ عَامَةً، وَالْإِنْسَانَ خَاصَةً خَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَفِي أَفْضَلِ صُورَةٍ، وَفِي أَعْقَدِ تَرْكِيْبٍ، وَفِي أَنْقَنَ صَنَعَ كَقَوْلِهِ (صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل / ٨٨، وَكَرَّمَ الْإِنْسَانَ أَحْسَنَ تَكْرِيمٍ فَجَعَلَهُ سَيِّدَ الْكَائِنَاتِ، وَخَلِيفَةَ اللهِ فِي أَرْضِهِ، عَلَى أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ، فَهَلْ مِنَ الْمَعْقُولِ وَالْمَقْبُولِ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ الْخَلِيفَةُ الْمَخْتَارَ الْحَرَّ الْمَكْرَمَ، فَيَجْمَعُهُ قَبْرٌ مَحْدُودٌ ثُمَّ يَفْنَى وَيَذْهَبُ وَلَا يَعُودُ، وَيَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ مِنَ التَّرَابِ، مِنْ دُونَ أَنْ يَحَاسِبَ هَذَا الْإِنْسَانَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ، وَمَاذَا فَعَلَ فِي عَمْرِهِ؟ مِنْ دُونَ أَنْ يَكُونَ جِزَاءً إِلَى الْحَسَنِ، وَلَا عِقَابَ إِلَى

المسيء؟ كقوله (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) القيامة/٣٦، ينكر العقل السليم ذلك ويأباه لأنه عبث، والعاقل لا يعمل العبث، فكيف يعمل الله تعالى وهو المنزه عن كل نقص؟ كقوله (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) يونس/٥، وقوله (فَمَادَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَلَىٰ تَضَرُّفُونَ) يونس/٣٢.

مثال: لو صنعنا سيارة حديثة لمدة تسعة أشهر، بمواصفات عالية وجميلة ومرغوبة ونادرة الصنع، وبقيمة ثمينة، وقام بصناعتها المتقنة أهل العلم والاختصاص، ولكن بعد إتمامها وتكاملها وجمالها أبدأ بتحطيمها وتدميرها!! وهذا العمل الجنوني العاثر لا يعمله إنسان عاقل، فكيف يصنعه الله؟! يصنع الإنسان بأحسن صنع، ثم يميتته، من دون أن يفرز الظالم من المظلوم، ومن دون أن يميز الخبيث من الطيب، وهذا هو العبث، والله منزه عنه. قال تعالى في سنة الابتلاء (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران/١٧٩، ومن سنن الله أن يميز الخبيث من الطيب في ابتلاءات الدنيا، فكيف لا يميزهم أيضاً في الآخرة؟! كقوله (وَلِشَجْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢.

في نهج البلاغة حكم ٧٨ (وَمَنْ يُغْصَ مَغْلُوبًا، وَمَنْ يُطْعَ مُكْرَهًا، وَمَنْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِبًا، وَمَنْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عِبْنًا، وَلَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ص/٢٧-٢٨، إذن: لابد من وجود يوم القيامة للحساب والجزاء، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب إلى الأبد. في غرر الحكم (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ) كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) الحشر/١٨ والقرآن لا يحمي المغفلين عن حقيقة المعاد، كما أن القانون الوضعي لا يحمي المغفلين عنه، ونكران الحقيقة لا يلغي وجودها، ولا يدل على بطلانها، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة المتألفة، لا يؤمن بها إلا أهلها، والذي ينكرها يوقع نفسه في الوهم.

١١٦ - ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

(فَتَعَالَى اللَّهُ) فتنزهه وتعظمه وتقدس الله الكبير الجليل (الْمَلِكُ الْحَقُّ) صاحب الملك والمملوك والسلطان المتصرف في ملكه بالإحياء والإبداع والإفناء، وتنزهه عن العبث والنقائص فلا يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم، ولا يصدر عن الحق إلا الحق، وبالحق ومع الحق وإلى الحق (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) لا رب سواه ولا خالق غيره، فهو الله الموجود بذاته، الموجد لغيره، ولا إله معه ولا كفو له حتى يبطل حكمه (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) خالق العرش وهو كناية عن صاحب الملك العظيم بدافع كريم، المسيطر على الكون والكائنات جميعاً بالحق، وخلق الخلق والبعث والنشور نعمة، لاحقاق الحق، ووصف العرش بالكريم، لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين.

فائدة: ١- (فَتَعَالَى اللَّهُ) ارتفع بذاته ودلّ بذاته عن ذاته وتنزهه عن مجانسة مخلوقاته في ذاته

وصفاته وأفعاله، وجلّ عن ملائمة كلفياته، وكلمة العلو تعني علو المنزلة، تعالى أن يكون خلْقكم عبثاً، وتعالى أن تفلتوا من عقابه، وتعالى عليك ليُعَلِّيكَ إليه ويعطيك من فضله، لأن العبودية لله أن يأخذ العبد من خير ربه الكريم، فهو سبحانه رحيم بالناس يعمل لصالحهم، من سعى إلى الله أعانه الله وقربه إليه، ومن بحث عن الله وجده، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥، في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِهْيَ أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَإِجْدُنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ، إِهْيَ كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَعِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ!) عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الإِيْمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ) كنز العمال خبر ٦٦ كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، (الْمَلِكُ الْحَقُّ) الذي يحق له الملك، بأنه ملك غير مملوك، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء من بعض الوجوه، والله مالك كل شيء من جميع الوجوه، فمن يتصف بصفات التكامل لا يصدر منه العبث ولا يلهو ولا يلغو في فعله، كقوله (ذَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) الزمر/٦.

١١٧ - ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

يَدْعُ: يعبد ويخضع ويعتقد ويقنع. أي ومن يجعل (مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) على إطلاق معناه، أي إله آخر (من دون الله) يطيعه، ويتعلق به ويجعل له شريكاً جليلاً أم خفياً، مادياً أم معنوياً، ويعبد مع الله سواه! والعبادة عنوان عقل العابد ومقدار فكره وعنوان أصله، سواء بلسان الحال أو بلسان المقال! (لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) لا حجة له به وبلا بيّنة من أمره، ودلت البراهين على بطلان ماذهب إليه، والباطل لا برهان له كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعْدِيَّينَ﴾ الشعراء/٢١٣، بل يستند على مجرد أوهام وتقليد للآباء واتباع أعمى لقيادات المجتمع، فينقاد مع العقل الجمعي (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) ويجازيه بأعماله ولن يتدخل أحد فيه لينصره ويشفع له، وفيه تلميح للتهديد والوعيد (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) فكفرهم منعهم من الفلاح والفوز، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) النمل/٤.

فائدة: ١- (لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) كل دعوى بالوهمية أحد مع الله تعالى فهي دعوى ليس معها برهان، لا من الدلائل الكونية والعلمية والعقلية ولا من منطق الحجة والبيان والدليل كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧، فإن حساب مدّعيها عند ربه والنتيجة ليست في صالحه، فهو يستوفي ما يستحقه من جزاء وعقاب، وفيه إشارة على أن الدّين وما يُحسب عليه من عقائد وخرافات بما لا دليل عليه قطعي فهو باطل! فكيف بما شهدت بداهة العقول بخلافه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء/٢٢ ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦، وفي قوله (لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) دعوة صريحة إلى تحرير العقل من

الاتباع الأعمى، وإطلاق الفكر من قيد الأسر للأوهام من الانقياد للآخرين، من غير أن يكون نظر واقتناع عن برهان علمي قاطع، وحجة بيانية واضحة كقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ الإسراء / ٢٢ .

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال / ٤٢ في غرر الحكم (قُوَّةُ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ سُلْطَانِ الْقُدْرَةِ) وعنه (ع) (إِنَّهُ لَيْسَ لِهَا لِكَ هَلَكٌ مِّنْ يُعْذَرُهُ فِي تَعَمُّدِ ضَلَالَةٍ حَسَبَهَا هُدًى، وَلَا تَرُكُ حَقِّ حَسَبِهِ ضَلَالَةٌ!) البحار ٥ / ٣٠٥، ٢- الإيمان بالله تعالى وتوحيده من أهم قضايا تدعيم العقل، يرتبط بها مسيره وفكره ومصيره في الدنيا والآخرة، فلا بُدَّ لها من رعاية كثيرة ونُقيم لها الأدلة والبراهين القطعية، فالإيمان على برهان هو الإيمان على بصيرة وحجة وبيّنة ودليل وهداية، وكان لهذا الإيمان أثرٌ إيجابي مؤثر على نفسه، وإن لم يجد بين يديه برهاناً مقنعاً، فعليه أن يبحث ويتحقق ويتعمق حتى تتضح له معالم الطريق إليه سبحانه . وهذا هو الإيمان الذي يطلبه الإسلام، ويفتح أبصارهم وبصائرهم إليه كقوله ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ النمل / ٦٤ عن الإمام علي(ع) (تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ فَتَهْلِكُوا) كثر العمال ج ٣ ص ١٠٨، وعنه (ع) (إِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنٍ مِنْ رَبِّي، وَعَیْرُ شُبْهَةٍ فِي ذِنِّي) في غرر الحكم (لَوْ كُشِفَ الْغُضَاءُ مَا لَزِدْتُ يَقِينًا)، الإمام علي(ع) يناجي ربه (إلهي كفاي فخرًا أن تكون لي ربًّا ، وكفاي عزًّا أن أكون لك عبدًا ، وأنت كما أريد، فأجعلني كما تريد).

١١٨ - ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

(وَقُلْ) يا مُحَمَّد (رَبِّ اغْفِرْ) أستر على ذنوبي بعفوك عنها كقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ آل عمران / ١٣٥، عن النبي(ص) (مَنْ كَثُرَتْ هُمُومُهُ فَعَلَيْهِ بِالْأَسْتِغْفَارِ) الكافي ٨ / ٩٣ (وَارْحَمْ) وارحمي بقبول توبتي واستجابة دعائي وترك عقابي، في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَمَ يَتَعَدَّدُ طَوْرَهُ)، (وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وأنت ربنا خير من رحم وعفى وتجاوز، وأنت المطلع على السرائر والمرجو لإصلاح الضمائر (خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) لا تفضيل في كلمة خير الراحمين هنا، وإنما هي وصف لمبالغة الرحمة كقوله تعالى ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون / ١٤ وقوله تعالى ﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ المؤمنون / ٢٩ حيث لا رحمان ورحيم ولا خالق ولا مالك إلا هو ولا غافر وناصر سواه، وبهذه الرحمة الواسعة من ربِّ كريم رحيم.

﴿كُتِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ الأنعام / ١٢، يغاث الناس ويهدّبون سلوكهم ويتوبون من ذنوبهم ويعرفون قدرهم ولا يتعدون طورهم وحدودهم كقوله ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ النساء / ٢٧ فائدة: ١- افتتح سبحانه السورة (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) وختمها (إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ) ليظهر التفاوت بين الفريقين، فَشَتَّانَ ما بين البدء و الختام وكذلك ﴿لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام / ١٣٥ ﴿لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس / ١٧ كقوله تعالى

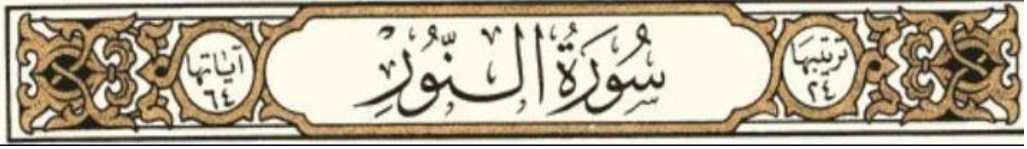
﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ غافر/٧، ٢- (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ) النبي الكريم (ص) يطلب من ربه غفران الذنوب وهو لا ذنب عليه، بل هو الذي يتسامى على الذنوب، ويُهْدَب نفوس الآخرين حتى يعصمهم من الذنب، وهو المعصوم بعصمتين: عصمة ذاتية داخلية، ويعصم غيره من الذنوب، وله عصمة خارجية فهو النبي (ص) المؤيَّد والمسدَّد بالوحي كقوله (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) النجم/٣-٤ وإنما يقول (رَبِّ اغْفِرْ) هو عنوان لإظهار العبودية الخالصة، وبيان التذلل لله والخضوع له سبحانه كما قال العرفانيون: (سينات المقرين، حسنات الأبرار) كقوله (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) الفتح/٢، إذا كان النبي المعصوم يطلب من الله أن يغفر ذنوبه (ولا ذنب له) فما بال عامة الناس غير المعصومين؟! فكان خطاب القرآن للنبي، ولا يستحق أن يخاطب الله غير أنبيائه عبر وسائل الوحي، وأما يكون الخطاب له وأريد به غيره، عن الإمام الصادق (ع) (نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّائِكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) الكافي/٢/٦٣١، عن الحسين بن علي (ع) (لقد كان النبي (ص) يبكي (ويستغفر الله) فقليل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً) كنز الدقائق/٩/٥٣٨. راجع للتفصيل قوله تعالى (فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ...) يونس/٩٤، في وعي القرآن المُبَسَّر، وقوله (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) التوبة/١١٧.

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

وفي الختام نقول : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام / ٣٨

تم بعون الله تعالى (وَعِيِ الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرِ) لسورة المؤمنين، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل، فله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتُدفع النقمات، بتاريخ ٦/٤/٢٠١٨م، الموافق ٢٧/ربيع الثاني/١٤٣٩هـ مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها، في العراق، بغداد، الكاظمية، داعين الله عزوجل أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إن ربي سميع مجيب الدعاء .

بقلم الباحث: مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة :

مدنية. تعنى بالتشريع والتوجيه ومبادئ التربية والتعليم والأخلاق، واشتملت على أحكام الأسرة النواة الأولى لبناء المجتمع، وهي توجيهات تعنى بالفرد والجماعة والمجتمع، وتعنى بالعفاف والستر والحجاب والنزاهة والطهارة النفسية كقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٩ - ١٠ وتعنى بغض البصر وحفظ الفروج وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبية، وبالاستقامة على منهج الله، وذكرت بعض الحدود كحد الزنى وحد القذف وحد اللعان، وهذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع الإسلامي من الفساد والفوضى... وغيرها، وسميت سورة النور: لما فيها من إشعاعات النور الإلهي، نور حسبي ومعنوي، نور العلم والتعليم ونور القيم والأخلاق، ونور الأحكام ونور الالتزام بالمنهج .. إلخ، وضع الله لك هذا النور فلا يصح للبشر أن يصنعوا لأنفسهم قوانين أخرى تخالف منهج النور الإلهي الذي يعطيك التوازن في كل شيء، بين روحك وجسدك، وبين حياتك وموتك، وبين دنياك وآخرتك، وبين أملك وعملك، وبذلك يهديك للتي هي أقوم . وأول هذه القوانين وأهمها، قانون إلتقاء الرجل والمرأة ضمن ضوابط سليمة، على أسس من نور الله، كقوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية ٣٥، وفيها من الفضائل الإنسانية والآداب السامية والحكم العالية، وتؤكد الروايات على تعليم النساء هذه السورة وحثهن على قراءتها، رقمها ٢٤ / عدد آياتها ٦٤ / الجزء الثامن عشر.

(فضلها) عن الإمام الصادق (ع) (حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَفُرُوجَكُمْ بِتِلَاوَةِ سُورَةِ النُّورِ، وَحَصِّنُوا بِهَا نِسَاءَكُمْ، فَإِنَّ مَنْ أَدَمَّنَ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ يَزِنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ) نور الثقلين ٣ ص ٥٦٨، مجمع البيان ٧ ص ٢٢١ .
ملاحظة : هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

المراد من (سورة) مجموعة من آيات القرآن أقلها ثلاث آيات، وسورة مأخوذة من المنزلة والفضل، وهذه من السور القرآنية العظيمة ومن جوامع السور فهي جامعة مانعة، وفيها من الآيات المحكمات، (أَنْزَلْنَاهَا) من الملائكة الأعلى، وَمِنْ عَلْوِهَا الْعَالِ، رحمة منا بالعباد (وَفَرَضْنَاهَا) أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام، فإنها حصن حصين منيع أمين لمن دخله (وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ) وأنزلنا فيها آيات تشريعية واضحة الدلالة على الحدود والأحكام، آيات بينات غير متشابهات، وآيات كونية، وعلى المعجزات التي تثبت صدق الرسول، لتكون لكم - أيها المؤمنون - هُدًى من الضلالة، وتكرير (أَنْزَلْنَا) لإبراز كمال العناية بشأنها فكأنه يقول : ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق لتكونوا خير الأمم (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) تتذكرون وتتعظون، أي لكي تعتبروا وتعظوا بهذه الأحكام الرصينة وتتفاعلوا معها وتعملوا بموجبها وتعلموها. **فائدة: ١- (فَرَضْنَاهَا)** فرضنا الآداب والأخلاق في السورة، كما فرضنا الحدود والعقوبات لإعداد النفس وتهيئتها لتطبيق منهج الله وإتقائه محارمه كقوله ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران / ١٠١ .

٢ - ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

خطاب الآية لأولي الأمر الصالحين الذين أوجب الله طاعتهم، في دولة إسلامية عادلة ومجتمع إسلامي عفيف ونظيف، تقام فيه الأحكام وحدود الإسلام وهو الإمام العادل مبسوط اليد، الذي طاعته نظام للأمة ووحدة كلمتها، أما مطلع الآية فهو قوي وصریح وجازم وحاسم في بيان حد الزنا، وتفضيخ هذه الفعلة التي تعمل كآبة نفسية للفرد، وتقطع العلاقات والقرابات الاجتماعية، وتخلخل نظام المجتمع وتفكك روابطه وتفسد نفوس الأفراد، المعنى : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحد من الزانين - غير المحصنين - غير المتزوجين إذا قامت البينة القطعية عليهما، مائة ضربة بالسوط تأديبية رادعة غير انتقامية، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً، عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة، إذا قامت البينة الواضحة عليهما في مجتمع إسلامي تقام حدوده وأحكامه، (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في تطبيق حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد أو تعطلوا الحد، بل أوجعوهما ضرباً، فهذه الرأفة الحمقاء والرحمة الخرفاء، بأهل الفواحش تؤدي إلى تفشي الفساد الاجتماعي الكبير، وإلى تعطيل الحكم الإلهي ولم يأخذوا لأنفسهم الوقاية الكافية من خطر الزنى، المرض المعدي الفتاك الذي ظاهره يسرّ ويعترّ ويمرّ وباطنه يضرّ.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا تصدقون بالله وباليوم الآخر، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة، فإن جريمة الزنا من الذنوب الكبيرة وهي أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الطائفة : أربعة فصاعد، وليحضر عقوبة الزانين جماعة من المؤمنين، للإعلان العام والتشهير والفضيحة أمام الناس، ليكون أبلغ في زجرهما وأسرع في ردعهما،

وتحذير لغيرهما عن الفاحشة، فإن عذاب الفضيحة النفسي أشد من التعذيب الجسدي، ليعتبروا بذلك ويتوبوا فلا يقربوا الفاحشة. **فائدة: ١-** وقدمت الزانية لأن الزنى منها أشنع والمبادرة منها أسرع، **٢ -** عن النبي (ص) (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خَلَعَ عَنْهُ الْإِيمَانَ كَخَلْعِ الْقَمِيصِ) البحار ٦٩ ص ٦٣، **٣ -** حكم الجلد يختص بالأعزب والعزباء، أما المتزوج والمتزوجة أي المحصن والمحصنة، فحكمهما الرجم بالحجارة، والذي يقيم حدود الله هو الإمام الشرعي العادل أو نائبه في مجتمع اسلامي عفيف ونظيف وشريف في الشكل والمضمون، أو كان الرجل متزوجاً ولكن غابت عنه زوجته، أو كانت بها مرض يمنع من الوطاء كل أولئك لم يكونوا محصنين، والقول نفسه يقال في المرأة. وقد ثبت الرجم بالسنة، وثبت الجلد بالقرآن، إذ لستم أنتم أرأف بالناس من رب الناس، **٤ -** الزنى جريمة اجتماعية وعدوان على الحقوق الزوجية الشريفة، وعلى أعراض الناس وشرفهم، ويعمل على خلط الأنساب وحلّ روابط الأسرة، وقطع ما بين الآباء والأبناء من تعاطف وإثارة الأحقاد والكآبات، وتهديد البيوت العفيفة الآمنة الشريفة، **٥ -** إن عقاب جريمة الزنا بهذه الشدة حين تتحول عند مرتكبيها إلى عمل طبيعي غير منكر، كأنه يؤدي رسالة تحريضية للآخرين ليتعلموا منه الخيانة الزوجية، وهو في مجتمع اسلامي مُحَصَّن مُصُون . لذلك لم تكن عقوبة الجلد أو الرجم تقع إلا في القليل النادر جداً (الحالة الاستثنائية) الذين يعلنون على أنفسهم بالفضيحة بلا تَحَرُّج! سئل الإمام الصادق (ع) عن المحصن فقال : **الَّذِي يَزْنِي وَعِنْدَهُ مَا يُعْنِيهِ، الْمُحْصَنُ :** المتزوج الذي يحصنه الزواج من الحرام. **وعنه (ع) (لَا يَرْجُمُ الرَّجُلُ وَلَا الْمَرْأَةَ حَتَّى تَشْهَدَ عَلَيْهِمَا أَرْبَعَةٌ شُهَدَاءٍ عُدُولٍ عَلَى حُضُورِ الْمُبَاشَرَةِ، وَالْجُمَاعِ وَالْإِيَالِاجِ وَالْإِدْحَالِ كَالْمِلِيلِ فِي الْمَكْحَلَةِ!)** نور الثقلين ٣ / ٥٦٩، وتحقق هذا الشرط الصعب له دلالات واسعة . والله يجب الستر وينهي عن إشاعة الفاحشة **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** النور/١٩ .

وقوله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الأنعام / ١٢٠ **وقوله ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾** الأنعام / ١٥١

في نهج البلاغة حكم ٢٥٢ (فَرَضَ اللَّهُ الْقِصَاصَ حَقًّا لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَامًا لِلْمَحَارِمِ) وجاءت العقوبات على قدر الجنايات، لأن الزاني قام بإخلال نظام العفاف والشرف في المجتمع النظيف، عن عمد إصرار وهو في غنى عنه، لأن الأعزب يشجعه الإسلام على الزواج ويدعمه في ذلك، والمتزوج المحصن تكفيه زوجته وتحصنه ويحصنها عن النبي (ص) (إِذْرَأُوا (إِدْفَعُوا) الْحُدُودَ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مِدْفَعًا) كنز العمال خير ١٢٩٧٤، **وعنه (ص) (إِذْرَأُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ)** وسائل الشيعة ٣٣٦/١٨، إذن: جاءت عقوبة الزنى بهذا القدر الشديد لبيان أن الإسلام لا يقيم بناءه الاجتماعي على العقوبة، بل على الوقاية والحماية من أسباب العقوبة، ومعالجة أسباب المنكرات وإثارة

الشهوات، وفي ذلك ترغيب في تركية النفوس وسلامة القلوب، ونشر العفاف كقوله ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ الأحزاب/٣٥.

في غرر الحكم (العَفَافُ يَصُونُ النَّفْسَ وَيُنْزِهُهَا عَنِ الدُّنْيَا) .

٣ - ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
 هذه الآية دقيقة المبني عميقة المعنى واسعة المغزى شاملة الدلالة. (ينكح) أصل النكاح للعقد أي عقد الزواج ثم استعير للجماع، لأن أسماء الجماع كلها كنايات لها دلالات، لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه وممارسته!! الآية الكريمة تبين حكم شرعي أنه لا علاقة للزاني بالمسلمة العفيفة (وبالعكس) ولا علاقة المسلمة العفيفة بالزاني بأي شكل من أشكال العلاقات، الزني لا يرغب فيه الصلحاء ولا يقرب منه النجباء والفضلاء للفارق الكبير بين الصلاح والزني كقوله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الاسراء / ٣٢ .

المعنى العام للآية : يُحْرَمُ عَلَى الزَّانِي أَنْ يَتَزَوَّجَ (ينكح ويطاء ويمارس الجنس) مع العفيفة الشريفة، ولا تستجيب لدعوة الفاجر الزاني العاهر إلا متهتكة زانية مومس على شاكلته ومشاهدة له أو أخس منه كالبغي الفاجرة (وكل شكل إلى مثله يألف) حتى قيل (سَبَبُهُ الشَّيْءُ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ) (أَوْ مُشْرِكَةً) تشرك مع الله إلهاً آخر، شركاً جليلاً أو خفياً، مشرقة غير موحدة لله ولا تقدس كتاب سماوي ولا شريعة، ولا تخشى الله ولا تخاف من عقابه ولا ترغب في ثوابه (وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) والزانية أيضاً يحرم عليها أن تتزوج إلا زانياً مثلها أو مشرك أخس منها، كالزاني الخبيث الذي يمارس الزني أو مهنته الزني (أَوْ مُشْرِكٌ) الذي لا يلتزم بقيم ولا مبادئ، الذي يجعل مع الله إلهاً آخر، والشرك أشد من الكفر : والإنسان يرغب إلى مثله (والطيور على أشكالها تقع) وهما فاسدان ينجذب بعضهما إلى بعض كما ينجذب الذباب إلى القذرة (وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وحرم ذلك الزواج المشبوه أو (نكاح الزواني) بأية صورة من صور النكاح، على المؤمنين الورعين أن يتسامون عن المنكر ويتوقون عن موارد الشبهة .

كقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ المؤمنون / ٥، لشناعة العلاقة مع الزواني وقباحتها، لأنه من الفسوق والفجور والعصيان وهو التشبه بالكافرين، وهي ممارسة خسيصة فيها مجال للتهمة وفقدان العدالة واسقاط للثقة والعفة، وتسبب بسوء القول والظعن في النسب والشرف، بالإضافة إلى تحلل الأسر والتفكك الاجتماعي فيكون الزاني في موت بطيء وذلة وكآبة نفسية وحقارة اجتماعية، لما في ممارسة الزني من الأضرار النفسية الجسيمة والأخطار العظيمة للفرد والمجتمع، لأن المؤمن العفيف الشريف النظيف لا يليق به أن يتزوج بامرأة زانية عاهرة غير عفيفة وغير شريفة وغير نظيفة كقوله تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ النور / ٢٦

فائدة: ١- (وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) لاستبعاد وقوع هذه العلاقة الخطيرة برابطة متناقضة فاسدة غير متكافئة من جميع الوجوه، (وَحَرِّمَ) فجاء بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد، لأن هذه العلاقة المشبوهة المحرمة غير المنسجمة تعمل على تفاقم الأزمات النفسية بين المؤمنين والزانيات، وتعمل على تقطيع الصلات الاجتماعية المتحابية، ونشر الأزمات الاجتماعية وزيادة الكآبات النفسية وسقوط الحسن الأخلاقي والحضاري في المجتمع. عن النبي (ص) (إِذَا كَثُرَ الزَّانَا كَثُرَ مَوْتُ الْفَجَاءَةِ!) البحار ٧٩ ص ٢٧، وَكَثُرَتِ الْكَايَةُ!! ٢- قوله (أَوْ مُشْرِكَةً.. أَوْ مُشْرِكًا) قابل الزنى بالشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان / ١٣، لأنهما بمنزلة واحدة! والزنى نوع من الشرك الخفي لأن الزاني يعبد هواه وشهوته، والهوى آفة العقل، والهوى إله معبود ويُطاع من دون الله ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ الفرقان / ٤٣ عن النبي (ص) (مَا عُبِدَ إِلَهٌ أَبْغَضَ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَوَى) روح البيان ٢ / ١٩٧، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (الهوى شريك العبي) وقابل الزنى بالشرك لشدة قباحته وكثرة أضراره وشدة مرارته على نفسية الفرد وعلى مستقبل المجتمع، وأضراره في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ...﴾ البقرة / ٢٢١، (مدمن الزنا كعابد وثن) أو عابد فرج!

٣ - النفوس المؤمنة الطاهرة من الرجال تأبى الزواج ونكاح الفاجرات الزانيات الخبيثات، كما أن الفاسق الزاني لا يرغب في نكاح الصالحات العفيفات الشريفات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة زانية مثله أو في مشركة، عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ فِعْلَ قَوْمٍ أَشْرِكَ فِي عَمَلِهِمْ) عن النبي (ص) (المرء مع من أحب) كنز العمال خبر ٦٨٤٤٢، وأيضاً الفاسقة الزانية الخبيثة من النساء لا يرغب في نكاحهن المؤمنون الصالحون من الرجال، بل تنفر أنفسهم منهن ويأنفون من سوء حالهن، وإن كن جميلات ظاهراً ولكنهن قبيحات باطناً؛ لأنه لا تألف ولا تكافؤ ولا انسجام بينهما، ولا تجاذب ولا تحابب ولا تقارب بينهما أيضاً، فالأرواح إذا تجاذبت تألفت وإذا تخالفت تنافرت. وإنما يرغب في الزانية من هو من جنسها من الزواني ومن صنفها من الفسقة الذين لا يعيرون أهمية للحلال والحرام ولا يبالون في تعدد حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق / ١ - إنها آية محكمة مؤثرة في المشاعر، من آيات الأحكام غير متشابهة وغير منسوخة وواضحة وغير غامضة، وتبقى فاعلة على تأويل ظاهرها المعروف من غير تعقيد ولا تقييد، ٥ - حالة الزنى تقطع الصلة بين فاعليها وبين المجتمع المسلم كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف / ٥ زَاغُوا : انحرفوا. ٦ - الذين يرتكبون كبيرة الزنى لا يرتكبونها وهم مؤمنون عن النبي (ص) (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خَلَعَ عَنْهُ الْإِيمَانَ كَخَلَعَ الْقَمِيصَ) الكافي ٢ ص ٣٢، وبعد ارتكابها لاترتضي النفس المؤمنة العفيفة أن ترتبط في نكاح مع نفس خرجت عن أصول

الإيمان وشرف العفة، فالعلاقة ما بين زانٍ وعفيفة، وبين عفيف وزانية علاقة مشبوهة محرمة وسخة قدرة، وغير متجانسة وغير نظيفة وغير شريفة وغير متألّفة وغير متكافئة.

عن النبي (ص) (المُؤْمِنُ كُفُوُ الْمُؤْمِنَةِ) سؤال : هل الفاسق كفؤ الفاسقة؟ كلا، لأنهما يبحثان عن لذات وليس كفاءات، واللذات أريدت لغيرها وليست لذاتها، والزاني غير كفؤ للزانية، لأن الزاني لا يبحث عن كفاءة، وأما يبحث عن مُتَع جنسية ولذات وتفريغ شهوات. ومن الجدير ذكره: إنّ كلّ زانٍ يتلى بالكآبة النفسية، عقوبة مستعجلة لما يرى من تفاهة العملية بعد الانتهاء منها! والرّئي ظاهره يُعَرِّ وَيَسْرُ ويمرّ وباطنه يُصْرُ، لذلك جاء القرآن الكريم بتربيته النموذجية وهو يذكر الزواج الدائم ومعه السكن النفسي كقوله ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الروم / ٢١، بينما ذكر آية الاستمتاع وبيّنها كمتعة جنسية ولذة مجردة من دون سكن نفسي كقوله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ النساء / ٢٤، دلالة على تآلف الزواج الدائم، وتفاهة الزواج المؤقت (زواج المتعة)!!! لأنّه (إِذَا كَبُرَتِ الشَّهْوَةُ صَعُرَ الْعَقْلُ، وَإِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ) في غرر الحكم (إذا كملّ العقل نقصت الشهوة)

٧- إذا تاب الزاني والزانية توبة نصوحة صادقة وتُعرف توبتهما بالدلائل والمصاديق، فإن التوبة تطهّر من ذلك الدنس المنقّر، وتغسل الذنوب وتطمئن القلوب وتشرح الصدور كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الشورى / ٢ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة / ٢٢٢ .

٨ - تحريم غليظ نكاح المؤمن العفيف للزانية قبل أن تتوب، كما يُحرم الله تعالى عليهم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، كذلك حرمة نكاح المؤمنة العفيفة للزاني قبل أن يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته أشد الاقترانات وأقوى الصلات وأدومها كقوله ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الصافات / ٢٢، أي قرناءهم وقوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ الرعد / ٢٣ - ٩ كثير من أزواج الحيوان والطيور تعيش متلازمة متحاببة في حياة زوجية كريمة دائمة بعيدة عن الزنى والخيانة. ١٠ - الزنا تلويث للنفس وفطرتها والعبث في نظامها المستقر العفيف وتغيير لسلامة الفطرة وتدنيس لعرض صاحبه وعرض من قرينه (من سار حول الحمى (المخاطر) يوشك أن يقع فيه)، ١١ - وقدّم (الزاني) في هذه الآية لأن الرجل أصل في النكاح فهو عادة الذي يطلب ويُرغب ويستجيب ويبدأ بالإسراع والمبادرة بالاستمتاع بالزانية (أو) إذا كان العكس، الزانية هي التي تطلب وترغب وتبادر، لهذا السبب كرر السياق القرآني (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) ثم قال (وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) فمن أين كان الطلب أو المبادرة للزنا فهو حرام (وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ويمكن أن يكون سياق الآية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ

مُشْرِكَةً، وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) من دون تكرير، في هذه الحالة إذا اقتصر طلب الزاني الاستمتاع من الزانية فقط فهو حرام، بينما بينت الآية حرمة العلاقة بالزانية من الطرفين.

ومن الجدير ذكره:

أن لا يقول الرجل أبي لا أعرفها زانية، فأقول له : هل تأكدت من ذلك؟ هل حصل عندك اطمئنان بعد التحقق أنها غير زانية؟ وإلا صرت زانياً مثلها!! كقوله ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات / ٢ عن النبي (ص) (دَعَ مَا يُرِيئُكَ إِلَىٰ مَا لَا يُرِيئُكَ) تنبيه الخواطر ٤٣، عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالْوَرَعِ) الكافي ٢ / ٧٦ عن محارم الله. ١٢- عن الإمام الباقر (ع) في الآية (وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) الإساءة/٣٢، أي معصية ضارة وسيئة كبيرة. (ومقتناً) فإن الله يمقته أي يبغضه بشدة (وساء سبيلاً) طريقة وممارسة، وهو أشد الناس عذاباً، والزنا من أكبر الكبائر، البحار ٧٩ ص ١٩، في نهج البلاغة حكم ٣٠٥ (مَا زَنَىٰ غَيْرُ قَطٍّ) والزنا يورث الفقر ويجبس الرزق، ويشيع الإباحية، ويذهب بالبركة ويأتي بالضرر المعنوي والنحوسات والمنعصات والمعاكسات النفسية، عن النبي (ص) (لَا تَزْنُوا فَتَزِينِ نِسَاؤُكُمْ) (لَا تَزْنُوا فَيُزِنَىٰ بِكُمْ) (ومن وطء فراش امرئ مسلم وُطِئَ فِرَاشُهُ، كما تدينُ تُدان!) البحار ٧٩ ص ٢٧ وعن الإمام الصادق (ع) (إِذَا فَشَتْ أَرْبَعَةٌ ظَهَرَتْ أَرْبَعَةٌ: إِذَا فَشَا الزَّانَا ظَهَرَتْ الزَّالِزَلُ، وَإِذَا أُمْسِكَتِ الرَّكَاةُ هَلَكَتْ الْمَاشِيَةُ، وَإِذَا جَارَ الْحُكَّامُ فِي الْقَضَاءِ أُمْسِكَ الْقِطْرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِذَا خَفَرَتِ الدِّمَةُ أَي (نَقَضَتِ الْعُهُودَ وَالْعُقُودَ وَالْوَعُودَ، وَسَلَبَتْ الْحُقُوقَ وَالْأَمَانَاتِ) نُصِرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ) ١٣- مما يلفت النظر : ذكر القرآن الكريم (الزَّانِي بَيْنَ قَتْلَيْنِ)!! وفي ذلك دلالات خطيرة واسعة كقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ، وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الإساءة / ٣١ - ٣٣، ١٤- الزنى من الأمراض البوائية الخطيرة المعدية سريعة الانتشار، لأنه انحرف خلقي فتاك يضر البنية التحتية والنفسية للفرد والمجتمع، كالأضرار المعدية الفتاكة التي تصيب الجسم .

١٥ - موضوع : (الزنى .. والزواج المؤقت)

لا يجوز للمؤمنين التمتع بالزانية تحت عنوان حلية عقد زواج المتعة (والزواج المؤقت) لأن من ينكح الزانية (قبل إعلان توبتها النصوح) فهو زانٍ مثلها بنص الآية فلا يبقى مؤمناً حين يزني، ولو كان هناك عقد تمتع بينهما، فإن هذا العقد صوري ووهمي وغير شرعي ولم يستوفِ شروطه وفي غير موضعه، لأن عقد الزواج يجب الوفاء به والالتزام بشروطه معاً بين الزوجين، فهما في حصن الزوجية الشرعي، ولا يجوز الإخلال به ولو من طرف واحد (بمعنى) تبقى هذه الزوجة لزوجها المتمتع بها حرام على الرجال الآخرين كالزوجة الدائمة، ويجب أن تعتد وتلتزم بالعدّة، ومدتها (٤٥) يوماً أو حيضتان، للتأكد من طهارة رحمها من أي حمل، وإذا حملت ينسب الولد إلى أبيه،

ولا يجوز لها أن تنشأ علاقة زوجية جديدة مع أي رجل آخر وهي لم تكمل مدة العقد مع الزوج الأول، فلا يجوز لها ذلك، وإلا فهي زانية عند الله، وخبيثة في المجتمع!! والرجل (الزوج) الذي يتسامح ولا يبالي بوفاء زوجته المتمتع بها وسكت عنها أو تسامح في أمرها فهو زانٍ وخبيث مثلها

كقوله ﴿وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ﴾ النور/٢٦.

في الحديث (وَالسَّائِثُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَحْرَسُ) تفسير الكاشف ٥ / ٣٢، فهو شريك معها في الزنى، وفي الخبائث التي تقود إلى الفسق والفجور ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الأنفطار/١٤ عن النبي (ص) (العاملُ بالظلم، والمعين عليه، والسَّائِثُ عَنْهُ وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ فِي الظُّلْمِ)! البحار ٧٥ / ٣١٢، ولا يبقى المؤمن الناكح للزانية (المتمتع بها) مؤمناً، لأن المؤمن نظيف لا يرتبط في أي عقد نكاح مع نفس قدرة وسخة خبيثة، وإن كانت جميلة المظهر ولكنها خسيصة الجوهر، وهي من خضراء الدمن! وهي المرأة الحسنة في منبت السوء، كالوردة الجميلة النابتة في مستنقع آسن، فالآية الكريمة في أول البحث، تدعم طبيعة المؤمن النظيفة وفطرته السليمة العفيفة، الذي ينفر ويشمئز ويأنف من التقرب إلى هذه العلاقة الخبيثة المشبوهة التي أضرارها أكثر من منافعها، بل لذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة ومعاناتها كثيرة (وَكَمْ مِنْ أَكْثَلَةٍ مَنَعَتْ أَكْثَلَاتٍ)! (وَكَمْ مِنْ لَذَّةٍ مَنَعَتْ لَذَاتٍ) في غرر الحكم (وَمَنْ اشْتَعَلَ بِغَيْرِ الْمُهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) ١٦- راجع للتفصيل كتابي (السكن الزوجي المتكافئ، في المنظور القرآني الفريد) للمؤلف: مكِّي قاسم البغدادي.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ) يقذفون ويتهمون بالزنى (الْمُحْصَنَاتِ) العفيفات النظيفات الشريفات المؤمنات، متزوجات أو عازبات، والمحصنات من الإحصان بحصن حصين منيع أمين يحمي من بداخله، والعفاف من الإحصان، لأن العفاف حصنهن عن الزنا، في غرر الحكم (العَفَافُ : يَصُونُ النَّفْسَ وَيُنْزِعُهَا عَنِ الدُّنْيَا). (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون بصدق عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة، ولا أنهم حضروا وشاهدوا المباشرة وأروا الميل بالمكحلة!، (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) أضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربة تأديبية رادعة غير انتقامية بالسوط ونحوه، لأنهم يكذبون ويتهمون البريئات ويخوضون في أعراض الناس بالالتِّهَامَاتِ وزرع الشبهات (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الاجتماعية وثقتهم الإنسانية، فلا تقبلوا لهم شهادة أي واحد منهم في أي شيء أبداً، مادام مصراً على كذبه وبهتانه وتآممه بلا دليل ما لم يتوبوا بصدق (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الخارجون عن طاعة الله عز وجل والمتجاوزون لحدوده، لإتياهم بالذنب الكبير والجرم الخطير الشنيع.

فائدة: ١ - أوجب الله تعالى في هذه الآية على القاذف والمتهم للعفيفات المحصنات، سواء أكرن متزوجات أم عازبات، إذا لم يُقم البيّنة الواضحة على صحة ما قال ثلاثة أحكام أ - يجلد ثمانين جلدة ب - أن ترد شهادته أبداً ج - أن يكون فاسقاً غير عادل عند الله وتسقط عدالته وثقة الناس به، ٢ - إن ترك أسنة الناس تلقي التهم الرخيصة على (المُحصنات) وهن عفيفات ثيبات أو أبكاراً بدون دليل قاطع، هذا يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يتهم بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء ثم يمضي آمناً، فتصبح الجماعة وتمسي وإذا أعراضها مجرّحة وسمعتها ملوثة وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شك في زوجه وكل رجل شك في أصله وكل بيت فيها مهدد بالانحيار، فصيانة للأسرة والمجتمع شدد القرآن على عقوبة القذف، وأنه من كبائر الذنوب فجعلها قريبة من عقوبة الزنا مع الوصم بالفسق، فعقوبة الزنا مائة جلدة، وعقوبة قذف المحصنات ثمانين جلدة . **كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيحَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** النور / ١٩ ، ٣ - ذكرت الآية المحصنات ولم يذكر المحصنين، لأن المرأة تتبعها وردود الفعل عليها في هذه الجريمة - إذا ثبتت - أفدح من الرجل! **كقوله ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾** النساء / ٢٧ .

٥ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(إِلَّا) باستثناء (الَّذِينَ تَابُوا) وأنابوا ورجعوا إلى الله نادمين على ما فعلوه من القذف والاتهام للمحصنات بغير حق بأن يكذبوا أنفسهم (وَأَصْلَحُوا) أصلحوا أعمالهم وسيرتهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات وصدقوا بتوبتهم، وأيضاً أصلحوا ما أفسدوه بتلافي الضرر الذي سببه **كقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾** هود / ١١٤ ، عن النبي (ص) (اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا) (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فاعفوا عنهم واصفحوا برفع عنهم الحكم بالفسق، وردوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، (فَإِنَّ اللَّهَ) يقبل توبة عبده النصوحة **كقوله ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾** المائدة/ ٣٩ عن النبي (ص) (مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) روح البيان ٦ / ١١٩ ، في الحديث (إِنَّ تَوْبَةَ مَنْ اتَّهَمَ الْعَفِيفَاتِ فِي شَرْفِهِنَّ أَنْ يُكْذَبَ نَفْسُهُ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ حَتَّى يُضْرَبَ وَيَسْتَعْفِرَ رَبَّهُ، وَإِذَا فَعَلَ فَقَدْ ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُ) الكافي ٢ / ٢٤١ ، وعنه (ص) (لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَفْضَحْهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ) روح البيان ٦ / ١١٩ .

٦ - ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سُمِّيت آية اللعان، وفيها حكم الملاعنة (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ) يقذفون ويتهمون زوجاتهم بالزنى ولابيّنة واضحة لديه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ) وليس لهم أربعة من الشهداء يشهدون على

صدقهم بما رموهن به من الزنى، سوى شهادة أنفسهم (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليشهدوهم لفات الغرض بتفرقهما، فالشهادة الواجب إقامتها هي أن يشهد (أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ) أي أربع مرات، مرة بعد مرة عند الحاكم الشرعي، ويقول أشهد بالله أني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانه من الزنى، التي تزيل عنه حدّ التهمة أربع شهادات بالله تقوم مقام أربعة شهداء. فائدة: ١- في الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته التي يدنسها ما يدنسها إلا إذا كان صادقاً لأن له في ذلك حقاً وخوفاً من إلحاق به أولاد ليسوا منه، ٢- سمّاها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود، ٣- وتكرير هذه الشهادة هي تكرير ذكر اسم الله معها في كل مرة، مما يتيح للرجل فرصة في أن يراجع نفسه ويرجع إلى الله بانقطاع إن أمره قائماً على الظنون والشكوك كقوله ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يونس/٣٦.

٧ - ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة ويقول بأن لعنة الله عليه بأن يدعو على نفسه باللّعنة، واللّعنة : الطرد من رحمة الله (إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) إِنْ كَانَ كاذباً في شهادته عليها بالزنى، فإذا فعل الرجل ذلك سقط عنه حد القذف وحرمت عليه مؤبداً من دون طلاق وتلتزم بالعدّة ويعطيها مهرها، وثبت حدّ الزنى على المرأة وهو الرجم .

٨ - ﴿وَيَذَرُوا عَمَّا عُذِّبُوا أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وَيَذَرُوا : يدفَعُوا، أي ويدفع عن الزوجة المتهمة بحدّ الزنى وهو (الرَّجْمُ) الذي ثبت بشهادة الزوج بشرط (أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) أي أن تحلف أربع مرات، وتقول عند الحاكم الشرعي أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى، بما يعادل شهادات الرجل.

٩ - ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

وتحلف في المرة الخامسة (مؤكدة لذلك) أن تدعو على نفسها عند الحاكم الشرعي، بأن تقول غضب الله وسخطه عليها والبعد من فضله ورحمته وإحسانه إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى. فائدة: ١- هذا هو اللّعان الذي ينفصل به الزوجان من دون طلاق، وتحرم المرأة عليه أبداً، والطفل المولود إن كانت حاملاً ينسب إلى المرأة لا الرجل. وأن اللّعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته لا بالعكس، ٢- خمس جمل يقولها الرجل وخمس جمل تقولها المرأة، إذا قيلت في محضر القاضي والحاكم الشرعي، فإنها تسمى (اللّعان) يلعن كل منهما الآخر ويلعنهما بالله، والقاضي يسعى في منع وقوع اللّعان، وإذا اقتضت الضرورة وقوعه فعليه أن يصحبهما إلى مكان طاهر كالمسجد ويجالسهما في مواجهة القبلة، وتتم مراسيم اللّعان، وصار اللّعن عليه وغضب الله عليها تغليظاً عليها، لأنها هي سبب الفجور ومنبعه بخديعتها الرجال في نفسها. في الحديث (ادْرُوا الحُدُودَ

بالشُّبُهَات) وسائل الشيعة ١٨ / ٣٣٦، أي تشبث بأي شيء يدفع به الحد وبعد أن ذكر حكم الرامي للمحصنات وللأزواج بين أن في هذا تفضلاً بعباده ورحمة بهم فقال:

١٠ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، والله يحب الساترين، وجواب (لَوْلَا) محذوف لتحويل الأمر، ورب مسكوت عنه أبلغ من المنطوق، تقديره لأهلكتم المعاصي والخطايا أو لعاجلكم بالعقوبة، كأنه قيل: ولولا تفضله سبحانه عليكم ورحمته بكم لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته أن الله تعالى لولم يُشرِّع لهم ذلك لوجب على الزوج حدّ القذف (حدّ التُّهْمَة) مع أن الظاهر صدقه لاشتراكهما في الفضيحة، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنى عليها للفت النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه للفت النظر له، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته، (وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) وأنه سبحانه (تَوَّابٌ) عليكم مبالغ في قبول التوبة (حَكِيمٌ) في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان، إن الغاية منه الستر ودفع الحد عن الزوج بسبب القذف وافساح المجال أمام الزوجة لدفع التهمة عنها، فائد: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) بتشريع الأحكام الحافظة لحقوقكم (ورحمته) بالإمهال والستر والرجوع عن المعاصي منكم، ولولا أن الله (تَوَّابٌ) عليكم (حَكِيمٌ) بأحكامه لاختل نظام حياتكم العام بالفساد والضلالة والجهالة.

١١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(حديث الإفك، ومخاطر الاتهام، ومرارة التشهير) الإفك: أشدّ الكذب عن تعمد وتفنن، وأبلغ الافتراء وأشنع كقوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ النحل / ١٠٥ والكذب باب من أبواب النفاق، ومفتاح كل شر لأنه يقلب الحقائق ويشوّش عليها، ويغيّر الواقع ويقلبه رأساً على عقب، المعنى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ) بأسوأ الكذب وأشنع صور البهتان والافتراء وهو قذف أي (تهمة) عائشة بالفاحشة والخيانة وهي بريئة وروي: أنها مارية القبطية أم إبراهيم، وليس المهم الأسماء وإنما ماهي العبرة من الآية؟ وتسمى في المصطلح المعاصر (بالْحَرْبِ النَّاعِمَةِ!) (عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) جماعة قليلة منكم عددهم من ١٠ - ٤٠، مندحجة مع المؤمنين، متعصبة متعاضدة منافقة خبيثة معدودة منكم، مرتبط بعضهم ببعض كقوله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ التوبة / ٦٧ تظاهروا كذباً بأنهم على دين الإسلام وليسوا منه في شيء، إلا المظاهر والمدعيات بل كانوا يكيّدون للإسلام ويمزقون وحدة المسلمين، (لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَكُمْ) لا تظنوا هذا الكذب والاتهام شراً لكم وضرراً (بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) لما فيه من الشرف والنفعة الكثير بنزول الوحي ببراءة السيدة عائشة أو مارية، لأنكم بسببه ميزتم أهل الزينغ والفساد في المجتمع فافتضحوا به بدلاً مما

أرادوا من فضح بيت النبي المصطفى (ص) وهتك حرمة، وأن المسلمين تعلموا منه عدة دروس منها تمييز الخبيث من الطيب ﴿وَلَا يَجِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر/٤٣، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار/٧٨/٣٧٤، (لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ) لكل فرد من العصبة الكاذبة المنافقة جزء ما اجترح من الذنب، على قدر خوضه فيه ويقدر ما أشاع وأذاع من الكذب والتشهير، وتكون العقوبة على قدر الجناية (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ) تَوَلَّى كِبْرَهُ: تحمّل معظم الإفك، فقد كان يجمعه ويذيعه (مِنْهُمْ) من العصبة.

المعنى: والذي تولى معظم الإفك وأشاع هذا البهتان، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول (عليه اللعنة) رأس النفاق والذي تزعم أصحاب الإفك، وعداوة للرسول (ص) وكراهية للإسلام، وكانت تجتمع الناس عنده ويحدثهم بحديث الإفك (الإتهام) ويشيع ذلك بين الناس ويقول امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، والله ما نجت منه ولا نجا منها!! (لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) عذاب شديد في جهنم وفي الدنيا بإظهار كذبه وإفكه. فائدة: نزلت الآيات الست عشرة تبدأ من هذه الآية، وهي تقف أمام موجة الإشاعات المغرضة، وهذه الآيات تدافع عن الحق وأهله.

سبب النزول (مختصر): اتهم بعض المنافقين وضعاف الإيمان والنفوس السيدة عائشة بالفاحشة (والعياذ بالله) وقد راج ذلك بين المسلمين من دون تحقق!

فأنزل الله هذه الآيات محذرة وموبخة المسلمين على انسياقهم بجهل وراء هذه الإشاعات المغرضة الساقطة. عن النبي (ص) (مَنْ أَدَاعَ فَاحِشَةً كَانَ كُمُبْتَدِئُهَا) نور الفقلين ٣ / ٥٨٣ أي كفاعلها، وعنه (ص) (مَنْ سَرَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزَرْهَا) (ذُنْبُهَا) وَوَزَرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) مجمع البيان ٣ / ٣٧٧، من علامات الإيمان أن لا يقع الإنسان تحت تأثير الشائعات وعليه أن يتبين ويتأكد ويتحقق ويتدقق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات / ٦ التأكيد من الأنباء والأحداث قبل الاعتماد عليها، ونهي عن القول بلا علم، وعن الحكم بالتهمة، وعن القطع باللمحة، وعن الرجم بالظنة. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الاسراء / ٣٦، يقع في الخطأ من قال: سَمِعْتُ ولم يسمع، ورأيت ولم ير، وعلمت ولم يعلم، فإنك مسؤول فأعد لكل سؤال جواباً كقوله ﴿وَقَفُّوهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصفات / ٢٤ ثم توجهت الآية إلى المؤمنين الذين انخدعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم وحذرتهم وهذبتهم بقوله:

١٢ - ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾

(وَلَوْلَا) أي هلاً حين سمعتم أيها المؤمنون بهذا الإفك، والتهمة الساقطة والافتراء الشنيع من القائلين له، أنكرتم ذلك واعترضتم؟ وكان هذا الموقف الصحيح (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) (بِأَنفُسِهِمْ) بإخوانهم الذين هم كأنفسهم (خَيْرًا) أي ظنُّ بعضهم ببعض خيراً،

ويعدون أنفسهم عن هذه التهم، وحسن الظن بالمؤمنين الصالحين من علامات الإيمان الأصيل. لأن المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور كقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾^{الحجرات/١٠} فإذا جرى على أحدهم محنة فكأنها جرت على جماعتهم جميعاً لأنهم بعضهم أولياء بعض كقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^{التوبة/٧١}، بمعنى: ظنوا الخير ولا تتسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيهم الورع والنزاهة، فإن من علامات المؤمن ألا يصدق مؤمن على أخيه قوله عائب ولا طاعن، وهذه تربية قرآنية نموذجية مميزة للمؤمنين (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) وقالوا في ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهر وافتراء واضح، لأن المؤمن للمؤمن كالبنين المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، في الحديث: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ) كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائرُهُ بالسَّهرِ والحُمى!)

الرازي ٢٣ / ١٧٧

فائدة: ١- نصيحة عامة: في حالة الإشاعات والتسقيطات الاجتماعية، ولو استشار كل مؤمن قلبه يومها لافتاه، ولو عاد إلى منطلق الفطرة هداها، عن النبي(ص) (المؤمن ينظر بنور الله) البحار ٦٧ ص ٦٦، عن النبي(ص) (اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كثر العمال خبر ٢٩٣٣٩، إنكم تستحقون اللوم والتأنيب، لاستماعكم هذه الشائعات الساقطة والظنون الكاذبة والتزامكم الصمت إزاءها!

في الحديث (وَالسَّائِكُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أُحْرَسُ) تفسير الكاشف ٥ / ٣٢، ينبغي للمؤمن إذا سمع شراً عن أخيه المؤمن، أن يظن به الخير وينفي السوء عنه ويتبين الحقيقة قياساً على نفسه، (فَكُنْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ)، فكيف يكون حال الذين روجوا لهذه الشائعة وأسأوا الظن بسرعة؟ كقوله ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾^{النجم/٢٣} في غرر الحكم (ظَنَّ الْإِنْسَانِ مِيزَانُ عَقْلِهِ، وَفَعْلُهُ أَصْدَقُ شَاهِدٍ عَلَى أَصْلِهِ) ٢ - فهؤلاء المنافقون لا يهدفون إسقاط شرعية القيادة الحكيمة للرسول (ص) فحسب بل يريدون أيضاً إسقاط شرف الأمة وعفتها، وتفكيك وحدتها فلا يبقى شرف لا تناله إشاعات المنافقين وبذلك يحاولون إسقاط القيم والمبادئ والأخلاق، وتشويه سمعة الرسول(ص) والرسالة الإسلامية المتألقة . فلا بد من التعرّف على طبيعة هذه التهم والإشاعات وكشف الدوائر التي تقف وراءها وارتباطاتهم المشبوهة، وأن لا يتسرع المؤمن في الحكم ويكون رشيداً في التصرف، ومتوازناً في التعامل، ٣ - قال (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا) ولم يقل (وظننتم بالآخرين خيراً) لأن ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^{التوبة/٧١}، فهم كالبنين المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، فجاء تعبير الآية (بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا) لأن المؤمنين والمؤمنات كالنفس الواحدة الموحدة المتحدة، عن الإمام الصادق(ع) (أدنى ما يخرج الإنسان من الإيمان، أن يواخي الرجل على دينه، فيحصى عليه عثراته وزلاته ليعنّفه بها يوماً ما) البحار ٧٥

١٣ - ﴿لَوْ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

لقد عالج القرآن هذا الحدث بالخطوة الأولى بالدليل النفسي الوجداني، والخطوة الثانية طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي (لَوْ لَا) : هَلَّا جَاءَ أَوْلَئِكَ الْمَفْتَرُونَ وَالْمُرْجُونَ لِلشَّائِعَاتِ فِي الْإِفْكَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ عَدُولٍ يَشْهَدُونَ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي تَهْمَتِهِمْ (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ) فَإِنْ عَجَزُوا وَلَمْ يَأْتُوا عَلَى دَعْوَاهُمْ بِالشُّهُودِ، (فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) فَأُولَئِكَ هُمُ الْأَفَّاكُونَ الْكَاذِبُونَ فِي حُكْمِ اللَّهِ وَشَرَعِهِ، وَتَسْقُطُ عَدَالَتُهُمْ وَثِقَةُ النَّاسِ بِهِمْ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ حَدُّ الْقَذْفِ، لِأَنَّ الدَّعْوَى مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ كَذِبٌ وَإِفْكَ قَالَ (فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)، وَلَمْ يَقُلْ (فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَعْظِيمِ حَرَمَةِ عَرَضِ الْمُسْلِمِ وَكَرَامَتِهِ وَسَمْعَتِهِ، فَلَا يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَى رَمِيهِ وَالتَّشْهِيرِ بِهِ مِنْ دُونِ نَصَابِ الشَّهَادَةِ بِصَدَقِ، وَهَذَا شَرَعُ اللَّهِ قَائِمٌ عَلَى الدَّلَائِلِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَقَنَّةِ كَقَوْلِهِ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة / ١١١ . وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَتَعْنِيفٌ لِلَّذِينَ سَمِعُوا الْإِشَاعَاتِ الْكَاذِبَةَ وَالْإِفْكَ وَلَمْ يَنْكُرُوهُ أَوَّلَ وَهَلَةٍ. فَائِدَةٌ : الْمَوْقِفُ اتِّجَاهَ الشَّائِعَاتِ عَلَى الْمُؤْمِنِ يَنْبَغِي عَرَضَ الشَّائِعَةِ أَوَّلًا عَلَى الْقَلْبِ بِصَدَقِ وَاسْتِفْتَاءِ الضَّمِيرِ بَعْدَهُ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْكُمْ عَلِيمٌ بِكُمْ عَنِ النَّبِيِّ (ص) (اسْتَفْتَيْتُمْ نَفْسَكُمْ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كَتَبَ الْعَمَالُ خَيْرَ ٢٩٣٣٩، وَيَنْبَغِي ثَانِيًا التَّثَبُّتُ بِالْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ وَالِدَّلِيلِ الْقَاطِعِ كَقَوْلِهِ ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات / ٦ وَقَوْلِهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المائدة / ٣٨ عَنِ النَّبِيِّ (ص) (الْبَيِّنَةُ عَلٰى مَنْ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلٰى مَنْ أَنْكَرَ).

١٤ - ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) بِكُمْ (فِي الدُّنْيَا) عَلَى مَنْ عَصَاهُ هِيَ السُّتْرُ وَالْإِمْهَالُ لِلتَّوْبَةِ، وَرَحْمَتُهُ فِي الْآخِرَةِ الْعَفْوُ وَالْمَغْفِرَةُ إِذَا تَابَ وَأَنَابَ (لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ) أَفَضْتُمْ : خَضَمْتُمْ، أَي (لَمَسَّكُمْ) لِأَصَابِكُمْ وَنَالِكُمْ بِسَبَبِ مَا خَضَمْتُمْ وَتَسَرَّعْتُمْ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الْإِفْكَ وَشَائِعَاتِهِ الْكَاذِبَةِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ التَّسْقِيطُ الْاجْتِمَاعِيُّ، الَّذِي يَسُرُّ الْعَدُوَّ وَيَحْزَنُ الصَّدِيقَ، (عَذَابٌ عَظِيمٌ) عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهَذَا عِتَابٌ مِنَ اللَّهِ بَلِيغٌ لِمَنْ خَاضُوا فِي الْإِفْكَ، وَلَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ بِرَحْمَتِهِ سَتَرَ عَلَيْكُمْ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَحْذَرُ أَنْ يَعُودُوا لِمِثْلِهِ وَيَسْتَجِيبُوا لِلشَّائِعَاتِ الْكَاذِبَةِ الْمَغْرُضَةَ لِتَسْقِيطِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَتَفْكِيكِ التَّرَابُطِ وَالْوَحْدَةِ بَيْنَهُمْ، وَهَذِهِ نَصِيحَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ فِي حِفْظِ أَعْرَاضِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِفْظِ سَمْعَتِهِمُ الطَّيِّبَةِ.

١٥ - ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾

تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ : يَنْقُلُهُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ أَوْ تَتَنَاقَلُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ بَيْنَكُمْ كِبْضَاعَةٌ رَخِيصَةٌ!، يَقُولُ هَذَا سَمْعَتُهُ مِنْ فَلَاتٍ وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا، كَلِمَاتٌ تَسْقِيطُ تَقْذِفُ بِهَا الْأَهْوَاءُ وَالشَّائِعَاتُ بِلَا تَحْقُقِ! وَلَا

تدقق، كان الأليق معارضتها والنهي عنها وتحجيمها وعدم انتشارها، ومعرفة مروّجيهها، . المعنى: حين (تَلَقَّوْنَهُ) خضتم فيه عندما كنتم تأخذونه وتتناقلونه من لسان إلى لسان، وتديرون حديث الإفك وشائعاته بالسنتكم وينقله بعضكم عن بعض من غير دليل وغير تثبت وتدبر فيه، وتلفظون ما لا علم لكم به ولا برهان (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) تقولون لابوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبيكم إنما هي كلمات غير مسؤولة تقذف بها الأفواه بعيدة عن ضمائرکم ومشاعرکم، تقولون ما ليس له حقيقة في حركة الواقع، وإنما هو شائعات كاذبة بلا حجة ولا برهان للتشهير والتسقيط .

(وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) وتظنونه سهلاً أو ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ولا تبعة له، والحقيقة إنه عند الله بهتان واقتراء، من أعظم الموبقات وكبائر الجرائم! لأنه يفسد الترابط الاجتماعي ويفكك الوحدة والثقة بين المسلمين ويعرقل مسيرة الدعوة الإسلامية. وهذا فيه الزجر الشديد عن تعاطي بعض الذنوب مع التهاون بها في غرر الحكم (أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ذَنْبٌ اسْتَهَانَ بِهِ رَاكِبُهُ)، فإن العبد لا يفيد حسابانه شيئاً وحقيقته شيئاً آخر، ولا يخفف من عقوبته، لأنه يسهل استعماله مرة أخرى، فكما أن القانون لا يحمي المغفلين به كذلك حكم الله لا يحمي المغفلين والجاهلين واللامبالين به، وهكذا يتبين أن موازين الله تختلف عن موازين الناس، فعلينا أن نعتد موازين الله قبل موازين الناس.

فائدة:

١- قوله (بِالْسِنَتِكُمْ ... بِأَفْوَاهِكُمْ) الإشارة إلى أنّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب والمشاعر، وأنتم لم تطلبوا الدليل على الكلام من اللسان! بل قبلتوا الشائعة ونشروها واستصغرتم حرمتها، في نهج البلاغة حكم ٣٤٨ (أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ) فالكلمة ليست مجرد صوت، وإنما هي رسالة إلى عقول الناس والتأثير بهم كقوله ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق / ١٨، فالكلمة في حساب المفسدين شيء رخيص، والكلمة عند أهل العلم والإيمان شيء عظيم، والكلمة آية الله في الإنسان بها كان خليفة الله في الأرض، والكلمة عنوان عقل المتكلم وبيان أصله، فإن صلحت الكلمة حسن تأثيرها، إن فسدت أساء تأثيرها، وبالكلمة يتطور العلم ويحصل كل جديد كقوله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الأسماء / ٣٦ في غرر الحكم (العَاقِلُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِحَاجَتِهِ أَوْ حُجَّتِهِ) قيل : ومن تهاون بما يجري عليه من دعاوى وشائعات فقد صغر ما عظمه الله! (وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا... ٢-

(تَلَقَّوْنَهُ بِالْسِنَتِكُمْ) تلقي الأخبار يكون بالأذن لا باللسان، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بالسننتهم، كأن مرحلة السماع بالأذن قد أُلغيت، فبمجرد أن سمعوا قالوا بلا تأمل!

١٦ - ﴿وَلَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) وهلّا حين سمعتم هذه التهمة الساقطة، (قُلْتُمْ) عتاب للمؤمنين أي : كان عليكم أن تنكروا حديث الإفك، حديث الشائعات والتسقيط الاجتماعي اللئيم، أول سماعكم له وتقولوا (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) ولا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام الخطير، ولا يحل لنا أن نذكره لأحد لحرمة ذلك (سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) سُبْحَانَكَ: تنزيهاً لك يارب، ما أفضح هذا الكذب وأشنعه لأنه افتراء عظيم، بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والكذب الواضح فيه وعظيم الجرم الذي يترتب عليه. فائدة: ١- (سُبْحَانَكَ) الأصل فيها يُسبح الله عند رؤية العجائب والغرائب، وما هو غير معروف وغير مألوف، وتُقال هنا عند التعجب من حدوث شيء، أي ننزه الله ونجّله أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع على رسوله (ص)، بُهْتَانٌ : افتراء عظيم يبهت ويُجبر المفترى عليه لفظاعته، فكيف إذا كان بهتاناً عظيماً؟! ٢ - من طبيعة الإنسان الحكيم عندما تواجهه مشكلة يبدأ يصغرها ويضيّق مساحتها حتى يقضي عليها، ومن طبيعة الجاهل يجعل المشكلة الواحدة إلى عدة مشاكل ويعاني منها! ٣ - المؤمن الحق يدافع عن أخيه المؤمن بقدر ما يستطيع، لأن (المؤمن مِرَّةً لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ) والذين يشهرون بالناس ويثيرون الشائعات على بعض الناس، هم أراذل الناس كقوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾ الانفال / ٢٢، في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ يُعِينُ عَلَى الْمَظْلُومِ).

١٧ - ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(يَعْظُمُ اللَّهُ) في أسلوب شفاف في التربية المؤثرة، أسلوب المتضمن بالرفق مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثله، ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) يذكركم الله ﴿فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات / ٥٥ و﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ بالمواعظ الشافية، والمواعظ حياة القلوب، وجلاء الصدور، وبها تنجلي الغفلة، وتزيد الانتباه (يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) ينهاكم ويحذركم الله عن التكرير ويحرم عليكم الإصرار، أن لا تعودوا إلى مثل هذا العمل البهتان أبداً طول عمركم، فهو الذي ظاهره يغر وباطنه يضر (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) إن كنتم حقاً مؤمنين مصدقين بالله ورسوله ورسالته، فإن الإيمان يترفع عن هذا البهتان ويمنع صاحبه عن الخوض فيما لا يعلم، في غرر الحكم (أَصِلْ الْوَرَعَ جُنُبِ الْأَثَامِ وَالتَّنَزُّهُ عَنِ الْحَرَامِ) فلا تقربوا إلى مثله أبداً ولا تكررره، نغم المواعظ والنصائح من ربنا كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ نَعَمًا يَعْظُمُ بِهِ﴾ النساء / ٥٨ يجب علينا مقابلتها بالإذعان والتسليم والتطبيق. وفيه إشارة: إلى أن العود إلى مثل هذا يخرجه من الإيمان، ويدخل في هذا من قال : من سمع الشائعات المنكرة ولم يبه عنها ولم يعارضها صار كأحدها، لأنه الراضي بفعل قوم كالدخل معهم فيه، عن النبي (ص) (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)! كثر العمال خير ٢٤٦٨٤ عن النبي (ص) (ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهراينهم وهم قادرين على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة) الدرر المنثور ٣٠٢/٢

١٨ - ﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ) يكشف الله لكم عما وراء هذا الحدث من كيد لئيم له أبعاده ودلالاته، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء أي ويوضح الله لكم الآيات والأحكام الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب لتتعضوا وتتأدبوا بها، التي تضمن لكم سعادة الدنيا والآخرة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (عَلِيمٌ) يعلم بما يصلح العباد، ويعلم نواياهم وغاياتهم، ويعلم مداخل القلوب ومشاعر النفوس، (حَكِيمٌ) في تدبيره وتشريعته، وهو حكيم في علاج الأمور وتديريها.

١٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

الْفَاحِشَةُ: ما عظم قبحه وكبُرُ إثمِه وازدادَ ضَرَرُهُ، من الأفعال والأقوال المخلة بالعفة والشرف، هو تعقيب على حدث الإفك الخطير، بالتنبيه إلى أن الذين يحبون أن تفشوا الفاحشة وتتوسع المنكرات الشنيعة بشتى السبل، وينتشر الفعل القبيح المفرط القبح كإشاعة الرذيلة والإباحية، في الأقوال والأفعال وإشاعات المنكرات كالزنى وغير ذلك، مما تشيع الفتنة والتحلل في مجتمع المؤمنين وخلق الشبهات والتشهير ونشر الشائعات (فِي الَّذِينَ آمَنُوا) وخاصة بقذف المحصنات العفيفات والتي تسمى في المصطلح المعاصر (الحرب الإعلامية النفسية، الحرب الباردة أو التاعمة) (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) لهم عذاب موجه مؤلم في الدنيا بإقامة الحد، ورد شهادتهم وفقدانهم الثقة بين الناس، وفي الآخرة بعذاب جهنم (وَاللَّهُ يَعْلَمُ) ما فيه صلاح الفرد والمجتمع وهو تعالى عالم بالأسرار والنوايا وما تخفي الصدور (وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أسرار النفوس وما في الضمائر والمفاسد.

فائدة: ١- إشاعة الفاحشة لها أكثر من وجه : بالإقدام المباشر على الفاحشة والتعامل مع الزنى والتعاون مع الزناة، أو التحدث بها علناً إلى الناس بجميع أساليب الإعلام والنشر المعروفة، وإفشاء ما ستر الله منه أو بإذاعة الأحاديث عن الفاحشة والترغيب فيها والتشجيع عليها، أو بالأصغاء والتفاعل والتشجيع مع حديث الفاحشة في الصورة والصوت ونشر الأفلام الخليعة والصور المثيرة للغرائز، وخاصة قذف (اتهام) المحصنات العفيفات، إنه غزو ثقافي خطير ومير كقوله ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ﴾ النساء/٨٣، في نهج البلاغة خطبة ٢٧ (اغزوه قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزيت قوم في غمير دارهم إلا ذلوا)، ٢ - (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مادي ومعنوي، عذاب موجه للقلب ومنعص للعيش ومكره للأيام، وذلك لغشه إخوانه المسلمين ومحبة الشر لهم وجرأته على أعراضهم . فإذا كان هذا الوعيد في محبة، وهو عمل قلبي (يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ) فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله ونشره في مختلف وسائل الإعلام؟ ومحبة الذنب الكبير مقدمة لاقترافه والتشجيع على نشره بين الناس بالخصوص الذين آمنوا، وإنما لم يصرح النص

القرآني به اكتفاء بذكر الحجة فإنها مستتبعة له، ٣ - عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ الْفَاحِشَةَ وَالَّذِي يُشِيْعُ بِهَا فِي الْإِثْمِ سَوَاءً)

عن النبي (ص) (لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ) وعنه (ص) (إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءً فُحْشِهِ) كبر العمال خبر ٨٠٨٢، وعنه (ص) (مَنْ أَدَاعَ فَاحِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِئِهَا) نور الثقلين ٣ / ٥٨٣ كفعلها.

٤ - في قوله : (هُمَّ عَذَابُ أَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) سؤال : إن عوقب المجرم على جريمته في الدنيا، لم يعاقب عليه في الآخرة، ولا يستقيم في عدالة الله تعالى أن يجمع بين عقوبتين على ذنب واحد! والجواب: القذف (اتِّهَام) بالفاحشة ذنب، وإشاعتها ونشرها بين الناس ذنب كبير آخر، فإذا قذف المجرم وأشاع الدعارة ونشر الفاحشة، يُجَدَّ على القذف والاتِّهَام في الدنيا، ويُعَذَّب في الآخرة على نشره الفاحشة وإذاعتها وتوزيعها بوسائل الإعلام بين الناس. في غرر الحكم (أَسْرَعُ الْمَعَاصِي عُقُوبَةً أَنْ تَبْغِيَ عَلَى مَنْ لَا يَبْغِي عَلَيْكَ) عن الإمام الصادق (ع) (من قال في مؤمن ما لا رأته عيناه ولا سمعته أذناه، كان من الذين وذكر الآية) نور الثقلين ٣/٥٨٣.

٢٠ - ﴿وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته، لِمَنَّةٍ عليهم وإمهالهم وترك المعالجة بالعقاب، جواب (لَوْلَا) محذوف لتهويل الأمر حتى يذهب الفكر في تقديره وتهويله، فيكون أبلغ في البيان وأبعد في الزجر. المعنى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ) تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعدَّهم وما زكى أحد منهم (وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) ولكنه بعباده رءوف رحيم ويهديهم لما فيه صلاحهم. وتقدير جواب (لَوْلَا) المحذوف في كل موضع كما في الآية ١٠ و ١٤ مَسَّكُمْ مِنْ جَزَاءِ اسْتِهَانَتِكُمْ بِاتِّهَامِ وَقَذْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ بَيْنَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وهنا يتبين فضل الله على المؤمنين مرة أخرى ورحمته بهم، فَإِنَّ الْخَطَأَ جَسِيمٌ وَالْحَدِيثُ عَظِيمٌ، فلا بد له من قادر حلِيم يرعى بالرحمة، ويمنُّ بالرفقة ويتفضل بالعفو.

٢١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا تَرَكْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

معنى الشيطان عام : كل مخلوق مادي أو معنوي، عاقل أو غير عاقل مؤذٍ وفسادٍ ومُحَرِّبٍ، فيكون التحذير منه عام أيضاً كقوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاطر / ٦، خطوات الشيطان كثيرة وهي مقدمات الضلال والعصيان، وهي نزغات الشيطان وطرقه ووساوسه يستدرج الإنسان بمكر في خادع خطوة خطوة في اتجاه السيئات والمنكرات من حيث لا يشعر! كقوله ﴿وَزَيْنٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣، والشيطان يدخل بخطواته الفتيّة في نفس

الإنسان عن طريق هواه، والهوى إله يُعبدُ من دون الله، وعن طريق ﴿النَّفْسِ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾ يوسف/٥٣، يُشجّع نحو كل معصية صغيرة أو كبيرة وما يطلق عليه (الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ) المتعلقة بالقلب واللسان والبدن، فهي من خطوات الشيطان عن ابن عباس (مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ فَهُوَ مِنْ حُطُوتِ الشَّيْطَانِ) الدر المنثور ١/١٦٧، المعنى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ) يا من صدقتم بالله ورسوله ورسالته الحكيمة، كونوا على حذر وانتباه، ولا تتبعوا (حُطُوتِ الشَّيْطَانِ)

تحركات الشيطان ولا تسلكوا طرقه الخادعة وتستجيبوا لأساليبه الخبيثة الفاسدة، ولا تقمتم بوساوسه الخادعة التي يزينها في قلوبكم، بإشاعة الفحشاء والمنكر، فإن خطوات الشيطان الفنية تُرغب في القبائح وكبائر الذنوب وصغائرها، سواء أكان الشيطان من الإنس أم من الجن أم من الأفكار والقناعات الصنمية ومن العقائد المتحجرة والغلو وكل الانحرافات والحرفات التي تخالف القرآن الكريم، ومن جعلتها آثام (قذف) المحصنات والشتيم والكذب وتفتيش عن عيوب الناس والاعتداء على حقوقهم، في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (طوبى لِمَنْ شَعَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ النَّاسِ) (وَمَنْ يَتَّبِعْ حُطُوتِ الشَّيْطَانِ) وَمَنْ يَطِيعُ وَيَسْتَجِيبُ لِسِيرَةِ الشَّيْطَانِ ومكره وخداعه وساوسه ونزغاته وطريقته فيمكنه من نفسه كقوله ﴿وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء / ٣٨، (فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) يَأْمُرُ: فعل مضارع يدل على الاستمرار، الْفَحْشَاءُ: ما أفرط قبحه في الأقوال والأفعال، الْمُنْكَرُ: ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة، مع ميل بعض النفوس إليه، أي فإن الشيطان بوساوسه يقوده إلى أقبح الأفعال وأشنعها وهي الكبائر، ويغريه بالأمر المنكرة عقلاً، والمحزومة شرعاً وهي الصغائر، ويزين من الباطل بزينة الحق فيجعل الأشياء ظاهرها يغر ويسر وباطنها يضر، في طرق فنية متعددة بالغة الدقة خادعة ومميّزة، وكل إنسان بحسب طباعه ومقاسه (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) أيها المؤمنون بإحاطته سبحانه لكم بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبتشريع الحدود المكفّرة للخطايا وبرحمته التي وسعت كل شيء، فلم يعذبها بالاستئصال، وحذرنا من مخاطر الشيطان، ونقول في الدعاء (اللَّهُمَّ عَامِلِنَا بِفَضْلِكَ لَا يَعْذِلُكَ، بِالْإِحْسَانِ لَا بِالْمِيْزَانِ) (مَا زَكَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) ما تخلّص ونجا أحد منكم من وساوس الشيطان ويهم بطاعته ويستجيب لوساوسه من حيث لا يعلم إلا من عصمه الله تعالى بإيمانه وورعه وعلمه وتقواه (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/٢٠١ أو ما تَطَهَّرَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْأَوْزَارِ، وقذارة الذنوب وقسوة القلوب وسوء العاقبة (أَبَدًا) أبد الدهر لاستيلاء الهوى وخفة العقل والجهل ومكر الشيطان وخداعه عليكم ﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ النحل / ٦١ عن النبي (ص) (كُلُّ إِبْنِ آدَمَ حَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ) الدر المنثور/٢٦١ (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ

يَشَاءُ) ولكن الله بفضله ورحمته ومنهجه (بُزْغِي) يطهر من يشاء من يعلمه مؤهل للطهارة، وتناسب معه التزكية وتهذيب النفس كقوله ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٧-١٨ دعاء النبي(ص) (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا) (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) لأن الله (سَمِيعٌ) لسؤال من سأله التزكية بلسانه وفعله (عَلِيمٌ) بحال من استعد لها، أما الصَّمُّ البكم المصّر على الشرّ البعيد عن الخير فإن الله له بالمرصاد.

فائدة:

١- إنّ الآية الكريمة تصوّر صورة مستنكرة العلاقة المتبادلة بين الشيطان والإنسان المؤمن الغافل ليكون على حذر، أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه! وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وخطواته، وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم، صورة كريمة ينفر منها طبع المؤمن ولا تتناسب مع سلامة قلبه، إنها صورة تثير في نفوسهم اليقظة والحذر والانتباه، وعدم الغفلة من الشيطان هذا الماكر الغادر اللئيم الخبيث، في غرر الحكم (احذروا الْعُقَلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) (لَا تَعْقُلْ فَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنكَ!) ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف/٣٦ وقوله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/٢٩، ٢- (خَطُواتِ الشَّيْطَانِ) وكان الشيطان له خطوات فنية متنوّعة، وخطط متعدّدة مدروسة، وليست خطوة فنية ولا كيفية واحدة، فإن امتنعت عليه طريقة جرّبت طريقة ثانية وثالثة... وهكذا في الإغواء كقوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الاعراف/١٦ ومن خطواته قوله ﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الاعراف/١٧، أي ليأتينهم من الأربع جهات لكن لم يذكر من أعلى ولا من أسفل، أي حين ترفع يديك بالدعاء إلى الأعلى، وحين السجود على الأرض. وبهما يخنس الشيطان ويلجم.

٢٢ - ﴿وَلَا يَأْتَلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُغْنُوا وَيُصْنَفُوا أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ولا يأتل: لا يحلف، من آليت إذا حلفت أو لا يقصر أو لا يترك أو لا يقطع، أَوْلُوا الْفَضْلِ: أهل الفضل في الدين والخلق والإحسان، السَّعَةِ: الغنى في المال والجاه، سبب النزول: نزلت بحق عدد من الصحابة أقسموا بقطع المساعدة المالية عن الذين تورطوا في إشاعة حديث الإفك وهم فقراء مهاجرون بدريون، فنزلت تمنعهم من قطع المساعدة وأجرتهم بالعفو والسماح عنهم، المعنى: لا يحلف أهل الفضل في الدين والإحسان وأصحاب السعة في الرزق والمكانة الاجتماعية (أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أن لا يؤتوا ولا يقصروا ولا يقطعوا أرحامهم وأقاربهم من الفقراء والمحتاجين والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، ما كانوا يعطونهم إياه من

المساعدات بإحسان لذنب فعلوه ومبادرة خاطئة متسرعة صدرت منهم أو من أحدهم بجهل، ممن شاركوا في إشاعة حديث الإفك وإذاعة التهم عن غفلة بدون نية سوء (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) وليعفوا عنهم ولا يعاقبهم كقوله ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة/٢٣٧ (وَلْيَصْفَحُوا) وليتساحوا معهم كقوله ﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/٨٥ عن النبي (ص) (تَعَفُّوا تَسْفُطُ الضَّعَائِنُ بَيْنَكُمْ) كنز العمال ٧٠٠٤، وليتركوا من عتابهم ومؤاخذتهم، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان لهم، لأنهم تابوا عن فعلهم كقوله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت/٣٤-٣٥.

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) أَلَا : أداة للحض والحث والترغيب، أي ألا ترغبون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحككم ومسامحتكم إلى مَنْ أساء إليكم فاغفروا - أنتم - أخطاء الناس (وَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ) حتى يغفر الله خطاياكم، والجزاء من جنس العمل، (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب.

في غرر الحكم (أَحْسَنَ الْعَفْوُ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ) من أحبَّ أن يصفح الله عنه فليصفح هو عمن أساء إليه، ومن لا يرحم لا يرحم. في غرر الحكم (بِالْعَفْوِ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ) فائدة: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) الصفح مرحلة أعلى من العفو، فهو من مكارم الأخلاق، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وفيه ترغيب عظيم في العفو والمسامحة والمرونة في التعامل، إنها آفاق النفوس المؤمنة المميّزة الزكية عالية المضامين التي تعتمد في التعامل على مكارم الأخلاق كقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/٤ عن النبي (ص) (الإِسْلَامُ حُسْنُ الْخُلُقِ) كنز العمال خبر ٥٢١٥، وإنها تحلقات النفوس النموذجية التي تتسامى عن الزلل لأنها مسدده في القول والعمل. في غرر الحكم (مَنْ كَرَمَتْ نَفْسُهُ قَلَّ شِقَاقُهُ وَخِلَافُهُ)، عنه (ص) (لَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ إِلَّا أَوْلَا الْفَضْلِ) روح البيان ٦ / ١٣٣.

٢٣ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

يَزْمُونَ : يتهمون، يقذفون، الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ : العفيفات النظيفات الشريفات المتزوجات والعازبات (الْغَافِلَاتِ) اللاتي لا يخطر على بالهن فعل الحرام لأنهن لم يأتين شيئاً يحدرنه، وكذلك من يرمي المؤمنين الغافلين الأبرياء المحصنين، والحكم في الآية وإن نزل في خصوص السبب ولكن أريد له عموم المعنى، وفيه تهديد ووعيد لمن يخوض في أعراض المؤمنين والمؤمنات ويتهمهم بالفاحشة كذباً، المعنى: إن الذين يتهمون بالزنى العفيفات الصالحات (الْغَافِلَاتِ) السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة، وأنهن المتصفات بالإيمان وحسن السيرة (لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) طردوا وأبعدوا من رحمة الله وتسديده وتأييده ورضوانه في الدنيا والآخرة وفوق ذلك (وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) يصف القرآن العذاب بأنه عظيم في الآخرة، لأنه يجبروت الله وقهره وانتقامه كقوله

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران / ٤ ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف في يوم القيامة، بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة، إلا أن يتوبوا ولا يعودوا لمثله أبداً.

فائدة: ١- (لُعِنُوا) اللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير وخطير ومعناه الإبعاد والطرده من رحمة الله، ويفقد الثقة بين المؤمنين، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين، ٢- يصور السياق القرآني جريمة هؤلاء الذين يثنون الشائعات والشبهات ويسقطون الشخصيات المميزة النظيفة، فهي جريمة كبيرة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة والانحطاط، فلا بد من عقوبة تتناسب مع الجريمة، عن النبي (ص) (مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَرَزَا وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) مجمع البيان ٣ / ٣٧٧، لقد اعتنى القرآن بحماية حقوق النساء العفيفات، ٣- وعنه (ص) (اجْتَنِبُوا الْمُؤَبَّاتِ (المهلكات) السَّبْع: (الكبائر) الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَالسِّحْرَ وَقَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلَ الرِّبَا وَأَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ والتولي (الهروب) يَوْمَ الرَّحْفِ وَقَذْفِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) روح البيان ٦ / ١٣٤.

٢٤ - ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَمْرُؤُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

في مشهد مثير عجيب وغريب، من مشاهد يوم القيامة الرهيب، تشهد الأعضاء بغير اختيار منهم على مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، ولا تشهد الجوارح على المؤمن الصالح لأنه من الفائزين (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ) بما نطقت (وَأَيْدِيهِمْ) بما فعلت (وَأَمْرُؤُهُمْ) إلى ما سعت، ويشهد ويعترف كل عضو من أعضائه على المهمة التي أداها، وينطقه الذي أنطق كل شيء فلا يمكنه الإنكار كقوله ﴿وَقَالُوا لِحُجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصلت / ٢١، وهذا قبل أن يختم على أفواههم، فلا تعارض بينه وبين ﴿الْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ ياسين / ٦٥ فائدة: ١- فإذا بعض المتهمين يتهم بعضاً بالحق، جزاءً بما كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات العفيفات بالإفك والتهم والإشاعات المغرضة بغير حق! وهي مقابلة في المشهد المؤثر على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني الفريد.

٢٥ - ﴿يَوْمَ يُوقِفُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

دِينُهُمُ الْحَقُّ : الدين : الجزاء، أي جزاءهم المستحق وحسابهم التام الدقيق (الْحَقُّ) بالعدل والإنصاف والإحسان، وجزاء لا جور فيه كقوله ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الحمد / ٤ مالك يوم الجزاء، ومنه (كما تدين تدان) المعنى: في ذلك اليوم (يُوقِفُهُمْ) يؤتيهم الله جزاءهم المستحق إيتاء تاماً لا نقص فيه كقوله ﴿تُنْجِزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجناتية / ٢٢ (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) ويعلمون في ذلك اليوم الحاسم (عند مشاهدة الأحوال وتغيّر الأحوال علماً وجدانياً) أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، وهو الحق (الْمُبِينُ) الواضح الثابت بذاته والمثبت بالحق لغيره، والظاهر بالوحيته بالبراهين العقلية، والظاهر عدله في تشريعه وحكمه، وأن الجزاء

والحساب حق لازم لامهرب منه، ويجدون جزاءهم مكتوباً كاملاً، لم يفتقدوا منه شيئاً كقوله ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩، وهم كانوا في الدنيا غافلين عن هذه الحقيقة الكبيرة! كقوله ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ص/٢٢ .

٢٦ - ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

جرت سنة الله تعالى في الفطرة البشرية أن يسوق الطبع إلى مثله، بحكم انجذاب ما يناسبه ويرغب إليه، على أن اللام للاختصاص، والمجانسة دلالة على الملازمة والانضمام والتألف، ولا تدل على التكافؤ. حيث تلتئم وتنسجم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج وتتفاعل النفس الطيبة بالنفس الطيبة من صنفها، وعلى هذه القاعدة تقوم العلاقات بين الأزواج على الخصوص، وعلاقات الأصدقاء على العموم، لأنّ مجانسة النفوس من دواعي الألفة والكفاءة والمحبة والاتفاق ودوام المعاشرة، وكلما تقاربت الأرواح تجاذبت وتحاببت، وإذا اختلفت تنافرت، عن النبي(ص) (المؤمنُ كُفُوُ الْمُؤْمِنَةِ) إذا تكافأة الصفات وتعادلت الجاذبيات.

وعنه(ص) (الأزواجُ جُنُودٌ مُّجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ) كثر العمال خير ٢٤٦٦، وليس الخبيث كفو الخبيثة، لأنهما ليس بينهما كفاءة وانسجام وتناسب، ولأنهما لا يبحثان عن كفاءة وإنما يبحثان عن مجانسة وملازمة واستمتاع شهواني عن طريق الزنى المحرم الفاسد الساقط المبتذل، الخبيثاتُ : السيئات الزانيات الفاحشات من الأقوال والأفعال والنفوس، لِلْخَبِيثِينَ : أيضاً السيئون طلاب الفاحشة رجالاً ونساءً في أقوالهم ونفوسهم، وهم عكس ومقابل الطيباتُ : الحسنات الصالحات العفيفات من الأقوال والأفعال والنفوس، لِلطَّيِّبِينَ : أيضاً المحسنون الصالحون الورعون رجالاً ونساءً أيضاً من الأقوال والأفعال والنفوس، أي بالسيئات يستدل على المسيئين، وبالمسيئين يستدل على السيئات، وبالحسنات يستدل على المحسنين، وبالمحسنين يستدل على الحسنات، ونستنتج من ذلك:

إنّ ما خبت من الأقوال والأفعال لا يصدر إلاّ من خبت في نفوس الرجال والنساء، وما طاب من الأقوال والأفعال لا يصدر إلاّ من طاب في نفوسهم ونفوسهن (وكل إناء بالذي فيه ينضح) (والطيور على أشكالها تقع) (وكل إلف يذهب إلى إلفه) فيكون المعنى العام للآية: النساء الخبيثات يملن للرجال الخبيثين من أمثالهن، والرجال الخبيثون يميلون للنساء الخبيثات من أمثالهم، والنساء الطيبات يملن للرجال الطيبين من أمثالهن، والرجال الطيبون يميلون للنساء الطيبات. من أمثالهم وبذلك جانسهم وناسبهم ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود/١١٩، عن النبي(ص) (اعملوا فكلّ مُيسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) روح البيان/٦/١٣٦، وأحد معاني الخباثة هي الزنا، ومن خبت نفساً وقولاً وديناً وخُلُقاً

وتعاملاً، وأحد معاني الطيبات هي العفاف، والطيب ضد الخبيث، ومعنى طيب من طاب نفساً وقولاً ودينياً وحُلُقاً وتعاملاً وهو مرغوب ومحِب للنفس البشرية (والرجل المناسب للمرأة المناسبة) وهذا المعنى أقرب لمقصود الآية كقوله ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ النور/٣، وهو ما روي في مضمونه عن الإمامين الصادقين (ع) إن هذه الآية (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ) كآلية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) لأن أناساً هموا أن يتزوجوا منهن (أي من الزانيات) فنهاهم الله عن ذلك) تفسير الأمل ج ١١ ص ٥٥ .

سياق الآية يتحرك في دائرة العلاقات الزوجية الشريفة الكفو المنسجمة، التي تستنكر وتعارض وتحرم العلاقة الزوجية مع الزواني الساقطات الخبيثات المتبدلات الفاحشات، اللاتي لا يتقيدن بالحلال والحرام ولا بالتعفف ولا بالشرف... الخ فلا يجوز أن يتمتع المؤمن الطيب الشريف بالزانية الخبيثة الخسيسة (بزواج المتعة) المسمى بالزواج المنقطع ولو بعقد شرعي!! فهي خبيثة لا تتقيد بالعقد الشرعي ولا تحترمه ولا تلتزم بالعدة، فالعقد الشرعي لا يطيب الخبيثة، وهو عقد صوري غير شرعي غير ملزم للزانية لا معنى له هنا لأنه في غير موضعه، والذي ينكح الخبيثة يكون خبيث مثلها لأن (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ) ولأن ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور/٣ راجع تفسيرها، وعن النبي(ص) (لَا يَزْنِي الزَّانِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ) البحار ٦٩ ص ٦٣، لأن الزانية الخبيثة فاجرة عاهرة ساقطة لا تتقيد بالحلال والحرام ولا بالشرف ولا بالعفة ولا بالعدة ولا بالعقد، فلا يقبل بنكاح الخبيثة إلا خبيث مثلها أو أخبث منها.

والآية تبحث عن التناسب بين الصفات وانسجام الجاذبيات في العلاقات الزوجية الطيبة والخبيثة، ولا ينسجم الطيبون مع الخبيثات، بسبب التنافر النفسي بينهما، هذه هي القاعدة العامة الواقعية المنسجمة مع الفطرة البشرية، ولكل قاعدة استثناء وتفصيل، كما في قوله ﴿إِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا﴾ ﴿إِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ التحريم ١٠ - ١١ .

(فَخَانَتَاهُمَا) ليس خيانة شرف وإنما خيانة عقيدة، ولم يكن كافات منذ البداية بل ضلن عن سبيل الله واختلفن مع أزواجهن في شأن الرسالة والإيمان والإسلام، وإن كن متوافقات متكافئات مع أزواجهن من قبل، كما أن امرأة فرعون آمنت برسالة موسى(ع) بعد أن بعثه الله نبياً واختلفت مع زوجها الذي يقول (أنا ربكم الأعلى) (النازعات/٢٤)، وهي عبدت الله ولم تعصه طرفة عين!

فأصبحت هي الطيبة وهو الخبيث، وهذا الاختلاف حصل بعد زواجهما. إذاً: يجب ان تبدأ العلاقة الزوجية بالتناسب الواقعي، والاختيار المنطقي والتكافؤ الحقيقي، وتقارب الصفات والعادات والنفوس والطبائع والقناعات كقوله (وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) وإذا حصل خلل في التكافؤ فيما بعد، فتصاب هذه العلاقة النفسية والرابطة الزوجية بأمراض كما يصاب الجسد المادي

بالأمراض (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) أولئك الطيبون والطيبات (مُبَرَّءُونَ) منزّهون وملتصمون مما يقوله الخبيثون والخبيثات في حقهم من الكذب والبهتان (هُم مَغْفِرَةٌ) لهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم (وَرَزَقٌ كَرِيمٌ) رزق معنوي للكرامة والمنزلة والسّموّ في الدنيا، وفي الآخرة في جنات النعيم دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم .

فائدة: ١- قُدّمت المرأة على الرجل هنا في الحالين (الْحَبِيثَاتُ وَ الطَّيِّبَاتُ) وذلك لأن المرأة هي التي تكون محط أنظار الشهوات يُطلب لها كفوها من الرجال، بما يتناسب معها من صفات وطبائع وعادات وأشكال وجمال ومال وحسن حال، فلا يصح للمرأة أن تتزوَّج بمن هو أنزل منها شرفاً وقدراً ونفساً وعلماً وكفاءة، بسبب اختلاف التكافؤ وضعف الترابط، وأيضاً لا يصح العقد الزوجي إلا برضاها، فلا يجوز تزويجها بالإكراه والإجبار أو بالإغفال والجهل والتجهيل، والكفاءة هنا بين الزوجين منظور إليها من ناحية وحدة النفس، ووحدة التحابب والتقارب والتجاذب والطبائع والقناعات والتقوى والعفة والنزاهة (الْمُؤْمِنُ كُفُوُ الْمُؤْمِنَةِ) (الطَّيِّبُ كُفُوُ الطَّيِّبَةِ)، والفاسق ليس كفواً للفاسقة، والخبيث ليس كفواً للخبيثة، وأما قرين لها متمتع بها، والخبيث لا ينسجم إلا مع خبيثة مثله أو أخبث منه، والطيب كفوها من هو طيب مثلها أو أطيب منها، ٢- تدعو الآية إلى العلم في البحث واعتماد الدقة في اختيار الزوجة الطيبة المؤمنة الأصيلة العفيفة الكفوءة سريعة التآلف، (وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ) عن الإمام علي(ع) (طوبى لمن يألف الناس ويألفونه على طاعة الله) البحار ٧٨ ص ٥٦، وينبغي أن تبنى العلاقة على وحدة النفس التي تعطيك وحدة السكن والمسكنة وحسن المعاشرة والانسجام كقوله ﴿حَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الروم / ٢١، وليس يقتصر الاختيار على أساس الأشكال والجمال والمال وحسن الحال، وهكذا أخلاق الناس وصفات الأصدقاء إذا تشابهت النفوس اتّفتحت، وإذا اختلفت تنافرت، ولا يجتمعون يوم القيامة إلا حيث يتفقون.

٣ - الآية وإن نزلت في خصوص حديث الإفك ولكن أريد لها عموم المعنى وسعة المغزى، لتكون قاعدة عامة بين الناس، **٤ -** عن النبي(ص) (إِذَا طَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ طَابَ جَسَدُهُ) وطاب قوله وفعله ومعشره (وَإِذَا خَبِثَ الْقَلْبُ خَبِثَ الْجَسَدُ) البحار ٧٠ ص ٥٠، وخبث قوله وفعله ومعشره، ولا ينسجم الخبيث مع الطيب في كل الأحوال وفي كل زمان كل مكان، وإذا جلسا وتحاورا تنافرا لأن أحدهما نقيض الآخر، **٥ -** يصوّر القرآن الزواج الدائم ومعه السكن الزوجي المشترك في آية (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) ولم يذكر الاستمتاع، فيعطيك (السكن الزوجي) كل متطلبات الحياة الزوجية وقمة الاستمتاع، لأن بينهما وحدة تقارب وتحابب وتجاذب وتآلف وتكافؤ مع وحدة النفس التي تعطيك وحدة سكن متعادل ومتوازن ثم المودّة والرحمة، بينما زواج المتعة (الزواج المؤقت) بقوله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ النساء/ ٢٤، هنا ذكر الاستمتاع مع

الأجور بدون (لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) وهذه إشارة قرآنية فنية عميقة لها دلالات واسعة! ٦- بذلك ينتهي حديث الإفك، وفيه من الدروس التربوية والأخلاقية بالغة الأهمية .

٢٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(الآية في آداب الاستئذان) لما حذّر الله تعالى من قذف (اتّهام) المحصنات العفيفات وشدد العقاب فيه وكان طريق هذا الاتّهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات، المعنى : أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت وحفظ العفة والحرمات، ولو كان من الأرحام المقربين، فأمر المؤمنين قبل غيرهم بالاستئذان قبل الدخول في بيوت يسكنها غيركم وبالسلام بعده فيكون السلام قبل الكلام (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) لا تدخلوا بيوت الناس (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا) تستأذِنوا وتسلموا على أهل المنزل، فصار الاستئذان واجباً والسلام مستحباً (ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ) ذلك الاستئذان والسلام لكم من الدخول بغتة فتقع أعينكم على العورات، وإذا لم يحصل على الإذن بالدخول يرجع (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) لتتعضوا وتعملوا بموجب هذه الآداب القرآنية السديدة، وأخلاقه الرشيدة المفيدة التي تسبب في زيادة الألفة بين القلوب والأخوة والترابط بين أبناء المجتمع، واحذروا أن تغفلوا هذه الآداب فإنها من مكارم الأخلاق.

فائدة: ١- (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا) وسمى الاستئذان استئناساً لأن بأسلوب الاستئذان الدقيق يحصل الاستئناس الرقيق وحسن الاستقبال والمحبة، وبعده تحصل الوحشة والتجسس والانزعاج، حتى لا ينظروا إلى ما لا يحلّ لهم النظر إليه، حتى يبقى البيت سكناً للنفوس، لا بد أن يكون حراماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذئهم، وفي ذلك حماية للحقوق البشرية ورعاية لأحوال النفوس، وفي ذلك لفظة قرآنية بلاغية دقيقة لطيفة أخلاقية، (وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) أما السلام فيقول: السلام عليكم، أي أنتم في سلام وأمان مني، أأدخل؟ فهو من مكارم الأخلاق ٢- (السلام) من أسماء الله ومن سنة المسلمين وشعار تلاقيهم، وهو تحية أهل الجنة ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ إبراهيم / ٢٣ ومجلة للمحبة وناقٍ للحقد والضعينة، عن الإمام الصادق (ع) (يَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ عَلَى أَبِيهِ وَلَا يَسْتَأْذِنُ الْأَبُ عَلَى الْإِبْنِ، وَيَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى ابْنَتِهِ وَاحْتَبَهُ إِذَا كَانَتْ مُتَزَوِّجَتَيْنِ) نور الثقلين ٣ / ٥٨٦ .

٢٨ - ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ فَارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا) في البيوت (أَحَدًا) يأذن لكم بالدخول إليها (فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ) فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول، لأن للبيوت حرمةً ولا يحلّ دخولها إلا بإذن أصحابها (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا

تَلَحَّوْا، دُونَ أَنْ تَحْمَلُوا فِي نَفْسِكُمْ أَيْةَ كِرَاهِيَةِ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ عَذْرٌ مَشْرُوعٌ وَلَا يَرِيدُ إِبْدَاءَهُ، أَوْ غَيْرِ مُسْتَعِدِّ نَفْسِيًّا لِاسْتِقْبَالِ أَحَدٍ، فَلِلنَّاسِ أَسْرَارُهُمْ وَأَعْدَارُهُمْ وَهُمْ يَقْدَرُونَ ظُرُوفَهُمْ (وَالْعُدْرُ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَقْبُولٌ) (هُوَ أَرْكَى لَكُمْ) لِأَنَّ الرَّجُوعَ أَطْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَأَكْرَمَ لِنَفْسِكُمْ، وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ اللَّجَاجِ وَالِانْتِظَارِ عَلَى الْأَبْوَابِ (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ بِالْخَفَايَا وَالنَّوَايَا وَبِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا. وَفِيهِ نَهْيٌ التَّجَسُّسِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْوتِ.

فائدة: جَاءَتْ (يُؤْذَنُ لَكُمْ) مَبْنِيَةٌ لِلْمَجْهُولِ، أَيُّ مِنْ أَيْنِ حَصَلَ الْإِذْنُ ثَبِتَ الْاسْتِثْنَاءُ، وَحَصَلَ الْاسْتِثْنَاءُ.

٢٩ - ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

ليس عليكم (جُنَاحٌ) إثمٌ وجرحٌ في ترك الاستئذان في حالة عامة (أَنَّ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ) إذا دخلتم المباني التجارية أو المساجد والمعارض والأماكن العامة كالقنادق والحوانيت والمضاييف أو البيوت غير المخصصة للسكن الخاص أو المرافق العامة يتردد عامة الناس عليها (فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) فيها منفعة ومصلحة خاصة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستظل من الحر والاستراحة وإيواء الأمتعة والوجبات السريعة... الخ (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) يعلم ما تظهرون وتعلنون وما تُسْرُونَ في نفوسكم وهو سبحانه الرقيب القريب. فائدة: (غَيْرَ مَسْكُونَةٍ): غير موضوعة للسكن لطائفة مخصوصة فقط بل لينتفع بها من يضطر إليها كائناً من كان من غير أن يتخذها سكناً، ٢ - القرآن الكريم منهج حياة لاستقرار النفوس، فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ويمنحها العناية والرعاية، لأنه يعالج مطالب الحياة كلياً وجزئياً، ونظرياً وعملياً ومادياً ومعنوياً وفي العبادات والمعاملات، وعلى أسس من مكارم الأخلاق.

٣٠ - ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الآيتان (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ . . . قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ) تدعوان إلى غض الأبصار وحفظ الفروج وجمال التعفف، وهي أمور تقع غالباً في خفاء وستر كقوله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ غافر / ١٩ فجاءت الآيتان تصرّحان بالأمر لهما على السواء (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ) الخطاب موجّه إلى المؤمنين الذين يمثلون أمر الله ويستجيبون له (يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) من للتبعيض، يعني غض البصر عن المحرمات، ولم تجئ من للتبعيض مع حفظ الفروج لأن الحفظ هنا لا أبعاض له لأنه فقط حفظ مصون دائم (يغضوا) يكفوا ولا يدققوا ولا يركزوا من نظراتهم إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي أو الأجنبية، وعدم ملاء العين من النظر إلى المحرمات من النساء مخالسة أو معالنة، فإن النظر هو رسول الشيطان إلى تحريك الشهوة، وسهم من سهام إبليس إلى الفاحشة، ومدخل من مداخل الهوى إلى كل منكر، وقدم المؤمنين على المؤمنات لأن النساء عورة، والنظر إليهن من

شهوة يدعو إلى الفتنة أكثر من نظر النساء إلى الرجال، غض البصر عن الرجال والنساء أدب نفسي وسمو أخلاقي، واستعلاء على الرغبة النفسية والشهوة الجنسية وإغلاقاً للفتنة والغواية، المعنى: أنصح المؤمنين عن حبّ وتكامل (يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) أن يكفوا من أبصارهم عن النظر إلى الأجنبية من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الحسرة وتثير الشهوة وتجفف منابع الروح والحكمة والورع (ورب شهوة منعت شهوات، وأورثت حزناً طويلاً) وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) أن يصونوا فروجهم عن النظر إليها وعن الزنى فلا يكشفوها، وحفظ الفروج (سترها) هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، ولتحكيم الإرادة وزيادة اليقظة والرقابة وقلة الغفلة والجهالة، (ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ) ذلك الغض للبصر والحفظ للفروج (أَرْكَى) أظهر للقلوب وأسلم للفطرة، وأتقى للدين وأصدق للمشاعر والضمائر، واحفظ من الوقوع في المحرمات (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى (خَبِيرٌ) رقيب عليهم وقريب منهم ومطلع على أعمالهم بما يصدر عن أبصارهم وفروجهم وجميع جوارحهم، ولا تخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السرِّ والعلانية.

فائدة:

١- وقدم غض الأبصار على حفظ الفروج، لأن النظر المحرم يدفع إلى الزنى والفجور، والبلوى في النظر أشدّ وأكثر ولا يكاد يُحترس منه . عن النبي(ص) (أَوَّلُ نَظْرَةٍ لَكَ وَالثَّانِيَةَ عَلَيْكَ لَا لَكَ) نور الثقلين ٣ / ٥٨٩، عن ابن عباس: (الشَّيْطَانُ مِنَ الرَّجُلِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ عَلَى عَيْنِهِ وَقَلْبِهِ وَذَكَرِهِ، وَهُوَ مِنَ الْمَرْأَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ، عَلَى عَيْنِهَا وَقَلْبِهَا وَعَجْرُهَا) قال الشاعر أحمد شوقي : نظرة فبتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء، وعن النبي(ص) (لكل عضو حظّ من الزنا، زنا العين النَّظْرُ، وَزنا اللِّسَانِ الْمِنْطِقُ، وَزنا الأذنين الإِسْتِمَاعُ لِمَا لَا يُجِلُّ، وَزنا اليدين الْبَطْشُ، وَزنا الرجلين الْخُطْوَةُ) البحار ١٠٤ ص ٣٦، وعنه(ص) (النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَالَوْتَهُ فِي قَلْبِهِ) البحار ١٠٤ ص ٣٨، ٢ - ولا بأس النظر إلى شعور غير المسلمات، ومن النساء المسلمات المتسامحات شرعاً لأنهن لا ينتهين إذا نهن، شريطة أن يكون النظر من غير ريبة وشهوة، ٣- وغض البصر أيضاً عن زينة الدنيا (المحرمة) التي تفتن وتغرّ وتسرّ وتضرّ وتمرّ وتوقع في المحذور. ٤ - (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) إذا حفظ الإنسان فرجه كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سمّاه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحمايته ولم يعمل بالأسباب الموجبة لحفظه فلم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعا في بلايا ومحن، تأمل: كيف أمر الله بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر (يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) من للتبعض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة مهمة معينة كنظر الخاطب لخطيبته، قال (يَغْضُوا) ولم يقل (يَغْمُظُوا عيونهم) معنى: (يَغْضُوا) أي تجنبوا النظر إلى المحرمات، بينما (يَغْمُظُوا

عيونهم) أي غلقها وتعطيل وظيفتها عن الرؤية العامة ٥ - الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع شريف نظيف لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة (وَإِذَا كَبُرَتِ الشَّهْوَةُ صَعَرَ الْعَقْلُ) (وبالعكس) في غور الحكم (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ) وإن انتشار إثارة الشهوات المحرمة تبعث على الكآبة النفسية واضطراب المشاعر وضيق الصدور وتغيص العيش وكرهه الأيام، ولا ينفع معها الغنى وكثرة الثروة وزيادة الرفاهية، كما عاش الغرب هذه الإشكالية الخطيرة والمريرة ولا يزال يعاني منها الأمرين!.

٣١ - ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(تَحْتُ الْآيَةِ عَلَى الْعِفَّةِ وَالْحِشْمَةِ وَالتَّسْتُرِ وَالْحِجَابِ، وَالصِّيَانَةِ وَالْحَصَانَةَ وَالْحِمَايَةَ وَالرِّعَايَةَ) (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ) أيضاً (يَغْضُضْنَ) يكفنن ولا يركزن ولا يدققن من نظراتهن عمن لا يحل لهن النظر إليه (وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) عن كشفها وإبرازها وتجسيمها، (وَيَحْفَظْنَ) ويسترن فروجهن عن الزنى والإثارات والمغريات وعمن لا يحل لهن، وعدم إظهار الزينة من الحلي، والثياب المثيرة، والمكياج للأجانب، إلا ما يكون من المتعذر ستره كالملابس وخاتم الزواج فقال (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) بدون قصد ولا نية سيئة أو مالا يمكن إخفاؤه كالوجه والكفين فإتخما ليسا بعورة، وقيل إن جسم المرأة كله عورة يجب ستره، ولا يجوز إظهاره إلا لضرورة كالمعالجة الطبية (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) (وَلْيَضْرِبْنَ) وليلقين .

(بِخُمُرِهِنَّ) الحمار وهو غطاء الرأس وستر الشعر (عَلَى جُيُوبِهِنَّ) على صدورهن لثلا يبدو شيء من الصدر والعنق وستره من غطاء الرأس (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ) وليلقين غطاء رؤوسهن ويسترن الشعر، ولفظ الضرب مبالغة في الستر ودقة في الحجاب والعلم به، والحرص على العفة والحصانة والصيانة (جُيُوبِهِنَّ) الجيب : فتحة الثوب في أعلى الصدر (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) البعولة: الأزواج (وَلَا يُبْدِينَ) أي ولا يظهرن مواضع زينتهن الخفية المثيرة للشهوة التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن (أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ) أو لأبائهن والجد وإن علا، أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإتخما من المحارم، أي يحرم الزواج منهن.

فإن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوؤه، ثم عدد بقية المحارم (أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ) سواء في النسب أو الرضاة (أَوْ أَبْنَائِهِنَّ) وابن الابن ابن ومثله ابن البنت (أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ) وإن نزلوا (أَوْ إِخْوَانِهِنَّ) من الأم والأب أو من أحدهما (أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ) وإن نزلوا، فذكر تعالى الأبناء

وأبناء الأزواج والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم، لما جُبل الله في الطباع من النفرة من نكاح القريبات (أَوْ نِسَائِهِنَّ) أي المسلمات المختصات بهن بالصحة والخدمة، وخرج من النساء الكافرات إذ لا يجوز لهن التجرد للكافرات، عن الإمام الصادق (ع) (لا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ) أن تَنْكُشِفَ بَيْنَ يَدَيْ الْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، فَإِنَّهُنَّ يَصْنِفْنَ ذَلِكَ لِأَزْوَاجِهِنَّ) نور الثقلين ٣ / ٥٩٣ وقيل: المراد (أَوْ نِسَائِهِنَّ) جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) العبيد والإماء: الجوارى المملوكات ولو كن غير مسلمات، ولا يوجد في زماننا ملك اليمين من العبيد والإماء والله الحمد (أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أَوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) (أَوْ التَّابِعِينَ) أي الرجال التابعين للبيت الخادمين المخالطين للأسرة طلباً للمساعدة، (غَيْرِ أَوْلِي الإِرْبَةِ) غير أصحاب الحاجة للنساء بسبب كبر السن أو الأمراض الجسدية والنفسية، والإِرْبَةُ: الحاجة والرغبة.

بمعنى: لا يملكون الحاجة والرغبة من الرجال إلى النساء، فيفضّلون لذّة الطعام على لذّة النساء (أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) الأطفال الصغار الذين (لَمْ يَظْهَرُوا) لم يبلغوا حدّ الشهوة، ولا يعرفوا أمور الزواج والجماع لصغرهم ولا يميزوها، فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) يكشف القرآن من طبيعة المرأة حبّ إظهار زينتها فيقول: ولا يضربن بأرجلهن الأرض، أي لا يمشين بطريقة تلفت الأنظار إليهن، لئلا يسمع الرجال صوت الخلل والسيور، ويروا أنواع الزينة والجمال فيطمع فيهن الذي في قلبه مرض (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ارجعوا أيها المؤمنون والمؤمنات إلى ربكم بالإنابة والتوبة والاستغفار وامثال أوامره والانتهاه عن نواهيه، لتنالوا رضاه وتفوزوا بعبائه وكرمه.

فائدة: ١- وفي تربية غض الأبصار وحفظ الفروج فيه حكم المساواة بين الرجال والنساء من غير تفاوت، ٢- يحرم على المسلمة أن تكشف عن سواها (عورتها) أمام مثلها حتى ولو كانت أمها أو بنتها، ويحلّ لها أن تتجرد أمام المسلمة ماعدا العورة، ولا يحل ذلك أمام غير المسلمة، ٣- ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الآباء والإخوان، ٤- (وَلَا يَضْرِبْنَ) فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، مُنِعَ منه لأنه وسيلة إلى الفتنة، ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وغلق الأسباب، وتسمى (سد الذرائع) أي في غض البصر سداً لباب الشر، ومنعاً لإرتكاب المآثم، ٥- والزينة تلبية لفطرة المرأة حتى قيل (عقلُ المرأة في جمالها، وجمالُ الرجل في عقله)! عن الإمام العسكري (ع) (حُسْنُ الصُّورَةِ جَمَالٌ ظَاهِرٌ، وَحُسْنُ الْعَقْلِ جَمَالٌ بَاطِنٌ) البحار ٧٨ / ٣٧٧ فكل أنثى مولعة أن تبدو جميلةً وتُعنى بالأشكال وحسن الحال ومساحيق الجمال والرغبة في استكمال الجمال وتجليته للرجال. والإسلام لا يعارض هذه الرغبة

الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها ويوجهها إلى الأزواج أولاً، والمحارم المقربون والمذكورون في الآية من لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع، كقوله (أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الزخرف/١٨.

٦ - عن النبي: (غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ تَرَوْنَ الْعَجَائِبَ) البحار ١٠٤ ص ٤١، وتعرفون الحقائق، وَتَنَكِّشُفُ لَكُمْ الْأَسْرَارَ، وَتَنَسِّفُونَ مَعَ الْأَقْدَارِ!، ٧ - سميت العورة (عورة) في اللغة لقبح ظهورها ولغض الأبصار عنها، مأخوذة من العور وهو العيب والقبح (أو) مأخوذة من العار، يعني من العار كشف العورة أو إظهارها بشكل مجسّم بلبس الملابس اللاصقة حتى تظهر المرأة كاسية عارية مبتدلة مثيرة للشهوة، وأيضاً سميت العورة (سوءة) لأنها تسوء الإنسان عند نظر الناس إليها، والذي يتظاهر ويتفاخر في عورته يعني هناك خلل في سلامة نفسه وفطرته!، ٨ - عن الإمام الصادق (ع) (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ...) نهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم، وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه أن ينظر إليه (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ...) نهاهن أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليه، ٩ - قوله (وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) الآية أمر بالحجاب من الله تعالى للمؤمنات أن يسترن شعورهن بدلالة (خُمُرِهِنَّ) ويسترن الصدور والنحو بدلالة (جُيُوبِهِنَّ) مع قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الأحزاب / ٥٩، وقوله (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) الأحزاب/ ٥٣، ١٠ - والحجاب بين الرجال والنساء منطلق علمي، ودافع عقلائي ومبدأ إنساني قبل أن يكون حكم إسلامي، فإننا نرى أسلاك الكهرباء سالب وموجب، وبينهما عازل يفصل بينهما، وهو حجاب يمنع الاختلاط العشوائي بينهما إلا في حالتها المنظمة النافعة.

٣٢ - ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(الآية تُرغِّبُ فِي الزَّوْجِ الدَّائِمِ) الْأَيَامَى : العزَّاب والعازبات، من لا زَوْجَ له من الرجال والنساء بكر أو ثيب (والأيامى) غير الإماء وهن الجوارى والمملوكات. هذا أمر على الاستحباب، وحث بتيسير الزواج، وتقليل المهور لكل محتاج إليه من النساء والرجال، لأن العزوبة مصدر القبائح. المعنى: (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ) زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الذكور أو الإناث، والخطاب للآباء وأولياء الأمور، وهذا أمر على التحبيب والترغيب والإعانة في الزواج، ويكون الأمر على الوجوب إذا خيفت الفتنة وحصول الزنى! .

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) وانكحوا كذلك أي زوجوا أهل التقوى والصلاح من عبيدكم (وَأِمَائِكُمْ) وجواريكم (ولا يوجد في زماننا منهما والله الحمد) وتخصيص الصالحين لأن العناية

بشأنهم وإحصان دينهم أهم، وفيه دلالة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان وأن يتحصنوا بالزواج ويسهّلوا طرقة (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) لا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج، أي إن يكن هؤلاء الذين تساعدونهم على الزواج أهل فقر وحاجة فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم بل لا تنظروا إلى فقرهم! والله يغنيهم من فضله. عن النبي (ص) (مِنْ تَرَكَ الزَّوْجَ مَخَافَةَ الْفَقْرِ فَقَدْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِاللَّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الآيَةَ) الكافي ٣٣٠/٥، ثم أن الآية لا تعطي وعداً مؤكداً صريحاً من الله تعالى بإغناء من يتزوج، وأما معنى الآية لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح، وإنما انظروا إلى موازين الكفاءة، ومن الخطأ جعل الآية وعداً بالغنى، ومن الأمل أن يكون الزواج مدخلاً للغنى، ونحن نرى من كان غنياً قبل الزواج فيصير فقيراً بعد الزواج، فيكون هذا الوعد مشروطاً بالمشيئة والظروف والأسباب باعتبار (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) كقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ التوبة / ٢٨ فالوعد المطلق بالغنى محمول على قيد المشيئة والظروف واتخاذ الأسباب، ثم أن لفظ الآية وإن كان عاماً في منطوقه إلا أنه يكون خاصاً في مدلوله، في بعض المذكورين دون بعض، وهو في الأيامى العزاب والعازبات الأثرياء الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون، (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (وَاسِعٌ) الفضل جواد كريم يعطي الرزق من يشاء، وهو (عَلِيمٌ) بمصالح العباد وما يفسدهم من بسط الرزق وقبضه.

فائدة: ١- هذا وعد بالغنى للمتزوجين الساعين للرزق ضمن الأسباب والمسببات، طلباً لرضا الله وحباً بالعفاف والحصانة وخوفاً من المعصية، قيل: (أَلْتَمِسُوا الْغِنَى فِي الزَّوْجِ وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ) باعتبار الزواج أحد أسباب السعي والسعة.

٢ - تؤكد الآية: أن لا تتركوا أعزباً في مجتمعكم حتى تستأصلوا أساس الفساد فيكم، ولا يمنعكم في ذلك قلة أموالهم فسيغنيهم الله من فضله، إن تزوجوا وسعوا وعملوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الإسراء / ٣٠، ٣ - كثير من الناس ينظرون إلى من أراد الزواج من ناحية ماله وحسن حاله أو مقدار غناه وجاهه وشهادته العلمية، ويهملون الكفاءات والقناعات والمؤهلات الأخرى، في نهج البلاغة حكم ٨١

(قِيمَةٌ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) وليس قيمة كل امرئ ما يملكه، ٤ - (أَنْكِحُوا) أي شجعوا طريق الزواج الشرعي الدائم الشريف العفيف النظيف الذي يحصل باتفاق الطرفين الكفوئين (الْمُؤْمِنُ كُفُوُ الْمُؤْمِنَةِ) وقللوا المهور وذلّلوا الصعاب وقدموا المساعدات المالية والمعنوية عند الحاجة، والمساهمة في البحث عن الزوجة المناسبة، واجعلوا نظاماً داخلياً عملياً بين الزوجين، معتمداً ومتفقاً بينهما كدستور لحياتهما، ووضع خارطة طريق لهما.

٥- عن النبي (ص) (يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ (الْقُدْرَةَ وَالْإِمْكَانِيَةَ الْمَالِيَةَ) فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَعْضٌ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) تفسير المراغي ١٨ / ١٠٤، أي وقاية وحماية، وعنه (ص) (إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَحُلُقُهُ فَرُجُوهُ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) الرازي ٢٣ / ٢١١، ولا تُرَدُّوهُ لفقره ولا تمنعوه لحاجته، واقبلوه لصلاحه وعفته واستقامته، فإن الله سبحانه يُعني الفقراء ويفقر الأغنياء ضمن قاعدة الأسباب والمسببات، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّمَا الْمَرْأَةُ قِلَادَةٌ فَأَنْظُرْ مَا تَتَّقَلَدُ) تفسير النور ٦ / ١٥٩، ينبغي معرفة التوازن النفسي بين الخطيئين، أي ومعرفة مقدار الحب والقرب والجدب، ومقدار التآلف والتكافؤ، ومقدار وحدة النفس لتحصل على وحدة السكن، كقوله ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم/٢١

عن النبي (ص) (من تزوج أحرز نصف دينه، فليتيق الله في النصف الآخر) الكافي ٣٢٨/٥

٣٣ - ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَمَا يُوتُوهُمُ إِنْ عُلِمَتْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَوْتَوْهُمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَتْيَاكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَادْتُمْ تَحْصِنًا لِيُتَبَعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرَهْ مِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) يركّز القرآن الكريم على (الاستعفاف)

ويجعله قاعدة اجتماعية أساسية، وضرورة عامة للرجال والنساء، ومعنى العفة: تهذيب الشهوة وتحديد غرائز النفس ولذاتها، ليكون الاستعفاف ملكة متأصلة فاعلة وليست حالة طارئة مؤقتة، للمحافظة على نزاهة النفس وبقاء شفافيتها، وسلامة الفطرة ونقاوتها، وتربية طبائع وعادات الفرد والمجتمع، في غرر الحكم (مَنْ سَامَحَ نَفْسُهُ فِيمَا يُحِبُّ أَنْتَعَبْتُهُ فِيمَا يَكْرَهُ) الاستعفاف: من العفة وهي حصول حالة نزاهة للنفس وطهارة للروح، وقوة في الإرادة تكوّن حصانة وصيانة وحماية تمتنع بها عن غلبة الشهوة، وتحول من سيطرة الهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء من الوقوع في المحرّمات، أي ليجتهد في العفة والتسامي عن المنكر متوكلاً على الله، والسيطرة على قوة الشهوة، ويصبر الصبر الجميل، فإن العفة تضعف الشهوة وتحددها، فإن العفاف زهادة وأفضل عبادة وأحسن عادة، حتى يكون العفاف ملكة، وله مقادير وموازين، بقدر الورع يكون العفاف، وإن العفاف زينة الاستقامة، ويمكن تهذيب الشهوة كما تهذب العادات والأعراف والتقاليد والطبائع،

كقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا﴾ الشمس/٩

في غرر الحكم (ذِرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُووُ التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) المعنى: (وليستعفف) وليجتهد في العفة والطهارة وتهذيب النفس وضبط الشهوة وزيادة العقل (كُلَّمَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ، وَكُلَّمَا كَبُرَتِ الشَّهْوَةُ صَعُرَ الْعَقْلُ) في غرر الحكم (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ) (الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا) لا تيسّر لهم سُبُلُ الزواج لأسباب مادية أو أي سبب آخر (حتى

يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) حتى يوسع الله عليهم من إحسانه وكرمه ويُسهّل لهم أمر الزواج الشريف ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق ٢ - ٣ عن النبي (ص) (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (الإمكانية والاستطاعة) فليتزوّج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) جمع البيان ٧ / ٢٦٢، ووقاية وحماية، والمقصود بالآية السابقة أولياء المرأة، وأنه لا ينبغي أن يردوا الخاطب الشريف الفقير، أما المقصود بهذه الآية فهو الفقير بالذات، وأن الناس إذا ردّوه ولم يزوجه فعليه أن يتحصّن بالعفاف، وأن يصبر عن الوقوع في الحرام، ويسعى بقدر وسعه لتحسين حاله متوكلاً على الله، حتى يتهيأ له أسباب الزواج، في غرر الحكم (لكل شيء سبب)، تضع الآية الكريمة الالتزام بالعفة خياراً وحيداً لهم، لأن الهبوط في الشهوات المحرّمة تخلق لهم الكآبة والأزمات النفسية كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣ فكم من لذة منعت لذات، فإنّ المحرّمات ظاهرها يغرّ ويسرّ ويمرّ وباطنها يضرّ (والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيّماهم) الكتاب: عقد المكتابة، أي والذين يريدون أن يتحرروا من رق العبودية بمكاتبه أسيادهم من العبيد والأرقاء.

(فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً، وهذا الحكم لا موضوع له اليوم لعدم وجود الإماء والعبيد والله الحمد (وأنوهم من مال الله الذي آتاكم) أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق، ليكون للعبيد والجواري لهم عوناً على فكآك أنفسهم والتحرر من ذل العبودية ولو من الزكاة المفروضة، فمن مصارف الزكاة كقوله ﴿وفي الرقاب﴾ البقرة/١٧٧ عتق رقاب العبيد، (ولا تكررهم فتياتكم على البغاء) فتياتكم: الجواري المملوكات، البغاء: الزنى، في الآية نهي وتوبيخ وتحذير من كسب المال من الحرام، أي ولا تجربوا جواريكم على الزنا، ولا يوجد في زماننا جواري والله الحمد (إن أردن تحصناً) تعففاً وتزويجاً، نلاحظ (إن) هنا لا يراد منها القيد أو الشرط وإنما ذكرت لبيان فظاعة الأمر وشناعته، أي ليس المقصود من الآية: إن لم يردن تحصناً وتعففاً، فيجوز لهن البغاء والزنى، فالبغاء في كل الحالات محرّم، ومن كبائر الذنوب، في نهج البلاغة حكم ٣٠٥ (وما زنى غير قط) (ومدمن الزنا كعابد وثن أو عابد فرج) .

كقوله ﴿ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ الإسراء/٣٢، أما (الاغتصاب) فهو بمنزلة القتل، والاستهانة بالحياة وبالفروج والشرف. بأن الفتاة الشريفة إذا أرادت المحافظة على عفتها وشرفها، فمن باب أولى أن تريدوا ذلك أنتم يا أولياء أمورهن. فالأصل في الجارية المملوكة أن يُحصن سببها، أما أن يأمرها بالزنى وهي تتمتع وتريد العفة والحشمة، فذلك منتهى الخسة والدناءة وقسوة القلب من سيدها (أو) الإمساك بجن ومنعهن عن الزواج هو في الحقيقة إكراه لهن على

البغاء. أسباب النزول : نزلت في المنافق (عبد الله بن سلول) كان له جاريتان ويأمرهما بالزنى للكسب ويضربهما على ذلك، فشكنا ذلك إلى رسول الله (ص) فنزلت ونهت عن هذا الإثم، وأمر الرسول (ص) بعدم إرجاعهن إليه، فغضب ابن سلول من ذلك. (لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) لأجل أن، تناولوا حطام هذه الحياة الزائل وتحصلوا على المال الحرام، بأسلوب حرام بطريق الفاحشة والدعارة والرذيلة، فإن المال الحرام يكون غصة لصاحبه ولو بعد حين، فلا يليق بكم أن تكون إماءكم وجواربكم خيراً منكم وأعفّ عن الزنا، (وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ومن يجبرهن على الزنى فإن الله (غَفُورٌ) لهن (رَحِيمٌ) بهن، لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن أكرهن عليه، وسينتقم ممن أكرهن شرّ انتقام ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران/٤ في الحديث (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ وَمَا اضْطَرُّوا عَلَيْهِ) الكاشف ١٩٢/٦.

فائدة: ١- تكشف الآية عن مدى الرذيلة وشدة السقوط والانحطاط الخُلقي الذي كان سائداً في الجاهلية القديمة، ولازالت الرذيلة في جاهلية القرن الحادي والعشرين، تمارس التجارة بالنساء وأزيائهن وفروجهن وجماهن، وتكون المرأة هي الضحية المبتذلة في تلك التجارة الوسخة المحرّمة، (البغاء): من البغي، وهو العدوان على حدود الله بارتكاب الزنى، وهدر حصانة الفروج، وهتك الشرف وذوبان العقّة وسحق الكرامة.

٣٤ - ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾
وبالله (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ) أيها الناس (آيَاتٍ مُبِينَاتٍ) واضحات، وأحكاماً ميسّرات، سواء أكانت آيات كونية أو معجزات الرسل أو آيات رسالية من كتب سماوية، لا تدع مجالاً للغموض والانحراف، وجاءكم الرسول (ص) بالشرّيعَة السّهلة السّمحة، التي بها تفوزون في الدنيا والآخرة (وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) خَلَوْا : مضوا، وضرينا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم الماضية، خيارهم وشرارهم ويتميز بها لكم ما ينبغي الأخذ به مما ينبغي اجتنابه، لتتعضوا وتعتبروا، في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السعيد من وعظ بغيره) (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) وعظة بالغة، وذكرى لمن اتقى منكم (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) هؤلاء الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله وقربه فتحشى وتنبئ وتستقيم. عن الإمام علي (ع) (في وصف القرآن: فيه حُكْمٌ ما بينكم، وَحَبْرٌ ما قبلكم، وَتَبَأٌ ما بعدكم، وَهُوَ الفَصْلُ ليس بالهزل) تفسير مجّد متولي الشعراوي ١٢٥٧/٣.

٣٥ - ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجْجَةٍ الزُّجْجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هو مثل ظاهره أنيق وباطنه عميق، مثل "يُقَرَّبُ للإدراك البشري المحدود صورة معنوية سامية غير محدودة، ويرسم النموذج المُصعَّر الذي يستطيع أن يتأمله الحسّ حين يقصر الإدراك عن تملّي الأصل المقدس الرحيم الكريم، إنه النور الذي لا ندرك كُنْهَهُ ولا مداه، وإنما هي محاولة لوصول

القلوب الواعية إليه والتطلع إلى رؤياه ببصيرة الإيمان، ودلائل العلم والبيان (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) بدء الله تعالى بنور نفسه فهو نور بذاته ومنور لغيره، من الكائنات العاقلة وغير العاقلة، ومنور السماوات والأرض منور بلا حدود، منور بالكواكب المضيئة، ومنور أهل السماوات والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام، سمى الله نفسه نوراً، والنور جميل باسمه جميل بصفته وجميل بعطائه، وجعل كتابه (القرآن الكريم) نوراً، ورسوله نوراً، والأوصياء نوراً، والعقل السليم نوراً، والعلم الصحيح نوراً، والجهل ظلمات.

في غرر الحكم (الْجَهْلُ مُمِيتُ الْأَحْيَاءِ وَمُحَلِّدُ الشَّقَاءِ) والإسلام نور، والإيمان نور، واحتجب سبحانه عن خلقه بالنور، والله هادٍ لأهل السماوات والأرض بنور الهداية، إلى مافيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، من دعاء النبي (ص) (أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) والنور هو الشيء المُحِبَّبُ للنفس ويحرك المشاعر بلا استئذان، والنور أطف وأجمل المخلوقات، ومصدر الجمال والكمال والجلال، والنور في ذاته لا يمكن تصوّره حقيقة أو خيالاً، لأنه من صفات الله، وكما لا تدرك ذات الله فكذلك لا تدرك صفاته. النور أعلى سرعة في العالم المادي سرعته (٣٠٠,٠٠٠) كم في الثانية، وبإمكانه الدوران حول الكرة الأرضية سبع مرات في طرفة عين وأقل من ثانية واحدة!، عالم الوجود شعاع من نور الله عزوجل، والإسلام نور كقوله ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة / ٣٢ والرسول نور ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ الأحزاب / ٤٦، والله نور ليس كمثل نور، ونور الله كناية واستعارة بلاغية عن قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته وهدايته، وتتجلى في خلق الكون وتدييره وتقديره ونظامه، (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

(الآية من المتشابهات)

وهذا المثل تقريبي وليس حقيقياً، وهو استعارة بلاغية وكناية تشبيهية.

ومثال هذا النور لوضوح الأدلة وظهورها على وجود الله عزوجل وعظمته، المشكاة : لفظ حبشي معرّب تعني غطاء المصباح أو صندوقه الزجاجي، مثل نور الله وهدايته ورحمته سبحانه في قلب عبده المؤمن كصندوق زجاجي محكم ليكون أجمع للضوء ويعكسه، وضع فيه نور ثاقب ساطع، في غرر الحكم (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةً فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْحَبْرِ) وللحدث وللحياة. والمعنى: صفة نور الله العجيب في وضوحه، الذي يهتدي به كل شيء كصفة صندوق زجاجي محكم فيه نور ساطع، وأما شبهة المشكاة لتقريب المعنى بما يدركه الناس (الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) المصباح في قنديل من الزجاج الصافي يُنظّم جريان الهواء حول الشُعْلَةَ فيزيدها نوراً وإشراقاً، (الرُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) القنديل الزجاجي يلمع ويتلألأ نوراً من شدة الصفاء، كأنه كوكب دري مصنوع من جوهر الدر الصافي النقي .

(يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يشتعل ذلك المصباح من زيت شجرة (مُبَارَكَةٍ) كثيرة المنافع (زَيْتُونَةٍ) هي من شجرة الزيتون الذي حَصَّهُ اللهُ بمنافع عديدة، وهذا الزيت ليس كأَيِّ زيتِ زيتونٍ معروف! (لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) وليس من شجرة الزيتون شرقية تصيبها حرارة الشمس صباحاً فقط، ولا غربية تصيبها الشمس مساءً فقط، فلا تنضج ثمرتها ومن ثم لا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة، بل هذا الزيت الصافي مستخرج من شجرة زيتون شرقية غربية أصابتها الشمس مدى النهار، لا يظلمها شجر ولا جبل ونحو ذلك، فنضج ثمارها وحسن زيتها، أي مغروسة الشجرة في أنسب مكان لها وأعدله، (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته، أي يكاد زيت هذه الشجرة المباركة الزيتون يُضيء بنفسه ولو لم تمسسه نار حتى ليكاد يضيء بغير احتراق، فما بالك إذا مسته النار، أشرق نوره وتألَّق، بمعنى أنوار فوق أنوار.

(نُورٌ عَلَى نُورٍ) نور حسبي ونور قيمي ونور معنوي ونور تربوي، نورٌ متضاعف صفاءه، فقد اجتمع نور السراج وحسن الزجاج ونقاوتها ونورها وصفاء الزيت ونوره، فاكتمل النور الممثل به، فيجتمع له ومعه وبه نور الفطرة ونور الإيمان ونور الرحمة ونور الحكمة، ونور العلم ونور العمل الصالح، فينال (نُورٌ عَلَى نُورٍ) فإذا كان أمامكم نور منهج الله وهده، فليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر الوضعية وتعرضوا عن نور منهج الله وهده، وكلما استذوق الإنسان طعم الهداية وحلاوتها ازداد نوراً على نور، كقوله ﴿إِنْ تَتَشَاءُوا اللَّهَ لَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال/٢٩ وقوله ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ محمد/١٧ وهذه مرتبة خاصة نموذجية مميزة للإنسان المؤمن الخاص النموذجي المميز المستذوق لحلاوة النور!

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) يوفق الله لاتباع نوره ودينه ومنهجه وهدايته، هداية خاصة نموذجية على ضوء منهج القرآن الكريم الذي يهدي إلى الرشد، (مَنْ يَشَاءُ) ويريد ويرغب ويستعد من عباده ممن يستحق هذا النور ومؤهله له ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن / ١١ ولا يشاء الهدى والخير إلا لمن أحبه وأراده بصدق وإخلاص (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) والأمثال تُضرب للاعتبار، والأمثال أسهل الطرق لتبيين الحقائق الدقيقة والعميقة والرفيعة وتقريبها إلى أفهام الناس، فيفهمها الجميع العالم والعامي كل على مستواه، تقريباً للمعقولات بالمحسوسات للأفهام، فعلى أن نؤمن بالمعقولات كإيماننا بالمحسوسات (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فيعطي هدايته مَنْ يستحقها ممن صَفَّتْ نفوسهم واستعدوا لتلقي منهج الله، كقوله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ الشورى / ١٣ خلاصة ذلك عن ابن عباس : (هذا مثل نور الله وهده في قلب المؤمن، فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء، يكاد قلب المؤمن يعمل بنور الهدى قبل أن يأتيه نور العلم، فإذا جاءه نور العلم ازداد هدئاً على هدئ، وعلماً على علم، ونوراً على نور) المراغي/١٨/١٠٩ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ مريم / ٧٦ .

من الملفت للنظر: التعبير عن قيومية الله سبحانه كقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ البقرة / ٢٥٥ وسلطانه المنظم في هذا الوجود، عبر عنه بالنور لما في النور من شفافية نقّاذة أحاذة ولطائف شاملة فلا يتجسد أبداً، فإذا كان الله نور السماوات والأرض، كان معنى هذا أنه سبحانه الحي القيوم على الوجود كله.

فائدة: ١- قلت لجعفر (ع) إنهم يقولون (مثل نور الرب) قال سبحانه الله ليس الله مثل ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ النحل / ٧٤ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ النحل / ٦٠، ٢ - فنور الله تعالى هو الذي يمسك هذا الوجود على نظامه الكامل الشامل الدقيق الذي أقامه الله عليه، والنور يشع ويضيئ ولكنّه لا يخلق ولا ينظم ولا يدبّر، ولهذا النور كناية على التقريب، دلالة على التشبيه! ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور / ٤٠، وعلى هذا يكون (نور الله) ما أودع في الموجودات من سنن وأنظمة حركية ومقادير مقدرة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد / ٨، وما ركّب في جميع مخلوقات من قوى، وما بعث في الناس من رسل وما أنزل من كتب سماوية هادية وغيرها، ففي كل هذا نور من نور الله (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) وقوله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة / ١٦، لما ذكر الله تعالى نور هدايته لقلوب المؤمنين لمن يشاء ويريد ويرغب ويستعدّ من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وآثار نورها، وهي المساجد أحبّ البقاع إلى الله فقال:

٣٦ - ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

(في بُيُوتٍ) متعلق بما قبله وهو مثل النور والمشكاة، أي هذه مشكاة النور في بيوت الذكر هذه صفتها في غرر الحكم (الذِّكْرُ جَلَاءُ الْبَصَائِرِ وَنُورِ السَّرَائِرِ) وهي مساجد الله الذي يذكر فيها اسمه، تُرْفَعُ: تُعْظَمُ المساجد وتُطَهَّرُ مادياً ومعنوياً عن الأنجاس والأرجاس، وعن اللهو واللغو من الأقوال والأفعال، (وتُرْفَعُ) هيبتها ويُفَعَّلُ دورها الحضاري في العبادة والدعاء، (ويُرْفَعُ) بناؤها أي يقام ويجدد ويرمم، وتكون مرغوبة ومحبوبة في نفوس الناس. المعنى: وصّى وأمر الله تعالى أن تبنى المساجد لله وحده، وتشاد وتعمر على اسمه خاصة، وأن تعظم ويُرفَع شأنها لتكون منارات للهدى ومراكز للعلم والتوجيه والحثُّ والإشعاع الفكري والروحي (ويُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ) ويدرس فيها منهج الله (القرآن الكريم) والسنة الشريفة التي لا تُعارض القرآن، ويتقرب فيها إلى الله بعبادته ونيل رضوانه، ويدخل في ذلك (أن تُرْفَعُ) إقامة الصلاة المفروضة ومستحباتها، ويقام فيها كل أنواع الذكر وتعلّم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها الاعتكاف، وتقام فيها أيضاً الاحتفالات الرسالية المتنوعة في مناسبات مهمة لإحياء ذكراها كقوله ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذريات / ٥٥، ويكون عمارة المساجد على قسمين مادية ومعنوية، عمارة بنيان وصيانة لها، وعمارة القلوب واطمئنانها بذكر اسم الله وهذا أشرف القسمين كقوله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ الجن / ١٨ (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) يُسَبِّحُ: ينزهه الله على كل صفة لا تليق بجلاله وكماله وجماله.

الْعُدْوُ: أول النهار إلى الضحى وفيه صلاة الصبح، **وَالْأَصَالُ:** جاءت بصيغة الجمع، والأصل آخر النهار، وهو زمن ممتد تقام فيه صلاتي الظهرين والعشائين لأن الأصيل يجمعها ويشملها لذلك جُمع الأصال، وفي هذا دلالة على عبادة الله في جميع الأحوال والأشكال والأزمان لما في مفهوم العبادة من سعة المعنى ولها دلالة عامة، أي يصلى لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء، وينزه الله عن كل نقص. **فائدة: ١-** ومعنى عبادة الله في جميع الأوقات لها دلالة واسعة، أي أن الناس يتاجرون ويعملون ويزرعون ويصنعون، حتى إذا جاء وقت الصلاة تركوا كل عمل وبادروا إليها. خاشعين لتكون عبادتهم في متن حياتهم وليس على هامشها وأطرافها، فيفضّلوا الصلاة على العمل، فإذا انتهوا منها انصرفوا إلى شؤونهم الدنيوية وهي تنهاهم عن الفحشاء والمنكر **كقوله**

﴿فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الجمعة/ ١٠.

عن الإمام علي(ع) (إعمل لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ عَدَا) تنبيه الخواطر ص ٤٦١، ٢- وهناك علاقة بين (الله نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) و(فِي بُيُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ) أي إذا أردتم التماس النور من الله فالتمسوه في بيوت الله ومواصلة ذكره وعبادته ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرد / ٢٨، ٣- عن الإمام الصادق(ع) (ثَلَاثَةٌ يَشْكُونُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: مَسْجِدٌ خَرَابٌ لَا يُصَلِّي فِيهِ أَهْلُهُ، وَعَالِمٌ بَيْنَ جُهَالٍ، وَمُصْحَفٌ مُعَلَّقٌ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ غُبَارٌ لَا يُقْرَأُ فِيهِ) البحار ٨٣ / ٣٨٥، عن الإمام الكاظم(ع) (بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ) هو أوقات الصلاة، ٤- وكل البيوت التي تؤدي دور المساجد التي تقام فيها الصلاة والذكر **كقوله** ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يونس/ ٨٧ فهي (بُيُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ) مثل مراقد الصالحين وروضات الأنبياء والأوصياء... وقد تعددت بيوت الله التي اختارها خلق الله، وستجدون الراحة في بيوته تعالى كما تجدونه في بيوتكم، فراحة بيوتكم بدينية حسية، أما في بيوت الله فالراحة معنوية قيمية روحية ربانية، لأن ربك عزوجل غيب فيربحك أيضاً بالغيب، في غرر الحكم (فِي الذِّكْرِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ).

٣٧ - ﴿مَرَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَلَبَّ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴿الآية / ٣٦ مِنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْمَسْبُوحُونَ فِي الْمَسَاجِدِ؟ إِنَّهُمْ (رِجَالٌ) لَا يَشْغَلُهُمْ أَي شَاغِلٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ (لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) رِجَالٌ أَصْحَابُ تِجَارَةٍ فَإِذَا دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، تَرَكَوا التِّجَارَةَ وَالْمَهَارَةَ وَالشُّطْرَةَ وَانْطَلَقُوا إِلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، هَؤُلَاءِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ، يَسْبُحُونَ اللَّهَ فِي الْعُدْوِ وَالْأَصَالِ، (رِجَالٌ) وَأَيُّ رِجَالٍ لَيْسُوا مِنْ يُوْثِرَ عَلَى رَبِّهِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَلذَاتِهَا، فَعِنْدَهُمْ طَاعَةُ اللَّهِ فِي مَتْنِ حَيَاتِهِمْ لَا عَلَى هَامِشِهَا، فَهَمْ يَسْتَدْوِقُونَ حِلَاوَةَ الْعِبَادَةِ! فِي نَحْجِ الْبَلَاغَةِ خُطْبَةُ ١٩٣ (عَظْمُ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَعُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) وكلمة رجال لها دلالة عامة، هنا تعني عباد الله جميعاً من رجال ونساء، لأن الرجال مشتقة من الرجل للدلالة على القوة والقدرة، هؤلاء لا تشغلهم أعمال الدنيا وزخارف الحياة وزينتها عن ذكر ربهم والاستقامة على نَحْجِهِ، وَلَا يُلْهِهِمُ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ وَالْأَرْبَاحُ الْمَادِيَّةُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ الدَّائِمَةِ، وَلَا سِيَمَا أَهْلَ الْأَسْوَاقِ

والأشغال والمهن والمصانع والمزارع والانتاج وغيرهم، فإنهم إذا حان وقت الصلوة تركوا أعمالهم وارتباطاتهم وتوجهوا إلى ذكر الله كقوله ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/٤٥ في غرر الحكم (الذِكْرُ لَذَّةُ الْمُحِبِّينَ، وَالذِّكْرُ مُجَالَسَةُ الْمُحِبُّوبِ) فهم لا تلهيهم تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة، وعندهم الآخرة خيرٌ لهم من كل متاع الدنيا كقوله ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى / ١٧، وذكر الله بمعناه العام والذي منه: (وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ) ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقات فضيلتها، ودفع الزكاة المفروضة للفقراء والمستحقين بحدودها وشروطها، فيؤدون حق الله وحق الناس، ودائماً القرآن يقرن ذكر الصلاة بالزكاة لاقتران العبادات بالمعاملات، واقتران الأقوال بالأفعال وبالأخلاق (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) يخافون يوماً رهيباً يوم القيامة يوم الحسم، يوم ليس كبقية الأيام، فهو يختلف بشكله ومضمونه عن كل يوم (تَتَقَلَّبُ) تضطرب من شدة هوله وفرعه قلوب الناس ومشاعرهم ونفوسهم وأبصارهم. كقوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس/٦٢

في غرر الحكم (خِيفٌ تَأْمَنُ، وَلَا تَأْمَنُ فَتَخَفُ)

فائدة: ١- (وَإِقَامُ الصَّلَاةِ) بمعنى أدائها بتمامها بكامل أركانها وشرائطها ومقدماتها، فمن تساهل في شيء منها لا يكون مقيماً لها، وإنما أداء لإسقاط الواجب كقوله ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ البقرة/٤٥، ٢- (يَخَافُونَ) فعل مضارع مستمر يدل على تعلقهم بالله مستمر والإحساس بقربه ورقابته بشكل دائم، فيها بون مقامه ولا يتعدون حدوده هؤلاء النخبة النموذجية القدوة في الشخصية الإسلامية، ٣- (لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً) التجارة تشغل الإنسان وتلهيه بأنواع التكاثر فتمنعه عن ذكر الله، فالذي لا تلهيه تجارته عن ذكر الله إنه علامة فارقة على الرقي الروحي والإيماني والعلمي والأخلاقي، ودلالة على الورع والاتزان والاستقامة. سؤال: لماذا مدحت الآية الرجال دون النساء؟ الجواب: لأنه لا جمعة ولا جماعة في المساجد على النساء، ولكن إذا توفرت للنساء أجواء مناسبة للصلاة في المساجد فنور على نور.

٣٨ - ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْبِدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَبْزُقُ مِنْ شَاءِ بَعْضِ حِسَابِ﴾

الآية تعليل للذين يواظبون الصلاة (صلاة الجماعة) (في بيوت) الله الذي ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ النور/٣٦، (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ) أي ليكافئهم الله عزوجل على أعمالهم الصالحة في الدنيا بأحسن الجزاء، ويجزيهم على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة عفواً وغفراناً، فلا يظهر جهات النقص في أعمالهم ولا يحاسبهم عليها، فيعد الحسن من أعمالهم فيكتبه لهم الأحسن من نوعه أو (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) بمعنى: أحسن جزاء أعمالهم كقوله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأنعام / ١٦٠ إلا أذى الناس والاعتداء على حقوقهم الخاصة فلا كفارة لها ولا صفح عنها ولا شفاعة فيها عند الله، (وَيَرْبِدَهُمُ

مِنْ فَضْلِهِ) يتفضل عليهم فوق ذلك الجزء النموذجي المميز، بعبء خاص مملوء بالمفاجأة والمخباتة، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق / ٣٥، (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) الرزق: عنوان عام يشمل كل ما ينتفع به، فما دام الله يرزقك بغير حساب، فأعط المحتاجين من خزائن الله عندك، فإن الله يعطي من يشاء من خلقه من خزائنه، عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ وكأنه لا يحسب ما ينفقه (إذا أعطى أدهش)! كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) الحجر/٢١، إنه تعالى يعطيهم ليس مقابل أعمالهم الصالحة، يعطيهم (مِنْ فَضْلِهِ) وإحسانه عطاءً بلا عوض ولا استحقاق، يعطيهم بلا حدود ولا قيود ولا حساب، لأنهم أعطوا لله أهم وأعز ما يملكون فأعطاهم فوق ما يستحقون، كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الأحقاف / ١٦ .

٣٩ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَخْسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

في مقابل ذلك النور المتجلي والقلوب مطمئنة في بيوت الله، يعرض السياق مجالاً آخر مظلماً لا نور فيه، مخيفاً لا أمن فيه، ضائعاً لا خير فيه، سراباً لا حقيقة له، ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤، معروض في هذه الآية والتي بعدها وفيهما المواعظ التي تحيي القلوب، كسرابٍ: السراب شعاع يلمع بالأرض المستوية يتخيلته الرائي ماءً يجري على الأرض من بُعد، وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء، لأشعة الشمس، بِقَيْعَةٍ: جزآن: (باء) حرف الجر (وقية) جمع واحدة قاع بمعنى الأرض الواسعة المنبسطة الخالية، المعنى: التعبير القرآني تشبيه لأعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم، فإذا هي ليست ذات قيمة، بل تعب وعناء في الدنيا وخيبة أمل وعذاب في الآخرة، وإذا هي كسراب يلمع بالأرض المستوية يحسبه التائه العطشان من بُعد ماءً، (حَتَّى إِذَا جَاءَهُ) حتى إذا وصل إلى مكان السراب (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) لم ير ماءً ولا شراباً وإنما رأى سراباً موهماً فعظمت حسرته! وفوق ذلك وجد الله المنتقم الجبار عنده! أي وجد حكمه وقضاه وقدره، الله الذي كفر به وجحده وخاصمه وعانده، وجده هنالك ينتظره ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم/٤١ .

(وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ) ووجد الله له بالمرصاد عند جزائه محاسباً إياه على ما كان منه من كفر (بلسان الحال أو بلسان المقال) فوقاه جزاء عمله، والجزاء من جنس العمل كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الأنشاق / ٦، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه، لم يجد شيئاً من أعماله لأنها لا قيمة لها في ميزان الله، فلا إيمان من

دون عمل صالح، ولا أعمال صالحة بلا إيمان، ذهبت هباءً منثوراً كقوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الفرقان/٢٣ (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) فوقاه الله حسابه السيء كاملاً وبمتهى السرعة، لأن الله سريع الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة الآخر، ويسرع في الدنيا في حساب عبده فيعطيه ما يستحق، ويسرع في الآخرة في حساب الخلائق فيحاسبهم كلهم بسرعة مذهلة، وبقدرة قادر مقتدر! إنه تعقيب لحقيقة الحساب السريع، يتناسق مع مشهد السراب السريع الخاطف.

فائدة: ١- هذه الآية والتي بعدها ضربها الله مثلاً وتشبيهاً لأعمال الكفار، إنها تذهب سدى من غير هدى، وكل عمل نافع لا يُراد به وجه الله لا ينفع صاحبه، فهو تشبيه كالسراب والخيال والوهم! فالكفر يحق ويهلك كلَّ عمل وإن كان صالحاً، كقوله (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا إِتْبَاعًا وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ) الليل/١٩-٢٠، لأن كلَّ عمل لا يزيكته الإيمان هو أبتَر ناقص لا أساس له ولا ميزان، وهو أشبه بالميته لا يؤكل لحمها، وإن كانت من أطيب الحيوان لحماً، ٢- (يَحْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءً) إشارة إلى خداع النفس بعد خداع البصر بهذا السراب والخيال والوهم فاصطدم بالخرسان والحرمان كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف / ١٠٣ - ١٠٤، عن عيسى المسيح (ع) (مَاذَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَخَسِرَ نَفْسَهُ!).

٤٠ - ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ مِنْهُ لَمْعٌ كَذِبَرَاها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

وهذا مثل ثانٍ لتشبيه ضلال الكفار وضياعهم، وهو كناية تشبيهية بليغة لواقعهم، في غرر الحكم (ضَلَّ مِنَ اهْتَدَىٰ بَعِيرٌ هُدَىٰ اللَّهِ)، بَحْرٍ لُجِّيٍّ : بحر كبير وعميق، المعنى: ومثل أعمال الكافرين الخالية من نور الحق والإيمان والهداية، كظلمات متكاثفة لا ظلمة واحدة، فيجدون أنهم غارقون في وسط ظلمات متطابقات بعضها فوق بعض، لا حدود لها! في أعماق بحر كبير عميق لا يدرك قعره وكثيرة أمواجه، لا يسمح بنفوذ أي نور خلاله لشدة ظلامه وكثرة عمقه (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) (يَغْشَاهُ) يغطّي ذلك البحر ويعلوه موج متراكب ومتلاطم متلاحم بعضه فوق بعض (مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ) أي فوق ذلك الموج الثاني سحب كثيف وداكن (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض حتى بلغت الظلمة نهايتها، فكيف يكون له طريقاً إلى النجاة والخلاص؟! وطبيعة الكافر كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة وحياته ظلمة ومخرجه ظلمة، فيكون مصيره إلى ظلمات، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة، حتى إنّ من في داخل هذه الظلمات .

(إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكُذِّبْهَا) إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات المتطابقات يده فيها لم يستطع رؤيتها وهي مقابل عينيه! فإن ظلمة البحر العميق وظلمة الموج المتراكب، وظلمة السحاب الكثيف والضلال البعيد، قد اجتمعت عليه حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة!! فكذلك شأن الكافر والفاجر والمنافق والفاسق يتخبّطون في ظلمات الضلالة وفي حيرة الجهالة! وهذا أبلغ تشبيه لمن أخذتهم الدنيا بغرورها وأنفسهم الأمانة بالسوء بخيانتها، الذين غرقوا في بحر الفساد من الكذب والهوى والنفاق والضلال والحسد والحقد والغيبة والغرور والكبرياء وأكل الأموال الحرام.. وغيرها من المفاصد، لأنه ليس له نور من منهج الله المنير الذي يهتدي به، لذلك لا ينتفع بعمله، كقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦ تلك (ظلماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)، (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) نور الله : نور الإيمان، نور الهداية، ونور الله هدى في القلب وتفتح في البصيرة، فمن لم يتصل بهذا النور الهادي فهو في ظلمة بعضها فوق بعض لا نكشاف لها، أي ومن لم يجعل الله له نوراً في قلبه وبصيرته، فلم يهده الله للإيمان، ويعطي الله تعالى الهداية لمن يريد لها وهو مؤهل لها، كقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ الحج / ١٦ ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن / ١١، ولم ينور قلبه بنور الإسلام، ولم يفتح عليه الآفاق ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۗ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الأنعام / ١٢٥، لأنه يعاني من ظلمات الباطل بعضها فوق بعض، ومستغرق فيها لا يستطيع الخروج منها! كقوله ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال / ٥٥ .

فائدة: ١ -

ذكر الله تعالى لعمل الكافر مثالين الأول: لعمله النافع ومثّل له بالسراب الخادع والثاني: لاعتقاده السيء ومثّل له بالظلمات المتراكمة والمتراكبة. إنه الكفر ظلمة مادية ومعنوية منقطعة عن نور الله تعالى، وضلال متراكم لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى، ومخافة لا أمن فيها ولا اطمئنان، وكآبة دائمة وقلق نفسي وأرق ليلي يُنعّص له العيش ويكرّه له الأيام، وهكذا حال الكفار تراكمت وتراكبت على قلوبهم الظلمات المتطابقات، ظلمة الكفر وبعده ظلمة الغرور والعناد، وبعده ظلمة الجهل والفساد وغيرها، فبقوا في عدة ظلمات متراكمة متراكبة متوالية بعضها فوق بعض متحيرين، يحسبون أنهم يحسنون صنعا كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف / ١٠٣-١٠٤ وقوله ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۗ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يونس / ٣٢، راجع تفسيرها في وعي القرآن، عن الإمام علي (ع) (من لا يستقيم به الهدى تضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح النهج ٩١/٢، كقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر / ٨ .

٤١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

(أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم، والهمزة للتقرير، والمراد من الرؤية: رؤية القلب المعنوية، فإن التسبيح المطلوب لا يتعلق به نظر البصر الحسي وإنما يتعلق ببصيرة القلب وبعدها المعنوي، وقدرة العقل وقوة التدبر والتفكير والتذكر والرؤية هنا معناها العلم، الذي يجيء عن بحث علمي ونظر استدلالي، وهي دعوة إلى الدراسات والبحوث العلمية العالية في هذا الوجود، الذي يرى الإنسان انقياد الكون والكائنات كلها للخالق جلّ في علاه، وولاءها له وعبوديتها لجلاله وجماله وكماله سبحانه (أَلَمْ تَرَ)، أي أعلمت يا محمد علماً قطعياً يشبه المشاهدة الحسية في القوة والدليل واليقين بالوحي، أن الله العظيم يسبح له (بَلْسَانَ الْحَالِ وَبَلْسَانَ الْمَقَالِ) كل من في الكون من كائنات من الملائكة والجن والإنس والحيوان والنبات والجماد وغيرها، وتحمّد الله وتمجّده وتنزهه وتعظّمه في مشهد عظيم كريم متنسق مدهش، من التسبيح الجليل الموحّد الذي يُحرّك المشاعر بلا استئذان، يخشع له الوجدان حين يتملّاه! كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء / ٤٤ فهو تسبيح وتحميد وولاء وانتماء ووفاء واتباع، تسبيح خضوع وتسليم وانقياد الوجود كله للخالق.

كقوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ الرعد / ١٥ (وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ) صافات باسطات أجنحتها في الهواء أي إنها تسبح لله تعالى وهي في أعلى منازلها وحالاتها، لم يدخل عليها شيء من الكبر والغرور كما يقع ذلك لكثير من الناس ضعفاء الإيمان، بل إنها لتزداد بهذا الطيران خشوعاً لله، فتقيم صلاتها لله في جو السماء بطريقتها الخاصة، باسطات أجنحتها معتمدة على قدرة الله، وهذا هو التوكّل على الله في أروع مظاهره الحسية الحركية كقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق / ٣ (كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) كل من هذه المخلوقات الكثيرة مصلّ منهم ومسبّح عن طريق الإلهام، قد علّم الله صلواته أي دعاءه وتسبيحه وتحميده، وكل مخلوق قد علم كيفية الصلاة التي يصلي بها والمكّلف بها والمقدّرة له والمناسبة معه!، والتسبيح الذي يسبح به الله بقدره وبأسلوبه الخاص! وهذا يُشعر بأن عملها هذا ليس عملاً آلياً وإنما هو عمل عن علم ومعرفة، حتى يحقق هذا التآلف والتجاوب والانسجام والاندماج بين سنن الله في المخلوقات، مع سنن الله في النظام العالمي في الموجودات التي تسبح لله جميعاً في وحدة واحدة موحدّة متحدّة، وكل مخلوق يُسبّحه بطريقته الخاصة! (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) إشارة إلى أن الله تعالى محيط بعلمها وعملها جميعاً كقوله ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام / ٨٠ .

فائدة: ١- (يُسَبِّحُ) للتعظيم والتنزيه.

أي يُنزه الله عن كل نقص، ويليق به كل كمال وجمال وجلال، وفي الآية دلالة واضحة : على أن للطيور والحشرات والحيوانات والكائنات لها حظاً من الإدراك والفهم والتمييز، أي إنّ لها روحاً وعقلاً وفهماً بقدرها وتسييحاً بقدرها كقوله ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ النمل/١٨ وقال الهدهد لسليمان ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ النمل / ٢٢ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الأنعام / ٣٨، وجود كل شيء يفتقر إلى الله تعالى لأنه يظهر بقدرته سبحانه، ويدل على من أظهره وكوّنه بما أفاض عليه من نعمة الوجود وجمال الحياة، وكلّهم ينزهون الله عن النقص، ويمجدونه بكل كمال وهذا هو التسييح الحركي الفاعل إذ لا مدير في الكون إلا الله تعالى، ولكنّ الإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسييح ربه، وهو أجدر خلق الله في التسييح والتحميد والصلاة والإيمان والاستقامة (لَا تَعْقَلْ فَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنكَ) في غرر الحكم (احذروا العُقْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحَيَاتِ)

٢ - (كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) إنّ كلّ مصلٍّ ومسبِّحٍ يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسييح والطاعة التي كُلفَ بها، كل كائن بحسب قدره ومقداره ولكننا لا نفهم لغتها وطريقتها، أنظر إلى (النحل) كيف تبني بيوتها السداسية الدقيقة وإلى حياتهم المنظمة وإلى غسلهم الصحي، وإلى (العنكبوت) كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد فريستها، مملكة النمل، عالم الطيور، عالم الأسماك، وكل نفس حيّة أتاها الله هداها الخاص بها، وعلمها العلم المناسب الذي ينفعها حسب قدرتها ووظيفتها وهي مُيسّرة لذلك، كقوله ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه / ٥٠، عن النبي (ص) (إعملوا فكلُّ مُيسّر لما خُلِقَ له) روح البيان ٦ / ١٣٦ لذلك فإن كل نفس عاقلة وغير عاقلة تحشر يوم القيامة للحساب كقوله ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حْشِرَتْ﴾ التكويد / ٥٠، عن الإمام الصادق (ع) (كَانَ دَاوُدَ (ع) إِذَا قَرَأَ الرَّبُّورَ لَا يَبْقَى جَبَلٌ وَلَا حَجْرٌ وَلَا طَائِرٌ إِلَّا جَاوَبَهُ) الإمام الباقر (ع) قال (أتدري ما تقولُ العَصَافِيرُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَبَعْدَ طُلُوعِهَا؟ قَالَ : فَإِنَّهُنَّ يُقَدِّسْنَ رَبَّهُنَّ وَيَسْأَلُنَّهُ فُوتَ يَوْمَهُنَّ) تفسير الرازي ١١/٣٥٠، كقوله (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ) الحشر/٢١.

٤٢ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

والله تعالى المالك والمتصرّف في الكون والكائنات في السماوات والأرضين، وجميع المخلوقات تحت ملكه يتصرّف فيهم بحكمه تصرف العليم القاهر الغالب، لا يشاركه فيه غيره، (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم ويحاسبهم على أعمالهم كقوله ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف / ٢٩، فلا اتجاه إلا إليه، ولا ملجأ ولا مأوى ولا منجى ولا مهرب من دونه إلا إليه، ولا مفرّ من لقائه ولا عاصم من عقابه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء / ٢٣.

٤٣ - ﴿الْمُرْتَدَّ أَنْ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ مَرَدِّ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾

يُزْجِي سَحَابًا: يدفع ويسوق برفق ونظام وسهولة بالأسباب الكونية التي أودعها في هذا الوجود، المعنى: أَلَمْ تَرَ أَلَمْ تَعْلَمْ، أي أَلَمْ تَرَ رؤية علمية بأسباب كونية استدلالية، فيتساوى الدليل الحسي مع الدليل العلمي! أن الله يسوق بقدرته السحاب المتفرق إلى حيث يشاء (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) ثم يجمع بين أجزائه بعد تفرقه بضم قطع السحاب بعضها إلى بعض فتصير قطعة واحدة متلائمة متراكمة، (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا) ثم يجعله كثيفاً متطابقاً متراكماً بعضه فوق بعض، وتحمل في طياتها الشَّحَنَات الكهربية، (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) فتري (الْوَدْقَ) الماء يخرج من بين السحاب الكثيف، من فتوقه وفروجه لنفع الناس (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ) وينزل من السحاب الماء الذي هو كأمثال (الجبال) برداً وثلجاً.

كلمة (الجبال) هنا كناية تقريبية وإستعارة بلاغية على الفخامة والكثرة (فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ) فيصيب بذلك البرد والثلج من يشاء من العباد، فيضِّره في زرعه وثمره وماشيته إذا كان فوق الحاجة (وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ) ويدفعه عمن يشاء فلا يضره بل ينال منه الخير والنفع الكثير، هناك تقديرات في أرض دون أرض تبعاً لسنن الكون والكائنات مباشرة، ولمشيئة الله بواسطة هذه السنن التي خلقها، وهذا يدل على منتهى قدرة الله حيث جعل سبب نفع الإنسان وضرره سبباً واحداً، وكل يتحرك بمشيئة الله تعالى، (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ) السَّنا : الضوء اللامع، والسَّنا: المجد، البرق: الضوء الخاطف، سَنَا بَرْقِهِ : قصر ضوئه وشدة لمعانه، كقوله ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ البقرة/٢٠، يقرب ضوء برق السحاب ولمعانه القصير (يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه.

فائدة: ١- في هذا دلالة على منتهى قدرة الله وعظمته إذ جعل من المطر نفع الإنسان وضرره، وصحته ومرضه، وقوته وضعفه، وعزته وذلته، وأمله وعمله، وحياته وموته، وهكذا تتداخل سنن الأشياء كما يتداخل الليل والنهار، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح / ٥-٦ فلا مطر دائم ولا جفاف دائم، ولا عسر دائم ولا يسر دائم وهكذا، تتداخل السنن الكونية مع السنن الإنسانية تداخلاً متعادلاً ومتبادلاً ومتوازناً ومقدراً، وكأنَّ هناك نظاماً مشتركاً بين النظام الكوني الهائل ونظام الإنسان الصغير الفاعل، والسعيد من نظم حياته الخاصة مع النظام الكوني العام، بطاعة خالق الأكوان والفوز برضاه، لذلك جاءت الآية التالية وهي تدعم هذه الحقيقة وتثبت هذه القاعدة فقال تعالى:

٤٤ - ﴿يَقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

يُقَلِّبُ : يصرف ويبدل بمقادير مقدرة ومنظمة، أي يبدل الله الليل والنهار، ويتصرف فيهما بالطول والقصر والحر والبرد، والنور والظلمات، فتعتدل بهذا التقلب والتغير المنظم حرارة الأرض، وينشأ من نظام تعاقب الليل والنهار وتغير أحوالها الفصول الأربعة للسنة، وهذا التغير المنظم المستمر يدل على وجود منظم ومغير ومقلب تجب طاعته (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع وحكمته (لَأُولِي الْأَبْصَارِ) لكل من يبصر بوعي ويدرك ويتفكر أي لذوي العقول والبصائر المستنيرة **كقوله** ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ طه/١٢٨، وخصهم بالذكر لأنهم الذين يتدبرون وينتفعون بما تعلموا، ويستقيمون ويطيعون الله عزوجل، في غرر الحكم (إِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِذَوِي اللَّبِّ وَالْإِعْتِبَارِ) فائدة: (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) ظاهرة تبين تغير الأحوال من حال إلى حال بطريقة منظمة **كقوله** ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن/٢٩.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران / ١٤٠.

بمعنى: في تقلب الليل والنهار وتغيرهما من حال إلى حال باستمرار، يدل على أنه هناك نظام ظاهره دقيق وباطنه عميق، ومغزاه بعيد، ويدل على وجود سنن كونية مرتبطة بسنن إنسانية، إن ظاهرة تداخل الليل والنهار ظاهرة مدهشة ذهبت الألفة والعادة بوقعها الكثير، ليواجه القلب هذا لنظام الكوني دائماً بحس جديد ووعي مفيد ومشاعر متحركة غير غافلة، فالاتصال بالبحث في هذا الوجود يهبنا أنساً وطمانينة وعلماً واكتشافاً جديداً ومفيداً، ولهذا يوظفنا القرآن مرة بعد مرة لظاهرة الليل والنهار كي لا نمرّ على شكلها، ولا نلتفت إلى مضمونها وغايتها فنكون من الغافلين، يعرض القرآن هذه الظاهرة بأساليب قرآنية متعددة، وبتعابير مثيرة على التفكير، يعرضها على أنها آية دالة على وجود الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ فصلت/٣٧، والذي وضع هذا النظام هو الله المنظم **كقوله** ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المؤمنون/٨٠، يعرض القرآن هذه السنة بعدة أساليب فيقول ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ الحديد/٦٠، تارة يأتي القرآن لبيان دقة وأبعاد هذه الظاهرة بالفعل (يُولِجُ) وتارة بالفعل (يُقَلِّبُ) كما في آية البحث، وتارة (نَسْلُخُ) **كقوله** ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ يس/٣٧ (فَمَحْوُنَا) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ الاسراء / ١٢، ويقول تارة (عَسَسَ وَتَنَفَّسَ) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ النكوير/١٧ **عَسَسَ** ذهب ظلامه، **تَنَفَّسَ** : ظهر ودبّت فيه الحياة وتنفس وارتاح، وكأن ظلام الليل يضغط عليه ويقيده، فإذا حان وقت الصبح **تَنَفَّسَ**، ورفع عنه الأثقال والأحمال والظلام والقيود!

وفي تعبير عن ظهور الصبح بالتنفس، انه مولد حياة جديدة للأحياء جميعاً، حيث تبعث الحياة من جديد في الأحياء مع انفلاق الصبح، وبعد أن غشيها سبات النوم وغطّاها ظلام الليل، فبدت وكأنها في عالم الموتى ساكنة هاملة ميّنة موتة مؤقتة **كقوله** ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الأنعام / ٦٠، إنها سنة التداخل بين الأشياء: وتداخل الليل والنهار

تبين سنة كونية منظّمة، مرتبطة بسنة إنسانية حياتية منظمة أيضاً، تبين أن كل شيء في الحياة مبني على التداخل، فكما يتداخل الليل والنهار كذلك يتداخل الظلام والنور، والخير والشر، والنعمة والنعمة، والصحة والمرض، والعزة والذلة والقوة والضعف، والحياة والموت، والأمل والعمل، والذكر والأنثى، والروح والجسد، والشدة والرخاء، والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح / ٥-٦، فلا يمكن أن تبقى الأشياء على حالها (وَدَوَامَ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ)، فلا عسر دائم ولا يسر دائم، ولا صحة دائمة ولا مرض دائم، ولا ليل دائم ولا نهار دائم، وهكذا يداول الله الأيام بين الناس.

وهكذا تتحرك السنن لاستمرار الحياة، وتحريك حيويّتها في المشاعر وفي الضمائر وفي الكون وفي الإنسان في وحدة واحدة موحّدة متّحدة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ) يكفي أن تدرك هذه السنن بالبصر قبل البصيرة، كي لا نمرّ عليها غافلين، في غرر الحكم (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ).

٤٥ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ماء: نطفة، والماء جزء أساسي من مادة كل حي، والماء له حقيقة واحدة مع أن كل دابة التي خلقت منه متنوعة! دَابَّةٌ: كل من دبّ ومشى، ومادبّ ومشى على الأرض من عاقل وغير عاقل مخلوق من ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الأنبياء / ٣٠، هذا هو رابع دليل على التوحيد فقد استدل بأحوال السماء والأرض وبتصريف السحاب وإنزال المطر ثم بأحوال الدواب والحيوانات، وخص الماء بالذكر من بين ما يترتب منه من المواد، لأنه المادة الأساسية الأولى لبدأ الخلق، فالمادة الحية واحدة ولكن يترتب منها أنواع المخلوقات، ومنها النباتات ﴿وَوَزَعْنَا مِنْ خَلْقِ صِنْوَانٍ وَمِنْهَا صِنْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ الرعد/٤، (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف والديدان (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) كالإنسان والطير (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) كالأنعام وسائر الدواب (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) من أنواع المخلوقات المختلفة في أشكالها وألوانها وطبائعها وطريقة عيشها، ومقدار حجمها وكيفية تكاثرها، وكلها تسير على أكمل وجه واتقن صنع ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨ وتجري بالشكل الذي يحفظ حياتها، (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع مما يريد (ما شاء الله كان، وما لم يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) يدل على نفوذ مشيئة الله وطلاقة قدرته كقوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة / ٧ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون / ١٤، وهذا ينفي فكرة المصادفة، وهي بذاتها فكرة سقيمة وعقيمة!، فائدة: ولم يذكر ما يمشي على

أكثر من أربع، لأن العبرة تكفي بذكر الأربع، فالقرآن ينبه بذكر بعض الآيات، ويستدل على الآيات الأخرى بالتجارب الواقعية، لتدخل الآية في قوله (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) مِمَّا يُذَكِّرُ وَمِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ. كقوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/ ٨ .

٤٦ - ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(أَنْزَلْنَا) الإنزال من الأعلى إلى الأدنى، فكأنَّ الله عزوجل يقول لك: أريد أن أرتفع بك من مستوى جاذبية الأرض إلى علو السماء وجاذبية القيم والمبادئ، فخذوا منهج حياتكم من الله سبحانه ولا تأخذوه من غيره، المعنى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا) إليكم أيها الناس في العالم (آيَاتٍ) ودلائل عديدة (مُبَيِّنَاتٍ) واضحات، دالة على الهداية وتُعرِّفُ بالله ومنهجه المستقيم، من الدرة الصغيرة إلى الحجرة الكبيرة، وكل شيء له آية - تدل على أنه واحد، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) جعل الله للهدى طريقاً، ومن وجَّه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره ومنهجه وتأثيره، فمن اتصل به فقد اطمأن قلبه، واستقرت نفسه واستقام في فكره وسلوكه، ومن أعرض عن الهدى فقد انور الهادي ودخل في طريق الضلال المتعدد والظلمات المترابطة، وهكذا مشيئة الله في الهدى والضلال كقوله ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ سبأ / ٥٠ والله سبحانه يرشد من يشاء ويريد ويرغب من هو مؤهل من خلقه (إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إلى الدين القيم وهو الإسلام ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران / ١٠١ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى/ ٥٢-٥٣، ولما ذكر دلائل التوحيد حذر من النفاق والمنافقين.

والنفاق: هو كل من أضمر غير ما أظهر، وهو يفسد الإيمان وأخو الشرك وصديق الكفر، ورفيق الظلم، وهو آفة خطيرة ومريّة يعاني منها المجتمع الإسلامي، فقال:

٤٧ - ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول المنافقون ويدعون بلسانهم صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله والتزمنا بكل أوامرها (ثمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) ثم تعرض جماعة منهم وترفض علناً العمل بأوامر الله والرسول(ص) من بعد إعلان الطاعة، ويبقى البعض الآخر من المنافقين ساتراً نفاقه وتقلبه، ويعملون بالظاهر وأمام الناس بأوامر الله ورسوله (وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) وليس أولئك المدعين الإيمان بمؤمنين على الحقيقة فهم يتظاهرون بالإيمان ويتاجرون بالدين، لأن الدعاوى إذا لم يكن عليها بينات ومصاديق فأصحابها أدياء كقوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ النساء/ ١٤٢، عن النبي(ص) (لِلْمُنَافِقِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّعَمِنَ حَانَ) البحار ٢٠٦/٧٢، في غرر الحكم (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا

فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ! عن الإمام الصادق (ع) (الإيمانُ عملٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضٌ ذَلِكَ الْعَمَلُ) البحار ٦٩ ص ٢٣ .

فائدة: من الضالين (الْمُنَافِقِينَ) من لا يعتقد بقلبه ويقول بلسانه أنه مسلم، ولكنه يعصي الله تعالى عن عمد فيما أمر ونهى، ومنهم من يدعي الإسلام بلسانه ولا يؤمن بقلبه وهذان الفريقان هما المقصودان في الآية الكريمة، هؤلاء لَبِسُوا الإِيمَانَ ظَاهِرًا، ولكن بأقل تجربة واختبار يظهر زيفه كقوله ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت ٢ / وقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الحج/ ١١، إِنَّ الإِيمَانَ الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره الجميلة في الأقوال والأعمال والمشاعر والمواقف، والإسلام عقيدة عالمية حركية لا تطبق السلبية، ولا تقبل التقلب والتلون والتذبذب في المواقف والانحياز إلى غير المؤمنين. في غرر الحكم (ما أَفْبَحَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ) أسباب النزول: في مجمع البيان عن الإمام الباقر (ع): أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض أشتراها عثمان من علي، فخرجت فيها أحجار وأراد ردها بالعيب فلم يأخذها علي (ع) وقال إني لم أعرف ما فيها، وقال بيني وبينك رسول الله (ص) فقال الحكم بن أبي العاص لعثمان وهو من المنافقين، إن حاكمته إلى ابن عمه حكم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت الآيات.

٤٨ - ٤٩ - ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿

وإذا دعوا هؤلاء المنافقين إلى حكم الله ورسوله (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول، إن كان الحق عليهم وضدّهم وليس لصالحهم ٤٩ - (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ) وإن كان الحق بجانبهم جاؤوا إلى رسول الله (مُذْعِبِينَ) مسرعين طائعين منقادين! لعلمهم أنه (ص) يحكم بالحق، وأنهم يتبعون الهوى والمصالح الخاصة، والحق عندهم إذا وافق أهواءهم ومصالحهم، سبب النزول: إن منافقاً ويهودياً تخاصما على شيء، فدعاه اليهودي إلى المحاكمة عند محمد (ص) ودعاه المنافق إلى كعب الأخبار اليهودي الذي يأخذ الرشوة فرفض المنافق. وهذا الصنف المتقلب يوجد في كل زمان مكان ﴿وَمَا أَوْلِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية / ٤٧، وفي هذا إشارة إلى أن المنافقين كيان واحد متذبذب من الضلال وسريع التقلب والتلون والفساد كقوله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ التوبة/ ٦٧، وأنه لا فرق بين من يمتحن منهم ومن لا يمتحن، وبين من يدعى إلى حكم الله ومن لا يدعى، إنهم عصابة لصوص تَسَتَّرُوا بِالْإِسْلَامِ، دينهم دنائيرهم، والدين لَعِقُّ عَلَى ألسنتهم، وهم أخطر ممن أعلنوا الحرب

على الإسلام مكاشفةً، هذا عدو ظاهري وذلك عدو لثيم مستور، كقوله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء/٦٠ .

٥٠ - ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ امْرَأَتَاؤُا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

مَرَضُ الْقَلْبِ: فساد الفطرة والضمير والمشاعر، والخلل في الفكر والاضطراب في النفس والعقيدة والتدين مثل النفاق، اِرْتَابُوا: شكوا بسبب تخلخل وتزلزل إيمانهم، المعنى: (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ماذا دهي هؤلاء؟ وما الذي جعلهم يتخبطون هكذا بهذا التذبذب والتقلّب؟ هل يعانون من مرض نفسي أم عقلي؟ أم أنهم أصحاء وعقلاء (أَمْ اِرْتَابُوا) شكوا أي أم رأوا منك ما أوقعهم في شك وريبة من أمرك فلم يعودوا يثقون بقولك؟! (أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ) يَجِيفُ: يجور ويظلم، أي أم إنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم بظلمهم في الحكم؟! الحق أنه ليس كل ذلك، بل السبب الحقيقي والدافع الأساس لاعمالهم أنهم ظالمون لا يحبون الحق من أية جهة كان، ولا يرغبون إلا في هوى أنفسهم، ولا يعبدون إلا مصالحهم الدنيوية الخاصة، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم والاستنكار من أمرهم الغريب (بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) سوء حالهم كان بسبب ظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم وعنادهم للحق وأهله وإعراضهم عن حكم رسول الله كقوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة/٥٠ في الحديث (خَيْرُ الشَّرِّ مَا أَصَابَ الْأَشْرَارَ، وَشَرُّ الْخَيْرِ مَا أَصَابَهُ الْأَشْرَارُ)! فائدة: في هذه الآيات دليل على أن الإيمان قول وعمل وله مصاديق، فيكون العمل مطابقاً للقول، والكلام لا يخالف العمل.

﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء/٢٢٧ .

٥١ - ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

كان الواجب عليهم عندما يُدعون إلى رسول الله (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) للفصل بينهم وبين خصومهم (أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أن يسرعوا ويقولوا بلا تردد ولا جدال سمعاً وطاعة بوعي واستجابة سواء لهم الحق أم عليهم، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك، إذا لا إيمان مع تردد في أمر من أمر الله ورسوله أو شك في حكم من أحكامه، لأن المؤمنين يسلمون للحق ويصدقون معه ماداموا في اطمئنان أنه حق كقوله ﴿الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ يونس/٣٥ (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله، هم الفائزون بسعادة الدارين والناجون من كل محذور، لأن المؤمن لا يستنكف عن دعوة الحق بل يتشرف بها، ويقول الحق ولو على نفسه، ولو كان فيه ضرر عليه، ولو ضحى بنفسه (شهيدياً في سبيل الله) من أجل نصرة الحق واعطاء الحقوق، والثبات في المواقف، بهذه الصلابة والقوة والإرادة المؤمنة على الاستقامة، يفلح في دنياه وآخرته. عن الإمام الكاظم(ع) (إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَعَزُّ مِنَ الْجَبَلِ، الْجَبَلُ يُسْتَفَلُّ بِالْمَعَاوِلِ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يُسْتَفَلُّ دِينُهُ شَيْئاً) تنبيه

عن النبي (ص) (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لِرَجَالًا إِيمَانًا أَثْبَتَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي) مجمع البيان ٣ / ١٤٤ هذه هي الصورة المتألفة المشرفة النموذجية لإيمان المؤمنين الصادقين، وما في قلوبهم من سلامة سريرة وصدق ونية وقوة يقين. كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب / ٣٦ وقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء / ٦٥، فائدة: هناك أمر لك وأمر عليك، فإن كان لك فلا تبطر واشكر، وإن كان عليك فاصبر، وعليك السمع والطاعة في الحق في عسرك ويسرك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنازع الأمر أهله الشرعيون إلا أن يأمر بك بمعصية بيّنة (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، عن الإمام الهادي (ع) (من أطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوق) البحار ٧٨ / ٣٦٦، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فارم به عرض الحائط كائناً من كان كقوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة / ٤٤، الظالمون، الفاسقون .

٥٢ - ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أمر الله وأمر رسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه (وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ) ويجتنب الله في كل الأحوال في السر العلانية وخوفاً عن علم ومعرفة، فيما مضى من حياته ويتقنه فيما يستقبل، وأيضاً هذه طاعة مصحوبة بخشية الله وتقواه، والتقوى أعم من الخشية، التقوى مراقبة الله والشعور بقربه والورع عن محارمه، في كل الأحوال والاستقامة على نهجه، والخوف منه تعالى خوف هيبه ورغبة وحب، لا خوف رهبة ورعب، كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن / ٤٦ في غرر الحكم (إِذَا خِفتُ الْخَالِقَ فَرَزْتُ إِلَيْهِ، إِذَا خِفتُ الْمَخْلُوقَ فَرَزْتُ مِنْهُ) والخوف: هو التحرر والوقاية من الذنوب، فصار أحدهما يصب في معنى الآخر، والتقوى أوسع من الخشية، لأنها تجمع الورع والخشية، بينما الخشية: هي خوف ناتج من تسامي النفس من عدم اقتراب الذنوب. (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فأولئك المسارعون إلى مرضاة الله وتقديم الخدمات لعباده، هم الفائزون المفلحون على كل حال بسعادة الدارين، في الحديث (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) روح البيان ٦ / ١٧١.

فائدة: ١- (وَيَتَّقِيهِ) التقوى عند إطلاق معناها يدخل فيها فعل المأمور به وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة (كما في هذا الموضع) بمعنى توقّي عذاب الله بترك معاصيه، بوجود ملكة ذاتية خاصة في نفسه تصاحبه في كل أحواله (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) الذين جمعوا بين طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) ثم أن أدب هذه الطاعة المميزة مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع ينبى عن مدى إشراق القلب بنور الله واستذواق الصلة به وشعوره بهيئته ومقامه،

كما يُنبئ عن عِزَّة قلب المؤمن واستعلائه عن المحرمات، فكل طاعة لا تلتقي مع طاعة الله ورسوله بل وتعارضها، إذا لم تصد عنها، هي طاعة ذلّة لا يرضاها الله لعباده، وينفر منها طبع المؤمن العزيز، عن الإمام الصادق (ع) (لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قِيلَ وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ يَتَعَرَّضُ لِمَا لَا يُطَبِّقُ فِيهَا!) تنبيه الخواطر ص ٢٨٤، عن الإمام الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨ .

٥٣ - ﴿وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جِدَّ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أَمْرَتِهِمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
حلف المنافقون (جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) بغاية الأيمان المُعَلَّطَة وقد ر طاعتهم من الحلف الشديد، والحلف الرخيص هو أول صفة من سمات النفاق، وأيضاً كثرة الحلف وتوكيده قيل: (مَنْ لَا إِيْمَانَ لَهُ، لَا أَيْمَانَ لَهُ)، (لَنْ أَمْرَتَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ) لَنْ أَمْرَتَهُمْ بالخروج إلى الجهاد لِيُخْرِجَنَّ معك في الظاهر، خروج بلا موقف مُشْرِف! (قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً) تُشْعِرُ بتوبيخهم وتشخيص تقلباتهم، أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة مشهورة معروفة تنطلق من نفاق، وأن طاعتكم لله وللرسول باللسان دون القلب وبالقول دون العمل، وبالادّعاءات دون الحقائق والمواقف، في غرر الحكم (الْمُنَافِقُ: لِسَانُهُ يَسِرُّ وَقَلْبُهُ يَصُرُّ) (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) إن الله خبير بطاعتكم، عالم بظاهر القول ومخالفتم بالفعل.

فائدة: (لا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً) الخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين وهو واجب شرعي لا حاجة إلى إيجابه بيمين مغلظ ولا إلى تقديم أعدار، فإن الله قد نبأنا من أخباركم وتقلباتكم، ثم أن طاعتكم طاعة شكلية معروفة بالنفاق لا تخفى علينا، إنه استهزاء بهم وسخرية منهم ومن طاعتهم المعروفة بالتقلب والتغيير والتلون والتذبذب، ومصحوبة بالأيمان الكاذبة، قد كنا نعرف منكم التناقل والكسل والكرهية والخيانة والغدر من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم! إنما يحتاج إلى ذلك مَنْ كان أمره محتملاً بالصدق، وحاله مشتبهة بالصحة فهذا ربما يفيد العذر، وأما أنتم أصحاب السوابق فكلا كقوله ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المنافقون / ٢ جُنَّةً: وقاية، وإنما ينتظر بكم بأس الله ونقمته. لهذا يعود فيأمرهم بالطاعة الثابتة الحقيقية، لا طاعتهم المعروفة والمفهومة والمقرفة والمشبوهة فقال:

٥٤ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

(قُلْ) يا مُجِدِّ للمسلمين (أَطِيعُوا اللَّهَ) بإخلاص النية وترك النفاق، (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) بالاستجابة لأمره والتمسك بسيرته قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً لا كذباً ورياءً، في غرر الحكم (الطَّاعَةُ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ) (فَإِنْ تَوَلَّوْا) فإن أعرضوا عن طاعته فلن يضّر ذلك الرسول في شيء

(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ) لأنه ما على الرسول (مَا حُمِّلَ) ما كُفِّفَ به من مسؤولية تبليغ الرسالة، وقد قام بها على أحسن ما يكون (وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) وعليكم ما كلفتم به من مسؤولية لإجابة، والسمع والطاعة واتباع أوامر النبي(ص)، (مَا حُمِّلْتُمْ) ولعلّ التعبير بالتحمل للإشعار بالمسؤولية الثقيلة في عهدتهم، وحتى ولو توليتهم وأعرضتم عن هذا الإيمان الصادق فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل، (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) ولم يقل (تطيعوهما) لأن الطاعة هنا واحدة.

أي وإن أطعتم أمره(ص) فقد اهتديتم إلى طريق الحق والسعادة والفلاح وتفوزوا بخير الدنيا والآخرة كقوله ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس / ١٠٨، (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) ليس عليه(ص) إلا التبليغ الرسالي عن الله تعالى بوضوح للأمم، بلا شبهة وهو غير مسؤول إن عصيتم كقوله ﴿لَنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/ ١٦٥ فإنه قد بلغ الرسالة وأدى ما عليه من الأمانة وبقي ما عليكم عن الإمام الجواد(ع) (الْمُؤْمِنُ يَتَّخِذُ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ، وَوَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَبُولٌ مِمَّنْ يَنْصَحُهُ) البحار ٣٥٨/٧٨، وإنما الذي يحاسبكم هو الله تعالى، والرسول(ص) ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته، كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران / ١٢٨ وقوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/٤.

عن النبي(ص) (يا مَعْشَرَ قُرَاءِ الْقُرْآنِ اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فِي مَا حَمَلَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، فَإِنِّي مَسْئُولٌ وَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ، إِنِّي مَسْئُولٌ عَنِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتُسْأَلُونَ عَمَّا حَمَلْتُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُئْتِي) نور الثقلين ٣ / ٦١١، وسئل(ص) (إن كان علينا أمراء يعملون بغير طاعة الله تعالى؟ فقال (عليهم ما حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) كقوله ﴿فَدَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الغاشية/٢١-٢٢.

٥٥ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (آية الاستخلاف)، وميراث الأرض على شكل وعد صادق، وقسم جميل، وأمل ثابت جليل كقوله ﴿وَكَانَ وَعْدَهُ مَفْعُولًا﴾ الزمل / ٨ وقوله ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ الروم / ٦٠، الخطاب هنا للمؤمنين خاصة في مواجهة المنافقين، وأن القادة والنخبة المميزة من المؤمنين (مِنْكُمْ) (من) تبعيضية أي بعض المؤمنين ونخبتهم، و(من) بيانية، لإظهار أصالة الإيمان الجميل وبيان كمالية العمل الصالح ومنافعه، فهؤلاء موعودون من الله وعداً جازماً صادقاً لا شك فيه، إذا هم دعموا إيمانهم الصادق بالعمل الصالح النافع المناسب، فهم مصلحون لأعمالهم ومصلحون لغيرهم، ومزكون لأنفسهم عن كل

نقص كقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس / ٩ وفي غرر الحكم (ذِرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا دَوُوُّ التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ)، (لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) جواب القسم محذوف، أي وعد الله المؤمنين وأقسم لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقيق إنجازه لا محالة.

كقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ مريم / ٦١، على المؤمنين الأخذ بالأسباب التي توصل إلى النتائج التي سنّها الله في الكون والكائنات كقوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف / ٨٤-٨٥، ليؤثرتهم، وأقسم الله أي ليجعلهم خلفاء الله سبحانه في أرضه الواسعة، ويخلفون من قبلهم من الكفار في الحكم، ويجعل إلى أيديهم الحكم والسيطرة والسلطان والقدرة والقوة والتمكين فيها، وسيجعل لهم مجتمعاً صالحاً مؤيداً للحكم الصالح وداعماً ومسانداً له، فالإنسان هو خليفة الله على هذه الأرض، ولن يكون أهلاً لهذه الخلافة إلا إذا صحّت إنسانيته وسلّمت فطرته واستقام فكره وسلوكه، أما إذا انحرف وفسد فإنه ينزل عن هذه الخلافة، ويخلفي مكانه منها ويهبط ليأخذ مكانه بين حيوانات الأرض ودوابها، ووعد الله بالاستخلاف وعد مذخور لكل مَنْ يقوم بالشرط، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين في الأرض لتخلف المؤمنين من تحقيق شرط الله في الإيمان والعمل الصالح الأصليين النموذجيين والمميزين والفاعلين. (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) إشارة إلى سنة الله جارية متحركة فيهم، مَنْ استخلفهم الله من عباده الصالحين من قبلهم بعد أن أهلك القوم الظالمين وقد أكد القرآن هذه الحقيقة على مدى حركة التاريخ.

وهذا ما حصل في بني إسرائيل وفرعون كقوله ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص / ٦، وقوله ﴿بِثَبَّتِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إبراهيم / ٢٧ وقوله ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم / ١٤ وقوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء / ١٠٥ ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ص / ٢٦ ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ الحج / ٤٠ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة / ٣٢-٣٣ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم / ٤٧ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف / ١٢٨ فالؤمن المحافظ على استقامته وأخلاقه وكفائه ووعيه في جميع الأحوال، هو أقوى الناس وأصلحهم للحكم، وأقدرهم على السياسة والتمكّن في السلطة، في غرر الحكم (خَيْرُ الْأُمَرَاءِ مَنْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ أَمِيرًا) (مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ أَدْرَكَ السِّيَاسَةَ) (مَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ) (وَلَيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ)

إنَّ المؤمنِينَ الَّذِينَ عَاشُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَأَدَّوْا مَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ نَافِعٍ، كُلِّ إِنْسَانٍ بِقَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ (وَأَلَيْمَكِنَّنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ) لِيُثَبِتَنَّ لَهُمْ دِينَ اللَّهِ الْخَالِصَ الْمَوْثِرَ الَّذِي ارْتِضَاهُ لَهُمْ، هُمْ أَهْلٌ لِأَنَّ يَجْمَعُوا إِلَى أَيْدِيهِمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَعًا، فَتَكُونُ لَهُمُ الْعِزَّةُ وَالنَّصْرَةُ وَيَكُونُ لَدِينِهِمُ الظُّفْرُ وَالتَّمَكُّينُ وَالتَّأَثِيرُ، كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/٤١، وَقَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون / ٨، وَهِيَ هَاتِيهَا أَنْ يَكُونَ لِإِنْسَانٍ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ مُتَذَبَذَبٌ يَرْكَبُ مَوْجَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَتَاجَرُ بِهِ! يَتَظَاهَرُ فِي دِينِهِ أَنْ يَقُومَ بِحُكْمِ اللَّهِ، إِنَّمَا التَّمَكُّينُ لَدَيْنَ اللَّهِ لَيْسَ لِهَذَا الْمُدَّعِي بِالْإِسْلَامِ، وَهِيَ هَاتِيهَا أَنْ يَقُومَ دِينَ الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحِ فِي مَجْتَمَعٍ مَرِيضٍ هَزِيلٍ!، يَدَّعِي الْإِسْلَامَ كَمَا مُسَجَّلٌ بِالهُوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَهِيَ هَاتِيهَا أَيْضًا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ فَاسِدَةٌ وَقَائِدُهَا صَالِحٌ، كَمَا لَا تَكُونُ أُمَّةٌ صَالِحَةٌ وَقَائِدُهَا فَاسِدًا!! فَالْحَاكِمُ مِنْ جِنْسِ الْمَحْكُومِ عَنِ النَّبِيِّ (ص) (كَمَا تَكُونُوا يُؤَلِّىٰ عَلَيْكُمْ) كَتَبَ الْعَمَالَ خَيْرَ ١٤٩٧٩، فِي غَرِّ الْحِكْمِ (مَنْ جَعَلَ مَلِكُهُ حَادِمًا دِينَهُ، إِنْ قَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، مَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمَلِكِهِ، طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ!) كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد / ١١ .

وَالدِّينَ الَّذِي ارْتِضَاهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ (الْإِسْلَامُ) دِينَ السَّلَامِ، وَالسَّلَامُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِ، وَالْإِسْلَامُ الَّذِي فِيهِ السَّلَامَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَالْكَرَامَةُ مِنْ دُونِ آيَةِ مَلَامَةٍ وَلَا نَدَامَةٍ، كَقَوْلِهِ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة / ٣ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران / ١٩ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران / ٨٥، فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، خُطْبَةٌ ١٩٨ (إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَأَصْطَفَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ، أَدَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ) فِي شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ٢٦١/٨، عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُتَنَافِسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا إِتِمَاسُ شَيْءٍ مِنْ فَضُولِ الْخَطَامِ، وَلَكِنَّ لِنَرْدِ الْمَعَالِمِ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنُ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامُ الْمُعْطَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ) (وَلْيَبْدَلْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) لَا يَخَافُونَ كَيْدَ مَنَافِقٍ وَلَا ظُلْمَ كَافِرٍ وَلَا سُلْطَةَ مُتَسَلِّطٍ، فَيَتَحَقَّقُ أَمْنُ الْمَجْتَمَعِ وَطَمَئِينَةُ الْقَلْبِ لِكُلِّ فَرْدٍ، كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قريش/٤، إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا يَكْسِبُهُ الْإِيمَانُ الْقَوِي لِأَهْلِهِ مِنْ عِزَّةٍ وَهَيْبَةٍ وَقُدْرَةٍ وَمَنْعَةٍ وَقُوَّةٍ (يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) عِبَادَةٌ خَالِصَةٌ لَا شَرِكَ فِيهَا وَلَا نِفَاقٌ، لَا فِي الْعَقِيدَةِ وَلَا فِي الْقَوْلِ وَلَا فِي الْعَمَلِ وَلَا فِي الدَّعَاءِ وَلَا فِي السَّرِّ وَلَا فِي الْعَلَانِيَةِ، وَأَنْهَمُ بِهَذَا الْإِيمَانِ الصَّادِقِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِقُلُوبٍ خَلِصَتْ مِنَ الْمَدَاهِنَةِ وَالتَّقَلُّبِ وَالتَّنَافِقِ وَالشَّرْكِ الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ، فَمَنْ أَطَاعَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَهُوَ فِي حُكْمِ الْمُشْرِكِ (بِلِسَانِ الْحَالِ قَبْلَ لِسَانِ الْمَقَالِ!)

عن الإمام الباقر (ع) (أَذَى الشِّرْكَ أَنْ يَبْتَدِعَ الرَّجُلُ رَأْيًا فَيُحِبُّ عَلَيْهِ وَيَبْغِضُ عَلَيْهِ) البحار ٣٠٢/٢، فلا يلتفتون إلى غير الله ولا يخافون غير الله (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ومن حدثته نفسه بالارتداد أو الكفر أو بالتسامح مع الإسلام أو الإعراض عنه واللامبالاة به والعودة إلى النفاق، بعد قيام الدولة الصالحة وسيطرة المؤمنين عليها، وبعد أن لبس المجتمع ثوب العزة والكرامة والاستقامة الإسلامية، فهو من الفاسقين أي الخارجين عن دينهم بإرادتهم إلى أفبح بدليل كقوله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة/٦٧ (وَمَنْ لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) (وَمَنْ كَفَرَ) سواء أكان كفر النعمة أي تغطيتها بعدم شكر الله المنعم، أو كان كفر عقيدة وكفر بالله بإنكار وجوده، فأولئك هم الفاسقون.

فائدة:

١- (أسباب النزول) لما هاجر الرسول (ص) والمسلمون إلى المدينة استقبلهم الأنصار بترحاب، ولكن الأعراب تحالفوا ضدهم، فكان المسلمون على حذر يبيتون ليلتهم والسلاح إلى جانبهم لا يفارقهم، لأنهم في حالة إنذار وتأهب كامل، وقد شق على المسلمين ذلك فقالوا إلى متى يدوم هذا؟ وهل يأتي زمان نستريح فيه ولا نخشى إلا الله فنزلت الآية تبشرهم.

٢ - (الاستخلاف في الأرض) لا يقصد بالأرض جميعها، بل مفهوم الأرض عام يطلق على الجزء ويطلق على الكل، كقوله (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) يوسف/٥٥، والأرض هنا خصوص أرض مصر، وقوله (لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) البقرة/١١، أي الأرض الخاصة التي يعيشون عليها، وهكذا وقوله (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) خلافة وحكومة السابقين لم تشمل الأرض كلها، أنها ليست مجرد الملك والحكم والغلبة، إنما هي هذا كله على أن لا يُقصد لذاته وإنما لغيره لشيء أهم منه، استخدمه لبناء الفرد والمجتمع وعمارة البلاد والنهضة الحضارية، مع تحقيق منهج الله الذي رسمه للبشرية كي تسير عليه، وتصل إلى الكمال الإنساني اللائق بها كخلفاء أكرمهم الله بالاستخلاف. ليقروا العدل الذي أَرَادَهُ اللهُ (وَالْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) وأن يجعل دينهم الخالص الذي ارتضى لهم ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر / ٣ والدين الخالص هو الذي يهيمن على الدين كله، وينتصر بالحجة والدليل والبرهان على كل النظريات الوضعية والأحزاب العلمانية والدول الكبرى في العالم كقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ في الحديث (لَا يَثُومُ بِدَيْنِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ) كنز العمال خير ٥٦١٢ ٣- من مصاديق هذا الاستخلاف في الأرض دولة الإمام المهدي (عج) الموعودة، كقوله ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأعراف / ١٢٨ وقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر/٥١ هذا الإمام الموعود بالاستخلاف، عن النبي (ص) (رجل من عترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً) نور الثقلين ٣ / ٦٢٠،

ملء الأرض قسطاً وعدلاً لا يعني خلو الأرض من المنحرفين، وإنما نشر عموم العدل يتم عبر حكومة عادلة يقودها المؤمنون الصالحون، بمهية القوة وقدرة العدالة والكفاءة والنزاهة، لا برهبتها! وبما أن الإنسان يعمل بجرية الاختيار، فإن مجال الانحراف موجود، ولكن العدل هو السائد.

والحكم الصادق هو القائد كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ النساء / ١٣٥ في غرر الحكم (الْعَدْلُ قَوَّامٌ الرَّعِيَّةِ وَجَمَالَ الْوَلَاةِ)، كما في دعاء الافتتاح (اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْعُبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةِ كَرِيحَةٍ تُعْرِضُ بِهَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلُهُ وَتُدِلُّ بِهَا التَّفَاقُقَ وَأَهْلُهُ وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ وَالْقَادَةَ إِلَى سَبِيلِكَ وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) عن الإمام زين العابدين (ع) أنه قرأ الآية وقال (هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منهم وهو مهدي هذه الأمة) وهذا يدل إن الإسلام دين المستقبل في العالم ولو كره الكافرون، ليثبت الله قدرته للناس، ويحقق وعده الأصيل الصادق ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١.

كقوله (وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ) وليثبتن لهم دينهم بالقوة والقدرة فلا ينفصل الدين عن السياسة، ديننا الإسلامي الأصيل عبادته سياسة، وسياسته عبادة لقوله (لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ ... يَعْبُدُونِي) يهدف الإسلام إلى توفير العبادة الخالصة لله في أجواء اجتماعية آمنة وقلوب مطمئنة، ٤- (آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ) من تبعيضية، بمعنى وَعَدَّ اللهُ تَعَالَى الْقُدُورَةَ الْمُمْكِنَةَ وَالْقِيَادَةَ الصَّالِحَةَ وَالْأَسُوءَ الْحَسَنَةَ (أَوْ) وَعَدَّ النَخْبَةَ الْمُمَيَّزَةَ الْعَامِلَةَ مِنَ الْأُمَّةِ الْهَادِيَةِ إِلَى مَنْهَجِ اللَّهِ، التي تعمل على ضوء ما تقول ولا يخالف قولها فعلها (وَلَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ) اللام في جواب ليستخلفنهم وما بعده لقسم محذوف، بمعنى وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم في الأرض ويجعلهم متصرفين فيها تصرف الراعي على الرعية من غير منازع مخيف، ٥- نعمة الاستخلاف تسبقها حالة استضعاف لإعداد المستخلفين وتربيتهم، ليكونوا مؤهلين بالكفاءة والنزاهة والقدرة والصلاح المناسب مع استخلافهم. كقوله ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ القصص / ٥-٦ انه قانون عام فاعل وسنة متحركة مؤثرة وليست حالة خاصة مؤقتة، بأن الله تعالى يُمُنُّ على كل قوم مستضعفين بالعزة والحرية والنصرة، إذا جاهدوا وصبروا واستماتوا وضحووا من أجل كرامتهم وأمن بلادهم، كما يمنُّ الله تعالى بالشفاء على المريض إذا شرب الدواء المناسب الشافي مؤمناً كان أو كافراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَاً كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الصف/٤ وحين تخلى المسلمون عن الإسلام وعن طاعة الله سقطوا في الخلافات وبالشتات وتخلَّى الله عنهم كقوله ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأعراف/١٨٦ وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام/١٥٩ عن النبي (ص) (مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِاطِلَافِهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) شرح النهج ٥ / ١٨١ عن الإمام علي (ع)

(أعطوا الله طاعتكم... وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْفُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَا يَنْفُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا) التفسير المبين ص ٤٦٧، في نهج البلاغة خطبة ١٤٤، ٦- لما استشار عمرُ الإمامَ علياً (ع) في غزوه الفرس بنفسه قال (ع) (إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِدْلَانُهُ بِكَثْرَةِ وَلَا قَلَّةِ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ وَجَنَدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ وَطَلَعَ حَيْثُمَا طَلَعَ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعِدٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...)

٥٦ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

عندما وعدهم الله بالاستخلاف والتمكين في الأرض، طلب من المؤمنين هذه التوصيات العبادية التربوية النموذجية لتكون هي العدة اللازمة للاستخلاف، قال (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) ولم يقل صلوا، بمعنى: أقيموا الصلاة بكامل أركانها وشروطها ومقدماتها وآدابها وروحها ظاهراً وباطناً، في مواقيتها المحددة في أوقات فضيلتها، ولا تضيعوها أو تتساهلوا فيها، حتى تنهاكم عن كل نقص، وتخلصكم من كل عيب وضعف وجهل، أقيموها كاملة بطهارتها وبخشوعها حتى تتحقق بذلك حكمتها وأثرها في النفس والشعور والسلوك كقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت / ٤٥ (وَآتُوا الزَّكَاةَ) وأدوا الزكاة المفروضة بتمامها وكما لها لمستحقيها. في الحديث (مَنْ لَمْ يَزُكَّ لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ) لعلاقة الصلاة بالزكاة على الدوام في القرآن الكريم، وهذا يدل على علاقة العبادات بالمعاملات، وعلاقة الأقوال بالأفعال، وعلاقة المساجد بالمجتمع، وعلاقة المدعيات بالمصاديق، (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وأطيعوا الرسول في سنته وسيرته فيما أمركم ونهاكم عنه، لعلَّ الله يجعلكم مؤهلين لرحمته جزاءً على ذلك، فيدخلهم برحمته في عباده الصالحين (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) في دنيا الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وترحمون في الآخرة من العذاب الأليم، فائدة: أفضل عدة في الحياة وأحسن زاد ليوم المعاد التقوى كقوله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة / ١٩٧ والاتصال بالله وتقويم القلب بإقامة الصلاة، وتطهير النفس من البخل بايتاء الزكاة على سعة معناها، في غرر الحكم (لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ) زكاة العلم إنفاقه، وزكاة الجاه الشفاعة وقضاء حاجة الناس، وزكاة العقل احتمال الجهال، وزكاة الصحة والقدرة السعي في طاعة الله وخدمة الناس (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) في الالتزام بالطاعات وترك النواهي. فإذا استقمتم على النهج المستقيم فتوكلوا على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران / ١٢٢ في غرر الحكم (أصلُ فُؤةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) فلا عليكم من قوة الكافرين فقال:

٥٧ - ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَمْرِ وَمَا أُوْهُمْ إِلَّا نَارٌ يَكْبَسُ الْمُصِيرُ﴾

العجز ضد القدرة، مُعْجِزِينَ : مانعين لإرادتنا، سابقين قدرة الله، وجاعلين الله (في قناعتهم) عاجزاً عن إدراكهم وإهلاكهم. فهو يعجز عن إحصاء جرائمهم وجمع قبائحهم لكثرتها، هكذا يفكرون

تفكير الجاهل الساذج، ويجدعون أنفسهم، المعنى: خطاب الآية للنبي (ص) ولكن أريد به عموم المعنى لكل المؤمنين في كل زمان ومكان، الآية تسلية للنبي (ص) ووعد له بالنصر أي (لا تَحْسَبَنَّ) لا تظنن يا مُحَمَّد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك (مُعْجِزِينَ) الله أي ما نعين لإرادتنا، فيمنعونه سبحانه بما عندهم من القدرة والقوة والأسلحة الفتاكة من أن ينجز وعده من سيطرة المؤمنين على الأرض، فليمض المؤمنون بالثبات على إيمانهم وإعدادهم القوة اللازمة، فإن هم صدقوا الله، صدق الله وعده لهم، والكافرون لا يدركون هذه الحقيقة اليقينية، قوله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ عَجَد / ١١، وأن الكافرين (مَاوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) مرجعهم جهنم وبئس المقر والمرجع الذي ينتهون إليه، وهو تهديد لهم وكذلك لكل مَنْ يبدُل نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا .

فائدة: ١- إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْزِمُ مِنْ طَلَبٍ، وَلَا يَفُوتُهُ مِنْ هَرَبٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَقَدْ أَهْمَلَ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلًا، وَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ غَفْرًا، وَإِنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْذَرًا! أما القلوب المؤمنة الكفووة ذات السرائر الصادقة والإرادات الصلبة، تجاهد في الله فيهديها الله سبلها اللازمة فتصنع الخوارق بإذن الله، كقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت / ٦٩، ٢ - سؤال: كيف يَعِدُ اللَّهُ تَعَالَى المؤمنين بحكم الأرض ولو كره الكافرون؟! الجواب: الآية كأنها تقول لا تكن في شك من هذا الوعد الصادق، فالمخالفون لا يستطيعون أن يعجزوا إرادة الله أو يمنعوا وعده في الاستخلاف، وسوف تقوم حكومة الحق خلافاً لظنون الكافرين! فإذا استقمتم على نهج الله الأصيل، فلا عليكم من قوة الكافرين فلن تقف لكم في الطريق، وأنتم أقوياء بإيمانكم وبنظامكم وبعدتكم الممكنة، وقد لا تكون في مثل عدتهم من الناحية المادية ولكن الله معكم، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فمن عليه، ومن كان الله عليه فمن معه؟ فعلينا التوكل على الله، والعمل اللازم، والتوكل على الله بمقدار الثقة به، عن الإمام الجواد (ع) (الثِّقَّةُ بِاللَّهِ تَعَالَى ثَمَّنْ لِكُلِّ غَالٍ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ غَالٍ) البحار ٣٦٤/٧٨، إنه ما من مرة سارت الأمة الإسلامية على منهج الله إلا تحقق وعد الله لها بالاستخلاف والتمكين والأمن، وما من أمة خالفت هذا النهج الأصيل إلا تخلفت وصارت في ذيل القافلة وأصابها الخوف والتمزق والذل، ألا وإن وَعَدَ اللَّهُ قَائِمًا، أَلَا وَإِنْ شَرَطَ اللَّهُ مَعْرُوفًا وَوَأَضَحَ، فَمَنْ شَاءَ الْوَعْدَ وَالِاسْتِخْلَافَ فَلْيُثْمِ بِالشَّرْطِ ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ التوبة/ ١١١

٥٨ - ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمُ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

لِيَسْتَأْذِنَكُمْ : الاستئذان طلب الإذن والرخصة فيه. مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ : العبيد والإماء (الجواري) ولا يوجد في زماننا ذلك والله الحمد، ولكن الحكم يشمل أيضاً الخدم من الذكور والأنثى، جاءت

هذه الآيات الثلاث (٥٨ - ٦٠) لتستكمل أداب المعاشرة والمخالطة في الأسرة وفي المجتمع الإسلامي كما في الآيات ٢٧ - ٢٩.

المعنى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) يا أيها المؤمنون الذين صدقوا وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً لسعادة الإنسان (لِيَسْتَأْذِنَكُمْ) وهو أمر مقترن بلام الأمر في الدخول عليكم العبيد والإماء (الجواري) الذين تملكونهم ملك يمين (أو) يستأذنكم الخدم البالغين من الذكور والإناث ستراً للعورات وحفظاً للحياء والحشمة والعفة، وسداً لمناهب الفتنة، (وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ) وليستأذنوا الأطفال المميزين ذكوراً وإناثاً، الذين لم يبلغوا الاحتلام ولم يصلوا مبلغ الرجال في الدخول في أماكنكم الخاصة، فإذا كان الأمر بالاستئذان للخدم والصغار فمن باب أولى يكون الاستئذان للكبار قبل الدخول عليكم في غرفكم الخاصة، ليستأذنكم (ثلاث مرات) في ثلاثة أوقات خاصة محددة يتهيأ الإنسان للراحة والخلو ١- (مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ) لأنه وقت القيام من فراشة، وخلع ثياب النوم والمنزل ولبس ثياب اليقظة، والاستعداد للصلاة والوضوء، ولأنه وقت تبديل ملابس النوم بملابس النهار والعمل والخروج .

٢ - (وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ) وليستأذنوا وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيولة والاستراحة، لقد اعتاد المسلمون سابقاً نوم القيولة في النهار بسبب نوحهم المبكر قبل صلاة الفجر لقيام الليل وفريضة الصبح وإنجاز الأعمال، ٣ - (وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) وليستأذنوا وقت إرادتكم النوم، حين تخلعون ثيابكم أيضاً وترتدون ثياب النوم أو إلى شأنكم الخاص، (ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) أي ثلاثة أوقات، أشبه بثلاث عورات لكم، عورات: كل شيء يستره الإنسان من أعضائه حياءً من الناس فهو عورة.

سمى الله سبحانه الأوقات الثلاثة المذكورة عورات، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه ويختل فيها ستره فتبدو عورته في الغالب، فتسمية الشيء باسم ما يقع فيه مبالغة في الحذر منه! وعناية في الستر، فَعَلِمُوا خَدَمَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ (أَوْغِيهَا) إلا بعد الاستئذان، حتى لا يفاجئوكم وأنتم في حال لا تحبون أن يروكم عليها، (لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) الجُنَاح: الإثم والجرم، أي ليس عليكم ولا على المماليك والخدم والصبيان حَرَجٌ في الدخول عليكم بغير استئذانٍ قبل بلوغهم بعد هذه الأوقات الخاصة الثلاثة، لأن كثرة الاستئذان في جميع الأوقات تعمل حرجاً وتقيداً للنفوس، وضغط على الحريات التي ترفضه الشريعة وتُعفي أتباعها منه، أما من بلغ الحُلُم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ) طَوَّافُونَ: كثيرون المرور، يترددون بعضكم على بعض، يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل لخدمتكم بغير إذن، إلا في تلك الأوقات الخاصة في العورات الثلاث (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

(الآيات) قبل ذلك التوضيح والبيان يبين الله لكم الأحكام الشرعية لتستقيموا عليها وتتأدبوا بها (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (عَلِيمٌ) محيط وعالم بأمور خَلْقِهِ وبما يصلحهم (حَكِيمٌ) في تدبيره لهم. فائدة: ١- في الآية إشارة إلى أن المخالطة الجائزة شَرَعَ لها أحكاماً خاصة، كالضرورات تبيح المحضورات، وتشير الآية أيضاً إلى خطورة التعرّي وانكشاف العورات لمنع الفساد والتحلل الإجتماعي، وهو أدبٌ إسلامي رفيع يغفل عنه الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخُلُقِيَّة، لذلك سُمِّيت العورة باللغة بالسوءة لأنها تسوء الإنسان سليم الفطرة عند انكشافها للناس! عن النبي(ص) (إِيَّاكُمْ أَنْ يُجَامَعَ الرَّجُلُ أُمَّرَأَتَهُ وَالصَّبِيُّ فِي الْمَهْدِ (الْفَرَّاشِ) يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا!) البحار ١٠٣ / ٢٩٥ .

٥٩ - ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف شملهم حكم الاستئذان (فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) فعلموهم الأدب الإسلامي السامي، أن يستأذِنوا في الدخول الخاص في الأوقات الثلاثة المذكورة كما يستأذن الرجال البالغون (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ) كذلك يفصل الله لكم أمور الشريعة والدين الحنيف (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (عَلِيمٌ) بخلقه (حَكِيمٌ) في تشريعه، وكرره تأكيداً في الأمر، ومبالغة بالاستئذان، فائدة: ١- الآية في آداب الاستئذان راجع النور/٢٧، فإن الاستئذان يدعو إلى الستر الجميل التعفف الجليل والحياء الكريم، وذلك لا يكون إلا في مجتمع كُمَلَّتْ إنسانيته وِرَقَّتْ مشاعره، فعرف قدر نفسه ولم يتعدَّ طورها وآدابها وأعطى لكرامته حقّها. إنّ الحياء هو لباس الإنسانية التي جمّلها الله تعالى به، فصار الحياء من الدين في غرر الحكم (عَلَى قَدْرِ الْحَيَاءِ تَكُونُ الْعِفَّةُ) وفيه أيضاً (وَلَا حَيَاءَ لِمَنْ لَا دِينَ لَهُ) (وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ) عن النبي(ص) (مَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ) كثر العمال خير ٥٧٧٧ .

لذلك أول ما ﴿عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ طه/١٢١ أول ما عصى آدم ظهرت عورته، فصارت هناك علاقة بين المعصية وإظهار العورة، وصار ستر العورة أول طريق الصيانة والحصانة والعفة والحياء والتسامي عن عالم الحيوان، فأين هذا الأدب الرفيع من تلك الحياة البهيمية التي تعيش فيها أمم كثيرة تُعَدُّ في نظر بعض الناس، قائمة على قِمَّةِ الرُّقِي والتقدّم، وبيدها زمام الحداثة والتطوّر الحضاري؟! ولم يلتفتوا إلى أزماهم النفسية المستعصية، وأمراض الكآبة التي تفتك بهم والتفكك الاجتماعي والأسري الذي يُمزّق وحدتهم، فما الفائدة أن أملك كل شيء وأخسر أهم شيء، وهي نفسي؟! كقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ طه / ١٢٤ الضنك: الضيق

المعنوي، وأزمات النفس وقلق الاعتقاد وخلل التصوّر والقناعات، ولكن أين جمال هذه العفة وستر العورة في القرآن الكريم من أندية العرا والهبوط إلى لَدَتي البطن والفرج، وبذلك يشترك العراة مع الحيوانات، ولكن الحيوانات تتسامى عن تشريع (الزواج المثلي) الزواج المشبوه الشاذ القدر التي ترفضه الطبيعة البشرية السويّة والذي يُشرّع في بلدان التي تدّعي الحضارة والتقدم!!، إذاً: العري والزواج المثلي فوضى، والعجيب أن يكون للفوضى الرعناء نظام، كالفوضى الخِلافة المُدَمِّرة كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدَآءُ﴾ [الحج/١٧] وقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء/٢١٣].

٦٠ - ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ وَإِنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وَالْقَوَاعِدُ: واحداها قاعدة وهي العجوز اليائسة من الحيض والزواج والأولاد، لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً: لا يطمع في زواجهن أحدٌ لكبرهن، ولا يطمع في نكاح وزواج لأنهن ﴿يَتَسَنَّ مِنَ الْحَيْضِ﴾ [الطلاق / ٤]، المعنى: والنساء العجائز اللواتي لا يطمعن في زواج لكبرهن، ولفقدن كل جاذبية أنثوية، ولانعدام دوافع الشهوة والحيض والحمل فيهن (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) لا حرج ولا إثم عليهن في أن يضعن ويخفن بعض ثيابهن الظاهرية كالجلباب والعباءة وغطاء الشعر على أن لا يقصدن بذلك إظهار زينتهن ومحاسنهن للرجال لينظروا إليهن، وإن لم يكن ذلك أهلاً، أي يجوز لهن عدم تغطية الشعر والرقبة والوجه فهو رخصة من الله، ويظهرن بلباس محتشم، وهذا معنى (غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) قيد للإذن والرخصة الشرعية، وحقيقة التبرج: إظهار المحاسن والمفاتن المثيرة للشهوة، وهو ما يجب إخفاؤه لأنه بإظهاره يعمل فتنة ويثير شهوة (وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) العفاف: تهذيب النفس عن عاداتها السيئة وتزكيتها عن شهواتها المحرّمة، أي وأن يستترن بارتداء الحجاب والتعفف والحشمة، وإن لا يخلعن ثيابهن الخارجية أمام الأجانب حتى الظاهر منها، ويبقين على كامل حجابهن كبقية النساء، وإن جاز لها ذلك، مبالغة في التستر والتعفف وهذا (خَيْرٌ لَهُنَّ) وأزكى لنفوسهن وأفضل عند الله وأظهر عند الناس، لأن العفة زينة الجمال، في غرر الحكم (الْعَفَافُ: يَصُونُ النَّفْسَ وَيُنْزِئُهَا عَنِ الدَّنَائِيَا) (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) والله (سَمِيعٌ) لكل ما يقبله (عَلِيمٌ) بخفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله. فائدة: ١- في الحديث (دَعُ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَدَرًا مِمَّا بِهِ الْبَأْسُ) وَلِيَحْدَرْنَ من سوء التصرف في هذه الرخصة ولا يتجاوزن الحدود ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق/١] في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ امْرِئًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَمَ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ)، ٢ - الحجاب حكم شرعي ضروري، فيجب أن يحقق لباس الحشمة والعفة والوقار ويتعد في فضاله (وموديلاته الحديثة) عن الفتنة والإثارة، لذلك قال (وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) وسمى الحشمة استعفافاً، أي طلباً للعفة والتستر والحجاب وإيثاراً لها، لما بين التبرج والفتنة من صلة، وبين الحجاب والعفة من صلة.

٦١ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

حَرْجٌ : ضيق أو إثم، أي ليس على هؤلاء الثلاثة من أهل الأعذار أو ذوي العاهات من إثم في ترك الجهاد لعذرهم وضعفهم وعجزهم كقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ التوبة / ٩١، عن ابن عباس : إنَّ المراد من الحرج المنفي في الآية الحرج في الأكل مع الأصحاء على مائدة واحدة، ورفع الإسلام الحرج عن هذا الذي كان موجوداً في الجاهلية. سبب النزول: أنه لما نزل قوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ البقرة / ١٨٨، تَحَرَّجَ المسلمون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يبصر، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض لأنه لا يستطيع أن يأكل ما يشتهي، ويقولون لعلهم يتأذون إذا أكلنا مع الأصحاء فأنزل الله هذه الآية، فيكون المعنى: ليس على ذوي العاهات من إثم، أن يأكلوا مع الأصحاء مجتمعين أو متفرقين مع مراعاة أعذارهم، وهي دعوة إلى البر والتواد والحب وتقوية الروابط بين المسلمين عامة، وبين الأهل والأقارب خاصة (وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) ولا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم وأولادكم، وهؤلاء كأنفسكم لقوة العلاقة، لأن الولد امتداد للوالد فهو من نفسه، والأزواج من نفس واحدة وشركاء في الحياة، عن النبي (ص) (إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الْمَرْءُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ) جمع البيان ٧ / ٢٩٢. (أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ) أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب بدون استئذان لطيب نفوسهم من يدخل عليهم من الأقارب، وكأنهم جميعاً أبناء أسرة واحدة ولم تذكر الآية شيئاً عن الأبناء، لأن بيوت الأبناء هي بيوت الآباء، فمن أكل في بيت ولدك كأنك تأكل في بيتك (أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ) البيوت أو المخازن أو المحلات وغيرها التي توكلون عليها، وتملكون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها، فيكون لكم القدرة على التصرف المناسب بالولاية أو الوصاية أو الوكالة، والوكيل كالأصيل، فلا حرج أن تأكلوا منها، ولكن لا يُحْمَل ولا يَدَّخِر، وهذا إذا لم يجعل له أجراً على ذلك، فإن جعل له أجراً فلا يحل له أكل شيء منها إلا بإذن. (أَوْ صَدِيقِكُمْ) فلا حرج أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم، الذين يصدقونكم المودة وتصدقونهم العلاقة (صَدِيقِكُمْ مَنْ صَدَّقَكَ لَا مَنْ صَدَّقَكَ) سواء أحضروا أم لم يحضروا إذا

علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بتلميح أو بالقرينة. وإنما خصّ هؤلاء بالذكر لأن الرضا فيهم محقق غالباً في غرر الحكم (من عظم حرمة الصديق إن جعله الله تعالى من الأنس والثقة واللبسائط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ)

في غرر الحكم (الصديق أقرب الأقارب)

وفيه أيضاً (الأصدقاء نفس واحدة في جسوم متفرقة) (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا منها بالمعروف دون إسراف (جميعاً) مجتمعين مع أصحاب البيوت، أو (أشتاتاً) أو غير مجتمعين معهم إلا إذا علم عدم الرضا من أصحابها، عن النبي (ص) (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه) جمع البيان ٧ / ٢٩٢، على قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)، والمأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً!

(فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم) فإذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت فسلّموا على أهلها، أي فليسلم بعضهم على بعض. لأنهم من أنفسكم كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الأنعام / ٩٨ هم مؤتمنون على الأعراس والأموال والأنفس وكل نفيس كقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النساء / ٢٩ في غرر الحكم (المؤمن من طهر قلبه من الريبة) لأن المؤمنين كأنهم شخص واحد في حصن حصين أمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، وهي استعارة بلاغية لطيفة شفاقة محببة تدخل إلى المشاعر بلا استئذان، تبين عن قوة الرابطة بين الأقرباء المذكورين في الآية، فالذي يسلم منهم على قريبه أو صديقه كأنه يسلم على نفسه، كما نقول في الصلاة نسلم على أنفسنا (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، التحية التي يليقها عليه هي تحية من عند الله ذات الروح الشفاقة المحبة، وتفوح منها عطر المودة والرحمة وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

(تحية من عند الله مباركة طيبة) من آداب التحية في الإسلام، حيّوهم بتحية الإسلام (السلام عليكم) وهي تحية أهل الجنة ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ إبراهيم / ٢٣ ليتحاب بها المسلمون لأنها تحية مباركة طيبة، وصف التحية بـ(مباركة) ذات خير كثير وبار، وفيها التأثير المعنوي على النفوس والمشاعر، لأن فيها الدعاء الخالص بالسلامة والأمان، واستجلاب المحبة والمودة، ووصفها بـ(طيبة) لأن سامعها يستطيعها ويرتاح لها، لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر / ١٠، (كذلك يبين الله لكم الآيات) وهكذا يفصل الله لكم معالم دينكم، كما فصل لكم هذه الآية ما أحل لكم فيها (لعلكم تعقلون) تفهمون الحكمة والهدف من تشريعها، وتعملون على تحقيقه ونشره بشتى الوسائل، وبهذا تفوزون بسعادة الدارين فائدة: ١- (فسلّموا على أنفسكم) إشارة إلى أن الذي يدخل هذه البيوت هو بعض من فيها، وصار من أهلها، وصار أهلها منه، فهم كالنفس الواحدة، وهكذا يصبح بيت كل مسلم

كالأنواني المستطرقة تتعدد أشكالها وتتساوى أحجامها وتتوحد أهدافها وإن اختلفت الوسائل، عن النبي (ص) (المُسَلِّمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدُ عَلِيٍّ مِنْ سِوَاهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُرْذُ عَلَيْهِمْ أَفْصَاهُمْ) كنز العمال خير ٤٤٤، عن الإمام الباقر (ع) ((فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ)) هُوَ تَسْلِيمُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ حِينَ يَدْخُلُ، ثُمَّ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَهُوَ سَلَامُكُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ)) وهذه من العوامل المهمة في تقوية الترابط الاجتماعي وتأليف القلوب، كما آلف النبي بين المسلمين، وآلف عليٌّ مع نفسه، فقال (ص) (عليٌّ مَيِّ بِمَنْزِلَةِ رَأْسِي مِنْ بَدَنِي) تاريخ دمشق لابن عساکر ٣٧٥/٢.

عن النبي (ص) (خياركم أحسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون) البحار ٧٧ / ١٤٩ .

٦٢ - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْوَالِدِينَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الآية تتضمن الآداب النفسية والأخلاقية والتنظيمية بين الجماهير العامة وقائدهم، المعنى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) الحقيقيون (الَّذِينَ آمَنُوا) صدّقوا الله ورسوله بكل إيمان وإيقان وإخلاص في جميع الحالات والصعوبات والمعاناة، وبلا شك ولا شبهة ولا تقلب ولا تذبذب (وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ) أمرٍ جامعٍ: أمر مهم يهم المجتمع الإسلامي عامة ليوأجوهو مجتمعين، ويقتضي اجتماع الناس عليه ويتعاونوا على إنجازه من أهل الخبرة والتجربة كقوله ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿ المائدة/ ٢ (أي) من علامات صدقهم أنهم إذا كانوا معه (ص) مشتغلين بأمر يهيم المجتمع الإسلامي ومن الضروري اجتماع الناس عليه كصلاة الجمعة أو حضور مجلس شورى، أو حلّ مشكلة خطيرة، أو استنهاض إلى جهاد في سبيل الله... وغيرها، لم يذهبوا من حضرته حتى يستأذنه (لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) ثم يأذن لهم الرسول (ص) كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام، (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) هذا تأكيد لما تقدم ذكره تعظيماً لشأن الرسول (ص) أي: إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً المؤدّبون بأداب الإسلام، وهم المضطرون حقاً (فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض مهماتهم الضرورية الخاصة (فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) فاسمح لمن شئت بالانصراف لضرورة خاصة (وَالضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْضُورَاتُ) والضرورات تقدر بقدرها، أن كان فيها حكمة أو مصلحة (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ) وادعُ الله لهم بالعمو والمغفرة تطيباً لنفوسهم ورحمة بهم، فإن الاستئذان ولو لعذر فهو قصور أو تقصير، وتقديم المهم على الأهم، لأنه تقديم أمر الدنيا على أمر الدين (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (غفور) عظيم العفو (رَحِيمٌ) واسع الرحمة بالمؤمنين.

فائدة:

١- أسباب النزول: نزلت في حنظلة أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد، فاستأذن رسول الله (ص) أن يقيم عند أهله فانزل الله (فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب، فحضر القتال واستشهد في سبيل الله، فقال النبي (ص) رأيت الملائكة تُعَسِّلُ حنظلة بماء المُزْنِ (السحاب) في صحائف فضة بين السماء والأرض، فسمي حنظلة غَسِيلُ الملائكة! (وقيل) نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله (ص) لأمر يستدعي التجمع والتعاون على انجازه، تراهم يتفرقون بغير إذنه، فنهاهم الله عزوجل عن ذلك، وأوجب الاستئذان من النبي (ص) قبل الإنصراف، والذي لا يستأذن أو يتعلل بالأعذار الكاذبة فهو أبعد الناس عن الإيمان وتزعم ثقة الناس به. وهذا الانقياد والانضباط يجب مع كل إمام وقائد وحاكم يتولى نصرة حقوق أمته وينصح لها بإخلاص، ويُعدُّ استئذان القائد دليلاً على الأدب والتسليم والإيمان بالقضية التي يدافع عنها، كي لا يصبح الأمر فوضى بلا نظام، وقد جاءت الآية تعاتب النبي (ص) على الإذن للمنافقين من قبل كقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ التوبة/٤٣ .

٦٣ - ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَاءَ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرٍ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
في الآية لفظة أخلاقية اجتماعية ضرورية عالية المضامين، وأدب حركي تربوي مُهَدَّبٌ للنفوس، ولكنه أدب مُقَيَّدٌ بضوابط شديدة (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) أنه لا بد للقائد الكفو من هيبة ووقار واحترام وعدم تجاوز حدود الأدب معه، حتى تستشعر هيبة مقامه وتوقير كل كلمة منه وكل أمر وتوجيه، (دُعَاءَ الرَّسُولِ): دعوة الرسول أو نداءه، الأمر الذي يحمل دعوة مهمة التي تحمل أمراً ونداءً بالغ الأهمية، ودعوة الرسول (ص) واجبة الاستجابة كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب/٣٦ ولا يأمر الرسول إلا بالخير كقوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال/٢٤، المعنى: (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ) أي لا تجعلوا دعوة الرسول للمسلمين لأمر من الأمور المهمة كدعوتهم للتجمع أو للقتال، أو دعاء الرسول: أي نداء الرسول، لا تنادوا (أيها المؤمنون) الرسول باسمه (يا مُحَمَّد) أو يا أبا القاسم كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به، بل نادوه بلقبه ووسامه يا نبي الله ويا رسول الله، تفخيماً لمقامه وإجلالاً لدوره وتعظيماً لشأنه ومسؤوليته، مع تواضع وخفض صوت (أو) بمعنى: لا تجعلوا نداء الرسول (ص) لكم واستدعائه إياكم كاستدعاء بعضكم بعضاً، فإن المبادرة في تلبية دعوته واجبة، والانصراف من حضرته بدون إذن منه حرام وسوء أدب، خلافاً لدعوة بعضكم بعضاً، احذروا من خطورة هذا التصرف.

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَاءً) وهو تعبير بليغ يُصوِّر حالة الانهماج، وحركة التخلي والتسلل بحذر والخروج من مجلس الرسول (ص)، ويتمثل فيها الجبن والجهل والتخاذل عن المواجهة،

وحقارة الحركة الخائنة، والتعامل غير المؤدب، والشعور المتقلّب والموقف المتذبذب، المستمر المصاحب لها في النفوس، **يَتَسَلَّلُونَ**: يخرجون بحفّةٍ وحفِيّةٍ وحيلةٍ مِنْ تَسَلَّلٍ وَأَسَلٍّ، **لِوَاذًا**: يلوذ (يستتر) بعضهم ببعض ليخرج بسببه، أو بشيء يستتر به مخافة أن يراه الرسول (ص)، **(قَدْ)** هنا للتحقيق والتوكيد، أي قد يعلم الله الذين ينسحبون قليلاً قليلاً من مجلس الرسول (ص) من دون إلفات نظر، بجرعة خائنة جبانة وخبيثة ولثيمة، ويخرجون من الجماعة في حَفِيّةٍ وَحِفّةٍ وَحِيلَةٍ، يستتر بعضهم ببعض فينصرفون فلا يبالون بدعوة الرسول (ص) للجهاد ونحوه من الأمور التي تهم المسلمين جميعهم.

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) إنه لتحذير مرهوب يزلزل القلوب، **يُخَالِفُونَ**: يعرضون أو يخرجون أو يعصون. أي فليخف الله ويتقه الذين يعصون أمر رسول الله ويتركون سبيله وهداه ومنهجه وسنته، هذا تهديد ووعيد عام للطغاة والعصاة أينما كانوا **(أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** أن تنزل بهم **(فِتْنَةٌ)** مصيبة ومحنة ومشاكل في الدنيا من المخبّاة والمفاجأة، كتسليط عليهم سلطان جائر أو تشعل بينهم حرب أهلية تطحنهم وتبيدهم، أو خلق فتن بينهم يكون الحليم فيهم حيران، تنقلب فيها الموازين فيختلط الحق بالباطل والطيب بالخبيث، وتفسد حياة المجتمع، فلا يأمن على نفسه أحداً! أو يناهم عذاب شديد في الآخرة، **(الْفِتْنَةُ)** من معانيها: إسباغ النعم من دون تقدير لها وشكر منعمها فهو **(استدراج)** إلى الهاوية من حيث لا يعلم **كقوله ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ الأنعام/٦٥**

فائدة: ١- من موجبات الفتنة: كثرة المال، وترحيب الجماهير، وصحبة الأثرياء والبخلاء، والتردد على أبواب الملوك الطغاة، أو طلب المناصب وحبّ الزعامات، فإن الاشتغال بما سوى الله فتنة، في غرر الحكم **(مَنْ إِشْتَعَلَ بِغَيْرِ الْمَهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال / ٢٥، ٢ -** في الآية بيان توقيف واحترام معلّم العلوم بالخير، لأن الرسول (ص) كان معلّم أنواع العلوم بالخيرات وهو قدوة صالحة، وأسوة حسنة وقائد المسلمين، فأمر الله بتوقيفه وتعظيمه، وفيه معرفة حق الأستاذ، وأهل الفضل والعلم والقيادة في غرر الحكم **(ما أَخَذَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْجَاهِلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُعَلَّمَ).**

٦٤ - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أُنْتَدَى عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(ألا) أداة تنبيه لشيء مهم بعدها، أي إنّ لله كل **(مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)** فهو يملكها ويخلقها ويدبّر أمرها ويقدر وجودها، فهو غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تُضره معصية من

عصاه (قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) قد يعلم حقيقة ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق، ويعلم حاجتكم فَيُشْرِعْ لكم ما تحتاجون إليه، و(قد) هنا للتحقيق والتوكيد (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) ويوم القيامة يرجعون إليه رجعة مؤكدة تحقق عدالة الله، فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغائر الذنوب وكبائرها ويجازي كلاً بعمله، لا يشغله سمع عن سمع، ولا بصر عن بصر، فهو محيط بكل شيء إحاطة تامة كقوله ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الرعد/٣٣ وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لا يخفى على الله خافية لأنه رقيب على كل شيء، وقريب منه ومسيطر عليه ومحصي وجوده وحركاته ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف / ٤٩ كقوله ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء/١٤ . فائدة: يؤكد القرآن حقيقة يوم القيامة ويكررها لأنه من أصدق الحقائق، ومن أقوى البديهيات، يوم يقره العقل السليم، ويثبته الدليل، وينطق به الواقع، ويصدقه العلم الحديث، وتؤيده النصوص الكثيرة العقلية والنقلية، من الأديان المختلفة، ولا سيما من القرآن والسنة، ولا تنكره الحجج والبراهين، فصار (يوم القيامة ميزان دقيق: فمن وَفَىٰ، استوفى)!

وَأَخِرُ دَعْوَانَا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

وفي الختام نقول : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر / ١٧

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُيَسَّرِ) لسورة النور ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتُدفع النقمات ، بتاريخ ٥/٦/٢٠١٨ م ، الموافق ٢/جمادي الآخرة/١٤٣٩هـ مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها ، في بغداد ، الكاظمية ، داعين الله عزوجل أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إن ربي سميع مجيب الدعاء .

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة:

مكّية، تعنى بشؤون العقيدة، تعالج شبهات المشركين، تثبت صدق القرآن وصحة الإسلام، وجمال عقيدة الإيمان بالبعث والنشور وأن المعاد المبدأ الأساسي الذي جاءت به الأديان كلها، والمعاد يعطي للحياة معناها ويبيّن فلسفتها ويحلّل لغزها ! ويبيّن ضرورة الدين في حياة الإنسان، وفيها بعض القصص للعظة، وتحدثت عن قدرة الله ووحدانيته وعجائب صنعه وآثار قدرته، وذكرت صفات عباد الرحمن المميزة سُمّيت بالفرقان، لأنها تفرق بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر

والإيمان، وهكذا القرآن فرقان يفرّق بين كل صحيح وخطأ في أمور الدنيا والآخرة، والحق والباطل، رقمها ٢٥ / عدد آياتها ٧٧ / الجزء الثامن عشر (فضلها): عن النبي (ص): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يُؤْمِنُ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَأَرْيَبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ) مجمع البيان ٧ ص ٢٩٧، ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

وسمّى الله القرآن **الْفُرْقَانَ**: ذو دلالة واسعة، فهو يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والصحيح والخطأ، بما فيه من تفرقة بين نصح معين في الحياة ونهج آخر، فيكون القرآن كالفلتر أو المصفاة التي تصفّي الهواء، والقرآن الذي يصفّي الأفكار والعقائد والقناعات الدخيلة على الإسلام ويبيّن انحرافاتهما عنه، لأن القرآن الثابت الذي لم يطرأ عليه تغيير وكل ما دونه يخضع للتغيير والتبديل كقوله (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢. **المعنى**: تبارك: من البركة، فعل ماضٍ ويختص بالله وحده ومعناه الرفعة والبركة، أي تنزه الله وتعالى وتقدّس وتعظّم في ذاته وصفاته وعظمت بركاته، وتكاثر ودام خير الله وبركاته الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل القرآن الكريم فرقاناً الذي يفرّق بين الهدى والضلال والخير والشر والحلال والحرام، ويميز بين كل ضدين (على عبده) **مُحَمَّدٍ (ص)** والوصف بالعبودية في هذا الموضع له دلالاته التربوية على رفعة هذا المقام، وأنه أرفع ما يرفع إليه بشر من بني الإنسان، كما أن فيه تذكيراً خفياً بأنّ مقام البشرية حين يبلغ مداه في التسامي لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله تعالى ويبقى مقام الإلهية منفرداً لله جلّ جلاله، وقدم صفة العبودية على صفة الرسول أو النبي لأنه على قدر العبودية تكون منزلة الرسول أو النبي، والعبودية لله أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من البشر، على قدر العبودية تكون الرحمة ويكون رضا الله، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَايِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلٌ لِلْعِتْقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أُصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ!، ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده.

(لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) ليكون الفرقان (القرآن) ومُحَمَّدٌ نبياً منذراً عالمياً لجميع البشر في العالم، ومخوّفاً من أهوال يوم القيامة، وهذا النص القرآني مكّيّ وله دلالاته الحركية الواسعة على إثبات عالمية هذه الرسالة الخاتمة منذ أيامها الأولى ووسائلها وسائل إنسانية كاملة، والرسول (ص) يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود، وتبقى رسالته عالمية وإلى يوم يعثون، لأنها انطلقت رسالة خاتمية عالمية شاملة، فعلياً أن نستوعب القرآن عالمياً، ونعلّمه عالمياً، ويبقى تأثيره عالمياً، لأنه

حجة على الناس أجمعين فيكون الرب (رَبُّ الْعَالَمِينَ) الحمد/٢، والرسول (رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧، والرسالة، القرآن الدستور (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) التكويد/٢٧، وليكون (ص) في تلك الظروف الجاهلية الصعبة منذراً لجميع الناس ويخوفهم عاقبة تماديهم في الضلال والفساد، فهل فوق هذه النعمة والإحسان شيء؟

فائدة: ١- كان النزول في صيغة (أنزل) نزول القرآن دفعة واحدة (كاملاً) في ليلة القدر (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) القدر/١، أمّا إذا كان في صيغة (نزل) النزول التدريجي بحسب حركة الواقع، وقد نزل القرآن على الشكلين، ٢- ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير مع أن الرسول مرسل بهما، لأن السورة بصدد بيان حال المعاندين المتخذين لله ولداً، والطاعين في كتبه ورسله واليوم الآخر، فتناسب معهم الإنذار. عن النبي (ص) (أُرْسِلْتُ لِلْخَلْقِ كَافَّةً) روح البيان/٦/١٨٨، كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) سبأ/٢٨.

٢ - ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَم يَتَخَذُ وَكُلاًّ وَكَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾
وصف الله نفسه الزكية بأربع صفات مميزة ذات رفعة وكبرياء. ١- (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ملك: ومالك، وله السلطان القاهر عليهما وله القدرة التامة فيهما، وكل المخلوقات مفتقرة إليه في كل شيء.

كقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر/١٥، ٢- (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً) وليس له ولد كما زعم اليهود (عَزَّيْزٌ ابْنُ اللَّهِ) وزعم النصارى (الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) وعزير والمسيح مملوكان لله، والمملوك لا يكون شريكاً للمالك ولا ولداً له، ٣- (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) وليس معه إله وليس له شريك في سلطانه لأنه مالك غير مملوك، وهو الغني بذاته والمغني لغيره، فأفردوا له العبادة وأخلصوا الدين لله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، ٤- (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) أوجد كل شيء بأسبابه ومقاديره المقدرة وبقدرته المدبرة، مع الإتقان والإحكام لما يصلح له في دنياه وآخرته، والتقدير: عبارة عن إتقان الصنعة، وتخصيص كل مخلوق ما يليق به بمقداره وقدرته وحجمه وشكله وصنعتة وطريقة عيشه، وزمانه ومكانه ومصالحته وأجله وغيرها، فخلقه منظم، ودبره تديراً وأعطاه القدر الذي يناسبه ليتلاءم مع وجوده ومع جميع أجزاء الوجود المرتبطة به ولا يشذ عنه، ومنحه الخصائص الضرورية اللازمة لديمومة وجوده وبقاء حياته، ومعنى التقدير: المقدار المنظم والتخطيط لهدف سام معين كقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) الرعد/٨، عن الإمام علي (ع): (ع) والله سبحانه (قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ، وَوَجَّهَهُ لَوَجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ) نهج البلاغة خطبة/٨٩، (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) الأحزاب/٣٨، التقدير والمقدار دلالة على التدبير والتنظيم، في مخلوقات الله العجيبة الظاهرة

والخفية، عرفها الإنسان أو لم يعرفها، فكل تقدير يدلّ على المقدر، وكل تدبير يدلّ على المدبّر، وكل تنظيم يدلّ على المنظم.

٣ - ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَآيِحْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُحْلِقُونَ وَكَأَنَّهُمْ يُنْفِثُونَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَكَأَنَّهُمْ يُخْلِقُونَ مَوْتًا وَكَأَنَّهُمْ يُحْيَوْنَ﴾

أول دليل على سفه المشركين ونقص عقولهم، مع كمال قدرته سبحانه هذه وجمال ملكه هذا، أن اتخذوا آلهة وأرباباً غير الله تعالى من الأوثان والأصنام الحجرية والبشرية يعبدونها من دون الله تعالى، واكتسبوا القناعات الفكرية المتكلسة الجاهلية المتخلفة، وأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا! وبلغ من عجزها أنها لا تقدر على فعل شيء، وخلق شيء وهم مخلوقون (لَا يُخْلِقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ) فكيف يكونون آله مع الله؟ (وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) لا يستطيعون دفع ضرر عنهم ولا جلب نفع لهم (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا) لا تملك أن تمت أحد ولا أن تدفع الموت عنه، (وَلَا حَيَاةً) ولا أن تحيي أحداً أو تهب الحياة لأحد أو تسلبها عنه، (وَلَا نُشُورًا).

ولا أن تبعث أحداً من الأموات حياً بعد موته، فيجازهه على أعماله، يحكم العقل ببطلان إلهيتها وفسادها، وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق. سئل رسول الله (ص) أي الذنب أكبر؟ قال (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا وَهُوَ خَلَقَكَ) وفي الحديث (كَلَّ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَمْتُكَ!) فائدة: تشير الآية إلى خطورة العبادة من دون الله، كعبادة الحكام والظالمين والأثرياء وغيرهم فانهم ليسوا قادرين على إحياء القلوب بالاطمئنان، قد يعطونهم الأمان والأمن ولكن يعجزون عن إعطائهم الاطمئنان، لأن اطمئنان القلوب يحصل بذكر الله كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨، فليحذر العاقل من اتخاذ أهل الأنا والهوى واللغو أتباعاً في غرر الحكم: (الهوى إله مَعْبُودٌ)، فإن الموت الأكبر هو الاتباع الأعمى للآخرين، على الجهل والخوف والعرف الفاسد، فمن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ عَرَفَ دِينَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي أَمْرِ بِجَهْلٍ (تَصَرَّفَ بِجَهْلٍ) وَخَرَجَ مِنْهُ بِجَهْلٍ!) البحار ١٠٣/٢، وعنه (ع) (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أُدْخِلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار ١٠٥/٢.

٤ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾

إِفْكٌ افْتَرَاهُ: كذب اختلقه وألفه من تلقاء نفسه، والإفك: كل مصروف عن الحق، المعنى: وقال كفار قريش ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه افتعله وألفه مُجَدِّد من تلقاء نفسه وافتراه على الله (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) وساعده على هذا الاختلاق قوم آخرون من أهل الكتاب، مما موجود في كتبهم (فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) فقد وضعوا الأشياء في غير مواضعها وكذبوا على ربهم،

فجمعوا بين الظلم والزور، فما أجهلهم! جاؤوا بالظلم والبهتان زوراً وكذباً وباطلاً، حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي (غير العربي) كلاماً عربياً بليغاً دقيقاً، عجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم بلا دليل، فيه محض كذب وزور، لأنه لو كان كلامهم حقاً لاستطاعوا هم أن يأتوا بمثل هذا القرآن البلاغي المعجز أو بسورة قصيرة واحدة، بالاستعانة بكبار علماء أهل الكتاب، لقد ضاقت قوى الشر بمحمد والقرآن، ولم تجد سلاحاً إلاّ التزوير والتشهير بالباطل ليدحضوا به الحق.

فائدة: ١ - ترافقت (ظلم) مع (زور) لأن الكفار منعوا هداية الناس وهذه ظلم، وأثموا الرسول (ص) بالتزوير وهذا كذب، ومن أعظم الذنوب إثارة الفتن والغوغائية لمنع هداية الناس. في غرر الحكم (من أفحش الظلم، ظلم الكرام) ٢ - الفرق بين الإفك والإفتراء: **الإفك**: هو الزور والبهتان وهو أسوء الكذب، **والإفتراء**: افتعال الأكاذيب من قول نفسه ونسبتها إلى الغير، وعرضه بطريقة فيئة خادعة، **والكذب**: قد يكون على وجه التقليد للغير فيه قال تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) النحل/١٠٥، عن النبي (ص) (كَثُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَحَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ بِهِ كَاذِبٌ) الترغيب والترهيب ٥٩٦/٣.

٥ - ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

(وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ): خرافات الأقدمين سطرّوها في كتبهم (اكتتبتها): كتبت له تدريجياً باستدعاء منه، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهذا دليل على أمية الرسول (ص)، **المعنى**: وقالوا بعد العجز والعناد والمكابرة والتضليل، إنما القرآن خرافات الأقدمين من اليهود والكهّان سطرّوها في كتبهم (اكتتبتها) استنسخها بنفسه أو أمر مُجَدَّ أن تُكتب له، في المفردات (الاكتتاب) متعارف في الاختلاق (فَهِي تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) فهي تلقى وتقرأ عليه خفية ليحفظها (بُكْرَةً وَأَصِيلًا) صباحاً ومساءً، أي باستمرار (بُكْرَةً) صباحاً في أو النهار قبل خروج الناس من منازلهم (وَأَصِيلًا) آخر النهار بعد دخولهم في منازلهم، وهو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه وحفظه، ويسميه وحياً سماوياً من عند الله! وهم يعرفون أن مُجَدَّاً هو الصادق الأمين قبل البعثة وبعدها على حد سواء، فهم يكذبون على المؤمنين ويقفون ضد الهداية خوفاً من هذا المارد الإسلامي الجديد المؤثر الذي يريد أن يغيّر وجه الأرض! **ومعنى المارد**: المتمرد على النظام الكافر الحاكم المتجاوز الحد في الفساد، وحرصاً على مكاسبهم ومصالحهم المحدودة كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل/١٤، في الحديث (مَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بَدْعَةٍ آمَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْقَرْعِ الْأَكْبَرِ) روح البيان ١٩١/٦.

٦ - ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

هذا ردّ عليهم في تلك المزاعم، أي قل لهم يا مُجَدَّ (أَنْزَلَهُ) أي أنزل القرآن الكريم هو الله العليم القدير الذي (يَعْلَمُ السِّرَّ) يعلم الغيب، ويعلم الأسرار وكل الخفايا، ولا يخفى عليه شيء في السماوات

والأرض، وقد جعل الله في القرآن الكريم أسراراً خفية لا تصل إلى كنهها عقولكم في علوم ومعارف متنوعة وتاريخ الأمم السابقة والقوانين المتعددة، والاحتياجات البشرية تدعو إلى تحكيم العقل وتحريك الفكر، والبحث العلمي وحتى أسرار عالم الطبيعة والأخبار المستقبلية وكل ذلك يدل أن القرآن ليس من مقدور البشر على تثبيت علومه وصياغة بلاغته وتعبيره الفريد الدقيق، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة! ، وقد أنزله إليكم ودعاكم للإيمان والالتزام به، فهو يهدي البشرية إلى صراط الله المستقيم، (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) ولكن باب التوبة مع ذلك مفتوح، إنه تعالى كان غفوراً للتائبين وما يزال، لم يُعَجِّلْ لكم العقوبة بل أمهلهم رحمة بكم، لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد، هذه دعوة كريمة من رحمة الله الواسعة إلى من أعرض عن الله وكتبه ورسله أن يقلع عن غيِّه وضلاله ويعود إلى الله تائباً صادقاً مؤمناً.

٧ - ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾

وقالوا مستهزئين ومتعجبين: (مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ) كما نأكل (وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) لطلب المعاش وشراء الحاجات كما نمشي؟، والاستفهام للتعجب! إنه ليس بملك ولا ملك لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تنزل في الأسواق، فمن أين له الفضل علينا؟ (لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) لَوْلَا: هلا بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وينذر الناس معه أو يرافقه ويُعينه! فائدة: ١- يريدون من رسول الله أن يتعالى على الخلق كالجبارة والطغاة! وهل بُعث الرسول إلاً لهداية الناس، وكيف يقوم القائد والمرشد لهداية الناس وتعليمهم وإزالة شبهاتهم وهو ليس منهم، في معزل عنهم، ولا يشعر مشاعرهم؟ فإن الرُّسل بشر لم يمتازوا بأمور حسية وفوارق جسدية، وإنما يمتازون بصفات روحية صافية، وبعلم كثيرة هادية وبآداب عالية، وبنفوس طاهرة أي يمتلكون صفات متكاملة، ليكونوا قدوة صالحة لغيرهم (وَيَكُونُ خُلُقُهُمُ الْقُرْآنَ) فيألفون الناس والناس تألفهم، وخير الناس من يألف ويؤلف كقوله (لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ) الممتحنة/٦، كقوله (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فصلت/٦، عن النبي (ص) (السُّوقُ دَارُ سُهْوٍ وَغَفْلَةٍ، فَمَنْ سَبَحَ فِيهَا تَسْبِيحَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ) كنز العمال خبر ٩٣٣٠، راجع الفرقان/٢٠.

٨ - ﴿أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَيْسًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَبَعُونَ إِلَّا مَرْجَلًا مَسْحُورًا﴾

أو ياتيه كنز أي مال كثير من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش (أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) أو يكون له (جَنَّةٌ) بستان يعيش من خيراتها كما يعيش الأغنياء، ومُحَمَّدٌ (ص) فاقد لكل ذلك ويدّعي أنه نبي! (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَبَعُونَ إِلَّا مَرْجَلًا مَسْحُورًا) وقال الظالمون المعاندون للمؤمنين إن تبعون إلاً إنساناً سَاحِرًا فَعُلبَ على عقله وأمره، فهو لا يعي ما يقول ولا يصلح للنبوة بحال! إنهم يفهمون الحياة على أنها مال وجاه ومتع وشهوات، فكيف يؤمنون برسالة تقول: الناس سواسية كأسنان المشط في جميع الحقوق والواجبات؟ لقد جعل الله

الرسول (ص) أسوة حسنة ليصوغ رجالاً مؤمنين ينهضون بأعباء الرسالة. لقد كان رسول الله (ص) مكفي الحاجة لا يعاني من هوم العيش، ومن ثم تفرغ لتبليغ الرسالة وتحمل تكاليفها.

٩ - ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا الْاَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾

أنظر وتعجب كيف قالوا في حقلك يا محمد تلك (الأمثال) الأقاويل المتناقضة العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، بأنك شاعر ومجنون ومسحور، إذ يمثلونه برجل سحر عقله! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة (فضلاً) بذلك عن كل سبيل للهدى، وانحرفوا عن كل سبيل للحق، وبقوا متحيرين في ضلالهم (فلاً يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) فلا يجدون طريقاً إلى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك، كقوله (فَمَآذًا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢ فلم يستطيعوا إبطال نبوتك وردك بالحجة والدليل، لأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً فلا يستطيعون الخلاص من هذا الضلال العميق. ثم إن الله تعالى لو أراد لاعطى نبيه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون فقال:

١٠ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِذَا شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾

تبارك: من البركة ودوام الخير الكثير، أي تبارك ربك، وكثرت خيراتك وتعاضمت بركاتك الجليلة، وإنه ليس بالذي يمسك عنك هذا المتاع الدنيوي (إن شاء) لو أراد فجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) لو شاء لأعطاك (جَنَّاتٍ) بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنة واحدة كما قالوا (وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا) ويجعل لك قصوراً عظيمة مع الحدائق المثمرة يأخذ جماها بالأبصار، ولكن العظمة لا تقاس بكثرة المال، بل بالایمان والعلم والخلق والأعمال الصالحة النافعة. في نهج البلاغة حكم ٨١ (قيمة كل امرئ ما يحسنه) سبب النزول: قيل للنبي (ص) (إن شئت أعطيناك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، ولا ينقصك شيء مما لك عند الله، وإن شئت جمعته لك في الآخرة، قال اجمعها لي في الآخرة، فأنزل الله الآية). لو كان النبي (ص) غنياً لقصده قوماً طمعاً في الدنيا، فاختار الله له الفقر حتى يقصده الناس طلباً للهداية وحسن العاقبة وبدوافع صادقة ومخلصة، والله اختار له الفقر نظراً لقلوب الفقراء ومواساتهم، وهذا دليل على هوان الدنيا على الله، في الحديث (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرِينَ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَفَى مِنْهَا كَافِرٌ شَرْبَةَ مَاءٍ!) بحار الانوار ٧٧ ص ٧٩.

١١ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

بين السبب في عدم تصديقهم للنبي (ص) ورسالته، أنهم ما كذبوك وردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فما هذا القول منهم إلا تبريرات واهية، بل السبب الحقيقي في إنكارهم نبوتك وطعنهم فيك هو عدم إيمانهم (بالساعة) بالبعث والجزاء والقيامة والعالم الآخر (وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) وَأَعْتَدْنَا: وهياناً لمن كذب بالبعث (سَعِيرًا) ناراً شديدة تُسَعَّرُ عليهم متأجج لهيبتها. فائدة: ١- أنكروا البعث والحساب وسوف يكون لهم في الساعة والقيامة التي

انكروها حساب عسير يساوي هذا النكران والعناد، ٢- الساعة: جزء من أجزاء الزمن ويعبر بها القرآن عن القيامة، ليقوم الناس لرب العالمين، تشبيهاً لسرعة الحساب (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) الأنعام/٦٢ وقوله: (كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) الأحقاف/٣٥، ٣- من الخطأ الكبير أن يكون التعامل مع القضايا البالغة الأهمية بأساليب اللامبالاة، أو التعامل بالهزل في مواقع الجدية لأنهم لا يحسبون حساب النتائج على مستوى المصير النهائي ما بعد الموت، في الحديث (وَكَفَى بِالْمَوْتِ وَاعْظَاءً) وعن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا!) روح البيان/١٣٢/٢، ٤- إثبات يوم القيامة: إن الله تعالى قادر على كل الممكنات، وهو الذي يقول للشئ كن فيكون، فيقدر على إعادة جميع الأجزاء البالية المشتتة وجمع جزئياتها المفتتة، وإعادة تكوينها، ورجوع الحياة إليها لأنها متميزة في علمه، وإن كانت غير متميزة في علم الإنسان كالماء في اللبن، فإنهما وإن امتزجا لكن أحدهما متميز عن الآخر في علم الله، وإن كان عقل الإنسان قاصراً عن ادراكه!.

١٢ - ﴿إِذَا مَرَأَتْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾

إذا رأت جهنم هؤلاء المشركون من مسافة بعيدة قادمين إليها، وهذه الرؤية من جهنم هي الرؤية الحية المحسمة، والصورة البارزة لجهنم من بُعد لتحويل أمرها، وكأن جهنم وسعيها كائناً حياً يسمع ويرى ويُشخّص الأشياء بدقة متناهية! (سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا) التغيط: الهيجان والغليان الرهيبان، وَزَفِيرًا: مد النَّفْسِ وترديده وهو صوت جهنم عند شدة غيظها وغضبها، الآية تشبيه حال النار بالنسبة إليهم أي سمعوا صوت لهيبها وغليناها المخيفان، كأنه زفير الإنسان المغتاض جداً أو كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ، وأن جهنم تنظر إلى المجرمين كما ينظر الحيوان المفترس الجائع لفريسته، كناية عن سوء العذاب وشدته! كقوله (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلطَّاعِنِينَ مَأْبَأً) النبأ/٢١-٢٢.

١٣ - ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّرَرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾

وإذا أُلْقُوا فِي جَهَنَّمَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ خَانِقٍ مَعَ تَرَاخُمِ السَّكَّانِ ضَاقَتْ أَنْفُسُهُمْ (مُقَرَّرِينَ) مصفدين مقيدتين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل، وفيه إشارة إلى ما يؤاخذ به الظالمون من إذلال وهوان، وأنهم إذ يساقون على جهنم، فإنما يحزمون كحزم الحطب، ويقرن بعضهم إلى بعض، كما يقرن القطيع من الحيوان!، (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) الثبور: الهلاك، دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك، ويكونون في حالة مأساوية تفوق الوصف!، نادوه نداء المتمنين للهلاك ليسلموا مما هو أشد منه، في غرر الحكم: (أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ مَا يُتَمَنَّى الْخَلَّاصُ مِنْهُ بِالْمَوْتِ) كقوله (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الطور/١٦، عن النبي (ص) (إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتْدُ فِي الْحَائِطِ) أي يدخل البسمار في الحائط بالضرب والضغط، وهذا الضيق لا يدل أن جهنم صغيرة، وقوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ

مِنْ مَزِيدٍ) ق/٣٠، فهي مكان واسع، ولكن أولئك يحصرون مكاناً ضيقاً في هذا المكان الواسع وهم مكرهون!.

١٤ - ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ بُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا بُورًا كَثِيرًا﴾

يقال لهم بتهمكم ساخر مرير: لا تدعوا اليوم هلاكاً واحداً بل (وادعوا بُوراً كثيراً) أنواعاً كثيرة من الويلات والهلكات على أنفسكم، لكثرة أنواع عذابكم وأشكاله ودوامه، فلكل نوع وقت من العذاب له طريقة من الهلاك، والعقوبات على قدر الجنايات. وفيه إقنات لهم من تخفيف العذاب لأنه أبدي، وعدم استجابة الدعاء منهم. وفي كل نوع يموتون ويهلكون ثم يعودون ويحيون مرة أخرى! ومن هذا الموقف الرهيب المملوء بالكرب والرعب، يعرض القرآن الصورة المقابلة لهؤلاء ما أعد للمتقين، الذين اتقوا الله في حياتهم (فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ (من رحمته)).

١٥ - ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾

قل لهم يا محمد وعلى سبيل التقريع والتهمم الساخر، أذلك عذاب السعير خير أم جنة الخلود التي وعدها الله المتقين؟ فإن قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد؟ ولا وجه للمقارنة، قلنا: هذا يحسن في معرض التقريع والسخرية من جهة، والتنبيه على الخلود في جنة النعيم للمؤمنين جزاءً على استقامتهم (كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا) كانت الجنة لهم ثواباً ومرجعاً يرجعون إليه، جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا، وثواباً لهم على التزامهم بالتقوى، ومرجعاً لهم ينتقلون إليه إلى نعيم الآخرة. فائدة: سؤال الآية بديهي وجوابه واضح لا شك فيه، إذن: لماذا فقد هؤلاء المكذبون التميز بين الحق والباطل؟ الجواب: إنه (حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) حُبَّ الدُّنْيَا يعمي ويصم ويدل الرقاب!.

١٦ - ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا﴾

لهم في الجنة ما يشاءون من أنواع المطالب بلا حدود ولا قيود، وأنواع من المتع واللذائذ الدائمة والكافية والوافية، فلم ترها العيون ولا تحصيها الظنون ولا سمعت عنها الأذان ولا خطر شكلها وطعمها على القلوب (خَالِدِينَ) ماكنين في نعيمها أبداً بلا زوال ولا انقضاء (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا) كان ذلك الجزاء المميز النموذجي وعداً على الله سبحانه، حقاً واجباً وقوعه بأن يسأل ويطلب إليه إنجازه بلا امتنان (أو) كان وعده وعداً واجباً أوجبه على نفسه لإنجازه فضلاً منه وكرماً كقوله (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الأنعام/٥٤، (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) المزمل/١٨، يسأله المتقون ذلك بلسان حالهم أو بلسان مقالهم وفي أدعيتهم، كقوله (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) الزخرف/٧١-٧٣، لكون هذه النتيجة المميزة مما يتنافس فيها المتنافسون، كقوله (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) الصافات/٦١، فأَي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإثارة يا أولي الألباب؟

١٧ - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَضَلَّكُمْ عِبَادِي هُوَ أَمْ لَهُمْ ضُلُو السَّبِيلِ﴾

إنه مشهد من مشاهد يوم القيامة، واذكر ذلك اليوم الرهيب الحاسم والأكيد - يوم القيامة - للحد من الاستعداد له حين يجمع الله الكفار والاصنام وكل من عبد من دون الله (وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (وَمَا) بشكل عام للعقلاء وغير العقلاء! كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، ثم يسأل سبحانه الفريق المعبود على مسمع ومرأى من الفريق العابد المشرك (فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَّكُمْ عِبَادِي هُوَ أَمْ لَكُمْ ضُلُو السَّبِيلِ)؟ (أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) أم هم ضيعوا طريق الحق والرشاد وسلكوا سبيل الهلاك بإرادتهم وبجهلهم، فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ فائدة: ١- أنظر على لطف الله كيف يدعو هؤلاء الضالين إليه وكيف يضيفهم إلى ذاته الكريمة (عِبَادِي هُوَ أَمْ) الذين أشركوا بي وكذبوا رسلي، وهم لا يستجيبون!، ٢- والغرض من هذا السؤال والله تعالى كان عالماً في الأزل بحال المسؤل عنه، فائدته تبريع المشركين وإلزامهم الحجة التي الزمتهم بلسان الأنبياء والرسل، ٣- خطورة مرافقة صديق السوء كقوله (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ) الفرقان/٢٩، في غرر الحكم (صُحْبَةُ الْأَشْرَارِ تَكْسِبُ الشَّرَّ، كَالرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ بِالْبَتْنِ حَمَلَتْ نَتْنًا)

١٨ - ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾

قال المعبودون (مِنْ دُونِ اللَّهِ) مع تنوعهم (سُبْحَانَكَ) تعجباً مما قيل لهم: تنزهت يا الله عن الشرك والأنداد (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) (مَا كَانَ يَنْبَغِي) ما يحق لنا ولا يصح لأحد من الخلق أن يعبد غيرك يا الله ولا أن يشرك معك سواك، وبدؤوا بالتسييح لأن المقام رهيب يستوجب إظهار أدب العبودية (وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ) ولكن سبب انحراف أولئك سعة أرزاقهم كقوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ) الشورى/٢٧، وكانوا يعيشون الثراء جيلاً بعد جيل، حتى طال عليهم الرخاء والنعيم، فبغوا في الأرض وتجبروا وفسدوا واعتدوا على الناس لمدة طويلة من الزمن (حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ) وتركوا القرآن والحرام والحلال فغرقوا في مستنقع الفساد ولا يستطيعون أن يخرجوا منه!

المعنى: ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة، بطول العمر والأولاد وأمهلتهم لامتحانهم بالرخاء والرفاهية، وهو أشد من امتحان الفقر والحاجة!، وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل والاستغفار والتوبة (حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ)، فكان ذلك النعيم سبباً للإعراض عن ذكرك وكتابك، وشكرك، وهكذا أهل السوء والسيئات تطرهم النعمة ويفسد لهم الإحسان ولم تنزل بهم نعمة الله واطمأنوا إلى ضلالهم وألفوا فسادهم، ولم يعلموا أنهم مستدرجون إلى أسفل السافلين (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢، (وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا) قوماً

هالكين من كثرة الفساد وانهماكهم في الشهوات المحرّمة، وما لنا عليهم من قدرة لنمنعهم، ولكن اللفظ (قَوْماً بُوراً) يوحي كذلك بخواء نفوسهم وقسوة قلوبهم وغلظة طباعهم وفساد حياتهم، فهم يعيشون ولكنهم في حكم الهالكين، وإن كانوا أحياءً كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار.

فائدة: ١- مالكم لا تستحون: تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأمّلون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيداً، وجمعوا عديداً، وأمّلوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً (هالكاً) وآمالهم غروراً، ومساكنهم قبوراً!، في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) كقوله (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) الأنبياء/٤٤، وقوله (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) فصلت/٥١، ٢- كما قيل: كم من لذة منعت لذات، وكم من أكلة منعت أكالات، وكم من نعمة عليها تبعات مهلكات.

١٩ - ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا كَمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَكَانَ ضَرْفًا وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

فقد كذبكم المعبودون أيها الكافرون، من زعمتم أنهم أضلوكم ودعوكم إلى عبادتهم وطاعتهم (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا) فما تستطيعون أيها الكفار (صَرْفًا) دفعاً للعذاب عنكم (وَلَا نَصْرًا) لأنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويعينكم ويدفع عنكم عقاب الله (وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ) نفسه وغيره ويظلم ربه فيشرك بالله ويتجاوز حدوده بارتكاب المعاصي، فالحكم الإلهي جار في الظلمة وسنة الله مستمرة بهم لأنهم كانوا على الدوام يظلمون، لذلك أن (وَمَنْ يَظْلِمُ) جاءت بالفعل المضارع المستمر، فينال عقوبته (نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا) فيستذوقه ويتحسس به بكل مشاعره، كما يستذوق الإنسان طعم الأكل ويستشعر به! ودائماً القرآن الكريم والكتب السماوية تحذر كثيراً من الظلم بأجمعه، لأن له تبعات مهلكات، سواء أكان الظلم الفردي أم الجماعي، والظلم النفسي (المعنوي) أو الجسدي، والظلم القليل والكثير، والظلم الصغير والكبير، والظلم العاجل والأجل، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة، عن الإمام علي (ع) (الظُّلْمُ يَزِلُّ الْقَدَمَ وَيُسَلِّبُ النِّعَمَ وَيَهْلِكُ الْأُمَّمَ) والظلم أم الرذائل، ويحزّب القلوب، ومن أكبر الذنوب، وذلك لأن الله علم أن فتنة هذه الأمة تكون في الظلم!! ومن ظلم فقد كُرِهَتْ أَيَّامُهُ، وتنعّص عيشه، واضطربت نفسه، وقسى قلبه وتخلّف مجتمعه، واستضعفت قوته وخسر مستقبله، وأن الله لا يرحم من يظلم الناس كقوله (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) التوبة/١٩، (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) هود/١٨، (لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ) الروم/٥٧، وجاء الظلم قرين الشرك بقوله (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣، وهكذا تربية القرآن الكريم في تحريك المشاعر، وتأثير القلوب، وإحياء النفوس.

٢٠ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضَرُّونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ) يا مُحَمَّد (مِنَ الْمُرْسَلِينَ) إِلَّا رجلاً (لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) للتكسب والتجارة كسائر الناس من غير أن تتميز حياتهم، فتلك هي سنة الله في المرسلين من

قبلك فَلِمَ ينكرون ذلك عليك؟ وأية غرابة في ذلك؟ وهو جواب قولهم (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ؟) الفرقان/٧، ومسؤولية الرسول الأولى تبليغ الرسالة للناس وإلقاء الحجة عليهم ويكون الأمين العام على الرسالة، قادراً على الصبر في أدائها الكامل، وأية علاقة لهذه المهمة والمسؤولية بأكل الطعام والمشى في الأسواق؟ (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) (أَتَصْبِرُونَ) وهو خطاب عام لجميع الناس: وجعلنا بعض الناس (فِتْنَةً) بلاءً واختباراً وامتحاناً ومحنة لبعض يمتحنون بهم، فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم، فيتميز بهم أهل الشك من أهل الإيمان، ابتلى الله الغني بالفقير، والقوي بالضعيف، والعالم بالجاهل، والصحيح بالمريض، والحاكم بالمحكوم.. إلخ، ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون، ويقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان وهكذا (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) كان ربك عالماً بالصواب فيضع كل أمر في موضعه المناسب، وفي وقته المناسب، وفي مكانه المناسب، للإنسان المناسب، في ظروفه المناسبة، وهكذا يبتلى المؤمن الصالح بمرأة السوء أو ولد عاق أو جار مضر كقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) آل عمران/١٥٤

فائدة: ١- قيل: فِي الْمَحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيَاتٌ نَهَائِيَاتُهَا الْكِرَامَاتُ!، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَفِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار ٣٧٤/٧٨، عن النبي (ص) (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (لو شاء الله لجعلكم أغنياء كلكم لا فقير فيكم، ولو شاء الله لجعلكم فقراء كلكم لا غني فيكم، ولكن أبتلى بعضكم ببعض) قيل لعيسى (ع) هل أحد من الخلق مثلك؟ فقال (من كان نظره عبرة، وصمته فكرة، وكلامه ذكراً، فهو مثلي!) روح البيان ٦/١٩٨، ٢- (فلسفة الفتنة): ان الله سبحانه يختبر عباده وهو أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب والعقاب كقوله (وَإِنَّ كَثَلًا لَّمَّا لَيُوقِفِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ) هود/١١١.

الجزء التاسع عشر من القرآن الكريم

٢١ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾
 لَا يَرْجُونَ: لا يخافون، لا يؤمنون، لا يتوقعون (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) نوح/١٣ ما لكم لا تهابون مقامه، المعنى: وقال الذين لا يخشون ولا يتوقعون لقاء الله بالآخرة بعد الموت للجزاء والحساب، ولا يحسبون حسابه ولا يخافون عقابه، لتكذيبهم بالحشر والنشر وبيوم القيامة، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم على أساسه، ولا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته، ويطعنون في صدق الرسول ورسالته، (لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ) لَوْلَا: هلا نزلت الملائكة فكانوا رسلاً إلينا يخبروننا مباشرة بصدق محمد برسالته (أَوْ نَرَى رَبَّنَا) عياناً فيخبرنا أنك رسوله فيأمرنا بتصديقه

وإتباعه، وهذا كله على سبيل التعنت وإلّا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ للإيمان (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ) أقسم أي والله لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق، وطغوا طغياناً عظيماً، وقد أثبتوا على أنفسهم أن الكفر مغروس في أعماقهم، فمن مَخَلَّفَات هذا الاستكبار هو هذا العتو (وَعَتُّوا عَتُوًّا كَبِيرًا) العتو: الغلو والعتاد والإصرار على العصيان، والعتو: التمرد وتجاوز الحد في الظلم والطغيان، حتى عتو وطغوا وبغوا وبلغوا أقصى العتو والطغيان، وغاية الاستكبار بطلب إرسال الملائكة أو رؤية الله عياناً في الدنيا، ويكلمهم الله مشافهة، كقوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣، مع رؤيتهم الكثير من المعجزات المختلفة على يد رسول الله (ص)، إنّ إيمانهم بالرسالة له دلائل ثبوتية غير متوقفة على طلب رؤية الله وطلباتهم الأخرى، لقد تضحّم شعورهم بالاعجاب بأنفسهم، حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزناً صحيحاً، لقد كبرت أنفسهم في أعينهم وتضحّمتم فيريدون أن يظهر لهم الله تعالى عياناً ليؤمنوا!! كقوله (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ) غافر/٥٦، هذا الكبر المتزايد أغرى القوم بأن يلبسوا ثوب الجبارة العتاة المتكبرين، كقوله (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) النحل/٢٩.

٢٢ - ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾

هؤلاء المشركون المعاندون كانوا يطلبون رؤية الملائكة، سوف يروهم عند الموت لقبض أرواحهم، وفي عالم البرزخ، وفي يوم القيامة، فذلك يوم شؤم على المجرمين الذين ارتكبوا كبائر الذنوب، كقوله (فَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) المدثر/٩-١٠، لا يوم استبشار ولهم الخيبة والخسران، والمجرم انفصل عن إنسانيته كما تنفصل الثمرة عن الشجرة! (وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا) حِجْرًا مَحْجُورًا: بمعنى: يقولون للملائكة وهم متوجهون إليهم بالعذاب، حراماً محرماً يعني منعاً ممنوعاً ظناً منهم أن ذلك ينفعهم، فهي كلمة مصطلح أو عرف اجتماعي تقولها العرب سابقاً حين لقاء عدو متور أو هجوم نازلة خطيرة، يقصدون بها الاستغاثة والنجاة من ذلك المكروه الذي يهددهم، أي نسأل الله أن يمنع ذلك عنا منعاً ويججره حجراً، فيكون الحجر هو المنع. أي: إن كان هذا من أقوال ملائكة العذاب للمجرمين، أي يحرم اليوم عليكم البشري بالغفران والجنة، وأمامكم العذاب الأليم، وقد يكون من أقوال المجرمين إذا رأوا ملائكة العذاب (وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا) استعاذة منهم، يحرم عليكم تعذيبنا والتنكيل بنا، ظناً منهم أن ذلك يحميهم وينفعهم! كما كانوا يقولونها في الدنيا عند لقاء عدواً أو نحوه مما كانوا يخافونه، عن الإمام علي (ع) (ومن لا يستقيم به الهدى تَضُرُّهُ الصَّلَاةُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ) البحار/٧٧/٢٩٣، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! وهكذا الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه.

٢٣ - ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا﴾

الآية لها بلاغة خاصة، فهي دقيقة المبنى عميقة المعنى، ولها دلالات واسعة، الآية تسلط الضوء على الطريقة التربوية النموذجية في القرآن، إنه يُجسّم هذه الحالة الحسيّة لكل أعمال المجرمين، وإنّما تُعدم إعداماً تاماً في لحظة خاطفة!! والخيال البعيد يصوّر المشهد المثير في حركة القدوم المحسّمة، لإعدام قيمة الأعمال الكثيرة المتخيلة بعملية تثير المشاعر وتحرك الضمائر وتؤثر فيهما، فتكون الأعمال النافعة الصالحة في تدرية في الهواء كالهباء المنثور، لا وزن لها ولا قيمة عند الله تعالى! لأنّها أعمال وأن كانت صالحة للناس مؤقتاً ولكنها غير صالحة عند الله، لأنّها بعيدة عنه وتعمل لصد الناس عن منهج الله تعالى، أو أنّها أعمال لا يراد منها رضا الله، ويُعد الأعمال مهما كان نوعها هو البعد عن قيمتها المعنوية عند الله، لأن الله تعالى هو الذي يعطيها القيمة والوزن المعنى: وَقَدِمْنَا: قصدنا وعمدنا بشكل جدي وقاطع (إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) إلى كل عمل عملوه من أعمال الكفار والمشركين والمنافقين وما شابههم في الدنيا بقصد وإرادة، وإن كان خيراً في الظاهر كصلة رحم وإعانة ملهوف وإطعام مساكين.. إلخ ويظنون أنّها تقرّبهم إلى الناس وتنفعهم عند الله (فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) فمحوناه محوّاً كما تحمى وتذرى ذرات الغبار في الهواء!

الهباء: دقائق التراب الناعمة والخفيفة، وذرات الغبار المتطايرة في الهواء لخفتها، لا تُرى إلّا من خلال دخول الضوء الشمس في مكان فيّء، منثور: متفرّق منتشر.

فجعلناه: فأحبطناه وسوينا عمله باطلاً لا قيمة له مثل الغبار المنثور المتطاير في الجو الذي لا قيمة له، هو ذلك العمل الصالح في الظاهر، ولكنه ليس له أساس صالح ولا دوافع صالحة، ولا يستند على إيمان ولعدم قصدهم وجه الله فيه، أو لعدم وقوعه على الوجه الذي يريده الله تعالى، أو لاتباعه بمعصية كبيرة أحبطته ومحتته، أو كان دافعه للشيطان والرياء وحبّ، الأنا والظهور والغرور، فجعلناه هباءً متفرقاً لا قيمة له، ولا ينفع شيء في هذا الموقف الحرج الحاسم، وشبّه أعمالهم المحبطة بالغبار في الحقارة، ثم بالمنثور عنه في الانتشار والضياع، ولا يقيم الله لها يوم القيامة وزناً، كقوله (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا) الكهف/١٠٥، الأعمال التي يقبلها الله ما كانت خالصة لوجهه الكريم للقرى منه ونيل رضاه كقوله (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) المائدة/٢٧، فيكون هذا العمل الضال أشبه بالميتة الجديدة من الحيوان قد خبث لحمه ولم يطهر بالذبح الحلال لأنه لم يذكر اسم الله عليه، كقوله (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) الأنعام/١٢١، أو مثلهم كمثل قوم خالفوا سلطانهم فقصد إلى ما بين أيديهم من نعيم فأفسده وجعله شذرَ مذرًا!

فائدة: ١- عمل الإنسان متّصل بهذا الكون فترتبط السنن الكونية بعلاقة مقدره مع السنن الإنسانية، وبنظام الطاعة لله تعالى الذي يجعل العمل الصالح له وزن وله قيمة وعليه مكافأة، لا خبط عشواء ولا نزوة طارئة ولا حركة مبتورة، لا مقصد لها ولا غاية يرضاها الله، والإيمان هو الذي

يصل الإنسان بربه فيجعل لعمله الصغير قيمة ووزناً، ويجعل له مكانة مرموقة في حساب ونظام هذا الكون المنظم! وهكذا يصوّر التعبير القرآني تلك الصورة الحسنة المتخيلة. ومثل هذه الآية في القرآن (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ إِبراهيم/١٨، (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسَرَابٍ) النور/٣٩، ٢- فيكون دافع الإنسان ونيتة هما روح العمل وأساسه، كقوله (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) الإسراء/٨٤، وقوله (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) الليل/١٩-٢١، في غرر الحكم (النِّيَّةُ أَسَاسُ الْعَمَلِ) وفيه أيضاً (عَلَى قَدْرِ النَّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ الْعَطِيَّةُ) عن النبي (ص) (مختصر): (ليجاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْمٍ مَعَهُمْ حَسَنَاتٌ كَثِيرَةٌ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْمَاهُمْ هَبَاءً، إِنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ وَلَكِنْ كَانُوا إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَامِ وَتَبَوَّأُوا عَلَيْهِ فَأَذْحَضَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْمَاهُمْ!!) وعنه (ص) (نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الْفَاجِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ) كنز العمال خبر ٧٢٧١.

٢٤ - ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

لما بين الله تعالى حال الكفار وأعمالهم هباءً منثوراً، وأنهم في خذلان وخيبة وخسران، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور في ذلك اليوم الرهيب!، ليم التقابل في المشهد المثير من مشاهد القيامة الواقعي، لأن طاعتهم لله تعالى في جميع الأحوال، جعلتهم سعداء في جميع الأشكال على من سواهم المعنى: أصحاب الجنة (يَوْمَئِذٍ) في البرزخ أو في يوم القيامة حياتهم لا تقاس بأية حياة (لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ)، (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا) وخير منزلاً ومأوى فيه الأمن والاطمئنان والاستقرار (وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) وأحسن مقراً ومكاناً أميناً للتمتع الزوجي، ووقت للراحة والاسترخاء والنوم في القيلولة، فالمؤمنون في الآخرة في النعيم المقيم والمقر الأمين وفي حصن حصين منيع، كقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة/١٧، في نوح البلاغة حكم ٤٥٦ (إِنَّهُ لَيْسَ لِنَفْسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا)، (وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) وأحسن من سكن الكفرة المترفين في دار الدنيا، والاستقرار هنا يقابل خفة الهباء المنثور، والاطمئنان يقابل الفرع والذهول! هو مما يضاعف في حسرة الكافرين. وكلمة (خَيْرٌ) جاءت هنا ليست للمفاضلة وإنما بيانية لبيان حال أهل الجنة، ولا وجه للمقارنة بين أهل الجنة وأهل النار.

٢٥ - ﴿يَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَاءُ كَثِيرًا﴾

هو مشهد من مشاهد يوم القيامة، تَشْقُقُ: تشقق من الانشقاق بمعنى الانفطار، وهذا كناية عن الانتقال إلى العالم الآخر عالم الغيب، بِالْغَمَامِ: هو ما يشبه السحاب والضباب الذي يستر ضوء الشمس كقوله (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) البقرة/٢١٠ (بِالْغَمَامِ) من الغم بمعنى ستر الشيء، فالغيم الذي يغطي الشمس يقال له (الغمام) وكذلك الهم والحزن والقلق الذي يغطي القلب يسمونه (الغم) و(الغمام)، المعنى: واذكر في يوم القيامة الحاسم

الرهيب، يوم تشقق السماء وتنفطر عن ظلل من الغمام الذي يُسودّ الجو ويظلمه، ويغم القلوب ويزلزل النفوس لكثرتة وشدة ظلمته، فيزول حجاب الجهل ويظهر عالم الغيب وتنكشف الحقائق بلا اشتباه (وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) ونزلت الملائكة تنزيلاً رهيباً من عند الله، فأحاطت بالخلائق في المحشر، ومعها صحائف أعمال العباد الصالحين والطالحين، وتكون شاهدة عليهم لدى فصل القضاء، كقوله (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) النساء/١٤١. فائدة: ١- (وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ) يوم تنفجر أنظمة الكون، وتتغير كل منظومتنا الشمسية الضخمة، ويختل ما فيها من أنظمة دقيقة كبرى، وتحوّل أشبه بالغمام والسحاب الكثيف وتصير هباءً مثوراً متفرق لا وزن له ولا قيمة في الجو، كقوله (إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ) التكوير/١ (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) الانفطار/١.

٢٦ - ﴿الْمَلِكُ يُمِنُّ بِالْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾

(الْمَلِكُ) المطلق (يَوْمَئِذٍ) في يوم القيامة (الْحَقُّ) الثابت (لِلرَّحْمَنِ) الذي تخضع له الملوك، وتذل له الجبابرة، وتتعلق به القلوب، لا مالك يومئذ سواه، كقوله (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) غافر/١٦، والله الحاكم وحده (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) النساء/١٤١ (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) وكان ذلك اليوم الحاسم صعباً شديداً بأهواله على الكفار، سهلاً ميسراً هنيئاً على المؤمنين، كقوله (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) الشعراء/٨٨-٨٩، وعمل مستقيم، في الحديث (إِنَّهُ يَهْوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونُ أَحَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ مَكْتُوبَةٍ صَلَّاهَا فِي الدُّنْيَا) روح البيان ج٦ ص٢٠٣، فائدة: ١- ومما يرتاح له القلب، وينشرح له الصدر، أنه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه (لِلرَّحْمَنِ) دون اسمائه الأخرى، ذو الرحمة الكثيرة على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم، وهي الرحمة العامة من حيث الخلق والرزق والصحة في الدنيا، الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه كقوله (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الأنعام/٥٤، ولا يخرج من رحمته إلا من حقت عليه كلمة العذاب كقوله (تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) الحجر/٤٩-٥٠، في غرر الحكم (مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ مَنَعَهُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ).

٢٧ - ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

واذكر (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) فيندم ويأسف ويتحسّر الظالم، وهو جنس الظالم، وأي ظالم لنفسه فهو ظالم لغيره، يندم يوم القيامة كقوله (فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات/٦ وسميت القيامة يوم الحسرة والندامة كقوله (وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَةِ) مريم/٣٩، لما قرط في حق الله تعالى واعتدى على حقوق الناس، وانحرف عن طريق الحق والعدل، وما فاته من الخير، وعضّ اليدين يعض الأصابع كناية وتشبيه عن شدة الندم والحسرة الكبرى، في وقت لا ينفعه الندم

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) يقول الظالم ياليتني اتبعت الرسول مُحَمَّد (ص) وسنته وسيرته، فاتَّخَذْتُ معه طريقاً مناسباً إلى الهداية والصلاح والوعي والعلم والعمل والنجاة، فائدة:

١- (وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) فلا تكفيه يد واحدة يعضُّ عليها، إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما، وهي حالة نفسية متحركة مجسّمة تكشف عن حالة قلق متأزمة لاذعة قاتلة ببطء! عن النبي (ص) (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تُورِثُ النَّدَامَةَ) وعنه (ص) (شرّ الندامة، ندامة يوم القيامة) البحار ١١٥/٧٧، وعنه (ص) (يُحَشِّرُ الْمَرْءَ عَلَى دَيْنِ خَلِيلِهِ (صديقه) فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يَخَالِلُ) المراغي ١٩ص ٨ ، في غرر الحكم (كَيْفَ يَعْدِلُ فِي غَيْرِهِ مَنْ يظَلِّمُ نَفْسَهُ)؟،

٢- لا يتسع القلب الواحد لمحتين، محبة الرسول ومحبة الضالين المفسدين.

٢٨ - ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾

الآية عامة ودلائلها واسعة في العشرة السلبية، وأصدقاء السوء ومخاطرهم. يَا وَيْلَتَى: كلمة جزع وتحسر وتعني الهلاك فُلَانًا: كل من أضل عباد الله عن الحق إلى الباطل من شياطين الجن أو الإنس، خَلِيلًا: صاحباً حميماً وصديقاً قريباً محبباً، هو من أضله عن سبيل الله ونقله من الحق إلى الباطل، المعنى: عام (يَا وَيْلَتَى) ياهلاكى وحسرتي، ياليتني لم أصاحب فلاناً الضال السيء (فُلَانًا) بهذا التجهيل والتكثير ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول، ويضل عن ذكر الله، ولم أجعله (خَلِيلًا) صديقاً لي ومقرباً إلى نفسي، أسأله وأحاوره وأشاوره وأسمع منه، كلها تمنيات فات أوانها، فالموقف موقف محاسبة لا موقف تكليف، وسمي الخليل: من الخلة، التي تتخلل مشاعر النفس وتدخل فيها بلا استئذان! (فإن شبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع)، قال الشاعر: عن المرء لا تسأل وابصر قرينه - فكل قرين بالمقارن يقتدي، ولكني لسوء حظي عادت أنصح الناس بي وواليت أعدى عدو لي، فقادني إلى الخذلان والحسران! كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤، سئل النبي (ص) أي جلسائنا خير؟ قال (مَنْ ذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَاهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ، وَذَكَرَكُمْ بِالْأَجْرَةِ عَمَلُهُ) كقوله (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧، وقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الأعراف/٢٠٢، وقوله (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/٣٦، في غرر الحكم (كُنَّ بِالْوَحْدَةِ آنَسَ مِنْكَ بِفِرْيَاءِ السُّوءِ) عن النبي (ص) (يُحَشِّرُ الْمَرْءَ عَلَى دَيْنِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يَخَالِلُ) المراغي ١٩ص ٨ وعنه (ص) (لَا تُسَمِّي الرَّجُلُ صَدِيقًا حَتَّى تَحْتَبِرَهُ بِثَلَاثَةِ خِصَالٍ: حِينَ تَغْضِبُهُ فَتَنْظُرُ غَضْبَهُ يُجْرِجُهُ مِنْ حَقِّ إِلَى بَاطِلٍ؟ وَحِينَ تُسَافِرُ مَعَهُ، وَحَتَّى تَحْتَبِرَهُ بِالذِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ) تفسير النور/٦/٢٢٦.

٢٩ - ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾

لَقَدْ أَضَلَّنِي (صديقي الضال الفاسد) وصرفي.

(عَنِ الذِّكْرِ) عن الهدى والقرآن والاستقامة والإيمان، والقرآن هو ذكر في ذاته ومدكر غيره، وهو مصدر الذكر الذي يذكر بالله واليوم الآخر كقوله (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) ص/١، (بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي) بعد أن اهتديت وآمنت، لقد كان شيطاناً يضل أو كان عوناً للشيطان (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا) (حَذُولًا) كثير الخذلان، الشيطان هو الخليل المضل الفاسد أو إبليس اللعين، أي يشجعه على التمرد العصيان، ويخذله عند الجدِّ والحاجة، ثم يتركه في مواقف الشدة والكرب وحده فلا ينقذه ولا ينصره (أو) يزين له الباطل ويُقَبِّحُ له الحق ويعده الأمانى، ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه! كقوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) العنكبوت/٢٥، المعنى العام: (عَنِ الذِّكْرِ) يعم معنى الذكر ويشمل كل ما فيه خير وصلاح واستقامة (إِذْ جَاءَنِي) من العلم والمعرفة عن طريق التبليغ الإسلامي، أي أرشدني أهل العلم بدين الله إلى طريق النجاة، فأعرضت واتبعت الغواية والطغاة والعصاة و(شَبِيهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ)!! وتنطبق هذه الآية على من تابع وأيد الخونة، وأصحاب المراكز الحساسة من المنافقين طمعاً في الفتات، وتلبية للشهوات، فالإنسان على دين من يصاحب، وعلى هوى من يعاشر، كقوله (وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرِيئًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فصلت/٢٥ إِنَّ الأرواح جنود مجنّدة، فما تكافأ منها اثتلف، وما تنافر منها اختلف! فائدة: ١- تدل الآية على أن كثيراً ممن استمعوا إلى القرآن وحفظوه واحسنوا تلاوته واقتنعوا به، فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكن شياطين الإنس واتباع الشهوات المحرّمة قد غرروا بهم وخدعوهم وصرّفوه عن الحق (مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ) عن النبي (ص) (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِاللَّأْوَةِ وَلَا الْعِلْمُ بِالرَّوَايَةِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمُ بِالذِّرْيَةِ) كنز العمال خبر ٢٤٦٢.

٣٠ - ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

الآية ظاهرها أنيق رقيق جذاب، وباطنها عميق دقيق مناسب، مَهْجُورًا: من الهجر والترك والإعراض والإهمال العام عن قصد أو بدون قصد! أو عدم الإيمان به، وعدم العناية بتلاوته وتدبره ودراسته والعمل به المعنى: (وَقَالَ الرَّسُولُ) مُحَمَّدٌ (ص) منادياً لربه وشاكياً له في الدنيا، ويوم القيامة بتصرّع إعراض قومه عما جاء به من الهداية، ومتأسفاً على ذلك منهم، ولكن لم يلعنهم، وهكذا المؤمن لا يشكو حاجته إلا لمن بيده قضاؤها، في غرر الحكم (اجْعَلْ شُكُوكَ إِلَى مَنْ يَقْدَرُ عَلَى غِنَاكَ) (يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي) الذي أرسلتني لهدايتهم، وفي كلمة (قَوْمِي) من الخنو الممزوج بالحسرة والألم والحرص على الناس لهدايتهم وإنقاذهم من معاناة الجاهلية المريرة.

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) أي متروكاً سواء آمنوا أم لم يؤمنوا! قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه وراء ظهورهم لا يسمعون ولا يتدبرون آياته، ولا يعتنون به ودراسته والعمل به، بقصد أم بدون

قصد، بل وصدّوا الناس عنه! وكل من قرأ القرآن ولم يعمل به ولم يتّخذ شريعة ومنهاجاً ودستور حياة فقد هجره! كقوله (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) المائدة/٤٨، فائدة: ١- إنك لتستشعر في تلك الكلمات حرارة الرسول (ص) ولهفته وهو يدعو ربه شاكياً حالة الناس في هجران القرآن، أي هجران منقذهم ومصدر نجاتهم من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة، ٢- (مَهْجُورًا) كلمة جامعة مانعة، دقيقة المبني عميقة المعنى واسعة المغزى، لموقف الناس من القرآن الكريم وهو أنهم اتّخذوه كما يتخذون الأماكن المهجورة، ما الفرق بين من لا يؤمن بالقرآن ويهجره، ومن يهجره جهلاً به، ومن يهجره وهو عالم به وبأهميته؟! ٣- عن الإمام الرضا (ع) إنّ الناس أمروا بقراءة القرآن في الصلاة (لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً، وليكون محفوظاً) تفسير النور/٦/٢٢٧، وتشتمل كلمة (هجر) على الهجر الجزئي والكلي، والهجر الدائم والمؤقت، والهجر النظري والعملي، والهجر المادي والنفسي والمعنوي، والهجر بالقول والفعل، والهجر بشكله ومضمونه، والهجر لحلاله وحرامه، والهجر لمنهجه بأوامره ونواهيه، والهجر لقدسيته الحركية ولأهميته التربوية، والهجر لرسالته العالمية كقوله (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكويد/٢٧، والهجر بعدم معرفة قيمته البالغة الأهمية، ليدركوا الحق من خلاله ويجدوا الهدى في منهجه، هجره فلم يجعلوه فرقاناً بين الصحيح والخطأ، وبين الحق والباطل، هجره فلم يجعلوه دستور حياتهم، ولم يقبلوا منه أن يهديهم التي هي أقوم، ولا يزال الهجر مستمراً إلى يومنا الحاضر، أنهم هجروا الاستشفاء بالقرآن، هجروا رمز الحياة ووسيلة النجاة، والذي لا ينفعه القرآن فتضره القوانين الوضعية العلمانية.

٤- قال تعالى

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) ولم يقل (كان عندهم مهجوراً) الاتخاذ يأتي بمعنى أنهم يتركون القرآن جانباً عن قصد وعلم ومعرفة، ويتعمّدون الجهل والجهل المركّب في هجره أي الجهل الذي ظاهره العلم أو ادعاء العلم!، وفيه إشارة تلويح بأن حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن والاعتناء والتعلق به، تلاوة وحفظاً وتدبراً وعلماً وتعليماً، في الحديث (مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَعَلَّقَ مِصْحَفًا وَلَمْ يَتَعَاهده، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَبْدُكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا، أَقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ)! روح البيان/٦/٢٠٧، وعن النبي (ص) (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ) قيل وما جلاؤها قال (تَلَاوَةُ الْقُرْآنِ وَذَكَرَ اللَّهُ) تنبيه الخواطر ص ٣٦٢، وعنه (ص) (ثَلَاثَةٌ يَشْكُونُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْقُرْآنَ الْمَهْجُورَ، الْمَسْجِدَ الْمَهْجُورَ، الْعَالَمَ الْمَهْجُورَ) البحار/٨٣/٣٨٥، الحرب الناعمة التي طرحت في صراع الحضارات أحد تأثيراتها هجر القرآن!

والحرب الناعمة بمعنى الحرب الفكرية والصراعات العقائدية والإعلامية بين الخير والشر، والهدى والضلال.. وهكذا، في نهج البلاغة خطبة ٢٧ (وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْرُؤْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْرُؤْكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا غَرَّبَنِي قَوْمٌ قَطُّ فِي عُمْرِ دَارِهِمْ إِلَّا دَلُّوا) وخطورة هذا الغزو بمختلف أشكاله وألوانه منه الغزو الثقافي

الخطير! ٥- ومن الهجر أن يكون القرآن على سطح حياة المسلمين وليس في مضمونها، فيكون القرآن عندهم مصدر بركة لافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر وشفاء مريض أو تلاوة القرآن من أجل الثواب، أو تلاوة أنعام وتعليم أحكام وكفى!.

٣١ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

ظاهر الآية تقول كما جعلنا لك عدوًّا من مجرمي قومك، كذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين، فهذه سنتنا في الأنبياء وأممهم من قبل، كقوله (فَصَبِّرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَا تُهُمْ نَصْرُنَا) الانعام/٣٤، وقوله (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَلْتُ فِي عِبَادِهِ وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) غافر/٨٥، ينهى الله تعالى عن عداوة الأنبياء والأتقياء والأولياء، ويأمر بطاعتهم وموالاتهم، ولكن يبقى الحق ضد الباطل، والخير ضد الشر، والصدق ضد الكذب، والطهارة ضد النجاسة، ويبقى المجرمون ضد الصالحون، أحدهما يعمل ضد الآخر، وهكذا واقع الحال، كقوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) الأنعام/١١٢ ومعنى (جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) أي إن الله جازى أعداء الأنبياء على معاصيهم بالخنتم على قلوبهم، كقوله (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) البقرة/٧، فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي إليه، المتمثل بكل نبي وبكل رسالي مبلِّغ، فلا يهولئك أمر عنادهم وعداوتهم، ولا تخافتهم على عرقلة هداية المؤمنين في بث الشكوك والإرهاب فيهم (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) فحسبك ربك، كفى به تعالى (هَادِيًا) يهدي من استحق الهداية من الناس، وكفى به (نَصِيرًا) ينصرك أنت ودينك والذين آمنوا في وقته المناسب.

فائدة:

١- بروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي، لأن دعوة الأنبياء الحقّة إنما تكون لمعالجة الفساد في البشرية، فساد في القلوب، وفساد في النظم، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه لصالحهم من ناحية أخرى، وأن مشاريعهم لا تتفق إلا مع الفساد، وشهواتهم لا تحقق لذاتهم القصيرة إلا في أجواء فاسدة، فطبيعي أن يجاربوا الأنبياء دفاعاً عن وجودهم، فإنها لا تعيش في أجواء صالحة كالتى ينشئها الأنبياء، فإن بعض الحشرات تحتق برائحة الأزهار العبقية، ولا تستطيع الحياة إلا في الفساد! (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) ومن الطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية كقوله (حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) البقرة/٢٣٥، وقوله (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ) الروم/٤٧، لأنها تسير مع خط الحياة والاعتدال والتوازن، وتتجه إلى الأفق الكريم الذي تتصل فيه بالله تعالى، كقوله (إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) آل عمران/١٦٠، عن الإمام علي

(ع) مَنْ أَهَانَ لِي وَلياً بَارِزِي بِالْمُحَارِبَةِ (البحار ٧٠ ص ١٦ كقوله (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) الفرقان/٢٠.

٣٢ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) من شبهاتهم، لو كان هذا القرآن من عند الله (لَوْلَا) فهلا أنزل على محمد (جُمْلَةً) دفعة واحدة كما نزلت التوراة والانجيل والزيور؟ وقالوا اذ لو كان القرآن كتاباً سماوياً لجمعت أجزاءه وأصبحت أصوله وفروعه معلومة، وسننه وفرائضه مجموعة ولم يكن مفترقاً ومشتتاً، ويجب القرآن على ذلك، أن جمع القرآن يتولاه الله تعالى كقوله (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) القيامة/١٧، وردّ الله تعالى على شبهتهم (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) كذلك أنزلناه مفترقاً بالتدرّج تبعاً للحوادث والوقائع ليكون أوضح بياناً وأبلغ أثراً، (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) ولنقوي به قلبك على تحمله ولنرسّخه في ذهنك ويتيسر لك حفظه وفهم معناه وضبط أحكامه فتزداد بصيرة ويسهل العمل به، ويقال أيضاً إن هذه الكتب السماوية الثلاثة نزلت متفرقة أيضاً في ثمانية عشرة سنة، كما تدل على ذلك نصوص التوراة، (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) الترتيل: التفريق الرشيق الهادئ الهادف للتأمل والتدبر، وإظهار المعنى وإدراك المغزى كقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) ص/٢٩، وقرآناه وبيّناه عليك بالتتابع والتوالي شيئاً بعد شيء بنظام دقيق، وعلى تمهّل مرتبة مرتبة ممنهجه بلا تسرع، ومن خلال حركة الواقع، بحيث لا تنقطع الروابط بينها. وهذا يدل أن القرآن، يدرك من خلال حركة الواقع والذي لا يعي واقعه لا يعي القرآن كقوله (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ) الحاقة/١٢.

فائدة: ١- (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) الترتيل في الكلام بمعنى أن يأتي بعضه على إثر بعض بالتسلسل الهادئ وبالتالي المفيد، مع أنغام متسقة وأحكام متناغمة، مع المعاني التي تؤثر على حركة المشاعر والأحاسيس، وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقّي، ٢- وهذا يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن الكريم وبرسوله الجليل محمد (ص) حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية كقوله (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنُزِّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) الاسراء/١٠٦، ٣- لو نزل القرآن دفعة واحدة على الناس لنزلت الشرائع بحلالها وحرامها دفعة واحدة عليهم وفي ذلك حرج (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) الحج/٧٨، ولنزلت الأحداث والغزوات في غير أوقاتها.. وهكذا، ٤- قولهم (نُزِّلَ) بدل (أُنزِلَ)، معنى (أُنزِلَ) (وإنزال) نزول دفعة واحدة كما أنزلنا في ليلة القدر على قلب النبي (ص) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) القدر/١، ثم (نُزِّلَ) بعد ذلك نجوماً ودفعات مفرقة بالتدرّج، بحسب حركة الواقع، في نحو (٢٣) سنة، لأن (نُزِّلَ) يفيد تقطيع الفعل، ووقوع النزول والتنزيل حالاً بعد حال، فيكون (تنزيل) القرآن بالتدرّج حتى يتأهّل قلبه (ص) بخُلُق القرآن، ويتغذى بحقائقه وعلومه، وهذه الفوائد انما تكتمل

بإنزاله مفترقاً، ألا ترى أن الماء لو نزل من السماء جملة واحدة لما استفادت منه الزروع مثلما لو نزل مُفترقاً، وإذن: نزول القرآن على حالتين (نُزِّلَ وأُنزِلَ) أي (نزول وتنزيل) كقوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ) الإسراء/ ١٠٥ وقوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) النحل/ ٤٤، عن النبي (زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ) البحار ١٩٠/٩٢، عن الإمام الصادق (ع) الترتيل أن تتمكث (تتمهل) وتُحَسِّنَ به صوتك، إذا مررت بآية فيها ذكر النار فتعوذ بالله من النار، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فاسأل الله الجنة) مجمع البحرين مادة (رتل)، تفسير الأمل ٢٢٢/١١.

٣٣- ﴿وَأَيُّونُكَ بِمَكْلِ إِلَّا جِنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

الخطاب لمحمد (ص) وضمير الجماعة في (يَأْتُونَكَ) لأعداء الله وأعدائه (ص) الذين يعترضون على القرآن بمعنى ولا يأتيك هؤلاء الكفار (بِمَكْلِ) أي بسؤال أو استشكال أو مثل يضربونه في إبطال أمرك، أو وصف يصفونك بسوء ليصدوا عن سبيل الله، أو طرح شبهة للقدح فيك أو في القرآن (إِلَّا جِنَّاتِكَ بِالْحَقِّ) إلا أتيناك يا مُجِدِّ بالجواب الدافع الواضح بالحق، وبالجملة الساطعة القاطعة بالعدل لندفع به باطلهم، والبرهان يلجم اللسان و يقطع الجدل (وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) وأحسن بياناً وتفصيلاً الذي يفهمهم و يلجمهم. فائدة: ١- كان القرآن من علامات نبوته (ص)، لانهم لا يُسألون عن شيء إلا جاءهم بأحسن جواب، وكان ذلك تثبيتاً لفؤاده (ص) وأفندتهم، كقوله (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) يس/ ٧٩- ٨٠ (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) الأنبياء/ ١٨. ٢- (بالحق) والحق هو الغاية التي يريد القرآن تقيدها، وليس مجرد الانتصار في الجدل، ولا الغلب في المحاجة، إنما هو نصره الحق القوي بنفسه والمقوي لغيره، الحق الواضح الذي لا يتلبس به الباطل، الحق الثابت في ذاته والمثبت لغيره، لانه الثابت الذي لا يزول ولا يتغير ولا يتبدل ولا يتحوّل، والحياة قامت على الحق، والحق لا يُجْزَأُ ولا يتعدد فهو وحدة واحدة موحدة متحدة كقوله (فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/ ٣٢.

٣٤- ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

هؤلاء الذين يجادلون النبي (ص) ويشيرون الشكوك هم مرضى القلوب كقوله في (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) البقرة/ ١٠. هؤلاء (يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) (يسحبون إلى النار مقلوبين) أي تسحبهم ملائكة العذاب على وجوههم بذلة وهوان إلى جهنم! (أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) هم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً، وأضلّ معتقداً، وهم شرّ الناس موقعاً اجتماعياً، وأضلهم طريقاً في الدنيا، وحشرهم على وجوههم هو تنكيل و إهانة بهم و امتهان وذلة لهم، حيث يعاملون معاملة الحيوانات الميتة، لأنهم كانوا مستكبرين على الناس ومتعالين على الحق، إنه مشهد يدل كبرياءهم، وَالْعُقُوبَةُ عَلَىٰ قَدْرِ الْجِنَايَةِ كقوله (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا

مَسَّ سَقَرًا (القمر/٤٨، عن النبي (ص) يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاة، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم!) المراغي ١٩ص ١٤ فائدة: سبب النزول: قال المشركون للنبي (ص) والمؤمنين : أنتم شرُّ خلقِ الله، فنزلت الآية.

٣٥- ﴿وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَورًا﴾

أمثلة قرآنية مختصرة سريعة، ترسم مصائر المكذّبين، وتسلية للنبي (ص) وكشف عن سنة الله التي مرّت على الماضين ليتعظ بها الباقون، والذّي لا يتعظ بالمأضين كأنّ عبرةً للباقيين! والله لقد أعطينا موسى التوراة (وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً) وزيراً: معيناً، أي وأعناه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له، ومعيناً يشاوره ويناصره، في دعوته، والوزير: من يرجع إليه للاستعانة برأيه السديد، وبعمله الرشيد.

٣٦- ﴿فَقُلْنَا اذْهَبْ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَذْميراً﴾

فقلنا إذ ذهاباً إلى فرعون الطاغية المعاند، وقومه الكافرين بالآيات الباهرات في الآفاق، والمعجزات الساطعات في الأنفس، بما فيها من الدلالة على قدرة الله وتوحيده (فَدَمَّرْنَاهُمْ تَذْمِيراً) فأهلكناهم إهلاكاً وكانوا عبرة لمن يعتبر، لما أصرّوا على الكفر (مِمَّا حَطَبْنَا لَهُمْ أَعْرُفُوا فَادْخُلُوا نَارًا) نوح/٢٥ (السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِعَيْرِهِ) في نهج البلاغة حكم ٨٩ (وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَعَظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظًا).

٣٧- ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لما كذبوا رسولهم نوحاً (وجعلناهم للناس آية) عبرة لمن يعتبر، لاحظ قوله (كذبوا الرُّسُلَ) جاءت بصيغة الجمع مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن تكذيبه تكذيب لجميع الرسل والأنبياء، لانفاقهم على نصرته الهدف المشترك النبيل وهو الإسلام والتوحيد، وإن تعددت الأساليب والوسائل والأماكن والزمان بينهم. (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) لأن تكذيبهم ظلم لأنفسهم، والعذاب الأليم حاضر ينتظرهم لا يحتاج إلى إعداد، كقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ في الدنيا والآخرة: فائدة ١- من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول وآخر، وكلمتهم واحدة، ولو أن الله بعث الأنبياء جميعاً (ع) على كثرتهم في مكان واحد، وزمان واحد ويعملون سوياً، لما اختلفوا!

٣٨- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾

الرِّسِّ: البئر غير المبنية. إنهم يعبدون الأصنام، قتلوا نبيهم فهلكوا، وهم بقية ثمود قوم صالح، وفي ذكرهم مع عاد وثمود ما يصغهم بهذا الصبغ الحسيس الذي اصطبغ به هؤلاء وهؤلاء من الضلال و العناد (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) جمع قرن وتعني في الأصل أمة من الناس تعيش معاً في

ظروف واحدة وزمن واحد، وتُطلق (قرن) على الأعوام من أربعين إلى مئة سنة، أي (قروناً) وأماً كثيرة لا يعلمهم إلاّ الله، أهلكتهم لما كذبوا رسلنا، المعنى: ودمرنا عاداً وثموداً وأصحاب البئر الذين عبدوا الأصنام، وألقوا نبيّهم في بئر عميقة حتى مات! فَنُسبُوا إِلَى فَعْلِهِمُ الشَّنِيْعَ بِنَبِيِّهِمْ! وحين دسّوه في البئر، بدأ يَجْفَأُ ماؤها وعطشوا وييست أشجارهم فعاشوا الجوع والعطش، وعانوا الوحشة والفرقة والاختلاف، وأماً كثيرة متخللة بين هؤلاء الذين ذكرناهم. في نَحْجِ البِلاغة خطبة ١٨٢، (أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟!) أما الأنبياء فهم مشروع توعية ومصادر تضحية في سبيل الله، والله يتولاهم فيأخذ أرواحهم إليه.

٣٩- ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ، وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا﴾

وكلاً من هؤلاء الأقوام المعاندة (ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) أي أجبنا على أسئلتهم وإشكالاتهم، ووضّحنا لهم أدلتنا وحججنا إعداراً وإنذاراً، مثل ما أجبنا على أسئلة وإشكالات قومك، وبيّنا لهم حقائق الدين، وكررنا عليهم قصص الماضين، وكشفنا لهم عيبرهم فلم يعتبروا، وأصروا على تكذيبهم للرسول (وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا) التَّبِيرُ: التفتيت والتكسير والإهلاك والدمار. المعنى: وكلاً من هؤلاء المكذبين المعاندين أهلكتهم إهلاكاً انتقامياً (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) آل عمران/٤، بعد قيام الحجة البالغة عليهم بالأدلة والنصائح وضرب الأمثال بمن كان قبلهم، لأنهم عموا وصمّوا فحقت عليهم كلمة العذاب المدمر تدميراً هائلاً عجبياً، وهذه سنة الأولين. فائدة: تعليل سبب هلاك المكذبين: وهل الدين يجبر الإنسان على اعتناقه، والله يقول (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)؟ البقرة/٢٥٦؟

الجواب: الإنسان غير مجبر على التصديق بالدين السماوي، في حالة (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) وتوضّح الحق من الباطل، وألقيت الحجة الرسالية على الناس بلا شبهات، عندئذ (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) لأن الدين عقيدة مبنية على حرية الاختيار والاعتقاد، ولكن في حالة لم يتبين الرشد من الغي، ولم يتوضّح الهدى من الضلال، ولم تلق الحجة الكافية على الناس، عندئذ يقول الناس (لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) القصص/٤٧، فالمشكلة تكمن وراء التكذيب، إذ إنّ المكذب بالدين هو المكذب بالحق كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) يونس/٣٢، والذي يكذب بالحق يبتعد عنه، ويقترّب بنفس المقدار الى حضيرة الباطل، فقلب الإنسان لا يتحمّل ولا عين كقوله (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) الاحزاب/٤، يتقي الله ويطيعه في قلب، ويُرضي قوى الشر ويتعاون مع أعداء الله في قلب آخر!، وهذا شأن المنافق والفساق، بمعنى الذي لا ينصر الحق فهو مع الباطل بنفس المقدار الذي ابتعد عن الحق، وإذا

اقترب من الباطل فسوف يمتلئ بالذنوب ويسرف في الفساد، ويعمى عن اتباع الحق ويكره حملته، ويكون إلهه هواه، والهوى إله يُعبد من دون الله (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ) الفرقان/٤٣، في غرر الحكم (كيف يستطيع الهدى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى؟) ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين. (أَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ وَعَظَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ) (وَمَنْ لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ).

٤٠ - ﴿وَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا، بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

ولقد مرت عتاة قريش مراراً في تجارتهم إلى الشام بقرى قوم لوط، التي كان أهلها يعملون الخبث وهو الشذوذ الجنسي (اللواط)

وحذرهم لوط نبيهم فما نفعت بهم المواعظ، (الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا) التي أمطرت عليهم بالحجارة الانتقامية من السماء، حجارة من سجيل فأهلكتهم جميعاً، والسجيل هو طين ثقيل الوزن صغير الحجم، يكون مثل الرصاصة الحارقة الحارقة القاتلة كقوله (فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) الحجر/٧٤ (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) أفلم يروا ما نزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها نبيهم لوط فلم يتعظوا مع أنهم رأوها، وبين السبب في عدم التذكّر لم يكن سببه عدم الرؤية، بل منشؤه إنكار البعث والنشور، والاستفهام إنكاري يُراد به التوبيخ لأنهم لا يرجون لقاء الله، والذي سببه قسوة القلوب من كثرة الذنوب، إنهم يعدّون الموت نهاية هذه الحياة ولا حياة بعدها، لذلك يكون الإيمان بالمعاد ضرورة عقائدية، لأنه يخلق توازن في الفكر والسلوك، فيعطي للحياة حقها و للموت حقّه، وللجسد حقّه وللروح حقّها، والأمل حقّه وللعمل حقّه، وللدنيا حقّها وللآخرة حقّها، عن الإمام علي (ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ عَدَاً) تنبيه الخواطر ص ٤٦١، (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) بسبب قسوة تلك القلوب، والحنتم عليها وانغماسها بالذنوب! وكيف يتعظون وهم (لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) لا يتّربصون، ولا يصدّقون، ولا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجزاء بعد الموت؟ (ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبارين) وأخسر الناس من كان عبرة للناس، والحياة لغز مبهم لا يحلّه إلاّ الإيمان بالله واليوم الآخر، فأن هذا الإيمان يكشف عن فلسفة الحياة وقيمة الوجود. فائدة: ذكر القرآن كلمة مطر بمعناه السلبي الانتقامي، فيه العذاب والهلاك!، ولم يذكر القرآن المطر هو الماء النازل من السماء!

٤١ - ﴿وَإِذَا مَرَأُواكَ إِن يَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَمْ يَكُن لِّالَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلاّ موضع هزء وسخرية (أَلَمْ يَكُن لِّالَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) قائلين باستهزاء واستغراب، والاستفهام استنكاري: ألهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً؟ وهم يستخفون بسيد الكونيين! ولماذا؟ لانه ساوى بين الأسود والأبيض، وثار على الجهل والجاهلية، قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣. فائدة: إنّ أهل الإيمان بالعالم الحسّيّ والعالم المادي

فقط، لا يرون النبوة والرسول والرسالة بالحواس الظاهرة، أو بآلة تكشف ذلك لأنها تُدرك ببصيرة القلوب وتدبر العقول، وحقائق الإيمان المنبثقة من نور الله، كقوله (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِمَّن السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) الانبياء/٤٩. وهم يفقدون هذه النعمة ولم يستدوقوا هذا الحس، ولم يعرفوا هذا الإيمان، فلَمَّا سمعوا منه من كلام النبوة ما لم يفهموه ويهتدوا به ما اتَّخَذُوهُ إِلَّا هَزْوًا! وهكذا الجهل والكبر والعناد تجعل الإنسان يتعامل مع الحقائق الكبرى باستصغار ولا مبالاة واستهزاء، كالأطفال الذين يتعاملون مع الجوهرية على أنها حصى، لعدم معرفتهم قيمتها!

٤٢ - ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

هذا من كلام المشركين الصنميين الذين سخروا من الرسول (ص) لقد كاد أي أراد وقارب مُجَّد (ص)، (بأسلوبه الفني، وبلُغته العظيم، وبجته المقنعة، التي تدخل إلى مشاعرهم وتحرك عواطفهم بلا استئذان) (لَيُضِلُّنَا) أي ليصرفنا عن عبادة آلهتنا، ويشككنا في اصنامنا ويقلب قناعتنا وعاداتنا (لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) وتمسكنا بها، وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون، بأن مُجَّد له تأثير كبير على قناعتهم مع عنادهم، فزلزل قلوبهم وهم في دهشة من حُلُقه العظيم الأخاذ، حتى كادوا يتركون أصنامهم لولا أن قاموا بتأثرهم به، وصبروا على عاداتهم وآلهتهم الصنمية الحجرية، والصبر لا يكون إلا على المقاومة المؤثرة العنيفة التي لها جاذبية شديدة، وهم يسمون الهداية ضلالاً لسوء تقديرهم للحقائق، وتقويمهم للقيم، فاختلت عندهم الموازين الصحيحة!، فردَّ الله عليهم بجواب له دلالة بعيدة (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب والفرع الأكبر، من أخطأ طريقاً وأضل ديناً، أهم أم دين مُجَّد (ص)؟ وستعلمون أنكم الخاسرون بعد فوات الأوان. فائدة: ١- من عجائب سيرة الرسول مُجَّد (ص) وَحُلُقه العظيم، قد استطاع إقناع الغلاظ الشداد، أجلاف الجاهلية وقسائهم، بأسلوبه المؤثر النموذجي المميز، وهنا يكمن السر لعظمة مُجَّد (ص) حتى قال عنه خبير من علماء الغرب: لو تسلَّم مُجَّد زمام الحكم المطلق اليوم في العالم كله، لحلَّ مشكلاته بالكامل، وحقق للعالم السلام والرخاء والأمان المنشود، ٢- (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا) عبروا عن هداية الرسول (ص) لهم بالضلال، لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم، واختلال عندهم الموازين والمعايير. وهكذا منطلق الجهلاء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، في غرر الحكم (الجهلُ مُبِيْتُ الأَحْيَاءِ، وَمُحِلُّ الشَّقَاءِ) كقوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) الأنعام/٣٥.

٤٣ - ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

أرأيت يا مُجَّد من جعل هواه إلهاً له وقائداً وموجهاً، وانقاد له انقياداً أعمى؟ فأطاعه وبنى عليه قناعته واعتمد عليه، واكتفى به وأعرض عن استماع الحجج القرآنية الباهرة (أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ

وَكَيْلٍ؟) فلست متولياً أمره ومسؤولاً عنه ولا حافظاً تحفظه وتمنعه من اتباع هواه، ولا أن تزجره من الضلال والفساد، وعبادة ما يهواه ويتمناه؟ ليس الأمر لك كقوله (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) الغاشية/٢١-٢٢، وقوله (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) ق/٤٥ في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَعْلِبُهُ الْهُوَى؟) كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨. فدعه وشأنه لا يضرك ضلاله. فائدة: ١- مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ سَبِيلُ الْهُدَى فَسَبِيلُ الْهُوَى عَلَيْهِ أَضْيَقُ! لأن لذاته قصيرة وتبعاته طويلة ، وظاهر الهوى يسر ويعر ويمر وباطنه يضُرّ،

٢- (أَرَأَيْتَ) ألا تعجب، ألا تعلم باستغراب من حال هؤلاء، وتنظر إلى حقيقتهم نظرة علمية فيها التدبّر والتفكّر، والاستفهام يراد به التقرير والإغراء باندفاع برؤية هذا الأمر العجيب المنكر، الذي يتلبس به ذلك الإنسان المخدوع الضال الضائع، الذي اتخذ واعتمد إلهه هواه، يعبده من دون الله، ويعطيه ولاءه ووفاءه واتباعه ويسلم إليه إرادته، كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨. ٣- (هَوَاهُ) الهوى: ما يميل إليه الطبع والعادة وترغبه النفس الأتارة بالسوء وهواه الشهوة واللذة الحُرْمَة، بمجرد الاشتهاه من غير سند منقول ودليل معقول، وسمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه، في الحديث (مَا عِبْدَ إِلَهٍ أَبْغَضُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْهُوَى) روح البيان/٢/١٩٧، وفي غرر الحكم (لا دين مع هوى، ولا عقل مع هوى)

٤- (بلاغة الآية)

تعبير عجيب، وهو يحلل النفسية الإنسانية بأسلوب دقيق بمعنى عميق، حين تنفلت النفس من كل الموازين المعلومة، والمعايير الدقيقة الثابتة، وتخضع لهاها وشهوها، وتتعبّد ذاتها ولداتها فلا تخضع لميزان، ولا تقتنع بمنطق يخالف هواها الطاغي، والذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويُطاع، إنه الهبوط لهذه النفسية لمستوى حقير ومزير، بحيث تأنف من كل شيء جليل وجميل يخالف هواها وفتاعتها!! كقوله (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) الأنعام/١٦٤. (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) فاطر/٨. والله سبحانه يخاطب عبده في رفق وحب ومودة في أمر هذا النموذج من الناس، الذي لا ينتفع بالمنطق العلمي ولا يقبل الحقيقة، وغير قابل للهداية والاستقامة (أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلٌ؟) فيكون الهوى مصدر الغفلة، كقوله (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) الكهف/٢٨. ٥- كل مَنْ يتخلى عن هدى الله ويعرض عن منهجه، فسوف يكون هواه هو البديل، فيما يحبّ ويهوى ويرغب، من بحث عن موقع وجاه وحسن حال وغير ذلك من ملذّات الدنيا، بلا مراعاة للحلال والحرام، عن الإمام الصادق (ع) (قَلْبُ الْمُؤْمِنِ حَرَمُ اللَّهِ ، فَلَا تَسْكُنُ حَرَمَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ) البحار/٧٠ص٢٥، لا بد له أن يتبع الهدى ويتعد عن عبادة الهوى، أمّا مَنْ اقترب من عبادة الهوى، ابتعد عن هدى الله وعبادته سبحانه بنفس مقدار اتباع الهوى كقوله (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) نوح/١٤، عن النبي (ص) (إِنَّ الْجَنَّةَ

حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَالنَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ) شرح النهج ١٠ ص ١٦، وعنه (ع) (أشجع الناس من غلب هواه) في غرر الحكم (إِيَّاكُمْ وَتَمَكَّنَ الْهَوَى مِنْكُمْ، فَإِنَّ أَوَّلَهُ فِتْنَةٌ وَآخِرُهُ مِحْنَةٌ) في نهج البلاغة حكم ٢١١ (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أُسِيرَ تَحْتَ هَوَىِّ أَمِيرٍ!) في غرر الحكم (رَأْسُ الْعَقْلِ مَجَاهِدَةُ الْهَوَى، فَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ)، عن قتادة في الآية (كلما هوى شيئاً ركبها، وكلما اشتهى شيئاً آتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى) في غرر الحكم (من لم يُسس نفسه أضعافها) وفيه أيضاً (مَنْ لَمْ يَهْدَبْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ) وفيه أيضاً (مَنْ لَمْ يَهْدَبْ نَفْسَهُ فَضَحَهُ سُوءُ الْعَادَةِ) وفيه أيضاً (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ)، والخلاصة: كل من تغلب هواه على دينه، فقد اتخذ إلهه هواه، وصار الشيطان قائده وقرينه ومناه، كقوله (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) النساء/ ٣٨.

٤٤ - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

(أَمْ تَحْسَبُ) أيظن أن أكثر هؤلاء المشركين والمعاندين (يَسْمَعُونَ) مستعدون لسماع الحق ويتفهمونه لا تباعه، فترجو هدايتهم وتبالغ في دعوتهم؟ أم تحسب أنهم (يَعْقِلُونَ) يتدبرون ويتفكرون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين، الدالة على وحدانية الله، فتعنى بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) ما هم إلا مثل البهائم في أنها لا تعقل ولا تتفكر ولا تسمع إلا اللفظ ولا تعرف المعنى، وسميت بهائم لأن لها أصوات مبهمة لدى الإنسان، وصوت رسالة النبي (ص) مبهم لديها فلا تفهم ما يقول، فهم كذلك مثل البهائم (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)؛ بل هم أبشع حالاً وأسوأ مالأً، من الأنعام والبهائم السارحة، لأنها لم تجهز بالعقل المفكر وهؤلاء مجهزون به ومع ذلك لا يستفيدون منه فضلوا وأضلوا كثيراً، ولأن البهائم تهتدي لمراعيها وتنقاد لأربابها وتعرف من يُحسن إليها ولا تفعل ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم بل يكفرون به، وإذا تمكّنوا من معرفة القرآن فلم ينتفعوا منه، وهم لا يعرفون إلا منطق القوة أو منطق الترغيب والترهيب، كقوله (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الأنفال/ ٢٢-٢٣.

فائدة: ١- سواهم الله سبحانه بالبهائم التي لا تعقل، ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام الى درك أسفل وأحط! فإن الإنسان حين يتجرد من خصائصه يكون أحط من البهيمة، لأن البهيمة تسبح الله تعالى وتهتدي إلى وظائفها بغيرتها بشكل كامل، بينما يهمل الإنسان الضال ما أودعه الله من خصائص نموذجية ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة!! والسبب لأن أجهزة الاستقبال والتفكير عنده قد عطّلها عن وظيفتها فصار أضلّ سبيلاً، ولم يعرف إساءة الشيطان كم هي خطورتها عليه؟ وهو الذي زين له سوء عمله فرآه حسناً كقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/ ٨، ٢- (أَكْثَرُهُمْ) ذكر أكثرهم ولا يعمم، لأن قلة منهم كانت تجنح

إلى الهدى، روي (ركب الله في الملائكة عقل بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل مفكّر، وجمع في البشر كليهما للابتلاء والاختبار، فإن غلبته الشهوة فهو أضل سبيلاً من البهائم (أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) البينة/٦، روح البيان/٦/٢١٩، وإن غلبه العقل فهو أفضل من الملائكة الكرام (أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، ٣- الآية بيان لهذا الهوى الذي يُعْمِي ويصم، الذي استولى على القوم في قوله (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ) الفرقان/٤٣، واستبد بعقولهم وتفكيرهم وجعلهم أضل من الأنعام، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!! في غرر الحكم (العقل والشهوة ضدان، مؤيّد العقل العلم، ومُزَيِّن الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما، فأيهما قهر كانت في جانبه)

٤٥-٤٦- ﴿الْمَرْتَرِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (أَلَمْ تَرَ) ألم تنظر (إِلَى رَبِّكَ) إلى بديع صنع الله كيف (مَدَّ الظِّلَّ) بسط تعالى الظل اللطيف ومدّه ونشره وقت النهار برفق ونظام حتى يستريح الإنسان بظل الأشياء على إطلاقها من حرارة الشمس؟ معنى الظل: المساحة التي لا تشرق عليها الشمس، ولولا الظل لأحرقت أشعة الشمس الإنسان وكدرت حياته، والاستفهام للأمر وإفادات النظر لهذا الموضوع (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) لو أراد سبحانه لجعل الظل (سَاكِنًا) ثابتاً في مكان واحد لا يتحرك عندما يجعل الأرض ساكنة، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، مع حركة الأرض وحركة الشمس، فيتغيّر حجم الظل، وكل حركة لها محرّك وكل نظام له منظّم (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) دليلاً: علامة، لولا الشمس لم يكن للأرض ظل، فوجود الشمس يدل على وجود الظل، وتُعرف قيمة الأشياء بأضدادها، ولولا الظلام ما عُرف النور، وهناك هدى وضلال، فلولا الهدى ما عرف الناس خطورة الضلال، ولولا الضلال ما عرف الناس أهمية الهداية، وهكذا.

فائدة: وأسند هذه الظاهرة إليه سبحانه، لأنه خالق الأرض والكون والمنظومة الشمسية، والقصد التذكير بنعمة الظل في الأجواء الشمسية، يترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار، واختلاف الفصول الأربعة، وحصول مصالح الناس، وهذا من الدلائل على قدرة الله وكماله ورحمته بعباده وأنه وحده المستحق للعبادة، ٤٦- (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) ثم أنزلنا هذا الظل ومحوانه بالتدرّج المنظّم شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلاً، لا دفعة واحدة بحسب حركة الأرض والشمس، لئلا تختل المصالح العامة (وَوَخَّلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢.

٤٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سَبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾

وهو سبحانه من رحمته بكم، أن جعل لكم من باب التشبيه، الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته، وجعل الزوج لباساً لزوجته كقوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ) البقرة/١٨٧، وجعل التقوى لباساً في قوله (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) الأعراف/٢٦، على سبيل

التمثيل والتشبيه. (وَالنُّوْمُ سُبَاتًا) وجعل النوم (سُبَاتًا) راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم وتوقف حواسك (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) وقتاً لانتشار الناس لطلب الرزق، أو بعثاً من النوم فيكون النوم بمنزلة الموت المؤقت، النشور هنا: بمعنى التفرّق لابتغاء المعاش، كما يبعث الموتى من القبور للحساب. قال لقمان: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتُنشِر، وعن النبي (ص) (كَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ، وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تُبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٠، وعن النبي (ص) إذا أصبح قال (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) الأمثل ١١/٢٤٣، كقوله (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) الزمر/٤٢، في غرر الحكم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فَيْكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَحُذْ مِنْهُمَا) فبادر باستثمار شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وقوتك قبل ضعفك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

٤٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾

وهو سبحانه (أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا) مبشرات بإقبال رحمته بنزول الغيث (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً (طَهُورًا) صيغة مبالغة في طاهر، أي ماء بالغ الطهارة كقوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) التوبة/١٠٨، فالله سبحانه اراد الحياة طاهرة نقية كما أراد القلوب سليمة ونقية، فالماء طاهر في نفسه مطهر لغيره (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء/٣٠. فائدة: ١- ومن رحمته سبحانه أنه أرسل الماء الطاهر من السماء من مكان إلى مكان، لأنه لو دام واستمر في مكان واحد لهلك أهله غرقاً، ولو انقطع عنهم كلياً لماتوا عطشاً، وعلى كل عاقل أن يتدبّر هذه الحكمة والنعمة ويشكر الله عليها، ٢- يأتي معنى (الرِّيحَ) في القرآن مع الرحمة كقوله (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ) الحجر/٢٢، بينما يأتي الريح مع النعمة كقوله (الرِّيحَ الْعَقِيمِ) الذاريات/٤١، ويأتي إنزال الماء الطهور من السماء بمعنى الغيث، بينما يأتي المطر بعنوان العذاب (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) النمل/٥٨، ٣- عن النبي (ص) (جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا) وعنه (ص) (لَا صَلَاةَ إِلَّا بِطُهُورٍ) وعنه (ص) (دُمٌّ عَلَى الطَّاهِرَةِ، يُوسِّعُ عَلَيْكَ الرِّزْقَ) روح البيان ٦/٢٢٤.

٤٩- ﴿لِنُخَبِّئَ بِهِ بَلَدَةً بَيْنَا وَسُفْيِهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْسِيًّا كَثِيرًا﴾

(لِنُخَبِّئَ) بهذا الماء من السماء أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا نبات، لبيان أن الماء هو أصل الحياة ومبعثها (وَأَنْسِيًّا مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْسِيًّا كَثِيرًا) وأناسي: أناساً كثيرة، وليشرب منه أنواع الحيوانات والكائنات والإنسان لأن الماء حياة كل حي، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وسقي مواشيتهم، وفي تقديم الأنعام على الناس إشارة إلى أن رحمة الله تسري في الكون والكائنات جميعاً، وقدم الأضعف على الضعيف للاهتمام به، وهذا يجعلنا نزداد عناية بضعاف المجتمع، هم أولى بالرعاية في نظام التكافل الاجتماعي العام!، فائدة: قال (مِمَّا خَلَقْنَا) ولم يقل

(من خلقنا) قدم (ما) لغير العاقل لبيان أن الأنعام لها عند الله تعالى وزنها وتقديرها، فقد كفل الله سبحانه حاجتها، وقدم مطلوبها على مطلوب الإنسان، شأن الأب يرعى صغاره وينظر إلى حاجة الصغير قبل الكبير.

٥٠ - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُنُوزًا﴾

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) ينتقل السياق القرآني من استعراض المشاهد الكونية، إلى استعراض المشاهد التدوينية المميّزة، إلى استعراض فاعلية القرآن الكريم، الطاهر بذاته والمطهر لغيره، المحيي للنفوس، النازل من السماء لتطهير القلوب وتزكية الأرواح، وكيف يستبشرون بالماء المحي للأجسام، ولا يستبشرون بالقرآن العظيم المحيي للأرواح؟ ضمير (صَرَّفْنَا) يجوز أن يعود إلى القرآن وهو الأقوى، فيكون معنى (صَرَّفْنَا) كرنا، بمعنى قوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) الإسراء/٤١، و يجوز أن يعود إلى الغيث (الماء) وهو الأقرب في المبنى والأبعد في المعنى، فيكون معنى (صَرَّفْنَا) قسّمنا الماء بين البلدان، والأرجح أن ضمير (صَرَّفْنَا) عائد على القرآن، لأن قوله (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) الفرقان/٥٢، فكان الرسول مُجِدِّ (ص) يجاهدهم بالقرآن العظيم جهاداً كبيراً وحجة قاطعة، ولا يجاهدهم بالماء (لِيَذَكَّرُوا) أي ليتذكروا ما أودعناه في فطرتهم من المعارف، والعقائد الأولية الصحيحة التي يتذكرها يهتدي الإنسان إلى معرفة الحق وتمييزه عن الباطل، أو (لِيَذَكَّرُوا) ليتفكروا ويتدبروا ويتفهموا حقائق القرآن، كقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) ص/٢٩.

(فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (فَأَبَىٰ) من الإباء و شدة الامتناع.

(أَكْثَرُ النَّاسِ) إلا كفوراً، أي كفران النعمة وقلة المبالاة بشأنها، وعدم شكر منعمها والوجود بوحدانية الله وشريعته، لفساد أخلاقهم وطبائعهم وقسوة قلوبهم، وهذه من صفات اللؤماء، إذا أخذوا فوق مقدارهم تنكرت أحوالهم! ومن طبيعة اللؤم يكون قسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، واللئيم لا ثقة به فإنه يخذل من اعتمد عليه، وأيضاً أنعم الله سبحانه على عباده بكل نعمة ظاهرة وباطنة كقوله (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) إبراهيم/٣٤، من نعمة العقل المفكّر إلى إنزال الكتب السماوية وإرسال الرسل، ومن انزل الماء من السماء إلى ينابيع النفط والغاز والمعادن التي تتفجر من الأرض وغيرها ما لا يحصى، ومع ذلك كفروا بالله ونفروا من الحق (فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢ (مَنْ صَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَاجْحُرْ عَلَيْهِ أَصْبِقُ) كقوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) الكهف/٥٤، قال غاندي زعيم الهند (طريق الحق ضيق مثلما هو مستقيم، والسير عليه يستدعي الاحتفاظ بالتوازن كالسير على حد السيف، فأقل سهوة تردي بالإنسان إلى الحضيض، ولا يستطيع الإنسان أن يدرك الحق إلا بالكفاح الذي لا ينقطع). فائدة: (صَرَّفْنَا) أي كرنا على وجوه شتى، وضرنا أمثاله، وتصريف

القرآن: بمعنى تنويع حججه وعرض حقائقه ومقرراته التي تهدي للتي هي أقوم، في صور وأساليب مؤثرة متعددة بين الایجاز والتفصيل، والتصريح والتلميح، والدلالات والإشارات، وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم وأذهانهم، ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب التأثير بنفوسهم، وبكل وسيلة تحرك مشاعرهم وضمائرهم، (لِيَدَّكَّرُوا) ليعتبروا ويتدبروا، فما يحتاج الأمر أكثر من التذکر، (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢ في غرر الحكم (الإِعْتِبَارُ يُثْمِرُ الْعِصْمَةَ).

٥١ - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾

كان عدد الرسل قبل مُجَّد (ص) مساوياً لعدد الأمم كقوله (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ) يونس/٤٧ وقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧ وقوله (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر/٢٤، ثم ختم سبحانه بمحمد (ص) جميع الرسل، حيث أرسله بشريعة إسلامية متكاملة جامعة مانعة نموذجية، سهلة سمحة تسع الإنسانية جمعاء، في جميع أنحاء العالم، في جميع أممها وأجيالها وأعراقها وأماكنها وأزمانها، لأنها تنسجم مع فطرتهم، فدين مُجَّد (ص) هو الدين الإسلامي العالمي القيم الأخير الخاتم للإنسانية كلها، الدين الكامل بذاته والمكمل لغيره، ومن أجل هذا أخذ الله عهداً على كل نبي أن يبشر به وبصفاته المميزة ويمهد له النفوس (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) آل عمران/٨١، وبهذا التكريم والتعظيم من الله سبحانه، كان لمحمد (ص) المنزلة العليا على جميع الخلق والأنبياء والرسل (ع) لأن عليه مسؤولية ضخمة شاقّة وهو يواجه البشرية كلها!!، وقد ذكر الله سبحانه رسوله الأعظم (ص) بهذه النعمة الممزوجة بالمعاناة حيث قال له.

المعنى: (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا) (وَلَوْ شِئْنَا) نعم شئنا وأردنا وكانت من سنتنا الثابتة، أن بعثنا في كل قرية وأمة ومجتمع نذيراً ينذرهم، أينما كانوا في أنحاء العالم، ورسولاً يبلغهم رسالتنا ويعلمهم حاجتنا، فتتوزع المشقة وتحف عليك مسؤولية التبليغ وأعباء الرسالة وأداء الأمانة كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، نعم أوكلنا إنذار وتخويف القرى والأمم كلها لكل رسول، ولكن خصصناك يا مُجَّد بالبعثة والرسالة إلى جميع أهل الأرض كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) سبأ/٢٨ وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧ إليك وحدك تعظيماً لشأنك ورفعة لمقامك، لأن العظمة على مقدار التكليف وثقله، وتكون الهمة على قدر المهمة، ويكون التشريف على قدر التكليف، واصطنعه وأعدّه الله هذه المسؤولية الكبرى لالقاء الرسالة الإسلامية القيمة على الناس، كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨، ولأن ما في سنتك وسيرتك وقرآنك يُعني عن إرسال الرسل، فقابل هذا الإجلال والتكريم بالثبات في تبليغ الدعوة وإظهار الحق، إلى أقصى مكان يمكن الوصول إليه،

لذلك أرسل محمد (ص) رُسُلَه إلى الملوك والأمراء في العالم بقوله (أسلم تسلم! فإن لم تسلم فعليك إثم قومك!) كقوله (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) النحل/٨٢، ولست مسؤولاً إذا عرضوا عن الرسالة، كقوله (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) الغاشية/٢١-٢٢.

٥٢ - ﴿فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

(فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ) فيما يدعونك إليه من المداينة والاستجابة لأهوائهم كقوله (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) القلم/٩ (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ) أي بالقرآن الكريم لإزاحة باطلهم، بالجهاد العلمي والرد على الشبهات (جِهَادًا كَبِيرًا) ثقافياً شاملاً بالغاً نهايته، في إلقاء الحجة الواضحة عليهم، جهاداً لا يصاحبه فتور لبيان حقائق القرآن لهم، فهو سلاحك وحجتك القاطعة، ولا تدع فرصة مناسبة إلاّ وتبلغ القرآن وتتلوه على مسامعهم أحبوا ذلك أم كرهوا، ولا يصدّتك أذاهم عن إعلانه وفي ذلك الجهاد الأكبر، وعنه (ص) (أفضلُ الجهاد كلمةٌ عدل عند سلطان جائر) الكاشف/٢/١٢٤، وفي مجتمع جاهل كقوله (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) الحجر/٩٤، وإنّ في هذا القرآن من القوة والتأثير العميق، والجادبية التي لا تقاوم، فهو يهزُّ قلوبهم هزّاً، لقد كان قادة قريش يقولون للجماهير محذرين من تأثيره (لا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فصلت/٢٦ وكانت هذه الآية تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم من تأثير هذا القرآن على الناس والتعلق به.

٥٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

مرج: خلط، وهو الله الذي (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أي خلطهما وجمع بينهما، وهما متجاوران متلاصقان بحيث لا يتمازجان! (عَذْبٌ فُرَاتٌ) شديد العذوبة والحلوة والطيبة، سائغ شرايه تقبله النفس، يروي العطشان (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) وهذا ملح شديد الملوحة (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا) برزخاً: فاصلاً قوياً محكماً واضحاً بين الماءين، وجعل بينهما حاجزاً من قدرته سبحانه!، يمنعهما التمازج، ولا يغلب أحدهما الآخر، ما أعجبها من ظاهرة مكشوفة وحالة معروفة (وَحِجْرًا مَّحْجُورًا) سترأ ممنوعاً، وحاجزاً حصيناً والمعنى هنا على التشبيه، أي يكون هذا الحجر هو الحاجز غير المرئي مانعاً من تلاقيهما، ومنعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر، وعدم الامتزاج به لمدة طويلة، بسبب اختلاف درجة الكثافة، فتدفع مياه الأنهار العذبة مياه البحار المالحة إلى الوراء، وتشكل بذلك بحراً عذباً داخل البحر المالح (الملح) وهذه الظاهرة مع حركة المد والجزر تساعد على سقي مناطق زراعية واسعة. فائدة: ١- أن الله سبحانه جعل الماء المالح (الملح) أرض منخفضة يركد فيها الماء، وجعل مجاري الماء العذب كالأنهار والعيون والجداول في أرض مرتفعة عن سطح البحر، بحيث يصب الماء العذب في الماء المالح (الملح) فيبقى العذب على عذوبته والمالح (الملح) على ملوحته.

ولو انعكس الأمر: فصار الماء الحلو في أرض منخفضة والماء المالح (الملح) في أرض مرتفعة، وصبّ المالح في العذب، لأفسد المالح العذب وصار الماء كله مُرّاً، ووقع الناس في ضائقة! وليس هذا من باب الصدفة بل هو بتدبير وتقدير فسبحان الذي (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢.

كقوله (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) الرحمن/١٩-٢٠، ٢- فكما لا يختلط الماء العذب بالماء المالح (الملح) كذلك لا يمكن أن يختلط الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والصح بالخطأ، ولا يختلط الاخير بالأشرار، وهكذا، وإن هذه السنن الكونية تلتقي مع السنن الإنسانية بعلاقة منظّمة، حيث يوجد أخير وأشرار في ظروف وبيئة واحدة، حيث يمجج بعضهم في بعض، وحيث تتشابه صورهم تتشابه الماء والماء، ومع هذا فإن بين الأخير والأشرار برزخ وحاجز وهو (الدِّينُ الْقَيِّمُ) الروم/٣٠، يمنع الاختلاط بينهما كقوله (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨. إنّ الآية من الاعجاز العلمي للقرآن الكريم، تكشف عنه في روعة التصوير ودقة التمثيل، وجمال البيان، وإذا (مَرَجَ) اختلط أمر الدين بأمر الدنيا واضطربت المقاييس ف (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) المائدة/١٠٥، عن النبي (ص) (مختصر) (إذا رأيت الناس مرجت خلطت) عهودهم، وخفت أمانتهم، فالزم بيتك واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بخاصة أمر نفسك، ودع عنك أمر العامة)!

٥٤ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

تذكر الآيات السابقات نظام السنن الكونية، وتنتقل إلى نظام السنن البشرية لوجود العلاقة المنظمة بينهما، فتلفت النظر عندما بدأت الآيات تنتقل من ماء السماء وماء البحر وماء النهر إلى ماء النطفة المهينة (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ) الرسائل/٢٠، هذا الماء المهين يحمل عناصر الوراثة للجنس البشري كله، المعنى: وهو الله تعالى الذي خلق من ماء النطفة إنساناً محترماً في أحسن تقويم، وأعدّد تركيب، وأتقن صنع، وكرّمه أحسن تكريم، وفضله على كثير من المخلوقات (فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) الصهر: أهل بيت المرأة بالنسبة لزوجها، ويقال أصهر إلى فلان أي تزوج ابنته أو أخته، قسّمهم من نطفة واحدة قسمين: (نَسَبًا) ذوي نسب أي: ذكور يُنسب إليهم، لأن النسب إلى الآباء (وَصِهْرًا) وإناث يُصاهرُ بهن (قراة بالمصاهرة) فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة (والزواج) تكون المحبة والمودة والرحمة، واجتماع الغريب بالقرب (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) مبالغاً في القدرة على كل شيء، حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى، تتعدد أشكالهما وتنوّع صفاتهما وتختلف أدوارهما وتتحد أهدافهما، فيكونان في تعدد أدوار ووحدة هدف مشترك، وهذا يدلّك

على قوله تعالى (بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) الحج/٦٢، فائدة: ١- (نَسَبًا وَصِهْرًا) وقدّم علاقة النسب على علاقة المصاهرة، لألوية قرابة النسب على علاقة المصاهرة، وأن الله تعالى أمتنّ بالنسب والصهر على عباده، ورفع قدرهما وعلّق الأحكام في الحل والحرمة عليهما.

٥٥- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ مَرِّهِ ظَهِيرًا﴾

ورغم تلك القدرة الإلهية القادرة القاهرة فوق عباده، فمن المستغرب أن يبقى هؤلاء على كفرهم!، يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل تضر ولا تنفع، لأنها جمادات لا تحس ولا تبصر ولا تعقل، تضرهم لأنها تجعل الإنسان في وهم، وتخدعه وتبعده عن معرفة الحقيقة، وتضله ضلالاً بعيداً.

كقوله (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الزمر/٣ وقوله (أَقَمْنَ زِينَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨ فالأصنام تشفع لهم عند الله وتقربهم منه سبحانه، وهكذا يخدع الإنسان نفسه (وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) ظهيراً: نصيراً ومعيناً على رسوله بالعداوة، من سوء الإدراك والجهل والحماسة، أي يعين حزب الشيطان على حزب الرحمن، ويريد التعبير القرآني أن يفضّح هذه الجريمة ويُبشّعها، فيصوّر الكافر عبثاً وثقلاً على منهج الله، وحرماً على ربه ومولاه، حين يجارب رسول الله!! وكان الكافر معيناً ومتابعاً ومناصراً للشيطان على معصية الرحمن وضلال الإنسان، لأن عبادة الشيطان وطاعته من دون الله بأية نوع من أنواع العبادة المنحرفة، فهي معاونة للشيطان ونصرة لوساوسه ليصدّ الناس عن منهج ربه الكريم، كقوله (إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الأعراف/٣٠ وقوله (الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) محمد/٢٥، وكل من أعان الباطل، وساعد الظالم، ونصر الفاسق، فقد أعان على الله ونصب له العدا، وخذل الحق والذين آمنوا بنفس مقدار ذلك العون، وأن كان يتظاهر بالإيمان والقداسة والجاه والوقار!، كقوله (وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا) النساء/٨٥، كفل: نصيب، عن النبي (ص) (مَنْ دَعَىٰ لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ فِي أَرْضِهِ)! البحار/٧٥/٣٣٤، فائدة: ويأتي معنى ظهيراً: هيناً ذليلاً، المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً، لا قدر له ولا وزن له عنده سبحانه كقوله (فَحَبِطَتْ أَعْمَاهُمْ فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَنًا) الكهف/١٠٥.

٥٦- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا) بجنات النعيم لمن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى (وَنَذِيرًا) ومحدّراً بالعقوبة لمن كفر واعتدى بعذاب الجحيم، أما النتائج فلست مسؤولاً عنها، ولم يكن بعد مأموراً بقتال المشركين، وليس لك وراء ذلك من مسؤولية كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨، فلا

عليك إن كانوا معاندين لربهم فما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون. كقوله (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) الغاشية/٢١-٢٢، وما أرسلناك وكيلاً عليهم، ولا حافظاً لهم، ولا مسيطراً على عقولهم، أما واجبك البلاغ الواضح كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، وهكذا مسؤولية كل مؤمن أن يبلغ الرسالة السماوية بحسب قدره ومقدار ما يحسن، كقوله (وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصافات/٢٤.

٥٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ مَرَبِّهِ سَبِيلًا﴾

قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة، وراء دعوتي لكم إلى الله بالقرآن والحق والهدى (من أجراً) مادي من مال ومتاع، أم أجر معنوي من جاه وسلطان أطمع فيه لنفسي، أو لمصلحتي الخاصة، حتى تتهموني باستدرار النفع به، وتقولون إنما يدعوننا ليأخذ أموالنا ومن ثم لا تتبعه حتى لا يكون له في أموالنا مطمع، (إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) الاستثناء منقطع في معنى متصل، هذا وحده هو أجره، (إِلَّا مَنْ شَاءَ) بإرادته (أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ) (سَبِيلًا) طريقاً هو استقامة المطيعين، وإيمان المؤمنين بالتقرب إليه سبحانه، بالإيمان الصادق والعمل الصالح للفرد والمجتمع، الذي ينتهي بكم إلى النجاة والفلاح، فذلك أجري وهذا قصدي، وبذلك سعادتني، ومن ضلّ فهو مسؤول عن نفسه، كقوله (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) الشورى/٢٣. وهي مودة أهل بيت النبي (ص) وعلق اتخاذ السبيل على مشيئتهم للدلالة على حرمتهم الكاملة في اختيار طريقهم، وهم مسؤولون عن هذا الاختيار ومحاسبين عليه.

فائدة: ١- يجوز أخذ أجور (غير محددة، وغير مشروطة) على التبليغ الإسلامي الهادف، بمختلف موارده وأنواعه، سواء أكان بالتدريس أو موجّه الحجاج أو بتعليم القرآن والفقّه وغيرها، على أنه هدية وتكريم وتقدير على عمل اختصاص مفيد للمجتمع، وليس مقابل التبليغ كقوله (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) يس/٢١، عن النبي (ص) (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بَعَمَلِ الْآخِرَةِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) كنز العمال خبر ٢٩٠٦٧، فإن ما من نبي دعا إلى الله إلا قال إن أجري إلا على الله، ٢- عن النبي (ص) (الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ بِعَدَدِ أَنْفُسِ الْبَشَرِ!) فكل إنسان مؤمن يسعى إلى العمل بمنهج الله كل بحسب قدرته وامكانيته، وهذه ثمرة جهود وجهاد رسول الله (ص) مؤثرة واضحة في أي زمان ومكان كان.

٥٨- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْيَأْسُ وَبِحَمْدِهِ وَكُنْ بِهٖ ذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾

توكل: اعتمد على الله الحي القيوم القائم الدائم، واتخذة وكيلاً في جميع أمورك، فهو ربّ كلّ شيء ومليكه واجعله ملجأك وذخرك وفوض إليه أمرك كقوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان/١٧، أصل التوكل: أن يعلم العبد بأن الكائنات والمكونات والحادثات كلها صادرة

من الله، ولا يقدر أحد على اليجاد والخلق غيره كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩ ، فيفوض أمره إلى الله في كل شؤون الحياة، كقوله (وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) غافر/٤٤، في غرر الحكم: (في التَّوَكُّلِ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ)، (أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ)، (وَعَلَى قَدْرِ الْإِيمَانِ يَكُونُ التَّوَكُّلُ) المعنى: إعتد في جميع أمورك على الله الواحد الأحد الدائم الباقي الحي الذي لا يموت أبداً، وغيره فاني و كل ما عدا الله ميت لأنه صائر إلى الموت (فَمَنْ إِتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) مِنْ رَحْمَتِهِ، فإن الله بقدر ما تكون معه يكون معك، فإنه كافيك وناصرك، فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس ذلك عن عجز أو جهل بذنوبهم، وإن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته وباستحقاق منهم.

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) أي نزهه بالثناء عليه وعظمه بأوصاف الكمال، أحمده منزهاً له عملاً يجوز عليه في صفاته من الجهل والنقص والعجز.. إلخ، فقل: الحمد لله حمداً يكافئ نعمه وكرمه في عظيم المنزلة وعلو المرتبة، وهنا أقرن التوكل بالعبادة الخاصة لوجه الله، على قدر العبادة يكون التوكل كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، ويأتي التسييح تارة للثناء على الله ومدحته، وتارة يأتي التسييح للتعجب والتعظيم!، (وَكَفَى بِهِ بَدُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا) الخبير بالشيء العليم بظاهره وباطنه وبكل ما يتصل به، حسبك الله فإنه مطلع على أعمال عباده كلهم، ولا يخفى عليه شيء منها، فهو خبير بأحوالهم قادر على مجازاتهم، فلا يحتاج إلى من يعينه في عمله أو في حكمه كقوله (الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا) الفرقان/٥٩، ولا يضررك من أعرض واستكبر فإن الله له بالمرصاد.

فائدة: ١- في دعاء الإمام زين العابدين (ع) الدعاء (٥٠) (يا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وكيف يخفى عليك يا إلهي ما أنت خلقتهم، وكيف لا تُخفي ما أنت صنعتهم، أو كيف يغيب عنك ما أنت تُدبره) الصحيفة السجادية ص ٢٠١، كقوله (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) إبراهيم/٣٨، وكيف يخفى عليك شيء منا وأنت أقرب إلينا من حبل الوريد؟! ، ٢- التوكل على الله لا يعني التواكل والكسل وعدم العمل، وترك ما هو واجب السعي، ويجب اتخاذ الأسباب وسائط أمرنا باتباعها باعتبار في غرر الحكم (لكل شيء سبب) ويقدر اتخاذ الأسباب اللازمة يكون التوكل الصحيح، كقوله (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) الإسراء/١٩، و إنما يعمل بقدر الوسع، واستعين بالله في كل أمر، فكلما يقترن السعي بالوعي كذلك يقترن التوكل بالتسييح والحمد العمليين.

٣- (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ) وكل ما عدا الله ميت، في نهج البلاغة حكم ٢٩ (إذا كنت في إذرارٍ والموت في إقبالٍ فما أسرع الملتقى) والتوكل والاعتماد على إنسان تفارقه الحياة يوماً ما، هو ارتكان إلى ركن ينهار وإلى قدرة تتبدد في يوم ما، إنما التوكل والاتجاه إلى الحي الدائم الذي لا

يزول، فكانت منه بداية الخلق وإليه تعود النهاية، فهو أحق بالاعتماد عليه كقوله (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) الطلاق/٣، لذلك الذي يعرف كيف ينتهي ليكون فائزاً، يعرف كيف يبدأ ليكون موفقاً.

٥٩- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾
الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من العدم، في ستة مراحل زمنية من مراحل التكوين، وهذه الأيام كناية عن الدفعات والأطوار، حيث لا زمان ولا أيام قبل الكون، وإنشاء الأشياء على الترتيب والتنظيم المقدر والمدبر للدلالة على أن الفاعل عليم حكيم، وهذا ما يتفق مع العلم الحديث الذي يقول: إنَّ الكون لم يتم دفعة واحدة (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) ثم استولى على الملك، الاستيلاء والسيطرة (عَلَى الْعَرْشِ) على مركز القوة والسلطان والملك العظيم والتدبير فيه، فلا تخرج ذرة عن سلطان الله كقوله (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) الأنعام/٥٩، ليس الله تعالى جسماً كي يجلس على العرش المادي المحسوس والملموس، وإلا افتقر إلى حيز ومكان، وهو الغني عن جميع ما خلق، وعليه يجب تأويل الظاهر بمعنى استولى وتمكَّن على الملك على مقتضى حكمته وقدره وتدبره أحسن تدبير (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان/٢) (الرَّحْمَنُ) صاحب الملك والسلطان الذي أقام الوجود على الرحمة، وبالرحمة ملك الموجودات ودبر شؤونها وقدر مقامها، وبالرحمة خلق الإنسان المكرَّم (إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) هود/١١٩، وبالرحمة يستند النظام التشريعي (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ) الرحمن/١-٢، وبالرحمة تقام حقيقة القيامة والحساب (كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ) الأنعام/١٢، (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) فإن أردت شيئاً فاسأله، فإنه مطلع بالكامل على حاجة المخلوقات (وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) فاطر/١٤ (فإذا سألت فسأل الله)، (أو) الرحمن فاسأل به عالماً خبيراً بالعرفان يخبرك عنه سبحانه بما يعرف، أي يرجع الإنسان بأي سؤال إلى أصحاب الاختصاص كقوله (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الأنبياء/٧، فائدة: سؤال: لماذا خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وهو القائل (أَمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢؟ والجواب: ليعطي درساً بليغاً لعباده أن الدنيا قامت على التدرج في الأمور، فينبغي اتخاذ الأسباب اللازمة لإنجاز الأشياء المطلوبة، مع الزمن الكافي والصبر عليها، فإن المسألة تتعلق بحاجة المخلوق إلى الوقت في وجود الأشياء لا إلى حاجة الخالق إلى الوقت! ليعرف الإنسان أهمية الوقت وقيمة الزمن وأنه رأس ماله وعمره الوحيد في هذا الوجود، قيل (مَا نَفَعَلُهُ خِلالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُجِدُّ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِنَا يُجِدُّ مَا نَكُونُ)!.

٦٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَرَادَ مُرُّ قَوْمِهِ﴾

وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم المعنى: (قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ) اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصاً دون الآلهة، فهو الذي أنعم عليكم بسائر النعم ودفَع عنكم النقم (قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟) نحن لا نعرف الرحمن فسجد له كقول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) الشعراء/٢٣، كانوا يقولون ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر يقول (يا رحمن) ويحببهم قوله تعالى (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) الإسراء/١١٠ فأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه (أَنْسَجِدُ لِمَا تُأْمُرُنَا) أنسجدُ للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه؟ (زَادَهُمْ نُفُورًا) وزادهم هذا القول (نُفُورًا) بُعداً عن الدين، ونفوراً وانزعاجاً منه، وزيادة كفر وفساد وإصرار على الاستكبار والضلال! كقوله (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) نوح/١٣.

فائدة: ١- (اسْجُدُوا) أي صلوا، وعبر عن الصلاة بالسجود لأنه من أعظم أركان الصلاة، وهو منتهى العبادة من بني آدم، وأقرب الصلوات بالله كقوله (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) العلق/١٩، فلا يحق السجود لغير الله على وجه التعظيم، أما سجد إخوة يوسف ليوسف من باب التحية والتوقير لمقام يوسف النبي (ع) وهو عرف اجتماعي في ذلك الزمان وكالانحناء الذي كان عند بعض الملل للاحترام، ومن الصفات التي لا تخلو من إشكال، هي الانحناء لبعض القيادات الروحية أو السياسية، وتقبييل الأيدي فإنها صفة تبعث على المدلة والتربية الاجتماعية الخاطئة حتى قيل: لا تُقبلنَّ يداً فقد قيلَ عنها، أمَّا السجدة الصغرى!! ٢- لماذا (وَزَادَهُمْ نُفُورًا)! آيات القرآن الكريم تؤثر إيجابياً في القلوب السليمة، أما القلوب القاسية والمعاندة فلا ينتفعون منها بل تزيدهم نفوراً، كقطرات المطر الباعثة على الحياة والأمل، تنمي الورد والخضرة في البستان، ويظهر الشوك في الأرض السبخة!، ونحن نقول ربنا زدنا لك خضوعاً، ما زاد الكفار نفوراً.

٦١- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾

تَبَارَكَ: تعظيم الله، وكثرت الآؤه و نعمه، وكثر خيره وبركته، البروج: مدارات الكواكب ومنازلها. المعنى: تمجيد وتعظيم الله الذي (جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) مواقع ومنازل تلك الكواكب العظيمة المنيرة وجعل فيها (سِرَاجًا) وهي الشمس المتوهجة في النهار ونورها ذاتي تضيء العالم (وَقَمَرًا مُنِيرًا) والقمر المضيء بالليل، ونوره مكتسب من الشمس، فائدة: (جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) جعل الله البروج في السماء الدنيا، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وهي اثنا عشر برجاً ظنية الدلالة، جعل أيضاً في سماء نفسك بروج حواسك، وسراج روحك وقمر قلبك منيراً بأنوار الروحانية الخاصة، فعليك بالاجتهاد في تنوير روحك، وتخليص قلبك من الظلمات النفسانية، لتستعد لأنوار التجليات وعالم الكشف. في غر الحكم (دَرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُوؤُ التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) وفي القلب بروج: وهي برج

الإيمان، و برج المعرفة، و برج العقل، و برج اليقين، و برج الإسلام، و برج الإحسان، و برج التوكل، و برج الخوف، و برج الرجاء، و برج المحبة، و برج الشوق، و برج الوله، فهذه اثنا عشر برجاً بها دوام صلاح القلب. وقيل: تشير الآية إلى سماء القلوب، و بروج المنازل و المقامات التربوية عالية المضامين، وهي اثنا عشر منزلاً: منزلة التوبة و الزهد و الخوف و الرجاء، و التوكل و الصبر و الشكر و اليقين و الإخلاص، و التسليم و التفويض و الرضا، وهي منازل سيّارات الأحوال، فيها شمس التجلّي، و قمر المشاهدة، و زهرة الشوق، و مشترقي المحبة، و عطارد الكشوف، و مريخ الفناء، و زحل البقاء! تفسير روح البيان ج ٦ ص ٢٣٧-٢٣٨.

٦٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

(خِلْفَةً) يخلف كل منهما الآخر و يقوم مقامه، و يتعاقبان و يتناوبان ضمن نظام مُقدّر و مدبّر، و بينهما تعدد أدوار و وحدة هدف!، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه و بالعكس، فمن فاته شيء من الليل أدركه في النهار، و من فاته شيء من النهار أدركه بالليل، ولو جعل أحدهما دائماً لفاتت فوائد الآخر، و لحصل اختلال في النظام العام للكائنات، و لتعدّرت الحياة على الأرض (لَمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ) لمن أراد أن يتذكّر و يتفكّر بأداء الفرائض و آلاء الله و نعمائه و يتفكّر في بدائع صنعه الدالة على وجوده، و توحيد الله سبحانه و المذكرة بعبادته، عن الإمام الصادق (ع) (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ) (الرد/١٩) البحار ٣٢٧/٧١، (أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) أو أراد شكر الله على نعمه بقوله و فعله، و شكر الله على تديره و تقديره بالالتزام على منهجه و طاعته و أداء المستحبات، و هذا حث على الشكر العلمي قبل الشكر اللفظي كقوله (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) سبأ/١٣، الشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب وهو تصوّر النعمة، و شكر باللسان وهو الثناء على النعمة، و شكر بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها. فائدة: يعرض القرآن ظاهري الليل و النهار بتعابير مختلفة، كقوله (وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) البقرة/١٦٤ (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) آل عمران/٢٧ (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ) يس/٣٧ (وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَعَسَ ، وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) التكوير/١٧-١٨، في غرر الحكم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فَيْنِكَ فِعْمَلٌ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فُحْدٌ مِنْهُمَا) فهذا التعاقب بين الليل و النهار فيه دلالة على تعاقب أحوال الناس من حال إلى حال.

ولا يبقى أي شيء على ما هو عليه، فكما يتداخل الليل و النهار كذلك تتداخل الأشياء في الحياة، فيتداخل الصيف بالخريف و الربيع بالشتاء، وهكذا يتداخل النور بالظلام، و الشدة بالرخاء، و العزة بالذلة، و الضعف بالقوة، و الصحة بالمرض، و الروح بالجسد، و الدنيا بالآخرة، و الأمل بالعمل،

كما يتداخل الذكر بالأثني! والحزن بالفرح، والعسر باليسر كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح/٥-٦

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) آل عمران/١٤٠، فلا يبقى شيء ثابت على ما هو عليه فلا يبقى الليل دائماً ولا النهار دائماً، ولا العسر دائماً ولا الخير دائماً، ولا الصحة دائمة ولا المرض دائماً، وأما يتخللها ما يتضادها حتى تعرف قيمة الأشياء بأضدادها! في غرر الحكم (إِنَّمَا يُعْرَفُ قَدْرُ النَّعْمِ بِمُقَاسَاةِ ضِدِّهَا) من هذا التداخل بين السنن الكونية والسنن البشرية نتعرف على وجود العلاقة المنظمة بينهما، فإذا كانت السنن الكونية مجبرة على طاعة الله (إِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الاسراء/٤٤، فعلى البشرية العاقلة أن تعلم أهمية طاعة الله عبادته اختيارياً، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبَادَةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْعِبَادَةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ!!.

٦٣ - ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

هذه الصفة الأولى من صفات عباد الرحمن، أرفع الخلق عند الله، وأكرمهم على الله، إنهم أكرموا أنفسهم فأكرمهم الله، في غرر الحكم (مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَهْنَأْ بِالْمَعْصِيَةِ). الهون: الرفق واللين وتواضع ووقار، بلا تكلف ولا استكبار ولا تصنع كقوله (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) لقمان/١٩. تعرض هذه الآية والآيات التي بعدها، الصفات الكريمة النموذجية المميزة (وهي الاثنتا عشرة صفة) التي يتصف بها أولئك الذين استحقوا أن يضافوا إلى محل القرب من الله جلّ في علاه، وأن يحسبوا في عبادته المخلصين كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ) القمر/٥٥ (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ) إضافة العباد للرحمن لتشريفهم وتكريمهم، أي العباد الذين يحبهم الله جديرون بالانتساب إليه، هم (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) في سكينة ووقار وتواضع، والانفتاح على الآخر، أي يعاشرون الناس متواضعين، يألفون الناس والناس تألفهم، وخير الناس مَنْ يألفه الناس والناس تألفه، عن النبي (ص) (المؤمن يألف ويؤلف، وَلَا حَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ) كثر العمال خير ٦٧٩، ويندمجون مع المجتمع بكرم الطبع وجمال الخلق، والسلام على الآخرين، لأن المشي يدل على النفسية وتعبير الشخصية، بخلاف المشي الذي فيه الكبر والخيلاء كقوله (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) الإسراء/٣٧ (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) وهذه الصفة الثانية، الجاهلون: السفهاء، قالوا سلاماً: أي سلام توديع ومتاركة وانصراف، لا سلام تحية، قالوا قولاً حكيماً سديداً ينفع الجاهلين، ويسلمون فيه من الإثم وخالياً من اللغو، وهذا مدح لهم بالصبر. أي ويعاشرون الناس متواضعين متميزين بخلقهم، من دون تصنع ولا تكلف ولا أبهة، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وإذا خاطبهم السفهاء بما يكرهون بغلظة وجفاء أو بقول خبيث، أعرضوا عنهم بسلام وأمان وسلامة واطمئنان بلا أية ندامة ولا ملامة، فلا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم، حلموا وقالوا قولاً بليغاً مفيداً.

(سَلَامًا) يتعظ به الجاهلون وهم يثابون عليه ويسلمون من الإثم كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) الأحزاب/٧٠، وقوله (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبِّغِي الْجَاهِلِينَ) القصص/٥٥، وهذا التواضع والوقار في القول والسلوك ليس عن ضعف وذلة، وإنما هو عن قوة نفس وتسامي في الخلق وكرم في الطبيعة، وعدم الهبوط إلى مستوى الجهلاء، وترفع عن النقائص، والإناء ينضح بما فيه، وكلُّ ينفق مما عنده، فهم لا يردون الخطأ بالخطأ ولا يقابلون الجهل بالجهل، حتى لا يكونوا مثلهم، ويسددون الناس بأقوالهم وأفعالهم ويصفحون عنهم، فهم رحماء فيما بينهم كقوله (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) الفتح/٢٩، مثلهم كالمصباح يضيء في كل مكان كقوله (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) الحجر/٨٥.

فائدة: ١- (هُونًا) الإنسان المخلوق الوحيد الذي يتكبر ويتبختر، أما سائر المخلوقات فجبَلَتْ على طبيعة معينة لا تتعدها وهي البحث عن الرزق، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ لَمْ تَكُنْ حَلِيمًا فَتَحَلَّمْ) الكافي ١١٢/٢، روي: شتم سفيه حكيماً فأعرض عنه، وحين قيل له لِمَ لا تبالي؟ قال: لا أتوقع من الغراب تغريد البلابل، وهكذا خُلِقَ المؤمن إذا سمع كلمة السوء تجاهلها، حتى كأنه لم يسمعها أو كأن المقصود بها غيره، كقوله (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) آل عمران/١١٩، ٢- (قَالُوا سَلَامًا) قولاً سالماً من العيوب والنقائص، قولاً دقيقاً فيه السلامة والاستقامة والكرامة يسلمون فيه من الأذى، ولا ينجرون إلى الإثم والسوء والمشاكل جراً، وهذه صفتهم المميزة إذا خالطوا الناس في النهار، وفي الليل قال:

٦٤ - ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾

وهذه الصفة الثالثة من صفات عباد الرحمن، أن قلوبهم لا تخلو من ذكر الله تعالى، وأما صفتهم بالليل أهم (يَبْتِغُونَ) لوجه الله في طاعته، وهم يقيمون صلاة الليل ويتضرعون إلى الله بالدعاء وتلاوة القرآن، والاستغفار وبطلب العلم والتعليم والعمل به ونشره، وتهذيب النفس وتركيتها، وخص العبادة (بالبيتوتة) لأنَّ العبادة بالليل أبعد عن الرياء، وتعمل على تربية للنفس ونقاء للروح وتصفية للمشاعر وسلامة للقلب، وهم مشغولون عن النوم المريح بالعبادة اللذيذة! وهم يستدقون عبادة الليل والناس نيام، فيعيشون لذة المعية مع مقام المحبوب الرحيم الكريم، في غرر الحكم (الذكر لذة المحبين، والذكر مجالسة المحبوب)، كقوله (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الذاريات/١٧-١٨، فائدة: فهم يوازنون بين مطالب الناس ومطالب الله، ومطالب الروح والجسد، والأمل والعمل، ويوازنون بين العبادات والمعاملات، وبين الأقوال والأفعال، وبين الدين والأخلاق، وبين الروح والجسد، وبين الدنيا والآخرة، عن النبي (ص) (المؤمن يُعْنَى بِأَمْرِ دُنْيَاهُ وَأَمْرٍ آخِرْتَهُ) كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/١٣٤، وتقديم

السجود على القيام سبب أهميته والقربى به إلى الله، عن الإمام الرضا (ع) (أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل وهو ساجد) كقوله (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) العلق/١٩ البحار ١٦٢/٨٥.

٦٥- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

وهذه الصفة الرابعة من صفات عباد الرحمن، وهم مع كل تلك الصفات النموذجية يدعون ربهم: ربنا (اصْرِفْ) ادفع عنا (عَذَابَ جَهَنَّمَ) بالعصمة والحصانة من أسبابه، والمغفرة ما وقع منا، (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) إِنَّ عَذَابَهَا لِلْمَعَانِدِينَ لا مفر منه ولا تحوّل عنه. غراماً: شراً لازماً وخساراً دائماً لا يزول عن أهله، وهذا ما يجعله مخيفاً، والغرام: ما يواجه الإنسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ويرغمه مع الهم والغم ولا يفارقه، وهذا كناية عن تخويفهم من عذابه سبحانه مع ما هم عليه من إخلاص له وجهاد في سبيله كقوله (وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) المعارج/٢٧-٢٨، فهم مع طمع ورجاء في رحمته وخشية وخوف من بأسه وعقابه، وهكذا المؤمن يعيش حالة توازن واعتدال في كل شيء، ولا سيما بين الخوف والرجاء كقوله (حَذِرُ الْآخِرَةِ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩، في غرر الحكم (خَيْرُ الْأَعْمَالِ اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ) كقوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) المؤمنون/٦٠ وأنهم يعرفون لا ينجو عمل من دون رحمة. فائدة: (عَذَابَ جَهَنَّمَ) إنهم ما رأوا جهنم ولكنهم آمنوا بوجودها، وتمثلوا صورتها مما جاءهم في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله الكريم، فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق وثمره التصديق الدقيق.

٦٦- ﴿إِنَّمَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

إنها بئس المكان والمستقر، وبئس المقام والمنزل الذي لا يتحوّل عذابه عن صاحبه، إِنَّ أَهْلَهُ أَخْسَرُ خلق الله، لأن الاستقرار هو النار، وأن المقام هو عذابها الدائم ولا زوال كقوله (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) البقرة/٢٤، وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الإنسان وقيم كالحجارة! في غرر الحكم (لَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ إِلَّا التَّارِكُ عَمَلَهَا).

٦٧- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَعُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَكَانُوا بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

وهذه الصفة الخامسة من أوصاف عباد الرحمن. الإسراف: التبذير ومجاوزة الحد في النفقة بالنظر لنظرائه في المال، وبالمقابل مفهوم التقدير: التضييق والبخل، المعنى: ليسوا مبذرين في إنفاقهم جميعه في مختلف المجالات في الضروريات والكماليات، ولا مقصّرين ومضيقين بحيث يصبحون بخلاء (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) وكان إنفاقهم متوازناً (قَوَامًا) وسطاً واعتدالاً، فلا هو مسرف ولا هو بخيل، وخير الأمور أوسطها كقوله (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) الإسراء/٢٩، عن النبي (ص) (مَنْ أَعْطَىٰ فِي غَيْرِ حَقِّ فَقَدْ أَسْرَفَ، وَمَنْ مَنَعَ

من حق فقد قتر) نور الثقلين ٤ ص ٣١، هذا هو الإسلام نظام معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، لا إلغاء ملكية ولا ملكية طاغية، لا بالقيم الروحية وحدها، ولا بالقيم المادية وحدها يحيا الإنسان، بل بهما معاً! في الحديث (ليس خَيْرُكُمْ من عمل لديناه دون آخرته، ولا من عمل لآخرته وترك ديناه) الاعتدال والتوازن في النفقة سواء أكان غنياً أم فقيراً، كل ينفق بقدره كقول (عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ) البقرة/٢٣٦، كقوله (وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا ، إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) الإسراء/٢٦-٢٧، عن الإمام علي (ع) (كُنْ سَمَحًا وَلَا تَكُنْ مُبَدِّرًا، وَكُنْ مُقَدِّرًا وَلَا تَكُنْ مُقْتِرًا) شرح النهج ١٨/١٥٠.

٦٨- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَكَانُوا قَاتِلِينَ أَنْفُسِهِمْ أَلْحِقَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِقَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ قَاتِلُ الظَّالِمِينَ﴾

وهذه الصفة السادسة من صفات عباد الرحمن.

والذين لا يجعلون مع الله نداً في العبادة، ولا شركاً في الطاعة، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن عمل رياء أو أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فهو كمن دعا مع الله إلهاً آخر، والذين لا يدعون لطلب حاجاتهم مع الله إلهاً آخر، لأن عقيدتهم التوحيد الخالص، عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُشْرِكًا حَتَّى يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَدْعُو لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) البحار ٧٢ ص ٩٦ (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وهذه الصفة السابعة من صفاتهم الشريفة، وقتلها (بِالْحَقِّ) أَنْ تَسْعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَوْ تَرْبِي عَنِ إِحْصَانٍ أَوْ تَرْتَدَّ عَنِ فِطْرَةٍ وَإِيمَانٍ أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقِّ (القتل قصاصاً) (وَلَا يَزْنُونَ) وهذه الصفة الثامنة من عباد الرحمن، إنهم يحصنون فروجهم ويتعففون فلا يقربون الزنى ولا يأتون الفاحشة، والزنا هو الفجور بالمرأة وإتيانها من فرجها بلا ضوابط شرعية، لأن الزنا فاحشة وجريمة، ومن أكبر الكبائر والمآثم، ولذا ساوى سبحانه بين الزنا والشرك وقتل النفس المحرمة، تلك الكبائر المنكرات الموبقات المهلكات التي تضر بالفرد والمجتمع في الدنيا بأضرار جسيمة.

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) الإثم والمراد به جزاؤه، أي يلق جزاء إثمه، ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى، يجد في الآخرة العقوبة المناسبة مع الذنب، فيجتمع عليه العذاب الجسمي والعذاب النفسي.

فائدة: ١- هذه الصفات المذمومة الكريهة المبتذلة مفرق طريقين، بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله (من عباد الرحمن المكرمين) والحياة الرخيصة الهابطة إلى مستوى الحيوان، بل إنه سينزل منازل المجرمين أصحاب النار، وهو عذاب منكر شديد ومديد، ٢- يميز الله تعالى قتل بعض الناس في مواضع محددة (إِلَّا بِالْحَقِّ) ولكنه لا يميز الزنا والشرك لأي سبب وتحت أي ظروف (وَلَا يَزْنُونَ)، ٣- (لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) أنار التوحيد آفاق قلوبهم واستذوقوا حب

الله وقربه وجذبه، فانقضت جذور الشرك من أفكارهم وأرواحهم، فعاشوا التربية القرآنية النموذجية (التخلية من السلبيات، ثم التحلية بالإيجابيات)، ٤- (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ) النفس الإنسانية جميعها محترمة مكرمة، إلا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتي فتبيح إراقة الدم بالحق الواضح، ٥- (وَلَا يَزْنُونَ) جاء (الزنى بين قتلين) في القرآن الكريم في قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) وقوله (وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَا) وقوله (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) الاسراء/٣١-٣٣، وفي ذلك دلالات! وفي الزنا لذة قصيرة، تتبعها معاناة طويلة، ومشاكل كثيرة! وما يزيني الزاني وهو مؤمن، ولا هو غيور، ولا هو أمين، ولا هو مطمئن! عن الإمام الصادق (ع) (عَفُوٌّ عَنِ نِسَاءِ النَّاسِ تَعْفُ نِسَاؤُكُمْ) البحار ٧١/٢٧٠، ويعاني الزاني من مرض الكتابة!.

٦٩-٧٠- ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدْ فِيهِ مَهْمَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

ومن يفعل هذه الأفعال الفاجرة السالفة الذكر، يلقى في الآخرة جزاء إنمته وذنبه و(العقوبة على قدر الجناية) (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ) مضاعفة العذاب عليه ويجعله ربه خالداً في النار مع المهانة والاحتقار، وسأوت الآية الخلود في جهنم بين: من (أشرك وقتل وزنا) وكأنها جريمة كبيرة واحدة، يؤاخذ بها بعذاب خالد واحد! ٧٠- (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) إلا من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله، فالإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) يبذل: أي يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة الصادقة، ويعفو عن عقابهم، ويثبت لهم لواحق طاعتهم ويفضل عليهم بالتوبة، عن النبي (ص) (أَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقِي حَسَنٍ) المراغي ١٩/٤٠ (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) وكان الله واسع المغفرة كثير الرحمة بالمؤمنين التائبين كقوله (مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الأنعام/٥٤ في غرر الحكم (التَّوْبَةُ نَدْمٌ بِالْقَلْبِ، وَاسْتِعْفَاؤُ بِاللِّسَانِ، وَتَرْكُ الْجَوَارِحِ، وَإِضْمَارُ أَنْ لَا يَعُودَ) فائدة: ١- (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

يبدل الله نفوسهم وقد تطهّرت بالتوبة النصوح، فيجعلها سعيدة خالية من معاناة شقاء الآثام، بالأمراض النفسية، فتبدل سيئاتهم حسنات، أي يعطيهم من جزاء الحسنات ما يعادل ذنوبه، بحيث تمحو حسنات التوبة سيئات الذنوب! فمن تاب من الذنب بصدق كمن لا ذنب له، ثم يثيبه الله على توبته، ويثبته عليها! (أو) تبدل أفعالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات بعد التوبة النصوح، وكقوله (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ) هود/١١٤ ١- كما أن الحسنات تمحو السيئات، كذلك أن من السيئات الكبيرة تمحو الحسنات كقوله (أَنْ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) الحجرات/٢، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ يَمُوتُ

بِالذُّنُوبِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعِيشُ بِالْأَعْمَارِ)! البحار ٧٣/٣٥٤، ولا يجني الإنسان إلا ما كسبت يده، في غرر الحكم (والمرء حيث يضع نفسه)!)، (أو) لأنهم بدّلوا السلوك المنحرف بالسلوك المستقيم، فيمحو الله عنهم أثر السيئة السابقة السلبية، ويعطيهم بعملهم الصالح الحسنة كقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) النساء/١١٠ في غرر الحكم (الاستغفارُ يَمْحُو الْأَوْزَارَ) فإن السيئات لا تتحول إلى حسنات، ولا الحسنات تتحول إلى سيئات.

٧١- ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾

وَمَنْ تَابَ عَنِ الْمَعَاصِي بِتَرْكِهَا وَالنَّدَمَ عَلَيْهَا، وَأَصْلَحَ سِيرَتَهُ بِاسْتِمْرَارٍ، فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَبَيْنَهُ وَاللَّهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَعَمِلَ صَالِحًا كُلَّ إِنْسَانٍ بِقَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ فَإِنَّهُ (يَتُوبُ) يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ مَرْجِعًا صَادِقًا مَرْضِيًّا، فِي الشَّكْلِ وَالْمُضْمُونِ، دَافِعًا لِلْعُقَابِ جَالِبًا لِلثَّوَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُ تَوْبَتَهُ وَيَكُونُ مَرْضِيًّا عِنْدَهُ، وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّوْبَةِ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ مِنْهُ، وَأَعَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةَ التَّوْبَةِ لِلتَّنْبِيهِ وَالِإِشَارَةِ إِلَى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) البقرة/٢٢٢، شَرِيظَةً أَنْ لَا يَرْجِعَ إِلَى الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ إِلَى خَالِقِهِ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ. فائدة: ١- (يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) (مَتَابًا) توكيد التوبة التامة الخالصة إنهم بعد التوبة والعمل الصالح، قد وُلِدُوا مِيلَادًا جَدِيدًا ذَهَبَ بِهِ كُلُّ مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبٍ، فَالْمَعْصِيَةُ انْدِفَاعٌ وَعَمَلٌ سَيِّئٌ يَجِبُ مَلْءُ فِرَاقِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مُضَادٍّ، وَنَدَمٌ وَاسْتِغْفَارٌ، وَإِلَّا حَنَّتْ النَّفْسُ إِلَى الْخَطِيئَةِ، بِتَأْثِيرِ الْفِرَاقِ الَّذِي تَحَسَّهَ بَعْدَ الْإِقْلَاعِ، وَهَذِهِ لَمِحَةٌ فِي مَنْهَجِ التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تَغُورُ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ كَقَوْلِهِ (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) فاطر/١٤؛ وَأَيْضًا (مَتَابًا) تَعْمِيمٌ بَعْدَ التَّخْصِيصِ، لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالتَّوْبَةِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى بِالشَّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالزُّنَى فَقَطْ، وَالتَّوْبَةُ هُنَا بِمَطْلُوقِ الْمَعَاصِي كَقَوْلِهِ (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) النور/٣١.

٧٢- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

وهذا هو الوصف التاسع من أوصاف عباد الرحمن. المعنى: والذين لا يشهدون الشهادة الباطلة الخادعة الكاذبة (شهادة الزور) شهادة الكذب، وأصلها تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، الشهادة التي فيها تضييع لحقوق الناس، إنهم لا يتعمدون الكذب في أقوالهم، بل لا ينطقون بما يجهلون، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ولا يحضرون مجالس الباطل، مثل أفلام خليعة وشنيعة وغبية وغناء وطرب وفحش وغيره، ولا يعينون أحداً عليها، (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) وهذا الوصف العاشر، اللغو: كل فعل أو قول ليس فيه هدف عقلائي أو (اللغو) كل ما لا خير فيه، وينبغي أن يلغى من الفكر، ولا يُعتمد في الممارسة، وهذا يشمل جميع المعاصي، كِرَامًا: مكرمين أنفسهم، متسامين عن الهبوط إليه والخوض فيه، أي إذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون، ويضيعون الوقت في

توافه الأمور، ولا يشتركون في كلام أو مجلس لا خير فيه (مُرُوا كِرَامًا) وإذا مروا باللغو وأهله كرموا أسمعهم وأنفسهم عنه كما نزهوا ألسنتهم عن التفوه به، وعدم الاختلاط بهم ومجالستهم، فترتفع أنفسهم وتتسامى عن هذا المستوى، كالنحلة تسرع إذا مرت بالحيث ذات الروائح الكريهة!

كقوله (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) القصص/٥٥ فوعي المؤمنين أكبر من الانشغال باللغو والهذر، وليس لديهم من الفراغ والبطالة ما يضيعونه باللغو الفارغ، فهم لا يعملون مع أهل المعاصي، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ويكرمون أنفسهم باحترام الوقت وحسن استثماره، ويعتنون بالقضايا الكبيرة ولا يهبطون إلى الصغائر والتوافه، في غرر الحكم (مَنْ اِسْتَعْلَ بِأَلْمُهِمْ ضَيَّعَ الْأَهَمَّ) قيل: (مَا نَفَعْلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُجَدِّدُ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فِرَاعِنَا يُجَدِّدُ مَا نَكُونُ!) عن النبي (ص) (مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَزَكَّى كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) البحار ١٣٦/٢، في غرر الحكم (مَنْ اِسْتَعْلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ فَاتَهُ مَا يَعْنِيهِ) أما اللهو فهو ضد الجد مع الفراغ والهزل، ومَنْ كثر لهو صغر عقله، وقل فكره وضاع عمره، ومَنْ لهى لغى وسها وغفل عما ليس بمغفول عنه في غرر الحكم (احذروا العُقْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ)، وكل كلام ليس فيه نفع فهو يضر، ويكون صاحبه لاغياً، في غرر الحكم (رُبَّ كَلَامٍ كَالْحَسَامِ) أي كلام (جراح)

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

وهذه الصفة الحادية عشرة من صفات النخبة من عباد الرحمن المعنى: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) والذين إذا وُعدوا بآيات القرآن، وحُوفوا بها أو سمعوا سُنة النبي (ص) الصحيحة، أو حكمة بليغة أو بحث علمي معاصر أو اكتشاف حديث وغيرها (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) لم يُعرضوا ويتغافلوا عنها، ولم يكبوا عليها متجاهلين منافعها، غير منتفعين بها كالصم والعميان، بل نظروا فيها وتفكروا في مقتضاها وسمعوا بأذان واعية وعقول منفتحة (لَمْ يَخِرُّوا) ولم يقعوا عليها مهملين لها ولا مبالين بها ولا منكبين على عاداتهم متعصبين تعصباً أعمى، منغلقين عن الرأي الآخر، رافضين مبدأ الحوار والبحث نحو الأحسن كالصم والعميان.

كقوله (إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ أَهْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) الفرقان/٤٢ بل فهموها ووعوها وتأثروا منها، وأخذوا بها عن بصيرة وعلم، فأمنوا بحكمتها واتَّعصوا بمواعظها وكانوا على بصيرة وعلم، من أمرهم، وبيّنة من ربهم. كقوله (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) الأنفال/٢ وقوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨، فائدة: ١- (فآيات الله لا تُسمع الصم ولا تهدي العمي، وإنما تهدي من نظر إليها بعقله، وأعطاهها قلبه ومشاعره فيجني من ثمارها، وهذا حث على طلب العلم (العبادة على قَدْرِ العلم) (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرَتِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

الْعَالَمُونَ) العنكبوت/٤٣، عن النبي (ص) (الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ (هدفه) فَحَيْثُ وَجَدَهَا أَخَذَهَا فَهِيَ أَحَقُّ بِهَا) وأهلها البحار ٢/٩٩، ٢- (إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) من صفات عباد الرحمن أنهم سارعوا التذکر إذا ذكروا قريبا الاعتبار إذا وعظوا، مفتوحو القلوب لآيات الله ومواعظه يتلقونها بالفهم والاعتبار، ويتعلمون منها ويعلمونها.

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْزُلِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

هذه الصفة الثانية عشرة من صفات عباد الرحمن، قرة أعين: كناية عن الفرح والسرور، لأن العين تستقر عنده في إشباع نظرها بتحقيق طموحها، وذلك لا يكون إلا عن هدوء النفس، واطمئنان القلب وراحة الضمير، مما يجعل العين تنظر إلى الحياة نظرة واقعية صحيحة، المعنى: والذين يقولون ربنا اجعل لنا في الأزواج والذرية مسرة وفرحاً بتحقيق الآمال الدينية والدينية، بالتمسك بطاعتك والاستقامة على دينك والعمل بمرضاتك، ما تسرُّ به نفوسنا وترتاح ضمائرنا وتنشرح به صدورنا، بأن نراهم موقفين في دنياهم مطيعين لك مجتنبين معاصيك (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) اجعلنا (إِمَامًا) قدوة يقتدي بها المتقون في الدين، والخير والإحسان وعلو الهمة وطلب العلم والتعليم والعمل الصالح، وإقامة شعائر الدين، وهكذا يتمنى المؤمن من صميم قلبه أن يسير جميع الناس على نهجه المستقيم كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَاهُ) الأنعام/٩٠، عن ابن عباس (اجعلنا أئمة الهدى كقوله (وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) السجدة/٢٤، عن النبي(ص) (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) مجمع البيان ٣/٣٧٧، في الآية إشارة: على أن طلب الرياسة (القيادة) في الدين والدنيا مستحب، بشرط أن يقيم حقاً ويزيح باطلاً، وتطلب الرياسة لغيرها لأمر أهم منها، ولا تطلب لذاتها (مَنْ طَلَبَ الْوَلَايَةَ لَا تَوَلَّاهُ) وفي قراءتهم (ع) (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)، عن الإمام علي (ع) (لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُتَأَفِّسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا إِيْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ، وَلَكِنْ لِنَزْدِ الْمَعَامِلِ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرِ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعْطَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ) شرح النهج ٨/٢٦١ في غرر الحكم (مَنْ هَجَّ بِالْحِكْمَةِ فَقَدْ شَرَّفَ نَفْسَهُ) ولحته العيون بالوقار والهيبه، ولغة العيون يعرفها أهل البصيرة.

فائدة:

١- من علو مرتبتهم أن دعاءهم لذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبةً لهم، فقالوا (هَبْ لَنَا) بل دعاؤهم يعود إلى النفع العام، وصلاح الكثير ممن يتعلق بهم، ٢- (لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) إنها درجة عالية سامية، يطلبون من الله ويدعونه ليساعدهم للوصول إليها، وهي درجة الإمامة في الدين بحيث يُطمئن لأقوالهم وعلومهم ويُفتخر بأفعالهم، وهي درجة لا تتم إلا بالصبر والتقوى واليقين كقوله (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل

عمران/١٨٦، ٣- فالْمُؤْمِن إِذَا سَاعَدَهُ أَهْلُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ يَسُرُّ بِهِمْ قَلْبَهُ وَتَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، مِمَّا يَتَوَقَّع لِحُوقِهِمْ بِهِ فِي الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) (الطور/٢١، ٤- لا يبين القرآن الكريم في هذه الآيات جميع صفات عباد الرحمن النموذجية، وإنما يصف نخبتهم أنهم يتحلون بصفات الكمال والجمال والجلال، ومن أهمها الصفات المذكورة أعلاه، ومن مصاديق هذه الآيات أئمة أهل بيت النبي (ص) في غرر الحكم (الإمامة نظام الأمة).

٧٥- ﴿أُولَئِكَ يُجْرُونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾

الغرفة: استعارة بلاغية من مقام العندية والقرب كقوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) آل عمران/١٦٩ وقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) (القمر/٥٥، والغرفة: كناية تشبيهية عن منزلة رفيعة سامية، وأعلى مكان في الجنة، وليست غرفة واحدة، وإنما هي غرفات، كقوله (وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ) (سبأ/٣٧، وإنما أفردت هنا لأن المراد بها المنزلة، أي يجزون المنزلة الرفيعة التي فيها الغرفة، وفيها الغرفات والمجازات والمحبة والمفاجأة، لأنها جميعها في درجة واحدة. المعنى: أولئك إشارة إلى عباد الرحمن الذين ذُكِرَت أوصافهم النموذجية سابقاً أولئك المكرمون من عباد الرحمن الذين أضافهم الله إلى نفسه، المتصفون بصفات مميزة نموذجية، من الاستقامة والأخلاق وحسن السيرة، فلهم أيضاً منازل مميزة ودرجات نموذجية سامية عالية المضامين (بِمَا صَبَرُوا) للصبر هنا له مدلول واسع، أي بصبرهم على فعل الطاعات، واجتنابهم أنواع المنكرات، وسيطروا على أهوائهم، وأنه لولا الصبر والحلم والثبات لانحلت عزائمهم واختل توازنهم، فالصبر هو الصمود والثبات أمام الشدائد، وهو زاد المؤمن والقوة التي تزيد علاقته بالله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (الطور/٤٨) (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا) ويلقون فيها من الملائكة، ومن بعضهم بعضاً ومن الله، تحية مميزة رحيمة كريمة.

كقوله (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) يس/٥٨، إن الذين ينزلون بهذه الغرفة المكرمة، وهم موضع احتفاء واحترام وتكريم، ويتبدون فيها بالتحية والإكرام والسلام الجميل وفق الوصف، وفي ذلك أنس وانسراح لهم، أن يقال حَيَّاكَ اللَّهُ أَي جَعَلَ لَكَ مِضَاعِفَةَ الْحَيَاةِ، حَيَاةً طَيِّبَةً دَائِمَةً لِأَنَّهُ أَصْلُ التَّحِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَالسَّلَامُ مِنَ السَّلَامَةِ وَالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالْإِطْمِنَانِ، وَالسَّلَامَةُ الدَّائِمَةُ فِي الْجَنَّةِ (لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ)، كَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد/٢٣-٢٤).

فائدة: ١- في الحديث (إن في الجنة لغرفاً مبنية في الهواء، لا علاقة من فوقها ولا عماد من تحتها، لا يأتيها أهلها إلا شبه (أشباه) الطير، لا ينالها إلا أهل البلاء) روح البيان/٦/٢٥٥ الصابرون عليه، أي كثرة معاناتهم لا تغير من استقامتهم ، ٢- قيل: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ مَحَبَةَ اللَّهِ لَهُ وَمَحَبَّتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ مَنَزَلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَعْرِفْ كَيْفَ مَنَزَلَتُهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِثْلَ مَا يُنْزِلُ الْعَبْدُ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ) (البحار/٧١/١٥٦،

٣- (بِمَا صَبَرُوا) الصبر: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله، فإن الشكوى لغير الله مذلة، في نوح البلاغة حكم ٢٧٤ (مَنْ شَكَأَ الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّهُ شَكَأَهَا إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ شَكَأَهَا إِلَى كَافِرٍ فَكَأَنَّمَا شَكَأَ اللَّهَ).

٧٦- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يخرجون من الجنة، لأنها دار الخلود والبقاء، وما أحسنها مقراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله كقوله (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) الصافات/٦١ (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) المطففين/٢٦ (حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) مقابل (سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) ولما صور عباد الرحمن، تلك الخلاصة البشرية الصافية السامية، التي تستحق أن تكرم وتكون خليفة الله على أرضه، يحتم السورة بهوان البشرية على الله، لولا الذين يتطلعون إلى رحمة السماء، فأما المكذبون فهم الشاذون فيليق بهم العذاب ويلزمهم الشقاء .

٧٧- ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُكُمْ مَرْيَمُ إِذْ دَعَاوُكُمْ فَذَكَرْتُمْ فُسُوفَ يَكُونُ لِرِزْقِكُمْ﴾

ما يعجبكم : يُقال ما يعجب به أي لا تعني به، أي ما يصنع بكم، ما يبالي بكم ولا يقيم لكم وزناً، ولا قيمة ولا منزلة ولا كرامة لكم عند الله تعالى، ولا يعترف بكم (لولا دُعَاؤُكُمْ) لولا إيمانكم وعبادتكم واستقامتكم ودعَاؤكم وتضرعكم لله، فإن شرف الإنسان بطاعة ربه، وكرامته بالعلم والمعرفة والعبادة والعمل الصالح، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء، فالذي لا يعجب بنفسه ويعنى بها، لا يعجب به الله ولا يعنى به! . المعنى: قل يا محمد للناس كافة، ما يبالي الله بكم، فوجودكم وعدمكم عنده سواء (لولا دُعَاؤُكُمْ) لولا تضرعكم إلى الله واستغاثتكم به، في جميع الأحوال في الشدة والرخاء، وإذا مسكم الضر أو أصابكم السوء (لولا دُعَاؤُكُمْ) لولا عبادتكم لله تعالى (وَعَلَى قَدَرِ الْعِلْمِ تَكُونُ الْعِبَادَةُ) كقوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات/٥٦، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ) ومن قصر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق!، (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسُوفَ يَكُونُ لِرِزْقِكُمْ) ملازماً ولازماً يجيق بكم، فقد كذبتكم أيها الكافرون بالرسول والرسالة، وأعرضتم عن الهدى واتبعتم الهوى، فأعرضتم عما يسعدكم واتبعتم ما يهوي بكم إلى السوء كقوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) القلم/٤٤، فسوف يكون تكذيبكم يؤدي بكم إلى العذاب ملازماً لكم في الآخرة، كما لازمكم الكفر في الدنيا، كقوله (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) النساء/١٢٣، جاء في التوراة : (يا ابن آدم وعزني ما خلقتك لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح عليّ، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فأنا خير لك من كل شيء).

فائدة: ١- (الخلاصة) يا أيها الناس: أنكم ما خلقتم إلا لتعبدوا الله تعالى باختياركم، ومن لا يعبد الله فإنه يعبد الشيطان عدو الإنسان، عندئذ يكون عبئاً ثقيلاً على نظام الخلق، لأن كل

المخلوقات تطيع الله والعاصي هو الشارد على هذا النظام، فيكون طعماً للشيطان كما أنّ الشارد من قطع المرعى طعماً للذئب!، ٢- (مَا يَعْبَأُ) ولم يقل (لا يعبأ) للمبالغة في النفي، أي أنّ النفي واقع في كل زمان، أي أن خلق الله الناس إنما كان لحكمة بليغة أرادها الله، وأنه لولا هذه الحكمة لما اتَّجَّهت إرادة الله سبحانه إلى خلقهم، وهذه الحكمة هي أن يعبدوه وتتجلى فيهم آيات قدرته وعلمه، ومن أجل هذا الهدف الكبير عبأ الله سبحانه وتعالى بهم، وكرّمهم ورحمهم وجعلهم خلفاءه في أرضه، ٣- سؤال: كثير من الناس لا يعبدون الله ولا يعترفون بوجوده، فكيف تتحقق حكمة الله من خلق الناس وهم لا يعبدونه؟ الجواب: إنّ الذين آمنوا واستقاموا على منهج الله ولو كانوا قلة ولكنهم حجة الله على الإنسانية، ومن أجلهم كانت رحمة الله بالناس جميعاً، وأنهم منقادون لله طوعاً أو كرهاً، يعرفون أو لا يعرفون، انقياد (بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ) كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤.

وَآخِرُ دَعْوَانَا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال/٢٩.

تمّ بعون الله (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرَ) لسورة الفرقان بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل فالله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٥/٧/٢٠١٨م، الموافق ٢٣/رجب/١٤٣٩هـ مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها، في العراق، الكاظمية، داعين الله مساعدتنا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكي قاسم البغداددي



من مقاصد السورة:

مكية، عاجلت أصول الدين، وتعنى بجانب العقيدة والإيمان، كبقية السور المكية، عرضت أهمية القرآن لهداية الناس، وبلسماً شافياً لأمراض البشرية، ومسؤولية الرسل الكرام الذين بعثهم الله لهداية الناس، وذكرت عدة قصص منها قصة موسى كليم الله (ع) وقصة إبراهيم (ع)، ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب (ع) وتحدثت عن المتقين والغاوين ومصيرهما يوم الدين، وختمت السورة بالردّ على افتراء المشركين في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين، ليتناسق البدء أن القرآن مصدر هداية وحماية من وساوس الشياطين، ويتناسق مع الختام في تناسق والتثام!، وسميت (سورة الشعراء) لأن فيها ذكراً (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) يقول الله تعالى في نهاية كل قصة من

قصص الأنبياء قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ، وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وتكررت هذه الآية ثمان مرات حتى تكشف سُنَّة الله الثابتة مع الأنبياء الماضين، لتكون مواساةً للنبي وتشجيعاً له ولكل المبلغين للرسالة، رقمها (٢٦)، عدد آياتها ٢٢٧، الجزء التاسع عشر (فضلها): عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَفِي جَوَارِهِ وَكُنْفِهِ وَأَسْكَنِهِ اللَّهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ، مَعَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْوَصِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، وَلَمْ يَصِبْهُ فِي الدُّنْيَا بَوْسٌ أَبَدًا، وَأَعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْأَجْرِ الْجَنَّةَ حَتَّى يَرْضَى وَفَوْقَ رِضَاهِ) مجمع البيان ٧ ص ٣٣٩ .

ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿طس﴾

قد بينا معاني الحروف المقطّعة في أول سورة البقرة. خلاصته إنّ القرآن مرّكب من أمثال هذه الحروف الهجائية، ولكنه عالي البلاغة، وحجة على الناس أجمعين، ولا يمكن الاتيان بمثله وتقرأ طاء، سين، ميم.

٢- ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾

هذه آيات القرآن الواضح الميسر في معانيه، والدقيق في مبانيه، والعميق في دلالاته، وأنه كلام الله ويهدي للتي هي أقوم، الذي يفصل بين الحق والباطل، الظاهر إعجازه لمن تدبره وتأمله، وهو حجة على المسلمين خاصة، وذكر للعالمين. (تلك) اسم إشارة للبعيد، ويعبر عن عظمة القرآن وإن كان قريباً لأهميته وارتفاع مرتبته، وضخامة دوره ووظيفته للناس كافة.

٣- ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾

باخع نفسك: مهلك نفسك حزناً وألماً لأجلهم، أي لعلك يا مُجَّد مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار وهذا يصور مدى ما كان رسول الله (ص) يعانيه من المكذّبين، وفيه تسلية للنبي (ص) حتى لا يحزن ولا يتأثر على عنادهم وعدم إيمانهم. فائدة: ١- اشفق على نفسك ولا تهتم حزناً بمن لا يعتني بنفسه، فمن الظلم أن يطلب الإنسان لغيره السلامة ولنفسه العذاب، كقوله (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) فاطر/٨، لقد بلغت وألقيت الحجّة الكافية، كقوله (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النور/٥٤، أما نتائج التبليغ فلست مسؤولاً عنها كقوله (كُلُّ أَمْرٍ إِذَا مَا كَسَبَ رَهِيْنٌ) الطور/٢١.

٤- ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْتَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾

هوّن عليك، (إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ) دلالة ومعجزة خارقة مذهلة تأخذ بقلوبهم، وتضطرهم إلى الإيمان قسراً وقهراً وجبراً لفعلنا، الآية تصوّر خضوعهم لهذه الخارقة بصورة حسية

مؤثرة، فبقى أعناقهم ملوية محنية مشدودة لكأن هذه هيئة قائمة لا تفارقهم! وهذه كناية عن الذلة والخضوع، لما يقع على الإنسان من شدائد وأهوال تنقل الرأس، ويضعف العنق عن حملها، (فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) المراد بالخضوع الإعتاق، خضوع أصحابها فأصبحت (أَعْنَاقُهُمْ) منقادة خاضعة للإيمان بالقهر، كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١ ولكن لا نفعل، لأننا نريد أن يكون الإيمان إختيارياً لا اجبارياً، ولو فعل لسقط البلاء والجزاء، والحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار، ولا بد أن تكون العقيدة منطلقةً من قناعة علمية تامة، ومن الضلال الاتباع الأعمى للضالين، ولو كانوا أصحاب وجهة باسم الدين. كقوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦، ولا قيمة للإيمان بالإكراه وقوله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) يونس/٩٩، لقد جعل القرآن مناهج حياة كاملة، ومعجزاً في جميع النواحي، والذي لا ينفعه القرآن يضره الشيطان، والذي لا ينفعه اليقين يضره الشك !.

٥- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾

وما يأتي الناس من ذكر في القرآن (مُحَدَّثٍ) جديد تنزيله، أو مجدد تأويله، أو موعظة قرآنية مؤثرة حديثة في نفوسهم، أو اكتشاف أعجاز علمي قرآني معاصر، من الرحمن لتذكركم به (إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) إلا تولوا عنه وأعرضوا مدبرين عن استماعه مستكبرين، والقرآن ذكر (مُحَدَّثٍ) جديد بالنسبة للتوراة والانجيل، والسور والآيات القرآنية ذكر جديد (مُحَدَّثٍ) بالنسبة لبعضها بعضاً، فكل منها ذو محتوى جديد، أي لا يأتيهم من الله بشيء فيه عبر ومنافع، وهي من آثار رحمة الله بعباده، إلا وجابهوه بالإعراض والاستهزاء، من دون تدبّر ولا تأمل بما فيه من الحكم والمواعظ، والسبب يرجع إلى أنهم طال عليهم الأمد في ألفة الضلال، فأصبح الضلال كل حياتهم، فعميت قلوبهم عن التفكير الصحيح، فأصبحوا لا يلبق بهم الشيء النافع المعاصر (المحدث) الحديث البليغ. كقوله (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) الحديد/١٦، فائدة: ١- آية واحدة تفتح القلوب المستعدة للإيمان، بينما مئات الآيات لا تغير القلوب المريضة (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) يونس/٩٦-٩٧، ٢- (مِنَ الرَّحْمَنِ) اسم الرحمن هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر المهم المذكّر بالله واليوم الآخر، فيكون إعراضهم عنه مستقبحاً وهم يعرضون عن الرحمة التي تنزل عليهم ويفرضونها، ويحرمون أنفسهم منها، وهم أحوج مما يكونون إليها، والذين لا تنفعهم الرحمة فستنفعهم النقمة !.

٦- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ أَبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ سَاهِبُونَ﴾

فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب، حين أعرضوا عن آيات الله في القرآن والأنفس والآفاق، وجزّهم التكذيب إلى الاستهزاء، فسوف يأتيهم (أنباء) عاقبة ما كذبوا واستهزأوا به، إذا مستهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة في وقت لا ينفع الندم كقوله (وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) ص/٨٨، والنبأ: يطلق على أمر خطير له وقع عظيم. وهم لم يتلقوا أخباراً إنما سيدوقون العذاب ذاته ويصبحون هم أخباراً فيه، يتناقل الناس ما حلّ بهم، (وَأَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ، الَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ صَارَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ)، فكلما كانوا يستهزئون، فالآن يُستهزأ بهم مع التهديد الشديد كقوله (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) الشعراء/٢٢٧، إنهم يغفلون عن آيات الله الكثيرة الباهرة فيما حولهم، وفيها الكفاية والدراية والهداية للقلب المنفتح، والعقل المتفكّر.

٧- ﴿وَلَمَّا يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ الْأَمْضِ كَمَا أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَنْجٍ كَرِيمٍ﴾

زوج: صنف، كريم: جاء كرمه لأنه كثير الفوائد والمنافع، ومعجزة إخراج النبات الحي من تراب الأرض، بأصناف مختلفة الأشكال والألوان تبهر الناظرين وتوقض الغافلين، مما يدل على باهر القدرة وعظيم السلطان، كقوله (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) الواقعة/٦٤، وجعله زوجاً ذكراً وأثى ضمن (قانون الزوجية العام) كقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩، وهذين الزوجين إما منفصلين كما في بعض فصائل النباتات، وإما مجتمعين كما هو الغالب في عالم النبات، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في عود واحد، هذه المعجزة تتكرر في الأرض حولهم في كل لحظة، فائدة: ١- (أَوْلَمْ يَرَوْا) والأمر لا يحتاج إلى أكثر أكثر من الرؤية؟ والمنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون، وينبّه القلب الغافل إلى بدائع صنع الله المبتوثة حول الإنسان في كل مكان، (لَا تَعْقُلْ فَلَسْتَ بِمَعْقُولٍ عَنْكَ) ٢- (زَوْجٍ كَرِيمٍ) كريم كل صنف بما فيه من حياة مكرّمة، مملوءة بالفوائد والمنافع صادرة من الله الكريم، إنهم اعتادوا رؤية عجائب المخلوقات فألفوها، ولم تعد تؤثر في نفوسهم ما فيها من عجائب وغرائب في نظام تكوينها في غرر الحكم (أفضل العبادة غلبة العادة) السيئة، ومن لم يعرف المخلوق فلم يعرف الخالق. ٣- (أَنْبَأْنَا) الإنبات يعم أيضاً الإنسان والحيوان. ٤- إذا كانوا قد عموا عن هذا الواقع المحسوس الواضح، فإنهم أشدّ عمي من أن يروا شيئاً من آيات الله وكلماته، ويتجاهلوا سنن الله تعالى الواضحة.

٨- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

إنّ في ذلك الإنبات وأنواعه المادي والمعنوي (آية) باهرة وحجة مبصرة، لها عبر جلييلة تدل على قدرة الله ووحدانيته الموجبة للإيمان، والزاجرة عن الكفر (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) ولم يكن

المتوقع من أكثرهم أن يؤمنوا بما لديهم من طبائع رذيلة فاسدة راسخة، وفساد مستحکم، والذي يكفر بالبدهيّات يقع في أشكال المشكلات! والإيمان بحاجة إلى أرضية صالحة، ونفسية سليمة وقلوب متفتحة على الإيمان، وعلى كل ما ينفعها، وهؤلاء بعيدون عن ذلك.

٩- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ) الذي ربّك وركاك أيها الرسول (هُوَ الْعَزِيزُ) القوي الغالب القاهر القادر على إبداع الآيات، وعلى الانتقام ممن طغى وبغى (الرَّحِيمُ) بخلقه حيث يكشف لهم عن آياته، والذي أمهلهم ولم يُعَجِّلْ لهم العقوبة مع قدرته عليهم، وقدم (الْعَزِيزُ) على (الرَّحِيمِ) فهو يعاقب بعزته من يستحق العقاب كقوله (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) السجدة/٢٢ (وَالْعَقَابُ عَلَيَّ قَدَرِ الْجِنَائِيَّةِ) ويرحم من يستحق الرحمة، والرحمة مع القدرة أعظم وقعاً، فهو سبحانه لا يرحم من يستحق العقاب، وهو مع كمال قدرته ذو رحمة واسعة، في نهج البلاغة خطبة ١٩٥، يصف الإمام علي (ع) الله تعالى (لَا يَشْعَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُؤَلِّهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ) بعزته يقهر الطغاة، وبرحمته يمهّلهم في وقت واحد، ويدع لهم الفرصة للتوبة والتدبّر، وبرحمته ولطفه أدرك أوليائه جاذبيّات العناية وفيوضات الهداية.

١٠-١١- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّتِي تَتَّقُونَ﴾

واذكر يا محمد للمكذّبين من قومك، حين نادى ربك نبيه موسى من جانب الطور الأيمن، أمراً له أن يذهب إلى فرعون الطاغية وقومه (أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الظالمين لأنفسهم، وكل من ظلم نفسه ظلم غيره بالمعاصي والاعتداء على حقوق الآخرين ١١- (، قَوْمِ فِرْعَوْنَ) وكان القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد (أَلَا يَتَّقُونَ) ألا للتوبيخ، ألا يخافون عقاب الله؟ وفيه تعجيب وتوبيخ من الله من تماديهم في الظلم وافراطهم في العدوان، فلا يحذرون من سوء العاقبة، ولا يحسبون حساباً للمفاجأة والمخبة، وقد أطلق فعل (يَتَّقُونَ) للدلالة أن قلوبهم قد خلت من كل أثر من التقوى، لا في أقوالهم ولا أفعالهم لا مع الله ولا مع الناس، ولا يخافون سوء عاقبتهم، حقاً أمرهم لعجيب! والقرآن يكشف عن سُنّة تاريخية عامة لا تخص فرعون، وإنما من كان على شاكلته من الظالمين في كل زمان ومكان، فائدة: ١- تكررت قصة موسى (ع) مرات عديدة بتفصيل وإجمال، ولهذا أهداف سامية منها، اكتشاف سُنن الله في الخلق كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) الأحزاب/٣٨، فكما عانى بنو إسرائيل من فرعون ثم انتصروا عليه بعون الله واتباعهم لموسى (ع)، كذلك سوف يعانى المسلمون من المنافقين المجرمين، ثم ينتصرون عليهم بعون الله في نهاية الجولة، إذا صبروا واتفقوا واحسنوا اتباعهم للإسلام كقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥ (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) آل

عمران/١٤٠، راجع أسباب التكرير في القصص القرآني في نهاية قصة موسى بعد آيتي ٦٧-٦٨/الشعراء.

١٢-١٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأُرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾

خوف موسى ليس من التكليف، وإنما قد يتسرع فرعون بعقابه قبل إتمام مهمته الرسالية فلا يحقق أهدافها، ١٣- (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي) وإذا حدث ذلك ضاق صدري وتعلمت لساني عن حاجتهم فلا أملك أن أبين وأن أناقش بلباقة هذا التكذيب وأفتده، فكانت بلسانه حبسه فإنها تُنشئ حالة من ضيق الصدر، فمن هنا خشى موسى أن تقع هذه الحالة وهو في موقف المواجهة الحاسمة (فَأُرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) ليعينني على تبليغ الرسالة آتقاء للتقصير في أداء التكليف، فهارون أفصح لساناً وأهدأ انفعالاً وهو أخوه الكبير.

فائدة: ١- في الآية دلالة على ضرورة مقاومة الإحساس بالفشل الذي يعتري المبلغين أمام العقبات التي تواجههم، ٢- سؤال: لماذا اختار الله تعالى موسى للرسالة وفي لسانه عقدة، أليس اللسان اللبق الطلق، من أهم خصوصيات نجاح الشخصية الرسالية؟ الجواب: إن لموسى (ع) ملكات نموذجية لا يمتلكها غيره في زمانه كقوله (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) طه/٤١، وإن كانت ملكة اللسان اللبق أحدها، ولكن مجموع الإيجابيات ونقاط قوة الشخصية عنده رفعت وأهلته لمقام النبوة وأداء المهمة، وإن كان يفتقد أحدها، فقد يكون حجة البرهان أقوى وأهم من بيان اللسان، وهي التي تؤثر في النفوس (الهِمَّةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهْمَةِ) في نهج البلاغة حكم ٤٠ (لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه) وعن الحسن العسكري (ع) (قلب الأحمق في فمه، وفم الحكيم في قلبه) البحار ٣٧٤/٧٨، وقد ذم القرآن حالة لباقة اللسان عند المنافق، التي تخدع الإنسان عن حقيقته التي يخالف قوله فعلة كقوله (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) البقرة/٢٠٤ و ذم فرعون كلام موسى وَلَكِنَّتَهُ وَلَكِنْ لَمْ يَذم بيانه وقوة برهانه، بقوله (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ يَبِينُ) الزخرف/٥٢.

١٤- ﴿وَلَهُدُوعِي ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

ولفرعون وقومه عليّ دعوى ذنب كما يعتقدون، وهو أني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به قصاصاً، فتضيق مهمتي قبل إتمام رسالتي، فهو الاحتياط لسلامة الدعوة لا الداعية، وهذا هو الذي يليق بموسى (ع) الذي صنعه الله على عينه كقوله (وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي) طه/٣٩.

١٥-١٦-١٧- ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ، فَأْتِنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَنْ

أُرْسِلَ مَعَنَا نَبِيٌّ إِسْرَائِيلَ﴾

قال الله تعالى له (كَأَلَّا) لا تخف من أي سوء ولن يقتلوك، وهو ردع عن هذا الظن وأمر بالثقة بالله تعالى، أي ثق بالله ولا تخف من طغيانهم، فلا يقدرّون على قتلك (فَأَذْهَبَا بِآيَاتِنَا) إذْهَب أنت وهارون بالبراهين الساطعة والمعجزات الباهرة ولا تخافا (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) فأنا معكما بالعون والنصرة، أسمع المحادثة، وأرى الأحداث، وأرعى الموقف، وهو كناية بلاغية عن دقة الرعاية والحماية والتأييد، وقد رسمها سبحانه في صورة الاستماع الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه، فائدة: ١- قال (مَعَكُمْ) ولم يقل (معكما) عاملهما معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً (مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ) ومن كان الله معه فمن عليه، ومن كان الله عليه فمن معه؟ وهذه كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة ١٦- (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك، مريبك وخالقتك لندعوك إلى الهداية والدراية ١٧- (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أطلقهم من نظامك واستعبادك وخلّ سبيلهم فيذهبوا معنا إلى الشام أو إلى الأرض المقدسة ليعبدوا ربهم، وكانوا على دين أبيهم إسرائيل، وهو النبي يعقوب، وقد فسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم ويعيدهم إلى دين التوحيد.

١٨-١٩- ﴿قَالَ الْمُرْسَلُونَ إِنَّا وَكَيْتُ فِينَا وَلَيْدَا وَكَيْتُ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
فلما قابلا فرعون وبلغاه الرسالة، نظر إلى موسى وقال له وهو متعجب: (أَلَمْ نُزَيِّدْكَ) في منزلنا طفلاً صغيراً وأحسننا إليك ولم نقتلك في جملة من قتلنا، فمتى كان هذا الأمر الذي تدعيه؟ (وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ) وأقمت عندنا من عمرك سنين عديدة، قيل: ثمان عشرة سنة أو أكثر ونحن نحسن إليك ونرعاك؟ فهل هذا جزاء التربية والرعاية التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة وتدعو إلى إله غيري؟! وكان هذا الموقف بعد عشر سنين ١٩- (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ) فجازيتنا على تربيتنا لك أن كفرت بنعمتنا، وقتلت منا نفساً؟ والتعبير (فَعَلْتِكَ) البشعة الشنيعة الفضيعة، لتحويل الواقعة وتعظيم الأمر، ومراده قتل القبطي فكيف تكون نبياً؟ (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) وأنت من الجاحدين لنعمتي والمغطين لفضلي عليك، إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر. ويضطرب موسى أمام هذا الاتهام، وتوقع فرعون أن موسى لا يستطيع جواباً، وما يمكن أن يعقبا من قصاص يتهدده به من وراء الكلمات، ولكن موسى أطلق الله لسانه فأجاب:

٢٠-٢١- ﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

الضالين: الجاهلين أو لا علم لي ولم أتوقع بأن وكزتي ودفعتي تؤدّي إلى قتله، فهذا قتل الخطأ من غير تعمّد، لأني قصدت بها الردع والتأديب فأخطأت القصد فأبي ذنب لي في ذلك؟، وفي التشريع أن حكم العمد ركن من أركان الجنائية، ٢١- (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ) فهربت منكم

حذراً على نفسي أن تضروني بما لا أستحقّه من العقاب بجنايتي عن خطأ. (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) فأعطاني الله وأكرمني بالنبوة والحكمة والعلم والتوراة، دستور حياة (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) واختارني رسولاً إليك إلى هداية الناس، أي ما فررتُ من العدالة بل من الظلم! فمعرفتك السابقة بحالي لا تنفي رسالتي، بل إنك كما أكرمتني صغيراً، فأنا الآن أردّ الجميل إليك وأنا كبير، فأهديك إلى منهج الله الذي يهدي للتي هي أقوم! وتعرف من خلاله فلسفة الحياة. وذكره فرعون بالتشريد وبالْفَقْر بعد خروجه من مصر، فقال موسى: تُقاس الكرامة والفضيلة بالعلم والعمل الصالح لا بالغنى والجاه، في نصح البلاغة حكم ٨١ (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) وقد وهب الله لي العلم بدينه وأكرمني بالرسالة إليك وإلى قومك. والرسالة لا تأتي بالاكْتِسَاب، وإنما هي بالاصطفاء والاختيار، كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/ ١٢٤.

٢٢-٢٣ - ﴿وَلِكُ نِعْمَةٍ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم يجيبه حجة بحجة، عبّدت: جعلتهم عبيداً، كيف تمنّ عليّ بإحسانك إليّ وقد (عبّدت) استعبدت قومي وأسأت لهم وجعلتهم خدماً أذلاء، مما تعدّه نعمة ما هو إلا نقمة، فلا يفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم، وأبى أن تسمى تربيتك في بيته نعمة صريحة، لأنك لولا استعبادك بني إسرائيل، تذبّح أبناءهم وتستحيي نساءهم، لما اضطرتّ أُمي إلى وضعي في التابوت (الصندوق) وإلقائي في النيل حفاظاً على حياتي، ولما وصلتُ إليك وتربيت في بيتك، فهل هذا ما تمنه عليّ؟ لما سمع فرعون الرد المفحم المخرج، عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وغير مجرى الحديث وراح يسأله عن صميم دعواه ٢٣- (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) قال فرعون مستكبراً من هو هذا الذي تزعم أنه ربّ العالمين، الذي ادّعت أنك رسوله؟ هل هناك إله غيري؟ (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) القصص/ ٣٨.

٢٤-٢٥ - ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

وهذا فن الحوار في القرآن. فأجابه موسى (ع) إنّ العقل البشري لا يدرك ما هيّة الله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/ ١١ وإنما مخلوقاته تدل عليه، والكون والكائنات من صنعه وإبداعه وحده لا شريك له، وكل شيء في الكون يدل على وجوده سبحانه، بوجود التدبير المنظم فيه وكونه تدبيراً واحداً منظماً مترابطاً، الدال على أن له رباً مدبّراً منظماً واحداً، وهذه حقيقة بديهية، والجدال في البديهيّات من أشكال المشكلات، (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) إن كان لكم عقول تدرك الحق وترغب به، وكان هذا الجواب المحكم يكافئ تجاهل فرعون ويغضيه ٢٥- (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) ألا تعجبون من هذا القول الغريب على سبيل الاستهزاء، إنه يدّعي أن لهذا الكون إلهاً غيري؟! يجعلهم يستغربون من هذا القول لعلّه يصرفهم عن التأثير به، على طريقة

الجبارين الذين يخشون من كلمات الحق أن تؤثر في القلوب وتقوي الإرادة، ما حجم هذا الغرور الذي جعله يدعي الربوبية من دون الله؟ قيل لفرعون ما فرعنك؟ قال لم أجد رادع يردعني! لا تعجب أيها القارئ من غرور الطغاة، فإن الطغيان طبيعة إنسانية إذا لم تهدب بالخلق والدين كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى) العلق/٦-٧، فكم من واحد يقول (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) النازعات/٢٤ يقولها بلسان حاله قبل لسان مقاله، إذا وجد من يسمع له ويقبل منه ويطيعه على طغيانه كقوله (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ) الزخرف/٥٤، لقد شعر موسى أن الموقف بحاجة إلى طرح صفة أخرى من صفات رب العالمين.

٢٦-٢٧ - ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾

استرسل موسى بكلامه وهو أشد مساساً بفرعون ودعواه الربوبية، وقال: الله خالقكم وخالق آباءكم الذين كانوا قبلكم، هو ربكم الذي رباكم وعلمكم وأكرمكم، فوجودكم دليل على وجود الله القادر الموجد الحكيم لا فرعون، في غرر الحكم: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) فانتقل من دليل الآفاق إلى دليل الأنفس وهي الأقرب والأوضح عند التأمل كقوله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات/٢٠-٢١، فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون، لقد كانت مقاومة موسى لفرعون هزة عنيفة لحكمه السياسي والديني. ٢٧- (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) أنّ هذا الرسول لمجنون لا عقل له، وسماه رسولاً استهزأً، إن فرعون بدأ يحرّض على تكذيبه، وهذه طريقة الطواغيت عندما يقبضون على دعاة إلى الله فيتهمونهم بما ليس فيهم، مثل أنتم محزون هدامون عملاء، حتى يمنعوا التأثير بهم، ولكن هذا الهجوم على موسى لا يفت في عضده، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق بكل قوة واقتدار التي تزلزل الطغاة والمتجبرين.

٢٨-٢٩ - ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِيَّاهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ

الْمَسْجُونِينَ﴾

استثمر موسى الموقف المناسب وجاء بالدليل بعد الدليل قال: هو الله تعالى واضع نظامي المشرق والمغرب، ونظامهما الدقيقين يدل على منظمهما الحكيم القدير كقوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣، وهذان الحدّان العظيمان لا يجرو فرعون أن يدعي خلقهما وتديرهما وتصريفهما، فهذا النظام الدقيق بحاجة إلى منظم حكيم قادر، إنّ هذا التوجيه الهادي يهزّ القلوب هزاً، ويوقظ العقول الغافلة ويجعلها تتفكّر (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) تتفكرون، وهذا أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم في مناظرة النمرود (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) البقرة/٢٥٨، والطغيان لا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولما انقطع فرعون في حجته فيريد أن ينهي الحوار

معه، بالتهديد الغليظ وبالبطش الشديد الذي يعتمد عليه الطغاة، كان جواب موسى أمام الطاغية فرعون من أفضل الجهاد، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كثر العمال خير ٤٣٥٨٨، ورجع فرعون إلى استعلائه وطغيانه، والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب ووحدة الصفوف، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة والنهضة. ٢٩- (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) عندما عجز فرعون أن يرد الحجة العلمية بحجة مماثلة لها، اضطربت نفسه وخاف على مستقبله السياسي ولجأ إلى سلاح المكر الخبيث والتهديد والوعيد، هذا هو الظلم (وإِنَّمَا يَحْتَأَجُّ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ) كما في دعاء الإمام السجاد (ع)، دعاء (٤٨) في الصحيفة السجادية، والظلم مرتعه وخيم (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر/٤٣، كان سجن فرعون شديداً في سجن انفرادي ضيق لا يبصر ولا يسمع فيه أحد حتى يموت، فلم يقل (لأسجننك) وإنما قال (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) لَأَنَّ سجنه كان أشد من القتل! من سوء حالهم وشدة عذابهم، فلا يخرج السجن من هنا حتى يموت!، تلك هي صفة الطغاة أن تعاقب من غير جنانية، إنما صفة لا تحتكم إلى منطق العقل وإنما إلى منطق القهر والتسلط، فاضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات.

٣٠-٣١- ﴿قَالَ أَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ، قَالَتْ بِهَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

قال موسى: وحتى لو جئتك ببرهان واضح يدل على صدق رسالتي، فهل تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الناس، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته وهو يدعي أنه مجنون، فوجد نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل، ٣١- (قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) قال فرعون وهو في استعلائه لموسى وهو في جهاده، هات دليلك المبين الواضح إن كنت من الصادقين في نبوتك.

٣٢-٣٣- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ، وَنَزَعْنَا مِنْهُ آيَاتِهِ بِيضَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ﴾

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين الخارقتين، وقد أخرهما عندما بلغ التحدي من فرعون لموسى أقصاه، والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى حية عظيمة حقيقية كالثعبان تدب فيها الحياة مع حركة خفيفة وسريعة وخفيفة، وأن يده حين أخرجها من تحت أبطه أصبحت بيضاء تلمع فعلاً فيها شعاع يضيء الأفق ويبهر الأبصار!! وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها فأسرع يقاومها، وشعر بالخطر وأصر على التكذيب، وهو يحس ضعف موقفه وإرباك الوضع العام عليه. فائدة: جاءت الفاظ ثلاثة، ثعبان وجان وحيّة، كل منها يرمز إلى بعض

الخصائص الموجودة في تلك العصا، (فالثعبان) إشارة إلى عظمتها (والجان) إشارة إلى سرعتها وحققتها (والحية) إشارة إلى حياتها.

٣٤-٣٥- ﴿قَالَ لَمَّا حَوَّلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾
قال فرعون (للملأ) لحاشيته الزعماء الذين يملأون القلوب هيبة والعيون جمالاً وزينة، (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) فنان بارع في سحره، لكي يمؤه ويشوش على القوم، ويُعتمى عليهم تلك المعجزة الخارقة التي تدهش الناظرين، أحس فرعون أنه بدأ عصر الزلزال!، والآن ظهرت علامة الخطوة الأولى من بداية النهاية! ٣٥- (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ) إنه يريد أن يكثر أنصاره ثم ينتصر عليكم ويحكم في الأرض (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) فبم تشيرون، من عادة فرعون أنه يستبد برأيه ولكن معجزة موسى جعلته في حيرة وارتباك فاستعان بمستشاريه! فهبط من دعوى الربوبية إلى مقام مشاورة عبده! ومتى كان فرعون يطلب رأي أتباعه وهم له يسجدون! وعادة الطغاة عندما يحسبون بالخطر يلينون في القول بعد التجبر، ويلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يستذلونهم (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النمل/٥٠-٥١ (يُدَبِّرُ الْمُدْبِرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ!).

٣٦-٣٧- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْهِ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾
أرجه: أي أحر أمرهما وأجله بلا عقوبة حتى تتبين الحقيقة، (وَأَبْنَيْهِ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) حاشرين: جامعين، وأرسل من يجمع لك السحرة المهرة من كل مكان، لإقامة مباراة السحر بينهم وبينه.

٣٧- (يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) وكان هذا من تسخير الله تعالى، وانه يدبر المباراة بحكمة ومصالحة، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وبراهينه على الناس في واضح النهار.

٣٨-٤٠- ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْمِعُونَ ، لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُدًى الْغَالِبِينَ﴾
فاجتمع السحرة في الموعد المحدد كقوله (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحَى) طه/٥٩، ٣٩- (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْمِعُونَ) وقيل للناس بادروا للاجتماع لمشاهدة هذه

المباراة لتروا عاقبة أمر موسى وهارون، وكان ذلك ثقة فرعون بالانتصار على موسى أمام الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، بينما كان موسى في ثقة كاملة بأنه يمثل حجة الله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩، وحجة الكافرين هي الخاسرة. ٤٠- (لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) حتى تتبع السحرة في دينهم إذا انتصروا على موسى، وغاية هذا الحشد للناس لتشجيع السحرة وإلقاء الرعب في قلب موسى.

٤١-٤٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا لِنُؤْتِيَهُنَّ الْغَالِبِينَ ، قَالَ نَعَمْ وَإِنِّي إِذًا لَمِنَ الْمُتَرَبِّينَ﴾

ساوموا فرعون على أجور فوعدهم بأكثر مما طلبوا ورجعوا ٤٢- (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أَمْنَحِكُمُ الأجر الكثير وأجعلكم من المقربين مني ومن خاصتي، وكان ذلك من أعظم المراتب عندهم، وهكذا حال أهل الدنيا في حبّ قريهم للسلطان وهو من أعظم المصائب عند المؤمنين، وهكذا جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة حقة، ولا صلة لها بقضية محقة، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة، وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل زمان ومكان، عن الإمام علي (ع) (مَنْ جَعَلَ مُلْكُهُ حَادِمًا لِدِينِهِ، انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمِعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ)! روي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الدُّنْيَا قَالَ لَهَا (يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَنِي فَخَدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَحْدِمِيهِ)! روح البيان ٧٣/٣.

٤٣- ٤٤- ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى الْقَوْمَا أَنتُمْ مُلْقُونَ، فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾

فلما واجه موسى السحرة والناس محتشدين في مشهد مثير، مترقب فيه المفاجأة والمخبة! قال لهم ألقوا من سحركم ما أنتم ملقون، فأنا لا أخشاكم ولا أبالي بحشدكم الكبير ولا مهاراتكم الفائقة! قاله ثقةً بنصرة الله له، وموسى وحده وليس معه إلا عصاه وأخوه، ٤٤- (فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) فألقوا حبالاً وعصياً قائلين نقسم (بعزّة) بعظمة فرعون إننا لنحن الغالبون لموسى، فخيّل للناس من سحرهم أنها حيّات تسعى مخيفة كقوله (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) الأعراف ١١٦، فتهللت وجوه فرعون وقومه فرحاً، بهذا الصراع تنكشف الحقائق، رأى السحرة كثرة أساليبهم الخادعة، بينما رأوا موسى لا يمتلك إلا العصا فاستصغروا قدرها وظنوا غلبة الكثير على القليل، وقد جهلوا أن القليل من الحق يغلب كثيراً من الباطل، كما أن قليلاً من النور يمحو كثيراً من الظلمة، ويتجلّى بالمقابل موقف موسى وهو مطمئن أن الله معه ينصره لأنه هو يسعى لنصرة الله تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) محمد/٧.

٤٥- ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

يأفكون: يزورون ويموهون ويغيرون الحقيقة، وسمى تلك الأحداث المثيرة الخادعة إفكاً للمبالغة في تصوير المشهد المثير، تلتف بسرعة، واللقف أسرع حركة للأكل، أي فألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع ما كانوا يقلبون صورته وحالته الأولى، بتخييل الحبال والعصي أنها حيّات تسعى، ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة، جاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه وهم جمع كثير، وموسى وحده وليس معه إلا عصاه، وهذه العصا الصغيرة والنحيفة قد تحوّلت إلى حية ضخمة، وأكلت كميات كبيرة من حبالهم وحيّاتهم، ورجعت الحية إلى عصا

خفيفة، وبقيت العصا كما هي! كقوله (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأعراف/١١٨، في موقف مثير ينتهي عنفوان السحرة المهرة، ويملك موسى الموقف كما ملك القلوب، وتوجهت إليه الأنظار. **فائدة:** رأوا كثرة تمويهاتهم وقلة العصا، وكثرة عددهم وموسى وحده، فظنوا غلبة الكثير على القليل، وما علموا أن القليل من الحق يبطل كثيراً من الباطل، كما أن قليلاً من النور يمحو كثيراً من الظلمة، في غرر الحكم (والحق أقوى ظهير، وأفضل نصير).

٤٦-٤٨- ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

فلما رأى السحرة ما رأوا عرفوا أن يد الله بالغيب هي التي كانت تدير الموقف كما قيل (يُدَبِّرُ الْمُنَظَّرُونَ وَالْقَضَاءُ يُضْحَكُ) وإنها معجزة خارقة عن قدرة البشر وليست من السحر في شيء، فلم يملكوا أنفسهم إلا أن خرّوا ساجدين لله سبحانه مطيعين له، وهكذا البرهان يقطع الخصام، ويحقق القناعات، ويُرقق المشاعر، كقوله (وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) التغابن/١١، (فَأَلْقَى) التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من دهشة الإعجاز، حتى كأنهم أخذوا فطرحوا! ٤٧-٤٨ (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) قالوا آمنا برب العالمين، الذي دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون، وهذا يبطل دعوة فرعون للربوبية، كانوا منذ لحظة مأجورين ولم يكونوا أصحاب عقيدة، ولكن الحق حوّلهم تحويلاً جذرياً سريعاً! لقد كانت هزة ضمير وصحوة فكر وانقلاب قناعات، أوضحت لهم الطريق فأزالته عن قلوبهم ركام الضلال البعيد، وجعلتها عامرة بالإيمان في لحظات قصار، فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً بغير إرادتهم، وتنطق ألسنتهم بكلمة الإيمان، وانقلب السحرة المأجورين مؤمنين صادقين في موقف صادق مؤثّر، لم يفكروا بردود الفعل من فرعون الطاغية! وهكذا يفعل الحق عندما يحين وقته تراه يغلب الباطل ويخذله كقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) الإسراء/٨١ وقوله (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) الأنبياء/١٨.

فائدة: ١- السحر مأخوذ من وقت السحر، وهو ما بين الفجر الأول والفجر الثاني، وحقيقته اختلاط الضوء بالظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصباح، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس فيه، وكذلك السحر وهم بين الحقيقة والخيال، انظر كيف أصبحوا سحرة متعلقين بفرعون، وأمساوا مسلمين مؤمنين شهداء مضحين من أجل نصرة الحق، كقوله (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) الشورى/١٣، وهكذا يعمل الحق في الباطل، والإيمان في الكفر، والصلاح في الفساد، بشرط أن يتحرك الحق وأهله بكامل عزمهم وصدقهم، عندئذ ترى العجائب! وتنكشف لك الأسرار والحجب، وتنسّق مع الأقدار! ٢- فيه دليل إنّ التعمق والتخصص في كل علم وفن ومهنة، فيه منتهى النفع وهو من عوامل التقدم الحضاري، والنهضة

الاجتماعية، فإن السحرة ما تيقنوا بأن ما فعل موسى معجزة، لأنهم عرفوا الفرق بين المعجزة الخارقة وبين السحر الخادع (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) الأنفال/٢٤.

٤٩- ﴿قَالَ آمَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

قال فرعون للسحرة كيف تؤمنون بموسى قبل أن تستأذنوني؟ وهل الإيمان بحاجة إلى إذن؟! وهل القناعات بحاجة إلى رخصة؟ إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان والإيمان، يالروعة هذا الإيمان إذ يشرق في الضمائر ويفيض بنوره على الروح! (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير عليه، ثم جعل يتهددهم ويتوعددهم وقال: إن موسى لرئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره، أراد فرعون تلبس الأمر على قومه، وهذه تهمة متناقضة مضللة ومكابرة فاشلة، لأنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم (فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) وسوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتهم من الإيمان به (لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ) لأقطعن يديكم اليمنى مع رجلكم اليسرى أو بالعكس (وَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) ولأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة، وأتركه حتى الموت ليتعظ بكم الآخرون! إنها الحماقة الذي يرتكبها كل طاغية حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه. فأجابوه غير خائفين بتهديده وتنكيله وطغيانه وأعوانه!

فائدة: قال (آمَنْتُ لَهُ) ولم يقل (آمَنتم به) إيمان عن دلالة علمية وحجة يقينية. أي آمنتم له استسلاماً له وخضوعاً بسرعة من دون إرادتهم، لم يشعر قلب فرعون ولم يحس تلك اللمساة الإيمانية التي مست قلوبهم فقلبتهم من الكفر إلى الإيمان!.

٥٠-٥١- ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقِدُونَ، إِنَّا نَنطَعُ أَنْ يُغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لا ضير: لا ضرر، ألسنا على الحق، إذن لا نبالي بالموت!، منقلبون: راجعون، المعنى: لا نبالي بتهديدك ووعيدك والقتل والاستشهاد في سبيل الله، فإنها تضحية باسلة لنصرة القيم والمبادئ والأخلاق، وتحمل العذاب الزائل! لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه، ٥١- (إِنَّا نَنطَعُ أَنْ يُغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا) ولأننا نرجوا أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي مضت منا قبل إيماننا بموسى فلا يعاقبنا بها (أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) ولأننا نطمح أن يغفر لنا ربنا خطايانا، لكوننا أول المؤمنين من قوم فرعون ورعاياه. فائدة: ١- في الآية دلالة على أن للإنسان المؤمن أن يظهر الحق، وإن خالف عادات المجتمع، وأن يتحمل المعاناة وردود الأفعال، ولا يخاف القتل في سبيل الله، كقوله (وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ) محمد/٤، عن النبي (ص) (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ ص ٨، وعنه (ص) (إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال

خبر ٤٣٥٨٨، ٢- من أهم الرذائل أن يسيطر الطغاة على الأجسام، ولكنهم إذا سيطروا بعدها على الأرواح والعقول والإرادات، فعندئذ لا قيمة لحياة الإنسان بعد ذلك! (موت في طاعة الله، خير من حياة في معصية الله) كنز العمال خبر ١٠٨١ وتصبح الحياة جحيم لا يطاق، لأن الإنسان سوف يلغي عقله، ويسير بعقول الآخرين كالقطيع، فيتبع اتباعاً أعمى، فلا يميز بين الخير والشر كقوله:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) (الأنفال/٢)، عن النبي (ص) (شَرُّ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا، وَشَرُّ مَنْ ذَلِكَ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ) البحار ٧٧ ص ٤٦، وإذا تغلغل الإيمان في أعماق الإنسان، فيسيطر على قوة الإرادة، فيكون الإنسان المؤمن أقوى من الحديد، وأصلب من الجبل، لأن الجبل يستغل بالمعاول، والمؤمن لا يستغل دينه شيء، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَشَدُّ مِنْ زُبْرِ الْحَدِيدِ، إِنَّ زُبْرَ الْحَدِيدِ إِذَا دَخَلَ النَّارَ تَعَيَّرَ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ وَلَوْ قُتِلَ ثُمَّ نَشِرَ ثُمَّ قُتِلَ لَمْ يَتَغَيَّرْ قَلْبُهُ) البحار ٦٧/٣٠٤. فيكون الموت في حق وعزة خير من الحياة في باطل وذلة، وهكذا شهداء العقيدة لا يبالون، وقع الموت عليهم أم وقعوا على الموت، ما داموا إلى ربهم راجعون ومن أجله مضحون وعنده مكرمون، فإن الإنسان يحيا بمواقفه النموذجية أكثر مما يحيا بعمره! عن الإمام علي (ع) (أَطْلُبُوا الْمَوْتَ، تُوهَبَ لَكُمْ الْحَيَاةُ!) (الشهادة ١/٢٨٧، فإذا لم تكن الحياة كما تريد، فليكن الموت كما تريد، في نهج البلاغة خطبة ٥١) (الحياة في موتكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين!) في غرر الحكم (المعلوب بالحق غالب، الغالب بالباطل معلوب) وهكذا شهداء العقيدة لا يبالون بسيف الجلاد، بل يشتدون صلابة في صمودهم وإخلاصهم ورسوخهم في دينهم وإيمانهم في غرر الحكم (مَنْ كَرَمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ قَلَّ شِقَاقُهُ وَخِلَافُهُ) ولم يهنأ بالمعصية) عن النبي (ص) (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لِرَجَالًا إِيمَانُ أَتَبْتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي) مجمع البيان ٣/١٤٤. وعنه (ص) (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) البحار ٧١/١٥١

٥٢-٥٣- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ، فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

وأوحى الله تعالى إلى موسى وعلمه خارطة الطريق (أَنْ أَسْرِ) أن يسير ليلاً إلى جهة البحر بيني إسرائيل، بعد تدبير وتنظيم وحيطة وحذر، والبحر في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات.

وسمّاهم (بعبيدي) لأنهم آمنوا بموسى (إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ) يتبعكم فرعون وقومه صباحاً ليردوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم شرّ قتلة! ٥٣- (فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) حاشرين: جامعين، أرسل فرعون في طلبهم حين عرف بمسيرهم عن طريق مخبراته، وأمر أن يُجمع له الجيش من كل المدن بتعبئة عامة، ليفسد عليهم تدبيرهم، ليقبضوا على موسى وقومه، وهو لا يعلم أنه تدبير محكم من صاحب التدبير، من الذي يدبر الأمور في السماوات والأرض كقوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَنْ

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) السجدة/٥ (يُدَبِّرُ الْمُنَظَّرُونَ وَالْقَضَاءُ يُضْحَكُ) (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ وَأَنَا أُرِيدُ، وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)!

٥٤-٥٦- ﴿لَنْ هُوَاءَ لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ، وَأَنْهُمْ لَكَاعَانِطُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾

لشردمة: لطائفة قليلة ذليلة متفرقة وضعيفة، أي أن بني إسرائيل (لشردمة) لجماعة مفككون متناثرون قليلون غير متحدّين، فلا خوف من قتالهم فنحن منتصرون عليهم بأدنى جهد وأبسط عدّة وبأقل مدة، وإذا كانوا هم كذلك، لماذا الاهتمام بأمرهم والاحتشاد لهم؟! ٥٥- (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَعَانِطُونَ) وإنهم يأتون من الأعمال ما يغيظوننا بدعوتهم إلى الله، وخروجهم من مصر بدون موافقة من فرعون، والغيظ أشدّ الغضب، ويستفزوننا بتمردهم علينا وخروجهم عن طاعتنا، ويخلقون حالة تمرد وعصيان عامة علينا، ويحدثون الاضطراب في البلاد والعباد، ٥٦- (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) ونحن قوم (حاذرون) متيقّضون منتبهون، ومن عاداتنا التيقّظ والحذر، واستعمال الشدّة والقوة في الأمور، فلا بد من إبادتهم قبل أن يتفاهم شرهم، ونحن ممسكون بزمام الأمور، ومستعدّون لاستئصالهم من الوجود، وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه، ليقوّي بها جنده في اقتفاء آثارهم، ولكن الله تعالى يدبر الأمر، وهو يريد شيء، وفرعون يريد شيء آخر، ولا يكون إلا ما يريد الله، أن يجعل تدميرهم في تدبيرهم كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩، في نهج البلاغة حكم/١٦ (تذل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير).

٥٧-٥٩- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

وقبل أن يعرض المشهد الأخير، يعجّل السياق القرآني بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وحكومته - بسبب كفرهم واستكبارهم- مما كانوا فيه من (جَنّاتٍ) متاع ونعيم وبساتين مثمرة، كانت لهم (عُيُونٍ) وأنهار جارية. ٥٨- (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة، ومن المنازل الحسنة والقصور الفاخرة البهيّة، وسمى الأموال والذهب والفضة ونحوهم سماها كنزاً، لأن ما لا يؤدي منه حق الله فهو كنز، وإن كان ظاهراً على وجه الأرض، وما أدى منه حق الله فليس بكنز، والكنز: المال المجموع المحفوظ.

٥٩- (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) ظاهر السياق القرآني يدل أن الله سبحانه أورث بني إسرائيل ديار فرعون وملكه وقومه، ولكن متى وكيف؟ لم يصرّح القرآن في ذلك، لا من دليل أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر، بعد خروجهم إلى الشام أو أرض الميعاد الأرض المقدسة التي ساروا إليها، وقد يكون إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه، فهي وراثته لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، وتخلّصوا من الاستعباد والرق لفرعون، وقيل (وَأَوْرَثْنَاهَا) على طريقة مال المورث للمورث، كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها، قبل أن يقبضوها ويتسلّموها،

كأنما ملكوا ديار آل فرعون ولم يدخلوها! لكنهم سكنوا الشام (القصة) إنَّ بني إسرائيل حكموا مصر بعد موسى، وخصوصاً في زمن النبي سليمان (ع). **فائدة: ١-** في الآية دلالة أنَّ الظلم لا يدوم وإن دام دمراً، وأن أحوال الحياة تتغير من حال إلى حال (**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**) آل عمران/١٤٠ وقوله (**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**) الرحمن/٢٩ (ودوام الحال من المحال) والإنسان في جميع الأحوال هو مبتلى كقوله (**وَنَبَلُوكُمْ بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**) الأنبياء/٣٥ عن الإمام الصادق (ع) (ما من قبض ولا بسط إلا والله فيه مشيئة وقضاء وابتلاء) التوحيد ص ٣٥٤.

٦٠-٦٢- **﴿فَاتَّبَعُوهُ مُشْرِقِينَ﴾** فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ ﴿

خرج فرعون بنفسه وبجيوشه ورجاله في طلب موسى وأصحابه، فلحقوهم (مُشْرِقِينَ)، وقت شروق الشمس ٦١- (**فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ**) فلما قربوا منهم ورأى كل منهما الآخر (**قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ**) كان بنو إسرائيل خائفين فزعين سيدركنا جنود فرعون ويلحقون بنا، فالبحر أمامنا والعدو من ورائنا، ولا طاقة لنا ولا حول ولا قوة لنا، فجاء يقين موسى (ع) بالله تعالى الذي سينقذهم من هذا المأزق الخطير ويهديهم إلى سواء السبيل، وموسى (ع) مطمئن أن من ينصر الله ينصره ويثبت قدمه كقوله (**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) الطلاق/٢-٣، ٦٢- (**قَالَ كَلَّا**) قال موسى (كَلَّا) بكل تأكيد، لن يدركوكم فامتنعوا عن هذا الكلام المتخاذل، وكونوا مع الله حتى يكون الله معكم (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) أن ربي معي بالحفظ والنصرة والرعاية والعناية (**وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ**) الزمر/٦١، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص بكل تأكيد ويقين كما وعدني (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الروم/٦٠. **فائدة: ١-** روي: (إِنَّ موسى لما انتهى إلى البحر دعا الله عند ذلك بتضرع (يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً) وعن النبي (ص) ألا أعلمك الكلمات التي قالها موسى حين انفلق البحر (قل اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

٦٣-٦٦- **﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ، وَأَمْزَلْنَا نَدْرَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْبَاقِينَ﴾**

فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك (الْبَحْرَ) بين مصر وسيناء (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ) فانفلق: فانشق، فرق: قسم كالطود: كالجبل، فانشق البحر إلى أقسام، وقام الماء عن يمين الطريق ويساره، فكان كل قسم من طريقي البحر، كالجبل الشامخ الثابت، وصار فيه اثنا عشر طريقاً يابساً على عدد الأسباط الاسرائيليين، لكل سبط منهم طريق، حتى لا يختلفوا!

كقوله (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى) طه/٧٧، ٦٤- (وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ) وَأَزَلَفْنَا: قَرَّبْنَا، ثُمَّ: بِمَعْنَى هُنَاكَ، أَي وَقَرَّبْنَا هُنَاكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ وَجَمَاعَتَهُ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي انْشَقَّ مِنَ الْبَحْرِ لِنَغْرَقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، حَتَّى دَخَلُوا الْبَحْرَ عَلَى أَثَرِ دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا هَيَأُ أَسْبَابَهُ، ٦٥- (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ) وَانْجَيْنَا مُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ جَمِيعًا بِحِفْظِ الْبَحْرِ عَلَى حَالِهِ حَتَّى خَرَجُوا مِنْهُ، ٦٦- (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ) ثُمَّ أَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ جَمِيعًا، فَلَمَّا خَرَجَ أَصْحَابُ مُوسَى وَتَكَامَلَ دُخُولُ أَصْحَابِ فِرْعَوْنَ، أَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ أَنْ يَطْبُقَ عَلَيْهِمْ فَغَرَقُوا فِيهِ، فَكَانُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عَيْبَةً لِلنَّاسِ)، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ مُوسَى: مَا غَرِقَ فِرْعَوْنَ! فَرَمَاهُ الْمَوْجُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ فَصَدَّقُوا.

فائدة: ١- (فَانْفَلَقَ) فَرَحَ فِرْعَوْنَ عِنْدَمَا رَأَى الْبَحْرَ مَفْلُوقًا، وَشَاهَدُوا جَمِيعًا الْمِعْجَزَةَ الْكُبْرَى، فَلَمْ يَتَفَكَّرُوا بِهَذَا الْحَدِثِ الْعَجِيبِ وَمَاذَا يَرَادُ مِنْهُ؟ وَقَالَ لِمَجْمَعِهِ انظُرُوا كَيْفَ اسْتَجَابَ الْبَحْرُ لِرَغْبَتِي، وَفَتَحَ لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْخَارِجِينَ عَنِ إِرَاقِي؟ ثُمَّ اقْتَحَمُوا تِلْكَ الْمَسَالِكَ كَقَوْلِهِ (يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) الأنفال/٣٠، ٢- (اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) هَلْ عَصَا مُوسَى هِيَ الَّتِي فَلَقْتَ الْبَحْرَ، كَلَا؟ وَهَلْ مَرِيْمٌ عِنْدَمَا هَزَتْ جَذْعَ النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ كَقَوْلِهِ (تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غِنِيًّا) مريم/٢٥، وَجَذْعُ النَّخْلَةِ لَا يَنْهَزُ!، وَأَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسَ نِظَامَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، بِقَدْرِ مَا يُهَيِّئُ الْإِنْسَانَ الْأَسْبَابَ الْمُمْكِنَةَ تَتَحَرَّكُ الْمُسَبِّبَاتِ الْإِلَازِمَةَ، فِي غَرِّ الْحُكْمِ (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) كَقَوْلِهِ (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَاتَّبِعْ سَبَبًا) الكهف/٨٤-٨٥، وَالْأَسْبَابُ بِيَدِ الْإِنْسَانِ، وَالْمُسَبِّبَاتُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَبِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ الْأَسْبَابُ تَكُونُ الْمُسَبِّبَاتُ، تَكَرِّمًا لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ دَوْرٌ فِي خِلَافَةِ الْأَرْضِ وَفِي حَرَكَةِ السَّنَنِ التَّارِيخِيَّةِ وَالسَّنَنِ الْكُوْنِيَّةِ، ٣- (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى) لَمْ يَكُنْ لِأَخِيهِ هَارُونَ دَوْرٌ مَلْحُوظٌ بَارِزٌ فِي جَمِيعِ رِحْلَةِ الْمُؤَاجَهَةِ مَعَ فِرْعَوْنَ!.

٦٧-٦٨- ﴿لَنْ فِي ذَلِكَ آيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ (لَايَةً) لِحِجَّةٍ خَارِقَةٍ وَسُنَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فَعَالَةٍ لَا تَتَوَقَّفُ فِي زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ، مَعَ تَوْفُرِ الْأَسْبَابِ الْإِلَازِمَةِ لَهَا (لَايَةً) لِعِبْرَةٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُعْتَبِرِينَ، عَلَى رِعَايَةِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، لِمَنْ تَدَبَّرَ وَتَفَكَّرَ فِيهَا، وَالدَّالَّةُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَصَدَقَ الرِّسَالَةَ (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) فَكَانَ فِي أَعْيُنِهِمْ عَمَى، وَفِي آذَانِهِمْ صَمَمًا، وَعَلَى قُلُوبِهِمْ أَقْفَالًا، وَتَعْبِيرُ (أَكْثَرُهُمْ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ آمَنُوا بِمُوسَى وَالتَّحَقُّوا بِأَصْحَابِهِ، وَمَعَ مَشَاهِدَةِ هَذِهِ الْمِعْجَزَاتِ الْعَظِيمَةِ الْعَجِيبَةِ، لَمْ يُؤْمِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَا سِيَمَا الْأَقْبَاطُ، كَمَا لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ أَكْثَرُ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْبَدِيهِيَّاتِ يَقَعُ فِي أَشْكَالِ الْمَشْكَلَاتِ، وَالَّذِي لَا يَلِيْقُ بِهِ الْإِيمَانُ يَلِيْقُ بِهِ الْكُفْرُ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَقَلُّ دَلِيلُ يَكْفِيهِمْ، وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ تَأْتِيهِمْ بِأَلْفِ دَلِيلٍ وَدَلِيلٍ

لا يؤمنون، ومن ضاق عليه الإيمان فالضلال عليه أضيق!، كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، وفيه تسلية للنبي (ص) والدعاة إلى الله (اصبروا وتظفروا) ووعيد لمن عصاه. ٦٨- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) هو (العزيرُ) في سلطانه، المنتقم من أعدائه (الرَّحِيمُ) بأوليائه.

- (نظرة في سبب التكرير في القصص القرآني)

ذكر الله موسى في القرآن في (١٢٠) موضعاً، بين التفصيل والإجمال لفائدة خلت عنه من موضع لآخر، وكلما كرر قصة جاء فيها بشيء جديد لم يكن موجوداً في العرض الأول، وبتكريرها يُكَمَّل بعضها بعضاً، وأنها في مجموعها تعطي صورة واضحة للحدث، ولا يمكن ابرازها كلها في سياق واحد، فلا بد أن تعاد العبارة وتحمل في كل مرة لقطة أو عدة لقطات ملفتة لم تكن في المشهد السابق، فنرى التكرير يستخدمه الإعلاميون الذين درسوا علم النفس، وطريق التأثير على البشر في ترويج بضائع الصناعيين، بالإعلانات المختلفة في الأوقات المتنوعة، والدعايات المتكررة، سواء أكانت بالصورة أو الصوت أو وسائل الإعلام المرئية والمتنوعة، للتأثير في مشاعر الناس، والتركيز أن التكرير يلفت الأنظار ويُعَلِّم الشطّار، ويثير الانتباه ويحرك الأذهان ويؤثر بالمشاعر بلا استئذان. وتؤكد العرب ما تهتم به، ومن اعتنى بشيء ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد عليه، وهكذا تكرير القرآن للوعد والوعيد لزيادة العناية بهما، حتى يبقى الإنسان بين الخوف والرجاء، وهكذا تكرير الأحكام يدل على ضرورة الاعتناء بالنظام الإلهي العام، والاستقامة عليه في كل الأحوال. راجع التفاصيل في التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب ١٠/ص ٩٦-١٣٤ من سورة الشعراء.

٦٩-٧١- ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ آبَاءَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْنَاهَا عَاكِفِينَ﴾

وحدّث أمتك يا مُحمَّد عن خبر إبراهيم الخليل المهم وشأنه العظيم، إمام الحنفاء وهو الجد الأكبر لقريش، الذي يزعمون إنهم يتبعون ديانتهم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون ٧٠- (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) حين قال لأبيه وعشيرته من أهل بابل (مَا تَعْبُدُونَ) الاستفهام إنكاري، ويسألهم بتعجب وهو يعرف الجواب عنه، أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل، أي شيء تعبدون؟ ليبين لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع، وقيم عليهم الحجة (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ) أي عمه آزار، وفي لغة العرب والقرآن قد يسمي العم أباً، ٧١- (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْنَاهَا عَاكِفِينَ) عاكفين: مواظبين ومداومين، أي نعبد أصناماً فنبقى مواظبين على عبادتها. فائدة:

١- كان لسقراط منهجاً خاصاً في الحوار: كان يتظاهر بالجهل والتسليم بأقوال الخصم، ثم يلقي عليه سؤالاً بهدف أن يُعرِّفه بجهله وأخطائه، فإذا أجاب، وجّه إليه سؤالاً آخر لازماً لنفس الجواب.. وهكذا، حتى يوقعه في التناقض ويحمّله على الإقرار بالجهل!، وهكذا فعل إبراهيم (ع)

مع قومه، ٢- (عَاكِفِينَ) يدل على عقولهم الحجرية التي لا تقبل النقاش والحوار، فهي مغلقة على الخطأ ولا تقبل الرأي والرأي الآخر.

٣- (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ) سؤال: هل بالإمكان أن يعِظَ الولد أباه؟ والجواب: نعم جائز إذا كان عقل الولد أكبر من عقل أبيه، أو يسبق علمه علوم قومه، فيكون شخصية نموذجية مميزة، قدوة وقيادة ويكون وحده يعادل أمة (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل/١٢٠، وسأل إبراهيم سؤالاً استفهامياً اختبارياً دالاً على علمه، لأن السؤال عنوان عقل السائل، والدال على أصله وكذلك الجيب، في غرر الحكم (من أحسن السؤال عَلم، ومن عَلم أحسن السؤال) ٤- (نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) في إضافة النبا إلى إبراهيم دون إشراك قومه معه، ليكون في موضع القدوة والأسوة الحسنة للمؤمنين في كل زمان ومكان.

٧٢-٧٤- ﴿قَالَ هَلْ يُسْمِعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

قال لهم إبراهيم على سبيل التوبيخ، هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء؟ ٧٣- (أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ) وهل يقدمون لكم منفعة أو يدفعون عنكم مضرة؟ ٧٤- (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم، وقلدناهم فهم أعلم منا، واتبعناهم بالاتباع الأعمى، وقلدناهم بلا تفكير ولا تدبر! إنه جواب مخجل ساذج، ولكن المشركين لم ينجلوا لأنهم كشفوا عن تحجر عقولهم ونفوسهم، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تنقلهم من التحجر إلى التحرر والتدبر، ورأينا في زمننا المعاصر أتباع الأحزاب والمنظمات بشتى أنواعها، يقلدون رؤوساءهم ويستدلون بأقوالهم، ويأخذونها أخذ البديهيّات المسلّمات من غير تحقيق وتمحيص!. فائدة: ١- كل قوم يبتعدون عن الله تعالى يتخذون صنماً يُعبد، من دون الله، ولكل عصر صنم مادي أو معنوي، فمن الناس من يتخذ الملوك صنماً يُعبد، ومنهم من يتخذ إلهه هواه فهو صنم يُعبد، ومنهم من يتخذ المال صنماً يُعبد، ومنهم من يتخذ النساء صنماً يُعبد، وهكذا تختلف عبادة الأصنام من إنسان لآخر، والمشكلة الرئيسة هي الاتباع الأعمى والسير بعقول الآخرين، ومع العُرف العام مع تعطيل العقل وتحجر النفس، ومن الناس من يتبع جماعة فيسير بعقولهم وإن كانوا على باطل، وإن الباطل لا ينقلب حقاً لكثرة فاعليه، وكونه عادة قديمة اتبعها الآباء والأجداد. كقوله (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ) البقرة/١٦٦، عن الإمام موسى (ع) (مختصر) (لَا تَكُنْ إِمَّعَةً أَيْ لَا تَقُلْ أَنَا مَعَ النَّاسِ، إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ (طريقان) نَجْدٌ خَيْرٌ وَنَجْدٌ شَرٌّ، فَلَا يَكُنْ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ) البحار/٧٨/٣٢٥، كقوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِي وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِي) الأنفال/٤٢، عن الإمام علي (ع) (إنه ليس

لِهَالِكِ هَلَكٍ مِّنْ يَّعَذَّرُهُ فِي تَعْمُدِ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا تَرَكَ حَقِّ حَسِبَهُ ضَلَالَةً! البحار ٥/ ٣٠٥، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)!

٧٥-٧٧- ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ، أَتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي لِأَمْرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أمام تلك العقول المتحجرة، لم يجد إبراهيم على حلمه وصبره إلا أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته للأصنام، وأن يجاهر بعداته لأهلتهم.

المعنى:

قال إبراهيم أفأريتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله ٧٦- (أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ) الأولون؟ فإن الباطل لا ينقلب حقاً بكثرة فاعليه، وإن الحق لا ينقلب باطلاً بندرة مؤيديه كقوله (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) المائدة/١٠٠ في نهج البلاغة خطبة ٢٠١ (لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهَا)، ٧٧- (فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي) فإن هذه الاصنام خصم أصم وأعداء لي لا أعبدهم، فأنا لا أعاديهم كأحجار ولكن أعادي عبادتهم التي ضلت الناس، فهي ضارة لديني مهلكة لنفسني، فسمى الأصنام أعداء وهي جمادات على سبيل الاستعارة والتنبية!! فإنهم عدو لي لا لكم مداراة لمشاعرهم، فإنه أنقع في النصيح من التصريح (ورب تلميح أبلغ من تصريح)، بأنها نصيحة (والدِّينِ النصيحة) بدأ بها نفسه ليكون أدهى إلى القبول. فإن هذه الأصنام عدو لكل حرّ، والسبب: لأنها تنقلهم من الحرية العقلانية، إلى حالة الاستعباد والجهل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحَرِيَةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ، وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَحْكَامِ الْحَرِيَةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ!) واستثنى إبراهيم (ع) (إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) لأنه ليس كذلك، فقد يكون من آباءهم الأقدمين مَنْ عبدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، هو الذي ينبغي أن يُعبد، وهو ولي في الدنيا والآخرة. لا أؤمن بسواه ولا أخاف غيره، فائدة: ١- يعلمنا القرآن أن لا مجاملة ولا مسامحة ومداهنة في الدين، كقوله (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) القلم/٩، ثم وصف (رَبَّ الْعَالَمِينَ) بأوصاف جلييلة استحق لأجلها أن يُعبد فقال:

٧٨- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾

فالله سبحانه (الَّذِي خَلَقَنِي) وأوجدني من العدم، وصوّرتني فأحسن صورتي، كقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) السجدة/٧، وأكرمني ولا يزال يرحمني (فَهُوَ يَهْدِينِ) ويهديني ويرشدني باستمرار، لأنه جاء بصيغة المضارع، يهديني إلى مافيه سعادتني في دنياي وآخرتي، هداية تكوينية وتشريعية، ويوجهني إلى المنافع الدنيوية والأخروية، ووهبني عقلاً مفكراً أهتدي به في ظلمات الجهالة، ويخلصني من حيرة الضلالة، فلا أقلد تقليداً أعمى أباً وجدداً أو عرفاً اجتماعياً جاهلياً، والذي لا يفكر فسوف يقوده الذين يفكرون، ويقودونه إلى ما هم عليه!، وعلى قدر العلم تكون العبادة، وعلى قدر العبادة تكون الهداية للتي هي أقوم، هداية متجددة متفتحة متنوعة لكل

شؤون الحياة، فإن الله سبحانه يهدي على قدر الاستحقاق والاستعداد الإنساني كقوله (**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**) الأعلى/٣ أنها صلة العبد بربه صلة بكل كيانه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب، إن إبراهيم يصف الله سبحانه كأنه يراه ويحس وقع إنعامه وأفضاله عليه (**فَهُوَ يَهْدِينِ**) إنه التسليم المطلق لله تعالى في طمأنينة قلب وراحة ضمير.

عن الإمام علي (ع) (**مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ**) البحار ٧١ ص ٩٥.

٧٩-٨٠- **﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾**

وهو لا غيره سبحانه الذي يهني لي مقومات حياتي العزيزة، يطعمني ويسقيني من أنواع الأطعمة والأشربة، فهو الخالق الرزاق الميسر للأسباب لي ولجميع المخلوقات كقوله (**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**) هود/٦ إنها الكفالة المباشرة الراعية الهادية والحامية، يحس بها إبراهيم في كل حالاته في الصحة والمرض، ويتأدب بأدب النبوة الرفيع مع ربه، فلا ينسب مرضه إلى ربه، وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض، ويجعله يسقم، وبدواء ربه يشفى وبفضله يصح وبرحمته يتعافى، وقدم الهداية على الإطعام والشراب لأهميتها في رؤية الحياة، وفهم حقيقة الوجود، وقدم النعم المعنوية على النعم المادية، كقوله (**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**) يونس/٩، إنه يذكر ربه في مقام الإنعام والأفضال إذ يطعمه ويسقيه ويشفيه، ولا يذكر ربه في مقام الابتلاء حين يتبليه، عن النبي (ص) (**أَبِيْتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**) روح البيان ٦/٢٨٣، من طعام وشراب الجنة أو هي التغذية المعنوية النموذجية السامية، من العلوم والمعارف ويفيض على قلبه الشريف من لذة مناجاته سبحانه، وهي غذاء القلوب ولذة النفوس ونعيم الأرواح.

٨٠- (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) وإذا أصابني مرض فهو الذي يقدر على شفائي بما خلق من دواء وأطباء، وإنما أسند المرض إلى نفسه (**مَرِضْتُ**) أنا، وأسند الشفاء إلى الله (**فَهُوَ يَشْفِينِ**) رعاية للأدب مع الله تعالى، عن النبي (ص) (**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**)، فإذا أصاب الداء داء برئ ياذن الله) الكاشف ٥/٥٠٢، أي يرتكب الإنسان أسباب المرض فيمرض جسدياً كتفريطه في طعامه وشرابه، ويمرض نفسياً باعراضه عن منهج الله، ولا يبالي في حرامه وحلاله كقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧، وقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣ وقوله (**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا**) الإسراء/٢٢، فائدة: ١- (**وَإِذَا مَرِضْتُ**) عطف على (**يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**) لعلاقة الطعام والشراب بالأمراض، فإن المعدة بيت الداء، والحمية أصل كل سلامة وشفاء، في غرر الحكم (**لَا فِطْنَةَ مَعَ بَطْنَةٍ**) عن النبي (ص) (**لَا تَشْبَعُوا فِيطْفًا نَورِ المَعْرِفَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ**) مستدرک الوسائل ٣/٨١، عن الإمام علي (ع) (**قَلَّةُ الْأَكْلِ مِنَ الْعَفَافِ، وَكَثْرَتُهُ مِنَ الْإِسْرَافِ**) مستدرک الوسائل ٣/٨١، كقوله (**وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**) الأعراف/٣١ **الإسراف**: خروج عن حد الاعتدال، فهو يفسد النعمة ويزيل البركة، في

غرر الحكم (الإِسْرَافُ مَذْمُومٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي أَفْعَالِ الْبِرِّ) والمسرفون لا يقدرّون النعمة ولا يشكرون المنعم (كل الطعام ليحملك لا لتحمله) في الحديث (إِجْلِسْ إِلَى الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِي، وَقُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِي) وعنه (ص) (إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالِدَوَاءَ، فَتَدَاوُوا وَلَا تَتَدَاوُوا بِحَرَامِ) الكاشف ٥/٥٠٢.

٨١- ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ بُرْهَانِي لَكُمْ﴾

وهو الذي سيُبيّنني بالحق عند انقضاء أجلي، ثم يبيّنني للحساب والجزاء، ولا أحد يقدر على ذلك سواه، كقوله (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْجاثية/٢٦، في غرر الحكم (الموتُ أَوَّلُ عَدَلِ الْآخِرَةِ) عن النبي (ص) (يَمُوتُ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَيُحْشَرُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) تنبيه الخواطر ص ٣٧١، في غرر الحكم (أفضل نُحْفَةَ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ) فائدة: عدّ الموت من جملة النعم، لأنه لولا الموت لضاعت الحياة بأهلها!، ولولا الموت فلا تفهم فلسفة الحياة، وأضافه إلى الله، لأن الموت مكتمل للحياة، وهو صديق الحياة، وليس ضدّ الحياة، والموت والحياة صديقان وليسوا ضدّين، والموت والحياة كالليل والنهار، فكما أن الليل والنهار صديقان وليس ضدّان، وبينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، وكذلك الموت والحياة!

والموت مقيّد بالأجل المحدد كقوله (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١، في غرر الحكم (الأجل حصن حصين) والذي يحب الحياة ويخاف الموت فإنه يعيش أنصاف الحياة، وعلى سطح الحياة! وقدم الإمامة على الأحياء، وذلك قد يكون الموت الواعي عن طريق الشهادة والتضحية في سبيل الله، سبباً أساسياً لطلب الحياة! وقد تكون الحياة الذليلة الخانعة سبباً أساسياً مؤدياً إلى الموت الذليل البطيء! كقوله (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الملك/٢ (رَبِّ حَيَاةٍ سَبَّبَهَا طَلَبُ الْمَوْتِ، وَمَوْتٍ سَبَّبَهُ طَلَبُ الْحَيَاةِ)؛، عن الإمام علي (ع) (اطلبوا الموت توهب لكم الحياة)! موسوعة الشهادة ١/٢٨٧، وعنه (ع) (مَوْتٌ فِي عَرِّ خَيْرٍ مِنْ حَيَاةٍ فِي دُلِّ) البحار ٤/٤١٩٢. (ثُمَّ يُحْيِينِ) أدخل (ثُمَّ) وهنا لأن بين الإمامة الواقعة في الدنيا، وبين الإحياء الحاصل في عالم الآخرة تراخياً زمنياً، لسعة الوقت وفسحته بين الإمامة والإحياء للنشور والجزاء، وهو عالم (البرزخ) كقوله (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) المؤمنون/١٠٠. البرزخ: عالم جديد بين الدنيا والآخرة، وهو عالم القبر، وفيه يتم الحساب، ويتحوّل القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران!

٨٢- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾

والذي (أَطْمَعُ) أرجو من واسع رحمته أن يغفر ويحوّل لي ذنبي (يَوْمَ الدِّينِ) يوم الحساب والجزاء، حيث يجازى العباد بأعمالهم كقوله (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) يوسف/٥٣، إبراهيم (ع) يخشى أن تكون له خطيئة وهو غافل عنها! وفيه تعليم للأمة

أن يستغفروا من ذنوبهم، ويقرُّوا بخطاياهم ويتوبوا منها إلى الله، وسمى إبراهيم ما صدر منه من عمل (وهو خلاف الأولى) خطيئة استعظماً له، وهو لا يعتمد على عمله، إنما يرجو رحمة ربه، وهذا وحده هو الذي يطمع فيه، حيث العفو والمغفرة والرحمة.

فائدة: ١- الخطيئة والمعصية من النبي المعصوم ليست بمعنى مخالفة أمر الله تعالى، فالخطيئة الصادرة من مثل إبراهيم الخليل (ع) اشتغاله عن ذكر الله، فتأخذه بعض ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب والزواج ومقتضيات المعاش ونحوها، وإن كانت بنظر آخر طاعة، وإنما هي على قاعدة (حسنات الأبرار سيئات المقربين) الأنبياء (ع) معصومون عن الخطأ والخطيئة، ومن عصمتهم أنهم يطلبون العفو والمغفرة من الله وهم بلا ذنب ارتكبهوه! وهم يهابون مقام ربهم لقربه منهم.

كقوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) (الرحمن/٤٦)، إنهم يخافون ربهم خوف هيبه وليس خوف رهبة!، وهذا من دواعي الأدب الرفيع مع الله عز وجل، وهذا درس لنا نحن بني آدم الخطاؤون، وخيرُ الخطائين التوابون. ولا نجاة من عذاب الله إلا لمن خاف من عذابه، أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين، فهو لا يبرئ نفسه وهو لا يعتمد على عمله، إلا إنه يطمع في فضل ربه ورحمته، إنه شعور التقوى والورع والشفافية والأدب مع الله كقوله (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) آل عمران/١٣٥، ٢- (وَالَّذِي أُطْمِعُ) يوم الحساب دعا بلفظ الطمع، ليعلم أن العبد ليس له أن يحكم لنفسه بالإيمان، وعليه أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء كقوله (يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩.

٨٣- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

دعا إبراهيم ربه، وأول ما طلب منه أن يؤتیه من فضله (حُكْمًا) أجمل الآداب، في الحديث (أَدْبِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) نور الثقلين ٣٩٢/٥، فهو لا يطلب غرض من أغراض الدنيا ولا حتى صحة بدن! إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى، فطلب من الله بخشوع وخضوع أموراً وهي: (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا) الحكمة، كلمة (حكم) أرفع وأوسع من كلمة الحكمة، لأن الحكمة القدرة على العلم النافذ الذي يميز بين الحق من الباطل، والصحيح من الخطأ، أما كلمة (حُكْم) فهي المعرفة العلمية المصحوبة بالاستعداد والقدرة والملكة على تطبيق وتنفيذ هذا الحق. فيكون المعنى (حُكْمًا) أي حكمة في غرر الحكم (لا حِكْمَةً إِلَّا بِعِصْمَةٍ) وكمالٍ وجمالٍ في العلم والفهم والعقل والوعي والخُلُق والعمل الصالح (حُكْمًا) الحكم هو إصابة النظر، وتشخيص الواقع بدقة، والقول السديد، والرأي الرشيد، والعمل المفيد، في المعارف الاعتقادية والعملية، بأشكالها المتنوعة وتطبيقاتها المتعددة، حتى أعرف بهذه الحكمة الصحيح من الخطأ، فأبقى على السبيل المستقيم كقوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨، (وَأَحْفِنِي بِالصَّالِحِينَ) بحيث أمتلك

صفات الصالحين بالذات والممارسات، وبالقوة والفعل، وبالشكل والمضمون، بحيث لا يختلف الشكل عن المضمون، والحقيقة عن الادعاء، استعدّ بذلك لخلافة الحق، ورياسة الخلق بطريقة يرضاها الله سبحانه، فإن اكتساب ذلك يرفعني للالتحاق بالصالحين، كقوله (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) الفرقان/٧٤، فإن مَنْ يعلم شيئاً ولا يعمل به لا يقال له حكيم، ولا لعلمه حكم وحكمة، في غرر الحكم (العَلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأَلٍّ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) في الدعاء (اللَّهُمَّ أَحْقِنِي بِصَالِحٍ مِنْ مَضَى، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحٍ مَنْ بَقِيَ، وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ).

٨٤- ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ) جاهاً وذكرًا حسنًا، وسمعة طيبة، وعملاً صالحاً بين الناس، فأكون قدوة لمن بعدي كما قيل: قد مات قوم وهم في الناس أحياء. (في الآخِرِينَ) فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، أذكر به ويقتدى بي، أي (وَاجْعَلْ) وابعث لي (في الآخِرِينَ) ولدًا لي صادقاً يقوم بدعوتي ويدعو الناس إلى الله على بصيرة إلى ملتي، وهي دين التوحيد الخالص، عن النبي (ص) (أنا دعوة أبي إبراهيم) تفسير القمي ١/٦٢، ولانرى أمة إلا محبةً لإبراهيم، وتدعي أنها على ملته (الحنيفية السمحة). فائدة: ١- دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد مع الزمن، لا بالنسب ولكن بالعقيدة، وعبر عن الثناء الحسن والقبول العام باللسان، لكون اللسان سبباً في ظهوره، وبقاء الذكر الجميل على ألسنة العباد إلى آخر الدهر، دليلاً على رحمة الله به، والله تعالى إذا أحبّ عبداً يُلقِي محبته في نفوس الخلق، عن النبي (ص) (الْحَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللَّهِ) الكافي ٢/١٦٤، وعن الإمام علي (ع) (ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خيراً من المال يأكله ويورثه) نور الثقلين ٣/٣٤، وعن النبي (ص) (إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) البحار ٢٢ ص ٢٢.

٨٥-٨٦- ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ مَرَّةٍ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاعْفِرْ لِي أَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾

واجعني من السعداء في العالم الآخر، الذين يستحقون ميراث جنات الخلد النموذجية المادية والمعنوية (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) والاستحقاق للجنة لا يأتي إلا بالعمل الكفوء، الجامع للشرائط، الخالص لله وحده، كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣. فائدة: ١- (مِنْ وَرَثَةٍ) شبه الجنة بالميراث الذي يستحقه الوارث، كما يستحق الوارث من أبيه ما يستحقه شرعاً، كذلك يستورث الإنسان الصالح الجنة من ربه الرحيم، بمقدار ما قدّم لها من أعمال صالحة تفضلاً، قيل: إنّ الله تعالى هو المحبوب لذاته لا لعطائه، وعطاؤه محبوب لكونه محبوباً لا لنفسه، ونحبه ونحب عطائه لحبه، كقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) البقرة/١٦٥، في نهج البلاغة حكم ٤٥٦ (إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا) ٨٦- (وَاعْفِرْ لِي أَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) إصفا عنه

واهديه إلى الإيمان، إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى، كان ضلالة عن جهالة لا عن عناد، وهذا دليل على يرّ الوالدين والإحسان إليهم، وإن كانا مشركين إلا إذا أمراك بمعصية، إنه استغفر لأبيه على الرغم ما لقيه من أبيه، من غليظ القول وسوء المعاملة، كقوله (لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ) مريم / ٤٦، فلا يجوز الاستغفار إلى المشركين ولو كانوا أولي قربي، كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له، فلما تبين له أنه لا يفي بوعدته تبرأ منه، إنه استخدم معه القاعدة الحركية التالية (المرونة في التعامل، والصلابة في المبادئ) كقوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) التوبة/ ١١٤، وعرف إبراهيم أن القرابة ليست قرابة نسب، وإنما هي قرابة عقيدة وأخوة في الدين.

٨٧- ﴿وَأَتُخِزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾

(وَلَا تُخِزِنِي) ولا تفضحني ولا تهني ولا تعزيني بذنوب يوم المحشر للحساب على رؤوس الأشهاد، على ما فرطت من ترك الأولى، والفضيحة من أشد الحالات قسوة يوم القيامة، لهذا يسأل إبراهيم (ع) عدم الفضيحة من بين كل أهوال يوم القيامة الشديدة!، الأنبياء لا يصيبهم الخزي يوم القيامة لعدم ارتكابهم الذنب، وإنما هذا درس لنا لتتوقى خزي يوم القيامة للمحاسبة العلنية أمام العباد، وأيضاً هذا هو منطق المنزهين عن العجب والغرور، الذين يستشعرون مدى أهوال يوم المحشر ويتصورون مدى حياتهم من ربهم وخشيتهم من الخزي أمامه كقوله (وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) البقرة/ ٢٨١ وأن الله تعالى وصف ذلك اليوم الحاسم الحقيقي فقال :

٨٨-٨٩- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

يوم لا يقي المرء من عذاب الله المال ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعاً! ولكن ينفعه أن يجيء خالصاً من الذنوب وأدرانها، ومتخلصاً من حب الدنيا وشهواتها، هذا هو رأس المال، وخصّ البنون بالذكر لأنهم أولى القرابة بالدفع والنفع، فإذا لم ينفع غيره من القرابة أولى. ٨٩- (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) إلا من جاء ربه في الآخرة (بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) نقي تقي طاهر نظيف خال من الشرك الجلي والخفي، والنفاق والحسد والحقد والبغضاء وسائر الأخلاق الذميمة، وجاء ربه أيضاً وأعماله سليمة من الرياء وحب الشهرة والسّمعة، وسليمة أفعاله مع الناس بلا عادات سيئة وتقاليد ضارة، وخالية أعماله من الاعتداءات على حقوق الناس، وعن الإمام الصادق (ع) (القلب السليم هو القلب الذي سلّم من حب الدنيا) نور الثقلين ٥٨/٤، ويؤيده قول النبي (ص) (حب الدنيا رأس كل خطيئة) الكافي ١٣٠/٢، وعنه (ع) (القلب السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه) نور الثقلين ٥٨/٤، أظهر القلوب ما سلم من الحسد والحقد، في غرر الحكم (لا يصدُرُ عَن الْقَلْبِ السَّلِيمِ إِلَّا الْمَعْنَى الْمُسْتَقِيمِ)، وفيه أيضاً (إذا أراد

الله بعبد خيراً رزقه قلباً سليماً، وخلقاً قويمًا) عن الإمام الحسن بن علي (ع) (أسلم القلوب ما طهر من الشبهات) البحار ٧٨/١٠٩، فليست في ذلك اليوم الحاسم من حقيقة، ومن قيمة كبرى إلا قيمة الإخلاص، إخلاص القلب كله لله، عن الإمام علي (ع) (في الإخلاص يَكُونُ الْخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠، كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣ وعن النبي (ص) (قال الله تعالى الإخلاص سرٌّ من أسراري استودعته قلب مَنْ أَحْبَبْتِ مِنْ عِبَادِي) مستدرك الوسائل ص ١٠.

فائدة:

١- (يَقْلِبُ سَلِيمٍ) يالَه من تعبير جميل شفاف نفاذ جامع لصفات الكمال والجلال، وإنما أضاف السَّلَامَةَ إلى القلب دون غيره، لأن القلب قائد الجوارح، وهي تابعة للقلب، فتسلم بسلامته وتفسد بفساده، والقلب السليم: قد سلم من انحراف المزاج، وحافظ على سلامة الفطرة، ولم يَنْسُقْ إلى أعراف وعادات وتقاليد اجتماعية منحرفة وفسادة وسائدة. سئل أبو القاسم الحكيم وهو أحد الصالحين، عن القلب السليم فقال له ثلاث علامات (أ) ان لا يؤذي أحداً (ب) أن لا يتأذى من أحد (ج) إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحداً فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذى من أحد فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة وعدم مقابلة المعروف بالمعروف فقد جاء بالإخلاص. في غرر الحكم (الإخلاصُ عِبَادَةُ الْمُقْرَبِينَ).

٩٠-٩١- ﴿وَأَنْزَلَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرْزَتِ الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ﴾

وهو مشهد من مشاهد يوم القيامة، يصور القرآن الكريم ذلك اليوم بصورة مجسمة متحركة، وكأنها واقع حاضر ينظر إليه ويتفاعل معه ويتأثر به، وهو يتعلّق بربه بكل حال، فمن ذكر الله في الرخاء، ذكره وقت الشدة:، أزلقت: قربت ممن اهتدى، وبعُدت عن غوى وضل، المعنى: لقد عمل الذين اتقوا بأوامر الله في الدنيا حتى اقتربوا من الجنة، عندئذ اقتربت الجنة ودنت منهم هي أيضاً، وكل آت قريب، فيزدادون فرحاً ودهشة! وهذا دليل على أنه من تقرب من الله تقرب الله تعالى منه، ومن تفاعل مع الطاعات تفاعلت الطاعات معه، وهذا يدل على مقامهم الكريم، وعظم شأنهم، المتقون: هم الذين اتقوا عقاب الله بالالتزام بطاعته والاستقامة على نهجه في الشدة والرخاء، ٩١- (وَبُرْزَتِ الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ) برزت: جعلت بارزة أي كُشِفَتْ وظهرت، غاوين: الضالين عن سبيل الحق والهداية، أي وظهرت نار جهنم للذين أنكروها، فيرونها مكشوفة للعيان لأنهم كذبوا بها، فهي تنتظرهم ليساقوا إليها فيزدادوا همًا وغمًا، واستعدت الجحيم لاستقبال كل من يليق به الجحيم، وقيل معنى اقتراب الجنة ودنوها أولاً يبدأ بانفتاح باب للجنة في قبر المؤمن، ومعنى بروز الجحيم أولاً يبدأ بانفتاح باب من الجحيم في قبر الكافر. عن الإمام الصادق (ع) (الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ) البحار ٦/٢٦٧، وهكذا الذي لا يصدق بنعيم الجنة يضره جحيم جهنم، عن النبي (ص) (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ

بِالشَّهَوَاتِ) شرح النهج، ص ١٦١، يعني جعلت الجنة محفوفة (محاطة) بالأشياء التي كانت مكروهة لهواتها، وجعلت النار محاطة بالأمر التي كانت محبوبة لشهواتنا.

٩٢-٩٣- ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾

وقيل لأهل الجحيم على سبيل التوبيخ: أين أهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد من القيادات الفاسدة والعمالات المجرمة التي كنتم تطيعونهم وتدعمونهم (من دُونِ اللَّهِ)؟ التي كنتم تقولون هم شفعاؤنا عند الله كقوله (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الزمر/٣، (هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ) هل ينقذونكم من عذاب الله أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم على الأقل؟ لا جواب لهم، ولا ينتظر منهم جواب، إنما هو سؤال لمجرد التأنيب، فائدة: ١- إنما قال (أَوْ يَنْصُرُونَ) بعد قوله (هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ) لأن رتبة النصر بعد رتبة الانتصار، لأن من نصر غيره فلا بد هو في الانتصار، وقد ينتصر من لا يقدر على نصره غيره. في غرر الحكم (الْعَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، وَالْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ).

٩٤-٩٥- ﴿فَكَبُّوا فِيهَا رُءُوسَهُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾

فَكَبُّوا: من قولهم كبه على وجهه، أي ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى، وتساقطهم بلا عناية ولا رعاية فهم من كركبة الناشيء من الكبكية، المعنى: فألقوا - أي الآلهة على تنوع أشكالهم وأصنافهم- في النار على وجوههم (رؤوسهم) مرة بعد مرة، حتى يستقروا في قاعها هم (وَالْغَاوُونَ) والضالون، أي الآلهة وعبدتها بعضهم على بعض، كقوله (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) الأنبياء/٩٨ وتأخير الغاوين ليشاهدوا سوء حالهم، فينقطع رجاؤهم منهم قبل دخول جهنم، ٥٩- (وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) وقد كبكب معهم جنود إبليس وذريته وأتباعه أجمعون من الجن والإنس من الأولين والآخرين، وهم كل ضال ومضل، الذين أغوهم اتباع إبليس ويسولون لهم ما هم عليه من المعاصي، ليجتمعوا في العذاب حسبما كانوا مجتمعين، فيما يوجبه (أَجْمَعُونَ)، من مصاديق الآية عن الإمام الصادق (ع) (هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره) كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) الصف/٢-٣.

٩٦-٩٩- ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلَّتْكُمْ إِلَّا

الْمُجْرِمُونَ﴾

قال الغاوون العابدون لمعبوديتهم أو التابعون لمتبوعيتهم، والأصدقاء بعضهم لبعض، وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون! كقوله (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧، ٩٧- (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) نقسم بالله لقد كنا في ضلال واضح، وبُعد عن الحق ظاهر ٩٨- (إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) نسويكم: نجعلكم سواء مع الله في العبادة، إنما قيمة البلادة

والإنحطاط والتعاسة، حين عبدناكم ورفعناكم وسويناكم في عبادتنا وخضوعنا لكم (يَرْبِّ الْعَالَمِينَ) الذي يستحق العبادة لوحده، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ أَطَاعَ رَجُلًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ) فَقَدْ عَبَدَهُ) الكافي ٢/٣٩٨، ٩٩- (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) وما كان سبب انحرافنا عن الهدى إلا (الْمُجْرِمُونَ) الرؤساء والكبراء والأصدقاء أصحاب المصالح الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي، كقوله (أَقَمَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا) فاطر/ ٨ وقوله (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فصلت/ ٢٥. فائدة: ١- (يَخْتَصِمُونَ) يتخاصمون مع إحساسهم بالندم، والندم بعد فوات الأوان لا ينفع كقوله (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) يونس/ ٥٤ عن النبي (ص) (شَرُّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧/١١٥، كقوله (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) الأحزاب/ ٦٧، ٢- (الْمُجْرِمُونَ) معنى الإجمام: أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه، يُقال لحم مجرور أي مفصول اللحم عن العظم، ويقال الإنسان المجرم هو المفصول عن إنسانيته، وعن القيم والمبادئ والأخلاق ثم ينقطع بفعله المشين عن مجتمعه الحضاري، ويتصل بأمثاله، في غرر الحكم (شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِهِ النَّاسُ خَافَهُ شَرَّهُ) كقوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) العنكبوت/ ٢٥، وهكذا يلقي كل مقصّر تبعات تقصيره على غيره (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ).

١٠٠-١٠٢- ﴿فَمَا كُنَّا مِنْ شَافِيِينَ، وَكَاصِدِيقِ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

عندما يرون الملائكة والأنبياء والصالحين يشفعون للمذنبين من المؤمنين يقولون: ليس لنا مَنْ يشفع ويدافع عنا من هول هذا اليوم، وأفضل شافع لزوم الصدق واعتماد الحق، وأن أهل الإيمان شفعاء بعضهم لبعض، ١٠١- (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) ولا صديق خالص الود، شفيق قريب إلى النفس يشفع، ولا صداقات تنفع، فتنقذنا من عذاب الله، ومن لا ينفعه عمله لا ينفعه نسبه وحسبه وجاهه وماله ١٠٢- (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) بعد أن يتسوا من كل شيء قالوا: (لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) رجعة إلى الدنيا، والله يعلم أنهم لكاذبون كقوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) الأنعام/ ٢٨، (فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا، حتى ننال ما ناله المؤمنون من السعادة، فإن من حقت عليه الضلالة فلا يستحق الهداية، لأن الهداية تحتاج إلى سلامة قلب، ومن لا تنفعه الهداية تليق به الضلالة، فائدة: (حَمِيمٍ) هو الصديق العزيز المقرب إلى نفسك الذي يهتم ما أهتمك.

١٠٣-١٠٤- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

إِنَّ فِي معاناة إبراهيم مع قومه (لآيَةً) لَعِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ، ولمن تدبّر وتفكر (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) مع ذلك ما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين به، كما لم يؤمن بك أكثر قومك يا مُحَمَّد، كقوله (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) النحل/ ١٢٧، ١٠٤- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ) المنتقم من أعدائه، ولا يعاجلهم بالعقوبة (الرَّحِيمُ) بأوليائه وعباده، ولكن ما أكثر العبر

وأقلّ المعتبرين، في نوح البلاغة خطبة ٨٦ (السعيد من وَعَظَ بغيره) ومن لم يتعظ بأحوال، الناس وَعَظَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ.

١٠٥-١٠٨- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

(قصة نوح) كذب قوم نوح رسولهم نوحاً باستمرار، والقوم الجماعة من الرجال والنساء معاً، أو الرجال خاصة وتدخل النساء على التبعية، وإنما قال (الْمُرْسَلِينَ) بالجمع، لأن من كَذَّبَ رسولاً واحداً فقد كَذَّبَ جميع الرسل، لأن دعوتهم واحدة على التوحيد، من إله واحد، وإن تعددت الأدوار واختلفت الأساليب، ولكن يجمعهم الهدف المشترك النبيل، والغاية الموحدة السامية، هي جعل كلمة الله هي العليا، ١٠٦- (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ) أخوهم في النسب لا في الدين، لأنه كان منهم (أَلَا تَتَّقُونَ) ألا للتبنيه، أي ألا تخافون عقاب الله في كفركم؟ ألا تخافون عاقبة أمركم؟ ١٠٧- (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) إني لكم رسول من الله سبحانه، ناصح لكم أمين على ما حملته من الرسالة، لا أخون ولا أكذب ولا أغش، ولا أبدل ولا أغير، لا أبلغكم إلا ما أمرني به ربي وأراده منكم ١٠٨- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري، وكان معروفاً بين قومه بالصدق والأمانة كسائر الأنبياء (ع)، (والتقوى) أمان من الزلل، واستقامة في الفكر والعمل، وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته (وَأَطِيعُوا) لأن التقوى هي محور جميع الرسالات، وكرر الأمر بالتقوى، لأنها العمدة في جميع الأعمال وأنها رئيس الأخلاق، ولا عوض عنها في كل حال كقوله (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) التغابن/١٦.

في غرر الحكم (مَا أَصْلَحَ الدِّينَ كَالْتَقْوَى) ينظر المسلم أن الأمة المؤمنة لكل دين، ولكل عقيدة من عند الله هي أمته، وإنما تنقسم البشرية إلى أهل حق وأهل باطل، والمؤمن مع أهل الحق أينما كان، وضد أهل الباطل في أي زمان ومكان، وهكذا يتوحد ميزان المؤمن، فلا عصبية ولا جنس ولا لون ولغة ووطن.. وإنما هي وحدة الإيمان، ورضا الرحمن.

١٠٩-١١٠- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

لا أطلب منكم على إصلاح أموركم الدينية والدنيوية أجراً، ولا جزاءً مادياً فتخافوا قلة أموالكم به (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) ما أطلب ثوابي وأجري إلا على الله خالق ومربي الخلائق أجمعين، وجعل (الأجر) أصلاً، لأن الرُّسُلَ وكل المبلغين إذا لم يسألوا أجراً، ولم يجددوا رقماً من الثمن على دعوتهم، كان أقرب إلى التصديق وأبعد عن التهمة، صحيح قد يقدمون لهم هدية فلا مانع من أخذها (تَهَادُوا تَحَابُّوا) حتى لا يكون ثمن التبليغ المال، وإنما هداية الناس، وهو أقرب للتقوى، وأصدق في التأثير، لأن من عمل لله فلا يطلب الأجر من غير الله كقوله (اتَّبِعُوا مَنْ لَا

يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) يس/٢١ فإن من يأخذ المال مقابل وعظه في الدين، فلا يبارك الله فيه فيما يسمعون، ولا للواعظين أيضاً في ما لهم ووعظهم بركة!، أي يبيعون دينهم بعرض يسير ثم لا بركة لهم فيه، وكلما حسن مصدر ماله من حلال كان تأثيره على الناس أحسن، لأن الكلام الذي يخرج من القلب يدخل في القلب، وإن الذي يؤثر في الناس، وماله من حرام، فإنه يؤثر سلباً ومؤقتاً، ويحاسبه الله تعالى من أين أخذته وكيف أنفقته كقوله (وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصافات/٢٤. في غرر الحكم (مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ حَادِمًا لِدِينِهِ، إِنْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ) وفيه أيضاً (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) عن النبي (ص) (وَيَلِ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ) كثر العمال خير ٢٩٠٩١، ١١٠- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) وهنا يكرر إليهم طلب التقوى والطاعة والاستقامة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والجزاء، للتأكيد على أن الأمانة في صدق التبليغ وقطع الطمع الدنيوي من مال وجاه كلاهما من نتاج التقوى، عن الإمام الصادق (ع) (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) ميزان الحكمة ١٠/٦٢٥.

١١١-١١٢- ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعُ الْأُمْرِدُونَ، قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾

الأردلون : في نظر الطغاة، وهي من الرذالة والخسة والدناءة وضعف نسبهم، والحقيقة رفضهم لفقرهم وجهلهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وهم الذين يأكلون من كد اليمين، ولا يسرقون ولا يعتدون، وأصحاب الأعمال البسيطة المتواضعة. المعنى: الاستفهام للإنكار، قالوا أتريدنا أن نؤمن لك ونصدقك ولم يتبعك إلا سفلة الناس وأرذلهم وفقراؤهم وجهلاؤهم؟ فلو اتبعناك لصرنا مثلهم! أما نوح (ع) فقد بعثه الله إلى الخلق كافة، كقوله (سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات/٧٩، لا فارق بين أمير وفقير، بأي مقياس تقاس المحاسن والمساوي؟ في نهج البلاغة حكم ٨١ (قِيَمَةُ كُلِّ إِمْرِيٍّ مَا يَحْسِنُهُ) وليس ما يملكه، عندما يضل الناس عن منهج الله تنقلب عندهم المقاييس والمفاهيم، فيكون المال والأولاد والجاه هو الرافع والخافض، وليس العلم والإيمان والعمل الصالح، والفقير عندهم هو الرذيل ولو كان أعلم الناس وأنفعهم، في غرر الحكم (وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) والغني عندهم هو المكرم المحترم، ولو كان شرّ الناس وأفسدهم.

في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَظْلِمُ النَّاسَ) ولكن تعاليم الأنبياء (ع) جاءت لتقضي على التفرقة والطبقات والأعراف الاجتماعية الخاطئة، كان أرسطو وأستاذه أفلاطون على ملة قوم نوح ومنطقهم، حيث أكدوا على نظام الرق، وقالوا: إنّ العمل اليدوي لا يليق بالأحرار وإنما ينبغي أن ينصرف هؤلاء إلى التأمل العقلي! تفسير المبين ص ٤٨٦، وهذه النظرة الأنانية بعيدة عن الإسلام ونيه الذي قال (ص) (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده، إنّ الله يحبّ المؤمن المحترف)

فائدة:

١- وهكذا حال أهل دعوات الإصلاح الاجتماعي، والانفتاح على الآخر، وأهل مشروع التجديد والإصلاح نحو الأحسن، والدعوة إلى ثقافة الحوار كقوله (وَجَادِثُهُمْ بِأَلْتِي هِي أَحْسَنُ) النحل/١٢٥ هؤلاء الاصلاحيون الذين يعلن الحرب الناعمة عليهم، وحرب التشكيك بهم، ويقف في وجههم والإساءة لهم، هم أصحاب المصالح الخاصة، والرياسات الدينية، والحكام المترفون المنتفعون بمراكزهم وأموالهم ، ١١٢- (قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قبل إيمانهم، أي أجاب نوح الجواب الذي يحدد اختصاص الرسول، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون، أجاب نوح هؤلاء المترفون الذين عيروه بالأرذلين، ما عليّ سوى العمل بالظاهر وإلقاء الحجّة الرسالية على الناس، ولست مسؤولاً عن فحص القلوب والسرائر، وقد دعوتهم فاستجابوا لي، عن النبي (ص) (فَإِذَا شَهِدُوا إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) فائدة: (وَمَا عَلِمِي) لا يجوز التجسس على حياة الناس الخاصة والبحث عن عيوبهم، في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (طُوِي لِمَنْ شَعَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ).

١١٣-١١٥ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

لست مسؤولاً عن البحث عن أعمالهم وبواطنهم، وإنما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله (لَوْ تَشْعُرُونَ) فإنه المطلع على الضمائر وما تخفي الصدور، فيجازيهم بحسب أعمالهم، وهو المطلع على بواطنهم، لو تعلمون ذلك ١١٤- (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) لست بمباعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني ولا بطاردهم عن مجلسي، وهل من المنطق العقلي والإنساني أن أعرض عمن أقبل على ربه بصدق؟ كقوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) الكهف/٢٨، وهكذا طلب رؤساء قريش من رسول الله (ص) أن يطرد ضعفاء المؤمنين ، فما هو الضير؟ أن يكون لهم مجلسهم ولكم مجلسكم الخاص ١١٥- (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ما أنا إلا نذير واضح لكم، مخوفاً من عذاب الله، أحذركم بأسه وسطوته، فمن أطاعني نجا سواء أكان غنياً أم فقيراً. فائدة: ١- الواجب عليّ أن أوضح رسالتي بلا غموض، وليس النتائج إلا على الله، وليس من واجبي إقناع الناس وهدايتهم، وإنما المطلوب إلقاء الحجّة الواضحة على الناس، وهذه هي مهمة كافة الرسل والداعين إلى الله في كل زمان ومكان كقوله (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٥٦.

١١٦-١١٨ ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَاقْبَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَتَحًا وَبَعْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المرجومين: المقتولين رمياً بالحجارة، فلما فشلت جهودهم في عزل النبي عن أتباعه، قالوا لئن لم تنته يا نوح عما تدعو إلى الله، ومن الطعن في آهتنا، لنرجمَنَّكَ كالمجرمين (والرجم) من أسوأ أنواع

القتل إذ يجمع بين الألم الجسدي والنفسي مع الذلة والهوان. فائدة: ١- عجزوا عن النقاش العلمي الموضوعي والجدال والتي هي أحسن، فلجأوا إلى التهديد والوعيد! وهذا دأب المستكبرين في كل زمان ومكان، عندما تُغلق حواس الإنسان عن سماع الهدى، وتُعطل أجهزة الاستقبال عنده، ترى هذا الإنسان لا يطيق سماع الحق ولا يتحمل أهله، وهذا الصنف من الناس أتباع الصهاينة هم الذين يقتلون الأنبياء، ولا أحد يقتل الأنبياء والأولياء إلا هو ابن زنى، ولا أحد يقتل الصالحين إلا وهو يقتل الفضيلة ويدعم الرذيلة في المجتمع! (مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ) ١١٧- (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون) عجز نوح أن يرد تهديدهم بقوة مثلها كقوله (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) هود/٨٠، فاستعان بخالقه ليحكم بينهم، ويحصل ذلك عندما يصل النبي إلى فقدان الأمل بقومه، وينقطع تأثيره الإيجابي بهم، بل وينقلب تأثيره بشكل سلبي عليهم، حتى يضيقوا به ذرعاً ويضيق بهم، فيصل النبي إلى الباب المسدود وتحقق اليأس منهم وانتفى دوره بينهم. هنا توجه نوح إلى ناصره الوحيد الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين ١١٨- (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) (فَافْتَحْ) الفتح الحكم الفاصل، أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء، واقض بيننا بحكمك العادل الفاصل، فافتح باباً من أبواب فضلك على مستحقيه، وسمي بذلك لفتح المغلق من الأمر، (وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) انقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم كقوله (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) القمر/١٠.

١١٩-١٢٠- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾

الفلك المشحون: السفينة المثقلة بالناس والحيوانات للدلالة على كثرتهم، أي فنجيناه ومن آمن معه في السفينة الثقيلة المملوءة بالناس والحيوانات من كل زوجين اثنين ١٢٠- (ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ) ثم أعرفنا بعد ذلك الباقيين من قومه الكافرين، الذين لم يركبوا سفينة النجاة معه. فائدة: ١- أرسل الله نوحاً رحمة للعالمين كقوله (سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات/٧٩ ٢- فالذين لا تتناسب معهم الرحمة العالمية، فسوف تتناسب معهم النعمة العالمية.

١٢١-١٢٢- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

إن في قصة نوح (لآية) لعلها لمن يعتبر ويتفكر ويتدبر (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) مع كل ما حذر منه نوح وانذر به لم يؤمن به إلا القليل كقوله (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) هود/٣٦ وهكذا الذي لا ينفعه الإيمان يضره الطغيان والشيطان، ١٢٢- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) إن ربك يا محمد هو (العزیز) الغالب الذي لا يُقهر (الرحيم) بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة، والرحيم بأوليائه وبالنائب من الناس (مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِالنَّاسِ وَعَظَّ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ) والسَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بِتَجَارِبِ غَيْرِهِ كقوله (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف/٣٥. فائدة: ١- كرر في كل قصة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآية) للدلالة أن سنة الله اقتضت أن يكون المؤمنون كراماً، إن

الكرام قليل (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣، وأن يكون اللّغام في قسوة وتنغيص العيش، وأنّ اللّغام كثير، لذلك ذكر بعده (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ) لايهتدي إليه المجرمين (الرَّحِيمِ) يدخل من يشاء في حصن رحمته. فائدة: (التكرار في قصص القرآن) يعطينا صورة مجسّمة لأحداث القصة، ومحددًا لأهدافها، ومحركًا لغاياتها وكاشفًا عن ظاهرها وباطنها، ومبينًا أن هناك صراعاً مستمراً بين الهدى والضلال، وبين الخير والشر، ففي هذا الصراع من أصلح نفسه ملكها، ومنّ أهل نفسه أهلكها.

١٢٣-١٢٦ - ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

(قصة هود) كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً، كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب جزيرة العرب في حضرموت تابعة لليمن، وهم مدينة راقية، وجاء (الْمُرْسَلِينَ) بالجمع، فمن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، لأنهم يجمعهم هدف واحد، من إله واحد ١٢٤- (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ) كان هود أخاهم في النسب، وقد جاؤوا بعد قوم نوح بعد فترة من الطوفان، ألا تخافون عذاب الله، وتحذرون من انتقامه بسبب عباداتكم لغيره ١٢٥- (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) هلمّوا إليّ فيني أمين على الوحي والرسالة، ناصح لكم في الدين والدنيا ١٢٦- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري. فائدة: ١- دلالة الآيات تبين أن مهمة كل الأنبياء واحدة، لأن أهدافهم واحدة، ولكن بتعدد أدوار واختلاف أساليب وتنوع ظروف وتعدد أجيال. (هُودٌ) وسمي هوداً لوقاره وسكونه وهدوئه، وبعثه الله إلى أولاد عاد حين بلغ الأربعين كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤.

١٢٧-١٢٨ - ﴿وَمَا سَأَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحُكْمُ، إِنَّمَا أَطْلَبُ أَجْرِي وَثَوَابِي مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ بَيَانٌ لِّتَنْزِهِ عَنِ الْمَطَامِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهَكَذَا فَعَلَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ رَاجِعِ الْآيَةِ ١٠٩، كَرَّرْتَ الْآيَاتِ لِلتَّنْبِيهِ إِلَى أَنَّ دَعْوَةَ الرَّسْلِ وَاحِدَةٌ، وَاللَّهُ الْمُرْسَلِ وَاحِدٌ، وَالْهَدَفُ وَاحِدٌ. ١٢٨- (أَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِبْعٍ آيَةً تَعْبُوثُونَ) استفهام إنكاري على عاداتهم منها الترفيه وحبّ البقاء والحياة، لمجرد التّباهي بالمقدرة والتظاهر بالثراء والبناء، أتبنون بكل (ربيع) وهو الموضع المرتفع من الطرق المشهورة أو رؤوس الجبال، بناءً شامخاً كالأبراج والحصون المحكّمة، وتتفاخرون بها للتّباهي من غير ضرورة (آيَةً) علامة، بناءً عالياً متميزاً عن سائر الأبنية لإظهار المهارة والزينة للدلالة على الغنى والترف، لمجرد اللهو والمتاع وإظهار القوة فهو من دافع الشيطان والغرور واتباع الهوى وحبّ الأنا والالتصاق بحبّ الدنيا، في غرر الحكم (مَنْ اسْتَعْلَلَ بِغَيْرِ الْمُهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) لهذا أنكر عليهم نبيهم ذلك

السرف، لأنه تضييع للزمان وللعمر وإتاعاب للبدن، واشتغال بما يدعوا إلى التعلق بحب الدنيا، ويخس حقه من الاستعداد للآخرة! حتى خرجوا عن حدود العبودية لله وعبدوا الحياة!، عن النبي (ص) (كُلَّ بِنَاءٍ يُبْنَى وَبَالَ عَلَيَّ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا لَا بَدَّ مِنْهُ) روح البيان ٦/٢٩٥، حال كونكم (تَعْبَثُونَ) تصنعون العبث، وهو ما كان فوق الحاجة، وما لا فائدة فيه، ولا ضرورة له!، ويجب أن ينفق الجهد والمال في الأمور الضرورية وبناء نهضة حضارية للمجتمع، لكنكم غفلتكم عما يراد منكم وهي:

(تقوى الله) ورقابته لهم وقربه منهم، في غرر الحكم (احذروا العُقْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) لَا تَعْفُلْ فَلَيْسَ بِمَعْفُولٍ عَنكَ، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة ومنافع عامة الناس ما قال لهم (تَعْبَثُونَ) فهو توجيهه إلى أن ينفق الجهد والمال والعلم اللازم لإعداد الكفاءات والاختصاصات المتنوعة، فيما هو ضروري وحضاري لتقدم المجتمع ونهضته، لا في الترف والتفاخر بالمظاهر والزينة واطهار المهارة، بلا مبرر وفي غير موضعها المناسب، لأنها علامات عابثة تعلق بحيوانية الإنسان على بشريته، وتتنصر لجسده المادي على روحه وعقله وفكره وفلسفة وجوده، لعلبة هزله على جدّه، ودنياه على آخرته، فائدة: ١- عن أبي الدرداء: (تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، انه قد كانت قبلكم قرون (مجتمعات) يجمعون فيوعون، وبينون فيوثقون ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً وجمعهم بوراً ومسكنهم قيوراً، ألا أن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟! والذي يسرف في البناء يكشف عن طبيعة الإسراف في نفسه في كل شؤون الحياة، والإسراف دليل على حب الذات والتعلق بحب الدنيا بعيداً عن الآخرة، ولا يتحسس بمعاناة الفقراء والمحتاجين كقوله (وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) غافر/٤٣، في غرر الحكم (وَيَخِ الْمُسْرِفُ مَا أَبْعَدُهُ عَنْ صَلَاحِ نَفْسِهِ وَاسْتِدْرَاكِ أَمْرِهِ)، ٢- إن أعلى بناية اليوم على وجه الأرض هي ناطحة سحاب شيكاغو الجديدة، وتعرف باسم سيزرروبك، وتبلغ من الإرتفاع نحو ٥٥٠ متراً، ٩- (آيَةُ تَعْبَثُونَ) من شأن الآيات أن تثير العقل، وتغذي الوجدان وتعلو بالنفس وتزكيها وتطهرها عن مدارج الأرض إلى معارج السماء، ولكن تلك الآيات التي يتدعها القوم هي آيات وعلامات لاهية عابثة، تعلق بحيوانية الإنسان وشهواته على عقله وفكره وبشريته، وتتنصر لجسده المادي على روحه وقيمه المعنوية!.

١٢٩- ﴿وَسَخِرُونَ مَصَانِعَ لَمَّا كُمُ تَخْلُدُونَ﴾

مصانع: الأمكنة الجيدة للصناعات المتنوعة، والحصون المنيعة والقصور الفخمة، والتي للإنسان فيها حاجة، أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر، حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور والحصون الضخمة والقلاع المنيعة، تقيكم مؤثرات الجو وغارات الأعداء، وقصوراً فخمة لسكناكم لتعيشوا فيها مخلّدين ما بقي الدهر! وكأن هذا التطاول في

البنيان لحمايتهم من الموت الحق الذي لا بد منه لكل كائن حي! إنهم بنوا قصوراً تدوم دهوراً طويلاً، لا يفني به أطول أعمار الإنسان، كقوله (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ) النساء/٧٨ وهكذا يصنعون صناعات متينة، لإنتاج الغذاء والدواء والكساء وسائر الأدوات التي تسهل الحياة الاجتماعية المرفهة، أما المصانع العسكرية لإنتاج الأسلحة المتنوعة فهم بارعون فيها. ويعملون باهتمام بالغ وكأهم خالدون لا يموتون أبداً، ومن العجيب أنهم ينسون الموت وهم يرون الموتى! فائدة: ١- ذمهم هود أولاً بإضاعتهن المال عبثاً بلا فائدة، وثانياً بإحكامهم البناء والمصانع للدلالة على طول الأمل، والغفلة عن سوء الخاتمة، في غرر الحكم (إحذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن!) وثالثاً وصفهم في الآية التالية بالبطش الشديد، وقسوة الجبارين، والعنف في التعامل. فجاءنا الدين برسالته الربانية السمحة الضرورية ليوازن بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، وبين متطلبات الروح والجسد، وبين الأمل والعمل، وبين الحياة والموت عن الإمام علي (ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَإِعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا!) مستدرك الوسائل/١/١٨٠.

١٣٠- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ) عاقبتهم وتصديتكم لأمر، أي وإذا أخذتم قوماً في حرب أو عقوبة (بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) متعاضمين متسلطين إرهابيين، أخذتموهم بمنتهى القسوة والعنف والغلظة، متسلطين بسلطان السوء والبغي والظلم والاعتداء، بلا رحمة ولا رافة ولا تثبت ولا تأكيد، وبلا بقصد الردع والتأديب، أي إنهم يعيشون حالتي الإفراط والتفريط، أنهم في نعمة وقوة وقدرة أسأؤوا استعمالها، إنهم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعدّون حدّ الاعتدال في الفكر والعمل، خارجون عن طور العبودية، متجاوزون حدود الإنسانية، أشبه بالوحوش الكواسر تقتل كل ما يقع في يدها، كقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) إبراهيم/٢٨، في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) (رحم الله امرأً عَرَفَ قَدْرَهُ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ) ونزلت هذه الآية حيث كان البطش باليد وأقصاه بالسيف والرمح، فكيف بهم لو عاشوا في زمننا الحاضر حيث الأسلحة الجهنمية النووية تدمر الأرض ومن عليها في لحظات؟! إنهم قساة القلوب بكثرة الذنوب، وأنهم لا يكتفون بالمحافظة على أملاكهم، وإنما بالسيطرة على البلاد والعباد، وعلى الأجسام والأرواح، بدافع حبّ التسلّط، مع العنف والظلم والاعتداء، وخلق أجواء إرهابية عامة! إنه حكم دكتاتوري إرهابي، فإن الظلم من أكبر الكبائر، وهو ظلمات يوم القيامة (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) آل عمران/٥٧، في غرر الحكم (الظُّلْمُ أُمُّ الرَّذَائِلِ) وله تبعات موبقات، في غرر الحكم (الظُّلْمُ يَزِيلُ الْقَدَمَ وَيَسْلُبُ النَّعْمَ) (ويجلب النقم) وَيُهْلِكُ الْأُمَّمَ).

فائدة: (جَبَّارِينَ) التجبر في صفة الله سبحانه مدح كقوله (الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) الحشر/٢٣، وفي صفة غيره ذم.

١٣١-١٣٤ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ، وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ﴾
(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

خافوا الله واتركوا هذه الأفعال المتطرّفة المسيئة، واتركوا الترف والاستكبار والبطش بعباده والتحكم في دماء الناس ومصائرهم وبلادهم وأرزاقهم والتلاعب بعقولهم، وتضليلها عن منهج الخير والهدى، (وَأَطِيعُوا) واستقيموا على منهج الله وأطيعوا أمري، فَأَخَذَ يَذَكِّرُهُمْ بنعمة الله عليهم كقوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل/٥٣، كان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا (وَبِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ، وَتُدْفَعُ النِّقَمُ) وأن يخشوا أن يسلبهم الله ما أعطاهم، وأن يعاقبهم على العبث والبطش والبطر الذميم، والتحكم في دماء الشعب وبلادهم وأرزاقهم، والتلاعب بعقولهم وتضليلها عن نهج الخير والهدى، والناس خوفهم من الذل أوقعهم في الذل، وساعة ذلة لا تعادل الدهر كله ١٣٢- (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ) أمدكم: أعطاكم، ثم شرع يذكرهم بنعم الله عليهم، يهب الله تعالى نِعْمَهُ الكثيرة الظاهرة المعلومة لكل الناس، لا فرق بين المؤمن والكافر، لأن من حق الحياة الرزق، فمن شكر النعمة شكر المنعم، وأكرم نفسه وعرف قدرها ولم يتعدّ طورها، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، في غرر الحكم (من كرمته عليه نفسه، لم يهنها بالمعصية)، عن الإمام علي الهادي (ع) (وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرُّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨، ١٣٣- (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ) أعطاكم الثروة الحيوانية والبشرية، ١٣٤- (وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ) وأعطاكم أنواع النعم من المواشي والبنين والبساتين والأثمار أي الثروة الزراعية والمائية كقوله (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) لقمان/٢٠، في نهج البلاغة حكم/٣٣٠ (أَقُلُّ مَا يَلْزِمُكُمْ اللَّهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ).

١٣٥- ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

إني أخشى عليكم إن لم تشكروا المنعم ولم تقدروا النعم ولم تُصدّقوا بدين الله، عذاب يوم (عَظِيمٍ) الأهوال هو يوم القيامة، يوم رهيب يشيب لأهواله الصغير ويهزم الكبير ويكون الحليم فيكم حَيْرَان، دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب رحمة ربه، فذكر الناس فإن الذكرى تنفع المؤمنين وحجة على الكافرين، والقلب الذي لا يقبل المواعظ هو القلب القاسي، والقلب القاسي من الله بعيد، ومن الناس بعيد، ومن الجنة بعيد، ومن النار قريب، وإن الله يمهل الظالم حتى يقول الناس إنه أمهله ثم يأخذه أخذ العزيز المقندر، ولكن هذه النصيحة بأسلوب التذكرة وإلقاء الحجة، لا تصل إلى القلوب الغليظة المعاندة.

١٣٦- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾

ولكنَّ هذه العظاات لا تصل إلى تلك القلوب القاسية الجافية، فلا يصدر من الغليظ إلاّ الجواب الغليظ (أَوْعَطَّتْ) الوعظ كلام نافع شفاف رقيق، يلين القلب ويشرح الصدر وفيه تذكير بالوعد والوعيد، فلا تتعب نفسك بالدعوة فما نحن لك بمؤمنين، ولا لوعظك بسامعين، وهو تعبير فيه استهانة ووقاحة واستهتار وخشونة وجفاء، وما يتبعه من الجمود والتحجّر والانغلاق والتقليد الأعمى، فإن أصحاب العقول الصغيرة الجامدة يصعب التعامل معهم، والذي يتعامل معهم يكون أقرب للفشل منه إلى الصواب، ولكن مسؤولية الأنبياء وكل الدعاة إلى الله يجب أن تتم من أجل إلقاء الحجة على الناس كقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرُّسُل) النساء/١٦٥.

١٣٧-١٣٨ ﴿إِنَّ هَذَا إِلاّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾

خُلُقُ الْأَوَّلِينَ: عاداتهم المألوفة، ونهجهم وطبيعتهم الماضية، **المعنى:** ما هذا الذي جئتنا به إلاّ كذبٌ وخرافاتُ السابقين، الذين ادّعوا النبوة كذباً قبلك، ولم يكونوا أنبياء وأنت مثلهم (أو يكون **المعنى**) ما هذا الذي نحن عليه من العادات (إلاّ **خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**) وعاداتهم، جرينا عليها وألفناها ولا مجال لانتقاداتهم، وعليها نحيا ونموت! وهكذا الجاهل المغلق على نفسه ولا يجب أن يسمع ما ينفعه، فهو لا يفكر فسوف يسيره الذين يفكرون، ويجعلونه على ما هم عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ١٣٨- (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عذاب كما تزعم، لا في الدنيا ولا في الآخرة على هذا التكذيب كقوله (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) الكهف/٣٥-٣٦، في نهج البلاغة خطبة ١٥٤ (العامل بعير علم كالتسائر على غير الطريق الصحيح، لا يزيدُهُ سرعة السير إلاّ بُعداً عن الصواب)

١٣٩-١٤٠ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

الرَّحِيمِ

فكذبوا رسولهم هوداً الذي أنذرهم بطرق عديدة، مع الأدلة والبراهين، ومع الترغيب والترهيب، فلم يبالوا، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية! ريح شديدة البرد كقوله (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) الحاقة/٧، فكانت العقوبة على قدر الجناية، فإنهم كانوا جبارين فسلب الله عليهم ما هو أعتى وأشدّ منهم، فكانت الريح الانتقامية تأتي الرجل الجبار منهم، فتقتلعه وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فيموت شرّ موة! (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) إن في إهلاكهم (لآية) لعبرة وكشف عن سنة تاريخية متحركة وعبرة وعظة (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات والمعجزات، وهكذا مَنْ لا ينفعه الحقّ يضُرّه الباطل! ١٤٠- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) وإن ربك يا مُجَّد هو (العَزِيزُ) في انتقامه من أعدائه (الرَّحِيمُ) بالمؤمنين. وهذا

تخويف لهذه الأمة كيلا يسلكوا مسالكهم، وقد أهلك الله تعالى قوم عاد مع شدة قوتهم وجبروتهم، بأضعف الأشياء وهو الريح!! قيل: خير ما أعطي الإنسان: عقله يردعه، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فخوف يقمعه، فإن لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه، كالأرض إذا استولى عليها الشوك فلا بد من نسفها وإحراقها حتى تعود بيضاء، فعلى العاقل أن يحذر، من عقوبة الله ومكره (والحذر يقيك الضرر) ويعود إلى منهجه المستقيم، ففيه الأمن والأمان والاطمئنان.

١٤١-١٤٥- ﴿كَذَبَتْ ثمودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(قصة صالح) كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحاً، وجاءت (الْمُرْسَلِينَ) بالجمع لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين، ١٤٢- (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ)؟ أخوهم في النسب وليس في الدين، ألا تحافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ١٤٣- (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) عليكم حفيظ على مصالحكم، أمين ومؤتمن على نقل رسالة الله لكم، ١٤٤- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) خافوا الله وعقوباته وأطيعوا أمري ١٤٥- (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) تقدمت هذه الآيات الخمس عن نوح وهود بألفاظها، يدعوها كل رسول للدلالة على وحدة الرسالة ووحدة المرسل، ووحدة الهدف، وإن تعددت الرسل والأدوار والأساليب. ثم خاطب صالح قومه واعظاً لهم، ومحذراً من المفاجأة والمخباتة والمحذورات، ومدكراً بنعم الله وشكره فقال:

١٤٦-١٥٢- ﴿أَتَشْكُرُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَكَنْجَاتٍ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُسْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ وَكَأَيُّ ضَالِّينَ﴾

الاستفهام إنكاري، هل تتصورون أنكم تتركون (في ما هاهنا) إنها كلمات توقظ القلوب الغافلة المستغرقة، في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه، وأنتم مطلقو العنان لا تسألون عما تفعلون (آمِينَ) من زوالها، ومن أية مؤاخذه إلهية، ولا يبعثكم الله للحساب؟ ١٤٧- (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) أتتركون تتنعمون بلا حساب، وأنتم في بساتين وأنهار جاريات ١٤٨- (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) أرض واسعة فيها من أنواع الزروع والنخيل (طَلْعُهَا) ذو الطلع وهو أول ما يطلع من التمر في عنقود البلح (التمر) أول تكوُّنه وطلوعه (هَضِيمٌ) ناضج لئِنْ لطيف سهل الهضم حتى كأن جناها مهضوم، لا يحتاج إلى جهد في البطون!، أو طلوعها المنظَّم والمرتب بعضه فوق بعض، إنهم يعيشون بين هذه النعم، ولا يتدبرون منشأها ولا يشكرون المنعم كقوله (ثُمَّ لَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، فيقول لهم نبيهم حافظوا على هذه النعم بالشكر لله و(بالشكر تدوم

النعم) كقوله (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل/٤٠، وفي غرر الحكم (أقل ما يجب للمنع أن لا يعصى بنعمته).

١٤٩- (وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) فارهين: فرحين بطرين، أي وتبنون بيوتاً في الجبال خبراء في نحتها، فنيون بارعون في الأناقة، أشربين بطرين من غير حاجة ماسة لسكنائها، مع كثرة المال والجهد والعمر المبذول فيها، وأما بنوها بطراً وتفاحراً، والذي يشتغل في غير المهم يُضَيِّع الأهم، فأراد الله برحمته أن يهديهم للتي هي أقوم، ويزيدهم وعياً، أي امتلكوا كل شيء على أن لا يملككم شيء إلا الله مالك الملك، ١٥٠- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

فخافوا عقاب الله واحذروا غضبه، وأطيعوا أمري ونصيحتي لكم، أي لا يمكن أن يتم لكم، كل ذلك وأنتم مطلقو العنان، ولا تسألون عما تفعلون آمنون من أية مواخذه إلهية، وفي نهج البلاغة (إِنْ اسْتَعْنَى بِطَرٍ وَفِتْنٍ، وَإِنْ افْتَقَرَ فَنَطَ وَوَهْنٍ) التفسير المبين ص ٢٨٥، ١٥١- (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) ابتعدوا عن هؤلاء الجائرين البعيدين عن الحق، من زعمائكم ورؤسائكم، الإسراف: الإفراط في الشيء، والخروج عن الحدود الطبيعية المعقولة، وكل مسرف يبدأ بالضرر على نفسه ثم على غيره، والذي يسرف في شيء فهو يسرف في كل شيء كقوله (وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) غافر/٤٣ ولو عمل الناس بهذه الآية وحدها لسقطت الحكومات الطاغوتية المسرفة كلها، ١٥٢- (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) الذين عاداتهم الفساد المادي والمعنوي، في البلاد والعباد بلا إصلاح، أي يضررون ولا ينفعون، كإثارة الحروب وخلق الفتن وبث الدعايات الكاذبة وعمل المؤامرات، والسلب والنهب وهم عادة أصحاب النفوذ والقيادة، الذين تبادوا في معصية الله، وهم كقوله (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) النمل/٤٨.

من صفات هؤلاء الأشرار: هذا المستوى المنحط من الناس هم الأشرار المجرمون الذين يتقيهم الناس مخافة شرهم، والذين لا يرجى خيرهم ولا يؤمن شرهم، والذين يكونون عوناً على المظلوم وناصرين للظالم، والذين يتتبعون عيوب الناس ويغفلون عن معائبهم، والذين لا يعفون عن الزلة ولا يستترون العورة، والذين يرون أنفسهم أنهم خير الناس وهم شر الناس!، والذين يثيرون الحروب والبلاء والفتن ويشيعون الدعايات الكاذبة، وينشرون الجواسيس ويتآمرون على السلب والنهب! في غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَّقِي بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ، وَلَا يَتَّقِي بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعْلِهِ) والظاهر من هذه الآيات يشير أن الغالب على قوم هود اللذات الخيالية، وطلب الاستعلاء ويعانون من جنون العظمة، والغالب على قوم صالح اللذات الحسية كالأكل والشرب والمسكن، وهكذا من

تعلق بالدنيا عاش الافراط والتفريط، ومن تعلق بمنهج الله عاش التوازن والاستقامة والسلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة.

١٥٣-١٥٤ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لما عجزوا عن رد حجة صالح في رسالته، اعتمدوا على التكذيب، المعنى: (مِنَ الْمُسْحَرِينَ) أي من المسحورين أي (إِنَّمَا أَنْتَ) سُحِرْتَ كَثِيرًا حَتَّى غُلِبَ عَلَى عَقْلِكَ، وَالْمُسْحَرُ مَبَالِغَةُ السَّحْرِ فِي الْمَسْحُورِ ١٥٤- (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) وَكَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ الْأَنْبِيَاءُ (وَكُلَّ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ) فَوْقَ الْبَشَرِ، وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّهُمْ جَاؤُوهُمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الْبَشَرِ كَالْمَلَائِكَةِ، لَقَالُوا كَيْفَ نَسْتَفِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَعَالِمُهُمْ غَيْرُ عَالِمِنَا، وَإِذَا جَاؤُوهُمْ بِشَرِّ قَالُوا (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا)؟ التَّغَايُنُ ٦ لَا مَزِيَّةَ لَكَ عَلَيْنَا حَتَّى نَخْضَعُ لِأَمْرِكَ، وَكَأَنَّمَا كُلُّ الْبَشَرِ سَوَاسِيَةٌ فِي الْقَدْرِ وَفِي الْكِفَايَاتِ، وَلَا اخْتِلَافَ بَيْنَ الْعُقُولِ وَالتَّفَكِيرِ وَالنَّفُوسِ، (فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أَنَّهُمْ لَا يَبْحَثُونَ عَنْ دَلِيلٍ مَقْنَعٍ وَيُرْهَانُ قَاطِعًا، وَمَعَ هَذَا طَالَبُوا مِنْهُ الْمَعْجِزَةَ الْخَارِقَةَ عَنْ قَدْرَةِ الْبَشَرِ تَثْبِتَ دَعْوَتَكَ لِلنَّبُوَّةِ.

١٥٥-١٥٩ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

هذه معجزي اليكم، وهي اختبار لكم، وهي الناقة (أنثى الجمل) التي تخرج من داخل صخرة معينة بقدره الله بطريقة إعجازية وسماها القران (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) الشمس/١٣، روي: أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء (حامل) وتلد أمامهم وحصل مثل ما أرادوا (لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) شرب: نصيب من الماء تشربه، على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً للناقة ويوماً لهم، ولا تعتدون عليها في يومها، ولا تعتد عليهم في يومهم، ولا يختلط شراهما، بشراهم كما لا يرتبط يومها بيومهم ١٥٦- (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وحذرهم أن ينالوها بضرر على الإطلاق، وإلا أخذهم عذاب شديد تسوء عاقبتهم فيه ١٥٧- (فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ) فَعَقَرُوهَا: نحروها أي ذبحوها، والعقر لغة هو قطع قوائم البعير، وقد سَمَوُ النحر عقراً لأن الناحر يعقر البعير أي يقطع إحدى رجله ليهوي إلى الأرض أولاً ثم ينحره، والذي نحرها وذبحها كان من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ولقد حذرهم منهم صالح وأنذرهم من خطرهم فلم يخشوا النذير، ومن ثم كتبت خطيبتها على الجميع! وكان الجميع مؤاخذين بهذا الاعتداء الأثيم، فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب العاجل، ولكن بعد فوات الأوان ١٥٨- (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) وكان العذاب صيحةً خمدت لها أبدانهم وانشقت لها قلوبهم وزلزلت الأرض من تحتهم زلزالاً شديداً، وصبت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم (إِنَّ فِي

ذُلِكَ لآيَةٍ لَعِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ عَقَلَ وَتَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ كَقَوْلِهِ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) النازعات/٢٦، (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) ١٥٩- (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) فائدة: ١- في نهج البلاغة خطبة ٢٠١ (إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَائِقَةٌ ثَمُودَ رَجُلًا وَاحِدًا، فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى) أسند عقر الناقة إلى الجميع، لذلك جاء تعبير القرآن (فَعَقَرُوهَا) بالجمع، مع العلم عاقرها واحد، إنما عقرها برضاهم، فاشتركوا معه بفعله الإجرامي. عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ وَالرَّاضِي بِهِ (وَالسَّائِكُ عَنْهُ) شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧، عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ) الدر المنثور ٢/ص ٣٠٢، وعنه (ص) (إِذَا عَمِلَتْ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ، كَانَ مِنْ شَهِدِهَا فَأَنْكَرَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا) كنز العمال خير ٥٥٣٧ عن الإمام علي (ع) (مَنْ اسْتَحْسَنَ قَبِيحًا كَانَ شَرِيكًا فِيهِ)، ٢- يلاحظ التشابه بين مواقف الأقسام من رسلهم، ٣- يلاحظ ألفة المنكر لمدة طويلة، يولد قسوة في القلب، وغلظة في الطبع، وعناد على المنكر، ٤- نلاحظ المرسل والمرسل والرسالة واحدة وهدفها واحد في كل زمان ومكان، وإن تعددت أدوار الرسل وأساليبهم، وتبقى الغاية واحدة ويوحدهم هدف نبيل مشترك، وهو جعل (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) التوبة/٤٠.

١٦٠-١٦٤- ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطًا أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (قصة لوط) كذبوا رسولهم لوطاً، وجاءت (الْمُرْسَلِينَ) بالجمع راجع الآية ١٤١، ١٦١- (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ) ألا: أداة تفيد التوبيخ واللوم، ألا تحافون عقاب الله في عبادتكم غيره ١٦٢-١٦٤- (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) نفس الكلمات التي قالها من قبل صالح وهود ونوح، مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة، لأنهم سفراء الله لخلقهم، وغايتهم واحدة، وأنها من إله واحد وإن تعددت الأدوار، واختلفت الأساليب، وتنوعت الظروف العامة.

١٦٥-١٦٦- ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (تأتون الذكور من العالمين، وتذرون ما خلق لكم من أنفسكم من أنتم قوم عادون)

استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، أي أنتكحون الذكور في أديبارهم، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع الشاذ (مِنَ الْعَالَمِينَ) من بين سائر الخلق؟! كقوله (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) العنكبوت/٢٨-١٦٦- (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) وتذرون ما أبا

لكم ربكم من زواج النساء؟! إنهم تركوا فروج النساء النظيفة اللطيفة الحلال، ورغبوا إلى أدبار الرجال القدرة المحرمة الشاذة، عندما استنكر القرآن أدبار الرجال فمن باب أولى يستنكر أدبار النساء أيضاً للسبب نفسه، فإنكم تتركون الأولى والأحسن هو ما خلق الله لكم من فروج النساء، ومحل التناسل والاستمتاع كقوله (فَأَنْتُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) البقرة/٢٢٢، فلا تأخذون الأدبار دون الإقبال (القبل)، ولا الشرج (الشرج) دون الفروج، ومن اشتغل بالأدنى فهو الأدنى، ومن اعتاد الانحراف فيستهجن كل عفاف!! (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) بل أنتم قوم عادون: متعدون الحدود المعقولة والمنقولة والمقبولة والطبيعية، وتوصفوا بالعدوان والاعتداء والشذوذ في تصريف الشهوة، أي، تجاوزتم بذلك حدود الفطرة الإنسانية، وهو انحراف شنيع عن الطبيعة البشرية، والشريعة الربانية، وتجاوزتم حدود الله كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١ وتجاوزتم حدود العقل السليم في الفساد والإجرام والخبثاء.

فائدة:

تجاوزتم الحدود في الإجرام والفساد والسقوط الأخلاقي والشذوذ! فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان! وكانوا يأتون اللواط جهرة! من غير حياء ولا خجل، وكانوا أول من حمل هذا الداء الخبيث كقوله (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) الأعراف/٨٠ وكانوا يفعلون بنسائهم أيضاً فتكون الآية دليلاً على حرمة أدبار (شرح) الزوجات، في الحديث (مَنْ أَتَى إِمْرَأَةً مِنْ دُبْرِهَا) (شرحها) فهو بريء مما أنزل على محمد ولا ينظر الله له) روح البيان/٦/٣٠١، وعنه (ص) (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلٍ لَّوْطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ)! الترغيب والترهيب/٣/٢٨٨ لأن اللواط من أكبر الكبائر، وقد يتحول الشذوذ الجنسي للرجال (اللواط) إلى حالة الشذوذ الجنسي للنساء (السحاق) فيأتونهن من أدبارهن، واللواط للنساء يسمى اللواط الأصغر، واللواط للرجال يسمى اللواط الأكبر.

(ويسمى في التعبير المعاصر الزواج المثلي)!

وهو في كل حال جريمة شاذة بشعة مذمومة مكروهة، وسقوط مروّع للكرامة وإهانة للأدمية وشذوذ خطير وممير، أن يكون الاهتمام بالشرج، والإقبال عليه بالشهوة واللذة، هو محل إخراج القاذورات وفضلات الإنسان دون غيره، للاستمتاع الجنسي به!! هو من علامات سقوط الحضارات، وانحيار البنى التحتية الرئيسة للإنسان الكريم الخليفة على الأرض، أي انحيار عقله وعزته وتعطيل نفسه اللوامة، وتقوده نفسه الأمانة بالسوء، ويتحكم به هواه وغريزته والشيطان!، وهي حالة مرضية شنيعة مخزية، ولذا لها حقيرة وتبعاتها خطيرة وحسراتها كثيرة، وعاقبتها وخيمة، ولا يعملها إلا مريض النفس، فاسد الطبع شاذ التفكير، واللواط قمة التجاوزات في حقوق الإنسان، ومن يرتكبها فإنه يسهل عليه ارتكاب جميع الانحرافات القانونية والخلقية

والإنسانية، عن الإمام الرضا (ع) (علة تحريم الذكران للذكران) (اللواط) والإناث للإناث (السحاق) لِمَا رَكَّبَ فِي الْإِنَاثِ، وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الدُّكْرَانُ، وَلِمَا فِي إِتْيَانِ الدُّكْرَانِ لِلدُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ مِنْ انْقِطَاعِ النَّسْلِ وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ وَخَرَابِ الدُّنْيَا) البحار ٧٩ ص ٦٤ كقوله (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ) الأنبياء/٧٤، أما مجلس العموم البريطاني فقد شرع اللواط، والسماح في ممارسته قانونياً! لتبين أن في بريطانيا من هو أخط من الحيوانات في قيمها، وذلك نتيجة تاريخها الاستكباري الطويل البغيض، وهكذا كل الدول التي تبيحه قانونياً، فهي في استدراج نحو السقوط الحضاري المروّع! كقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/ ١٨٢ وتسهيل الزواج الكفوء الشريف، ضمان من الانحراف والتساقط والشذوذ.

١٦٧-١٦٨- ﴿قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ يَا لَوْ لَكُنْ مِنَ الْمُخْرَجِينَ، قَالَ إِنِّي لَعَمْرِي لَكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾

المخرجين: المبعدين المنفيين من قريتنا. المعنى: لما عجزوا عن الرد السديد، لجؤوا إلى التهديد والوعيد، قالوا مهديين له لئن لم تنته عن نصحك وإرشادك وتقبیح فعلنا وتقييد حريتنا والتدخل في شؤوننا، لتكوّنن من المبعدين، وأحد المنفيين من بلادنا، لأنه أصبح غريباً عن طبائعهم المنحرفة، إنّ هذه الجماعة الشاذة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أناساً يتطهرون، ويرتفعون عن اللواط في حيّهم، أخرجوهم عن مدينتهم، فهددوا لوطاً بهذا الأمر أيضاً بمصادرة أمواله!! عندما يتأصل الانحراف والشذوذ في الأمة، تنقلب مقاييسها وموازينها فيخرجوا الأنبياء المصلحون من موطنهم عقوبة لدعوتهم إلى الفضيلة! والذين ينفرون من الفضيلة هم المنغمسون في الرذيلة فلا يجنون غيرها، فيكون المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً، ويكون الإنسان المستقيم غريباً وهو بين معارفه، ويكون الإنسان الوضيع هو القريب والمقرب والعزیز، كقوله (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) النمل/٥٦، فيكون الطهر والعفاف جريمة عند العاهر الفاجر!! كدود الأرض عندما تكشف عنها التراب تراها لا تحب النور، فتنكمش وتعود تحت التراب في الظلام مرة ثانية، والذي لا تلبق به الفضيلة تلبق به الرذيلة، وهذه هي عاقبة المجتمع المسرع نحو الهاوية!، ١٦٨- (قَالَ إِنِّي لَعَمْرِي لَكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)

القالين: المبعضين لعلكم والكارهين له بشدة، وأبرأ إلى الله منه، حتى كأن هذا الشذوذ يقلق الفؤاد - كل فؤاد - ويزعجه وينعص حياته! قال إني لا اخاف الخروج من قريتكم ولا أبالي بكم وإني بريء منكم، بل أنا من الكارهين لعلكم، المبعضون له المعترضون عليه، إني لا أعاديكم كأشخاص ولكني أعادي أعمالكم المخزية، ولو أبتعدتم عن الفساد لأحببتكم، وإني راغب في النجاة من وباله ومأساته النازل بكم ولو بعد حين، وإني بريء منكم، لأن الإنسان الطاهر الشريف يستقبح العمل في النجاسات، ويستعلي بنفسه عن الحقارات، في مجتمع تعلّم على

الفساد والحقارات والانحرافات، فإنها من أفضل الجهاد كلمة حق في مجتمع فاسد، فأراد إظهار الكراهية في العيش معهم، والرغبة في الخلاص منهم، لذلك أعرض عن محاورتهم وتوجّه إلى الله قائلاً :

١٦٩-١٧٥ ﴿رَبِّ نَجْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْلُكُونَ، فَتَجَنَّبَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ، ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

(رَبِّ نَجْنِي) ربّ خلّصني من العذاب المأساوي المهلك، الذي يستحقونه بعملهم القبيح المكروه المشؤوم، أنا (وأهلي) وأسرتي وأخواني المؤمنين أيضاً ١٧٠ - ١٧١- (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) الغابرين: الباقين في العذاب. المعنى: نجينا مع أهله جميعاً إلا امرأته العجوز السيئة الناشز كانت من الهالكين، ولم تكن بالفعل من أهله، وإن كانت من أهله بقوة العلاقة الزوجية، لرضاها بفعل الشذوذ! بل وأعانت القوم عليه، وخالفت زوجها (لوط) في دعوته ورسالته ١٧٢- (ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ) ثم دمرنا أهلكننا الباقين، بقلب بلدتهم وجعل عالي قراهم سافلها كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) النازعات/٢٦، والتدمير: الهلاك العجيب الشامل الهائل ، قيل: خسفت قراهم وغطّأها الماء، وبطن أنها تحت البحر الميت في الأردن ١٧٣- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) (وَأَمْطَرْنَا) وأنزلنا عليهم حجارة من سجيل معلّمة صلبة كالرصاص، من السماء كالمطر الكثيف، (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) بِئْسَ هَذَا الْمَطَرُ، الذي يسوء من يحلّ به من الدين أنذرهم نبيهم فكذبوه، ويكون العذاب على قدر الجناية، وكلمة (مَطَرٌ) تجيء في القرآن بصيغة مطر العذاب (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) وكلمة (الغيث) بصيغة الخير ١٧٤-١٧٥- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تقدم بيانه فائدة:

كيف نفهم نشوز إمراة لوط، مع طهارة زوجها النبي (ع)؟! لم تستفد إمراة لوط من علوم زوجها النبي وعفته وطهارته، بل اتّجهت بالعكس عما كانت عليه في أول زواجها، حيث كانت المرأة الصالحة الكفو لزوجها قبل النبوة، عن النبي (ص) (المؤمن كفؤ المؤمنة) لكنها نشزت عنه وتمردت عليه بعد ذلك!، فمرضت روحها وسقم فكرها كما يمرض جسدها المادي! فلم يجعلها القرآن الكريم من أهله، وسماها امرأته لأنها لا تتصف بصفات الزوجة الصالحة من أهله، كقوله (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ) النمل/٥٧ وفي هذه الآية وصفها القرآن بالعجوز العاجزة الناشزة السيئة الفعل، مع كبر سنّها وشيخوختها كانت ترضى على فساد وشذوذ الناس!!

ومن رضيّ بفعل قوم صار منهم، وأشرك في عملهم، عن النبي (ص) (المرء مع من أحبّ) البحار ٦٨ ص ٧٠، إنها لم تعمل أية فاحشة، وإنما كانت تدلّ المفسدين عليها! وهذه صفة عقوق لزوجها، وانحراف لنفسها وعصيان لربها، ولو عملت الفاحشة لوجب عليه طلاقها وتخلّص من

شَرَّهَا وخبثها كقوله (الْحَبِيبَاتُ لِّلْحَبِيبِينَ) النور/٢٦، فلا يقترن بالخبیثة إلا الخبیث مثلها ومن جنسها (والطيور على أشكالها تقع، وشبيه الشيء منجذب إليه) إنها انتكاسة خطيرة ومريرة في نفسية هذه العجوز الهرمة المخزية في نفسيتها وأفعالها، فلم ينفعها طول العمر في صحبة زوجها الطاهر كقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا) فاطر/٨ وقوله (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/٣٦. في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْهَوَى، مَنْسَأَةً لِلإِيْمَانِ، وَمَحْضَرَةً لِلشَّيْطَانِ) وعن الإمام علي (ع) (إِنَّ مَنْ لَّا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَّا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَّا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح النهج ٩١/٢.

١٧٦-١٨٠ - ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(قصة شعيب) الأيكة : الأرض ذات الشجر الكثيف الملتف (الغابة) دليل على نعم الله الكثيرة عليهم، من كثرة الزراعة ووفرة المياه، وأصحاب الأيكة هم أهل مدين، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، أي كذب أصحاب مدين نبيهم شعيباً وكان أجنبياً عنهم، لذلك (قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل (أخوهم شعيب) كما قال عن هود وصالح ولوط، عبر هناك بـ (أَخُوهُمْ) (١٧٧-١٨٠) (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) وهذه الكلمات ذات دلالات، وهي ذاتها التي دعا بها سائر الأنبياء أمهم نوح وهود وصالح.

١٨١ - ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَأَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾

أوفوا الكيل: أتموه وأكملوه ولا تتلاعبوا في الميزان!، الْمُخْسِرِينَ: المنقصين حقوق الناس بالتطيف، سواء أكان النقص مادياً أو معنوياً، ظاهراً أو باطناً، صغيراً أو كبيراً. المعنى: إذا بعتم الناس فكيلوا لهم الكيل كاملاً، ولا تبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصاً بحيلة فنية ماهرة، وإذا اشتريتم فخذوا كما لو كان البيع لكم (باختصار) خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون، فائدة: ١- كان يشيع في قوم شعيب النقص في الميزان، فيأخذون عند الشراء زائداً عن حقهم ولو بالغصب، ويعطون في البيع أقل من حق الناس، ويشترون بثمن بخس وقليل ويبيعون بثمن مرتفع، أو يغشون الناس بعيب في البضاعة، بعد أن تعرف شعيب (ع) على قومه جيداً، فرأى نقاط قوتهم وضعفهم وشخص عيبهم البارز في الميزان، فأمرهم بالميزان العادل، وهكذا يبدأ الداعية إلى الله أولاً بالتعرف على الناس، ثم يأتي المجتمع أولاً من حيث يحب، وينتهي إلى حيث يحب هو. واجعلوا أنفسكم ميزاناً فيما بينكم وبين الناس، فأحبوا للناس ما تحبوه لأنفسكم، واکرهوا للناس ما تكرهونه لأنفسكم.

١٨٢ - ﴿وَمَرَرُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ: الميزان العدل، ومعرفة قدر الأشياء، وإعطاء الناس مقاديرهم وموازينهم العادلة، أي وزنوا بالميزان السوي العادل القائم على الحق في الأخذ والعطاء، لأن العقيدة الصحيحة تعتمد على حسن العبادة وحسن المعاملة، عن النبي (ص) (الْحُلُقُ وَغَاءُ الدِّينِ) كثر العمال خبر ٥١٣٧، وقد جاء مع التحذير في سورة المطففين ١-٣ (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَّنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) التطفيف: نقص المكيال والميزان لأن ما يُسرق به طفيف أي قليل، الوزن: معرفة قدر الشيء، في غرر الحكم (مَنْ بَاعَ عَيْباً لَمْ يُبَيِّنْهُ لَمْ يَزَلْ فِي مَقْتِ اللَّهِ وَلَمْ تَزَلْ الْمَلَأَكَةُ تَلْعَنُهُ) وأن من يخذع الآخرين بالمكر والحيلة فهو أسوأ الناس. ثم عمم النهي عن البخس (النقص) في كل حق فقال:

١٨٣ - ﴿وَكَا بَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَكَانَعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(وَلَا تَبَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) تبحث الآية عن خريطة الطريق في الحركة الاجتماعية ذات الدلالة الواسعة، ولا تنقصوا شيئاً من حقوق الناس (كل الناس) بلا أي نقص صغير أو كبير، وهو تعميم بعد تخصيص، المعنى: ولا تنقصوه بمختلف أساليب الحيلة والظلم، وبأي طريق كان بالهضم أو بالغبن أو الغش أو الغصب.. وغيرها، الذي يؤدي إلى تضييع حقوق الآخرين، والآية لها دلالة واسعة، أي وقيموا الناس بما يستحقونه من قيمة وتقييم وتكريم، بلا مدخل من كراهية لأحد، فأنقص حقه بسبب بغضي له، فالذي لا يتورع من الصغائر تراه يقع في الكبائر، والكبائر أم المفسدات، ثم نهامهم عن جرم أعظم وأشد خطراً يحصل من هذا البخس (وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) والعني: أشد الفساد وأسرع، أي ولا تسعوا في الأرض إلى نشر الفساد بمختلف أنواعه المعنوية والإعلامية والإدارية، وبأساليب فنية مدروسة وسريعة، وتأسيس الانحراف وتأسيس مافيات) عصابات ومجموعات قتل وسلب ونهب وخطف وقطع الطرق وإشاعة الفاحشة.. بين الناس.

فائدة: ١- قابل بخس الناس أشياءهم، بالفساد الشديد والمديد والسريع في الأرض، لم يقل (لا تبخسوا الناس حقوقهم) وإنما قال (أشياءهم)، والشيء هو أقل حق. فهو لا قيمة له في نظرك ولكن له القيمة في نظر أصحابه، وأي منع لحقوق الناس، وبأي أسلوب من أساليب الاحتيال الماكرة أو المنع لأدوارهم أو حجر لمواهبهم أو عزلهم عن المجتمع.. إلخ يؤدي إلى الفساد الخطير والمرير والسريع في المجتمع!! وكلما زاد البخس والمنع وتعمم، ازداد الخطر وتفجر إلى كارثة مدمرة تضر الجميع، كقوله (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ) البقرة/٢٥١، عن النبي (ص) (إِنَّ المَعْصِيَةَ إِذَا عَمِلَ بِهَا الْعَبْدُ سَرّاً لَمْ تَصْرَ إِلَّا عَامِلِهَا، وَإِذَا عَمِلَ بِهَا عَلَانِيَةً، وَلَمْ يُعَيَّرْ

عليه أَضْرَتِ بِالْعَامَّةِ) البحار ١٠٠ص ٧٤، ثم خَوْفَهُمْ سَطْوَةَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ مِنْ قَبْلِهِمْ، مَنْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَالًا وَبَطْشًا وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ.

١٨٤- ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾

الْجِبِلَّةُ: الأمة أو الجماعة من الناس، أي الأمم الكثيرة المتقدمة السابقة، المعنى: (وَأَتَقُوا) خافوا الله الذي أوجدكم من العدم، أنتم وآباءكم (وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ) والأمم الكثيرة المتقدمة الذين خلقهم وقرر في طبيعتهم الإنسانية تقيح الظلم والفساد، ثم خَوْفَهُمْ بِأَسِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ (مِنْ) قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) غافر/٨٢، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) آل عمران/٤ (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢ في نهج البلاغة خطبة ٣٢ (اتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ).

١٨٥-١٨٧- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

الْمُسَحَّرِينَ: المسحورين، أي أصحاب السحر الكثير لعقله، (مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) مختل العقل بفعل السحر المتكرر فهو يخط ويهذي، وكل كلام لا يتناسب مع أهوائهم ورغباتهم وصفوه بالسحر والكذب، كأهم يريدون أن يهبط الحق ليكون بحسب طبائعهم وأهوائهم كقوله (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) المؤمنون/٧١، ١٨٦- (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) أنت إنسان مثلنا لا تتميز علينا بشيء، ولست برسول (وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) وَإِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّكَ يَا شَعِيبُ مِمَّنْ يَتَّعَمِدُ الْكُذْبَ فِيمَا يَقُولُ، وَقَدْ جَاءُوا قَبْلَكَ وَادَّعَوْا النَّبُوَّةَ مِثْلَكَ فَلَمْ نَصْدَقْهُمْ، ١٨٧- (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ) كسفًا: قطعاً، أي أنزل علينا العذاب قطعاً من حجارة راجمة قاصمة من السماء، وهو مبالغة في التكذيب، وعناد المستهتر المعاند الخبيث (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أحد الأنبياء الصادقين، إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه، وهكذا الجاهل المعاند يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه!، أمّا عذاب الله فإنه ينزله عندما تنقضي مبررات وجودهم وهم أحياء على الأرض، ويختار العذاب المناسب لهم في وقته ومكانه المناسبين (تَكُونُ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدَرِ الْجِنَايَةِ).

١٨٨-١٩١- ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَرِيزُ الرَّحِيمُ﴾

(قَالَ رَبِّي) الله أعلم (بِمَا تَعْمَلُونَ) بصغائر أعمالكم وكبائرها، وهو سبحانه الذي يقدر متى يحين العذاب وكيف ومتى تستحقونه، وليس لي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله وحده، ١٨٩-

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) فكذبوه فجازاهم بجنس ما طلبوه من إسقاط الكسف من السماء، الظُّلَّةُ: غمامة (سحابة) كبيرة استظلوا بها من شدة الحرّ، ففي ظاهرها سحابة فيها الرحمة، وفي باطنها العذاب الرهيب، وأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم، روي: (عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ): سلط الله عليهم حرّاً شديداً خانقاً يكتم الأنفاس، ويثقل الصدور في سبعة أيام، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، ثم بعث لهم سحابة كبيرة فاستظلوا بها فوجدوا لها برداً، ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم عن آخرهم (إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) هائل شديد الهول، ١٩٠- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) ١٩١- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ففي كل قصة من هذه القصص السبع آية (موعظة) فيها من الفوائد الكثيرة لكل الأجيال الإنسانية، والله يكشف عن سنة تاريخية متحركة (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ) الأنفال/٤٢ .

فائدة: يتبين مما مضى أن التاريخ يعيد نفسه، ولكن بأحداث مختلفة، وأنه ليس حدثاً مَرَّ وانتهى، وإنما يكشف عن حركة السنن التاريخية الفعالة المؤثرة الثابتة، التي تتعامل مع كل الأجيال اللاحقة كما تعاملت مع الأجيال السابقة، كقوله (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) فاطر/٤٣، فما أصاب الأنبياء الماضيين، نفسه الذي يعاني منه اليوم جميع المؤمنين الدعاة إلى الله تعالى، ولكن بينهم تعدد أدوار واختلاف ظروف، ووحدة هدف، عن الإمام الصادق (ع) (العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس) البحار/٧٨/٢٦٩، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! في غرر الحكم (أعرف الناس بالزمان، مَنْ لَمْ يَتَعَجَّبْ مِنْ أَحْدَاثِهِ).

١٩٢ - ١٩٦ - ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْأُولَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ، وَإِنَّ لَنَا لَلْأُولَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الضمير في (إنه) يعود إلى القرآن الكريم، بعد أن أختتم الله سبحانه هذا القصص، المشتغل على أخبار سبعة أنبياء مع أقوامهم، وبين أن الله يمهّل الظالمين حتى يقول الناس أنه أهملهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر! ثم تابع أن هذا القرآن الكريم الذي جاء بذلك القصص، وحي من الله رب العالمين، أنزله على عبده في مدة ثلاث وعشرين سنة، بلسان عربي مبين، لينذر به العصاة ويُنشِرَ به المؤمنين كقوله (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، ١٩٣- (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) نزل به الروح القوي الأمين جبريل (ع) وسماه (رُوحُ الْقُدُسِ) في سورة النحل/١٠٢، ١٩٤- (عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك وحفظته بصدرك، وتندر بآياته المكذبين، وتحذّرهم من عذاب الله، وليفهموا ما فيه، ١٩٥- (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)

بلسان عربي بليغ واضح فصيح جليل وجميل وشامل يهدي للتي هي أقوم، ليكون قاطعاً للحجة، ودليلاً على المحجة، ليؤمنوا به ولا يتعللوا بعدم فهم مقاصده كقوله (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) فصلت/٤٤، فائدة: ١- (عَلَى قَلْبِكَ) لم يقل (نزله بين يديك) وأن الله تجلّى لعباده بكتابه، وأن القرآن الكريم نفذ إلى أعماق النبي مُجَدِّ (ص) وخالط مشاعره واستقر في قلبه، أي استقرت الحقائق في قلبه، للدلالة أن الرسول (ص) كان يساعده الله على حفظه، ليتمكن من حمله واستنطاقه وحفظه ووعيه والاستدلال به، حتى صار خُلْفُهُ القرآن كقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعلى/٦-٧ وخاطب القلب لأنه سيد الجوارح، وموضع التمييز والوعي، وسائر الأعضاء مسخرة له كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) ق/٣٧، عن النبي (ص) (إِذَا طَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ طَابَ جَسَدُهُ وَإِذَا خَبثَ الْقَلْبُ خَبثَ الْجَسَدُ) الخصال خير/١١٠، ١٩٦- (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) الزبير: الكتب. وإن ذكر القرآن وخبره لموجود في كتب الأنبياء (الأُولِينَ) السابقين. وكل شيء مهم ينشر ويكرر بوسائل الإعلام المختلفة ليلفت أنظار الناس والأجيال إلى أهميته الكبيرة، وهذا ما فعله رب العالمين مع قرآنه الكريم، حيث نشره وكرره في الكتب المنزلة قبله ليتطلع الناس إليه، كقوله (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) الصف/٦، ٢- الذين أنذروا بلسان عربي مبين خمسة أنبياء: هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومُجَدِّ (ص)، عن النبي (ص) (أَحِبُّ الْعَرَبِ لثَلَاثٍ: لِأَيِّي عَرَبِيٍّ، وَالْقُرْآنَ عَرَبِيٍّ، وَكَلَامَ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٍّ) روح البيان/٦/٣٠٧ واللغة العربية أبلغ اللغات وأغناها أدباً وبلاغةً وجمالاً وكمالاً وسعة وفصاحة وتأثيراً ودقةً، وسمي جبريل روحاً: لكونه نزل بالقرآن، وهو شفاء للأرواح، وسبباً لحياة قلوب المؤمنين، يحييها بالهداية والإيمان والعلم، ووصف بالأمين: لأنه مطيع لله، حريص على تأدية رسالاته إلى أنبيائه بدقة متناهية، وهذا شرط في القيادة والسيادة والريادة.

١٩٧-١٩٩ ﴿أَوْ كَرِهَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا

كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

الاستفهام للتوبيخ والإنكار، أي أو لم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن أنه كتاب الله، ونبوة مُجَدِّ (ص)، أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل المعروفون بالصدق، الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم، كعبد الله بن سلام وغيره، نصّوا على أن مواضع من التوراة والإنجيل (قبل التحريف) فيهما ذكر الرسول (ص) وصفاته، وعلامة للمشركين على صحة نبوتك ورسالتك وأنه مبشر به في كتبهم كقوله (الرَّسُولَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الاعراف/١٥٧، عن ابن عباس (إن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب (المدينة) يسألونهم عن النبي (ص) فقالوا: هذا أوانه وذكروا نعتة وصفته). وبعد ذلك ذكر أن هؤلاء المشركين لا

تنفعهم الدلائل والبراهين فقال ١٩٨- (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) الأعمى: غير العرب، وكل مَنْ لا يتكلم بالعربية، ولو نزلنا هذا القرآن العظيم على رجل ليس من العرب بلغة أعجمية غير عربية، ١٩٩- (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) فقرأه على المشركين ما كانوا به مؤمنين عناداً، وبجحة عدم فهمهم إياه أو أنفة من اتباع العجم، وهكذا اتباع الهوى فإنه يُعمي ويصم ويهوي بصاحبه، كقوله (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) فصلت/٤٤، عن الإمام الصادق (ع) (لو أنزل القرآن على العجم (غير العرب) ما آمنت به العرب، وقد نزل على العرب، فأمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم!) كثر الدقائق ٢٩٠/٧ بل نحن نزلناه بلغة العرب على أفصح رجل من أشرف بيت، ليتدبروا فيه وليكون أقرب إلى تصديقه، كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، ومع ذلك لم يصدّقوه بسبب التعصّب والتحجّر والعناد البغيض!، والذي لا ينفعه القرآن يضره الشيطان. فائدة:

ليست اللغة هي العائق من التعلّم، وهي وسيلة لإيصال المعنى، ولكن العائق أنهم لا يؤمنون بالحق كقوله (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) المؤمنون/٧٠، والحق ثقيل وصعب تحمله، والباطل خفيف وحلو وسهل تحمله، والحق عندهم هو المصلحة، ولا شيء مهم بعد المصلحة!، وهذا هو العناد المبني على الجهل والجهل المركب، فسوف يستدرجهم العناد إلى هاوية العذاب وهم غفلة لا يشعرون عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَسْتَيَقِنُ الْقَلْبُ أَنَّ الْحَقَّ بَاطِلٌ أَبَدًا، وَلَا يَسْتَيَقِنُ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ أَبَدًا) البحار ٧٠ ص ٥٨ عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الْخَيْرَ ثَقُلَ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَدَرِ ثِقَلِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَدَرِ خِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كثر الدقائق ٤٤٨/٣.

٢٠٠-٢٠٢- ﴿كَذَلِكَ سَاكِنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾

يرسم التعبير القرآني البليغ صورة حسية مجسّمة دقيقة ملازمة للتكذيب لهم، وكأنه يتغلغل في أعماقهم ويتمكّن منهم!، هكذا وعلى هذه الهيئة المنكرة للحق، تسرب ودخل التكذيب بالقرآن والجحود بنبوّة مُحمَّد (ص) في القلوب المتحجرة العمياء القاسية الغليظة المغلقة، جزاء إجرامهم وعنادهم (سَلَكْنَاهُ): أدخلناه، أي نظّمنا التكذيب على قياسهم في قلوب المتمردين القاسية، كما يدخل الخيط في ثقب الأبرة وصار وصفاً لها، أي بسبب ظلمهم وجرمهم وعنادهم لا يؤمنون، أما نسبة (سَلَكْنَاهُ) إلى الله تعالى (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) غافر/٣١، لأنه خالق القلوب وهو مسبب الأسباب، على ضوء السبب الذي يفعله الإنسان، كقوله (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) الأنفال/٢٣.

٢٠١- (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) أنهم لا يصدقون بالقرآن، ولا يتأثرون بالأمر الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على عنادهم حتى يهوي بهم إلى دركات العذاب الأليم، عندئذ لا ينفع الإيمان، كقوله (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَدْرَتُهُمْ وَهُمْ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) غافر/٥٢، عن الإمام علي (ع) (عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ) !البحار ٧٠ ص ٩٥.

٢٠٢- (فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً) فيأتيهم عذاب الله (بَغْتَةً) فجأة بلا مقدمات ولا إنذار ولا علامات (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وهم لا يعلمون بمجيئه، وعدم الإحساس به ليكون أبلغ في العقوبة بهم، والعقوبة على قدر الجناية، فائدة: الشيء الطاهر (كالقرآن) لا يتناسب مع خبائثة المجرمين، فتنفر قلوبهم القدرة من قداسة القرآن الطاهرة وعلومه المنيرة، فالجزم لا يتناسب معه إلا العذاب الأليم المفاجئ فيكون (الجزء من جنس العمل).

٢٠٣-٢٠٤- ﴿قَبُولُوا مَلَكًا نَحْنُ مُنْظَرُونَ، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

مُنْظَرُونَ: مهملون (مؤخرون قليلاً) أي فيقولون نادمين وهم يتحسرون، حين يفاجئهم العذاب، هل نحن مؤخرون، أمهلونا ولو قليلاً إلى فرصة أخرى لنؤمن ونصدق، وهذا الصنف من الناس يستدرك أمره بعد فوات الأوان ٢٠٤- (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) استفهام تهديدي للمشركين؟ وفيه توبيخ وإنكار (أي) كيف يستعجل هؤلاء عذاب الله الأليم فيقولون: إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين؟ أما يعلمون (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُؤْمِنُونَ) المعارج/٢٨، طلبتم الإمهال والتأخير عندما رأيتم العذاب، وعندما أنذركم به الأنبياء كنتم به تستعجلون! فما هذا التلون؟ والذي يستهين بعذاب الله هو الذي يستهين بنفسه، ويدل على أنه إنسان تافه ضائع لا يستحق الحياة، والذي يأمن العقاب يُسي الأدب ويتجاوز الحدود، ويتعدّ الخطوط الحمراء كقوله (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩.

٢٠٥-٢٠٧- ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتَهُمْ سِينِ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ﴾

(أَفَرَأَيْتَ) اخبرني يا محمد إِنْ سَأَلْتَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مَعَ رَغَدِ الْعَيْشِ، وَامْتِنَعَةَ الدُّنْيَا سِنِينَ طَوِيلَةً ثُمَّ سَتَنْقُضِي وَلَا يَنْفَعُهُمْ شَيْءٌ، ٢٠٦- (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) ثم جاءهم العذاب الذي وعَدُوا به بعد انقضاء سنوات الإمهال (وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ) وكلما طال عليهم أمد الإجماع في الدنيا، في المقابل ازدادوا عقاباً، وتضاعف العذاب عليهم، نعم ذهب اللذات وبقيت التبعات!، وأيضاً إِنْ طَوَّلَ التَّمَتُّعَ لَيْسَ بِدَافِعٍ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُتَمَتَّعُوا بِنَعِيمٍ قَطُّ كَقَوْلِهِ (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) النازعات/٤٦.

فائدة: (أَفَرَأَيْتَ) ولما كانت الرؤية الحسية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها، شاع استعمال (رَأَيْتَ) في معنى اخبرني، ٢٠٧- (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُتَمَتَّعُونَ) ماذا ينفعهم تمتعهم

حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب أرزاقهم وأموالهم وأولادهم، فلا ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف حزنهم ودفع البلاء والعناء والعذاب عنهم، الذي قضى في حقهم ونازل بهم؟ كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) آل عمران/١٧٨، روي: إنّ عمر بن عبد العزيز كان يقرأ هذه الآية كل صباح إذا جلس على سريره تذكراً بها واتعاضاً. روي: أشدّ الناس غفلة، في غرر الحكم (إحذروا العفلة فإنها من فسادِ الحس) من اغتر بحياته، والتدّبذاته ولذاته، وسكن إلى مألوفه ومعروفه، ولم يبحث نحو الأحسن. فائدة: (متاع الدنيا قليل) النساء/٧٧، متاع الدنيا كله مهما كثر فهو قليل، وليس وسيلةً للتكريم ولا للتعظيم، متاع الدنيا وإن طال سنين فإنه قليل حقير، لأن لذاته قصيرة وتبعاته طويلة، وهو متاع في خصوص الجسد، والذي يعتني بالجسد كثيراً فيكون على حساب جفاف الروح، وقسوة القلب وجهل العقل، والذي يُعنى بالمتاع القليل، فهو على حساب خسارة المتاع الخالد الكثير. عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِأَخْرَجَتْهُ) البحار ٧٣ ص ٨١.

٢٠٨-٢٠٩ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ، ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

وما أهلكنا أمة من الأمم إلا بعد ما ألقينا عليهم الحجة الواضحة، بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين كقوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) الإسراء/١٥، كيلا يقول أهلها (رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) القصص/٤٧، فائدة: أخذ الله على البشر عهد الفطرة الإنسانية، أن يوحدوه ويعبدوه، والفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد مالم تنحرف، وبث دلائل الإيمان في نظام الكون والكائنات، كلها يوحي بوجود الله، فاذا نسي الناس عهد الفطرة وأغفلوا دلائل الإيمان، جاءهم البشير النذير يذكّرهم ما نسوا، عن الإمام الكاظم (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَيْمَةُ) (ع)، (وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ) نور الثقلين ١/٧٧٦، ٢٠٩- (ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) (ذِكْرِي) ليكون إهلاكهم تذكراً وعبرة لغيرهم، ليكونوا على حذر عسى أن يتذكّر متذكر كقوله (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) الغاشية/٢١-٢٢ (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة الواضحة عليهم، لأننا لو أهلكنا دون ذلك النذير لكننا ظالمين، والله تعالى ينهى عن الظلم، فكيف يمارس الظلم؟ كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) يونس/٤٤، وأيضاً (الرسالة) ذكرى توقظ الغافلين (والرسول) يهدي المذنبين (والمرسل) رحمة للعالمين (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩.

٢١٠-٢١٢ ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ﴾

قال المشركون إنّ مُجَدَّ كاهن، وتنزل عليه أشبه بالشياطين، فأكذبهم الله سبحانه: وما تنزلت بهذا القرآن الكريم عليك الشياطين، كما تنزل على الكهنة كما يزعم المشركون، بل نزل به الروح

الأمين من رب العالمين، ليكون مصدر هداية للناس أجمعين، ٢١١- (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) وما يصح ولا يتيسر ولا يستقيم أن ينزل بهذا القرآن العظيم - الشياطين المرجومين الملعونين - ولا يستطيعون ذلك أصلاً، ولو استطاعوا لأنزلوا على أوليائهم من الكهنة مثل القرآن (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) لأن القرآن نور وهداية وعلم ودراية كقوله (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢، ويدعو إلى الحق والخير والصلاح، أما الشياطين فتدعو إلى الضلال والفساد والكفر، وهم أصغر وأحق وأحق ولا يسمح الله التلاعب في القرآن (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) وفاقد الشيء لا يعطيه، وأن الله يجرس (القرآن) ويحمي المعجزة القرآنية ويحفظها بحفظه، كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر/٩ .

٢١٢- (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) إنهم عن سماع الغيب والعلم به (لَمْعَزُولُونَ) وممنوعون ومصروفون كقوله (فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ) الجن/٢٦-٢٧، وهم معزولون أيضاً عن سماع كلام الملائكة والوحي به من الله، لأن السماء (مُلِمَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهْبًا) الجن/٨ (إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْحُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) الصافات/١٠، إنما ينزل بالقرآن الروح الأمين بإذن رب العالمين، وهذا ليس بميسور للشياطين، لأنهم يعيشون في عالمهم الخاص، وهم معزولون عن النفوذ والتحكّم والتلصص في العوالم الاخرى (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ).

٢١٣- ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾

يركز القرآن الكريم في منهجه التربوي على التوحيد الخالص، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ، والذِّكْرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ) وكلما يتعد الإنسان عن التوحيد الخالص يقع فريسة العذاب النفسي بكافة أشكاله ومقاديره، عذاب القلق النفسي، الأرق الليلي، وأمراض الكتابة الخائفة، وإن كان واقعه غنياً في ماله وأولاده وحسن حاله!! أمر الله سبحانه نبيه بأربعة أوامر ونواه مهمة في أربع آيات أولاً: (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك والشرك، أمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده في كل الأحوال، وأيضاً المعنى ظاهر السياق يدل أن الخطاب للرسول (ص) ولكن القصد منه الإخبار بحقيقة مهمة، بأن كل مَنْ يدعو مع الله إلهاً آخر هو (مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) عذاباً معنوياً نفسياً كائناً من كان، وهناك عدة آيات تشير إلى هذه الحقيقة المهمة كقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ وقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا) الإسراء/٢٢ وقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) طه/١٢٤، فهى عن الشرك والعصيان والطغيان، وأمر بإخلاص العبادة لله وحده في كل الحالات كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، والإخلاص أهم غاية وأشرف نهاية، عن الامام علي (ع) (في الإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠.

فائدة: ١- مثل الموحّد والمشرك بالله مثل المشرق والمغرب، فالذي يذهب إلى المشرق فلا بد أن يتعد عن المغرب، فعندما تعبد الله تعالى يجب أن لا تعبد سواه، والذي يشرك بالله ويدعو معه لهاً آخر، من الآلهة الكثيرة المادية المعنوية، فإنه يجمع بين الضدّين، وهذه من صفات المنافقين، لأن قلب الإنسان لا يتحمّل حَبَيْن، ولا يطيق ولاءين، لإلهين مطاعين، كقوله (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) الأحزاب/٤، إنه قلب واحد فلا بد له من منهج واحد يسير عليه، ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم، القلب الواحد لا يعبد إلهين ولا يخدم سيدين ولا يتّجه اتجاهين (فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) فيعاني العذاب النفسي، وأمراض الكآبة وضيق الصدر والقلق النفسي والأرق الليلي، تكرّه أيامه ويتنصّع عيشه كقوله (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) الحج/٢٥، وخير شاهد على ذلك معاناة العالم الغربي، عندما ترك الدين عانى من مرض الكآبة القتاك، والأزمات النفسية الخانقة المريرة والخطيرة، فعاشوا العذاب النفسي! وإن تمتعوا بالرفاه المادي، فلم ينفعهم الرفاه الجسدي مقابل معاناة الكآبة وضغوطات الاحتصار النفسي! فما قيمة رفاه الجسد مع معاناة الروح!؟

٢- والسبب في إفراد النبي بالخطاب على القاعدة التي ذكرها الإمام الصادق (ع) (إِيَّاكَ أَعْنِي وَإِسْمِعِي يَا جَارَةَ) الكافي ٢/٦٣١، وإن الشرك من أقبح السوء، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه؟!، **٣-** أسباب النزول: عرض المشركون على رسول الله (ص) أن يجعلوه رئيساً عليهم إذا دعا إلى أصنامهم وأبدى لها الاحترام فنزلت الآية، لتطلب منه أن يبيس الكفار من تحقيق ما يريدون.

٢١٤ - ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

أمر الله نبيه بأربعة أوامر ونواه مهمة، هذا الأمر الثاني، رسالة الرسول للناس كافة، كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧، وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ سَبَأًا) سبأ/٢٨، فيبدأ بالأقرب فالأقرب بأهله وعشيرته، ثم الأبعد وإنذار جميع الناس، والأقربون أولى بالمعروف، عن النبي (ص) (إبدأ بنفسك ثم بمن تعول). المعنى: (وَأَنْذِرْ) وخوِّف أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله، إن لم يؤمنوا أو آمنوا وضلّوا كقوله (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) الحج/٩٤.

روى أحمد بن حنبل والنسائي والسيوطي والبغوي وابن كثير وغيرهم (مختصر)، أنّ النبي (ص) عندما نزلت هذه الآية دعا بني عبد المطلب وقال: إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأئكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم جميعاً إلاً علياً قال: أنا يا نبي الله، فأخذ النبي (ص) برفقته وقال: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا. تفسير الطبري ١١/١٢٢ دار الفكر، وذكر ذلك عدد من

المفسرين، وإنما أمر (ص) بإنذار أقرابه أولاً لئلا يظن به أحد اللطف معهم، فإذا تشدد على نفسه وأقرابه كان قوله أنفع وكلامه أنجع وأفلح. **فائدة:** ويتبين أن النبي (ص) كيف تلقى الأمر وكيف أبلغه عشيرته الأقربين، وألقى الحجة عليهم ووكّلهم إلى ربحهم في أمر دينهم، وبين لهم أن قرباتهم له لا تنفعهم شيئاً إذا لم ينفعهم عملهم الصالح، كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨، وقال (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) يونس/٤٩، ونفى الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسوله الكريم (ص). في الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع العبد إلا في اتخاذ الأسباب. كقوله (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) المؤمنون/١٠١ وعنه (ص) (كل حسب ونسب ينقطع إلاّ حسبي ونسبي) روح البيان/٣١١/٦، فحسبه تقوى الله، كما قال (ص) (آلي كل مؤمن تقي) المصدر السابق. عنه (ص) (لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ وَأَتُونِي بِحَسَنِ أَعْمَالِكُمْ). في نهج البلاغة حكم ٩٦ (إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعُدَتْ حُجْمَتُهُ (نسبه)، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ عَصَا اللَّهَ وَإِنْ قُرِبَتْ قَرَابَتُهُ). وإنما أمر (ص) بإنذار عشيرته أولاً لئلا يظن أحد به المسامحة معهم، فإذا تشدد على نفسه وأقرابه كان قوله أنفع.

٢١٥ - ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أمر الله نبيه بأربعة أوامر ونواه مهمة، وهذا الأمر الثالث، وهو تعبير جميل رائع، وأسلوب مرن لين أخاذ، وكناية عن استيعابه للناس والتألف معهم، **واخفِضْ جَنَاحَكَ** : أنزل رأفتك ولين أسلوبك جنابك وتواضع، ترفّق بمن اتّبعك من المؤمنين، واشتغل بتربيتهم وحسن خُلُقهم، واجمعهم وضمهم إليك بالرأفة والرحمة كما يجمع الطير أفراده إليه. بخفض جناحه عليهم. فإن ذلك أجلب لقلوبهم وأقرب لمحبتهم ثم يكونون أولى بمعونتك والإخلاص لك، وهو تعبير مستعار من خفض الطائر جناحيه إذا أراد الهبوط، ويضم بجناحيه أفراده في صورة حسية حركية مجسّمة مؤثرة، أي تواضع وأحسن أخلاقك معهم وتحمل منهم الأذى، فإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم واستغفر لهم، كقوله (وَخَفِضْ هُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) الاسراء/٢٤، فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه، ولو أن النبي (ص) متواضع بطبعه مع جميع الناس، فقد كان خُلُقُه القرآن (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) آل عمران/١٥٩، ولكن ذلك تأكيد على كرامة المؤمن، وأن حرمة أعظم من حرمة الكعبة والملائكة والشمس والقمر، فهو سيد الكائنات وأكرم المخلوقات، عن النبي (ص) عن الله (لَا تَسْغِيَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسْغِيَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ) مواهب الرحمن/٩/٢١٥ والمؤمن خيره مأمول، وشره مأمون.

فائدة: ١- (لَمَنِ اتَّبَعَكَ) فإن كل متابع لله ورسوله مؤمن، ولم يكن كل مؤمن متابِعاً، لئلا يغتر المؤمن بدعوى الإيمان وهو بمعزل عن حقيقته، التي لا تحصل إلا بصدق المتابعة، وحسن المعاملة مع الناس، فعلى المؤمن أن ينتقي صحبة الأخيار ويتابعهم بصالح أعمالهم، ويسعى في تحصيل أخلاقهم وأحوالهم. وإن ميزان القرب والبعد من الله ورسوله لا يكون بالنسب والقرباة، وإنما بالطاعة والإيمان والعلم والعمل الصالح يكون القرب، كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ) الحجرات/١٣ وبالمعصية يحصل البعد، عن النبي (ص) (يدخل الجنة من أطاع الله ولو كان عبداً حبشياً، ويدخل النار من عصا الله ولو كان سيداً قرشياً). ٢- إن مُجَدِّاً متواضع بطبعه، ورؤوف رحيم بكل المخلوقات حتى بالحيوان، مرة رأى كلبه مع صغارها فامر برعايتها، ونهى (ص) (عن قتل كل ذي روح إلا أن يؤذي) كنز العمال خبر ٣٩٩٨١، وقال (ص) (رُبَّ دابة مركوبة خير من راكبها)!.

٢١٦- ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

فإن امتنع أقاربك أو قريش عن طاعتك فيما أمرتهم به ودعوتهم إليه، وخالفوا أمرك (فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) فتنبراً من أعمالهم ولا تتبرأ ولا تياس منهم! وانصحهم وعظهم لعلمهم يرجعون إلى عقولهم ويهتدون إلى طاعة الله تعالى.

٢١٧- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

أمر الله نبيه بأربعة أوامر ونواه مهمة، وهذا الأمر الرابع، دعهم وعصيانهم متبرئاً من أعمالهم الضالة (وَتَوَكَّلْ) وتوجه إلى ربك معتمداً عليه، مستعيناً في أمرك كله به، وفوض أمورك إليه، في جميع حالاتك، فإنه (الْعَزِيزِ) القادر على دفع الضر عنك ويقهر أعداءك (الرَّحِيمِ) بك حتى تحقيق النصر عليهم وأيضاً فهو (الْعَزِيزِ) الذي من اعترَّ به عزَّ (الرَّحِيمِ) يرحم من توكل عليه، ويدخلك في رحمته، ويدافع عنك، كقوله (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) النساء/٤٥ في غرر الحكم (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ)، وعلى قدر الثقة بالله يكون التوكل، وعن النبي (ص) (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) كنز العمال خبر ٥٦٨٦، (فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ إِنْتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) مِنْ رَحْمَتِهِ، والتوكل على الله في جميع الأمور، وفي كل الأحوال، درجة جليلة لخواص المؤمنين، وعبادة المقربين، والتوكل: هو اعتماد القلب على الله تعالى، والارتباط الروحي الدائم به في كل حال في الشدة والرخاء، مع الثقة به وبقدرته على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، (فَلَا يَشْغُلُكَ تَوَكُّلٌ مَطْلُوبٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ، وَسَعِي مَدْرُوسٍ) كقوله (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) النجم/٣٩-٤١.

٢١٨-٢٢٠- ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَبْلُوكَ فِي السَّاجِدِينَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الآية تؤكد رعاية الله سبحانه للنبي (ص) وإحاطته بعزته ورحمته وحمايته، أي توكل على الذي يراك ربك (حِينَ تَقُومُ) حين تبلي الرسالة الإسلامية في جميع أحوالك، حين تقوم من فراشك أو مجلسك، أو حين تقوم للصلاة بمفردك، ويراك في صفوف صلاة الجماعة الساجدة التي تقام في أوقاتها الفضيلة، يراك في وحدتك، ويراك في جماعة المصلين، يرى حركاتك وسكناتك كلها، ويسمع خطواتك ودعواتك، وهو معك أينما كنت، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وأنت بعين الله سبحانه في كل حال، فإن هذه الرؤية تستشعر وتستحضر بقرب ربه منه ورعايته له كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) الطور/٤٨ وقوله (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) النساء/٤٥، وخصت الرؤية بحال القيام، لأنها أشرف الأحوال للدلالة على الاستعداد والتهيئة الدائمة، وهي التي يحب النبي أن يراه الله عليها، في الحديث (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) وخصت الرؤية بحال القيام والتقلب بالذكر (حِينَ تَقُومُ، وَتَقْلُبُكَ) لفضلها وشرفهما، لأن من استحضر فيهما قرب ربه منه هابه وخشع له وخشي منه واستقام، ٢١٩- (وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ)

التقلب معناه الحركة والانتقال من حال إلى حال، والسجود أقرب أنواع العبادات وأهمها، ويرى تقلبك وانتقالك وتنوع أفعالك وترددك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام، ويرى تنقلك من حال إلى حال حين تصلي مع المؤمنين جماعة، وعبر عن المصلين بالساجدين، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد (أو) يرى تنقلك بين أصحابك لتسأل عنهم وتتابع أحوالهم (أو المعنى) تقلبك في أصلاب النبيين (ع) عن الإمام الصادق (ع) أن مُجَدِّدًا (ص) تقلب (انتقل) في أصلاب النبيين، نبي بعد نبي حتى أخرج من صلب أبيه، من نكاح غير سفاح، من لدن آدم (ع) ((بحار الأنوار ١٥ ص ٣ وكل من التفسيرين صحيح. وهذا يدل أن أقرب آباء النبي (ص) موحدون كإبراهيم وإسماعيل، وعن النبي (ص) (لَمْ أَزَلْ أَتَقَلُّ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ، حَتَّى أُخْرِجَنِي مِنْ بَيْنِ أَبِي بِنْتِ أَبِي قَتَابَةَ) لم يلتقيا على سفاح قط) روح البيان ٦/٣١٣

فائدة: الآية تعبير قرآني شفاف يوحي بالرعاية الإلهية والإيناس والقرب والعناية الفائقة به من الله تعالى، وهكذا كان رسول الله (ص) يشعر أنه محاط برحمة ربه وفي حمايته الدائمة، وهو مع كثرة معاناته مع قومه كان يعيش لذة القرب من ربه الرحيم، في جو نقاء وصفاء وأنس مع ربه الكريم، وهكذا حال المؤمنين الصادقين مع ربهم، فهم في اطمئنان قلب وانشرح نفس كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨، ٢٢٠- (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) انه تعالى (السَّمِيعُ) لما تقوله (الْعَلِيمُ) بحالك كقوله (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) طه/٧.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ

كَاذِبُونَ﴾

قل يا مُجَدِّد لِكْفَارِ مَكَّةَ (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) هل أخبركم على من تنزل الشياطين؟ أخبركم خبراً نافعاً في الدين والدنيا، تعلمون به الفارق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وهذا ردُّ عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين في قوله (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) الشعراء/٢١٠ ورد الله تعالى عليهم بقوله ٢٢٢ - (تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) أَفَّاكٍ أَثِيمٍ: كذَّاب فاجر أي تنزل الشياطين وتوسوس وتخدع كل كذَّاب فاجر مبالغ في الكذب، كثير الإثم والعدوان، وهم الأشقياء والسفهاء والجهلاء، لا تنزل وتؤثر على الأنبياء والرسل والأتقياء ، ٢٢٣ - (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَاذِبُونَ) (يُلْقُونَ) يصغون - أي الكهنة أو رؤساء الكفار- سمعهم إلى الشياطين ووسوستهم فيتلقون منهم، وأكثر الكهنة كاذبون ومشعوذون في إخبارهم، والمراد من (الأفَّاكِ الأَثِيمِ) هو الكاهن الذي كانت له علاقة بالشياطين، يعني الشيطان يخطط والكاهن ينقذ وساوس الشيطان، ويضيفون الأكاذيب ويزيئونها وينقلونها إلى الناس (أو) (يُلْقُونَ) - أي الشاطين- ما سمعوه ويسترقونه من أخبار السماء بشكل ناقص إلى أوليائهم من الكهنة، لأنهم ممنوعون من الاستماع مقذوفون بالشهب الحارقة، فما استرقوه لا يكون إلا مشوشاً ناقصاً غير كامل، ولذا يتسرب إليه كذب كثير (وَأَكْتُرُهُمْ كَاذِبُونَ) وأكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق خالص، فيصدقون في بعض ويكذبون في بعض آخر، فيختلط الحابل بالنابل، والصح بالخطأ، والحق بالباطل، كقوله (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) الأنعام/١٢١ أما مُجَدِّد (ص) (الرحمة المهداة) ليس بكذَّاب ولا أَثِيم، وما يوحي إليه من كلام ليس بكذب، فليس ممن تنزل عليه الشياطين، وإنما تنزل عليه الملائكة كما أنزل الله عليه القرآن الكريم.

فائدة: قال المشركون: إنَّ مُجَدِّدًا والكهنة على حد سواء، لأن كليهما تنزل عليهما الشياطين، فلا تأمل منهما خيراً، فأراد الله بهذه الآيات المباركات أن يميز بينهما، بأن جبريل ينزل على مُجَدِّد (ص) برسالة الله تعالى، والشياطين تنزل على الكهنة، عبر الوسوس المزخرفة الخادعة، عندما يسترقون السمع من الملائكة، فيحجبون بالرجم فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من عالم الغيب، ثم يضيفون عليها من الكذب ويشوهون الحقائق على أوليائهم الكهنة والمتنبئة.

(وَأَكْتُرُهُمْ كَاذِبُونَ) وأقلهم صادقون، فإن من الجن مؤمنين، يلزمون أنفسهم بالصدق، شأنهم في هذا شأن المؤمنين الصادقين، وهم القليلون من الناس. وبعد ذكر الفارق بين مُجَدِّد (ص) والكهنة، وهنا سيذكر الفارق بينه وبين الشعراء، يعني ليس القرآن بشعر ولا مُجَدِّد بشاعر، لأن الشعراء يتبعهم الضالون، وأتباع مُجَدِّد مهتدون راشدون، فقال:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

الغاوون: من الغي ضد الرشد، وهم المخدوعون بالشیطان، من القصاصين، المغرورون بأنفسهم الأمانة بالسوء، أهل الجهل والضلالة، مما يختص به الشعر المبني على الخيال، والبعيد عن الواقع. **المعنى:** قال المشركون: إِنَّ مُجَدِّدًا شَاعِرًا، والشعراء يبحثون عن الدنيا والمال والجاه، ومُجَدِّد يدعو الى الله، فرد الله سبحانه عليهم أن الشعراء المنافقون المتقلبون يتبعهم (الْغَاوُونَ) أهل الجهل والضلال، فهم أنفسهم غاوون ويغوون غيرهم، ويعيشون الضلال ويضلون غيرهم باستحسان باطلهم، وتجد أتباعهم كل غاو وضال وفساد فذمتهم بفعلهم ومتابعيهم، والذين آمنوا بمحمد (ص) واتبعوه عن علم بصدقه ودليل على نبوته، وأنتم تعلمون ذلك كقوله (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) يس/٦٩، عن النبي (ص) (إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لِحِكْمًا، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) البحار/٧٩/٢٩٠، عن الإمام الباقر (ع) (هل رأيت شاعراً يتبعه أحد؟) إنما هم قوم تفقهوا لغير الدين فضلوا وأضلوا) البحار/٢/١٠٨، فائدة: ١- يذكر التاريخ أن الأمراء كانوا يحتظنون الشعراء الذين على شاكلتهم، فيكون الشاعر ظالماً كاميره عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ (وَالسَّاكِنُ عِنْدَهُ، وَالْحَاضِرُ لَهُ) شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) فِي الظُّلْمِ البحار/٧٥/٣١٢، كان الشاعر يجهد نفسه لنظم قصيدة أو عدة أبيات يمتدح بها الطغاة، وأنهم قد لا يؤمنون بما يتكلمون، (يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)، وهذا دليل أنهم أتباع الهوى والشیطان والمصالح الشخصية، ٢- ومع هذا فالإسلام لا يجارب الشعر لذاته، إنما يجارب المنهج الطوبائي المتضخم المغالي الذي سار عليه الشعر، أما إذا كان الشعر منبثقاً عن عقيدة صالحة، ومترجماً لفضيلة، وموفقاً لمبادئ الإسلام وحكمه فإنه أمر يعتز به.

٢٢٥-٢٢٦- ﴿الْمُرْتَدُّونَ فِي كُلِّ وَادٍ يَهُيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

(أَلَمْ تَرَ): ألم تعلم علم اليقين، أي ألم تر رؤية علمية استدلالية، علماً يتساوى فيه الدليل العلمي مع الدليل الحسي الواقعي، (فِي كُلِّ وَادٍ): في كل فنون القول وطرقه، الذي فيه لغو وهوى ومبالغة في التشبيه، وتطرف في الوصف، (يَهُيمُونَ): يتخيلون وينظمون القوافي، يستغرقون في ضلالهم ويذهبون في خيالهم الواسع المتنوع في كل واد من وديان الشعر، الذي يحرك الشعور والمشاعر، ويجحزون في تصورات لا حدود لها ولا قيود، مبالغتهم غير مبالين بما نطقوا به من الغلو والباطل، من غير أن يقفوا على حد بين مدح وقدح، وغزل وسخرية ومرح وحزن وخرافات وانحرافات، وحب الغلو في تمجيد الحكام، وتعظيمهم وتكريمهم طلباً للمنافع الشخصية، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

المعنى: (أَلَمْ تَرَ) أيها السامع العاقل أن الشعراء (فِي كُلِّ وَادٍ يَهُيمُونَ) يسلكون كل طريق، ويتجاوزون الحدود المعقولة، وهي الصفة الغالبة عليهم، ويمدحون الشيء بعد أن ذموه، ويعظمون الشخص بعد أن احتقروه، فهم يتبعون المزاج، فلا منهج لهم ولا هدف إلا الهوى والأنا والمنى، فهم يعيشون العواطف والانفعالات والتقلبات المختلفة تحت وقع مؤثر من المؤثرات المتنوعة،

فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين، وأين هذا من القرآن الكريم القائم على أساس الحق والعدل والواقع ٢٢٦- (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) وأنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، وأنهم يكذبون، فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه، إذ يعظون الناس ولا يتعظون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملونه، كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/٢-٣ ، في نهج البلاغة خطبة ١٢٩ (لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِيَيْنِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ) وفي ذلك دلالة أنهم يؤمنون بمصالحهم الشخصية قبل كل شيء، لأنهم منحرفون عن سبيل الفطرة الإنسانية السليمة. أما محمد (ص) فإنه يقول ما يفعل ولا يقول ما لا يفعل، فيكون فعله مطابقاً لقوله، وقوله ترجماناً لفعله، ولا يخالف فعله قوله، وهذه الصفات الجمالية تخالف صفات الشعراء. كقوله (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) يس/٦٩.

٢٢٧- ﴿إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْنَا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

استثنى الله سبحانه من الحكم العام من الشعراء، الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم، والذين يعبرون عن أماني المستضعفين ويقفون مع المظلومين، ويثرون على الطغاة والعتاة، وعلى الجهل والتخلف، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ونصرة الحق عندهم فوق المصالح الشخصية، هؤلاء سلاحهم بلسانهم، ورب لسان كالحسام أو أشد وقعاً، (وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله كثيراً، بل كان شعرهم في الثناء على الله وفي مناجاته، وفي الحكمة والمصلحة العامة والموعظة الحسنة ومدح النبي وآله (وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) وهم شعراء المسلمين، انتصروا بشعرهم لأنفسهم ممن اعتدى عليهم وهجاهم من الكفار، وهو نظير قوله (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) النساء/١٤٨ وقوله (وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ) الشورى/٤١، (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا) وعيد عام لكل ظالم، أي سيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله، ومعهم الشعراء الغاؤون المتملقون الظالمون، الذين يعتدون بشعرهم الآثم على الناس (أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)؟ أي مرجع فظيع يرجعون إليه بعد الموت يوم المعاد والحساب، وأي مصير يصيرون إليه وهو شر مصير، وسينتقم الله ممن ظلم وتجاوز الحدود كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١ (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) آل عمران/٤٠.

فائدة: في الحديث (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) روح البيان/٦/٣١٦، وفي الحديث (ليس المراد بالشعر المذموم الكلام المنظوم باعتبار نظمه، كيف وأن من الشعر لحكمة يعني من المنظوم..) وإنما الذم فيه وهو ما يبني على النفاق والكذب والمغالاة ومجاوزة الحدود. فالإسلام لا يجارب الشعر والفن لذاته، وإنما يجارب الانفعالات التي لا ضابط لها ويجارب منهج الأحلام والخيالات الخادعة، والأوهام الكاذبة التي تشغل الناس عن تحقيقها، والخلاصة: إن

للإسلام تصوّراً خاصاً للحياة كلها، وتصوراً للعلاقات والروابط فيها ، فأبما شعر نشأ من هذا التصوّر الإسلامي المستقيم، فسر الشعر الذي يرضاه الإسلام ، وينسجم مع الفطرة والعقل، وينطبق مع حركة الواقع .

وَأَخِرُ دَعْوَانَا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول: (فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨

تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرُ) لسورة الشعراء، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل فالحمد والمنة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٩/٨/٢٠١٨م، المصادف ٢٥/شعبان/١٤٣٩هـ في العراق، الكاظمية، ونستعين بالله تعالى على تكملة السور القرآنية الكريمة، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة:

مكية، وتعني بأصول العقيدة والتوحيد وأهمية الرسالة والنبوة والعالم الآخر، وأقامت الدلائل والبراهين على وجود الله، وتناولت بعض مشاهد يوم القيامة، وتناولت السورة القرآن العظيم المعجزة الكبرى، وذكرت بعض قصص الأنبياء، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية وهي (الشعراء والنمل والقصص) ووضعت في المصحف متتالية، ويكاد يكون منهاجها واحداً، وذكرت قصة داود وولده سليمان مع بلقيس ملكة سبأ، وفيها مغزى دقيق ومعنى عميق لأصحاب الجاه والحكام والملوك، فقد اتخذ سليمان أملك وسيلة شريفة للدعوة إلى الله، فأقام حكم الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وكيف يُسلم وجهه لله، وهكذا كان موقفه مع (بلقيس) تركت الكفر وأعلنت إسلامها مع قومها. وسميت سورة النمل: لأن الله ذكر فيها قصة النملة وشكر سليمان لله على منحه من الفضل، وروي: أن سليمان آخر نبي يدخل الجنة لما آتاه الله الملك! عدد آياتها ٩٣، رقمها ٢٧، الجزء التاسع عشر (فضلها): (عن رسول الله (ص) (من قرأ طس سليمان، كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق سليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله) نور الثقلين ٤ ص ٧٤.

ملاحظة (هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقرأ (طاء - سين) الحروف المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن، فهو مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية المعروفة، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في العلوم والأخبار والأحكام والبلاغة والفصاحة (وقيل) إنّ من أهداف هذه الحروف جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، أنظر أول سورة البقرة (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ) تلك إشارة إلى آيات هذه السورة الكريمة، هي من آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه (وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) مبين للحق من الباطل، وآيات كتاب واضح لمن تفكّر فيه وتدبّر، أبان الله فيه الأحكام وهدى به الأنام، وتحققت به الحجة والبرهان، والقرآن والكتاب بمعنى واحد، فهو قرآن لأنه مقروء، وهو كتاب لأنه مكتوب، وهو مبين لأنه واضح كقوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) القمر/١٧، والقرآن واضح في نفسه وموضح للحق من الباطل، والحلال من الحرام، والوعد من الوعيد، والأوامر من النواهي، لذلك صار القرآن فرقاناً يفرّق بين الصحيح والخطأ في كل شيء، كقوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان/١. فائدة: القرآن مصدر هداية للناس كافة (هُدًى لِلنَّاسِ) البقرة/١٨٥، لكن الذي يهتدي به ويستذوق حلواته، هم الذين يفتحون عليه، فهو يعطيهم من الهداية بمقدار ما يعطونه من أنفسهم من اهتمام، فهو يفتح عليهم بمقدار ما يفتحون عليه، فإن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وكأنه كائن حي حركي، له قدرة قيادية فائقة على قلوب المؤمنين، فيؤثر فيهم كتأثير القادة الأحياء الداعين والواعين المخلصين الأكفاء!.

٢- ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

الآية بهذا السياق أبلغ مما لو قيل (فيه هدى وبشرى للمؤمنين) فالتعبير القرآني على هذا النحو يجعل ماهية القرآن ووظيفته (هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) بجميع آيات القرآن، وفي التعبير الآخر في بعضه، في السياق القرآني يجعل في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والبشرى والمعرفة، والإيمان وهو مفتاح هذه الكنوز، ولن تفتح كنوز القرآن الغنية إلا بمفتاح الإيمان والعلم، ولكن حين أصبح القرآن يصل إلى الأذان ولا تتعداها إلى القلوب، فلم يصنع شيئاً، لقد ظل كنزاً بلا مفتاح!!، تلك آيات القرآن (هُدًى) يرشد من طلب الهداية إلى الحق والخير، الهادي للمؤمنين إلى صراط مستقيم (وَبُشْرَىٰ) والمبشّر لهم بجنات النعيم، خصّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به، لأنه يهديهم للتي هي أقوم، يهديهم إلى حياة أفضل، ويهدي كل من أراد هذه الحياة، فيبشرهم بحسن العاقبة، لأنه يصل حياته الدنيا بالحياة الآخرة، فيعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها، وللحياة والموت حقهما، والروح والجسد حقهما والأمل والعمل حقهما، ومعنى هداية القرآن لهم وهم مهتدون، أنها تزيدهم هدى كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادُتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) التوبة/١٢٤، وتخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى، تكمن حقيقة ضخمة، فإن من اهتدى فله البشرى، فبمقدار ما يهتدي تكون له

البشرى، ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان، والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن. والحياة سرٌّ غامض لا يُفهم معناها إلا من خلال الإيمان والعمل بالقرآن، كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ) النساء/١٧٥ ولما كان وصف الإيمان ذي العطاء الخفي، ذكر ما يلزمه من الأمور الظاهرة فقال:

٣- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

من صفات المستبشرين بهداية القرآن، ولا بد للإيمان من ظهور آثاره، ومن أهم آثار الإيمان وعلاماته، الذين (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) يؤدون الصلاة أداءً كاملاً ودائماً، بخشوعها وآدابها وأركانها وأوقات فضيلتها، الذي هو روحها باستحضار قرب الله منهم، تتحقق به حكمتها وأثرها في الشعور والسلوك والأقوال والأخلاق، كقوله (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) العنكبوت/٤٥ (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) يدفعون زكاة أموالهم طيبة بما نفوسهم يؤدونها لمستحقيها باستمرار، وإنما خصّ الصلاة والزكاة بالذكر من بين كل الأعمال الصالحة هنا، لكون كل منهما ركناً في بابه، (فالصلاة) عبادة بعلاقة روحية عمودية عليا مع الله تعالى (والزكاة) عبادة بعلاقة مادية أفقية مستقيمة مع الناس، (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) يصدقون بالعالم الآخر تصديقاً جازماً حتماً لا يخالجه شك أو أرتياب، فلا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح. ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو إيمان ثابت فاعل ومستقر، جاءت الجملة اسمية وأكدت بتكرير الضمير (هم) إذا^(*): الإيمان باليوم الآخر يهذب النفوس ويربيها نحو الاستقامة. وإعطاء الزكاة تُطهر النفوس وتكون خالصة زاكية لأصحابها، لذلك صار الإيمان عمل كله والقول بعضه، وليس الإيمان لقلقة لسان، وإنما عمل بالأركان، ومن أهم العبادات الصلاة والزكاة، وتدفعان إلى حسن العبادات وحسن المعاملات، والإيمان بالآخرة يعلمك كيف تنتهي، فيعرفك كيف تبدأ! هؤلاء المؤمنون القائمون بمنهج الله هم الذين تفتح قلوبهم للقرآن، فإذا هو هدى وبشرى، وإذا هو نور الهداية في أرواحهم وحركة الدراية في حياتهم، وإذا هو زادهم الذي به يهتدون، ومن خلاله يستبشرون. كقوله (وَتَعْبِيهَا أَذُنٌ وَأَعْيَةٌ) الحاقة/١٢، عن النبي (ص) (هَمَّةُ الْعُلَمَاءِ الْوَعَايَةُ) (الدراية) وهمة السفهاء (الجهلاء) (الرواية) كنز العمال خير ٢٩٣٣٧.

٤-٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسْرُونَ﴾

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) لا يصدقون بالبعث والنشور بعد الموت (رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) (يَعْمَهُونَ) يعمّهون: العمه: الضلال، وعمى البصيرة، العمى: للبصر، (يَعْمَهُونَ) يضطربون لا

يميزون بين الحسن والقبیح، ينحرفون عن طريق الهدى، يتحیرون في سبل الضلال، أي زینا لهم أعمالهم القبيحة بترك الشيطان يزين لهم سيئاتهم، فدخل من هوى أنفسهم الأمانة بالسوء، فأروا السوء حسناً، والشر خيراً!! فتكون السيئات مشتبهة لطبايعهم، محبوبة لأنفسهم، (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) متحیرون في الشبهات والالتباسات، لا يرون ما فيها من شر وسوء، قد انقلبت عندهم الموازين، وتغيرت عليهم المعايير والحقائق فأروا الباطل حقاً والحق باطلاً، فلا يباليون أسخط الله عليهم أم رضي عنهم، فهم لا يصدقون بأن الله أقرب إليهم من حبل الوريد، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤.

فائدة: مَنْ ينكر الآخرة وعقابها يرى الدنيا فرصته الوحيدة، للارتفاع والاستمتاع بكل ما يقدر عليه خيراً كان أم شراً، فيتمادى في غيّه ويتيه في ضلاله وهو عند نفسه من المحسنين صنعاً، وهكذا (الأحمق: إذا أمنَ العقابَ أساءَ الأدبَ) وأن الله سبحانه قادر أن يردع المجرم بالقوة عن جريمته، ولكنه لا يفعل لأن حرية الاختيار حق طبيعي لكل إنسان، وبها يكون مسؤولاً عن تصرفاته، وعليه يكون معنى (زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ) تركناهم وما يعملون فجعلهم الشيطان يعمهون ويتحیرون - بعد بيان الحجة والتحذير من العصيان - كقوله (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣، ولم نردعهم عن الحرام بالقهر والقوة، والفاء (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) لترتيب المسبب عن السبب، والسبب بيد الإنسان وهو مسؤول عنه والمسبب هو الله تعالى، ويكون المسبب على ضوء حركة السبب، لكرامة الإنسان على الله تعالى.

(الخلاصة) الآخرة الدار العليا، والدنيا الدار السفلى، فالذي لا يؤمن بالآخرة سوف يتعلق بالدنيا وما ديتها كالغريق! وحب الدنيا يعمي ويصم فيتعدى الحدود (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٢٩، فيكون (الإيمان بالآخرة ميزاناً دقيقاً: فمن وقى، استوفى) فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا تليق بهم الهداية، وتناسب معهم الغواية لميولهم إليها، فتزين أعمالهم الدنيوية لهم، فيعتبرون الفساد شطارة والسرقه مهارة، ولكن حقيقة الأمر أنهم في ضلالهم ضائعون، لا يفكرون في عاقبة أمرهم، ويغفلون عما يُراد منهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولكنهم من الأخسرين أعمالاً، راجع الكهف/١٠٣. عن النبي (ص) (حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) شرح النهج ١٠ ص ١٦، كقوله (أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨، ٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) وهذه عاقبتهم السيئة، لهم أشد العذاب في الدنيا والسوء: له معنى عام، وهو كل ما يسوء الإنسان ويغمته، (وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) أشد الناس خساراً لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، فخسروا سلامة قلوبهم، وخسروا الجنة ونعيمها المقيم (فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!) البقرة/١٧٥، وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم الجحيم المقيم، لأن سائر العصاة لهم حسنات وسيئات يجازون بها، وأما هؤلاء فلهم سيئات يجازون

عليها، بينما حبطت وبطلت حسناتهم كقوله (أَوْلَيْكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) التوبة/١٧.

وقوله (إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) الزمر/١٥، حصر الخسران فيهم بكونهم خسروا الإيمان، وخسروا بفقدانه كل شيء، فما الفائدة أن أربح كل شيء، وأخسر أهم شيء، وهي نفسي وأهلي؟!، فائدة: الإيمان بالآخرة صمام أمان يُهْدِبُ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ، ويضمن الاعتدال والاستقامة في الحياة، وفي الاستقامة السلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، والله تعالى جعل النفس مستعدةً للهداية إن تفتحت لدلائل الهدى، مستعدة للضلال والعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها، ومشية الله نافذة وفق سنته الثابتة، التي خلق النفس البشرية عليها في حالي اختيار الاهتداء أو العماء (زَيْنًا هُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) النمل/٤، فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنذت سنة الله في أن تصبح أعمالهم السيئة وشهواتهم المحرمة وهواهم ومناهم، مزينة لهم حسنة عندهم، وهذا هو معنى التزيين الخادع في هذا المقام!

٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾

لَتَلَقَى: لتتلقى، ولتُعْطَى بطريق التلقية والتلقين والإلهام والفهم والحفظ وعدم النسيان، كقوله (سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعلى/٦-٧، ولفظ (لَتَلَقَى) يوحي بالشفافية المقدرة، والرعاية المدبّرة، والحماية الخاصة والإنسانية المميزة من الله لنبيه المصطفى (ص) الذي تنزل القرآن على قلبه، من مقام عالٍ مشرف، وجعله الله تعالى بحكمته مستعداً لقبول فيوضات القرآن بلا واسطة، كقوله (فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الدخان/٥٨، والمعنى: وإنك أيها الرسول (لَتَلَقَى) لتحفظ القرآن وتعلمه وتعيش معه وتستوعبه بطريقة إيجابية خاصة، حتى يكون خُلُقُكَ القرآن كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤ عن الإمام علي (ع) (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، فَإِنَّهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ وَنَاطِقٌ لِمَنْ اسْتَنْطَقَهُ) والذي يحمله يتمكّن من استنطاقه وتلقيه وحفظه والتفاعل معه والقدرة على تعليمه وتشويق الناس إليه. من عند (حَكِيمٍ) بتدبير خلقه (عَلِيمٍ) بأحوالهم ومصالحهم (حَكِيمٍ عَلِيمٍ) إشارة إلى ما في القرآن من حكم وعلوم، حكم في تقرير الحقائق، وعلوم تحيط بكل شيء، وتكون العلوم موصولةً بين الماضي والحاضر والمستقبل، لا ينقضها ناقض ولا يوهنها موهن، كقوله (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) الأنعام/١١٥.

فائدة: (القرآن الكريم) منهج حياة متكامل، عظيم في محتواه، قيم في معناه، متسام في مغزاه، بليغ في مبناه، عميق في دلالاته، حكيم في آياته، عليم في علومه، يُهْدِبُ الإنسان باعتدال، فيعطي للجسد حقه وللروح حقه، ولا يمكن أن يكون متكاملًا بهذا الشكل، إلا إذا كان من عند الله الحكيم العليم، وتتجلى حكمة الله وعلمه في هذا القرآن، العظيم في منهجه، والمتسامي في

توجيهاته، والميسر في تكاليفه، البليغ في تعبيره، الكريم في عطائه... كقوله (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/٨٢.

٧- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ إِتْيَافٍ بِشَهَابٍ قَبَسَ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

آنست: أبصرت إبصاراً لنار حصل لي من إحساسه بها، أنساً وهو في وحشة من صمت الصحراء وظلام الليل، المعنى: اذكر يا محمد موسى حين قال (لأهله) لامراته وهو يسير معها في ليلة مظلمة باردة، بعد أن تزوجها من أبيها شعيب بمدين، وبقي عنده عشر سنين يرعى غنمه، وينهل من عمله، إني أبصرت ناراً من بعيد وقد ضلّ عن الطريق قاصداً مصر (سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ) عن الطريق الذي ضللناه، إن وجدت عندها إنساناً (أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ) أو على الأقل آتيتكم (بِشَهَابٍ) بشعلة مقتبسة مأخوذة من النار (لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) لكي تستدفئوا بها، وكانت النيران توقد في البرية فوق المرتفعات لدلالة الناس، ويظهر من الآية أن النار إنما ظهرت له (ع) ولم يشاهدها غيره! وذهب ليأتي بشعلة من النار، فرجع بالنبوة ولقّب كليم الله، وهكذا تفعل المفاجآت والمخبات، عن الإمام علي (ع) (كن لمن لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج يقبّس لأهله ناراً فكلمه الله ورجع نبياً) البحار ١٣ ص ٣١.

فائدة: من أسباب تكرير قصة موسى: إن لهذه القصة من العبر والمواعظ الكثيرة، فإنها تكشف عن سنة تاريخية تنفع الناس، وتحرك مشاعرهم وتزيد وعيهم، وتعرفهم أن للباطل جولة ومهلة وللحق دولة مستقلة، وإن لكل فرعون موسى، ولكل نمrod إبراهيم، وإن لكل ظلم نهاية، والسعيد ممن يكون سبباً لأتقاء الظلم، صحيح تكررت قصة موسى، ولكن عُرضت بأساليب مختلفة، وبلقطات متنوعة، مما يجعل لكل أسلوب جانباً مهماً من القصة، وبمجموع هذه الصور واللقطات تتكامل أهداف القصة ومواعظها.

٨-٩- ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فلما وصل إلى مكان النار رأى منظرًا عظيمًا، حيث رأى النار تشتعل في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة وحُسنًا، فلم تكن النار بحرارها تحرق الشجرة، ولا الشجرة برطوبتها تطفئ النار! فتعجب من هذا المشهد المدهش الرائع، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، فلم تكن هذه النار ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج، فألقى الله عليه السكينة، وأسمعه تسييح ملائكته، وجاءه النداء العلوي الرحيم الكريم الشفاف (نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) نودي من جانب الطور الأيمن بأن هذا مكان مقدس مبارك، أي تبارك من تجلى لك بكلامه من النار في الظاهر، والنور في الباطن، وبارك فيك وفيمن حول النار معك من الملائكة، فكان لهذا النداء بشارة لموسى وأنس لنفسه ومقدمة لمناجاته (وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) تقدّس الله رب العزة وتنوّ العلي الشأن، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في صفاته ولا

في أفعاله، كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ وتنزيهه سبحانه عما لا يليق به في ذاته وحكمته، وإيدان بأن مدبر ذلك الأمر هو ربُّ العالمين، وهو الذي يكلمه لا شعلة نار ولا شجرة، وهذا إعلان لربوبيته جلّ جلاله، في الحديث (إِنَّ اللَّهَ يُرِي هَيْئَةَ ذَاتِهِ كَيْفَ يَشَاءُ) روح البيان/٦/٣٢٢، ٩- (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يا موسى إني أنا الله (الْعَزِيزُ) الذي لا يغلبني شيء فيما أريد من خلق وتدبير وتقدير (الْحَكِيمُ) الذي خلق كل شيء ودبره على الحكمة والمصلحة والاتقان، وهو المستحق للعبادة وحده فلا تشرك في عبادته أحداً.

١٠-١١- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتْرَكَةً أَنهَآ جَانٌّ وَلَىٰ مُدَبِّرًا لِّمَا يَعْبَبُ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ونودي أن (وَأَلْقِ عَصَاكَ) لتري معجزاتك بنفسك فتأنس بها، فلما رآها (تَهْتَزُّ) هزة المفاجأة المدهشة، وتتحرّك حركة سريعة كأنها حيّة أو ثعبان سريع الحركة، فَشَبَّهَ الحية العظيمة بالجان في سرعة وخفة حركتها، والجان نوع من الحيات الخفيفة والمخيفة، (وَلَىٰ مُدَبِّرًا وَمَا يُعْقَبُ) ولّى مدعوراً منهزماً (وَمَا يُعْقَبُ) ولم يرجع ولم يلتفت لما فيه من الخوف والفرع، لحقه ما يحصل من طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً غريباً عليه، وهو انقلاب العصا حية تسعى ولهذا ناداه ربه (يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ) أقبل ولا تخف من تلك الحية لأنك بحضرة الله وأمانه (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) فأنت رسولي من الذين اصطفتيهم للنبوة، ومن صفات رسلي لا يخافون غيري، وأنهم آمنون في حضرتي، في غرر الحكم (إِذَا خِفتُ الْحَالِقَ فَرَرْتُ إِلَيْهِ، إِذَا خِفتُ الْمَخْلُوقَ فَرَرْتُ مِنْهُ) والسبب الأساس لعظمة النبي عند الله هو شدة خوفه منه سبحانه، إنه خوف هيبه وحب لا خوف رهبة ورعب، كقوله (وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) الرحمن/٤٦، ومن خاف ربه اتقاه، وعلى قدر خوفه من ربه تكون تقواه، عن الإمام علي (ع) (إن العبد إنما يكون حسنٌ ظنّه بربه، على قدر خوفه من ربه، وأن أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً لله) التفسير المبين ص ٤٩٥.

١١- (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ)

الاستثناء منقطع، أي لكن من ظلم نفسه من المرسلين (وغيرهم) بتركهم العمل ما هو أولى وأهم، في غرر الحكم (مَنْ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ الْمَهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) فيعتربه الخوف، ويفقد الاطمئنان والأمان، كما حصل لآدم ويونس وداود وموسى، وتعبير الظلم لقول آدم (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) الأعراف/٢٣ وتعبير موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) القصص/١٦ وترك الأولى منهم كترك الصغيرة منا لأن (حسنات الأبرار سيئات المقربين!)، (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ) إلا إذا تاب واستغفر واستقام، وبدل عمله السيء إلى العمل الحسن الصالح (فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) عظيم المغفرة واسع الرحمة، كقوله (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) طه/٨٢ وقوله (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا) النساء/١١٠. فائدة: ١- إنما يخاف

الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم من غير المرسلين، وكل من يظلم نفسه فإنه يظلم غيره، ومن ظلم فقد كُرهت أيامه، وتنقص عيشه، وتهدد مستقبله الأخروي، والظلم في الدنيا يتحوّل ظلمات في الآخرة. وكل من يقترف أية نسبة من نسب الظلم، فإنه يعتريه الخوف بنفس مقدار الظلم المرتكب وينال ضرره ولو بعد حين، ٢- من طبيعة الأنبياء (ع) أنهم لا يخافون إلا من الله تعالى، وهكذا طبيعة الدعاة إلى الله المخلصين له والمبلّغين رسالته، فإنهم (إذا فرّوا إلى الله عما سواه آمنهم الله مما سواه) كقوله (إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) آل عمران/١٧٥.

فائدة: إذا: لماذا هرب موسى خوفاً من الحية؟ **والجواب:** لإظهار أن الخوف أمام الخطر طبيعة إنسانية، والتوكل على الله يعطيك قوة هائلة وإرادة صلبة لا تهزها الهزاهز، عن النبي (ص) (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) كرز العمال خير ٥٦٨٦، كقوله (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) النساء/٤٥، وكلما زاد التوكل ازدادت قوة النفس وإرادتها، بشرط ألا يشوب هذه القوة عامل مثبط من ذنب صغير أو كبير، وكلما كانت الذنوب كثيرة وكبيرة كان العائق أكبر، أمّا موسى (ع) فكان مستشعراً بنفسه بالقتل غير المتعمد للقبطي، وهذا الشعور النفسي أخذ منه مأخذه، فأدّى أن يهرب من الحية بمقدار شعوره بالذنب!

١٢-١٣- ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

هذه معجزة أخرى لموسى (ع) أي وأدخل يدك يا موسى (في جيبك) في فتحة الصدر من ثوبك ثم أخرجها، تخرج مضيئة ساطعة ذات شعاع تتلألأ كالبرق الخاطف، دون مرض أو برص ونحوه، بل عن معجزة (في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه) وهاتان المعجزتان أوليتان (العصا واليد البيضاء) من مجموع (تسع آياتٍ) أي معجزات سادعك بها لاحقاً بالتدرج حسب الحاجة، وهي ذات دلالات عامة وجعلتها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه الطغاة، وهي (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والجذب ونقص الثمرات، والدم وقلق البحر وانفجار الماء من الحجر وإنزال المن والسلوى) (إنهم كانوا قومًا فاسقين) خارجين عن طاعة الله، ولوثوا فطرتهم وأغلقوا العقل عن التفكير السليم، إلى أقبح وجوه الكفر والطغيان، (مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ) ١٣- (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) وصف الآيات بأنها مبصرة واضحة، فيتأثر بها كل من له عينان فتحرك مشاعره، أي فلما رأوا تلك المعجزات واضحة الدلالة، تبصّر الناس وتقودهم إلى الهدى والتصديق بنبوة موسى ومع ذلك (قالوا هذا سحرٌ مبينٌ) أنكروها وزعموا أنها سحر واضح، ومن أشكال المشكلات الاختلاف في البديهيّات، وإنهم قالوا (مبينٌ) سحر ظاهر لكل أحد، وهذا من أعجب العجائب الآيات المعجزات الخارقات المبصّرات تجعل من

بين (الخزعبلات) والخرافات والأباطيل، وفي ذلك دلالة على الاستكبار والطغيان، في غرر الحكم (الظَّالِمُ طَاغٍ يَنْتَظِرُ إِحْدَى النَّفْمَتَيْنِ).

١٤ - ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

(وَجَحَدُوا بِهَا) وأنكروا وكذبوا بتلك الخوارق بألسنتهم، (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ) وقد استيقنوا بقلوبهم، وبقناعة أنفسهم، وتثبتوا أنها من عند الله، وليست من قبيل السحر، والجحود هو إنكار ما استيقنه القلب القائم على المكابرة، وإنكار البديهيات من أشكال المشكلات! (ظُلْمًا وَعُلُوًّا) جحدوا بها ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتباع الحق والإيمان، وأي ظلم أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها علامة وآية بيّنة ومعجزة خارقة واضحة لا ريب فيها، أنها جاءت من عند الله تعالى، ثم يكابر ويسمّيها سحراً! لأنهم يحسّون الخطر فيه على وجودهم وعلى مصالحهم، ولهذا قال (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) أنظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان عاقبة الطاغين؟ هو الاغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة كقوله (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرًّا مَّابٍ) ص/٥٥.

فائدة: (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ) إنما استيقنها قلبهم، لأن كل معجزة خارقة رأوها استغاثوا بموسى، وسألوه بأن يكشف عنهم فكشف عنهم، فظهر لهم بذلك أنها من عند الله تعالى، ما أقبح المرء أن يُعنى بمظهره ولم يُعن بجوهره، فيبق قبيحاً في داخله وإن كان جميلاً في ظاهره، ومن تعالى عن الحق استهواه الباطل حتى يخذله! كقوله (الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ) مَجَّد/٢٥ ولعلّ تكرار قصة موسى: يوقظ الغافلين، في غرر الحكم (احذروا الْعُقَلَةَ فَإِنَّهَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ) ويكشف لهم عن نظام سنة الله في المفسدين، كفرعون وأمثاله من الطغاة الحاكمين في كل زمان ومكان، كقوله (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) المؤمنون/٤٦.

١٥ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(قصة داود وسليمان) والله لقد أعطينا داود وأبنة سليمان (عِلْمًا) أبرز النعم وهي نعمة العلم النافع الصالح الواسع المفيد في الدنيا والدين، ومنه علم متطور غير مألوف وغير معروف من علوم الدنيا والدين، التي ينبغي توفّرها لتأسيس مثل هذه الحكومة العادلة النموذجية القوية الواسعة، وجعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة (وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا أي اختارنا من بينهم بما آتانا من كرامة النبوة ونعمة العلم والحكمة والملك والحكم وفصل الخطاب، وعلم كلام الطير والدواب وإلانة الحديد وغير ذلك مما خصّهم الله بعلمه، وكل قدرة وقيمة ونعمة ينطلق أساسها من العلم! وتسخير الإنس والجن والشياطين لهما، وفضلهما (عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)، وقد أنعم الله على داود تعليمه الترتيل الجميل الأخاذ المؤثر في النفوس والأشياء، بمقاطع الزبور ترتيباً نقاداً شفافاً حيويّاً حركياً جميلاً بألحانه، ترتيباً نموذجياً يتجاوب معه الكون من حوله! فتصغي الجبال وتتفاعل الطير

لحلاوة صوته وحرارة نبراته، فإنها تدخل للمشاعر المؤمنة بلا استئذان! واستغراقه في مناجاة ربه كقوله (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) الحشر/٢١، وعلمه صناعة عُدِّ الحرب وتطويع الحديد له، ومنها تعليمه القضاء إلى الناس مما شاركه فيه سليمان، وأما سليمان ففي هذه السورة وغيرها تفصيل لما علمه الله من منطق الطير والقضاء وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله، وقبل أن تنتهي الآية شكر داود وسليمان ربهما على هذه النعمة وإعلاء قدرهما ودورها. فلا يكون العلم مبعداً صاحبه عن الله تعالى، وهو بعض مننه وعطاياه، والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد منحرف عن هدفه ضال ومضل، ليس فيه سعادة لصاحبه ولأمته، بل يؤدي إلى القلق النفسي ومرض الكآبة الخانق، ويؤدي إلى ضرر الآخرين، لأنه انقطع عن مصدره وضلَّ عن سبيل الله كقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) الإسراء/٢٢ وقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ وقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) طه/١٢٤. عن الإمام علي (ع) (قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ مُتَهَيِّئًا، وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكًا، فَالْجَاهِلُ يُعْشُّ النَّاسَ بِتَنَسُّكِهِ، وَالْعَالِمُ يَعْزُهُمْ بِتَهَيُّئِهِ) البحار/٢/١١١. فائدة: في الآية دلالة على فضل العلم وأهله كقوله (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة/١١، عن النبي (ص) (سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء) روح البيان/٦/٣٢٦، عن النبي (ص) (حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً) كنز العمال خير/٢٧٦٥، وهذا حق التلاوة كقوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) البقرة/١٢١، وداود أوتي الملك مع النبوة والعلم، ولكن الملك لا يُدَكَّرُ في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان، وإنما يذكر العلم، لأنَّ نعمة العلم أكبر وأفضل من نعمة الملك، في غرر الحكم (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ)

١٦ - ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا سَبَاطَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

الإرث المادي والمعنوي، ورث: قام مقامه في العلم والنبوة والملك دون سائر بنيه، لكل نبي معجزات وخوارق تدل على صدقه في نبوته، وتختلف في نوعها تبعاً للعصر والبيئة والأجيال في أفكارها وتقاليدها، (أي) ورث سليمان أباه في ماله وعلمه وملكه، أما (النبوة) فلا تقبل الوراثة وإنما هي اصطفاء لا ميراث، والعلم كرامة يخص الله بها من يشاء كقوله (فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) الأنبياء/٧٩، في نهج البلاغة حكمه (العِلْمُ وَرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ) والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل علم كرامة من الله لهم، علم وهي إيجائي إلهامي وليس اكتسابياً بالتعلم. كقوله (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) الكهف/٦٥، فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي، وإنما علمه مسدد مؤيد بوحى السماء كقوله (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) النجم/٣-٤، (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) قال وهو يتحدث عن

نعم الله عليه، وهو يخاطب الناس لقد أكرمنا الله عندما (عَلَّمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) أنا وأبي (عَلَّمَنَا) منطق وأصوات ولغات الطيور وأصوات جميع الحيوانات، والنطق هو التكلم، وكلام كل شيء منطقه، وفي الكلام دلالة على التفكير والعقل، ولكن كل متكلم بقدره، وخصّ منطق الطير لشرف الطير على سائر الحيوان، فأعطاني قدرة خاصة أتفهم مقاصد الطيور من نبرات أصواتهم، عن الإمام الصادق (ع) (أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ مَعَ عِلْمِهِ، مَعْرِفَةَ الْمَنْطِقِ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَمَعْرِفَةَ اللُّغَاتِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ وَبِلَهَائِمِ السَّبَاعِ) عن الإمام علي (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ كَمَا عَلَّمَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ، وَمَنْطِقَ كُلِّ دَابَّةٍ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ) كثر الدقائق ٣٢٧/٧ (وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وأعطانا الله من كل نعمة جلييلة من خيرات الدنيا التي تحصل عند العظماء والملوك، ويؤكد القرآن على إظهار النعمة كقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الضحى/١١ وقوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل/٥٣ وقوله (ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) صحيح الترمذي ٢٥٩/١٠ (وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

(شَيْءٍ) من أعمّ المفاهيم وادقّها وقد دخل عليه كلمة الاستغراق (كُلِّ) صفة للعموم والشمول، ولما كان المقام التحدّث بالنعمة، لا كل نعمة، بل النعم المميّزة النموذجية، التي ينعم بها الإنسان مقداراً معيناً كالنعم المادية والمعنوية، المألوفة وغير المألوفة والنادرة والخاصة، المتداولة وغير المتداولة، كقوله (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) النمل/٩٣.

وهكذا قول الهدهد عن بلقيس (وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) النمل/٢٣ فهي لم تؤت كل شيء، وأما هي صفة تكثير، إنما أوتيت شيئاً مهماً، ومن كل شيء في حاجة إليه، وهي كناية تشبيهية عن السعة، وجاءت (عَلَّمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) فقدم (عَلَّمَنَا) على (وَأَوْتَيْنَا) لبيان أن ما علمه من منطق الطير يجمل بقية النعم في كل شيء، ولا يؤتي هذا التعميم إلا الله تعالى، ليكون دافعاً للشكر، ورعاية النعم حقّ رعايتها. وخصّ منطق الطير لشرف الطير على سائر الحيوان (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أراد كثرة ما أوتي به، كما يقال: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، ويراد به كثرة زائريه، وغزارة علمه، وهي صفة تكثير (إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) ما خصّنا الله من أنواع النعم لهو الفضل الواضح، قاله على سبيل الشكر والحمد، لا على سبيل المباهاة والتفاخر والكبرياء (لَعْنٌ شَكْرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ) إبراهيم/٧ وقوله (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) سبأ/١٣ لا يُقَدَّرُ النعمة إلا الشاكر، وبالشكر تدوم النعم، عن النبي (ص) (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) روح البيان ١٢٩/٦، كقوله (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) النمل/٤٠.

فائدة: ١- من خلال حكومة داوود وسليمان (ع) تتبين أن هناك علاقة النبوة بالزعامة، وعلاقة الدين بالسياسة، فالدين الإسلامي سياسته عبادة وعبادته سياسة، ولا ينفصل الدين عن السياسة، كما لا تنفصل النبوة عن القيادة والقُدوة والزعامة، كما لا ينفصل القول عن العمل، ولا العبادات

عن المعاملات، جاء في دعاء الافتتاح (وَجَعَلْنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةَ إِلَى سَبِيلِكَ وَتَرْتُفُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وهنا جمع بين دعوة الجماهير وقيادتها، لعلاقة أحدهما بالآخرى، ٢- داود أوتي الملك مع النبوة والعلم، وذكر الله إتيان العلم ولم يذكر الملك، لأن الملك أصغر من أن يذكر في مجال النبوة والعلم!، وأما حقيقة الميراث في المال، والأنبياء يورثون الكمالات المعنوية ولا قدر للمال عندهم كقوله (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) مريم/٥- ٦، قال النبي (ص) لعلي (ع) (أنت أخي ووارثي) قال وما ارثك؟ قال (ما ورث الأنبياء قبلي كتاب الله وسنتي) وعنه (ص) (العلماء ورثة الأنبياء) روح البيان ٦/٣٢٧، ٣- روي: لما تولى سليمان الملك جاءه جميع الحيوانات تُهنئه إلا نملة واحدة جاءت تعزّيه، فعاتبها النمل في ذلك.

فقالت: كيف أهنته وقد علمت أن الله إذا أحبّ عبداً زوى عنه الدنيا وحبب إليه الآخرة، وقد شغل سليمان بأمر لا يدري ما عاقبته، فهو بالتعزية أولى من التهنية!، ٤- **وبالعدل:** تحيي الشعوب وتصلح الأمم وتتضاعف البركات، في غرر لكم (في العدل: حياة الأحكام، وزينة الإيمان، وفضيلة الإنسان) وفيه أيضاً (خَيْرُ الْأُمْرَاءِ مَنْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ أَمِيرًا) وفيه أيضاً (مَنْ سَأَسَ نَفْسَهُ أَدْرَكَ السِّيَاسَةَ) وفيه أيضاً (أعقلُ الملوك مَنْ سَأَسَ نَفْسَهُ لِلرَّعِيَّةِ بما يُسْقِطُ عنها حُجَّتَهَا، وَسَأَسَ الرَّعِيَّةَ بما تُثَبِّتُ بِهِ حُجَّتَهُ عَلَيْهَا) قال سليمان لبني إسرائيل: (من خشى الله في السر والعلانية، وقصد في الغنى والفقير وعدل في الغضب والرضا وذكر الله على كل حال، فقد أعطي ما أعطيت!) روي: إن سليمان آخر الأنبياء دخولاً للجنة لما آتاه الله الملك!، ٥- عن النبي (ص) (نحن معاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ، ما تركناه صدقة) هذا الحديث غير صحيح لمخالفته القرآن لأن سليمان ورث كل شيء عن أبيه كقوله (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

١٧- ﴿وَحُشِرَ سُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

حُشِر: جُمِعَ، أي وُجِعَ لسليمان جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة عسكرية كبيرة مهيبة منظمة فيها طوائف وأجناس (من الجن والإنس والطير) في منظر بديع مدهش، وصورة غريبة وعجبية مذهلة، يتقدّمهم سليمان في أبهة وهيبة الملك (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يجمعون وينظّمون وينضبطن بدقة مدهشة حين حركتهم - مع كثرتهم وتنوعهم - دون تفريق أو اختلاط أو اختلال بين الأصناف الكثيرة!، والمراد ب(يُوزَعُونَ) أنه كان لكل صنف من هذه الأصناف قائد محترف، ووازع وسائق مُتخصّص ومراقب وخبير، يحافظ على تنظيم السير وغيره، للحشد العسكري المهيب الضخم المتنوع المتصل بعضه ببعض الآخر، ويمنعون من الفوضى والتخلخل، إنهم منظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، بإيقاف أولهم ليلحق به آخرهم، حتى لا يتفرقوا ولا تشيع فيهم الفوضى، وكل هذه الحشود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه ولا تنمرد عليه كقوله (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ص/٣٩ أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم

إلا ما قصّه الله علينا من أمرهم في القرآن الكريم، وهو أنه خلقهم من مارح من نار وأنهم يرون البشر، والبشر لا يرونهم كقوله (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) الأعراف/٢٧، وأن إبليس وذريته من الجن كانوا يوسوسون للبشر في الشر، في عهد سليمان، وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخّرون له، وهو نبي يدعو إلى الهدى والاستقامة، إذاً: إنّ طائفة من الجن هي التي كانت مسخّرة لسليمان، وكذلك الطير ليس كل الطير كان مسخّراً له.

فائدة: ١ - ثماني كلمات بليغة في الآية تصوّر هذا العرض العظيم، المتنوّع الذي جمع عوالم الجن والإنس والطير، وحشرها في موقف واحد في حركة منظّمة هادفة مهيوبة، وكان لكل صنف من جنوده من يوزّعه وينظّمه، وبهذه البلاغة الإعجازية مما تعجز ادوات التعبير والتصوير كلها عن أن تأتي له بنظير، وكلمة (يُوزَعُونَ) واسعة الدلالة، فهي بليغة جامعة مانعة، فيها من معاني القوة والقدرة والتنظيم والإحاطة، مما لا تستطيع أية كلمة أخرى تحلّ محلّها، فهي تقوم مقام الحرس والأمن والشرطة والقادة في أحدث ما عرفت الجيوش، من ضبط وتنظيم وتخطيط وحسن قيادة وإدارة وتنفيذ! كقوله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) المدثر/٣١ وقوله (وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) سبأ/١٢، عن سليمان (ع) (لَتَسْبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْبَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى خَيْرٌ مِمَّا أُوْتِيَ آل دَاوُدَ) روح البيان ٦/٣٣٣.

١٨ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ وَادِ النَّعْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

سار موكب سليمان المهيب من الجن والإنس والطير، في ترتيب ونظام وهيبة ووثام، حتى إذا وصلوا إلى واد كثير النمل ومركز تجمعهم، حيث يعيش النمل جماعات وفي نظام أشبه بنظام المجتمع الإنساني! (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ) قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم والقيادة والرئاسة على النمل السارح في الوادي، خاطبتهم مخاطبة العقلاء، لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء، ومملكة النمل كملكة النحل دقيقة التنظيم، وتنوّع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن إتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راق على قدرهم، وإدراك عال، كقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ) الأنعام/٣٨، قالت هذه النملة القيادية لجماهير النمل، بالوسيلة المؤثرة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها، يا معشر النمل ادخلوا بيوتكم (لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)

(لَا يَخْطِئَنَّكُمْ) لا يكسرّنكم سليمان ويدهسكم بجيوشه وعساكره (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بكم، ولا يحسّون بوجودكم، ولا يريدون تحطيمكم عن عمد، **فائدة:** ونلاحظ نملة لا وزن لها في نظرك، ولكنها تخاف على جماعتها من أي أذى فتبذل ما في وسعها من جهد لسلامة أمتها!! وسجّل القرآن ذلك عسى أن يعتبر كل من بيده زمام أمر من الأمور، وفي كل شيء له عبرة، فله عصمة

عن الخطأ، كقوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ - حتى بالنمل والذباب - فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) الإسراء/ ٨٩ ، وقد اثبت العلم الحديث: إن لكل صنف من الحيوانات والحشرات والكائنات طريقة خاصة في التفاهم، وهذا ما حرصت على بيانه الآية الكريمة، فمن أين جاء محمد (ص) بهذا إن لم يكن من عند الله؟! وعلمنا أن النمل تشق ما تجمع من الحبوب نصفين، مخافة أن يصيبها الندى فتنبت، إلا الكزبرة فإنها تكسرهما أربع قطع، لأنها تنبت إذا شقت نصفين! فمن هداها وعرفها هذا النظام، إنه الله عز وجل! كقوله (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) الأنعام/ ١٠٢ .

١٩- ﴿تَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أُوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

سمع سليمان كلامها وفهم قصدها، فتبسّم مسروراً ضاحكاً، وانشرح صدره لإدراكه كلامها، والتبسّم أول مراحل الضحك، فحاد ومال بحشده العسكري عن وادي النمل، وتعجباً من حذرهما وتحذيرها وحرصها على سلامة مجتمع النمل، وأن قبول سليمان للنقد صفة مهمة في القائد، وردّ مشاعره إلى ربه الكريم الذي أنعم عليه بهذه النعمة والمعرفة الخارقة، وأبّجه إلى ربه في إنابة وتوسل (وَقَالَ رَبِّ أُوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ) (وَقَالَ رَبِّ أُوْزِعْنِي) ألهمني ومكّني ووفّقني ودكّرني شكر نعمائك، وأفضالك التي أنعمت وتفضّلت بها عليّ وعلى أبوي، وكلمة (أُوْزِعْنِي) ذات دلالة عامة من التمكين، جامعة لأكثر المعاني، فهي في منتهى البلاغة والدقة، وقال (رَبِّ) بهذا النداء القريب الحبيب المباشر المتصلّ أجمعني بكل ما أملك، أجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني (قلبي) وخواطري وخلجاتي وكلماتي وعباراتي وأعمالتي وتوجهاتي، اجمعني بلا تخلخل ولا تملل ولا اضطراب ولا فشل ولا جهل، اجمعني كلي، أجمع طاقتي وأحاسيسي كلها من أولها على آخرها، ومن آخرها على أولها، لتكون كلها في شكر الله تعالى، بكل نعمه التي لا تحصى عليّ وعلى والديّ، والإنعام على الوالدين إنعام غير مباشر على الولد. وهذا المدلول اللغوي لكلمة (أُوْزِعْنِي) وهذا التعبير البليغ الرقيق الدقيق، يصوّر أثر النعمة الإلهية على قلب سليمان (ع) وقوة توجهه لله تعالى، فسليمان (ع) مَلِكٌ كُلِّ شَيْءٍ، ولكنه لم يملكه شيء من حطام الدنيا، لم يملكه إلا الله مالك الملك!! فإن الله لم يتخذ نبياً إلا زاهداً (فَلَيْسَ الرَّهْدُ أَنْ لَا تَمْلِكَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الرَّهْدَ أَنْ لَا يَمْلِكَكَ شَيْءٌ إِلَّا مَا لَكَ الْمَلِكُ)! ميزان الحكمة ٩/٢٩٢ .

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ) وأن أعمل بهذه النعم الجليلة باستمرار، عملاً صالحاً نافعاً للناس يرضاه الله ويقربني منه، عملاً يتناسب مع مقدار النعم الكثيرة، مع الشكر المناسب معها، شكراً عملياً قبل الشكر القولي، كقوله (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) سبأ/ ١٣، فالعمل الصالح (النافع) على إطلاق معناه هو فضل من الله يوفّق إليه من يشكر نعمته، ومن أفضل العمل الصالح أن تعطي مقامك

حقه ومن موقعك الذي أنت فيه عملاً صالحاً يتناسب معك، وينفع الناس ويكف الأذى والسوء عنهم، وأن تسدي إليهم الخدمات، وتقضي حوائجهم وتكرمهم وترد عنهم النكبات والشدائد، (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) أي الدخول في منظومة الحصن الحصين الأمين المنيع، في عباد الله الصالحين برحمة من الله دخولاً بالشكل والمضمون، والحقيقة الادعاء، والاسم والمسمى، وبالذات والصفات، ولا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، وكأنّ عباد الله الصالحين سور عظيم أمين يدخله الإنسان برحمة الله، ضمن مواصفات بشرية نموذجية خاصة، إنها نعمة جليلة يتمناها حتى الأنبياء (ع) المعصومين، الدخول في حصن الصالحين على سعة معناهم ودقة مبناهم.

كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧ ورحمته سبحانه (قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) الأعراف/٥٦، وهذه الرحمة تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح، وهو عمل نافع يتناسب مع كل إنسان وقدره كماً وكيفاً، فيسلك في عداد الصالحين في الذات والصفات، في نهج البلاغة حكم ٨١ (وَقِيمَةُ كُلِّ امْرئٍ مَا يُحْسِنُهُ) وسليمان يعلم هذا، ولكنه يزداد تضرعاً إلى ربه ليكون من المرحومين، وهو النبي الذي أنعم الله عليه النعم الكثيرة النموذجية، ولكنه يبقى خائفاً أن يقصر به عمله وشكره تجاه ربه، لذلك يؤكد القرآن: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْشَى الْاِعْتِدَالَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، كقوله (يَحْذَرُ الْأَجْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩ عن الإمام الصادق (ع) (أرج الله رجاءً لا يجرتك على معاصيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته) البحار ٣٨٤/٧٠، قال لقمان لابنه: (يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب) البحار ٧٦ ص ٥٩ روي: ضحك الأنبياء تبسم في غرر الحكم (خير الضحك التبسم) وفي الحديث (النعمة وحشية قيدوها بالشكر) روح ايبان ٦/٣٣٥ فإنها إذا شكرت قرت، وإذا كُفرت قرت. فائدة: كان ضحك سليمان ظاهره تعجباً من قول النملة، وباطنه فرحاً بما أنعم الله عليه من فهم كلام النملة والالتفات إليها، على صغر حجمها مراعيّاً طلبها!

٢٠- ﴿وَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾

بحث سليمان عن جماعة الطير فقال لم لا أرى الهدهد ههنا، لم يكن في مكانه المخصص له؟ نفهم من هذا أنه هدهد خاص، قائد نموذجي مميز مسؤول، وأنّ افتقاد سليمان لهذا الهدهد صفة بارزة في شخصيته (ع)، صفة اليقظة والتفقد والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشد المتنوع الضخم، من الجن والإنس والطير، وهو يسأل عنه بنفسه متفقداً إياه وبأسلوب مرغوب وعزم وانتباه (أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) أم منقطعة بمعنى (بل) أي بل هو غائب ذهب دون إذن مني! يتعيّن أن يؤخذ الأمر الخارج عن النظام بالحزم، كي لا تكون فوضى، لذلك هدد وتوعد الملك سليمان بعقوبة للقائد الطائر الهدهد الغائب (وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجُنَايَةِ) ومن أمن العقاب

أَسَاءَ الْأَدَبِ، وتجاوز الحدود كقوله (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة/١٧٩.

٢١- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْعَذَابُ شَدِيدًا أُولَئِكَ أَنْبَاءٌ مِّنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا تُكْفَرُونَ﴾

(لَا تُدْرِكُهُ الْعَذَابُ شَدِيدًا) أو الذبح، ليكون عبرة لأمثاله، ليتحقق النظام وتقام الحدود والقصاص والقضاء على أي تخلخل وانفلات، (أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) بدليل واضح، وبجحة وافية ومعدرة كافية مقنعة، تبين عذره المقبول وتنفي المؤاخذة عنه. لكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي ملك عادل يقضي بالحق والحزم ويحكم بالعدل، ويحفظ البلاد وأمن العباد ويجعل كلمة الله هي العليا، ويعتمد كمال السياسة وكمال القضاء وجمال العدل وجلال الحق، فلا يعفو عن مجرم ١- (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة/١٧٩، في غرر الحكم (خيرُ الأمراء مَنْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ أَمِيرًا) وفيه أيضاً (خيرُ الملوكِ مَنْ أَمَاتَ الْجَوْرَ وَأَحْيَى الْعَدْلَ) وأفضل السياسيين مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ، قيل: سئل سليمان كيف تعذبته عذاباً شديداً وهو صغير الجسم؟ قال: هو أدكى الطيور، فأحبسه مع أجهل الطيور في قفص واحد، فيكون عذاباً نفسياً!، وقيل: أن يجعله مع أزداده وأعدائه، وأضيق السجون معايشة الأزداد! أو بالتفريق بينه وبين إلفه وأصدقائه، أو يضعه في الشمس، وطرده من بلاط سليمان. تفسير روح البيان ٦/٣٣٧، في غرر الحكم (أعقل الملوك من سَاسَ نَفْسَهُ لِلرَّعِيَةِ بِمَا يَسْقُطُ عَنْهَا حَجَّتْهَا، وَسَاسَ الرَّعِيَةَ بِمَا تَثَبَّتْ حَجَّتْهَا عَلَيْهَا).

٢٢- ﴿نَكَتَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَحِجَّتِكَ مِنْ سَيِّئَاتِنَا يَوْمَئِذٍ﴾

(فَمَكَتَ) فبقي الهدهد غائباً (غَيْرَ بَعِيدٍ) زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان (فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ) (فَقَالَ أَحَطْتُ) اطلعت على أمر مهم، واكتشفت ما لا تعرفه، وما لم تطّلع عليه، على سعة علمك! (أَحَطْتُ): اطلعت، الإحاطة العلم بالشيء من أغلب جهاته، إن سليمان أحاط بكل شيء في مملكته، إلا أن الهدهد علم شيئاً لم يطّلع عليه سليمان! مع فضل النبوة وعظمة المملكة، وهذا ابتلاء من الله لسليمان الذي أوتي من كل شيء، ليعلم سليمان أنه (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) يوسف/٧٦، حتى ولو كان طائراً صغيراً، من أجل أن يعرف الإنسان قدره ولا يتعدى طوره، وهذه هي محنة كثير من العلماء اليوم الإعجاب بأنفسهم، وفي هذه دلالة: على أنه يجوز أن يكون في زمن الأنبياء من يعرف علوماً لا يعرفها الأنبياء (ع)، كما حصل بين موسى والخضر!، فما دام العلم مفهوم واسع ونسبي يتفاوت بين إنسان وإنسان، فلا يوجد أحد يعلم كل شيء، إذاً مفهوم (الأعلم) غير واقعي كقوله (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل/٤٣ فلم يقل (فاسألوا الأعلم) وجاءت (أَهْلَ الذِّكْرِ) صفة مطلقة وغير محددة بذات، وجاءت بالجمع لدلالة على تباين العقول وتفاوت الوعي، واختلاف المستويات والقدرات والكفاءات بين أهل

الذكر، والاختصاص أنفسهم، (وَجِئْتِكَ مِنْ سَبَائِ بْنِ يَاقِينٍ) وأتيتك من مدينة سبأ باليمن (بِنَبِيِّ يَاقِينٍ) بخبز مهم وأمر صادق خطير، وحقيقي ومتيقن لا شك فيه، يجب نقل الأخبار اليقينية غير الظنية كقوله (فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) الحجرات/٦.

فائدة: ١- يعرف الهدهد الغائب حزم الملك وعزمه فبدأه بمفاجأة غريبة، طعنت على موضوع غيبته، وتضمن إعفاء الملك له، ٢- وفي هذا التعبير درس مهم إذ يمكن أن يكون موجوداً صغيراً كالهدهد، يعرف موضوعاً مهماً لا يعرفه أعلم العلماء في عصره، لئلا يكون الإنسان مغروراً بعلمه، حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوة الواسع. تفسير الأمل ج ١٢ ص ٤٧، لذلك يجب الانفتاح على الرأي والرأي الآخر، ومحاورة أصحاب العقول، وإنتاج مفكرين وباحثين ومتخصصين، واستثمار الكفاءات المتنوعة!

٢٣- ﴿لَبِئْسَ مَا كَفَرْنَا بِهِ وَأَلَيْنَا عِبَادَتُكُمْ وَأَلَيْنَا عَرْشُ عَظِيمٍ﴾

يا نبي الله: من عجائب ما رأيت أن امرأة تسمى بلقيس، وهي ملكة لهم وكأنها تملكهم، أي تملك قلوبهم! وهم يدينون لها بالطاعة ولا يعترض عليها أحد، ويستغرب الهدهد من حكم المرأة! أغلب الناس على دين ملوكهم، (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وأعطيت من كل شيء كناية تشبيهية عن عظمة ملكها وثرائها (وهي صيغة دالة على السعة والكثرة والمبالغة) وتوافر أسباب الحضارة والقوة والقدرة، والنعم وحسن السياسة والهيبة التي يحتاج إليها الملوك، من أسباب الدنيا، من سعة المال وحسن الحال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد، ولهم عزم وحزم وسطوة ومملكة عريضة، وشعب مطيع وتنظيم لأحوالهم (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) ولها سرير كبير فخم وضخم من ذهب مكلل بالدر ومُرصَّع بالياقوت والؤلؤ، يدل على الغنى والرفاه والترف وارتقاء الصناعة وحسن الإدارة ولها سلطان واسع، عن الإمام علي (ع) (ما رأيت نعمة موفورة إلا بجانبها حق مضيع). في نهج البلاغة حكم ٣٣٠ (أَقَلُّ مَا يَلْزُمُكُمْ اللَّهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) فائدة: ١- لم يكن الهدهد هذا الطائر الذكي الضعيف الصغير الجميل، مجرد مكتشف ومراقب وأمين وعالم جليل، عَلِمَ علماً لم يعلم به سليمان وحسب، بل إنه كان قائداً وداعياً إلى الله وإلى الإيمان به وإلى منهجه، فهو ينكر الضلال والشرك، ويسفه أحلام المشركين، ويحقر آلهتهم وما يعبدون من دون الله، في ذلك دلالة: صحيح أن هذا الهدهد طائر صغير ولكنه ذو محتوى كبير وعمل جليل، وذو فراسة نافذة، وهذا يكشف لنا أن بعض الناس قد يكون صغيراً في عمره، ولكنه كبيراً في عقله وعلمه، وجليلاً في عمله ودوره وقدره، فيكون أفضل ممن هو كبير في عمره صغير في عقله، في نهج البلاغة حكم ٨١ (قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) عن الإمام علي (ع) (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْفَى وَلِيَّهُ فِي عِبَادِهِ، فَلَا تَسْتَصْعِرَنَّ عِبْدًا مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَلِيِّهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ) البحار ٦٩/٢٧٥، ثم أخذ الهدهد يحدث سليمان عما هو أعظم وأخطر فقال: ٢- قوله (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) النمل/١٦ وقوله (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ) إنها استعارة بلاغية للدلالة أن هذا أسلوب يراد به الكثرة من أي شيء، كما يقال فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء!

٢٤- ﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

وهنا يعلل ضلال القوم فيقول: وجدتها وقومها في ضلال مبين، فهم يعبدون الشمس لا ربَّ الشمس، ويتركون عبادة الواحد الأحد (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله، فظنوا أعمالهم حسنةً وهي ليست بحسنة كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤ وعن النبي (ص) (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، في نوح البلاغة كتاب ٣١ (وَمَنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الرَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ) (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) فمنعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب، فهم بسبب إتباع أهوائهم وإغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، فائدة: (وَزَيَّنَ) الإنسان حبه لنفسه يرى أن أعماله صحيحة ولو أخطأ فهو يبرر لخطئه، ويوهم نفسه أنه على صبح، في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، وَرَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ، وَرَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ) وفيه أيضاً (لَا تُخَفُّ إِلَّا ذَنْبَكَ، وَلَا تَرْجُ إِلَّا رَبَّكَ).

٢٥-٢٦- ﴿الَّذِينَ يَخُفُّونَ مَا نُفَسُوا وَتَخْفُونَ مَا تُهَلَّلُونَ وَمَا تُعَلِّمُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ

الْحُبَّاءِ: الشيء المخبوء المستور من خيرات الكون، السماوي والأرضي، المادي والمعنوي الخفي، والخبرات التخصصات والكفاءات الإنسانية المتنوعة، المعنى: ألا بمعنى هلاً التحضيضية، أي لا بد وأن يسجدوا لله سبحانه، فلذا يُفضَّل السجود عند قرأتها، ولا يزال الكلام للهدد، أيسجدون للشمس تعظيماً لها على ما أودع الله فيها من منافع كثيرة، ولا يسجدون لله الخالق العظيم (الَّذِي يُخْرِجُ) إلى الوجود (الْحُبَّاءِ) أي جميع الأشياء المخبوءة النافعة، والله سبحانه يخرجها لعباده، ببحوث العلماء وعقولهم وأدواتهم الفنية ومختبراتهم العلمية، كقوله (وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) البقرة/١٥١، ويُظهر إلى الوجود كل مخبوء غير المنظور وراء ستار الغيب، في العالم العلوي والسفلي، المادي والمعنوي، العاقل وغير العاقل، الصغير والكبير، في السماء والأرض، والبحار والأنهار (وَيُعَلِّمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعَلِّمُونَ) ويعلم السرَّ والعلن، ويعلم ما ظهر وما بطن، فهو سبحانه أولى بالتعظيم وأحق أن يسجد له، والشمس لا معنى لعبادتها والسجود لها. فائدة: المراد (الْحُبَّاءِ) هنا خيرات الكون وسنن الحياة وقوانينها المستورة على إطلاقها، والله سبحانه يخرجها لعباده بأيدي المتخصصين أصحاب الكفاءات العلمية، كاستخراج المعادن المتنوعة كالذهب والفضة والنحاس المخبوءة وبحيرات النفط والغاز... الخ.

ومن الملفت للنظر: هذه المقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في خفايا النفس وصراعاتها السرية والعلنية ما ظهر منها وما بطن، كقوله (سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣، في نهج البلاغة (المرءُ محبوبٌ تحْتِ طَيِّ لِسَانِهِ) حكمة/١٤٠، والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب الذي لم يقضِ الملك في أمره بعد!، ٢٦- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا تصلح ولا تصح العبادة إلاّ له (هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) العرش: كناية عن الملك الواسع والسلطان العظيم، فكل عرش وإن عظم فهو دون عرش الله، فأفردوه في الطاعة ولا تشركوا به شيئاً، وسمى العرش عظيماً لأنه أعظم ما خلق الله لدلالة على عظمته، وعرش الله: فهو أكبر من أن تحصيه الكلمات وتحيط به العبارات، فهو مما لا يعلمه البشر إلاّ بالاسم على الحقيقة. ونقف أمام هدهد خاص قيادي عجيب بليغ ذو موقف خاص. صاحب إدراك وذكاء وإيمان وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه النموذجي المميز، ومع هذه الصفات المميزة لم يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه، ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به، إنما يأخذ في تجربته واختباره للتأكد من صحته، شأن النبي العادل والملك الحازم و(الْعَدْلُ أَسَانُ الْمُلْكِ) في غرر الحكم (العدل: قَوَامُ الرَّعِيَّةِ وَجَمَالُ الْوَلَاةِ).

٢٧-٢٨- ﴿فَالسَّنْظُرُ أَصْدَقَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

قال سليمان (سَنَنْظُرُ) سنختبر مقالك - أيها الهدهد - والسين للتأكيد، لنعرف مكانها من الصدق، عن طريق الاختبار والامتحان (وَعِنْدَ الْإِمْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ) وإنما شك في خبر الهدهد لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان يقام فيه الشرك بدون علمه، فكتب له كتاباً موجزاً وله دلالة واسعة، وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ، قال سليمان للهدهد (سَنَنْظُرُ أَصْدَقَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) أي ممن شأهم الكذب في كل الأحوال، ولم يقل (أصدمت أم كذبت) فيكون اتّهامه واقعاً على تلك الحادثة الخاصة. ٢٨- (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ) قال سليمان للهدهد أوصل كتابي هذا بطريق أو بآخر إلى ملكة سبأ، ولم تعلم من جاء به، وكيف جاء؟! (ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) ثم تنح عنهم إلى مكان قريب مستتراً عنهم واسمع ما يتحادثون وراقب ما يقولون (فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) فاعرف ما يعزمون، وانظر ماذا يرجعون من جواب، فألقى الهدهد إليها الكتاب المختم، ولما قرأته الملكة جمعت بسرعة وزراءها وكبراء قومها ومستشاريها، بلقاء عاجل استثنائي للرد على هذا الكتاب، فائدة: ١- تنتقل أحداث القصة من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في لحظة خاطفة، حيث ملك سليمان!، ٢- خبر الواحد يجب التوقف عنده والتأكد من صحته كقوله (فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات/٦.

٢٩-٣١ - ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلِّفِي كِتَابٍ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

عرضت على أشرف قومها الكتاب، ووصفته بالكريم بعباراته ودلالاته وختمه، فهو عظيم الشأن لأن صاحبه عظيم الجاه، عن النبي (ص) (كُرِّمَ الْكِتَابُ حُثْمُهُ) روح البيان ٣٤١/٦، وفيه دعوة بالطاعة بأوجز عبارة، فهي دقيقة المبنى عميقة المعنى (وَحَيَّرَ الْكَلَامَ مَا قَلَّ وَدَلَّ وَلَا يُجَلِّ) وهذا شأن الأنبياء في رسائلهم يقتضون فيه على الهدف المطلوب، وكان الرسول المصطفى (ص) يكتب للملوك بعد البسملة (أَسْلَمَ تَسْلَمَ)! ٣٠ - (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) كتاب كريم، لأنه من سليمان الملك العظيم ذي القدرة العجيبة، وكانت سمعته مشهورة بالعدالة، وهو ذو عزم وحزم وحزم وحسم، وكتاب كريم، لأنه يستفتح ب(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله، ثم الدعوة إلى توحيده والتسليم لأمره والانقياد لمنهجه بأبلغ عبارة، البسملة جزء من رسائل الأنبياء (ع) وهو درس لنا لنستفتح (بالبسملة) في كل أمر فإنها استفتاح بالرحمة، ٣١ - (أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ) ألا تتكبروا علي كما يفعل الملوك وجيئوني (مُسْلِمِينَ) من التسليم أي منقادين موحدنين مؤمنين طائعين لأمرى وخاضعين لأمر الله، وهي دعوة إلى الاسلام، وهكذا كان صيت سليمان مشهوراً بالقدرة والقوة والاسلام، وهكذا جاء جميع الأنبياء بالاسلام، كقوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩، فمن قوة شخصية بلقيس ورجاحة عقلها، عرفت أن كرم الكتاب من كرم صاحبه، والكتاب عنوان عقل كاتبه، وأصدق ما ينطق عنه، ودلالة على أصله، لذلك دعت حكومتها ورجال مملكتها لتشاورهم في الأمر، وَمَنْ شَاوَرَ أَصْحَابَ الْعُقُولِ شَاوَرَهُمْ فِي عُقُولِهِمْ، كقوله (وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ) آل عمران/١٥٩ عن الإمام علي (ع) (مَنْ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْأَرَاءِ، عَرَفَ مَوَاقِعَ الْأَخْطَاءِ!) والمشورة تهدي إلى الرشد، في نهج البلاغة حكم ٢١١ (الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر مَنْ استغنى برأيه).

٣٢ - ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُنُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾

المال: زعماء القوم ورؤساؤهم الذين يملئون العيون مهابة وجمالاً والقلوب جلاله، أفنوني: أشيروا علي وأجيبوني بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث. أي يا أيها الوجهاء أشيروا علي في هذا الأمر (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) ما كنت لأفضي أمراً أو لا أستبد برأيي (حَتَّى تَشْهَدُونِ) بدون حضوركم ومشورتكم كقوله (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) الشورى/٣٨ وهذه المشورة تعطي معنى الديمقراطية في زماننا الحديث، وهي بمعنى حكم الشعب، وأفضل من الديمقراطية حكم العدل، وهو حكم الله، وفيه دلالة أن الديمقراطية تاريخ قديم والمشورة من المستشارين مبدأ إنساني قديم، ولكن عندما استشارت قومها قدموا لها القوة العسكرية! على الحلول السياسية بالمفاوضات والحوارات، ولم يطرحوا لها الحلول الأخرى! وعندما وصفت الكتاب بأنه (كريم) للدلالة غير

المباشرة أنها لا تريد المقاومة والخصومة، ولكنها لا تقول هذا صراحة (وَرَبِّ تَلْمِيحٍ أَبْلَغَ مِنْ تَصْرِيحٍ) إنما تمهد له أسبابه، أنها صورة كريمة للحاكم الكريم الحليم الحكيم، الذي يتوخى الخير وما هو الأصلح والأحسن لأمته، وعبرت عن الجواب بالفتوى (أفتوني) الذي هو الجواب في الحوادث المشكلة غالباً، إشعاراً بأنهم قادرون على حلّ المشكلات النازلة، فائدة: تشير الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يستبد برأيه، ويكون مشاوراً ومحاوراً في جميع الأمور المهمة لأهل الاختصاص.

٣٣- ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

قَالُوا: طيبي نفسك أيها الملكة ولا تحزني، وقالوا نحن (أولو) أصحاب قوة عسكرية هائلة (وأولو بأس شديد) وعندنا الشجاعة والقدرة القتالية المادية والمعنوية، لا نهاب معها عدواً وإن كان سليمان (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) رأينا رأيك وأمرنا أمرك! فوضوا أمرهم إليها في الحرب والصلح فأمرنا بما شئت نمثل أمرك! وهذا دليل على الطاعة المفرطة، وهي محاورة حسنة من الجميع، أخذت معهم أسلوب المرونة (فبدأ الحديث معهم من حيث يحبون، وانتهت معهم من حيث تحب هي) وهذه حالة فنية في المحاورة والمشاورة، ولما أحسنت منهم الميل إلى القتال، شرعت تبين لهم وجه الصواب، وأنهم في غفلة عن قدرة سليمان وعظيم سلطانه، وأن القتال آخر المراحل وليس أولها، وهنا تظهر المرأة الملكة تفضل الملاينة على المخاصمة، وتقدم الحوار على القتال، فظهرت أنها أرحم منهم رأياً وأدق عقلاً وأعلم خبرة، وأحرص على سلامة شعبها (قِيمَةُ كُلِّ امْرَأَةٍ عَلَى قَدْرِ خِبْرَتِهِ، وَمَقْدَارُ تَجْرِبَتِهِ) وأنها امرأة مميزة ليست كباقي النساء، تتفوق بوعيتها السياسي والحركي على أكبر عقليات حكومتها من الرجال والعسكريين، فهي امرأة حاكمة وحكيمة ومحاورة ومشاورة، ومنفتحة على الآخر وحليمة وغير مستبدة ولا دكتاتورية، وهكذا يكون تصرف المرء عنوان عقله، فهل هذه المرأة ناقصة عقل وحظ ودين؟! وهي مقولة تعارض القرآن في غرر الحكم (مَنْ بَدَّلَ مَعْرُوفَةً، اسْتَحَقَّ الرِّيَاسَةَ) وفيه أيضاً (مَنْ سَأَسَ نَفْسَهُ أَذْرَكَ السِّيَاسَةَ).

٣٤- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

قالت الملكة لهم: إن سليمان أقوى منكم وأعظم بما سخر له من الريح والإنس والجن والطير، كيلا تنير فيهم النخوة والحماس، وألا يلحقوا بالبلاد والعباد إلى التهلكة، إن عادة الملوك إذا انتصروا في حرب ودخلوا المدينة قهراً (أفسدوها) خربوها بالهدم والحرق والتخريب (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أهانوا أشرافها وأذلوا أهلها، بالقتل والأسر والسبي والإرهاب (وكذلك يفعلون) وهذه طريقتهم وعادتهم على الدوام، في كل قرية يدخلونها قهراً، فليس من الحكمة الإقدام على حرب مع قوة العدو وعدته وشوكته، وفي الآية دلالة على مدح القرآن لرجاحة عقل المرأة الحكيمة العليمة، على عقول قومها الرجال العسكريين، وليس من الصحيح أن المرأة ناقصة عقل وحظ وإيمان، وليس من عدل الله أن يخلق المرأة ناقصة والرجل كاملاً، ثم لا يحصل تكافؤ ولا تجاذب بين الكامل

والناقص، والقرآن يقول (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين/٤، وخلق الإنسان يشمل المرأة والرجل في أحسن تقويم، وهناك من النساء الكثيرات فاقت عقولهن عقول الرجال، كما فاق عقل آسيا بنت مزاحم عقل زوجها فرعون الطاغية، كما فاق عقل خديجة بنت خويلد زوجة النبي (ص) عقول كثير من الرجال، فأنفقت ماها الكثير في سبيل نصره الإسلام، وهكذا كانت مواقف زينب (بطلة كربلاء) في ثورة الإمام الحسين (ع) الاستشهادية النموذجية! فائدة: تشير الآية إلى ذم حكم العساكر، لأنهم يقدمون حكم القوة على حكم العقل والتدبير والتفكير السليم والحوار الموضوعي القويم!

٣٥- ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ رَجْعِ الْمُرْسَلُونَ﴾

ثم قالت: فليس من الحكمة الإقدام على الحرب مع قوة العدو، طالما هناك مجال للصلح والسلم والحوار، ورأيت أن أرسل إليهم هدية عظيمة من ذهب وجواهر نفيسة (في المرحلة الأولى) تليق بمقامه تدل على حسن نيتنا تجاههم، ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر، وعند ذلك أقطع بأحد أمرين: الحرب أو السلم، فإذا لأن سليمان لنا بهذه الهدية فهو ملك وينبغي أن نواجهه بالقوة فنحن أقوى، وإذا ألح على كلامه ولم يكثرث بهديتنا، فهو نبي وأمره أمر عقيدة، والعقيدة فوق المال، وفي هذه الحالة ينبغي التعامل معه بالحكمة والتعقل، قالوا: أصبت أيتها الملكة الرشيدة الحكمة المحترمة! فائدة: (بِهَدِيَّةٍ) الهدية تليق القلب وتعلن الود، في الحديث (تصافحوا يذهب الغل)، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحنة) المراعي ١٩/١٣٨، وهي محاولة وتجربة تريد بها اختبار ما عند سليمان من أهداف ونوايا، وبالغريات تُعرف مقادير الناس وموازينهم، وتكشف عن معادهم (وعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان).

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتم بَهْدِيْتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة، قال منكرًا عليهم (قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ) الاستفهام إنكاري، أتساوموني بالمال والهدايا الثمينة لاتركم على كفركم وملككم الذي أسس على الضلال؟ (فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ) فما أعطاني الله من النبوة والملك الواسع، والحكمة والثروة والقوة وتسخير الجن والطير، خير مما أعطاكم من زينة الحياة، فلا حاجة لي بهديتكم (بَلْ أَنتم بَهْدِيْتِكُمْ تَفْرَحُونَ) أنتم تفرحون بهدايا بعضكم لبعض حباً لزيادة المال، لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا، وأما أنا فلا تغريني الدنيا بزخارفها ولا تحدعني نفسي بشهواتها، فقائدي الحق وهدفي العدل وغايتي إعلاء كلمة الله، فإني دعوتكم إلى الله مسلمين له الدين، وأنتم تدعوني إلى حب الدنيا وهي رأس كل خطيئة، فما قيمة هديتكم الدنيوية مقابل دعوتي المبدئية؟ عن الإمام الصادق (ع) (الدنيا أصغر قدرًا عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيء فيها أو يحزنوا

عليه..). الأمثل ١٢/ص ٦٣ كقوله (لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) الحديد/٢٣، ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله أنه سينقل كلامه على وجهه الصحيح فقال:

٣٧- ﴿مَرَجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

ثم أتبع الاستنكار بالتهديد، وقال: إرجع إليهم أيها الرسول بما جئت به من الهدية الثمينة، ليعلموا أن أهل الدين لا يندعون بحطام الدنيا وزخارفها وأما يريدون الإسلام، فليأتوا مسلمين وإلا (فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ) فلنزحفن عليهم بجنود (لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا) لا طاقة لهم بها، وسأغزوهم بجيش من الجن والإنس والتأييد الإلهي، لا قدرة لهم على صدّه ومقاتلته، في هج البلاغة خطبة ٢٧ (وَمَا عَزِي قَوْمٌ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا دُلُؤًا) (وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) صَاغِرُونَ: مهانون مهزومون، ولنخرجهم من سبأ أسرى (أذلة) بذهاب عزهم وملكهم وهم مهانون، إن لم يأتون مسلمين خاضعين، فلما ردّ سليمان الهدية، عرفوا أنه نبي مرسل صاحب عقيدة ورسالة واستقامة، وليس ملكاً من ملوك الدنيا، ليعلموا أن أهل الدين المخلصين لا يندعون بزخارف الدنيا، ولا يغترون بالمال، وأنه نبي مرسل لتعبيد الناس لله رب العالمين، ولما رجعت رُسُلٌ بلقيس من عند سليمان وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، في غرر الحكم (أصل السّلامة من التزل، الفكر قبل الفعل، والرؤية قبل الكلام).

٣٨- ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

عَلِمَ سليمان أن بلقيس خرجت من اليمن مقبلةً إليه، قال سليمان لأشراف من حضر من جنده، أيكم يأتيني (بعَرْشِهَا) بسريرها الفخم، وكرسي حكمها المرصع بالجواهر التي تركته في حزر حريز، قبل أن تصل إليّ مع قومها (مُسْلِمِينَ) من التسليم أي مستسلمين خاضعين، لأجل أن تنصّف فيه دون الحاجة إليه، قبل أن يعلنوا إسلامهم فتكون أموالهم محرمة!، أراد بذلك التنافس الصحيح واستثمار الكفاءات، وأن يريّها بعض ما خصّه الله به من العجائب والمعجزات والكرامات الباهرة، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوة النبوة حتى يسلموا لله عز وجل ويطيعوه، وبذلك يختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره؟ وعرش الملكة هو مكان عزّها وهيبتها، وخلّفته في بلادها محروساً مصوناً.

٣٩- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مِنْ مَّوَالِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾

العفريت من البشر: الداهية الماكر القوي الشديد الذي يعرف أقرانه ويغلبهم، والعفريت من (الجن) والشياطين: المارد من مرّدة الجن، وهو أقواهم وأشدّهم قدرةً وأسرعهم حركةً، المعنى: قال شيطان ماكر قوي من الجن، أنا أحضره إليك سالماً قبل أن تقوم من مجلس قضائك، وإدارة شؤون البلاد، وكان المجلس يبدأ من الصبح إلى الظهر (زوال الشمس) في كل يوم أي أنه يأتيه به في أقل

من نصف نهار (وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) وإني على الإتيان به لقادرٌ لا أعجز عنه ولا أخون، وإني لأمين لا أمسه بسوء، ولا أقطع منه شيئاً لنفسي. وإن سليمان في الشام أو في بيت المقدس، فيكون بينه وبين سبأ في اليمن نحو مسيرة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً، ومع ذلك يقول العفريت أنا أتيك به على كبره وثقله وبُعدِهِ، قبل أن تقوم من (مَقَامِكَ) مجلسك الذي أنت فيه، وكأنما سليمان أراد أسرع من ذلك! حينئذ.

٤٠ - ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيُلَوِّبِيَ الْأَشْكَرَ أَمْ أَكْفَرُ وَمَن شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ: علم عظيم من الكتاب (الوحي) وبعض الشرائع والعلوم السماوية المهمة، أو هو اسم الله الأعظم، والذي عنده علم الكتاب كله هو سليمان (ع) وهو أصل الكتب السماوية أو هو اللوح المحفوظ الذي فيه الاسم الأعظم، يَرْتَدُّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ: تحريك أجفان العين، قبل أن يبلغ طرفك مداه، ويرجع إليك (كلمح البصر)! والمراد به السرعة الإعجازية الهائلة المتقنة الخارقة عن المؤلف والمعروف! المعنى: وقال الذي عنده علم من الكتاب، ولا يذكر اسمه ولا الكتاب الذي عنده علم منه، علم ببعض ما في الكتاب، فهو ليس من الراسخين في العلم، ولكن من الراسخين في التقوى، ولا تقوى بدون علم (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ)، وهو رجل عالم صالح مؤمن على اتصال بالله تعالى (آصف بن برخيا) كان من الصديقين، أخلص دينه لله، علّمه سليمان سرّ اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سأل به أعطى، موهوب سرّاً من الله يستمد به من القوة الكبرى سبحانه، وهو الذي أتى بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام أو إلى بيت المقدس كلمح البصر، وغمضة عين.

(قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) فدعا الله فحضر العرش حالاً في لحظة لا في لحظات! وهذا يدل أن الإنسان المؤمن المخلص الذي تنكشف له الحقائق ما وراء المرئيات، تكون قوته وقدرته أكبر وأعظم من قوة الجن!، وقد يختاره الله ليكون أداة لقدرته، وعنصراً فاعلاً لإرادته وتنفيذاً لمشيئته! كقوله (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الفتح/٧ وقوله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) المدثر/٣١، عن الإمام الصادق (ع) (أَنَّ الْأَرْضَ طُويِتْ لَهُ) مجمع البيان ٤١١/٧، بطريقة إعجازية خارقة والمعجزة كما تظهر على أيدي الأنبياء (ع) فإنها تظهر على شكل كرامات، على أيدي الذين يصطفبهم الأنبياء بإذن الله تعالى، كما فعل الحواريون فعل عيسى (ع) بإذن منه، في إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص يعني (بإذن الله). وعن الإمام الهادي (ع) (مختصر)

من قوله (الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) (لم يعجز سليمان عن معونة ما عرف آصف ولكنه (ع) أحبّ ان يُعَرَّفَ الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله) نور الثقلين ٩١/٤، وآصف ابن خالة سليمان أو ابن أخته، ووزيره وكتابه ومعتمده، وهو الذي أدّبه

منذ صغره، وأعدّه لخلافته وكان رجلاً صديقاً مبالغاً في الصدق، من أهل الذكر ويفقه الشرائع السماوية، وقد خلقه الله لنصرة سليمان، وهو رجل مؤمن على اتصال بالله تعالى، موهوب سراً من الله، يستمد من القوى الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد ولا تحدّها حدود، وله قدرة خارقة خارجة عن مألوف البشر.

فكم من هذا الكون من أسرار لا نعلمها، وكم فيه من قوى لا نستخدمها، وكم فيه من قوانين نجهلها ! وهذه الخارقة جرت (بإذن الله) وتديره وتسخيره، كقوله (وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) إبراهيم/٢٧، عندئذ لا إنكار ولا غرابة في الحديث القدسي (عبدني أطعني تكن مثلي) (أي مثال وقدوة يقتدى به) وفي رواية: (غضوا أبصاركم عما حرّم الله عليكم، تروا العجائب، وتعرفوا الحقائق، وتنكشف لكم الأسرار، وتنسّقوا مع الأقدار) !

(الخوارق والعلم الحديث) إنّ سفينة الفضاء تقطع في الساعة ثلاثين ألف كيلومتر، وقال علماء الذرة: إنّ الألكترون يدور حول قطبه ويقطع في دوراته مسافة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية باعتبار فلكه. وقد تجاوز العلم الحديث كل مألوف ومعروف، ومن كان يصدّق أن الإنسان يصعد إلى القمر والمريخ وان الزراعة في الفضاء، ومن غير تراب ممكنة! وأنها موجودة الآن في اليابان وإيطاليا والكويت، ويدرس علمها في الجامعات، فإن القرآن الكريم ذكر الكثير من مبادئ العلوم بالإشارة أو بالعبارة (بالتلميح أو بالتصريح) أدركت الأجيال المتعاقبة طرفاً منها، وسوف تدرك الأجيال الآتية الكثير من خفايا القرآن وكنوزه كقوله (سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣.

فائدة: ١- ترى القنوات الفضائية تنقل لنا أحداث واقعية بالصورة والصوت مباشرة، من أقصى الأرض إلى أديانها، على بُعد آلاف الكيلو مترات وعبر البحار والمحيطات في لحظة خاطفة! (لَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ) ما شعر سليمان ونظره إلا ورأى عرش الملكة حاضراً لديه (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) هذا من فضل الله عليّ وإحسانه إليّ، ومن حوله وقوته وتفضله سبحانه، لا من ملكي وسلطاني، ولا من الجن والعفاريت من غير استحقاق مني، كلا، فالله سبحانه وتعالى وحده الذي أمده عباده بالقدرة الإعجازية، والقوة والسلطان والعلم، وإذا أعطى أدهش! كقوله (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) النور/٤٠، (لِيَبْلُغُنِيَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ؟) ليلوني: ليمتحنني وليختبرني، أشكر إنعامه أم أجدد فضله وأنسى إحسانه؟ والمؤمن لا يطغى إذا استغنى، ولا يكفر إذا ابتلى.

ومعنى (أَمْ أَكْفُرُ)

كفر النعم ونسيان المنعم، أي لم يشكر، وليس الكفر بالله، (مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) ومن شكر الله فممنفعة الشكر تعود لنفسه، لأن شكر الله تستوجب دوام النعمة وزيادتها كقوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) إبراهيم/٧، والشكر زينة الغنى، في غرر الحكم (شكّر النعمة أماناً من خللها)

التَّقَمَّة) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ عَنِّي كَرِيمٌ) وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ وَجَدَ فَضْلَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَعِينٌ عَنْهُ وَعَنْ شُكْرِهِ، كَرِيمٌ بِالْإِنْعَامِ عَلَى مَنْ كَفَرَ نِعْمَتَهُ، كَرِيمٌ يَعْطِي عَنْ كَرَمٍ لَا عَنْ انْتِظَارِ شُكْرٍ، كَقَوْلِهِ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) الْجاثية/١٥، فَيَكُونُ شُكْرُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ وَالْبَلَدِ وَالْقَلْبِ وَالْعَمَلِ وَهُوَ الْأَفْضَلُ. وَاسْتَشْعَرَ سَلِيمَانَ (ع) أَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْإِعْجَازِيَّةَ، ابْتِلَاءٌ ضَخْمٌ، وَفِتْنَةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالرِّفَاهِ وَالغِنَى وَالنِّعْمَةِ، وَفِتْنَةُ الْغِنَى أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى يَقِظَةٍ لِيَجْتَازَ هَذَا الْإِبْتِلَاءَ الصَّعْبَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى عَوْنٍ مِنَ اللَّهِ لِيَتَّقَى عَلَيْهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وَالشُّعُورِ بِفَضْلِ الْمُنْعَمِ، لِيَعْرِفَ اللَّهَ مِنْهُ هَذَا الشُّعُورَ فَيَتَوَلَّاهُ وَيُؤَيِّدَهُ، فَتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَشَكَرَهُ عَلَى جَمِيعِ مَا أَنْعَمَ وَأَكْرَمَ.

٢- الْمُنْحَةُ وَالْحِنَّةُ جَمِيعًا بِلَاءٌ، فَمِنْ الْمَحْنِ تَكُونُ الْمُنْحُ، وَمِنْ الْمَكَارِهِ تَكُونُ الْمِكَاوِرُ، وَمِنْ الْمَشَقَّاتِ تَعَقِبُهَا الرِّاحَاتُ وَالخَبْرَاتُ، وَمِنْ الْمُعَانَاةِ تَحْتَقِقُ الْهَيْأَةُ، وَكُلُّ بَلِيَّةٍ فِي الشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ إِلَّا لِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ تُحِيطُ بِهَا، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَاللَّهُ فِيهِ مَشِيئَةٌ وَقَضَاءٌ وَإِبْتِلَاءٌ) التَّوْحِيدُ ص ٣٥٤ فَالْحِنَّةُ مَقْتَضِيَّةٌ لِلصَّبْرِ وَالْمُنْحَةُ مَقْتَضِيَّةٌ لِلشُّكْرِ، وَالْقِيَامُ بِمَحْقُوقِ الصَّبْرِ أَيْسَرُ مِنَ الْقِيَامِ بِمَحْقُوقِ الشُّكْرِ، وَعَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ مُكَّرَ بِهِ، فَهُوَ مَخْدُوعٌ عَنِ عَقْلِهِ) الْمِرَاغِيُّ ١٧ ص ٣٠ .

٣- (الاسم الأعظم):

لَيْسَ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ بِأَنَّ يَتَلَفَظَ الْإِنْسَانُ بِكَلِمَةٍ، فَيَكُونُ وِرَاءَهَا الْأَثَرُ الْعَجِيبُ الْخَارِقُ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّخَلُّقُ بِذَلِكَ الْاسْمِ وَالْوَصْفُ، فَيَكُونُ الْاسْمُ عَيْنَ الْمَسْمُومِ، وَالْمَسْمُومِ عَيْنَ الْاسْمِ، وَأَنْ يَتَكَامَلَ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ، وَخُلُقُهُ وَتَقْوَاهُ وَإِيمَانُهُ إِلَى دَرَجَةٍ، يَكُونُ بِهَا مَظْهَرًا عَمَلِيًّا مِنْ مَظَاهِرِ ذَلِكَ الْاسْمِ الْأَعْظَمِ، أَيْ مُصَدِّقًا لَهُ، فِي غَرْرِ الْحَكْمِ (دَرْوَةُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ)،

٤- كَيْفَ نَقَلَ آصَفُ عَرْشَ بَلْقَيْسَ بِدُونِ إِذْنِ صَاحِبَتِهِ؟ الْجَوَابُ: بِسَبَبِ وِلَايَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ، وَمِنْ أَجْلِ هِدَايَةِ بَلْقَيْسَ وَشَعْبَهَا إِلَى الْحَقِّ، ٥- عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ (ع) (إِنَّ آصَفَ بْنَ بَرَخِيَا قَالَ لِسَلِيمَانَ (ع) مَدَّ عَيْنَيْكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ طَرْفُكَ، فَمَدَّ عَيْنَيْهِ فَنَظَرَ نَحْوَ الْيَمِينِ، وَدَعَا آصَفُ فَعَارَ الْعَرْشَ فِي مَكَانِهِ بِمَآرِبٍ، ثُمَّ نَبَعَ عِنْدَ مَجْلِسِ سَلِيمَانَ بِالشَّامِ بِقَدْرَةِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَرِدَ طَرْفَهُ!) كُنَزُ الدَّقَائِقِ ٣٤٣/٧، وَلَمَّا قَرَّبَ وَصُولَ مَلِكَةِ سَبَأَ إِلَى بِلَادِهِ أَمَرَ بِأَنْ تُغَيَّرَ بَعْضُ مَعَالِمِ عَرْشِهَا امْتِحَانًا لَهَا،

٦- مَعْنَى (عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) يَعْنِي الْعِلْمَ الْجَزَائِيَّ وَقَوْلُهُ (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) الرَّعْدُ ٤٣ يَعْنِي الْعِلْمَ الْكَلِمِيَّ الْجَامِعَ، وَمِنْ مَصَادِقِهِ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع) وَالْفَارِقُ بَيْنَ آصَفَ وَالْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) كَبِيرٌ. عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو.. وَخَرَجْتَ مَلِكَةً سَبَأَ فَاسْلَمْتَ مَعَ سَلِيمَانَ (ع)) نَوْرُ الثَّقَلَيْنِ ٩٣/٤ .

٤١-٤٢- ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتُهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

قال سليمان (نَكْرُوا) غَيَّرُوا بعض أوصاف عرشها وشكله الخارجي بحيث لا تعرفه، كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف، اختباراً لعقلها وذكائها (نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) لننظر إذا رآته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه بفراستها أم يخفى عليها! ٤٢ - (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟) فلما وصلت قيل لها: أمثل هذا العرش عرشك؟ ولم يقل (أهذا عرشك) لئلا يكون تلقيناً لها (قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) يشبهه ويقاربه ولم تقل نعم هو ولا ليس هو، فلم تنفِ ولم تثبت! لأن الفاهم والعالم لا يثبت ولا ينفى على الجزم إلاً بدليل قطعي! وأعجب سليمان بهذا الرد الذكي، الذي يكشف عن رجحان عقلها في مواجهة المفاجأة العجيبة (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) لا يزال كلام بلقيس: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله، وصدق نبوة سليمان، من قبل هذه المعجزة في إحضار العرش، بما شاهدناه بأمر الهدهد وبما سمعناه من رُسُلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك، وكنا مسلمين له خاضعين لنهجك منقادين لك من ذلك الحين، فلا حاجة بي إلى إظهار معجزات أخرى وقيل: هذا من كلام سليمان وقومه ومعناه: أنهم عرفوا الحق وآمنوا به واسلموا قبل بلقيس. فائدة: وفي هذه إشارة إلى أن المرأة خلقها الله في أحسن تقويم وهي كاملة العقل والحظ والإيمان، إذن: من الخطأ القول أن المرأة ناقصة عقل وحظ ودين! وهذه ملكة سبأ الحاكمة الحكيمة شاهد على ذلك.

٤٣ - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

(وَصَدَّهَا) ومنعها عن الإيمان بالله والإسلام له سبحانه، هو عبادتها القديمة للشمس والقمر (إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ) بسبب كفرها ونشوئها بين القوم الكافرين، فاتبعتهم في كفرهم باتباع أعمى وتقليد بجهل ورثته من الآباء والأجداد، وهكذا أغلب الناس يسرون مع العرف الاجتماعي العام، ويكونون مع العقل الجمعي، ويقلدون الآباء والأجداد، كقوله (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) البقرة/١٧٠، والناس على دين ملوكهم، فليس من السهولة الفرز والتمييز بين الخير والشر، والضلال والهداية، في مجتمع يغلب عليه الضلال، ويسيطر عليه الكفر، لذلك بشر القرآن الكريم أهل التمييز بين الحسن والأحسن، فقال (فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) الزمر/١٧-١٨ وقوله (وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) العنكبوت/٣٨، وكقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨، وعن النبي (ص) (مختصر) (لَا تَكُونُوا إِمَاعَةً قَالُوا وما الإماعة؟ قَالَ أَنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا، وَأَنْ أَسَاءُوا أَسَاءًا، فَقَالَ كَلَّا إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تَحْسَنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ تَحْسَنُوا) الترغيب والترهيب/٣/٣٤١، يمنعهم النبي أن يسيروا مع العقل العام الجاهلي، ومع التيار الجماهيري الضال، وهذا يعارض من قال (حشّر مع الناس عيد) ومع ما ألفه المجتمع واعتاد عليه من عادات جاهلية وتقاليد منحرفة، ويُعارض القرآن العقل الجماهيري العام، ويستنكر على الأكثرية فقال (أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) غافر/٦١ (وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) المائدة/١٠٣ (وَمَا أَكْثَرُ

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) يوسف/١٠٣ (وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الأنعام/١١٦، في نهج البلاغة خطبة ٢٠١ (أيها الناس لا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِغَلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ!) ومملكة سبأ عبدت الشمس كما كان يعبدها قومها، فقلدتهم تقليداً أعمى، فمنعها من التفكير الصحيح والتدبر والبحث العلمي نحو الأفضل، وخضعت للعقل الجمعي، والعرف الاجتماعي الضالين، فصارت كأحدهم، فلا قيمة لذكاؤها وفطنتها عندئذ!

فائدة: وفي الآية دلالة:

على أن حبَّ الإنسان للشيء يعمي ويصم ويذل الرقاب! وبدل أيضاً: أن للبيئة الاجتماعية أحد أهم المؤثرات التي تساهم في بناء شخصية الإنسان نحو الخير أو الشر، بحسب نوع البلد والمنطقة والوطن والأعراف والعبادات والتقاليد، فإن خير الأوطان ما رزق فيه الإنسان، واكتسبت به الجنان، وتخلص من مكر الشيطان، وانقاد منه إلى عبادة الرحمن، في غرر الحكم (العقل في العُرْبَةِ قُرْبَةٌ، وَالْحَمَقُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ)، ٢- في الآية دلالة أخرى: على أن اشتغال المرء بالشيء يصده عن فعل ضده، أي إنَّ الإنسان إذا غلب حب ما سوى الله على قلبه، ولم يكن له رادع من عقل أو دين، أصمَّه حبه وأعماه، كما قال النبي (ص) (حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ) البحار ١٦٤/٧٧، وتلك هي الآفة الخطيرة والمريرة التي تسلطت على عقول كثير من ذوي العقول، فأفسدتها وأضلتها عن سواء السبيل، وهذا يدعو الإنسان إلى التحرر والتحقق من موروثات الآباء والأجداد والعبادات الاجتماعية المألوفة، وأن يعيد بناء عقله وقناعاته على الدوام، وان يطمئن من سلامة قناعاته ومعتقداته باستمرار بتركية القرآن له، كقوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان/١، لذلك يجب الانفتاح على النخب الخاصة على مبدأ الشورى ومعرفة الرأي الآخر، والتشجيع على الحوار والنقاش والبحث والدراسة العلمية لكل الأشياء، فالأحسن يتبع الأحسن، لأنه يبحث نحو الأحسن، ومن اشتغل في الحسن ضيع الأحسن.

٤٤ - ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الصَّرْحُ: القصر الكبير والبناء العالي المزخرف (أو) الموضع المنكشف من غير سقف، والصرح وسمي بذلك لأنه صريح صافي شفاف أملس خالص من الشوائب والعيوب، المعنى: قيل لها ادخلي القصر العظيم الفخم، إنه المفاجأة المدهشة لها ولقومها! (فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا) لُجَّةٌ: الماء الغزير، فلما رأت ذلك الصرح، وكان من زجاج شفاف جداً، يجري تحته ماء كثير غزير، فجلس سليمان في صدره على سريره، وقصد بذلك تهويل مجلسه، فلما رأت ذلك الصرح تعجبت وظنته (لُجَّةً) ماءً غزيراً كثيراً، لما كان عليه الزجاج من الصفاء كاملاً، بحسب الرائي

أنه لا حائل بين الماء والماشي، لذا وكشفت عن ساقها لتخوض فيه كي لا تبتل ثيابها، فإنها لم تمنع من الدخول في الصرح لعلمها أنها في ضيافة كرام، ولم تُستدع إلاً للاكرام والاحترام ولم تسعى الظن بسليمان بعد أن رأت العجائب، بل كانت تثقتها به عالية لمعرفتها به سابقاً، (قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ) قال لها سليمان: أنه قصر (مُمرَّدٌ) أملس ناعم من قوارير، وهو الزجاج الصافي الشفاف، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه ماء غزير يدهش النفوس آنذاك وإلى الآن، استعمال الزجاج المقسى ضد الكسر (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) قالت حينئذ وهي نادمة مدهوشة: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بالشرك وعبادة الشمس وحانت فرصة توبتها (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ) من التسليم أي سلّمت أمرها وأسلمت مع سليمان، وخضعت لدينه فدخلت في الإسلام مؤمنة (لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وحسن إسلامها بصحبته مع سليمان (ع) لأنها عرفت أن الإسلام لله حرية في الأرض، ليس استسلاماً لأحد من خلقه ولو كان هو سليمان، إنه إسلام العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، فيكونون سواء لا غالب ولا مغلوب، في غرر الحكم (الْعَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، وَالْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ) عن الإمام علي (ع) (مَنْ يَطْلُبِ الْعِزَّ بِغَيْرِ حَقٍّ يُدَلِّ، وَمَنْ عَانَدَ الْحَقَّ لَزِمَهُ الْوَهْنُ) البحار ٧٧/٢٨٣، فكان مثلها وقومها في إسلامهم، مثل إيمان السحرة بموسى وانقلابهم على طغيان فرعون.

فائدة: - لقد طوّر سليمان الحضارة في زمانه، بشكل ظهر على مسكنه ومظاهر بلاده ومجمعه، وظهرت الحدائث على أخلاقه ومبادئه وحُسن سيرته، فأسلمت بلقيس لله تعالى ودخلت في دين الله وصارت داعية لغيرها في مجتمعها، لأنها وقفت مدهوشة أمام هذه العجائب الخارقة التي تُعجز البشر، وتدلل على أن سليمان سخر الله له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله مسلمة قلبها إليه، كقوله (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) الأعراف/٣٢ وفي ذلك دلالة: على إنه إملك كل شيء، على أن لا يملكك شيء إلاً الله تعالى، في نهج البلاغة حكم ٨١ (قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) وليست قيمة كل امرئ ما يملكه، عن النبي (ص) (لَيْسَ الرُّهْدُ أَنْ لَا تَمْلِكَ شَيْئاً، وَأَمَّا الرُّهْدُ أَنْ لَا يَمْلِكَكَ شَيْءٌ) ميزان الحكمة ٩/٢٩٢، إلاً مالك الملك، أما زواجها من سليمان لا دليل عليه، ٢- عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ سُلَيْمَانَ بَنِ دَاوُدَ آخِرَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، لَمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا) البحار ١٤/٧٤، ٣- إنَّ سُلَيْمَانَ بَنِي هَذَا الصَّرْحِ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ مَلِكَةٌ سَبَأَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ!

٤٥ - ﴿وَقَدْ أَمَرْنَا آلَ فِرْعَانَ أَنْ يَتَخَفَتُوا لِقَاءِ رَبِّهِمْ فَاذْبَعُوا وَاصْتَضَعُوا طَرِيقَهُمْ وَجَبَلْنَا لِكُلِّ مَلَكَةٍ مُّسَدًّا وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْوَىٰ بِهِمْ لِيَمْلِكَ فَارُوقُ كِنَانَةَ وَجَعَلْنَا لِيُثْمِينَ وَكَانَ فَرِحَانٌ يُخْتَصِمُونَ﴾

ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم، في النسب لا في الدين، صالحاً (ع) فقال لهم باللغة العربية اعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الأنبياء (ع)، وكان المرجو أن يجتمعوا على الإيمان، لكنه تفاجأ أنهم تفرقوا فريقين (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) إذا: فجائية، فإذا هم جماعتان

مؤمنون وكافرون، يتنازعون في شأن الدين، وجاء الفعل (يَخْتَصِمُونَ) بالجمع للدلالة على الأغلبية، أي يتنازعون أكثرهم في الحق، كل يقول الحق معي، كقوله (مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) الروم/٣٢، عن النبي (ص) (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم) كنز العمال خير ٨٩٥، (الاختلاف يهدم الرأي الصائب)! عن الإمام علي (ع) (لو سكت الجاهل ما اختلف الناس) البحار ٧٨ ص ٨١، كقوله (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ) الجاثية/١٧.

٤٦ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قال لهم صالح بأسلوب لطيف رقيق رقيق، يا قوم (لَمْ تَسْتَعْجِلُوا بِالسَّيِّئَةِ) لم تطلبون العذاب قبل (الْحَسَنَةِ) قبل الرحمة؟ (لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) لولا: هلا تستغفرون وتتوبون إلى الله من الشرك، رجاء أن يتوب الله عليكم ويرحمكم، كان الكفار يقولون لفرط الإنكار، يا صالح إتنا بعذاب الله العاجل، لأنهم يستهينون به لشدة سفاهتهم، فقال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر! وهكذا الجاهل المعاند يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعده! فائدة: مَنْ لم يكن الله تعالى هدفه الكبير، فإنه لا يميّز بين السيئة والحسنة، وبين القبيح والحسن، فإنه يفقد المقياس الصحيح، والسيئة ما يسوء الإنسان سليم الفطرة، والحسنة ما يستحسنه، ولكن عندما تنقلب المفاهيم وتغير المعايير والموازن الصحيحة بين الناس، فيرون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، بل ينحدرون أكثر، فيأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف! لأنهم يفتقدون المنهج الرباني القويم الفطري و(القرآن الكريم) الفرقان الذي يبين لهم السيئة من الحسنة، كقوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان/١.

٤٧ - ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾

اطَّيَّرْنَا: تطايرنا وتشاء منا بك، وشمي طائراً لأنه سريع نزول الشر، المعنى: أجابوه بفضاظة وغلظة وقالوا تشاء منا بك يا صالح وبتباعك المؤمنين، وما رأينا خيراً على وجهك، ووجوه الذين آمنوا بك، فإنكم سبب ما حلّ بنا من بلاء الجفاف والتنازع والشدائد، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا، واختلفت كلمتهم، وهذا جواب السفهاء على دعوة الخير والإيمان والهدى، وهذا التشاؤم مأخوذ من عادات الجاهلية المملوءة بالخرافات والانحرافات، (قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ) طائرکم: سبب شؤمكم، إن ما يصيبكم من خير أو شر مكتوب عند الله، وهو بقضائه وقدره، فيكون مستقبلكم ومصيركم عند الله، وهو بسبب أعمالكم السيئة، ولست أنا ومن معي، فعلى قدر الأسباب تكون المسببات، والأسباب بيد الإنسان والمسببات بيد الله، وعلى قدر المقدمات تكون النتائج، والإنسان يصنع مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه. (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) بل الحقيقة أنكم جماعة (تُفْتَنُونَ) يفتنكم الشيطان ويخدعكم بوسوسته وإغوائه، ويدفعكم هوى أنفسكم لتقولوا ما تقولون، وأنتم قوم تمتحنون بتعاقب السراء والضراء عليكم، ليمتاز الخبيث من الطيب،

ولتظهر أفعالكم التي تستحقون بها الثواب أو العقاب، وأنتم غافلون عما يراد منكم، في غرر الحكم (إحذروا الْعُقَلَاءَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) وآه من منطلق الجهلاء، جهم لأنفسهم يجعلهم لا يفكرون بعيوبهم، بقدر ما يتهمون الناس بغير حق، كقوله (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْهُمُ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) مُجَدِّدٌ، فائدة: الله سبحانه سنَّ سنناً وأمر الناس بالأخذ بها، فَمَنْ اتَّبَعَ سُنَّةَ اللَّهِ فَهَنَّاكَ الْخَيْرِ دون الحاجة إلى التشاؤم، ومن انحرف عن سنة الله فهناك الشر بدون حاجة إلى التشاؤم، فتدبر سنن الله هي الكفيلة بتحقيق الخير في النهاية، لا التشاؤم والتطير، كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) الأحزاب/ ٣٨

٤٨-٤٩- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَكَانُوا يُضْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

الرهط: العصابة من ثلاثة رجال إلى تسعة، المعنى: كان من قوم صالح في مدينة الحجر من قادتهم وزعمائهم، عصابة من المترفين، وهم لهم تأثير على جماعتهم، تسعة رجال طغاة بغاة قساة أوغاد من الأشرار، يفسدون في أرض المدينة، ويؤذون الناس ويعتدون عليهم بكل وسيلة وتحميمهم قوتهم وثراؤهم، فطغى بهم الترف فجعلهم مستكبرين يستصغرون الناس، ويؤذون المستضعفين ويقاومون المصلحين وجعلهم الترف والسرف يفسدون أنفسهم وغيرهم، بحيث لم يأمل منهم الخير ولم يؤمن منهم الشر! (وَلَا يُضْلِحُونَ) مطلقاً، لم يبق في قلوبهم موضع للإصلاح والإصلاح، وهم الذين عقروا الناقة، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، فراحوا يتآمرون عليه ويدبرون له ولأهله في الظلام ويبيتون له أمراً مكروهاً، ٤٩- (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) تقاسموا: تحالفوا، قال بعضهم لبعض: أقسموا وأحلفوا بالله (لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) لنباغتنه ليلاً ولنقتلنه وأهله وأولاده (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) ثم نقول لولي دمه ولقومه وعشيرته (مَا شَهِدْنَا) ما حضرنا مكان هلاكه، ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله وأولاده لطلب الثأر (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) ونحلف لهم إنا لصادقون في هذا القول! فائدة: كيف يقسمون بالله وهم كافرون؟ الجواب: كانوا يعرفون الله لفظاً دون مضمون، وغلب على هذه المعرفة الضلال والفساد والشرك كقوله (وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) المجادلة/ ١٤

٥٠-٥١- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

مكروا ودبروا المؤامرة على اغتيال صالح، ومكر الله سبحانه، وهو تدبيره السريع الخفي برد كيدهم، حيث أبطل مكرهم، عاقبهم عقاب الماكرين، بتعجيل هلاكهم قبل أن ينقذوا مكرهم، وكان لهم بالمرصاد (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وهم لا يدرون كيف يدبر الله الأمور، كقوله (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ) الأنبياء/ ٧٠، إنهم آمنوا بمكر الله (فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/ ٩٩، وهذا يدل أن عاقبة الظلم وخيمة كقوله (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر/ ٤٣،

عن الإمام علي (ع) (مَنْ سَلَ سَيْفَ الْبَغِيِّ قُتِلَ بِهِ) البحار ٢١١/٧٧، عن الإمام الصادق (ع) (إِذَا رَأَيْتُمْ الْعَبْدَ يَتَفَقَّدُ الذُّنُوبَ مِنَ النَّاسِ، نَاسِيًا لِدُنْبِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ) البحار ٢٤٦/٧٨ وعن ابن عباس (أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلنهم) وعنه (أجد في كتاب الله أن الظلم يحترَب البيوت، وتلا هذه الآية) مجمع البيان ٤١٧/٧، والظلم في الدنيا ينغص العيش، ويُضيق الصدر، ويكره الأيام، وهو ظلمات في الآخرة. فائدة: ١- (وَمَكُرُوا) المكر: التدبير للأمر، صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو (محمود) إن تحرى به فعلاً جميلاً، (ومذموم) إن قصد به فعلاً قبيحاً، ويعني (مكر الله) تدييره الخفي في إحباط المؤامرة الضارة، وسمّاه مكرّاً بطريق المماثلة في اللفظ دون المعنى كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) التكوير/٢٩، (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن) ٥١- (انظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) فتأمل وتفكر في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم، كيف أتاهم أهلكناهم أجمعين، يعني الباقين الذين كانوا راضين بعمل التسعة الشقاوة، عن الإمام علي (ع) (العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به) (الساكت عنه، والحاضن له) شركاء ثلاثة) البحار ٣١٢/٧٥، في الظلم كقوله (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) الأحزاب/٦٧، وكانوا عبرة للمعتبرين، وأحسرت الناس من كان عبرة للناس، والذي لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقيين، (ويُدبر المدبرون، والقضاء يضحك!) كقوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الأنفال/٢٥، وقوله (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) الإسراء/١٦.

٥٢-٥٣ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

خاوية: خالية خربة، أي فتلك بيوتهم خالية من أهلها، أو ساقطة متهدمة موحشة بسبب ظلمهم وكفرهم، لأن أهلها هلكوا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) إن في هذا التدمير (آية) ليعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون، إن هذه النتائج مرتبطة بمقدماتها، ٥٣- (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وانجينا من العذاب المؤمنين المتقين، الذين آمنوا بصالح وفازوا برضا الله ورسوله، ودخلوا في حصن التوحيد (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ) والذي يخاف الله يقيه سبحانه من مخاوف الناس، فلا يجمع عليه خوفين، كما جاء في حديث قدسي. وتبين الآية سنة دائمة، إنه إلى جانب الشر المنتشر في المجتمع هناك خير يحيط به ولو كان قليلاً، ولكنه كشعاع الهداية في وسط الضلال الكثيف. كقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧ وقوله (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر/٢٤. وقوله (وَمَنْ حَلَفْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١.

٥٤- ﴿وَكُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَسْتَبْصِرُونَ﴾

الفاحشة: (من الذنوب الكبيرة) هي ما عظم قبحه وكبر ذنبه وزاد ضرره، من الأقوال والأفعال، وفي الظاهر والباطن، وفي العقول والنفوس والأعراف والشرائع، أي واذكر إذ قال لوط لقومه على شكل استفهام إنكاري تحذيري (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) أتفعلون الفعل الشاذة المتناهية في القبح، وهي

إتيان الذكور من أدبارهم وترك زواج النساء وإنجاب الذرية، وهم يصرون حركة الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نظام الفطرة كقوله (وَمَنْ كَلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء أجمعين، (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) وأنتم تعلمون فحشها وضررها المادي والمعنوي والنفسي علماً يقيناً، وقيل: وأنتم تبصرونها بعضكم من بعض، وينظر بعضكم إلى بعض، لأنهم كانوا يعلنون بها ولا يستترون، دون حياء وخجل فيكون أفحش وأقبح، ومع ذلك لا يرتدعون!. وإن بعض الحيوانات لتدعوها طبيعتها إلى أن تتخفى فلا تطلع عليها العين حين تتصل ذكورها بإنائها، أما هذه الحيوانات الآدمية الضالة شذت عن طبيعة الحيوان والإنسان! كقوله (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ) العنكبوت/٢٩ وقوله (وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأعمام/٤٣. وقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨.

٥٥- ﴿أَنْتُمْ كُنْتُمْ أَتَى الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ﴾

والاستفهام إنكاري وللتوبيخ أيضاً، إنه شيء لا يصدق، وهو في مقام التعجب والكره والاعتراض، أي (أَنْتُمْ) أحقاً أنكم أيها القوم لفرط سفاهتكم وقباحة نفوسكم، وشذوذ طبائعكم تشتبهون الرجال وتتركون النساء اللاتي خلقهن الله لكم؟! إنه الانحراف والشذوذ الجنسي، وعمل اللواط القدر القبيح المخزي! الذي به تستحسنون القبيح وتستقبحون الحسن، (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ) من الجهالة بمعنى السفاهة والندالة، أي متجاوزون لحدود الله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، بل أنتم قوم سفهاء خبثاء مستمرين على الجهل، معاندون على الفاحشة، مصرون على الندالة والقذارة والسفاهة والحقارة، وأنتم لا تعرفون سوء عواقبها وتجهلون مخاطرها! لقد أعمى الشذوذ قلوبكم، فلا تقبلوا نصيحة الناصحين! فقد أخذوا الجهل بمعنييه السيئين باعتباره أصل كل شر: الجهل بفقدان العلم، والجهل بمعنى السّفَه والحقق والجهل المركب كقوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) الأعمام/٣٥.

فائدة: اللواط فاحشة شاذة خطيرة ومريرة تؤدي إلى استغناء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويسمى (الزواج المثلي) المشبوه في زماننا المعاصر، وبالتالي إيقاف التناسل والتكاثر والقضاء على الأسرة الصالحة وشرف الأمومة والأبوة، وانتشار الأمراض النفسية والأخلاقية والوبائية الفتاكة كالإيدز والسرطان وفيروس الكورونا وغيرها، وبذلك فساد التدبير، وخراب نظام الدنيا، إنهم ألفوا هذه الفاحشة النكراء وتعودوا عليها، فاعتبروا الرجوع إلى الحالة المستقيمة شذوذاً! كقوله (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/٣٦، إنهم انقلبت عندهم المقاييس الصحيحة، فلم يعرفوا أن يزنوا بالميزان الصحيح، فتلوثت عندهم الفطرة، فأصبح المعروف عندهم منكراً، والمنكر معروفاً، فهو معتد على جميع الحقوق، وأصبح المجتمع على حافة الانحراف والمخاطر التي تعارض حركة السنن الإلهية التي تعجل بهم الهلاك، والجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعده! عن النبي (ص) (مَنْ أَلَحَّ فِي وَطْءِ الرَّجَالِ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَدْعُو الرَّجَالَ إِلَى نَفْسِهِ!) البحار/٧٩

ص ٦٧، وعن الإمام علي (ع) (مَا أَمْكَنَ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعًا يَلْعَبُ بِهِ، إِلَّا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَهْوَةَ النِّسَاءِ!) البحار ٧٩ ص ٦٩ **فائدة:** وأكثر ما يكون اللواط في معسكرات الجنود، حيث لا يوجد نساء، أو في السجون حيث يكون المسجونون محرومين من الاتصال الجنسي الشريف، أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره مع وجود النساء وتيسير الزواج فهذا هو الغريب والرهيب والمخيف والعجيب!.

الجزء العشرون من القرآن الكريم

٥٦- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِذَا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ﴾

فلما نهي لوط قومه عن الشذوذ الجنسي، لم يكن جوابهم بعضهم لبعض، إلا أن قالوا زعمائهم استهزاءً، أخرجوا وهجروا لوطاً وأهله إلا امرأته من بلدتكم، ثم عللوا السبب في هذا الاخراج (إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ) يتظهرون: يتنزهون ويستنكرون ويترفعون عن اللواط والسحاق، إذ كان شائعاً بين نسائهم! كما كان اللواط شائعاً بين رجالهم! أي بحجة إنهم قوم يتنزهون ويترفعون عن اللواط ويعدون فعلنا شاذاً قذراً وقبيحاً، وله دلالة على البغي والعدوان على حقوق الإنسان، هو استهزاء بهم واستخفاف بأنهم يتظهرون ويتعففون عن أدبار الرجال ويعدون فاحشة مخزية قبيحة، واعتبروا لوطاً ومن معه كائنات غريبة وعجيبة تعيش في مجتمع ألف الشذوذ واستدوقه!، ولكنهم استنكروا الشذوذ وترفعوا وتطهروا عنه، ويكلفهم التطهر ضيقاً نفسياً، لأنه يدعو إلى الإقلاع عن ذلك الشذوذ المنتشر! وهكذا حبك للشيء يعمي ويصم ويذل الرقاب، قبّحهم الله جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، وجعلوا ذلك السبب والمبرر لوجوب طردهم وإخراجهم من البلد! فجوابهم يكشف عن انحطاطهم الفكري الخطير، والسقوط الأخلاقي في مستنقع الرذيلة، التي تعد الطهارة والتعفف عيباً كبيراً في محيط اجتماعي فاسد موبوء غير قابل للإصلاح، ولا يصلح للحياة. **فائدة:** عندما تنقلب المقاييس الصحيحة في مجتمع شاذ تختل عنده القيم والمبادئ والأخلاق، ينظرون إلى الإنسان المستقيم الطاهر المتعفف هو الشاذ والغريب! بينما يكون المنحرف والمفسد والفاحش هو الحالة المألوفة، إنهم انغمسوا في الرذيلة فأحبوها فتشوهت أمامهم عناصر الفضيلة وكرهوها، وهكذا تكون العفة والفضيلة مكروهة خسيصة عند الفاجر العاهر!، والذي يخالف منطق الفطرة السليم يجهل كل شيء، لأن منطق الفطرة مقدر بقدر معين كقوله (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) القمر/٤٩، ومن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيّق كقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا) مريم/٨٣-٨٤.

٥٧-٥٨- ﴿فَأَجْبِيَاهُ وَأَهْلَهُ إِذَا أَمْرًا تَقَدَّرْنَا مِنْهَا مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾

فخلصناه وأهل بيته المؤمنين من العذاب الواقع بالقوم قبل التهجير، إلا امرأته العجوز السيئة الكافرة الداعمة للشذوذ، والعاقبة لزوجها الناشز عليه (قَدَّرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ) الغابرين: الباقيين في

العذاب، أي قَدَرْنَا بقضائنا وتقديرنا من المهلكين، الباقيين في العذاب، لرضاها بفعلهم وإعانتها لهم عليه، ومن رضي بفعل قوم صار منهم، أنها لم تعمل أية فاحشة وأما كانت تدل عليها، عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧، وأيضاً الساكت عنه والحاضن له شركاء، ٥٨- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا) فقلب الله عليهم ديارهم وجعل أعلاها أسفلها، لأنهم قلبوا أنفسهم ومشاعرهم وقناعاتهم، وشذّوا عن نظام الفطرة الإنسانية السويّة، فقلب الله عليهم مدينتهم، فصارت عقوبتهم من جنس أعمالهم، وأمطرنا عليهم مطراً عجيّباً غريباً، وهو حجارة من السماء نزلت عليهم كالمطر لكثرتها، وهو حجارة من سجيل منضود متحجر معلّمة عند ربك، صغيرة الحجم ثقيلة الوزن، فهي كالرصاصة.

(فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ) فبئس مطر الذين أنذروا ولم ينتفعوا بالإنذار كقوله (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) النحل/١١٨، أصبح الهلاك عندما يئس من إصلاحهم، وأصبح وجودهم ضرراً على استمرارية الحياة والأحياء، لأنهم العناصر الشاذة الفاسدة الضارة في حركة السنن التاريخية. في الحديث (أنتم على بيّنة من ربكم ما لم تظهر منكم سكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حُب الدنيا) روح البيان ٣٥٩/٦، فائدة: مفهوم المطر في القرآن جاء بالنقمة والعذاب كما في هذه الآية، أما الغيث جاء بالرحمة والإنبات!

٥٩- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾

هو خطاب خاص للنبي (ص) وأريد به العموم إلى كل مؤمن بالله، والآية دعوة إلى ذكر الله بالحمد والثناء، على نعمه التي لا تحصى، وأهمها (الإيمان) الذي تعمر به القلوب، (وسلام) والسلام والتحية والإكرام والسلامة والنجاة، لما ذكر الله سبحانه بعض الأنبياء وما خصهم به من الفضل، أمر نبيه محمداً (ص) أن يحمد الله على إهلاك كفرة الأمم الماضية، ونصرة رسله عليهم، وهو المستحق للحمد من جميع عباد الله على نعمه التي لا تحصى، وأن يحمد الله ويسلم على جميع الأنبياء والمرسلين (الَّذِينَ اصْطَفَى) اختار وعصم لتبليغ دعوته وحمل رسالته بيان منهجه كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، وفي ذلك أدب رفيع وسنة حسنة، ينبغي أن يتبعها العلماء والخطباء والمبلغين والوعاظ وفي كل كتاب، وهو الاستفتاح بحمد الله، والصلاة على محمداً المصطفى (ص) وآله الطاهرين وأصحابه الذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم، وعلى جميع رسله المختارين والعلماء العاملين والمبلغين الصالحين، أمام كل درس تربوي علمي وأخلاقي، وقبل كل قول وعمل ومحاضرة للتذكرة والعظة والإرشاد (اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ) استفهام تقرير يُرَاد به أخذ الجواب من كل لسان ولغة على هذا السؤال، أيهما خير وأعظم وأنفع لعباده، هل الله الخالق المبدع الحكيم الذي خلق كل شيء خير (أَمَّا يُشْرِكُونَ) أم الاصنام التي عبدوها ذات الخيالات الطوبائية الفاسدة التي لا تغني عن شيء، التي يشركونها مع الله؟ سواء أكانت أصناماً

حجرية أم أصناماً بشريةً أم أصناماً معنوية من أفكار وقناعات متحجرة (كلاسيكية) في التعبير المعاصر، أم قناعات متخلفة غير قابلة للنقاش أو بدع ليست من الدين، وتحسب من الدين، كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، يشركون بالله شركاً خفياً بالرياء أو المعاصي أو تعلق القلب بغير الله تعالى... إلخ وهذا السؤال التويحي في الآية لا حاجة للجواب عنه في القرآن لوضوحه. عن النبي (ص) (إذا قرأ الآية قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم) فائدة: وفي اقتران ذكر الله بالحمد والثناء عليه، وبذكر المرسلين والدعاء بالسلام عليهم، وفي هذا تكريم لرسول الله واحترام للدعاة الداعين إلى الإسلام واعتراف بفضلهم على الناس.

٦٠- ﴿أَمْ نَحْلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

يواجههم القرآن الكريم بحقيقة كونية مألوفة واضحة، إذا تفكّر الإنسان وتدبّر قليلاً، وجد أن كل شيء في الكون يدل على وجود خالق له، فلكل مخلوق خالق، ولكل موجود موجد، ولكل تنظيم منظم، والذي لا يتعض بالدلائل العلمية والعقلية الواضحة الدالة على وجود الله، فإنه ينحرف إلى عبادة الآلهة المتعددة (فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) يونس/٣٢، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْعِلْمِ، فَسَبِيلَ الْجَهْلِ عَلَيْهِ أَضْيَقُ (والذي لا يستقيم به الهدى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) وكل شيء في الكون يخضع لسنن وقوانين إلهية مقدره بدقة، مما يُستدل بها الإنسان المتدبر على وجود مبدع حكيم الذي أبدعها وكوّنها، وهو الذي يستحق أن تتعلق به القلوب وتطمئن بالطاعة، وتسكن له النفوس وتستقر بالعبادة (وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) الذي أنزل لكم من السماء ماء الذي فيه حياة كل حي، كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء/٣٠، (فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) بساتين جميلة وخضراء ومنظر حسن، مما تبتهج وتنشرح به النفوس عندما تراه (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا) ليس بمقدور البشر أن ينبتوا شجرها ولا ثمرها، ونلاحظ (أنبتنا) لا يتم النباتات إلا بمشيئة الله سبحانه كقوله (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) الواقعة/٦٤، هل ساهم الإنسان في خلقها؟ فالله تعالى خلق الأشياء مما نعلم وما لا نعلم، ونحن نتعامل مع خلق الله بالأسباب الطبيعية ولا نتمكن من صنعها، فالإنسان عجز على خلق حياة في خلية واحدة لا تُرى وهي أصغر من أن تقاس، فكيف يستطيع أن يخلق بذرة للنبات؟ (أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟) استفهام إنكاري، أي هل مع الله معبود آخر سواه، بتلك القدرة والعظمة؟ كفؤ وشريك له يسمى بالإله حتى تساوا بينهما! وهو المتفرد بالخلق (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) يعدلون: يميلون عن التوحيد إلى الشرك، بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، أو (يَعْدِلُونَ) من المعادلة أي يساوون بين الخالق والمخلوق، وليس لله تعالى عدل ولا مساو، فمن عدل عن الله أي مال عن منهجه، عدل عن الحق والصراط المستقيم، وانحرف إلى

الشرك مع الله في العبادة، عن الإمام الباقر (ع) (أَدْنَى الشِّرْكِ، أَنْ يَبْتَدِعَ الرَّجُلُ رَأْيًا، فَيُحِبَّ عَلَيْهِ وَيَبْغُضَ عَلَيْهِ) البحار ٢/٣٠٤.

٦١- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا مَرَوِاسِيًّا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ مَعَهُ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يواجههم القرآن الكريم بحقيقة واضحة كونية أخرى، أم من جعل الأرض (قَرَارًا) مستقرة لا تميد بكم، ولا تضطرب في حركتها رغم دورانها حول نفسها وحول الشمس، بلا محور تدور عليه، يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها، وجعلها في مكانها المناسب الدقيق، ولو تقربت الأرض من الشمس قليلاً لاحتقرت الكائنات، ولو بعدت لانجمدت الكائنات وتعذرت الحياة! (وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا) وجعل (خِلَالَهَا) بين جهاتها المختلفة، أو في أوديتها الأنهار العذبة الطيبة لتروبيها، وتبث الحياة في شرايين الأرض، (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًّا) الرواسي: الجبال، وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم وتضطرب وتختل حركتها، ١- وجعل الجبال في أماكن معينة دون غيرها حتى تتوازن حركة الأرض، (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً وبرزخاً شفافاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار المياه العذبة فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما.

إشارة إلى مصبات الأنهار في البحار، حيث إن الماء العذب لا يختلط مع الماء المالح لمدة طويلة، بسبب اختلاف درجة الكثافة، فتدفع مياه الأنهار العذبة مياه البحار المالحة إلى الوراء، وتشكل بذلك بجرأً عذباً داخل البحر المالح، وهذه الظاهرة مع حركة المد والجزر تساعد على سقي مناطق زراعة واسعة، فمن أوجد هذا النظام؟ راجع الفرقان/٥٣ (أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ) أمع الله معبود سواه شاركه في ذلك؟ حاشاه تعالى (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) بل أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره، والقليل يعلمون ولكنهم يعاندون، خوفاً على امتيازاتهم، فالذي لا يتفكر فسوف يقوده الذين يفكرون! (لَا يَعْلَمُونَ) ويذكر العلم هنا، لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتعلم دقة النظام وعظمة المنظم، ثم ينتقل السياق القرآني بهم من مشاهد الكون الواسعة، إلى خاصة أنفسهم كقوله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات/٢٠-٢١.

٦٢- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكَ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾
 أم من يستجيب المضطر الذي أفلقتة الكروب، وتعسر عليه المطلوب، والذي مسه الضر واضطر للخلاص من معاناته، ودعاء المضطر لا حجاب له، ودعاء المظلوم لا مرد له، فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) ويدفع عنه الضر والبأساء؟ لقرب العبد من ربه ورحمته سبحانه به (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) ويجعلكم ورثة سكان الأرض تعمرونها، ويخلف بعضكم بعضاً، جيلاً بعد جيل وتتصرفون فيها وتتحمّلون مسؤوليتها وعمارتها (أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ)؟ أمع الله إليه

آخر سواه، يفعل ذلك حتى تعبدوه؟ (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) ما تتذكرون، أي ما أقلّ تذكركم وتفكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟! فلا تتأثرون ولا تتفاعلون ولا تهتدون.

فائدة: ١- عن النبي (ص) في دعاء المضطر (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت) المرابي ٢٠ ص ٩، وفي الخبر (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده) المصدر السابق ٢- قال أهل التفسير اللام في المضطر للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر كقوله (وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ) البقرة/١٨٦ ثم قيده (إذا دعاه) إذا حقق المضطر للدعاء شروطاً وللانقطاع كماله، فينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية، ويتعلق قلبه كله بربه الكريم وحده.

وأما من وقع بالخلط بين تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط، أو جمع بين الأسباب الظاهرية ودعاء ربه، فليس يدعو ربه دعاء المضطر، وإنما يدعو ربه بجزئه وليس بكله، يدعوه بلسانه دون قلبه ومشاعره، فإذا صدق في الدعاء انقطع بكله إلى ربه وحده، فإنه تعالى يجيب المضطر المستغيث ويكشف السوء عنه، ولا يتخلف الدعاء عن الاستجابة، وكم من داع يدعو فلا يستجاب له، فهو غير مضطر وغير منقطع ولا يستغيث وغير محقق لشروط الدعاء، من دعاء الافتتاح (وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِّي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ) عن الإمام الصادق (ع) (من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، وإن دعا لم يُستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته) البحار ٣٣٢/٧٥.

كقوله (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) الإسراء/١١، وقد يدعو الإنسان على نفسه بالشر! وهو يريد الخير، وهو لا يعلم ضرره عليه، فلا تجاب دعوته، كقوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) البقرة/٢١٦، فالمضطر في لحظات الضيق كالغريق في وقت الشدة، لا يجد له ملجأ إلا الله يدعو ليكشف عنه الضرر والسوء، ذلك حين تضيق المشاكل عليه وتتهاوى وسائل الإسناد المتنوعة، وتتجرد عنه وسائل النصرة وأسباب الخلاص، لا قوته ولا قوة في الأرض تنجده، وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد تخلى عنه، في هذه اللحظة الحساسة الحاسمة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة والمديدة التي تملك العوثر والنجدة، ويتوجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فالله سبحانه وتعالى الذي يجيب المضطر (أي مضطر) على الاطلاق إذا دعاه هو وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه السوء ويرده إلى الأمن والسلامة والاطمئنان برحمته، وينجيه من الضيق والبلاء الآخذ بالخناق! والناس يغفلون عن هذه الحقيقة المهمة في أوقات الرخاء وفترات الغفلة، يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض المحدودة، فأما حين

تلجئهم الشدة ويضطرهم الكرب فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويزول عنهم رين القلوب وقسوتها، ويرجعون إلى رهم منيبين إليه، مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين.

٣- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجِيبُ الْمَضْطَرَّ وَغَيْرَ الْمَضْطَرِّ وَالسَّائِلَ وَغَيْرَ السَّائِلِ كَقَوْلِهِ (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر/٦٠ في الدعاء (يَأْمَنُ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يَأْمَنُ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ تَحْنُنًا مِنْهُ وَرَحْمَةً) عن الإمام الصادق (ع) (أَكْثَرُوا مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ، وَتَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ، وَلَا يُبَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالْدُّعَاءِ، وَلَيْسَ بَابٌ يُكْثَرُ قَرَعُهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ) البحار ٢٩٥/٩٣، وإنما خصص ذكر المضطر لأنه أكثر حاجة، وأشدّ انقطاعاً إلى الله تعالى، لأنه يدعو وتكون جميع أحاسيسه ومشاعره مستنفرة مع الدعاء ويستغيث من كل قلبه، وخالصة التضرع إلى الله وحده بكل صدق وإخلاص، عن الإمام علي (ع) (فِي الْإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠، كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، وهناك آيات كثيرة تدل على أن الإنسان يتوجه عند الاضطرار لله تعالى، كركوب السفينة في البحر فيدعوه بانقطاع تام كقوله (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ (إِلَى قَوْلِهِ) وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) يونس/٢٢، وقد أراد الله لعباده أن يشعروا دائماً (باختيارهم) بالحاجة إليه في كل المواقع، في الشدة والرخاء وفي الضعف والقوة، ولكن تكون الحاجة إليه سبحانه أشدّ في حالات الشدة والانكسار والاضطرار عندئذ يستغيث بانقطاع فيغاث، ٤- هناك علاقة بين قوله (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ) وقوله (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) أحد مصاديقها الإمام المهدي (ع) وهو المضطر في دعوته فيجيئه الله ويكشف السوء، ويجعله خليفته المؤهلة في الأرض، وقيام حكومة الصالحين المأمولة.

مثله في تفسير نور الثقلين ج ٤ ص ٩٤ مع الاختصار.

٦٣- ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ) أم مَنْ يَرشِدُكُمْ إلى مقاصدكم في سفركم وحضركم (فِي ظُلُمَاتِ) الحيرة والشدة، وفي الظلام الدامس في البراري والبحار والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟ كقوله (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) النحل/١٦ ومن علمكم اختراع الأدوات الفنية المختصة الحديثة المتنوعة؟ (وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)؟ ومن الذي يسوق الرياح (بُشْرًا) مبشرة بنزول الغيث الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ومن الذي جعل لكم تلك الطاقة المدركة المفكرة المسماة (العقل) ليهديكم إلى كل خير؟ في غرر الحكم (العقلُ رَسْؤُ الحَقِّ) (أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ)؟ إليه مع الله يقدر على شيء من ذلك؟ (تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تعظّم وتمجّد الله القادر الخالق وتسامى عن مشاركة المخلوق العاجز.

٦٤- ﴿أَمْ يَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وبدء الخلق حقيقة كبيرة لا يمكن أحد تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته، ولكن الاقرار ببداء الخلق على هذا الابداع الذي يظهر فيه دقة التقدير والتدبير والقصد والتنسيق، وهذه الدقة تلجئك كذلك للتصديق (بالمعاد) إعادة الخلق بعد الموت للحساب، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال، وإن كان يتم فيها أحياناً بعض الجزاء، فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين عمل الإنسان وجزائه، وهذا لا يتم في الحياة الدنيا، فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال، ومن يقدر على الإنشاء يقدر على الإعادة، ويحكم العقل إن إعادة الخلق بعد الموت أيسر من إيجادهم من لا شيء أول الخلق كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) الروم/٢٧، عن الإمام زين العابدين (ع) (الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٧ ص ٤٢، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارِ إِقَامَتِهِ، حَلَصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُّهُ) في نهج البلاغة كتاب ٣١ (من الفساد إضاعة الزَّادِ، وَمَقْسَدَةُ الْمَعَادِ)

فائدة: ١- المعاد الجسماني ليس إعادة للشيء من العدم، بل هو رجوع المخلوقات إلى صورتها الأولى بعد أن لحق بها تغيير وتحلل في الشكل، لأن عمق القدرة على الإيجاد من العدم تدل على نفس القدرة على الإعادة بعد الموت، فلا تختلف القدرة في البداية عن النهاية، بل قد تكون البداية (ضمن الميزان العقلي) أكثر صعوبة من الإعادة، لأن البداية تنطلق من دون مثال بينما الإعادة على ضوء المثال (وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ومن يرزقكم بأسباب سماوية كالغيث وأسباب أرضية كالنبات والثمار (أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ)؟ أليه مع الله يفعل شيئاً من ذلك؟ (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) احضروا حجتكم القوية المقنعة، ودليلكم العقلي أو النقلية الثابتين على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أن مع الله إلهاً آخر! ولا برهان لديكم، لأن الخلق والإعادة، والتدبير والتقدير، أمر واحد قائم بالله تعالى كقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) الرعد/٨، والبرهان: أوكد الأدلة التي تجمع الحجج القاطعة التي تبنى على الاقناع وتعتمد الصدق، كقوله (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) المؤمنون/١١٧، وهنا يطالبهم القرآن أن يستعملوا شيئاً من العقل والمنطق وأن يحترموا إنسانيتهم، فلا يؤمنوا إلا بما يقبله العقل ويطمئن إليه القلب، وتبرز عظمة القرآن الكريم باعتناؤه بالبرهان الذي يقطع الخصام بقوة الحجة والبيان، والدعوة إلى الحوار والنقاش المفتوح، وتبادل الآراء التي تعتمد على الاستدلال المنطقي العلمي المقنع، وجاء (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)، في أربعة مواضع في القرآن سواء طلب برهان عقلي أو نقلي، برهان ذو حجة بالغة وبيان مقنع. ٢- (علاقة المعاد بالرزق) ذكر رزقهم من السماء

والأرض بعد ذكر البدء والإعادة، لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة، فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد، وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا، وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة فهو في الدنيا للحياة، وهو في الآخرة للجزاء والحساب، وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني البليغ العجيب.

٦٥- ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

يقول سبحانه آمراً رسوله (ص) أن يُعَلِّمَ الناس أنه لا يعلم الغيب كعلم الساعة أحد من أهل السماوات والأرض، من الملائكة والجن والأنبياء والمرسلين، كقوله عن لسان النبي مُحَمَّد (ص) (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) الأعراف/١٨٨ والله وحده هو الذي يعلم ذلك كقوله (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) الأنعام/٥٩، وكان ستر الغيب عن المخلوقات كافة لصالحهم، فلو علم الله أن في كشف هذا الغيب خيراً لكشفه للإنسان، المتطلع الشديد والمغرم في التطلع إلى ما وراءه! والمراد بالغيب: الشؤون التي تتعلق بأمر العالم الآخر وأحواله، وشؤون الدنيا التي لا تقع تحت حواسنا وعلمنا، والغيب: ما غاب عن حسنا وليس في مقدورنا معرفة ما يكون في المستقبل حقيقة وليس تخميناً، ومنه ما يتعلق بالعالم الآخر وأحواله (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وما يدرون وما يشعرون الخلاق حتى مجرد شعور (أَيَّانَ) متى يبعثون من قبورهم وينشرون بعد الموت لقيام الساعة؟ كقوله (ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْتَةٌ) الأعراف/١٨٧ (كفى بالموت واعظاً) عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ص٣٢٢، فلا يشعرون بيوم البعث إلا حين يموتون ويحشرون، عن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا إِنْتَبَهُوا) روح البيان ٢/١٣٢.

فائدة: ١- الإيمان بالحشر والنشر عنصر أصيل في العقيدة الإسلامية، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به، فلا بد من عالم آخر مرتقب يكمل فيه الجزاء، ويتعلق به القلب وتحسب حسابه النفس، وقيم الإنسان نشاطه على أساس ما ينتظره في العالم الآخر، والإنسان خليفة الله في الأرض وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يُعِينُهُ في هذه المهمة، وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله، ولكن كل (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من خلق الله لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم، فيبقى سره عند الله وحده دون سواه كقوله (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الجن/٢٦-٢٧.

٢- الغيب نوحان: نوع يُعَلِّمُهُ اللهُ تعالى لأنبيائه كقوله (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ) هود/٤٩، والنوع الآخر من قبيل العلم بيوم القيامة وهو خاص بالله تعالى وحده. فلم يكن كارتر الرئيس الأمريكي سنة ١٩٨٠ يعلم بأن عاصفة رملية

سوف تدمر طائراته في صحراء طبس في إيران، وتبطل مؤامراته ضد ثورة الإمام الخميني، وهل المخابرات تعلم أن مركبة الفضاء تشالنجر سوف تتحطم بعد لحظات من إطلاقها؟! لو كانوا يعلمون لما أقدموا على إطلاقها، وتحالف الغرب وأمريكا وأوربا على إسقاط الجمهورية الإسلامية في إيران سنة ١٩٧٩ ولكن (يُدَبِّرُ الْمُدْبِرُونَ، وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ!) (عبدي أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد) (فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكوير/٢٩ وقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) الأنفال/٣٦ وقوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) آل عمران/١٧٩، ٣- للغيب مراتب: غيب لأهل الأرض وفي السماء، وللإنسان في تحصيل علمه وهو على أنواع:

أحدها: ما غاب عنك مثل غيبة شخص عنك أو غيبة أمر من الأمور، ولك إمكان إحضار الشخص والاطلاع على الأمر الغائب، **وثانيها:** ما غاب عنك وفيها مخبات مستورة من الأوصاف والأخلاق وتسامي الروح مما هو غائب عنك، ولك إمكان معرفتها بطريق مجاهدة النفس وتركيتها، في غرر الحكم (دَرَوَةُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْدِيدِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) وفيه أيضاً (تَكَادُ ضَمَائِرُ الْقُلُوبِ، تَطَّلُعُ عَلَى سَرَائِرِ الْغُيُوبِ) وفيه أيضاً (لَوْ كُشِفَ الْغَطَاءُ مَا ارْزَدْتُ يَقِينًا) **وثالثها:** وغيب ليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بإذن الله كقوله (سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣، **ورابعها:** وغيب ليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بتعليم الله تعالى له كقوله (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) البقرة/٣١-٣٢ **وخامسها:** غيب خاص بالله تعالى، لا سبيل إلى علمه إلا لمن ارتضى من رسول، راجع (الجن/٢٦-٢٧) **وسادسها:** غيب استأثر الله بعلمه، لا يعلمه أحد حتى أنبياءه، وهو علم الساعة (يوم القيامة).

٦٦- ﴿بَلِ إِذَا مَكَرَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلَغُوا فِي شَكِّ مَتَابِلِهِمْ مَتَابِعُونَ﴾

إِدَارِك: أي تدارك تتابع علمهم بالآخرة وتلاحق، وتتابع أخبار الرسل حول المعاد، ولكن النتيجة عجزهم عن معرفة وقت الساعة وضعف علمهم فيها، وصار وهماً وخيلاً واصلاً إلى القلب ومؤثراً في النفس، بل ليس عندهم علم أصلاً في الآخرة لا قوي مؤثر ولا ضعيف، بل تغلب عليهم الشك لمرض قلوبهم وجهل عقولهم (بَلِ لَهُمْ فِي شَكِّ مَنَافِعِهَا) التدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض إلى الانقطاع، وتلاحقها في الجهل والاضمحلال والفناء حتى تنقطع، ولا يبقى أي شيء عندهم من العلم في الآخرة (إِدَارِك) بلفظ الماضي، والمراد به المستقبل أي أنهم سوف يدركون حقيقة الآخرة عندما يصطدمون بها ويعيشون فيها، كقوله (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مَنَهُ مَرِيِبٍ) هود/١١٠، عندئذ لا ينفعهم العلم واليقين! لأنه بعد فوات الأوان.

المعنى: أن الأسباب الموجبة للإيمان باليوم الآخر كثيرة، وبعضها يتبع بعضاً ومع ذلك كله لم يؤمنوا، لأنهم مغلقون عن الآخرة كما تقول: فلان عنود وجحود لا يقنعه شيء، أنهم لم تنقصهم الأدلة على وجود القيامة، وأما عاشوا اللامبالاة في حقها وأصابهم العناد والاصرار على الكفر بها، واتخذوا الشك منطلقاً في حياتهم **(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا)** كيف يؤمنون بالآخرة وقد اتخذوا الشك فيها ديناً وعقيدة معتمدة، حتى أصبح جزءاً من كيانهم؟ فوقعوا في أشد وأفظع من الشك، وهو العمه والعمى، (عمه) القلب هو عمى البصيرة، يقال **عمى البصر:** فهو يرى ولا يعقل ولا يتفكر سوء عاقبته فهو ميت الأحياء **(كفى بالملوت واعظاً)** ورب أعمى في الظاهر بصير في الباطن، ورب بصير في الشكل أعمى في الحقيقة، وعلاج هذا العمى المعنوي الخطير بالإيمان والعلم بالأديان.

(بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) جاهلون أي عميت بصائرهم عن الآخرة.

عَمُونَ: وهو أعمى القلب والبصيرة، الآخرة بحاجة إلى **انفتاح الذهن وإلى بصيرة القلب**، وقلوبهم أعمى عن الآخرة، وأسماعهم صماء عنها، وعقولهم تحجرت وتكلمت عنها، واستغرقت طاقاتهم الفكرية في شؤون حياتهم الدنيا فقط، فلم يبقى منها شيء يدركون به حقيقة الآخرة، فهم في جهل مركب مطلق في فهم الآخرة، وتعطلت أجهزة الاستقبال عندهم، فلم يؤمنوا بالعالم الآخر، فكيف آمنوا بالنشأة الأولى وكفروا بالنشأة الآخرة؟ فاعتمدوا العناد وأصروا على الكفر، وبقوا في شك من الآخرة يرتابون في أمرها، فطغى عليهم الضلال والجهل فإذا هم في عمى البصيرة، عن كل ما يوصلهم إلى الحق في شأنها. **في مفردات اللغة: (العمى)** يقال في افتقاد البصر و**(عمه)** في افتقاد البصيرة، ويقال في الأول أعمى وفي الثاني عمى وعمه، عمى القلب **(البصيرة)** وهو أشد وأعظم ضرراً من عمى البصر، كقوله **(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)** الحجر/٧٢، ولا اعتبار لافتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة، كقوله **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** الحج/٤٦. **فائدة: مخاطر الشك في العالم الآخر:** قوله **(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا)** الشك: مرحلة مَرَضِيَّة خطيرة هابطة مَضْرَّة في النفوس الضعيفة والقلقة، والشك: خطير بذاته ومعدى لغيره، فهو آفة الدِّين ومعرقل للإيمان والأفكار، وهو بداية الضلال ومخاطر الانحدار إلى الفساد والحرام. **والشك:** إذا بقي في النفوس فيظلمها، وإذا وصل لى القلوب فيحجبها عن اطمئنانها، كقوله **(كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)** الأنعام/١٢٥، **الرجس:** وهو كل شيء سَيِّئ يسوء حياة الإنسان ومن معانيه **(الشك)**

العوامل التي تؤدي إلى الشك: منها الجهل التردد والتذبذب والتقلُّب والبقاء على هذا الاضطراب من دون علاج لمواطن الشك في غرر الحكم **(الشك ثمرة الجهل، من يتردد يزدد شكاً)** فإن يسير من الشك يفسد كثير من القناعات اليقينية.

ما هي النتائج الخطيرة التي يحصل عليها الشاك:

الشك: يحيط الإيمان والعمل الصالح، ويجعلك محجوباً عن المعرفة الصحيحة، وتكون في حيرة مستمرة حتى يقلق قلبك ويؤرق ليلك وَيُفْسِدُ دِينَكَ! في غرر الحكم (الشك يُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ).

كيف تتخلص من الشك؟

وذلك بحلّ الإشكالات والشبهات بالبحث العلمي، ومن أهل العلم والاختصاص، فمن يصدق في إيمانه لم يراوده الشك في غرر الحكم (أعظم الناس من لم يزل الشك يقينه، بتكرار الفكر ينجاب ينكشف) (الشك) وفي نهج البلاغة حكم ١١٣ (لا ورع كالوقوف عند الشبهة)

أما يوم القيامة: حقيقة ثابتة ومقدّرة وكائنة ولا بد منها، لأنها تعطي للحياة معناها وتبين فلسفتها، وتعطي للوجود حيويته وقيّمته وهدفه، وبما أن القيامة مقدّرة ومدبرة، إذن فكلّ مقدّر كائن، وكلّ كائن آتٍ، وكلّ آتٍ قريب، وكلّ قريب كاد أن يكون كقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) النازعات/٤٦.

٦٧-٦٨- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّمَا كُنَّ مَخْرَجُونَ، لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأُولَىٰ﴾

وقال المنكرون للبعث والنشور، والاستفهام إنكاري: إذا استحالت أجسادنا تراباً نحن وآباؤنا فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية في عالم آخر جديد؟ ٦٨- (لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ) لقد وعدنا الأنبياء الماضون بذلك المعاد إلى يوم القيامة، من قبل أن يعدنا مُجَّد بالبعث فهو وعد قديم لم نزل نوعده به، فلو كان حقاً وصدقاً لحصل، ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه أمامنا، عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٢٢/٣، وعنه (ص) (وَيُبْعَثُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خبر ٤٢٧٢٢، وهنا يأتي دور الإيمان وعظمتها، فيجعلك تؤمن بالمعاد قبل أن ترى حقيقته، فيكون الإيمان ضرورة في حياة الإنسان، ثم قال (إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولَىٰ) أساطير: خرافات واكاذيب مسطّرة في كتب ليس لها حقيقة، أي ما هذا الإيمان بالمعاد إلا من خرافات وأباطيل السابقين، وسطّروها في كتبهم لا صحة لها، فبقيت حتى وصلت إلينا، فقد كان الأولون مولعين باختلاق الأوهام والخرافات والاصغاء إليها! فائدة: إنهم وقعوا في خطأ ووهم عندما قاسوا قدرة الله المطلقة بقدرة الإنسان المحدودة، قال العلم الحديث: المادة لا تُفنى ولا تستحدث، وكذلك الطاقة لا تفنى، فإذا كانت المادة لا تفنى فكيف يفنى الإنسان بلا رجعة إلى يوم القيامة؟ فلماذا حُلق إذا لم يعد للجزاء عدّته المناسبة؟ كقوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الأعراف/٢٩، وإذا حُلق بلا عودة المعاد فهذا عبث في الخلقة، والله سبحانه منزّه عن العبث، والله خلق ما خلق بالحق.

سؤال: ما رأينا أحد خرج من قبره مُعدّياً؟

الجواب: لقد أخبر القرآن أنه في زمن عيسى (ع) أحيى الموتى كقوله (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) آل عمران/٤٩، وإعادة الحياة للميت تلك المعجزة الخارقة القاهرة المتحدية المذهلة التي تخضع لها القلوب، والتي يقف الإنسان عاجزاً عن تأويلها إلا بالإيمان بالله العظيم، وقد قام الميت من قبره وأخبر عما لاقاه، ولكن بقي الكافر كافراً، والمؤمن مؤمناً، لأن المؤمن دليل واحد يكفيه، وغير المؤمن لو جئته بالأدلة تلو الأخرى فلا يؤمن، كقوله (فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) يونس/٨٨، من ناحية ثانية فإن حقيقة العالم الآخر فهو في عالم الغيب فإذا لم تره العيون بحقيقة الأعيان، فقد رآته القلوب بحقيقة الإيمان وجمال البرهان وقوة البصيرة، وتكون قوة البصيرة وجمال البرهان، والحجة والبيان أقوى من رؤية البصر، لأن العيون لا ترى كل حقيقة، فالجاذبية حقيقة ولكنها لا تراها العيون، وهكذا الموجات الصوتية واللاسلكية لا تراها العيون، وهكذا عالم المكروبات والفيروسات والجراثيم والبكتريا وغيرها لا تراها العيون ولكنها حقيقة واقعية، وأيضاً الروح حقيقة ولكن لا تراها العيون...إلخ.

الإنسان الذي يريد أن يعرف كل الحقائق عن طريق حواسه وليس عن طريق العلم، فإنه يضل السبيل، والإنسان الذي لا يعرف لماذا يموت لا يعرف لماذا يعيش؟! والذي ينكر النشور واليوم الآخر فإنه ينكر علة وجوده في الحياة، ولا يعرف لماذا هو موجود؟ (وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ؟) والذي يعتبر النهاية فناء فإنه يعتبر وجوده عبثاً، يقرر القرآن حقيقة مهمة أن كل شيء في الوجود خاضع لتنظيم وتدبير وتقدير كقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢، ولم يخلق ما خلق سدى وباطل كقوله (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُخَّانًا) آل عمران/١٩١، في نوح البلاغة خطبة ١٥٤ (العامل بغير علم، كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لَا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الصَّوَابِ)!

٦٩-٧٠- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَأ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ وَكَأ تَأْتِي فِي ضَنْبِنَا مَنَا

يَنْكُرُونَ ﴿

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) دعا القرآن الكريم مراراً إلى السفر السياحي أو التجاري أو السفر لطلب العلم أي، سافروا وتجوّلوا في بقاع الأرض المختلفة في العالم، سافراً هادفاً بتدبّر وتفكّر وبحثوا عن آثار الماضيين، وقرأوا سنن التاريخ بوعي، وانظروا نظر اعتبار واستفادة كقوله (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢، في غرر الحكم (بِالْأَسْتَبْصَارِ يَحْصُلُ الْاِعْتِبَارُ) وتعلموا سنن الله الثابتة التي لا تتحول ولا تتبدل، فاعرفوا كيف تنهض الحضارات وكيف تموت؟ فتقرأوا كيف عادى أهل الباطل أهل الحق؟ وكيف بقي أهل الحق يؤثرون ويقاومون الباطل مع كثرة الضغط عليهم؟ فيدل ذلك إن للحق دولة في النهاية وللباطل جولة ومهلة مهما طال كقوله (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/٨٣ (مَنْ لَمْ يَنْعَظْ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) لأنّ أهل الباطل يسرون بعكس حركة السنن

التاريخية، فيتحولون من حالتهم الإنسانية إلى حالة طفيلية ضارة وخطرة على نظام وحركة هذه السنن في المجتمع، فيكونون عبرة لمن يعتبر، (وَأَحْسَرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ) فائدة: (عاقبة المجرمين) أصل الجرم قطع الثمر عن الشجر، وفصل العظم عن اللحم يسمى اللحم المجروم أي مفصول عن العظم، فالإنسان المجرم هو المفصول عن إنسانيته وفطرته، فهو على استعداد أن يعمل كل جريمة وكبيرة، لا يردعه شيء.

٧٠- (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) وهؤلاء لا يستحقون أن تحزن عليهم لشدة ضلالهم وعنادهم وسوء أفعالهم، فهم لا يرحمون أنفسهم ويسيوون لمن يريد أن يرحمهم! إنهم أصروا على الباطل، فلا يليق بهم الحق (لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) ولا يضيق صدرك ويقل صبرك مما يخططون ويتآمرون ضد الإسلام والمسلمين، والله يمهلهم ولا يمهلمهم، إذا ضاق صدرك ضعفت عن مواصلة طريق الدعوة إلى الله، ولا تبال في مكرهم وخداعهم كقوله (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر/٤٣ فإن الله وليك وولي المؤمنين، ومُظْهِرُ دِينِكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣ وهو ليس بنهي عن تحصيل الحزن، لأن الحزن ليس من اختيار الإنسان، وإنما النهي عن ما يورث الحزن ووسائل اكتسابه كقوله (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) يونس/٦٢، عن النبي (ص) (مَنْ أَكْثَرَ الْإِسْتِعْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) البحار/٩٣/٢٨٤.

٧١-٧٢- ﴿وَيَقُولُونَ سَيَأْتِينَا رَدْفُكَ وَنَحْنُ كَالَّذِينَ نَحْنُ كَالَّذِينَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويقول الكافرون استهزاء: متى يجيئنا العذاب الموعود في الآخرة أو في الدنيا (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)؟ الاستفهام إنكاري، فنحن منتظرون بفارغ الصبر!، ٧٢- (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفُكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) ردف لكم: تبعكم ولحقكم وقرب منكم قرب الرديف لرديفه، المعنى: قل عسى أن يكون العذاب وراءكم قريباً رديفاً يلحق بكم بعض الوعد الذي تستعجلونه، وهو عذاب الدنيا الذي يقربكم من عذاب الآخرة وأنتم لا تشعرون، فما دام المَوْتُ فِي إِقْبَالٍ وَالْعُمْرُ فِي إِذْبَارٍ فَسَرَّعَانَ الْمُتَلَتِّي، والذي يستعجل النهاية قبل الاستعداد لها معنى ذلك أنه يستعد للعذاب، ونعلم من ذلك أن العقوبات الإلهية لها نظام وتديبير وتقدير وتوقيت، ولها مراحل متتابعة، فائدة: الظالم عندما يتجاوز الحدود في ظلمه يعيش الضبابية في الرؤية، والتشويش في التفكير، فهو لا يعرف قيمة الإنسان ولا قيمة نفسه فيستهين بالعذاب الإلهي، وهو لا يعلم أنه قريب منه (وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ) كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، ثم بين سبحانه السبب في ترك تعجيل العذاب.

٧٣- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

وإن ربك هو المنعم المتفضل الرحيم بالناس جميعاً، بكل نعمة أنعمها عليهم كقوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل/٥٣ ومن هذه النعم تركه المعاجلة بالعقوبة على المعصية والكفر، فيمهلهم الله عسى ان يتوبوا ويعودوا إليه، ولكن أكثرهم (لَا يَشْكُرُونَ) لا يعرفون حق فضله عليهم، ولا يتدبرون عاقبة أمرهم، فلا يشكره إلا القليل منهم كقوله (وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ) سبأ/١٣-٢ وقوله (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل/٤٠، عن الإمام زين العابدين (ع) (أشكركم الله أشكركم للناس) البحار ٧١ ص ٣٨، أكثر الناس اشتغلوا بالنعم عن المنعم، وأخذتهم الدنيا عن الآخرة، واستقطبتهم البطون والفروج عن العقول والقلوب، كأنهم اشتغلوا بالهم عن الأهم، والذي لا يشكر المنعم لا يعرف قيمة النعم.

٧٤-٧٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
 تُكِنُّ: تخفي وتتستر، وإنه تعالى ليعلم ما يخفون من الحسد والحقد والمكر (وَمَا يُعْلِنُونَ) وما يظهرون من عداوة الرسول وكيدهم وتكذيبهم ومكرهم له سيجازيهم عليها كقوله (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ) الرعد/١٠ ثم ذكر أن كل ما يحصل في هذا الوجود فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، فليحذروا من يعلم السرائر والظواهر، وليراقبوه كما هو يراقبهم، وهو أقرب إليهم من أنفسهم. ٧٥- (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) غائبة: خافية، أي ما من أمر مكتوم وسر خفي في النفوس، من حوادث الدهر وغرائبه وعجائبه، يغيب عن الناظرين في السماء أو في الأرض إلا وهو محفوظ (في كتابٍ مُبِينٍ) في أم الكتاب (اللوحة المحفوظ) الذي أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن ويكون من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة، فالغيب والشهادة، والسر والعلانية، بالنسبة إلى علم الله تعالى سواء، كقوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) الحج/٧٠ جاء في دعاء الإمام السجاد (ع) (وَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ يَا إِلَهِي مَا أَنْتَ خَلَقْتَهُ، وَكَيْفَ لَا تُخْصِي مَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ، أَوْ كَيْفَ يَغِيبُ عَنْكَ مَا أَنْتَ تُدْبِرُهُ، أَوْ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْزُبَ مِنْكَ مَنْ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِرِزْقِكَ، أَوْ كَيْفَ يَنْجُو مِنْكَ مَنْ لَا مَذْهَبَ لَهُ فِي غَيْرِ مُلْكِكَ؟) الصحيفة السجادية دعاء (٥٢).

٧٦-٧٧- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُعْزِئُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُ لَهْدَى وَمَرْحَمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
 وهذا خبر عن هيمنة القرآن على جميع الكتب السابقة وتفضيله عليها، وهيمنته على كل ما ينتجه البشر من نظريات ومبادئ وضعية، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين والمختلفين، إنه فضل الله على الناس بهذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، المعنى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ) المنزل على خاتم الرسل هو الكتاب الحق الذي (يُقْصُصُ) يحكي ويروي ويبين لأهل الكتاب الحق في كثير مما اختلفوا فيه وتنازعا من أمر الدين، ومن جملة اختلافهم في تشبيه الله بخلقه وتنزيهه، ومسألة عزير ومريم العذراء وقولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) المائدة/١٨، في أمر المسيح وتفرقهم فيه

فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً وغير ذلك، فلو كانوا منصفين ويقصدون الحق لأسلموا وأتبعوا القرآن، لأن القرآن جاءهم بالخبر القاطع وهيمنته على جميع الكتب، وتفضيله عليها كقوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) المائدة/٤٨ لكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق، كما تفعلون أنتم أيها المشركون، ويبقى القرآن الكريم الحكم الفاصل بين المتجادلين والمختلفين، كقوله (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) يونس/٣٧.

عن الإمام علي (ع): قيل لرسول الله (ص) إن أمتك ستفتن من بعدك ما المخرج من هذه الفتنة؟

فقال (كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فصلت/٤٢ من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا الأمر فحكم به عصمة الله، وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصرط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبا من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل) البحار ٩٢ ص ٢٧ وإذا كان القرآن الكريم بهذه الجلالة والكمال، وإزالة كل خلاف وفصل كل مشكل، فهو أعظم نعم الله الكبرى على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا يبين الله أن نفعه ونوره وهده مختص بالمؤمنين، فقال ٧٧- (وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) وإن القرآن الكريم لهداية لقلوب جميع المؤمنين في كل الأجيال في كل زمان ومكان من الضلالة، يقيهم من الخلافات، ويخلصهم من النزاعات، ويوحد النهج ويطمئن بها العدل ويعين الطريق المستقيم، طريق النجاة (وَرَحْمَةً) ونعمة يشرح بها صدور المؤمنين ويطمئن بها قلوبهم، وتستقيم بها أمورهم الدنيوية والدينية، ويخلصهم من العذاب النفسي وعذاب الآخرة، وريقيهم من الشك والحيرة والقلق والأرق، وينجيهم من المناهج المبتدعة والنظريات الضالة المنحرفة المتنوعة التي لا تثبت على حال في كل زمان ومكان، وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المقبولون عليه المتفكرون في معانيه والخاضعون لمنهجه والمتشرفون في صراطه المستقيم، ليعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهوا إلى رضوان الله الأكبر.

فائدة: والمنهج القرآني منهج رباني فريد، في إعادة إنشاء النفوس المطمئنة، وتثبيت تركيبتها وقناعتها وفق نسق الفطرة النقية الخالصة، حيث تجدها متسقة ومتوافقة مع نظام الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن الثابتة التي تحكم هذا الكون، وهذا التناسق بين نظام سنن النفس ونظام سنن الكون، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري النابض، وهذا الوجود الأكبر! ينبع منه السلام والسلم العالمي الضخم بين البشر وكل الكون والكائنات، وهذه هي الرحمة في شمول معانيها (وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ).

٧٨-٧٩- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾

إنَّ ربك سيفصل بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم وسيحكم بحكمه العادل، فينتقم من المبطل المفسد منهم، ويجازي المحسن المستقيم بما يستحق من الجزاء (وَهُوَ الْعَزِيزُ) المنيع الغالب الذي لا يُغلب والذي لا يُرد حكمه وقضاؤه، ولا يخرج عن سلطانه أحد (الْعَلِيمُ) الذي لا يجهل ولا يخطئ في حكمه و(الْعَلِيمُ) بأفعال العباد وأقوالهم فلا يخفى عليه شيء منهم، فقضاؤه موافق لواسع علمه، ٧٩- (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) التوكل: الاعتماد والالتجاء بالقلب والمشاعر إلى الله، وتوثيق الصلة بين العبد وربّه، بحيث لا يغنى توكل مطلوب على عمل مفروض، وسعي واجب مدروس والتوكل: تفويض الأمر إلى الله والخضوع إليه والتعلق به وسكون القلب إليه سبحانه، والإعراض عن التشبث بمن سواه، واعتمد عليه في جميع شؤونك فإنه ناصر كقوله (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) النساء/٤٥، وعلى قدر الثقة بالله يكون التوكل، ويكون التوكل على قدر اليقين، عن الإمام الجواد (ع): (الثِّقَّةُ بِاللَّهِ تَعَالَى ثَمَّنْ لِكُلِّ عَالٍ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ عَالٍ) كقوله (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) الطلاق/٣، في غرر الحكم (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَصَانَ يَقِينُهُ). (إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) وهذا هو سبب التوكل على الله، لأنك على الحق الواضح، ومن الحق وإلى الحق ومع الحق، وناصر دين الله الحق، وصاحب الحق، ومعين الناس بالحق، فإنك لا تخرج من الحق الواضح إلا وتعود إليه داعماً له، لأنك تثق بحفظ الله ونصره وتأييده فالعاقبة لك، وكلمة الله هي العليا، والله تعالى هو الحق ومع الحق ومع صاحب الحق، وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض سنة ثابتة لا تتخلف، قد تبطى لحكمة يعلمها الله ولكن وعد الله لا يتخلف كقوله (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الروم/٦٠، وقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧، وَمَنْ لَا يَقْتَنِعَ بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقْتَنِعَ مِنْهُ عَاقِلٌ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْبَاطِلُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!

٨٠- ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَكَأَنَّكَ تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾

يرسم القرآن صورة حيّة متحركة مؤثرة لحالة نفسية ظلامية ضبابية مضطربة غير محسوسة، إنها حالة قسوة القلب وجمود الروح وجفاف النفس وبلادة الحسّ وهمود الشعور، فهم كالموتى لا يسمعون الدعاء والدعوة القيّمة، وهم صمّ مدبرين عن الداعي والداعية، فهم لا يشعرون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يتأثرون بالهداية وعوامل الدراية، فهم كالموتى الأحياء، وأقبح الحياة أن تُحسب على الموتى وأنت حي! إذاً: هناك الحياة والموت في القرآن بمعناها المادي الحسّي الظاهري، وبمعناها المعنوي غير الظاهري وغير الحسّي، المعنى: (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى) من يصّر على رأيه ويعاند ويكابر ولا يتقبل الحوار الموضوعي، ولا يتوقع الخطأ من نفسه، يستحيل أن ينتفع بشيء من الهدى والعلم، والكلام معه كالكلام مع الأموات لا حسّ لهم ولا عقل ولا تدبّر ولا اعتبار، وأما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم! (وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا

مُدْبِرِينَ) **وَلَوْ** مدبرين: انصرفوا معرضين، أي لا تسمعهم دعاءك ونداءك ودعوتك إذا ذكركم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان لأنهم كالصم في آذانهم وقر، فلا يستجيبون الدعاء، وليس في وسعك أن تُسمع الموتى دعوتك، لأنهم صمّ، ولا تقدر أن تُسمع الصم النداء المطلوب إذا كانوا مقبلين، فما ظنك بهم لو كانوا مدبرين معرضين مكابرين، ولا أحد يصغي لمنطق الحق إلا إذا كان ضالته (غايته) التي يطلبها وحاجته التي يُسأل عنها، فلا يضرك ضلال من ضلّ وليس عليك هداهم كقوله (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النحل/٨٢.

فائدة: ١- من طبيعة الإنسان الحي أن يتأثر بالحق ويؤثر به، أما الإنسان الميت يفقد التأثر والتأثير، أما هؤلاء الأحياء الذين يفقدون التأثر والتأثير، فإنهم بحكم الأموات فهم ميتو الأحياء! عن النبي (ص) (لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ، إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ) البحار ١٧٥/٨٢، في غرر الحكم (والجاهل ميت بين الأحياء) فهو يرى ويسمع ولكنه لا ينتفع بما يرى ولا يسمع، والإنسان المتعلق قلبه بحب الدنيا فهذا الحب يعمي ويصم ويدل الرقاب، يعمي عن طريق الهدى والرشاد، ويصم ولا يسمع دعوة الحق كقوله (فَلَا تَعْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَنُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ) لقمان/٣٣ عن النبي (ص) (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ حَاطِيَةٍ) البحار ٧٣ص٧.

٨١- ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

هو استكمال لوصف هؤلاء الموتى الذين لا حسّ لهم (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) وليس بوسعك يا مُجَّد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم، وتهديهم إلى طريق الاستقامة، كقوله (حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) البقرة/٧ إنها غشاوة الإعراض عن الهدى، وهي الحجاب والحاجز الذي يمنعهم من معرفة الحق وسلوك سبيله. في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) (إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) وإنما تقدر على أن تُسمع من يؤمن ويطلب الحق، ويتدبّر آياتنا المنتشرة في الآفاق وفي أنفسهم، فإنهم بإذعانهم لتلك الآيات والحجج الكثيرة (فَهُمْ مُسْلِمُونَ) من التسليم، أي ينقادون بأعمالهم ويستسلمون لأمرك بقلوبهم يخلصون لك بصدق، يسلمون وجوههم لله تعالى، كقوله (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) التغابن/١١، أما الانتهازيون أصحاب المصالح الشخصية، فهم طلاب ربح وصيد ومواقع لكسب الأموال الطائلة، أما أنت يا مُجَّد فلا يطعمون فيك هؤلاء، يمضون في عماهم لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرونه، فهم يرونه بأعينهم ولكنهم لا يعون ما يبصرون، وفي مقابل الموتى **والعمي والصم يقف المؤمنون**، فهم الأحياء السامعون المبصرون المستجيبون، كقوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) القصص/٥٦ عن النبي (ص) (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ لِي مِنَ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كنز العمال خير ٥٤٦، كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ وعنه (ص) (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ

إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ آغْنَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَصَمْتُهُ) البحار ٥/١٩٨، كقوله (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) الأنعام/٣٦.

وفائدة: (العمى) جمع أعمى، والعمى افتقاد البصر، فشبهه من افتقد البصيرة بمن افتقد البصر في عدم الهداية فلا ينفعه بصره.

وقال في المفردات: لم يعد تعالى افتقاد البصر في جانب افتقاد البصيرة عمي! كقوله (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/٤٦، وعن النبي (ص) (أعمى العمى عمي الضلالة بعد الهدى، وشر العمى عمى القلب) نور الثقلين ٣/١٩٧، يعني أعمى عن الحقائق الموجودة. فجعل الله الجهل بمنزلة العمى، لأنه يمنع عن إدراك الحق كما يمنع العمى عن إدراك المراتب فيكونون كالحيوان (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) الفرقان/٤٤ وكقوله (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) يونس/٩٦-٩٧.

وأيضاً: من يعجب بنفسه ويستكبر في سلوكه ويستصغر الآخرين، هذا المستوى المستعلي بغير حق، المستكبر على العلم لا ينتفع بالمواعظ والحكم والأحكام، مثله كما تتحدث مع الأموات! **والمقصود:** إذا لم يتوجه الإنسان بدافع من نفسه لمعرفة الحق حتى يتبعه، ومعرفة الباطل حتى يجتنبه، فلم يكن له من نفسه واعظ، ولا تنفعه المواعظ ولم يكن له من الله حافظ، والأمير من كان على نفسه أميراً، والسياسي من ساس نفسه قبل أن يسوس الآخرين، والإسلام واضح وقريب إلى الفطرة السليمة، فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له، وهكذا يصور القرآن القلوب القابلة للهدى الواعية المستعدة للاستماع، التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول (ص) فتتأثر فيصلها بمنهج الله فتؤمن به وتهتدي وتنضبط وتستقيم. كقوله (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) ق/٤٥.

٨٢- ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

(من الآيات المتشابهة) **وقع القول عليهم:** دنت واقتربت الساعة، ونهاية عمر الدنيا، ووجب العذاب على المجرمين كقوله (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) النحل/١، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشدائد. **المعنى:** وإذا دنت القيامة ووجب العذاب على الكافرين، وأغلقت أبواب التوبة، وانتهى زمن التكليف (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) تشير الآية للدابة بلا تفصيل، أي أخرجنا للكفار المنكرين العالم الآخر (دَابَّةً) هذه الآية الكبيرة المميزة الخارقة العجيبة من الأرض ومن جملة قولها: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا لَا يُوقِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بل يعيشون الشك في القرآن ومنهج الله القويم (دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) تكلم الناس وتناظرهم وتلقي الحجة عليهم وتقول من جملة كلامها (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

هود/١٨، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وخروج دابة الأرض ظاهرة خارقة عجيبة، من أشراط الساعة، فتكون حجة وبرهاناً على إيمان المؤمنين، وحجة على المعاندين، لأنها تخبر المؤمن بأنه مؤمن والكافر بأنه كافر، كقوله (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) آل عمران/١٠، ومن علامات خروجها حين ينقطع عمل الخير ويزداد الفساد، وكلمة (النَّاسِ) للدلالة على الكثرة، والخطاب لكل الناس في العالم، لأنهم سيراها مَنْ بالشرق والمغرب، وتكلمهم بكلام مقنع خارق للعادة مع الحجة والبيان! (أخرجنا) إِنَّ اللَّهَ أَسْنَدَ الْإِخْرَاجِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، للدلالة على أن الدابة من تدبير الله، ويروى أنها تخرج بين الصفا والمروة (دابة) استخدمت دابة في القرآن مرات عدة وكانت تشمل الإنسان أيضاً كقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) هود/٦، فكل ما يدب على الأرض أي يمشي يسمى دابة في اللغة.

فائدة: لم يُبين الله سبحانه ولم يُفصّل في حقيقة هذه الدابة في كتابه الكريم، ولا ثبت ذلك عندنا في سنة نبينا المصطفى (ص)، ولا يمكن الكلام بغير علم، فلم يبق إلا الوقوف عند ظاهر الآية، الذي يدل على أن الله سبحانه يخرج من الأرض قرب يوم القيامة، مخلوقاً ذا حجة وبيان وبرهان، مخلوقاً (بشرياً) نموذجياً خارقاً في قدراته، يستطيع أن يميز بدقة نافذة بين الناس الصالحين والپالحين من سيماهم في وجوههم كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) الحجر/٧٥ عن الإمام الصادق (ع) المتوسّمون: هم المتفرّسون، يعلن للناس كافة أن ما من أحد جحد بالله إلا وهو معاند، مع وجود الآيات الواضحات على وجود الله تعالى، نقول هذا المعنى في هذه الدابة، ونسكت عما سكت الله عنه. وفي محصلة الروايات يحصل خروج الدابة متزامناً مع ظهور الإمام المهدي المنتظر الموعود المنقذ (ع) وظهور الدجال، ونزول عيسى من السماء وطلوع الشمس من مغربها... إلخ.

٨٣- ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

هو مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة الحاسم، نحشر: نجمع، فوجاً: جماعة من رؤساء الأمم وجماهيرهم، كل فوج في زمانه ومكانه وجيله، يخبر الله تعالى عن حالة المكذّبين في موقف القيامة، المعنى: واذكر يوم نجمع للحساب (من كلِّ أُمَّةٍ) من الأمم من الرؤساء ومن مختلف الأجيال (فَوْجًا) جماعة معينة (مَنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) وهم قادة الكفر، وأئمة الاستكبار واتباعهم (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يوزعون: يجمعون من أولهم إلى آخرهم للدلالة على كثرتهم، ثم يساقون بذلة ومن ورائهم وازع يزعمهم ويدفع بهم دفعاً إلى موقف الحشر والنشر، فهم لكثرتهم يوقف أولهم ليلحق بهم آخرهم، ليجمعوا ولا يتفرقوا، ولا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار، ثم يساقون جميعاً كما يفعل بقطيع الغنم، للحساب والجزاء، لتعمّم الإهانة والتوبيخ العام، فائدة: (من) هنا بيانية وليست تبعية كقوله (كخاتم من حديد) أي أن في كل أمة مصدقين ومكذّبين بآيات الله وبيّناته،

ويُحْشَرُ لِلجَزَاءِ جَمِيعُ الْمَكْذِبِينَ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، وَخَصَّهُم بِالْحَشْرِ مَعَ أَنَّهُ يَعْمُ جَمِيعَ النَّاسِ لِتَهْدِيدِهِمْ وَوَعِيدِهِمْ، لِأَنَّهُمْ خَصَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ، فَكَانَ عِقَابُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، وَلِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فِي دُنْيَاهُمْ أَمْرَ آخِرَتِهِمْ. وَفِي هَذَا الْمَوْقِفِ الرَّهِيْبِ الْحَاسِمِ الْمُخْزِي، مِنْ الْخِيْبَةِ وَالنَّدَمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ مَعَهُ النَّدَمُ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (شَرُّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) الْبَحَارُ ٧٧/١١٥، كَقَوْلِهِ (وَأَسْرُوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ) يُونُسَ/٥٤.

٨٤-٨٥- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾

حَتَّىٰ إِذَا حَضَرُوا مَوْقِفَ الْحِسَابِ وَالسُّؤَالِ، قَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُوْتَحِّجًا عَلَى التَّسَرُّعِ فِي تَكْذِيبِهِمْ (قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي) الْمُتَنَوِّعَةَ، الْقُرْآنِيَّةَ وَالنَّبَوِيَّةَ (آيَاتِ التَّدْوِينِ) وَفِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ (آيَاتِ التَّكْوِينِ) الْمُنْزَلَةَ عَلَى رَسَلِي مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ، تَكْذِيبَ مَبْنِي عَلَى التَّهَوُّرِ وَالْمَزَاجِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَجَلَةِ وَالتَّسَرُّعِ فِي الْإِنْكَارِ، قَبْلَ مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ الْعِلْمِيِّ وَلَمْ يَحْصُلْ عِنْدَهُمُ الْقَطْعُ، (وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا) وَغَيْرِ نَاطِرِينَ فِيهَا نَظْرًا عَقْلِيًّا يُوصلُكُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِحَقِيقَتِهَا وَلَمْ تَطْلُبُوا مَعْرِفَتَهَا، وَلَمْ تُحْرِصُوا عَلَى التَّعَلُّمِ وَلَمْ تَتَكَلَّمُوا بِعِلْمٍ، فَكَيْفَ كَذَّبْتُمْ بِأَمْرِ مَهْمٍ لَمْ تُحِطُوا بِهِ عِلْمًا؟ فَهَذَا هُوَ التَّعَصُّبُ الْأَعْمَى الَّذِي لَا يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ مَهْمَا كَانَ وَضُوحَهُ، وَالَّذِي لَا يَنْقِذُهُ الْحَقُّ يَخْذِلُهُ الْبَاطِلُ، فَالْقِنَاعَاتُ الْخَاطِئَةُ قَادَتَهُمْ إِلَى النَّتِيجَةِ الْخَاطِئَةِ وَالْخَطِيرَةِ، أَيُّ أُنْهَمُ أَتْبَاعُ فِسَادٍ وَهَوَىٰ وَشَهْوَاتٍ لَا أَتْبَاعَ عِلْمٍ وَبَحْثٍ وَدِرَاسَةٍ وَتَحْقِيقٍ، كَقَوْلِهِ (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الرَّومَ/٧ (أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)؟ تَوْبِيخٌ آخَرَ، أَيُّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ التَّكْذِيبِ؟ فَكَانَ عِلْمُهُمْ الْإِحَادِيًّا وَعَمَلُهُمْ مُصْلِحِيًّا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَالتَّكْذِيبُ مِفْتَاحٌ لِّكُلِّ السِّئَاتِ وَارْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ. وَنَحْنُ نَقُولُ: اللَّهُمَّ عَلَّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَوَرَعًا، ٨٥- (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) بَهْتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ، وَجَمَدَتْ مَشَاعِرُ الْقَوْمِ وَطَارَتْ عَقُولُهُمْ وَانْعَقَدَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الرَّهِيْبِ الْحَاسِمِ فَلَمْ يَنْطِقُوا بِكَلِمَةٍ! (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ الْمَوْعُودُ بِمَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنْ ظَلَمٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ، وَعَدُوَانِ عَلَى اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ.

(فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ) فَهَمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ لِخْتَمِ أَفْوَاهِهِمْ أَوْ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عِذْرٌ وَلَا حِجَّةٌ، وَقَدْ شَغَلُوا بِالْخَوْفِ مِنَ الْعَذَابِ عَنِ الْجَوَابِ، وَالَّذِي لَا يَفْكَرُ فِي الْعَوَاقِبِ تَخْذَعُ الْأَيَّامُ وَالْأَحْلَامُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْعِلْمُ يَضُرُّهُ الْجَهْلُ، فَأَنْتُمْ تَعَامَلْتُمْ مَعَ أَهْمِ الْأُمُورِ وَأَخْطَرِهَا بِسُوءِ تَصَرُّفٍ! كَمَا يَتَعَامَلُ الْأَطْفَالُ مَعَ الدَّرِّ الثَّمِينِ بِسُوءِ تَصَرُّفٍ، وَمَنْ أَفْحَمْتَهُ الْحِجَّةَ أَخْرَسَهُ اللِّسَانَ كَقَوْلِهِ (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يُؤدُّنْهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ) الْمُرْسَلَاتُ/٣٥-٣٦، وَالْبِرْهَانَ يَقْطَعُ الْخِصَامَ.

٨٦- ﴿الْمُرِيرُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

كل شيء في الكون يدل على وجود مكوّن ومنظّم قدير له، ومن هذه الأشياء الأفاقية تعاقب وتداول الليل والنهار، والظلمة والنور، وهو نظام تعاقب وتداخل الأشياء العامة في الحياة، من صيف وشتاء، وتعب وراحة، وغنى وفقر، وشدة ورخاء، وعزة وذلة، وصحة ومرض، وضعف وقوة، وحياة وموت، وأمل وعمل، وروح وجسد، وعسر ويسر، كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح/٥-٦ فإن نظام التعاقب والتقلّب والتداخل بين الأشياء المتنوعة، يكشف عن سنة ثابتة لا تتحوّل ولا تتبدل، وتبيّن هذه السنة أن هناك علاقة بين السنن الكونية والسنن الإنسانية، وبينهما تعدد أدوار واختلاف أساليب مع وحدة هدف وغاية مشتركة سامية، فإذا كانت السنن الكونية مطيعة لله تعالى، فيجب أن تكون السنن الإنسانية مطيعة لله أيضاً طوعاً لا كرهاً. فإن ظلمة الليل شبيهة بالموت، وضيء النهار شبيه بالحياة عن النبي (ص) (كَمَا تَأْمُونُ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تُبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٠.

وفي ذلك دلالة على البعث والنشور، وهذا التغيّر المستمر الهائل في كل شيء في الحياة (دوام الحال من المحال) يدل على أن هناك معيّر قد أوجدها ونظّمها هو الذي يستحق العبادة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولا يتفكّر ويتدبّر في آيات الله ودلالاته الكثيرة على التوحيد، إلا القوم الباحثون المؤمنون المتفكرون الذين يجمعون العلم مع الإيمان كقوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) البقرة/٢٨٢، وقدم التقوى على العلم لأن بالتقوى تُحصّن العلم وتضبطه، فائدة: وحث الإسلام على التفكّر لأنه حياة القلوب، وهداية النفوس، وجلاء العقول ونضوج الأفكار، ويخلص من الغفلة، ويدحر الشيطان، عن الإمام الصادق (ع) (تفكّر ساعة خير من عبادة سنة) (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) الزمر/٩ البحار ٧/٣٢٧، فلا يمكن تفضيل النهار على الليل، كما لا يمكن تفضيل الحياة على الموت، فالليل يتم نعمة النهار، وكذلك الموت يبيّن أهمية الحياة، ولولا الموت ما وصلت لك حياة. (ولولا الموت لضاعت الحياة بأهلها) وأيضاً فلا يمكن أن يبقى الليل دائماً بلا نهار أو بالعكس، وكذلك لا يمكن ان تبقى صحة دائمة بلا مرض أو بالعكس وكذا كل الأشياء كقوله (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) النور/٤٤، وهكذا يقلّب الله الغنى والفقر، والشدة والرخاء، والعسر واليسر. إلخ، كقوله (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) النجم/٤٣، ولا يمكن أن يبقى كل شيء ثابت لا يتغيّر (ودوام الحال من المحال) وإنما في تقلّب وتغيّر وتبدل مستمر، كقوله (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) آل عمران/١٤٠ وقوله (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) الرحمن/٢٩.

٨٧- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَنِعْمَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ لِلَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾

إنه مشهد مثير حاسم من مشاهد يوم القيامة، ويوم ينفخ إسرافيل بأمر الله تعالى (في الصور) كناية عن إرهاصات يوم القيامة، وهو تشبيهه بالبوق الذي بمثابة مكبر الصوت في التعبير المعاصر.

(فَفَزِعَ) فخاف خوفاً شديداً، ينفخ النفخة الأولى (نفخة الفزع) فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا خاف خوفاً شديداً وَفَزِعَ (إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) باستثناء من ثبتت الله قلبه، له الأمان والاطمئنان من الملائكة والأنبياء والصديقين والشهداء والأولياء والصالحين ونحوهم الذين (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) الأنبياء/١٠٣ وهم الذين أعدوا لهذا اليوم عدته المناسبة، وهو الرصيد المناسب من الإيمان والعمل الصالح، كقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) الرعد/٢٩، وهناك نفخة ثانية (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك النفخة الثالثة (النشور) نفخة الخروج من القبور والقيام لرب العالمين للحساب (وَكُلُّ أُنُوفٍ دَاخِرِينَ) وكل من الأموات الذين أحيوا أتو ربهم (دَاخِرِينَ) خاضعين مستسلمين صاغرين منقادين اذلاء مطيعين لم يتخلف منهم أحد كقوله (يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) القمر/٧، عندئذ يتساوى الرؤساء والمرؤوسون في الذل، والخضوع لمالك الملك، كما في الدعاء (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الذُّلِّ إِلَّا إِلَيْكَ، وَمِنَ الْخَوْفِ إِلَّا مِنْكَ).

٨٨- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

تتغير في يوم القيامة القوانين الكونية العامة في الأرض وفي السماء، والجبال الراسيات أحد المتغيرات، المعنى: وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى فتراها وكأنها- من أهوال يوم القيامة- (جَامِدَةً) أي هامة ثابتة في مكانها واقفة (وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ) ولكن حقيقتها أنها تسير سيراً سريعاً كالسحاب، في سرعتها وخفتها ومن شدة ذلك الخوف، ومشهد الجبال يتناسق مع ظلّ الفزع ويتجلى الفزع فيه، وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين، مفزوعة مع المفزوعين منطلقة مع الحائرين المذهولين بلا وجه ولا قرار، وكأنها كائن حي يتحسس ويشعر ويتأثر! كقوله (وَسَيَّرَتِ الْجِبَالُ كَأَنَّهَا سَرَّابًا) النبا/٢٠ وقوله (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ) إبراهيم/٤٨، (وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ) بسبب جريان الأرض حول نفسها وحول الشمس، وهذا المعنى الدقيق يعتبر من أهم المعاجز العلمية للقرآن الكريم (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (أَتَقَنَ): أحكم، يقال رجلٌ متقنٌ عمله أي حاذق متفّرّس بصنعه، إنه قانون الانتقان العام في كل شيء خلقه الله، ذلك صنع الله البديع المحكم المتقن المنظم كقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) السجدة/٧ وأودع فيه من التنظيم والتدبير والتقدير والإحكام، وأودع فيه من الحكمة والعلم ما أودع، ونرى هذه الصنعة المتقنة الدقيقة المحكمة في كل شيء في الوجود في الذرة الصغيرة والحجرة الكبيرة، وهي تترجم ترجمة كاملة وواضحة دالة عن وجود الصانع المقدر المدبر العظيم، فالويل لمن جحد المدبر وعاند المقدر.

(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) إنه عليم وذو خبرة واسعة بما يفعل العباد من خير وشر، ويعلم بظاهره كعلمه بباطنه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، فكما هو سبحانه خبير في صنعه، أيضاً خبير في إحصائه، خبير في حسابه وجزائه. عن الإمام علي (ع): (وَبَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى الْهَوَاءِ .. وارساها على قرار .. رَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ .. وعدل حركتها بالراسيات(الجبال)) التفسير المبين ص٥٠٥، أي

تتوازن حركة الأرض بوجود الجبال، وأيضاً تتحرك الجبال بحركة الأرض فكل شيء بتدبير وتقدير كقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢، فلا صدفة ولا عيب ولا خلل ولا نقص ولا ثغرة في الكائنات والمخلوقات كلها، كقوله (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) الملك/٣، فائدة: (صُنِعَ اللَّهُ) خصص في الذكر الصنع المتقن في الجبال كنموذج، ثم أطلق قانون الاتقان العام ليشمل (كُلَّ شَيْءٍ) صنعه الله فهو متقن (محكم) يتحلّى بالكمال والجمال والجلال، المحرك للمشاعر بلا استئذان، في هذا الوجود، كقوله (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ) هود/١٢٣.

٨٩-٩٠- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم بيّن الله تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب الحاسم المعنى: من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات على إطلاق معناها (فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات ويعطيه بالعمل القليل الثواب الجزيل، كقوله (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) النساء/٤٠ (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) وهم من أهوال يوم القيامة آمنون كقوله (لَا يُجْزَأُ لَهُمْ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) الأنبياء/١٠٣ والأمن من هذا الفزع الأكبر هو وحده جزاء ونعمة. لقد خافوا الله في الدنيا، خوف هيبه لا خوف رهبة، فكانوا في أمن وسلام من أهوال الآخرة، فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، كقوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ) الرحمن/٤٦ فائدة: للحسنة عند الله سبحانه مظهران: الأول كف الأذى عن الناس لا حسنة مع أذى، ولا صدقة مع مئة، كقوله (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى) البقرة/٢٦٣، الثاني: الحسنة كل ما فيه للناس نفع وصلاح وتقدم حضاري، من غير أذى فهو حسنة. ولكل حسنة وجهان ١- أن تأمل خير المحسن ٢- تأمن شره، والحسنة: عمل الخير العام لذاته وليس لأجل أحد، وأما لوجه الله ورضاه وخدمة الفرد ونهضة المجتمع كقوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام/١٦٠ والحسنة: كل ما يستحسنه الإنسان العاقل سليم الفطرة، ويؤيدها الشرع، وتعم جنس الحسنات القولية والفعلية والقلبية، المادية ولمعنوية، فهي ذات معنى واسع، ومن مصاديق الحسنة: ١- كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وتوحيد الكلمة، ٢- ولاية وإمامة أهل البيت (ع) وأتباع منهجهم المستقيم الذي يوحد كلمة الأمة، فتكون من معاني (الحسنة) معرفة الإمام القدوة والقائد الحق وطاعته، عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ بَعِيرٍ إِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) كنز العمال خبر ٤٦٤ وتكون معنى (السيئة) إنكار الولاية والإعراض عن (الإمامة) وبغض أهل البيت، وهذا مضمونه مروى عن الإمام الصادق (ع) في الآية، كنز الدقائق ٣٨٥/٧، وعن النبي (ص) (مَنْ سَاءَتْهُ سَيِّئَةٌ، وَسَرَتْهُ حَسَنَةٌ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ) البحار ٢٥٩/٧١، ٩٠- (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) السيئة: ما تسوء الإنسان العاقل سليم الفطرة، وينكرها الشرع، وهي اسم جنس يشمل كل سيئة على عموم معناها.

كُتِبَ وَجُوهُهُمْ:

ألقوا في النار على وجوههم التي كانوا يعصون الله بها، **المعنى**: من جاء بالسيئات المتنوعة أو رجحت سيئاته على حسناته (**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) هل تجزون إلا العمل نفسه الذي كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال المنكرة، التي تنكرها الطبيعة البشرية سليمة الفطرة، والتي يحرمها الشرع، التي تضر الفرد والمجتمع والتي تسخط الله تعالى، وهكذا الذي لا تنفعه الحسنة تضره السيئة، في مشهد رهيب مفرع وهم يُكَبِّتُونَ على وجوههم في نار جهنم منكوسين مقلوبين، مع زيادة في التوبيخ والاذلال كقوله (**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**) الحج/١٠ وتكون العقوبة من جنس العمل، والجزاء على قدر الجناية، والنتائج على قدر المقدمات، كقوله (**فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ**) الشعراء/٩٤.

فائدة: قال تعالى (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**) هود/١١٤، إذا كانت الحسنات يذهبن السيئات، كذلك من السيئات يذهبن الحسنات. عن الإمام الباقر (ع) (ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات) البحار ٢٤٢/٧١، وعنه (ع) (سئل رسول الله (ص) عن خيار العباد فقال: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا) البحار ٢٥٩/٧١ ومن مصاديق الحسنة والسيئة عن الإمام علي (ع) (**الحسنة**: معرفة الولاية وحبُّنا أهل البيت، **والسيئة**: إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت، ثم قرأ الآية) تفسير نور الثقلين ٤/ص ١٠٤

٩١- ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

البلدة: مكة المكرمة التي فيها بيت الله الحرام، وأضافها الله سبحانه إلى نفسه تعظيماً لها (**الَّذِي حَرَّمَهَا**) ووصفها بالتحريم، لأن من دخلها كان آمناً، ومن انتهك حرمتها كان ظالماً، وهي أول بيت وضع للناس للعبادة، **ومعنى العبادة**: كل أنواع الطاعة لله، سواء أكانت بينك وبين الله، أو بينك وبين الناس، **تعريف العبادة**: عن الإمام الصادق (ع) (**العبادة حُسْنُ النَّيَّةِ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يُطَاعُ اللَّهُ مِنْهَا**) الكافي ٨٣/٢ في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبَادَةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ) ومن قصر عن أصول العبودية أعيد إلى الرِّقِّ! **المعنى**: قل يا مُجِدِّ، لقد أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة الخالصة كقوله (**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**) الزمر/٣، الذي جعل مكة حراماً آمناً لا يسفك فيها الدم، ولا يُظلم فيها أحد، وأن الله تعالى ربُّ كل الأرض، وإنما خصص هذه البلدة بالأمان لميزتها على غيرها (**الَّذِي حَرَّمَهَا**) فجعلها حراماً أي ممنوعاً فلا يجوز انتهاك حرمتها، بقطع شجرها، وتنفيذ صيدها، وإشاعة الإلحاد والفساد فيها بوجه من الوجوه (**حَرَّمَهَا**) أي صانَ حرمتها وحفظ كرامتها وأبقى قدسيته وهيبتها وفعاليتها، فجعل أفئدة من الناس تهوى إليها، في الحديث (**إِنَّ مَكَةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يَحْرِمَهَا النَّاسُ**) أي كان تحريمها من الله بأمر سماوي، لا من الناس باجتهاد شرعي، أما قول النبي مُجِدِّ (ص) (**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَةَ**) فمعناه أظهر الحرمه الثابتة، قالها عند فتح مكة وتحطيم الأصنام.

(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ)

وهو مصطلح قرآني وكتابة بديعية للدلالة على الكثرة، فربّ هذه البلدة هو ربّ كل شيء (وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) وهو كل شيء، ومالك كل شيء على الإطلاق في الوجود، فهو الذي خلقها وملكها وقدرها ودبر أمرها، وهو الذي يتصرّف وحده فيها بالحكمة، لا يشاركه ولا يملك أحد معه أي شيء، حتى نَفَسُ الإنسان لا يملكه، في نهج البلاغة حكم ٧٤ (نَفَسُ الْمَرْءِ حُطَّاءُ إِلَى أَجَلِهِ)، (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أي وأمرت لأكون أول المبادرين إلى الإسلام، وهذه دعوة تحفيز الإرادة إلى خلق المبادرة الأولى الحسنة، وطرح النموذج الأمثل ليقتردي به كل الناس، وهذا تحفيز لكل مبادرة حسنة (الْمُسْلِمِينَ) أي: من الذين أسلموا وجوههم لله خاصة، وخضعوا لأمر الله تعالى، وثبتوا عليه ودعو إليه بأعمالهم قبل أقوالهم، وقد فعل النبي (ص) فإنه أول الناس إسلاماً، وأعظمهم تسليماً (وَكَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)، ولو قال (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لما كان أحد يقدر على أن يكون إيمانه كإيمان النبي (ص) ولهذا قال (ص) (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُوِي أُصَلِّي) ولو قال (صلوا كما أنا أصلي) لما كان أحد يقدر على ذلك.

المعنى: تشير الآية أن دين الإسلام الذي يدين به النبي (ص) ليس ديناً خاصاً به وحده، وإنما هو دين كل من يؤمن بالله، فهو دين جميع الأنبياء وكلهم جاءوا بالإسلام العام، بمعنى إسلام الوجه لله والتسليم لمنهج الله تعالى، والنبي مُحَمَّد (ص) جاء بالإسلام الخاص الخاتم المتكامل القيم، كقوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩ وقوله (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) آل عمران/٨٥ أما الإسلام العام كقوله (مَلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) الحج/٧٨، وهذا ما قاله سليمان (أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَنْتَوِي مُسْلِمِينَ) النمل/٣١، وقاله نوح (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) يونس/٧٢، أما النبي مُحَمَّد (ص) فهو من المسلمين وسيدهم وإمامهم ونيبهم وقائدهم وولي أمرهم، في غرر الحكم (غَايَةُ الْإِسْلَامِ التَّسْلِيمُ، وَغَايَةُ التَّسْلِيمِ الْقُوْرُ بِدَارِ النَّعِيمِ).

٩٢- ﴿وَأَنْ تَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذَرِينَ﴾

إنّ النبي (ص) مأمور بالدعوة إلى التوحيد، والقاعدة الأساسية للدعوة الإسلامية هي تلاوة القرآن، والتفاعل معه في الأقوال والأفعال، فالقرآن الكريم دستور الإسلام والإنسان، ومصدر هدايته وحمايته باعتبار (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، المعنى (وَأَنْ تَتْلُوا الْقُرْآنَ) التلاوة: قراءة القرآن بشكل صحيح ومتتابع، وأواظب على تلاوته أثناء الليل وأطراف النهار، تلاوة لنفسه وترغيبها للناس. أي وأمرت بأن أواظب على تلاوته لتتكشف لي علومه وحقائقه الكثيرة شيئاً فشيئاً، فإنه كلما تفكّر القارئ المتدبّر المتفكّر تجلّت له معان جديدة كانت محفّية عليه، وكأنه لم يقرأها، عن الإمام زين العابدين (ع) (آيَاتُ الْقُرْآنِ حَزَائِنُ الْعِلْمِ ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ حَزَائِنَهُ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا) البحار/٩٢/٣١٦ فعليك بتلاوة القرآن كل يوم ولا تهجره، فإن القرآن كنز السماء في الأرض، وأن الله تجلّى لعباده بكتابه، فهو مادة كل علم جعله (تَبَيَّانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) النحل/٨٩ (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) يوسف/١١١ (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) الأنعام/٣٨

وقوله (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ) الرحمن/١-٢ وقوله (الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) الفرقان/٥٩، لذا لا يشبع العلماء والحكماء والفضلاء من تلاوة القرآن كل يوم، لأنه تنكشف أمامهم أسراره المخزونة، فيعرفون سنن الحياة وحقائق الأحياء، وسر الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود (والْقُرْآنَ) منهج حياة، ودستور هداية، ومصدر دراية أساسي، فمن تدبّر في تلاوته وتفاعل معه وصدق في تطبيقه، فإنها هي الوسيلة المثلى التي يهتدي بها الإنسان إلى خير الدنيا والآخرة كقوله (وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ) الحج/١٦ .
(فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)

فمن اهتدى بالقرآن فإنه أفضل هدى، وثمرة هدايته ومنافعها راجعة إليه وينفع نفسه وغيره (وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) ومن ضلّ عن طريق الهدى وسار بطريق هواه فوبال ضلاله يعود عليه، ومهمة الرسول (ص) هي البلاغ المبين، حتى تميز الناس الحق من الباطل، ومن ضل فقل له: لست مسؤولاً عن ضلال من ضل، إنما أنا من المنذرين كقوله (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) الرعد/٤٠ ، وقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ ولا سلطان لي على أحد. عن الإمام الحسن (ع) (وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُهُ) إرشاد القلوب للدليمي ص ٧٩، وعن النبي (ص) (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالتَّلَاوَةِ وَلَا الْعِلْمُ بِالرُّوَايَةِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمُ بِالدِّرَايَةِ) كنز العمال خير ٢٤٦٢، في نهج البلاغة حكم ٩٨ (اعْقِلُوا الْخَبْرَ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ عَقْلٌ رِعَايَةٌ لَا عَقْلٌ رَوَايَةٌ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ) عن الإمام الصادق (ع) (الْعُلَمَاءُ هَمَّتُهُمُ الرِّعَايَةُ، وَالْجُهَّالُ هَمَّتُهُمُ الرُّوَايَةُ) البحار ٢ ص ٣٧ .

٩٣- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) على كل نعمة أنعمها علينا بفضل منه ورحمة كقوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل/٥٣ ومن أهم النعم نعمة النبوة والقرآن الكريم (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) الذي أكرمني من رفيع المنزلة والمقام (سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) سيريكم آياته الباهرة وحججه القاهرة، الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الآفاق الواسعة، والأنفس الساطعة الدقيقة مع تداول الأزمان، فتعرفون أنها (آيات الله)، كنصر المؤمنين على الكافرين، ونشر الإسلام بين الناس في العالم، وظهور علامات القيامة وغيرها، التي تضطركم إلى قبول الحق، في حين لا تنفعلكم هذه المعرفة، لأنها بعد فوات الأوان كقوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣ وقوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢ .

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) وأن ما عملوا من سيئات هو مُسَجَّلٌ في علم الله في اللوح المحفوظ، مسجّل بالصورة والصوت والنية، وسيحاسبون عليه ولا يخفى على الله من أعمالهم شيء، ولكنه مؤخّر عذابهم إلى أجل هم بالغوه، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، وأن ما عملوا من سوء هو مسجّل عليهم، وليس بغائب على الله، وهو على كل شيء شهيد كقوله (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) النجم/٣١ فائدة: ١- الغفلة:

هي سهو يعتري من قلة التحفظ والתיقظ والله مُنَزَّه عنه، وكيف يغفل الله عن أعمالكم (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الصفات/٩٦، أي الله خلقكم ويعلم بكل ما تعملون من صفات وكبائر الأعمال وإنما يجهل لحكمة لا لغفلة، والغفلة من صفات الغافلين وليست من صفات الخالقين، في غرر الحكم (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن) ومن الضلال النفوس، كقوله (وَلَا تُكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الأعراف/٢٠٥ عن النبي (ص) (عَجِبْتُ لِغَافِلٍ وَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنْهُ) أمالي المفيد ص ٤٥.

وآخر دعوانا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) الأنعام/١٥٣، تم بعون الله (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبِينِ) لسورة النمل، بقدرتي لا بقدرها، فله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بجهد متواصل، بتاريخ ٢٠١٨/٩/٣٠ الموافق ٢٧/شهر رمضان/١٤٣٩هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى مساعدتنا على تكملة بقية السور القرآنية، إنه لسميع مجيب الدعاء

بقلم الباحث القرآني: مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة:

مكية، تعنى بجانب العقيدة (التوحيد والرسالة) (النبوة) (المعاد)، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي النمل والشعراء، وهي تُفصّل ما أجمل في السورتين قبلها، تُصوّر قصة الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان منها قصة موسى وفرعون، وغرور قارون مع قومه، وهما رمز طغيان الإنسان سواء بالمال أو السلطان، سميت (سورة القصص) لأن فيها قصة موسى مفصّلة وفيها من غرائب الأحداث التي تبين عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه، رقمها ٢٨، عدد آياتها ٨٨، الجزء العشرون (فضلها): عن النبي (ص) (مَنْ قَرَأَ طَسْمَ الْقَصَصِ، أُعْطِيَ مِنْ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بِمُوسَى وَكَذَّبَ بِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مَلِكٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ صَادِقًا) مجمع البيان ٧ص ٤٣٧ ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿طسم﴾

تقرأ (طاء، سين، ميم) والحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبلاغته وعلومه، مركّب من أمثال هذه الحروف الهجائية التي يستخدمها

البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الاتيان بمثله أو بعضه في الفصاحة والبلاغة والدلالة الواسعة، أنظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

تلك آيات القرآن (المُبِينِ) الواضح في نفسه والموضح طريق الهداية لغيره، كقوله (هُدًى لِلنَّاسِ) البقرة/١٨٥ والمميز بين الحق والباطل، وهو ليس بمقدور البشر صياغة تعابيره البلاغية، ومضامينه العلمية، وقوله (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) جاءت اسم الإشارة (تِلْكَ) للبعيد لبيان رفعة القرآن المستحق للتعظيم والتفخيم، الظاهر في إعجازه الواضح في تشريعه وأحكامه، الدقيق في عرضه وهدايته وعلومه، وهو الثقل الأكبر الممتد بين السماء والأرض، وهو الوحي الذي يتلوه على عبده، وهو الدستور الهادي الكامل في ذاته والمكمل لغيره، الذي يبيّن لكل أمر يحتاج إليه الناس في كل زمان ومكان، في أمور دنياهم وآخرتهم كقوله (تَبَيَّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) النحل/٨٩ وقوله (وَتَفْصِيلٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ) يوسف/١١١.

٣- ﴿تَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

نتلو عليك على لسان جبريل بعض أخبار (مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) الذي لا باطل فيه ولا خرافة، لأنه من الواقع، ليتدبر فيه الذين يؤمنون بآياتنا، ممن أتبعوك يومئذ طائفة أذلاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش، فيعلمون أننا سنفعل بطغاة قريش مثل ما فعلنا بفرعون الطاغية وجنوده كقوله (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) السجدة/٢٢، ولو بعد حين (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لقوم يصدّقون بالقرآن ويتفاعلون معه أصحاب الفطرة السليمة والعقول الرزينة، والله تعالى يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم، بصيغة الإيمان ووعي القرآن، هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة الخاصة، عن النبي (ص) (لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِعَالِمٍ نَاطِقٍ أَوْ مُسْتَمِعٍ وَاِع) كنز العمال خير/٤٠٢٧، فائدة: تكررت قصة موسى (ع) مرات عديدة فوردت في (٣٤) سورة من القرآن الكريم، وذلك لأهميتها البالغة، وتشابه حركة سننها التاريخية مع سنن المسلمين خاصة، وسنن الإنسانية عامة، كقوله (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢.

٤- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

وفي كل عصر فراعنة وأكاسرة وقياصرة حسب ظروف كل عصر، عَلَا فِي الْأَرْضِ: أي استكبر وتجبر وتجاوز الحد في الطغيان والظلم ومن طبيعة الإنسان الطغيان (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافِعًا) العلق/٦، فيأتي الدين ليهذب النفس ويزكّيها، (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) وجعل أهلها (شِيَعًا) فرقاً وأصنافاً وطبقات متفاوتة وطوائف متناحرة تابعين له، وأحزاباً متعددين متكارهين لينقادوا جميعاً في طاعته ورجبته وهواه، وجعلهم سادة وعبيداً، وآكلين ومأكولين! وفقراء وأغنياء، وهكذا كان شعار

الاستكبار العالمي، زرع الكراهية بين الناس، ولا يزال شعار (فِرْقٌ تَسُدُّ) وينتشر هذا الداء العضال في كل مجتمع يعم فيه الجهل والاختلاف، والاتباع الأعمى وحبّ الظهور ويرضى بالقشور، (يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ) يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل، فيذوّقهم سوء العذاب (يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) يُقْتَلُ أَبْنَاءُهُمُ الذكور عند ولادتهم ليضعفهم كيلا يثوروا عليه! وليتخلص من المولود الموعد الذي سيقضي على ملكه، ومن حماقة فرعون أن الكاهن الذي أخبره بأنه سيولد من بني إسرائيل ذكراً سيقضي على ملكه، وإن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل والقدر جار؟ وإن كان كاذباً فلا داعي للقتل، (وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) ويترك الإناث أحياء لخدمته وخدمة الأقباط وهم من شيعته الكرام، والفجور بمن منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم والاستبقاء على ضعفهم وذلمهم له، (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) فهو وصف جامع لمساوي فرعون، فهو كيان فاسد في نفسه ومفسد لغيره في البلاد والعباد. إنه كان من المجرمين في الفساد، المتجبرين في الأرض في كل نواياه وأهدافه، ولذلك أدعى الربوبية (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) النازعات/٢٤ ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون (وَيُدَبِّرُ الْمُنَافِقِينَ وَالْقَضَاءُ يُصْحَكُ) والطغاة ينسون إرادة الله وتقديره كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩.

فائدة: ١- بنو إسرائيل قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف (ع) أباه وأخوته فسكنوها وتناسلوا حتى بلغوا الألوف، **٢-** من أسباب تكرار قصة موسى(ع): يبين القرآن حقيقة مهمة مفادها، أينما يوجد استضعاف ذليل في أمة، يوجد مقابله استكبار طاغي، وأينما يوجد جهل، يوجد من يستغل الجهلاء لمآربه الخاصة، ولا يتفرعن أي فرعون في زمان إلا لأنه لم يجد رادع يردعه، وإنما تجد نفوساً مريضة مفسدة حاكمة، تجد مقابل ذلك نفوساً مريضة مفسدة محكومة، ولن تكون أمة فاسدة وقائدها صالح، كما لا تكون أمة صالحة وقائدها فاسد، فالحاكم من جنس المحكوم، عن النبي (ص) (كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ) كثر العمال خير ١٤٩٧٩، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١، وهيهات أن يكون لإنسان ذليل منافق دين أصيل وعمل جميل، وهيهات أن يقوم دين الدولة الإسلامي الأصيل، في مجتمع مريض هزيل منافق دجال متقلب، **٣-** الاستضعاف: من الضعف المعنوي وليس الضعف المادي، من الضعف الشديد والعجز الذليل، وقد يكون الضعف في النفس وفي البدن وفي الحال والمال والأشكال، فلم يستطيعوا دفع هذا البلاء عن أنفسهم، فهم بلا إرادة ولا قدرة وحياة بلا حرية ولا كرامة.

٥- ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ آئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْأَمْرِينَ﴾

الآية وإن نزلت بخصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وسعة المغزى، ولذلك جاء (وَنُرِيدُ) فعل مضارع ليعطي صفة الاستمرار، يعني أنه قانون فعال، والآية تكشف عن سنة تاريخية متحركة كقوله (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/٨٣ وقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي

الصَّاحُونَ) الأنبياء/١٠٥ وقوله (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣، المعنى: (وَنُرِيدُ) إنها إرادة الله تعالى، أي ونحن نريد برحمتنا (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ، وَأَنَا أُرِيدُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا أُرِيدُ) كقوله (إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) هود/١٠٧ (أَنْ تَمَنَّ) ونتفضل من غير مقابل بنعمة ذات قيمة عالية، على أولئك الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم فرعون ضعفاء مقهورين من جميع النواحي، من بني إسرائيل من غير تحديد فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه، ونزِيل عنهم موارد الاستضعاف (وَنَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً) ونجعلهم قادة ورؤساء وقدوة يقتدى بهم في الخير، بعد أن كانوا أذلاء، كما يَمَنَّ اللهُ سبحانه بالشفاء على المريض إذا شرب الدواء الشافي، مؤمناً كان أو كافراً! (وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ) ونجعلهم وارثين للأرض وملك فرعون، ويسكنون مساكنهم والمسيطرين على الدولة، بعدما كانت بيد غيرهم، وهكذا يدافع الله عنهم كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) الحج/٣٨، ويتم دفاع الله عنهم عن طريق توقُّر الأسباب التي تنصرهم، في غرر الحكم (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) وإنَّ الله لا يرضى لعباده حياة الذل، عن الإمام الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمُرْ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨، والناس خوفهم من الذل أوقعهم في الذل، في غرر الحكم (سَاعَةٌ دُلٌّ لَا تَفِي بِعِزِّ الدَّهْرِ) عن النبي (ص) (مَنْ أَقْرَبَ بِالذَّلِّ طَائِعًا فَلَيْسَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ) البحار ١٦٢/٧٧، فمن واجه الظالم وقاوم الطغاة وجاهد واستشهد في سبيل الله، من أجل الخلاص منهم كان شهيداً ذو منزلة عالية كقوله (وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ هُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) الحديد/١٩.

عن النبي (ص) (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ ص٨، ومن استسلم للطغاة وأعان الظالمين حباً بالحياة وطمعاً بالمناصب، خذله الله وأوكله إليهم وصار منهم، وتنعص عيشه، وكُرِهَتْ أيامه، وساءت عاقبته ولو بعد حين، كقوله (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) الأنعام/٢١، عن النبي (ص) (مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ) البحار ٣٥٤/٣٣٤، فيكون ظالماً حتى ولو كان مؤدياً للصلوات! في غرر الحكم (رَبِّ مُتَنَسِّكٍ لَا دِينَ لَهُ) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَبَاةَ الضَّيْمِ الَّذِينَ لَا يَرْضُونَ بِالذَّلَّةِ، ويؤيد طلبة العزة والكرامة والحرية والذين يرفعون راية المقاومة المنظمة ضد الظالمين، لأن لا قيمة للحياة من دون حرية وكرامة في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحُرِّيَّةِ أَهْلٌ لِلْعِتْقِ، مَنْ قَصَرَ عَنِ أَحْكَامِ الْحُرِّيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ)! فائدة: (اسْتَضْعِفُوا...) كل مرحلة استخلاف تسبقها مرحلة استضعاف، والاستضعاف أريد لغيره وليس لذاته، أريد لشيء أهم منه، وهو إعداد المستضعفين لمرحلة الاستخلاف، والمسؤولية السياسية وتسلم السلطة كقوله (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) الحج/٤١ و(الْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) والسياسي من سَاسَ نفسه، قبل سياسة الناس.

في غرر الحكم (مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ أَدْرَكَ السِّيَاسَةَ)، حتى يعرف المستضعف قيمة الضعفاء ومعاناة الفقراء، لأنه هو مَرَّ بهذه المرحلة وذاق شدتها ومرارتها، وهناك استضعاف يستبطن في نفس

المستضعف صفة الاستكبار، فهو مستضعف مقهور في نفسه، ولكنه يحمل صفة الطغيان والاستكبار في واقعه المستور، فهو مستضعف بالفعل ولكنه مستكبر بالقوة! فهذا لم يتأثر في مرحلة الاستضعاف، وإنما خضع لها اضطراراً، وعندما حان وقت الاستخلاف قفز ليقطف ثمرة وينال موقعه المناسب له! فيظهر طغيانه واستكباره وتبين حقيقته كقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) البقرة/٢٠٤، وقد تبلى الشعوب بأنواع البلايا والفتن والظلم المحن، كقوله (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/٣٠، أريد منها إما أن يعد الصالح منهم لمرحلة الاستخلاف وبناء دولة العدالة، أو تغيير بهم مجرى حركة السنن التاريخية نحو مرحلة أهم، وإما أن يستبدل الله تعالى قوماً غيرهم ولا يكونوا أمثالهم، فيخضعوا إلى سنة الاستبدال الجزئي التدريجي، كقوله (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ) محمد/٣٨، ولكل حالة خصائصها اللازمة لها!! فأراد الله من بني اسرائيل أن يحقق بهم إرادته في استخلاف الأرض، وقيادة البشرية إلى حكم الله ليحققوا لهم وللناس سعادة الدارين، ولكنهم فشلوا ولم يكونوا أهلاً لهذه المهمة النموذجية المباركة، إنها مرحلة بالغة الأهمية، ومرحلة فيصليّة فارقة في حركة السنن التاريخية، فلم يستمروها ولم يروعها حق رعايتها، ففاتت عليهم الفرصة وتحوّلت عليهم غصة، فتأهوا في صحراء سيناء وماتوا هناك!! فخذلهم الله تعالى، وهكذا الذي لا ينفعه الحق يضره الباطل، في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) والإنسان هو المسؤول الذي يبنى مستقبله الدنيوي والأخروي بيده.

٦- ﴿وَسُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

وتمكن: نتفضّل عليهم ونثبت لهم مكاناً وقدرة وقوة في الأرض، ونملكهم ونسلّطهم على بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاؤون، بعدما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يقرهم فيه (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) ونرى فرعون الطاغية ووزيره ومستشاريه هامان والأقباط (مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وحضارتهم وهلاكهم على يد مولود من بني اسرائيل، فقتلوا كل مولود اسرائيلي إلا موسى أبقوه قرّة عين لهم! (بِإِذْنِ اللَّهِ) فأتاهم الخطر من أماكن الحذر، وجاءهم الحتف على يده وهم لا يشعرون كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) النازعات/٢٦، أراد الله عز وجل أن يبين قدرته على المواقف والأحداث.

كقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ) الرعد/٤١ فتنقذ إرادته فيما يحذرون منه، فأتاهم الخوف من حيث لا يحتسبون، وحق بهم الخطر من حيث يتوقعون (فَلَا يُنْجِي حَذَرَ مَعَ قَدَرٍ) وليعلموا قوله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) يوسف/٢١ فأراد الله إتهام الظلم والاستضعاف على بني اسرائيل، وإذا أراد الله شيئاً هيئاً أسبابه، وسهل طريقه (وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) كقوله (وَقِيلَ بَعْدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) هود/٤٤، في غرر الحكم (الظلم: يزلُّ القَدَمَ، وَيَسْلُبُ التَّعَمَّ، وَيُهْلِكُ الأُمَّمَ) وفيه أيضاً (مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ حَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ)

فائدة: ١- مصطلحان (استخلاف، واستضعاف) أي هناك حكم وسلطة وقدرة، وهناك أمة محكومة مغلوبة مستضعفة تحت القدرة ٢- فتارة من المستضعفين يؤهلون للاستخلاف والحكم والقدرة، وتارة من المستخلفين أصحاب الحكم والقدرة يكونون مستضعفين يسلب الله منهم الحكم والقدرة بحسب تغير الظروف الموضوعية، وعادة الاستخلاف يسبقه الاستضعاف، ليكون الاستضعاف وسيلة تربوية لتزكية نفس المستضعف، الذي يستخلفه الله، ليعرف معاناة المستضعفين ويعمل على خدمتهم ورفع مكانتهم، ولكن بعض الناس يطلبون العزة والاستخلاف من الذين ظلموا كقوله (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْليَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْبَسْتَهُمْ فِي أَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَخِفُّونَ لَكُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) النساء/١٣٩، والذي لا تنفعه مرحلة الاستضعاف فلا تنفعه مرحلة الاستخلاف واستلام المنصب بل تضره! كقوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) مريم/٨١-٨٢، في غرر الحكم (مَنْ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللَّهِ أَهْلَكَهُ الْعِزُّ)! عن الإمام علي (ع) (كُلُّ عَزِيزٍ دَاخِلٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ فَذَلِيلٌ) تحف العقول ص١٥٣، وهكذا تتحرك سنة الله في خلقه، كقوله (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) آل عمران/١٤٠ وقوله (تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ) آل عمران/٢٦، ٢- (مُكِّنَ) نعم عليهم بالإمكانية المناسبة، جاء بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، لئلا يتصوّر أنه حدث خاص بالمستضعفين من بني إسرائيل في ذلك الزمان وانتهى، بل الآية توضّح قانونياً كلياً متحركاً فعلاً، بظروف موضوعية معينة مناسبة في حركة المسيرة البشرية، فهي بشارة لانتصار الحق على الباطل، وانتصار المستضعفين على المستكبرين، أما انتصار تجربة بني إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هي إلا مصداق واقعي تحقق من خلال نظام حركة السنة التاريخية، والمشيفة الإلهية.

كقوله (وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ) النور/٥٥ وقوله (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥.

وعن الإمام علي (ع) (في الآية: هم آل مُجَّد (ص) يَبْعَثُ اللَّهُ مَهْدِيَّهُمْ بَعْدَ جُهْدِهِمْ فَيَعِزُّهُمْ وَيُذِلُّ عَدُوَّهُمْ) تفسير نور الثقلين ٤ص١١٠، ٣- (المستضعف): ليس المستضعف هو الضعيف الفقير الفاقد للقدرة والصحة والقوة، ولكنه فاقد للإرادة ومسلوب الهمة والوعي، وعاجز عن تحسين أوضاعه للظروف القاهرة المحيطة به، لأنه تحت تأثير ضغوط الظلمة الجبابرة، ولكنه مقاوم لا يستسلم، ويجاهد ليفك القيود عن نفسه، ويُضْحِي بالغالي والنفيس في ظروف مناسبة، ويقدم نفسه في سبيل الله شهيداً على جناح الشهادة والبسالة والشجاعة، فان موت الشهادة في سبيل

الله أرقى أنواع الموت. عن النبي (ص) (لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل) صحيح مسلم ٣/٤٩٦.

والمستضعفون أنواع: فهناك مستضعف فكرياً، وغيره ثقافياً، وغيره نفسياً واقتصادياً، وغيره مستضعف سياسياً أو أخلاقياً، وأكد القرآن على خطورة الاستضعاف النفسي والسياسي والأخلاقي كقوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) النساء/٩٧، والله تعالى وعد أمثال هؤلاء (أباة الضيم) بالمتن والتفضل عليهم بالنصرة في ظروف موضوعية، لا الأفراد الجبناء الأذلاء الذين يخافون من معارضة الطغاة، ويسكتون عن حقهم، في الحديث لأن (السَّاكُتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أُخْرَسَ) تفسير الكاشف/٥/٣٢، أما بنو إسرائيل التَّقُوا حول موسى (ع) وشكّلوا صَفّاً واحداً معارضاً ضدّ فرعون، وجاهدوا مع موسى (ع) كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤ والجهد من أشرف الواجبات، وأفضل الجهاد مقاومة الطواغيت، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال خبر ٤٣٥٨٨.

٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْبِئْرِ وَكَأ تَحْزِينِي إِنَّا رَأَوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ) أي أهدناها وأعلمناها بوسيلة معينة خاصة محفزة، عن طريق المنام أو الملائكة... الخ، والإلهام ليس بوحى النبوة، كما أتى مريم كقوله (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ آل عمران/٤٥) (أَنْ أَرْضِعِيهِ) في حالة عدم خوفك من فرعون (فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْبِئْرِ) فإذا خفت عليه من القتل من جلاوزة فرعون، فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر (نهر النيل) (وَلَا تَحْزِينِي وَلَا تَحْزِينِي) لا تحزني عليه الهلاك، ولا تحزني لفراقه (إِنَّا رَأَوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فإننا نرعه ونؤيده ونحميه ونرده إليك سالماً غانماً عن قريب، ونجعله رسولاً ونبياً وصاحب رسالة سماوية ومن أولي العزم، وهذه بشارة مقدمة لأم موسى ليطمئن قلبها، ونبعثه إلى فرعون لنخلص بني إسرائيل من ظلمه، **فائدة: ١-** في الآية أمران (أرضعيه، فألقيه) وتحيان (ولا تحزني ولا تحزني) وبشارتان (رأوه، وجاعلوه)، **٢-** يرينا الله أن هناك نظام الأسباب والمسببات، وإذا توفرت الأسباب وهي بيد الإنسان، تحصل المسببات وهي بيد الله تعالى، **٣-** (وَأَوْحَيْنَا) أصل الوحي والإيحاء: إعلام في خفاء، ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وحي، إما برسول مشاهد يرى ذاته ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل للنبي (ص) في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى (ع) كلام الله تعالى، وإما بالقاء في الروح (في النفس) كما ذكر النبي (ص) (إن روح القدس نفث في روعي)

وإما بإلهام كقوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ) وإما بتسخير (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) النحل/٦٨ أو وحي بمنام كقول النبي (ص) (انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن (الصحيحة)) وإما وحي إشارة (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ) مريم/١١، وإما وحي تقدير (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) فصلت/١٢، يراجع عن الإمام علي (ع) الوحي في كتاب الله على ثمانية أوجه سورة النحل/٦٨ قوله (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ).

٨- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لَكَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

فأخذه أعوان فرعون من الماء ليكون لهم في عاقبة أمره عدوًّا، وسبب حزن ومصدر بلاء وعناء وهلاك، وتتحرك الأسباب إلى غايتها خطوة خطوة، اللام في (لِيَكُونَ) لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرعة عين ولينتفعوا به، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدوًّا وحزنًا لقلوبهم، فذكر الحال بالمآل (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) أي كانوا خاطئين وضالين يتعمدون الخطأ في كل أمورهم، وكانوا عاصين ومشركين وآثمين وخاصة في قتلهم ألوف الصبيان بلا ذنب، وظلمًا وعدوانًا ليتخلصوا من موسى، فكان تدبير الله أن خَلَّصَهُ هُوَ مِنْ الْمَوْتِ، وَرَبَّوهُ حَتَّىٰ كَبُرَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، فَصَارَ تَدْمِيرُهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ! (يُدْبِرُ الْمُدْبِرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ) أراد فرعون الطاغية شيئاً وأراد الله شيئاً آخر، فكان ما أراد الله تعالى رغم إرادة فرعون، فجاء الخطر من حيث يَحْذَرُ، والْحَذَرُ لَا يَنْفَعُ إِذَا جَاءَ الْقَدْرَ (إِذَا جَاءَ الْقَدْرَ عَمِيَ الْبَصَرُ) قوله (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) الطلاق/٣، عن الإمام علي (ع) (الْقَدْرُ سِرٌّ مِنْ سِرِّ اللَّهِ، وَسِرٌّ مِنْ سِرِّ اللَّهِ، وَحِرْزٌ مِنْ حِرْزِ اللَّهِ، مَرْفُوعٌ فِي حِجَابِ اللَّهِ، مَطْوِيٌّ عَنِ خَلْقِ اللَّهِ) التوحيد ص ٣٨٣، وهنا يتبين قوله (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) الأنفال/٣٠، فائدة: (خَاطِئِينَ) وهناك فرق بين الخاطيء والمخطيء، الخاطيء: من تعمد الذنب والاثم، والمخطيء: من فعل الذنب عن غير تعمد، في نصح البلاغة حكمة ٢٥٠ (عرفت الله سبحانه بنفسخ العزائم، وحلّ العقود، ونقض الهمم) (لما هممتُ حالَ بيني وبين هِمَّتِي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُدْبِرَ غَيْرِي) بحار الأنوار ٣ ص ٤٣.

٩- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْءَاتٍ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تُقْتَلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَتَّخِذَهُ وَكِدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قرة العين: فرح وسرور، أي وقالت امرأة فرعون الفاضلة الجليلة، وهي آسية بنت مزاحم وقد أثنى الله عليها في التحريم/١١، عندما وقع نظرها على موسى، فوقع حبه في قلبها، وبدأت تحبه إلى فرعون إنه مما تقرّ به العيون سروراً، وتفرح لرؤيته القلوب إنشراحاً، لقد حمته بالحبّة، ذلك الستار الرقيق الشفاف النفاذ الأخاذ! لا بسلاح ولا بجاه ولا بالمال، حمته بالحب وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته، فهو تسلية ومسرة وفرح لي ولك، كقوله (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) طه/٣٩.

قال فرعون: قرّة عين لك، أما لي فلا! قال النبي مُجَدِّد (ص) (لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرت أمّراته هداية الله به كما هداها ولكنه أبي) مجمع البيان ٤٤٣/٧، الهداية وفضل الضلال، والذي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ)، وعنه (ص) خير نساء العالمين أربع (كمصداق): مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت مُجَدِّد (ص) التفسير المبين ص ٥٠٧ (لَا تَقْتُلُوهُ) ولما نظر فرعون إلى موسى غضب وقال: كيف سلم هذا الصبي العبري من الذبح؟! هل خفي أمره على العيون أو أخفوه عني؟ فتلطّفت أمّراته لفرعون وخاطبته بلفظ الجمع (لَا تَقْتُلُوهُ) تعظيماً له ليساعدها فيما تريد، فبدأت معه من حيث يجب، ليساعدها فيما تحب!! وحببت الصبي له لعلنا نصيب منه خيراً (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْتَحِذَهُ وَكَلْدًا) عسى أن ينفعنا في الكبر، فإن في وجهه آثار الجلال ومخايل الخير والبركة والوسامة، أو تنبّاه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا، وكانت لا تلد فتحرّكت فيها غريزة الأمومة وحبّ الطفولة، فاستوهبته من فرعون فوهبة لها! فتعجّب فرعون من حبها لهذا الطفل، فاستجاب لزوجته المقرّبة إليه، التي هي مستشارته والمحبة له وعزیزة عليه، ويكفّر لها الاحترام وتقدير الرأي. وهكذا ينبغي للمؤمننة أن تتخذ موقفاً محبباً مؤثراً في نفس زوجها، ثم قال (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وهم لا يدرون بما خبأه لهم القدر، وما حذروا منه طويلاً! كقوله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ) المدثر/٣١، ويد القدرة تحكم الموقف وتحدى الطغاة، وتسخر منهم وهم غافلون عما ليس بمغفول عنهم، في غرر الحكم (احذروا الْعُقَلَّةَ فَإِنَّهَا مِنْ فَسَادِ الْحَيْسِ)!

١٠- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ فَاذْرَأْ إِنَّ كَادَتْ تُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فارغاً: خالياً من الوعي والصبر والتعقل، لما داهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون، كقوله (لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُتْهُمْ هَوَاءٌ) إبراهيم/٤٣ أي (هَوَاءٌ) خالية لا عقول بها ولا وعي ولا قدرة لها على الصبر. المعنى: وأصبح قلب أم موسى الواهية الملهوفة (فارغاً) خالياً من كل شيء في الدنيا إلا من الخوف على فلذة كبدها، فجزعت ونسيت نفسها، ونسيت وعد الله لها بقوله (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) القصص/٧، (إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) الربط على القلب: تثبيتته وتقوية إرادته وعزمته كقوله (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) الأنفال/٢٤، كما قال تعالى في بدر. (وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) الأنفال/١١، إنّا كادت أن تكشف أمره، وتظهر أنه ابنها من شدة الحزن! لفشلت الخطة كلها (لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) لولا أن ثبتناها وعصمناها من الوقوع في الخطأ، فأعطيناها من الصبر الكافي على الثبات والتحمل، لتكون من المؤمنين بصدق وعدنا، وهكذا لطف الله بها وعنايته بموسى كقوله (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ) يوسف/١٠٠، وقوله (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) طه/٤١، من أجل إرجاع ابنها إليها ونكون أوفياء معها، في تدبير أمرها وأمر ولدها. (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لتكون من المصدقين بوعد الله برده إليها، والصابرين على بلائه والسائرين في هداه. فائدة: في الآية دلالة إن استمرار الجزع دليل على ضعف الإيمان وقلة التوكل على الله، وأن ما يتلى به المؤمنون من محن هو تثبيت لإيمانهم، كقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) آل عمران/١٥٤، فقبيل: في المَحْنِ مَنْحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٌ وَخَبْرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاءٌ، وَفِي الْبَلَاءِ بَدَائِيَةٌ نَهَائِيَةٌ الْكِرَامَاتُ ، عن الإمام الحسن العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا لِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا!) البحار ٧٨/٣٧٤.

١١- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(وَقَالَتْ) أم موسى (لِأُخْتِهِ قُصِّبِهِ) أي تتبعي أثره وتعرفي خبره وانظري ماذا يفعلون به؟ (فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فأبصرته (عَنْ جُنْبٍ) أي عن بعد وهم لا يعلمون أنها أخته ولا يشعرون أنها تراقبه مستخفية عنهم، لاحظ كيف تتبع الأسباب تلو الأسباب فتتحرك المسببات على ضوء تهيئة الأسباب، والأسباب بيد الإنسان تكريماً له وهو مسؤول عنها، والمسببات بيد الله وتأتي على ضوء تحرك الأسباب.

١٢-١٣ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَكَلْتَخُنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(وَحَرَّمْنَا) ومنعنا على موسى (الْمَرَاضِعَ) النساء المرضعات غير أمه تحريماً تكوينياً، من قبل أن تجيء أخته إليهم، وكلما أتوا له بمرضعة لترضعه لم يقبل ثديها بحكمة الله وتدييره، في حديث (الرِّضَاعُ يُعَيِّرُ الطَّبَاعَ) روح البيان ٦/٣٨٧، فلما جاءت أخته ورأت الحال اطمأنت أنهم يبحثون عن مرضعة، قالت لآل فرعون (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ) هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه؟ (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) وهم لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، ليجمع الشمل بينه وبين أمه، ١٣- (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) فأعدناه إليها تحقيقاً للوعد الذي وعدناها، كي تسعد ببلقائه ولا تحزن على فراقه، وأجرى فرعون راتباً لها وأحسنوا إليها، ورضعت ولدها بأجر من أعدى أعدائه! (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) ولتعلم علم اليقين من صدق وعد الله برده عليها، وحفظه من شر فرعون (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء ٨٧ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثر الناس لا يوقنون بذلك، ويرتابون في وعد الله القاطع، ولا تطمئن نفوسهم لتدبير الله وتقديره، لقلّة ثقتهم بالله تعالى وضعف إيمانهم، في غرر الحكم (على قدر الإيمان يكون التوكل) عن النبي (ص) (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) التفسير المبين ص ٥٠٧، فائدة: قد

يكون الأمر مكروهاً إلى النفوس في الظاهر القريب، ولكنه محمود العواقب في الآخر كقوله (فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) النساء/١٩.

١٤- ﴿وَكُنَّا بَلَدًا شَدِيدَةً وَاسْتَوَىٰ آيَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

ولما بلغ موسى (أَشَدَّهُ) قوَّته الجسدية غاية نموه، وهي فترة النضوج الجسمي (وَاسْتَوَىٰ) استكمل قوَّته العلمية والروحية والعقلية، ويختلف ذلك باختلاف الأماكن والأزمان والأحوال، (آيَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) أعطيناه (حُكْمًا) حكمة وعقلاً وسلطاناً روحياً موهوباً ومؤثراً، في غرر الحكم (قُرِنَتْ الْحِكْمَةُ بِالْعِصْمَةِ) (وَعِلْمًا) وفهماً ونظرة ثابتة، والقدرة على القضاء الصحيح، والتفقه في الدين والدنيا، علماً خالصاً لا يخالطه هوى نفساني ولا وساوس شيطانية، ثم أعطيناه كرامة النبوة والعصمة عن الخطأ، فكانت له عصمتان: عصمة ذاتية، وعصمة خارجية عن طريق تسديد الوحي، في غرر الحكم (مَنْ إِعْتَصَمَ بِاللَّهِ عَزَّ مَطْلَبُهُ) كقوله (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١، فكان علمه لا يخالطه جهل، لأن موسى (ع) سليم الفطرة، لم يتأثر بالأجواء الفرعونية الطاغية والرفاهية المغرية (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وهكذا كل من يحسن فيحسن الله إليه كقوله (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) الرحمن/٦٠، فهو قانون عام لا يخص موسى، وإنما يشمل كل المحسنين على إحسانهم، فهي سنة إلهية فعالة مستمرة في كل زمان ومكان.

والمحسنون: هم من أطاعوا أمر الله، وانتهوا عما نهاهم الله عنه، وهم الذين يأتون بالأعمال الصالحة على أحسن وجه، ولا يكتفون بالقدر الواجب منها، كقوله (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) الكهف/٣٠، لقد اختاره الله أميناً على رسالته ومستودعاً لعلمه، فكان علمه عن طريق الإلهام والنور الذي يقذفه الله في عقله، وليس عن طريق التعلُّم، والعلم خير وراثته، فهو خير الفضائل وأفضل المنازل، كقوله (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة/١١، فحصل موسى (ع) على مراتب العلم والحكم والكشف قبل أن يبعث نبياً! وإيتاء العلم لا يختص بموسى وإنما يختص به المحسنون، الذين يقولون ويعلمون ويعملون ما يستحسنه الناس الأسوياء في كل زمان ومكان كقوله (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) البقرة/١٩٥ وقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) الجاثية/١٥.

١٥-١٦- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ ابْنِي ظِلْمَتِي نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي غَفْرًا لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وخرج موسى يوماً من قصر فرعون، بعدما تأزمت العلاقة بينهما بسبب كلامه عن توحيد الله تعالى، ودخل المدينة أي العاصمة (عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا) في وقت الظهيرة والناس يخلدون

للراحة في بيوتهم، فتتعلّل الأسواق وتخلو الشوارع من المارة (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ) فصادف شخصين (يَقْتَتِلَانِ) يتضاربان أحدهما من بني إسرائيل من (شِيعَتِهِ) اتباع موسى في الدين، والآخر (مِنْ عَدُوِّهِ) قبطي من اتباع فرعون، وهو طبّاح فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطباً للمطبخ فأبى، والتعبير (من شِيعَتِهِ) يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له تأثير كبير على بني إسرائيل، وكان له أتباع وأنصار لمواجهة فرعون وجهازه (فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ومساعدته ليدفع عنه شر القبطي، وكان الأقباط مستكبرين يضطهدون الإسرائيليين، (فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

فوكزه: دفعه بشدة وضربه بيده ضربة واحدة، ولكمه بقبضة يده القوية، بقصد التأدب وليردعه عن ظلمه، فإذا هو ميت! وندم موسى، وطلب المغفرة من ربه، فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه فكانت فيه إزهاق نفسه وكانت القاضية! وهذا هو القتل الخطأ، وهو لم يكن معصية لوقوعه خطأ، ولكون دفاعه عن الإسرائيلي دفاعاً من كافر ظالم، وفي الآية دلالة: على أنه لا يجوز معاونة الظالمين والفاستقين، (قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وهذا إشارة إلى أن الخصام بين الرجلين أساسه ودافعه وسوسة الشيطان من أجل أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء (إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) إنه عدو فينبغي الحذر منه و(مُضِلٌّ) عن سبيل الخير والصلاح، أي يجعله الشيطان بين العداوة والإضلال فتكون عواقبه وخيمة كقوله (وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣ وقوله (الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ) محمد/٢٥. فائدة: ١- ونسب القتل إلى الشيطان لأنه بهذا القتل الخطأ يخلق الفتن بين الناس كقوله (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) البقرة/١٩١، فندم موسى على فعله، ٢- تنقلنا الآيات نقلة بعيدة من طفولة موسى إلى مكانته المرموقة بين الرجال، وأنه ينتصر لقومه ويعارض فرعون، وإنَّ له أنصاراً، ٣- من شِيعَتِهِ: ممن شايعه أي تابعه وناصره في الدين.

١٦- (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) وألقيتها في التهلكة بسوء تقديري بعملتي هذا إذ لو علموا بذلك لقتلوني (فَاغْفِرْ لِي)، فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي، ونجني من شر فرعون وأعدائه (فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) فعفى الله عنه وخلصه ونجاه (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ) المبالغ في المغفرة لخطايا عباده (الرَّحِيمُ) بهم وخصوصاً للمنيبين إليه والتائبين كقوله (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) الشورى/١٣، ويصف السياق القرآني الموقف أيضاً في قوله (وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) طه/٤٠، فائدة: الإنسان الجليل يسير في سلم التكامل، والأنبياء (ع) هم النماذج العملية الواقعية المتكاملة إنسانياً! إنهم ينسبون كل عملهم بالتقصير إلى ما يستحقه الله من طاعة، والذين يعرفون الله

يتصاغرون أمامه سبحانه مهما عملوا من أعمال ترضيه، فيسألون الله العفو عن كل غفلة، ويستغفرونه دائماً، لإظهار عبوديتهم لله عز وجل، وهذا معنى الحديث (مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ) البحار ١٢٠/٧٥، في غرر الحكم (التَّوَضُّعُ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ).

١٧- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾

هذا عهد مطلق من موسى على نفسه لخالفه شكراً له ليكون قاعدة عامة للناس. أي بسبب إنعامك عليّ بالرعاية والحماية والعزة والنجاة، وبنعم كثيرة كقوة في الجسم وشدة في ذات الله وأن يُسخر هذه النعم في مساعدة الناس، فلن أكون (ظهيراً) عوناً ومساعداً لأحد من المجرمين والمستكبرين، بأي شكل من أشكال المساعدة، والظهير هو المعين: أي لا أعينهم بقول أو عمل أو خبرة... إلخ وإن أكون حرباً على كل ظالم، وعوناً لكل مظلوم كقوله (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) الشعراء/٢٢٧، وعن الإمام الرضا (ع) (مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا فَهُوَ ظَالِمٌ، وَمَنْ خَدَلَ ظَالِمًا فَهُوَ عَادِلٌ) بحار الأنوار ٢٢١/٩٦ وهو في نفس الوقت براءة من كل جرم وظلم وكل اعتداء مادي ومعنوي، وأفضل العبادة كف الأذى عن الناس والعون لهم، وسد حاجاتهم الكثيرة في نهضة حضارية كبيرة. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر، وعدم مساعدة أحد على أية معصية وفساد وظلم ولو بصحبتهم وتكثير سوادهم، فمن ساعد مفسداً فهو فاسد مثله، ومن أحب فعل قوم أشرك في عملهم، عن النبي (ص) (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) كنز العمال خير ٢٤٦٨٤، كقوله (وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) هود/١١٣ فائدة: (لِلْمُجْرِمِينَ) معنى الإجماع: أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، ويقال اللحم المجرور أي المفصول عن العظم، وكذلك المجرم فإنه أخبث المعتدين فهو منفصل عن الصفات الإنسانية والأخلاق البشرية المعروفة! وفي غرر الحكم (شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِيهِ النَّاسُ خَافَةً شَرَّهُ).

١٨- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾

فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه من أولياء الدم من فرعون، ولفظ (يَتَرَقَّبُ) يصور هيئة الخوف والقلق من انتظار المكروه المتوقع في كل لحظة! (فِإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ) ففاجأه أن الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يستغيث به ثانية (يَسْتَصْرِحُهُ) رافعاً صوته على قبطي آخر (قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) قال موسى توبيخاً وتأنيباً للإسرائيلي وهو غاضب عليه (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) لضال ظاهر الضلالة بعيد عن الرشد، وشقي بكثرة مخاصمتك، فيني وقعت بالأمس في شدة، من قتل رجل بسببك، وتريد أن توقعني اليوم في ورطة أخرى؟ فإنك عنصر ضرر وخطر في المجتمع، وصار يتحسس الأخبار ويتربص الأحداث ويخشى من المخبأة والمفاجأة.

١٩- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَمْرًا أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَا يَا مُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

فحين أراد موسى (أَنْ يَبْطِشَ) أي يأخذ بعنف ذلك القبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي، لأن الإسرائيلي كان مظلوماً في قبضة الفراعنة الظالمين المعتدين في كل الأحوال لأنهم يعاملوهم معاملة العبيد المسحوقه حقوقهم الإنسانية، وسواء أكان قد قصر أم لم يقصر في واجباته، فأخذت موسى الحمية والنخوة أن ينصره (قَالَ يَا مُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ) قال القبطي الفرعوني أريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ) ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض المولعين بسفك الدماء! وهذا الكلام لا يصدر من مؤمن بموسى، وإنما من القبطي الكافر (وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) بين الناس كما كنت تزعم من قبل هذا، فانتشر الخبر فبلغ فرعون، فعزم على قتل موسى.

٢٠-٢١- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

وسخر الله تعالى أسباب النجاة لموسى بقوله (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) من قصر فرعون أحسن بالمؤامرة، مؤمن بموسى يكتفم إيمانه عن فرعون وأعدائه باستعمال (التقية) وهو (مؤمن آل فرعون) ويكون ابن عم فرعون ووزيره كقوله (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) غافر/٢٨، جاء من أبعد أطراف المدينة (يَسْعَى) يسرع في مشيه وفي جهد وقصد وفي عجلة ولهفة واهتمام ليسبق الحدث حتى وصل (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) قال يا موسى (إِنَّ الْمَلَأَ) زعماء القوم الذين يملأون القلوب هيبة والعيون جمالاً (يَأْتَمِرُونَ بِكَ) يتشاورون في أمرك ليقتلوك (فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) فخرج قبل أن يدركوك إني لك ناصح أمين (الدِّينِ النَّصِيحَةُ) في غرر الحكم (مَا أَخْلَصَ الْمَوَدَّةَ مَنْ لَمْ يَنْصَحْ) (وَالنَّصِيحَةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ)، فائدة: (يَأْتَمِرُونَ بِكَ) يتشاورون بسببك، وإنما سمي التشاور ائتماراً، لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر في التنفيذ ٢١- (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ) يترقب: في شخصية منفعة قلقة يتلفت يمينه ويسرة أن يلحقه أو يصيبه خطر.

المعنى: فاستجاب موسى بنصح الرجل المؤمن، وَتَقَبَّلَ قَوْلَهُ وشكره لمعرفته بإيمانه وصدقه، فخرج من مدينة فرعون خائفاً على نفسه ومسرعاً (يَتَرَقَّبُ) هل أحد يلحقه، ثم استعان بالله ولجأ إليه تعالى علماً منه أن لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ) توجه لله مباشرة وطلب المعونة منه سبحانه، والتطلع إلى رعايته والالتجاء إلى حماه من كل خوف،

وَيَتَرَقَّبُ: الأَمْنُ عنده سبحانه والنجاة فإنه خير معين. عن الإمام علي (ع) (أن كنتم للنجاة طالبين فافرضوا الغفلة واللَّهُو، والزمو الاجتهاد والجد). فموسى (ع) لا يخشى من القتل في سبيل الله، وإنما يخشى من سفك دمه بلا موقف رسالي بطولي يصنعه لنصرة الحق، فإن القتل مع صنع موقف بطولي هو الجهاد والتضحية والاستشهاد في سبيل الله، عندئذ يحيا الإنسان المجاهد الشهيد بموته، وبموقفه البطولي الرسالي الخالد، ويحيى الإنسان بموقفه أكثر مما يحيى بعمره، عن الإمام علي (ع) (أَطْلُبُوا الْمَوْتَ تُوَهَّبَ لَكُمْ الْحَيَاةُ) موسوعة الشهادة ٢٨٧/١، (رُبَّ حَيَاةٍ سَبَبَهَا طَلْبُ الْمَوْتِ، وَمَوْتُ سَبَبُهُ طَلْبُ الْحَيَاةِ) عن النبي (ص) (أشرف الموت قتل الشهادة) البحار ١٠٠ ص ٨.

٢٢- ﴿وَكَمَا تُوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدِينٍ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

هنا تنتقل الأحداث نقلة بعيدة، حيث نرى موسى متوجّه إلى (تَلْقَاءَ) جهة مدين، وهي على أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام، وتقع على خليج العقبة جنوبي فلسطين، قصد موسى مدين لأنها لا تخضع لحكم فرعون، وكان يسير وهو خائف ولا شيء معه من زاد السفر ولا ماء ولا غذاء ولا مركب، وهو لا يعرف الطريق، وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام!، فاستعان بالله ليهديه الطريق فهو خير معين (قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) قال لعل الله يرشدني إلى الطريق المستقيم، الطريق الاصلح المختصر، الذي فيه النجاة إلى مدين، وهو على يقين من ربه سيرشده إلى (سَوَاءَ السَّبِيلِ) إلى طريق النجاة (ومن كان مع الله، كان الله معه، ومن كان الله معه فمن عليه، ومن كان الله عليه فمن معه)؟ فاجتاز موسى (بمساعدة الله) تلك الصحراء الجافة القاسية يأكل من نبات الأرض ما تيسر له، كقوله (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) طه/٤٠، عن الإمام الصادق (ع) (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَفِيهِ مَشِيَّةٌ وَقَضَاءٌ وَإِتْلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤، كقوله (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ بِرُؤُوسٍ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) الفرقان/٢٠.

٢٣- ﴿وَكَمَا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

ورد: وصل، حضر، أمة: جماعة كثيرة المعنى: وكان سفره شاقاً مليئاً بالمعاناة، حتى وصل إلى مدين بلدة نبي الله شعيب، وهو مجهود مكدود ورد ماها، وهي عين ماء نقية من بئر، وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة (أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ) جمعاً كثيفاً من الناس من أهل القرية يشربون الماء ويسقون مواشيهم (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) تذودان: تمنعان غنهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، أي ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين وهما بنتا النبي شعيب (ع) عليهما آثار العفة والحياء والحشمة، وعدم مزاحمة الرجال وهما تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد الماء لثلا تختلط بالأغنام الأخرى (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)؟ قال مستفسراً ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ) جمع الراعي وهم

يصرفون مواشيهم عن الماء، أي من عادتنا التأنى حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ولا نريد مخالطة الرجال والاحتكاك بهم (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) السن لا يستطيع السقي والرعي وليس لنا أخ يعينه، فاضطرنا أن نسقي أغنامنا بأنفسنا، فرق قلب موسى عليهما ورحمهما كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة والنخوة والخدمة، وهو غريب في البلاد وبين العباد، ولا سند له ولا معين، وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد، وهو مطارد من أعداء لا يرحمون، ولكن هذا كله لا يقعد به عن مساعدة المحتاج الضعيف، في غرر الحكم (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ).

٢٤- ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

لقد تحركت في نفس موسى مشاعره الإنسانية ورحمته بالضعفاء، فسقى لهما غنمهما، حتى رويت من غير طلب منهما رحمة بهما، وقد شهدتا منه القوة والأمانة فلم يعلق نظره بهما، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ليستريح فيه من شدة الحر والتعب وهو جائع، (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) إنه (ع) يأوي إلى ظل الشجرة بجسمه، ويأوي إلى ظل رحمة الله العريض الممدود والقريب من المحسنين، ولكنه يستظل بهذا الظل الوارف المعنوي بروحه وقلبه!، وهو يناجي ربه ويشكو معاناته له ولسان حاله يقول: ربِّ إني وحيد وطريد، ربِّ إني فريد وضعيف وجائع، ربِّ إني إلى فضلك ومَنِّكَ وكرمك فقير، ومحتاج إلى مساعدتك استذوق بها نعمك عندي، وهذا سؤال منه يجمع بين لسان حاله ولسان مقاله، في غرر الحكم (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ) وإنه لمحتاج وفقير إلى خير الله وخزائنه الكثيرة، وإنه سأل ربه أن يغنيه بغناه ويقضي حاجته ويسدَّ جوعه، ولم يسأل من الناس! عن النبي (ص) (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ) البحار ٧٧ ص ٨٧، فإن الله عز وجل اتخذ إبراهيم خليلاً لأنه لم يرد محتاجاً ولم يسأل أحداً غير الله تعالى، فلم يزل على هذه الحالة داعياً ربه متضرعاً إليه سبحانه، وبعدها جاء الفرج بعد الشدة، وجاء اليسر بعد العسر، كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح/ ٥-٦.

٢٥- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

فما لبث أن عرف أن دعوته مستجابة، فجاءه الفرج بعد الشدة، (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ) على خجل وحياء، عن الإمام الكاظم (ع) (الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ) البحار ٧٨/٣٠٩، والحياء أفضل صفات النساء، مشية الفتاة العفيفة الفاضلة المؤدبة المحجبة حين تلقى الرجل، فقالت بوضوح واختصار (وَخَيْرُ الْكَلَامِ مَا قَلَّ وَذَلَّ وَلَا يُجَلُّ) إِنَّ أَبِي (الذي لم ينص القرآن على اسمه) يطلبك ليعوضك أجر ما سقيت لنا، ويكافئك على إحسانك، فأجابها موسى وهو بحاجة إلى

الأمان والطعام، فخرج معها وكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى شيئاً من جسدها، فجعل موسى يُعرض عنها مرة، ويغضّ الطرف مرة، فنادها: يا أمة الله كوني خلفي وأريني الطريق بقولك (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فلما جاء موسى شعيباً وقص عليه ما جرى عليه من لدن ولادته إلى فراره خوفاً من فرعون، قال له شعيب: لا تخف قد نجوت من كيد المجرمين فلا سلطان لهم بأرضنا. فائدة: ١- يعلمنا القرآن أن الإنسان يعمل الخير لنفسه، والناس واسطة له، كقوله (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) الإسراء/٧ وقوله (أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) القصص/٧٧، ٢- نبأه موسى المبكرة للموقف ومبادرته السريعة لأمر السقي، وكثير من المواقف بحاجة إلى نباهة، ومبادرة سريعة، وخدمة عاجلة، وحسن تصرف، واغتنام الفرصة فإنها لقطعة سريعة وقد تذهب ولا تعود، في غرر الحكم (انتهزوا فُرْصَ الْخَيْرِ فَإِنَّمَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)، ٣- دخل موسى على شعيب فسلم عليه فرد عليه السلام، وعانقه ثم أجلسه بين يديه وقدم إليه طعاماً فامتنع منه وقال أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيته، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، فقال شعيب لا والله يا شاب ولكن هذه عادتنا إكرام الضيف، ٤- لأن موسى تربى عند فرعون بالنعمة الظاهرة، ولما هاجر إلى الله وقاسى مشاق السفر والغربة، عوضه الله عند شعيب النبي (ع) النعمة الظاهرة والباطنة، ٥- في نهج البلاغة حكم ٥٦ (الْعِنَى فِي الْعُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ)

وفيه أيضاً حكم ٤٤٢ (لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ) وكقوله (يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) العنكبوت/٥٦.

٢٦- ﴿قَالَتْ إِحْدَى بَنَاتِ شُعَيْبٍ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

قالت إحدى بنات شعيب وهي الكبرى، يا أبت اطلبه ليعمل معنا ويرعى غنمنا بأجرة، فأنا وأختي نعاني من رعي الغنم وسقيها (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) وتكشف لأبيها عن معدن الرجل الذي يستأجره، إن أفضل من تستأجره من كان (قويّاً أميناً) وهو كلام حكيم جامع مانع، كافي وافي، وهما أساس نجاح الأعمال (القوة والأمانة) كما قال يوسف (إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمُ) يوسف/٥٥، لأن الحفظ والعلم كان متمكناً منهما محتاجاً إليهما، وموسى (قوي) في الجسم والعمل و(أمين) على المال والغنم، والأمين على العرض، هو أمين على ما سواه، وكذلك أعطى داود الحكمة وفصل الخصومات (علم القضاء العادل) لأنه بحاجة لهما في حكومته كقوله (وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) ص/٢٠ وَحَكَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ الْمُمِيزَةِ، والحكم العملي من خلال الواقع العملي خير من الحكم النظري السطحي السريع، في غرر الحكم (وَلَسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) (القوي الأمين) وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً باجرة أو غير ذلك، فإن الخلل لا يكون إلا بفقد أحدهما، وأما باجماعهما فإن

العمل يتم ويكمل ويتقن، روي: أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت لاحظت قوته من طريقته المميزة التي يهابها الرجال فيفسحون له الطريق في سقي الأغنام، ولاحظت عفته وأمانته من حديثه معها وأختها وخفض بصره فلم ينظر إلينا، ثم من صحبتها لها إلى بيت أبيها، حيث طلب أن تتأخر ويتقدمها، لئلا ترفع الريح ثيابها فيقع نظره على شيء من جسدها، ولما أتته خفض بصره فلم ينظر إليّ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته.

٢٧- ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكْحِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَبْعِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

لعلّ شعيباً أحسن من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة، وميلاً فطرياً سليماً عفيفاً صالحاً لبناء أسرة (قَالَ) شعيب لموسى: (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكْحِكَ) أزوجك (إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ) على أن (تَأْجُرَنِي) تكون أجيراً لي في رعي غنمي (ثَمَانِي حَجَجٍ) سنين (فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ) فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ) ولا أريد أن أشدد عليك في الأمور وأوقعك في المشقة باشتراط العشر، ولا بنت معينة من البنيتين بل أترك لك الخيار، وفي دليل على مشروعية عرض ولي البنت على الرجل الصالح ابنته، وهذه سنة قائمة، كما عرضت المرأة نفسها للنبي (ص)، كقوله (وَأَمْرًا مُمُؤَمَّةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) الأحزاب/٥٠، (سَبْعِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) في حسن الصحبة، والوفاء بالعهد، وحسن التعامل معك، وعند حسن ظنك، أراد موسى أن يعمل حتى يُكُون نفسه عندما يعمل بأجر، حتى يتزوج بمهر من كدّ يده، وخير الأموال ما جاءت من تعب، ومن كدّ اليد، ومن الاستحقاق.

٢٨- ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

قبل موسى العُرض وأمضى العقد في وضوح ودقة وأشهد الله على ذلك في مقابل زواج ابنته (فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ) : فلا تعدي ولا إثم ولا تجاوز ولا إخراج عليّ المعنى: وقال موسى (ذَلِكَ) عهد (بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ) لي أن أختار أي المدتين شئت، فإن اخترت السنين الثماني (فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ) فلا حرج عليّ، فليس لك أن تعدو عليّ وتحرجني بالزيادة، وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشرًا فليس لك أن تحرجني بالمنع من الزيادة (وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) وكيل: شهيد وشاهد وحافظ يراقبنا، أي والله شاهد على تعاهدنا وتوافقنا عليه، ونرجع إليه الحكم والقضاء بيننا لو اختلفنا وحين اتفقنا. عن النبي (ص) سُئِلَ أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ (قال أوفاهما وأبرهما) المراغي ٥٣/٢٠، وسكت السياق القرآن عند هذا الحد وبه الحكمة والموعظة. فائدة: ١- روي: إنه لما أتم العقد قال شعيب لموسى أدخل ذلك البيت فخذ عصا وكانت عنده عصا الأنبياء، فأخذ العصا الذي هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصل إلى

شعيب وعلم (ع) أن لموسى شأنًا، ٢- في الحديث الشريف (إن موسى (ع) أجز نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه) التفسير المبين ص ٥١٠، عن النبي (ص) (إذا جاءكم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ يَخْطُبْ (إِيكُمْ) فَرُوجُوهُ، إِنْ لَا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) البحار ١٠٣/٣٧٢.

٢٩- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَاءَ لَهُ لَيْلَةٌ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

فلما أتم موسى (الأجل) المدة الثانية الأوفى والأكمل وهي عشر سنين، اشتاق إلى والدته وعشيرته ووطنه، وظن من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه، سافر مع زوجته ومتاعه إلى مصر، وفي الطريق وفي ليلة ظلماء وفي الصحراء القاحلة (آنس من جانب الطور نارًا) (آنس) أبصر من بعيد نوراً ظنه ناراً تتوهج من جانب جبل الطور، (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) قال لزوجته امكثي وانتظري هنا، فقد أبصرت ناراً تتوهج من جانب جبل الطور، وكانت ليلة باردة وقد ضلوا الطريق، فسار إلى النار التي رآها لعله يجد من يده على الطريق (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) عن الطريق وأرى، من يدلني عليه (أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أو آتيكم (جَذْوَةٌ) بشعلة من النار لعلكم (تَصْطَلُونَ) تستدفنون بها، فائدة: أبصر موسى ناراً دالة على الأنوار، لأنه رأى النور على هيئة النار لكون مطلبه النار، والإنسان بطبعه يميل إلى المحسوس المأنوس، وحاجته إلى النار الدافئة في الشتاء.

٣٠- ﴿فَلَمَّا أَنَاكَأَ نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، عندئذ حصلت المفاجأة وحصل ما لم يتوقع، ومن هنا بدأت المسؤولية الرسالية، وجاء النداء الأخاذ المميز (من شاطئ) من جانب (الْوَادِ الْأَيْمَنِ) في ذلك المكان المبارك المميز من ناحية الشجرة المباركة المميزة التي كانت فيه كقوله (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) طه/١٢ (أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) نودي يا موسى إن الذي يكلمك أنا الله العظيم المنزه عن صفات النقص، رب الإنس والجن والخلائق أجمعين تعالى الله عن أن يحل في محل لأنه ليس بجسم كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُ مَا كُنْتَ) كنز العمال خبر ٦٦، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ وسمع النداء العلوي الشفاف الجذاب المنساب، الذي يلقي إلى عبده تكاليف المسؤولية الرسالية. تلقى النداء النموذجي، ولا ندري كيف وبأية جارحة وعن أي طريق، تلقاه بهذا الاطلاق في كيفية التلقّي لأنه صنّع صناعة خاصة، حتى تهيأ لهذا الموقف النموذجي الضخم، الذي يحرّك المشاعر بلا استئذان! كقوله (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) طه/٤١ (وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي) طه/٣٩، وهنا بعثه الله تعالى نبياً وسمي موسى كليم الله كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤.

فائدة: تكررت قصة موسى في القرآن الكريم لتشابه حركة سنن بني إسرائيل وتدهور أوضاعهم مع فرعون وطريقة نجاتهم منه، مع حركة سنن المسلمين من بعدهم مع تدهور أوضاعهم العامة من داخلهم بالتنازع، ومن خارجهم بسيطرة الاستكبار العالمي عليهم، وطريقة التخلص من هذا التدهور، بعودة المسلمين إلى منهج الله تعالى (لا يصلح أمر هذا لدين إلا بما صلح به أوله) قال النبي (ص) (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرَكُبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ حَتَّى لَا تُحِطُّوْنَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُحِطُّكُمْ سُنَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) مجمع البيان ٤٣٠/٧، وفي ذلك دلالة: إن المسلمين أشبه الأمم بني إسرائيل في الطباع والصفات والعادات، تتبعون عملهم حتى ولو أن من أولئك دخلوا حجر ضب (سبل متاهات) لدخلتموه، ولو كان فيهم من نكح أمة علانية كان في أمي مثله...! مواهب الرحمن ٢٣٣/٦، عن الإمام الصادق (ع) (كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران ذهب يقتبس ناراً لأهله، فانصرف إليهم وهو نبي مرسل) نور الثقلين ١٢٧/٤.

٣١- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَكَيْفَ يُعَقِّبُ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾
ونودي أن أطرح عصاك التي في يدك للدلالة على تأييد الله لك في نبوتك (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَكَيْفَ يُعَقِّبُ) جان: حيّة خفيفة ومخيفة وسريعة الحركة، ولم يعقب: ولم يلتفت ولم يرجع، المعنى: فألقى عصاه فانقلبت بسرعة إلى حيّة، فلما رآها قد تغيرت إلى شكل آخر وهي تتحرك كأنها ثعبان مخيف وخفيف وسريع الحركة، انهزم هارباً ذعراً منها ولم يلتفت إليها، إنها المفاجأة العجيبة الغريبة التي لم يحسب حسابها، ولم يستعد لها ولم يتدرّب عليها! لذلك ولى مدبراً بانفعال وتوتر، وكل انفعال نفسي يأتي بردود أفعال سريعة وغير مدروسة، ثم يستمع إلى نداء ربه الأعلى الشفاف الذي يبعث على الاطمئنان (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله؟ وقدرته الغالبة وتحميه وتحيط به، فرجع موسى غير خائف بل مطمئناً كقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨ سؤال: لماذا ألقاها في حضرة الله تعالى؟ الجواب: حتى يألفها ولا يخافها عند فرعون إذا حاوره وناظره ولتكون حجتك قوية، وهو تدبير القدرة الغالبة وتقديرها الدقيق العميق كقوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) الأحزاب/٣٨، عن النبي (ص) (وكل شيء بقدر حتى العجز والكيس) كنز العمال خير ٤٩٨، عن الإمام الهادي (ع) (المقادير تريك ما لم يخطر ببالك) البحار ٧٨/٣٦٩.

٣٢- ﴿اسْأَلْكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُرُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

(اسْأَلْكَ) أدخل يدك السمراء في جيب قميصك وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس ثم أخرجها، تخرج مضيئة منيرة مشعة تتلألأ كأنها قطعة قمر، من غير مرض ولا أذى ولا برص وهذه

مفاجأة ثانية في موقف واحد. (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) الرهب: من الرهبة والخوف، أراد الله سبحانه وتعالى أن يقوّي قلب نبيه موسى (ع) ويذهب الخوف عنه فقال له: ضع يدك على صدرك يذهب ما بك من الخوف والارتجاف، الذي اعتراك من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة، لترجع إليك السكينة والاطمئنان، والمراد بالجنّاح اليد لأن يديّ الإنسان بمنزلة جناحي الطائر (فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ) فهذان - العصا واليد - برهانان واضحان وحجتان قاطعتان من الله تعالى تدلان على صدقك أمام فرعون وقومه الطغاة، وتلقّى موسى التكليف الإلهي الذي كان يعدّ له منذ طفولته الباكّة ويؤهل له، وهو رسالته إلى فرعون وملئه (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) خارجين عن طاعة الله إلى طاعة غيره، والمتجاوزين جميع الحدود المعقولة. فائدة: إنه الوعد الذي تلقته أم موسى وهو طفل رضيع (إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ) القصص/٧ الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون، وعد الله لا يخلف الله وعده كقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧، عن ابن عباس (كل خائف إذا وضع يده على صدره (ودعا الله) زال خوفه) بذكر الله. المراغي ٥٥/٢٠.

٣٣-٣٤- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ مَرْدًّا يَصِدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾

ويتذكر موسى أنه قتل منهم قبطياً من آل فرعون، وأنهم تأمروا على قتله قصاصاً له، فهرب منهم بعيداً خوفاً من سطوتهم أن يقتصوا منه، فكيف أذهب إلى فرعون؟، يقولها لا ليعتذر ولا ليتقاعس ولكن ليحتاط لسلامة الدعوة، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجاهدة فرعون، فقال ٣٤- (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) وهو أوضح بياناً وأطلق لساناً، وقد اختاره الله نبي مع موسى (ع) جاء في وصفه من سيد الأنبياء مُحَمَّدٌ (ص) أنه كان يجمع المعاني الكبار في كلمات قصار، وهذه هي بلاغة مُحَمَّدٌ (ص) (فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي) فأرسله معي (ردءاً) أي معيناً (يُصَدِّقُنِي) أي يعاضدي ويسانديني ببيان الحجة ورفع الشبهة (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) لأني أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني، ولساني لا يطاوعني عند المحاجة والحوار والدفاع عن الدعوة، وهكذا كان الإمام علي للنبي (ص) بمنزلة هارون من موسى. فائدة: ١- إن الله اختار موسى (ع) لمهمته الرسالية الكبيرة (وَالْهَمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهَمَّةِ) مع وجود ثقل في لسانه (لَكِنَّةً)، وهذا دليل على أن القيادة الإسلامية لا تعتمد على بلابة اللسان، وإنما تمثل بحسن البيان، وقوة البرهان، والقوة في الدين، والقوة في الإرادة، والنضوج الواعي في التصرف، والعصمة عن الخطأ، والأمانة في الأداء، والإخلاص لله والصدق مع الناس ونكران الذات... وغيرها، مع أن موسى استعان بهارون، ولكن بقيت السيادة والريادة والقيادة للحوار الرسالي بيد موسى (ع)!

٢-سؤال: كان في لسان موسى حبسة وعقدة كقوله (وَإِخْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يُفْقَهُوا قَوْلِي) طه/٢٧-٢٨ والمرء بأصغرية قلبه ولسانه، ويصف فرعون حوار موسى معه بقوله (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) الزخرف/٥٢، ومن الخطأ القول في أن سبب هذه العقدة، بأن موسى (ع) أخذ بيده جمرة ورفعها إلى فمه فمست لسانه وحصلت العقدة والثقل، وهذا غير صحيح لأن الإنسان لا يستطيع أن يمسك الجمرة بيده، فكيف يستطيع أن يمسكها ويضعها في فمه؟! وإذا تعطل اللسان، فماذا بقي من الرسول في تبليغه؟ وهناك رأي آخر قابل للحوار: أن خوف موسى من فرعون هو الذي كان يمسك لسانه عن الانطلاق والاسترسال كقوله (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي) الشعراء/١٣ وقوله (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) القصص/٣٢.

٣٥- ﴿قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَتُمِنُّنَّ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ أجابته الله تعالى إلى طلبه وقال له: (سَتَشُدُّ عَضُدَكَ) سنقويك (بِأَخِيكَ) ونعينك به لأنها لا تتعارض مع الأهداف المرسومة، وزاده على الرجاء، البشارة والتطمين، (وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا) غلبة وتسلطاً مادياً وَمَلَكَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وتسلطاً معنوياً بالهبة وبالحجة الدامغة العلمية المقنعة، والتأثير في قلوب الأعداء، والمحبة والولاء في قلوب الأصدقاء، وحسن السياسة من أخلاق الأنبياء، والسياسي الناجح من ساس نفسه قبل سياسة أمته، في غرر الحكم (مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ أَذْرَكَ السِّيَاسَةَ)

(فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا) لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات، وحولكما من سلطان الله سياج منيع، ولكما منه سبحانه حصن حصين، وملاذ أمين، (أَتُمِنُّنَّ مِنَ الْغَالِبِينَ) وهذا وعد صادق وبشارة لموسى بالفوز، فهو بمثابة الدواء المقوي للإرادة، والناهض للهمة، وهو في موقف صعب وحده يعاني من الاستضعاف والغربة والهجرة، أنتم المنتصرون على القوم المجرمين، والعاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة كقوله (كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي) المجادلة/٢١ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) يوسف/٢١، فائدة: ١- وهذا يدل أن الذي لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! والإنسان الذي يحدد النهاية بوضوح ويعدّ عدتها، فيبدأ صحيح ويعمل صحيح وينتهي صحيح، ويصل إلى الأهداف المرسومة بأمان، بأقل التكاليف والخسائر وأكثر الأرباح مع النجاح والفلاح. فائدة: وتتجلى قدرة الله على مسرح الأحداث، وهي التي تديرها بلا ستار من قوى الأرض، وتؤدي دورها الفعّال مكشوفاً بلا ستار، لتكون الغلبة بغير الأسباب المعروفة والمألوفة، حتى يقوم في نفوس الناس ميزان جديد مؤثر، للقوة والقدرة والقيم والمبادئ والإيمان بالله عز وجل.

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾

فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة والمعجزات القاطعة الواضحة، التي تدهش النفوس وتؤمن بها العقول الدالة على صدقه وأنه رسول من عند الله (قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى) ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد البيضاء (إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى) مكذوب محتلق افتريته من نفسك وتنسبه إلى الله كذباً، وهكذا الجاهلية تعتبر كل جديد عليهم انه سحر بلا نقاش (وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) ما سمعنا بدعوى التوحيد في آبائنا وأجدادنا السابقين. فائدة: اصطدمت دعوى موسى الرسالية بأصحاب الطغيان والاتباع الأعمى، الذين يكبر طغيانهم على عقولهم، فيعطلون عقولهم عن التفكير العلمي الصحيح، وهم يعبدون هواهم ومناههم وعاداتهم النفسية، وينغلقون عن كل صحيح جديد ومفيد، لأنه يخالف المألوف والمعروف والعادات المتبعة، هؤلاء هم عبدة الهوى والذات واتباع اللذات وأصحاب الأنا والمصالح الشخصية كقوله (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا) الفرقان/٤٣، عن النبي (ص) (مَا عُبِدَ إِلَهٌ أَبْعَضَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهُوَى) روح البيان ١٩٧/٢، هؤلاء أصحاب النفوس المريضة التي تنقلب عندهم المقاييس، فترى الحق باطلاً والباطل حقاً! لذا كان النبي (ص) يدعو الله (اللهم أرنا الحقَّ حقاً وارزُقنا إيتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزُقنا إجتنبه).

٣٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِنَجَاتِ آلِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّامِرِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

أجمل موسى في جوابهم إيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم، في غرر الحكم (خَيْرُ الْكَلَامِ مَا قَلَّ وَدَلَّ وَلَا يُمَلِّ) وهكذا ينبغي التحدّث مع الطواغيت.

المعنى: وقال موسى إن ربي أعلم منكم بمن جاء بالهداية من عنده فيدعمه بالمعجزات، وهو أعلم بمن تكون له العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة، وهو الذي أرسلني بالهدى ودين الحق، ووعدني أن من صدقتي واستقام فله العاقبة الحسنى كقوله (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الأعراف/١٢٨ (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) والمخدول هو الكاذب، أي لا يسعد ولا ينجح في النهاية من كان ظالماً فاسداً كاذباً على الله، والله يمهله ولا يمهله، ثم يأخذه وينتقم منه كقوله (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) المائدة/٩٥، وسنة الله لا تتبدل ولا تتحول في غرر الحكم (فَمَنْ ظَلَمَ كُفِّرَتْ بَرِّهِمْ أَيْئَامُهُ) فائدة: ١- سياق الآية أسلوب مؤدّب مهذب يلتمح فيه ولا يُصرح، وهو واضح في نفسه وموضح لغيره، مليء بالثقة إلى عاقبة الهداية، فهو لم يؤكد أن خصمه اللدود في ضلال كما لم ينسبه إلى نفسه، بل ردّ الضلال بينهما وهو يعلم أنه لأيهما، عن الإمام علي (ع) (إبدأ مع الذي تحاوره من حيث يجب، حتى تنتهي إلى حيث تحب) كقوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) سبأ/٢٤، ٢- (رَبِّي أَعْلَمُ) الله أعلم وكفى، وماذا بعد الله من حقيقة، مالي واختلاف الناس، فإني توجهت لوجه واحد فيكفيني الوجوه كلها، وتحملت همماً واحداً فيكفيني الهموم كلها، كما قال النبي (ص) (إن لم يكن بك عليّ

غضب فلا أبالي) وعن الإمام الحسين (ع)، في دعائه يوم عرفة (ماذا فَعَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟ وَمَا الَّذِي وَجَدَ مَنْ فَعَدَكَ، عَمِيَّتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيْبًا ، وَحَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيْبًا).

٣٨- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين﴾

الملا: زعماء القوم الذين يملفون العيون مهابة، المعنى: وقال فرعون تضليلاً لقومه، أيها القادة والرؤساء لم يتضح لي من دعوة موسى وآياته، أن هناك إلهاً غيري اسمه رب العالمين، ولا حصل عندي علم بأن هناك إلهاً غيري! كلمة فاجرة كافرة يتلقاها الملا بالإقرار والتسليم بلا اعتراض ولا تعقيب! كقوله (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) النازعات/٢٤، وقوله (لَئِنِ اتَّخَذَتِ إلهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) الشعراء/٢٩، ومع ذلك سأتحقق لكم من هذا الأمر أكثر، ليظهر فرعون نفسه للناس أنه (ديمقراطي) في حكمه، يتطلع نحو الأحسن فلم يبادر بقمع موسى، (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا) هامان: وزير فرعون ومستشاره (عَلَى الطِّينِ): على قوالب الطين عندما تشوى لتشتد وتستحکم لتصبح آجرًا، وأول من اتخذ الآجر فرعون ليعلم الناس الصنعة، صرحاً: برجاً أو قصرًا عاليًا، أي ابن لي برجاً عاليًا أضعد إلى أعلاه فأنظر إلى السماء (لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) لعلني أشاهد إله موسى الذي يزعم أنه أرسله، وقد تصوّر فرعون أن الله تعالى جسم من الأجسام يسكن في السماء، هكذا ضلّ ويضل الناس وهو لا يعلم أن (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، قال ذلك على سبيل الاستهزاء (وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين) وإني لمتيقن موسى كاذباً في إدعائه، والمراد بالظن هنا القريب إلى اليقين وقد جاء مؤكداً، فائدة: ١- ادعى فرعون الربوبية لأنه وجد من يُصدّقه كقوله (فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) الزخرف/٥٤ وأكثر الناس المتعلقون بالدنيا يتفرعون لو وجدوا أعواناً، كقوله (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ) العلق/٦ إذ لم يجد هادياً يهديه، ورا دعاً يردعه، ٢- قال (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) ولم يقل (ما لكم من إله غيري) لأن فرعون وحكومته عندهم العالم المفكر الفاضل الذي لا يقول غير الحق والحقيقة، ومهما أمر أطاعوه، كيف لعب هذا الطاغية بعقولهم واستخف بأخلاقهم وعلومهم وكراماتهم، بسبب فسوقهم وفسادهم الذي صار صفة راسخة فيهم كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) الحشر/١٩، ٣- لن تكن أمة فاسدة وقائدها صالح، كما لا تكون أمة صالحة وقائدها فاسد، فالحاكم من جنس المحكوم، عن النبي (ص) (كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ) كنز العمال خير ١٤٩٧٩، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١، هيهات أن يكون الإنسان ذليل ضعيف الدين أو أن يقوم دين الدولة الإسلامي في مجتمع مريض هزيل متقلّب منافق! عن الإمام علي (ع) (لَيْسَ لِهَالِكٍ هَلَكٌ مَنْ يَغْذِرُهُ فِي تَعَمُّدٍ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا

هُدَى، وَلَا فِي تَرْكِ حَقِّ حَسْبِهِ ضَلَالَةً! البحار ٥/٣٠٥، ٤- فأراد فرعون أن يطّلع بهذا الصرح العالي على الله تعالى ببصره وليس ببصيرته، وبنفسه دون غيره، كقوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣، فإذا لم يشاهده ببصره نفاه ولم يسمح لبصيرته غيره، فإن لم أجده في بحثي القاصر لا يدل على عدم وجوده، ٥- وصف فرعون رسالة موسى بأنه (مِنَ الْكَاذِبِينَ) فلا يمكن أن يصل أي إنسان إلى معرفة صحة أي أمر عندما ينطلق من قاعدة التكذيب له، بينما الذي ينطلق من قاعدة الحوار العلمي والبحث المنطقي الاستدلالي، تراه يصل إلى الصواب كقوله (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) آل عمران/٦٤، وقوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سبأ/٢٤، فائدة: فرعون الطاغية هو المدعي الإلوهية في ذلك الزمان، أما في زمننا الحاضر فإن الدول الكبرى تُعتبر مجموعها فرعون العصر، لأنهم أصحاب القرار للعباد والبلاد في هذا العالم، فكما جعل الله لفرعون موسى، كذلك سيجعل الله لفراعة الدول الكبرى، المنقذ للبشرية من حيرة الضلالة، هو الإمام المهدي المنتظر (ع)! كقوله (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) هود/٨٦.

٣٩- ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمَ إِنَّا لَأِيرْجَعُونَ﴾

ذكر الله سبحانه السبب في العناد والجحود هو الاستكبار (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ) أي تكبر وتعالى وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى وهو الحق، وتعالوا على العباد في أرض مصر (بِغَيْرِ الْحَقِّ) بالباطل والظلم والاستبداد، وأخذتهم العزة بالإثم، والسبب: لأنهم لا يؤمنون بدين ولا بمبدأ ولا أخلاق ولا ضمير، إنهم لا يفكرون بشيء إلا بأنفسهم ومنافعهم الخاصة، ولذا أخذهم الله سبحانه أخذ عزيز مقتدر (وَظَنُوا أَنَّهُمَ إِنَّا لَأِيرْجَعُونَ) وتوهوا أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء ولا عالم آخر، والذي ينكر المعاد يصدر منه أنواع الموبقات. فائدة: الإستهكبار: التعالي على العباد واستعباد الناس وإذلالهم، ويظن المتكبر أنه أكبر من غيره، فإذا وجد الاستكبار في الأرض، فلم يكن هناك حق ولا استحقاق، لعدم انسجام الحق مع الاستكبار، وإنما الكبرياء لله رب العالمين كقوله (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الحاثية/٣٧ عن الإمام الباقر (ع) (الكبر رداء الله، والمتكبر يناع الله رداءه) البحار ٧٣/٢١٤، ولم يعلم المستكبرون أن الله لهم بالمرصاد، كقوله (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) الأعراف/١٤٦.

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

نبدناهم: طرحناهم مع تحقير لشأنهم المعنى: (فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ) بسنا القاهرة والعامية مع جنوده وأعوانه (فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) فألقيناهم في البحر كما تلقى بالقمامة، لأن معنى النبد رمي الأشياء التي لا قيمة لها وطرحها بعيداً، وأغرقناهم أجمعين، وكأن يد الله أخذتهم من قصورهم

فألقت بهم في اليم مع الاحتقار! (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) فانظر يا مُجِدُّ وتفكر بعين قلبك وبصيرتك نظر اعتبار، واحذر من المفاجآت والمخبات عن الإمام علي (ع) (مَنْ حَذَرَكَ كَمَنْ بَشَّرَكَ) شرح نهج البلاغة ١٨/١٩٥، والقرآن خير محذر ومبشّر فانظر كيف كانت خاتمة الظالمين، إلا الخسران والحرمان، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة. فائدة: إن الله يمهل الظالم ولا يمهله، وإذا أخذه لم يفله (وَيُذَبِّرُ الْمُنَافِقِينَ وَالْقَضَاءُ يُصْحَكُ) وأحداث التاريخ عبرة لمن يعتبر، وَمَنْ لَا يَتَعَطَّى بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ، وَأَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ كَقَوْلِهِ (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الفتح/٢٣.

٤١-٤٢- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ، وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمُبْجُوحِينَ﴾

(وَجَعَلْنَاهُمْ) وصيرناهم في الدنيا (أئمة) قدوة وقادة وزعماء الكفر والفسوق والعصيان، لأنهم صمموا على الكفر وأصروا على الفساد، لأنفسهم ولغيرهم حتى حكمنا عليهم بأنهم أصبحوا دعاة الفساد وقادة العصيان وأئمة الطغيان إلى جهنم، فبئس الدعوة وبئس الإمامة، يقتدي بهم من أمثالهم من أهل الضلال، يدعون إلى ما يوجب دخول النار في الحديث (مَنْ سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزَرَ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) مجمع البيان ٣/٣٧٧، فلم يكتفوا بكفرهم وضلالهم، بل بحثوا عن إضلال غيرهم وتزين لهم الكفر والعصيان، فارتكبوا جريمتين وهم عقابين: عقاب الضلال والإضلال، كقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْعِجِيِّ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) الأعراف/٢٠٢، وأن الله كتب ضلالهم وثبته لتمردهم عليه (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب.

كقوله (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) هود/٩٨ فكما كانوا قادة لهم في الدنيا، سيكونون أئمة وقادة لهم إلى النار في الآخرة.

فائدة: ١- إنهم أذاقهم الله العقوبة الدنيوية في إغراقهم في البحر، واستمرت العقوبة في الآخرة واتصلت بعقوبة الدنيا، إنه الخسران والخذلان والحرمان في الدارين كقوله (الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام/١٢، فما الفائدة أن أربح كل شيء، وأخسر أهم شيء، وهي نفسي؟! عن الإمام الصادق (ع) (إن الأئمة في كتاب الله إمامان (إمام إلى الهداية) كقوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) الأنبياء/٧٣، لا بأمر الناس، يُقَدِّمُونَ أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم (وإمام إلى الغواية) وقوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) يُقَدِّمُونَ أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف كتاب الله) تفسير الأمل ج ١٢ ص ٢١٩ وقوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١. ٤٢- (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) زيادة في عقوبتهم، جعلنا اللعنة والنقمة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين، إذا كانوا

مثلاً سيئاً دائماً لكل ظلم وعدوان، واستحقوا أن يكونوا عنوان اللعنة ورمزها، كما يلعن إبليس على طول عمر الدنيا كقوله (أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) البقرة/١٥٩ (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) زيادة على اللعنة.

المقبوحين: المطرودين المخزيين ممن قبحت أعمالهم وعاقبتهم وساء حالهم، أو المشوهين في الخلقة، أي في يوم الآخرة هم في أسوأ حال شكلاً ومضموناً، فهم من المبعدين المطرودين من رحمة الله تعالى، وهم من المشوهين المذمومين الذين تشمئز النفوس منهم، ويفر منهم الناس ولا يدنو منهم أحد! وترسم لفظه (المقبوحين) صورة الفضيحة، وتخلق جو التفزز والاشتمزاز في النفوس، هؤلاء اجتمع عليهم مقت الله وغضبه، ومقت خلقه وغضبهم، حتى كرهوا أنفسهم، فهم في هزيمة نكراء في الدنيا وهزيمة نكراء في الآخرة، جزاء بغيهم وظلمهم، وذلك نتيجة التكبر والاستعلاء في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتناول على الله وعلى عباد الله، وهكذا (يكون الجزاء من جنس العمل) وتكون العقوبة على قدر الجناية، وتكون النتائج على قدر المقدمات، كقوله (وَلْيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢ ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب!

فائدة: اللعن: الإبعاد والطرده من رحمة الله، في غضب وزجر ومعناة اليأس من كل خير والتوجه إلى سوء العاقبة، واللعن في الدنيا انقطاع من قبول رحمة الله وتوفيقه، وفي الآخرة عقوبة معنوية وعذاب نفسي وجسدي، وكل من لعنه الله فقد أبعدته عن رحمته واستحق العذاب كقوله (وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) النساء/٥٢ في غرر الحكم (مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ مَنَعَهُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ).

٤٣ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) اللام موطئة للقسم، أي والله لقد أعطينا موسى التوراة أنواراً لقلوبهم واستقامة لسلوكهم، يستبصرون بها (مَنْ بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) أي الأمم الماضية التي كانت قبله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، من المكذبين لرسولهم ممن استحققت عليهم كلمة العذاب (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) حجج ونور للناس، أي فالتوراة تبصّر الناس كأنها بصائر نور وضياء التي بها يهتدون، وحججاً وبراهين واضحة للناس يستبصرون بها أمور دينهم وديانهم، وضياء لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم، يتبصرون بها الحقائق ويميزون بها بين الحق والباطل، وبين الصحيح والخطأ (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (وَهُدًى) من الضلالة يهتدون به إلى الحق (وَرَحْمَةً) لمن آمن بالكتاب يرحمون به بسبب العمل بشرائعه وأحكامه (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يتعظون بمواعظه وإرشاداته الكثيرة، فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل، ويتبصرون كيف تتدخل يد القدرة لتدمير المستكبرين، واستخلاف المستضعفين كقوله (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) الرعد/٣١، فائدة: ١- عن النبي (ص) (مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا وَلَا قَرْنًا وَلَا أَهْلَ قَرِيَةِ بَعْدَ مَا نَزَلَ

التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسحوا قردة، ثم تلا هذه الآية (المراغي ٦٤/٢٠، ٢- (من) بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) وتقييد إعطاء التوراة بعد إهلاك الأمم الماضية، إشارة إلى ضرورة نزول التوراة لاندراست معالم الدين الإلهي بمضي الماضين، وفشا بينهم الشر ورفع الخير، فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم ويلقي الحجة عليهم (الْقُرُونَ) جمع قرن وهو القوم المقترنون في زمان واحد (بصائر) جمع بصيرة، وهي نور القلب بالهداية والعلم، الذي به يستبصر ويستنير أهله إلى طريق الحق والهدى، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر الطريق السليم.

٤٤- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

ثم توجه بالخطاب إلى النبي (ص) فقال، وما كنت يا محمد حاضراً بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى، ووقع فيه الميقات أربعين ليلة (إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ) حين أوحينا إلى موسى (الْأَمْرَ) بالنبوة والرسالة، وأرسلناه إلى فرعون وقومه (وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) من الحاضرين، وما كنت يا محمد حاضراً وشاهداً مع موسى، ولا كنت معه على جبل الطور وما جرى فيه، والله أوحى إليك ذلك ليكون حجةً وبرهاناً على صدقك، المعنى: ما كنت حاضراً لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المعجيات، وهو رجل أمي لا يقرأ، ونشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، وهذا دليل قاطع على نبوة محمد (ص) وصدقه أنه وحي يوحى كقوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْئالَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) آل عمران/٤٤.

٤٥- ﴿وَكُنَّا أَنْشَاءً قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَكُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

ولكننا خلقنا أمماً وأجيالاً كثيرة من الناس من بعد موسى انقضت (فَتَطَاوَلَ) طال وبعُد عليهم (الْعُمُرُ) الأمد، الزمان، وطالت الفترة، ومرت عليهم أجيالاً متطاولة كقوله (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ) القصص/٦٦ فسوا ذكر الله، وبدلوا الدين وحرفوا الشرائع، وعاشوا الجاهلية الجهلاء العمياء، فأرسلناك يا محمد لتجدد أمر الدين، وتنبه الناس إلى بطلان اعتقاداتهم المنحرفة، وتدعوهم إلى الدين الصحيح الأصيل، (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) أي ما كنت يا محمد (ثَاوِيًا) مقيماً في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه، فتتلوا ذلك على أهل مكة، وهذا أحسن دليل على نبوتك، (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) لك بهذا القرآن إلى قومك، وبعثناك رسولاً موحيين إليك بهذه الآيات وهذه الأخبار الدقيقة، لتكون دليلاً على صدقك في رسالتك، وعبرة للناس لتخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى النور الإلهي القيم.

٤٦- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنَا هُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ﴾

وما كنت أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه (وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) ولكننا أخبرناك بما حصل (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) وأرسلناك بالقرآن الناطق رحمة عظيمة منا لك وللناس، كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧، وأرسلناك بالقرآن رحمة عظيمة لك وللناس، ومعجزة لك (لِتُنذِرَ) لتخوف العرب ما جاءهم رسول قبلك يا محمد (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البيّنات، ليكرموا أنفسهم بها، فيدخلوا في دينك ويستقيموا على نهجك. فائدة: الفترة بين عيسى ومحمد (ص) ما يقارب ستمائة سنة، كقوله (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ) المائدة/١٩، وهو تأكيد لرسالة الرسول محمد (ص) الذي بعثه الله بعد أمد طويل.

٤٧- ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكر الآية الحكمة في إرسال الرسول محمد (ص) قطعاً لمعذرتهم، حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة.

مصيبة: الضمير لأهل مكة، أي عذاب الله وعقابه، أي (وَلَوْلَا) أن تكون لهم الحجة علينا بقولهم - إذا أصابتهم مصيبة وعقوبة في الدنيا والآخرة بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي - (فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) يقولوا يا رب (لَوْلَا) هلاً (لطلب) أرسلت إلينا رسولاً مؤيداً بالمعجزات (فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ) الظاهرة وهو جواب لولا الثانية ونكون من المصدقين بها (لَوْلَا) الأولى حرف إمتناع و(لَوْلَا) الثانية بمعنى (هلاً) عرض وسؤال وطلب، أي هلاً أتانا رسول لآمنا به، المعنى: (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ) بكفرهم، قبل أن نرسل الرسل لنفدت حججتهم علينا! جواب (لَوْلَا) الأولى محذوف وتقديره، لما بعثنا الرسل، أي وإنما أرسلناهم على وجه إبطال أعدارهم وإتمام البيان عليهم، بهذا أرسل الله إليهم رسولاً منهم، إذ كان مع كل رسول فطرة مؤمنة ويدعمها العقل، لينهض بهداية الناس ويوقظ عقولهم وينبه فطرتهم، ويقطع عذرهم ويلقي الحجة البالغة عليهم، ليستقيموا في الدين والدنيا، تدل الآية على أن سنة الله مستمرة على عدم تعذيب أية أمة قبل إرسال الرسل إليها، وإلقاء الحجة الواضحة عليها. كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥ وقوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢، وعن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ اخْتَجَّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَرَفَهُمْ) التوحيد ص ٤١٠، فائدة: (بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ) وأسند التقديم إلى الأيدي، لأنها أقوى الأعضاء في مزاولة الأعمال وارتكاب المفساد، عن الإمام الكاظم (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأُمَّةُ، وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُولُ) نور الثقلين ١/٧٧٦.

٤٨- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ كَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

فلما جاء لأهل مكة الحق المبين وهو مُجَّدٌ بجلته العظيم، وبالقرآن المعجز المجيد من عند الله، قالوا على وجه التعنت والإصرار (لا لطلب الحق ولا نقصان البراهين ولا ضعف الدليل)، (لَوْلَا أُوتِيَ) هلاً أعطي مُجَّدٌ من الآيات الباهرة والحجج القاهرة، مثل ما أعطي موسى كقلب العصا حيةً واليد البيضاء! قال تعالى رداً عليهم (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ؟) إِنَّ المعاندين والكفار سواء في الإنكار، وملة الكفر واحدة، كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣، الذين كانوا في زمن موسى كفروا بما جاء به موسى، فيكون عنادكم كعنادهم، وجهلكم كجهلهم (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ) قالوا إن موسى ومُجَّدٌ (سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) أي ساحران تعاونوا على الدجل والتضليل وخداع السذج من الناس، ولم يرسلهما ربهما لهدية البشر كما زعما، وإِنَّا لكافرون ومنكرون بكل منهما، وهؤلاء لا يعلمون أن مسؤولية المبلغين لرسالات الله هو البلاغ المبين الواضح للناس وبعد ذلك (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَىٰ مَنْ يَعْلِيهِ الْهُوَىٰ؟) ومن لا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، فائدة: ١- ويبين القرآن الكريم أن كلَّ معاند يكون قاسياً قلبه، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، وقاسي القلب من الله بعيد، ومن الجنة بعيد، ومن الناس بعيد، ومن النار قريب، ٢- المؤمن دليل قطعي واحد يكفيه للهداية، وغير المؤمن كالكافر والمعاند لو تأتبه بألف دليل ودليل لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، كقوله (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) الشعراء/٢٠١.

٤٩- ﴿ قُلْ فَاتُوا بكتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾

أمر على وجه التعجيز والتخدي، أي قل لهم يا مُجَّدٌ إنكم إذا كفرتم بهذين الكتابين ولم تعجبكم (التوراة والقرآن) مع ما تضمننا من منهج الهداية والشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق، والإنسان لا بد له من منهج يسير عليه، فأتوني بكتاب آخر أو منهج من عند الله أفضل وأحسن للإنسانية، وأهدى منهما وأصلح في الدنيا والآخرة، أتمسك به وأتبعه وأكن معكم، كقوله (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) الزخرف/٨١، (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في قولكم أنهما ساحران. وفي هذا الأسلوب الحوارى الموضوعى العقلانى الاستدلالي الفنى غاية الإنصاف، وهو الجدال بالتي هي أحسن، والنبي (ص) يعلم علم يقين أن لا كتاب أهدى من كتاب الله كقوله (إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ) البقرة/١٢٠.

فائدة:

كان حوار النبي (ص) معهم بمرونة عالية، فبدأهم من حيث يحبون، من أجل أن ينتهي إلى حيث يجب، ويصل إلى الهدف المرسوم له، بأقصر الطرق وأسهل الأساليب وبأقل الخسائر، وقد حصرهم النبي (ص) في زاوية حرجة تكشف واقعهم المتخلف، في غرر الحكم (قُوَّةُ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ سُلْطَانِ الْقُدْرَةِ) فَإِنْ لَمْ يَخْضَعْ لِلْحَقِّ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ، فَهُوَ يَتَّبِعُ الْهُوَى وَالْكَبْرِيَاءَ وَلَا دَلِيلَ لَدَيْهِ، وَعَنِ النَّبِيِّ (ص) (مَا عُبِدَ إِلَهَ أَنْبَعَضَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهُوَى) روح البيان ١٩٧/٢.

٥٠- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

ولن يستجيبوا بكل حزم وحزم وحسم، ولم يأتوا بكتاب أهدي منهما من (التوراة والقرآن) أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم (فَاعْلَمْ) أن كفرهم عناد وكبرياء واتباع للأهواء، وليس لديهم حجة وحق يعرفونه، في نصح البلاغة كتاب ٣١ (الهُوَى شريك العمى) ويهوي بصاحبه، وهو إله يُعبد من دون الله! كقوله (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا) الفرقان ٤٣ ثم بين عاقبة من يتبع الهوى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) استفهام إنكاري، المعنى: لا أحد أضلّ وأخسر وأخيب ممن اتبع هواه وعاداته ورغباته، بغير رشاد ولا بيان ولا حجة ولا برهان من الله، فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى وسبيل النجاة من نار جهنم، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الملتوية الضالة والفاصلة الموصلة إلى هلاكه في عاقبة أمره، فاتبعه وتفاعل معه وترك هدى الله، فهل أحد أضل وأخسر ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه لنفسه وعدوانه على الناس، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله، ولا يهديه الله، كقوله (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت/١٧، وقيل (اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) هوى النفس قد يوافق الحق في بعض الأحيان فلذا قيّد الهوى (بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) لا يوفق للحق من كان يعيش في الباطل ويتنفع منه، فهو المعاند الظالم، فإنه مستغرق في اتباع هواه، فلا يعرف أية قيمة لهدى الله (والاستغراق يضيّع الاستحقاق) جاءه الهدى فرفضه، وعرض عليه الهوى فاتبعه، سد على نفسه أبواب الهداية وأغلق طرقها وعطل أجهزة الاستقبال الفعالة عنده، ولكن عندما فتحت عليه أبواب الغواية وسبلها انشرفت إليها نفسه، فإذا هو في غيّه يلهو ويلغو ويظلم ويعقل عما يُراد منه، كقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦!

فائدة: للإنسان مع هواه ثلاث أحوال ١- أن يغلبه هواه كقوله (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) الجاثية/٢٣، ٢- يعيش المناوبة فيقهر هواه مرة ويقهره هواه أخرى، عن النبي (ص) (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) روح البيان ٤١٣/٦، ٣- أن يغلب هواه وينتصر عليه كالأنبياء والأصفياء والأولياء والصلحاء، كقوله (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) النازعات/٤٠،

فالشيطان يتسلط على الإنسان عن طريق هواه، ومقدار تسلط الهوى عليه كقوله (وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ) الأنفال/٤٨، ٢- إنَّ الذين يتَّبعون أهواءهم وما تشتهيه أنفسهم، ويتركون هدى الله ومنهجه القيم الصالح الواضح، هؤلاء ميَّتو الأحياء، وهم القساة الظالمون لأنفسهم كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، فلا تتناسب معهم طهارة الهداية وبلاغة الموعدة، والكلام معهم كهواء في شبك، مجرد ضياع للوقت وأذية للنفس كقوله (يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ) غافر/٣٤ فإذا لم تكن رغبة من الإنسان، وواعظاً من أخيه يحسن الوعظ، أي عامل داخلي يتقبله ويتفاعل معه، وعامل خارجي هاد، ورحمة من الله داعمة، لا ينال الهداية. عن الإمام الجواد (ع) (المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول من ينصحه) البحار ٣٥٨/٧٨، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَعْلِبُهُ الْهُوَى)؟

٥١- ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

وصَلْنَا: جعلناه موصولاً متوالياً (هُمُ الْقَوْلُ) وهو القرآن الكريم وبيناه واتبعنا بعضه بعضاً حسب الحكمة والمصلحة، المعنى: ولقد تابعنا نزول القرآن، وجعلناه موصولاً يتبع ويتصل بعضه بعضاً نزولاً بحسب الظروف والحاجة المناسبة مع حركة الواقع، الآية بعد الآية، والحجة بعد الحجة، والسورة إثر السورة، لطفاً بهم، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً ونصائح ومواعظ بليغة (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يتفكرون، ليتعظوا ويتذكروا بما فيه ويستقيموا، ومن رحمة الله بعباده يحلم عليهم عندما يتجاهلون الحقائق، فإن لم يكتفِ بدليل من القرآن، فيتابع عليه الأدلة الواضحة والمفصلة والكثيرة لعلهم (يَتَذَكَّرُونَ) يتدبرون ويعتبرون ويهتدون، فإن المؤمن الذي يتأهل للهداية دليل واحد يكفيه، والمعاند الذي لا تليق به الهداية فلا ينفعه أي دليل ودليل، في غرر الحكم (مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ، فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ).

٥٢-٥٣- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾

والذين آمنوا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام وهم قلة ونخبة، (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) أعطيناهم التوراة والانجيل من قبل القرآن، هم بهذا القرآن الكريم (يُؤْمِنُونَ) يصدقون، وبالنبى محمد (ص) يؤمنون لأنهم وجدوا في كتبهم الأصلية، الدلائل على الإيمان، والبشرى به، وانطبق الأوصاف عليه، كقوله (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) آل عمران/١٩٩، ٥٣- (وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا..). هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب، ومن أهل الخبرة، إذا قرئ عليهم القرآن (مجرد قراءة) قالوا صدقنا بما فيه بلا تردد، بل أسرعوا بالاستجابة له لوضوحه وقوة تأثيره (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) كنا من قبل نزوله

(مُسْلِمِينَ) من التسليم، أي خاضعين لله منقادين مصدقين موحددين له، مؤمنين بأنه سيعث النبي مُحَمَّد (ص) وينزل عليه القرآن الكريم، لأنه مكتوب عندهم وثابت في التوراة والإنجيل قبل التحريف. فائدة: ١- فيكون دين أهل الكتاب اليهود والنصارى هو (الإسلام العام) بمعنى: التسليم لمنهج الله، والخضوع لطاعته، والدين الذي آمنوا به هو الإسلام المحمدي الخاص الخاتم الذي قال الله فيه (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩، وأن بعض أهل الكتاب عرفوا الحق وآمنوا به بصدق، كقوله (مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) آل عمران/١١٠، سبب النزول: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي (ص) قرأ عليهم (يس) ، وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ) حتى ختمها فجعلوا ييكون، وأسلموا ونزلت فيهم الآيتان التاليتان.

٢- نلاحظ أن هناك في القرآن مصطلحين، بعد البحث والتدقيق تبين.

١- قوله تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) ٢- وقوله (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) نلاحظ أن مصطلح قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) أي آتاهم الله الكتاب تشریفاً لهم (القرآن أو التوراة أو الانجيل) واختارهم من بين الناس لمؤهلاتهم الذاتية الخاصة، ليتحملوا مسؤولية العمل به وتبليغه للناس (ولكن النتائج) كانت كثير منهم من استقام وصدق والتزم، وقليل منهم من أعرض وضلّ وانحرف! كقوله (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) الأنعام/١١٤ وقوله (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) العنكبوت/٤٨ وقوله (وَأْتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) الحجر/٨١، ٢- ونلاحظ أن مصطلح قوله (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أي بجهودهم الخاصة سعوا لتعلم الكتاب (بأي دافع كان) (لكن النتائج) كانت (بالعكس) كثير منهم من انحرف وضلّ وأعرض، وقليل منهم من صدق واستقام والتزم! كقوله (إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) آل عمران/١٠٠ وقوله (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ) آل عمران/١٩ وقوله (لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) المدثر/٣١، ٣- وأما آية (وراثه الكتاب) فهي تجمع بين المصطلحين، بقوله تعالى (ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) فاطر/٣٢ فكانت النتيجة انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ) فاطر/٣٢ اللهم إنا نسألك أن توفقنا وتؤهلنا إلى قوله تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) وَنَصَدَّقُ معه ومع الله ومع الناس، ونكون مصداق لقوله (وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ)، إنه ربي سميع مجيب الدعاء.

٥٤- ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة من الذين آمنوا بالتوراة والانجيل الصحيحين، والقرآن العظيم المحفوظ (أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ) يعطون ثوابه وخيره مضاعفاً (مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) مرة على إيمانهم

بكتابهم، ولم يخلطوه بالتحريف والتزييف، ومرة على إيمانهم بالقران والعمل به، كقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الأعراف/١٥٧ وكقوله (يُؤْنِسُكُمْ كَيْفَ لَيْتَ مِنْ رَحْمَتِهِ) الحديد/٢٨، وفي الحديث (ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: (منهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي..)) المرابي ٧١/٢٠ (بِمَا صَبَرُوا) بسبب صبرهم على اتباع الحق والثبات على إيمانهم، وصدق إسلامهم وتحملهم الأذى والمشاق في سبيل الله من السفهاء والمجرمين، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) (وَيُدْرَعُونَ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةَ) ويدرأون: يدفون (السَّيِّئَةَ) الفعل السيء والكلام القبيح كالسب والشتم وسوء التعامل، وجهل الناس وأخلاقهم السيئة (بِالْحُسْنَةِ) أي بالكلمة الطيبة الجميلة، بالمداراة والحلم والأخلاق الحسنة، ولا يقابلون القول السيء بقول مسيء مثله، ولا يردون القبيح بقبيح مثله، ولكن يعفون ويصفحون كقوله (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) الحجر/٨٥، أنه الصبر الممزوج بالحكمة وكبر العقل، هو أفق في العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يرجون رحمة الله فيرضاهم ويرضونه، وجاء الفعل المضارع في (يُدْرَعُونَ).. يُنْفِقُونَ) للدلالة على الاستمرار والدوام، عن النبي (ص) في الآية (أتبع السيئة الحسنة تمحها) كقوله (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) هود/١١٤، روح البيان ٤١٤/٦ (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

ومن الذي رزقناهم من المال والجلال وحسن الحال والموقع الجليل المؤثر ينفقون في سبيل الخير والأعمال الصالحة (النافعة) كل إنسان من موقعه وبمقداره وقدره، نفقات مادية ومعنوية كبيرة وصغيرة، دائمة ومؤقتة، واجبة ومستحبة لوجه الله، نفقات متنوعة لا للسمعة ولا للشهرة، وأما لخدمة الناس ورضا الله، وتتحقق سعادة المرء بمقدار ما يعطي وينفع، وكأما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان فهما من منبع شريف واحد: منبع الاستعلاء على شهوة النفوس ومخالفة الهوى واتباع الهدى.

عن النبي(ص) (وجدت الحسنة نوراً في القلب، وزيناً في الوجه، وقوة في العمل، ووجدت الخطيئة سواداً في القلب، ووهناً في العمل، وشيناً في الوجه) كنز العمال خير ٤٤٠٨٤، كقوله (وَلَا تَسْتَوِي الْحُسْنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فصلت/٣٤-٣٥. فائدة: السيئة: كل ما يسوء الإنسان العاقل الفاضل، وينكره الشرع، الحسنة: كل ما يستحسنه الإنسان العاقل الفاضل ويؤيده الشرع.

٥٥- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَكَأَمْعَالِكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾

الآية أسلوب أخلاقي عملي عالي المضامين، من أساليب دفع السيئة بالحسنة، وهي صفة أخرى للنفوس المؤمنة الشفافة الصابرة الخالصة للعقيدة، اللغو: التافه، وما لا ينفع في دين ولا دنيا، وما

حقه أن يلغى ويترك، من العبث وسخف القول، والعمل الفاسد، والكلام الفارغ من جهلاء الناس، وكل ما لا فائدة فيه، في دين ولا دنيا، وهو ضياع الوقت، وسوء الفعل، وعبث العمر، الذي يفسد الحس واللسان والنفوس والأفكار، ولغو الكلام: كالثتم والكلام الفاحش الساقط الجارح، ومنه الغناء والطرب والإعلام الإباحي الخليع، فيعرضون عنه ويشغلون بعمل أو قول وحديث أحسن منه، لأن وقتهم أعز وأثمن من اللغو والعبث، لأن وقتهم هذا هو من عمرهم، وهو رأس مالهم الوحيد (وَالْوَقْتُ كَالسَّيْفِ إِنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ!) وإن لم تستفد منه يضرّك، ولم يردوا على أصحابه، فيهبطوا إلى مستواهم، لأن الصمت معهم خير من بليغ الكلام، في غرر الحكم (صمت يكسوك الكرامة خير من قول يكسبك الندامة) (وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لنا طريقنا وأهدافنا السامية من الحلم والصفح والخلق والعلم، ولكم طريقكم وأهدافكم الدانية من السفاهة واللغو، فكلُّ مُطَالَبٍ بعمله ومسؤول عنه كقوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصفات/٢٤ وليس من المصلحة مخالطتهم، ويقولون بلسان حالهم (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) ليس سلام تحية ووفاق، وأما سلام مودّع ومفارق، وأنتم في سلام منّا، إن لم تقبلوا منّا، كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ الْكَافِرِينَ) ٦.

(لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) لا نطلب صحبتهم ومجالستهم ولا نريد معاشرتهم ولا مخاصمتهم، وأما هو الترفع عن كل لغو، والسماحة طبيعتنا وحب الخير للجميع (والطيور على أشكالها تقع) والإنسان المؤمن الذي يجالس العلماء لا يلغو، ولا يحب الجهل ولا ينسجم مع الجاهلين ولا يستمع إليهم، ولا يدخلون معهم في جدل، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو! وأما يتركوهم في سلام وحنان، وأما نطلب مجالسة العلماء ومصاحبة الفضلاء والحكماء، لأن اللغو يشغل عن العبادة والقيادة والحكمة، والآية تحث على مكارم الأخلاق لا عن ضعف بل عن ترفع، ولا عن عجز بل عن تسام، عن النبي(ص) (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) كنز العمال خبر ٥٢١٧ في الحديث (ثلاث من لم يكن فيه فلا يعتد بعلمه: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن معاصي الله، وحسن خلق يعيش به في الناس) كقوله (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) الفرقان/٧٢ قيل: (ما نفعله خلال ساعات عملنا نجد ما لدينا، وما نفوم به في أوقات فراغنا نجد ما نكفون). ثم قال تعالى مخاطباً رسوله :

٥٦- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

الهداية: بمعنى الإيصال للمطلوب والهدف النبيل، والهداية تارة يراد بها الدعوة والإرشاد والتوجه إلى طريق الخير والاستقامة، هي التي أثبتها الله لرسوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صراط الله) الشورى/٥٢-٥٣ وتارة يراد بها (هداية التوفيق) واللفظ والسداد والصواب، وشرح الصدر بنور الهداية، والاستقامة يحيا بها القلب ويطمئن، وهذا لا يقدر عليه غير الله كقوله (أَوْ مَنْ كَانَ

مَيَّنًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا) الأنعام/١٢٢ **المعنى العام:** وان نزلت الآية بخصوص السبب وهي تخاطب النبي (ص) ولكن أريد لها عموم المعنى وسعة الدلالة، (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) إنك يا مُحَمَّد لا تستطيع خلق الهدى من أحببت من قومك أو من غيرهم وهدايتهم، هدى كاملاً تتحقق به الاستقامة على المنهج الإسلامي، فتدخله في دينك وإن بذلت كل مجهود كقوله (إِنْ تَحَرَّصَ عَلَيَّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) النحل/٣٧ وأما عليك البلاغ المبين (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) بلطفه وتوفيقه وله الحكمة والحجة البالغة، فيريهم السبيل المستقيم ويُعِينُهُمْ عَلَيْهِ وَيُرْغِبُهُمْ فِيهِ، كقوله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَيَّ أَمْرِهِ) يوسف/٢١ وقوله (وَالَّذِي يُرْجِعُ الْأُمُورَ كُلَّهَا) هود/١٢٣ (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) وهو أعلم بالمستعدين للهداية فَيَمْنَحُوهُمْ كُلَّ إِنْسَانٍ بِقَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ مِنْ لَه الْأَهْلِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ الذَّاتِيَّةِ لِلتَّشْرِفِ بِشَرَفِ الْإِسْلَامِ، والتَّوَرُّ بِنُورِ الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) التغابن/١١.

عن النبي (ص)

(بُعِثْتُ ذَاعِيًّا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْنُ آدَمَ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كنز العمال خبر ٥٤٦ وعنه (ص) (قال الله جلَّ جلاله: عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ مَذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَصَمْتُهُ) البحار ١٩٨/٥ هناك هداية عامة وخاصة: أما الهداية العامة كقوله (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه/٥٠ وقوله (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ) الكهف/٢٩ وقوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) الإنسان/٣ وقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ وقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧، الهداية الخاصة: هذه الآية القصص/٥٦ مع الحديثين عن النبي (ص)، **ويؤكد القرآن فيقول:** أن الله لا يهدي القوم الظالمين والكافرين والفساقين، الذين أصروا على ضلالتهم، عن الإمام الجواد (ع) (إِنَّ اللَّهَ الْخَلِيقَ الْعَلِيمَ، إِنَّمَا غَضَبُهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ رِضَاهُ، وَإِنَّمَا يَمْنَعُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ عَطَاءَهُ، وَإِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ هُدَاهُ!) الكافي ٥٢/٨، في نهج البلاغة خطبة ٢٨ (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى يَجْرُ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى) لماذا الهداية الخاصة؟ (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

لأن الهداية تتصل بالفتنة الفكرية والعقائدية، ولها صلة بالقلب والشعور ومؤثرات النفس وتفاعلها، وليس للإنسان سلطة على ذلك، أنت تريد يا مُحَمَّد الهداية لكل الناس، القريب منهم والبعيد، لأنك رحمة للعالمين، ولكن العديد من الناس لا يريدونها ولا يعرفون قيمتها، وأيضاً لا يريد الله الهداية بالإكراه، ممن يأبأها ويُعرض عنها، كقوله (وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت/١٧، بل يريدونها ممن علم فيه الخير والقبول والرغبة في الهداية والسعي وراءها كقوله (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهِدِينَ) الصافات/٩٩، ولذا ختم الآية (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) يهدي من يشاء بموجب علمه الحقيقي بأن هذا العبد يريد الهداية، ويسلك سبيلها حقاً وصدقاً

وواقعاً كقوله (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) الشورى/١٣، ولا يشاء الهداية سبحانه عبثاً وجزافاً كقوله (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) الأنفال/٢٣، أما الحكمة في أن الله تعالى لا يريد الهداية إلا من يريد لها: إن مفهوم الدين الحنيف لا يمكن أن يتحقق بحال إلا مع الإرادة والرضا والرغبة والقناعة التامة، لأن الإنسان مسؤول عن عمله كقوله (وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْثُونَ) الصفات/٢٤، ولا مسؤولية مع الجبر والإكراه (أهمية الهداية) أن الله سبحانه لخص القرآن العظيم كله بكلمة واحدة هي (الهداية) لأنه كتاب هداية ودراية، كقوله (هُدًى لِلنَّاسِ) البقرة/١٨٥، هداية عامة، كقوله (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) البقرة/٢، هداية خاصة.

والهداية من أهم المفاهيم في الفكر الإسلامي والقرآني، لأهمية دورها الفعال في الحياة، فهي الأساس التي تبنى عليه العقيدة كقوله (وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) طه/٨٢ وجعل الهداية في آخر الآية لأنها الأساس الذي تعتمد عليه التوبة والإيمان والعمل الصالح كقوله (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) يونس/٩.

والهداية: المنطلق الأهم في صياغة التفكير الصحيح والتصور الإنساني للحياة والأحياء، وهي البنى التحتية الأساس لبناء المحتوى الإنساني العقائدي على أساس متين، ولها خصائص ومميزات مهمة للفرد والمجتمع، وكل الحضارات تبنى على قاعدة الهداية أو عدمها قوله (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١، وكل العلوم المتنوعة تبنى على قاعدة الهداية الرصينة، وكم من العلوم النافعة أسست على غير هدى الله، فكانت وسيلة تدمير وتهديد ووعيد، لذلك قدم القرآن التقوى على العلم بقوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) البقرة/٢٨٢ لأن التقوى صمام أمان أمام آفاق العلم الواسعة المتنوعة، وتعطي للعلم هيئته وأهميته في الحياة، وكل تقدم حضاري تظهر أهميته على أساس القرب والبعد عن مسألة الهداية، وتكشف مصطلحات التقديمية والرجعية على أساس الهداية كقوله (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) المدثر/٣٧، والهداية: الفرقان بين الحق والباطل، وبها يُعرف الخطأ من الصواب، وبها يتميز المهتدي من الضال، والجيد من الرديء، والتقدم من التأخر، والأعمى من البصير، والهدفية من الحياة من اللاهدفية، والقلب السليم من القلب السقيم، ومعرفة الروح والجسد، والحياة والموت، والتوازن بين الأمل والعمل، والدنيا والآخرة، فإن هداية الله هي المعيار والميزان لكل مفاهيم الحياة المختلفة كقوله (إِنَّ هُدًى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) البقرة/١٢٠، ولأهمية الهداية كان مفتاحها بيد الله، وسبيلها الانفتاح على الله، ويعرف منهجه الصحيح، والهداية خاضعة لضوابط معنوية دقيقة معينة، ولا تخضع للعاطفة بقدر ما تخضع للعقل، ولها علاقة بمضمون الإنسان وداخله قبل شكله، وبفعله قبل قوله، وبحقيقته قبل مدّعاها.

وبلسان حاله قبل لسان مقاله في غرر الحكم (وَلِسَانُ الْحَالِ أَبْلَغُ (أصدق) مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) فمن أحبّ رسالات الله والاستقامة على منهج الله رغب في الهداية، وبمقدار الرغبة تكون مقدار الهداية، فالهداية لها مقادير وموازين محددة كقوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) الأعلى/٣، ولها نسب ومعايير مختلفة، وهي تزيد وتنقص كقوله (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) محمد/١٧، ومن يُعرض عن رسالات الله ويكره هدايته فلا يهديه الله، لأنه لا يتناسب محتواه النفسي مع طهارتها وقدسيته كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) غافر/٢٨، في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى)؟، لأن الهداية أقدس شيء في الحياة، وأطهر شيء في هذا الوجود.

وتبقى الحياة لغزاً مبهماً لا يفهم معناها لولا الهداية!! لذلك لا يتناسب معها جميع الناس، ولكن أبوابها مفتوحة ليطالها ويناها الجميع كقوله (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) يونس/٩ ولكن لا يستحقها إلا الذي هو أهل لها، ويسعى لها سعيها وهو مؤمن، قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) فاطر/٨ كقوله (وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) الحج/١٦.

(مَنْ يَشَاءُ) من يريد، وعلى قدر الإيمان تكون الهداية، فالمشيئة والإرادة بيد الإنسان وهو مسؤول عن عمله ويحاسب عليه، وتأتي مشيئة الله تعالى على ضوء مشيئة الإنسان تكريماً له كقوله (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) الإسراء/٧٠، فيختم الله عمله بما يجب هو لنفسه، لأنه هو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي، في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) كقوله (فَأَمَّا يَا تَيْتَنُكُمْ مِثِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) طه/١٢٣-١٢٤، ولكن إذا تعارضت إرادة الإنسان مع إرادة الله، فأرادة الله فوق كل إرادة كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١ وقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩، في الحديث القدسي (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ وَأَنَا أُرِيدُ، وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) والهداية: قمة تكاملية لا يتناسب مع طهارتها وقدسيته إلا الإنسان المتكامل في ذاته، والذي يكمل غيره، أو السائر في سلم التكامل والصافي في فطرته، وهذه الدقة في أسرار الشخصية تحتاج إلى علم كشف السرائر، وما تخفي الضمائر، وما تكتمه النفوس والمشاعر، ومعرفة هذه الدقة من خصوصيات الله تعالى وحده، لذلك أصبحت الهداية من خصوصيات الله عز وجل كنتائج، أما أسبابها بيد الإنسان وقدرته وكفاءته، ولا يعطي الله الهداية لخلق عبثاً من دون الرغبة فيها كقوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦، لأن الإنسان مُخَيَّرٌ في الهداية لا مسير لها ولا مجبر، لأن الإجمار يسقط التكريم والإختيار والحساب والجزاء والجنة والنار، فيكون كالملائكة، والإنسان هو المسؤول وحده عن عمله يوم القيامة ومحاسب عليه، ولا مسؤولية من دون إختيار، ولا مسؤولية مع إكراه وإجمار.

أسباب النزول:

الآية ذات دلالة عامة توضّح معايير خاصة لمن يستحق الهداية ولمن لا يستحقّها، وكلمة (مَنْ أَحْبَبْتَ) من صيغ العموم، والقرآن وإن نزل في خصوص السبب ولكن أريد له عموم المعنى، ليس في الآية دلالة على كفر أبي طالب، عن أبي هريرة: (باختصار) حين دنت وفاة أبي طالب قال له النبي (ص) أسلم فلم يسلم فنزلت (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) ومن المعروف إن أبا هريرة أسلم سنة فتح خيبر بعد الهجرة بسبع سنين، فأين أبو هريرة من وفاة أبي طالب التي حدثت قبل الهجرة، وهذا يدل على كذب الرواية، وأمثالها كثير!! والآية أصلاً ليس لها علاقة بأبي طالب، وليس هناك دليل واحد عن كفر أبي طالب، وهو مؤمن يكتم إيمانه كمؤمن آل فرعون! لو صرّح أبو طالب بإسلامه لما أستطاع أن ينصر النبي (ص) كما أن مؤمن آل فرعون لو صرّح بإيمانه بموسى لما أستطاع أن ينصر موسى، ولسان حال المجاهد أبو طالب أصدق من لسان مقاله، في غرر الحكم (وَلِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) وكم ممن أعلن إسلامه ولكنه استسلم ولم يسلم!! عن الإمام زين العابدين (ع) (مختصر) أيطعون في إيمان أبي طالب، وقد نهي الله أن تقرّ مؤمنة مع كافر كقوله (وَلَا تُؤْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) المتحنة/١٠ وإن كانت الآية مدنية، أي المؤمنة تنفصل عن زوجها الكافر بدون طلاق، وبقيت فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب في عهده وعصمته حتى مات أبو طالب، وسمي بعام وفاته بعام الحزن!، ومن أشعار أبي طالب الدالة على إيمانه (ولقد علمتُ بأن دين مُحمَّد - من خير أديان البرية ديناً) ومن وصية أبي طالب لبني هاشم بالدفاع عن نبي الإسلام (ص). وهناك أدلة كثيرة تدل على إيمانه، كُتبت فيها كتب مفصلة خاصة فراجعها. ثم ذكر تعالى شبهة من شبهات المشركين وردّ عليها بوضوح فقال:

٥٧- ﴿ وَقَالُوا لَئِنْ سَبَّ أَلْهَدَىٰ مَعَكَ تَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَوْ سَكَنَ لَهُمْ حَرَمًا مَنَا يُجِيبِي إِلَيْهِ نَسْرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

إنها النظرة السطحية القريبة الضيقة، والتصوّر الأرضي المحدود، نتخطف: نُستلب، وهو أخذ الشيء على وجه الاستيلاء، والإخراج من البلد بسرعة المعنى: وقال بعض مشركي مكة (إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ) وفي ذلك دلالة أنهم لا ينكرون أنه الهدى، أي إن اتبعناك يا مُحمَّد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب وتسلب حياتنا، فيجتمعون على محاربتنا وينهبون أموالنا ومصالحنا، ويخرجوننا من أرضنا، ولا ناصر لنا ولا معين، ونحن لا طاقة لنا أن نفتدي بك يا مُحمَّد وندفع ضريبة الإيمان الغالية لمخالفتنا ما هم عليه! وهذا التبرير الضعيف، من النفوس الضعيفة، والمنطق الضعيف الانهزامي، كأنهم يغزو بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض ويسلبه، وأنهم ينسون الله هو وحده الحافظ والحامي كقوله (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) يوسف/٦٤، والإنسان يموت بأجله، وتمرّ عليه سنن البلايا كل إنسان بقدره، ولكنهم أساءوا الظن بالله تعالى،

وأنة لا ينصر دينه ولا يدافع عن الذين آمنوا، وظنوا أن الكفر سيعلو على الإيمان، ولكن الحقيقة لو آمنوا واتبعوا الرسول (ص) لیتم لهم الأمن ورغد العیش ويمکن لهم في الأرض، في ظروف موضوعية مناسبة.

فرد الله عليهم (أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) لا حجة لهم في هذا العذر، نمکن: نجعل، أولم نعصم دماءهم وكرامتهم ونجعل لهم الحرم المكي آمناً، يحترمه العرب منذ أيام أبيهم إبراهيم، ولا يمکن أن يبالغوا فيه بسوء (يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا) تجلب إليه وتجمع فيه الأرزاق من كل شيء، من كل مكان في التجارة (رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا) عطاءً من عندنا مع أنه بواد غير ذي زرع (رِزْقًا) لهم من عندنا؟ وهذا وهم كفره، فكيف يسلبون الأمن إذا آمنوا واهتدوا وضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثرهم جاهلون لا يتفكرون في هذه النعمة، فيحسبون أن الذي يحفظهم من تحطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام والبقاء على الاتباع الأعمى، ولا يعلمون أين يكون الأمن؟ وأين تكون المخالفة؟ ولا يعلمون (إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) آل عمران/١٥٤، إنَّ الحرم المكي في أمن وأمان من الحرب والقتال ومن الجوع والحصار، وأيضاً هم لا يعلمون أين يكون الأمن وكيف يكون؟ وكيف تكون المخافة المطلوبة؟ كقوله (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا) المائدة/٤١، فعليهم أن يتبعوا الرسول الكريم لیتم لهم الأمن والأمان والاطمئنان الجامع المانع، أمان النفس واطمئنان القلب وأمن المجتمع.

إنهم وقعوا في خطأ كبير، إنهم خافوا الناسَ وأمنوا من الله، والمطلوب أن يخافوا من بأس الله ويأمنوا الناس كقوله (وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) الرحمن/٤٦ في غرر الحكم (خف تأمن، ولا تأمن فتخف) لأن ثمرة الخوف من الله الأمن النفسي والاجتماعي. وأن الخوف النفسي والكآبة والقلق والأرق للفرد والمجتمع، لا يكون إلا من البعد عن هدى الله كقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦ في غرر الحكم (مَنْ خَافَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ آمَنَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ أَخَافَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) كقوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأحقاف/١٣، فائدة: كثير من الناس يُفضّلون الفساد في حياتهم، على الاستقامة والعفة في الدين، لأنهم يخافون من مكر الأعداء وتآمرهم عليهم بأنواع المضايقات الأمنية والسياسية والاقتصادية... الخ في غرر الحكم (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ، إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) عن النبي (ص) (وَيَلِّ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ) كثر العمل خبر ٢٩٠٩١، ومن هذا مصاديق الآية.

٥٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا قَتَلَتْ مَسَاكِيْنَهُمْ لَمَّا سَكَنَ مِنْ بَدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ

بطرت معيشتها: البطر: الطغيان والغرور والكبرياء والكفر وتجاوز الحدود في التعامل باستخفاف مع النعم الكثيرة والثراء والإسراف في التعامل معها، ولم تحفظ حق الله ولم تشكره عليها، فتدهش النفس من سوء التعامل مع وفرة النعم وعدم القيام بحقها من الشكر، وصرفها إلى غير وجهها الصحيح، في نهج البلاغة (أَقْلُ مَا يَلْزُمُكُمْ اللَّهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) حكم/٣٣٠ المعنى: وكثير من أهل قرية أثرى أهلها (بَطَرَتْ مَعِيشتَهَا) وسعوا في الأرض فساداً وطغوا وبغوا فدمر الله عليهم وخرّب ديارهم، وأزال عنهم النعمة وأحل بهم النقمة في عاقبة أمرهم، (فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً) فتلك مساكنهم خاوية موحشة وصار أكثرها خراباً من بعد تدميرهم، إلا زمنياً يسيراً، إذ لا يسكنها إلا المارة والمسافرون للتجارة ثم يهجرونها، إشارة إلى مساكن عاد وثمود وقوم لوط، (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) المالكين لديارهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف في ديارهم، والشيء إذا لم يبق له مالك قيل إنه ميراث الله، لأنه هو سبحانه الباقي بعد خلقه كقوله (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) هود/١١٧.

ومثلها (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً.. (إِلَى) يَصْنَعُونَ) النحل/١١٢ فائدة: تكشف الآية عن سنة عامة، وقانون شامل، أن كل قوم كانوا مثل حالهم من إنعام الله بالنعم الظاهرة والباطنة، فكفروا النعمة وقابلوها بالبطر والكفر والسرف فدمرهم الله كقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) إبراهيم/٢٨ البوار: الهلاك، في نهج البلاغة خطبة ٣٢ (اتَّعَظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ) ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه فقال:

٥٩- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

وما كانت سنة الله التي كتبها على نفسه رحمة بعباده، أن يهلك أهل القرى الكافرة المتبطرة المفسدة (حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا) تلك هي سنة الله التي كتبها على نفسه رحمة بعباده، أمها: أصلها ورأسها ومركزها المؤثر، وهي العاصمة الرئيسة، أي حتى يبعث في أصلها ووجهاها وعاصمتها رسولاً (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) يبلغهم رسالة الله لإتمام الحجج وقطع المعاذير (رَسُولًا) والرسول هنا جاء نكرة ليعم معناه، ويتوسّع مغزاه، ليشمل النبي والوصي، والعقل الناضج، والقرآن والسنة الصحيحة، والمبلغين الهداة، والعلماء العاملين والدعاة المخلصين إلى الله كقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧، وإنما حصّ الأصل في أم القرى لأن في أهلها فطنة وتفهم وتجاوب وانفتاح، فهم أقبّل للدعوة وأعرف بالحق، هؤلاء إن صلحوا صلحت الأمة، وإن فسدوا فسدت الأمة، (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) ولا نهلك أهل القرى إلا وقد استحق أهلها الهلاك بظلمهم وجحودهم وفسادهم، وهذا بيان قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩، (والله سبحانه لقد

أمهل حتى كأنه أهمل، ولقد ستر حتى كأنه غفر، وأنه أنذر حتى كأنه أعدر!! **فائدة:** دلت الآية على أن الظلم سبب الهلاك، لأن الظلم قاطع الحياة، ومانع النبات، ومنعص العيش، ومكره الأيام، ومقلق النفس، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة.

٦٠- ﴿وَمَا أُوتِئْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وما أعطيتهم من كل شيء أيها الناس من مال وجمال وكمال وحسن حال... إلخ (فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فهو متاع قليل ومحدود مؤقت وممزوج بالمنعصات، تتمتعون به في حياتكم الدنيا (وَرَبِّهَا) هو جمال طبيعتها، ثم ينقضي وينتهي، وكل شيء في الدنيا مهما كبر وعظم وغلا ثمنه وندر وجوده فهو مجرد (متاع) مؤقت ولذة زائلة، وعليه تبعات ثقيلة ومسؤوليات كبيرة، لأن كل شيء في الدنيا أريد لغيره وليس لذاته، وإن الدنيا خلقت لغيرها وليست لذاتها، أي خلقت للآخرة. (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وما عنده سبحانه من الأجر والثواب والنعيم المقيم الدائم، خير وأفضل (بأقل تأمل) من هذا النعيم المؤقت، والمتاع المحدود الزائل الذي في حلاله حساب وفي حرامه عقاب (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)؟ توبيخ لهم، أفلا تفكرون أن الباقي أفضل من الفاني؟ فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه عطل عقله كقوله (فَلَا تُعْرَضُوا حَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزُرْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ) لقمان/٣٢ فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم في الدنيا، لقللة ما يصحبكم منها في الآخرة، في غرر الحكم (إِنَّ الدُّنْيَا كَالشَّبَكَةِ تَلْتَفُ عَلَى مَنْ رَغَبَ فِيهَا) خذ من الدنيا ما يبلغك أعلى منازل الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك خير الآخرة، وبالدنيا تحرز منازل الآخرة، لأن (الدنيا مزرعة الآخرة) لكن المفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل واع يدرك طبيعة هذا وذاك، إذن: المذموم من متاع الدنيا هو أن يطغى الإنسان بسببه وإلا (فَلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) الأعراف/٣٢، والمفاضلة بين متاع الدنيا العاجل، ومتاع الآخرة الآجل، تحتاج إلى التفاتة عقل واع ونباهة فكر نافذ، وتدبير الأمر بدقة لتدرك بسهولة طبيعة الدنيا المؤقتة، وحقيقة الآخرة الخالدة، ورب شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً، فاعمل - أيها المؤمن - للدنيا بقدر عمرك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها، واعمل للجنة بقدر إيمانك بها وشوقك إليها، واعمل للنار بقدر صبرك عليها وتحملك إليها! ولهذا نبه القرآن العقلاء على ضرورة التفكر في عاقبة أمرهم، عن النبي (ص) (خَيْرُ الْأُمُورِ خَيْرُهَا عَاقِبَةٌ) البحار ٣٦٣/٧١، بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة فقال:

٦١- ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَأْتِيهِ كَمَا كَفَرْنَا بِهِ حَقًّا وَمَا يَشْعُرُ أَفَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا) جزاءً طيباً كريماً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد مع التقدير والتكريم، جزاء على طاعته (فَهُوَ لَا يَأْتِيهِ) فهو لا محالة مدركه كقوله (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الروم/٦٠ (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)؟ كمن مَتَّعْنَاهُ بمتاع لذيذ حلو جميل منعش، ظاهره يسر ويغز وباطنه يضر، ولكنه متاع قصير زائل في الحياة الدنيا، مُنْعَصٌ بِالْآلَامِ والمتاع

والمشاكل؟ (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) ثم يكون مصيره في الآخرة (مِنَ الْمُحْضَرِينَ) للحساب والجزاء إما للثواب وإما للعقاب، وهو في حالة خوف واضطراب، والتعبير يوحي بالاكراه، فهل يساوي العاقل بينهما؟ والآية إيضاح لما قبلها من الفارق الكبير بين الدنيا والآخرة كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/١٣٤، عن النبي (ص) (ما من أحد من الأولين والآخرين إلا هو يتمنى يوم القيامة أنه لم يعط من الدنيا إلا قوتاً) في غرد الحكم (مَنْ جَعَلَ مَلِكُهُ حَادِمًا لِدِينِهِ إِنْقَادًا لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمَلِكِهِ طَمَعٌ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ) وفيه أيضاً (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) فائدة:

١- وعدمهم الله تعالى (وَعَدًا حَسَنًا) بكل معاني الوعد الحسن في كميته وكيفيته، في شكله ومضمونه (فَهُوَ لَاقِيهِ) بسرعة مدهشة دون توقف وتأخر، وبلا فاصل بين الوعد وتسليم المكافأة، بينما عبّرت الآية عن المتمتعين في الدنيا بقوله (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) وجاءت (ثُمَّ) للتراخي الزمني، أي هناك زمن طويل لهؤلاء، كما طال تمتعهم في الدنيا فيطول حسابهم في الآخرة!! فيكون بين حال إحضارهم للحساب يوم القيامة، وحال التمتع في الدنيا وقت عسير وطويل ويجاسب على كل نعمة كقوله (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، ٢- وجاءت الآية بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في التأثير وفي الاعتراف بالترجيح، ٣- الآية أسلوب مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لتحريك المشاعر، وأسلوب المقارنة أسلوب مُحَقِّز ومثير، ومن أفضل أساليب التربية والتعليم والدعوة إلى الله.

٦٢-٦٣- ﴿ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ، قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

في مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، ويوم يناديهم بهم فيقول توبيخاً لهم: (أَيْنَ شُرَكَائِيَ) الخطاب للمشركين، أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي في الألوهية، الذين عبدتموهم من دوني وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ كقوله (هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ) الشعراء/٩٣، الاستفهام للتأنيب والتوبيخ والله سبحانه يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئاً، ولكنه موقف الحزني على رؤوس الأشهاد، ٦٣- (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) قال رؤسؤهم وكبرؤهم في الفساد كفرعون ونمرود وغيرهما، والمعبودين من شياطين الذين (حَقَّ) أي وجب (عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي العذاب بسبب طغيانهم من الجن والإنس والشياطين (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) الضلال عن منهج الله، هؤلاء أتباعنا الذين (أَغْوَيْنَا) أضللناهم عن سبيلك المستقيم (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) أضللناهم كما ضللنا، لا بالإجبار والإكراه ولكن بطريق الوسوسة والتضليل وتزيين القبيح، فضلوا مختارين لتأثيرنا عليهم، كما ضللنا نحن، وانقادوا معنا

انقياد الجهلاء واتباعنا أتباع الأعمى، ولو فكروا قليلاً لملكوا القدرة والإرادة وانتبهوا على ترك قيادتنا الضالة واستقاموا، ودائماً الجهلاء ضحية المتأمرين.

(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) إِنَّا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ يَا اللَّهُ مِنْهُمْ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ إِيَّانَا وَصَارُوا أَعْدَاءً، فَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَنَا وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحَهُمْ، فَهَمَّ وَحْدَهُمُ الْمَسْئُولُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ كَقَوْلِهِ (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) الأحزاب/٦٧ وقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْعَظِيمِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الأعراف/٢٠٢، وقوله (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) النساء/٣٨.

٦٤-٦٦- ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ، فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

وقيل يوم القيامة إلى جميع المشركين توبيخاً لهم، والشركاء هم الذين اتخذوهم آلهة واتبعوهم وأطاعوهم من دون الله، وجاء تعبير (شُرَكَاءُكُمْ) أضافها إليهم لقناعتهم بها، قيل لأي نوع من شركائهم، سواء اتبع هواه أو اتبع طاغوتاً ظالماً طمعاً في دنياه، قيل لهم أين الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ أَدَعَوْهُمُ لِيُنْقِذُوكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كُنْتُمْ تَدْعُونَ (فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) ولم يكن منتظراً غير ذلك، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين لزيادة ذلتهم وحسرتهم وفضيحتهم، فكيف يستجيبون لهم وهم ضعفاء عن نصره أنفسهم كقوله (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج/٧٣ (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) وتمنوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مؤمنين مهتدين على منهج الله، ويوم القيامة يوم الحسرة والندامة، والتمني رأس مال المفلسين، ولا ينفع الندم بعد فوات الأوان، عن النبي (ص) (شَرَّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار/٧٧/١١٥، كقوله (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات/٦، ٦٥- (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) توبيخ آخر للمشركين أي يوم يناديهم الله ويسألهم ماذا أجبتهم رسلي حين دعوكم إلى الإيمان بالله؟ في مشهد مملوء بالكربات والحسرات، الممزوج بالذلة والهوان، وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين، ولكنه سؤال التأنيب والحسرة والتشهير بهم على رؤوس الأشهاد، ٦٦- (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ: فحفييت واشتبهت عليهم الحجج، وعميت النفوس، وخرست الألسن عن الأعذار المنجية من العذاب، فلم يعرفوا ماذا يقولون، وعجزوا عن الجواب المقنع، فصمتوا لدهشتهم وذهولهم ولم يتساءلوا فيما بينهم عنها، لتساويهم جميعاً في دهشتهم وحيرتهم، في عمى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب، إنه موقف رهيب ومخيف لأنه حاسم وقاسم، تُذهل رسل الله عن جواب مثل هذا السؤال، فتكل الجواب إلى علم الله تعالى كقوله (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) المائدة/١٠٩، فما ظنك بالضالين؟! والتعبير (فَعَمِيَتْ) مبالغة العمى، في مشهد مملوء بالعمى الحسي والنفسي، وكأنما الأنبياء عمياء لا تصل

إليهم، وهم لا يعلمون أي شيء، ولا يملكون سؤالاً ولا جواباً وهم في ذهولهم ساكتون مخذولون مبهوتون.

٦٧- ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾

فأما من تاب من الشرك الجلي أو الخفي توبة نصوحة، وجمع بين الإيمان الصادق والعمل الصالح، فسعى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم، (عسى) في كلام المخلوق تدل على الترجي والأمل، وفي كلام الخالق تدل على التحقق بفضل من الله ورحمته، لأنه وعد كريم من رب رحيم كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) آل عمران/٩، ففي الوقت الذي يبلغ الكرب ذروته بالمشركين، يتحدث سبحانه عن من تاب وآمن وعمل صالحاً، وما ينتظره من الرجاء في نعمة الفلاح، ولمن شاء أن يختار، وفي الوقت فسحة للاختيار! وأن على المؤمن أن يتعلّق رجاءه برحمة الله لا بما يعمل من صالحات. كقوله (وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ) طه/٨٢. عن النبي (ص) (لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) مجمع البيان ٤ ص ١٩.

٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أنها الحقيقة التي كثيراً ما ينساها الناس، فكما أن الخلق إليه كذلك الاختيار في جميع الأشياء إليه سبحانه وتعالى كقوله (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون/١٤، ويرد القرآن أمر كل شيء إلى إرادة الله واختياره في الأمور التكوينية أو التشريعية، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه لا في شأن نفسه ولا في شأن غيره، ولا في شأن رسالته، فهو الذي يخلق كل شيء، ولا أحد يستطيع أن يخلق أي شيء حي، كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١، فأبي شيء لا حياة له إلا من الله، فهو الخالق البارئ المصور المتصرف العظيم، ويفعل ما يريد، ولا يفعل ما يريد غيره، لا اعتراض لأحد على حكمه، ولا يملك أحد أن يقترح عليه شيئاً، وربك الجميل الذي ربك وربّي كل شيء، وهو الصانع المبدع المختار للجمال والكمال والجلال، يخلق ما يشاء كيف يشاء، متى يشاء بما يشاء ممن يشاء ولما يشاء (وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن) كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩.

ولا يملك أحد أن يزيد أو ينقص من خلقه شيئاً، ولا أن يعدّل أو يبدّل أو يحوّل في خلقه شيئاً، لأنه مخلوق متكامل من كل شيء، مثل الإنسان خليفة الله على الأرض، خلقه في أحسن تقويم (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين/٤، وفي أعقد تركيب، وفي أتقن صنع (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨، وكرّمه أحسن تكريم (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) الإسراء/٧٠ وإنه سبحانه هو الذي يختار من خلقه من يشاء، لما يريد من الوظائف والأعمال والمهن والملكات والاختصاصات المختلفة، والكفاءات المتنوعة والمقامات المتباينة، وهو ميسّر لما خلقه له، عن النبي

(ص) (اعْمَلُوا فِكْلَ مُبَيَّنٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ) روح البيان ١٣٦/٦ وهو الذي يختار أقواماً مؤهلين لتبليغ رسالاته وإصلاح الناس وهدايتهم.

كقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ الرَّعْدُ) وقوله (وَيُجَنِّ خَلْقَنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١، وهو الذي يميز بعض مخلوقاته عن بعض، ويفضّل بعضها على بعض، وهو الذي يخلق الذكر والأنثى ويوازن بقدرهما ومقدارهما ودورهما في الأمة كقوله (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) القمر/٤٩، وهو الذي يعطي للجميل جماله ويفاوت بينهما بالجمال بنسب ومقادير متباينة، وأيضاً للطويل والقصير، والقوي والضعيف، والغني والفقير.. وكل ما يختاره خاضع لقانون الأسباب والمسببات، وللحكمة والمصلحة (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) الخيرة: من الاختيار، لا أحد يملك مع الله شيئاً كي يشاء ويختار، ولم يكن لأي مخلوق القدرة على الاعتراض وإبداء الرأي، والذي يعترض فهو يعترض على الكمال والجمال والجلال الذي خلقه الله، والحكمة البالغة من ورائه ١- كقوله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الأحزاب/٣٦، فيكون الخالق لهذا الوجود هو الذي له حق التشريع والتقنين، فمن يرضى بالقانون الوضعي بديلاً عن القانون الإلهي فقد أشرك بالله، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ). فكما أن الخلق إليه فكذا إليه الاختيار في جميع الأشياء، (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) لا في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم كقوله (إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) آل عمران/١٥٤، ومرّد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير، هذه الحقيقة الكبيرة التي ينساها أو يتناساها الناس، لو استقرت في نفوسهم لما سخط الناس شيئاً يجلّ بهم، ولا استخفّهم شيء ينالونه بأيديهم، ولا أحزّهم شيء يفوتهم، فليسوا هم الذين يختارون إنما الله هو الذي يختار لعلمه وإحاطته بالحكمة والمصلحة كقوله (لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) الحديد/٢٣، وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإراداتهم واختيارهم، ولكن معناه أن يرضوا بقضاء الله بالرضا والتسليم، بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والتقدير، والعلم والخبرة والتجربة والعمل المختص السعي اللازم كقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) البقرة/٢٨٦ في غرر الحكم (تكاد ضمائر القلوب تطلّع على سرائر العيوب) وقيل (لَوْ إِطْلَعْتُمْ عَلَى الْعَيْبِ لَرَضِيْتُمْ بِالْوَاقِعِ) فلا يشغلك تدبير دقيق مضمون، عن عمل مدرّوس مفروض، وسعي هادف مطلوب، والأمر بعد ذلك لله، ثم قال (سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) سبحان الله: تنزه الله عن النقائص، تنزه الله الخالق العظيم الجليل الجميل عن كل ما لا يليق به، الذي يخلق الجمال ويحبّ الجمال، وتقدّس الله أن ينازعه أحد في ملكه، وتعالى أن يشاركه أحد في اختياره وحكمته. فائدة:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) (نظرة في الاستخارة) عن النبي (ص) (كَانَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَالَ اللَّهُمَّ خِرْ لِي أَيَّ خَيْرٍ لِي) وقال (ص) (إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَاسْتَخِرْ رَبَّكَ) المراغي ٨٥/٢٠، ما حار من استخار، ولا

ندم من استشار، أصل الخيرة عند الحيرة حصراً، ولا يجوز تعطيل العقل من التفكير، ومن غير المستحسن اللجوء إلى الخيرة قبل الحيرة، ولا بُدَّ من العلم اللازم في استخدام الخيرة، وحسن التوجّه لها وحسن التعامل العلمي معها، ويحث القرآن الكريم على الحزم والعزم والرؤية الثاقبة في معرفة الأمور (المؤمن ينظر بنور الله) كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) الحجر/٧٥ هم المتفرسون، عن النبي (ص) (إِحْذَرُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ! فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) كثر العمال خبر ٣٠٧٣١، كقوله (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران/١٥٩، في دعاء النبي (ص) (مختصر) (اللهم يا مَنْ يَعْلَمُ، إِهْدِ مَنْ لَا يَعْلَمُ، يَا عَالِمًا بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ إِهْدِنِي لِتِلْكَ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِذَا كَانَ خَيْرًا لِي فِي دُنْيَايَ وَآخِرَتِي فَقَدْرَهُ لِي وَيَسَّرَهُ لِي وَبَارَكَ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِذَا كَانَ شَرًّا لِي فِي دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْ عَنِّي، وَقَدِّرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِنِي بِهِ) ثم يذكر حاجته، المراغي ٢٠/٨٦. في غرر الحكم (استخر ولا تتخير (لا تتردد) فكم من تخيرٍ أمراً كان هلاكه فيه)!

٦٩- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

تُكِنُّ: تخفي، ثم بين الله أن اختياره مبني على العلم الصحيح لا اختيارهم، ويعلم سرهم وجهرهم، وما تخفيه قلوبهم وما تضره صدورهم، ولكون الصدر يُعَدُّ مخزناً للأسرار، وإنما يختار ربك لهم ما يختار (مَا كَانَ هُمُ الْخَيْرُ) القصص/٦٨ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء، ويعلم ما في ظاهرهم وباطنهم وأسرارهم، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، للدلالة على أنه سبحانه أقرب إليهم من أنفسهم، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وعن الإمام علي (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن ٧/٣٠٠ فالذي يختار منهم للإيمان مبني على علم، وخبرة منه بسرائر أمورهم، فيختار للخير أهله فيوقتهم له، ويترك الشر لأهله وما يختارون لأنفسهم كقوله (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) الحجر/٧٢ وقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النمل/٣٦، وكيف يخفى عليه شيء وهو خلقه؟ ولا حياة له إلا برزقه! عن الإمام علي (ع) (الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبتته بصره) شرح النهج ٣/٢١٦.

٧٠- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْإِلَهَاءُ هُوَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وهو وصف التوحيد اللائق لله جلّ جلاله، الذي يتفرد به بجز الإلهوية وجلال الربوبية، لا شبيه يساويه ولا نظير يضاهيه كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣ في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ، الدِّكْرُ حَيَاةُ الْقَلُوبِ) لا شريك له في الخلق ولا في الاختيار، الله عز وجل وحده الذي يستحق الإلهوية والعبادة بالحق (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ) (لَهُ الْحَمْدُ) في بداية كل عمل ونهايته، وفي بداية

حياة المخلوقات ومماتها (لَهُ الْحَمْدُ) من كل شيء، وفي كل شيء، ومع كل شيء، وإلى كل شيء (لَهُ الْحَمْدُ) استحقاقاً على عظمته ورحمته، وله الشكر استيجاباً على نعمه (لَهُ الْحَمْدُ) على كل نعمة ظاهرها وباطنها.

(لَهُ الْحَمْدُ) في الدنيا وفي الآخرة، ولا يُحمد على مكروه سواه، ويحمده اللسان كما تحمده الجوارح، حيث يحمده كل مخلوق على ما هو عليه من جمال الخلق الذي أقامه الله فيه كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤ (وله الحمد) على اختياره وخيره وفضله ونعمائه وحكمته، وعلى تدييره وتقديره وعلى عدله وإحسانه ورحمته، وهو وحده المختص بالحمد والمدح والثناء، فهو ولي كل نعمة ظاهرة وباطنة، في خطبة الإمام علي (ع) في يوم الجمعة (الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحَقُّ مِنْ حُشِيِّ وَحَمْدِ، وَأَفْضَلُ مِنْ أَتْقِي وَعَبْدِ، وَأَوْلَى مَنْ عَظَّمَ وَجَّهَ، وَحَمْدُهُ لِعَظِيمِ عَنَائِهِ، وَجَزِيلِ عَطَائِهِ، وَتَظَاهِرِ نِعْمَائِهِ، وَحُسْنِ بَلَائِهِ) البحار ٣٥٣/٧٧ (وَلَهُ الْحُكْمُ) والسلطان والتصرف المطلق في كل ما في الوجود دون مشاركة لغيره فيه، يديره ويقدره كيف يشاء علمه، وتقضي إرادته لا راد له ولا مبدل لحكمه كقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد/٤١ وقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) التين/٨ وحكمه نافذ قاهر (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١ وهو الذي يحكم بينهم بالعدل والحق والإحسان، ويميز لهم بين الحق والباطل (وَالِيهِ تُرْجَعُونَ) وإليه يرجع الناس والخلق كلهم بعد الموت لا إلى غيره، وإليه المصير وبيده الحساب والثواب والعقاب والجزاء كقوله (وَلْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢، في غرر الحكم (مَنْ أَيْقَنَ بِالْمَجَازَاةِ لَمْ يُوَثِّرْ غَيْرَ الْحَسَنِيِّ) عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥، ومن بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى الله قرّبه إليه.

٧١-٧٢- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
سرمداً: دائماً متواصلاً، أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً والظلام مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة من دون نهار وضياء (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ)؟ فهل من إله ينقض حكم الله تعالى ويأتيكم بضياء النهار يستضيئون به، ويسهل عليكم السعي في طلب الرزق والعمل (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) سماع تفهّم وتفكّر، واعتبار فتستدلون بذلك على توحيد الله تعالى؟ وقرن بالضياء السمع، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر، وتسمع الأذن ما لا تراه العين، ٧٢- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قل لهم يا محمد: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أخبروني إن جعل الله عليكم النهار والضياء سرمداً دائماً مستمراً بلا انقطاع ومن دون ليل إلى يوم القيامة (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ) فهل من إله ينقض حكمه تعالى ويسعفكم بليل مظلم تستريحون فيه، مما أصابكم من تعب

السعي في طلب الرزق (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أفلا تتبصرون؟ من البصيرة، وإما من البصر بمعنى المشاهدة بوعي أي، أفلا تنظرون نظر تعقل وتأمل وتدبر أيها الغافلون، فتعلمون أنها من صنع مدبر حكيم عليم؟ (فَلَا تَعْقِلُوا فَلَئِنْ بِمَعْقُولٍ عِنكُمْ) ، في غرر الحكم (إحذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن). وتفهموا واعلموا أن:

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ولا رب غيره تعالى يستحق العبادة في حديث (كُلَّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ!) وعنه (ص) (ذُنْيَاكَ مَا يَشَعَلُكَ عَنِ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦.

فائدة: الليل والنهار ظاهرتان مرتبطتان بحركة السنن الكونية والأنفسية، فيكون النهار بضياءه للمعاش والعمل، والليل بظلامه للقرار والسكن، والعمل مرتبط بالضياء، والنوم مرتبط بالظلام، ويكون أصح للجسم وأعمق للنوم، وبتغيير حركة مقادير الليل والنهار تدل على أن هناك مُنظِّم ومقدِّر ومغيِّر ومحرك لهما، الناس يشناقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحب، فكيف بهم لو فقدوا الضياء؟ والناس يشناقون إلى الليل حين يطول بهم النهار بعض الساعات في الصيف، ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار والسكن، ولو استمر الليل بلا نهار، والنهار بلا ليل لتغيرت سنن الحياة وسنن الممات، ونظام الخلق، ولعاش الناس البلاء والشقاء والعناء واضمحلت الحياة وسئمتها النفوس، هل من إله غير الله يستطيع أن يعوض الخلل الذي يحصل؟ عندئذ تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة والطاعة إلا الله عز وجل، والذي يذهب إلى القطب الشمالي مثلاً ويرى الصعوبة الفائقة في العيش فيه يدرك الحكمة والسر في تعاقب الليل والنهار، وفي ذلك من النعم التي لا تحصى وأن النبات يصنع غذاءه من ضياء الشمس في النهار، فيعطينا غاز الأوكسجين ويستهلك غاز ثاني أوكسيد الكاربون، وفي الليل يحصل العكس، فيتحقق التوازن بين الغازات في الهواء! كقوله (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدَّكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) الفرقان/٦٢، وختمت الآيتان (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)؟ (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)؟ لبيان أنهم إذا لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر! وأيضاً قال في الليل (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) وفي النهار (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه في النهار، الناس لطول ما اعتادوا من تكرير الليل والنهار، لا يدهشهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلاً، ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادراً، ولا يتدبرون ما في تعاقبهما من رحمة بهم، والقرآن الكريم يوقظهم من همود الألفة وجمود العادة إلى التفكّر والتدبر، في غرر الحكم (فكر ساعة قصيرة، خير من عبادة طويلة) ثم نبه الله تعالى إلى كمال رحمته بعباده فقال:

٧٣- ﴿وَمِنْ مَرْحَمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتُبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

ومن آثار قدرته سبحانه ومظاهر رحمته بكم، أن خلق لكم الليل والنهار منظّمان مقدّران ويتعاقبان بدقة وإحكام رحمة بعباده (لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حسب نظامهما الدقيق المرسوم لهما (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) في ذلك الحكمة والمصلحة للبشرية وسعادة المخلوقات، الابتغاء من فضل الله يكون في الليل والنهار، ولهذا لم يقيّد بظرف، كما قيّد السكن في الليل لأن فيه النوم العميق. فتنسجم عندئذ حركة السنن البشرية مع حركة السنن الكونية، وتبيّن حكمة الله في الآفاق والأنفس، وهذا لا يتم إلا بالحق الذي يقدره القادر القاهر المقدّر المدبّر الذي يستحق العبادة والشكر (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ الظاهرة والباطنة كقوله (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا) إبراهيم/٣٤، وقد ثبت علمياً أن جميع أجهزة البدن تكون نشطة وفعّالة مع وجود النور وبالعكس، فأن خلايا الجسم تهدأ في ظلام الليل عند النوم، تستريح استراحة عميقة كافية لتستعيد نشاطها وقواها. ونلاحظ قوله (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) الرعد/٨، وكل صغير وكبير بتدبير وتقدير. في غرر الحكم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَأَعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا) عن النبي (ص) (اغتنم خمساً قبل خمس: بادر باستثمار شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، وقوتك قبل ضعفك) كنز العمال خبر ٤٣٤٩٠، وحياتك قبل موتك.

فائدة: نلاحظ الليل ليس ضد النهار، كما أن الحياة ليست ضد الموت، ولكن بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، وتكشف علاقة الليل والنهار عن علاقة السنن الكونية بالسنن الإنسانية، فكما يتداخل الليل والنهار كذلك يتداخل كل شيء في هذا الوجود، ويسمى (سنة التدخل بين الأشياء) فيتداخل النور والظلمات، والشتاء والربيع، والصيف والخريف، ويتداخل الروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل، والضعف والشدة، والعزة والذلة، والذكر والأنثى، والنفس الأمارة والنفس اللوامة، والعسر واليسر (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح/٥-٦ فلا عُسْرٌ دائم ولا يُسْرٌ دائم، والعسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلزمه أو يعقبه، وأن الشدة يعقبها الفرج عاجلاً أو آجلاً، وأن في الشدائد والمصاعب خيراً كثيراً، قيل: فِي الْمِحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٌ وَخَبِرَاتٌ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَبَاتٌ، وفي العقوبات يقظات الضمير، وفي البلايا بدايات نهاياتها الكرامات، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَاللَّهُ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا!) البحار/٧٨/٣٧٤، كقوله (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) الطلاق/٧، وجاء (العُسْرُ) في آية الانشراح معرفة بالألف واللام في الآيتين يدل على أنه واحد، وجاء (يُسْرًا) نكرة بلا ألف ولا م يدل على تكريره ومعنى ذلك لن يغلب عسر يسرين!، كقوله (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) الرحمن/٢٩، (وَدَوَّامُ الْحَالِ مِنَ الْحَالِ) قال العلم الحديث: (كل شيء يتغير إلا مبدأ التغيير والتطور)

وهذا نداء ثان، النداء الأول من الآية ٦٢ من القصص، على سبيل التوبيخ لمن عبد مع الله وأشرك معه إلهاً آخر، والغرض من هذا التكرير التنبيه على خطورة الشرك بالله كقوله (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣، مع كثرة الدلائل على توحيد الله، أي يناديهم الرب الجليل على رؤوس الأشهاد: أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا شركاء بلا علم ليخلصوكم مما أنتم فيه، للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراف به كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) النساء/١١٦، لأن الشرك مصادرة حق الخالق وتصغيره، وتفخيم حق المخلوق الضعيف وتعظيمه، سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٩٧.

٧٥- ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

نزعنا: أخرجنا بكفاءة عالية، وانتخبنا بقدرة دقيقة، لأن النزاع حركة شديدة أي، اخترنا من كل أمة من الأمم شهيداً منهم من نبي أو ولي كقوله (وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) النحل/٨٩، وكل من يقوم بمهمة الأنبياء (ع) بالحق وتبليغ الحق ويهدي إلى الحق، في أي زمان ومكان يكون بمثابة شهيد وشاهد وحاضر، وهم العدول من كل أمة، ولم تخل منهم أمة وإن قتلوا، ويكونوا حجة على الناس كقوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) النساء/٤١ ليشهد على عقائدهم الحق أو الباطلة، وعلى أعمالهم الصالحة أو الطالحة، ويشهد على تبليغ الرسالة وكيف تعامل الناس معها (فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) عند بروزهم للمحاكمة، قلنا لكل أمة منهم هاتوا حججتكم على ما كنتم عليه من الضلال والكفر والفساد فلم يهتدوا للدليل (فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ) فعلموا حينئذ أن الحق كله خالص لله، لا يشاركه فيه أحد، وإن الحجة قائمة عليهم ولازمة (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (وَضَلَّ عَنْهُمْ) وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع، ما كانوا (يَفْتَرُونَ) ما كانوا يفتلقونه في الدنيا من الأباطيل من الشركاء أو من العقائد الضالة.. وغيرها.

فائدة:

١- (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) ما هو تبريركم لفسادكم وضلالكم؟ كقوله (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) النمل/٦٤، ومن عدل الله في محكمته الكبرى أنه يسمع من المبلغين لرسالات الله، ومن ثم يسمع من المنحرفين عنهم وهو لا يخفى عليه شيء منهم، ثم يحكم بينهم بحكمه العادل، بحسب استحقاقهم فيما هم فيه مختلفون كقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩، وهذا دليل على أن القاضي وأي حاكم بين الناس في أي موقع كان، لا يجوز له أن يحكم في أية مسألة إلاّ باجتماع أطرافها، ومن له علاقة بها، ولا يجوز أن تؤخذ الدعوى من طرف واحد، ٢-(الشرك معنى عام): (الشرك آفة التوحيد) في غرر الحكم (آفة الإيمان الشرك) لا ينحصر الشرك في عبادة

الأصنام الحجرية، وهناك أصنام بشرية وأصنام فكرية، فمنهم من صنمه نفسه وهواه وقناعاته، ومنهم من صنمه زوجته فهو يجبها أكثر من حب الله، ومنهم من صنمه تجارته فيتكل عليها ويترك طاعة الله لأجلها.. إلخ والشرك أقبح جميع السيئات كما أن التوحيد أحسن الحسنات. في الحديث (كَلِّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمُكَ!) عن النبي (ص) (إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي فِي عَمَلِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِي تَرَكْتُ الْعَمَلَ كُلَّهُ لَهُ، وَلَمْ أَقْبَلْ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا)، ثم ذكر الآية (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف/١١٠ تفسير الميزان ٤٠٧/١٣.

٧٦- ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

(كبرياء قارون بثرائه) الآية تصوير وتحذير لمخاطر الثراء الفاحش (الترف) الذي يطغي ويغري النفوس ويُقسِّي القلوب ويفسد المجتمع كقوله (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) هود/١١٦ وقوله (وَلَوْ سَظَّ اللَّهُ الرَّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الشورى/٢٧ وقوله (أَهْلَاكُمْ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) التكاثر/١-٢ عن النبي (ص): (حَيْثُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) البحار ١٠٦/٧٥، (قصة قارون، وغرور الترف) يعرضها القرآن ويُحذِّرُ منها ويبيِّن مخاطرها ويعكس أضرارها في الدنيا والآخرة، يعرضها كأنها صورة حيَّة واقعية تراها الآن، إن قارون كان من بني إسرائيل، ومن آمن بموسى في بداية الأمر، وكان كثير النباهة والفتنة، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقراهم لها، ومن السبعين لتلقي موسى التوراة، ثم أصابه غرور الغنى وأُعجب بنفسه وضلَّ وساءت عاقبته وارتدَّ عن دينه، وتكبرَّ على الناس وظلمهم وبخس حقوقهم، بكثرة ماله وغروره والإعجاب بنفسه وإحتكاره للأموال الكثيرة فأنسته الآخرة، حين ولَّاه فرعون عليهم، لأنه ابن عم موسى (فَبَغَى عَلَيْهِمْ) على إطلاق معنى البغي بلا تحديد، وطغى في احتقار الناس، وتجاوز حدَّه في التكبر والتجبرَّ عليهم، بسبب ثرائه وقربه من فرعون والكبر: أقبح الخُلُق، وآفة العقل، ورأس الطغيان، ومعصية الرحمن، وصدافعة مع الشيطان، عن النبي (ص) (لا يزال الرجل يتكبرَّ ويذهب بنفسه حتى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فيصيبه ما أصابهم) كنز العمال خبر ٧٧٤٩، (وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) الكنوز: الأموال الكثيرة المتنوعة المدخرة بمختلف الأساليب، مفاتحه: (قاصاته) وخزائنه وصناديق أمواله ومفاتيح دوره وقصوره وصناديقه من الذهب والفضة والجواهر الثمينة النفيسة (لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) صفة كثرة، أي لتثقل على الجماعة من أولي القوة حملها دفعة واحدة!

المعنى: وأعطيناه من الأموال الوفيرة والكنوز الكثيرة، ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة، بلا تعيين عدد خاص، حمل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل أصل الخزائن والأموال والجواهر! (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ)

لا تفتخر ولا تبطر بالنعمة، إذ قال له الصالحون من قومه ناصحين له ومحدّرين، لا تفرح فرح البطر والزهو والغرور والعجب، ليهذّبوا سلوكه الطاغية المنبعث من الاعتزاز بالمال والثراء والترف (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) المتباهين البطرين الذين غرّتهم الحياة الدنيا وزخارفها وخذعتهم أنفسهم بخيانتها، وغرهم بالله الغرور، فهم لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون بأموالهم وسوء تعاملهم مع الناس فائدة: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) ١- كل الناس يفرحون ويحزنون، لأن الفرح والحزن طبيعة وغريزة في الإنسان كقوله (وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ) الروم/٤-٥.

فالفرح المنهي عنه النابع عن غرور وكبرياء وطغيان، الذي يؤدي إلى الرذيلة والجريمة والبغي والعدوان والمباهاة والتبذير والإسراف، إن الله لا ينهي عن الفرح من موقع الحق، بل هو ضرورة لراحة النفس، كقوله (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) النجم/٤٣ وإنما ينهى عنه من موقع الباطل والإعجاب والكبر، ويؤدي إلى الغرور والمباهاة والتبخر والبغي، والفرح إذا تجاوز حدّه انقلب إلى ضده كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) لقمان/١٨، معجب بنفسه يستصغر الآخرين مغرور بربه، والافتخار من صغر القدر، ومن ضعف النفس، وضحالة الفكر، ولا شيء يستحق الفرح والفخر في كل زخارف الدنيا إلا ما كان من فضل الله وطاعته سبحانه وخدمة الناس وهدايتهم كقوله (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) يونس/٥٨، الفرح المذموم وقوله (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) غافر/٧٥ في غرر الحكم: (مَا بَأَلُّكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمْ الكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْزِنُونَهُ!؟)، ٢- (فَبَغَى عَلَيْهِمْ) إنه قارون واضع أسس الرأسمالية الطاغية المستبدة وزعيمها المتكبر، وتسلب على قومه بالظلم والطغيان، مبرراً ذلك (إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) القصص/٧٨ فقدم مصلحة الفرد الخاصة، على مصلحة المجتمع، في نهج البلاغة حكم ٣٣٠: (أَقْلُ مَا يَلْزُمُكُمْ اللهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) عن الإمام علي (ع) (ما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانها حق مضيع) (ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني)، وهنا يقول الله تعالى (وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ) وهذا دليل على أنه لا يعترف أن مصدر الرزق من الله وهو سبحانه مسبب أسبابه، كقوله (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) الذاريات/٥٨ وهو دليل الكفر والارتداد عن الدين، كقوله (انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) آل عمران/١٤٤.

وهنا إشارة دقيقة حينما جمعت الآية بين البغي وكنز المال: أنه عندما يزداد غنى المال من دون غنى النفس وغنى الخلق، تنحرف الشخصية الإنسانية عن مسارها البشري الصحيح، عندما يزداد ثراء الخزائن والكنوز من الذهب والفضة والجواهر النفيسة، من دون ثراء العقول بالعلم والمعرفة،

وإثراء النفوس بالإيمان والعمل الصالح وحسن السيرة، تراه يتحول إلى طاغية كفرعون لا يحب إلا نفسه!، وتشير الآية إن بلاء الإنسان بالغي والثروة أشد من بلائه في الفقر والحاجة، ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها، أما المؤمن من يعلم أنها دار بلاء فلا ينخدع بها كقوله (لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) الحديد/٢٣، عن النبي (ص) (أوحى الله إلى الدنيا: اخدميني من خدميني، وأتبعني من خدمك) البحار ٧٧ص ٥٤ كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣ .

٣- الفرق بين (المفاتح) التي تعني الخزائن والقاصات و(المفاتيح) جمع مفتاح وهو آله الفتح، كقوله (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) الأنعام/٥٩، مفاتيح بفتح الميم بمعنى خزائن، وبكسرهما بمعنى المفاتيح الذي تفتح به الأقفال، وجمعه مفاتيح، كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُّهِينٌ) آل عمران/١٧٨، الإملاء: الإمهال، في نهج البلاغة حكم ١١٦ (ما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء لهُ)، ٤- في هذه الآية الكريمة خلاصة جامعة مانعة لما في المنهج الإلهي القويم من قيم تربوية لتزكية النفس، وخصائص تحضوية للفرد وللمجتمع تميزه عن المناهج الوضعية كافة، في غرر الحكم (أديتُ الناسَ منَ لم تُفسدِ الشهوةَ دينَهُ).

٧٧- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَكَانَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَكَانَ تَبِيعَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

وفي هذا القانون يتمثل الاعتدال والتوازن والاستقامة في المنهج الإلهي التقوي التربوي، وتتضمن الآية أربع نصائح مهمة، النصيحة الأولى: وابتغ فيما آتاك الله: واطلب واجتهد فيما أعطاك الله من عطايا كثيرة، منها الأموال والكنوز والعلم والذكاء والجاه والقدرة والسلطة.. إلخ، ابتغ بها رضا الله وتعمير الدار الآخرة، دار القرار بإنفاقها في سبيل الله، أي في طريق الخير والصالح العام، ومنها العمل على نهضة الفرد والمجتمع حضارياً وأخلاقياً، واعمل (فيما آتاك الله) لآخرتك، لأن نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمله رصيد لآخرته، فهو الذي يبقى له، قال (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ) ولم يقل (وابتغ بما آتاك الله) لأنه لم يكن المقصود أن تبتغ مالك وادخاره، وإنما أراد وابتغ الدار الآخرة في حال تملكك المال والجاه والعلم والمنصب والسلطان، وقدرتك على فعل أي شيء تقدر عليه من أفعال الخير المتنوعة، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، النصيحة الثانية: (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) ولا تترك ولا تغفل عن حظك من لذات الدنيا وشهواتها، من أنواع الأكل والشرب والملابس والمسكن والسيارة.. إلخ من الحاجات الضرورية الكمالية، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولأمتك وأخلاقك ولدينك عليك حقاً.. إلخ.

عن الإمام علي (ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَإِعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ عَدَا) تنبيه الخواطر ص ٤٦١، وعن النبي (ص) (اغتتم خمسا قبل خمس: فبأدر بأستثمار شبايبك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شعلك، وقوتك قبل ضعفك) كنز العمال خير ٤٣٤٩٠، عن الإمام علي (ع) (لا تنس صحبتك وقوتك وفراغك وشبايبك ونشاطك وغناك، أن تطلب بها الآخرة) مجمع البيان ٤٨٧/٧، **النصيحة الثالثة:** الآية تحدثنا على طلب الموازنة والاعتدال على ضوء منهج القرآن، بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، ومطالب الروح ومطالب الجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل، ولا تناقض ولا تضاد بين الدنيا والآخرة بل (الدنيا مزرعة الآخرة) والآخرة امتداد للدنيا وتكملة لمسيرتها مع الفوارق بينهما، كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/ ١٣٤ عن الإمام علي (ع) وفي قوله (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ) العنكبوت/ ٢٧ فَمَنْ عَمِلَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْطَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وكفاه المهم فيهما)، ثم قال (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) فهذا المال هبة من الله وإحسان، فليقابل إحسان الله إلى الإحسان إلى الناس، إحسان الإحساس بالنعمة والقدرة وإحسان الشكر والمئة، فذلك هو زكاة هذه النعمة، أي وأحسن إلى الناس إحساناً كما تحب أن يحسنوا إليك، وقدم لغيرك إحساناً كما أتاك الله إحساناً من غير أن تستحقه وتستوجه فيما أنعم به عليك، واشكر الله عليه فذلك زكاة هذه النعمة، وهكذا يقابل إحسان الله بالإحسان إلى الناس كقوله (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) الرحمن/ ٦٠.

فأعن الناس وأفض حوائجهم بقدرك ومقدارك، بما تستطيع بمالك وجاهك وموقعك ومنصبك وعلمك وقولك وفعلك وطلاقة وجهك، كقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) الطلاق/ ٧، في غرر الحكم: (أَحَقُّ النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ مَنْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَبَسَطَ بِالْقُدْرَةِ يَدَيْهِ) **النصيحة الرابعة:** (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) ولا تطلب بهذا المال والجاه والموقع المسؤول، البغي والظلم والتكبر والاعتداء على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي المتنوعة، وفي كل تجاوز لحدود الله هو نسيان لله، واقتراب من الشيطان، والعيش في إسراف وبذخ وحولك فقراء جياع، وهو الوقوع في الفساد الخطير والمرير كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/ ١، عن النبي (ص) (دُنْيَاكَ مَا يَشْعَلُكَ عَنْ رَبِّكَ) روح البيان ٤٩١/٦ (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) إِنَّ اللَّهَ لَا يُكْرِمُ وَلَا يُؤَيِّدُ المفسدين بأي نوع من الفساد، بل يهينهم ويعاقبهم ويعددهم من لطفه وقربه ونيل مودته ورحمته. عن الإمام الصادق (ع) (فساد الظاهر من فساد الباطن، ومن أصلح سريره أصلح الله علاقته، ومن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى) تفسير نور الثقلين ١٣٩/٤، عن الإمام علي (ع) (ينبغي للعاقل أن يحترس سكر المال، وسكر العلم وسكر القدرة، وسكر المدح وسكر الشباب، فإن لكل واحد من ذلك رجماً خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار) في غرر الحكم (استعيدوا بالله من سكرة الغنى فإن له سكرة بعيدة الإفافة!).

٧٨- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَكَأَيُّ سَأَلٍ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

لا يزال الحديث عن قارون، لما وعظه قومه فلم يتعظ وردّ عليهم، إنما أعطيت هذا المال الكثير (عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) باستحقاق المميز، ولدي مواهب فريدة بأنواع الكفاءات والخبرات والتجارب الخاصة في اقتناء المال واستثماره واستكثاره وحسن إدارته، وليس عند غيري ذلك، وعندني الشطارة بوجوه المكاسب، وعندني المهارة والنبوغ والنباهة والكفاءة، فإني أستحق هذا المال، ومن حقي أن أتمتع بما لي، وأفعل به ما أشاء، وليس لله ولا لغير الله فيه يد ومشيئة، وهكذا يبعث الغنى والترف والمال والثراء الشعور الحسيس في نفس اللقيم، بأن له الفضل والاستعلاء والتفوق على خلق الله، في غرر الحكم (اللَّيْمُ إِذَا بَلَغَ فَوْقَ مِقْدَارِهِ تَنَكَّرَتْ أَحْوَالُهُ) كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى) العلق ٦-٧ وقوله (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) البقرة ٢٠٦، وليس من حقكم أن تقيّدوا حريتي وتتدخلوا فيما لا يعينكم! إنها كلمة المغرور المتكبر وهذا زيادة في كفران النعمة والطغيان، فرد الله تعالى عليه (أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا) أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله (مِنَ الْقُرُونِ) من الأمم الماضية من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالا؟! والآية توبيخ له على غروره مع علمه بالتوراة التي تنهاه عن ذلك، وقبله نموذج مكرر في البشرية، فإن كان علمه التجاري الذي يغتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له، ولم يكن فضلاً وابتلاءً من الله لنجى الأمم الماضية من الهلاك، فلا يغتر بقوته وكثرة ماله فإن الله يمهله ولا يمهله، ثم يهلكه كما أهلكتهم بذنوبهم كقوله (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) آل عمران/٤ في غرر الحكم (أَعْظَمُ الدَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ ذَنْبٌ أَصْرَرَّ عَلَيْهِ عَامِلُهُ)

(وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) والله عليم بجرائم المجرمين، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم ماذا يعملون لهواهم عليه، وكل شيء محفوظ عنده من أقوالهم وأفعالهم، وكأنه شريط مجسّم من ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية، بل متى حقّ عليهم العذاب أهلكتهم بغتة وهم لا يشعرون.

فائدة: ١- قال قارون بغروره عن كنوزه (إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) ويقول الله تعالى (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ) إنها صورة النعمة فصارت عليه نقمة، راجع ذلك في الآية (٧٦) من هذه السورة، كقوله (وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) الأعراف/١٧٥-١٧٦، ملاحظة: إذا أحب الإنسان (الْمَالُ حُبًّا جَمًّا) الفجر/٢٠، فيجعله يعمي ويصم ويتكبر عن سماع أية موعظة، كقوله (أَقْمَنَ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨، فيأخذ ماله من الحرام وينفقه في الحرام، في غرر

الحكم: (مَنْ يَكْتَسِبْ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ يَصْرِفُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ) فيرى نفسه أكبر من حجمها، ويرى الناس صغاراً أذلاء، وأن الله يحبه أكثر من غيره، فقدم الله له الغنى وميزه عن الناس لأنه أفضل منهم، وهكذا يخدعه الشيطان ويضله كقوله (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣؛ وقوله (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩، ٢- (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) الذين يعتدون ويظلمون الناس ويفسدون ولا ينتهون، فهؤلاء يدخلون النار بلا حساب، وهم أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكيم ولا الأشهاد كقوله (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ) الرسائل/٣٦، أما سائر المجرمين غير المستكبرين فإنهم يعرضون للحساب، ٣- الإسلام يعترف بالملكية الفردية ويحترمها، كقوله (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ) النساء/٣٢، في غرر الحكم (شرُّ الأموالِ مَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ حَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ) بشرط أن تكون من وجوه الحلال وأن يستخرج منها حق الله الشرعي، وأن يملك المال ولا يملكه المال! ثم أشار تعالى أن قارون تمادى في كبريائه وغروره فقال تعالى:

٧٩- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

فخرج ذات يوم على بني إسرائيل متباهياً بإسرافه وترفه وتأخذه العزة بالاثم والإعجاب بالنفس، ويتظاهر بجنون العظمة! ويتفاخر في غناه وترفه وكبريائه وأبنته (في زينته) في زينة عظيمة غريبة مع أتباعه الكثيرين، متحلياً بملابس الحرير، ومزيناً بالذهب والأبهة العجيبة! في موكبه الحاشد الجامع وهذا التفاخر (من الصفات البغيضة الممقوتة) على خيول موشحة بالذهب ومعه الجواري والخدم والغلمان، في موكب حافل يعرض على الناس ثراه وكبريائه تحدياً للذين نصحوه ووعظوه، ونسي أو تناسى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل/٥٣، وقوله (الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ) إبراهيم/٢٨، (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) جرياً على السنن الطبيعية البشرية من الرغبة في السعة والرفاه والثراء والرخاء، الذي يثبت أن البلاء بالغنى أشد وأصعب من البلاء بالفقر، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوهُمَا بِأَنفُسِهِمْ) الرعد/١١ (والبلاء على قدر الطباع)!

عن الإمام الصادق (ع):

(غنى يحجزك عن الظلم، خير من فقر يملكك على الإثم) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ١٧، فلما رآه ضعفاء الإيمان الذين يحبون الدنيا، عن النبي (ص) (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ حَاطِيَّةٍ) البحار ٣٣ ص ٢٠، وهم الأكثرية الذين ينعقون مع كل ناعق (الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) الذين يأمنون مكر الله، ولا يحسبون حساباً للمخبة والمفاجأة وينسون مكر الله، ولا يخافون سوء العاقبة، هؤلاء الذين تخدعهم الدنيا بغرورها وأنفسهم بشهواتها، قالوا ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى والأبهة، ليغرقوا أيضاً في الشهوات والملاذات المحرمة (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) إنه لذو نصيب وافر من الدنيا، وحظ

سعيد في حياته، ولم يلتفتوا إلى الوسائل المحرمة الحسيسة التي اتخذها قارون في جمع ماله، فتمنوا لو كانوا مثله في الثراء والأبهة، ولم يتمنوا زوال نعمته، وهكذا تعظم الدنيا في عين طلابها ! كقوله (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الروم/٧، فائدة: إظهار العظمة والكبرياء والافتخار بالثراء من الصفات المذمومة، التي تفسد النفس وتحرف المجتمع وتقسّمه طبقات، وفي ذلك تنازعها وتحاذلها، وهذا تحذير، لنا أيما تحذير، فكثير مما يظهرون النعم ويدعون إلى الولايم المتنوعة للأعراس أو المآتم، لا يريدون بذلك إلا إظهار الثراء بسرف وبذخ وتفاجر بين عشيرته فيكون قارون زمانه، إنها سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة، هذا إظهار الكبرياء من خلال النعمة والثراء، وليس إظهاراً للنعمة بلا كبرياء، حامداً شاكراً لله لا مكائراً ولا مكابراً ولا مفاخرأً، والتحدّث بنعمة الله وأهمها نعمة الهدى والإيمان والاستقامة على منهج الله، والخلق الجميل في التعامل مع الناس، هو المظهر الحركي من الشكر العملي. كقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الضحى/١١، وقوله (ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَنْتَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) صحيح الترمذي ٢٥٩/١٠.

٨٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) وقال لهم العقلاء الفضلاء من أهل العلم والإيمان والاتزان والاستقامة، وهم الفئة الواعية القليلة النخبة من أصحاب موسى، ومن بينهم يوشع وهو من النقباء، هؤلاء لهم ميزان دقيق، غير ميزان أولئك الذين سأل لعابهم بالزينة وأغراهم الثراء، الذين يعرفون حقيقة الحياة الدنيا أنها متاع قليل مؤقت، وفي الآخرة نعيم دائم (وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) (وَيَلِكُمْ) كلمة زجر تستعمل للتهديد، أي ارتدعوا وانزجروا وتراجعوا عن مثل هذا الكلام، الذي ظاهره يَعْزُّ وَيَسِّرُ وَيُمِّرُ وباطنه يَضُرُّ، فكيف تفضّلون متاع الدنيا الزائل على ثواب الله الدائم؟، فإن الحياة ظاهرها الدنيا وهي دار امتحان، وباطنها عالم الآخرة، الذي فيه الجزاء والثواب لعباده المؤمنين الصالحين، وثواب الله في الآخرة خير وأفضل مما ترون من متاع الدنيا وتتمنون من حال قارون، هؤلاء عرفوا الحقيقة ونظروا إلى باطن الدنيا وعرفوا حقيقتها، حين نظر أهل الدنيا إلى ظاهرها، ويقولون ما عند الله خير أبقى مما عند قارون كقوله (وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) الزخرف/٣٢، (وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) ولا يعطى هذه الثقافة العلمية والشفافية الواعية، والمرتبة العليا في الآخرة (إِلَّا الصَّابِرُونَ) على فتنة الحياة وإغراءاتها وفتنها و(الصَّابِرُونَ) على طاعة الله، الملتزمون بالاستقامة على منهج الله سبحانه في كل الأحوال و(الصَّابِرُونَ) على الشهوات والملذات المحرمة، والمتورعون عند الشبهات و(الصَّابِرُونَ) عند الشدائد والمصائب.

و(الصَّابِرُونَ) عند انقلاب المقاييس والمعايير الصحيحة عند جماهير الناس، في غرر الحكم: (دَرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا دَوُّوَالْتَهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) فائدة: ١- قال تعالى عن أهل الدنيا (الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) في الآية السابقة، ولم يقل عن أهل الآخرة (الذين يريدون الحياة الآخرة) بل قال (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) لأن العبادات على قدر العلم، والإيمان على قدر العلم، والاستقامة على قدر العلم، ومعرفة فلسفة الحياة على قدر العلم، والعلم أساس كل شيء لأنه هو الحياة، ويدعم الحياة وينمّيها، حياة تتفجّر منها الحياة، واكتسبوا أنواع العلوم، تكسبكم أنواع الحياة، والنهضات الحضارية كقوله (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة/ ١١ وقوله (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ) الحج/ ٥٤ في غرر الحكم (الْعِلْمُ بَعِيرُ الْعَمَلِ وَبِئَالٍ ، وَالْعَمَلُ بَعِيرُ الْعِلْمِ ضَالٌّ) وعنه (ع) (ما رأيت نعمة موفورة إلا بجانبها حق مضيق)، ٢- (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ) إذا منعنا الإنسان أو (المجتمع) من شيء ما فيه ضرر عليه، فعلينا أن نفتح عليه بديلاً أفضل منه، قدر الإمكان.

٨١- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَأْمِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾

الخسف: الغور والاختفاء في داخل الأرض، أي فجعلنا الأرض تتزلزل وتتصدّع ويغور هو فيها وبداره وبكنوزه، فانتقم الله منه ومن كبريائه ومن أعوانه انتقاماً مادياً رأي العين، فابتلعت الأرض كل ما يملك كما يبتلع الحيوان فريسته! عن طريق المعجزة الخارقة جزاء طغيانه وغروره وكبريائه وضرره وبطره (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ما كان له أحد من الأنصار والأعوان على كثرتهم يدفعون عنه عذاب الله (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) ولا استطاع أن ينتصر لنفسه، وصار عبرة لمن يعتبر! (وأخسر الناس، من كان عبرة للناس) وبالتدبّر يحصل الاعتبار، وقعت الكارثة، وكان الجزاء من جنس العمل، وكانت العقوبة على قدر الطغيان والغرور، وكان أضعف من ذبابة أمام الصدمة، وكان عاجزاً لا ينصره أحد لا مال ينفعه ولا جاه وأعوان ينتصرون له، فأصابه الخذلان والحرمان والخسران من كل مكان كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/ ١٠٣-١٠٤ فكما رفع نفسه كبرياءً على عباد الله، أنزله الله أسفل السافلين، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستكبر فوقها كقوله (جَزَاءً وَفَاقًا، إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْبًا، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) النبا/ ٢٦-٣٠.

فائدة: (فَخَسَفْنَا..) ١- والخسف مفهوم عام وواسع الدلالة فهناك خسف مادي ومعنوي (عقلي أي الارتداد) وخسف فردي وجماعي، وخسف قليل وكثير، ظاهري وباطني، جزئي وكلي، فخسف الله به الأرض ظاهراً، وهناك خسف سري ومعنوي وصاحبه لا يشعر به، وهو حرمانه من رحمة الله ولطفه وردّه إلى حوله وقوته، وهو العمى والعمه عن رؤية الفضل، وعدم الشكر للإحسان، أو نخسف أنوار فطرته السليمة بظلمات ذنوبه القبيحة فلا يستذوق طعم الإيمان، وسنة الله جارية على كل ظالم ينتقم الله منه بالخسف، بأي شكل من أشكاله في دنياه قبل

آخرته بما يتناسب مع ظلمه، فإن أول صور العقوبة على الظالم المستحق للخسف الأولي، هي اللعنة على ألسنة الناس المظلومين وعلى مدى التاريخ، هو خسف معنوي.

والذي نعانيه الآن هو خسف جماعي، خسف الأمم، لا خسف الأفراد، وخسف الأمم أشد من خسف الأفراد! فإن بلاد المسلمين تغزوها الدول المستكبرة الغاصبة بمختلف أنواع الغزو وتكون البلاد والعباد ضحية مطامعها، وهذا خسف عام وشامل وخطير ومرير، وما ذاك إلا بجهل الأمة بدينها وعدم الاستقامة على منهج ربها، وغفلتها عما يُراد منها، وهي مختلفة متفرقة متنازعة، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) الأنعام/١٥٩، ٢- من مواقف قارون الخبيثة (مختصر): جاء موسى (ع) يوماً إلى قارون لطلب زكاة ماله، فانزعج قارون من موسى، وحرّض بني إسرائيل ضد موسى، وتآمر على اتهامه بالزنا، من امرأة فاحشة أغروها بالمال لتتهم موسى بالزنى منها، فمرة قام موسى خطيباً في بني إسرائيل ومن جملة قوله: أمرني ربي أن أرحم بالحجارة من زنى وهو محصن، فقالوا حتى لو كنت أنت الزاني فقال نعم، فجاؤوا بالزانية لتشهد ضد موسى، فقال لها موسى نشدتك الله إلا ما قلت الحق، فاهتزت المرأة لهذا القسم وكشفت عن المؤامرة!! فهوى موسى إلى السجود يشكر الله على تنزيهه وكشف الحقيقة للناس بسرعة، فغضب موسى على قارون ودعا عليه بالخسف. تفسير الأمل ج ٢ ص ٢٧٦، وتفسير روح البيان ج ٦ ص ٤٣٥.

٨٢- ﴿وَأَصْحَابُ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْتَطِئُونَ مِنَ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكْفُرُونَ﴾

وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب، بعد ما شاهدوا ما نزل به من الخسف الانتقامي الذليل، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال والشبهات، وخضعوا يحمدون الله (يَقُولُونَ وَيَكْفُرُونَ) وَيَسْتَطِئُونَ مِنَ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني، أي (وَيَكْفُرُونَ) اعجبوا أيها القوم من صنع الله، كيف أن الله (يَسْتَطِئُ) يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، لا لكرامته عليه ولا لنبوغه العلمي! (وَيَقْدِرُ) ويضيق الرزق على من يشاء لا لهوانه عليه! وإنما لحكمة ومصصلحة وابتلاء واختبار في الغنى والفقر، وعلى قاعدة الأسباب والمسببات كقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩ ولو كان الغنى دليل الرضى ما عاقب الله تعالى قارون هذا العقاب الشديد العنيف؟ (وَلَوْ سَئَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الشورى/٢٧، عن الإمام الحسن العسكري (ع): (لَا يَشْعَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ، عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨، (وَيَكْفُرُونَ) كلمتان (وي) (كأن) وهي كلمة تنبيه وتعجب ودهشة وانبهار عن الخطأ في حالة الندم، بمعنى ألم تعلم أو ويلك أعلم، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم الفادح في تمنيههم منزلة قارون، وندموا على فعلهم، وقالوا (لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) لولا أن الله لطف بنا ولم يستجب

دعاءنا ولم يُعطينا مثل ما كنا نتمناه (لِحَسْفَ بِنَا) كما خسف به ولكان مصيرنا مصير قارون بسوء العاقبة (وَيُكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) وي كأنه أي أعجب من فعل الله، الذي يكشف عن سنته الفعالة، حيث لا ينجح ولا يفلح مصير الكافرين لا في الدنيا ولا في الآخرة، قد يمهّل الله الكافر فيفلح وينجح ويثرى مؤقتاً باتخاذ الأسباب الصحيحة، ولكنه لا يفلح بالنتائج المرجوة دائمة النفع، ولا يحضى بحسن العاقبة لأن (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/٨٣، وقد يحيا الكافر في النعم الكثيرة وفي الرفاهية والغنى، ولكنه يبقى في فترة إمهال وفتنة واختبار واستدراج له كقوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) القلم/٤٤؛ فيكون حال الفقير المستقيم خير من غنى قارون وكنوزها، وفي نهج البلاغة (فكم من منقوص رابح، ومزيد خاسر.. والأمر بخواتيمها) التفسير المبين ص ٥١٩.

عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ فَسَّم بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا فَسَّم أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَن يَجِبُ وَمَن لَا يَجِبُ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَن يَجِبُ) المراغي ١٠١/٢٠، فائدة: ١- من كرامة الإنسان على الله أن لا يستجيب له لكل دعاء وأمنية، وذلك لصالح الإنسان، كما في دعاء الافتتاح (ولعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور) ولو استجاب الله لأمنية هؤلاء لاستحقوا الحسف مع قارون، عن النبي (ص) (المرء مع من أحب) كثر العمال خير ٢٤٦٨٤، فاعرف طرق نجاتك وهلاكك! كيلا تدعو الله بشيء منه هلاكك وأنت تظن فيه نجاتك، كقوله (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) الإسراء/١١، في نهج البلاغة خطبة ١٥٠ (فَكَمْ مِنْ مُسْتَعِجِلٍ بِمَا إِنَّ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يَدْرِكْهُ) ٢- قارون لم يجهر بكلمة الكفر، ولكنه مات كافراً، ولسان حاله أصدق من لسان مقاله! في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (السعيد من وعظ بغيره).

٨٣- ﴿تِلْكَ الدَّامِرُ الْآخِرَةُ بَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ فسادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(تلك) لبيان عظمة (الدائر الآخرة) والإشارة إلى كمال منزلتها، وتفخيم مكانتها، لذلك جاءت الإشارة إليها بلفظ البعيد

(تلك) للدلالة على شرفها وبهايتها كقوله (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الأعلى/١٧، (ولا عيش إلا عيش الآخرة) المعنى: (تلك الدائر الآخرة) العالية الرتبة الرفيعة المنزلة والخالدة في الرفاهية (بجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) نجعلها للنفوس الرفيعة، والقلوب السليمة الخالية من التعلق بحب الدنيا، والمتعلقة بحب الله كقوله (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) الشعراء/٨٨-٨٩ في نهج البلاغة خطبة ١٩٣ (عظم الخالق في أنفسهم فصعّر ما دونه في أعينهم) ومن صفات هؤلاء أن تأمل خيرهم وتأمّن شرهم (لا يريدون علواً) لا يريدون تكبراً ولا يخطر ببالهم التعالي والطغيان، ولا الظلم والعدوان، ولا التحكم بالناس ولا الفساد في البلاد والعباد، ولا بأية معصية أخرى، وحالهم التواضع والصلاح وحسن الخلق في الحياة الدنيا (وَالْعَاقِبَةُ

لِلْمُتَّقِينَ) والخاتمة المحمودة في الدنيا والآخرة، للذين يخشون الله ويراقبونه، ويتبعون رضوانه ويحذرون عقابه، فائدة: تشير الآية إلى الذين يريدون العلو في الأرض والفساد، ليس لهم في الآخرة نصيب، وهذه الآية كالبيان الختامي لقصة قارون، وهي قانون عام متحرك يعرض كل البشرية في الحياة، من تكبر على غيره بلباس يعجبه، ومن يفتخر على الناس بمنزل يسكنه، أو سلطة يفتخر بها وغير ذلك، فهؤلاء مصداق من يريد علواً في الأرض، والذي يريد علواً في الأرض، يريد فساداً بمعناه العام، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ) وهنا قرن منازل الآخرة الرفيعة بعدم حبّ التعالي والتكبر على الناس، وعدم الفساد في الأرض بأية نسبة كانت، وهما أساس لجميع الذنوب، ومن صفات أهل الآخرة التواضع لله كقوله (أَدِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) المائدة/٥٤، وعن النبي (ص) (مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ) كنز العمال خبر ٥٧٣٧، من الخطر الكبير إثارة الدنيا على الآخرة كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) البقرة/٨٦ في غرر الحكم (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) وفيه أيضاً (مَنْ جَعَلَ مَلِكُهُ خَادِماً لِذِيهِ إِتْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ خَادِماً لِمَلِكِهِ طَمَعٌ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ) وعن النبي (ص) (مَنْ مَنَعَ مَالَهُ مِنَ الْأَخْيَارِ إِخْتِيَاراً، صَرَفَ اللَّهُ مَالَهُ إِلَى الْأَشْرَارِ إِضْطِرَّاراً) البحار ٩٦ ص ١٣١ (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِآخِرَتِهِ) البحار ٧٣ ص ٨١. وعنه (ص) (وَيَلِ لَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالذِّينِ) كنز العمال خبر ٢٩٠٩١.

٨٤- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات النافعة، التي يستحسنها عقل الإنسان السوي، وبأية نسبة ومقدار كانت، وبأي شكل أو حجم أو نوع. (فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) ذاتاً وقدرًا ووصفًا، فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة بفضل من الله ورحمته، ويُشجّع على فعلها كقوله (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام/١٦٠ (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ومن جاء يوم القيامة بالسّيئات، التي تسوء عقل الإنسان (دافعها الهوى) بأية نسبة ومقدار كانت، وبأي شكل أو نوع فلا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا، ولا يضاعف عليهم السيئات، والسيئات ضد الحسنات، وفي هذا كمال العدل والتكريم والرحمة، حيث تتجسّد أعمالهم السيئة أمامهم، لتبقى معهم تعدّ بهم وتؤذيهم، وهذا تشجيع للاستغفار والتوبة منها. في الحديث (الْحَسَنَةُ عَشْرٌ وَأَزِيدُ، وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ أَوْ عَفْوٌ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارُهُ) مجمع البيان ٢٢٦/٤، يريد السيئة بوحدة والحسنة بعشرة! قال تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) هود/١١٤ وهناك سيئات يذهبن بالحسنات، ورتب سيئة كبيرة واحدة

ماحقة كالإلحاد والشرك والعدوان على العباد، تمحو آلاف الحسنات دفعة واحدة كقوله (لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ) الزمر/٦٥ وقوله (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) الفرقان/٢٣، فائدة: ١-الحسنة: اسم جنس عام المعنى، يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، وما يستحسنها عقول الفضلاء وفطرتهم، والسيئة: اسم جنس عام المعنى، وتشمل كل النواهي والمحرمات الشرعية والعقلية والعرفية، وما تسوء عقول الفضلاء وتلوّث فطرتهم، ٢-(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) وقد أفرد الضمير من مقام الحسنة والإحسان لأنهم القلة، حيث تحتلف منازل المحسنين فيما يجزون به على إحسانهم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، والله يضاعف لمن يشاء، فهذا مقام الفضل (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) أما أهل السيئة، هم أهل السوء والسيئات، فيكونون على حال واحدة، السيئة بمثلها في مقام العدل، ولذا جُمع ضمير أهل السوء (عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ) لأنهم الكثرة.

٨٥- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

الخطاب موجه للنبي (ص) وهو في أثناء هجرته من مكة إلى المدينة حيث يطارده الأعداء، وقد فرض أي أوجب الله عليك القرآن، وكلّفك بتلاوته وتعلّمه وتعليمه، وتبليغه للعالمين، والعمل بما فيه ودعوة الناس إليه، إنه (فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) ليكون حجة على الناس أجمعين، ودستور حياتهم، وينصرك في الموعد المناسب الذي قدره، وفي الوقت الملائم الذي فرضه، وكل آت قريب، كقوله (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) الرعد/٣٨، إنك اليوم تُخرج من مكة مطراداً، وغداً لناظره قريب، لتعود إليها ظافراً منتصراً، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبَ) (لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) لرادك إلى مرجع عظيم القدر والشأن، وهو فتح مكة، وهو بشارة لإظهار عز الإسلام وإذلال المشركين، وهذا من الإخبار بالغيب.

(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ) قل يا مُجِدِّ رَبِّي أعلم بمن جاء بنعمة الهداية ونورها وفوائدها، وأعلم بالمهتدي مني ومنكم، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن تكون له الغلبة والنصرة والتمكين في الأرض (وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وما يستحقّه من القهر والإذلال والعذاب المهين، والله هو المجازي الحق والمبطل، والضال والمهتدي، وسوف تعلمون لمن عقبى الدار، هو إلفات نظر إلى هذا القرآن العظيم الذي من اتّبعه اهتدى وعلم ورشد، ومن خالفه ضلّ وعمى وغوى كقوله (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨. فائدة: ١- دلت الآية على أن الله تعالى يفتح على المهتدي ويقهر المعاند الضال، في ظروف مناسبة، ومن صبر ظفر وإن طال به الزمان، ولكل شدة رخاء، ولكل عسر يسر كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح/٥-٦، فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس من روح الله، وعليه أن يصبر ويتقي كقوله (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦.

٢- (وجه العلاقة بين فرض القرآن والمعاد) وفي تنكير (معاد) إشارة إلى عظمة هذه العودة، وتأكيد تحقيقها بوعده غير مكذوب، ومعنى المعاد: العودة، هو اسم زمان أو مكان ومعناه من العود والفاعلية والتأثير، وهو المرجع العظيم العالي الشأن، وهذا له أفق واسع ممدود في مخزن المعاني، وكأنما القرآن يكشف عن سنة تاريخية حركية مؤكدة فعالة ومؤثرة باستمرار، (إِلَى مَعَادٍ) أي سوف يعود الله عليك بالنصر ويحقق لك الوعد بالظفر، كقوله (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) المزمّل/٨، ويفتح عليك مكة في يوم الفتح الكبير، وهنا فلسفة العلاقة بين حكم القرآن، وحركية الفتح وواقعية المعاد، بمعنى: أن الله وعد المؤمنين بالنصر في هذا القرآن كقوله (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) الروم/٤٧، وقوله (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ) الحج/٤٠ فالذي فرض وأوجب عليك وعلى المسلمين التمسك بالقرآن (لِرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) هو الذي يحقق لكم وعده الصادق، ويعود عليكم بالنصر الغالب على أعدائه، بمقدار تمسك المسلمين بالقرآن، والعمل به كدستور حياة، يعود الله عليهم بالعزة والغلبة والقدرة والقوة والهيبة، بنفس نسبة التمسك ومقدارها كقوله (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) آل عمران/١٢٦، وقوله (وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) الروم/٦، وهذه الحالة الدقيقة لا يعلم بها ولا يقدر نسبتها إلا الله عز وجل كقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) النبا/٢٩، لذلك جاء قوله (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ومن هذا الإيحاء القرآني الحركي الدقيق للآية الكريمة، تتوضح العلاقة بين القرآن والوعد بالمعاد، كقوله:

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) الروم/٦٠ والآية ذات دلالة عامة مفتوحة في العلاقة ما بين فرض القرآن والوعد الصادق بالمعاد، وغير محددة بفتح مكة، وإن نزلت في خصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وسعة الدلالة، فبمقدار ما يتمسك المجتمع المسلم بالقرآن كدستور حياتهم ومنهج لسعادتهم، بنفس المقدار يتحقق الوعد ويعود الله عليهم بالنصر والعزة والقدرة والحضارة، وبمقدار تحلّيتهم عن القرآن كمنهج حياة، يعود عليهم الواقع بالخذلان والضعف والذل والخسران كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤، ٣- سبب النزول: روي أنه لما خرج رسول الله (ص) مهاجراً من مكة إلى المدينة، اشتاق إلى مكة وظهر آثار الشوق على وجهه الكريم مع الحزن في قلبه من فراقها مكرهاً، فأنزل الله إليه جبرائيل بهذه الآية. ٤- (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) إِنَّ الَّذِي أَوْجَبَ وَيَسَّرَ عَلَيْكَ تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ، هَذَا الدِّسْتُورِ الْعَظِيمِ، خِلَاصَةُ رِسَالَاتِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، لِيَكُونَ حِجَّةً عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ كَقَوْلِهِ (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩، وقوله (لَقَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ أَحْتَجُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَزَّفَهُمْ) الكافي/١٦٣ (لِرَادُّكَ إِلَى

مَعَادٍ) قادر أن يرجعك إلى ما وعدك بنصرة هذا الدين القيم (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) التوبة/٤٠، وقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥، ويكون القرآن دستور حياة كقوله (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكويد/٢٧، وقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) التوبة/٣٢ وقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣.

٨٦- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ﴾

وما كنت تأمل أو تتوقع أو تطمح فيما مضى أن تنال النبوة، ولا أن يوحي الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن الكريم عليك، ولكنه أنزل إليك ليرحمك الله بذلك ويرحم العباد بعبثتك، لتخرجهم من ظلمات الغواية إلى نور الهداية كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، (إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) وهذا استثناء منقطع والمعنى إلا أن ربك رحمك فأنزل القرآن عليك كقوله (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) الإسراء/٨٧ (فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ) ومن موجبات هذه الرحمة ودوامها كن معيناً للمؤمنين، ولا تكونن (ظاهراً) معيناً للكافرين، بمداراتهم ومساعدتهم على ضلالهم، والإجابة لطلباتهم ولكن خالفهم، والخطاب بهذا وأمثاله للنبي (ص) والمراد أمته، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ نَبِيَّهُ بِآيَاتِكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ) البحار ٣٨١/٩٢، لئلا يكونوا عوناً للكافرين ولا يداهنوهم (وَدُّوا لَوْ تَدَاهَنُوا فَيُدْهِنُونَ) القلم/٩ ولا يوافقوهم على ضلالهم، فلا تناصر ولا تعاون بين المؤمنين والكافرين، لأن منهجهما مختلفان متضادان أولئك حزب الله، وهؤلاء حزب الشيطان، وبينهما اختلاف وتضاد فلا يلتقيان ليتعاونوا، وعلام وفيهم ولماذا يتعاونون؟! كقوله (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) الأحزاب/٤، وهكذا قالها موسى (ع) (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ) القصص/١٧ عن النبي (ص) (جَامِلُوا الْأَشْرَارَ بِأَخْلَاقِكُمْ تَسَلَّمُوا مِنْ غَوَائِلِهِمْ ، وَبَابِيئُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ كَيْلًا تَكُونُوا مِنْهُمْ) بحار الأنوار ٧٤ص ١٩٩، وعن الإمام علي (ع) (خَالِطُوا النَّاسَ بِأَبْدَانِكُمْ وَزَائِلُوهُمْ خَالَفُوهُمْ) (خالفوهم) بِقُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) البحار ٧٩/٢، وعنه (ع) (أكبر الأوزار تركية الأشرار).

٨٧- ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

لقد نهي الله الإعراض عن آيات القرآن الكريم، ولو لاقى الأذى بسببه أي، (وَلَا يَصُدُّكَ) لا يصرفتك ولا يمنعك الكافرون يا محمد بأساليبهم الشيطانية الماكرة، ولا تتركن إلى قولهم فيصدوك (عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ) ولا يمنعك أي مانع عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات، وتبليغها للناس والعمل بها، فإن ربك الله معك ومدبر أمرك وربك ورعاك وناصرك عليهم، في الوقت المناسب (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ) أمر الله تعالى نبيه الكريم أن تكون الدعوى إلى ربك، منتهى قصدك وغاية عملك، فلا ينشيه شيئاً عن الدعوة لدينه وإعلاء كلمة الله، لأهميتها الكبرى في تحقيق سنن الله، وتحقيق إرادة الله سبحانه على الأرض، وادع الناس إلى منهج ربك القيم المستقيم

بوضوح، فإن فيه السلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، دعوة رسالية خالصة واضحة مؤثرة لا غموض فيها، دعوة لله عز وجل لا لقومية ولا لعصبية ولا لمغنم ولا لمصالح شخصية كقوله (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) النمل/٩١، (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) بمسايرتهم على أهوائهم ومساعدتهم في طريقتهم والرضا عنهم، فإن من رضي بفعل قوم كان منهم، وأشرك في عملهم، عن النبي (ص) (المرء مع من أحب) البحار ٦٨ ص ٧٠ وإن كان الخطاب للنبي، ولكن أريد له عموم المعنى، ليكون درساً لكافة الناس، عن الإمام الصادق (ع) (نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ) الكافي ٢/٦٣١، فإذا كان النبي مُجَدِّدٌ (ص) الموحد لله يؤكد الله عليه أن (لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فكيف بغيره من المؤمنين؟ تأكيد عليهم بالالتزام بالأمر الأهم على الدوام، في غرر الحكم (من اشتغل بغير المهم ضيَّع الأهم) سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك، فقال (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي ٢/٣٩٧.

٨٨- ﴿وَمَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الآية دعوة إلى التوحيد الخالص، والتوحيد العلمي، والتوحيد العملي، والتوحيد أساس الدين، بل أساس جميع الأديان، والتوحيد: الصفحة المشرفة المشرفة لفهم فلسفة الحياة، والتوحيد بذاته حياة، ولغيره حياة، حياة نامية تتفجر منها الحياة، حياة دائمة زاكية باقية، حياة تستدوق منها طعم الحياة، كقوله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُجَدِّدٌ ١٩، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ، وَالذِّكْرُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ) ومن بحث عن الله وجدته عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧ ص ٩٥، المعنى: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) ولا تعبد إلهاً سوى الله، أخلص الله الدين كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣ ولا تطلب حاجتك إلا منه (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) لأنه لا معبود بحق، ولا أحد يستحق العبادة إلا الله تعالى في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ) من قَصَرَ عن أصول العبودية أعيد إلى الرِّق! على قدر العبودية تكون المنزلة، كقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) الإسراء/٢٢، (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ذكر الوجه، وأراد ذات الله تعالى، وهو كناية تقريبيه عن معرفة الله سبحانه، لتدركها عقول الناس، في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) وهو من باب المجاز، كل شيء يفنى: المال والجاه والسلطان والقوة والجمال والحياة والمتاع..

(إِلَّا وَجْهَهُ) ذاته وجوده سبحانه، لأنه ليس لله وجه، وليس له جسم، وليس له حد إذ لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، وقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، وتبقى ذاته المقدسة، فإنها أزلية أبدية سرمدية متفردة بالبقاء، واجبة الوجود، وكل شيء صدر منها ثم يعود إليها، (أو) بمعنى كل شيء هالك ولا قيمة له إلا ما قصد به (وجه الله) فإن ذلك يبقى ثوابه كقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) الكهف/٤٦ فعبر بالوجه عن ذات الله تعالى، لأن الوجه عند الإنسان هو الصورة الخاصة المميزة المثلى الذي يفرزه عن غيره، كقوله (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) الرحمن/٢٦-٢٧

(لَهُ الْحُكْمُ) له القضاء النافذ في الخلق و(لَهُ الْحُكْمُ) المطلق في كل شيء، في الأمور التكوينية والتشريعية كقوله (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) الكهف/٢٦ وقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد/٤١ (وَالِيهِ تُرْجَعُونَ)، وإليه تردون يوم القيامة جميعاً لا إلى أحد سواه، للحساب والجزاء، ولا مفر من قضائه، ولا ملجأ منه إلا إليه كقوله (وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢.

فائدة: ١- (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) فلا إسلام إلا لله، ولا عبودية إلا له، ولا قوة إلا قوته، ولا ملاذ إلا حماه، كقوله (وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الأنعام/٧١، المؤمنون لهم دينهم الحق، وغيرهم لهم دينهم عن هوى، فلا رابطة تجمعهم إن لم يجمعهم دين الله، فإذا سلم للإنسان دينه، وخسر كل شيء، فهو الذي ربح كل شيء، ولم يخسر أي شيء، لأن كل شيء هالك وإلى زوال، والله المتفرد بالبقاء، عن الإمام علي (ع) (لا حياة إلا بالدين، ولا موت إلا بحدود اليقين) الارشاد للمفيد ص ١٥٧، فالذين كانوا على ولاء واتباع مع الله يدخلون في ظل رحمة هذا الولاء كقوله (سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) التوبة/٩٩، فيجدون الوفاء والعتاء والنماء والانتماء، والذين خرجوا عن منهج الله يظلون في العراء مكشوفين تتخطفهم الشياطين، بعيدين عن هذا الظل الكريم الرحيم الحافظ، ٢- (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ٨٧- (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) يؤكد هذه القاعدة (التوحيد) مرتين لأنها الحصن الحصين الأساس المتين الأمين المنيع، الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية كلها، وهي المحور الذي يدور عليه كل توجيه أخلاقي، وكل تشريع عبادي، وكل حكم رباني، ومن ثم تُذكر قبل كل توجيه، وقبل كل تشريع، لأهميتها البالغة.

وآخر دعوانا ﴿أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس/١٠

وفي الختام نقول: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ق/٣٧ تم بعون الله (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبَيَّنِّ) لسورة القصص، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل، فالله الحمد والمنة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٩/١٠/٢٠١٨م الموافق ٢٦/شوال/١٤٣٩هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة:

مكية، موضوعها العقيدة (التوحيد، الرسالة، النبوة، البعث والجزاء) محور السورة الكريمة يدور حول الإيمان وسنة الابتلاء بشكل مفصل، وخاصة في قصص الأنبياء ومحتهم مع أقوامهم، وتبحث صدق رسالة النبي محمد (ص)، فهو رجل أُمي لم يقرأ ولم يكتب، ثم جاءهم بهذا القرآن المعجز بذاته، والمعجز بعطائه، والمعجز بتأثيره! سميت سورة العنكبوت لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للآلهة المزعومة، وشبهه بيت الشرك والطغيان مهما طغى ببيت العنكبوت، أو هن البيوت. رقمها ٢٩، عدد آياتها ٦٩، الجزء العشرون (فضلها) عن النبي (ص) (من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد كل المؤمنين والمنافقين) نور الثقلين ٤ ص ١٤٧، ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿١﴾

تقرأ ألف، لأم، ميم، الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن (يراجع أول سورة البقرة) وجاءت هذه الحروف للتنبية وطلب إصغاء السامعين إلى ما يلقي بعدها، كقول القائل إسمع أو انتبه أو ألق بالك إليّ، فتكون هذه الحروف كالمنبهات، لا يفهم منها معنى خاص، لتكون أتم في إفادة التنبية، كالذي يسمع صوتاً لا معنى له، توقع بأن هناك كلاماً آخر سيرد بعده فيصغي إليه، وقيل إنها من إعجاز القرآن حيث إنه مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه، من الفصاحة والبلاغة والعلوم المتنوعة.

٢-٣- ﴿٣﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُسْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الكَافِرِينَ ﴿٤﴾

الآية ظاهراً أنيق وباطنها عميق، وتكشف عن نظام السنن الإنسانية في حقيقة الابتلاء والحن، وضرورة الافتتان والامتحان، لذلك فهي تصحيح لمفهوم المحنة لما يقع في بعض النفوس المؤمنة، من انزعاجات وهموم بسبب الإيمان بالله في بيئات موبوءة في الضلال والفساد، فيكون الإيمان غالي الثمن باهظ التكليف، وأن الاستقامة على الطريقة الصالحة كثيرة العقبات والمعاناة، إنه الطريق إلى الجنة، وطريق الجنة محفوف بالمكاره، وطريق النار محفوف بالشهوات المحرمة، فالؤمنون الصادقون يحتملون الشدائد والحن ويثبتون على الإيمان كقوله (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي

سَبِيلَ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا) آل عمران/١٤٦، لا يفتنون: لا يبتلون ولا يمتحنون بالشدة والرخاء، والفقر والغنى، والخير والشر، المعنى: الاستفهام للإنكار والنفي، أي أحسب: أظن الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم، (أَنْ يُتْرَكُوا) ويهملوا في حياتهم سدى بدون رقابة، كقوله (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) القيامة/٣٦ (أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا) مجرد قولهم باللسان آمنا، وبالتقليد والجهالة والنفاق (وإدعاء الإيمان سهل على اللسان، صعب في الامتحان) فيدعون الإيمان وينالون منازل المؤمنين، هذا هو الإيمان الظاهري بالادعاء، والقول الخالي من المصدق (وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) من غير امتحان واختبار، ويسلموا من كل مكروه وامتحان؟!، لا ليس كما ظنوا بل لا بد من امتحانهم وابتلائهم حتى تظهر به حقيقة إيمانهم، ويتميز المؤمن من المنافق كقوله (مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران /١٧٩، وقوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) الأنبياء/٣٥، وحتى يظهر الراسخ في الدين من المتزلزل فيه، ويظهر كل إنسان معدنه الحقيقي، ونجazy كلاً بحسب عمله ونيته.

٣- (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وأقسم إننا قد امتحنا واختبرنا الذين من سبقهم، بأنواع المصائب والحن وفي الثراء والترف، في الشدة والرخاء، فهي سنة جارية بشرية قديمة مستمرة في ميزان الله، في الأمم كلها مؤمنهم وكافرهم (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) فليميزن الله بين الصادقين في دعوى الإيمان، وثبتوا على الاستقامة في الثراء والغنى، وتحملوا الشدائد والمعاناة كقوله (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) إبراهيم/٢٧، وبين الكاذبين في ادعاء الإيمان الذين لم يثبتوا صحة دعواهم، وليظهر علم الله فيهم عملياً من خلال حركة الواقع، ويكون الجزاء من جنس العمل.

فائدة: ١- ليس الإيمان قول بلا عمل، وادعاء بلا حقيقة، ومظهر بلا جوهر، ليس الإيمان كلمة ترددها الألسن ولا تعيها القلوب، بل الإيمان عمل صالح يسبق القول السديد، ولا يختلف القول عن العمل، والعمل مطابق للقول، عن الإمام الصادق (ع) (الإِيمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضُ ذَلِكَ الْعَمَلِ) البحار ٦٩ ص ٢٣ ويأتي البلاء ليجلي معادن الناس، وليظهر حقيقتها وأصلتها، حتى يتميز الكاذب من الصادق، فكما أن الذهب الغالي والعزير والنفيس، يسلب عليه النار ليظهر مقدار نقاوته، كذلك الناس مكرمون عند الله فتسلط عليهم الفتن لتظهر حقيقة معادهم المخبوءة، ويتبين هل الادعاء مطابق للحقيقة، كقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) آل عمران/١٥٤ باعتبار الناس معادن مختلفة كمعادن الذهب والفضة والنحاس..، فهناك فتن كثيرة في صور شتى، فتن للفرد وفتن للمجتمع، والبلاء لا يخص المؤمنين وأما هو سنة الله القديمة والدائمة في الناس أجمعين للفرد والمجتمع كقوله (فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) فاطر/٤٣، فأصبحت الفتن المتنوعة (في الشدة والرخاء) ضرورية في حياة الناس، ٢- (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ)

يعلم الله حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع للناس، ما هو مكشوف في علم الله مُعَيَّب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم، لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وترتبة للناس من جانب كقوله (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧، وقوله (وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) مُجَد/٤، وقوله (وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ) المائدة/٤٨-٣ - أسباب النزول: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا كانوا بمكة، وكان الكفار يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك ويجزعون، فتدركهم الله بالتسليية العلمية التي تكون سكينه في القلب، بمعرفة فلسفة البلاء في هذه الآية، فهي وإن نزلت في خصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وسعة الدلالة ٤- الإيمان شكل ومضمون، وقول عمل، وإدعاء وحقيقة، فلا يكفي أن يقول الناس آمنا بلا مصداق، بل لابد أن يكون مع هذا القول امتحان وتجارب، والتجارب وحدها تثبت الإيمان أو تنفيه، ٥- وحاشاه الله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة.

ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، والتأهل للخلافة كقوله (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) البقرة/٣٠، فالمؤمنون بحاجة إلى تربية خاصة وإعداد مميز لا يتم إلا بالمعانة العملية وتحمل للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات والذات المحرمة، وإلا بالصبر الحقيقي على معاناة الهموم والآلام، على الرغم من طول الفتنة وشدة المحنة، كقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) البلد/٤، والنفس تطهرها الشدائد والمشاكل فتتنفي عنها الخبث، كقوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) القمان/١٧، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتنتبه فيشتد عودها، فلا يبقى صامداً ومستقيماً وثابتاً على الحق، إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعةً وأشدّها إيماناً واتصلاً بالله، فيصوغ البلاء الإنسان صياغة كمالية جمالية، فيكون البلاء للإنسان كالملاح للطعام، كما أن الملح يصلح الطعام، كذلك البلاء يصلح الإنسان ويقويه، (قيل): فِي الْمِحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكْرَارٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٌ وَخَبْرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هَيَاةٌ، وَفِي الْعُقُوبَاتِ يِقْظَاتُ الضَّمِيرِ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَا تُهَيِّئُهَا الْكِرَامَاتُ ! عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار ٣٧٤/٧٨، عن الإمام الصادق (ع): (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهِ مَشِيئَةٌ وَقَضَاءٌ وَإِبْتِلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤ عن الإمام علي (ع) (فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمٌ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ، وَالْأَيَامِ تَوْضِحٌ لِكَ السَّرَائِرِ الْكَامِنَةِ) البحار ٢٨٦/٧٧، ٦- وبعض الابتلاء يأتي من الذنوب وما تحنيه يد الإنسان من تجاوزات كقوله (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/٣٠ وقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، تدل هذه الآية بوضوح: أن الظلم والبؤس والضعف والتأخر والانحطاط والتخلف.. إلخ هي من أسباب الأنظمة الفاسدة

الجائرة، ومن النفوس الطاغية المتنفذة، ومن الطباع الغليظة والقلوب القاسية، وليست هذه من صنع الله الحاكم العادل، ولا من شريعته السهلة السمحة. حتى يتحقق القول أن (البلاء على قَدْرِ الطَّبَاعِ) فهو كمناسبة قاعدة وقانون عام يشمل الفرد والمجتمع، فكلما قسى الطبع اشتدَّ البلاء، وكلما شَفَّ وَنَعِمَ الطبع خَفَّ البلاء! في غرر الحكم: (بِئْدَلِ الرَّحْمَةِ تُسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ)، ٧-شدة بلاء المؤمن لشدة مسؤوليته: كقوله (مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ قَرِيبٍ) البقرة/٢١٤ عن الإمام الصادق (ع) (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا مِثْلَ) الكافي/٢/٢٥٢ عن النبي (ص): (الْمُؤْمِنُ بَيْنَ حَمْسِ شَدَائِدٍ: مُؤْمِنٌ يَحْسُدُهُ، وَمُنَافِقٌ يَبْغِضُهُ، وَكَافِرٌ يُفَاتِلُهُ، وَنَفْسٌ تُنَارِعُهُ، وَشَيْطَانٌ يُضِلُّهُ) كثر العمال خير ٨٠٩، عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُبْتَلَى بِكُلِّ بَلِيَّةٍ، وَيَمُوتُ بِكُلِّ مِيتَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ) فروع الكافي/٣/١١٢ في غرر الحكم (إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ سَبَحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ الْبَلَاءَ فَقَدْ أَيْقَظَكَ، إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ سَبَحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ النِّعَمَ مَعَ الْمُعَاصِي فَهُوَ اسْتِدْرَاجٌ لَكَ) فَاحْذَرُهُ.

وعنه (ع) (في وصف المؤمن، أنه لا يتغير في الشدة ولا في الرخاء) (نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كما نزلت في الرخاء) البحار/٧٨ص٢٣، في غرر الحكم (أكبرُ البلاءِ فُقرُ النَّفْسِ) وعنه (ع) (عندَ تَناهِي البلاءِ يَكُونُ الفُرْجُ) البحار/٧٨ص١٢، عن النبي (ص) (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرِجَالًا الْإِيمَانُ أَتْبَثَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي) جمع البيان/٣/١٤٤.

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ سَبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

يسبقوننا: يعجزونا ويفوتونا فلا نقدر أن نجزيهم بذنوبهم الكثيرة، المعنى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) بل أیظن المجرمون الذين يرتكبون أنواع المعاصي والموبقات، ويفتنون المؤمنين ويصدونهم عن سبيل الله بشتى طرق الترغيب والترهيب والتضليل.. أیظن أولئك (أَنْ يَسْبِقُونَا) يفوتونا أو يفلتوا من قبضتنا ونغفل عن إحصاء أعمالهم المتعددة فنعجز عن الانتقام منهم بما يمحرون ويتآمرون ويحتالون بأنواع الفتن وخلق المشاكل والعقبات، أیظن أنهم (يَسْبِقُونَا) لمجرد أننا أمهلناهم ولم تتسرع في عقابهم؟! (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) قبح حكمهم، وضاق تفكيرهم، بئس ما يظنون بجهلهم وغرورهم، لإنكارهم قدرة الله الغالبة وإحاطته الشاملة، وحكمته النافذة، كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم، ومنع لهم عن سبيل السعادة، فإنه حكم جائر على أنفسهم بإنكار قدرة الله القاهرة وحكمته الباهرة، فكما جعل الله تعالى الابتلاء سنة جارية، كذلك جعل أخذ السيئين سنة جارية، لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير، كقوله (إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) هود/١٠٢، فائدة: كل إنسان الذي يعمل السيئات يبتعد عن الله، بقدر تلك السيئات والمخالفات، والذي يبتعد عن الله يعيش حالة الضلال والضياع بنفس مقدار حالة الابتعاد عن الله، وأشارت هذه الآية إلى حالة من حالات هذا الضياع هو الشعور بالوهم، بأن

كثرة الذنوب المرتكبة من أعداد كثيرة من المذنبين، فإنها تُعجز الله أن يحصيها عليهم، فلا يستطيع الله أن يحاسبهم جميعهم على كل ذنب! مع كثرتها وتنوعها، وهم لا يعلمون أن عدسة كاميرة الله الخفية، تصوّروهم بتفصيلات حياتهم، بكل حركاتهم وسكناتهم، صورة مُجسّمة من ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية! وهم غاب عنهم قوله (أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) البقرة/٧٧ وقوله (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق/١٨ وقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) آل عمران/٥ وقوله (وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) الجن/٢٨، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، عن الإمام علي (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن/٧/٣٠٠، وهكذا تتلبس على هؤلاء المقاييس الصحيحة، والمعايير الدقيقة، فيسلب الله منهم حالة الاطمئنان، وإن عاشوا الرفاه الاقتصادي، واطمئنان الروح أهم من راحة الجسد كقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧. وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣.

٥- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يرجو: يجب ويأمل ويطمع ويتوقع، أي من صدّق بالآخرة وآمن بها وعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيب أمله، ومن سار على الدرب وصل، المعنى: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ) من كان يأمل ثواب الله وجزاءه، ويقصد طاعته وحبه سبحانه، ويعمل لرضاه ويخاف عقابه، فليصبر في الدنيا على الاستقامة، ومجاهدة نفسه الأمانة بالسوء باستمرار في طاعة الله، حتى يلقي الله فيجازيه خير الجزاء يوم القيامة (فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) فإن وقت لقاء الله قريب الايتان مؤكّد الحصول، لا شك فيه، وكل ما هو آت قريب، وأنه (لَآتٍ) لقادم لا شك فيه، في الوقت المحدد له عند الله، ومتى حان الوقت تحقق الوعد، كقوله (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) المزمل/١٨، إذا كان الموت في إقبال والعمر في إدبار فسرعان الملتقى، كقوله (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) الرعد/٣٨، (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (السَّمِيعُ) لأقوال الناس (الْعَلِيمُ) بأحوالهم كلها، ويجازي كل إنسان بما يستحق، فليأخذ المؤمن حذرّه، وليؤمن حق الإيمان، الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيداء كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) آل عمران/١٠٢، والتعبير القرآني يصوّر هذه القلوب المتطلّعة إلى لقاء الله، صورة يقينية شفافة راجية مشتاقة ومتعلّقة هنالك في عالم المفاجأة والمخبّأة، كقوله (يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩، لأن الرجاء والخوف متلازمان ومتعادلان في قلب المؤمن، تشير الآية إلى التفكير بالخاتمة، والاستعداد لحسن العاقبة، فمن قضى عمره في رجاء لقاء الله، وحسّن الوقوف بين يديه سبحانه، والحرص على رضاه، فسوف يكرمه الله التمتع بجماله ومقامه وجنانه (والذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ) ولا يعرف كيف يستذوق هذا اللقاء! ولا يعلم فلسفة الحياة، ولا يعلم أن هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود.

٦- ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

المجاهدة: استفرغ الجهد وبذل الطاقة لدفع الضر، وجلب الخير في أمور الدنيا والآخرة، جاهد: بَدَلْ جهده اللازم في جهاد حرب قتالية أو إعلامية أو حرب ناعمة أو حرب باردة، أو جهاد علمي أو جهاد مهني أو جهاد نفس أمانة بالسوء، المعنى: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) من بذل جهده وطاقته وقدرته في أي ميدان من ميادين الجهاد المتنوعة واسعة الدلالة، في سبيل الله المادي والمعنوي، كجهاد عدو أو جهاد نفس عن المحرمات أو جهاد الشيطان لدفع وساوسه، وجهاد من أجل نخضة حضارية وأخلاقية، وجهاد نفسه بالثبات على الإيمان، والصبر على المكاره وتحمل الأذى في سبيل الله (فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) فإنما يجاهد لنفع نفسه وتركيتها، وإصلاح عيوبها وما فسد منها، حتى تتكامل صفاتها الحسنة، وتهدب صفاتها السيئة، فتتفعه في دنياه وآخرته، فكما تزرع تحصد، كقوله (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ) الحج/٧٨، في غر الحكم (إِنَّ الْمُجَاهِدَ نَفْسِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَنْزِلَةِ بَرِّ شَهِيدٍ) (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) إِنَّ اللَّهَ مُسْتَعْنٍ عَنِ الْعِبَادِ، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، فهو غني عن جميع خلقه.

في نهج البلاغة خطبة ١٠٩ (وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مِنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ) وإنما كلفهم ليستقيموا على منهجه لمنفعتهم، إنه سبحانه له الملك وله الأمر كله، يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره، كقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) فصلت/٤٦، في الحديث القدسي (يقول الله سبحانه: يا ابن آدم لم أخلقك لأريح عليك، إنما خلقتك لتربح علي، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فأني ناصر لك من كل شيء) شرح النهج ٢٠/٣١٩ فجهاد المجاهدين في الواقع هو في سبيل تحصيل وجودهم، والحفاظ على عزهم وكرامتهم في الحياة، كما أن بذور النبات لا ترى النور حتى تجاهد براعمها الناعمة التراب، وتدفعه من فوقها، الذي حجب النور عنها ومنعها من الهواء! لذلك صار الجهاد من أشرف الأعمال وأفضل الفرائض كقوله (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) العنكبوت/٦٩ في نهج البلاغة/خطبة الجهاد: (إِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِحَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ، وَدَرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ ، وَجَنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ) فلا يقف أحد في وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطاً، يطلب من الله ثمن جهاده، ويستطيع المكافأة على ما ناله من بلايا، فإن الله لا يناله من جهاده شيئاً، وإنما يجاهد لنفع نفسه ورفع منزلته، في غر الحكم (ذُرُوءَ الْعَالِيَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُرُوءُ التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) وفيه أيضاً (قُلُوبُ الْعِبَادِ الطَّاهِرَةِ مَوَاضِعُ نَظَرِ اللَّهِ، فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ).

٧- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا خَيْرًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

لنكفرون: لنعطينَ لنمحوونَ، أي الذين جمعوا بصدق وعلم بين الإيمان والعمل الصالح النافع، وبين القول والعمل، وبين العبادات والمعاملات، وبين الادّعاء والحقيقة، وجمعوا بين الدين والأخلاق، وجمعوا بين جهاد العدو وجهاد نفوسهم وتركيتها وتهديب عاداتها، هؤلاء (لنكفرون) لنمحوونَ أعمالهم السيئة التي ندموا عليها، واستغفروا الله منها، ولم يصروا عليها (ولنجزيَنَّهُمُ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) بحيث يثيبهم الله على صالح أعمالهم، بثمرة حلوة لكل عمل صالح أفضل من العمل نفسه، بمعنى: أننا نجازي جميع أعمالهم الصالحة النافعة الحسنة بأحسن الجزاء، أي إذا كانت بعض أعمالهم أحسن وبعضها حسناً، فنحاسب الجميع بالأحسن، وهذا فضل من الله ورحمة كقوله (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ) النور/٣٨، بحيث لا يناقشهم الله ولا يحاسبهم على أي نقص، أو خلل في شيء من أعمالهم وطاعتهم، بل يعاملهم في كل واحد منها، معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه، مثلاً: تحتسب صلاتهم أحسن صلاة، وإن كان فيها بعض النقص وهكذا. نقبل القليل من الأعمال الحسنة، ونثيب على الواحد منها عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، ونجزي على السيئة بمثلها أو نعفو عنها كقوله (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكَرِينَ) هود/١١٤ وقوله (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء/٤٠، فليطمئن المؤمنون العاملون الصالحون الذين تتساوى علانيتهم وسرهم وقولهم وفعلهم، ودينهم وأخلاقهم.. فهؤلاء لهم الأمل المشرق في نهاية المطاف. كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، هؤلاء هم الفرقة الناجية، على سعة معناها!.

فائدة: ١- أما العمل الصالح من غير أسس إيمانية هذا لا يكفر السيئات، لأن الإيمان يدعو إلى العمل الصالح، أما العمل الصالح لوحده لا يدعو إلى الإيمان، وأن العمل الصالح في المنظور القرآني هو صيغة عامة يشمل كل ما أمر الله به، بما ينفع الناس ويرضاه سبحانه لعباده، فيغري الله عباده بعمل الصالحات الناهضات فيجزئهم أحسن الذي كانوا يعملون، وبهذا الأسلوب الفتي الناعم الكريم الرحيم الشفاف الأخاذ النفاذ، يدفع الناس للطاعة واجتناب المعاصي، وبذلك يتطهر المجتمع من المفساد والانحرافات والخرافات، ٢- في الآية دلالة على أن الجهاد في سبيل الله، من مصاديقه الإيمان والعمل الصالح، لأن (وَمَنْ جَاهَدَ) على إنجازها (فإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) الآية ٦.

٨- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) وأمرنا الإنسان على إطلاقه - بذكره وأثناءه - أمراً واجباً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان، فلا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، والبر إليهما وتكريمهما وكفالتهما والإنفاق عليهما، والإشفاق بهما، وكف الأذى عنهما، أمراً تكويمياً وتشريعياً

وأخلاقياً، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، وأما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس، لأن الآباء جبلوا على الرحمة بالأولاد، بينما الأولاد فيهم القدرة على الجرأة والقسوة وعدم طاعة الوالدين، فكلّفهم الله بما يخالف طبيعتهم لتزكوا نفوسهم ويهذبوا طبائعهم وعاداتهم (وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) وإن حرّضاك على أن تتابعهما، وبذلا كل حرصهما على أن تكفر بالله وتشرك به شرك جلي أو شرك خفي، ما ليس لك به علم ولا دليل، وأصرّاً عليك في ذلك فلا تطعهما إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عن الإمام الهادي (ع) (مَنْ أَطَاعَ الْخَالِقَ لَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ الْمَخْلُوقِ) البحار ٣٦٦/٧٨، فلا تنال ما عند الله إلا بطاعته، ولا تعذرون بجهالته وتجاوز حدوده، فكمال أن القانون الوضعي لا يحمي المغفلين، كذلك القانون الإلهي لا يحمي المغفلين، في غرر الحكم (أَكْرِمَ نَفْسَكَ مَا أَعَانَتْكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ) ولكن (وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) لقمان/١٥، كقوله (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) المؤمنون/١١٧ (إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) إلى مرجع الخلائق جميعاً مؤمنهم وكافرهم فأجازي كلاً بما عمل، وفيه ترغيب في بر الوالدين، وترهيب في عقوقهما والإساءة إليهما. فائدة: ١- (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) تشير الآية إلى أن المعتقد الديني السليم يجب أن يقوم على أساس من العلم والاستدلال السليم، لأن العبادات على قدر العلم، وفهم فلسفة الحياة على أساس العلم، وكل اعتقاد بلا علم ضلال، لأن العلم يحجبك من كل آفة فساد، في غرر الحكم: (الْعِلْمُ بَعِيرُ الْعَمَلِ وَبِئَالُ ، وَالْعَمَلُ بَعِيرُ الْعِلْمِ ضَالٌّ)

إذن ما لا يعلم صحته باطمئنان كامل لا يجوز اتّباعه، ٢- لقد أطلق الله سبحانه طاعة الإنسان لوالديه بكل شؤون الحياة، باستثناء كبيرة واحدة، إذا أمره بمعصية الله عز وجل، وهذا ترغيب في طاعة الوالدين، والعناية بدور الأسرة في المجتمع، والسرّ في اطلاق هذه الطاعة، لأن الله يعلم حرص الوالدين بأولادهم، وإذا اختلفت الآراء بين الأبناء والآباء، فيجب معرفة أن خير الآباء ما أعانوا أولادهم على برّهم، وأن زمان الأبناء غير زمان الآباء، فيجب أن لا يفرض الآباء تجربتهم وخبرتهم في الحياة بالقوة والإكراه على أبنائهم، لأن قيمة المرء على قدر تجربته، ومقدار خبرته وكفاءته وعلمه واختصاصه وإيمانه بالله وطاعته له وحبّه للناس. عن الإمام علي (ع) (لا تفسرُوا أولادكم على (آدابكم) فإنهم مخلوقون لزمانٍ غيرِ زمانكم!) قال: لا تفسرُوا أولادكم على (آدابكم) ولم يقل على (عقيدتكم) لأن العقائد الصحيحة من الثوابت، والآداب والأخلاق من المتغيرات حسب تغير الزمن، كقوله (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الإسراء/٢٣، سبب النزول (مختصر): (قالت أم الصحابي سعد بن أبي وقاص وهو من أوائل الذين آمنوا بالرسول والرسالة، قالت له والله لا آكل ولا أشرب حتى أموت أو ترجع إلى ما كنت عليه، فبقيت لم تأكل ولم

تشرب مدة من الزمن، حتى قال لها يا أماه: كلي واشربي فيني لا أترك ديني فإنه عصمة أمري، وهدئ حياتي، فعندما رأته مصراً، أكلت وشربت، فنزلت الآية) مجمع البيان ٨ص ١٠.

٩- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) على إطلاق معناها من جميع الملل والنحل، وعلى جميع الكيفيات والكميات، وأحسنوا العبادات والمعاملات، وابتلوا بوالدين مشركين ضالين، يجاهدانه على عصيان الله، فعصاهما وهجرهما حتى لا يتأثر بكفرهما، لم يكن بذلك بأس، فإن الله تعالى سيرزقه خيراً منهما (لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) وندخله في حصن الصالحين، مبالغة الصلاح وهم أهل اللياقة بنعم الله، من النبيين والصدّيقين والشهداء، فيكون جليسهم ورفيقهم في الجنة كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالتَّصَارِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) المائدة/٦٩ وهكذا يعود الموصولون بحبل الله جماعة واحدة موحدة متحدة كما هم في الحقيقة، وتذهب روابط الدم والقراية والنسب بذهاب الحياة الدنيا كقوله (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) التوبة/٧١، وكرر الله تعالى الاقتداء بالمؤمنين الصالحين العاملين كما في الآية (٧) لتحريك النفوس وترغيبها إلى نيل مراتبهم السامية النموذجية (ومن يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ!) ومن توضّحت له النهاية السامية أحسن التحرك لها منذ البداية. والسائر على طريق الهداية، كسائر على الطريق الدراية المستقيم، لا يزيده سرعة السير إلا قرباً نحو الكمال الإنساني.

فائدة: (لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

إنه مصطلح قرآني حركي تربوي جميل خاص، شفاف أخاذ للقلوب، ونقّاذ إلى المشاعر بلا استئذان، وقد تكرر وروده عدّة مرات في عدة آيات، على لسان خيرة خلق الله، لأهميته وتألقه وحسن تأثيره، فهو عالي المضامين وله دلالة بعيدة ملفتة للنظر، حتى رسل الله الكرام وهم أهل العصمة والمنزلة يفضّلونه، ويحبّون أن يكونوا من أهله، إنه الدخول في (مَنْظُومَةُ الصَّالِحِينَ) النموذجية المميزة، التي لا يدخلها إلا من يحبه الله، وكأن (عباد الله الصالحين) في حصن حصين، ودرع أمين، وسور منبع، وفي حرز حافظ، مع كامل الرعاية ودوام الحماية، فيتمنى دخول هذا الحصن حتى الأنبياء (ع) فيكونون (في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، وقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) الرعد/٢٩، فتمنى هذا المقام الجليل سليمان (ع) بقوله (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩، وتمناه إبراهيم (ع) بقوله (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) الشعراء/٨٣، وتمناه يوسف الصديق (ع) بقوله (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) يوسف/١٠١.

١٠- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ كَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾

تبين الآية أن من الناس فريقاً لا يتحملون البلاء، ولا يصبرون على المحن، وتختلط عندهم المفاهيم، فأعطانا من نماذج هؤلاء، **فِتْنَةَ النَّاسِ**: أذاهم اعتداءهم وظلمهم وبلاءهم العام، الجسدي أو النفسي أو الاقتصادي أو الأمني أو السياسي.. أي **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ) بلسانه (أَمَّنًا بِاللَّهِ)** يحسبها خفيفة ولطيفة، كلمة تقال بلا تكاليف ولا مصداق، ويسهل عليه الإيمان في وقت الرخاء، ولم يتحملة في وقت الشدة **(فَإِذَا أُذِي فِي اللَّهِ)** فإذا أصابه أذى من الناس بسبب إيمانه الضعيف بطرف لسانه دون قلبه، فاستقبله بجزع وضيق واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة **(جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)** واعتقد أن هذا العذاب نقمة من الله، وعقوبة على الإيمان، ويذهب إيمانه بلقلقة لسانه مع الريح، لأنه مجرد إيمان شكل بلا مضمون، وقول بلا عمل ولا مصداق، أي سوى بين **(فِتْنَةً)** أذى الناس بأية صورة من الصور المؤلمة، الذي هو امتحان من الله، وبين عذاب الله الموعود في الآخرة الذي لا يعرف أحد مداه، وتصوّر في نفسه أنه لا عذاب مثل هذا الذي يلاقيه، حتى عذاب الله لا يكون أكثر وأشد من هذا العذاب الذي هو فيه!! فرجع عن الإيمان، وارتد عن دين الله إلى الشرك والضلال خوفاً من عذاب الناس!.

فإن عذاب الناس محدود وموقت ولا يقياس ذلك بعذاب الله المؤبد، فهو يريد إيماناً بلا ضريبة، وتقوى بلا صبر، وعبادات بلا علم، وجهاداً بلا تضحية، هذا الإنسان ضعيف الإيمان والعلم والفعل والتفكير، يقع في اشتباه كبير عندما يقارن بين أذية الناس المحدودة المؤقتة وبين عذاب الله الموعود الدائم والشامل، هذا الإنسان القلق لم يتذوق طعم الإيمان، ولم يستقر في قلبه، ولم يعرف أهميته، وكيف يتعامل معه؟ عن النبي (ص) **(أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُ مَا كُنْتَ)** كنز العمال خبر ٦٦ كقوله **(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)** الحديد/٤، أقسام المكلفين ثلاثة: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضم الكفر في فؤاده، فلما ذكر تعالى قسمين بقوله **(فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)** الآية ٣، وذكر القسم الثالث هنا **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)** أراد الله بيان شرف المؤمن القوي الثابت، وخسة المنافق المتقلب، وكان يمكنه أن يظهر موافقة المخالفين ويسايرهم بأخلافهم، ويبقى قلبه مطمئناً بالإيمان، ومع هذا لم يفعل بل ترك الله، وارتد عن دينه، وهذا هو الخسران المبين! عن الإمام علي (ع) **(الأمور ثلاثة: أمر بأن لك رشدك فاتبعه، وأمر بأن لك غيبه فاجتنبه، وأمر أشكل عليه فردد إلى عالمه (إلى أهل الاختصاص))** تحف العقول ص ١٥٣ **(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ)** ولئن جاء نصر الله قريب للمؤمنين وغنائمهم ومناصبهم، ليقولن نحن شركاؤكم في هذا النصر! فيتقدم هؤلاء المتذبذبون المتقلبون يريدون أن يتصدوا الأمر ويركبوا الموجة ويقودوا الناس (ويستلموا السلطة) وهذه فرصتهم الثمينة، هؤلاء أتباع مصالح شخصية، ودينهم دنائيرهم يعقون مع كل ناعق، وليس أصحاب مبادئ وأخلاق وقيم ثابتة ونهضة مجتمع، وإذا لم تنتبه طليعة الأمة

من خطورة عمل هؤلاء، وضرورة التصدي لهم، فسوف يسيرون بالبلاد والعباد إلى وضع مأساوي، لا يُحمد عقباه، كقوله (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) البقرة/٢٠٥. وعن الإمام الحسين (ع) (الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الديانون) تحف العقول ص١٧٦، قال تعالى رداً عليهم (أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) استفهام تقرير، أي أليس الله هو العالم بما انطوت عليه مشاعرهم وضمايرهم من خير وشر، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق؟ بلى إنه بكل شيء عليم. كقوله (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) الحج /١١.

عن النبي (ص): (جاملوا الأشرار بأخلاقهم تسلموا من عوائلهم (شرهم) وبأينئوهم (خالقوهم) بأعمالكم كيلا تكونوا منهم) البحار ١٩٩/٧، وعن الإمام علي (ع): (خالطوا الناس بأبدانكم ورأئوهم (خالقوهم) بقلوبكم وأعمالكم) البحار ٧٩/٢، فائدة: يعبر القرآن عن مجازاة الله بـ (العذاب) وعن إيذاء الناس بـ (الفتنة) للإشارة إلى أن إيذاء الناس ليس عذاباً بل هو امتحان ومحنة وطريق إلى تزكية النفس، وتكاملها عن طريق المعاناة. يقال: في المحن منح من الله، وفي المكارم مكارم، وفي المشقات راحت وخبرات، وفي المعاناة هبأة، في العقوبات يفضات الضمير، وفي البلائاً بدآيات هأياتها الكرامات!

١١- ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾

وليطهرن الله لعباده (عن طريق الاختبار والابتلاء، وفي الشدة والرخاء) حال المؤمنين وحال المنافقين، حتى يتميزوا فيفضح المنافق المتقلب ويظهر شرف المؤمن الصادق، والمراد (وليعلمن الله) أي إظهار علمه وكشفه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم، وإلا فالله تعالى عالم بما كان، وما يكون، وما هو سيكون، ولا يخفى عليه خافية، فهو إذاً: علم إظهار وكشف، لا علم غيب وخفاء بالنسبة لله تعالى. جعل الله فتنة الناس وابتلائهم سنة قديمة وثابتة ليميز الخبيث من الطيب، وينكشف المؤمن الحقيقي القوي الثابت، من المؤمن المدعي الضعيف المتقلب، ويظهر المنافق المتلبس بالإيمان كقوله (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران/١٧٩ فائدة: في الآية ترغيب لكل مؤمن حتى يصبر على الأذى في سبيل الله، وحقيقة الإيمان نور وبصيرة وهدى إذا دخل قلب المؤمن واستقر لا تخرجه أذية الخلق كقوله (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) نور/٤٠، بل يزيد الإيمان ثباتاً بالصبر وحسن السيرة كقوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان/١٧، في غرر الحكم: (بالصبر تُدرِك الرغائب) عن النبي (ص) (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لِرَجَالًا إِيْمَانُ أَتَبْتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَّاسِي) مجمع البيان ١٤٤/٣.

١٢-١٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

وقال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا، مهوّنين الأمر عليهم (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) وديننا وفتناعتنا الصنمية، وارتدّوا عن دين الإسلام إلى ديننا (وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب بعد الموت كما خوّفكم محمّد، إن كان هناك عقاب في الآخرة، قالوا ذلك استهزاءً من أجل خداعهم وتزيين ضلالهم وفسادهم، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في عنقي! (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ) وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم لا قليل ولا كثير، لأنه لا يحمل أحد ذنب أحد كقوله (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ) الطور/٢١ (إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) وهذا خطأ فادح لأن كل إنسان مرهون بعمله، وهو وحده مسؤول عنه والمحاسب عليه كقوله (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَعْرَفْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) سبأ/٢٥.

١٣- (وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) أَثْقَالِهِمْ: آثامهم التي تثقلهم همومها وتبعاتها، وتثبطهم عن عمل الصالحات المعنى: وَلِيَحْمِلْنَ آثَامَهُمُ الثَّقِيلَةَ وَآثَامَ مِنْ أَضْلُوهُمْ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَثْقَالِ مَقْلِدِيهِمْ وَتَابِعِيهِمْ شَيْءٍ، بسبب أنهم ضالون مُضَلُّونَ كقوله (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) النحل/٢٥. (وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وَلَيُسْأَلُنَّ: سؤال توبيخ عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل لإضلال الناس، ومن ضمنها ادّعاؤهم حمل آثام الآخرين.

عن النبي (ص) (أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً) المراغي ١٢٢/٢٠، الوزر: الذنب. دون أن يعفى المخدوعين من العقاب، والله تعالى لا يحمي المغفلين عن العقوبة وهكذا (من جهل قدره تعدّى طوره) (الْأَحْمَقُ : إِذَا أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبَ) (وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ) والتعبير عن الخطايا والذنوب بالاثقال، لإلفات النظر إلى مخاطر ثقلها، وهمومها وكرها وتبعاتها على النفوس على المدى البعيد أو المدى القريب، كقوله (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلَيْهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) فاطر/١٨. ثم ذكر الله تعالى لرسوله (ص) قصة نوح تسلية له عن معاناته من أذى المشركين فقال:

١٤-١٥ - ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَانجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

ولقد بعثنا نوحاً برسالة تشريعية إلى قومه، فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة نبياً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، في غرور الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) والاستقامة على منهجه الحق، وجاءهم (ع) بمختلف الأساليب، وفي الليل والنهار، والسرّ والعلانية، والترغيب والترهيب، فلم يجيبوه بل

آذوه وأصحابه أشد الإيذاء (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) وإنما ذكر الألف تحييلًا لطول المدة إلى السامع، ليكون أكثر تأثيراً في نفسه، ثم أخرج منها (الخمسين) إيضاحاً فلم ينفعهم هذا الزمن الطويل إلا فراراً من الحق، والذي لا ينفعه الحق يضربه الباطل. (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على الكفر والفساد، فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بحسراتهم الهداية، عن النبي (ص): (الْحَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ كقوله (الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام/ ١٢ فائدة: (وَهُمْ ظَالِمُونَ) إن الله تعالى لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، ويعتمده في العباد والبلاد لمدة طويلة، ٢- فكما أنّ السفينة تنجى راكبها، فكذا شريعة الله الخالصة تنجى عاملها من ظلمات الضلال فهي سفينة نجاة، عن الإمام علي (ع) (في الإخلاص يَكُونُ الْخَلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠.

٣- العبرة من قصة نوح:

على الإنسان أن يتخذ كل الأسباب الشريفة اللازمة للوصول إلى النتائج المطلوبة الصالحة، وهو بعد ذلك ليس مسؤولاً عن النتائج، لأنه عمل بالإمكان وكان هدفه الطموح نحو الأحسن، ١٥- (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ) فأنجينا نوحاً ومن كان معه في السفينة التي أمرناه بصنعها (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) وجعلنا تلك الحادثة المميزة (آيَةً) عبرة وعظة (لِلْعَالَمِينَ) للناس أجمعين إلى يوم القيامة يتعظون بها، لأنها فرقت بين المؤمنين والكافرين، وبين الصالحين والفاستدين، والذي لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقيين!، وأخسر الناس من كان عبرة للناس، فائدة: ١- الفرق بين عموم رسالة نوح (ع) وبين عموم رسالة نبينا محمد (ص): إنَّ نَبِيَّنَا الْخَاتَمَ (ص) مبعوث رحمة للعالمين وللناس أجمعين كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء/ ١٠٧ وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ سِبْأً) سبأ/ ٢٨، فهو (ص) رحمة بسنته وسيرته في زمانه، وفي كل زمان ومكان، وإلى يوم القيامة، بينما رسالة نوح (ع) عامة لأهل الأرض في زمانه فقط كقوله (سَلَامٌ عَلَيَّ فِي الْوَحْيِ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات/ ٧٩، ٢- يذكر الله تعالى باستمرار بسنن الأنبياء الماضين ليتعظ الباقيين كقوله (سُنَّةً مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) الاسراء/ ٧٧ وفي هذا تسلية من الله تعالى إلى نبيه محمد (ص) أن يتحمّل معاناة التبليغ المؤثر التاجح كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/ ٤٨.

١٦- ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وأرسلنا إبراهيم خليله رسولاً إلى قومه، وهم أهل بابل في العراق، يرغبهم بعبادة الله وحده، ويجذّدهم من عصابته، وأن يتقوا غضب الله بالتمسك بطاعته واجتناب معصيته والشرك به (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ذلكم أفضل لكم مما أنتم عليه من الأباطيل والخرافات المختلفة (إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الخير من الشر وتفرقون بينهما، وتكونون مع سبيل الخير والصلاح فائدة: يشترك دور إبراهيم (ع) مع جميع أدوار الأنبياء بدعوتهم على توحيد الله وطاعته، فكلهم يتحركون بوحدة

هدف مع اختلاف أساليب، وتعدد أدوار واختلاف ظروف وحالات، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةَ النَّفْسِ، وَالذِّكْرُ حَيَاةَ الْقَلْبِ).

١٧ - ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَخَلْقُونَ إِنْكَافًا إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَآيِلَهُمْ لَكُمُ مَرْزِقًا فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

يا قوم (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا) أصناماً حجرية منحوتة لا تنفع ولا تضر (وَتَخْلُقُونَ إِنْكَافًا) وتفتعلون كذباً لا حقيقة له بتسميتها آلهة، وعبادتها بعد ذلك، أي تبتدعون أشياء وهمية لا حقيقة لها، أساسها الجهل والضلال (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) (فَابْتَغُوا) فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه المالك له والقادر عليه، ذو القوة المتين، فمالك الحياة هو مالك الرزق، والذي حدد الأجل هو الذي قدر الرزق، بحسب نظام الأسباب والمسببات، في غرر الحكم (لكل شيء سبب) والرزق أنواع: رزق الحال ورزق الجمال وحسن الأشكال والمال والمآل (المصير) والرزق المادي والمعنوي، والعلم والقوة والذكاء، ورزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأت أنتك..، (وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ) وأطيعوه وحده لكونه الكامل بذاته والمكمل لغيره، في غرر الحكم (أَكْرَمَ نَفْسِكَ مَا أَعَانَتْكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ) واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم، بأنواع النعم العاجلة والآجلة، والظاهرة والباطنة (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة، فيجازي كل إنسان بحسب عمله، كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ حَاجِبًا) البقرة/١٤٨، فائدة: (إِنْكَافًا) الإفك أسوأ الكذب، وسمي الإفك كذباً لأنه مأفوك أي مصروف عن وجهه الحقيقي، لأنه يحدع المقابل، ٢- عبادة الأصنام مفهوم عام:

كل عبادة من دون الله تمثل صنماً يُعبد من دون الله، كحب الذات والأنا وطاعة الأحزاب المنحرفة عن سبيل الله، والمال والأشخاص والنساء.. وغيرها، كلها عبادة لهم من دون الله وتمثل صنماً معنوياً عسرياً حديثاً يعبد بشكل من الأشكال وهم لا يشعرون، في الحديث: (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ)! (وَتَخْلُقُونَ إِنْكَافًا) وهذه العبادة الصنمية المريرة المنحرفة الخطيرة، تصاغ بطريقة فنيّة موهمة للنفس خادعة لها، فتتصوّر فسادها هو صلاح، ويتحوّل انحرافها إلى تقدّم وتطور!! وهكذا يتداخل عندها الحق والباطل، فيشبهه على بسطاء الناس التفريق بينهما، ومن هنا جاء معنى (الشبهة) لأنها تشبه الحق، وتخدع الناس وتوهمهم، كقوله (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) المؤمنون/١١٧. في نهج البلاغة حكم ١١٣ (وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ) عن النبي (ص) (دَعَّ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ، فَمَنْ رَعَى (تَحَرَّكَ) حَوْلَ الْحَمَى يُوشِكُ أَنْ تَقَعَ فِيهِ) تنبيه الخواطر ص ٤٣.

١٨ - ﴿وَإِنْ تَكُذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

لما فرغ من بيان أهمية التوحيد وأنه سعادة النفس، أتى بعده بالتهديد، أي وإن تكذبون فلن تضروني بتكذيبكم، وإنما تضرون أنفسكم، فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم ورسالاتهم فزوروا أنفسهم، فما الفائدة أن أريح كل شيء، وأخسر أهم شيء، وهي نفسي؟! كقوله (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يونس/٣٩ في غرر الحكم (أَعَجَزَ النَّاسُ مَنْ عَجَزَ مَنْ إِصْلَاحِ نَفْسِهِ) (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) وليس على الرسول من الأمر إلا التبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ ويكون التبليغ مبيناً أي واضحاً وخالياً من كل غموض ويوضح المقصود، فلا يبقى معه شك ولا شبهة، وهكذا مسؤولية كل الرسل كقوله (فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النحل/٣٥.

١٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

الاستفهام للتوبيخ لمنكري الحشر على عمومهم، أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة والنظر العلمي الاستدلالي في إثبات المعاد، كيف خلق الله تعالى الخلق الأول فندرکه بالحس والعيان وهكذا خلق الإنسان (ثُمَّ يُعِيدُهُ) والخلق الثاني: إعادة الخلق بعد الموت، وندرکه بالعقل والإيمان والدليل العلمي والبصيرة، لأن الذي أحيا وأمات يهون عليه أن يحيي الأموات بحكم البديهة، لأن القادر على الإنشاء والتكوين قادر بسهولة على إعادة التركيب المشتت المفتت بعد الموت كقوله (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢، وقوله (أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ق/١٥، أنظر إلى خلق كل شيء كثمار الأشجار، فتحيا ثم تفتن ثم يعيدها للزراعة، ويكرر نظامها ويعيده كما كان (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (إِنَّ ذَلِكَ) من الإبداء والإعادة سهل على الله، وليس بحاجة إلى جهد، وليس في خلق الله شيء عسير عليه تعالى، ولكنه التعبير (يَسِيرٌ) لتقريبه لعقول البشر، فالإعادة أيسر من البدء في تقديرهم، كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) الروم/٢٧.

فائدة: إن الناس يرون قدرة الله سبحانه بالبصر كيف يبدي الخلق - كل ما خلق - ، عن النبي (ص) (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ فَتَجَلَّى فِيهِ) روح البيان/٥/٣٦٧، في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) يروونه في أم أعينهم في النبتة النامية من البذرة، والدجاجة من البيضة، والبرعم من النبتة، والجنين من النطفة، وفي كل ما لم يكن ثم كان، مما لا تملك قدرة البشر أن يخلقوه مجتمعين ومنفردين، أو يدعون أنهم خالقوه، وإن خلق الحياة، وسر الحياة، وحده المعجز كان وما يزال، وعجز العلم الحديث عن خلق خلية مجهرية حية واحدة لأنه تعالى وحده خالق الحياة، كقوله (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨، عن الإمام علي (ع) (الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته) شرح النهج/٧/١٨١، ٢- (أَوْلَمْ يَرَوْا) ألم يتفكروا، المراد بالرؤية: رؤية العلمية بالقلب والبصيرة الذي يكشف حقائق الأشياء، كما يكشف البصر صور المرئيات، بمعنى أولم

يعلموا علماً دقيقاً جازياً مجرى الرؤية في الوضوح، بحيث استدل علمياً كما استدل حسياً. في نهج البلاغة حكم ١٢٦ (عَجِبْتُ لِمَنْ شَكََّ فِي اللَّهِ، وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ) وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ، وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَى.

عن الإمام علي (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْآخِرَى، وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٤٢/٧ ، إن من له القدرة على هذا الأمر قادر أن يحيي الموتى يوم البعث. (يوم القيامة: مِيزَانٌ دَقِيقٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨ وقوله (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠

٢٠- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قل لهؤلاء المنكرين للبعث، وهي دعوة عامة لكل الناس، (سيروا) أي سافروا في أقطار الأرض بقدر ما تستطيعون، رحلة سياحية علمية تجارية هادفة واعية فاحصة، سيروا بأبدانكم وقلوبكم وعقولكم، (فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) ابحثوا هل تجدون غير الله خالقاً، ابتداءً هذا الخلق، الجميل في صورته، العظيم في غايته، وإذا لم تجدوا غيره لزمتمكم الحجة في أنه سبحانه هو المعيد لأنه لا يعجزه شيء، فانظروا كيف أن الله العظيم خلق الخلق الجميل على كثرتهم وتفاوت صورهم وهيئاتهم وأجناسهم وأعمالهم وأحوالهم، واختلاف ألسنتهم وأشكالهم وألوانهم وطبائعهم، من غير مثال سابق، وانظروا إلى مساكن الأمم الماضية وديارهم وآثارهم وأخبارهم، كيف نهضوا بحضارتهم وكيف اتخارت، وكيف هلكوا كقوله (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الروم/٩، (والذي يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ) في نهج البلاغة خطبة ١٥٤ (العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق الصحيح لا يزيده سرعة السير إلا بُعداً عن الصواب) بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى (الموت الخفيف الجزئي) هو النوم في الحديث: (كَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ، وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تُبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٠ (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) ثم إنه تعالى ينشئهم أي يعيد خلقهم أين ما كانوا، فلا يفنى وجودهم ولا يستحدث، عندما يحين يوم القيامة، تكون نشأة أخرى لا تقبل موتاً ولا نوماً وإنما هو نظام آخر، في عالم آخر، في تركيب آخر، في حياة أخرى، لأنه عالم الغيب، في غرر الحكم (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدْتَ بِهِ مَعَادَكَ) كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ عالم الخلود (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لا يعجز الله تعالى شيء (ومنه البدء والإعادة) بلا عناء ومشقة، ولا حدود للقدرة الإلهية كقوله (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء/١٠٤، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارٍ لِإِقَامَتِهِ، خَلَصَ عَمَلُهُ وَكَثُرَ وَجَلُّهُ)

فائدة: هذا أسلوب قرآني حركي لتحصيل العلم العقلاني بالتجربة الحسية، والانتقال من المحسوس إلى المعقول مباشرة، لمعرفة الحقيقة مستهدياً بذلك ببصيرته النافذة بالإيمان والدراية بعالم الغيب

والجزاء والحساب، فهذه الأمور لا تدرك بالحواس، وإنما تدرك بالعقول الواعية المؤمنة، والقلوب السليمة الشفافة، والبصيرة النافذة، التي ينكشف لها الحقائق ما وراء المرئيات (فَانظُرُوا) أثنى الله على التدبّر والتفكّر والبحث العلمي، ونهى عن التقليد الأعمى والبقاء على الجهل والعمى والسير مع (العقل الجمعي) فإن للإنسان قابلية هائلة، والتقليد الأعمى يُججّم قابليته، ويقتل مواهبه وابداعاته، وهذا أسلوب مهم من أساليب تحصيل العلم بالتجربة الحسيّة (المرئية) والانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن أساليب تحصيل العلم عن طريق التدبّر والتأمل، مستهدياً إلى الإيمان ببصيرته النافذة، أن هناك عودة إلى الله، فمن الرشد الاستعداد ليوم المعاد، كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، عن الإمام الصادق (ع) (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سَنَةٍ) (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) الزمر/٩، البحار ٣٢٧/٧١، ومعنى ذلك: وقد تكون ساعة تفكّر بعمق علمي تعادل العمر كله، لأن التفكّر يحيي القلوب ويشرح الصدور، والتفكّر في الخير يدعو إلى العمل به، في غور الحكم (مَنْ طَالَتْ فِكْرَتُهُ حَسُنَتْ بَصِيرَتُهُ) من عرف المخلوق وجماله، عرف الخالق وكماله، ومن عرف الخالق وكماله، آمن بخلقائه، وإذا آمن بخلقائه أعد له عُدته المناسبة! من سعى إلى الله قرّبه الله، ومن بحث عن الله تعالى دلّه عليه، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥. كقوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) البقرة/١٨٦.

٢١- ﴿يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾

فالذي يطبق قاعدة التفكّر السليم في الآية (٢٠) يهتدي وتستقيم، فيستحق الرحمة كقوله (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الأعراف/٥٦، والذي يُعرض عن التفكّر يضلّ فيتبع الهوى، ويقول القرآن (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ص/٢٦، فيستحق العذاب والنقمة، (مَنْ يَشَاءُ) فالذي يشاء هو الإنسان، وما يترتب على مشيئته من أسباب ونتائج، يستحق صاحبها عليها العذاب أو الرحمة، وقدم العذاب على الرحمة، لما أن الترهيب للمشركين وإنذارهم أنسب بالمقام من الترغيب، والإنسان مستعد لطريق الهدى والضلال، وهو الذي يختار، وهو مسؤول عن اختياره ومحاسب عليه، عن الإمام علي (ع) في قوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَأَعَانَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَجْعَلْ فِي تَرْكِهَا عُذْرًا، وَنَهَى عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَأَعْنَى عَنْهَا وَلَمْ يَجْعَلْ فِي رُكُوبِهَا عُذْرًا) وهو سبحانه المتفرد بالحكم الجزائي كقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد/٤١ (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) وإليه ترجعون بعد الموت يوم القيامة فلا يحكم فيكم غيره، وتعبير عن العودة إلى الله بـ (تُقْلَبُونَ) فيه عنف وشدّة وانكشاف السرائر في يوم الجزاء، يناسب المعنى بعده كقوله (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) العلق/٨، وإن تأخرت عنكم هذه العودة المؤكدة، فهي ضمن حدود المهلة والعمر المقسوم المحدود، فلا تظنوا أنه قد فات موعدها، عن النبي (ص): (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال

فائدة: (مَنْ يَشَاءُ) ضمن قاعدة الأسباب والمسببات، تصدر عن علم الله وعدله وحكمته، كقوله (وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت/١٧، وقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦، وعنه (ص) (يُبْعَثُ الْمَرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خبر ٤٢٧٢٢. عن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا!) روح البيان ١٣٢/٢ (كفى بالموت واعظاً).

٢٢- ﴿وَمَا أَسْمُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

بِمُعْجِزِينَ: جاعلين الله عاجزاً، أي إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سماواته ولا أرضه، لأن قدرة الله مطلقة ولا يقيدتها شيء كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، فكل شيء فقير إليه وتحت سيطرته وقبضته، سواء في الأرض أو في السماء، ولستم بغائبين عن الله ولا بخارجين عن سيطرة الله وهيمته في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تستطيعون الهروب من الله فإنكم تحت حكمه وقضائه، وتجري عليكم مقاديره وقدره وقدرته وتدييره، وبعد عليكم أنفاسكم وأرزاقكم وأجالكم، كقوله (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا) غافر/٧ (لَا تَعْقِلُوا فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنْكُمْ) في غرر الحكم (احذروا الغفلة فإنها من فسادِ الحسن) فلا تغزركم قوتكم، ولا تحذركم أنفسكم من النجاة من عذاب الله، فلستم تفلتون من قبضة الله، كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، في نهج البلاغة (لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب) الكاشف ١٠٣/٦ ولما بين أنه مقدور عليهم جميعاً لا يفلتون منه، كقوله (فَأَيُّنَ تَذَهَبُونَ) التكويد/٢٦، ذكر أنه لا يستطيع أحد نصرهم (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) وما لكم من دون الله (مِنْ وَلِيٍّ) قريب يتولى أمركم ويحميكم منه، ولا حتى نصير ومعين يشفع لكم ويساعدكم على تقليل عذابه أو تحمله فائدة: الفرق بين الولي والنصير: الولي: الذي يدفع المكروه عن الإنسان دون طلب، والنصير: الذي يأمر بدفعه عنه بعد الطلب، والولي أخص من النصير، والنصير أشمل، إذ قد ينصر من ليس بولي، فيكون النصير أعم من الولي، وهو الذي يأتي لإغاثة الإنسان بعد أن يستغيث. كقوله (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) الحج/٧٨.

٢٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَفَاهُ أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والذين كفروا بآيات الله الكثيرة في القرآن والسنة، وفي الآفاق والأنفس، وكفروا في الآيات الحسية والعقلية وغيرها، من الآيات الدالة على ضرورة الدين الحق والاستقامة فيه (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) الروم/٣٠، وكفروا بلقاء الله في الآخرة، وآمنوا فقط بالمصالح الشخصية عن النبي (ص) (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَجَلٌ، وَعَجَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ) المحجة البيضاء ٣٢٨/٧ (أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي) يسأوا: قنطوا من فرجه وعونه، أي أولئك لا أمل لهم في رحمة الله، لأنهم لم يخافوا عقابه ولم يرجوا ثوابه (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مؤلم موجه في الدنيا والآخرة. كقوله (إِنَّهُ لَا يَيْتَسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ) يوسف/٨٧، والإيأس من رحمة الله من أشدّ المحاذير، لتركهم كل سبب يقرّبهم منها، لذلك المؤمن لا ييأس، والعاقِل لا ييأس، **فائدة: ١-** خير أعمال المؤمن أن يعيش الاعتدال بين الخوف والرجاء كقوله (يَجْدُرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩، **٢-** **وجه العلاقة بين الكفر بآيات الله واليأس من رحمة الله؟** الكفر بالله تعالى ولقائه داعية إلى ارتكاب كل نواهيهِ والابتعاد عن جميع طاعته، ومن ابتعد عن طاعته سبحانه اقترب من معصيته بنفس مقدار الابتعاد عن طاعته، وهذه الضلالة البعيدة دافعة إلى ارتكاب الذنوب الكبيرة بلا حدود ولا قيود، وكثرة الذنوب تقسي القلوب، كقوله (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطففين/١٤، وتُشعر الإنسان باليأس من رحمة الله، وهي صفة قائمة وقائمة تميز الكافرين القانطين عن العصاة الذين يستحقّون العذاب الأليم. **عن الإمام الباقر (ع) (إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى الْكُفْرِ أَنْ يُؤَاجِي الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ فَيُحْصِي عَلَيْهِ عَثْرَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ لِيُعِنِّفَهُ بِهَا يَوْمًا مَا) البحار ٧٥/٢١٥.**

٢٤- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(فَمَا كَانَ جَوَابَ) قوم إبراهيم (إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ) ونسبة كل واحد من الفعلين إلى جميعهم، باعتبار رضاء الباقرين حين قال البعض، رداً على تلك الدعوة العقائدية الحنيفية التوحيدية المقاومة للجاهلية التي دعاهم إليها إبراهيم، وهو إنسان أعزل لا حول له ولا قوة إلا بالله، ولكنه كان يحمل إرادة أمة كقوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل/١٢٠، فانفقوا على إحراقه ليستريحوا منه (ومن ضاق عليه الحق، فالجور عليه أضيّق) فأضرموا ناراً عظيمة فألقوه فيها، وهنا تدخلت قدرة الله بالمعجزة الخارقة، (فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ) وجعلها برداً وسلاماً عليه، ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه المعجزة، لأن الخارقة لا تهدي القلوب القاسية الجاحدة المعاندة، إنما تهدي القلوب السليمة المتطلعة المنفتحة المستعدة للإيمان (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إِنَّ فِي إِنْقَادِنَا لإبراهيم من النار، لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يُصدّقون بمنهج الله وكمال حكمته، لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها، وأما الكافرون فمحرومون من الفوز بمغانم آثارها ونور هدايتها فهذا يدل على أن المعاجز الخوارق لا تهدي القلوب القاسية والتي لا تحب الإيمان، **كما حصل مع موسى وعيسى (ع)**

فائدة: ١- عندما يعجز الطغاة من قرع الحجّة بالحجة يلتجئون إلى سلاح القوة والظلم، ومن دعاء الصحيفة السجادية، دعاء (٤٨) للإمام زين العابدين (ع) (إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفِ) إبراهيم استطاع ان يُبلغ رسالة ربه، وألقى الحجّة على الناس وانتهت مهمته، فأدى به في النتيجة إلى الموت، ولكن الله أنقذه منه برحمته سبحانه، وهكذا يكون موقف الدعاة إلى الله لنصرة الحق والقضية المحققة، فالذي يجاهد ويستشهد في سبيل الله يرزقه الله حياة الشهداء ومنازلهم وتأثيرهم، فيحيا الشهداء بموتهم المبدئي وتخلّد مواقفهم البطولية عن النبي (ص) (مَوْتُ فِي طَاعَةِ (اللَّهِ) خَيْرٌ مِنْ

حياة في مَعْصِيَةِ (الله) كنز العمال خير ١٠٨١ (وربّ حياة سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة) كقوله (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ) مُجَّد/٤ .

٢- (فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ) تكون المعجزة الإلهية خارقة عن قدرة البشر المعروفة، وخارجة عن قوانين الحياة المألوفة، وتكون المعجزة من الله لإثبات صدق النبي في دعوته وأنه مرسل من ربه، والمعجزة برهان حاسم يقطع الخصام، ويزيل الشكوك، ومدهشة للعقول، ومثيرة للأحاسيس، ومطمئنة للقلوب، ولكن عندما لا يتأثر عامة الناس بالمعجز الخارقة للعادة، ولا تهزّ مشاعرهم، ولا يؤمنون بالله ولا برسوله، فماذا يكون الحكم عليهم؟ أنهم أموات غير أحياء. كقوله (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) الأنعام/٣٦ وقوله (إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) الأنفال/٢٢ عن النبي (ص) (لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ - إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءُ) البحار ١٧٥/٨٢ في غرر الحكم (الْجَاهِلُ مَيِّتٌ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ) عن الإمام الصادق (ع) (المعجزة علامة الله لا يعطيها إلا أنبياءه ورسله وحججه، ليعرف به صدق الصّادق من كذب الكاذب) البحار ١١ ص ٧١ فلم يتأثر قوم إبراهيم (ع) بمعجزة النار الباردة، كما لم يتأثر كثير من قوم موسى (ع) بانفلاق البحر، كما لم يتأثر كثير من قوم عيسى (ع) بإحياء الموتى!! وهذا مما يدل: أن المؤمن دليل قطعي واحد يكفيه، أما غير المؤمن فلا ينفعه ألف دليل ودليل، لاختلاف التركيبة النفسية في داخلهم، وتلوث فطرتهم. في نهج البلاغة كتاب ٢٨ (مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجْرُ بِهِ الضَّلَالَةُ إِلَى الردى).

٢٥- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا كُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

قال إبراهيم لقومه تويحاً لهم، إنما عبدتهم هذه الأصنام وجعلتموها آلهة مع الله (مَنْ دُونَ اللَّهِ) وهي قائمة على الهوى والوهم والجهل والاتباع الأعمى (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من أجل أن تدوم المحبة والألفة والصدقة بينكم في هذه الحياة، وتكونوا أهل ملة واحدة، كما يتفق الناس على مذهب معين، باجتماعكم على عبادتها كعنوان ورمز لوحدتكم وكيانكم الاجتماعي، وانكم قلب واحد ويد واحدة على عدوكم، كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣، وهذه خطورة السير تحت إرادة (العقل الجمعي) وهذه هي (الإمعة) التي نهي الإسلام عنها، أي أكون مع الناس مع الأقوى والأشهر مهما كان اتجاهه وضلاله، وهنا إلغاء العقل عن التفكير، وضعف الإرادة عن التدبير لأي موقف صحيح!، عن النبي (ص) (لا تكونوا (إمعة) تقولون: إن أحسن الناس أحسننا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن أظنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن لا تظلموا) الترغيب والترهيب ٣/٣٤١ أنكم اتخذتم الأصنام من دون الله لا اعتقاداً علمياً ولا اقتناعاً بأحقية هذه العبادة الجوفاء، وإنما يجامل بعضكم بعضاً، لتتوادوا فيما بينكم على الخرافات، وتكونوا

أمة متّحدة على الجهل، ولتؤمنوا من خلالها على مصالحكم الدنيوية، وكان ذلك تقليداً أعمى بغير تفكّر ولا وعي، وهنا يعني أن الأوثان والمؤدّة مثلان متعادلان، وقيمتان متوازيتان. ولا يريد أحدكم أن يترك عبادة صاحبه، حين يظهر الحق له بالأدلة العقلية والنقلية، استبقاء لما بينكم من مؤدّة، ولو كان على حساب الحق والعقيدة الصحيحة! لأن الحقّ عندهم على سطح حياتهم وليس في مضمونها، أي عندهم أمر العقيدة الإلهية أهون من أن يخالف عليه العرف العام! ولكنكم غداً في يوم القيامة سترون أن هذه الأصنام هي السبب الأساس لعذابكم وتباغضكم وتعاسة حياتكم في نهج البلاغة خطبة ١١٣ (مَا بَأَلَّكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلَا يَحْزُنُكُمْ الكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ)؟! (تَمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) ثم يكشف لهم حالهم الحقيقي في الآخرة، ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمؤدّة عداوة وبغضاً حيث يقع التّكّاره والتنافر بينهم، ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن ويسخط الأتباع، من القادة الذين أضلوهم، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الحق ونصرة الحقوق، وإنما كانت مؤسسة على الضلال والفساد والباطل كقوله (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) ص/٦٤ (وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ) ومصيركم جميعاً (العابدون والمعبودون) جهنم، وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها، نلاحظ النار التي أرادوا أن يحرقوه بها فنجاه الله منها ونصره، فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة! وهذا هو الخسران المبين. على العكس من أهل الجنة كقوله (وَنَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) الحجر/٤٧ كقوله (الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧. في غرر الحكم (إياك ومعاشرة متّبعي عيوب الناس، فإنه لم يسلم مصاحبهم منهم)

٢٦- ﴿فَأَمِنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فآمن إبراهيم لوط، وصدّقه برسالته، الذي كان ابن أخيه، وأول من آمن به، واتّبع رسالته، وازداد إيماناً بعد معجزة النار الباردة، أما قومه فلم يهتد منهم أحد، ولم يتأثروا بمعجزة النار (الخارقة) الباردة التي لا تحرق! والذي لا ينفعه الحق يضرّه الباطل! (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) وقال إبراهيم إلى لوط وزوجته التي كانت بنت عمه وقد آمنت به: إني مهاجر من قومي الأجلال الظالمين وهم الكلدانيون في العراق، إلى حيث أمرني ربي في أرض الشام التي لا يعترضني فيها المشركون، من أجل إظهار دين التوحيد والتمكّن من نشره، وإلقاء الحجّة على الناس كقوله (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينِ) الصافات/٩٩، هاجر إبراهيم إلى ربه، ليس هجرة مادية ترفيهية لكسب أو تجارة، هاجر عندما لم يبق رجاء في هدايتهم، وبقي وجوده بينهم بلا تأثير وأصبح بقاؤه بينهم مفسدة، لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث، وإما سكوت عنهم وهو دليل الرضا، فلم تبق إلا الهجرة، هاجر أولاً إلى الله بقلبه وعقيدته، قبل أن يهاجر بجسده ولحمه ودمه، هاجر ليخلص قلبه لله، ليخلص

كيانه كله في مهجره لله تعالى، حتى يلقي الله بقلب سليم، قلب لا يوجد فيه غير الله، ولا يوجد فيه شيء من حب الدنيا (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الْعَزِيزُ) الذي يعني من أعدائي ولا يدل من اعتمد عليه (الْحَكِيمُ) الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي وفلاحي.

فائدة:

كقوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) المزمّل/١٠، الهجرة لها مظاهر كثيرة: إما هجرة مفارقة الشيء ورفضه باللسان أو بالقلب أو بالبدن، وإما هجرة مادية أو معنوية أو نفسية أو عقائدية أو سياسية .. إلخ، منها: الهجرة عن الأوطان، والهجرة عن المعاصي كقوله (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) المدثر/٥ الهجرة لتزكية النفس، والهجرة عن الطباع السيئة، والهجرة إلى الله تعالى من أجل الله لحفظ الدين والعرض والمال والشرف كقوله (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) العنكبوت/٥٦، الهجرة: عن بلاد أهل الفسق والفجور، بلاد تضيع بها كرامة الإنسان إلى بلاد أخرى أفضل منها، فإن شرّ الأوطان ما يُهان به الإنسان، وأضعف الناس من يرضى أن تستعبده الأوطان، وتُهان به كرامة الإنسان، ومن يرضى أن تهان كرامته فلا تأمن شرّه، عن الإمام الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨، في نهج البلاغة خطبة ٨٦: (وَلَا تُرَحِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَنْدَهَبَ بِكُمْ الرَّحْصُ مَذَاهِبَ الظُّلْمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمْ الْأَدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ) في غرر الحكم (مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي مَا يُحِبُّ، أَنْعَبَتْهُ فِيمَا يَكْرَهُ) عن النبي (ص) (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) كنز العمال خبر ٤٦٢٦٥.

٢٧- ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

وعوّض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله وأقربائه، عوضه عن هذا كله ذرية صالحة تمضي فيها رسالة الله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ورزقناه إسحاق ولدًا من سارة ويعقوب نافلة، أي عطية وهو حفيده ابن إسحاق، فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت من ذريته، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه، واتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا وجعله إمامًا للناس، وجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده يعقوب، والنبي مُحَمَّدٌ (ص) من سلالة إسماعيل، وهذا عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة، وهذه الهبة النموذجية فيض يتجلّى فيه رضوان الله سبحانه، على الرجل الذي أعطى أعلى شيء لله، وهو في تمام الإخلاص لله، فأعطاه الله كلما يريد، وفوق ما يريد مع كامل التقدير. (وَأَتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) إحساناً مادياً ومعنوياً، وتركنا له الثناء الحسن وحب أهل الأديان جميعاً له ويرضون به، ورزقناه الأولاد الصالحين، ومعرفة الله ومحبته والصلاة عليه الدائمة، أي الدعاء المستمر له (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) وإنه في الآخرة لفي عداد الكاملين في الصلاح الذاتي، وهي منحة ربانية فريدة، لها منزلة خاصة سامية، وهذا ثناء عظيم

أي أنديتكم العامة المكشوفة المباحة (الْمُنْكَرُ) الذي ينكره الطبع البشري، ما لا يليق بالإنسان الشريف، وبشكل جماعي والإصرار عليه، فهو من أكبر الذنوب واقبح العيوب.

في غرر الحكم:

(لا وزر أعظم من التبجح بالفجور) والابتهاج بالردائل (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) فما كان ردُّ قومه عليه حين حذرهم ونصحهم (إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ) إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء إئتنا بالوط بالعذاب الذي تعدنا به (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب. وبعد أن كرر عليهم النهي عن هذه الفاحشة الشاذة قالوا (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْتَ يَتَطَهَّرُونَ) النمل/٥٦ وفي هذا دلالة: على شدة فسادهم وشذوذهم حين انقلبت عندهم المقاييس الإنسانية الصحيحة! عندما يعتبرون أهل العفة والشرف والطمهارة هي الصفة الغريبة والمرفوضة والمنكرة عندهم، وأهل الفساد والرذيلة والشذوذ والقذارة هي الصفة الطبيعية المألوفة والمدعومة عندهم!! فائدة: بمقدار ما يبتعد الإنسان عن منهج الله يقع في المنكرات، ويرتكب أنواع الفواحش بنفس مقدار هذا الابتعاد، وقوم لوط (لعنهم الله) عملوا عما يترفع عنه الحيوان ونكحوا أدبار الرجال وتعلقوا بها وعبدوها!، فكانت همهم ومقصدهم وشهوتهم هذه الأدبار النجسة القذرة! فتكون قيمتهم ما يخرج منها!، في غرر الحكم (ما أبعث الخير من همته بطنه وفرجه) وهذا دليل على أنهم أناس قدرون ساقطون في مستنقع الشذوذ العفن، والمنحرفين عن الطبيعة البشرية السوية، والذين يرتكبون أشنع الذنوب ما لم يكونوا يعرفون نتائجها الخطيرة عليهم، سيبتليهم الله ببلايا غريبة ما لم يكونوا يحسبون لها من أضرار وردود أفعال خطيرة، كمرض الايدز (وغيره) الفتاك بالمنحرفين جنسياً كما في جاهليتتنا الحديثة، والإنسان الذي يصل إلى هذا المستوى من الرذيلة فسوف يستحق كل فضيلة، ويستهن بالعواقب ولا يحترم الفضلاء، في غرر الحكم (مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ: ظُلْمُ الْكِرَامِ) (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ) وهكذا الذي يُعرض عن منهج الله، فيجذبه طريق الشيطان كقوله (وَرَيَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الانعام/٤٣ وقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧. وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣.

٣٠ ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

ولما استفذ لوط كل الوسائل التبليغية، ووصل إلى الباب المسدود، ويئس من إصلاحهم وأصبح وجوده معهم نشازاً وخطيراً، تضرع إلى الله واستغاث به سبحانه ليعينه وينصره عليهم، فإنهم مفسدون كثيراً في البلاد والعباد، ولا يُرجى منهم صلاح، وقد أغرقوا أنفسهم في الرذيلة، فلا تليق بهم الفضيلة، فصار هلاكهم خيراً من حياتهم، كما قال نوح (إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) نوح/٢٧.

٣١-٣٢- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ، قَالَ لَنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

فاستجاب الله دعاءه، (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا) من الملائكة المقربين وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فمروا بإبراهيم قبل ذلك يبشرونه بإسحاق من زوجته التي كانت عقيماً، ومن بعده يعقوب حفيده بن إسحاق (قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) جئنا لنهلك قرية قوم لوط التي تعمل الخبائث (إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) لأن أهلها بالغوا في الكفر والظلم لأنفسهم ولأمتهم، وطبيعتهم البغي والاعتداء والعناد والفساد كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٢٩، ٣٢- (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا) كيف تهلكون أهل القرية وفيهم نبي الله لوط؟ (قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا) نحن أعلم به وبمن فيها (لَنَجِيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) الغابرين: الباقين مع الهالكين، لأنها كانت تساعدهم على الفساد، وتقرّ جرائمهم وشذوذهم وانحرافهم، وهو أمر عجيب لجرأتها على تجاوز ولاية قوامة زوجها عليها، فهي ناشز، وعجيب من معاناة زوجها النبي الشديدة منها، لعلاقته الشريفة بها! كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) النازعات/٢٦ وقوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُعْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ) التحريم/١٠، فما ينفع زواج الأنبياء الطاهرين مع الزوجات اللئيمات الناشزات؟ فما طردَ عنها شرّاً، ولا جلبَ إليها خيراً، لأن الأرض السبخة لا ينفعها الماء الحلو العذب، أهله: اتباعه المؤمنين، وأنهم كأهله، ومنهم بناته، ولكن امرأته لم تكن من أهله! فائدة: ١- في الآية دلالة إن الله يعامل المفسدين ولا يهملهم، ولا يحبّ عملهم كقوله (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الفُسَادَ) البقرة/٢٠٥، وسوف ينتقم من المفسدين في الوقت المناسب كقوله (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) الكهف/٥٩، كقوله (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) المائدة/٩٥، ٢- فعل اللواط فعله الشّواذ الذين انحرفوا، ولم يفعله الجميع، لكن العذاب شمل الجميع، لأنهم سكنوا عن ذلك فأطلق صفة الظلم عليهم جميعاً (إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) عن النبي (ص) (أَنَّهُلِكَ وَفِينَا الصَّٰلِحُونَ قَالَ (ص) نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ) تفسير المراغي ١٦ ص ٢٠.

٣٣- ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَكَانَ أَخْرَجْنَا مُجْرَمًا وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

ولما دخلوا الرسل على لوط وهو لا يعرفهم (سِيءَ بِهِمْ) ساءه مجيئهم خوفاً عليهم، حزن بسببهم (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) ضاق قلبه وضعفت طاقته عن حمايتهم، وخدمة ضيافتهم وتدبير أمرهم، وحرار في كيفية التعامل معهم، لأنهم حسان الوجوه في هيئة فتية، بثياب حسنة وريح طيبة، بعنوان ضيوف لوط، ووطن أنهم من أبناء السبيل، فخاف عليهم من اعتداء قومه الأشرار، وهو عاجز عن ردّهم، وبينما هو في هذا الكرب والضيق، وإذا بالضيوف كشفوا عن هويتهم، ولم يعرف لوط أنهم

ملائكة، وهذا دليل أن الأنبياء (ع) لا يعلمون الغيب، وإنما يعلمهم الله بقدر الحاجة، ما لم يكونوا يعلمون، كقوله (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الجن/٢٦-٢٧ وقوله (وَلَوْ كُنْتُمْ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) الأعراف/١٨٨ (وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ) وقالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا الفرق بين الخوف والحزن: الخوف: يتعلق بما يحتمل وقوعه من أحداث خطيرة في الحاضر، ومصاعب المستقبل، والحزن: يرتبط بالأحداث القطعية، والمصاعب المؤلمة التي وقعت في الماضي (إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَّ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) كانت من الهالكين الباقين في العذاب المهين المذل، لرضاها بفعلهم ودفاعها عنهم، وكانت تدلهم على ضيوفه فيقصدونهم بالسوء، فصارت شريكة لهم في الجرم. عن الإمام علي (ع): (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ، شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧٥. وأيضاً الساكت عنه، والحاضن له شركاء فائدة: لن تستفد امرأة لوط من أخلاق زوجها النبي وعلومه، كما لم تستفد المرأة الحسنة في منبت السوء، كما لا تستفد المرأة الحمقاء من المواعظ والحكم، لذلك سماها القرآن إمرأته ولم تكن من أهله، وسمى المؤمنين أهله! في غرر الحكم (الجاهل لا يرتدع، وبالمواعظ لا ينتفع)

٣٤-٣٥- ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(إِنَّا مُنْزِلُونَ) عليهم (رِجْزًا) عذاباً أعدناه إعداداً من لدنا، تضطرب به نفوسهم، وتنخلع له قلوبهم (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) يخرجون من طاعة الله، لأن الفسق والشذوذ القدر تغلغل في طبائعهم، وصاروا يستدوقونه استدواقاً، وأشهر الآراء في عقوبتهم: إن زلزلة خسفت بهم الأرض، وابتلعتهم في باطنها كقوله (فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) الحجر/٧٤، وصار مكان قريتهم بحيرة مالحة لا حياة فيها تسمى (البحر الميت) وقيل إنها اليوم مجهولة المحل، ٣٥- (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ولقد أبقينا مما فعلنا بهم (آيَةً) عبرة بيّنة وعظة زاجرة (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لقوم يستعملون عقولهم، ويتدبرون الأمر، وجعلناها عبرة لمن يعتبر، كقوله (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢ في غرر الحكم: (وَمَنْ جَهِلَ قَلًّا إِعْتَبَارُهُ) وأحسر الناس من كان عبرة للناس، وفيه إشارة إلى شرف العقل الذي يُحذّر ويردع عن الخطر (رِجْزًا) الرجز: العذاب الشديد بأنواعه، من السماء كالخسف والحرق الذي يُقلق المعذب ويرهبه فتضطرب نفسه ويهلك وجوده، إنها شجرة الشذوذ الخبيثة التي فسدت وأنتنت فلم تعد صالحة للحياة، ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والاستئصال والتحطيم، في غرر الحكم (مَنْ إِعْتَبَرَ الْأُمُورَ، وَقَفَّ عَلَى مَصَادِقِهَا).

٣٦-٣٧- ﴿وَالِي مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَكَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

(قصة شعيب) مدين: قبيلة مشهورة آنذاك، وأرسلنا إلى مدين ابن إبراهيم (أَخَاهُمْ) في النسب (شُعَيْبًا) (فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) فقال لقومه ناصحاً ومذكراً: يا قوم وحدوا الله وتمسكوا بمنهجه، واعملوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر، يوم الجزاء في يوم القيامة (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) تَعْتُوا: العتوا أشد الفساد وأكثره وأسرع انتشاراً وخطورة. أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواعه كالبغي والعدوان، والفساد الأخلاقي والاقتصادي والاجتماعي.. إلخ، فائدة: عبادة الله الواحد هي القاعدة الأساسية لوحدة العقائد والرسل والرسالات السماوية جميعاً، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ، وَالذِّكْرُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ) وإن اختلفت الأساليب والأدوار والظروف، ولكنها تتفق بوحده الهدف والغاية والهداية، والاستعداد لليوم الآخر كفيل بتحويلهم وإصلاحهم عما كانوا يرجونه من الفساد في الأرض، فصارت العبادة والإيمان باليوم الآخر هما ركنا السلامة، ومقابله نشر الفساد والاسراف فيه هما ركناً الندامة، والذي لا يعرف كيف ينتهي إلى سبيل الخير، لا يعرف كيف يبدأ للوصول إليه، حيث أن البداية مرتبطة بالنهاية، ٣٧- (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) الرجفة: الزلزلة الشديدة التي فيها الصيحة. فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله بالرجفة وهي الزلزلة الشديدة المدمرة للبلاد والعباد، مع صيحة رهيبية هائلة مرعبة صعقتهم وأخرجت قلوبهم من حناجرهم كقوله (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) يس/٢٩ (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) جَاثِمِينَ: هلكى، ميتين ألقى بعضهم على بعض بصورة ذليلة مخزية، كما تلقى القمامة للتخلص منها، جزاء ما كانوا يروعون الناس، مغيرين عليهم صائحين بأصواتهم البشعة ومرهيبهم فيكون الجزاء من جنس العمل، والعقوبة على قدر الجناية، والنتائج على قدر المقدمات.

٣٨- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾

وأهلكنا كذلك (وَعَادًا) قوم هود (وَتَمُودَ) قوم صالح، وقد ظهر لكم من مروركم على مساكنهم أننا أهلكناهم بذنوبهم أفلا تعتبرون؟ مساكن ثمود شمال الحجاز في الطريق إلى الشام، ومساكن عاد بأرض الأحقاف تقع جنوب الجزيرة العربية قريباً من اليمن (وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) وَحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ القبيحة، واستهواهم بالمعاصي ورغبهم بالفساد والكفر حتى رأوها حسنة، بسبب غرورهم بأنفسهم، وانخداعهم بما هم فيه من قوة وقدرة ومتاع وغناء، (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) فَصَدَّهُمْ: فمنعهم عن سبيل الهدى، السبيل الواحد المؤدِّي إلى الإيمان وضيّعوا عليهم فرصة الهداية، كانوا قبل انحرافهم (مُسْتَبْصِرِينَ) عقلاء مدركين متمكنين من التصبر والتدبير والتفكير ويعيشون بمشاعر عبادة الله ودين التوحيد، وهو دين الفطرة وحياة النفس، وكانت أمامهم دلائل الهداية واضحة، ولكنهم لم يستدوقوا حلاوة الايمان، ولم يتغلغل في قلوبهم، (وَكَانُوا

مُسْتَبْصِرِينَ) ولكنهم بلا وعي، وتغلبهم الشبهات والحرمات ويأخذهم الكبرياء، ويتمكّن منهم الهوى والأنا والنفس الأمارة بالسوء، ولكن الشيطان استهواهم واستدرجهم وزين لهم أعمالهم الفاسدة، وآتاهم من نقطة ضعفهم المكشوفة، فلم يهتدوا ولم يستبصروا تكبراً عناداً، فلم يكن لهم عذر في الغفلة، وعدم التدبّر في العواقب كقوله (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا) الفرقان/٢٩ وقوله (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ) مجّد/١٤، عن الإمام علي (ع) (وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَىٰ تَضَرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ) البحار ٢٩٣/٧٧.

فائدة: ليس المهم ان يعقل الإنسان ويفهم ويستبصر الحقيقة فقط، بدون تفاعل ولا تأثير، وإنما الأهم من ذلك تثبيت الموقف المؤثر المتفاعل الصحيح المنسجم مع ما يعقل ويقتنع، فان الإنسان يحيا بمواقفه المميزة المؤثرة أكثر مما يحيا بعمره، ويموت معنويّاً وتدرجياً إذا يفقد حالة التأثير بالصالحين، كقوله (وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدْعُ فِي الْأَرْضِ بَعِيرَ عَالِمٍ (إمام صالح) ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل) البحار ٢٣ص ٣٦ فكم من إنسان يعرف الحق وليس له القدرة على الثبات عليه لضعف إرادته، تراه ينحدر مع الباطل ويخدعه الشيطان، والذي يستطيع الشيطان أن يضله عن الحق بعدما جاءه من العلم، معنى ذلك إنه شخصية قلقة متقلبة متذبذبة ضعيفة، بل أضعف من كيد الشيطان! كقوله (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء/٧٦، وقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الأعراف/٢٠٢.

٣٩- ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾

وكذلك أهلكننا من يستحق الهلاك، وهم مثلث الرجس والعتو والضلال (وَقَارُونَ) صاحب الكنوز الكثيرة رمز الثراء والخيانة والغرور (وَفِرْعَوْنَ) الطاغية رمز الكبرياء والطغيان والسلطة، ووزيره ومستشاره (وَهَامَانَ) الذي كان يعينه على ظلمه وبطشه، فهو رمز الدهاء والإغراء والبلاء، والمكائد والخبث السياسي والإعلامي، أولئك المتمردون العتاة (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ) بالحجج الباهرة والمعجز الخارقة (فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) فَاسْتَكْبَرُوا عن عبادة الله وطاعة رسوله موسى (وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) سَابِقِينَ: غالبين أو استسلموا وما كانوا فائتين من عذاب الله كما يفوت السابق، فالسابق: استعارة بلاغية جميلة وكناية عن الغلبة والإحاطة بهم، أي ما كانوا ليفلتوا من عذابنا، وكنا مقتدرين عليهم بالهلاك، ولم يستطيعوا الفرار من العذاب، فلم ينفعهم الثراء والدّهاء! فائدة: مرة يربط الله الأعمال بالنتائج، ومرة يربط الأشخاص بالنتائج، فالأعمال المنحرفة أو الأشخاص المنحرفين عن الاستقامة، يؤدي بهم إنحرافهم إلى النتائج الوخيمة والبلايا الجسيمة،

ويعتبرها سنة جارية لا تتبدل ولا تتحوّل ولا تتغير، تبعاً لتغيّر الزمان والمكان كقوله (فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) فاطر/٤٣ .

٤٠ - ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

فكلاً من هؤلاء المجرمين أهكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته، فيكون الجزء من جنس العمل، وهذا دليل على أنه تعالى لا يعاقب أحد إلا بذنبه، كقوله (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا هَا مُنْدِرُونَ) الشعراء/٢٠٨ (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) حاصباً: ريحاً مدمرةً عاصفةً فيها حصى ثقيل وصغير كالرصاص، أصابت قوم عاد ولوط (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) الصَّيْحَةُ: العذاب بالصوت الرهيب المرعب، والصرخة الهائلة مع الرجفة المزلزلة لقوم ثمود، فانشقت قلوبهم وزهقت أرواحهم وهم أذلاء لا قيمة لهم (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) خَسَفْنَا بِهِ وبداره وأملاكه الأرض كقارون وأصحابه (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا) أهلكناهم بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنوده (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ) وَمَا كَانَ اللَّهُ وما ينبغي له ولا يليق به (لِيُظْلِمَهُمْ) ويعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً، فلا يصدر ذلك عن حكيم (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ولكن ظلموا أنفسهم بتجاوزهم الحدود الحمراء كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٢٩ فاستحقوا العذاب والهلاك كقوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩ وقوله (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) الأعراف/٤٤، قال رجل لأبي ذر: عظمي يا صاحب رسول الله قال له: لا تسيء إلى نفسك، قال الرجل: وأي عاقل يُسيء إلى نفسه؟ قال: كل من يعصي الله فقد أساء إلى نفسه، التفسير المبين ص ١٢١ .

فائدة: ١- يُرْتَّبُ اللَّهُ تعالى الأسباب على النتائج، فالإنسان الذي يصنع الأسباب للأعمال التي يعملها، فتقوده إلى النتائج المترتبة عليها، والله تعالى يرتب المقدمات التي عملها الإنسان على النتائج المترتبة عليها، فهم تجاوزوا الحدود فظلموا أنفسهم كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، وقوله (فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨ ٢- إثم خدعوا أنفسهم فسلبوا حقها، وأهانوا كرامتها فضرّوها وخسروا كل شيء، وأعلى شيء وهي أنفسهم كقوله (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام/١٢، عن السيد المسيح (ع) (مَادًّا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ لَوْ رِيحَ الْعَالَمِ كُلُّهُ، وَخَسِرَ نَفْسَهُ)!

٤١ - ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَمَكِ ابْتَدَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَمَكُ ابْتَدَتْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

هذا مثل ظريف لتقريب الحقيقة البليغة الدقيقة واسعة الدالة، ضربه الله لمن عبد معه آلهة أخرى كثيرة وانساق معهم! لذلك جاءت (أَوْلِيَاءَ) بالجمع، أي: إنه مجرد أن تترك الحق الواحد تقع في الضلال المتعدد كقوله (فَمَادًّا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، المعنى: (مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ) على سعه معناها، أي أصناماً حجرية أو أصناماً بشرية، أو غلو أو

مناصب أو أرباباً يديرون لهم أمورهم، وأنصاراً يلجؤون ويكفون إليهم ويعتمدون عليهم (مِنْ دُونِ اللَّهِ) كمثل العنكبوت (اتَّخَذَتْ) لنفسها بيتاً من نسجها، تأوي إليه وتعتمد عليه، وهو بيت بلا أساس ولا جدار ولا سقف يدفع عنها، لا يغني عنها حر ولا برد ولا غيث ولا أذى، ولذا كان سريع الزوال، كما كان سريع البناء! (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) لا بيت أهون منه، وإنَّ (أَوْهَنَ) أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته، إذ يضمحل ويخرب بأدنى سبب ولا يحميها من عدو (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أن هذا مثلهم لندموا وما اتخذوهم أرباباً وأنصاراً كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) الفرقان/٢٣ أي من اعتمد شيئاً (مِنْ دُونِ اللَّهِ) فهو هباء منثور في عاقبة أمره، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنْمُكَ)!

فائدة: ١- عن الإمام علي (ع) (طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيوت يورث الفقر) البحار/٧٦٤/٣١٤، ٢- إنه تصوير دقيق عجيب صادق لحقيقة القوى المتصدرة الحاكمة في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، وتختل في أيديهم جميع الموازين وتخدعهم قوة الحكم والسلطان، ويحسبونها القوة القادرة والمؤثرة فيتوجهون إليها ويخشونها ويترضونها، ليكفوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها، تخدعهم قوة المال وقوة العلم وقوة القدرة والعدد والعدة، وهم ينسون القوة الإلهية النافذة والمؤثرة الوحيدة فلا يلتفتون إليها، والعنكبوت ضعيفة في كيانها وفي بيتها، وبيتها أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، وحين اتخذوا من دون الله أولياء يتعززون بهم فازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم كقوله (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) النساء/١٣٩.

في غرر الحكم: (مَنْ إَعْتَرَى بِعَيْرِ اللَّهِ أَهْلَكَهُ الْعِزُّ) فلا عزة لمن لا يطيع الله، ولا رفعة لمن لا يتواضع لله، وعن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ، وَغِنًى بِلَا مَالٍ، فَلْيُخْرِجْ مِنْ دُلِّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللَّهِ) البحار/٧٨ص١٩٢، إن هناك قوة واحدة مؤثرة في هذا الوجود هي قوة الله عز وجل، وما عداها قوة الخلق مهما قوت وتنامت فإنها قوة ناشئة محددة مؤقتة مقيدة هزيلة ضعيفة واهنة أمام قوة الله القاهرة كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١، ومن تعلق بقوة الخلق واحتتمى بها من دون الله، فهو كالعنكبوت الضعيفة اتخذت بيتاً تحتتمي به من خيوط واهنة واهية، فهي وما تحتتمي به نشأ من وهن وضعف، كقوله (وَإِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) مريم/٨١-٨٢ لأن أكثر الناس لا يعلمون السنن الإلهية، فيخدعون بالقوة الظاهرية المتنوعة، وبالتطورات الشكلية المختلفة، فيعيشون الاهتزازات النفسية، والترددات الفكرية وضعف العزائم، والبحث عن المصالح الخاصة المؤقتة، فبلغ بهم الجهل وسوء التدبير حداً لا يستطيعون معه العلم، ولا ينتفعون من الموعظة ولا يحسبون حساباً للعواقب!

وليس هناك إلا حماية الله، الحصن الحصين، وركنه القوي المتين، مدبر الأمور، وهذه الحقيقة الضخمة هي التي أكد عليها القرآن لينشأ عليها المؤمنون، وتستقر في قلوبهم ولم تعد كلمة تقال باللسان، بل بديهية ثابتة مستقرة في النفس المؤمنة، وما عدا هذه الحقيقة الخالدة فهو واهن هزيل مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، إنها كبيت العنكبوت في حساب الله وحساب العقيدة، حين تصح العقيدة، ويصح الفكر والسلوك، عن النبي (ص): (الإِسْلَامُ يَسْبُكُ الرَّجَالَ كَمَا تَسْبُكُ النَّارُ حَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) كثر العمال ج ١ ص ٧٨، ٣ - تشبيه الأولياء والأنصار (من دون الله) بنسيج العنكبوت، إعجاز قرآني بلاغي دقيق ينفذ بالمشاعر بلا استئذان، والعنكبوت بيتها من لعابها، الذي إذا لامس الهواء تماسك بصورة خيوط رقيقة واهية، وهؤلاء المشركون يمتنون بقوى يطمئنون إليها، إنما أقاموا معتقداتهم من قناعاتهم المادية المنحرفة ونفوسهم المحدودة الفاسدة، فتتشكل منها تلك الأوهام الخادعة، التي ظاهرها يسر ويغرر وتمر وباطنها يضر، فلم يغن عنهم أولياؤهم (من دون الله) شيئاً. في غرر الحكم: (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ!) وفيه أيضاً (مَنْ جَعَلَ مُلْكُهُ حَادِمًا لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ)، عن النبي (ص) (وَيْلٌ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ) كثر العمال خبر ٢٩٠٩١، روي: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الدُّنْيَا قَالَ لَهَا، يَا دُنْيَا: مَنْ خَدَمَنِي فَاحْدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَحْدِمِيهِ) روح البيان ٧٣/٣.

المثل الذي يضره الله للاعتبار: في غرر الحكم (الإِعْتِبَارُ يُفِيدُ الْعِصْمَةَ) لبيان حقيقة مهمة دقيقة أقرب شيء إلى الواقع، ويكون مثلاً حقيقياً لا خيالياً، علاقة العنكبوت ببيتها علاقة مؤقتة وسطحية، فهو لا يسكن في بيته ولا يجني فيه طعامه، ولا يدخر فيه شيئاً، فهو بيت هزيل يتخذه ليعيد به فريسته من الحشرات التي يقتات عليها، فيكون فوائد بيته له قليلة ومحدودة، وأضراره عليه كثيرة وممدودة، فبيته يثير الاشتمزاز والكراهية في نفوس الناس، يجمع الأتربة والأوساخ ويورث الفقر والبؤس وقيل: بعض العناكب من المسوخات والمسمومات.

٤ - هناك فارق بين مظاهر القوة ومكامن حقيقتها، وفارق بين شكل الشيء وبين محتواه ومضمونه، عندما ترى الناس قوة الظالمين فيخشونها، وينسون قوة الله فوق كل قوة كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، وهم ينسون أنه لم يقو الباطل إلا على أساس ضعف أهل الحق، وأنهم عندما ينسون الله ينساهم مصلحة أنفسهم كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) الحشر/١٩ (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) شبههم الله ببيت العنكبوت (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) سنن الله، ويعقلون عن الله رسالته المصنونة، عندئذ يعرفون أسرار هذه الحقيقة الكبرى وأبعادها، وتكون للباطل جولة ومهلة وقد تطول في ميزان الناس، ولكن النتيجة للحق صولة ودولة مستقلة موعودة، كقوله (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/٨٣ وقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥،

وقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣، عن النبي (ص) (إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، قَالُوا وَمَا الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ الدِّينَ يُصْلِحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ) شرح النهج ١٩١/٧.

٤٢-٤٣ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْمَلُونَ إِنَّا

الْعَالِمُونَ ﴿٤٢﴾

هذا زيادة توكيد على التمثيل والتشبيه ببيت العنكبوت، حيث انهم (ما يدعون من دونه من شيء) فهو في الحقيقة البعيدة ليس بشيء، ولا عزة ولا وزن ولا حقيقة له ولا تدبير له مع تدبير الله المحكم. هو تعالى يعلم بما عبدوا من دونه لا يخفى عليه ذلك الشرك الظاهر أو الخفي، وسيحاسبهم على كفرهم فأين يذهبون؟ (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الْعَزِيزُ) في ملكه، لا يغلبه شيء، فلا يشاركه في ملكه أحد (الْحَكِيمُ) في تدبيره فلا يفوض تدبير خلقه إلى أحد، كقوله (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) البقرة/٢١٠، ٤٣ - (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ) وتلك الأمثال في بيت العنكبوت ونظائره نبئها لعامة الناس في القرآن لتقريبها إلى أذهانهم، لمعرفة قبح ما هم عليه من الاعتماد على غير الله تعالى، وحسن الإيمان بالله وتوحيده وأثره في واقع الحياة، والأمثال تضرب للاعتبار، لأنها تُقَرِّبُ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ فَيَتَّضِحُ مَعْنَاهَا، لَأَنَّ فَهْمَهَا مَهْمٌ لِلْجَمِيعِ، فمن لم يعقلها ليس من أهل العلم والعقل (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) وما يدركها ويفهمها ويتدبر معناها ومغزاها ودلالاتها الواسعة، إلا العلماء والمفكرين والواعين والباحثين بصدق، الذين يعقلون عن الله تعالى منهجه، والذين يتدبرون الأشياء ويرونها على حقيقتها، والقرآن لا يخاطب الجهلاء الذين يتبعون الاتباع الأعمى، بل ويُحذِرُ مِنَ الْجَهْلِ كَقَوْلِهِ (إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) هود/٤٦، هذا هو دين الله، هو دين الحياة والعلم والإيمان والحب والإنسانية، دين يخاطب العلماء والعقلاء المفكرين كقوله (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة/١١ كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا) البقرة/٢٦.

عن النبي (ص) (الْعَالِمُ: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ) المراغي ١٤٥/٢٠، وقال المشركون الجهلاء الخبثاء: إِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ يَتَحَدَّثُ عَنِ الذَّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ، ولم يهز مشاعرهم هذا المعنى العجيب والتشبيه المؤثر لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون فائدة: قال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) لم يقل (وما يعلمها إلا العاقلون) والعقل يسبق العلم، بالعلم تنمو الحياة، في غرر الحكم (إِكْتَسَبُوا الْعِلْمَ يُكْسِبِكُمُ الْحَيَاةَ) وعلى قدر العقل يكون العلم، وعلى قدر العلم يكون سعة آفاق العقل، كقوله (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ) الحج/٥٤ دلت الآية على فضل العلم على العقل، ولا عالم إلا وهو عاقل، فأما العاقل فقد يكون غير عالم، وكم من عاقل لا

يستفيد من عقله، والعقل القوة التي تدرك العلم، والعلم الذي يستفيد منه الإنسان بالعقل، عن الإمام الرضا (ع) (صديق كل إنسان عقله وعدوه جهله) فتكون حسن العبادة بقدر كمال العقل، وجلال العلم، وجمال العمل به كقوله (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) البقرة/٢٦٩، عن الإمام الحسن (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَفَكَّرُ فِي مَأْكُولِهِ كَيْفَ لَا يَتَفَكَّرُ فِي مَعْقُولِهِ؟! فَيَجَنَّبُ بَطْنَهُ مَا يُؤْذِيهِ، وَيُودِعُ صَدْرَهُ مَا يَرِيدُهُ) البحار/١/٢١٨.

٤٤ - ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) على أساس الحق الثابت، مريداً بهما الحق والعدل والخير، لا الباطل ولا العيب ولا اللعب ولا اللهو كقوله (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ) آل عمران/١٩١، وقوله (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) الأنبياء/١٦ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) لدلالة للمصدقين بمنهج الله وقدرته سبحانه، وفي ذلك لآية ودلالة لهم ولغيرهم، ولكن الذين آمنوا وحدهم الذين يدركون الحكمة والمصلحة منهما، ويهدفون نصره الحق والحقيقة والعدل والخير، خلقهما لينتفع البشر فيهما وهما دلالة على قدرته وعظمته ووحدانيته، فنعرف الله من خلال مخلوقاته لأن المؤمنين المفكرين أصحاب البصائر المتفتحة النافذة، والمشاعر الحية المتلقية المدركة، ليعملوا بأمره وشرعه وتتم نعمته على عباده المؤمنين في الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالجنة. فائدة: قوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) الحج/٦٢، فلا يصدر من الحق المطلق إلا الحق، من أجل نصره الحق، فإذا نصر الحق زهق الباطل، فالحق أقوى نصير وأفضل ظهير ومعنى الحق: خلق الله كل شيء لأهداف سامية حتى تندبر بمخلوقاته، ومن عرف المخلوقات عرف خالقها، في الحديث القدسي عن الله تعالى (كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأُرِدْتُ أَنْ أَعْرِفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أَعْرِفَ) روح البيان/٦/١١٢، وفي الحديث القدسي عن الله تعالى (خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْتَحُوا عَلَيَّ لَا لِأُرْبِحَ عَلَيْهِمْ) روح البيان/٦/١١٢ وفيه أيضاً (لَا تَسْعُنِي لَا أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَإِنَّمَا يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ) مواهب الرحمن/٩/٢١٥ وفيه أيضاً (خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي) فحث القرآن على التفكر وأثاب عليه، فإنه حياة القلوب، وانسراح الصدور، ويوسع آفاق العقول، ثم يتزقى بالتفكر فيرى الأشياء على ما هي عليه، ويدرك فلسفة الحياة، وكأنه يرى ما وراء المرئيات، فيصدق الإنسان مع نفسه ومع ربه ومع الناس ويفوز بصدقه، كقوله (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) المائدة/١١٩، عن الإمام الكاظم (ع) (مَنْ صَدَّقَ لِسَانُهُ زَكَّى عَمَلُهُ) البحار/٧٨/٣٠٣، كما قيل: غضوا أبصاركم عما حرم الله عليكم، ترون العجائب، وتنكشف لكم الأسرار، وتدركون الحقائق، وتنسقون مع الأقدار.

٤٥ - ﴿ اٰتِلْ مَا اُوْحِيَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَاَقِمِ الصَّلَاةَ اِنَّ الصَّلَاةَ تَنهى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَكَذِكْرُ اللّٰهِ الْكَبِيْرُ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُوْنَ ﴾

نلاحظ السياق القرآني البليغ الهادف الأخاذ النفاذ، يربط الصلاة وذكر الله تعالى بالحق، الذي قاعدته خلق السماوات والأرض، وبسلسلة الدعوة إلى الله من لدن نوح وإلى النبي مُحَمَّد (ص) الخاتم، وفي ذلك دلالة على الترابط بين السنن الإنسانية والسنن الكونية، بصلة متينة واحدة موحدّة متّحدة، وهذا الترابط له معاني واسعة الدلالة المعنى: (أثُل) من التلاوة، أي أقرأ يا مُحَمَّد من هذا القرآن المجيد السديد، الذي أوحاه ربك إليك، وتقرب إليه سبحانه بكثرة تلاوته، وعدم هجرة، تلاوة متدبرة واعية صحيحة مع نفسك وعلى الناس، ومعنى تلاوته: التعلّم منه واتباعه وتدبّر معانيه وإقامة دين الله في نفوسنا وسلوكنا وأخلاقنا، ففي القرآن محاسن الأحكام والعلوم والقصص ومكارم الأخلاق، ليعملوا بها وفيه (تَيْبَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) النحل/٨٩، وفيه (وَتَفْصِيلٍ كُلِّ شَيْءٍ) يوسف/١١١ (مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) الأنعام/٣٨، فهو زادك وذخرك وذخيرتك في الدعوة، لكونه قمة القمم، ونعمة النعم، وعالي المضامين فهو يهدي إلى التقوى وصرط مستقيم، وحرز من الذنوب، وورع عن محارم الله (وَمَنْ أَتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ) كقوله (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) البقرة/٢١٧، وفي غرر الحكم (التَّقْوَى: حِصْنٌ حَصِينٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ) والقرآن خير مؤدّب وراذع عن ارتكاب الفحشاء والمنكر (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) وأدّ الصلاة واعتن بها واجعلها في متن حياتك، وأهم اهتماماتك، ودُم على إقامتها في أوقات فضيلتها وبأركانها وبكامل شروطها وآدابها، واتقن جميع أركانها وأجزائها وحركاتها وسكناتها وتفاعل معها، واخشع فيها، فإنها عمود الدين، كقوله (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) طه/١٤، عن الإمام علي (ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ دَقِيقٌ) فَصَنَ وَفَى ، اسْتَوْفَى) البحار ٢٦٤/٨٤ (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) إِنَّ الصَّلَاةَ الْمَقْبُولَةَ الْمُسْتَوْفِيَةَ لشروطها هي التي تفصلك عن مشاغلك في الدنيا وتوصلك بالله تعالى، وكلما ازداد الانفصال عن الدنيا، ازداد الاتصال بالله تعالى، لذلك يخاطب النبي بلال فيقول له (أرحنا بها يا بلال)!

والصلاة: عبادة قيمة وتزكية للنفس وتطهير للروح وتهذيب للطباع، فلا يتناسب معها دنس الفحشاء والمنكر، ولا ينسجم مع منهجها التربوي إرتكاب الذنوب الكبيرة ولا الصغيرة، لأن الصلاة تربية على التقوى، والتقوى عصمة من الزلل وتسديد في القول والعمل، وهي وسيلة تربوية عالية المضامين، لها آثار جليلة تتركها الصلاة في طبائع المصلين، من تزكية النفس وتهذيبها ومن إيقاظ المشاعر الطيبة في نفوسهم، وترسيخ فيهم الصفات التربوية الروحية والأخلاقية الحميدة، والصلاة خير وسيلة (تَنْهَى) تردع وتمنع وترفع صاحبها (عَنِ الْفَحْشَاءِ) وعن كل المعاصي القبيحة، والذنوب الكبيرة (وَالْمُنْكَرِ) وتردع عن كل منكر ينكره الشرع، وينفر منه الطبع السليم، والفتوة المستقيمة، ردعاً مانعاً جامعاً بين الصغائر والكبائر، والقول والعمل، والعبادات والمعاملات، وفي السرّ والعلانية، فإن علاقة الآيات القرآنية بالآيات الكونية، هي العلاقة بين المحسوسات والمعقولات، وبهذه تكتمل المعرفة ويثبت العلم ويحصل اليقين بالله رب العالمين، كقوله (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) الحجر/٩٩ (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ولذكر الله أكبر من كل شيء في

الدنيا وفي الآخرة، وأن تتذكر عظمة الله وجلاله بخشوع، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك، وفي أمور حياتك ومعاملاتك، ولا تغفل عنه في جميع شؤونك، في غرر الحكم (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن) (وَلَذِكُرِ اللَّهَ أَكْبَرُ) من الردع عن الفحشاء والمنكر، فهو أثر من آثارها الحسنة، ولذكر الله للعبد برحمته، أكبر من ذكر العبد لله بطاعته كقوله (فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) البقرة/١٥٢ (وَلَذِكُرِ اللَّهَ أَكْبَرُ) وأوسع من أوقات الصلوة، وأعلى من سائر الطاعات، فيكون الذكر أوسع من عمر الإنسان، ويشمل جميع الكون والكائنات.

كقوله (كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) النور/٤١، وقوله (أَلَا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨، في غرر الحكم (الذِّكْرُ لَذَّةُ الْمُحِبِّينَ) من دعاء الإمام السجاد (ع) في الصحيفة السجادية/ دعاء (١١): (يا مَنْ ذَكَرَهُ شَرَّفُ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شَكَرَهُ قَوَّرَ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعْتُهُ نُجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ) من فوائد الذكر: الذكر مفتاح الصلاح، وحياة القلوب، وانسراح الصدور، وتركية النفوس، وقمع للشيطان، وتقرب من الرحمن، وإيقاظ من الغفلة، ويشمر الحب والعصمة والخير والصفاء والنقاء، ويزيد من الورع عن محارم الله، لذلك.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) الأحزاب/٤١ (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) والله يعلم جميع أعمالكم من خير وشر، فلا يخفى عليه شيء، فعليكم أن لا تغفلوا عنه سبحانه، فالشيطان لا يغفل عنكم، وأن تتحسسوا بقربه سبحانه وبجبهه وبجذبه، فهو أقرب إليكم من أنفسكم فيجازيكم بما تصنعون كقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ق/١٦، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، فائدة: ١- الصلاة فيها الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف بأنواعه، والخشية تنهاه عن المنكر بأنواعه، وذكر الله (وتلاوة القرآن) يأمره نحو الخير وينهاه عن الشر، ويركي نفسه ويظهرها من كل الطبائع السيئة، والصلاة التي لا يكون فيها شيء من هذه الصفات فليست بصلاة. عن النبي (ص) : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) البحار ١٩٨/٨٢.

٢- معنى الصلاة:

صلة بين العبد وربّه، ولها نسب ودرجات، فبمقدار ما تحصل الصلة المطلوبة بالله تعالى، بمقدار ما تتسامى روحه وتنجلي نفسه، فتترقّع عن المعاصي والتوافه، وتتقرب إلى الطاعات ومعالي الأمور، ويسمى (الورع عن محارم الله) في غرر الحكم (ورع المرء ينزهه عن كل دنية) فتكون الصلاة قرّة عين العارفين، وهناك فرق كبير بين إقامة الصلاة وبين أدائها، ويذكر القرآن إقامة الصلاة، ولم يقل صلوا، أي إقامة الصلة القوية المهمة مع الله في الصلاة وغيرها، فيكون فعل الصلاة لطفاً ورحمة وتربية وتركية للمصلي، في الحديث (فليس لك من صلاتك إلا ما وعيت)

فبمقدار ما تحصل الصلوة بالله تحصل إقامة الصلاة، وبمقدار ما تحصل الإقامة يحصل الخشوع، وبمقدار ما يحصل الخشوع تحصل تزكية النفس، والورع عن محارم الله، والترفع عن الفحشاء والمنكر، وكثير من الناس يُصلّون أداءً، ولا يقيمون الصلاة بشروطها وشروطها، فلا تنهاتهم عن الفحشاء والمنكر، فهم يؤدون حركات الصلاة بلا صلوة، ولا موصل ولا اتصال ولا انفصال عن أمور الدنيا، ولا يستذوقون طعم الصلاة وخشوعها، فلم يزدتهم من الله إلاّ بعداً. كقوله (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) البقرة/٤٥ لَكَبِيرَةٌ: لثقيلة ومملة، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ قَبْلَتْ صَلَاتِهِ أَمْ لَمْ تَقْبَلْ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْهُ صَلَاتِهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَبَقْدَرِ مَا مَنَعَتْهُ قَبْلَتْ مِنْهُ) مجمع البيان/٣٠/٨، وعن النبي (ص) (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِغِ الصَّلَاةَ، وَطَاعَةَ الصَّلَاةِ أَنْ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) البحار/١٩٨/٨٢، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ مَنَزَلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَعْرِفْ كَيْفَ مَنَزَلَتُهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِثْلَ مَا يُنْزِلُ الْعَبْدُ اللَّهَ مِنْ نَفْسِهِ) البحار/٧١/١٥٦.

الجزء الحادي والعشرون من القرآن الكريم

٤٦ - ﴿وَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) تعبير قرآني نموذجي في مميز، بليغ رقيق، دقيق المبني، عميق المعنى، واسع الدلالة، جامع للإيجابيات مانع للسلبات، سواء أكان ذلك في الأقوال أو الأفكار أو الأفعال أو في الأشكال أو المضامين أو في الإشارات وحكمة العبارات، أو الأخلاق التي تصاحبه، إنه مصطلح حركي واقعي نفاذ في المشاعر، أتحاذ للأحاسيس، ولا يتأهل لاستعماله إلاّ أصحاب الكفاءة والخبرة والتجربة وأهل الاختصاص، ولكن من الضروري الوصول إليه، ومن صبر عليه وصل إليه. فلا ترد الخطأ بالخطأ فتكون مثله، بل أطمح أن يكون حُلُقُكُ القرآن، فتكون قدوة حسنة للآخرين. ولا تحاوروا ولا تناقشوا ولا تدعوا اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، ولا تناظروا في كل الخلافات المذهبية، والنزاعات العقائدية المختلفة إلاّ المجادلة المرنة الكفوءة (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) المجادلة التي فيها أساليب الحوار الناجح الصادق العلمي الموضوعي النموذجي المؤدّب المحبّ الهادئ الشفاف، وهو الرفق واللين في القول، وحسن الخلق وسعة الصدر، بحيث ينشرح ويرتاح ويطمئن له المقابل، ولا يتأذى به الخصم، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالحلم والجهل بالعلم، وأن لا يكون القصد منها للغلبة على الخصم، ودلع العضلات وحبّ الأنا والعلو والتباهي، بل يكون القصد بيان الحق ومعرفة الحقيقة وهداية الخلق، فإن اعتماد الرفق واللين واطهار المحبة، والحرص على وحدة الكلمة، وكلمة التوحيد، هي بداية النجاح والإصلاح كقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) آل عمران/١٥٩،

وَأَنْ يَتَّفِقَ الْمَجَادِلُ مَعَ خَصْمِهِ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْمَشْتَرَكَةِ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَا عَلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سبأ/٢٤، وقوله (تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) آل عمران/٦٤، عن النبي (ص): (إِنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ) كثر العمال خير ٢٨٨٨٦.

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) استثناء من الحكم العام، من كان معانداً ظالماً مكابراً محارباً لكم، ومحرضاً متآمراً عليكم بالعداوة والبغضاء، وهم أيضاً الذين إذا سمعوا الحوار العلمي لا يتبعون أحسنه تعصباً، ولا ينفع فيهم الرفق، لأنهم انحرفوا عن التوحيد، القاعدة المشتركة لكل الرسائل السماوية، فجادلوههم بالغلظة والخشونة والشدة، ولا تجادلوهم بالتي هي أحسن، لأنه لا ينفعهم الرفق واللين، بل يعتبرونه حالةً من الضعف والمذلة والهوان، كقوله (فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) البقرة/١٩٢.

وقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) غافر/٥٦ (وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ) وهذا من مصاديق المجادلة بالتي هي أحسن، وقولوا لهم أيها المسلمون في نقاشكم آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، وقولوا آمنا بنقاط الاتفاق، وآمنا بالتوراة والانجيل (قبل التحريف) التي أنزلت إليكم (وَالِهْنَا وَاهُكُمُ وَاحِدٌ) ربنا وريكم واحد، لا شريك له في الإلهية والخالقية (وَمَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ) من التسليم، أي ونحن له مطيعون منقادون مستسلمون لحكمه خاضعون لمنهجه، فلماذا التعصب والتفرق والتباغض؟ ولكننا بشر نشترك في الحقوق والواجبات، أما من ناحية العقيدة فإن رسالة النبي محمد (ص) مكملية لتلك الرسائل وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر، التوراة والانجيل في أصلها حق من عند الله، والأصول ثابتة في كل الأديان السماوية، فما اتفق منها مع القرآن آمن به المسلمون، لأن الله حفظ القرآن من أي تحريف كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر/٩ وما خالف كتاب الله أعرضوا عنه، كقوله (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ) البقرة/١٨١.

فائدة: (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) شعار التحابب والتآلف والتقارب، عن النبي (ص) (المؤمن يألفُ وَيؤلفُ، وَلَا حَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ، وَحَيْرَ النَّاسِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ) كثر العمال خير ٦٧٩
الأحسن: الأصلح والأنجح الذي يقرب ولا يُبعد، ويبشر ولا ينقر، ويجب ولا يُبغض، وخصت الآية أهل الكتاب، وأريد منها عموم معناها وسعة مغزاها، وسبب التخصيص لأن المفروض في أهل الكتاب أن يتقبلوا الحق (القرآن) ماداموا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما يزعمون. وتعرض الآية قواعد الجدل الموضوعي، والحوار العلمي، والنقاش النموذجي، فيكون هناك موضوع النقاش، وأسلوب النقاش، وأسلوب الحوار أهم ويتقدم على مادة الحوار، في غرر الحكم (ومن

اشتغل بغير المهم ضيَع الأهم) فإذا اشترك الدليل العلمي (حجبة الحوار) مع الأسلوب الفني الدقيق (أسلوب الحوار) ومرونته حصل الجدل الناجح (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) والذي يتبع الأحسن هو الإنسان الأحسن، فيصلون إلى النتائج المطلوبة والمرغوبة، وأن يبدؤوا بنقاط الاتفاق، وتأجيل نقاط الاختلاف، وهذا هو القول السديد المفيد الرشيد بقوله (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) الأحزاب/٧٠. وأن يكون الحوار على قواعد علمية صادقة أولاً (أبدأ معه من حيث يحب، حتى تنتهي من حيث تحب) وثانياً (لا تكن صلباً فتمل، ولا مرناً فتستغل) وثالثاً (المرونة في التعامل، والنبات على المبادئ والأخلاق) كقوله (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) طه/٤٤، كقوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) النحل/١٢٥ وقوله (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فصلت/٣٤ (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) الأنعام/١٠٤ في غرر الحكم: (أَحْلَطِ الشَّدَّةَ بِرِفْقٍ ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَوْفَقَ) عن النبي (ص): (إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزْعٌ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠، (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) وعاندوا واتفقوا على أن يختلفوا، لأنهم حاقدون على الإسلام كارهون للمسلمين، ولا يُؤْمِنُ شَرَّهُمْ ولا يُؤْمَلُ خَيْرَهُمْ.

٢- (وَلَا تُجَادِلُوا) من الجدل والجدال والمجادلة تكون باللسان، ومقارعة الحجة بالحجة كقوله (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة/١١١ والأصل فيها القوة، يقال حبل مجدول أي مفتول من حبلين لزيادة قوته، وحين يتناقش إثنان في موضوع معين، فكل واحد منهما يريد أن يلوي صاحبه عن قناعاته، إلى قناعات جديدة، والقرآن يدعو إلى المناقشات العلمية والمفاوضات الحوارية المنطقية المهذبة والمؤدبة والمفيدة والهادية، بأجواء نفسية صادقة هادئة، لا يوجد فيها إنفعالات وتباغض وخشونة وكراهية، وإن اختلفت الآراء ولكن لا تنقطع المودات والصلوات، وهناك جدال ممدوح وجدال مذموم، والجدال الممدوح: الذي يكون بالحق ومن الحق ليدحض الباطل، ويحجمه والجدال المذموم: كقوله (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) الكهف/٥٦، وقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الحج/٣، وعن النبي (ص) (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَّا أوتوا الجدل) عن الإمام علي (ع) (مَا اِخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِأَطْلَاهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أمالي المفيد ص ١٣٨.

٤٧- ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾

(وَكَذَلِكَ) على النهج الواحد الموحد المتصل، وعلى الطريقة التي يوحى بها الله لرسله (أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) القرآن الكريم، كما أنزلنا إلى موسى وعيسى التوراة والانجيل في توحيد الله والتسليم لمنهجه (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) وهم العلماء المنصفون من أهل الكتاب،

بحسب إنصافهم يعتقدون صدق القرآن، إذ أنهم وجدوا علاماته في كتبهم، كعبد الله ابن سلام، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل وغيرهم، كما أن محتوى القرآن بأصوله العامة منسجم مع كتبهم المنزلة الصحيحة (وَمَنْ هُوَ لَا يُمْرِنُ) ومن أهل مكة أو من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن عن بصيرة وعلم، لا عن رغبة ولا رهبة (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) (يَجْحَدُ) الجحود هو الإنكار (عن علم وفهم وعناد) ما استيقنه القلب، كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل/١٤، أي: وما يُنكر آياتنا مع وضوحها إلا الكافرون الذين يعتمدون الإلحاد والجحود والعناد، المشبهون للحق بالباطل، وهم الذين اتخذوا السبيل الباطل المضطرب ديناً لهم كقوله (فَمَادَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢ (والذي لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصْرُهُ الْبَاطِلُ)، والكفر: في اللغة التغطية والستر والحجاب. عن الإمام الباقر (ع) : (كُلُّ شَيْءٍ يَجْرُهُ الْإِفْرَارُ وَالتَّسْلِيمُ فَهُوَ الْإِيمَانُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرُهُ الْإِنكَارُ وَالْجُحُودُ فَهُوَ الْكُفْرُ) الكافي/٢/٣٨٧، عن النبي (ص) (أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه، يريد أن يفصح بها، أولئك لا خلاق لهم) البحار/٧٨/٢٧٦، لا خلاق لهم: لا أمان لهم.

٤٨ - ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَلْمِزُونَ قُلُوبَكُمْ مِنْ قِبَلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَمْ تَبِ الْمُبْطُلُونَ ﴾

(تقرر الآية أمية الرسول (ص))

وما كنت يا محمد تقرأ من قبل القرآن كتاباً (وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ) ولا تكتبه بيدك، أي ما كنت تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن، لأنك أمي، عن ابن عباس: كان رسول الله (ص) أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب (إِذَا لَمْ تَبِ الْمُبْطُلُونَ) لو كنت تقرأ أو تكتب إذن لآرتاب المبطلون لشك الكفار المبطلون المشككون في القرآن، وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله، مع شيء من التغيير والتطوير، وكل قومك يعرفون أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب ولا تخط حرفاً ولا سطرأ بيدك، بل كان له كُتَّاب يكتبون له وحى القرآن، فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟ وهذه حقيقته (ص) لا تقبل الارتياب، كقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الأعراف/١٥٧، ومن الجدير ذكره: لم يكن في الجزيرة العربية وما حولها درس علمي، ولا مدرسة لتعليم القراءة والكتابة، ولا يوجد مُعلِّم ليحضر عنده ويستفيد منه، وكان مجموع الذين يقرأون ويكتبون في مكة (١٧) رجل وامرأة واحدة. تفسير الأملث/١٢/٣٨٥ الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك أصبحت تعرف علوم الأولين والآخرين، وتحديث بالقرآن الكريم البلغاء والفصحاء والألداء، أن يأتوا بمثله أو بسورة قصيرة من مثله فعجزوا، وهذا دليل على أنك نبي يُوحى الله إليك، ويسدّدك ويؤيّدك كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨، أما أمية العلم فكان (ص) (بما علّمه ربه) عالم العلماء، حكيم الحكماء، صاحب الخلق العظيم، كقوله (وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُونَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ عَظِيمًا) النساء/١١٣ فهذا

القرآن الكريم المعجز يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر، فهو أكبر وأقدر من طاقة البشر، ومعرفة البشر وآفاق البشر، وكل وقفة أمام نصوصه البليغة توحى للقلب بأن وراءه قوة فاعلة محرّكة للمشاعر، ويظهر في عباراته سلطناً مؤثراً في النفوس ومحركاً للمشاعر لا يصدران عن البشر! فكيف يأتي مُجَدِّ (ص) بالقرآن المعجز الخارق وهو أمي؟ فهذا دليل قاطع على أنه كتاب الله (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلًا مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت/٤٢، وقوله (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/٨٢ وقوله (لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) النساء/١٦٦، وهو دليل على أمية الرسول (ص) كقوله (وَلَا يَزْنَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) المدثر/٣١.

فائدة: أسباب النزول: ١- كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن مُجَدِّاً (ص) لا يخط ولا يكتب ولا يقرأ، فنزلت الآية: وقال بعضهم (وَلَا تَخْطُهُ) نهي فليس ينفي الخط، وهذا رأي ضعيف شاذ، لأنه لو كان نهيّاً لكان بنصب الطاء (وَلَا تَخْطُهُ) ٢- سؤال: كيف من الله على نبيّه بأنه أمي، ولا يعرف الخط والكتابة والقراءة، وهي من صفات الكمال؟ **الجواب:** إنما وصفه بعدم الخط والكتابة والقراءة، لأن أهل الكتاب كانوا يجدون من صفته في التوراة والانجيل أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وبذلك يتطابق المنقول مع المعقول، وفي ظروف استثنائية خاصة أن يكون عدم القراءة والكتابة من الكمال، أن يأتي النبي (ص) بالقرآن المعجز الخالد، خاتم الكتب السماوية، وبالسنّة البليغة والسيرة الحكيمة عالية المضامين، فيكون قوله وفعله وتقريره معصوماً عن الخطأ!، حتى أصبحت طاعته من طاعة الله كقوله (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) النساء/٨٠ وقوله (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الأحزاب/٦ وقوله (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) آل عمران/٣١، عن النبي (ص) (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) روح البيان/١٧١/٦ هذا يدل على قوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) النجم/٣-٤، وجاء من مسند أحمد ج ٤ ص ٢٩٨ أن (النبي أمسك القلم بيده وكتب معاهدة الصلح) في موضوع صلح الحديبية، وهذا حديث ضعيف، ويعارض المتواتر، ومخالف لصريح القرآن، تفسير الأمل ٣٨٦/١٢.

٤٩ - ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ مُبَيَّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾

(بَلْ) للإضراب أي كلا ليس الأمر كما حسب الظالمون وظن المبطلون، إنّ القرآن ليس كتاباً مؤلفاً من فصول وبحوث وليس مكتوباً ومخطوطاً من صنع مُجَدِّ كقوله (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) العلق/١، (بَلْ هُوَ آيَاتٌ مُبَيَّنَاتٌ) واضحات الاعجاز ساطعات الدلالة، على أنها آيات من عند الله، وأنها نزلت من خلال حركة الواقع حسب أحداثه، ولا يفهم القرآن إلا من خلال فهم الواقع، فهو كتاب حركي محفوظ حجة الله على الناس، ودستور حياتهم، كقوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ،

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) الواقعة/٧٧-٧٨ مكنون: مصون ومحفوظ، وفي حصن حصين أمين منيع من التحريف، يستر الله حفظها وتفسيرها كقوله (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) القيامة/١٧-١٩ (فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) على عمومهم في كل زمان ومكان، عناية بها، ولا لبس فيها ولا غموض، كقوله (وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) القمر/١٧، وهؤلاء العلماء الأمناء الحفظة قادة الحق وسادة الخلق وأئمة الهدى وأولو الألباب، وهم خزنة علم الكتاب والحريصين والأمناء عليه، فإذا كانت آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء الثقات الثقة الهداة كانوا حجة على العباد، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اِحْتَجَّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَمَا عَرَفْتُهُمْ) الكافي/١/١٦٣، وإنكار غيرهم لهم لا يضر الحقيقة، ولا يكون ذلك إلا ظلماً لأنفسهم وللناس كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٢٩.

ومن خصائص القرآن العظيم أنّ الله تعالى حفظه من التبديل والتحريف والتغيير، والزيادة والنقصان والتلاعب، في الحفظ في السطور وفي الصدور، كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر/٩ وينشره بكل مكان وزمان، وترجمته إلى أهم اللغات العالمية، ترجمة تقريبية للنص! بخلاف غيره من الكتب السماوية المنزلة، فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم، ولهذا دخلها التحريف، والتزييف، لذلك أعطى الله الأمة الإسلامية صفة مميزة، وهي القدرة على حفظ القرآن الكريم في صدور النخب المؤهلة الخاصة العلمية (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) يَجْحَدُ: الجحود هو الإنكار عن علم ما استيقنه القلب كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل/١٤، أي وما يكذب بها ويبخس حقها إلا (الظالمون) المستكبرون المتجاوزون الحد في الكفر والعناد والمكابرة والفساد، الذين يتطرفون في تقدير الحقائق، يجهلون تقويم الأمور، ولم يقتدوا بأهل العلم والإيمان، وهم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، كقوله (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) الأنعام/٢١.

فائدة:

١- والمصداق الواضح البارز على قوله (فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) هم أئمة أهل البيت (ع) حُرَّان علوم الكتاب والسنة، والأمناء العامون الكفو على الشريعة، وحماة الإسلام كقوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، عن النبي (ص) (علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضِ) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/١٢٥، وعنه (ص) (أَسَاسَ الْإِسْلَامِ حُبِّي وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي) كنز العمال خير ٣٧٦٣١ والآية واسعة الدلالة فليس هذا المعنى منحصرًا فيهم (ع) في الحديث: (العلم: نُورٌ يَقْدِهُهُ اللَّهُ فِي قَلْبٍ مَنْ يَشَاءُ، فَيَنْشُرُ لَهُ صَدْرُهُ وَيَنْفَسِحُ) الأمل ٤/٤٢٦، ضمن مؤهلات خاصة، والإمامة: أصل كل خير، فهي زمام الدين، وقادة المؤمنين، ونظام المسلمين، ووحدة الأمة، وأمان من الفرقة، وعز المؤمنين، وصلاح الدنيا والآخرة، عن النبي (ص):

(مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَّى وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا عَرِقَ) كثر العمال خبر ٣٤١٥١ والأئمة الهادون (ع) خلفاء الرسل وورثة الأنبياء، وامتداد النبوة، وحملة الرسالة، وحماة الشريعة.

٢- في القرآن الكريم آيات بليغة، عميقة المعاني دقيقة المباني، بعيدة المرامي عالية المضامين، فهي قوانين عمل، ودستور حياة، ومنهج سعادة، وسُلَّم قيادة، فيها (تبيان لكل شيء) (وتفصيل لكل شيء) وما فرط الله فيها من شيء، عن الإمام علي (ع) (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، فَإِنَّهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ، وَنَاطِقٌ لِمَنْ اسْتَنْطَقَهُ) أما (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) وهم سادة الحق ونجبة الخلق، وحملة العلم وأولوا الأبواب، ذي السيرة الحسنة، هم الذين يتفاعلون مع القرآن ويتأثرون به والأمناء عليه، ويستفيدون منه، ويتحسسون ببلاغته وسعة آفاقه، كلما تدبروا آياته، وكل الذين يتدبرون القرآن يكرمهم الله من علومه، ويطعمهم من مائدته الغنية بمقدار التفاعل معه كقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) ص/٢٩، وعن الإمام زين العابدين (ع): (آيَاتُ الْقُرْآنِ حَزَائِنُ الْعِلْمِ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ حِزَانَهُ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا) (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) البحار ٣١٦/٩٢ أما الجهلاء هم دائماً كبش الفداء! وأما المكذَّبون بالقرآن هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، ويتعالون على الحق، ولا يرغبون فيه، ولا يستفيدون منه، هؤلاء حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ كقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦، في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمٌ!) ٣- في الآية ٤٧ قوله (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) وفي هذه الآية قوله (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) والفرق بينهما في قوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤، في غرر الحكم (أَحْسَرَكُمُ أَظْلَمَكُم).

٥٠- ﴿ وَقَالُوا لَوْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْنَا إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

وقال كفار مكة تعنتاً وعناداً (لَوْلَا) هلاً أنزل على محمد (آيَاتٌ) معجزات خارقة حسبية (مِنْ رَبِّهِ) تويده تدل على صدقه، كناقاة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى كقوله (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) الإسراء/٩٠ ونحوها! (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) فأمره الله أن يجيبهم: إنما هذه الخوارق والمعجزات من تدبير وتقدير الله وحده، يظهرها عند الحاجة إليها وليس لي من الأمر شيء إلا أن يشاء الله كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ وقوله (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعراف/١٨٨ كقوله (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) البقرة/٢١٠ (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله، ومهمتي التبليغ، وأوضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وألقي الحجة عليكم بوضوح، وليس من مسؤوليتي أن آتي بالآيات والمعجزات من تلقاء نفسي. فائدة: المؤمن دليل واحد قطعي يكفيه، وغير المؤمن (الكافر والمعاند) لو تأتته بألف دليل ودليل لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم! كقوله (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) الشعراء/٢٠١.

٥١- ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُبَلِّغُ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ لَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

الاستفهام للتوبيخ، أي (أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ) يا مُحَمَّد (أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) القرآن المعجز الخالد، وأنه في أعلى درجات الإعجاز والتأثير (يُتْلَى عَلَيْهِمْ) الذي لا يزال يقرع أسماعهم بلغتهم ليحرك عقولهم ويحيي مشاعرهم، ويوقظ ضمائرهم، فهو غني بذاته ومغني لغيره؟ وكيف يطلبون معجزة، والقرآن أعظم المعجزات وأدومها وأوضحها دلالة على صحة نبوتك؟ فإن عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، فهو دليل على أنه وحى يوحى، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إِنَّ فِي أَنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (لَرَحْمَةً) لنعمة عظيمة خالدة على الناس، لانقاذهم من حيرة الضلالة، ومن ظلمات الجهالة (وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وتذكرة بليغة لقوم غرضهم رضا الله والإيمان والعمل بمنهج الله لا العناد والتعنّت.

فائدة: ١- (النقاش في البديهيّات من أشكال المشكلات) والإنسان الحليم تكفيه الإشارة، والإنسان اللقيم لا يستفيد من المعاجز الكثيرة الخارقة الباهرة، لأنه (مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ يَتَعَدَى طَوْرَهُ) (أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) إذا اقتصر المؤمن على تلاوة القرآن كان رحمة له، وإذا تحوّل إلى تطبيق وممارسة عملية صار نوراً في الطريق (وهدى ورحمة للناس) وذكرى للمؤمنين، هؤلاء الذين ينفعهم هذا القرآن كقوله (فَدَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ) ق/٤٥، لأنه يحيا في قلوبهم ويفتح لهم عن كنوزه، ويمنحهم ذخائره وهداه، ويشرق في أرواحهم النور والشفافية والتركية والعلم والعمل الصالح، ٢- (أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ) بمعنى أن القرآن جامع للفضائل، كامل بذاته ومكمل لغيره، فيه الكفاية لكل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته جميعها المعنوية والمادية، والدينيّة والآخروية، ٣- الفرق بين (الرحمة والذكرى) لَرَحْمَةً: للعالمين ونعمة عظيمة مؤثرة ومحفزة للعمل الصالح (وَذِكْرَى) من التذكرة، أي يذكره القرآن ويوقظه ويعظه بسنن الله في الماضين، حتى يتعظ بهم الباقون كقوله (ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) هود/١١٤، في غرر الحكم (مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِالنَّاسِ، وَعَظَّ اللَّهُ النَّاسَ بِهِ)! فالمؤمنون يعرفون قيمة القرآن الجليلة في إصلاح الفرد والمجتمع، فمن اهتدى بهداه فإنه يهدي للتي هي أقوم، فيوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، والروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل، والعقل والبطن، كقوله (إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) البقرة/١٢٠ عن النبي (ص) (القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخراب) روح البيان ٦/٤٨١.

٥٢- ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قل لهم كفى أن يكون الله تعالى شاهداً على صدقي، وهو أفضل شاهد، وهي أعظم شهادة، يشهد لي أي رسوله وصدقني بالقرآن، وأني قد بلغت رسالته على أكمل وجه، وأنهم في عناد وتكذيب (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا في أمر العباد، كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، والله

خير الشاهدين (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الخاسرون لأنفسهم، والخاسرون لأثمن شيء، الخاسرون على الإطلاق، ولا يوجد خسران فوقه، الخاسرون في صفتهم، والخاسرون في عاقبتهم، حيث اشتروا الباطل بالحق، والكفر بالإيمان، والذين آمنوا بغرور الباطل وهو أضعف نصير، فإن الباطل ظاهره يسر ويغرر وبطنه يضر (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) كقوله (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَبْزُقُ الْعِبَادَةَ الْكُفْرَ) الزمر/٧ وقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤، وكل ما نهي الله عنه هو باطل، وكل من عصى الله هو فاسق، والكل جائر وحائر وخاسر حيث اشتروا الباطل الخسيس بالحق النفيس، عن الإمام علي (ع) (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ) شرح النهج ٩١/٢ كقوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) الحج/٦٢.

فائدة: يحدد القرآن من هو الخسران؟ هو المغبون الذي يخس حقه من الآخرة، وهو الذي يسير بعيداً عن الهدف المطلوب، فلا تزيده كثرة السير وسرعته إلا بعداً عن الصواب، فالهدف السامي هو الله الحق، والذي يتعد عن الله الحق يقترب من الشيطان الباطل بنفس النسبة، وكلما ازداد الابتعاد عن الله، ازداد الخسران والخذلان والحرمان ولو بعد حين! عن النبي (ص) (الْمَنْفِقُ عُمرَةٌ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، خَاسِرٌ الصَّفْقَةَ عَادِمٌ التَّوْفِيقِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (مَنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمُفْسَدَةُ الْمَعَادِ) في غرر الحكم (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ) (يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مِيزَانٌ دَقِيقٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) كقوله (أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨.

٥٣-٥٥- ﴿وَسَنَجْزِيكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ، يَوْمَ يَنْشَأُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) يا محمد المشركون (بِالْعَذَابِ) قبل أوانه، استهزاءً وإنكاراً وعلى سبيل التحدي، يقولون (فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ) الأنفال/٣٢ (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) ولولا أننا قدرنا لانزال العقاب بهم (أَجَلٌ مُسَمًّى) موعد محدد، ووقتاً اقتضته حكمتنا الأزلية، لجاءهم العذاب عاجلاً حين طلبوه كقوله (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) الكهف/٥٩، وكثيراً ما يكون إمهال الظالمين استدراجاً، ليزدادوا أثماً ولهم عذاب مهين، ويكون الإمهال امتحاناً للمؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، والله تعالى وعد النبي الكريم (ص) ان لا يعذب قومه استثناءً لكرامته على الله تعالى. (وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) سياق الآية في استحضر المستقبل كأنه واقع مشهود، وليأتينهم فجأة كالصاعقة وهم لاهون وساهون وغافلون لا يشعرون بوقت مجيئه! ٥٤-

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) وتكرار (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) للدلالة على جهلهم وعنادهم، وجهنم لهم بالمرصاد ترصدهم وتنتظرهم، وهو تعجب من قلة فطنتهم وعنادهم!

المعنى: كيف يستعجلون العذاب وهو مؤجل عنهم لحكمة؟ والحال أن جهنم (لمحيطَةٌ بهم) من الآن لأنها قريبة منهم وتنتظرهم! محيطَةٌ بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وكإحاطة السوار بالمعصم، إحاطة كاملة لا مفر لهم منها، لما هم فيه من الكفر وسوء الحال، وتعبير (للمحيطَةُ) صورة قرآنية دقيقة بليغة مؤثرة ومحرّكة للمشاعر، وكأن جهنم قائد ميداني حي قوي يرصدهم ويحيط بهم، ولكنهم (لَا يَشْعُرُونَ) بها الآن، لأن أعمال الإنسان تتجسّم على صورتها الحقيقية، وكأنه على كاميرة خفية دقيقة لها شريط مسجّل مجسّم بثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية، لكن الإنسان لا يراها أو يشعر بها في الدنيا، أما في الآخرة سينكشف عنه الغطاء، ويكون بصره نافذاً حاداً يرى كل شيء على حقيقته. كقوله (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَصَرَخْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدًا) ق/٢٢، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ٥٥- (يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) وهو مشهد مفرق مروع في ذاته ويصاحبه التأنيب المرير والحسرة الكبرى والحالة المخزية، أي يوم يغطيهم العذاب من جميع جوانبهم، ويقول الله أو بعض ملائكته لهم (وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الجرائم وسيء الأعمال كقوله (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) آل عمران/٢٥، لقد عملتم شراً فذوقوا من جزاء هذا الشر! وذكر العذاب (مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) ولم يذكر بقية الجهات لأن نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل فتحيط بجميع البدن، فكيف إذا كانت من فوقهم ومن تحت أرجلهم؟ والجزاء من جنس العمل، والعقوبة على قدر الجناية، وقد أَعذر من أنذر كقوله (وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩، رحماك يارب: عاملنا بلطفك وفضلك، ولا تعاملنا بعدلك وبما نستحق، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل المبطلون.

فائدة:

(ذُوقُوا) الذوق معرفة طعم الطعام بالفم، ويكون بكمية قليلة، وإذا كان كثيراً يسمى أكلاً **بمعنى:** فكما يستذوق الإنسان قليل الطعام ليعرف طعمته ولذّته، كذلك يستذوق الكافر قليل العذاب المرير، فيشعر به وكأنه جبل خطير، ليعرف حقيقته ولوعته، فكيف إذا واجه العذاب المستحق كاملاً، فكيف يكون حاله ومآله؟؟ كقوله (فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) البقرة/١٧٥ للتعجب، فكلمة استذوق الكفر واستمتع بالفساد في الدنيا، فعليه أن يستذوق شدة العذاب وأنواع ألمه، فيأخذ حقه كاملاً منه في الآخرة! في نهج البلاغة كتاب ٣١ (مِنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ)

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) وهو خطاب لبعض المؤمنين تشريف لكم بالعبودية لله، فإنها حرية في الأرض، وتكريم في النفس، وعزة في الأمة، ورفعة في السماء، يا عبادي المؤمنين المقربين يدعوهم ربهم إلى الفرار بدينهم والنجاة بعقيدتهم، يخاطبهم من عليائه في نداء حبيب، وفي رعاية خاصة واشفاق مميز، وفي أسلوب بلاغي نموذجي فاعل يمسّ أوتار القلوب ويحرك المشاعر ويجيي الضمائر، يا عبادي الصالحين لا تقيموا في أرض لا تستطيعون إظهار دينكم فيها، والالتزام به وممارسة عبادته وشعائره، فما الذي يضطركم للبقاء بهذا الضيق والخوف والحرص بين أولئك الجاحدين القساة العتاة، فلا تجاوروا الطغاة والبعاة والظالمين (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) فأرض الله واسعة، فهاجروا على أرض وبلاد أخرى أوفق منها، تأمنون فيها على دينكم وعبادتكم وصلاحكم وكرامتكم (فَيَايَا فَاعْبُدُونِ) فاعبدوني وحدي، عبادة خالصة، في كل الأحوال، قبل الهجرة وبعدها، ولا تشركون في عبادتي أحداً، ولا تطيعون أحداً من خلقي في معصيتي.

فائدة: ١- (فَيَايَا فَاعْبُدُونِ) فإذا أحب الله عبداً أهمله حسن العبادة، ولذة الطاعة لله تعالى، فإنها أفضل القربات (وَأَكْمَلُ الْعِبَادَاتِ، أَدَاءُ الْفَرَائِضِ) لذلك خلق الله الخلق لأجل عبادة الله سبحانه، فإنها تزكية للنفس وطمئنان للقلب، وتكامل للفرد، وبناء للمجتمع، وتقدم في الحضارة والمعاصرة، ورغبة في الحدائث والتطوير كقوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات/٥٦، فصارت العبادة علة الوجود، وهي الهدف الأساس للخلق، وبالعبادة تنال السعادة، وبالعبادة تصل إلى الله تعالى!

وبالعبادة تنكشف لكم الأسرار، وتظهر لكم الحقائق، وتعرفون فلسفة الحياة، وبالعبادة ترون العجائب، وتنسّقون مع الأقدار! فالوطن الذي لا يتحقق فيه هذا الهدف النبيل، وتهان فيه كرامتك وتضيق فيه نفسك، وتكتم فيه حريتك، وتغيّر فيه قناعتك الصحيحة، فيجب عليك أن تهاجر وتتخلّص منه، فإن أرض الله واسعة، فعليك أن تختار الأرض المناسبة، لتحقيق الهدف السامي الكبير، فليس المهم الاحتفاظ بالوطن، وإنما الأهم الاحتفاظ بالعبادة الخالصة والكرامة النقيّة، في نهج البلاغة حكم ٤٤٢ (ليس بلدٌ أحقّ بك من بلدٍ، خير البلاد ما حمّلك) وخير الأوطان ما أمن فيه الإنسان ونال كرامته. في غرر الحكم: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَحْكَامِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ! وأضعف الناس من رضي أن تهان كرامته في وطنه، عن الإمام الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨، وشر الأوطان ما لم يأمن فيه الإنسان، وخير الأوطان ما غنى فيه الإنسان وعلم وسعد، وحقق الأمن النفسي، والأمان الاجتماعي، والاطمئنان القلبي، صحيح حبّ الوطن من الإيمان، لأنه يعطيك كرامتك وعزتك وتفجّر طاقاتك، وإذا حصل خلاف ذلك فالهجرة عنه أولى، في نهج البلاغة حكم ٥٦

(الْغَيْ فِي الْعُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ عُرْبَةٌ)، فحث القرآن على الهجرة ورغب فيها وأثاب عليها.

في ظروف خاصة مناسبة كقوله (وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) المزمّل/١٠ عن النبي (ص) (البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم) المراغي ٢١ص١٤، وعن الإمام الباقر (ع) في الآية (لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك، فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم، فإن أرضي واسعة) وهو يقول (إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) النساء/٩٨، تفسير الميزان ١٦/١٤٦، ٢- (يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا) يَا عِبَادِي: فهو تعبير شفاف أخذ نفاذ يُحرّك المشاعر بلا استئذان، وأنه رقيق، دقيق المبني، عميق المعنى، واسع المغزى، يكشف عن قانون عام في ظروف خاصة ضاغطة استثنائية، وهو أكثر التعابير رافة ورحمة وحباً من قبل الله لعباده المؤمنين، وهو تاج ووسام الشرف يفتخر به المؤمنون، لأن مقام العبودية أفضل وأعلى ويتقدم على مقام الرسول والرسالة والخلافة، كقوله (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) الإسراء/١ لذلك نقول في الصلاة (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله). وفي إضافة (الَّذِينَ آمَنُوا) إلى الله تعالى، بهذا الدعاء الرحيم الكريم اللين الشفاف، الذي دعاهم الله سبحانه إليه (يَا عِبَادِي) دعاهم إلى الهجرة عن الأوطان في ظروف قاهرة وضرورية، ٣- (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) توجيه وتوعية للمؤمنين أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد من هذا الأفق المحدود في الأرض التي يعيشون فيها، فإن أرض الله واسعة، فليخرجوا من الحدود الضيقة إلى الأفاق الطويلة والأرض العريضة الواسعة، وسيجدون نعمة وخيراً وسعة كقوله (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغَمَا كَثِيرًا وَسَعَةً) النساء/١٠٠.

مُرَآغَمًا: طريقاً سالكاً يرغب أنوف أعدائه ويقوى عليهم وتحرر إرادته، ٤- والآية الكريمة دعوة سماوية إلى تحرير الإنسان من كل عبودية (من دون الله) بعيدة عن الله تعالى، تحريراً كاملاً بالروح والجسد، وتحريره بالعقل والفكر واللسان والقلب والمشاعر، من كل قيد مادي أو معنوي، يعطل حركته الجهادية الحضارية. أو يعوق انطلاقه نحو الأحسن، أو يكبت مشاعره، أو يقهر إرادته، ففي أي موقع من مواقع الحياة، وعلى أي حال من أحوالها، لا يجد فيه الإنسان كرامته ووجوده مستقلاً كاملاً محرراً من أي قيد، ثم لا يعمل جاهداً على امتلاك حريته وحفظ كرامته كاملة، يكون ظالماً لنفسه معتدياً على وجوده! كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١، في غرر الحكم: (فَمَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يُهِنْهَا بِالْمَعْصِيَةِ). ٤- (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) (فَيَايَا فَاعْبُدُونِ) الآية حدّدت الهدف النبيل الواجب تحقيقه وهو (فَيَايَا فَاعْبُدُونِ) وأطلقت الوسائل المتعدّدة للوصول إليه، وهو اختيار أرض معينة خاصة من أرض الله الواسعة (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) وهذه من البلاغة القرآنية المميزة الفنيّة.

٥٧- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

كل نفس تموت من النفوس الحية العاقلة وغير العاقلة، كل نفس إنسانية أو حيوانية، كل نفس على العموم لا بد أن تذوق جرعة الموت الحق الحتمية، فتكون نعمة للمؤمن ومحنة للكافر، ولا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة، من كأس الموت الذي يستذوقه الجميع على السواء، والموت حق في كل الأحوال، وفي كل مكان وزمان، سواء أكان الإنسان في وطنه أو في هجرته أو سفرته أو في شبابه أو في هرمه أو في قوته أو في ضعفه، فإنه لا بد أن يذوق جرعة الموت الحق كقوله (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١ كما يجد الذائق طعم الطعام بالفم، كذلك يجد الإنسان عند حلول أجله طعم الموت ورهيبته ومرارته، وتجرح غصصه عند مفارقة الروح الجسد، فإن نهاية كل حي في هذه الدنيا هو الموت (كَفَى بِالْمُوتِ وَاعِظًا) عن النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا)! تفسير روح البيان ١٣٢/٢، وعنه (ص) (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خبر ٤٢٧٤٨، وعنه (ص) (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) المصدر السابق، إذا: ما خلق الله النفوس للخلود والبقاء في الدنيا، وإنما خلقها لتخلد في الآخرة، فيأتي الموت ليقوم بهذه المهمة ويعطي هذه الموازنة الدقيقة، ويعمل هذه النقلة من دار الممر إلى دار المقر، ليكون الإنسان المناسب، في مكانه المناسب فتختلف منازل الناس هناك بحسب أعمالهم في الدنيا، في غرر الحكم (الْمَوْتُ أَوَّلُ عَدَلِ الْآخِرَةِ) ولولا الموت والجزاء والمعاد إلى يوم القيامة، لكان خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، لأنه يتغير نظام الكون والكائنات، فبالموت يتحقق علّة الوجود إذاً الموت حق وبالحق ومن الحق ومع الحق وإلى الحق ثم (إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ثم إلى الله المرجع والمآب والحساب الحتمي.

الموت آتٍ في كل الأحوال، فما دام الموت في إقبال، والعمر في إدبار، فسرعان الملتقى، فكونوا دائماً في طاعة الله فإنكم لا تعرفون متى تلاقوه، كقوله (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) البقرة/١٣٢، فلا تصدنكم زينة الحياة الدنيا المؤقتة، من أهل، وأموال، وأوطان... عن الاستعداد إلى لقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، فائدة: صحيح الجميع يذوق الموت، ولكن الفارق في الكيفية والكمية، فالأنبياء والشهداء والأولياء والصالحين يخفف الله عنهم هذه الجرعة الحتمية ويتلطّف بهم، وتكون نقلة الموت سريعة ولطيفة، عن النبي (ص) (الْمَوْتُ رِيحَانَةُ الْمُؤْمِنِ) البحار ١٦٨/٨٢، وعنه (ص) (تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ) المصدر السابق، في غرر الحكم (في الْمَوْتِ رَاحَةُ السُّعْدَاءِ) كقوله (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّاتِي) الفجر/٢٧-٣٠، في نهج البلاغة حكم ٧٤ (نَفْسُ الْمَرْءِ حُطَّاءُهُ إِلَىٰ أَجَلِهِ)

٥٨-٥٩- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تِلْكَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) على سعة معناهما، واختلاف درجاتهما، وتنوع مستوياتها ونسبهما، وعلى أساس تنوع المنازل تتعدد المكافأة وتنوع المفاجأة، وتتفاوت الدرجات، كقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) الرعد/٢٩، بمعنى: جمعوا بين إخلاص العقيدة وسلامة القلب وصالح الأعمال في السر والعلانية، وجمعوا بين الأقوال والأفعال، وبين العبادات والمعاملات مع حسن الأخلاق، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، حتى صاروا من الصالحين، ودخلوا في حصنهم الحصين الأمين المنيع، كقوله (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩ (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا) (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) لنسكنهم، لننزلهم، غُرَفًا: جمع غرفة وهي المنازل العالية، والمقامات الرفيعة المُشْرِفَةُ على المناظر الخلابة، وإنما قال (غُرَفًا) لأن النظر من الغرف إلى أنواع الأنهار والخضار والثمار والجمال يكون، أشهى وألذ، أي لنسكنهم في أعلى المنازل من الجنة وأرفعها مقاماً، ذات الغرف المميزة، وعد مؤكّد بالقسم ونون التوكيد (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تجري دائماً من تحت قصورها وبساتينها أنهار الجنة المتنوعة، لكل منها طعمه وشكله ولونه وخواصه، وهي ثابتة الخواص، ولا تتغير بمرور الزمان (خَالِدِينَ فِيهَا) ماكنين فيها بلا نهاية، لا يخرجون منها أبداً، ويقال لهم (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) نعم الجزاء لهؤلاء العاملين لصالح الأعمال وأفضلها.

في غور الحكم (منازل الدنيا بالإتفاق، ومنازل الآخرة بالاستحقاق) و(لا عيش إلا عيش الآخرة) والذي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) العنكبوت/٩ عن النبي (ص) (إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها) فقيل لمن هذه الغرف؟ فقال (ص) (من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى الله بالليل والناس نيام) البحار ٧٦ ص ٢، في نهج البلاغة خبر ١١٤ (كُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا سَمَاعَةٌ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْآخِرَةِ عِيَانَةٌ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ، فليكنفكم في العيان السَّماع، ومن الغيب الخبر) ٥٩- (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يَتَوَكَّلُونَ: يعتمدون، وهذه من صفات هؤلاء المؤمنين العاملين لصالح الأعمال وأنفعها، الذين استحقوا تلك المنازل في الجنات المميزات، أنهم صبروا على ما أصابهم كقوله (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) المعارج/٥، وتحملوا معاناة الهجرة وأنواع المشاق بلا شكوى، وثبتوا على استقامة منهج ربه بدون نفاق، كقوله (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦، وقاوموا الإغراءات والمحرمات والمثيرات الكثيرة، ولم تحدهم الدنيا بغرورها وأنفسهم بخيانتها (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يعتمدون في كل الأحوال، في السر والعلانية، وفي الشدة والرخاء، لحسن ظنهم بالله، وحسن توكلهم عليه، فكان الله وكيلهم ومعينهم، وهو نعم الوكيل كقوله (وَكَفَىٰ

بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) النساء/٤٥ (فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته، وعلى قدر الإيمان يكون التوكل.

في غرر الحكم (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدْرِ ثِقَتِهِ بِهِ) فالله يحقق ما عزموا عليه من الأعمال الصالحة ويكملها ويسجلها لهم، عن الإمام علي (ع) (مَنْ التَّوَكَّلَ أَنْ لَا تَخَافَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ) البحار ١٥٨/٧١، عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) البحار ١٥١/٧١ فصار الصبر والتوكل على الله (وتفويض) وتسليم الأمر إليه سبحانه من جوامع الخير، ومن صفات التكامل الإيمانية، فبالصبر يقهر الإنسان عاداته السيئة، ويهدب طباعه غير اللاتقاة، وبالتوكل على الله يتعلق القلب ويطمئن ويرضى بالمقسوم، ومعنى التوكل: أن تعمل ما هو واجب عليك عمله كقوله (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) النجم/٣٩ مع بذل الجهد المطلوب اللازم، والتجربة المناسبة والخبرة الداعمة، والاختصاص المطلوب من دون جهل وتقصير وكسل، (فَلَا يَشْعُلُكَ تَوَكُّلٌ مَطْلُوبٌ، عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) ويكون التوكل على الله من خلال الأعمال، وهذا هو الارتباط العملي والعلمي المدروس الدائم المستمر بالله تعالى، فيكون التوكل: مفهوم حركي واقعي فعال تطبيقي في كل مجالات الحياة، عندما يرتبط الإنسان المحدود بالخالق المطلق، وليس مجرد أقوال بلا أفعال.

٦٠- ﴿وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ مَرْحَمًا اللَّهُ يَنْزِلُهَا وَيَاكُرُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لمسة قرآنية تحرك المشاعر، وصورة واقعية توقظ قلوب الغافلين إلى الواقع المشهود في حياتهم اليومية، وكأين: للتكثير، أي وكم من دابة في الأرض (لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) لا تقدر على كسب رزقها، ولا تدخره ولا تفكر فيه، والله تعالى يرزق الخلائق كلهم بجميع أصنافهم، قوتهم وضعيفهم، العاقل منهم وغير العاقل.

(اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) ولكن الله يرزقها ويُسهل موارد عيشها، مع ضعفها في جسمها وعقلها، ويقوم بسد حاجاتها، ويُسهل لها حياتها بتيسير أسباب رزقها وأمانها إلى منتهى أجلها، بدون حول منها ولا حيلة، ويرزقكم يا أيها الناس مثلهم، وأنتم أقوى وأقدر وأذكى من تلك الدواب، وكلكم عيال الله، وأحبكم إلى الله وأقربكم منه، أنفعكم لعياله، وقد تكفل الله برزق الجميع كقوله (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) الداريات/٥٨، فلا تخافوا الفقر والجوع إن هاجرتم كقوله (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ الْبَقْرَةَ/٢٦٨) (وَهُوَ السَّمِيعُ) لأقوالكم ولدعائكم بلسان الحال أو بلسان المقال، في غرر الحكم (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) (العَلِيمُ) بأحوالكم وبجوائجكم.

فائدة: ١- أراد الله أن يُقرب مسألة الرزق للإنسان، عندما ربطها بالدواب، وهو كل ما دب ومشى على الأرض، فكل الدواب لا تحمل رزقها معها، ولا تدخر القوت لغدها، وتأكل منه قدر كفايتها، إلا ابن آدم والنمل لأنه يسبت في الشتاء كقوله (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

المؤمنون/٢١ وقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الزمر/٣٦ ولكن الرزق يكون مع الحركة والعمل والخبرة والتجربة، لأن كل المسببات تجري بأسبابها، وتكون النتائج على قدر مقدماتها، وحركة كل كائن حي بحسب طريقة حياته.

٢- الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك، فالرزق الذي تطلبه يأتي بمقدار السعي والجهد والخبرة والاختصاص والتجربة والوعي كقوله (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) النجم/٣٩ عن الإمام الحسن العسكري (ع) (فَلَا يَشْعُلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٧٨ ص ٣٨٤، والرزق الذي يطلبك، فإن لم تأتِه أتاكَ، من حيث تحتسب ومن حيث لا تحتسب، فأما الرزق الذي يأتيك يتيسر إليك، لأنه محدد بالأجل كقوله (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١، فلا حياة من دون أجل، ولا أجل من دون رزق، وأما الرزق الذي تأتية وتسعى إليه وتبذل الجهد المناسب له، هو رزق الرفاهية.

٣- التوازن في طلب الرزق: عن الإمام علي (ع) : (إِعْمَلْ لِذُنُوبِكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَإِعْمَلْ لِأَخْرَجِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) تنبيه الخواطر ص ٤٦١ بحيث لا يستهلك الإنسان عمره بحثاً عن لقمة العيش ورفاه الجسد، وينسى البحث عن غذاء العقل وتربية الروح وحب العلم والمعرفة وهو الأهم، فقد تكون ساعة علم أفضل من سنة عمر، ٤- سعة الرزق ليس من باب التكريم، وأن تضيق الرزق ليس من باب التحريم والحرمان، وإنما تفاوت الرزق مبنى على عدة عوامل أساسها المصلحة العامة، وابتلاء الغني بالفقر، وتحقيق التكافل الاجتماعي العام، بشرط ان لا ينشأ نظام الطبقات، والتفاوت الاجتماعي الكبير بين طبقة محرومة، وطبقة متخومة، كقوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الشورى/٢٧ وقوله (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) الحشر/٧ عن الإمام الصادق (ع):

(ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطنه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه) البحار ٧٨/٣١٩، ٥- ولو حُيِّلَ لبعض الناس أنهم يخلقون رزقهم وهم يعدونه وينشئونه بذكائهم، أما يهيبهم الله وسائل الرزق، ويهئ لهم أسبابه ومقدماته، وهذه الهبة الخاصة وتسهيل الوسائل والأسباب هي في ذاتها رزق من الله تعالى، كقوله (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف/٨٤، عن الإمام الصادق (ع) (أَبَى اللَّهُ أَنْ يُجْرِيَ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا) الكافي ١/١٨٣، ٦- سبب النزول: كانت جماعة من المسلمين بمكة والمشركون يؤذونهم، فأمرُوا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟ فنزلت الآية.

٦١- ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَنُؤْفَكُونَ﴾

ولئن سألت المشركين مَنْ خَلَقَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيَّةِ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيَّةِ وَالْجَادِبِيَّةِ، وما فيهما من أنظمة ومقادير مقدرة، وعجائب وغرائب مدبرة؟ ومن (وَسَخَّرَ) وذل (الشَّمْسِ وَالْقَمَرَ) وسخرهما

لمصالح العباد، يجريان بنظام موزون مقدر دقيق؟ (لَيَقُولَنَّ اللَّهُ) خلق الله ذلك من أعماق نفوسهم (فَطَرْتَهُمْ) (فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ) فكيف يصرفون ويعرضون بعد هذا الإقرار عن عبادته إلى عبادة غيره؟! عجباً يا إلهي من عرفك كيف لا يخافك، ومن صدقك كيف لا يهابك؟! وعجباً من آمن بالله كيف لا يهتدي بهداه؟! كقوله (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ) التغابن/١١، في نهج البلاغة حكم ٢١١ (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَىِّ أَمِيرٍ) ! في غرر الحكم (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى)؟! فائدة: كان العرب قبل الإسلام يحترمون عقيدة إبراهيم في التوحيد، ولكنهم بالتدريج والغفلة والجهل عاشوا التناقض والانحراف في عقيدتهم، كانوا إذا سئلوا من الخالق لكل شيء (لَيَقُولَنَّ اللَّهُ) لسلامة فطرتهم، ولكن يجعلون الله شركاء في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء في الخلق، هذا هو الخلط العجيب الخطير، وكثير من الناس الغافلين يعانون من هذا الخلط والجهل، ومن هذه الازدواجية الخطيرة الميرة كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، لذلك قال (فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ) الإفك الكذب، وصرف الشيء عن حقيقته، وتبديل الحقائق، وإيهام العقل وانخداعه، فجاءت (يُؤْفِكُونَ) بصيغة المبني للمجهول، وفيها دلالة على أنهم انحرفوا بسبب تأثيرات خارجية عليهم تخالف فطرتهم وقناعتهم، ولكنها تألف العقل الجمعي وتسايير العرف الجاهلي الفاسد العام.

٦٢- ﴿اللَّهُ يَسُبُّ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

الله سبحانه وتعالى الخالق، وهو وحده الرزاق (يَبْسُطُ) يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً (وَيَقْدِرُ لَهُ) ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاءً، ليظهر الشاكر في غناه والصابر على بلائه، علماً منه بما يصلح كل إنسان أو يضره، لأن الله تعالى هو الذات الجامعة لصفات الكمال والجمال والجلال، وهذا ليس له علاقة بالإيمان والعصيان والكفر، وإنما له علاقة بالامتحان والابتلاء والاختبار كقوله (لِيَبْلُوَكُمْ أَنِّي كُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الملك/٢، فكل ما يوسع الله على الإنسان من أنواع الرزق المادي والمعنوي فهو متاع قليل، ومسؤول عنه ومحاسب عليه، من أين أخذه وكيف أنفقه، حتى يتمنى الإنسان يوم الحساب أنه لا يملك إلا قوت يومه! كقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) الطلاق/٧ (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) انه تعالى واسع العلم، يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ومنزه عن العبث واللعب واللهو.

فائدة:

١- هناك فرق بين رزق الحلال، وبين رزق الحرام، فإن رزق الحلال

من الله تعالى وفيه الخير والصلاح والبركة ومنافعه مستمرة، ورزق الحرام وإن كثر فإنه لا يسمى رزق الله وإنما هو رزق الشيطان المشبوه، ظاهره يغرّ ويسرّ ويمرّ وباطنه يضرّ، وعاقبته سيئة غير محمودة!! والذي يشرى ويغنى بالحرام، سينفقه بالحرام، والله لا يبارك له فيه، ويحاسب عليه، ثم

يسأله الله عنه، من أين أخذه، وكيف أنفقه؟ كقوله (وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْفُونَ) الصفات/٢٤ وعن الإمام الصادق (ع): (مَنْ مَنَعَ حَقًّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْفَقَ فِي بَاطِلٍ مِثْلِيهِ) وسائل الشيعة/٦ص/٢٥، وترتبط سنن الله تعالى في سعة الرزق وضيقة بالأخذ بالأسباب، فجعل الله لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب علماً، وخبرة وتجربة وكفاءة عرفها، من عرفها وجهلها من جهلها كقوله (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف/٨٤، ويتعرض الإنسان للاختبار والإبتلاء في كلا الحالين، وبلاء بسط الرزق والغنى أشد وأعقد من بلاء الضيق، فكما تتعدد الكفاءات وتتفاوت القدرات والإمكانات والملكات... فيتبع ذلك تفاوت العيش والرزق، كقوله (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْبَيْتَ) الفجر/١٥-١٧ عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا إِزْدَوَجَتْ ، إِزْدَوَجَ الْكَسَلُ وَالْعَجْزُ ، فَتَنَجَّ مِنْهُمَا الْفَقْرُ) تحف العقول ص١٥٨، كقوله (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) الشورى/١٩ وقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) الأحزاب/٣٤ يعلم الله من يصلحهم الغنى ومن يفسدهم، فاصطحب مع الغنى الإسراف والطغيان إلا من عصم الله، واصطحب مع التقدير الفناعة والإيمان إلا من عصم الله أيضاً، عن الإمام علي (ع) (من لم يقنعه اليسير، لم ينفعه الكثير) البحار ٧٨ص٧١، عن النبي (ص) عن جبريل عن الله تعالى: (وَأَنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ)، ٢- ربط الله سبحانه سنة الرزق بخلق السماوات والأرض، ولما ذكر اعترافهم بالخلق ذكر حال الرزق، وبقاء الخلق متعلق بالأجل المقدر، ولا حياة له إلا بالرزق، فصار هناك علاقة بين الفكر (العقل) والخلق والأجل، والحكمة والمصلحة والرزق، وقد يبسط الله الرزق لعدوه مكرراً به واستدارجاً له، ويقدر على وليه نظراً لحاله وحرصاً عليه وقرباً منه، فطوبى لمن نظر الله إليه بعين رحمته، وقربه منه وأدخله في حصن عباده الصالحين، فيكون (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) القمر/٥٥.

في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إِلَهِي أَطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ)

٦٣- ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا يَمِينًا قَالُوا اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَمَّا أَكْرَمَهُ لَا يَعْزُبُونَ عَنْهُمْ يَعْزُبُونَ بِاللَّهِ (بأقوالهم) بسبب فطرهم السليمة (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) بطرف لسانهم كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل/١٤، أما أفعالهم فتناقض أقوالهم!، هذه حالة من ازدواج الشخصية أو حالة من التقلب والتذبذب، والنفق المنافق: هو الذي يُظهر خلاف ما يُبطن (والنفق) أخو الكفر، وتوأم الشرك، وشين العادات، وأخبث القناعات، وأساسه الجهل (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) الذي أظهر الحق على السنة أعدائه، وعلى إتمام النعمة وإظهار الحجة (لَيَقُولُنَّ

اللَّهِ) الذي بيّن الهدى من الضلال، وبعترافهم بأن الله هو المدبّر لأمر خلقه، وهذا الاعتراف يبطل شركهم ويلزمهم أن يعبدوه وحده، من دون أن يشركوا في عبادته أحداً، ولكن هل يعقلون ذلك؟ كلا (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ولا يتفكرون إلى أين سينتهون، وعن ماذا يُسألون عن الإمام علي (ع) (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ: مِنْ أَيْنَ، وَفِي أَيْنَ، وَإِلَى أَيْنَ) كقوله (وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصفات/٢٤ إنهم جهلاء، وكل أفعالهم وأقوالهم متناقضة لاوعي فيها ولا إدراك، ويعيشون أزمات نفسية كقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُودًا) الاسراء/٢٢، وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣.

فائدة: ١- إنّ الله لا يقطع أرزاق الكفار مع عصيانهم وانحرافهم، فكيف يقطع أرزاق المؤمنين مع طاعتهم له سبحانه، وهو وليّهم ومولاهم؟ كقوله (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) البقرة/٢٥٧، ٢- يربط الله سنة الرزق في السعة والضيق بخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وسائر آثار القدرة والخلق، فهناك علاقة متصلة بنظام مشترك، بين السنن الكونية والسنن التاريخية والسنن الإنسانية، فعلاقة الحياة بالرزق، كعلاقة الرزق بالأجل وعلاقة الحياة بالموت، فكما أن الأجل محدود ومقدّر وثابت، كذلك الأرزاق مقدّرة ومدبّرة، ويقف القلب المتفكّر أمام نظام هذا الكون المقدّر الدقيق، وقفة علميّة يقضه مدهشة، الدالة على عظمة الصانع، ولا تحتاج هذه الوقفة العلمية إلى بحوث شاقة وعسيرة، إنما تحتاج إلى مشاعر يقضه وقلب متفكّر والانفتاح على الآخر، والتطلّع إلى آفاق الخلق وعجائب المخلوقات، والبحث لمعرفة فلسفة الحياة. لارتباط هذه القلوب المتفكّرة بالله تعالى. ومن ارتبط بالله عصمه الله من الزلل، وسدّده في القول والعمل كقوله (وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥

٦٤- ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّامِرَ الْآخِرَ لَهِيَ الْآخِرَةُ لَئِي الْحَيَاةِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

يصور القرآن صورة فنية لخصائص الحياة الدنيا، وخصائص الحياة الآخرة، في وصفهما العام، بتعبير مؤثر بليغ وبديع وموجز، محرّك للمشاعر أي (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) التي يبحونها ويتعلقون بها، عن النبي (ص) (حَبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) روح البيان ٤٣٧/٦، إنهم يقفون عليها جميع مواهبهم وقواهم، ويصرفون كل عمرهم الثمين من أجلها، ويضحون بأخرتهم من أجلها، ما هي هذه الحياة الدنيا المؤقتة (إِلَّا هُوَ) اللّهُ معناه الانشغال عن المسائل الأساسية الأهم، لأنها تلهي الإنسان عن الآخرة وتشغله بزينة الحياة الدنيا المؤقتة المزوّقة، وزخارفها ومتاعها القليل الفاني، الذي لذّاته قصيرة وتبعاته كثيرة، تشغله وتصرفه عن الحياة الخالدة الباقية في غرر الحكم (مَنْ اشْتَعَلَ بِغَيْرِ الْمُهْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) (وَلَعِبٌ) هو العبث في الزمن، وقضاء الوقت ما لا فائدة فيه، أو أضراره أكثر من فوائده، لأن الاستغراق في الدنيا يضيّع الاستحقاق في الآخرة، أي وإنّ الدار

الدنيا لعبٌ لأن ظاهرها يسرّ وَيَعْرَى وَيَمَرُّ وباطنها يضرّ، ولأنها فانية مؤقتة سريعة البطلان كلعب الصبيان، يجتمعون عليه ويتولعون به ساعة، ثم سرعان ما يتفرقون كقوله (فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَزْوَ) فاطر/٥، وهذه صفة الجهال، وأن اللعب واللهو من خصوصيات الأطفال، دون العلماء والفضلاء، في الحديث (دنياك ما يشغلك عن ربك) وكون الدنيا هو ولعب، إنها تزول وينتهي وقتها كما يزول اللهو واللعب، فيستمتع الإنسان فيها متعة قليلة، وتكون لذاتها قصيرة، وهمومها كبيرة، وتبعاتها كثيرة، في أهمية الزمان وضرورة استثمار الوقت، والحرص على العمر.

قيل: (مَا نَفَعَلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُجَدِّدُ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَفُؤُمُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَغِنَا يُجَدِّدُ مَا نَكُونُ) كقوله (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) قال (هِيَ الْحَيَوَانُ) ولم يقل (هي الحياة) لأن حياة الآخرة، هي الحياة، وأصل الحياة وينبوعها، حياة تستذوق منها طعم الحياة، فيكون كلمة (الْحَيَوَانُ) أبلغ من معنى الحياة، وأصل الحياة.

والْحَيَوَانُ: من مبالغة الحياة ومضاعفتها، حياة للتفخيم، لشدة ما فيها من الحيوية والنعيم والخير والامتلاء، فهي في اسمها حياة، وفي معناها حياة، وفي ذاتها حياة، ولغيرها حياة، وهي الحياة الموعودة التامة القائمة الدائمة، الكاملة في ذاتها والمكملة لغيرها، حياة مستمرة لا فناء بعدها، إنها الحياة الحقيقية الإيجابية النموذجية، الشاملة الدائمة الأبدية الخالدة المميزة التي تستذوق بها طعم الحياة، إنها حياة نامية تتفجر منها الحياة الجديدة السامية المشوّقة غير المملة باستمرار، حياة تتعلّق بها النفوس، إنها حياة مرفّهة متكاملة جميلة وجليّة وجاذبة، حياة أخذة ونفاذة وسعيدة، حياة بلا سلبيات ولا منغصات ولا صعوبات كقوله (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) الزخرف/٧١-٧٣ (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) لو كان عندهم علم هادٍ، وعقل واعٍ، لم يُؤثروا ويُفصلوا دار الفناء على دار البقاء، كقوله (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الأعلى/١٧، لأن الدنيا سميت دنيا لأنها أدنى ما خلق الله، فلا تزن عند الله جناح بعوضة، عن النبي (ص) (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً جرعة ماء) البحار ٧٧ ص ٧٩، وسميت الآخرة الدار العليا، لأنها أسمى وأجلّ وأفضل ما خلق الله، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، وحياة الآخرة متسامية تختلف تماماً عن الحياة الدنيا، عن ابن عباس (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْمًا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا تَشَابَهَ الْأَسْمَاءُ) المراعي ٣٠/١٣٥، عن النبي (ص) (يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان! وهو يسعى لدار الغرور) الدر المنثور ١٤٩/٥.

في غرر الحكم (مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ!)

فائدة: ١- ليس في الجنة أشياء عديدة كانت في الدنيا: منها تتوقف عجلة الزمن، ليس في الجنة هرم ولا نوم ولا موت، ولا خوف ولا ليل ولا نهار، ولا ظلمة ولا حرّ ولا برد، ولا نهاية ولا فقر ولا جوع ولا شبع ولا عطش، ولا مرض ولا بول ولا غائط ولا إنجاب، ولا تكليف ولا حساب ولا عمل، ولا لغو ولا كذب ولا كراهية، ولا كسل ولا ملل ولا فشل ولا خيبة أمل، ولا خطأ ولا اشتباه ولا لؤم ولا غل ولا حقد ولا حسد ولا خبث ولا شر.. كقوله (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) الحجر/٤٧ (وبخلاصة): في الجنة كل الإيجابيات الدائمة بعيداً عن كل السلبيات، في غرر الحكم (الجنة غاية السابقين، (الصالحين) النار غاية المفرطين) قال تعالى (هُمَّ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) الزمر/٣٤، وقال (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة/١٧ في نهج البلاغة حكم ٤٥٦ (إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها) ٢- دلت الآية: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) من علامات الذين يعلمون، أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، فيعملوا في الدنيا بقدر عمرهم فيها، ويعملوا للآخرة بقدر بقائهم فيها، ويعملوا للجنة بقدر إيمانهم بها وشوقهم إليها، ويعملوا للنار بقدر إنكارهم لها وصربرهم عليها، عن النبي (ص) (مَنْ إِزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْ هُدًى، لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) تنبيه الخواطر ص ٢٧٥، في غرر الحكم (مَنْ لَمْ يُهْدَبْ نَفْسُهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ) ٣- لا يعني القرآن بهذا أن يشجع على الزهد والانعزال والتقشّف، وإنما يعني التوازن العام بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل، ومطالب البطن ومطالب العقل، فلا تكون الدنيا على حساب الآخرة، ولا يكون الزهد والانعزال والتقشّف، وترك الدنيا من أجل الآخرة كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/١٣٤ وقوله (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الأعراف/٣٢. عن الإمام الكاظم (ع) (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِذِيئِهِ أَوْ تَرَكَ دِينَهُ لِذُنْيَاهُ) البحار ٣٢١/٧٨

سؤال: لم سمي القرآن الدنيا هوأ ولعباً، وقد خلقها لحكمة ومصلحة؟ الجواب: بنى الخطاب على أن صفة أغلب الناس تميل إلى اللهو اللّعب، في غرر الحكم (شَرَّ مَا ضَيَّعَ فِيهِ الْعُمَرَ اللَّعْبُ وَاللَّهُو) وعن النبي (ص): (أَعْظَمُ النَّاسِ هَمًّا الْمُؤْمِنُ، يَهْتَمُّ بِأَمْرِ دُنْيَاهُ وَأَمْرِ آخِرَتِهِ) تنبيه الخواطر ص ٤، ٤- (الفرق بين اللهو واللّعب) قيل: إنّ المقبل على الباطل لآعب به، والمعرض عن الحق لاه عنه، وقيل: اللّعب: ضدّ الجدّ، بمعنى الهزل والعمل للترفيه والرياضة بلا اهتمامات كبيرة علمية وفكرية، هو العمل المنظم الذي لا يقصد منه جلب نفع أو دفع ضرر سريعين، بل مقاصده وهمية، ومنافعه وقتية، واللهو: هو العمل غير المنظم الذي ليس له مقاصد نافعة لا حقيقية ولا وهمية، هدفه قضاء الوقت، وهدر العمر، ويشغل الإنسان عما يعنيه وينفعه ويهّمه، ومن أهل تربية

نفسه، ضيِّع ما هو أهم، في غرر الحكم (مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي مَأْ يُحِبُّ أَنْتَعَبْتَهُ فِيمَا يَكْرَهُ) وفيه أيضاً (أَهْجُرَ اللَّهُوَ فَإِنَّكَ لَمْ تُخْلُقْ عَبْتًا، وَلَنْ تُتْرَكَ سُدَى فِتْلَعُو)

٦٥ - ٦٦ - ﴿إِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَعْمُوا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾

إذا ركبوا في (الْفَلَكِ) السفينة وأصابتهم أمواج البحر الشديدة، وخافوا الغرق، تأملوا بالقوة الخارقة التي تنقذهم، دعوا الله وحده وتعلقوا به وانقطعوا إليه مضطرين (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) بالدعاء والانقطاع والتضرع الكامل، لعلمهم بأن الله تعالى وحده القوي القاهر القادر على نجاتهم ولم يتعلقوا بأي وجه آخر، لأن الإنسان يستنفر كل طاقاته المحبوبة وقت الشدة، وتنكشف فطرته المستورة عند المحنة المنزللة، ويظهر الإنسان على حقيقته ومقدر إيمانه بالله تعالى، عند الاضطرار والرهبة، فمن توجه لوجه واحد يكفيه الوجوه كلها (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) فلما خلصهم الله تعالى من الهلاك، ونجَّاهم من أهوال البحر ووصلوا إلى البر، إذا هم يعودون (بشكل عجيب وغريب) إلى كفرهم وشركهم ناسين رحمة ربهم الذي أنقذهم، وناسين دعاءهم وانقطاعهم لله وحده (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ٦٦ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَعْمُوا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ) أمر على وجه التهديد والوعيد، أي فليكفروا كفران النعمة، والغفلة عن المنعم، بما أعطيناهم من نعمة النجاة والجاه والأموال (وَلِيَسْتَعْمُوا) وينتفعوا في هذه الدنيا بباقي عمرهم بملذات الحياة المؤقتة، التي لذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة، وهمومها كثيرة (فَسُوفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة أمرهم حين يكون الحساب يوم القيامة، وهو بصيغة تهديد ووعيد من سوء العاقبة كقوله (تَمَعُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) لقمان/٢٤، وقوله (أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) إبراهيم/٢٨ (الَّذِينَ لَا تَنْفَعُهُمُ الْهَدَايَةُ تَضُرُّهُمُ الضَّلَالَةُ).

فائدة:

١- إنَّ الله لا يجبر أحداً على الإيمان كقوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦، ولا يترك الله الناس من دون حجة تُلقى عليهم كقوله (لَقُلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، عن الإمام علي (ع) (إِنَّهُ لَيْسَ لِهَٰلِكَ هَلَكٌ مِنْ يَعْدُرُهُ فِي تَعْمُدِ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا تَرُكُ حَقِّ حَسِبَهُ ضَلَالَةً) البحار ٥/٣٠٥، وبعد ذلك لمن يلتزم بمنهج الله هي النفوس المؤمنة، والذي ينحرف عن منهج الله هي النفوس الظالمة والضالة، ٢- الفرق بين إخلاص المؤمن الدائم، وانقطاع الكافر لله في وقت المحنة، إخلاص المؤمن لله يكون في الشدة والرخاء، وفي السرِّ والعلانية، وفي السخط والرضى، على السواء، وعلى قدر اليقين يكون الإخلاص، في الحديث القدسي (الإخلاص سرُّ بيني وبين عبدي، لا يسعه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل) روح البيان ٦/٤٩٤، أما انقطاع الكافر: هو انقطاع مؤقت عند الشدة وحالة

الاضطرار، وعند نزول رهبة البلاء وخوف الهلاك بالرجوع الطبيعي الفطري إلى الله القادر، ويزول هذا التعلق عند الرخاء والأمان، فأجابهم الله أمّن يجيب المضطر عند دعائه بالنجاة من ورطة الهلاك؟ كقوله (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) النمل/٦٢، ٣- (احذر الشرك الخفي) قد يضل الإنسان عن منهج الله، ففي ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله مباشرة، ولكن يلجأ إلى أضرحة الأنبياء والأئمة (ع) ويدعوهم مباشرة (من دون الله) لانقاذه من هذه الشدة، وهذا شرك خفي يعصف بالتوحيد، ويحبط العمل، بقوله تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، وقوله (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) الحجرات/٢، ولكن من المستحب زيارتهم والدعاء لله عندهم عليهم السلام بقولنا (ياوجيهاً عند الله، إشفع لنا عند الله) بجاهك عند الله، وهذه وسيلة شريفة مباحة كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) المائدة/٣٥ الوسيلة: اطلبوا الله القربة بأنواع الطاعات.

٦٧- ﴿أَوْ كَفَرُوا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا يُخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

الاستفهام إنكاري وتقرير (أَوْ كَفَرُوا) (رؤية تفكر وتعقل واعتبار) بحيث تتساوى رؤية البصر مع رؤية البصيرة، ويتساوى الدليل العلمي مع الدليل الحسي، أي أننا جعلنا بلدكم مكة (حَرَمًا مِمَّا) مطمئناً مصوناً عن السلب والنهب، آمناً أهله من القتل والسي، بينما الناس حولكم يتخطفون قتلاً ونهباً وسيياً؟ لأن العرب في الجاهلية كانت تعيش على الغارات والاعتداءات، وهم في خوف دائم وقلق مستمر، ولا يأمن أحد على نفسه، ولكنهم يحترمون الحرم الحرام ولا يتعرضون لمن أقام به، ولا يجردون الأمان إلا في ظله (أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) أفعد هذه النعم الظاهرة الجليلة (يُؤْمِنُونَ) يصدّقون بالأوثان الباطلة والعصيان والطغيان (وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) وهي نعمة الأمان والإطمئنان بجدونها بكفرهم بالله المنعم سبحانه، أين ذهبت عقولهم؟ فكان عجباً أن يجعلوا من بيت الله الحرام مسرحاً للأصنام! أي إنّ الذي جعل مكة آمنة في محيط جاهلي غير آمن، قادر على أن يحمي القلة المؤمنة المستضعفة من الكثرة المشركة المستكبرة.

فائدة: ١- إنّ الكفر بالله أشدّ من الكفر بنعمة الله، وإنّ الأول لا يفارق الثاني، والذي لا يقدر النعمة لا يقدر المنعم، في نهج البلاغة حكم ٣٣٠ (أَقَلُّ مَا يَلْزُمُكُمْ اللَّهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) كقوله (الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ) إبراهيم/٢٨، ٢- سبب النزول: روي أن بعض مشركي مكة قالوا للنبي (ص) يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلاّ مخافة أن يتخطفنا الناس لقتلتنا، والكفار أكثر منا، فمتى بلغهم أننا قد دخلنا في دينك، تخطفنا الناس وقتلونا، فنزلت الآية.

٦٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ: لا أحد أظلم منه، أو ومن أشد ظلماً وإجراماً (مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) ممن كَذَّبَ على الله فوصفه سبحانه بما ليس فيه، أو زعم أن الله اتَّخَذَ لنفسه شركاء أو شفعاء، أو صاحبة وأولاداً بغير علم، أو صَغَّرَ قدر الله تعالى، وعظَّم قدر المخلوقين وَغَالَ فيهم، وأساء الأدب مع الله تعالى وتعدى حدوده، وتجاوز شريعته كقوله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) النور/١٥، عن الإمام الصادق (ع) (أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان، أن يجلس إلى غال (مُغَالٍ) فيستمع إلى حديثه ويصدقَه) نور الثقلين ٢٧٠/٥ أو ادَّعى النبوة كذباً، أو نسب حكماً لله سبحانه كذباً وابتداعاً، أو بتحريف كلامه سبحانه عن مواضعه، كقوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)! المائدة/١٣ وقوله (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) الأعراف/٢٨.

عن النبي (ص) (أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي، رجلٌ يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه، ورجل يرى أنه أحقُّ بهذا الأمر من غيره) كنز العمال خير ٢٨٩٧٨.

(أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) أي كَذَّبَ بالرسول أو القرآن حين جاءه، ويعتبرون كل حق خلاف طبائعهم ومزاجهم باطلاً (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصْرِفُهُ الْبَاطِلُ)؟ (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ) استفهام إنكاري، أي (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى) منزل ومأوى وموضع إقامة (لِلْكَافِرِينَ) جزاء افتراءهم وعنادهم وكفرهم؟ بلى يقيناً هي حسبهم، وهم لا يستحقون أي عقاب آخر إلا عقاب جهنم، وهي اللاتقاة بهم والمناسبة معهم، وبئس المهاد. عن الإمام الرضا (ع) (مَنْ تَعَوَّدَ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ وَ لَمْ يَتْرِكْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا (المحرمة) فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِنَفْسِهِ) البحار ٣٥٦/٧٨.

٦٩ - ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

تبحث الآية موضوعاً حركياً بالغ الأهمية، دقيق المبني، عميق المعنى، واسع الدلالة، كثيرة تطبيقاته، فهو منهج حياة، وأسلوب حياة، ومنطلقات حياة، الجهاد والمجاهدة: استفرغ الوسع ونفوذ الطاقة والتوجه بقصد سليم، إلى الجهاد بمعناه الواسع في سبيل الله ومن أجل رضاه، ويتحقق رضاه سبحانه في نصرة الحق والحقوق، والدفاع عن الوطن والعرض والمال، وبذل كل ممكن في مدافعة العدو مهما تعددت أشكاله، وتنوعت معانيه المادية والمعنوية، كالجهد في سبيل الله علمياً وعملياً، ونفسياً ومهنياً وتقنياً، ومادياً ومعنوياً متطوراً، جهاداً تكنولوجياً أو إلكترونياً أو إعلامياً أو عسكرياً معاصراً.. إلخ (جَاهِدُوا فِينَا) جَاهِدُوا لإعلاء كلمة الله وخدمة الناس، جهاداً مناسباً خالصاً لوجهه الكريم لنصرة الحق والحقوق، لذلك قال (جَاهِدُوا فِينَا) ولم يقل (جاهدوا معنا أو إلينا) لأن الجهاد في الشيء يفيد التحقيق والتعميق والتحديد والتخصيص والإخلاص، أي الجهاد في أهم القضايا وأفضلها، فجاهدوا جهاد الاستقامة، فإن في الاستقامة

السَّلَامَةِ وَالكَرَامَةِ، بَلَا أَيْةٍ نَدَامَةٍ وَلَا مَلَامَةٍ، كَقَوْلِهِ (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ) الحج/٧٨، وَأَفْضَلَ الْجِهَادِ نَصْرَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَحْلِيصُهَا مِنْ مَعَانَاةِ اسْتِضْعَافِهَا وَتَحْلُفِهَا، وَإِعَادَةُ فِي هَيْبَتِهَا وَكَرَامَتِهَا وَقَوَّاتِهَا كَقَوْلِهِ (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) الحج/٤٠، عَنْ النَّبِيِّ (ص) (لَا يَقُومُ بِدَيْنِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ) كَنْزُ الْعَمَالِ خَبَرٌ ٥٦١٢ (لَنْهَدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (لَنْهَدِيَنَّهُمْ) تَوْكِيدٌ بِوَعْدِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) الروم/٤٧، أَي لِنَزِيدَنَّهُمْ هِدَايَةَ وَتَسْدِيدًا وَتَأْيِيدًا وَتَوْفِيقًا إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ، الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَهُمْ وَغَيْرِ الْمَعْرُوفَةِ أَي وَلِنَعْلَمَنَّهْم طَرُقَ الْوَصُولِ إِلَيْنَا بِسَلَامَةٍ، بِمَخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ الصَّالِحَةِ كَطَرِيقِ جِهَادِ النَّفْسِ وَمُخَالَفَةِ الشَّيْطَانِ، فِي الْحَدِيثِ (جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ) رُوحُ الْبَيَانِ ٦/٤١٣، وَجِهَادُ الْأَعْدَاءِ، وَجِهَادُ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالنَهْضَةِ الْحَضَارِيَّةِ، وَجَاهِدَةُ (مَمَانَعَةُ) الْهَوَى وَالْأَنَا وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ الْمَحْرَمَةِ، وَيَكُونُ الْجِهَادُ بِالْيَدِ أَوْ اللَّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ بِالْإِنْكَارِ وَإِظْهَارِ الْكِرَاهِيَّةِ، عَنْ النَّبِيِّ (ص) (جَاهِدُوا الْكُفَّارَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ) الدر المثور ٥/٩٩.

وَكَلِمَةٌ (فِينَا) تَعْنِي خِدْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ بِدَوَافِعِ رَبَّانِيَّةٍ، تَخْدَمُ الْمُجْتَمَعَ وَتَهْدِيهِ وَتُرْشِدُهُ وَتَرْضِي اللَّهَ (لَنْهَدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) وَسَبِيلَ اللَّهِ كَثِيرَةٌ، وَالطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ مُتَعَدِّدَةٌ بَعْدَ أَنْفَاسِ الْبَشَرِ، كُلُّ إِنْسَانٍ بِقَدْرِهِ وَقُدْرَتِهِ: فَالَّذِي جِهَادَهُ الْعِلْمَ يَعْلَمُ النَّاسَ بِمَا يَعْلَمُ، فَيُرِثُهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، كَقَوْلِهِ (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) الْكَهْفِ/٦٥، عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ (ع) (مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمًا مَا لَمْ يَعْلَمْ) الْبَحَارُ ٧٨/١٨٩، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَصَبَرُوا، رَزَقَهُمُ اللَّهُ التَّشْبِيثَ، وَبِالصَّبْرِ تَدْرِكُ الرِّغَابَ، وَالَّذِينَ ذَكَرُوا اللَّهَ فِي الرِّخَاءِ ذَكَرَهُمْ عِنْدَ الشَّدَةِ، وَالَّذِينَ اسْتِغْلَوْا مَعَ اللَّهِ بِالْوِظَائِفِ، أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَسْرَارَهُ بِاللِّطَائِفِ، فِي الْحَدِيثِ (مَنْ أَحْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، انْفَجَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ) مَوَاهِبُ الرَّحْمَنِ ١٠/٨٣ وَمَنْ جَاهَدَ لِيُعْطِيَ اللَّهَ تَعَالَى كَلِمًا يَمْلِكُ وَأَعَزَّ مَا يَمْلِكُ فِي ظُرُوفٍ مُنَاسِبَةٍ، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ كَلِمًا يَرِيدُ، وَفَوْقَ مَا يَرِيدُ!، وَمَنْ طَلَبَ اللَّهَ وَجَدَهُ، وَمَنْ اسْتَعَانَ بِهِ أَعَانَهُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ شَبْرًا تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا. فِي غُرْرِ الْحِكْمِ (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَاطُهَا إِلَّا ذُرُوءُ التَّهْذِيبِ وَالْمِجَاهِدَاتِ) وَمَنْ سَعَى إِلَى اللَّهِ قَرَّبَهُ اللَّهُ، وَمَنْ بَحَثَ عَنِ اللَّهِ وَجَدَهُ، وَعَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) الْبَحَارُ ٧١ ص ٩٥، مِنْ دَعَاءِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (ع) فِي يَوْمِ عَرَفَةَ (إِلَهِي أَطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ) الْهُدَايَةُ نَوْعِينَ:

هُدَايَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْمَوَاهِبِ، وَهُدَايَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْمَكَاسِبِ، فَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْمَوَاهِبِ فَمِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهِيَ مُقَدَّرَةٌ، كَقَوْلِهِ (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) الرَّعْدُ/٨، وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْمَكَاسِبِ فَمِنْ كَسْبِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ وَسَعْيِهِ كِفَاءَتَهُ، وَمِقْدَارِ جَهْدِهِ وَجِهَادِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَعِلْمِهِ كَقَوْلِهِ (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) مُحَمَّدٌ/١٧ (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) لَمَعَ: لَامُ الْمَرْحَلَةِ لِلتَّأَكِيدِ، وَهَذَا

كشفت لقانون إلهي حركي مؤثر عام وفاعل على الدوام، وتطمين لقلوب المؤمنين، بأن الله معهم بعزته وقوته (وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ، كَانَ اللَّهُ مَعَهُ) فبمقدار ما يكون الإنسان مع الله، يكون الله معه بنفس القدر والنسبة، ومن كان الله معه فمن عليه، ومن كان الله عليه فمن معه؟! كقوله (أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المجادلة/٢٢ فائدة: ١- وفي وصف المجاهدين في سبيل الله بأنهم محسنون، (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) لبيان أن الجهاد الخالص في جميع صورته في سبيل الله هو إحسان، فحيثما كان الإنسان بصدق مع الله تعالى، وبذل جهد معين ومقدر ونافع للناس، فهو في جهاد، وإذا انتصر للإنسان المظلوم لأخذ حقه من الظالم فهو في جهاد في سبيل الله، ٢- من الإحسان الجهاد في سبيل الله بمعناه العام والواسع، ليصلوا إلى الله وينالوا قربه وحبه وجذبه سبحانه، كقوله (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) الأنبياء/٨٦ وان يحتملوا في الطريق إليه ما يحتملوا، فلم يبأسوا ولم يتراجعوا ولم يتذبذبوا ولم يتقبلوا ولم ينافقوا للوصول للأهداف السامية، أولئك لن يتركهم الله وحدهم، إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضى عنهم ويرضيهم، وسينظر إلى جهادهم في سبيله فيهديهم للتي هي أقوم، ويأخذ بأيديهم بالنصر، والإعانة في الدنيا، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) السجدة/٢٤، في غرر الحكم (أَحَقُّ النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ مَنْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَبَسَطَ بِالْقُدْرَةِ يَدَيْهِ) لكمال عنايته بهم في الدنيا والآخرة، دللت الآية أن أولى الناس بالصواب أهل الجهاد في الله، ومن أجل الله، ومع الله، وإلى الله، ومن أجل عزة عباد الله، كقوله (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) القصص/٧٧ عن النبي (ص) (الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالٌ لِلَّهِ وَأَقْرَبُهُمْ وَأَحْبَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ) الكافي/٢/١٦٤، ٢- (جَاهِدُوا فِينَا) لا بد من تقديم السعي اللازم، وحصول السبب المطلوب، وهو من تهيئة الإنسان أولاً، ثم يتحرك المسبب على ضوء توفير السبب، وهو الله تعالى (لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) وعلى قدر تقديم السبب، يتحرك المسبب بنفس المقدار الذي تحرك به السبب، كقوله (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) محمد/٧. وكقوله (اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) الشعراء/٦٣، عصا موسى لم تفلق البحر، ولكن عندما هيا السبب في العصا، تحرك المسبب وانطلقت القدرة ففلقت البحر.. وهكذا .

وآخر دَعْوَانَا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) النمل/٥٩. تم بعون الله (وَعِيُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ) لسورة العنكبوت، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل، فلله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات، بتاريخ ٣٠/١١/٢٠١٨م الموافق ٢٩/ ذي القعدة/ ١٤٣٩هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة :

مكية، أهدافها تعالج قضايا العقيدة في ميدانها العام، الإيمان بالوحدانية وبالرسالة والنبوة وبالبعث والجزاء، وابتدأت السورة بالتنبؤ عن حدث غيبي إعجازي قبل حدوثه، وهو انتصار الروم على الفرس، وهما قطبا العالم آنذاك، في الحرب التي ستقع قريباً بينهما، وتحدثت السورة عن المعركة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، إنها معركة قديمة قدم الحياة، ولا بد من انتصار الحق على الباطل في نهاية الجولة، وسميت سورة الروم لذكر تلك المعجزة التي تدل على صدق أنباء القرآن في الأمور الغيبية، رقمها (٣٠) عدد آياتها ٦٠، نزلت بعد سورة الانشقاق، الجزء الحادي والعشرون (فضلها): عن النبي (ص): (مَنْ قَرَأَهَا كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بَعْدَ كُلِّ مَلِكٍ سَبَّحَ اللَّهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَأَدْرَكَ مَا ضَيَّعَ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ) مجمع البيان ٤٥/٨، ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه، راجع أول سورة البقرة.

١ - ﴿الْم﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقرأ : ألف ، لام ، ميم ، الحروف المقطعة إشارة إلى إعجاز القرآن حيث إنه مؤلف من جنس هذه الحروف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الاتيان بمثله أو بعضه في الفصاحة والبلاغة ودقة المعلومات، للزيادة راجع أول سورة البقرة.

٢ - ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾

غُلِبَتِ: هُزِمَتْ، غلب كسرى ملك الفرس وانتصر على جيش قيصر ملك الروم، وكانت الفرس والروم من أقوى دول الأرض وكان يحصل بينهما الحروب.

٣ - ﴿فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾

في أقرب أرض إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث، وهي أرض الشام والأردن وفلسطين، وحدث ذلك في عهد رسول الله (ص) وكان المسلمون يحبون أن تنتصر الروم على الفرس المجوس، لأنهم مثلهم أصحاب كتاب، والمشركون يودون أن تنتصر فارس على الروم لأنهم مثلهم أصحاب أصنام، ولما انتصر الفرس شق ذلك على المسلمين وفرح المشركون، قال المشركون للمسلمين إن الفرس مجوس ولا كتاب لهم غلبوا الروم وهم نصارى أصحاب كتاب، وهذا دليل على أحقية الشرك!، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب (القرآن) الذي أنزل على نبيكم، فنحن لا كتاب لنا وسنغلبكم كما غلب الفرس الروم، وهما قطبا العالم آنذاك، فنزلت هذه الآيات تبشر المسلمين

بأن الروم ستنتصر على الفرس في جولة ثانية (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) (وهم) أي الروم، بمعنى: سيغلب الروم الفرس. فائدة: ١- إخبار القرآن بالغيبيات وذكره للحوادث الصحيحة التي ستقع في المستقبل لهي من الدلائل على إعجازه وإنه من عند الله، وإنه فوق قدرة البشر، وإنه حق ونزل بالحق ويدعو إلى الحق، وإنه كلام الله كقوله (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢، وأيضاً هذه الأخبار شاهدة بصحة النبوة والرسالة الإسلامية، ٢- جاء التعبير القرآني بين الفرس والروم بقوله (غَلَبَتِ الرُّومُ) وجاء عن غلبة المسلمين على المشركين بقوله (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) مائدة/٧ فهو نصر لدين الله، وتبيان فلسفة الحياة، نصر للحياة الانسانية والقيم والمبادئ والأخلاق، وحق له أن يضاف إلى الله، أما قتال الفرس والروم بتعبير (غَلَبَتِ) لم يضاف إلى الله لأنه لم يكن في سبيل الله وإنما كان من أجل السيطرة والسلطان فتركهم (فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) المؤمنون/٧٥.

٤ - ٥ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾
 البضع: ما بين الثلاث إلى تسع، والتقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وانتصر الروم على جيش فارس وفرح المسلمون بذلك (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ) لله عز وجل الأمر أولاً وآخرأ من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، فكل ذلك بأمر الله وإرادته بتهيئة الأسباب كقوله (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) البقرة/٢١٠، (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) يوم ينتصر الروم على جيش الفرس فيفرح المؤمنون بنصر الله، ويظهر صدق نبيهم فيما أخبر به، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر أو هو يوم صلح الحديبية، حيث انتصر عباد الرحمن على عبدة الأوثان وعبدة النيران ففرح المؤمنون بالنصرين (يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ) ينصر من يشاء من عباده بمقتضى حكمته، ولو كانت هذه العدة هي الروح المستميتة ذات الإرادة القوية كما قيل (المستميت لا يموت) والهمة على قدر المهمة، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) بانتقامه من أعدائه (الرَّحِيمُ) فيسخر لهم أسباب النصر (الرَّحِيمُ) بأوليائه وأحبابه، فائدة: ١- وأسند الله سبحانه النصر إليه لأن جميع الأسباب الكونية تنتهي إليه تعالى، وأن الله يدبر الأمور بحكمة على ضوء حركة السنن التاريخية كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) الأحزاب/٣٨، وعلى ضوء قضاء وقدر معينين وعلى ضوء الأسباب والمسببات والحكمة والمصلحة كقوله (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) آل عمران/١٤٠، من أجل أن يعرفوا (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الأنفال/١٠، والنصر والهزيمة لا يخضعان فقط للعدة الكثيرة والعدد الكبير، كقوله (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) البقرة/٢٤٩، وأما تخضع لمقاييس دقيقة ومتداخلة وكثيرة ومرتبطة بشكل كامل بأمر الله تعالى وقدرة الانسان، لذلك على الانسان أن يعرف (مهما كانت قوته) بأنه خاضع تحت قدرة الله الواحد القهار كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، وهذه الإرادة القاهرة لا تجبره على النصر أو الهزيمة، وإنما دورها أن ترتب النتائج

الحاصلة على ضوء الأسباب المتخذة لكل الوقائع الجارية، ومن ثم يربط الله تعالى جميع النتائج الحاصلة بما كسبت أيدي الناس، بالأهداف الربانية الكبيرة والمرسومة في اللوح المحفوظ، والمثبتة في حركة السنن الكونية والتاريخية، والتي يكشف عنها القرآن في سياق آياته كقوله (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) الحج/ ٤٠، ٢ - (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) الآية ترد الأمر كله إلى الله ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الممكنة التي تعطي النتائج المطلوبة، والإنسان مكلف بالأخذ بالأسباب، ولكن ليس مكلفاً بالنتائج كقوله (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) البقرة/ ٢٥١.

٦ - ﴿وَعَدَّ اللَّهُ بِأَخْلَافِ اللَّهِ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وعدكم الله بنصر الروم على الفرس وعداً حقاً مؤكداً، ووعدكم الله أيضاً بنصر رسوله ورسالته، وكل وعد الله حق وصدق، وأن وعده غير مكذوب كقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/ ٨٧، (لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) ولكن يتحقق وعده في الوقت المناسب والكيفية المناسبة، وهذا الوعد لا يجري جزافاً وعبثاً وإنما يجري على ضوء الأسباب الطبيعية اللازمة الموصلة إليه، لذلك جعل الله النصر من عنده سبحانه كقوله (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) آل عمران/ ١٢٦ بينما الأسباب الموصلة إليه جعلها من الإنسان، فبمقدار ما يحقق الإنسان من الأسباب اللازمة يحقق الله له مقداراً من النصر يتناسب مع الجهود المبذولة، إذن لا شيء يحدث صدفة، وإدعاء الصدفة دعوى الجهلاء الجاحدين (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك الوعد الصادق، لأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته وصدق وعده فهم لا يثقون ولا يؤمنون بالله ولا يعلمون حقيقة الدنيا وبواطنها وفلسفتها. والمطلوب: أن يعرف الناس كيف يدبر الله الأمور بحكمته، وكيف يربط الأسباب على النتائج، ولو بدا في الظاهر أنهم علماء فإن علمهم سطحي يتعلّق بظواهر الحياة الدنيا المؤقتة، وجهلهم وكفرهم أن وراء هذه الدنيا عالماً آخر يتم فيه الحساب والجزاء فبقوا في ضلالهم يتخبّطون، فما الفائدة: أن أرتب كل شيء، ولكن أحسّر أهم شيء، وهي نفسي؟! كقوله: (فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) النجم/ ٢٩-٣٠، في غرر الحكم (مَنْ كَرِهَتْ نَفْسُهُ، صَعُرَتْ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ).

٧ - ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

هذه الآية ظاهرها أنيق دقيق جذاب، وباطنها عميق رقيق منساب، فهم (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ويعلمون شكلها وعالمها الحسّي، ويخفي عليهم مضمونها وفلسفتها، ظاهر الحياة الدنيا شكلها المادي الحسّي المنظور المحدود، ولكن باطنها هو العالم المعنوي الكبير اللا محدود، العالم غير الحسّي وغير المنظور (عالم الغيب) وهو (عالم الآخرة) كما أن الإنسان ظاهره جسد مادي محدود معلوم، ولكن باطنه روح تعطي لهذا الجسد قيمته وحياته وكرامته، وعند الموت تخرج

الروح فلا قيمة حينئذ لهذا الجسد ويرجع إلى التراب، وتبقى الروح حيّة لا تموت وتصحب الجسد بعد وفاته، المعنى: لا يتجاوز علمهم هذا الظاهر ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه، وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير مؤقت مادي مهما ظهر للناس واسعاً شاملاً مُهماً، وتنكير (ظاهراً) للتحقير والتصغير، أي (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا) حقيراً يسيراً صغيراً قليلاً من علوم الدنيا وكلها متاع الدنيا، و(مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) النساء/٧٧، أي (يَعْلَمُونَ) باستمرار منافع الدنيا وعلومها وفنونها وبعض قوانينها وزينتها التي تنالها حواسهم الظاهرة، كعلمهم بفنون التجارة وخبرات الزراعة ومهارة العمارة وإتقان الصناعة، و(يَعْلَمُونَ) سائر العلوم المعرفية والاختصاصات العلمية المتنوعة الدنيوية، ويعلمون بكل ما يتصل بمصالحهم ومنافعهم الدنيوية وأن علمهم منحصرٌ بها، قد بلغ بهم من الدّهاء والفتنة والعلم في ظاهر الدنيا إلى أمر يدهش الألباب، وعجبوا بعقولهم وعلومهم الدنيوية، ورأوا غيرهم من المؤمنين عاجزين عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاستصغار الافتقار والاحتقار!

(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) ساهون عن التفكّر بالعالم الآخر الخالد الأهم.

في غرر الحكم (مَنْ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ الْمُهِيْمِ ضَيَّعَ الْأَهْمَ)

جاهلون بأمر الآخرة، لا يخطر ببالهم أمرها، والآخرة هي الغاية القصوى والمحنة الأخيرة كقوله (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) الضحى/٤، لكنهم غافلون عن عالم الغيب بعيد عن تفكيرهم، في غرر الحكم (إِحذروا الْعَفْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ) (وَلَا تَعْفَلْ فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنكَ) فالآخرة حلقة مهمة من سلسلة حلقات النشأة، ومرحلة أساسية من مراحل التكوين، والذين لا يدركون حكمة البدء فلا يدركون حكمة الانتهاء، ويغفلون عن الآخرة، فلم يعملوا لها فعمّروا دنياهم وخبروا آخرتهم، فحلت الدنيا في أعينهم فاعمتهم عن الآخرة، وهذا هو الخسران المبين. كقوله (ثُرَيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) الأنفال/٦٧، في غرر الحكم (مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَجْزِيكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ؟!) إِنَّ الْإِيمَانَ الْأَصِيلَ بِاللَّهِ وَالْعَالَمِ الْآخِرِ هُوَ وَحْدَهُ الذي يصل ظاهر الحياة الدنيا بأسرار الوجود، ويصل أيضاً بالعالم الذي وراء هذا الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه فنؤمن بالعالم الآخر.

والعفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين يختل ويضطرب عندهم ميزان القيم والمعايير الصحيحة، فلا يملكون تصوّر الحياة وأحداثها تصوّراً صحيحاً، ويظل علمهم بما ظاهراً سطحياً مادياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغيّر نظرتة لكل ما يقع في هذه الأرض، فترى الذي يؤمن بالآخرة تختلف نظرتة للحياة الدنيا عن الذي لا يؤمن بالآخرة، فلكل منها ميزان ... وهكذا. ولكن هذه العلوم الدنيوية التي يعلمها الإنسان من ظاهر الحياة الدنيا لو اعتمدت على الإيمان بالله واستقامت على منهجه، لأثمرت حياة طيبة، أرقى من هذه الحياة الحاليّة، ولكنها اعتمدت الإلحاد فهبطت إلى مستنقع الفساد بأنواعه، وهي تعاني من الأمراض النفسية والكآبة،

وكانت عاقبتها الهلاك، لهذا السبب يُقدّم القرآن التقوى على العلم كقوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) البقرة/ ٢٨٢، فتكون التقوى تزكّي العلم وتطهره من كل سوء.

فائدة: ١- الآية دعوة إلى التفكّر والتدبّر، والتفكّر حياة القلب، وانسراح الصدر، وسعة آفاق العقل. للحياة الدنيا ظاهر وهو ما تراه العيون، وباطن وهو عالم الغيب (العالم الآخر) والذي يعمل للظاهر يعيش سطح الحياة، والذي يعمل للآخرة فيستقيم في الفكر والقول والعمل فيكسب خير الدنيا والآخرة كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/ ١٣٤، ومن طبيعة هؤلاء الماديين أنهم يعرفون كيف يعيشون ويتعممون ويتكاثرون ويتزفّهون، ولكنهم لا يعرفون كيف يسعدون حياتهم الأبدية في الآخرة، ولا يعرفون كيف يموتون موتاً عزيزاً شهيداً مملوءاً بالحياة.

(والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ!)، ومن سعى إلى الله قربه له، من بحث عن الله تعالى وجده، عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥، ٢- للإنسان جسد وروح، كما للحياة دنيا وآخرة، والذين يعطون للحياة مطالب الجسد ويهملون مطالب الروح فسوف (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) هذا الصنف يتعد عن الاستقامة في الدين، في القول والعمل، ويعيش حالة التقلّب والتذبذب وازدواج الشخصية، فهو بمقدار ما يتقرب من الحياة الدنيا، تراه يتعد عن الحياة الأخرى بنفس مقدار اقترابه من الدنيا، والذي يتعد عن الاستعداد للآخرة فإنه يتعد عن سعادته ويغفل عن حُسن عاقبته كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/ ١٠٣-١٠٤، ٣- في قوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) نفي للعلم بأمر الدين وسعادة الروح وقوله (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) إثبات للعلم بأمر الدنيا. ٤- قوله (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (وَهُمْ) الثانية تكرير للأولى للتأكيد بأنهم في مستنقع الغفلة والتغافل عن الآخرة بالجحود بها وترك الاستعداد لها، ومن غفل عن الآخرة كان عن الله أغفل، ومن نسي الله نساه من رحمته فيتلقفه الشيطان عدو الإنسان كقوله (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/ ٣٦.

٨ - ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾

(أولم) يراجعوا عقولهم و(يتفكروا) ويتدبروا في عجائب أنفسهم الذي خلقهم الله في أحسن تقويم وأعدت تركيب، وأتقن صنع وأكرمهم أحسن تكريم، فأنفسهم أقرب شيء إليهم وأعز شيء عندهم ولكنها أغرب شيء وأجهل شيء عندهم، وخلق الله في أنفسهم ما خلق في العالم الأكبر من عجائب الصنع وإتقان الخلق وجمال التقدير وجلال التدبير كقوله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ،

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات/ ٢٠-٢١، (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) خلق كل شيء بالحق، ومن الحق، ومن أجل الحق، والعدل والخير ليهتدي الإنسان إلى الحق الثابت الذي لا يضطرب، ولا تتفرق به السبل ولا يصطدم بعضها مع بعض، الحق الثابت في نفسه ومثبت لغيره.

المعنى: أو لم يتفكروا في عجائب الخلق وأتمها مخلوقة لهدف عظيم وغاية حكيمة وكريمة، وفيها المصلحة والخير ولا عبث فيها، ليرجوا على الله رضاه ويفوزوا بالجنة، عن الإمام علي (ع) (تفكروا في مخلوقات الله تعالى، ولا تفكروا في ذات الله، فتهلكوا) كنز العمال ج ٣ ص ١٠٨ (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) ومن طبيعة هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن يكون له وقت معلوم مؤقت ومحدد ومؤكد تصل إليه البشرية وهو يوم القيامة، وهو يوم الجزاء وتحقق فيه الغايات، وهذا الأجل المسمى المرسوم المحتوم، لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة كقوله (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) الحجر/٥ (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) لجاحدون للبعث والنشور لعدم تفكرهم وتدبرهم، والذين لا يتفكرون في الخلق فسوف يقودهم الذين يفكرون، فيجعلونهم على ما هم عليه.

فائدة: ١- كيف يكفرون بالمعاد إلى يوم القيامة، والله خلقنا من ماء مهين لا قيمة له، فالذي يؤمن بالنشأة الأولى فعليه أن يؤمن بالنشأة الأخرى، لأن الإيمان بأحدهما يثبت الإيمان بالآخر، ٢- شجع الله تعالى على التفكر والتأمل والتدبر بشكل عام كقوله (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) البقرة/٢١٩ (والتفكر) يهدي إلى الرشد ويقوي البصيرة ويزيد في اليقظة ويعالج الغفلة، وفي التفكر حياة القلوب وانسراح النفوس، وسعة العقول ونضوج الأفكار ومعرفة الأسرار، عن الإمام الصادق (ع) (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) (إِنَّمَا يَنْدَكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ) الرد/١٩، البحار ٣٢٧/٧١ وقد تكون لحظة تفكر تعادل العمر كله لما لها من تأثير كبير في تحريك مشاعر النفس، فبدأت الآية بالتفكر (في أنفسهم) وأسرار خلق الجسد لأنها أقرب شيء للإنسان، في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) ويسهل عليه معرفة أسرار الكون والكائنات، ٣- يصنف القرآن الكريم الذين (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) إنهم لا يعرفون أسباب وحكمة خلق السماوات والأرض، وكأنما كل شيء مخلوق عبثاً وباطلاً لا هدف نبيل فيه ومجرد إهدار للحياة، بينما القرآن الكريم يصحح مفاهيم هؤلاء الجهلاء، إنه ما خلق شيئاً إلا بالحق، ولغاية سامية لا يصل إليها أصحاب التعلق الشديد بالدنيا، عن الإمام زين العابدين (ع) (حَبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) الكافي/٢/١٣٠ وحب الدنيا يعمي ويصم ويحجب عن الإيمان بالعالم الآخر (عالم الغيب) عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضُرَّ بِأَخْرَجَتِهِ) البحار ٧٣ ص ٨١، كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/١٣٤.

٩ - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

والاستفهام للتقرير، يعني في الضروري السير أي: السفر في أرض الله الواسعة، ترغيب إليه في القرآن، كقوله (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) العنكبوت/٥٦، سفر قاصد الخير والتأمل والتفكير والتدبير من حوله، ليس في هذا السفر لغو ولعب وضياع وقت، هي دعوة قرآنية إلى التأمل في حياة ومصير الماضين، حتى لا يكون الإنسان عبرة للباقيين، وحتى لا يبقى الإنسان متفوقاً في مكانه فيتصوّر الحياة بمنظار ضيق. بمعنى: أو لم يسافروا (أُولَئِكَ الْغَافِلُونَ عَنِ الْأَخِرَةِ) في الأرض أينما كانت فينظروا ويتحققوا بأنفسهم كيف كانت نهاية وخاتمة (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) فيعتبروا بهم، في نهج البلاغة خطبة ٨٦ (وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ) (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) قوة في العلم والجسم والخبرة والتجربة وكثرة الأموال والأولاد والجند والقوة والقدرة.

(وَأَثَارُوا الْأَرْضَ) كلمة بليغة جامعة لكثير من المعاني، وهي ذات مدلول واسع، أنهم حرثوا وجه الأرض وقبّلوا تراجمها للزراعة المتنوعة واستحداث الأنهار وحفر الآبار وشقّوا عن باطنها لاستخراج ذخائرها من الذهب الأسود من النفط والغاز وأنواع المعادن، وتأسيس المباني وبناء المصانع الضخمة، وإعداد الكفاءات المتقدمة، واستثمار الاختصاصات (وَعَمَرُوهَا) ببناء المدن وتشيد الحصون والقصور والأبراج والمعامل الصناعية (أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) عمارة فنية، أكثر كماً وكيفاً من عمارة هؤلاء المشركين من أهل مكة إذ لا زراعة لهم ولا عمارة (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) بالدلائل والحجج الواضحات من عند الله، فلم يدخل نور الهداية في قلوبهم، ولم تفتح بصائرهم لها ولم يتأثروا بها فكذبوا الرسل.

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) فيهلكهم بغير جريمة وقبل أن يرسل الرسل ومن دون إتمام الحجّة عليهم (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أنهم أعرضوا عن منهج الله فظلموا أنفسهم وأساؤوا إليها بالضلال والعناد والفساد، ولم تنفعهم قوتهم ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم لاستغراقهم في الآثام كقوله (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) النساء/١١١، وقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٢٩، فائدة: لقد رغب القرآن على السفر الهادف الشريف الذي فيه التفكير والعبر، عندما يسافرون في البر أو في البحر أو في الجو، ورغب أيضاً في قراءة سنن التاريخ ليتفكروا كيف عاشت الأمم الماضية، وكيف تطوّرت حضارات وكيف اتحارت وماتت وكيف كانت عاقبتها. الآية تلفت النظر إلى نقطة مهمة وهي: ما الفائدة من عمارة الأرض قبل إعمار النفوس وتهذيب العقول والأخلاق؟ فمن الخسارة الكبرى أن تتسابق الدول الكبرى في إعمار أراضيها وإغفالها عن إعمار نفوس أمتها بالإيمان بالله وتهذيبها أخلاقياً وعقائدياً، فإن الناس كما تحتاج إلى عمارة الأرض حضارياً كذلك تحتاج إلى عمارة النفوس عقائدياً وأخلاقياً، فالذي يعني

بعمارة الأرض وزخارفها أكثر من الحاجة إليها، تراه يزداد التعلق بها وينسى ما هو أهم أي ينسى الله واليوم الآخر، ومن ينسى تزكية نفسه، (وَمَنْ يَنْسَى اللَّهَ يَنْسَاهُ) من رحمته. كقوله (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) العنكبوت/٦٤ الْحَيَوَانُ: مبالغة الحياة، ينبوع الحياة التي تتفجر منها الحياة، الحياة التي تعطيك معنى الحياة، وتعلمك فلسفتها، الحياة النامية الحقيقية الدائمة، حياة متكاملة جميلة جليلة بلا منغصات ولا سلبيات.

١٠ - ﴿نَمْرُكَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾

ثم كانت نهاية الذين أساءوا لأنفسهم بالكفر بالله واليوم الآخر ويارتكاب المعاصي والإصرار عليها، كانت لهم العقوبة (السُّوْأَى) مبالغة السوء أي الأشد سوءاً وضرراً، وهي عقوبة الذنوب الكبيرة والخطيرة، وسميت (السُّوْأَى) لأنها تسوء صاحبها وتؤذيه من جميع الجوانب مادياً ونفسياً، ظاهراً وباطناً، وعاجلاً وآجلاً وفي الدنيا والآخرة، وفي ذلك دلالة أن التكذيب والعناد والضلالة يقودهم إلى الحالة السيئة الشنيعة ذات العاقبة السوأى، والعقوبة على قدر الجنابة (أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) كانت السوأى عاقبة المسيئين، والنتائج على قدر المقدمات، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون.

فائدة: ١- تحذّر الآية من مخاطر السيئات على عاقبة الإنسان، فإن كثرة الذنوب تقسي القلوب، وتقلق النفوس وتعيش معاناة الكآبة كقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) طه/١٢٤، الضنك: الضيق النفسي والكآبة والقلق في النهار والأرق في الليل، فلا ينقذها المال والجمال وحسن الأشكال وتحسن الحال، ولا تنفعها عيش الرفاهية إن ضلّت عن سبيل الله، وإذا ضلّت النفوس فإنها تعيش ظاهر الحياة دون فلسفتها وحكمتها، تعيش اجترار الحياة وهدر العمر، وتعرض عن حقائق المخلوقات وتنحرف عن منطق البديهيات، فتقع في أشكال المشكلات وفي المتناقضات، باتباعها الهوى والأنا ووساوس الشيطان فتكذب بآيات الله وتستهزئ بها، وتستكبر على الناس وتفسد في البلاد والعباد فسوف تلاقي ما يسوؤها في وقته المناسب (وَمَا رُبُّكَ بِظُلَامٍ لِلْعَبِيدِ) فصلت/٤٦، ٢- إنّ لهذه الذنوب عواقب سوء، فيتزايد الشؤم بتزايد ارتكاب الذنوب، عن الإمام الباقر (ع) (مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ بِيضَاءُ فَإِذَا أَدْنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوَادُ، وَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السُّوَادَ حَتَّى يَغْطِيَ الْبِيضَ، فَإِذَا غَطَّى الْبِيضَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (كَأَلَّا بَلٌ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطففين/١٤) بحار الأنوار/٧٣/٣٣٢.

١١ - ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الآية دقيقة المبني عميقة المعنى، تختصر حقيقة المعاد الكبرى، بكلمات قصيرة ذات دلالات كبيرة. المعنى: الله تعالى بقدرته يتولى وحده إدارة شؤون الخلق في الدنيا (ثُمَّ يُعِيدُهُ) وهو الذي يتولى وحده

إعادتهم بعد الموت أينما كانوا وكيفما كانوا في الآخرة من غير شريك ولا معين، ليعدهم إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء كقوله (وَلْيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/ ٢٢، جاء في الدعاء (اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ أَعْمَالِي خَوَاتِيمَهَا، وَخَيْرَ عُمْرِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ لِقَائِكَ) (ثم إليه تُرْجَعُونَ) ثم العودة اللازمة إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم يوم القيامة، فكما بدأ الخلق من الله فلا بد أن يعود إليه سبحانه كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، فائدة: ١- في هذه الآية ردهم الله إلى الحقيقة الكبرى التي يغفل عنها الغافلون، حقيقة البعث والمآب وهو طرف من الحق الأكبر الذي يقوم عليه هذا الوجود المنظم، الله يبدأ الخلق بإرادته، وأعطاهم حرية الاختيار بإرادته، ثم يعيده بإرادته، المتفرد في إرادته دون شريك ولا معين، فيكون الخلق بلا إعادة عبث، والله منزّه عن العبث، والحياة الدنيا لغز يصعب حلّه لولا الايمان بالله وباليوم الآخر. فبدأ الخلق ثم إعادته حقيقة كبرى مترابطة متناسقة بين أجزائها، فالإعادة كالبدء، وهما حلقتان مترابطتان لا انفصامَ بينهما، والله يعيد الخلق بعد فناءه خلقاً جديداً كما بدأه خلقاً سوياً ولم يك شيئاً كقوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الأعراف/٢٩، في غرر الحكم (مَنْ سَعَى لِدَارٍ إِقَامَتِهِ، خَلَصَ عَمَلُهُ، وَكَثُرَ وَجَلُّهُ) وفيه أيضاً (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ).

١٢ - ﴿وَيَوْمَ نَقُورُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾

يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ: ييأسون من كل خير، ويتحيرون في أمرهم وتنقطع حجتهم ويسكنون ويتحسرون ويخافون فلا منقذ لهم من أهوال الساعة. والإبلاس: الحزن والغم والهَمُّ المعترض من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس من: أبلس أي قنط من رحمة الله. والإبلاس فيه كل الشقاء والعناء والبلاء. المعنى: أخبر سبحانه إذا جاء يوم القيامة يوم الفصل بعد نشرهم وبعثهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب (يُبْلِسُ) يسكت المجرمون فلا يستغيثون ولا يسترحمون، لأنهم ييأسون من الخلاص ولا أمل لهم بالنجاة ولا بحيلة ولا من ناصر ينصرهم بسبب افتضاحهم في الحساب أمام الناس يوم المحشر، فلم يقدموا لذلك اليوم المصيري إلا الإجماع! فائدة: ١- (الْمُجْرِمُونَ) معنى الجرم وأصله قطع الثمرة عن الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه، يقال اللحم المجرم أي المفصول عن العظم، وكذلك المجرم فإنه أخبت المعتدين فهو منفصل عن الصفات الإنسانية السوية ومنقطع عن الأخلاق والطبائع البشرية المعروفة، في غرر الحكم (شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِيهِ النَّاسُ مَخَافَةً شَرِّهِ)، ٢- وقدّم ذكر وجزاء أهل الشر، وأخرّ ذكر جزاء أهل الخير، لأن أهل الشر الأكثرية في الدخول مع الهمج الرعاع ويكون مصيرهم جهنم كقوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) ق/٣٠، ٣- (السَّاعَةُ) جزء من أجزاء الزمان عبّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها كقوله (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) الأنعام/٦٢، وقوله (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) الأحقاف/٣٥.

٤- سلّط الله تعالى الأضواء على موقف من مواقف يوم القيامة، وهو موقف المجرمين، فهم يرون أعمالهم الإجرامية الكثيرة وقد أحصاها الله تعالى عليهم جميعها، وشهدت عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم، حتى كلامهم أحصاه عليهم وكأنه محفوظ على شريط مجسّم ذي ثلاثة أبعاد، في صورة وصوت ونية، كيف لا، وهو القائل سبحانه (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق/١٨، عندئذ (يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) تنقطع حججهم ويندمون ويتحسّرون في وقت لا ينفع الندم كقوله (فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات/ ٦.

١٣ - ﴿وَكَيْفَ كُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾

شُفَعَاءُ: وسطاء مؤثرون يمنحون الخير ويدفعون الشر، المعنى: ولم يكن لهم من آهنتهم التي عبدوها مع الله تعالى شفعاء يخلصونهم من عذاب جهنم كما زعموا (وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ) وكانوا هم بأولئك الشركاء جاحدين يائسين متبرئين منهم، فلا تابع يستفيد من المتبوع، ولا المتبوع يقدر على إنقاذ نفسه فضلاً عن إنقاذ غيره، فلا يغنون عنهم شيئاً، فهم على بأسهم من رحمة الله آيسون من آهنتهم كقوله (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) البقرة/ ١٦٦، فائدة: ١- في ذلك اليوم المصيري الحاسم تكون الولاية لله الحق، وما يشفع أحد عنده سبحانه إلا من اتخذ عنده عهداً كقوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) مريم/ ٨٧، ولا يتقبل الله تعالى الشفاعة إلا من ارتضى كقوله (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) طه/ ١٠٩، ٢- الشركاء: كل ما عبدوه من دون الله، وأطاعوه في معصية الله.

١٤ - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ بِمَنْفِرَتُونِ﴾

ويوم يحين وقت القيامة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) المطففين/ ٦، فيتميّز الخبيث من الطيب، والصالح من الطالح، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فيتم فرز المعادن الجيدة من المعادن الرديئة، ليعود كل معدن إلى أصله وقيمه بلا ادعاء كاذب ولا إطلاء، توزن الأعمال بدقة وتقدر التبعات ويتحدد المصير المحتوم بالحق (يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) يتميزون ويُقسّمون ويفرزون، كقوله (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) الشورى/ ٧، فيتفرق أهل الخير عن أهل الشر كما افترقت أعمالهم في الدنيا فلا يجتمعون أبداً كقوله (لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) عبس/ ٣٧، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب فائدة: ١- وكرر لفظ (تَقُومُ السَّاعَةُ) الروم/ ١٢، للتحويل والتخفيف، لأن القيامة أمر هائل وضروري وحاسم ومصيري، فلا بد من الاستعداد له، في غرر الحكم (مَنْ أَفْنَىٰ عُمْرُهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ).

١٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

روضة: جنة، وجاءت نكرة يراد منها مبالغة التعظيم والتكريم، أي روضة عظيمة كريمة ذات جمال مدهش ونضارة خلابة والمراد بها الجنة، والجنة: بستان غني بالمياه والخيرات المتنوعة والأشجار

والثمار وأنواع المشتبهات، وَخَصَّ الروضة بالذكر لأنها قمة القيم في الجمال، ولم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا أطيب رائحة من رياض الجنة. يجبرون: الحبور السرور والفرح أي يُسْرُونَ ويمرحون ويفرحون وينعمون بالماكل اللذيذة، والأشربة الطيبة المتنوعة والروائح الخلابة والمناظر المدهشة.. إلخ حتى يظهر عليهم حبار ونضارة وسيماء النعيم ويبين على وجوههم وملاحظهم آثار الخير والتكريم، المعنى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي فأما المؤمنون المتقون سينزلون في هذا اليوم المصيري الهائل أكرم منزلة لأنهم عملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه، الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والأعمال الصالحة وكل إنسان يعمل صالحاً بقدره ومقداره، أي جمعوا بين العبادات والمعاملات والأخلاق، وبين الأقوال والأفعال، وبين الادعاء والحقيقة (فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) فيكافئهم رهم فيدخلهم روضة عجيبة غريبة في شكلها ومضمونها، لا يمكن وصفها بالعبارات الأدبية، وأكبر من الكلمات البليغة، فيها ما تسر نفوسهم وتفرح قلوبهم ويسعد ضميرهم كقوله (هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) الزمر/٣٤، في الجنة كل الإيجابيات البعيدة عن كل السلبيات، لقد جعل الله رأس مال الجنة والطريق السليم لها شرطين: الإيمان مع العمل الصالح، ولا يمكن الاعتماد على واحدة منهما دون الأخرى. كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧ كقوله (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) الإسراء/٢١.

فائدة: (يُحْبَرُونَ): يكرمون، وتطلق على أهل الجنة الذين ينالون النعم الحسنى المادية والمعنوية والمفاجأة والمخبات، للدلالة على الرضا المتبادل بينهم وبين رهم كقوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) المائد/١١٩، وفي المقابل جاءت (مُحْضَرُونَ): مكرهون مهانون وتطلق على أهل النار كما في قوله تعالى (فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) الروم/١٦، عن النبي (ص) (مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الْحَوْرِ الْعَيْنِ، تُغْنِيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَلَيْسَ بِمَزْمَارِ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنْ بِتَمَجِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ) مجمع البيان/٨/٥٤.

١٦ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾

ذكرت الآية الذين كفروا وكذبوا بآياتنا الناطقة الواضحة في الآفاق والأنفس بما فصل سابقاً (وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ) أي كفروا بالبعث بعد الموت صرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره، لأن التكذيب بلقاء الآخرة هو تكذيب شامل للمُرسل والرسول والرسالة، وتكذيب بكل الآيات والدلالات المحقة الظاهرة والباطنة، ويكون التكذيب والكفر سبلاً مفتوحة متعددة لا حصر لها، من الضلالة والجهالة والفسق والفجور المؤدي إلى جهنم.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ) (فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) فأولئك يحضرهم الملائكة الغلاظ الشداد لإعدادهم واحضارهم للعذاب المتناسب معهم، ويشرفون عليهم فلا

يفارقونهم، بعد أن أحاطت جهنم بهم من كل الجهات، كما أحاطوا بالكفر وتفننوا في الفساد من كل الجهات. بمعنى: وأما الذين كفروا بالإيمان والإسلام والقرآن، ولم يصدّقوا دلائنا الواضحة وكذبوا بيوم البعث والنشور بعد الموت، والذين كفروا بالإيمان المستقيم فإنهم يؤمنون بالسبل المنحرفة الفاسدة والتي تؤدي بهم إلى عذاب جهنم. فائدة: ١- (مُحْضَرُونَ) محشرون مقيمون في العذاب الأليم، في إكراه وإجبار وإذلال مع أهل جهنم، وكأنا هناك من يدفعهم إلى هذا العذاب دفعاً بقوة قاهرة، كقوله (وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) الزمر/٢٤ في الوقت الذي يكون فيه المؤمنون في روضة (يُجْبَرُونَ) يُسْرُونَ ويفرحون في عزة وإكرام واحترام مع أهل الجنة، كقوله (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) الفرقان/١٦.

١٧- ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

يرشدنا الله سبحانه إلى العبادة المفروضة والمستحبة في الأوقات الآتية (فَسُبْحَانَ اللَّهِ) فسبحان: للتنزيه وللتعظيم، أي فالله مُتْرَه عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النِّقْصِ وَالسُّوْءِ وَالخَطَأِ وَالْعَيْبِ أَوْ تَصْفُوهُ بِمَا يَبْنِيهِ تَعْظِيمُهُ، (حِينَ تُمْسُونَ) فسبحوا الله حين تدخلون -أيها الناس- في المساء (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) وحين تدخلون في الصباح، لتجلي ذكر الله وتأثيره في تربية النفوس في هذين الوقتين بالخصوص، ثم يظل هذا القلب يقطاً متصلاً بما حوله من مشاهد وحقائق في النفس وفي الكون والكائنات فلا يغفل ولا يسهو ولا يضعف. فائدة: ١- نلاحظ ذكر التسييح له أوقات معينة للدلالة على الاستمرار، لأنه وقت مركزي عام يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر، ويتخصّص في المساء والصباح، بينما (الحمد) يشمل السماوات والأرض، كما في الآية ١٨، ٢- الآية خير يراد به الأمر، أي سبحوا الله وعظموه وتعلّقوا بالله واعبدوه في كل الأشكال الأحوال، في الظاهر والباطن، في اللسان وفي النفوس، وفي السرّ والعلانية وفي الشدّة والرخاء، وفي كل زمان في الصباح حتى المساء وفي كل الأحوال، وهذا التسييح (فَسُبْحَانَ اللَّهِ) مفهوم واسع يشمل كل أنواع الذكر، وهو عبادة قولية أو فعلية، ومفهوم التسييح أوسع من مفهوم الصلوات الخمس، فتكون الصلوات من مصاديق التسييح، ٣- إنّ الله تعالى يعلمنا كيف ننفي كل السلبيات عنه سبحانه وثبت له كل الإيجابيات، وإذا تمت هذه الحالة بأصالة ثابتة فسوف تنفتح أمامنا مجالات العبادة التوحيدية الواعية، في غرر الحكم (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ) وتنفتح الطاعة الخالصة والاستقامة اللازمة والثابتة والشاملة، لكل المناسبات والكيفيات، وفي كل الأوقات ولا سيما في الأوقات المذكورة، وقد أشارت الآيتان ١٧-١٨ للصلوات الخمس باعتبار الصلاة عمود الدين. وفي الحديث (مَا أَفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا لَتَعَبَّدَ بِهَا مَلَائِكَتُهُ، فَمِنْهُمْ رَاكِعٌ وَسَاجِدٌ، وَقَائِمٌ وَقَاعِدٌ) تفسير روح البيان ٧/ص١٧، في غرر الحكم (الدِّكْرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ).

١٨- ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾

(وله الحمد) والله تعالى الحمد والثناء الجميل والشكر الجزيل، بما هو أهله على جميل فعله وكمال قوله وجلال هيئته ورفعة مقامه (في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي يحمده أهل السماوات وأهل الأرض، يُصَلِّي له كل مخلوق بقدره ومقداره وبكيفية في الأوقات كلها أي يذكرونه باستمرار (وَعَشِيًّا) وهو منزّه في وقت العشي الأولى وهو في أواخر وقت العصر ثم العشاء الآخر عند مغيب الشفق (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) وحين تدخلون في وقت الظهيرة، أي هو تعالى منزّه ومحمود في كل زمان ومكان على كل حال (وَلَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهِ سَوَاءٌ) والحمد بكل لسان والمشكور بكل زمان في الأرض والسماء، والحكمة في ذلك الإشارة إلى أن التوفيق للعبادة نعمة كبرى ينبغي أن يحمد الله عليها.

فائدة: ١- هذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس الواجبة، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد لله، والتي تشمل أيضاً ذكر الله في النوافل والأدعية المتنوعة، والعبادة في هذه الأوقات أفضل من غيرها، لما فيها من التبدل الظاهر في أجزاء الزمن والانتقال من حال إلى أخرى بصورة دقيقة واضحة، وهكذا يقَلِّب الله ظلام الليل ونور النهار، وفي الآية دلالة: على ذكر الله في كل الأوقات فإنه يؤدي إلى الفلاح كقوله (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الأنفال/٤٥، وفي غرر الحكم (مُدَاوِمَةُ الذِّكْرِ قُوَّةُ الْأَرْوَاحِ وَمِفْتَاحُ الصَّلَاحِ) وعن النبي (ص) (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ)، ٢- وقدم (سُبْحَانَ اللَّهِ) على (لَهُ الْحَمْدُ) للدلالة أن الأولوية لتنزيه الله من كل النقائص وطهارته من العيوب، ثم الثناء والحمد له سبحانه على كل نعمة، أي أولاً التخلية عن كل السلبيات ثم التحلية بكل الإيجابيات من كمال وجمال وجلال.

١٩ - ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

الآية الكريمة دعوة إلى القراءة الواعية المعمّقة العلمية في النظام الطبيعي الحسي العام، والدالة على آيات الله والإيمان بقدرته الخلاقة العظيمة، وهذا الخروج المتبادل بانتظام بين الحي والميت يكون خروجاً مادياً ومعنوياً ظاهرياً وباطنياً عاجلاً وآجلاً، تلك العملية الدائبة الدائمة في كل لحظة وفي كل مكان وفي كل حالة فيها حياة وموت، ولها مصاديق كثيرة منها: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) يخرج المؤمن من الكافر، والإنسان من النطفة والفرخ من البيضة والبرعم من الحبة أو البذرة (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كخروج النواة من الشجرة، والكافر من المؤمن والنطفة من الإنسان والبيضة من الطائر (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) ويحي الأرض بالنبات بعد موتها ويسها كقوله (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج/٥، (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) وعلى هذا النحو تخرجون من قبوركم وتعاد لكم الحياة بقدره القادر الحكيم كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، وتبعثون يوم القيامة للحساب، إذن: فلا فرق (في نظر العقل) بين الأمرين ولا موجب الاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

فائدة:

١- قدرة الله مطلقة غير مقيدة، فأعطى نموذجاً لها في هذه الآية، فهو سبحانه وحده القادر على خلق الأشياء الحيّة من الأشياء الميتة (والعكس صحيح) وإذا أراد شيئاً لا يعوقه شيء، فيقول له (كُنْ فَيَكُونُ) إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَرَساً قُرْآنِيّاً بَلِيغاً: إِنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَدْبِرُهُمَا حَيْثُ يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ، وَلَيْسَ كَمَا يَدَّعِي الْمَلْحَدُونَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَرْكِيْبٌ مِنْ عِدَّةِ عُنَاصِرٍ مَادِيَةٍ وَتَأْلِيْفٌ فِيمَا بَيْنَهَا، قَدْ أَعْطَى اللَّهُ مِثْلاً حَسِيّاً عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) فكما حرّك الله سبحانه الأرض الميتة بالنبات، وكما حرّك الإنسان النائم الساكن بالاستيقاظ، وكما خلق الله الإنسان من تراب ومن غير مثال، كذلك يسهل عليه سبحانه إحياء الميت وإعادته بعد الموت والنفاء، أينما كان وكيفما كان للجزاء والحساب، ٢- هناك مبدأ عام هو أن إحياء الميت ممكن في ذاته إذا توفرت أسبابه!، والجثة الميتة التي ترمى في الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات، هي مادة جديدة للحياة، وغذاء جديد للنبات، إنها دورة دائبة مستمرة واسعة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس والفكر الواعي والقلب البصير، كما سهّل الله حركة النائم الساكن بالانتباه واليقظة باعتبار النوم أخو الموت، والنوم موت مؤقت مخفف جزئي، عن الإمام الكاظم (ع) في الآية يُصَوَّرُ معناها بصورة جديدة، ذات لباس فاعل مؤثّر، فيه آفاق بعيدة ودلالات واسعة، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل فيقول: (لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالْقَطْرِ وَلَكِنْ يَبْعَثُ اللَّهُ رِجَالاً فَيَحْيُونَ الْعَدْلَ، فَتُحْيِي الْأَرْضَ لِإِحْيَاءِ الْعَدْلِ وَإِلْقَامَةِ الْعَدْلِ فِيهِ أَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً) نور الثقلين ٤ / ١٧٣.

٢٠ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾

هذه الآية معطوفة على الآية التي قبلها، فيكون إنشاء الخلق وإعادته بعد الموت في قدرة الله سواء، كقوله (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعْتُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً) لقمان/٢٨ (ومن آياته) إنها آية كريمة من آيات الله الباهرة في الأنفس الدالة على عظمة الله وكمال قدرته، وعلى انفراده بالإلهية ونفوذ مشيئته في المعاد وجميل صنعه وقوة اقتداره وسعة رحمته وإحسانه، والدالة على أنه القادر على ما يشاء من إنشاء وخلق وإفناء (أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) ميت لا حياة فيه، أي خلقكم من آدم وأصله من تراب أو خلقكم من نطفة وأصلها من الأغذية النباتية والحيوانية وأصلها أيضاً من تراب، وإنما خلق الله الإنسان من التراب ليكون متواضعاً ذلولاً حمولاً وصولاً صبوراً، في غرر الحكم (وَرَجَمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) وفيه أيضاً (رَجَمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوْقَ عِنْدِهِ) وفيه أيضاً (رَجَمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) وإذا خلق الله الإنسان من التراب بصورة بشر، وتبدل صفة الترابية بصفة البشرية ونفخ الروح الإلهية فيها بحاجة إلى مغيّر ومبدّل ومطوّر مقتدر وهو الله عز وجل، وكرّم الله الإنسان وخلقته في أحسن تقويم وفي أعقد تركيب وكرّمه أحسن تكريم عند سجود الملائكة إليه،

وجعله خليفته على أرضه وأعطاه حرية الاختيار في أن يؤمن أو يكفر من دون إجبار وهو مسؤول عن اختياره ومحاسب عليه (إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ) ثم إذا أنتم وخلال زمان قصير بشر أحياء مكرمون مدركون، ولكل واحد صورة وشكل وسماء خاصة به تميزه عن كل أحد. (تَنْتَشِرُونَ) تتحركون في أرض الله الواسعة، وتعملون أنواع الأعمال بمختلف الاختصاصات لتدبير معاشكم كقوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) الليل/٤، فهلاً ذلكم ذلك على أنه لا يقدر على ذلك غير الله تعالى وأنه لا يستحق العبادة سواه، فائدة: ١- إنها مقابلة ملفتة للنظر في مشهد حي متحرك مؤثر بين الحياة والموت وبين النوم واليقظة، أي إنّ هناك صلة خفية وثيقة بين تراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك المكرّم، وهناك صلة مترابطة أيضاً بين السنن الإنسانية والسنن الكونية في وحدة واحدة موحّدة متّحدة، فكما يتداخل التراب في صناعة البشر في السنن الإنسانية، كذلك يتداخل نور النهار مع ظلام الليل في دورتهما المتعاقبة في السنن الكونية، كما ويتداخل الروح بالجسد، والأمل بالعمل والحياة بالموت، والعزة بالذلة، والقوة بالضعف، والفقير بالغنى، والترغيب في الترهيب، والعسر في اليسر كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الانشراح/٥-٦، ٢- قوله (وَمِنْ آيَاتِهِ) تكررت في القرآن أحد عشر مورداً وسبعة موارد منها في هذه السورة، للدلالة أن أفضل الطرق لمعرفة الله تعالى والإيمان به هو التفكّر في مخلوقات الله تعالى وفي الآفاق المتنوعة ولاسيما في نفس الإنسان كقوله (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ) الروم/٨ وفي غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ).

٢١ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

مقدمة: التعبير القرآني اللطيف الشفاف يُصوّر هذه العلاقة الزوجية الشريفة النظيفة الدائمة (وليست العلاقة المؤقتة) تصوراً بليغاً ملفتاً للنظر ومحركاً للفكر وموحياً وكأنما يلتقط الصورة الحية من أعماق القلب ويكشف عن أغوار النفس ويلامس الحواس والعواطف ويحركها ويؤثر فيها! وخطاب الآية للناس عموماً رجالاً ونساء وليس للرجال كما فهم ذلك كثير من المفسرين، فكما خلق الله للرجال من أنفسهم أزواجاً كذلك خلق سبحانه للنساء من أنفسهن أزواجاً، لحاجة أحدهما للآخر، فكان السكن الزوجي والمسكنة وحسن المعاشرة والائتلاف بين الزوجين.

المعنى العام لإيحاءات الآية: (وَمِنْ آيَاتِهِ) من علامات وجود الله تعالى وكمال قدرته وحكمته ورحمته، وهي من آيات الأنفسية الدالة على عظمة الخالق، ولما يتذكّر الإنسان يد الله تعالى القادرة المدبّرة على خلق هذا النظام الدقيق ضمن قانون الزوجية العام كقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩، وخصص في هذه الآية الكريمة زواج الإنسان المكرّم، وكرّمه في كل شيء حتى في زواجه أيضاً كرّمه أحسن تكريم بخلق له نظام السكن الزوجي

(لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) الناتج عن قانون ونظام وحدة النفس بين الزوجين المتكافئين (مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا). إن الله خلق لكم وأوجد بإبداع أزواجاً أكفاء من وحدة أنفسكم.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ) وكأن الله تعالى بقدرته يُهيئ النفس الواحدة إلى الإنقسام الكفوء فيقسمها قسمين متساويين متكافئين، ويجعل لكل قسم من هذه النفس للزوج الأكبر، ويجعل القسم الآخر للزوج الأصغر، وعادة الرجال الأزواج أكبر من النساء الزوجات، مما يجعلهما في جسدين بنفس واحدة موحدة متّحدة متألّفة متكافئة، وهذا التنظيم الدقيق يحصل منذ الخلق والتكوين، إذاً : القرآن الكريم يساوي بين الزوجين الكفؤين منذ الخلق والتكوين فيساوي بينهما بوحدة نفس، فيكون بينهما تعدد أدوار واختلاف واجبات، مع وحدة هدف نبيلة وغاية سامية مشتركة، وليس من تربية القرآن أن يفضل الرجال على النساء بصورة مطلقة بلا مرجح.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) أي من بعض أنفسكم خلق الله زوجكم بشراً من جنسكم و صنفكم، وصار كل منهما ناقصاً في نفسه يكمل ويتكامل بالالتقاء بغيره لحاجته له، فيحاول أن يتحرّك كل منهما لتحصيل الآخر ليسد حاجته الفطرية والغريزية، فإذا حصل الاتصال الجنسي بين الزوجين الدائمين على أسس شرعية، حصلت السكينة والمسكينة وحسن المعاشرة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح يبقى ناقصاً ما يزال أعزب لفقده حالة السكينة الزوجية، فإذا تزوج بانسانة من نفسه فتكون زوجة صالحة له منسجمة معه لاثقة به، فحاجة الإنسان إلى السكن الزوجي (لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) حاجة ضرورية كحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب حاجة ضرورية وليست كمالية، ويكون الزواج الشرعي الكفوء مفردة مهمة من مفردات الكمال الإنساني، ويكون السكن الزوجي سكناً متبادلاً ومتعادلاً ومتوازناً لا يصنعه طرف واحد دون الآخر وإنما يصنعه الطرفان بطريقة التقارب، وكلما زاد التقارب بينهما ازداد الحب والجذب وازداد التآلف والتكافؤ وتحققت وحدة النفس التي تعطيك وحدة السكن الزوجي المتكافئ، ولو كانت المرأة من جنس آخر أقل مرتبة من الرجل لما حصل التجانس والتكافؤ والسكينة والطمأنينة بينهما، ولما حصل التكاثر والتناسل ولتغيّر مقدار كل شيء في نظام الزوجية العام. شَبَّهَهُ وَرَدَّهَا: روي : إنّ حواء خلقها الله من ضلع آدم!، هذه الرواية من الإسرائيليات والخرافات التي تتعارض مع القرآن الكريم. وأيضاً روي في نهج البلاغة (إنّ التّساء نَوَاقِصُ الإِيْمَانِ، نَوَاقِصُ الحُظُوظِ، نَوَاقِصُ العُقُولِ ... الخ) قصار الحكم/١٧٨، راجع التفصيل في كتاب السكن الزوجي المتكافئ. هناك شك في صدور هذا النص عن الإمام علي (ع) ، عن النبي (ص) (عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/١٢٤، وهذا الحديث يذم المرأة ويتعارض مع القرآن والسنة والعقل والواقع وكل شيء يتعارض مع القرآن فهو (زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) الأنعام/١١٢ فلا بد أن يُضرب به عرض الحائط كائناً من كان.

ومعنى (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) لتطمئنوا إليها وتميلوا وتجذبوا إليها وتألفوها وتألفنكم وتأنسوا بها ويأنس بكم، فيحبب بعضكم بعضاً فتسكن النفس وتهدأ الأعصاب وتنشرح الصدور وتطمئن القلوب، وتستأنس الروح وتسعد الحياة بين الزوجين كقوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ) البقرة/١٨٧، وقوله (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء/١٩، والسكن بين الزوجين أرقى وأفضل أنواع السكن النفسي من جميع الأشياء التي تعطيك السكن، مثال: المال يعطيك سكن نفسي، والوالدان يعطيانك السكن، والمنزل الذي تسكن فيه يعطيك سكناً، والعلم النافع الذي تتعلمه يعطيك السكن .. إلخ ولكن (السكن الزوجي) أقوى سكن وأهم وأبقى من كل أنواع السكن النفسي في كل مجالات الحياة (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً) وجعل بينكم محبة عملية وعطفاً واقعياً وشفقةً وليناً ومرونة لازمة، وضبط النفس عند الغضب، والتعامل بمكارم الأخلاق عند الوفاق والاتلاف والاختلاف (وَالرَّحْمَةَ) مسامحة المسيء وحتى مساعدته على أن لا يخطئ مرة ثانية وتوجيهه بالحسنى، وصار موقع ومفعول هذا الجعل بينكم بالمودة والرحمة بعد موقع (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) فإذا لم يتحقق السكن الزوجي لم يتحقق المودة والرحمة، وأيضاً لم يتحقق (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) إذا لم يتحقق (مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) فصار من وحدة النفس تعطيك وحدة السكن، ومن وحدة السكن تعطيك المودة، ومن المودة تعطيك الرحمة، وهذه المعادلة متصلة بعضها مع بعض من غير انفصال واحدة منها.

وذكر (المؤدّة) ولم يذكر الحب، لأن المودة الحب العملي الفعلي التطبيقي الدائم الصادق، الحب المتبادل والمتعادل والمتوازن من الطرفين وليس من طرف واحد، وهذا الحب الذي يظهر أثره في حياة الزوجين العملية سواء في المعاملات اليومية الصغيرة والكبيرة، ويظهر أثره في الأقوال والأفعال، فيكون هذا الحب العملي الواقعي أفضل رابطة وأقوى معاشرة بين اثنين وأفضل نسب وأحسن حسب. أما الحب النظري فهو متوقّف وسهل ومبدول، وسرعان ما يأتي وسرعان ما يزول.

في غرر الحكم (في الضيق والشدة يظهر حسن المؤدّة) ولكن مفعول (المؤدّة) له آثار عملية تطبيقية دائمة في الحياة العامة، فالمؤدّة ترجمان واضح للحب، ومصداق للقرب ودليل على الجذب وعلى التكافؤ والتآلف. وذكر المودة مع الرحمة لعلاقة أحدهما بالأخرى (ورحمة) رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم أو الرقة مع الحنان والرأفة، روي: أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف، في غرر الحكم (ببدل الرحمة تستنزل الرحمة) وفيه أيضاً (رحمة الضعفاء تستنزل الرحمة) وفيه أيضاً (بالعفو تنزل الرحمة) فتكون الرحمة درجة أرقى من المودة، والمودة درجة أرقى من الحب، والحب درجة أرقى من القرب، والقرب القلبي والمعنوي أرقى من القرب الجسدي والمكاني والمادي والقبولي، ويكون السكن والاستقرار النفسي يصنع المودة والرحمة بين الزوجين المتكافئين، وتكون المودة والرحمة من أفضل النعم لتقوية العلاقة بين الزوجين وإمدادها بعوامل البقاء، عن الإمام

الصادق (ع) (دَلِيلُ الْحُبِّ إِيْثَارُ الْمَحْبُوبِ عَلَيَّ مِنْ سِوَاهُ) بحار الانوار ٧٠ص ٢٢، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) إن في علوم هذه الآية الكريمة لدلائل عديدة على قدرة الله وحكمته سبحانه (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) لقوم وليس فرداً ويتدبرون ويبحثون بحثاً علمية متنوعة ويعتبرون بها ، فيدركون حكمة الخالق الدقيقة السامية في خلق كل من الجنسين الرجال والنساء، على نحو يجعله منجذباً للآخر ومتأثراً به ومنسجماً معه ومعاشراً إليه، وملبياً لحاجاته الفطرية والنفسية والغريزية والعقلية والجسدية.

فائدة:

١- هذه الآية ظاهراً أنيق رقيق جذاب، وباطنها عميق دقيق مناسب، هذه آية قرآنية بليغة عالية المضامين، فهي آية علمية فلسفية نفسية اجتماعية حركية .. وهي من إعجاز القرآن الكريم الذي يتجلى في روعة أسلوبه وقوة بلاغته وجمال عرضه ودقة علومه، الآية الكريمة جعلت السكن الزوجي والمسكنة والمعاشرة الحسنة مركز ثقل الآية، واللام في (لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) لام التعليل وعنصر التفضيل، أي الغرض من العلاقة الزوجية تحقيق (السكن النفسي) المشترك، قبل كل متطلبات الحياة الزوجية المتنوعة، فلم يقل (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) لتتناكحوا أو لتتمتعوا أو لتتكاثروا، وإنما قال (لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) وقدم السكن الزوجي على كل حاجة، لأن السكن حاجة ضرورية رئيسة فهي التي تعطيك كل أنواع الحاجات الزوجية الأخرى، ٢- (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) من الذي يجعل المودة والرحمة بين الزوجين المتكافئين، ويوافق بين تركيبهما النفسي والعضوي والعصبي؟ هو الله القادر الحكيم الذي يجعل على أسس منظمة وقواعد مرتبة نذكر منها : أن تكون علاقة بين الزوجين متألفة حتى يكون، عن النبي (ص) (الْمُؤْمِنُ كُفُوُ الْمُؤْمِنَةِ) وحتى يتحقق قوله (الْحَبِيبَاتُ لِلْحَبِيبِينَ وَالْحَبِيبُونَ لِلْحَبِيبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) النور/٢٦، وليس للقاء الجنسي وكثرة المال والجمال وحسن الحال وحدها هي التي تصنع السكن الزوجي، ولا هي التي تصنع المودة والرحمة، وإنما وحدة النفس تعطيك وحدة السكن والمسكنة وجمال المعاشرة والمودة والرحمة، وهذه الحالة الدقيقة والعميقة بحاجة إلى (قَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ويتدبرون ويتفهمون ويطيعون.

٢٢ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ) العظيمة سبحانه الدالة على توحيده وقدرته وعظمته، في الآفاق الكونية والإنسانية العلاقة المترابطة والمتناسقة المنظمة بين السنن الأفاقية والسنن الإنسانية (خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من الآيات الأفاقية، خلق وإيجاد وإبداع السماوات السبع التي رفعها الله بغير عمد ترونها مع اتساعها، وخلق الأرض مع قانون الجاذبية على ما في السموات والأرض من عجائب الصنع وبدائع الخلقة وجمال الشكل ودقة الأنظمة، وما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم، وجريانها في مجاريها المعينة بأنظمة دقيقة، وفي الأرض أنواع النباتات والحيوانات والحشرات

والجمادات، مع اختلاف الأشجار والثمار وتنوع أنواعها وألوانها وطعمها ورائحتها وخواصها وأثارها المفيدة (وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)

إشارة إلى موضوع مهم من الآيات الأنفسية الكبيرة (وَإِخْتِلَافُ) والاختلاف جاء هنا على إطلاقه للدلالة على أن له معنى واسع (وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ) واختلاف لغاتكم وغماتكم ولهجاتكم وأصواتكم وقومياتكم.. (وَأَلْوَانِكُمْ) واختلاف ألوان بشرتكم من الأبيض والأسود والأسمر، واختلاف ملامحكم وصوركم وسيمائكم وأشكالكم بصورة إعجازية حتى لا يشبهه شخص مع شخص مع كثرتهم في العالم البشري، وهو مليارات من الناس مع التشابه في الحلقة البشرية والأشكال الإنسانية، وهناك اختلافات صغيرة وكبيرة وكثيرة حتى يصل الاختلاف في بصمات الأصابع وفي قرحية العين وفي كل شيء، فيكون كل إنسان نسخة مفردة ليس لها بديل ولا مثل ولا شبيه وهو عَالَمٌ مستقل بذاته، ولولا هذا الاختلاف الواضح بين الناس لاختلت الأمور كلها، ألا ترى أن التوأمين مع توافق موادهما ولكنهما يختلفان في شيء لا محالة، وإن كانا في غاية التشابه! وهذا المستوى من التفكير الحسني العلمي بحاجة إلى مستوى عقلي واع كقوله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات/٢٠-٢١، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) إن في ذلك لدلالات ووضحات على كمال قدرة الله وجمال حكمته تعالى (لِّلْعَالَمِينَ) لأولي العلم وأولي الألباب والعقول والفهم والبصيرة الواعية، أنهم يتدبرون بالآيات الكثيرة ويعرفون عظمة الخالق قبل سواهم كقوله (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) العنكبوت/٤٣.

فائدة: ١- ومن دلائل وجود الله وعظمته سبحانه التعرف على أسرار مخلوقاته في السماوات والأرض وما بينهما، ومن عرف المخلوق عرف الخالق، وأفضل الوسائل في معرفة الخالق هي معرفة أفضل السبل المستقيمة الموصلة إليه سبحانه، وقد حددها في هذه الآية، التفكير في الآفاق العلوية والأرضية، وفي أسرار الإنسان، كقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) السجدة/٧، وخلق الإنسان من أجل طاعة الله فهو سبحانه المنفرد بالخلق، فيجب أن ينفرد بالعبادة. ٢- هناك علاقة مترابطة متناسقة ثابتة بين (خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) لا يكاد يلتفت إليها الناس، فاختلاف الطبائع والعادات والتقاليد بين الناس، واختلاف اللغات والقوميات والأعراف والألوان والأديان والأشكال والصور والسيما.. إلخ. تتناسب طردياً مع (خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مع اختلاف الأجواء الحرارية وتنوع البيئات، واختلاف الأرض منها جبلية باردة ومنها سهول ومنها صحراوية حارة، ومنها مناطق بدوية وحضرية أي تتغير ألسنتكم وألوانكم وأشكالكم مع تعبير الأرض والبلاد التي تعيشون فيها وتأكلون منها.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) وهذا الترابط الوثيق بين السنن الكونية والسنن الإنسانية، لا يراها ولا يدركها إلا الذين يعلمون ويتفكرون ويؤمنون ويبحثون علمياً كقوله (سُنْرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣.

٢٣ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ) سبحانه الأنفسية ذات الأحوال البشرية المختلفة، التي تتعلق بالظواهر الكونية المتغيرة للعلاقة المترابطة المتناسقة المنظمة بين السنن البشرية والسنن الكونية، الدالة على وجود الله تعالى وكمال حكمته وقدرته (مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) لحاجتكم الضرورية إلى النوم في بعض الليل وبعض النهار لاستراحة أبدانكم، لتجدوا للنوم طعمه الهنيء في نفوسكم كما تجدوا لليقظة مساعها العذب في كل جوارحكم، وليدوم لكم بالنوم البقاء إلى آجالكم المرسومة المحددة، وفيه إشارة: إلى الحياة بعد الممات، فإنها نظير الانتباه بعد المنام، ونوم الليل أعمق وأنفع وأفضل من نوم النهار، فكما تحتاجون إلى النوم الضروري، تحتاجون أيضاً إلى اليقظة الضرورية، عن النبي (ص) (فَكَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تُبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ٢٦٠/١٥، وهذه دلالات حسيّة ظاهرة (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) بإصغاء وبيرون بوعي ويدركون بعلم وإيمان (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) سعيكم لطلب الرزق في أرض الله الواسعة وبأي عمل نافع في الليل أو في النهار، فكان النوم واليقظة خِلقَةً أي يخلف بعضها بعضاً، ويدوران في فلك الإنسان كما يدور ظلام الليل مع ضياء النهار، في فلك هذا الوجود المنظم (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) لموضع اعتبار (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) سماع تدبّر للمواعظ بأذان واعية وقلوب منفتحة، سماع من انتبه من نومه، سماع تفهّم واستبصار كقوله (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ) الحاقّة/٢١.

وعن النبي (ص) (لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِعَالِمٍ نَاطِقٍ أَوْ مُسْتَمِعٍ وَاعٍ) كنز العمال خير ٤٠٢٧، وعنه أيضاً (أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ قَلْباً وَاعِيّاً) يقظاً مدركاً نبهاً، فائدة: ١- وتقديم النوم على اليقظة لإلفات النظر إلى أن النوم نعمة فضيلة يعزل الإنسان عن جزء من الحياة، وكأنه يمر في موت خفيف بطيء مؤقت، وفي النوم تتحلص الروح من قيد الجسد الذي يقيدها، وتذهب إلى عالمها العلوي الشفاف اللطيف النظيف، ليتحقق لنا أننا في منام ونحن في حال يقظتنا المعتادة، أي أنتم في منام وغفلة عما يراد منكم مادتم تعملون للتكاثر في هذه الحياة الدنيا كقوله (أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) التكاثر/١-٢، ومن هنا نفهم قول النبي (ص) (النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا)! روح البيان ١٣٢/٢.

٢٤ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) ومن آياته الأفاقية سبحانه الدالة على قدرته وحكمته (يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) نور يلمع بين السماء إلى الأرض نتيجة انفجار كهربائي من اصطدام السحاب المشحون بالبخار، والنفس البشرية إزاء هذا البرق اللامع الخاطف تشعر بشعورين فطريين: شعور (خَوْفًا) وينشأ عنها تفرغ في الهواء يتمثل في صوت الرعد المخيف الذي يعقب البرق مباشرة وقد تحصل الصواعق المحرقة، وبعد ذلك يتساقط الماء نتيجة لذلك التصادم الرهيب، والشعور الآخر

(وَطَمَعًا) ومبشراً بنزول الماء في معظم الأحوال (وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) فيكون الماء والبرق والصواعق أداة لوصول القلب البشري بالله مقدر البرق وخالق الوجود، ويكون هذا الماء النازل العذب كثير الخير والبركة على البلاد والعباد، فهو رسول الحياة، فحيث كان الماء تكون الحياة، بحيث لا تحصى منافعه كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء/٣٠ (فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) يبسها، وأنه سبحانه يحيي الموتى كما يحيي الأرض اليابسة بعد موتها وخروج نباتها، والتعبير القرآني بالحياة والموت إلى الأرض تعبير بليغ مُحَرِّكٌ للمشاعر، يُحْيِلُ أن الأرض كائن حيٌّ يؤثر ويتأثر ويحيا ويموت، والأرض في حقيقتها كذلك كما يصورها القرآن الكريم (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) لدلالات وعظات على رحمته وعظمته (لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يتدبرون ويفكرون ويبحثون البحوث العلمية، ويفهمون عن الله سبحانه حججه وأدلته وسبل الوصول إليه، فيعلمون أنها خلقت بالحق وإلى الحق، لم تخلق عبثاً ولا صدفة عابرة.

فائدة: ١- نلاحظ في هذه الآية وفي الآيات السابقة أربع مفردات مهمة (يَتَفَكَّرُونَ، لِلْعَالَمِينَ، يَسْمَعُونَ، يَعْقِلُونَ). وكلها تدعو إلى أن نفهم فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود!

٢٥ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ) الآفاقية سبحانه الباهرة الدالة على قدرته وحكمته (أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ) بحفظ نظامها العام الموزون والمقدر والمخلوق بالحق (أَنْ تَقُومَ) بدورها ووظيفتها وترتفع بلا دعامة تدعمها، وتثبت وتستقر (السَّمَاءُ) بنظامها العام (وَالْأَرْضُ) تتحرك بتوازن واعتدال من حركة وسكون وتغير وثبات، وتعبير (تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) من فعل قيام بالأمر وقام بالمسؤولية الكاملة على أحسن وجه، لأن أحسن حالات الإنسان لأجل استدامة نشاطه هي حالة قيامه فيستطيع في القيام إنجاز أحسن حوائجه وأعماله العامة، وأيضاً (تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) بصورة منتظمة سليمة مقدره الحركات مدبرة التنظيم عالية الإتقان، وهذا لا يكون إلا من منظمٍ قدير، وما من عاقل يقول إن هذا كله يقع صدفة بدون تدبير (بِأَمْرِهِ) بتدبيره وإرادته وقدرته سبحانه، ضمن قوانين الطبيعة وأسبابها، (بِأَمْرِهِ) إنه أمر واحد من الله يكفي لتحقيق ما يريد (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ) (ثُمَّ) وفي العطف (بِثَمٍّ) إشارة إلى أن هذه الدعوة التي يدعى بها الموتى لم يجيء وقتها بعد (إِذَا دَعَاكُمْ) كما أن أمره واحداً كذلك فإن (دَعْوَةً) واحدة من الله تعالى كافية لأن تبعثكم من قبوركم بشكل سريع وفجائي، فإن دعوة الله في الدنيا وفي الآخرة (دَعْوَةً) دعوة الله تعالى للإنسان في الحياة الدنيا هي تبليغ رسالي ومواعظ حسنة ونصح وإرشاد وتعليم التشريع والأخلاق والحلال والحرام .. وللإنسان الخيار في أن يعصي أو يطيع، أما دعوته في الآخرة فهي بعد الموت والفناء وتلاشيكم في التراب، إنها (دعوة) إسرافيل بالنفخة الثانية والأخيرة للبعث والنشور (دَعْوَةً)

ضرورية أكيدة لا بد منها ولا مفر منها (إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) (إِذَا) فجائية، أي تخرجون من الأرض بشكل فجائي وسريع وبلا تأخير وكأنما تستيقظون من نومكم العميق، هكذا سوف يلبي الناس (دعوة) الآخرة صاغرين خاضعين، و(دعوة) الدنيا مختارين ومسؤولين عن اختيارهم كقوله (يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) القمر/٧.

٢٦ - ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾

الآية تعقيب على الآية السابقة، إن هذا الوجود خاضع لأمر الله، حتى الموتى يستجيبون لدعوة الله إذا دعاهم (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وله كل ما خلق في السماوات والأرض، فهو مُلْكٌ حقيقي ثابت لله عز وجل لا ينازعه ولا يشاركه فيه أحد، بل (كُلُّ لَه قَانِتُونَ) طائعون منقادون خاضعون خاشعون، القنوت: الطاعة والخضوع والانقياد الطوعي، والمراد طاعة الإرادة بعد طاعة العبادة، أي منقادون لما يريد من ربه منهم ربه من حياة وموت وبعث وصحة وسقم وعز وذل وغنى وفقر وقوة وضعف .. إلخ فهم مستخرون تحت حكمه تعالى على كل حال، بحيث لا قوة إلا به ولا مشيئة قبل مشيئته كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكوير/٢٩، فإذا عرف الإنسان ذلك اطمأن قلبه وانشرح صدره وانقاد إلى ربه طوعاً لا كرهاً. والطاعة لله تعالى حرية في النفس وعزة في السماوات والأرض وكرامة بين الناس فائدة: ١- نرى أن الكثيرين من الناس عصاة لا قانتين ولا عابدين، ولكن الآية تعني خضوع كل من في السماوات والأرض لإرادة الله وفق السنّة المرسومة الثابتة، فهم محكومون لهذه السنّة القاهرة (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١، ولو كانوا عصاة كافرين، إنما تعصي عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالقانون العام مأخوذون بالسنّة الثابتة، يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد كقوله (وَاللَّهُ يَخْتُكُمْ لَا مُعْجَبَ لِحُكْمِهِ) الرعد/٤١، وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت، (بِلِسَانِ الْحَالِ أَمْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ) ولا سيما في القوانين التكوينية. كقوله (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) مريم/٩٣.

٢- وفي تعبير (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) كل عما في السماوات والأرض من مخلوقات جاء بلفظ (مَنْ) للعقلاء! إشارة إلى أن هذه الموجودات الحيّة العاقلة وغير العاقلة محكومة بنظام دقيق، ومسيرة بحكمة وعلم حتى كأنما في كل كائن منها عقلاً مدبراً وموجّهاً، لكل مخلوق بقدره ومقداره، فهي بهذا الاعتبار عاقلة مستجيبة مدركة بقدرها!، ٣- دلّت الآية على أن السماوات والأرض مشحونة بشواهد وحدانية الله ودلائل قدرته سبحانه، عن الإمام علي (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن/٧/٣٠٠.

٢٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَكَهَذَا الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الآية تبين حقيقة عالية المضامين من حقائق يوم القيامة، التي يغفل عنها الغافلون فيخسرون (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ) والله تعالى وحده الذي يبدأ إبداع الخلق والمخلوقات كلها من العدم ومن غير

مثال سابق، ويبدأ خلق الإنسان سيد الكائنات كقوله (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) المرسلات/٢٠ (ثُمَّ يُعِيدُهُ) بعد موته وفنائه للجزاء والحساب، وهذا يعني أن الوجود في حركة دائمة، وفي هدم وبناء مستمرين، وهناك تغيير مستمر في المخلوقات كلها (ودوام الحال من المحال) كقوله (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) الرحمن/٢٦ لا الفناء المطلق الأبدي كقوله (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء/١٠٤ (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) أهون: أسهل، أي الإعادة أسهل عليه من بدأ الخلق، وهذا بالقياس إلى قدرة الإنسان المحدود، وبحكم العقل، أن إعادة الخلق أسهل من ابتدائه في منظور العقل، وإلا فهما عند الله تعالى في السهولة سواء، بالإضافة إلى أنه ليس شيء أهون على الله ولا أصعب (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢، وقد خاطب الناس بحسب إدراكهم أن بدء الخلق أصعب من إعادته، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله وهي في طبيعتها أهون وأيسر؟! (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) المثل بمعنى الصفة كقوله (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ) الفتح/٢٩ أي وله الوصف الأعلى، والصفات العليا والقدرة المثلى في كل شيء، التي فيها الكمال والجمال والجلال التي لا يمكن أن يتّصف بها غيره كالوحدانية والألوهية والقاهرية وغيرها.

كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي الله تعالى مطلق الصفات العلى من غير تقييد، نطقاً بالكلمات أو دلالة بالصفات، في غرر الحكم (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ) فلا يشاركه في تدبير ولا في تقدير في إدارة ملكه أحد، ولا تقاس صفات الله العليا بصفات خلقه إلا عن طريق المجاز تقريباً إلى فهمهم (وَهُوَ الْعَزِيزُ) القاهر لكل شيء والذي لا يغلبه شيء كقوله (فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) هود/١٠٧، فلا يشاركه في إدارة ملكه أحد (الْحَكِيمُ) الذي كل أفعاله في تدبير مخلوقاته على مقتضى الحكمة والمصلحة، وهو الذي يأتي بالمتقن في كل ما خلق كقوله (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨، ولا يَفْوُضُ تدبير خلقه إلى أحد، عن الإمام الصادق (ع) في قوله (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَشَبَّهُهُ شَيْءٌ وَلَا يَتَوَّهُمُ، فَذَلِكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) تفسير الصافي/٤/١٣٠، عن الإمام علي (ع) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرُ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ) شرح النهج/٧/١٨١.

٢٨ - ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ) ضرب الله للمشركين مثلاً واقعياً من أنفسكم التي هي أقرب شيء منكم وأحب شيء إليكم لتقريب الأمر إلى أفهامكم من بطلان الشرك، ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء في العبادة، بأي نوع من الشركاء، حتى يثبت أنه لا يكون لله تعالى شريك، ثم يبين المثل (هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) هل يوجد بين ممالئكم (مَلِكٌ يَمِينٌ) من العبيد والإماء (مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ) من يكونون شركاءكم في الأموال التي رزقناكم

(فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) متساوون، يتصرفون في أموالكم كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم، وأنتم تكرهون هذه المساواة في الأموال بينكم وبين عبيدكم (تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) تَخَافُونَهُمْ: أي تخافون أن يستبدوا بالتصرف بأموالكم، كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ: أي كما تخافون الأحرار (غير العبيد) بعضهم من بعض، وتخشون أن يجوروا عليكم وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم لأنهم أكفأ لكم، وإذا لم ترضوا من عبيدكم أن يكونوا شركاء في أموالكم، فكيف ترضون لربكم أن يكون له شركاء في العبادة وهو (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) بعدم جواز الشريك مع الله (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لقوم يستعملون عقولهم ويتفكرون في تدبير الأمور.

٢٩ - ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

لكن هؤلاء المشركين لا يعقلون فلسفة التوحيد (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) بل اتبع أولئك الظالمون بشركهم الجلي أو الخفي أهواءهم بغير علم وبلا تفكير ولا تعقل، وبجهلهم لحق الله عليهم، من دون حجة أتتهم من ربهم ولا من عقلمهم، فأظلمهم الله بظلمهم وشركهم، ولا أحد يتبع هواه بعلم، لأن الهوى لا يعتمد العلم ولا المنطق ولا العقل، والهوى: شهوة النفس ورغباتها التي لا تستند إلى حق ولا تقف عند منطق العقل، ولا تزن بميزان العدل كقوله (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ص/٢٦، عن النبي (ص) (مَا عُذِبَ إِلَهُ أَنْبَعَضَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهَوَى) روح البيان/١٩٧/٢ (بِغَيْرِ عِلْمٍ) إشارة إلى أن هذا الهوى المتسلط على هؤلاء الضالين هو هوى أعمى، هوى بلا بصيرة ولا تفكير، عمى مطبقاً، في نهج البلاغة (الهُوَى شَرِيكَ الْعَمَى) كتاب/٣١، وفيه أيضاً (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أُسِيرَ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ!) (حكم/٢١١)، قال (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولم يقل (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إشارة إلى أن الشرك يعد أعظم الظلم كقوله (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣ (فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ) فمن يقدر على هدايتهم بعد ذلك، أضلمهم الله بظلمهم وفسادهم واتباع أهوائهم كقوله (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) إبراهيم/٢٧ والذين يتبعون أهواء أنفسهم فإنهم يُعرضون عن هداية ربهم، ويظلمون أنفسهم ويتركون الحق المخالف لهواهم، ويسيروا بغير علم ولا هدى من ربهم، في غرر الحكم (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِالْأَلْمِ وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) (وَمَا هُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) ينصرونهم وينجوهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وليس لهم سبب للتوفيق والهداية والنجاة!

٣٠ - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

فاستئس من هؤلاء يأمُجِد (ص) الذين أضلمهم الله بذنوبهم، وعليك بنفسك وبمن اتبعك من المؤمنين. وإن كان خطاب الآية موجهاً إلى الرسول (ص) إلا أن المقصود به جميع المؤمنين (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) إقامة الوجه للدين القيم استعارة تمثيلية وكناية بلاغية تشبيهية تقريبية لإقباله على الدين واستقامته عليه، فأقم: ووجه واستقم وسدد (وَجْهَكَ) نحو الوجه الذي وَجَّهَكَ إليه ربك لطاعته، ومعنى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) فوجه نفسك وإرادتك وتبنتك وفكرتك وأقبل دائماً برغبة تجاه دين الله الحق

العاصم من الزلل ومن الأهواء المتفرقة، وتوجّه بقصدك (بصدق) على الإسلام الخالص كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، وَحَصَّ اللهُ تعالى إقامة الوجه، لأن الوجه أهم أعضاء البدن الظاهرة ورئيسه، وإن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب والجوارح، فإذا أقبل الوجه أقبل كل شيء تبعاً له (لِلدِّينِ حَنِيفًا) وجه نفسك دائماً نحو أي مبدأ أو مذهب أو قناعة خالية من الاعوجاج والانحراف، والبعيدة عن الخرافة والغلو، وتوجّه إلى الإسلام الخالص دين الله القيم (حَنِيفًا) الحنيف: المائل عن المجتمع الوثني جميعه إلى الإسلام بمفرده، والمعارض للمجتمع الجاهلي كله، والمقاوم للتيار الفاسد الجارف بكل تعقيداته والثبات على دين الله الخالص، وتوحيد الله تعالى الصادق، ولو بقي لوحده ثابتاً على الصراط المستقيم، معارضاً للباطل ومقاوماً للتيار الجماهيري كله متحملاً معاناته، فصارت معارضته للباطل المتغترس تعادل معارضة أمة.

كقوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) النحل/١٢٠، في نهج البلاغة (لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ) خطبة/٢٠١.

ومعنى (حَنِيفًا) مائلاً من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الغلو إلى الاستقامة، ومن التطرف إلى الاعتدال، ومن التخبط إلى التوازن، والحنيف: المعارض للفساد المنتشر والثبات على الصلاح المقاوم، والمخالف للكفر العام والثبات على الإيمان الخالص، كقوله (فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) آل عمران/٩٥ (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) تعريف الفطرة: النفس السليمة والطبيعة المستقيمة، التي تقبل الحسن الحلال الطيب وتنفر من الحرام والقبيح والخبيث، لذلك صار الحسن والقبح عقليان، العقل السليم يميز بينهما قبل الدين (فِطْرَةَ اللَّهِ) خلقه الله، الحالة التي خلق الله تعالى الناس عليها من القابلية الذاتية للحق والتهيؤ لإدراكه، ومعرفة ربهم الفطرية، بحيث لو تركوا وشأنهم لاهتدوا إلى الحق بدون إرشاد، وهو (الإسلام) ومشابه إلى ذلك مروى عن الإمام الصادق (ع) / تفسير الأمل ج ٢، ص ٤٨٢، وبهذا يربط القرآن الكريم بين فطرة النفس البشرية السليمة وطبيعة هذا الدين القيم، وكلاهما من صنع الله، فإذا انخرقت النفس عن الفطرة السليمة، لم يردّها إلى الله عز وجل إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر الصافية المتناسقة مع فطرة الوجود. عن النبي (ص) (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يَهُودَانَهُ أَوْ يُنصَرَانَهُ أَوْ مُجَسَّسَانَهُ) البحار/٣/٢٧٩، وعنه (ص) عن ربّ العزة (كُلُّ عِبَادِي خَلَقْتُ حُنَفَاءً فَاجْتَأَلْتَهُمْ) (حرفتهم) الشياطين عن دينهم، وأمرؤهم أن يُشركوا بي غيري) روح البيان/٧/٣١.

(لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ) لا تغيير لتلك الفطرة السليمة الخاصة بكل إنسان، وليس لأحد أن يبدّل أو يُحوّل أو يُغيّر دين الله القيم الذي أمر الخلق أن يتمسكوا بمنهجه المستقيم ويصدقوا معه ويخلصوا له في السر والعلانية ولا يُعرضوا عنه، وللإنسان أهواء غير مشروعة كثيراً ما تصطدم مع الفطرة السليمة وتتغلب على سلامتها وتساهم في تلوثها ولكن لا تمحوها ولا تستأصلها (أمراض

الفطرة): ولكن هذه الفطرة المعنوية المؤثرة والمتيقظة والمنتبهة والسليمة والشفافة والمرهفة، تمرض كما تمرض حواس الإنسان المادية، كما أن الحواس تصاب بأفات ولها دواء تداوى به، كذلك صار للفطرة آفات تصاب بها، وجعل لها دواء تتداوى به، وهو دين الله القيم المستند على القرآن وسنة رسوله (ص) الصحيحة التي فيها هدى ونور هو شفاؤها ودواؤها.

(ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيِّمِ) ذلك الدين الفطري المحكم الأصيل الثابت غير المضطرب، المحفوظ بذاته، والحافظ لغيره، الذي تهدي إليه النفوس السليمة بلا تعلم، وهو الدين الكامل بذاته والمكمل لغيره، الذي يصوغ الشخصية الإسلامية المتكاملة الثابتة غير المتقلبة، في غرر الحكم (رأس الدين مخالفة الهوى) وهو **(الدِّينِ الْقَيِّمِ)** أي المستقيم المعتدل الذي يستند على مصادر القوة والديمومة والتأثير لما فيه من الحق من غير باطل، وفيه الهدى من غير ضلال كقوله **(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)** فصلت/٤٢، الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا عوج فيه ولا انحراف ولا تطرف، فيجب اتباعه.

(ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيِّمِ) ذلك الدين ذو قيمة كبرى وقيمومة عظمى، أي ذلك الدين ذو قيمة عليا ومنزلة فضلى، فهو قِمةُ القمم ونعمة النعم، وذمة الدم، وهو أيضاً **(ذو قيمومة)** كاملة وقدرة علمية تامة مهيمنة على كل كتاب سماوي قبله، وعلى كل كتاب بعده، والمهيمن على كل المبادئ الوضعية كقوله **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ)** المائدة/٤٨، فيكون **(ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيِّمِ)** الدين المنسجم مع الفطرة السليمة الذي يوحد ولا يفرق، يُبَشِّرُ ولا يُنْفِرُ، يُحِبُّ ولا يُبْغِضُ، يَقْوِي ولا يُضَعِّفُ، يُعَزِّزُ ولا يذللُ، فهو دين الله الحق العدل الواحد الموحد المتحد، الذي لا يتبدل ولا يتحوّل ولا يتفرّق، وهو الذي يوجّه أهله إلى الله الواحد الأحد كقوله **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)** النساء/١٢٥ **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** ولكن أغلب الناس لا يعرفون حقيقة هذا الدين، لعدم تدبرهم بالقرآن لذلك يعرضون عنه إلى غيره، والذي لا ينفعه دين الله الحق، يضره سبيل الشيطان كقوله **(فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)** يونس/٣٢، في غرر الحكم **(يُسْتَدَلُّ عَلَى دِينِ الرَّجُلِ بِحُسْنِ تَقْوَاهُ وَصِدْقِ وَرَعِهِ)**.

٣١ - ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فوجّه نفسك يا محمد (ص) ومن تبعك من المؤمنين للدين الهادي المستقيم الحق **(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ)** راجعين إلى ربكم في كل أمر، منقطعين إليه سبحانه عن كل ما سواه، مختارين سبيل الفطرة الخالصة بقلوبكم قبل ألسنتكم **(وَاتَّقُوهُ)** واعملوا بجميع أحكامه وخافوا الله في كل أوامره والزمو طاعته وتجنّبوا عصيانه، هذه هي التقوى وتأثير المشاعر وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية، كقوله **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ)** الحجرات/١٣، وهذا هو الورع عن محارم الله. في غرر

الحكم (وَرَعُ الرَّجُلِ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ) (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) على وجهها الصحيح المستوفية حقها وشروطها، مع كل مقدماتها وأوقات فضيلتها فإن الصلاة تركية للنفس. وقدم (اتَّقُوا) على (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) لأن التقوى خشية الله في كل وقت وهي التي تجعل للصلاة ثمرتها، وعلى قدر التقوى والعلم تقام الصلاة كقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) الأعلى/١٤-١٥ (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ويصف المشركين بأنهم (الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا) الروم/ ٣٢ والشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يشركون مع الله بالقيم الزائفة والرغبات والعادات والتقاليد الخاصة والأطماع، سواء أكان شركاً ظاهراً (جلياً) أم شركاً باطنياً (خفياً) أو شركاً في الألوهية والعبادة أو شركاً في الفكر والقول والعمل، كالغلو في الأشخاص والأفكار كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، فأصبح الشرك أخطر الأمور في ميزان العقيدة لأنه أساس الاختلاف بين الناس، (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الزمر/٦٥ بينما الحق في ميزان الله واحد موحد متحد (لا يتجزأ ولا يتعدد) والباطل كثير متعدد متلون مختلف كقوله (وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) الشورى/٢٤، سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً؟ فقال: (مَنْ أَبْتَدَعَ رَأْيًا فَاحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي ٣٩٧/٢، وعنه (ع) (لَا يَسْتَتِقُنُّ الْقَلْبُ أَنْ الْحَقَّ بَاطِلٌ أَبَدًا، وَلَا يَسْتَتِقُنُّ أَنْ الْبَاطِلُ حَقٌّ أَبَدًا) البحار ٧٠ ص ٥٨.

٣٢ - ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

بيان له صلة بما قبله (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي ولا تكونوا من الذين فرقوا دينهم الحق وغيره وبدلوه باختلاف أهوائهم ومصالحهم وتنازعهم في الأمور، أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، كقوله (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) البقرة/٨٥، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على خير، وهم الفرقة الناجية! ودين الله وحدة واحدة موحدة متحدة (لا يتجزأ ولا يتعدد)، وهو إخلاص العبادة لله وحده بلا أهواء (وكانوا شِيَعًا) شِيَعًا: فرقا مختلفة وأحزاباً متنازعة تشايح وتتابع قائدها، كل فرقة تحزبت وتعصبت على نصر ما معها من قناعات باطلة، فكانوا مشايحين بذلك للمشركين (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) فأهل كل جماعة أو ملة أو مذهب، الذين فرقوا دينهم الحق الواحد الذي لا يتجزأ، فأدخلوا في دين الله القيم بما عندهم من القناعات الخاصة في الدين أو في السياسة أو في العلم، وهم فرحون مسرورون راضون بأنفسهم، يظنون أن ما عندهم هو الحق وغيرهم هو الباطل كقوله (أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨ وقوله (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣. بل يحسبون باطلهم حقاً وهم فرحون مسرورون بذلك كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤ وقوله

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) الأنعام/١٥٩ عن الإمام الصادق (ع) (أبي الله أن يعرفَ باطلاً حقاً، أبي الله أن يجعلَ الحقَّ في قلبِ المؤمنِ باطلاً، لا شكَّ فيه، وأبي الله أن يجعلَ الباطلَ في قلبِ الكافرِ المخالفِ حقاً، لا شكَّ فيه، ولو لم يجعلَ هذا هكذا مَا عَرَفَ حَقُّ مِنْ باطلٍ) البحار/٥/٣٠٣.

عن النبي (ص) (وَيْلٌ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالَّذِينَ) كنز العمال خبر ٢٩٠٩١.

٣٣ - ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِقُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾

إنها صورة قرآنية حيّة للنفس البشرية المضطربة المتقلّبة، التي لا تستمد من قيمة ثابتة ولا تسير على نهج مستقيم واضح، صورة تتأرجح بين الانفعالات الطارئة والتصورات العارضة والاندفاعات مع الأحداث والتيارات المتغيرة، إنهم يتعاملون مع الله بسداجة ولا مبالاة ففي الشدة ينقطعون إلى الله ويدعون دعاء المنقطع المضطر! وكلما ازدادت حالة الشدة ازداد الاتصال بالله تعالى، فتكون حالة الشدة هي المعيار الذي يفرز معادن الناس ويميز بين المدعي للإيمان والحقيقي في إيمانه. والتعبير ب (مَسَّ أو ذاق) يطلق على الأمور القليلة السطحية الجزئية.

المعنى : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) وإذا أصاب الناس (الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَجَعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) (مَسَّ) المس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى مادي أو معنوي، أي إذا أصاب الناس شيء من الضر وذاقوا الأذى وسوء الحال ولو قليل كمرض أو فقر أو عناء أو بلاء أو شدة (دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) راجعين منقطعين إليه سبحانه عمن سواه، لأنه تزول عنهم حجب الغفلة، ولعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله عز وجل، إنه على كل شيء قدير، وبالاجابة جدير، وكل شيء عليه يسير (ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ) أما إذا انكشفت العُمة والشدة وآذاهم الله السعة وأصابهم منه سبحانه الرخاء والرفاه والصحة والرحمة وآمنهم من الجوع والخوف، وأزاح عنهم المصيبة (إِذَا فَرِقُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (إِذَا) هنا فجائية، أي إذا جماعة منهم يعودون إلى عبادة غير الله أو يعبدون مع الله إلهاً آخر، هذا هو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة ثابتة تهديه إلى نهج مستقيم، هذا الفريق نسي ذلك الفضل الإلهي ورجع إلى الكفر والجحود، ولكن البعض الآخر ليسوا كذلك إنهم آمنوا وشكروا الله تعالى كقوله (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ابراهيم/٧، (مَنْ شَكَرَ اللَّهُ جَزَاهُ) فائدة

١- (إِذَا فَرِقُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) بالتخاذ الأنداد (الأولياء) في العبادة أو الطاعة أو الدعاء، فيتعلقون بالأسباب وينسون مسبب الأسباب وهو الله تعالى!! ويعزون كشف الضر لغير الله سبحانه كقوله (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يونس/١٢، ٢- الغرض من الآية التشنيع على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد ويشركون به في الرخاء، ٣- وقد تحرف فطرة الإنسان وتضل عن سبيل الله، فإذا بعض الناس لا يلجأ إلى الله تعالى مسبب

الأسباب، ولكن يلجأ إلى بعض الأولياء والأنبياء ويدعوهم للنصرة وقضاء الحاجات والنجاة من كل كرب من دون الله! بحجة أنها ذات جاه ومنزلة عند الله تعالى، وأنهم الوسيلة إلى الله كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) المائدة/٣٥ راجع تفسيرها في (وَعِيَّ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ)، على أن لا يكونوا هم بديلاً عن الله تعالى. عن الإمام الصادق (ع) (لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُشْرِكًا حَتَّى يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)

٤- تشهد الآية بأن الله موجود في ضمير كل إنسان، وفي وجدان كل كافر ومشرك، وإن كان هو ينكر ذلك بلسانه ولكن إذا مسه الضر، أخذته صحوه الفطرة السليمة فانقطع إلى الله يدعوه، ٥- (ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً) في العطف (بِثَمٍّ) بين الفرع إلى الله وبين الغوث واستجابة الدعاء، إشارة إلى أنه ليس كل غوث يغاث المستغيثون، فذلك مرهون بتقدير الله وحكمته فيما قضى ومضى به عباده، ٦- قال (مِنْهُ رَحْمَةً) أسند الرحمة إلى الله لأنها من قِبَلِهِ ولكن (مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) لم يسند الضّر إلى الله، لأنه كثيراً من المشاكل التي تعاني منها البشرية هي نتيجة سوء أعمالنا كقوله (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/٣٠، ٧- تشير الآية إلى أن بالفطرة السليمة تستدل على توحيد الله، ولكن يفتح هذا النور الفطري السليم عند الشدائد والحن، يقال: فِي الْمَحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكْرَامٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ رَاحَاتٌ (خَبْرَاتٌ) وَفِي الْمَعَانَاةِ هَيَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيَاتٌ نَهَائِيَّتُهَا الْكِرَامَاتُ.

٣٤ - ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آيَاهُمْ فَتَسْعُوا فَنَسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾

(لِيَكْفُرُوا) اللام هنا للعاقبة، هم بدلاً من الشكر يكفرون بما أعطيناهم من نعم كقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) إبراهيم/٢٨، (فَتَمَتَّعُوا) وانتفعوا بزينة الحياة الدنيا قليلاً (فَنَسُوفَ تَعْلَمُونَ) فسوف تعرفون عاقبة أمركم أيها المجرمون، (والأمر بالخواتيم) وفي ذلك تهديد مخيف ومقلق، والإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس، فكيف به وهذا التهديد من الله تعالى كقوله (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) البروج/١٢ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١، فائدة: ١- إن الله لا يُكْرِهُ أَحَدًا عَلَى الْإِيمَانِ، ويمهلهم لعلهم يعودوا إلى رشدهم ولكن لا يهملهم. (وَاللَّهُ يُمْهِلُ وَلَا يَهْمِلُ).

٣٥ - ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾

إنه سبحانه يتساءل (أَمْ أَنْزَلْنَا) هل أرسلنا إلى الكفرة والمشركين (سُلْطَانًا) حجة واضحة وبرهاناً قوياً يشيد للمشركين والمجرمين بأن الذي هم عليه حق وصواب!! لا يستند الشرك إلى حجة ولا يقوم على دليل وبرهان، وهذا يكشف عن تساقط عقيدة الشرك (فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) أي فذلك البرهان كأنه (يَتَكَلَّمُ) بصحة شركهم ويحتج لهم به، وهو كناية مجازية تقريبية! المعنى : أنهم لا يمكنهم إدعاء ذلك، فلا حجة عندهم ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس والاتباع

الأعمى ونزغات الشيطان كقوله (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) المؤمنون/١١٧، فائدة: ١- تقرر الآية أنه لا عقيدة منقذة خالصة إلا ما ينزل من عند الله تعالى، ٢- في الآية إشارة إلى أن أعمال العباد إذا كانت مقرونة بالحجة الصحيحة تكون حجة لهم، وإن كانت أعمال العباد من نتائج طباع نفوسهم الأمانة بالسوء تكون حجة عليهم، فالعمل بالطبع والعادة هوى، وبالحجة والبرهان هدى، في غرر الحكم (أُذِيئُ النَّاسِ مَنْ لَمْ تُفْسِدِ الشَّهْوَةُ دِينَهُ).

٣٦ - ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾

يقنطون: يياسون، معنى (الناس) على العموم، غير أناس العقيدة الصالحة والإيمان الخالص، أي (وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) فيكون حال المؤمنين بين الشكر والصبر، وغير المؤمنين بين الغرور والغفلة، بمعنى: (وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) لا يستوجبونها بسبب ضلالهم، (رحمة) على سعة معناها، من كمال وجمال ومال وحسن حال وجاه ورفاه (فَرِحُوا بِهَا) استبشروا واغتروا بها ونسوا أنها من الله، لأنهم يفرحون فرح البطر الذي ينسيهم مصدر الرحمة، لا فرح شكر، فرح غرور بالحياة الدنيا (وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ) سيئة تسوء الإنسان من شدة ومصيبة، وبعض الناس من يلقي بيده إلى التهلكة (بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ) بسبب معاصيهم وفسادهم (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) إذا هم فجأة يياسون من زوال ذلك السوء من فقر أو مرض .. إلخ وهذا جهل منهم، وهذا شأن القلوب الضالة عن الله التي لا تدرك سننه ولا تعرف حكمته كقوله (وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) هود/٩-١٠، إنها صورة قرآنية حيّة للنفس المضطربة التي لا ترتبط بميزان علمي دقيق وتقيس عليه أمرها في جميع الأحوال مع كل التقلبات.

(وَالنَّاسِ) هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الدين القيم والخط المستقيم، ولا يزنون بهذا الميزان العلمي الدقيق، وهذه الأوصاف في الآية ليست ذاتية ثابتة في الإنسان ولا تحديداً لطبيعته، وإلا لشملت هذه الأوصاف وعمت الأنبياء والأتقياء والأولياء، ولما صح الاستثناء في قوله (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) هود/١١ وإنما هي صفة سيئة يتصف بها الكثير من الناس الذين يتأثرون سلباً بما يحيط بهم من عوامل ضاغطة، وظروف اقتصادية صعبة أو سياسية أو إجتماعية معقدة.. إلخ ولذلك ربط سبحانه وصف اليأس والكفر بحدوث الضراء بعد النعماء، ووصف الفرح والفخر بحدوث النعماء بعد الضراء، ولو كانت هذه الأوصاف ذاتية داخلية لا عرضية خارجية لكانت صفة لكل إنسان، وصفة لا تفارقه بكل الأحوال، ومن نهج البلاغة (إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا وَإِنْ نَالَهُ رَحَاءٌ أَعْرَضَ مُعْتَرًّا .. إِنْ اسْتَعْنَى بَطَرَ وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ) وعن النبي (ص) (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ

خَيْراً لَهُ، إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ) المرآغي ٢١ ص ٥٠، بينما يعلمنا القرآن الحالة الطبيعية كقوله (لَكِنِّي لَا تَأْسُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمُ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) الحديد/٢٣، والقليل من الناس من يثبت على الصراط المستقيم في كل التقلبات، ويعصم نفسه من الزلل ويسددها في القول والعمل، والقلب الذي يثبت فيه الإيمان تقوى فيه البصيرة، تراه قوياً لا يتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والأحداث، ولا يتبدل من حالة إلى أخرى.

٣٧ - ﴿وَكَمِيرُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
يَبْسُطُ: يوسّع، وَيَقْدِرُ: يقدّر ويجدد وَيُضَيِّقُ.

المعنى (أَوْ لَمْ يَرَوْا) أَوْ لَمْ يَشَاهِدُوا وَيَعْلَمُوا (أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) أَنَّ اللَّهَ يوسّع الرزق على من يشاء ضمن أسباب معينة، ليرى صلاحه في ذلك ويمتحنه بالشكر (وَيَقْدِرُ) أي يُقَدِّرُ أو يُقَدِّرُ ويضيق على من يشاء ضمن أسباب أخرى ليمتحنه بالصبر، حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فلا يدعوهم الفقر إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، ولا مبر للفرح والبطر عن البسط والغنى والثروة، وإهما ابتلاء واختبار، (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) البقرة/٢١٠، تشير الآية إلى إطراد السنة وتغيرها، وثبات النظام رغم تقلب الأحوال (إِنَّ فِي ذَلِكَ) في إذاقتهم الرحمة وإصابتهم بالسيئة، أو في بسط الرزق وتقديره أو في المجموع هم منيبون لله تعالى (لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لدلائل وعبر يتدبرها المؤمنون الصالحون فإنهم أهل للاعتبار كما قيل (لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَى الْغَيْبِ لَرَضِيْتُمْ بِالْوَاقِعِ)! كقوله (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) العنكبوت/٦٢، في غرر الحكم (تَكَادُ ضَمَائِرُ الْقُلُوبِ تَطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِ الْغُيُوبِ) إذ يستدل المؤمنون على حتمية ألا يكون إقبال النعم مدعاة للغرور والفساد ونسيان الله تعالى، لأنها قد تزول ويحاسب عليها، ولا إدبار النعم سبباً لليأس والقنوط لأنها قد ترجع وتعود، فالله عليم بما يصلح الناس من الرخاء والشدة ضمن نظام الأسباب والمسببات كقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) الطلاق/٧.

فلا ينظر المؤمن لمجرد البحث عن الأسباب، بل يجعل نظره وطموحه إلى مسبب الأسباب وهو الله عز وجل، لسؤاله في جميع مطالب الرزق، فائدة: ١- المال مال الله، فهو خاضع إذاً: لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول، سواء في طريقة تملكه أو في طريقة تنميته أو في طريقة إنفاقه، ليس واضع اليد حراً في أن يفعل بما له ما يشاء بلا حدود ولا قيود، ٢- كما أن الله سبحانه لم يجعل الناس على مستوى واحد من المميزات والصفات والكفاءات، كذلك لم يجعل لهم مستوى واحد من الرزق كقوله (لَحْنٌ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) الزخرف/٣٢، كما لا تستطيع أن تزيد في خلقك ولا في عمرك كذلك لا تستطيع أن تزيد في مقدار رزقك المقدر، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (ع) (لا

يَشْغَلْكَ رِزْقٌ مَّضْمُونٌ عَنِّ عَمَلٍ مَّفْرُوضٍ) وفي شرح نهج البلاغة (الرِّزْقُ رِزْقَانُ: رِزْقٌ تَطْلِبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلِبُكَ، فَإِنَّ لَمْ تَأْتِيهِ آتَاكَ) ١٩/ص ٣١٩، ٣- (أَوْ لَمْ يَرَوْا) أولم يتفكروا أن الله الذي يُعَيِّرُ الأحوال من حال إلى حال، ويبدل العسر إلى يسر، والشدة إلى رخاء، حسب ما تقتضيه المصلحة العامة. هو نفسه سبحانه الذي يوسِّع الرزق ويضيقه على نظام الأسباب والمسببات، التي تُقام على أساس من المصلحة العامة والخاصة، فما بال عامة الناس لم يشكروا في السراء ولم يصبروا في الضراء كما يفعل المؤمنون؟! كقوله (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَاتَّبَعَ سَبَبًا) الكهف/٨٤-٨٥، عن الإمام علي (ع) (رَأْسُ الْعِلْمِ التَّوَاضُّعُ... وَعَقْلُهُ مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ الْأُمُورِ) البحار ٧٨ ص ٦.

٣٨ - ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰ لَهُمُ الْمُنْفَعُونَ﴾

وَالْمِسْكِينَ: أشد حالاً من الفقير، وهو الذي لا مال له ولا ادخار، وَابْنُ السَّبِيلِ: المسافر الغريب المحتاج الذي انقطع عن أهله وماله، وخطاب الآية للنبي (ص) والمراد أمته، لأن خطاب الآية عام للناس كافة، وأن النبي (ص) وقربته هم مصداق لهذه الآية، وذكرت الآية قسماً من المستحقين للمال وهم (فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) فأعط صاحب القرابة من الأرحام بحسب قربه وحاجته براً بهم لأنهم أحق الناس بالشفقة، (والأقربون أولى بالمعروف) وقرابة الدين أفضل وأقرب من قرابة النسب، وهم الإخوان في الله، وقرن الاعتناء بالأقرباء مع الاعتناء بالمسكين وابن السبيل لما يستحقانه من الصدقة والإعانة والنفقة والضيافة وحسن الرعاية (فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) من مالك الذي استخلفك الله عليه كقوله (وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) النور/٣٣.

وقوله (وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ) الحديد/٧ الإنسان وكيل عن الله تعالى في استعمال هذا المال الذي أعطاه الله، وما كان للوكيل أن يخرج عن أمر موكله، والتعبير بـ (حَقَّهُ) كأنما هم شركاء في أموال الناس، وإذا دفع المرء شيئاً من ماله إليهم فهو (حَقَّهُمْ) وليس له منٌّ عليهم! ومعنى (حَقَّهُ) المعنوي بصورة عامة، ليشمل صلة الرحم والعطف والبر والإحسان والسلام والإكرام، والهدية له وحسن التعامل معه والعفو عن زلته والسؤال عنه (وَالْمِسْكِينَ) وكذلك أعط المسكين والمسافر المحتاج ما يسد حاجتهما بقدر الإمكان ليمتحن شكر الغني، وتكون نفقته خالصة لوجه الله تعالى.

ومعنى : (وَالْمِسْكِينَ) أيضاً الذي أسكنه الفقر وحددته الحاجة (ذَٰلِكَ خَيْرٌ) أي أعطاه الحقوق الشرعية للجماعة المذكورة خير من الإمساك بها، خير في الدنيا والآخرة، لما فيه من تكافل الأسرة المسلمة وتعاونها في السراء والضراء، ونظام التكافل الاجتماعي من أهم العوامل التي تنهض بالمجتمع حضارياً وتطوره وترقيه في نشر الخير والثقة والمحبة وسد الحاجة بين الناس، فإنهم يعطون ما يقين ويحصلون على ما يبقى، كقوله (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ) البقرة/٢٧٢، عن النبي (ص) (الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْبَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) كثر العمال خير ٦٧٤ (لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ

وَجَهَ اللَّهُ) للذين يقصدون بأعمالهم (وجه الله) القرب من الله وحده وتحقيق رضاه، بنية خالصة في الانفاق لا طمعاً بالجنة ولا خوفاً من النار، فيؤثر رضا الله على رضا نفسه (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المنفق في هذا الشكل وعلى هذا الوجه الصادق، هو المفلح الفائز برضا الله، ولهم الدرجات العالية والنعيم الباقية كقوله (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) النساء/١١٤، وعن الإمام علي (ع) (فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مَنَعَ غَنِيٌّ، وَاللَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ) تفسير روح البيان ٤١/٧.

٣٩ - ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ليزبؤ: ليزيد وينمو، رباً: أي زيادة والمراد بها هنا الهدية أو العطية أو الفائدة، التي يتوقع بها مزيداً من المكافأة، وهذا المعنى متناسق مع روايات أهل البيت (ع)، الْمُضْعِفُونَ: ذو الأضعاف المضاعفة من الثواب والمال الحلال، الآية لها معنى عام: من أهدى هدية يريد أو يأمل أو يشترط أن ترد بأكثر منها فلا ثواب له عند الله، وقد حرم الله ذلك على رسوله (ص) على الخصوص كقوله (وَلَا تَمُنَّ بِتَسَنُّكُتُمْ) المذثر/٦ أي لا تُعْطِ العطاء تريد أكثر منه! عن الإمام الصادق (ع) في الآية (هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك ربا يؤكل) أي ربا حلال ولا يثاب عليه ولا إثم فيه وغير مرغوب فيه. وعنه (ع) (الرِّبَا رِبَاءَان: أَحَدُهُمَا حَلَالٌ وَالْآخَرُ حَرَامٌ، فَأَمَّا الْحَلَالُ فَهُوَ أَنْ يَقْرَضَ الرَّجُلُ أَخَاهُ قَرْضاً يَأْمَلُ أَنْ يَزِيدَهُ وَيَعْوِضَهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَأْخُذُهُ بِلَا شَرْطٍ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَهُ عَلَى غَيْرِ شَرْطٍ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مَبَاحٌ لَهُ، وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ فِيهَا أَوْ قَرْضُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ (فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ)، وَأَمَّا الْحَرَامُ، فَالرَّجُلُ يَقْرَضُ قَرْضاً وَيَشْتَرِطُ أَنْ يَرُدَّ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَهُ (مع تحديد النسبة) فهذا هو الحرام) نور الثقلين/ج٤ ص١٨٩.

المعنى العام: (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ) وما أعطيتهم من أموالكم من هدية أو عطية أو فائدة ليزيد مالكم ويكثر به (لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ) ليزيد ما لكم من أموال الناس على طريقة الدين بفائدة بنسبة معينة، وتزد عليكم الهدية مضاعفة ولتتالوا منهم أجراً أحسن وأكثر (فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ) ولا تزيد نفقاتهم عند الله ولا تزكو ولا تضاعف عند الله ولا يبارك فيها بل يحققها، لأنه كسب مشبوهِ لا يبارك الله فيه كقوله (يَحْقُقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ) البقرة/٢٧٦، وبين لهم في الوقت ذاته وسيلة النماء الصحيحة فقال (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ زَكَاةٍ: سميت زكاة لأنها تزكو وتنمو، والزكاة هي الصدقة والعطية المستحبة أو الزكاة المفروضة، هذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال إعطاؤه بلا مقابل، وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس، وإنما هي خدمة الناس ورفع مستواهم الحضاري الحياتي لوجه الله، إنها التجارة الراجحة في كل الأحوال، عن الإمام علي (ع) (فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبَرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيهاً لِلرِّزْقِ) مجمع البيان ٣١/٥، المعنى: وما أعطيتهم من زكاة مفروضة أو صدقة ومساعدة مندوبة.

(تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) أي القربى منه سبحانه ورضاه وحده خالصاً نقياً، ولا أرجو غيره أبداً، حتى يتزكى به صاحبه كقوله (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) الليل/١٨ (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) فأولئك ذوو المكافأة المضاعفة في الثواب في الآجل، والمال الحلال في العاجل كقوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام/١٦٠ وقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) البقرة/٢٤٥، فائدة: ١- معنى الآية عام يشمل جميع الوسائل التي يريد بها أصحابها أن تنمو أموالهم بطريقة ربوية ليست طريقة النماء الركي المبارك الكريم. بعض الناس يحاول أن يزيد على ماله ويضاعفه بأساليب شتى غير مشروعة وغير محبوبة عند الله، فيبين أن هذا ليس الطريق للنماء الصالح الحقيقي الصحيح، وإنما الطريق الصحيح والمحجب عند الله والوسيلة الصالحة المضمونة لمضاعفة المال هي (تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) إعطاؤه بلا مقابل، ولا تحديد، عن الإمام الباقر (ع) (لا تُعْطَى الْعَطِيَّةُ تَلْتَمَسُ أَكْثَرَ مِنْهَا) البحار ٩٦/١٤٤، وإنما هي إرادة رضا الله الذي بيده البسط والقبض، وإرادة الخير والصلاح لنهضة المجتمع علمياً وحضارياً وأخلاقياً.

٤٠ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ مَرَّقَكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَاءِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) يخبر الله تعالى أنه وحده المتفرد ابتداءً في إيجادكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً (ثُمَّ رَزَقَكُمْ) أعطاكم أنواع النعم الظاهرة والباطنة التي تقوم بها حياتكم (ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ) عند انقضاء آجالكم (ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ) يوم الحشر والنشر ليجازيكم على أعمالكم (وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢ (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ) الاستفهام هنا استنكاري، أي إن شركاءكم لا يفعلون شيئاً في ذلك، فكيف تتوجهون لعبادتهم (طاعتهم) من دون الله؟! ولا ينتظر منهم جواباً، فهو سؤال في صورة التقرير غير محتاج إلى جواب! (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) إنما يعقب عليه بتنزيهه الله تعالى عما يشركون، فكيف تقبلون على غيره وهو مخلوق مثلكم، وهذا لا يضر الله شيئاً وإنما ضرره ووباله عليكم. فائدة: ١- إنَّ الله تعالى قد وضح العلة والغاية النبيلة في الخلق، فأوضح البداية بالخلق وأعطى مقوماته بالرزق وأوضح النهاية بالموت، ثم انتهى إلى تحقيق الغاية الكبرى في إحياء المخلوقات بعد الموت للنجزاء، وليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب كقوله (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجُزَاءَ الْأَوْفَى) النجم/٤١ وهذه العلة والغاية من الخلق منذ البداية وضحها بعدة كلمات بليغات ذات دلالات واسعة، وهي من البلاغة القرآنية المؤثرة المميزة، في غرر الحكم (مَنْ أَيْقَنَ بِالْمُجَازَاةِ، لَمْ يُؤَثِّرْ غَيْرَ الْحَسَنِيِّ) في الحديث القدسي (أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ) يعني أنا أكثر استغناء عن العمل الذي فيه شركة غيري (مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشْرِيكُهُ) روح البيان ٧/٤٣، فائدة: البقاء الصحيح: إنَّ بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى! عن النبي (ص)

(خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ) حق اليقين ٥٥/٢، (وخلقتم للأخرة لا للدنيا، وللحياة لا للموت) في الحديث (كُلُّ مَا شَعَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنَمُكَ)!

٤١ - ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

يكشف الله تعالى للناس عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد في البر والبحر والجو (تلوث البيئة) ويكون هذا الفساد مسيطراً على أقدار الناس ومؤثراً عليهم سلباً. عن ابن عباس: البر: ما كان من المدن والقرى (اليابسة) على غير نهر، والبحر: ما كان من البلاد على شط نهر أو بحر المعنى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) ظهر وشاع وانتشر الفساد حتى أصبح ظاهرة عامة، فساد في البر في معاشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفساد في أنفسهم من الأمراض النفسية والجسدية والأوبئة المتنوعة وظهرت المصائب والبلايا في البر والبحر من زلازل وأعاصير مدمرة وسيول جارفة وفيضانات غامرة، وقحط شديد وانقطاع الغيث من السماء، وغلاء أسعار الحاجات وانتشار الأمراض الغريبة والخبثية (مرض السرطان والايديز والكورونا وغيرها) واندلاع الحروب الطاحنة والانحلال الأمني والأخلاقي، وثوران البحار (كالتسونامي البحري الياباني الحديث) وما يترتب عليه من المضار في المستقبل، وأيضاً من الفساد في البحر انتشار الأساطيل الحربية البحرية الحاملة للطائرات القتالية والمدمرات النووية، والغواصات التجسسية والتي تحمل الدمار والإبادة للمجتمعات. وظهور الفساد في البر والبحر نتيجة طبيعية لإعراض الناس عن الله، وعن منهجه المستقيم وعن حرامه وحلاله.

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

الباء هنا للسببية، أي بسبب ما كسبت أيدي الناس، كل ذلك بسوء أفعال الناس ومن صنعهم من انتشار الكفر والمعاصي والفساد والفسوق وكثرة المطامع والأعمال الإجرامية كقوله (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩، كما أفسد كثير من الناس فطرتهم السليمة، أفسد الناس كذلك فطرة الطبيعة ونظام الكائنات وسنن الحياة. وهكذا انتهكت الحرمات، وَشَحِقَّتْ حَقُوقُ الْإِنْسَانِ، نتيجة نسيان الله واليوم الآخر (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا) ليصيبهم الله بعقوبة تتناسب مع بعض ما عملوا من الفساد والفسوق والعصيان حينما يكتون بنارها ويتألمون لما يصيبهم منه فيكون لهم زاجر يزرهم ليتذكروا الله وليرجعوا إليه من قريب (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لعلهم يرجعون إلى رشدهم فيعزمون على مقاومة الفساد بقدر المستطاع، ويرجعون إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة كقوله (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) فاطر/٤٥.

فائدة: ١- تشير الآية أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مباشرة تتأثر إحداها بصلاحي الأخرى أو فسادها، ٢- (لِيُذِيقَهُمْ) والذوق وجود الطعم بالفم، وكثرة استعماله في العذاب في الدنيا، يعني أفسد الله أسباب دنياهم بسوء صنعهم، فكان تدميرهم في تدبيرهم (لِيُذِيقَهُمْ) بعض جزاء ما عملوا من الذنوب في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة كقوله (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/٣٠، وإنما قال (بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا) رحمة بهم ليمهلهم ولا يهملهم، ولأن تمام الجزاء في الآخرة، كلمة (بَعْضَ) إشارة إلى عذاب الدنيا وأن الله سبحانه يوقعه على بعض العصاة كسوط يؤدبهم ويوظفهم من غفلتهم، والذي لا يتعظ بالناس وعظ الله به الناس!، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لعلهم يتوبون، حتى قيل: فِي الْعُقُوبَاتِ يَفْضَأُ الضَّمِيرُ، وَفِي الْمَحَنِ مَنَحٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَبْرَاتٌ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَبَاتٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيَاتٌ مُهَايَاتُهَا الْكِرَامَاتُ، عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَاللَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا!) البحار/٧٨ ص ٣٧٤، ٣- ذم الله تعالى في الآية السابقة عمل المشركين الذين عبدوا (من دون الله) وأطاعوا مع الله أي شيء سواه، والشرك أخطر عمل يرتكبه الإنسان، فأول أضراره يسبب الفساد في الأرض بعد أن كان الفساد في النفوس، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) النساء/١١٦، وكلما تعمق الشرك وتوسّع انتشاره كلما تعمم الفساد وازداد خطره وضرره، حتى ظهر في البر والبحر والجو أي شمل خطره وضرره الجميع، وكلما تنوع الشرك تنوع الفساد، فيشمل الفساد الأخلاقي والنفسي والبيئي والفكري ... إلخ.

وظهر الفساد في الأرض بالسيطرة على شعوب العالم وسرقة مواردهم الاقتصادية، فارتكبت الجرائم الحربية الكبرى، والمجازر البشرية البشعة، وانتشرت المظالم والمآثم والمفاسد المتنوعة في كل مكان (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) بسبب إغراضهم عن الله واشراكهم به، ولكن الله يعامل عباده ببعض ذنوبهم (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلى الله تعالى، في غرر الحكم (مُجَاهِرَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْمَعَاصِي تَعْجَلُ النِّقْمَ) عن النبي (ص) (مَنْ حَضَرَ مَعْصِيَةً فَكَرِهَهَا فَكَأَنَّهُ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَأَحَبَّهَا فَكَأَنَّهُ حَضَرَهَا) روح البيان ١/٢٢٠.

٤٢ - ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾

قل يا محمد لمن تبلغهم رسالتك (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) سافروا في بلادكم وفي أرض الله الواسعة سفر تفكر وتدبر، واقروا التاريخ بتدبر، وكرر القرآن الكريم هذا الأمر تأكيداً للاعتبار، في غرر الحكم (الإِعْتِبَارُ يُفِيدُ الْعِصْمَةَ) أي انطلقوا من محيطكم المحدود، إلى المدى الواسع والأفق الرّحّب الممدود، وتعلّموا من مدرسة الحياة دروس الاستقامة والفلاح (فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) فانظروا نظراً حسيّاً بالعين ونظراً معنوياً وفكرياً بالقلب والعقل، أي انظروا كيف نهضت الحضارات السابقة وكيف عاشت ضالة وكيف ماتت وانتهت؟ وانظروا كيف كانت نهاية الذين

ظلموا من قبلكم من الملوك العاتية والشعوب العاصية الماضية وكيف أهلكهم الله تعالى؟ وكيف صارت قصورهم قبورهم، بسبب شركهم وفسادهم في الأرض؟ (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) فالغالب في عذاب الاستئصال يكون بسبب الإصرار على الشرك والفساد. فائدة: ١- يوصي الإسلام بالسياحة الهادفة وبالسفر النبيل، ويدخل فيه السير بالابدان والسير بالقلوب والتحلُّق بالعقول للنظر والتفكير والتأمل بعواقب المفسدين السابقين، عن النبي (ص) (سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْعَزْوُ وَالْجِهَادُ) وعنه (ص) (سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا) كنز العمال الخبر ١٧٤٧٠، عن الإمام علي (ع) (لَا يَخْرُجُ فِي سَفَرٍ يُخَافُ فِيهِ عَلَى دِينِهِ وَصَلَاتِهِ) البحار ١٠/١٠٨، ٢- المجتمع الذي يكثر فيه الفساد المتنوع، سوف يتتلى بالتدرج بالعذاب الإلهي المادي أو المعنوي (النفسي) المباشر أو غير المباشر ولو بعد حين، وإن كان فيه قلة مؤمنة، كقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧، (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) وقد تجب الهجرة عن الوطن الفاسد ويخشى فيه على الدين، ٣- حث القرآن على التعرف على حركة السنن التاريخية، وشجع على قراءة التاريخ والتأمل في أحوال الماضين وكيف كانت عاقبتهم كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) الأحزاب/٣٨.

٤٣ - ﴿فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّمْ يَمدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمٌ يَقْدِرُ بِصَدْعُونَ﴾

(فَاقِمِ وَجْهَكَ) الصورة التي يعبر بها عن الاتجاه إلى الدين القيم، صورة حركية موحية معبرة عن كمال الاتجاه، وجمال جديته، وجلال تأثيره، الصورة تحرك المشاعر وتحني الضمائر وتثير الانتباه إلى التطلع إلى الوجهة السامية والأفق العالي والمهام الكبيرة والاتجاه السديد والسبل المفيدة. (فَاقِمِ وَجْهَكَ) فوجه قلبك وقصدك وعقلك وإرادتك، وتوجهه بكلك إلى دين الله القيم (دِينِ الْإِسْلَامِ) واخضع لهذا المنهج الضروري المميز النموذجي، الذي هو في غاية الحق والعدل والاستقامة كقوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩.

واسع بيدتك وعلمك لإقامة الدين القيم الثابت المؤثر، ونقذ أوامره وانتهى عن نواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة في نفسك وفي المجتمع بالقدر المستطاع. وخطاب الآية للنبي (ص) ليعرف الآخرون واجبههم أيضاً (لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) للدين البالغ الأهمية، الدين القويم بذاته المقوم لغيره، ذو القيمة العليا والقيمومة الكبرى على جميع الكتب السماوية السابقة، والكتب الوضعية اللاحقة كقوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) المائدة/٤٨، فتمسك به في كل حين ولا تُعرض عنه أبداً ولا تحرف، دين ليس فيه اعوجاج ولا انحراف ولا تناقض، دين يملك كيان الإنسان كله ولا يعيش على هامش حياته، دين ينهض بالفرد والمجتمع على السواء، ينهض بالروح والجسد، وبالدين والآخرة، المعنى: فإذا كان الأمر المطلوب أن نعتبر بالماضين حتى لا نكون عبرة للباقيين، (فَاقِمِ) يا محمد (وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) وتوجه

بكلك إليه واعمل به وجاهد في سبيل نصرته، واستقم على نهجه غير ملتفت عنه يميناً وشمالاً ولا تشكّ فيه، الذي هو أصل كل دين سماوي ومنبع كل شريعة، وبهذا كانت له القِوامة على كل دين، والهيمنة على كل شريعة وعلى كل كتاب (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) من قبل أن يأتي يوم حتمي حاسم لا راد له من الله ولا يقدر أحد أن يرّده، لأنه يوم حق قضاه الله وأمضاه وكتبه في سابق علمه، وهو يوم القيامة يوم يقف الناس بين يدي الله تعالى للجزاء.

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) يومئذ يتصدّعون أي يتفرّقون الناس حسب أعمالهم إلى شقي خائب فألى النار، وسعيد فائز فألى الجنة، وكذا أهل الجنة وأهل النار (يَصَّدَّعُونَ) فيتفرّقون فيما بينهم وفقاً لمنازلهم في الجنة أو دركاتهم في النار، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب! فائدة: ١- (لِلدِّينِ الْقِيَمِ) تارة يعبر القرآن عن الدين بالحنيف كقوله (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) يونس/١٠٥ حنيفاً: مائلاً عن كل تطرّف ومقاوماً لكل انحراف، إلى اعتدال التوحيد ونور الاستقامة واطمئنان القلوب وانسراح الصدور، وتارة يوصف الدين بالواصب كقوله (وَلَهُ الدِّينُ وَأَصِيبًا) النحل/٥٢، الواصب: الثابت الدائم الذي لا يتغيّر، الدين الحق له سلطة التشريع دائماً وله الطاعة المستمرة، وتارة يوصف الدين بالخالص (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، الخالص: الصافي السليم من العيوب المُخلّص، ولا يقبل الله تعالى غير الدين الخالص، وهو التسليم الكامل المطلق لمنهج الله تعالى، في نهج البلاغة خطبة ١٩٨ (إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَأَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ)، ٢- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيَمِ)

حث القرآن الكريم على التمسك بالدين وليس بالمتدين، والافتداء بالحق وليس بأتباعه ورموزه، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أُخْرِجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار/٢ص١٠٥، عن الإمام علي (ع) (الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ لَا يُعْرَفَانِ بِأَقْدَارِ الرِّجَالِ، إِعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ، وَاعْرِفِ الْبَاطِلَ تَعْرِفْ أَهْلَهُ) أمالي المفيد/ص٣.

٤٤ - ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِ يَهْدُونَ﴾

الآية دقيقة المبني، عميقة المعنى، واسعة الدلالة، ولها صلة بما قبلها، وكلّما تتعرف على أبعادها تدخل المشاعر وتحرك الضمائر بلا استئذان! من أقام وجهه (لِلدِّينِ الْقِيَمِ) الروم/٤٣، فقد مهّد لنفسه مهاداً طيباً مناسباً له، وأعدّ الدار القرار التي ينزلها في الآخرة، أما من أعرض وعصى وكفر فعليه وزر إعراضه وكفره، وهذا يدل على حرية اختيار الإنسان لعقيدته. المعنى: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) من كفر بالله وبرسله ورسالاته فعليه وحده أوزار وآثام وعقوبة كفره، فلا أحد يتحمّلها عنه وهي معاناة الضلال وسيئات الأعمال، ثم معاناة وعذاب نار جهنم في الآخرة (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا

فَلَأَنْفُسُهُمْ يَمْهَدُونَ) يمهّدون: يفرشون، يهيئون ويعدّون ويوطّون ويقدمون الخير لأنفسهم ويعمّرون آخرتهم، وينالون منازل عالية في الجنة تتناسب مع مقدار إيمانهم وعملهم الصالح النافع، بما تفرّ به أعينهم في دار النعيم، وهذه الآية تربية قرآنية نموذجية تجمع بين الترهيب والترغيب، والخوف والرجاء، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَيَسْبِقُ صَاحِبَهُ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَمْهَدُ لَهُ كَمَا يَمْهَدُ لِأَحَدِكُمْ خَادِمُهُ فِرَاشُهُ) مجمع البيان ٧٢/٨.

فائدة: ١- يقال: مهّدت الفراش أي سوّيته وأصلحته ورتبته وهيأته بما يتناسب مع صاحبه، وأصل المهّد إصلاح المضجع للصبي، ثم استعير لغيره، (يَمْهَدُونَ) من التمهيد وهو إعداد المضجع في القبر، فإن بالإيمان والعلم والعمل الصالح النافع يصلح منزل القبر، ويفتح منه باباً إلى الجنة كقوله (مَنْ عَمِلَ صَاحِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) فصلت/٤٦، وفي الحديث (إِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ يُدْفَنُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ كَرِيمًا أَكْرَمَ صَاحِبَهُ وَإِنْ كَانَ لَثِيمًا أَسْلَمَهُ) روح البيان ٤٨/٧ أي تركه لمصيروه (يَمْهَدُونَ) بمعناه العام، وهو يمهّد ويُعبّد الطّريق الموصلة إلى الأمان الدائم والاطمئنان المستمر، وكل هذا التمهيد والاستعداد يتناسق مع تصوّر طبيعة العمل الصالح النافع للناس ووظيفته المؤثرة، فهو يعمل الصالح النافع لغيره ولكنه يبنيه لنفسه ومستقبلها، ويعدّ أسباب الراحة ويمهّد له نتائج الفوز الأبدي. وهكذا (الذي يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ)! عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ص ٩٥، ومن بحث عن الله وجده، في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إلهي: أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْدِنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ)

٤٥ - ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

(لِيَجْزِيَ) ليعطي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذي أريد بها وجه الله تعالى ورضاه (مِنْ فَضْلِهِ) الواسع وكرمه ورحمته فوق الاستحقاق، وعبر عنه بالفضل لا الواجب، لأنه يجب للمؤمنين الصالحين الذين يعملون الصالحات وينفعون الناس، وينهضون بالمجتمع نحو نهضة حضارية متنوعة كبيرة (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) لا يريد رحمتهم وهو معاند على الكفر، لأن الكفر يبغضه الله، فائدة: ١- لا عمل صالح بدون إيمان، ولا إيمان بدون عمل صالح، وعلى قدر الإيمان والعلم والعمل الصالح مهّدوا لأنفسهم رضوان الله كقوله (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) التوبة/٧٢، ٢- وجاء التعبير القرآني بالظاهر (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) بدلاً من التعبير المضمّر (لِيَجْزِيَهُمْ) للتبويه بهم بذكر الصفات الطيبة التي اتصفوا بها من حقيقة طبائعهم من دون تكلف، والتي كانت سبباً لرضوان الله عنهم وإحسانه إليهم، ٣- في نهج البلاغة (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ) أي يجب المؤمن لإيمانه، ويبغض ما يأتيه من السيئات، ويبغض الكافر لكفره، ويجب ما يفعله من حسنات الكاشف/٦/١٤٨، ٤- (مِنْ فَضْلِهِ) كان جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنهم

عملوا خالصاً لوجه الله فأحبهم الله بحسن تياتهم وحسن أعمالهم، وإذا أحب الله عبداً أكرمه، وهذا بخلاف الكافرين والمشركين.

٤٦ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُبْخِرَ بِأَمْرِ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِهِ وَتَشْكُرُوا﴾ (وَمِنْ آيَاتِهِ) ومن علامات وجود الله في آفاق الكون والسماء، ومن أفعاله الحكيمة الدالة على وحدانيته ورحمته وكمال قدرته وجمال تدبيره وبعثه للموتى للجزاء (أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ) مبشرات بمعناها الواسع، أن يرسل رياح الرحمة والنعمة والبركة المنقذة للبلاد والعباد، من حين إلى آخر التي تسوق السحاب وتبشّر بمطول الماء من السماء الذي يحمل الحياة لخلق الله وعباده، ولها فوائد كثيرة أخرى، عن الإمام الصادق (ع) (لَوْ كَفَّتْ (تَوَقَّفَتْ) الرِّيحُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَفَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَنَتْنٌ، لَأَنَّ الرِّيحَ بِمَنْزِلَةِ المَرْوِحَةِ تَذْهَبُ وَتُدْفَعُ الفَسَادَ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ وَتَطْيِبُهُ، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ نَتْنٌ وَتَغْيِيرٌ (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون/١٤، الكاشف/٦/١٥٠ (وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) بما يتبع الرياح المبشرات بالخير من تلقيح النباتات، وتنقية الهواء وتعديل درجة الحرارة، وتوفير الأوكسجين للإنسان وثنائي أوكسيد الكربون للنباتات وغيرها (وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ) ولتسير (الْفُلُكُ) السفن والمراكب والبواخر العملاقة وحاملة الطائرات (بِأَمْرِهِ) بأمر الله وإرادته للحمل والنقل والتبادل التجاري الواسع بين البلدان، جريان الفلك وفق سنته الطبيعية التي فطر وخلق عليها نظام الكون والكائنات، وتدبيره وتقديره لذلك الذي أودع كل شيء خاصته ووظيفته. (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) ولتطلبوا من رزقه الواسع بالتجارات والمهارات والصناعات المتعددة والزراعات المتنوعة.

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) قابلوا النعم بالشكر، فإن (بِالشُّكْرِ تَدْوُمُ النِّعَمِ) كقوله (لَنْ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدُنَاكُمْ وَلَنْ كَفْرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ابراهيم/٧.

أما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهو استدراج بطيء إلى الهلاك كقوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢، وقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) ابراهيم/٢٨ البوار: الهلاك، فائدة: ١- (بِأَمْرِهِ) المراد بأمره تعالى هنا رياح الرحمة والطاقة المتوقدة وكل دافع جديد ومفيد، ومحرك نحو الأحسن من نهضة حضارية وصناعية وأنواع الاكتشافات والاختراعات، لأنه تعالى خالق كل شيء ومدبره ومقدره.

كقوله (يُذِيبُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) السجدة/٥، ٢- تأمل هذه (الواوات) (ومن آياته .. وليذيقكم .. ولتجري .. ولتبتغوا .. ولعلكم) كأن كل (واو) رسل من رسل الله، يحمل كل رسول منها الآية المرسل بها في هذا العرض العظيم لآيات الله، قف أيها الإنسان وخذ حظك من النظر والتفكير في ما أجمل إليه من آيات ربك، وما يجدر الالتفات إليه: لا يعرف الإنسان قدر النعمة حتى تُسلب منه، ٣- (وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) أن تستذوق الطعام والشراب في الفم هذا عمل معروف ومألوف، ولكن كيف تستذوق الرحمة وهي في العالم المعنوي؟ وفي ذلك إشارة دقيقة

إلى أن جميع متاع الدنيا ونعمها الكثيرة، فهي رحمة قليلة تستدوق قَلَّتْهَا بالنسبة إلى رحمة الله الواسعة في الآخرة التي هي فوق حدِّ الوصف، ٤- (أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ) ذكر الرياح في القرآن للخير والرحمة، وذكر الريح للعذاب والنقمة، (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) الأحقاف/٢٤، فإذا كانت للرياح حركة مقدرة ومدبرة إذاً: لا صدفة في هذا الكون، عن النبي (ص) (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) روح البيان ٤٩/٧.

٤٧ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ) رسلاً كثيرين بلا تحديد، معهم الدلائل والبراهين على صدقهم وقد كذبوهم من أقوامهم وآذوهم من سفهائهم، وكذلك كذب قومك يا محمد رسالتك الإسلامية القيّمة، وقد ألقيت الحجة عليهم كاملة كقوله (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النحل/٣٥، (فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) بالمعجزات المتنوعة الخارقة، وبالذلائل الواضحات الساطعات المؤثرات الدالة على صدق نبوتهم وكمال رسالتهم على أنهم رسل من عند الله تعالى.

(فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرُمُوا) فانتقمنا : النقمة العقوبة، أي فآمن بعضهم وكفر البعض الآخر، وأجرم آخرون وتجاوزوا الحدود المعقولة والأصول المقبولة في شدة الجحود والعناد، والله ينتقم من الجرم الفاسد على جرمة كقوله (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) آل عمران/٤، (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وكان واجباً علينا نصر المؤمنين العاملين الصادقين، وقد أوجب الحق على نفسه سبحانه، وجوب كرم لا وجوب إلزام كقوله (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الأنعام/٥٤، أما كيفية النصر: إما بدفع السوء عنهم أو حفظ عزتهم وكرامتهم أو بحمايتهم من العذاب أو هلاك مخالفيهم وخزيهم أو نصر معنوي علمي بإعلاء حجتهم، فهو وعد إلهي حتمي لا بد أن يقع في ظروف موضوعية مناسبة، كقوله (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) النساء/١٤١، سبيلاً: طريقاً بالحجة أو بالقوة والغلبة. عن الإمام الرضا (ع) في الآية (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) من طريق الحجّة) وعن النبي (ص) (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عَرِضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ثم تلا (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ولقد تكررت في القرآن حقيقة نصرة المؤمنين المجاهدين كقوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) غافر/٥١ (إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) آل عمران/١٦٠ وقوله (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الأعراف/١٢٨.

فائدة: ١- (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) سبحانه الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين الصادقين، وجعله لهم حقاً وصدقاً وعدلاً وفضلاً وكرماً، وأكد لهم في هذه الصيغة البلاغية الحاسمة الجازمة التي لا تحتمل شكاً ولا ريباً، فإذا أثبت المؤمنون حقهم بالإيمان والعمل الصالح المناسب في الجهاد في سبيل الله ونصرة الحق والحقوق المشروعة، أثبت الله حقهم في النصر كقوله (إِنْ تَنْصُرُوا

اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ) مُجَّد/٧، ٢- إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَسْتَقْبِلُوا الرِّسْلَ الْمُنْقِذِينَ لَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ استقبالهم للرياح المبشرات، مع أن دور الرسل أجلُّ وأعظم!.

٤٨ - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ بِهَا السَّحَابَ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

المعنى: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ) من شواهد كمال قدرة الله وجمال نعمته وجلال تديبيره، أنه يبعث رياح الرحمة وفق تنظيم الكون وتصريف قوانينه (فَتَثِيرُ سَحَابًا) فتتحرك سحاباً (فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ) فيبسطه: فينشره، أي تنشر الرياح ذلك السحاب وتجعله مفرقاً أو متراكماً، خفيفاً أو كثيفاً (كَيْفَ يَشَاءُ) ينشره على الحال التي يريدتها الله سبحانه (وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا) ويجعله قطعاً متفرقة أو متراكمة بعضها فوق بعض أو يصطدم بعضها ببعض، فتنبعث شرارة كهربائية في اصطدامها فيكون ضوء البرق وصوت الرعد (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) فتري (الْوَدْقَ) قطرات الماء يخرج من خلال فتحات السحاب، ولا ينزل الماء جميعه دفعة واحدة فتفسد ما أتت عليه (فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من البلاد والعباد (إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) إذا هم يفرحون لحاجتهم إليه، لتوقعهم ما يجيء على أثره من الخير والبركة كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء/٣٠.

٤٩ - ﴿وَلَنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قِبَلِهِ الْمَلْسِينُ﴾

المبلسين: لأيسين قانطين حزينين، لتأخر وقت نزوله عليهم، وهكذا كل من تقوم حياة أراضيه وزراعته على السقي من ماء السماء، فإنهم أعرف بهذه البشارة. فائدة: الآية توضيح لقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ) الروم/٤٦.

٥٠ - ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِيي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ) (فَانظُرْ) الخطاب للنبي (ص) والمراد به الناس، (آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ) المراد به هنا الغيث لأنه أنزله برحمته على خلقه، المعنى: (فَانظُرْ) أيها العاقل نظر تدبر وتفكر إلى حقيقة واضحة منظورة لها دلالاتها المشهوددة، ومن ثم يتخذها برهاناً على قضية البعث والنشور والإحياء في الآخرة للجزاء (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١، على طريقة القرآن الكريم الذي يتخذ من مشاهد الكون ونظامه المنظور وواقع الحياة المشهوددة، مادته وبرهانه كقوله (فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) فاطر/٩ أي (فَانظُرْ) إلى آثار الغيث وهو رحمة من الله للبلاد والعباد ونعمة لجميع الخلق (كَيْفَ يُغِيي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)؟ كيف اخضرت الأرض بعد أن كانت يابسة هامة جامدة؟ (إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ) إن الذي قدر على إحياء الأرض الميتة اليابسة لقادر على إحياء أجسام الموتى بعد فنائهم حين البعث، إشارة إلى قدرته سبحانه وإلى تفرد وحده بهذا

الأمر وهو إحياء الموتى للجزاء. إن حقيقة البعث والنشور حقيقة كبرى لا تقبل الشك والريب في القرآن الكريم كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) الروم/٢٧ (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) ق/١١، وفي الحديث (إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّبِيعَ فَادْكُرُوا النَّشُورَ) روح البيان ٥٢/٧! (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وهو المبالغ في القدرة القاهرة على جميع الأشياء، ولا يعجزه شيء.

فائدة: قال انبشتاين (أَشَدُّ الْأُمُورِ غُمُوضًا فِي الْكَوْنِ أَنَّهُ غَيْرُ غَامِضٍ) وهكذا رحمة الله ونعمته لما وسعت كل شيء، ألفها الناس وذاقوها واعتادوا عليها وذهبوا عنها. ويقال: لا تعرف النعمة إلا بعد فقدها، في غرر الحكم (إِنَّمَا تُعْرَفُ قَدْرَ النِّعَمِ بِمُقَاسَاةِ ضِدِّهَا) عن الإمام علي (ع) (أَحْسِنُوا صُحْبَةَ النَّعْمِ قَبْلَ فِرَاقِهَا، فَإِنَّهَا تَزُولُ وَتَشْهَدُ عَلَى صَاحِبِهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا) البحار ٧١ ص ٥١ وإذا استمرت اللذة فتشبع منها فلا تبقى لذّة، وأصوات الماكينات لا تفيق من ضجيجها إلا بعد توقفها، والذي لا يعرف لماذا يموت لا يعرف لماذا يعيش؟! (حَيِّرُ الْعَيْشِ: مَا يَكْفِيكَ وَيُعِينُكَ، وَلَا يُطْعِمُكَ وَلَا يُلْهِمُكَ وَلَا يُنْسِيكَ!) عن النبي (ص): (لَا حَيْرَ فِي عَيْشِ إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: عَالِمٌ مُطَاعٌ، وَمُسْتَمْعٌ وَاعٍ) البحار ٧٧/١٦٨.

٥١ - ﴿وَلَمَّا أُرْسِلْنَا بِرِيحٍ مُّصَفَّرَةٍ لِّظُلْمٍ مِّنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾

وأقسم بواو القسم (وَلَمَّا أُرْسِلْنَا بِرِيحٍ) (ريح العذاب) ولئن أرسلنا على الزرع الأخضر الجميل ريحاً مصفرة ضارة مفسدة، ریح ترابية وعاصفة رملية مهلكة للزرع والضرع (فَرَأَوْهُ مُصَفَّرًا) فرأى الناس الزرع مصفراً جافاً بعد الخضرة والجمال، وهو علامة تراجعه وبيسه وتلفه من أثر تلك الريح العاصفة (لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) لبقوا بعد اصفرار الزرع (يَكْفُرُونَ) سخطاً وأساساً، يجحدون النعمة ويكفرون بالمنعم، وهي حال من لا يؤمن بقدرة الله وحكمته، بعكس حال المؤمن فإنه يشكر عند النعمة ويصبر عند المحنة، ولا ييأس من روح الله في الشدة. فائدة: إنهم إذا حبس عنهم الغيث قنطوا وسخطوا وكفروا، وإذا أصابهم ماء السماء فرحوا ولم يشكروا، وكان الأجر بهم أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء والتضرع ليرفع عنهم البلاء (وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢ إنهم يعبدون الله على أساس الريح، والذين لعقوا على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فإذا تحصوا بالبلاء والشدائد ارتابوا بالخالق ودينه وحكمته، عن الإمام علي (ع) (فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُّسْتَقَرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي) مضطرب غير مستقر، كما استعير حاجة ثم أرجعها.

٥٢ - ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَكَأَنَّكَ تَسْمَعُ الصَّخْرَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾

(فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ) نبه الله تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات، لا ينفع معهم نصح ولا تذكير، هذا مثل ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي، صماً لا سمع لهم لأنهم لا يصغون إلى الحق، عمياً لا يهتدون إلى طريق الاستقامة، والذي ينفصل حسه عن نظام الوجود فلا

يدرك نظامه وسننه فهو مَيّت جامد بليد لا حياة مؤثرة فيه، والذي لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان، والذي لا يبصر آيات الله المبتوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان تبصران كالحیوان، إنه الله سبحانه يُعزّي نبيّه الكريم عن إخفاق جهوده في هداية الكثير من قومه، ويرد هذا بسبب طبيعتهم وعنادهم وقسوة قلوبهم التي لا حيلة له في تغييرها، إنهم انطفأت بصيرتهم واتبعوا أهواءهم وأفسدوا فطرتهم فأعماهم عن طريق الهداية، فلا تُضَيّع وقتك وجهدك يا مُجّد مع هؤلاء فإنهم موتى وصم وعمى لانسداد مشاعرهم عن الحق، وتعطيل أجهزة الاستقبال عندهم عن الهداية، وأنت لا تقدر أن تسمع الموتى (إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ) ولا تقدر أن تسمع النداء الحق من بهم صمّم إذا كانوا مقبلين، فما ظنك بهم لو كانوا معرضين مدبرين عن حجج القرآن مصّرين على الضلال، عن الإمام علي (ع) (الْمُؤْمِنُ يَخْتَأِجُ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ، وَوَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَبُولٌ مِنْ يَنْصَحُهُ) البحار ٣٥٨/٧٨ فائدة:

١- (فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى) لا تستطيع يا مُجّد إسماع موتى المشاعر والضمائر والقلوب، يعني الكفرة الذين سُدّت مشاعرهم عن استماع المواعظ والحكم والنصائح فإنهم في حكم الموتى، وإن كانوا أحياء في الظاهر، عن النبي (ص) (لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ ، إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءُ) البحار ٨٢ص ١٧٥، في غرر الحكم (الْجَاهِلُ مَيِّتٌ بَيْنَ أَحْيَاءٍ) من يصر على رأيه ولا يتوقع الخطأ من نفسه، يستحيل أن ينتفع بالعقل بشيء من الهدى والعلوم إلا ما يراها هو حسب هواه، والكلام البليغ معه كالكلام مع الأموات!

(وَلَا تُسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ) لا أحد يصغي لمنطق الحق إلا إذا كان ضالته ووجهته ورغبته التي يطلبها وحاجته التي يسأل عنها (الدُّعَاءَ) بمعنى الدعوة (إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ) معرضين تاركين الداعي والدعوة. ٢- الذي يُعطل فكره وسمعه وبصره عن التدبّر في آيات الله الكثيرة، ويتبع التقليد الأعمى ويؤمن بالمألوف المنحرف والمعروف الدارج السائد، ويمشي مع العقل الجمعي وتيار العرف العام الذي يتخلله الفساد، ويركض وراء الهوى وحبّ الأنا وحبّ الدنيا .. هؤلاء لا يستطيع هدايتهم لأنهم أعرضوا عن الحق مدبرين، وصمموا على أن لا يقتنعوا مهما كان الدليل، فقست قلوبهم من كثرة ذنوبهم، وماتت بالكفر والعناد وبطل سمعهم وبصرهم عن الانتفاع بالهدى، فيكونون كالمريض النفسي بحاجة إلى معالجة نفسية ليعودوا إلى حالتهم الطبيعية. كقوله (أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا) الفرقان/٤٣ في غرر الحكم (إِيَّاكُمْ وَتَمَكَّنَ الْهُوَى مِنْكُمْ، فَإِنَّ أَوَّلَهُ فِتْنَةٌ وَآخِرُهُ مِحْنَةٌ) أول: (أَوَّلَهُ يَعْزُّ وَآخِرُهُ يَضُرُّ) .

٥٣ - ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) إنك يا مُجّد لا تهدي (الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) من أصرّ على عمى الضلال واتبع هواه وعبد مناه، ولست مسؤولاً عن هدايتهم، ولا تستطيع إرشاد عميان القلوب وضلال البصائر إذا لم يطلبوا الهداية من أنفسهم وكامل إرادتهم، فإنهم أشدّ استحالة

للهداية من عمى العيون، فإن عمى بصائر القلوب أشد وأعمق وأضر من عمى العيون، فإنهم ميئون بمشاعرهم، والميئ لا يبصر شيئاً كما لا يسمع شيئاً فكيف يهتدي؟ (إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الظاهرة والباطنة في الأفاق وفي الأنفس (مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) فإنه يستمع القول العلمي ويتلقاه ويتدبر معناه ويتأثر به ويتفاعل معه ويقبله كقوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨، إنما يستجيب لك ويؤمن بك يا مُحَمَّد طَلاب الحق والهداية والاستقامة.. أما الانتهازيون فهم طَلاب ربح وثراء وصيد المال والجاه والموقع اللائق، ودينهم في بطونهم وجيوبهم لا في رؤوسهم وقلوبهم، وليس لهم فيك من رغبة وميول. عن النبي (ص) (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهَدَى شَيْءٌ، وَخَلَقَ إِبْلِيسُ مَزِينًا وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ) كثر العمال خير ٥٤٦ كقوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) القصص/٥٦.

(فَهُمْ مُسْلِمُونَ) من التسليم، فهم يسمعون فيسلمون ويتفاعلون ويخضعون ويستجيبون، وهم منقادون لمنهج الله الخالص، مُسْلِمُونَ بما تأمرهم به وتنهاهم عنه يا مُحَمَّد، حيث إنهم يتبعون سبيل الهداية والرشاد، ويسمعون المواعظ والنصائح وهو استعدادهم للإيمان والعمل الصالح، لسلامة أجهزة الاستقبال عندهم، وسلامة فطرتهم وقلوبهم وانفتاح نفوسهم لتقبل نور الهداية وحياة الإيمان، إن الإيمان حياة القلوب، فإذا كان القلب حياً يكون له السمع والبصر واللسان، كلها تبحث عن الحق وتطلب نور الهداية، فائدة: إذا لم يكن للانسان وازع من نفسه يطلب الهداية، فإنه لا ينتفع بالواعظ البليغ القدير مهما كان تأثيره، ومن قدر على تربية نفسه كان على غيرها أقدر، ومن عجز عنها كان على غيرها أعجز، في غرر الحكم:

(أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِهِ) فإن الحياة تستند على قاعدة: العرض والطلب، فإذا لم ينفع العرض لم يحصل الطلب، وإذا لم أطلب الهداية فسوف تجذبني الغواية كقوله (فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨.

٥٤ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾
إنها جولة مديدة يرون أوائلها في مشهود حياتهم، ويرون أواخرها، مصورة تصويراً مؤثراً حسياً واقعياً كأنها حاضرة أمامهم، وهي جولة موحية تنقل الإنسان من حال إلى حال، وهو يدرك أنه في قبضة الله تعالى كقوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) الطارق/٥ ثم لينظر كيف تدور دورته في الحياة بالتدرج المنظم المقدر المدبر، كما يدور القمر في دورته الشهرية بالتدرج المرتب من الهلال إلى الكمال، المعنى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) الله الذي أوجدكم بقدرته أيها الناس من أصل ضعيف، إنه ضعف البنية الجسدية الممتلئة في تلك النطفة التي ينشأ منها الجنين الوليد، الرضيع، ثم جعلكم تتقلّبون في أطوار ومراحل من الضعف المنظم المتدرج، وهي مرحلة ضعف الطفولة ونعومتها وبرائها، ضعف في كل شيء سواء أكان الضعف جسدياً أو نفسياً أو عقلياً.. ومن الجدير ذكره: قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) ولم يقل (خلقكم ضعفاً) أو في حالة ضعف) إنما

(خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) كأن الضعف مادتهم الأولى التي صيغ منها كيانهم الجسدي والنفسي، والضعف الذي تشير إليه الآية ذو معان واسعة ومظاهر شتى في تكوين هذا الإنسان المكرم (تَمُّ) جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (تَمُّ) للتراخي الزمني التدريجي المنظم، يبدأ الإنسان بالعدّ التصاعدي المقدر والمدبّر، أي جعل من بعد مرحلة ضعف الطفولة مرحلة أخرى، هي قوة الشباب وقدرتهم (قُوَّةً) بكل تلك المعاني القوية التي تقابل الضعف، (قُوَّةً) في الكيان الجسدي وفي التكوين النفسي والعقلي والفكري والإرادي .. حيث كملت قوته بحجمها الطبيعي، لكن لا تزال تعاني هذه المرحلة ضعف في الجانب النفسي في متطلبات النضوج العقلي وقلة الخبرة والتجربة في الواقع العام، والغريزي والجنسي الخاص، أمام قوة الميول الضاغطة إلى حبّ الشهوات والتمتّع بأنواع اللذات (تَمُّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَبِيهَةً)

ثم يذكر هنا مرحلة العد التنازلي وهي المرحلة الأخيرة من العمر، مرحلة انتكاسة الإنسان بالتدريج المنظم والمقدر والمدبّر، وتغيير حاله في مظهره وجوهه، كل إنسان بحسب قوة بنيته، أي جعلكم من بعد مرحلة قوة الشباب مرحلة الكبر، مرحلة ظهور الشيب وعلامات الهرم والضعف والشيخوخة، وهو ضعف مرتّب في الكيان الإنساني ككله الجسدي والنفسي والعقلي، فالشيخوخة انحدر إلى مرحلة شبيهة بضعف الطفولة، بكل ظواهرها ولكن بهيئة الكبر وتجسيم الشيخوخة ومنظرها. كقوله (وَمَنْ نَعَمَّرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) يس/٦٨ وقوله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ تَمُّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) النحل/٧٠ وقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ تَمُّ مِنْ نُطْفَةٍ تَمُّ مِنْ عَلَقَةٍ تَمُّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا تَمُّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ تَمُّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ) غافر/٦٧ (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) يدبّر الأمور كلها، ويتصرّف كيف يشاء على أحسن درجات الاتقان كقوله (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨ (وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) وهو (الْعَلِيمُ) بأحوال عباده ومصالحهم (الْقَدِيرُ) على ما يشاء من الحكمة والمصلحة.

فائدة: ١- ومن حكمة الله تعالى البليغة أن يُري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين!، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى آية قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة دون توقف لطغى وبغى واعتدى!! عن النبي (ص) (لَوْلَا ثَلَاثَةٌ فِي ابْنِ آدَمَ مَا طَأَّطَأَ رَأْسُهُ شَيْءٌ، الْمَرَضُ وَالْمَوْتُ وَالْفَقْرُ، وَكُلُّهُنَّ فِيهِ وَأَنَّهُ لَمَعْنٌ وَثَابٌ) مكابر، البحار ٧٢ص٥٣، في غرر الحكم ودرر الكلم (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا) فبادر باستثمار شبابك قبل هرمك، وصححتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وقوتك قبل ضعفك، وحياتك قبل موتك. ٢- بهذا الدليل الحسي الواقعي بتغير الإنسان في مراحل خلقه المختلفة، هو دليل علمي وحسي وواقعي على وجود مغيّر ومدبّر وعليم وقدير، وهو

الله سبحانه الذي يستحق العبادة والطاعة المطلقة. وأيضاً الذي يُقدَّر على هذا التغيير في شكل الإنسان قادر أن يعيدكم مرة أخرى بعد الموت من أجل الحساب والجزاء، ليكون الإنسان المناسب في المكان المناسب، عن النبي (ص) (الخاسر مَنْ عَقَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩، ٣- يصعب تحديد نظام ثابت لمرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة، بسبب اختلاف البنية الجسدية للإنسان واختلاف طريقة معيشته ومراعاة صحته وظروف بيئته الصحية ومكان سكنه...

٥٥ - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْسِفُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾

لا بد لهذه النشأة المحكمة المقدرة من ضعف وقوة وشيئة، ولا بد لها من نهاية مرسومة ومقدرة للجزاء والحساب، في مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، حافل بالحوار والحركة والإثارة على طريقة القرآن في تربية النفوس. وسميت يوم القيامة (بالساعة) وهي الجزء القصير من الزمن، لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، وفي ساعة مفاجئة ويتم فيها الحساب بسرعة (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) آل عمران/١٩٩، المعنى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْقِصُ الْمُجْرِمُونَ) يوم تجيء ساعة القيامة ويبعث الناس للحساب (يُنْقِصُ الْمُجْرِمُونَ) يحلف الكافرون المجرمون المعاندون بأنهم ما مكثوا في الدنيا من العمر وكأنه ساعة! شعروا بتفاهة عمرهم في الدنيا وكأنه يعادل ساعة محددة، مقابل حياتهم الخالدة في الآخرة، لقد مرَّ عمرهم كمرِّ السحاب، في الحديث (الدُّنْيَا سَاعَةٌ، فَاجْعَلْهَا طَاعَةً، وَالتَّفْسُ طَمَاعَةً، فَعَوِّدْهَا الْقِنَاعَةَ) (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) ما أقاموا في حياتهم الدنيا أو في البرزخ بعد الموت (غَيْرَ سَاعَةٍ) قصيرة من مدة الزمن الطويل، كقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) الأحقاف/٣٥، أنهم يشعرون أن الفاصلة الزمنية بين أعمالهم وعمرهم في الدنيا وحسابهم وعمرهم الأبدي في الآخرة قصيرة جداً (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) كذلك كانوا في الدنيا (يُؤْفَكُونَ) يصرفون عن الحق ويعرضون عن الخير والصدق ويميلون إلى الباطل والشر والكذب، ويتفاعلون معها ويؤيدونها وينصرونها، ولا ينصرون الحق وأهله، ويرون الأمور على خلاف حقيقتها، ويظنون الحق باطلاً والصدق خرافة، فيخدعون أنفسهم ويوهونها ويكذبون عليها ويحسبون أنهم على خير كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤.

٥٦ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَكَتَبْنَا لَهُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) فكانوا من المؤمنين الصالحين المميزين الواعين الذين لا يخلو منهم زمان ومكان كقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧، الذين هداهم الله بالحجج العلمية والبراهين القطعية العقلية فأمنوا بالساعة والقيامة، وأدركوا أن هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود، وأن وراء ظاهر الحياة الدنيا حياة أخرى في عالم آخر له خصائص أخرى يتم فيه الجزاء، وهؤلاء (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) مَنْ الله عليهم بهما وصار وصفاً مُشْرِفاً لهم، العلم بالحق والإيمان في نصرة

الحق والحقوق، لهذا كان قولهم الحق، وقرن العلم بالإيمان، وقدّم العلم على الإيمان، لأن العلم أساس الإيمان، وعلى قدر العلم يكون الإيمان وتكون العبادة، وأن العلم الذي لا يثمر عملاً صالحاً نافعاً لا قيمة له، في غرر الحكم (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأَلِّ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) أي (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) للمجرمين المنكرين يوم القيامة الذين قالوا (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) الروم/٥٥، إنكم غير مصيبين في قولكم هذا (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ) له دلالة عامة، لقد مكثتم وبقيتم (فِي كِتَابِ اللَّهِ) له دلالة عامة، في أم الكتاب فيما كتبه الله في سابق علمه وفي قضائه وقدره، أو في عالم البرزخ أو في اللوح المحفوظ (إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ) إلى يوم القيامة (فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) فيها هو أمامكم يوم البعث والنشور الذي كنتم تنكرونه في الدنيا فلا ينفعكم علمكم به الآن (وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أن وعد الله حق فكذبتم الرسل والرسالات. في غرر الحكم (ضَلَالٌ الدَّلِيلِ، هَلَاكُ الْمُسْتَدِلِّ).

٥٧- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ) لا ينفعهم عذرهم، أي في ذلك اليوم لا ينفع الظالمين لأنفسهم ولغيرهم كقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤، اعتذارهم على سوء أفعالهم بعد إتمام الحجة عليهم، فقد فات وقت الاعتذار فلا تقبل معذرتهم (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) مشتقة من عتب، يستعتبون: الاستعتاب: طلب العتبي، والعتبي: الاسترضاء وإزالة العتاب كقوله (وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) فصلت/٢٤ أي لا يطلب منهم الرجوع إلى الحق لاسترضاء الله، ولا يقال لهم أرضوا ربكم بالتوبة لأنها بعد فوات الأوان، لقد جلّ الأمر عن العتاب، إذ أنه يعاتب من يرجى منه إصلاح ما أفسد، أما هذا اليوم يوم الحسم يوم الحساب والثواب والعقاب لا يوم العتاب، لا يُسمح لهم أن يعتذروا كقوله (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) المرسلات/٣٦ أو المعنى: فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم أحد فيما فعلوه، فكل إنسان مشغول بنفسه، كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨ وقوله (وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) المعارج/١٠.

٥٨- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جَسَدًا بَابَةً لِيَقُولَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنَا إِلَّا مَبْطُلُونَ﴾

هذه الأمثال يضربها الله للاعتبار، في غرر الحكم (الإِعْتِبَارُ يُفِيدُ الْعِصْمَةَ) وفي تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة ليسهل فهمها، أوقفهم الله تعالى أمام القرآن الكريم وهو دستور للناس كافة، الذي فيه من كل مثل، وفيه من كل وسيلة، وفيه تبيان لكل شيء، لإيقاظ القلوب والعقول، وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل جيل وفي كل بيئة وكل زمان ومكان (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) ويقسم بالله لقد بينا للناس بحيث أغنياهم في البيان، ووصفنا لهم كل صفة مهمة فصارت كالأمثال، كالتوحيد والحشر وصدق المرسل وسائر ما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم، في الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب، من المواعظ والحكم والشرائع والسنن والقوانين والأنظمة والأمثال والأخبار والعبير والفصص.. مما يوضح الحق ليتبعوه، ويزيل اللبس

والباطل عنهم ليجتنبوه. مما يهتدي به المتفكر ويعتبر به الناظر المتدبر. (وَلَمَّا جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ) والله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد البيضاء أو جئتهم بآية ناطقة من القرآن واضحة البيان (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) من شدة عنادهم وقسوة قلوبهم من كثرة ذنوبهم. (إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) مبطلون: تعبير جامع لكل المعاني السلبية السيئة الفاسدة الباطلة، أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا دجالون مزورون، تزوقون الكلام، وتدعون أنه قرآن كتاب الله ووحيه، وهكذا، يتناولون على أهل العلم الصحيح والإيمان المستقيم وأهل الصلاح والأحرار المجاهدين فيقولون عنهم أنهم مبطلون، ويقولون عن الخونة والعملاء أهل الإرهاب أنهم مُحَقَّقُونَ! إنهم يقيسون الحق والباطل بمنافعهم وأهوائهم، وهكذا الضلال يقبل المقاييس الصحيحة عند الإنسان كقوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف/٥٤ صرَّفْنَا: كررنا على وجوه شتى من البيان.

٥٩- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(كَذَلِكَ) على هذا الشكل في الآية السابقة الذين قالوا (إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) (يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) يطبع: أي يختم الله على قلوب وبصائر هؤلاء الكفرة الجهلاء المعاندين فلا يدخلها خير ولا ينفذ إليها نور الإيمان ولا يؤثر فيها النصح ولا أمل في هدايتهم، لقسوة قلوبهم وعمى بصائرهم وغلظة طبائعهم وفساد نفوسهم، ونسب الطبع إلى الله تعالى لأنهم سلكوا باختيارهم السبيل المؤدية إلى هذه النتيجة الخاسرة، ضمن قاعدة الأسباب والمسببات، والنتائج على ضوء المقدمات كقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) الصف/٥، والطبع أعم من الختم وأوسع في المعنى وأخص من النقش، فإن حالة الطبع مانعة عن نفوذ الحق في قلوبهم، كما أن الختم على الأشياء مانع عن التصرف فيها (عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) يغلق الله ويختم على قلوب الذين لا يطلبون العلم ولا يريدون أن يتعلموا ما ينفعهم، وأن يبقوا على الجهل بالله وآياته، ويبقوا على العناد والفساد والجهل المركب، ويعتقدون أن ما هم عليه من الضلالة والمفاسد هو الحق والتقدم فائدة: (يَطْبَعُ اللَّهُ) على قلوبهم أي يمنعهم الله ألطافه ورحمته ورعايته لعلمه سبحانه بأن تلك القلوب القاسية لا يتناسب معها نور الهداية، ولا يليق بها تلك الرحمة والرعاية الإلهية الخاصة كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) البقرة/١٦ ويصرون على الخرافات اعتقدها وسخافات ابتدعوها فصارت جزءاً من طبائعهم وقناعاتهم كقوله (إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ أَهْلَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) الفرقان/٤٢.

٦٠- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾

فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم وجهلهم (فَمَنْ صَبَرَ ظَفَرَ، وَمَنْ لَجَّ كَفَرَ) والصبر: وسيلة المؤمنين الناجحة في الطريق الرسالي الطويل، وفي كل طريق بحاجة إلى صبر جميل وسعة صدر وتحمل، وبحاجة إلى علم ومعرفة ووعي وأفق واسع كقوله (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف/٣٥ (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)، الثقة بوعد الله من علامات الإيمان، الذي وعد بنصر

المؤمنين والاستخلاف في الأرض كقوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) غافر/٥١، إن هذا الوعد (حَقٌّ) لا بد أن ينجز، وعهد مؤكّد في ظروف مناسبة لا بد أن يتحقق بلا شك ولو بعد حين كقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧، عن النبي (ص) (إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَالْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) البحار ٧٧ ص ٨٨ (وَلَا يَسْتَخِفُّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) لَا يَسْتَخِفُّنَّكَ: لَا يَسْتَفْزِنُكَ، لَا يَزِعْجُنَّكَ، لَا يَعْجَلُنَّكَ، لَا يَحْمِلُنَّكَ عَلَى الْحِفَّةِ وَالْقَلْقُ وَرَدُودُ الْأَفْعَالِ بِسَبَبِ قَلَّةِ الصَّبْرِ، أَي لَا يَحْمِلُنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْحِفَّةِ فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّسَرُّعِ فِي التَّحَرُّكِ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَالْعَجَلَةُ فِي الْحُكْمِ لَشِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ، لِتَجَاوُزِهِمُ الْحُدُودَ الْمَعْقُولَةَ وَالْمَقْبُولَةَ فِي الْعِنَادِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْفَسَادِ، فَلَا تَجْزَعُ وَلَا تَمَلُّ وَلَا تَضْجُرُ وَلَا تَتْرِكُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ، وَعَلَيْكَ بِالثَّبَاتِ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِلَا قَلْقٍ وَلَا حَيْرَةٍ وَلَا خَوْفٍ، فَطَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ طَرِيقُ الصَّبْرِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ وَالْيَقِينِ مَهْمَا كَانَ طَوِيلًا كَقَوْلِهِ (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦، فَإِنَّ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ تَظْهَرُ قِيَمَتُهَا أَكْثَرَ فِي حَالَةِ اضْطِرَابِ الْآخِرِينَ وَضِيَاعِهِمْ وَفِي ظُرُوفِ قَلْقِهِمْ.

فائدة:

١- الاستخفاف: من الخفة، وهي التحول من حالة إلى حالة، والانتقال من وضع إلى وضع، فإن الشيء الخفيف هدف سهل لكل عارض يعرض له ويريد زحزحته عن موقفه ومكانه اللائق به. إن مسؤوليتك أن يسع صدرك لكل الناس، وتستوعب بخلقك العظيم كل القلوب، أي كن رزيناً ثابتاً وقوراً بموافكك، مواصلاً طريق الدعوة إلى الله. تدعو الآية المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله وبنصره، وتدعو النبي (ص) إلى أن يثبت في موقفه وإيمانه، وأن يكون جبلاً راسخاً لا تصادفه أئمة خفة واستخفاف في أي جانب من جوانب حياته، وكان النبي (ص) ثابتاً راسخاً تنزل الجبال ولا يزول وهو القائل (لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ) يصف النبي (ص) بعض أصحابه بصفات نموذجية مميزة عالية المضامين فيقول (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرَجَالًا إِيمَانُ أَتْبَتْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي) مجمع البيان ٣/١٤٤.

٢- عن النبي (ص) (الْأُمُورُ بِتَمَامِهَا وَالْأَعْمَالُ بِحَوَائِجِهَا) البحار ٧٧/١٦٥، وَمَنْ سَارَ عَلَى الدَّرَبِ وَصَلَ، وَأَنْ نَصَرَ اللَّهُ لِرِسَالَتِهِ سَيَتَحَقَّقُ مَهْمَا كَانَتْ الْعَوَاقِقُ كَقَوْلِهِ (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣، ولكن بحاجة إلى إعداد مناسب وصبر جميل حتى تنال الظفر، وما انتصر الحق من كلام فارغ خالٍ من عمل صالح وعلم راجح وصبر فالح (وَلَا يَسْتَخِفُّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) فالإنسان الذي لا يوقن يعيش حالة الاستخفاف، والاهتزاز والاستفزاز أي يعيش الشك والقلق والعجلة، ويؤثر على الآخرين بقلقه وعجلته ويكون عنصر قلق وعدوى بينهم، فيكونون جميعاً حالة ضاغطة على قائدهم وقودتهم، فيعيش معهم حالة القلق والاهتزاز ومعاناة الاستفزاز، وقد يهبط إلى مستوى ضغطهم، بدل من أن

يرفعهم إلى عزيمته وقوته! لقد حذّر الله تعالى نبيه المصطفى (ص) من هذا الانحدار الخطير، ليكون درساً قرآنياً بليغاً للآخرين في ميادين الحياة المختلفة.

وآخر دَعْوَانَا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول : (وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١. تم بعون الله (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبِينِ) لسورة الروم، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل فلله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٥/١٢/٢٠١٨م الموافق ٢٥/ ذي الحجة / ١٤٣٩هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي.



من مقاصد السورة:

مكية، تعالج موضوع العقيدة وتركّز على الأصول الثلاثة (التوحيد والنبوة والمعاد) كما الحال في السور المكية. ابتدأت السورة بذكر القرآن المعجزة الخالدة، وأقامت الحجج على وحدانية الله، وذكرت دلائل قدرة الله في إبداع هذا الكون المنظم المتناسق في تكوينه مما يأخذ بالقلب ويبهز العقل كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) الآية/١١، وختمت السورة بالتحذير من يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، وسمّيت (سورة لقمان) لاشتمالها على قصة (لقمان الحكيم) ووصاياه البليغة التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته، والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن الشرك والقبائح والمنكرات، نزلت السورة بعد الصفات، سبب نزولها: أن قريشاً سألت النبي (ص) عن قصة لقمان الحكيم مع ابنه وعن برّه والديه فنزلت السورة. فضلها: عن الإمام الباقر (ع) (من قرأ سورة لقمان في ليلة، وكَلَّ اللهُ به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسي) مجمع البيان ٨ص ٣١٢، ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿الم﴾

(الم) تقرأ (ألف ، لام ، ميم) الحروف المقطعة للتنبية إلى إعجاز القرآن، الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء كتاباً مثل القرآن، وهو مؤلّف من هذه الحروف الهجائية وهي في متناول أيدي

الناطقين بالعربية، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل القرآن المعجز بعلمه وبلاغته، وهذا دليل على أنه تنزيل من الله الحكيم العليم.

٢-٣ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾

(تِلْكَ) اسم الإشارة للبعيد بدلاً عن القريب، لبيان سمو آيات القرآن وفضله وفخامته في ذاته ورفعته في تأثيره وهدايته للناس (تِلْكَ) آيات السور المباركة بالغة الأهمية في الحكمة، صدرت من حكيم خبير لتكون لها علاقة بكلام لقمان الحكيم. (آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) ومن إحصائياتها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف كقوله (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢، ومن إحصائياتها: أنها آيات جمعت بين الترغيب والرهيب، والخوف والرجاء، والوعظ والبليغ، ومن إحصائياتها: أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد دعمت بعضها بعضاً وليس بينها اختلاف.

ووصف الله تعالى الكتاب (القرآن) بالحكمة، يلقي عليه ظلال الحياة المنظمة المنسقة والهداية والإرادة، وكأما هو كائن حيّ فاضل مميّز متّصف بالحكمة في قوله وتوجيهه، وكأنه فيه روحاً وفيه حياة مؤثرة وفيه حركة فاعلة، وله شخصية قيادية ذاتية مميزة لما فيه من إنباس النفوس، ولو قابلية الصحة والصداقة والتأثر والتأثير بالآخرين، كتأثر الصديق بالصديق وتأثر الحكمة بالحكيم. (آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) وقد وصف الكتاب بالحكيم لبيان أنه كتاب الحكمة الفائقة والعلم الصحيح، كتاب الفرقان الذي يفرق ويفصل ويميز الحق والباطل، والصحيح والخطأ، وهو كتاب مُنَزَّه عن الجهل والعبث واللغو واللغو، والذي فاق كل كتاب سماوي سابق ووضعي لاحق في بيانه وعلومه وتشريعه وأهدافه، وصف الكتاب بالحكيم لقوة ومتانة محتواه فلا يجد الباطل إليه سبيلاً، فهو ليس كلاماً عادياً للتسلية وقضاء الوقت، وليس من (هو الحديث) للترف الفكري وإنما هو كتاب هداية ودراية ورعاية وحماية ليكون دستوراً للإنسان ليسير على منهج الله المستقيم.

٣- (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)

أنزلنا هذه الآيات المحكمة (هُدًى لِلنَّاسِ) البقرة/١٨٥ (هُدًى) يهديهم إلى منهج الله المستقيم لما فيه من الصلاح والفلاح، ويخلصهم من مخاطر الهوى وحبّ الأنا ومن الضلال والفساد (وَرَحْمَةً) ينجيهم من العذاب ودليل وحجة للعارفين (رَحْمَةً) يسكبها في القلب ليطمئن، ويقود إلى الخير الكثير، والهداية مقدمة لرحمة الله، و(رَحْمَةً) خاصة للذين يحسنون للناس ويقضون حوائجهم ولا يسيؤون لهم، أي رحمة (لِلْمُحْسِنِينَ) العاملين للحسنات الصالحات النافعات التي تستحسنها النفوس وهم المطيعون لله الناهضين بالمجتمع حضارياً، وهم الذين يهدّون أنفسهم بالأمانة بالسوء

ويطهرون عاداتهم السيئة بالتدرج، ويؤدّون الفرائض كاملة، وإنما خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بالقرآن أكثر من غيرهم كقوله (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) البقرة/١٩٥.

٤ - ٥ - ﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصَّلَاةَ وَيؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
 (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيؤْتُونَ) من صفات هؤلاء المحسنين أنهم يؤدّون الصلاة أداءً كاملاً، بأركانها ومقدماتها وخشوعها وطهارتها وآدابها وعلومها وعلى وجهها الصحيح، يقيمونها في أوقات فضيلتها ويداومون عليها باستمرار مع حضور القلب وإخلاص التوجّه والنية، لا الاتيان بحركات الصلاة الخارجية وهيئتها الظاهرية فقط، فإن حركات الظاهر لا تحقق معنى إقامة الصلاة، والصلاة: صلة وثيقة بين القلب والرب، وبذلك تتحقق حكمتها وأثرها في شعور الفرد والمجتمع في سلوكهم العام، ويتم بالصلاة هذا الأنس بالله، وتدوّق حلاوة القرب منه سبحانه والحبّ له جلّ وعلا، وتشعر بالسكينة النفسية والاطمئنان القلبي كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨ واقتصر الذكر على الصلاة والزكاة من بين جميع الفرائض، للدلالة على أنهما رأس الأعمال الحسنة وأهم الفرائض (ويؤْتُونَ الزَّكَاةَ) لمستحقيها طيبة بما نفوسهم ابتغاء مرضاة الله، ويتحقق بالزكاة استعلاء النفس على شحّها وبخلها الفطري وحبها للمال وزيادته، وبذلك يحصل تهذيب نفوسهم من الصفات الرذيلة وتعلقهم بحبّ الدنيا كقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) الشمس/٩، والزكاة تبين أن المؤمن يؤثر محبة الله على محبة المال، وبذلك تقام وتستقيم حياة المجتمع باعتماد نظام التكافل الاجتماعي العام (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) سميت آخرة لأنها آخر يوم في الدنيا، وسميت آخرة لأنها في عالم آخر أبدي (يُوقِنُونَ) يصدّقون بالدار الآخرة والحساب والجزاء ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا التباس ولا ريب، وبهذا الإيقان الذي يقوم في ظله العمل، يجيء العمل على صفة كاملة حيث يعطيه المرء كل مشاعره بلا ضعف ولا فتور، وتكرار ضمير (هُمْ) لتأكيد إحسانهم وإيقانهم وتفيد الحصر.

٥ - (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

أُولَئِكَ المحسنون (عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) على طريق هداية الله لا طريق هوى أنفسهم كقوله (إِنَّ هُدًى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) البقرة/١٢٠، وأنهم على نور وعلم من ربهم يهديهم إلى صراط مستقيم في القول والعمل كقوله (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) النور/٤٠، وفي غرر الحكم (مَنْ أَهْتَدَى بِهِدَى اللَّهِ أَرَشَدَهُ) قد أفلح من توجّه إلى النور الهادي الذي يصل به إلى الغاية المثلى وتنجيه من الضلال في الدنيا ومن عواقب الضلال في الآخرة (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هؤلاء المحسنون هم الفائزون في الدنيا والآخرة، لكونهم ما دخلوا في باطل قط، ولا خرجوا من الحق في الشدة والرخاء وفي القول والعمل، إنهم إنما فازوا لأنهم على هدى من ربهم، وكرر الإشارة (وَأُولَئِكَ) تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم. لما ذكر حال السعداء الذين اهتدوا بكتاب الله، عطف عليهم

بذكر حال الضالين الأشقياء الذين أعرضوا عن القرآن وأقبلوا على (هُوَ الْحَدِيثِ) متفاعلين معه إلى درجة (يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ) يشتري ما يلهي عن طاعة الله ويصد عن سبيله.

٦- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَسَخِيحًا هَزُوا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ﴾

(من) هنا للتبعيض، فمن يعرض عن هدى الله فإنه يختار (هُوَ الْحَدِيثِ) المعنى: هناك صنف من الناس مخدوع بقناعاته الفاسدة (مَنْ يَشْتَرِي) بأي ثمن، يشتري أي يختار ويرغب من يبذل الثمن في شراء (هُوَ الْحَدِيثِ) وهذه كناية بلاغية واستعارة تشبيهية، شبه حالهم بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التشبيهية، والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود في كل زمان ومكان، إنه (يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ) بماله ويشتره بوقته ويشتره برغبته وحياته ويتفاعل معه! ويبذل تلك الأثمان الغالية، فهو هو رخيص تافه يفنى فيه عمره المحدود، والذي يشتري الحديث التافه إنه حقاً إنسان تافه، سيء النية والغاية فارغ المحتوى (يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ) تطلق كلمة (هُوَ الْحَدِيثِ) على كل شيء يحرف الإنسان عن هدفه المهم، وهي كلمة لها معنى واسع لا ينحصر بشيء معين.

(هُوَ الْحَدِيثِ) اللّهُ: كل شيء يلهي عن سبيل الله وعن الخير في القول والعمل، ويُبعد عن الاستقامة وعمما هو ينفع، كالغناء والطرب والموسيقى المحرّمة والحديث الفارغ والقصص التافهة، والإعلام المتنوع الفاسد والمفسد، كالأفلام الخليعة والبرامج المفسدة، والقنوات الفضائية الضالة والمضلة، والمسلسلات التي تدعو إلى التفريق بين المرء وزوجه، كقوله (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) الحج/٣٠. وأيضاً يشمل من (يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ) التحدّث بالغلو والخرافات والسخافات المضحكة، ومنها الملاحية والمعازف، عن الإمام علي (ع) (لَا حَيْرَ فِي لَدَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ) وفي غرر الحكم (مَنْ تَلَذَّذَ بِمَعَاصِي اللَّهِ أُورَثَهُ اللَّهُ ذُلًّا) تفسير النور ٧ص ٢٠٣.

ومن معاني (هُوَ الْحَدِيثِ) أي الأحاديث الملّهية للقلوب عما هو مطلوب ومرغوب، وفيها تضيع الوقت والعمر، فدخل في هذا كل كلام تافه وكل لغو وغلو وفاحش وهذيان وسحر وتنجيم، ودافعه نحو الكفر والفسوق والعصيان، ومن (هُوَ الْحَدِيثِ) كلام الغيبة والنميمة وتشويه سمعة الناس، والكذب والشتم واللّعن، عن النبي (ص) (الغِنَاءُ يُنْبِتُ التَّفَاقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ) روح المعاني عند تفسير الآية. (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ليبعد عن دين الله وعن القرآن الكريم، ولها معنى واسع أيضاً فهو يضل نفسه ويضل غيره ويضل الناس ضلالاً عقائدياً أو سلوكياً عن هدى الله وفهم القرآن وفهم الحياة بطريقة خاطئة، وهذا الضلال يلهي عن ذكر الله ويقلل من قيمة الله في أنظار الناس، والاستهزاء بالقيم والمبادئ والأخلاق، وإغراء الناس بالفحشاء والمنكر والبغي وممارسة أنواع الإرهاب.

ومصدق ذلك: تشويه الحقائق في الإعلام المأجور المسيس المتنوع عبر الانترنت لنشر الأكاذيب، وتروج للخونة وتشكك بالقادة الصالحين، وتجعل لهم عملاء خونة يلبسون ثياب أهل الدين ويحتلوا مواقع التأثير، ليلصقوا بالدين الحنيف البدع ويشتبوا الشقاق والخلاف بين الناس وتسمى هذه في المصطلح المعاصر (بالحرب الناعمة) الحرب الإعلامية النفسية التشكيكية التي تؤثر على المدى الطويل.

(بغير علم) فهو يضل الناس عن سبيل الله بغير حجة ولا برهان علمي، وليس له تفكر وتدبر ولا معرفة ولا بصيرة، حيث يشتري الباطل بالحق، ويشتري الضلالة بالهدى، إنه يتبع التقليد الأعمى، ويتحرك بجهل وينساق مع العرف العام، ويشغل الآخرين بجهله (وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) يتخذ منهج الله ودينه القيم وقرآنه الحكيم (هُزُوًا) سخرية ويستهزئ بها، ويقول القرآن (وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا) البقرة/٢٣١ (أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أولئك لهم عذاب شديد مع الذلة والإهانة، هم الذين سيدفعون الثمن غالباً، الثمن في عذاب مبين وجزاء مهين، ووصف العذاب بالمهين للرد على سوء أدبه، وإهانتته لمنهج الله وللمؤمنين.

٧- ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

مشهد فيه حركة المتعالي المغرور، ويرسم السياق القرآني الفني هيئة المستكبر الذي يكره الحق والمستهين بمنهج الله، المعنى : وإذا تتلى على هذا المشتري (هُوَ الْحَدِيثِ) آياتنا القرآنية ومواظنا الحكيمة (وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا) ولى وأعرض عنها مستكبراً عليها ومستكفاً منها ومن أي نصح فهو معجب بنفسه، شأن المستكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام النافع المفيد متعالياً عليه، ويجعل نفسه وكأنها غافلة عنه، أي أعرض عن سماع آياتنا إعراض من لا يسمعها ولا يصغي إليها (كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ قِرْفًا) يصفه بوصف مهين يدعو إلى تحقير هذه الهيئة المستكبرة، وكأن هذا الثقل في أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة، أي كأن في مسامعه (وَقِرْفًا) : ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع تلك الآيات المؤثرة، وليس به من صمم، ولكن الحق كالصاعقة المزعجة على رأسه وقلبه، ومن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) فبشره أي أنذره يا محمد بعذاب موجه شديد الألم، وينذر بسوء العاقبة كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) فصلت/٤٤.

سبب النزول: روي: إن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيّات، وإذا ظفر بأحدٍ يريد أن يسلم على يد النبي (ص) انطلق به إلى مغنيته لتطعمه وتسقيه الخمر، ويقول له: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت الآية. ولكن النص القرآني أعم وأضحى من هذا الحادث الخاص المحدود إذا صح. فائدة: ١- (فَبَشِّرْهُ) ووضع البشارة بالخير مكان الانذار في مورد العذاب، للتهكم والانتقاص والسخرية به لأنه باع دينه وكرامته للشيطان، وتآمر على الحق وأهله

ويسعى في أذاهم تعذيبهم، ٢- قال (هُوَ الْحَدِيثِ) بدلاً من (حديث اللهو) قَدَّمَ اللهو على الكلام، وذلك لأن هدف هؤلاء اللهو واللغو والعبث والكلام وسيلة للوصول إليه، عن النبي (ص) (مَنْ مَلَأَ مَسَامِعَهُ مِنْ غِنَاءٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتِ الرُّوحَانِيِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قِيلَ وَمَا الرُّوحَانِيُّونَ، قَالَ : قُرَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) جمع البيان ٥ ص ٤٧، ٣- هناك علاقة بين (مَنْ يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ) وقوله (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) بمعنى: كل من يشتري هو الحديث يؤدي به (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُؤًا).

٨-٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ﴾، خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿﴾ لما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم، ذكر هنا ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم، وحيثما ذكر الجزاء في جنات النعيم في القرآن الكريم ذكر قبله الإيمان والعمل الصالح. المعنى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي جمعوا بين الإيمان الواعي والعمل الصالح النافع الخالص، وجمعوا بين حسن النية وإخلاص العمل، فلا إيمان صحيح من دون عمل صالح، ولا عمل صالح مقبول من دون إيمان. وهم الذين لا يشترون (هُوَ الْحَدِيثِ) ولا يضلون الناس ويسرقون مواردهم الاقتصادية، ولا يستكبرون على آيات الله ولا على الناس (هُمُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) لهم على حسن إيمانهم وثبات استقامتهم على شريعة الله جنات الخلد يتنعمون بها يوم القيامة نعيم الروح والبدن، نعيم المادي والمعنوي، يتنعمون بأنواع اللذائذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. كقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة/١٧، ٩- (خَالِدِينَ فِيهَا) إخم في تلك الجنات دائم فيها لا يخرجون منها أبداً كقوله (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) الكهف/١٠٨ (وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا) إنه وعد الله الحق الصادق الثابت المتحقق لا محالة ولا خُلف فيه، لأن الله لا يخلف الميعاد (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) كامل العزة وكامل الحكمة، ومن عزته وحكمته أنه هدى من يستحق الهداية، وخذل من يستحق الضلال، بحسب حالتهم وما اقتضاه علمه فيهم وحكمته بهم (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الذي لا يغلب فيما يزيد من خلق وتديبر، وهو (الْحَكِيمُ) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والاتقان.

١٠- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ مَرَأْسِي أَنْ تَحِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَرْعٍ كَرِيمٍ﴾

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) من الأدلة على قدرة الله البالغة وحكمته الظاهرة أن (خَلَقَ) أنشأ السماوات السبع على سعتها وعظمتها بكافة منظوماتها الشمسية ومجراتها الفلكية، وعلّقها بالفضاء الواسع على ارتفاع هائل بغير أعمدة ودعائم مرئية تستند عليها ولا محاور تدور عليها، لا تراها الأبصار، وإنما تعرفها البصائر وتعلم بها العقول المفكرة، وهي أعمدة القدرة الإلهية التي ليس

لها حدود ولا قيود، كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) فاطر/٤١، وعدم الرؤية ليست دليلاً على عدم الوجود، عن الإمام الرضا (ع) (ثُمَّ (أَيُّ هُنَاكَ) أَعَمَدَةٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا) البرهان ٢ص ٢٧٨ (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) وألقى: إلقاء الرواسي نزولها من أعلى وأخذها مكاناً مناسباً من الأرض، رواسي: جبال شوامخ ثوابت، تميد: تميل وتضطرب وتهتز ويختل توازنها المعنى: وألقى في الأرض جبالاً رواسخ ثوابت لتتحفظ الكرة الأرضية من الاختلال في حركتها، جعلها الله في أماكن دون أماكن لتتوازن حركة الأرض، وهناك ثلاثة أرباع الكرة الأرضية مياه، وهناك اختلاف في أوزان المياه والجبال، إنها قدرة الله تعالى كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١. حتى يعبدوهم من دون الله؟ ولو خلق الله تعالى تراب الأرض من الرمل، والرمل ينتقل بالرياح من موضع إلى موضع، ولا يصلح للزراعة وهو خفيف لا يوازن حركة الأرض، هذه هي الحكمة لإرساء الجبال التي تصد العواصف وتحمي من الطوفان.. (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) وخلق في الأرض (مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) وانتشر فيها من كل ما يتحرك ويدب عليها من أنواع الحيوانات الحية مختلفة الأشكال والألوان، وفيها إشارة إلى التنوع العجيب للكائنات الحية وهذه الكائنات مسخرة لمصلحة بني آدم ومنفعته، وفي كل مخلوق له آية دالة على وجود خالق ومدبر لهذا الكون.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) عذباً كثيراً الخير والبركة لا تحصى منافعه كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الانبياء/٣٠، فأنبث به أنواع النباتات (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) صنف (كَرِيمٍ) كريم في عطايها ومنافعه وفلسفة وجوده، (كَرِيمٍ) أي شريف طيب جميل كثير الفوائد وبديع الخلق والتصوير وجميل التكوين.

فائدة: ١- النص القرآني يقرر أن الله أنبت النباتات أزواجاً، ضمن (قانون الزوجية العام) (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) كما يتزوج الناس والحيوانات، وقانون الزوجية العام للعاقل وغير العاقل، حقيقة ضخمة أهدت إليها العلم الحديث قريباً والقرآن ذكرها بقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩، فكلُّ نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث إما مجتمعة في زهرة واحدة أو في زهرتين في العود الواحد، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين، ولا توجد الثمرة إلا بعد الالتقاء والتلقيح بين زوج النبات، كما هو الشأن في تزواج الإنسان والحيوان على سواء. في ظلال القرآن ٦ ص ٤٨٢، ولكن أكثر الناس يعمرون بهذه العجائب وكأنهم لا يرون، بينما يقضون مدهولين أمام جهاز الكهروني صغير من صنع الإنسان، لا يقاس بخلية واحدة من الخلايا الحية وعملها الدقيق المنظم في جسم الكائن الحي، ٢- (بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوِنَهَا) كل سقف لا بد له من مستندات يستند عليها، وكلما كبر السقف كبر المستند وكثرت الأعمدة، وهل توجد أعظم من السماوات؟ ولكن الله خلقها ورفعها بغير عمد ترونها، وهي دليل قاطع على قدرة الله تعالى التي فوق الوصف.

تُحَرِّكُ هذه الآية المشاعر البشرية، وتحث على التفكّر في عجائب (خَلْقُ اللَّهِ) في كل مكان، وكل مخلوقة عجيبة لها عالمها الخاص بها، ولها خصائصها التي تتجمل بها كقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) الأنعام/٣٨، يتحدّى القرآن الكريم الملحدّين بهذا الخلق المتنوّع المنظّم العجيب في السماء والأرض، وكل ما في الكون يشهد لله على قدرته ووحدانيته كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الأنبياء/٢٢، المعنى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ) هذا ما خلق الله وحده لا شريك له، من عجائب مخلوقاته التي تشاهدونها في هذا الكون الفسيح، فانظروا وتفكّروا في آثار قدرته في مخلوقاته في السماوات والأرضين المتقنة الصنع (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨ (فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) فأروني ماذا خلق الذين تعبدونهم وتخضعون لهم من دون الله؟ حتى استحقوا أن تعبدوهم وتطيعوهم من دون الله، كما استحق ذلك عليكم خالقتكم، وهو سؤال على جهة التهكّم والسخرية بهم وبما يعبدون، ولكن عبادتكم إيّاهما من غير علم وبدون بصيرة وتفكّر، بل عن جهل وضلال وهوى واتباع أعمى، فلا يقدرّون على مشاهدة شيء، ثبت بذلك وحدانية الله تعالى في إلهيته وربوبيته (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) بل الظالمون المشركون في خسران ظاهر وضلال بعيد واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله، لأنهم وضعوا عبادتكم وطاعتهم في موضع فاسد، ولوثوا فطرتهم السليمة، فعبدوا وخضعوا لمخلوق محدود ناقص، والذي يعبد الناقص هو الناقص، والذي يرضى لنفسه النقص يعيش التخلف العقلي والاضلال الواضح، وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، فهم عبدوا الناقص.

(مهما كان نوعه) والمعبود لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يجد الظالمون المشركون لهذا السؤال جواباً! لأن المشركين بالله في متاهات بعيدة عن الحق، وأي ضلال وأي ظلم بعد هذا الشرك، في هذا المعرض الكوني الباهر؟.

١٢ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾

يخبر الله تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان الحكيم.

فقال: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) أي والله لقد وهبنا لقمان الحكمة: وهي العلم السديد بالله وصفاته، والعقل الواعي الرشيد الرصين والفتنة والفهم الصحيح المتقن للأمر والأحداث، سواء أكان في القول أو العمل أو في التصوّرات، وأصل الحكمة وضع الشيء في موضعه، وهي المعرفة العلمية والرأي السديد المصيب للحق، والحكمة معرفة فلسفة الحياة بالغة النفع في أمور الدنيا والآخرة، والحكيم علمه بالأحكام الشرعية والمواعظ الأخلاقية والحكم النافعة، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، أما الحكمة فهي مستلزمة للعلم النافع وللعمل الصالح، في غرر الحكم (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأُلٍّ ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) والحكمة: موهبة للأولياء كما أن الوحي

موهبة للأنبياء، فتكون الحكمة من المواهب لا من المكاسب، وأصل الحكمة إدراك خطاب الله الحق تعالى (القرآن) بوصف الإلهام، ومن علامات الحكمة: إنزال النفس من الناس منزلتها، وإنزال الناس من النفس منزلتهم، والتحدّث معهم والتأثير بهم على قدر عقولهم، عن الإمام علي (ع) (رَوَّحُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ وَاطْلُبُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّمَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ) روح البيان ٧ ص ٧٤، كان لقمان ذا عقل سديد ناضج، وفكر واسع رشيد راسخ يفيض بالحكم البليغة النافعة، فيلقها في أسمع الناس بكلمات جذابة وتعابير مؤثرة وقصيرة ولها معانٍ قوية وعميقة تحرك المشاعر، لذا تداولتها الأمم والشعوب وتدارستها على مدى الأجيال، وكان الناس (تنظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى مَنْ قال) كما في غرر الحكم، وفي الحديث (لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا كَثِيرَ التَّفَكُّرِ حَسَنُ الْيَقِينِ، أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى فَأَحْبَهُ فَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ) القرطبي ١٤ ص ٥٩، كقوله (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) البقرة/٢٦٩، عن النبي (ص) (كَلِمَةُ الْحِكْمَةِ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ (قصده هدفه رغبته) فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا) البحار ٢ ص ٩٩، في غرر الحكم (لَا حِكْمَةَ إِلَّا بِعِصْمَةٍ) عن النبي (ص) (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ٧٧/١٣٣.

(أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ) أَهْلَتَهُ الْحِكْمَةَ أَنْ يشكر الله على ما أعطاه وتفضّل عليه، ليبارك له فيما أعطاه ويزيده من فضله، وبالشكر تدوم النعم وتُدفع النقم، وفي الشكر تقدير للنعم وللنعم. فشكر الله هو رأس الحكمة، إذ لا يكون الشكر إلا عن إيمان وثيق بالله ورضا بما قسم الله، فكان الشكر لله من أهم صفات الصالحين، والشكر العملي أبلغ من الشكر القولي، في غرر الحكم و(لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ)

كقوله (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) سبأ/١٣ (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) الشكر: الثناء على الله تعالى، والشكر لصانع الجميل لك، ومن شكر التأس، شكر الله، ومن شكر ربه فتواب شكره ونفعه يعود لنفسه لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر، ولا يضره كفر من كفر، ولهذا قال بعده (وَمَنْ كَفَرَ) فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر، والله غني عنه كقوله (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) الروم/٤٤ (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) ومن جحد وكفر بنعمة الله فإلى نفسه أساء لأن الله سيعاقبه على كفرانه إيّاها، والله غني بذاته ومغن غيره (غَنِيٌّ) عن شكره ومستغن عن العباد لأن شكره سبحانه لا يزيد في سلطانه، وكفرانه لا ينقص من ملكه (حَمِيدٌ) وهو المحمود على كل حال، كفر العبد أو شكر، إذ يرجع إليه سبحانه كل حمد وثناء في هذا الكون وهو المستحق للحمد لذاته وصفاته، وهو تعالى في نفسه محمود، سواء شكره الناس بلسانهم أم لم يشكروه، وهو سبحانه يستحق الحمد حمداً أو لم يُحمَد.

فائدة: ١- من وظائف الأنبياء تعليم الكتاب والحكمة (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) الجمعة/٢، فصارت الحكمة بعد أهمية الكتاب السماوي، وفيها الخير الكثير ولا تُعطى بالجمان لكل أحد وإنما هناك مؤهلات لها، عن الإمام الباقر (ع) (مَا أَخْلَصَ عَبْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ) جامع الأخبار/ الصدوق ص٩٤، عن الإمام موسى الكاظم (ع) في تفسير هذه الآية (إِنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ الْفَهْمُ وَالْعَقْلُ) الكافي ٢ ص١٣، وعن الإمام الصادق (ع) من مصاديق الحكمة في تفسير هذه الآية هو معرفة الحكيم (من أوتي معرفة إمام زمانه) نور الثقلين ٤ ص١٩٦، عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً) البحار ٢٣/٧٧، ٢- (يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) ذكر الشكر بصيغة المضارع المستمر، وذكر الكفر (وَمَنْ كَفَرَ) بصيغة الماضي، الذي يصدق حتى على الكفر مرة واحدة، وهذا إشارة إلى أن الكفران ولو مرة واحدة يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة، لأن جذوره ممتدة في داخل النفس، أما الشكر ينبغي أن يكون مستمر لتتكامل مسيرة الإنسان إلى منازل عليا بالتدرج. ٣- من حكمة لقمان لابنه: أَي بُنَيَّ (إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ، قَدْ غَرِقَ فِيهَا نَاسٌ كَثِيرُونَ، فَاجْعَلْ سَفِينَتَكَ فِيهَا التَّقْوَى وَحَشْوُهَا الْإِيمَانُ وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) ومن حكمه: يَا بَنِي (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤَاخِي رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ (خَالَفَهُ) قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَنْصَفَكَ عِنْدَ غَضَبِهِ (أَوْ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ) فَأَخِيهِ وَإِلَّا فَاحْذَرُهُ). فَأَخِيهِ: أَي اتَّخَذَهُ أَخًا وَصَدِيقًا.

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

واذكر أيها الرسول الكريم لقومك مواعظ ونصائح لقمان الحكيم لابنه وهو أشفق الناس عليه (وَهُوَ يَعِظُهُ) يعلمه ويؤدبه ويذكره ويرشده، والوعظ: معنى إرشادي أخلاقي عام، وهو الأمر والنهي المقرونين بالترغيب والترهيب، معنى يعظه: العظة التذكير بالخير مما يرق له القلب، وتدخل المواعظ إلى المشاعر بلا استئذان لتفاعل الفكر معها، وبدأ بالتحذير من الشرك (يَا بُنَيَّ) والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة عن كل ظنة ويراد منها الخير والعلم والصلاح. (لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) لا تعدل بالله شيئاً، ولا تجعل معه شريكاً، أي تجعل له عدلاً ونداً وبديلاً، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر في العبادة والخضوع والطاعة كقوله (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف/١١٠ (لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) بأي شكل من أشكال الشرك، والشرك: له معنى واسع وهو الطاعة العمياء لغير الله واتباع الهوى كقوله (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) الجاثية/٢٣، لا تشرك في العبادة ولا تشرك في الطاعة ولا في الدعاء، لا تشرك بالله لا شركاً جلياً ولا شركاً خفياً، والنهي عن الشرك بمعنى الدعوة إلى التوحيد الخالص، (التوحيد في العبادة، والتوحيد في المعاملة) وجعله أول نصيحة في صورة موعظة بالغة الأهمية، والتوحيد قمة الكمال ونضوج العقل وسعادة النفس وأساس كل خير، والتوحيد يشمل كل المجالات العامة والأبعاد الحضارية التي تنهض بالروح والجسد للفرد والمجتمع،

وكل حركة إرهابية هدامة تنبع من الشرك حتى لو كان شعارها الإعلامي الظاهري المرفوع هو التوحيد، كحركة داعش الوهابية الإرهابية الإجرامية المعاصرة التي تسمى:

(الدولة الإسلامية في العراق والشام) التي رفعت شعار التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) باسم الإسلام (لتشويه الإسلام) التوحيدي الخالص، وادّعوا (ظلماً وعدواناً) بتأسيس دولة الخلافة الإسلامية الراشدة المزعومة، ولكنها جاءت ترهب الناس وتقتلهم وتسرق أموالهم وتغتصب نساءهم. عدم الشرك بالله دعوة إلى توحيد الله وهو الأصل الثابت والأهم في كل دين سماوي صحيح، لأن الإيمان بالتوحيد الخالص يجعل الناس كلهم سواء في الحقوق والواجبات كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣، النهي عن الشرك كله سواء أكان الشرك في عبادة الأهواء أو عبادة القادة والزعماء أو الشرك في الأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية أو الأصنام الفكرية أو الاصنام المالية، كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦ (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) إن الشرك قبيح في ذاته، وقبيح في ممارسته، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء في غير موضعه المناسب، ويكون نداءً لله تعالى وتصغير له وبدلاً عنه كقوله (لَئِنِ اشْرَكْتَّ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الزمر/٦٥، فمن سَوَّى بين الخالق المالك للأمر كله والمخلوق الذي لا يملك من الأمر شيء، ومن سَوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه.. إلخ فهو أحق الناس وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة، ويليق به أن يوصف بالظلم العظيم لنفسه ولغيره، فهل أعظم من هذا الظلم شيئاً؟! وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده ولكنه ذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أحسن المراتب، فظلم نفسه ظلماً كبيراً؟! كقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) الكهف/٥٧، وقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) النساء/٤٨ سُئِلَ الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ وَأَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٩٧ كقوله (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) النساء/١١٦.

فائدة: ١- عن ابن مسعود: لما نزل قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) الأنعام/٨٢، شق ذلك على أصحاب رسول الله (ص) وقالوا: أئنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال (ص) إنه ليس بذلك، الا تسمعون قول لقمان (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، والشرك آفة الدين، وفساد التوحيد، وكان الشرك ظلماً عظيماً لأنه يُصَغِّرُ عظمة الخالق، ويخس حقه، ويُعْظِمُ دور المخلوق المحدود ويغالي فيه ويدعو إليه، ويعطيه صفات الله عزوجل كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦، ٢- أصل الظلم النقصان والحرمان والاعتداء ومنع الواجب، فمن أشرك بالله فقد منع ما أوجب الله عليه من معرفة التوحيد فكان ظالماً لنفسه ومعتدياً على غيره، مجمع البيان ص ٥٣.

١٤ - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَالُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

وتستمر وصايا لقمان الحكيم لابنه إلى الآية ١٩ في أسلوب رقيق دقيق لين مؤثر، المعنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) ووصينا الإنسان - كل إنسان - أي عهدنا إليه وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بما هل حفظها أن ضيَّعها ونحاسبه عليها، ووصيناه حين التكوين ومنذ التشريع بوالديه، أي أمرناه بطاعتها وشكرهما وبرهما والإحسان إليهما على كل حال، لأن عصيانهما عقوق وتجاوز وتعدي عليهما، وعقوق الوالدين من الذنوب الكبيرة، وأكد القرآن على برِّ الوالدين كقوله (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الإسراء/٢٣، وقضى ربك: أمر ربك أمراً حكيماً قاطعاً لا جدال فيه، وخصص والدته بالبر لذلك ذكر معاناتها (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) هذه صورة حقيقية لها إيجاءاتها في بذل الجهود النبيلة، فقد حملته أمه جنيماً في بطنها (وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) أي ضعفاً على ضعف من حين الحمل إلى الولادة، ومشقة على مشقة وجهداً على جهد، والجنين يتغذى من جسمها ويأخذ من فيتاميناتها، فلا تزال تلاقي المشاق من حين يكون نطفة، فتعاني من الوحام والمرض والضعف والثقل ثم الوجع الشديد للمخاض والولادة، لذلك كان برُّ الأم ألزم وأولى من برِّ الأب، سأل أحد الصحابة رسول الله (ص) من أبرِّ، فقال: برُّ أمك ثم أمك ثم أمك ثم برُّ أبائك. ومن رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (ع) (وَأَمَّا حَقُّ أُمَّكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْتَمِلُ أَحَدٌ أَحَدًا، وَأَطْعَمَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا مَا لَا يُطْعِمُ أَحَدٌ أَحَدًا، وَلَمْ تَبَالِ أَنْ تَجُوعَ وَتَطْعَمُكَ وَتَعْطَشُ وَتُسْقِيكَ، وَتَعْرِى وَتَكْسُوكَ وَتَصْحَى وَتُنْطَلِكُ وَتَهْجُرُ التَّوْمَ لِأَجْلِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَطِيقُ شُكْرَهَا إِلَّا بَعُونَ اللَّهِ، أَمَّا حَقُّ أَبِيكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَصْلُكَ، فَإِنَّكَ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْمَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا يُعْجِبُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ).

الميزان ١٦ ص ٢١٩.

(وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) وفصاله أي فطامه من الرضاع بعد عامين، وهما مدة الرضاعة الكاملة، وكل ذلك تبذل جهود كثيرة في رعايته وتكاليفه كقوله (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ) البقرة/٢٣٣. قال الفقهاء: أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن قوله تعالى (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) الأحقاف/١٥ وقوله (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) فيكون ٣٠ شهراً - ٢٤ شهراً = ٦ أشهر أقل مدة حمل. أما قوله (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) الطلاق/٦، فإن أرضعن أولادهن فلهن الحق في أن يأخذن أجره على ذلك لمدة عامين، أما في ظروفنا المعاصرة تتوزع الحقوق والواجبات بين الزوجين بالتراضي، وتكون بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف نبيل مشترك. (أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)

وصيناه أن يشكر الله تعالى على إيجاده ليطيعه بإخلاص، ويشكر والديه على تربيته والعناية به، شكراً عملياً بالإحسان إليهما بالكلام اللطيف والأسلوب اللين، والصبر الجميل معهما والتواضع لهما وإكرامهما والقيام بمسؤوليتهما وعدم الإساءة لهما بقول أو فعل، والشكر له مكانة سامية في

النفوس وفي ميزان الله تعالى، وقرن شكرهما بشكره سبحانه، إنه اقتران عميق له مغزاه، فشكر الله سبحانه بالحمد والطاعة، وشكر الوالدين بالبر والصلة والخدمة، وقدم شكر الله تعالى على شكرهما، لأنه من لم يشكر الله لم يشكر الوالدين، فجعل شكر الوالدين شرطاً في صحة شكر الله تعالى، عن الإمام الرضا (ع) (وَأَمَرْنَا بِالشُّكْرِ لَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ) الصافي ٤ ص ١٤٣، عن النبي (ص) (لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) روح البيان ٦/١٢٩ (إِلَى الْمَصِيرِ) ثم ربط سبحانه هذه الحقيقة بالمصير الأبدي المحتوم حيث ينفع رصيد الشكر المذكور، فأجازيكم على حسب أعمالكم، ونلاحظ قرن عبادته سبحانه (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) بالإحسان بالوالدين معاً (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) لأن الإحسان بالوالدين عبادة ومن سبل القرى إلى الله. فائدة:

١- وتكرر في القرآن الكريم توصية الولد بالوالدين، ولم ترد وصية الوالدين بالولد إلا قليلاً لحرص الوالدين بأولادهما بدافع الفطرة والحبّ والعاطفة (ولا توصي حريص) عن الإمام علي (ع) (لَا تَقْسِرُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى آدَابِكُمْ (أَعْرَافِكُمْ، عَادَاتِكُمْ، تَقَالِيدِكُمْ) فَإِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لَزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ) قال (آدَابِكُمْ) ولم يقل (على عقيدتكم) لأن العقيدة الإسلامية ثابتة، و(آدَابِكُمْ) متغيرة حسب الزمان والمكان والأعراف.

١٥- ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي) وإن جاهدك: أي بذلا جهدهما وألحا عليك ليغريك على الكفر والشرك بي والعصيان لي بطاعة معبود آخر، فلا تكون عواطف الأولاد وطريق العصيان حاکمة على أصول عقيدتك الدينية الصحيحة الثابتة، لأنه قد يظن الأبوان أحياناً فيسعيان إلى كسبه إلى عقيدتهما الفاسدة وهما يحسبان أنهما يحسنان صنعا (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) لا دليل ولا حجة لك به ولا علم لك بأهليته ليكون معبوداً، وأما هو تقليد بليد واتباع أعمى لهما، لأن ما يكون حقاً معروف صحته ورجاحته، وما هو مجهول صحته ولا دليل فيه فهو باطل، فكأنه قال: فإن دعواك إلى باطل أو إلى شيء مجهول لا حجة فيه (فَلَا تُطِعْهُمَا) ومأمور بمخالفتهم، عن النبي (ص) (لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ) البحار ٧٨/٣٦٦، وأن حق الله مقدم على حق كل أحد، والاختلاف في العقيدة لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحة الكريمة. ومن الجدير ذكره: لم يقل (فَعَمَّهُمَا) وإنما قال (فَلَا تُطِعْهُمَا) في الشرك والمعاصي فقط، وأما برّهما فاستمر عليه وقد أكدته (وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) واكتف بأن تصاحبهما في الأمور الدنيوية والمعيشية مصاحبة حسنة مرنة محمودة كريمة، معاشرة يرتضيها الدين والضمير الإنساني. في رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة ولو كانا مشركين! لأن كفرهما بالله جانب عقائدي خاطئ، وهذا لا يستدعي ضياع جهدهما ومتاعبهما في تربية الولد،

ولا يجوز التنكّر لعمل الجميل (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) واتبع طريق من (أَنَابَ) أي رجع إلى الله بالإخلاص والطاعة والعمل الصالح وصار من المؤمنين الصادقين، من دعاء الإمام زين العابدين (ع)

(اللَّهُمَّ أَحْفَنِي بِصَالِحِ مَنْ مَضَى وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحِ مَنْ بَقِيَ وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ) (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) ثم ترجعون أيها الناس إلى الله يوم القيامة ليحكم بينكم بالحق (فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فأظهر لكم صحائف أعمالكم وأقوالكم، وهي محفوظة على شكل شريط مُسَجَّلٍ مجسّم ذي ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية، وأحاسيسكم عليها بدقة على قدر استحقاقكم، كقوله (إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) الإسراء/٢٣، فائدة: ١- قوله (فِي الدُّنْيَا) إشارة إلى تهوين أمر صحبتها مع الخلاف معها، فلا يصعب تحمّل مشقتها، ومعنى (مَعْرُوفًا) المعروف ههنا أن يُعْرَفَها أين الخلل والشُّبُهَة عندهما في فهم دين الله، ويعالج لهما الشُّبُهَات ويُشَحِّصُ لهما مكان الخطأ بكامل الأدب، عند جهالتهما بدين الله القيم، والمعروف: ما يستحسنه الشرع والفتوة السليمة، والمنكر ما ينكره الشرع وتنتهي عنه الفتوة السليمة، عن الإمام الرضا (ع) (بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَاجِبٌ وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ)، ٢- (قصة) عندما أسلم سعد بن أبي وقاص، قالت له أمه وكان باراً بها: ياسعد إن لم تترك دينك فأني سأمتنع عن الأكل والشرب حتى أموت، ويقول الناس عنك ياقاتل أمه، فقال لها لا تفعلني يا أمي، فأني ما تركت ديني أبداً مهما كانت الأسباب، فلما رأت إصراره، أكلت!

١٦ - ﴿ يَا بَنِي إِهْرَاءَ إِنَّ تِلْكَ مُثْقَلَةٌ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ

مثقّل حبة: وزن حبة، وهو كناية بلاغية تشبيهية دقيقة عن أقل ما يوزن به الشيء من ذهب وغيره، (مِنْ خَرْدَلٍ) نبات الخردل له حبات سوداء صغيرة جداً. يضرب المثل بصغرها ولا تمسك باليد وكأنها لا وزن لها ولا قيمة ولا ثمن، إن الكيلو غرام الواحد من الخردل يبلغ ٩١٣ ألف حبة من خردل، وعليه تكون حبة الخردل جزءاً من ألف من الجرام، فهي أصغر وزن لحب النبات، وهذا بيان عن قدرة الله تعالى المطلقة، وعن علمه سبحانه الذي لا يغيب عنه شيء ظاهر ولا باطن ولا غائب مهما صغر وخفي من أعمال العباد، وفي ذلك حث على مراقبة الله وقربه وهيبته مقامه والالتزام بمنهجه، المعنى: (يَا بَنِي إِهْرَاءَ) ضمير (إِنَّهَا) يعود على الفعل الصّغِير من الحسنات والسيئات السريّة والعلنية من أعمال الإنسان، وأن علمه سبحانه يلاحقها وقدرته تبلغها وتحصيها، تقرر الآية الكريمة حقيقة الآخرة بتعبير مُجَسَّم رقيق ودقيق وعميق الإيقاع على الضمائر والمشاعر والحواس، ولها تأثير كبير يرتعش له كيان الإنسان ووجدانه، والتعبير البلاغي يطالع علم الله الشامل

الهائل اللطيف الدقيق، الكاشف للخفايا والأسرار، (يَا بُنَيَّ) إن الله لا يفلت من حسابه شيء صغير (إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) إن تك وزن حبة صغيرة جداً وخفيفة من خردل، فتكن هذه الحبة من الخردل الصغيرة جداً في أخفى مكان بجوف صخرة صماء، (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)

أو في أعلى مكان كالسماوات العليا الشاسعة الواسعة، أو في أسفل مكان من باطن الأرض السفلى، ضائعة في أراضيها لا تظهر، ولكن علم الله يلاحقها وقدرته لا تفلتها! (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) يحضرها الله يوم القيامة ويجازي عليها بقدر الاستحقاق، وبذلك يخشع القلب السليم وينيب إلى الله اللطيف الخبير بخفايا الغيوب! وفي ذلك دليل على أن أعمال الإنسان كلها صغيرها وكبيرها، في سرها وعلاقتها محفوظة عليه ولا تفتى ولا تضيع، ويجازي الله عليها بدقة كقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) الزلزلة/٧-٨، وذكر السماوات والأرض بعد بيان الصخرة، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، عن الإمام الباقر (ع) (اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ) (يعني الذنوب التي لا تبالي بها) فَإِنَّهَا لَهَا طَالِبًا، يقول أحدكم أذنب واستغفر إن الله يقول وذكر الآية) الميزان ١٦ ص ٢٢٠. كقوله (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا) آل عمران/١٣٥، عن النبي (ص) (لَا كَبِيرَةٌ مَعَ الْأَسْتَعْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةٌ مَعَ الْإِصْرَارِ) الكافي ٢/٢٨٨، الإصرارُ أَمْرٌ (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْأَقْوَمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩، البحار ٧٨/٢٠٩ (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) لأن الله (لطيفٌ) ينفذ علمه ونور لطفه بنعومة من حيث لا تشعر، في أعماق الأشياء ويصل إلى كل الخفايا والأسرار (خبيرٌ) يعلم كنه الموجودات كلها وتمكّن منها وقادر عليها، ويعلم بموقعها ومستقرها ومستودعها، ويعلم كيف يستخرجها من خفاياها السرية المستورة كقوله (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩، وفي هذا تنبيه للعاصين أن يفيقوا ويرجعوا إلى رشدهم واستقامتهم قبل فوات الأوان.

١٧ - ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

بعد أن كشف لقمان لابنه عن قدرة الله تعالى، دعاه إلى عبادته بإخلاص فتكون العبادة على قدر الإيمان والوعي والعلم، وتكون الصلاة على قدر الصلة بالله، فبمقدار الانفصال عن مطالب الدنيا يكون الاتصال مباشر بالله تعالى، صلاة يخشع لها القلب وتسكن النفس والمشاعر وتكون الصلاة قربان كل تقي، عن الإمام علي (ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ (دَقِيقٌ) فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) البحار ٨٤/٢٦٤. (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ) حافظ على الصلاة في أوقاتها وبكامل شروطها بخشوعها وآدابها، وأقمها في أوقات فضيلتها تامة الأجزاء والأركان. وَحَصَّهَا بِالذِّكْرِ لَأَنَّهَا أَمُّ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَذَكَّرُ بِاللَّهِ وَتَنْزَهُكَ عَنْ الْكِبَرِ، وهي أقوى علاقة وصلة مع الخالق، وهي عمود الدين في كل دين سماوي، والصلاة صلة معنوية بين العبد وربّه، وأن تعبد الله كما يريد لا كما تريد، الذي يراك ولا تراه، وتؤمن به

بالبصيرة النافذة، أقوى من إيمانك به بالبصر المادي المحدود، وهي أفضل زاد ليوم المعاد، ولا تُفَضَّلَ أي عمل على إقامة صلاتك المفروضة، فقل للعمل عندي صلاة، ولا تقل للصلاة عندي عمل، والصلاة الصحيحة تُنَوِّرُ القلب وتَصْفِي الروح، وتعصمك من الزلل وتسددك في القول والعمل كقوله (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) العنكبوت/٥٤ (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) المعروف: ما استحسنته الشرع وشجع عليه العقل والفطرة السليمة، أي وأمر بطاعة الله والالتزام بمنهجه، وأمر الناس بكل خير وفضيلة للتهذيب وتركية أنفسهم من عيوبها قدر استطاعتهم، (وَأْمُرْ) والأمر يستدعي التمكّن بالقدرة العلميّة وبالقوة الأمنيّة! وهو أهم دستور دفاعي يعصم المجتمع من الرذائل وينهض به حضارياً وأخلاقياً (وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ) وأنه عن معصية الله وعن كل قبيح وجميع ما لا يليق، وذلك الأمر يستلزم العلم بشروط المعروف ليأمر به والعلم بشروط المنكر لينهى عنه، ومن أمر بالمعروف شدّ عزيمة المؤمنين وأرغم أنوف المنافقين، في في نصح البلاغة خطبة ١٢٩ (لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ ، وَالنَّاهِيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ) (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) وأن يصبر صبراً جميلاً ولا يضجر، فإن الصبر حبس النفس وتهذيب رغبتها عما ينهى عنه الشرع والعقل السليم، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبَ) والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد كقوله (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) البقرة/٤٥ (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) من الضر والأذى والبلايا والمصائب والشدائد بشكل عام، واصبر على مكاره الدنيا من الأمراض والخسارة في التجارة وعقوق الأولاد.. وغيرها، واصبر في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحديث:

(إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تَقَامُ الْفَرَائِضُ) الكافي/٥٥ص٥٥ (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) صحيح إن الصبر صعب، ومما يخفف صعوبته أنك تقطف ثمرته الحلوة وهي (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (إِنَّ ذَلِكَ) الصبر الجميل من التصميم الجليل المدروس الصحيح على إنجاز الفعل الحسن (إِنَّ ذَلِكَ) من الأمور التي يجب الثبات عليها بعزيمة وإرادة واعية وبدون ضعف وكسل وفشل وجهل (إِنَّ ذَلِكَ) مما أمر الله به من الصبر المناسب كما فيه من مصلحة لك (إِنَّ ذَلِكَ) الصبر الجميل المناسب في مكانه المناسب، وزمانه المناسب، وظروفه المناسبة (مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أي لا يوفق لها إلا أهل العزائم المادية والمعنوية، أي سوف يعطيك عزماً وقوة وإرادة ووعياً فلا تحقق في الأمر، وتضعف ولا تقع في الخطأ أو في الزلل أو في الاشتباه، ويكون لك عزم وقوة ومملكة وقدرة وخبرة وإمكانية على تلافي صعوبات الأمر، وتتمكن من تجاوز أمثاله، وقيمة كل امرئ على قدر خبرته، ومقدار تجربته وعلمه. كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ مَعَالِيَ الْأُمُورِ).

فائدة: ١- (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ليكون قانوناً علمياً عملياً فعلاً مؤثراً، ومن المفروضات التي لا تقبل المساومة والتنازل والتسامح، وهذا التصميم عامل حضاري مساعد لتقدم الفرد وتطور المجتمع، ولن يرتفع الإنسان عن مستوى تراب الأرض وجاذبية حب الدنيا إلا إذا حَلَقَ بجناحين (جناح الايمان وجناح الصبر) كقوله (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦، (مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) والعزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر المطلوب، وعزم الأمور: لا يشوبه شبهة ولا شك ولا يدفعه رغبة، ومن دعاء النبي (ص) (أَسْأَلُكَ عَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ) أي أسألك أن توقفني للأعمال الصالحة التي تغفر لصاحبها لقبولها لا محالة، (عَزْمِ الْأُمُورِ) العزم: القوة الإرادية الواعية النافذة الصلبة التي تتقدم على الفعل (فإذا استوضحت فاعزم) كقوله (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران/١٥٩ (لَا خَيْرَ فِي عَزْمٍ بِغَيْرِ حَزْمٍ) ولا خير في تخطيط بدون تنفيذ، ولا خير في علم بدون تطبيق (عَزْمِ الْأُمُورِ) من الأمور المهمة التي يجب الثبات والدوام عليها باستمرار لتكون طبيعة وسليقة وعادة حتى تقطع الطريق على حالة التردد بعد العزم الصحيح، فإن حالة التلون في الأمر والتقلب والتذبذب والتردد وازدواج الشخصية فإنها صفات ضعف تناقض العزم والحزم وتحالف التصميم وتعارض قوة الشخصية، ٢- (عَزْمِ الْأُمُورِ) يقابله الحيرة في الأمر، وهنا يظهر مبدأ الحيرة لله تعالى، فالخيرة عند الحيرة، ولا تجوز الحيرة والاستخارة في حالة العزم والحزم، ولا يجوز تعطيل العقل والتفكير والاعتماد على الحيرة، قال النبي (ص) (يا علي ما حار من استخار، ولا ندم من استشار) البحار ٢٢٥/٩١.

١٨- ﴿وَأَتَصَعَّرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَأَكْتَمَشَ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

تحكي الآية أدب الداعية إلى الله، وحُلق المبلغ لله تعالى في التربية وتعليم الناس، فالدعوة إلى دين الله تستوجب التواضع ومعرفة خبرة التأثير بالناس، (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) ولا تمل خدك أي لا تتعالى بوجهك ونظراتك على الناس تكبراً عليهم وقلة مبالاة بهم وإعجاباً بنفسك، فهو لا يبالي بالناس، والناس لا يباليون به أيضاً، وأصل الصعر: داء يصيب البعير فيلوي عنقه، والصعر، مرض نفسي وأخلاقي وسوء في التفكير والتشخيص، أي أقبل على الناس بكامل وجهك عند السلام والكلام واللقاء تواضعاً، ولا تُحوّل وجهك عنهم استصغاراً بهم أو تتعالى وتُعيسُ بوجهك تعاضماً عليهم، أي أنظر إلى وجه المخاطب نظرة إنسانية متواضعة، وليكن الغني والفقير عندك على السواء في حسن المعاملة، عن الإمام الصادق (ع) (وَلَا تُعْرِضْ عَمَّنْ يُكَلِّمُكَ أَسْتَحْفَافاً بِهِ) وفي نهج البلاغة (لَا وَحْدَةً أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ وَلَا حَسَبٌ كَالْتَوَاضُعِ)، في الحديث (مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) المراغي ٢١ص١٦ (وَلَا تَمَشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) المرح: هو الفرح الشديد مع الغرور والبطر وقلة مبالاة بالناس، والإعجاب بالنفس الناشيء من بطر النعمة (الترف)، تلك مشية الجبارين كقوله (وَلَا تَمَشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ

الْجِبَالِ طُولًا) الإسراء/٣٧ وقوله (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) الفرقان/٦٣، وفي الحديث (مَنْ مَشَى عَلَى الْأَرْضِ احْتِيَالًا، لَعَنَتْهُ الْأَرْضُ وَمَنْ تَحْتَهَا وَمَنْ فَوْقَهَا) تفسير النور٧ص٢٣٤، ولا تمشي في الأرض متبخترًا متكبرًا، مشية من أشد فرحه وبطره وخيلاؤه، منشأ التكبر عند الإنسان هو شعوره النفسي بالنقص.

وَمَثَلُ الْمُتَكَبِّرِ: كالذي يصعد في مكان عالٍ فيرى الناس صغاراً وهم يرونه أصغر، والكبرياء مفتاح لكل رذيلة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ أَي يكره (كُلُّ مُخْتَالٍ) من الخيلاء أي يظهر تكبراً على الآخرين بأفعاله وأقواله ومشيه ويرى العظمة لنفسه (فَخُورٍ) يفتخر على غيره، معجب بنفسه يمدح أعماله، الفرق بين المختال والفخور: (مُخْتَالٍ) إشارة إلى أمراضه النفسية (الداخلية) وتحتيالاته الذهنية في الكبر والعظمة، أما (فَخُورٍ) تشير إلى أعمال وحركات التكبر الخارجية المحيطة به والمؤثرة عليه، وأن الصفتين الرذيلتين تقطعان الروابط الاجتماعية وتزرعان الأمراض الخلقية بينهم. فائدة: يختار الأسلوب القرآني هذا التعبير المؤثر للتنفير من الكبرياء، ومن كل حركة مشابهة للتعصّب والاستعلاء، إنه تعبير يعكس عن شعور مريض بتضخم الذات وشعور بالنقص في أعماق النفس، فينعكس عليه فيتنفس الكبرياء ويتعامل في استعلاء، فلا تحطم نفسك بغورها والشموخ بما فوق قدرها، في غرر الحكم (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَلمَّ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) ولا تهو بنفسك إلى حالة الدُّل والهوان، فلا ينبغي للمؤمن أن يُدَلَّ نفسه، عن الإمام علي الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨، لما نهاه الله عن الخُلُقِ الذميمة، أمره بالخُلُقِ الكريم فقال:

١٩ - ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾

هذه شذرات من مواعظ لقمان الحكيم حكاها الله تعالى، فإنها وإن كان الخطاب فيها لولده لكنها تفيد الناس أجمعين وتكون لهم أسوة حسنة، المعنى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) قصد: هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف وصد الإفراط والتفريط، وهو توسّط واعتدال في مشيك بين السرعة المفرطة والبطء المتنبّط للإرادة، وامش وقوراً محترماً متواضعاً بلا تكلف، والاعتدال مطلوب في كل الأحوال، لا مشي البطر والتكبر والخيلاء، ولا مشي المريض الضعيف، في الحديث (سَرْعَةُ الْمَشِيِّ تَذْهَبُ بِهَاءِ الْمُؤْمِنِ) (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) وأخفض من صوتك ولا ترفعه متطاولاً به في الدعاء مع الله أدباً معه، وفي الحديث مع الناس (أَدْباً مَعَهُمْ)، إنه الاعتدال الموزون المؤدّب في الأقوال والأفعال، وفي التفكّر والتدبير والتقدير. والغضّ من الصوت في مكانه المناسب ووقته المناسب، أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوة تأثيره كقوله (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) الأعراف/٢٠٥، وما يغلظ في الخطاب ويرفع الحديث ويجهر بالكلام في غير موضعه، إلا سيء الأدب مع المخاطب ومع السامع وخروج على المألوف، أو يكون شاكاً في

قيمة قوله أو قيمة شخصه فيحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والحشونة! (مَنْ زَادَ عَنْ حَدِّهِ انْقَلَبَ إِلَى ضِدِّهِ) لأن التعمد على التحدث بصوت عالٍ فيألف الصوت العال ويتطبع عليه، والذي يألف ويتطبع على الصوت العال يتطبع بالطبع الحسن، والطبع الحسن لا يألفه الناس، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) إذا لم تغضض من صوتك وترفعه عالياً في ظروف غير مناسبة، يكون نشازاً وغريباً ومستنكراً عن العرف العام، ذلك لا يليق بالإنسان العاقل الفاضل الذي يحترم نفسه، وإذا لم يمتثل بهذه الآداب الاجتماعية النبيلة ورفع صوته كان ممثلاً لصوت الحمير المنكر الغريب الموحش المكروه القبيح. والتشبيه بصوت الحمير المرتفع يقتضي أن يكون رفع الصوت (الصياح) في ظروف غير مناسبة مذموماً مكروهاً ونشازاً مزعجاً.

فائدة: (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) الأسلوب القرآني البليغ يستحقر هذا الفعل ويستقبحه في صورة مُنْفَرَةٍ مُحْتَقَرَةٍ بشعة، وفيه إشارة: إلى أن رفع الصوت - كل صوت - أكثر من الحاجة إليه يدل على البلادة والرعونة، ومثله إخفاء الصوت أقل من الحاجة إليه فإنه مُخَلِّجٌ للأدب أيضاً، ومن اعتدل في صوته فقد استقام وأحسن الكلام والاحترام والتأثير، في غرر الحكم (أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا زَانَهُ حُسْنُ النَّظَامِ، وَفَهْمُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ) (قُلْ خَيْرًا أَوْ أَصْمِتْ) كان لقمان الحكيم يسمع كثيراً ويتكلم قليلاً عند الحاجة، فإذا تكلم جاءت كلمته في موضعها المناسب، كالدرة بين الحصى.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَكَأَهِدَىٰ وَإِلَىٰ كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

(أَلَمْ تَرَوْا) ألم تعلموا، ألم تشاهدوا بأبصاركم وقلوبكم - أيها الناس - أن الله العظيم (سَخَّرَ لَكُمْ) ومكنكم وسهّل لكم (مَا فِي السَّمَاوَاتِ) العليا من شعاع الشمس ونور القمر ودلائل النجوم وغيرها لتنتفعوا بها كقوله (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) النحل/١٦، والتسخير: سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً (وَمَا فِي الْأَرْضِ) من جبال وأنهار وبحار وطاقات ومواهب ما لا تحصى، وحيوانات ونباتات وثمار وأنواع المعادن والنفط والغاز.. وغيرها، وجعلها أسباباً لمنافعكم، وجعلكم خلفاء الله على أرضه كقوله (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) إبراهيم/٣٤، وتسخير الموجودات لها معنى واسع، فإن كل الكائنات مسخرة بأذن الله لنفع البشر، ولكن ليس معنى هذا أن يكون بكل ما فيه مسخّر للإنسان، لأن الكشوف الفلكية الحاسمة قضت على هذا الاعتقاد، فهناك مجرّات وكواكب وكائنات علوية وسفلية لا يعرف الإنسان عنها شيئاً (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) وأسبغ: وأوسع وأتم عليكم نعمه الكثيرة - أيها الناس - فلا ينقصكم شيء كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الزمر/٣٦، (نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) على سعة معناها

وفخامة آفاقهما، سواء منها نعم (ظَاهِرَةً) مادية محسوسة التي تدركها الحواس ويعرفها الإنسان ولا يمكن إنكارها، كالسمع والبصر والعافية والمال والجمال وحسن الحال، ونعم كالقرآن الكريم والدين الحنيف القيم والنبي المصطفى (ص) وغيرها، ونعم (بَاطِنَةً) معنوية مستترة غير مرئية، منها معروفة ومنها غير معروفة وغير محسوسة، كالعقل والفكر والفهم والوعي والعلم والإرادة والدين والخلق والفطرة والمدد الغيبي والاكتشاف العلمي.

ومن النعم المعنوية الباطنة المشاعر والأحاسيس والضمائر، وستر القبيح من الأعمال وغيرها بالنسبة لكل الناس، وكالمقامات المعنوية والمستوى العرفاني الروحي الفاضل عالي المضامين، الذي تناله بالإيمان والعلم والعمل الصالح بالنسبة للمؤمنين، ومن النعم الظاهرة، الثورة الصناعية والألكترونية المتعددة الآفاق، والمخترعات الحديثة كسفينة الفضاء والعقول الألكترونية ووسائل الاتصالات المتنوعة، مع اكتشاف النفط ومشتقاته والأدوية الحديثة.. إلخ، وظيفتكم شكر هذه النعم وشكر المنعم والخضوع له وطاعته، وأن لا يستعان بشيء من هذه النعم على معصية الله تعالى (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ) وفي ظلال وأجواء وإسباغ النعم المادية والمعنوية الكثيرة، وهذه القدرة المدبّرة الحكيمة يظهر الجحود والإنكار والجدال بجهل في الله، ويظهر منحرف الفطرة لا يستجيب لداعي الكون كله من حوله، ويزيد موقفه بشاعة أنه لا يعتمد بجداله على علم، ولا يهتدي بهدى، ولا يستند على قاعدة علمية ولا يعتمد على كتاب منير، ولا يأخذ بدليله وبهداه، فهو يجادل في دين الله في الباطل أي بجهل ليدحض به الحق، ويبدو (الجدال بغير علم) بشعاً قبيحاً تنفر منه الفطرة ويرفضه الضمير البشري الحي ويعارضه العقل الواعي.

(وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ)

هناك نماذج من الناس من يجادل في الله: أي يخاصم في وجوده وفي ذاته وفي توحيده وفي دينه وفي صفاته وأفعاله (بغير علم) بجدال مذموم عقيم فوضوي يضُرُّ ولا ينفع، ويجادل بلا فهم ولا بصيرة ولا أسلوب علمي أخلاقي يستند عليه، وليس لديه حجة عقلية ولا برهان علمي يعتمد عليه، بل يجادل لإظهار نفسه إلى الناس (وَلَا هُدًى) من الله أفاضه عليه بالإلهام والتسديد حتى يقتدى به، ولا هادٍ أو مرشد من سنة النبي أو الوصي مؤيّد أو عقل مُسَدِّد (وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) ولا حتى كتاب سماوي منزل من عند الله (مُنِيرٍ) واضح الدلالة ومنقذ من الضلالة ينير قلبه. بل يجادل بجهل عن تقليد أعمى للآباء وللأعراف الاجتماعية الفاسدة، فالملحد يجادل في وجود الله، والمشرك يجادل في توحيد الله وصفاته، والعلماني يجادل في صلاحية تطبيق الشريعة، والعاصي ومريض القلب يجادل في صعوبة العمل ببعض أحكام دين الله فائدة: ١ - سأل ابن عباس النبي عن النعم الظاهرة والباطنة فقال (ص) (كمصداق) (أما ما ظهر فالإسلام وما سوى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق (وما بطن) فستر مساوي عملك ولم يفضحك به) مجمع البيان ٨ص ٩٧، عن

الإمام الباقر (ع) (كمصداق) (النعمة الظاهرة : النبي (ص) وما جاء به النبي مع معرفة الله، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا) الأمثل ١٣ ص ٥٢، ٢- الفرق بين العلم والهدى والكتاب المنير: (العلم) أنواع الإدراك والفهم التي يدركها ويفهمها الإنسان عن طريق عقله بواسطة التفكير والتدبر، (والهدى) أنواع العلماء والقادة الربانيين العاملين الذين يأخذون بيده إلى سبيل الله ومنهجه (الكتاب المنير) الكتب السماوية الصحيحة التي تملأ القلوب نوراً وإيماناً وعلماً، ٣- (خطورة الاتباع الأعمى) تمنع الآية بشدة من التقليد البليد والاتباع الأعمى! وتفويض أمر الإنسان إلى الغير، كأن هذا الأمر ربطه بعنقه كالقلادة.

المعنى الاصطلاحي للاتباع الأعمى: قبول قول الغير بلا حجة، معتقداً للحقيّة فيه من غير نظر في الدليل، وكأن هذا المتبع بعمى جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه هو مسؤول عنها، فالتقليد الجاهل للعالم العامل الرباني جائر في فروع الدين ولا يجوز في أصول الدين والاعتقادات، ولا يجوز التقليد في فتاوى تعارض كتاب الله (القرآن الكريم) ٤- هناك نعم كثيرة لم يكشفها العلم الحديث، فهو أحاط ببعض العلم، وما يجمله العلماء أكثر مما يعرفونه، فهم يجهلون حقيقة النفس والروح..، قال الشاعر: كلما أذّبي الدهر أراني نقص عقلي - وكلما ازددت علماً زادني علماً بجهلي.

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (التَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) على رسوله من آيات القرآن (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) بالنسب أو آباءنا في العقيدة، قالوا بل نسير ونقتدي على عادات وتقاليد آبائنا وأجدادنا (العرف العام والعقل الجمعي) فإننا ألفناها واعتمدناها، إنه الاتباع الأعمى واعتماد الهوى الذي يريد الإسلام أن يحررهم منهما وأن يطلق عقولهم للتدبر، إنها الحالة الجامدة المتحجرة الحمقاء التي لا تقوم على علم ولا تستند إلى دليل وحجة، إنهم يسيرون مع التيار العام، كما يقول العوام (حشر مع الناس عيد) إنها العصبية العمياء مع تعطيل العقل، إنهم ألفوا الحالة التي هم عليها من الانحراف الخطير عن الهدى من دون دليل، فهؤلاء لم يفكروا فقادهم الذين يفكرون، فهم اقتدوا بساداتهم وكبرائهم فقادوهم إلى ما هم عليه من الضلال البعيد (أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أو لو كان الشيطان (عدو الإنسان) يدعوهم أي يدعو الآباء والأبناء بهذا الاتباع الأعمى، والعرف الجاهل وترك ما جاءت به الرسل من رسالات هادية، وذلك موجب لهم عذاب النار المُسَعَّرَةِ الذي يفوق عذابها الوصف، عن الإمام الرضا (ع) (مَنْ تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ وَ لَمْ يَتْرُكْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا (الْحَرَمَةَ) فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِنَفْسِهِ) البحار ٣٥٦/٧٨ وبذلك يحقق الشيطان مراده، إنها دعوة مغرية وعاوية من الشيطان لهم ليستجيبوا

لوساوسه وليصيروا من أنصاره وأعوانه وليكونوا من جنده. فهو الذي يخطط لهم سبل الفساد بتسويلاته وهم الذين ينفذون أوامره، لقد تمكّن منهم وظفر بهم وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير! إنها لمسة موقظة للمشاعر، وحقيقة محرّكة للأحاسيس والضمائر، فائدة: (بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) يبيّن القرآن الكريم أن الأكبر عمراً (كآباء) لا يدل على الدوام أنهم الأكثر عقلاً والأفضل علماً وسلوكاً، يجب اتباعهم في كل الأحوال، والقول (أكبر منك، أعقل منك) غير صحيح كقاعدة، وإنما الأفضل هو الأحسن عقلاً وعلماً وإيماناً وخلقاً ودينياً وسلوكاً مهما كان عمره كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَاهُ) الأنعام/٩٠، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أُخْرِجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أُدْخِلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَبْرُوتَ) البحار ٢/١٠٥.

٢٢ - ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

هناك من الناس من يجادل بغير علم، وهناك من الناس من يسلم وجهه إلى الله، ويخضع لمنهج الله ويستقيم عليه في كل الأحوال (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) يُسَلِّمُ: من التسليم أي يقنع ويخضع وينقاد لأمر الله، وهو كناية مجازية عن الإخلاص لله، وجهه: قصده ونيته ونفسه وقلبه (وَمَنْ يُسَلِّمُ) ومن يُقْبَلُ بكامل وجوده على الله عز وجل وبتمام اختياره ورغبته بالعبادة والعلم والطاعة مطمئناً قلبه ومخلصاً له الدين (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣ مع الشعور بالثقة أنه في حصن الله الحصين الأمين المنيع الذي لا ضلالة بعده، في الدعاء (اللهم اجعلني في درعك الحصينة التي تجعل فيها من تحب)

كقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) الجن/١٤، ويعرض عن كل الوجوه الأخرى التي من دونه، ويُسَلِّمُ لمنهجه القيم الصحيح وينقاد له بالتوكل على الله وتفويض الأمور إليه سبحانه، وذلك يتضمن المؤهلات الذاتية من الإيمان والعلم والعمل والوعي، كل تلك المعان الكبيرة يرمز لها القرآن بإسلام الوجه إلى الله كقوله (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) النساء/١٢٥، والوجه: أكرم عضو في الإنسان وأكرم صفة وصورة وسيماء وشكل، وأبرز وأهم قيمة في حياة الإنسان، فهو مركز لأهم الحواس الإنسانية، وأنه يُسْتَعْمَلُ كناية عن ذاته ويكشف ما يدور في نفسه (وَهُوَ مُحْسِنٌ) على الوجوه الحسنة عند الشرع والعلم وعند العقل السليم، وهو محسن لنفسه ولدنويه، ومحسن لغيره ولأمته وللناس (وسعادة المرء بمقدار ما ينفع الناس، وخير الناس من نفع الناس) كقوله (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) يوسف/٩٠، فهو يعمل الخير في جميع ما يقول ويفعل، ولا يختلف فعله عن قوله، ولا يقول ما لا يفعل، وهو من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان ويُفَوِّضُ أمره إلى الله كقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) طه/١١٢ (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) فقد تمسك وتعلق (بِالْعُرْوَةِ) بالثوابت الآمنة وبجبل قوي لا انقطاع له (الْوُثْقَى) الثوابت المحكمة المتينة القوية الراسخة العلمية الإيمانية، التي لا

تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ولا تنقطع ولا تغش ولا تحون (كالقرآن الكريم) ممسكاً بها واثقاً منها في كل الظروف في السراء أو الضراء، ولا يضل ولا يخيب من يعتمد عليها في الطريق الوعر والظروف المظلمة، هذه العروة هي الصلة الوثيقة لقلب المؤمن الذي أسلم وجهه إلى الله وهو محسن لتوجيه من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة، وتجعل عاقبته إلى الخير، وكأنه أخذ من الله موثقاً قوياً أنه في حفظه وأمنه وأمانه وفي حصنه الحصين، في غرر الحكم (التَّقْوَى حِصْنٌ حِصْنٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَى)

والوثقى:

الموثق، أي من الثقة، وهي الشعور بالاطمئنان للشيء الموثوق به، ما يأمن صاحبه من السقوط، أي فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواها، وهو سبيل الاستقامة والخلاص والنجاة من كل سوء وفاز بكل خير، لأن؟ أوثق منهج هو منهج الله (القرآن والسنة الشريفة الصحيحة) وهو منهج باقٍ لا انقطاع له، وهو الصلة الثابتة المطمئنة بين المؤمن وربّه، طمأنينة وسكينة تحفظ للنفس هدوءها وأعصابها واستقامتها في مواجهة الأحداث والمتغيرات، وكل ما عدا منهج الله فهو أبتّر ناقص منقطع، ومن مصاديق العروة الوثقى: هم أهل بيت النبي، كما روي عنهم (ع)، أما من لم يسلم وجهه إلى الله ولم يحسن إلى الناس، فلم يستمسك بالعروة الوثقى، فهو متّجه إلى العاقبة السيئة (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) إلى الله وحده - لا إلى أحدٍ سواه - مرجع ومنتهى ومصير كل الأمور كقوله (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ) النجم/٤٢ وعاقبة الأمور: نهايتها وآخرها، عن النبي (ص) (الْأُمُورُ بِتِمَامِهَا وَ الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا) البحار ٧٧ ص ١٦٥، فالخير كل الخير أن يسلم المؤمن وجهه إلى الله تعالى منذ البداية، فإنه يسلم من كيد الشيطان ومكره، ويدخل في درع حصين أمين فيكون في حفظ الله عز وجل حتى النهاية.

٢٣ - ٢٤ - ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ) تسلية للرسول (ص)، أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر، ولا ضلال من ضلّ (فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) فاطر/٨، إن شأن هؤلاء الكافرين أهون من أن يحزنك يا محمد وأصغر من أن يهتك، ونهايته في الآخرة التهوين من شأنه كذلك، لو كان فيهم خير وأمل وانفتاح لهداهم الله واستذوقوا حلاوة الإيمان والقرب من الرحمان، المعنى: (وَمَنْ كَفَرَ) الباقي على الكفر والذي ارتد ورجع إلى الكفر، بعد كل الدلائل (فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ) فلا تحزن عليه، لأن كفره لا يضرك ولا ينفعه، وهو في قبضة الله يمعله قليلاً من عمره يتمتع فيه كما يشتهي، ولأنك أديت واجبك في تبليغ الرسالة الإسلامية القيّمة على أحسن وجه (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) لا إلى غيرنا رجوعهم للحساب كقوله (وَالِيهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ) هود/١٢٣ (فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) فنظهر لهم حقيقة ما عملوا في الدنيا، فيشاهدوا الحقيقة كما هي بالصورة والصوت والنية كأنه فلم مجسم ذو ثلاثة أبعاد، فلا يكون هناك سبيل إلى الإنكار كقوله (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المجادلة/٦ وهكذا

الإنسان لا يفلت من قبضة الله، وهو مأخوذ بعمله وملقى الحجة عليه، والمعاد: حقيقة حتمية ثابتة في جميع الرسالات السماوية، وهو يُفسر لك فلسفة الحياة (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَدُورُ فِي حَقَائِقِ الصُّدُورِ وَأَعْمَاقِ الْقُلُوبِ وَالضَّمَائِرِ، ويعلم بالنيات وما يضمرة الإنسان ويستتره في نفسه فيحاسبه عليه، فإنه لا يخفى على الله خافية، وأنهم لا يخرجون عن قبضة الله سبحانه ومراقبته لهم واتمام الحجة عليهم، ٢٤ - (مُتَّعُهُمْ قَلِيلًا) نعطيهم من متاع الدنيا ونعيميها - مهما كثر فهو متاع قليل - يتمتعون به مدة قصيرة الأجل قليل القيمة، زهيدة الفائدة مُطَعَمَةٌ بالحنن، لذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة وهمومها كثيرة وحسابها عسير كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيهِمْ هُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّيهِمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا) آل عمران/١٧٨.

(ثُمَّ نَضْرِبُ لَهُمْ) وبعد ذلك نلجئهم على كره منهم ونرددهم إلى الآخرة (إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) غليظ: فظيع، شاق، مُجَسِّم، شديد، مديد، ثقيل على أنفسهم مستمر مؤلم يصعب عليهم تحمّله، ووصف العذاب بأنه (غَلِيظٍ) كناية عن قسوته لتجسيمه ومضاعفته وتعدد فنونه وأنواعه (غَلِيظٍ) يثقل عليهم العذاب ثقل إجرامهم الغليظ الذي فعلوه، والغليظ ضد الرفيق، والتعبير بالاضطرار (ثُمَّ نَضْرِبُ لَهُمْ) يلقي ظل الهول والخوف والضعف في النفوس، مع العجز عن دفعه والاستسلام الذليل الخانع له، وهذه عاقبة مُرْوَعَة فظيعة، عاقبة المفاجأة والمخبّأة! وهو مدفوع إليها دفعاً لا يملك لها رداً ومنعاً، فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى، ويصير إلى ربه في نهاية العمر وهو هادئ النفس مطمئن القلب، فائدة: من اختار الكفر فلا يليق به الإيمان، ومن يتعد عن حياة الهداية فستلحقه ظلمات الغواية، ومن تليق به الغواية فهو صديق الشيطان فلا يستحق أن تحزن عليه.

٢٥ - ٢٦ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾

(وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الغرض من هذا السؤال هو انتزاع الاعتراف من المشركين بأن الله هو الخالق، وهو المالك المطلق لكل ما خلق، يدعوهم إلى التفكير في رؤية المخلوقات المتقنة الصنع، المبهرة للعقل، وعدم الغفلة عنها، يدعوهم ليستنتقوا فطرته حين تواجهه عجائب الكون والكائنات (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) هذا التوحيد من صميم فطرة الإنسان السليمة، لوضوح البراهين وكثرتها، في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس، والذكر حياة القلب) وفي كل شيء له آية - تدل على أنه واحد، بحيث خضعوا للحجة والبرهان واضطروا إلى الإذعان والإيمان، من دون تردد ولا ارتباك، لأنها حقيقة أكبر من أن يتسع لها جدال المجادلين! إنهم يعلمون أن لهذا الوجود خالقاً، وأن هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود، ولكن اختلط علمهم بالجهل والضلال، أما القول بأنها قامت بالصدفة لا يستحق الاحترام والمناقشة لأنه لا

يمكن أن تنتظم هذه المخلوقات وتتناسق من دون تدبير من مدبرٍ ومقدّر حكيمٍ وقديرٍ (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) قل أيها السامع (الْحَمْدُ لِلَّهِ) على نعمة ظهور الحجة عليهم من أنفسهم، واضحة للعيان من صميم فطرتهم السليمة، وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدتهم، والحمد لله على كل حال (والحمد لله) على هذا الاعتراف الفطري القهري السليم أمام الدليل الكوني الضخم، (والحمد لله) على دين يقرّ لك خصمك بصحته لوضوح دلالته وقوة تأثيره (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) بل أكثر هؤلاء المشركين (وليس كلهم) لا يفكرون ولا يتدبرون ويعاندون، ويجهلون منطق العلم والفطرة المنقح السليم، ولا يعلمون ما عليهم من حجة واضحة فيؤخذون بها، ولا يعلمون كيف يتركون الشرك ويؤمنون بالتوحيد ويعبدون الله وحده، فلذلك لا يعلمون، ورضوا بالتناقض الذي ذهبوا إليه، وعاشوا معاناة الحيرة والضياح كقوله (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الأنعام/١١٠، وقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) الإسراء/٢٢، وهم لا يعلمون معنى اعترافهم بالله هو الخالق وما يستلزمه من عبادة واستقامة، أي أن قليلاً منهم يعلمون ذلك الإيمان ولكنهم لا يخضعون للحق بل يجحدونه وينكرونه عناداً وجهلاً وعمى، ٢٦ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فكل تدبير وتقدير وخلق وتصوير وتصرف يقع في الكون فهو لله تعالى له الملكية المطلقة وليس ذلك لأحدٍ سواه، فلا يستحق العبادة فيهما غيره وهو غني عن العالمين (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ) توكيد لاستغناء الله عن خلقه (هُوَ الْغَنِيُّ) المطلق بذاته وصفاته قبل خلق السماوات والأرض وبعده، ولا يحتاج في كماله إلى شيء أصلاً، وأيضاً (هُوَ الْغَنِيُّ) بذاته والمغني لغيره والمستغني عن خلقه وعن عبادتهم (هو) للحصر، أي (هُوَ الْغَنِيُّ) بذاته عن كل شيء على الإطلاق (الْحَمِيدُ) المحمود في صنعه ونعمه وكرمه، والمحمود بذاته في كل شيء ومن كل جهة، ومن جميع الكائنات العاقلة وغير العاقلة على الإطلاق، المستحق للحمد والشكر والثناء والتعظيم والتكريم، إذ يرجع إليه كل حمد وثناء وشكر في هذا الكون الضخم حمداً مطلقاً، سواء قصد به الله سبحانه أو قصد به غيره، فجميع الكون والكائنات يحمدهوا الله كل مخلوق بقدره ومقداره وكيفيته، حتى ذرات حياة كيان الكافر مشغولة بالحمد، بلسان حالهم ولو توقّف لسان مقالهم! كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤، لأن كل نعمة وقدرة وقوة وملكة وموهبة وعلم واختصاص .. وغيرها في هذا العالم تعود أسبابها إلى الله تعالى، وهذا دليل حيّ حسي على غناه كقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر/١٥، فائدة: ١ - عن النبي (ص) في الآية (٢٥) قال (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَعْنِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) الميزان ١٦ ص ٢٣٩.

٢٧ - ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

أوضحت الآية الكريمة إنّ علم الإنسان مهما كان واسعاً، فإنه مقابل علم الله اللامتناهي ليس إلاّ ذرة أو قطرة من بحر علم الله تعالى الواسع. كقوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) البقرة/٢٥٥، هذا المعنى ليس مبالغة لا حقيقة له، بل هو الحقيقة ذاتها، وهو كناية وتمثيل وتشبيه بليغ مؤثّر أخاذ لقدرة الله المطلقة التي لا تحدّها شيء، وجاء من باب تقريب المعنى اللامحدود لعقول الناس المحدودة، إنه مشهد كوني ضخم متحرّك يرمز إلى غنى الله الذي لا ينفد وعلمه الذي لا يُجد، وقدرته الهائلة على الخلق والتكوين، ومشيبته المطلقة التي تسبق مشيئة الإنسان، ولا حدود لمشيئته سبحانه، إنه مشهد واقعي ليقرب إلى الناس تصورهم، معنى تجدد المشيئة الذي ليس له حدود، والذي لا يكاد تصوّرهم البشري يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل والتشبيه المثير، وبذلك يستحق العبادة والطاعة لوحده سبحانه، ولو تصوّر متصوّر أن كل ما في الأرض من أشجار صنعت أقلاماً، وأن كل مياه البحار على سعتها قد أصبحت مداداً وحبيراً (مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

حقاً أنه تصوّر عميق ودقيق ورفيق ذو دلالات واسعة، ومؤثّر في المشاعر بلا استئذان.

المعنى: (وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ) ولو تحوّلت جميع أشجار الأرض التي لا تُحصى أقلاماً (وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ) وتحوّل البحر المحيط بسعته (يَمُدُّهُ) أضيف إليه (سَبْعَةُ أَبْحُرٍ) مثله مدداً لا ينقطع أبداً، والعدد سبعة: كناية عن الكثرة، والمياه الكثيرة، ويعطيك بعداً في سعة التصوّر، ولا خصوصية للعدد في معنى كلمات الله! وجعل المجموع مدداً أي حبيراً، وجلس الكتاب يُسجلون (كَلِمَاتُ اللَّهِ) وهي أوامره وحكمته اللامتناهية المتجددة الدالة على قدرته وعظمته وعلمه، والمعبرة عن مشيئته، وهم يكتبون بلا توقّف، فكتبوا أوامر الله وحكمته التكوينية والتشريعية والإعجازية والعلمية والظاهرة إلينا والمخفية علينا.. إلخ فكتبوا كل شيء بتلك الأقلام الكثيرة التي لا تحصى ومن ذلك المداد والحرير الكثير، ماذا تكون النتيجة؟

(مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) ما فנית معاني كلام الله وحكمته وعلمه وقدرته وتقديره وتدييره، لتكسرت الأقلام وانتهت وفنيت، ونفذ ماء البحور وانتهى قبل أن تنفذ (كَلِمَاتُ اللَّهِ) أوامره وحكمته وقدرته اللامتناهية، وسننه النافذة الباقية التي لا تنقطع وليس لها نهاية، وما انتهت وما نفذت (كَلِمَاتُ اللَّهِ) الدالة على علمه وحكمته وإرادته وعظمته وعزته وجلاله وبدائع خلقه، كما ورد في الحديث (سبحانك: لا تُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك) كقوله (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) الكهف/١٠٩، وفي الحديث عن حق القرآن (لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ) لأن الأشجار والبحار متناهية أي لها نهاية ونفاد ولها حدود لكونها مخلوقة و(كَلِمَاتُ اللَّهِ) غير متناهية وليس لها نهاية وقيود، وليس لها حدود، فلا يتصوّر نفادها وليس لها منتهى، فكل شيء ينتهي إلى الله كقوله (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ) النجم/٤٢، إنه المحدود في مقابلة غير المحدود، ومهما يبلغ المحدود

فسينتهي ويبقى غير المحدود متألقاً كاملاً لم ينقص منه شيئاً على الإطلاق، إن (كَلِمَاتُ اللَّهِ) لا تنفذ لأن علمه وصفاته لا تحد، ولأن إرادته لا تكف عما تريد (إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) هود/١٠٧، ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكويد/٢٩ (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) لأن الله (عَزِيزٌ) في اقتداره، لا يُعْلَبُ ولا يعجزه شيء كقوله (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فاطر/١٠، وبِعزته تعالى قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم بالحكمة والمصلحة ودبر أمرهم على العدل والإحسان، لا بالجبروت شأن كل عزة ظاهرة لا تحكمها الحكمة والمصلحة، وخاصة الاسم العزيز وجود الغنى والقدرة والعز، فمن ذكر (يَا عَزِيزُ) أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة، أغناه الله وأعزه فلم يجوجه إلى أحدٍ من خلقه، (حَكِيمٌ) لا يفوض التدبير إلى غيره، ولا يخرج عن علمه وحكمته، وبحكمته خلق الخلق وابتداه بالحكمة وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك أمر الله ونهيه صار بالحكمة وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو سبحانه (حَكِيمٌ) في خلقه وأمره ونهيه وفي كل شيء، وخاصة الاسم (الْحَكِيمُ) فتح باب الحكمة والقول السديد والفكر الرشيد، ودفع المحن والدواهي والبلايا التي تواجه الإنسان.

فائدة: ١- دين الله القيم يخرج الإنسان من ضيق الأفق المحدود إلى عالم الآفاق المطلقة اللامحدودة والتي ليس لها نهاية (مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)، ٢- (كَلِمَاتُ اللَّهِ) لها دلالات في القرآن الكريم منها: النعم الإلهية (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ) الكهف/١٠٩، ومنها السنن الإلهية وقدرته التي يقوم بها الكون والكائنات (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) الصافات/١٧١-١٧٢، ومنها الآيات الإلهية (وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا) التحريم/١٢، ومنها أسباب انتصار الحق على الباطل (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) الأنفال/٧، ٣- المراد من (كَلِمَاتُ اللَّهِ) ليس مجرد لفظ، بل المراد منها السنن والقوانين والأنظمة المتحركة والمخلوقات المتعددة والإرادة المطلقة (فَكَلِمَاتُ اللَّهِ) بها خلق الله كل شيء.

٤- سبب النزول (مختصر) قال أحبار اليهود للنبي (ص) قوله (وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء/٨٥، أتعنينا أم تعني قومك؟ قال : كُلاًّ عنيت، قالوا أأنت تتلوا فيما جاءك: إنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء، فقال (ص) هي في علم الله قليل، قالوا: كيف تزعم هذا وأنت تقول (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) البقرة/٢٦٩، فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير فنزلت الآية، ٥- قال (مَنْ شَجَرَةٌ) بالإفراد ولم يقل (من شجر) بالجمع، إشارة (مَنْ شَجَرَةٌ) بالإفراد إلى استغراق كل ما في الأرض وإحصائها شجرة شجرة من كل نوع من الشجر، ولو جاء السياق القرآني (من شجر) بالجمع لما دل على هذا الاستغراق الكلي للشجر بأنوعه! ويمكن أن يحمل المعنى بعض الشجر دون بعض، ثم أن (مَنْ شَجَرَةٌ) أن الشجرة وردت بالإفراد (والأقلام) وردت بالجمع، وهذا بيان لعدد الأقلام الكثيرة التي تنتج من شجرة واحدة، ٦- قال هنا (سَبْعَةُ أَجْرٍ)

بالجمع، وقال في سورة الكهف/١٠٩ (الْبَحْرُ مِدَادًا) بالإفراد، أي يمدّه بحر مثله، هل في هذا تناقض؟ الجواب: الأمر قائم على الكناية والفرض والتمثيل والتشبيه، وكثير من مادة الفرض وقليلها سواء في تحقيق المطلوب منه، والأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد، وهو الدلالة على سعة علم الله وقدرته وسلطانه الذي لا ينفد، التفسير القرآني للقرآن ج ١١ ص ٥٨٤ باختصار، ٧- تبيّن الآية أنه لا حدّ لقدرة الله إلّا بأنّها لا حدّ لها، وفي نصح البلاغة (وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ التَّعَمَّةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) المبين ص ٥٤٣.

٢٨- ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفًا وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

الآية الكريمة رد على من قال البعث محال، وهي أيضاً ذكر دال على عظمة الله وقدرته وعلمه وكماله، وأنه لا يمكن أن يتصوّرها العقل البشري، لأن علم الله محيط بكل شيء ولا يعجزه شيء متى أراد.

المعنى: فقال (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ) ما خلقكم - أيها الناس ابتداءً - ولا بعثكم للحساب بعد الموت انتهاءً على كثرتكم وكثرة أعمالكم وكثرة أجيالكم (إِلَّا كُنُفًا وَاحِدَةً) إلّا كخلقة نفس واحدة وبعثها بعد الموت ومحاسبتها، ولا تأثير للزمان في ذلك ولا المكان ولا الكميّة ولا الكيفيّة، فالكل هين وسهل في حصول الأشياء كقوله (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) القمر/٥٠، فقدرته سبحانه اللامحدودة يجعل خلق المجموعات الكثيرة والكبيرة والمتنوعة، ويميتها وبيعثها كخلق النفس الواحدة ويميتها وبيعثها على السواء، أي تتساوى في قدرته سبحانه وتتحقق بمجرد ما يريد كقوله (إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) هود/١٠٧، فهو سبحانه يحاسب مليارات البشر والمخلوقات كما يحاسب الفرد الواحد على السواء في نفس الوقت!! فلا يشغله شيء عن شيء، ولا تشبته عليه الأمور والأصوات، ولا يختلط عليه حساب فرد عن حساب الناس جميعاً من أول الخلق في وقت واحد!

ولا يشغله علم بعضها عن بعض، فلا جهد ولا قوة محدودة، ويتساوى عنده أيضاً بدء الخلق وإعادته بعد الموت، وبعث النفس الواحدة وبعث كافة الناس، إنّما هي الكلمة هي الإرادة فيكفي في تحقيق إرادته كما يصوّرها قوله (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢، حيث يتساوى في قدرته إيجاد القليل والكثير، والكبير والصغير والقوي والضعيف، ولا يصعب عليه شيء، ويفعل ما يريد ولا يفعل ما يريد غيره، فلا وجه للمقارنة بين قدرة الإنسان المحدودة، وقدرة الله تعالى المطلقة الممدودة اللامحدودة، إنّها قدرة خارقة فوق التصوّر (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) لأن الله تعالى (سَمِيعٌ) لأقوالكم ويسمع كل شيء (بَصِيرٌ) بأعمالكم ويرى كل شيء كقوله (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) النحل/٦٠، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على أعمال الإنسان إلّا الجهل بعظمة الله وقدرته، كقوله (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الأنعام/٩١ فائدة: ١- سبب النزول

وليس ذلك النظام صدفة، ولا يكاد يغفل الإنسان عن كون صانعه تعالى محيطاً بكل أعماله. **فائدة: ١ - إنه مشهد كوني ضخّم يصوّر ولوج الليل في النهار وبالعكس، وما يتصل بهما في حركة منتظمة في غاية الدقة والاتقان، هذا الولوج تابع لكروية الأرض ودورانها، ولو كانت مسطحة لما كان شيء من ذلك.**

٢ - هذا المشهد المتغيّر المتحرّك عجيب حقاً، ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس التفكّر فيه، فلا يلحظون هذه الظاهرة الكونية العجيبة التي تتكرر باستمرار، والتي لها صلة منتظمة أيضاً بالظاهرة البشرية، ولا يحتاج إدراك هذه الظاهرة الدقيقة إلى أكثر من رؤية واعية متدبرة نافذة، لتلك الدورة الدائبة المنتظمة المفيدة التي لا تكل ولا تمل ولا تحيد! إنَّها السنن الكونية تتصل بالسنن البشرية لعلاقة أحدهما بالأخرى! علاقة منتظمة بالغة الدقة، تسمى: (فلسفة التداخل) فكما يتداخل الليل والنهار كذلك تتداخل الأشياء في ما بينها، كتداخل الظلمات بالنور، وتداخل الصيف بالخريف والشتاء بالربيع، ويتداخل الذكر بالأُنثى والصحة بالمرض والقوة بالضعف والشدة باليسر، والغنى بالفقر، والروح بالجسد، والحياة بالموت، والأمل بالعمل، والعزة بالذلة، والعسر باليسر، كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الانشراح/٥-٦، فلا ليل دائم ولا نهار دائم ولا عسر دائم ولا يسر دائم... وهكذا يداول الله الأيام كقوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) الأنعام/٩٥، إنّ هذا التغيير المنظّم للدليل على وجود مُنظّم ومُغيّر وهو الذي يستحق العبادة والطاعة وحده دون سواه.

٣٠ - ﴿ذِكْرٌ أَنْ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أِبْطَالٌ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

ثم بيّن الحكمة في إظهار آياته للناس فقال (ذَلِكَ) الذي شاهدتموه من النظام الكوني الثابت المنسّق المنظّم الدقيق المتقن، و(ذَلِكَ) النظام التشريعي الحكيم وتلك الإخبار عن الحوادث السابقة أو اللاحقة، إنه نظام قائم بالحق والعدل والصدق والمصلحة والحكمة بالغة، وهذا يقضي بصورة قاطعة بوجود الله الحق (بأنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) لتتأكدوا بأن الله تعالى هو الإله الخالق الحق، الحق في ذاته وصفاته، دينه حق ورسله حق ووعدته حق ووعيده حق، والموت حق والحياة حق والخلق حق وعبادته هي الحق، والحق هو الثابت بنفسه والمثبت لغيره هو واجب الوجود، وكون الله تعالى هو الحق ومنه الحق وإليه يعود الحق، ويجب الحق ولا يقبل إلا الحق لأن بعد الحق هو الباطل، وهو الذي يحفظ الحق وينصره ويدبّره ويضمن له الثبات والاستقرار والتناسق والجمال والكمال والجلال، والتأثير والتدبير والتقدير، وهو الذي ينفرد بالإلهوية من غير شريك، وهو المستحق للعبادة وحده بلا شريك معه، وكل شيء دون الله يتبدّل، وكل شيء غير الله يتحوّل، وكل شيء غير سبحانه تلحقه المتغيّرات الزيادة والنقصان، والقوة والضعف والزوال والفناء، وهو الله سبحانه وتعالى وحده الدائم الكامل الباقي الذي لا يتغيّر ولا يتحوّل ولا يتبدّل ولا يزول، وهذا المنظور لله

الحق الخالد يجعلنا نختار بإرادتنا ما نريد، ويحاسبنا الله على ما نختار، إذًا : لا للاتباع الأعمى والتقليد الاجتماعي البليد.

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) وأن ما يعبدون ويوالون ويتعلقون من دونه من الأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية أو الأصنام الفكرية المتحجرة المتخلفة، من الغلو والخرافات والإنحرافات (مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) لا حقيقة له، ولا جذور ثابتة له في الحياة، الباطل الزائل الفاني الذي تبعاته السلبية المضرة كثيرة وطويلة وممرية، كما قال الشاعر (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) فإذا كان ما سوى الله باطلاً، كانت عبادته له جهلاً وأكثر بطلاناً (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) وأن الله هو (الْعَلِيُّ) الأعلى (الْكَبِيرُ) الذي له الكبرياء وحده اللائق به، وأن ما دونه ضئيل لا وزن له ولا قدر، المتعال على كل شيء المنفرد بالعلو والسلطان، المستجمع لكل صفات الكمال والجمال والجلال، سواء (الْعَلِيُّ) في صفاته (الْكَبِيرُ) في ذاته، التي علت صفاته عن أن يقاس بها صفات، وعلت صفاته في أن تدركه العقول والحواس، وعلا على الخلق فقهرهم بقدرته (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/٦١ (الْكَبِيرُ) الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماوات والأرض، كقوله (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الجاثية/٣٧، وليس غيره علياً ولا سواه كبيراً. فائدة: ١- قال (اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ) ولم يقل (الله الحق)

والجواب: قد يكون بعض المؤمنين يسيرون بالحق ويعملون بالحق ولا يخرجون عن الحق، ولكن لا يتساوى حق الإنسان المخلوق المكتسب للحق، مع حق الله الخالق الواهب للحق، لذلك قال (اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ) هو مصدر الحق الخالص، ومنبع الحق الصافي النقي، ويعمل بالحق ولا يخرج عنه، فهو سبحانه منه الحق وإليه يعود الحق ولا يقبل إلا الحق الخالص كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، ٢- تكرر كلمة (أَنَّ) في هذه الآية ثلاث مرات، وذلك للتوكيد على أن الله هو حقيقة الحقائق اليقينية الكبرى، والذي لا ينسجم مع منهج الرحمن الحق فسيتركه الشيطان الباطل، ومَنْ ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيّق، ٣- الحق واحد موحد متحد لا يتجزأ ولا يتعدّد، والباطل متنوع وكثير متعدد ومتلون، وكلما تبعد عن الحق تقترب من الباطل، وأن مصدر الحق هو الله عز وجل، وكل ما يصدر منه سبحانه من أحكام وشرائع ورسالات فهي الحق أيضاً، وكل ما دونه هو الباطل ولا يصدر من الباطل إلا الباطل، سواء أكان بشكله أم بمضمونه باطل، لأنه بعيد عن الحق ومصدر الحق، وكلما كثر ابتعاده عن الحق كلما ازداد بطلانه، لذلك صار للباطل مهلة وصوله وللحق دولة مستقرة مستقلة كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، عن الإمام الصادق (ع) (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار/٢/١٠٥.

٣١- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَةَ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ لَئِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

تذكير بنعمة أخرى في مشهد كوني واقعي متحرّك باهر، ينقلك من الظاهر المكشوف المألوف إلى أسرار الباطن المعلوم المخزون بسهولة، فالمشهد آية من آيات الله ويدل على قدرة الله وتوحيده فقال (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ) ألم تشاهد، ألم تعلم - أيها العاقل - علماء قطعياً عملياً جارياً مجرى الرؤية، فيتساوى المحسوس مع المعلوم (أَنَّ الْفُلُكَ) أن السفن بكافة أحجامها العملاقة والصغيرة تسير على سطح البحر ولا تغطس مع كثرة حملتها، بسبب (نِعْمَةِ اللَّهِ) وتديبره وقدرته وعنايته بعباده، وتقديره الحضاري لتطوير الحياة العلمية والصناعية والزراعية .. إلخ، ونذكر من أسباب هذه النعمة:

جريان السفن بسهولة مع حركة الرياح، مع ضغط الماء وكثافته، وتسخير خاصية الطفو، وفي عصرنا الحاضر حلّت المحرّكات العملاقة محل الهواء في حركة السفن، ومن خاصية الطفو التي تجعل في قوانين وزن الماء وميوعته وكثافته قوة مناسبة ضاغطة رافعة إلى الأعلى، تحمل بها السفن الضخمة التي تزن ملايين الأطنان، وفق قانون الطفو الذي أودعه الله بقدرته في ماء البحر، لهذا قال بعده (لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ) لتروا بعض أدلته وعجائب صنعه الدالة على تفردده بالربوبية والوحدانية، وهذه الآيات والدلالات معروضة للرؤية بالبحر، يرى قانونها ونظامها من يريد أن يرى ويتفكّر، ليقف أمام منطق الفطرة السليم الصافي المؤثر حين تواجه أهوال البحر وأخطاره، لتتيقن النفس أن الله تعالى هو حارس الفلك وحاميتها وسط العواصف والأمواج المتلاطمة حيث لا عاصم لها إلا الله تعالى.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ) ودلالات باهرات وعلامات وعبر جليلة لا يراها ويلتفت إليها إلا كل عبد هدّب نفسه وعلمها على الصبر عن ملهيات الدنيا التافهة ومحرماتها، طلباً للتأمل في آيات الله الكثيرة في نفسه وفي آفاق الكون والكائنات (لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) لكل من اعتمد تزكية نفسه وتهذيب عاداتها السيئة بتعويد نفسه على (الصبر) في الضراء والصبر على الحن فإن فيها منحةً من الله تعالى، والثبات على الاستقامة، وتعوّد النفس على (الشكر) لكافة النعم والكرم في السراء. ولفظة (صَبَّارٍ) و(شَكُورٍ) صيغة مبالغة في الصبر والشكر، أي كثير الصبر الجميل والأتزان، وكثير الشكر على كل نعمة في السراء والضراء، (وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالشُّكْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ وَكَانَهُ قَالَ سُبْحَانَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ) مجمع البيان ج ٨ ص ١٠٣، عن النبي (ص) (الْإِيمَانُ نِصْفَانُ : نِصْفُ صَبْرٍ وَنِصْفُ شُكْرٍ) فائدة: ١- يكرر سبحانه ويذكر عباده بأن كل ما يتمتعون به من أسباب الحياة، لحفظ الحياة وتطوُّرها هو من الله سبحانه، كيلا يغفلوا عن الله الخالق ولا يذهلوا عن الرزاق والمُبَسَّر والمُدبّر، ومتى أمنوا بذلك شكروا الله حقاً في السراء، وصبروا على البلاء في الضراء مع الشعور بالأمل والفرج والخلاص، ٢- وَرَدَ الصبر مع الشكر في عدة مواطن في القرآن الكريم، ويقابلهما حالي الغفلة والكفران السلبيتين.

٣٢ - ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾

إنه مشهد كوني مؤثر يصور مخاطر البحر وأهواله فيحرك المشاعر ويحيي الضمائر بلا استئذان، وهو تطبيق عملي لقوله (لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) في الآية السابقة (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ) غشيههم: علاهم وغطاهم، وإذا علا راكبي السفن في البحر وأهواله الأمواج الهائجة الكثيفة وأحاطت بهم (كَالظَّلْمِ) جمع ظُلمة وهو ما يعلو ويظلل من كل شيء، يرتفع الموج كالجبال أو السحاب وتغطيته ما تحته، فشبّه الموج الهائج في كثرتها وتلاطمها وارتفاعها بالسحاب الذي يركب بعضه بعضاً أو شبه الموج كالجبال في ارتفاعها (دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) حين خافوا الغرق والهلاك التجؤوا إلى الله ووجهوا وجوههم وقلوبهم ونفوسهم وكل مشاعرهم وضمائرهم إلى الله وحده، ودعوه مخلصين له في الدعاء، ومتضرعين ومتذللين ومضطربين ومنقطععين بلهفة بكل مشاعرهم إلى الله عز وجل لا يدعون لخلاصهم سواه ولا يأملون النجاة إلاً منه سبحانه، وفي ذلك دلالة على أن فطرتهم على التوحيد الخالص تظهر وتنكشف عند الشدائد والأهوال (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ) وسلّمهم من هول البحر وشدائده إلى ساحل النجاة في البر، كانوا فريقين (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) أي معتدل أو متوسط في الإيمان والكفر، ومتوسط في أقواله وأفعاله وفي وفائه مع ربه، فهو بين جاذبية الهوى والصلاح والوفاء بالعهد مع الله، وبين تيارات الهوى والفساد ونقض العهد، فهو لم ينسَ وعده مع ربه ولكنه لم يفِ به حق الوفاء، فهو المعتدل في أداء الفرائض والوفاء بالعهود، ويعيش بين الخوف والرجاء، الخوف من التقصير والرجاء بالرحمة والغفران، وهذا يدل على الاختيار دون الإكثار، فهو لم يظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله وغضبه، ولم يكن من الضالين المفسدين الناكرين للجميل، ولم يكن من السابقين في الخيرات.

كقوله (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله) فاطر/٣٢ وعند البلاء تكشف معادن الناس وتظهر حقيقتهم، (وَعِنْدَ الْإِمْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ) والإنسان المؤمن الأصيل لا تتغير شخصيته المستقيمة في الشدة والرخاء، فيصبر عند الشدة ويُسلم أمره إلى الله، ويشكر الله في الرخاء على كل نعمة، أي (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) فقليل منهم معتدل يوفي بعهده مع الله، ويبقى على جادة الاستقامة النسبية، ولكن أكثرهم ينقض عهده مع ربه ويرجع إلى ضلاله القديم، وهذا من باب الإنكار على هذا الصنف المقتصد من الناس، قد وُتّي بجزء من عهده مع الله عندما دعاه مضطراً وقت الشدة وعاش بين الخوف والرجاء، ومنهم من غدر وفجر وكفر وهؤلاء هم شر البرية، لهذا قال (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) ولم يقل (فمنهم مؤمن) لأن الاقتصاد هنا هو الاعتدال المتذبذب المتخلخل، وهو من علامات الإيمان الضعيف غير الثابت (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) وما يكفر

بدلائلنا وينقض عهده معنا، ومنها النجاة من أهوال البحر كقوله (فَمَنْ نَكَثَ فِيمَا يَنْكُثُ عَلَيَّ نَفْسِيهِ) الفتح/١٠، ومنهم من يجحد أي ينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء والأمان. والجحود: هو إنكار ما استيقنه القلب كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل/١٤ (إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ) مبالغة في الغدر، أي غدار بعهده، ناقض لوعده، أي غدار وخداع شديد الغدر وينقض العهد مع ربه ومع فطرته التي ولد عليها كل مولود، فهو يعرف الله وقت الشدة ويكفر به وقت الرخاء!! والختر: أسوأ الغدر وأقبحه (كُفُورٍ) شديد الكفر مبالغ فيه، جاحد بنعمة الله وفضله ومبالغ في كفران نعم الله تعالى، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من شدة البحر لنكونن من الشاكرين، فغدر وخان هذا الفريق ولم يف بعهده، هذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هذه المشاهدة الكونية الهائلة، ويجحد منطلق الفطرة السليم والعقل القويم، فائدة: ١- وعند انحراف الفطرة وضلال النفس، والجهل في العقائد، فإذا بعض الناس في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله تعالى، ولكن يلجأ إلى بعض أوليائه يدعوهم للنصرة والانقاذ وقضاء الحاجات والنجاة من كل شدة، بحجة أنهم شخصيات ذات منزلة رفيعة عند الله، ووسائل شريفة مقربة إلى الله تعالى، وهذا لا يجوز أن نطلب منهم الحاجة مباشر من دون الله.

كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف/١٠٦.

ويمكن الالتجاء إلى روضات الأنبياء والأولياء والأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام ونخاطب أحدهم (يَا وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ إِشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ) كما جاء في دعاء التوسل، ٢- قوله (كُلُّ خَتَّارٍ كُفُورٍ) مقابلة قوله (لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) في الآية السابقة، ٣- (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ) حينئذ يكون الناس والسفن العملاقة كالريشة الخفيفة في مهبّ الريح في خضم الأمواج الهائلة، والنفوس التي تحملها الفلك تتعرى من القوة الخادعة التي تحجب عنها في ساعات الرخاء حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها، حتى إذا سقطت هذه الفواصل بالشدائد والمصائب تزول هذه الحجب، وتظهر الفطرة الصافية من كل ستار يسترها، استقامت إلى ربها وأخلصت له الدين، ونفت عنه كل شريك (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) من هؤلاء من ذكر وتفكر وشكر ومنهم من كفر وتنكر، ٤- تكشف الآية أن من الناس من يمتلك الإيمان الثابت الدائم، ومنهم من يكون إيمانهم مؤقتاً مرحلياً مهزوزاً، ومنهم يؤمنون في الشدة ويكفرون في الرخاء!

٣٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كُدُّوا وَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَكَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانِبُ عَنِّ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَكَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾

بمناسبة هول البحر وخطره، يذكرهم القرآن بالهول الأكبر من أهوال اليوم القيامة الذي يقاس بمداه وحقيقته وتأثيره الكبير في المشاعر والقلوب كقوله (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) الحج/٢، الذي يبدو هول البحر في ظله صغيراً هزيباً! المعنى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يأمر الله

كل المكلفين من الرجال والنساء بتقواه، **والتقوى**: هي اتقاء وتجنب معاصي الله والالتزام بمنهجه، وهي الورع عن محارم الله والاستقامة في القول والعمل وفي السرّ والعلانية، وهي سبيل النجاة في الدنيا والآخرة كقوله **(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)** البقرة/١٩٧ **(مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ)** فالدعوة إلى تقوى الله تجيء في موضعها المناسب الذي فيه يتحقق تأثيرها في النفوس، وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتستمع لها القلوب **(وَإِخْشَاؤًا يَوْمًا لَا يُجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)** **(وَإِخْشَاؤًا)** خافوا واحذروا سوء العواقب وشر المواقف والنتائج **(وَالْأُمُورَ بِالْخَوَاتِيمِ)** واخشوا المخبّات والمفاجأة **(يَوْمًا)** هو يوم القيامة الرهيب الحاسم **(وَإِخْشَاؤًا)** خافوا يوماً رهيباً عصيباً حاسماً جازماً حتمياً لا بد منه، فهو يمنع من الاغترار بزخارف الدنيا، هذا الخوف والهول هنا هول نفسي حين تنقطع أوامر القرى والدم وعلاقة الرحم والنسب بين أقرب الناس، فلا والد ولا ولد يغني عنك شيئاً في هذا اليوم الحاسم، فعملك الصالح خير لك وأنفع من أمك وأبيك وولديك وأخيك ومن في الأرض جميعاً، فلا أحد يهّمه أمرك.

كقوله **(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)** المدثر/٣٨. قوله **(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)** الشعراء/٨٨-٨٩، **(لَا يُجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)** لا يجزي: لا يغني ولا يتحمل ولا يؤدّي ولا ينفع والد عن ولده شيئاً ولا يدفع عنه مضرة ولا يتحمّل عنه تبعة ذنب، ولا تنفع عند الله الشفاعة والوسائل ولا ينفع الحسب والنسب ولا أحد يحمل وزر غيره، إلا وسيلة النجاة الأساسية هي الإيمان والعمل الصالح كقوله **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)** النساء/١٢٢ **(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)** ولا ولد **(هُوَ جَارٍ)** هو مغنٍ ولا يتحمّل ولا يؤدّي ولا ينفع والده الرؤوف شيئاً في ذلك اليوم الحاسم **(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)** إنّ وعد الله حق بالبعث والنشور، وحق في الثواب والعقاب، وحق ثابت لا يتخلف كقوله **(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)** الانفطار/١٩ وقوله **(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ)** الروم/٦ وقد جعل الله وعد القيامة حقاً والسبب في كونه حق، لأن الله خلق الإنسان للبقاء لا للفناء، خلقه للآخرة لا للدنيا، خلقه لغاية سامية ألا وهي العبادة بمعناها الشامل كقوله **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** الذاريات/٥٦، فيأتي يوم القيامة بالوزن الحق فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، ثم حذرهم من خطرين: الخطر الأول: **(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)** **(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ)** كل شيء يغرك ويغريك ويخدعك حتى تعصي الله بأي شكل من أشكال المعصية فهو غرور وخداع، سواء أكان إنساناً أو غير إنسان، لا تغتروا بالسلامة وكثرة النعمة فهي امتحان، فإن في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ) فلا يغرنكم الإمهال ولا تلهينكم الآمال والأشكال والجمال والأموال وحسن الحال عن الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وأيضاً فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذاتها العاجلة،

فتعملون لها وتعمرونها وما فيها من متاع وهو وشهوات ومشاكل كثيرة، وتنسون الآخرة التي أنتم إليها قادمون، وعن الدنيا مغادرون مودعون كقوله (أَهْلَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) النكاثر/١-٢ (فَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ وَالْعُمْرُ فِي إِذْبَارٍ فَسِرْعَانَ الْمُتَلَقَى) عن الإمام علي (ع) (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) تنبيه الخواطرص/٤٦١، والخطر الثاني: (وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) الغرور: مصداقه الواضح هو الشيطان الخدوع الماكر فهو أخبث العاوين، الذي يغرّ الخلق ويمتئهم بوساوسه التي ظاهرها يسرّ ويعزّز وباطنها يضمرّ، ويلهبهم عن الآخرة كقوله (يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) النساء/١٢٠، أي (وَلَا يَغُرُّكُمْ) ولا يخدعنكم بالله تعالى الشيطان الخداع بأن يمنيكم بالمغفرة فيجرتكم على الذنوب ويغريكم بالمعاصي، وتنصرفوا عن رحمة الله سبحانه إلى نعمته، حتى تخونه الدنيا بغرورها ونفسه بجبانها، ولا عاصم من وساوس الشيطان إلا بالتمسك بمنهج الرحمن وحده، كقوله (وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١، (وَالْغُرُورُ) هو كل شيء يغرّك ويخدعك حتى تعصي الله تعالى.

والغرور: هو كل متاع يُلهي أو شغل ينسي أو جمال يغري ويخدع أو شيطان خداع يوسوس في صدور ويدفعك إلى الفساد، والشيطان أنواع وألوان: الغرور بالمال شيطان، والغرور بالعلم شيطان، والغرور بالعمر شيطان، والغرور بالقوة شيطان، والغرور بالسلطة والجاه شيطان، ونوازع النفس الأمارة بالسوء ودوافعها مدخل الشيطان، والهوى والأنا شيطان، ونزوة الشهوات واللذات المحرّمة شيطان، والعاصم في كل غرور تقوى الله والإيمان باليوم الآخر. والغرور: هو إيهام النفع وهو في حقيقته ضرر واشتباه وخداع ومكر وبلاء يدفع إلى الشر والفساد، ويطلق الغرور أيضاً على كل شيء يكون سبباً لغرور الإنسان وخداعه من مال وجمال وحسن حال وجاه وشهوة، وفي الحديث (الْكَيْسُ الْمَتْرَنُ) مَنْ دَانَ (حاسب) نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي) البحار ٧٠ص٧٠، سئل الإمام علي (ع) أي الناس أثبت رأياً؟ قال (مَنْ لَمْ يَغُرَّهُ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ تَغُرَّهُ الدُّنْيَا بِتَشْوِيقِهَا) كنز الدقائق ٥٢/٨.

٣٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَمْرٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

في الآية السابقة قوله (إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا) ليؤكد وعده هنا بعلمه سبحانه بهذه المغيبات ودلالاتها الواسعة، وهذه الآية من مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها، (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الأنعام/١٠١ وهي خمس عن النبي (ص) (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله وتلا هذه الآية) عن أئمة الهدى (ع) (أن هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غير الله تعالى) مجمع البيان/٨١٠٥، لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأن علم الله سبحانه لا يبلغه

الإحصاء، وأن الله أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن كقوله (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) الأنعام/٨٠، وقد يطلع الله عباده المرسلين على كثير من الأمور الغيبية، ويُفَوِّي حدس المؤمن فينظر بنور الله، ويُفَوِّي وعي الإنسان ويُكَبِّر عقله وفكره فيعلمه ما لم يكن يعلم، فيجعله يخترع أو يكتشف شيئاً جديداً، كقوله (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الجن/٢٦، وقوله (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق/٥ عن الإمام علي (ع) (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الدَّرَّةِ وَجَرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا) الكاشف/٦/١٧٤ وخصَّ سبحانه هذه الأشياء الخمسة بالذكر، كذكر الخاص بعد العام، وهو يصوِّر علم الله الشامل الكامل، وقصور الإنسان المحجوب عن عالم الغيوب.

المعنى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِشَكْلِ خَاصٍ وَقْتُ الْقِيَامَةِ الْكَبْرَى عِنْدَ حَشْرِ كُلِّ النَّاسِ لِلْحِسَابِ، أما وقت القيامة الصغرى الخاصة فتحصل عند موت كل إنسان، عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان/٣/٢٢، وعنه (ص) (يُبْعَثُ الْمَرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خير/٤٢٧٢٢، وقد جعل الله (عِلْمُ السَّاعَةِ) غيباً لا يعلمه إلا الله عز وجل، وحجبه عن جميع خلقه حتى الأنبياء والملائكة ليقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم واستعداد دائم، وهم لا يعلمون متى تأتي ساعتهم وأجلهم فقد تأتيهم بغتة في أية لحظة، وتكون لحظة حاسمة، وخير الزاد فيها التقوى، يوم النشأة الآخرة هي يوم القيامة، سلسلة منتظمة ومرتبطة مع سلسلة يوم النشأة الأولى المنتظمة أيضاً وبينهما حلقات اتصال، فلا يمكن أن نؤمن بيوم النشوء ولا نؤمن بيوم النشور، والذي أنشأ الإنسان من لا شيء، سوف يعيده مرة ثانية بقدره العليّ القدير كقوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الأعراف/٢٩ وقوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) الأعراف/١٨٧.

سئل النبي (ص) متى الساعة؟ فقال (ما أعددت لها)؟ (وَيُنزَلُ الْغَيْثُ) ويعلم وقت نزول الماء من السماء وعلاماته وقدره وكميته، ومكان نزوله أي أن تظهر علاماته ودلائله، وفق حكمته يسوق السحاب إلى حيث يشاء ومتى يشاء كيف يشاء، كلمة (وَيُنزَلُ) بمعنى الإنزال أي أن القدرة على إنزال الغيث بقوانينه المعلومة تختص بالله تعالى لأن أسبابه التكوينية تنتهي إليه تعالى، وهذا لا يمنع أن يعمل الإنسان بالتجارب والبحوث والمقاييس العلمية والحسابية أن يعمل (المطر الاصطناعي) والسحاب الاصطناعي، ويعلم الإنسان وقت نزول الغيث عند حضور أسبابه وظهور دلائله، وهذا له تكاليف مادية عالية، وقد يستخدم الإنسان المفكر العلمي نفس النظام الذي يعمل به الله تعالى، كما يعلم الفلكيون وقت الخسوف والكسوف.

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

ويعلم سبحانه ما تحمله الأرحام كلها في أنثى الإنسان والحيوان، ويعلم في كل رحم من ذكر أم أنثى، وجميل أو غير جميل، سخي أم بخيل، صحيح أم سقيم، واحد أم أكثر وشقي أم سعيد، .. إلخ وما يكون لهذا المخلوق من حياة مقدرة وما له من رزق يضمن حياته إلى وقت مماته.

اختصاص الله سبحانه في هذا العلم كاختصاصه في أمر الساعة واختصاصه في كل علم، قد يعلم العلم الحديث نوع الجنين فهو تطوّر علمي مهم، ولكن لا يعلم ما سيكون عليه في مستقبل حياته كقوله (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) الرعد/٨، عن الإمام علي (ع) (فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا) تفسير الكاشف ٦ ص ١٧٥، فهو سبحانه كما يعلم ما في الأرحام كذلك يعلم مقدار الأرزاق ومقدار الأعمار ومقدار القوة والقدرة ومقدار العزة ومقدار الحياة.. إلخ والعلم بالجنين في بطن أمه يعني أن نعلم عنه كل خصائصه الجسمية من الجمال والكمال والنقص، ونعلم الصحة والمرض ونعلم القدرات الخاصة والملكات المتنوعة.. وهذا التفصيل لا يعلم به إلا الله تعالى، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) غائب عنها المستقبل البعيد والقريب، أي وما تعرف نفس ماذا يحدث لها غداً بمعنى المستقبل، فالإنسان لا يعلم بقاءه غداً فكيف يعلم تصرفه، وماذا سيصيبه؟ لذلك لا ينبغي التصديق والاعتماد على قارئ الحظ أو قارئ الكف أو أصحاب النبوءات المستقبلية!، عن النبي (ص) (مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَقَهُ فِيمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ) روح البيان ٧/١٠٥.

الإنسان كل يوم هو في شأن، وفي حالة معينة شاء أن أبي، فكل شيء حوله يتحرّك ويتغيّر باستمرار وهو جزء من ذلك التغيير العام، ومعنى هذا أن ما يحدث للإنسان في غده فهو من الغيب المحجوب، فلا يعلم ما سيلاقه بمستقبله من يسر أو عسر ومن صحة أو مرض ومن فرح أو همّ.. إلخ (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) وما تعرف نفس في أي مكان أو زمان أو بأي سبب يكون موتها، لأن الموت حق ولا ضابط له، فقد يأخذ الطفل الصغير والشاب المعاني ويترك الشيخ العليل الكبير في الحياة، ذلك التقدير وراء الستر السميكة المحجوب الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار. والأهم من الموت هو الاستعداد لما بعد الموت، وما يحدث له في قبره ولحده، وموقف العرض والجزاء والحساب وأهوالها (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) بكل شيء، وليس غيره بالعليم ولا بالخبير (عَلِيمٌ) مبالغ في العلم ويحيط بكل العلوم (خَبِيرٌ) بظواهر الأشياء وبواطنها، والخبير بما يعلم.

فائدة: ١- النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار والحجب المستقبلية عاجزة، ولكنها طموحة أن تتعلم ما لم تكن تعلم، وتدرك أن علمها محدود، كقوله (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء/٨٥، وأن وراء الستر والحجب الكثير مما لم يعلمه الناس، وقد أحاط العلم الحديث ببعض العلوم وغابت عنه وعن الباحثين علوم أخرى كثيرة، في نهج البلاغة الخطبة/١٢٨ (مختصر) أن علياً (ع) كان يوماً يخبر بحوادث المستقبل فقيل له: أتتحدث عن الغيب وتعلم به؟ فقال: لَيْسَ هُوَ بِعِلْمٍ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ) الأمثل ١٣ ص ٧٥، ٢- سؤال: هل يجوز تحديد نوع الجنين من ذكر أو أنثى؟ الجواب: إن الله كقوله (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) فلا ينص على تحديد

الجنين بالذات، ولا حرام بلا نص كقوله (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) الرعد/٨ وهكذا يعلم الله أن شجرة المشمش تحمل مشمشاً، وإذا لُقحت بالخوخ تحمل خوخاً، وأن كرمة العنب الأبيض تتحوّل إلى الأسود إذا لقحت به .. وهكذا لا شيء يحدث من خلقه تعالى إلا بعلمه وإرادته، سواء أكان ما يحدث بسبب الإنسان أم الطبيعة أم بكلمة (كُنْ فَيَكُونُ) فإذا علم الإنسان شيئاً، والله يعلمه مسبقاً، فتوافق العلمان، ولم يتعارض مع قوله (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) وهذا هو تطابق العلم الحديث مع القرآن الكريم.

وأخيراً نقول: اللهم اجعل القرآن لنا نوراً وهدى وموعظة ورحمة وشفاء ونجاة ومنطقاً في حياتنا وكافة تعاملاتنا، إنّ ربي سميع مجيب الدعاء.

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

وفي الختام نقول : بقوله (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ص/٦٧-٦٨ .

تمّ بعون الله (وَعِي الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرِ) لسورة لقمان، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل فله والمنّة، وبالحمد تتمّ الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ١٥/١/٢٠١٩م الموافق ١٥/ محرم الحرام/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

الخاتمة

قال تعالى : ﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ الأنعام/ ١١٥ .

تمَّ المجلد الثالث من (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) بعونه تعالى وتوفيقه ويحتوي : من الجزء (١٦-٢١) من القرآن الكريم، ويضم ١٣ سورة، من سورة مريم (١٩) إلى نهاية سورة لقمان (٣١)، من القرآن الكريم، ونستعين بالله العمل على تكملة بقية أجزاء القرآن الكريم، فإني أكتب هذا المنهج الحيوي للقرآن بقدري لا بقدره، وبمحتواي لا بمحتواه، وبمنطلقات قوله تعالى ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكويد/٢٧، ودوافعه خالصة لوجه الله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣ وأنا أدعو الله أن يعصمني من الزلل، ويسدّدني في القول والعمل.

وتمت كتابته بتاريخ (٢٠/٩/٢٠٢٠م الموافق ١/صفر/١٤٤٢هـ)

في العراق / بغداد - مدينة الكاظمية،

وآخر دعوانا ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس/١٠

بقلم الباحث مكي قاسم البغدادي

يُعْنَى بالدراسات القرآنية



مصادر البحث

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الشيخ مُجَدَّ عَبدَةَ/ شرح نهج البلاغة للإمام علي (ع)/ دار التعارف بيروت وغيرها.
- ٣- ابن أبي الحديد المعتزلي/ شرح نهج البلاغة/ طباعة طهران، وطباعة بيروت.
- ٤- الإمام زين العابدين (ع)/ الصحيفة السجادية الكاملة (زبور آل مُجَدَّ) مؤسسة النعمان بيروت.
- ٥- الشيخ أبو علي الفضل الطبرسي/ مجمع البيان في تفسير القرآن/ دار مكتبة الحياة بيروت.
- ٦- السيد مُجَدَّ حسين الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٣م.
- ٧- الإمام الفخر الرازي/ التفسير الكبير/ دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٣.
- ٨- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ مؤسسة البعثة بيروت ط ١ سنة ١٩٩٢م.
- ٩- مُجَدَّ جواد مغنية/ التفسير الكاشف/ دار العلم للملايين بيروت ط ٣ سنة ١٩٨١م.
- ١٠- الشيخ محسن قرائتي/ تفسير النور/ دار المؤرخ العربي بيروت ط ١ سنة ٢٠١٤م.
- ١١- السيد مُجَدَّ حسين فضل الله/ تفسير من وحي القرآن/ دار الملاك ط ٢ سنة ١٩٩٨م بيروت.
- ١٢- السيد مُجَدَّ تقي المدرسي/ من هدى القرآن/ الناشر مكتب المدرسي ط ١ سنة ١٤٠٧هـ
- ١٣- الأستاذ الشهيد سيد قطب/ في ظلال القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ ٨ مجلدات ط ٧ سنة ١٩٧١.
- ١٤- الأستاذ أحمد مصطفى المراغي/ تفسير المراغي/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ مكتبة مصطفى الحلبي بمصر، ط ٣ سنة ١٩٦٢م.
- ١٥- الإمام إسماعيل حقي البروسوي/ تفسير روح البيان/ دار الفكر سورية، لبنان.
- ١٦- بن كثير القرشي/ تفسير ابن كثير/ دار الأندلس بيروت ط ١ سنة ١٩٦٦م.
- ١٧- مُجَدَّ بن جرير الطبري/ تفسير الطبري/ دار المعارف بمصر.
- ١٨- الآلوسي البغدادي/ روح المعاني في تفسير القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ١٩- أبو القاسم الرمخشري الخوارزمي/ تفسير الكشاف/ دار المعرفة بيروت.
- ٢٠- د. مصطفى فرج/ التفسير المختصر للقرآن الكريم/ دار الهادي بيروت ط ٢ سنة ٢٠٠٧م.
- ٢١- مُجَدَّ السبزواري العزيزي النجفي/ إرشاد الأذهان إلى تفسير القرآن/ دار التعارف بيروت ط ٣ سنة ٢٠١٤.
- ٢٢- مُجَدَّ جواد مغنية/ التفسير المبين/ دار الكتاب الإسلامي بيروت/ ط ٢ سنة ١٩٨٣م.

- ٢٣- كمال مصطفى شاكر/ الميزان المختصر في التفسير/ ربط المعاني بروح العصر/ طباعة سورية.
- ٢٤- الشيخ أحمد مغنية/ خلاصة التفاسير في أوضح التعابير/ المكتبة الحديثة بيروت/ مقدمة الشهيد محمد باقر الصدر.
- ٢٥- محمد علي الصابوني/ صفوة التفاسير/ دار العلم العربي حلب/، دار النمير بدمشق ط ١٩٩٤م.
- ٢٦- أضواء على متشابهات القرآن/ الشيخ خليل ياسين/ بيروت سنة ١٩٦٩م
- ٢٧- مختصر خواطر محمد متولي الشعراوي/ حول آيات القرآن الكريم/ دار المعارف بمصر ط ٢، سنة ٢٠١٧ إعداد منى الهاشمي.
- ٢٨- عبد الكريم الخطيب/ التفسير القرآني للقرآن/ دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٧٠م.
- ٢٩- جمال الدين القمي الميرزا محمد المشهدي/ تفسير كنز الدقائق/ تفسير روائي مؤسسة النشر الإسلامي إيران جماعة المدرسين بقم.
- ٣٠- العلامة جمعة العروسي الحوزي/ تفسير نور الثقلين/ مطبعة الحكمة - قم - إيران ط ٢.
- ٣١- الفيض الكاشاني/ تفسير الصافي/ مؤسسة الأعلمي بيروت/ طباعة إيران.
- ٣٢- عبد الرحمان الدين السيوطي/ الدر المنثور في التفسير المأثور/ دار الفكر بيروت ط ١ سنة ١٩٨٣م.
- ٣٣- محمد باقر المجلسي/ بحار الأنوار الجامع لدرر الاخبار/ ط حديثة بيروت مؤسسة الوفاء.
- ٣٤- الراغب الاصفهاني/ معجم مفردات ألفاظ القرآن/ دار المعرفة بيروت/ تحقيق محمد سيد كيلاني.
- ٣٥- علاء الدين علي الهندي/ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ومكتبة التراث الإسلامي في حلب.
- ٣٦- ميرزا حسين النوري الطبرسي/ مستدرک الوسائل/ طبعة إيران المكتبة الإسلامية/ والمكتبة العلمية النجف.
- ٣٧- أبو محمد القوي المنذري/ الترغيب والترهيب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٣٨- الحر العاملي/ تحقيق عبد الرحيم الشيرازي/ وسائل الشيعة/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٣٩- أبو جعفر الكليني الرازي/ الكافي/ صححه علي أكبر الغفاري/ دار التعارف بيروت ط ٣.
- ٤٠- ابن عبد الواحد التميمي الآمدي/ غرر الحكم ودرر الكلم للإمام علي (ع)/ ط إيران/ دار الصفوة بيروت سنة ٢٠٠٩.
- ٤١- المحمدي الري شهري/ ميزان الحكمة/ جمع روائي/ مكتبة الاعلام الإسلامي حوزة قم إيران.
- ٤٢- محمد فؤاد عبد الباقي/ معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ دار الأندلس بيروت.
- ٤٣- الحسن بن شعبة الحراني/ تحف العقول/ مؤسسة النشر الإسلامي إيران.
- ٤٤- الشيخ عباس القمي/ سفينة البحار/ ط إيران.
- ٤٥- الشيخ عباس القمي/ مفاتيح الجنان المعرب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

- ٤٦ - مُجَّد بن مرتضى الكاشاني/ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٢م.
- ٤٧ - الشيخ مُجَّد باقر المحمودي/ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، مطبعة النعمان النجف ط ١ سنة ١٩٦٨.
- ٤٨ - ابن عساكر/ تاريخ دمشق/ ترجمة ومكتبة الإمام الحسين (ع).
- ٤٩ - السيد أبو القاسم الخوئي/ تفسير البيان/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٣/ سنة ١٩٧٤م.
- ٥٠ - السيد عبد الأعلى الموسوي السيزواري (مواهب الرحمن في تفسير القرآن)/ منشورات دار التفسير/ إيران - قم ط ٥ سنة ٢٠١٠م.
- ٥١ - ما أملاه الإمام الصادق (ع) للمفضل/ توحيد المفضل/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٥٢ - أبو علي الفضل الطبرسي/ الاحتجاج/ مطبعة النعمان النجف.
- ٥٣ - عبد الله الأنصاري القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة أوفسيت.
- ٥٤ - أبو الفضل بن منظور الأفريقي المصري/ لسان العرب/ دار صادر بيروت.
- ٥٥ - د. حيد علي نعمة و د. أحمد علي نعمة/ المعجم القرآني/ دراسة معجمية لأصول الفاظ القرآن الكريم (الجذر اللغوي للمصطلح القرآني، ومعاني الكلمات) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجامعة العراقية سنة ٢٠١٣م، مطبعة السيماء، ط ١ - بغداد - شارع المتنبي.
- ٥٦ - الشيخ المفيد/ الأمالي/ جماعة المدرسين/ الحوزة العلمية بقم.
- ٥٧ - صحيح مسلم/ شرح النووي/ إحياء التراث العربي بيروت ط ٢.
- ٥٨ - لبيب بيضون/ تصنيف نهج البلاغة/ دار أسامة كرم دمشق/ توزيع دار القلم بيروت.
- ٥٩ - وغيرها من المصادر الأخرى التي لم أذكرها لقلّة استعمالي لها.

وآخر دعوانا ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس/ ١٠



فهرس



(وَعِي الْقُرْآنِ الْمُيسَّر)

المجلد الثالث

من سورة مريم (١٩) إلى نهاية سورة لقمان (٣١)

من جزء (١٦ - ٢١) من أجزاء القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧

الصفحة		الموضوع					
٤		السيرة الذاتية المختصرة للكتاب					
الصفحات	من	الجزء من القرآن وعدد الآيات	عدد آياتها	رقمها وترتيبها	نزولها	اسمها الآخر	اسم السورة
٤٧	٧	الجزء ١٦	٩٨	١٩	مكية	كهيعص	سورة مريم
١٠٢	٤٧	الجزء ١٦	١٣٥	٢٠	مكية	سورة الكليم سورة موسى	سورة طه
١٧١	١٠٢	الجزء ١٧	١١٢	٢١	مكية		سورة الأنبياء
٢٣٣	١٧١	الجزء ١٧	٧٨	٢٢	مدنية		سورة الحج

٣٠٠	٢٣٣	الجزء ١٧	١١٨	٢٣	مكية	سورة الفلاح	سورة المؤمنون
الصفحات		الجزء من القرآن وعدد الآيات	عدد آياتها	رقمها وترتيبها	نزولها	اسمها الآخر	اسم السورة
إلى	من						
٣٦٩	٣٠١	الجزء ١٨	٦٤	٢٤	مدنية	الستر والعفاف جمهرة العلوم	سورة النور
٤١٩	٣٦٩	الجزء ١٨- و الجزء ١٩	٧٧	٢٥	مكية	تبارك الفرقان	سورة الفرقان
٤٨٠	٤١٩	الجزء ١٩	٢٢٧	٢٦	مكية	سورة طسم الجامعة	سورة الشعراء
٥٣٩	٤٨٠	الجزء ١٩- و الجزء ٢٠	٩٣	٢٧	مكية	سورة المهدد سورة سليمان	سورة النمل
٦٠٥	٥٣٩	الجزء ٢٠	٨٨	٢٨	مكية		سورة القصص
٦٦٦	٦٠٦	الجزء ٢٠ - الجزء ٢١	٦٩	٢٩	مكية		سورة العنكبوت
٧١٧	٦٦٧	الجزء ٢١	٦٠	٣٠	مكية		سورة الروم
٧٥٥	٧١٧	الجزء ٢١	٣٤	٣١	مكية		سورة لقمان

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠



فهرس



(وَعِي الْقُرْآنِ الْمُسَرِّ)

المجلد الثالث

من سورة مريم إلى نهاية سورة لقمان
من جزء (١٦ - ٢١) من أجزاء القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران/١٣٨

الصفحة	الموضوع	
٤	السيرة الذاتية المختصرة للكتاب	-
	من مباحث آيات سورة مريم ١٩ / مكية / آياتها ٩٨ / الجزء السادس عشر	
١١	١٢ قوله (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ...) من معاني القوة الحزم والعزم والجزم	-
١٦	٢٥ قوله (وَهَرَمِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ...) هز الجذع، معناه الأخذ بالأسباب	-
٣٥	٦٩ قوله (مَنْ لَنْزِعَةٍ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْبُهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) لناخذن الأشد طغياناً وظلماً فنبداً بحسبهم	-
٣٥	٧١ قوله (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ...) معنى الورود الاقتراب من النار	-
٣٧	٧٥ قوله (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ...) مخاطر إمهال الله للعاصي، والاستدراج له	-
٣٨	٧٦ قوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ...) أنواع الخيرات التي يبقى ثوابها	-

		ومنافعها للناس (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ...)	
٤٠	٨١	قوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) من اعتر بغير الله ذل في عاقبته	-
٤٥	٩٦	قوله (إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) رابطة محبة، وجاذبية مودّة خفيّة	-
٤٦	٩٧	قوله (فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ لِبِلسَانِكَ...) سهّلنا حفظ القرآن وحمله واستنطاقه	-
		من مباحث آيات سورة طه ٢٠ / مكية / آياتها ١٣٥ / الجزء السادس عشر	
	الآية	الصفحة	
٥١	٨	قوله (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) الحسنى في لفظها ومعناها وتأثيرها	-
٥٣	١٥	قوله (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...) فلسفة يوم القيامة	-
٥٧	٢٨	قوله (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي) الأبعاد القرآنية لمفهوم العقدة واللكنة	-
٦١	٤١	قوله (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) الإعداد للقدوة والقيادة النموذجية الخاصة	-
٧١	٧٢	قوله (قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...) المؤمن أشد من الحديد	-
٧٦	٨١	قوله (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ...) لا تحملنكم سعة النعم على العصيان	-
٧٧	٨٢	قوله (وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) والله غفار بشروط أربعة	-
٧٨	٨٥	قوله (وَأَصْلُهُمُ السَّامِرِيُّ) (إن لكل قوم سامرياً) رمز الضلالة والإضلال	-
٨٢	٩٧	قوله (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ...) كيف عالج القائد موسى رأس الفتنة وأحمد فتيلها	-
٨٣	٩٩	قوله (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا، مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ...) من يُعرض عن نور القرآن يقع في ظلمات العصيان والطغيان	-
٨٧	١١١	قوله (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقِيَوْمِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) خضعت الخلائق كلها لجبارها يوم القيامة	-
٨٨	١١٢	قوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) الإيمان والعمل الصالح أهم سبل النجاة	-
٨٩	١١٤	قوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) قليل العمل ينفع مع العلم، والعلم بؤابة لتنامي الحياة	-
٩٥	١٢٤	قوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا...) مظاهر حياته تعزّ وتسرّ وتمرّ وباطنها يضرّ	-

الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة الأنبياء ٢١/مكية/ آياتها ١١٢/الجزء السابع عشر
١٠٣	١	قوله (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وصف الحساب بالقرب لأنه كل مقدر كائن، وكل كائن آتٍ، وكل آتٍ قريب..
١٠٧	٧	قوله (فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أهل الذكر: (أهل الاختصاص) الحاملين رسالة الله بأمانة وكفاءة
١١٢	١٨	قوله (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ...) الأهداف السامية لخلق العالم بالحق
١١٥	٢٢	قوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...) واختل النظام العام للكون
١١٩	٣٠	قوله (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...) وفصل بينهما، وجعل لكل منهما أنظمة بالغة الدقة والاتقان
١٣٠	٤٧	قوله (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ...) الموازين هي موازين القرآن والسنة
١٣٢	٤٩	قوله (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ...) هم الذين يتحسسون بقرب مقام الله منهم
١٤٣	٧٣	قوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...) إعداد القيادة الصالحة ضرورة حياتية
١٦٥	١٠٥	قوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) إنها حقيقة لا بد من تحقيقها
١٦٧	١٠٧	قوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) البعد العالمي للرسالة الإسلامية
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة الحج ٢٢/مدنية/ آياتها ٧٨/الجزء السابع عشر
١٧٣	٣	قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...) الجدال المذموم، الذي يضر ولا ينفع
١٧٥	٥	قوله (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...) المنهج المتكامل لفلسفة الخلق
١٨٠	١١	قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ...) يعبد الله على جهل ومصالحة وشك
١٩٠	٢٥	قوله (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ) علاقة الإلحاد بالظلم
١٩٢	٢٧	قوله (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...) فلسفة الحج، من أركان الإسلام
١٩٧	٣٢	قوله (ذَٰلِكَ وَمَن يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) الشعائر الله: من الله، ومع الله، وإلى الله
١٩٨	٣٤	قوله (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا...) كل أمة من الأمم تعرف مناسكها وطريقة عيشتها

٢٠١	٣٨	قوله (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ...) يدافع عنهم بالتسديد والتأييد	-
٢٠٦	٤١	قوله (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ...) هؤلاء عندهم السلطة والمركز الاجتماعي لخدمة الناس ونهضتهم وطاعة ربهم	-
٢١٩	٦٢	قوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) الله هو أصل الحق ومنه الحق ويدعو إلى الحق	-
٢٢٥	٧٣	قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ...) الإنسان عاجز أن يخلق خلية حية واحدة لا ترى بالعين المجردة	-
٢٢٩	٧٨	قوله (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...) الإسلام: الشريعة السهلة السمحة	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة المؤمنون ٢٣/مكية/ آياتها ١١٨ / الجزء السابع عشر	
٢٣٤	١١-١	قوله (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) عوامل فلاح المؤمن في المنظور القرآني	-
٢٤٩	٣٠	قوله (وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) الابتلاء ضرورة حياتية (البلاء على قدر الطباع)	-
٢٥٤	٤٣	قوله (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ...) موت الأمم وأجلها، عوامل نهضة الحضارات وتساقطها	-
٢٦٠	٥٣	قوله (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ...) تعمدوا في تمزق وحدة الدين	-
٢٦٩	٧١	قوله (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) ولو نزلت الأديان على ما يشتهون، لعمت الفوضى	-
٢٨٥	٩٦	قوله (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ...) لا ترد الخطأ بالخطأ حتى تعالجه	-
٢٩٥	١١٥	قوله (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ...) العبث لا يقبله العاقل لنفسه، فكيف نقبله لله تعالى (حقيقة يوم القيامة)	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة النور ٢٤/مدنية/ آياتها ٦٤ / الجزء الثامن عشر	
٣٠٤	٣	قوله (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ...) الخلط بين الزنا والزواج المؤقت	-
٣١١	١١	قوله (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ...) حديث الإفك ومخاطب الاتهام	-
٣٢٣	٢٦	قوله (الْحَبِيبَاتُ لِحَبِيبَاتٍ وَالْحَبِيبُونَ لِلْحَبِيبَاتِ ...) الطيور على أشكالها تقع	-
٣٢٩	٣١	قوله (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ...) آية العفة والتستر والحجاب	-
٣٣٣	٣٣	قوله (وَلَيْسَتَعَفِيفِ الدِّينِ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ...) الاستعفاف: تهذيب الشهوة	-
٣٣٥	٣٥	قوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...) الله نور بذاته ومنور لغيره	-
٣٥٤	٥٥	قوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي	-

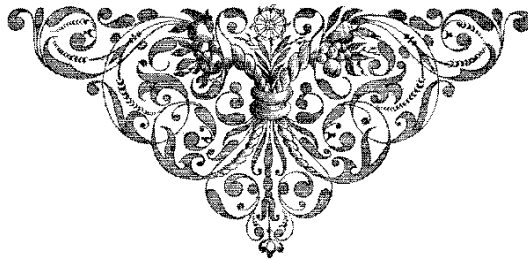
		الأرض... آية الاستخلاف حقيقة مؤكدة	
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة الفرقان ٢٥/مكية/ آياتها ٧٧/الجزء الثامن عشر	
٣٧٠	١	قوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) المنهج العلمي للقرآن	-
٣٨١	٢٣	قوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) لا قيمة لأعمال المجرمين عند الله تعالى	-
٣٨٨	٣٠	قوله (إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) مخاطر هجر القرآن	-
٣٩٤	٤٣	قوله (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...) يكون هواه هو قائده وربه ومولاه	-
٤٠٩	٦٣	قوله (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...) صفات المرضيين عند الله	-
٤١٨	٧٧	قوله (قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...) أهمية الدعاء والصلة بالله تعالى	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة الشعراء ٢٦/مكية/ آياتها ٢٢٧/الجزء التاسع عشر	
٤٣٢	٥٠	قوله (قَالُوا لَا صَبِيرًا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) تأثير الحقيقة أكبر من تأثير الجاه والمال والسلطان	-
٤٣٦	٦٧	نظرة في سبب التكرير في القصص القرآني	-
٤٤٠	٨٠	قوله (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) أسند المرض إلى نفسه، وأسند الشفاء إلى الله	-
٤٤٤	٨٩	قوله (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهُ بَقَلْبٍ سَلِيمٍ) تُعْنَى التَّزْيِينُ الْقُرْآنِيَّةُ بِالْقَلْبِ السَّلِيمِ	-
٤٦٥	١٨٣	قوله (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) بحس حقوق الناس يؤدي إلى الفساد في الأرض	-
٤٦٨	١٩٢	قوله (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) نزل القرآن بعلم الله، فتعلموا منه ولا تعلموه	-
٤٧٢	٢١٣	قوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) التوحيد حياة النفس، والشرك اضطراب القلب	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة النمل ٢٧/مكية/ آياتها ٩٣/الجزء التاسع عشر	
٤٨٤	٦	قوله (وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) القرآن منهج حياة متكامل	-
٤٨٨	١٤	قوله (وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...) أنكروا الخوارق بألستهم، واستيقنوها بقلوبهم، ولكن طغى استكبارهم على قلوبهم!	-
٥٠١	٣٥	قوله (وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِحُدُودِهِ...) كانت رجاحة عقل ملكة سبأ أكبر من	-

		عقول رجال حكومتها!	
٥٠٣	٤٠	قوله (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...) كيف نفهم هذه الحارقة؟	-
٥١٦	٦٢	قوله (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ...) المضطر تستنفر كل أحاسيسه فينقطع إلى الله بصدق	-
٥٢٨	٨٠	قوله (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتَى...) المستكبر على الله وعلى منهجه، ميت بين الأحياء	-
٥٣٤	٨٨	قوله (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) إتقان الصنع يدل على قدرة الصانع	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة القصص ٢٨/مكية/ آياتها ٨٨/الجزء العشرين	
٥٤١	٥	قوله (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً...) الاستضعاف مقدمة الاستخلاف	-
٥٧١	٥٤	قولك (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا...) بالصبر تدرك الرغائب	-
٥٧٢	٥٥	قوله (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...) إن الله يحب معالي الأمور ويكره توافها	-
٥٧٣	٥٦	قوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...) الهداية من الله، وأسبابها من الإنسان	-
٥٨٣	٦٨	قوله (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...) الله يخلق كل شيء، ولا أحد يستطيع أن يخلق أي شيء حي، ما كان لهم الاختيار	-
٥٨٩	٧٥	قوله (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...) اختيار الشهيد ليشهد على واقعه الحاضر فيه	-
٥٩٠	٧٦	قوله (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...) كبرياء قارون بثرائه، وسوء مصيره	-
٥٩٢	٧٧	قوله (وَإِنِّي فِيمَا اتَّكَأَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...) التوازن بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة	-
٥٩٩	٨٣	قوله (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ...) الفائز بالآخرة لمن سعى سعيها، واستعد لها	-
٦٠١	٨٥	قوله (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) العلاقة بين فرض القرآن والوعد الصادق بالمعاد	-
الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة العنكبوت ٢٩/مكية/ آياتها ٦٩/الجزء العشرين	
٦٠٦	٣-٢	قوله (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) حقيقة الابتلاء، وضرورة الامتحان	-
٦١١	٦	قوله (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ...) كقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ	-

		وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) فصلت/٤٦	
٦١٤	١٠	قوله (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ...) الذي لا يفهم فلسفة الحياة وضرورة دين الله، يتخبط بالتصرف	-
٦٣٤	٤١	قوله (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا...) تقريب الحقيقة للأذهان بضرب الأمثال	-
٦٣٨	٤٥	قوله (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...) (الصلاة ميزان: فمن وثق، استوفى)	-
٦٤٤	٤٨	قوله (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ...) تقرر الآية أمية الرسول (ص)	-
٦٤٥	٤٩	قوله (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...) القرآن محفوظ في الصدور	-
٦٥٠	٥٦	قوله (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) حددت الآية الهدف المطلوب هو العبادة، وأطلقت الوسائل للوصول إليه	-
٦٥٩	٦٤	قوله (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ...) الحيوان: مبالغة الحياة ومضاعفتها	-
٦٦٤	٦٩	قوله (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...) بمقدار ما تعطي الله وما ينفع الناس يفتح الله عليك من رحمته	-
		من مباحث آيات سورة الروم ٣٠/مكية/ آياتها ٦٠/الجزء الحادي والعشرون	
٦٦٩	٧	قوله (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ	-
٦٨١	٢١	قوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...) النظرة القرآنية المتألفة لمفهوم وحدة النفس التي تعطيك وحدة السكن	-
٦٩٣	٣٢	قوله (مَنْ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا...) ويل لمن طلب الدنيا بالدين	-
٧٠١	٤١	قوله (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...) أصبح الفساد ظاهرة اجتماعية عامة، (ودوام الحال من المحال)	-
٧٠٤	٤٤	قوله (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ) الإنسان هو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي	-
٧٠٧	٤٧	قوله (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ينصر الله المؤمنين بمقدار ما ينصروا الله	-
٧١٤	٥٨	قوله (وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...) لقد بينا للناس فأغنياهم في البيان فصار كالأمثال	-

الصفحة	الآية	من مباحث آيات سورة لقمان ٣١/مكية/ آياتها ٣٤/الجزء الحادي والعشرون
٧٢٠	٦	قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...) من الناس من يشتري بأي ثمن كل ما يُلهي عن الخير والإيمان
٧٢٣	١١	قوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ...) الآية تحت على التفكير في عجائب خلق الله، في التفكير حياة القلوب
٧٢٦	١٣	قوله (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لماذا الشرك ظلم عظيم؟ لأن الشرك يُصغر الله، ويُعظم من دونه
٧٢٧	١٤	قوله (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...) لحفظ بناء الأسرة على الشرف والعفة وحفظ الأنساب
٧٣١	١٧	قوله (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) بالصبر تدرك معالي الأمور
٧٣٨	٢٢	قوله (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) ومن يخضع لأمر الله مع رغبته بالعبادة والعلم، فقد تعلق بقاعدة قوية
٧٤١	٢٧	قوله (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ...) تشبيه لقدرة الله المطلقة لتقريبها لعقول الناس المحدودة
٧٤٤	٢٨	قوله (مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نُحْيِيكُمْ إِلَّا كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...) ما خلق كل النفوس ولا بعثها للحساب بعد الموت إلا كخلقة نفس واحدة وبعثها بعد الموت ومحاسبتها!

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠



السيرة الذاتية (المختصرة) للباحث مكي قاسم البغدادي

مواليد: ١٩٥٥ بغداد

الجنسية: عراقي

هاجر إلى خارج العراق في ظروف إرهابية سنة ١٩٨٠م

التحصيل العلمي: خريج معهد الإدارة / الرصافة / قسم المحاسبة / بغداد سنة ١٩٧٨

درس في جامعة الاوزاعي في بيروت / الدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٧.

الاختصاص: يُعنى بالدراسات القرآنية.

مؤلفاته

- ١- موسوعة الثقافة الاستشهادية (الشهادة تأصيل لاستئصال) دراسة موضوعية معاصرة للنظرية الاستشهادية في المنظور الإسلامي، تتألف من أربعة مجلدات فنية مطبوعة، عدد صفحاتها (٢٢٠٠) صفحة، طبعت سنة ١٩٩٣م، الدار الإسلامية بيروت.
- ٢- أهداف القرآن في أم الكتاب/ دراسة سورة الحمد، تحتوي على جزأين في مجلد في واحد، مطبوع في سنة ٢٠٠٨م، في سوريا، دمشق تضم ٨٥٠ صفحة، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، (سورة الحمد ميزان: فمن وفى، استوفى).
- ٣- دراسة سورة العصر، سبل النجاة من الخسران، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، تضم ٢٤٠ صفحة، طبعت سنة ٢٠٠٨م، دار ضحى للطباعة والنشر في سوريا، دمشق.
- ٤- السكن الزوجي المتكافئ، في المنظور القرآني الفريد، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، يبحث عن فلسفة السكن الزوجي، القاعدة الأساسية في الحياة الزوجية.
- ٥- وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرُ، الفهم الحيوي للقرآن، وهو دراسة معاصرة واعية لفهم النص القرآني بصورة ميسرة ومؤثرة، محرقة للمشاعر، على قاعلة خير الكلام ما قلّ ودلّ ولا يملّ، ولا يبتعد عن القصد، ويعتمد المنهج العلمي للقرآن (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ويعتمد الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، طبع في دار بساتين المعرفة في بغداد، شارع المتنبي، يضم أربعة مجلدات فنية، سنة الطبع ٢٠١٩ ط الأولى.
- ٦- منهج الوصية الشخصية الهادفة، من نظام التكافل في الإسلام.

٧- القِوَامَةُ جَدَلِيَّةٌ بَيْنَ زَوْجَيْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) النساء/٣٤، دراسة قرآنية تحليلية معاصرة، مفهوم إدارة الأسرة بصورة عادلة وكفوءة ومتألّقة، على قاعدة (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء/١٩.

٨- ساهمت في كتابة بحوث قرآنية ومقالات تربوية في عدة صحف ومجلات متنوعة.

٩- شاركت في عدة مؤتمرات علمية ومحلية، ومهرجانات وجمعيات ومنتديات ثقافية، وندوات إسلامية حوارية.

١٠- المنهج العلمي للقرآن، يتناسب معه الخطاب العالمي، ألقى البحث في مؤتمر جامعة الكوفة سنة ٢٠١٣، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر (القرآن وقضايا العصر).

١١- الإمام الكاظم (ع) ونظام الأولويات، ألقى البحث في مؤتمر الإمامين الكاظم والجواد (ع) السنوي الثاني سنة ٢٠١١، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٢- حدود الرخصة الشرعية في تعاون المستضعفين مع الحكومة المستكبرة، بين قواعد الحكم القرآني والسيرة الحركية للإمام الكاظم (ع)، ألقى البحث في المؤتمر الثالث الدولي، الإمام الكاظم (ع) مصدر عطاء خالد للإنسانية سنة ٢٠١٢، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٣- إشكالية الهداية بين القول والعمل، ألقى البحث في مؤتمر العودة إلى القرآن، في سوريا- دمشق سنة ٢٠١٤، ونُشِرَ في مجلة البصائر الثقافية.

١٤- أسلوب البحث يتقدّم على مادة البحث، ألقى البحث في مؤتمر الوحدة الإسلامية في إيران، طهران سنة ١٩٩٣، نشر في مجلة الثقّلين.

١٥- أعمل معدّ برامج في إذاعة الخالدون

- البرامج الثابتة ثلاثة:

١- برنامج في الشهادة حياة

٢- برنامج أنواع النفس في القرآن الكريم

٣- برنامج (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

- وبرامج مختارة غير ثابتة حسب المناسبات في الإذاعات والقنوات الفضائية...

وآخر دعوانا (أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبة دار البغدادى

فلا تعان
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْعَقْبُ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُكِيلٍ ﴾
نور ١٠٠/١



عن رسول الإنسانية محمد ﷺ
(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مَادُبَةُ اللَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَادُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ)



في هذا الكتاب

الحمد لله الذي أنزل القرآن بالحق

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ^(الأنعام: ١٠٥)

(وَتَرَكْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيْبَاتًا يَكْفِي شَيْئًا) ^(النحل: ١٠٤) وجعله شفاة لما في الصدور

وهدي ورحمة للمؤمنين ، ومنهاجاً صالحاً نموذجياً للعالمين ودستوراً هادياً للبشرية أجمعين

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) ^(البقرة: ١٦٥)

الهداية : أرقى درجات العلوم ، وأحسن نعمة لأستقرار النفوس ، وبها يحسن الاستبصار ، والقرآن

كتاب هداية للناس أجمعين (هُدًى لِلنَّاسِ) ^(البقرة: ١٢٩) ، وكتاب هداية خاصة للنخبة (هُدًى لِمُتَّقِينَ) ^(البقرة: ١٢٩)

(إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ^(البقرة: ٢٧) فإذا كان ربنا هو رب العالمين ، ونبينا رحمة

للعالمين ، وقرآنا منهج للعالمين ، فصار المرسل والرَسُول والرسالة كلها علمية ، والقرآن قد

اعتمد المنهج العلمي ليصبح دستوراً للناس أجمعين ، فلماذا نعيش نحن المذمومة المحدودة ؟.

الفهم الحيوي للقرآن الكريم : هو أسلوب الحياة ويعت على الحياة ، وبذلك يتجنب التفسير

في النفوس . (وَلَقَدْ يَنْشُرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ) ^(البقرة: ٢٧) الحاجة الحضارية لتفسير

معاصر يُيسر للقرآن الكريم . فإذا كان القرآن نصاً يُيسر لكل الناس . فالمطلوب والمرغوب

أن يكون تفسيره يُيسر أيضاً لكل الناس ، يُيسر في معناه عميقاً في مغزاه دقيقاً في دلالاته

فهل من مُتدكِر؟ هنا تفسيرٌ ذو موضوعية واعتدال مستوعب للمعنى القرآني المهم ، سهل

الفهم ذو حيوية فكرية محرّكة للمشاعر بعيداً عن الغموض والتطرّف ، يعتمد الدلالة العقلية

الواعية والنقلية الواقعية ، التي تتوافق مع منهج القرآن .

هذا التفسير يُيسر ولا يُنفر يُوحّد ولا يُفرق يُحَبِّب ولا يُكره فيُحقق وحدة الدين القيم ،

وإخلاص القلوب إلى الله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ) ^(البقرة: ٢١٣)

هذا هو المنهج القرآني الوسطي المعتدل الذي يتناغم مع الروح ويتسجم مع العقل

من حيث النهضة العلمية والحضارية والقرآنية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) ^(البقرة: ١٤٣)

يعتمد التفسير ذكر

الإشارات العلمية والفوائد النافعة في محلها المناسب.

أخوكم مكي قاسم البغدادي